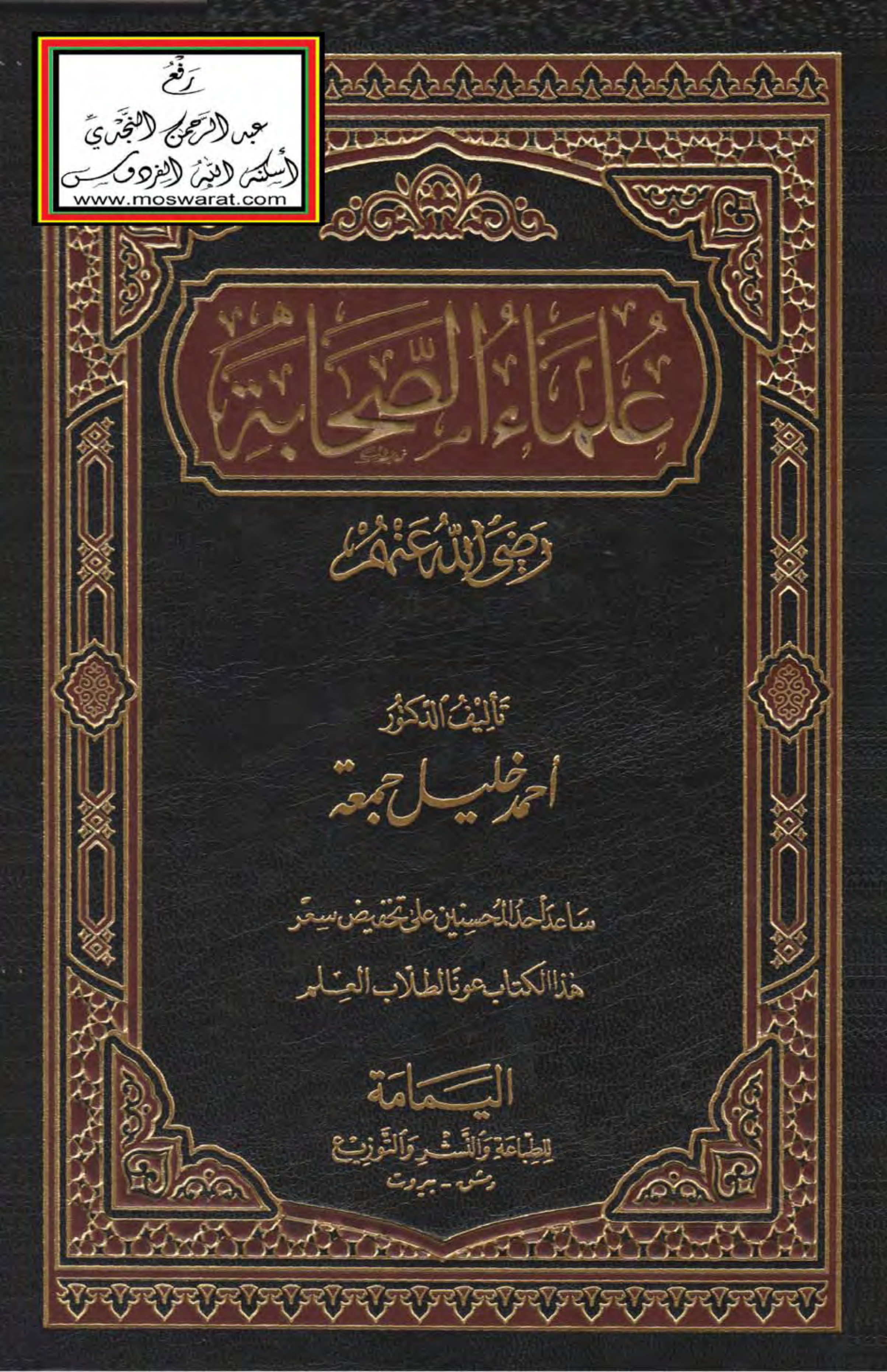


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
علماء الصحابة
رضوان الله عنهم
تأليف الدكتور
أحمد خليل جمعة
ساعد أحد المحسنين على تخفيض سعر
هذا الكتاب عونا لطلاب العلم
اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



بسم الله الرحمن الرحيم
الإهداء
إلى معلم الناس الخير
سيدنا وحبيبنا
محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم
أهدي هذا الكتاب
أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

محبّة الهادي وصحبه

جَمعتَ العِلمَ والأدَبا ... فنِلتَ المجدَ والرُّتَبا

وصِرتَ بعصرِنا عَلَماً ... يُحاكي في العُلا الشُّهُبا

وَهبتَ الخيرَ إحسانًا ... فأكرِمْ بالّذي وَهَبا

كتاباتٌ مُنسَّقةٌ ... بِها الإبداعُ ما نَضَبا

على أرواحِنا انسكبَتْ ... كَسِحْرٍ هدْهدَ العَصَبا

ألوذُ بأحمدٍ حُبّاً ... فأكشِفُ صاحباً ذَهَبا

وأرشفُ ماءَهُ نَبعاً ... زُلالاً بالتُّقى عَذُبا

وأسمعُ شدوَهُ لحناً ... أميلُ لحُسنِه طرَبا

أديبَ العُرْبِ والمولى ... يبارِكُ نهجَكَ الحَبِبا

رُزقتَ محبّةَ الهادي ... وصحباً سادةً نُجُبا

جلوتَ حياتَهم نوراً ... وذلّلتَ الّذي صَعُبا

فكانوا قدوةً مُثلى ... بهم صدرُ الهدى رَحُبا

ستبقى عالِماً فذّاً ... مدى السَّنواتِ ما تعِبا

سمَوْتَ بما كتبْتَ ولم ... تَرُمْ حسَباً ولا نسَبا

فما يرقى لِهمَّتِكم ... يَراعُ الفذِّ إنْ كتَبا

لكَ العُقبى بجنّاتٍ ... لِتَلقى خيرَ ما كُسِبا

الفكرة الأدبية للفنان: محمّد حسام الدين النابلسي
صاغها شعراً الأستاذ: محمّد محمود عثمان

مهداة إلى الأديب الدكتور أحمد خليل جمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة وعرض الكتاب

* الحمدُ للهِ الفتَّاحِ العليم ، الرّحمن الرَّحيم ، الذي حمدُه فاتحةُ كتابهِ الكريم ، وآخر دعوىٰ المتّقين في جنَّاتِ النعيم ، رفَعَ بالعلْمِ قَدْرَ طبقاتِ العُلَماء ، وجعلَهم السَّادةَ الأمراء :

إنَّ الأكابرَ يحكمون على الورَى وعلى الأكابرِ يحكمُ العُلماءُ

* أحمدهُ سبحانه علَّمَ القُرآن ، وجعَلَ للعلماءِ الشَّأْنَ الرَّفيعَ في الأكوان ، وأخصُّ منهم الصَّحابة الذين حظوا بالرضوان.

* اللهم أغنِنا بالعِلْم ، وزيّنا بالحِلْم ، ونوِّرْ قلوبَنا بالفهم.

* وصلّى اللهُ على النّبيِّ محمّد أفصحِ ناطق ، وأبلغِ صادق ، أرسلهُ اللهُ إلى كافَّةِ الخَلْق أجمعين ، وجعَلَه سيّد الأنبياء والمُرسَلين ، وآتاه الوسيلةَ والفضيلةَ والشَّفاعة يوم الدِّين ، وعلى أصحابهِ الذين نالوا بصحبتِه السَّعادة ، وعلّمُوا الدّنيا فكانوا هم السَّادة ، في دنيا السِّيادة ، ومضمار الرّيادة والقيادة.

* وبعد: إنَّ العلْمَ أنفسُ ما طلبَهُ الطَّالبون ، وأشرفُ ما رغبَ فيه الرَّاغبون ، وأعزُّ ما أُفْنِيتْ فيه الأعمار ، وقُضيتْ به أوقاتُ الليلِ وأطراف النَّهار ، يتشرَّفُ به اللبيبُ ، ويتحلّى به الأديبُ ، ويرتفعُ به قدرُهُ في أهلهِ ،

ويزدادُ به دونهم في نَيْلهِ ، ويبلغُ به أوفى الرّتب ، ويصيرُ إليه كالحسَب والنَّسب.

* وكنتُ ممَّن حَبَّبَ اللهُ إليهم العِلْمَ والعُلَماء ومطالعةَ المؤلّفات ، ومراجعة المصَادر والمجاميع والمصنَّفات ، من المختصرات والمتوسطات والمطوّلات ، في السُّنن والسِّيرة والتَّفاسير والمأثورات ، بالإضافةِ إلى الأشعار والآداب والقصصِ المشهورة ، والمواعظ والأمثال والحكم المأثورة.

* كان ذلك مِنْ صِغَري صناعتي ، وتحصيل الكتب النَّادرة بضاعتي ، فالكتبُ آنسُ أنيسٍ ، وأنبلُ جليس ، وأصدقُ صديق ، وأحفظُ رفيق ، وأكرمُ مُصَاحب ، وأبلغُ مخاطب ، لا تخفي عنك ذكْراً ، ولا تفشي لك سرّاً ، تشرحُ لك سِيَرَ الأُوَل ، من القولِ والوصْفِ والعمل ، هي في الليل نِعْمَ السَّمير ، وفي النَّهار نِعْمَ المُشير ، فيها أصدافُ الحِكم ، تنشقُّ عن جواهر الشِّيم ، وهي حصونُ العلماء إليها يلجؤون ، وبساتينُ مونقةٌ فيها يتنزَّهُون:

الكُتُبُ آنَسُ صاحِبٍ أَخْلو بها في وحْدَتي
فإذا اهْتَمَمْتُ فَسَلْوتي وإذا خلَوتُ فَلذّتي

* ومن خلال مجالس العلْمِ ونفائس الكتبِ عرفتُ أنَّ لعلماء الصَّحابة محاسنَ فَضْل تُجلىٰ ، وجميلَ خصالٍ تُعادُ وتُبدى ، فسيرتُهم أندىٰ على الأكبادِ من نسائمِ الصَّبا ، وأشهى إلى القلوبِ من عُهود الصِّبا ، فشموسُ مجدهم ظاهرة ، وأقمارُ سؤددهم باهرة ، فَمِنْ دراسةِ آثارهم يصدرُ نفحُ الطِّيْب ، ومن خلالِ الحياة معهم تحلُو المجالسُ وتطيب:

يَزْدادُ في مَسْمَعي تردادُ ذِكْرهم طَيّاً ويَحْسُنُ في عَيْني مُكَرّره

* لقد ربَّى الصَّادقُ المصدوقُ رسولُ اللهِ ﷺ أصحابَه على لبابِ الآداب ، ورحيقِ الشّمائل ، وكريمِ الأخلاق وعظيم الفضائل ، فكانوا بإخلاصهم غرّةً ناصعةً في جبين الدُّنيا ، نهلوا من يَنْبوعِ النُّبوّة ومعينِها ، وورثوا العلْمَ والعملَ والخُلُقَ والإخلاصَ والورعَ والزُّهْدَ. . . فصاروا حملةَ ألويةِ العلْمِ

والنُّور ، وكانوا خيرَ أمّةٍ أخرجَتْ للنَّاس ، يأمرون بالمعروفِ ، وينهَون عن المنكر.

* وكلُّنا يعرفُ ـ من خلال السِّيرةِ العطرة ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد مكَثَ في أمِّ القُرى مكَّةَ المكرمةِ ثلاث عشْرةَ حجّةً يُعلّمُ أصحابه ، ويربّيهم على العقيدةِ الصَّافيةِ ، والدِّينِ الخالص ، والصَّفا والنَّقاء ، ليكونوا علماءَ نبهاءَ نُبلاء ، وليفيدوا الأمّة وينشروا العلم بأرضها ، في شرقِ البلادِ وغربِها ، وطولِها وعرضِها.

* وبعد ذلك كانتِ الهجرةُ إلى المدينةِ المنوّرة ، فمكثَ فيها عشْر حججٍ كانت سِمَاناً مباركةً تلقَّىٰ الصَّحابةُ خلالَها العِلْمَ فبلغُوا به درجات عاليات ، وحظوا برضوانِ اللهِ حتى قال في حقِّهم: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩] ، و[التّوبة: ١٠٠] ، و[البيّنة: ٨]. فأكرمْ بهم! وأعظمْ بهمّتهم!

* وتألَّقَتْ كوكبةٌ من رجالاتِ الصَّحابة حلّقت عالياً في سماءِ العلْمِ بجميعِ ألوانهِ وأنواعهِ ، فكان منهم الكتبةُ الحَفظةُ ، ومنهم المفسّرون ، والمحدّثون ، والفُقهاء ، والقُراء ، والمُفْتُون ، والفَرضيّون ، والرُّواة للسِّيرة النَّبويّة والشَّمائل المحمّدية... وبعضُهم اشتُهِرَ بأكثرَ من علْمٍ وأبدعَ فيه ، فابنُ عبّاس مثلاً برعَ في التَّفسير والفقْه والرّواية والجهاد والسِّيرة والأدبِ والمناظرة؛ وكذلك ابنُ عمر ، وابنُ الزُّبير ، ومعاويةُ ، وجابر بنُ عبد الله ، وأبيُّ بن كعب ، وأبو موسى الأشعري ، وغيرُهم رضي الله عنهم أجمعين.

* وليست أسامي الصَّحابة العُلماء ببعيدة عن أسماعنا وعيوننا وأفئدتنا ، فَسِيرهُم تضيءُ القُلوب وأضالعها ، وتزينُ النُّفوس ومطالعها ، وترسمُ للبشرية حياتها العِلْميّة والعَمليّة ، وتروي قصّتهم للمحبّين في ذلك المعهد الرَّبّاني الميمون الذي تخرجُوا فيه بقيادةِ معلّمهم ومرشدهم إمامِ الأنبياء الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ.

* ولمّا كان لموضوع العلمِ وعلماءِ الصَّحابة أهميةٌ كبرى في حياةِ المسلمين في كلِّ زمانٍ ومكان ، فإنّي قمتُ ـ بفضلِ اللهِ ومنّنهِ عليّ ـ بتصنيفِ

هذه الموسوعة المهمّة[1] ، وأودعتُها هذه الأوراق ، ليستفيدَ منها الخاص والعام:

مـــا هـــذهِ الأوراقُ إلاّ روضـــةٌ سُقيـتْ حَيَـا حكَـمٍ وعلْـمٍ نـافـعِ
فأَتَتْ على نَسَماتِها طُرَفُ المُنَى أبـداً تُـزَفُّ علـى فـؤادِ السَّـامـعِ

* وهذه الموسوعةُ المبثوثةُ في هذه الأوراق ، تنضوي تحت ما أفادَ بهِ أستاذُنا الدّكتور «محمّد فَوزي فيضُ الله» : حفظَهُ اللهُ ورعاه فقال: «إنَّ عَرْضَ هذه النُّخبةِ الممتازةِ من الصَّحابةِ ليس للتَّغنّي بالسَّلَفِ ، ولا الاستطرافِ بأخباره ، ولا لتدبيجِ الكتبِ والصَّفَحات بجهادِهِ وبلائه ، ولكنْ لِتبيانِ مقاييس الإيمان الحقِّ ، ونماذجه وتطبيقاته ، تلك التي خَلَتْ ـ أو كادت تخلو ـ منها حياتُنا العَمَليّةُ المادّيةُ الجافَةُ ، فَنُشِرَ بعضُها مُستحضراً في هذا الكتاب ، لِيَقيسَ أهلُ الإيمان إيمانَهم بإيمانِ السَّلَف ، وأخلاقَهم بأخلاقِهم ، وجهادهم بجهادهم ، وحياتَهم بحياتهم ، فليستقلّوا أو ليستزيدوا»[2] .

* قسمتُ الكتابَ إلى مقدمةٍ ، وأربعةِ أبواب ، وخاتمةٍ وفهارسَ ، لِتَسْهلَ الاستفادةُ منه ، وتتوضّح معالمهُ في الأذْهان ، وتستقرَّ فوائده في القلوب .

* جعلتُ البابَ الأوّلَ تحت عنوان: «من عُلماء العَبادلة» والعبادلةُ من الصَّحابة يعدّون (٢٢٠ رجلاً) ، ولكنْ عُرِفَ منهم باسم العبادلة أربعةُ أخيار هم: «عبدُ الله بنُ عبّاس ، عبدُ الله بنُ عمر ، عبدُ الله بنُ عمرو بن العاص ، وعبدُ الله بنُ الزُّبير» ، وهؤلاء الأربعةُ صحابةٌ من أبناءِ الصَّحابة؛ وجميعهم قرشيّون مهاجرون .

* كان هذا البابُ باباً ماتعاً نافعاً ، أشرتُ من خلالهِ إلى فوائد مهمة ،

---

(١) كان من المفروض أنْ يخرجَ هذا الكتاب إلى المكتبةِ العربيةِ منذ عام (١٩٩٢م) ولكنْ حالتْ ظروفٌ دون ذلك ، ثمّ إنّي عدتُ إليهِ وأعدتُ النّظرَ فيه ، ودفعتُه إلى الطَّبع ليخرجَ بهذهِ الحلّةِ القشيبة والحمد لله .

(٢) رجال مبشّرون بالجنّة (ص ٧) المقدمة.

وأحكام قيمة ، وفرائد لؤلؤية ، وجواهر دريّة ، وأوردتُ فيه أدبيّاتٍ هامسةً كهمسِ نسائم الرّبيع التي تداعبُ الورْدَ والرّيحان ، فتحرّكُ الوجدان ، وتشنّف الآذان ، وهذه الأدبيّاتُ تصلحُ للمجَالسِ والنَّدواتِ والمُذاكرات ، ثمّ إنّي بيّنْتُ مكانةَ كلّ واحد منهم في مضمار العِلْم ، وفي عالَم الصَّحابة الكرام ، وأشرتُ كذلك إلى آثارِ كُلّ واحدٍ منهم في كُتبِ العِلْمِ ومصنَّفاتِ الحديث ، والتَّفسيرِ ، والفقْهِ ، والتّراجِم ، والأدبِ ، والتَّاريخِ ، واللغةِ ، وغيرها.

* ثم ختمتُ البابَ بالحديث عن صحابي نبيلٍ ، ذي قَدْر جليل ، وفكرٍ ثاقب ، ونظرٍ رائد ، هذا الصَّحابي هو سيّدنا عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه ، فقد تحدثتُ عن حياتهِ مع الكتابِ العزيز والسُّنّة الغرّاء ، وعن علْمهِ وتعليمهِ النَّاس في البُلدان التي يحلُّ بها ، وأشرتُ إلى أنَّه ليس معدوداً من العبادلةِ الأربعةِ ، وبيّنتُ غَلَطَ مَنْ عَدَّهُ منهم بالأدّلةِ المشفوعة بأقوالِ كبارِ العُلماء والأئمة.

* ويهلُّ علينا ـ بعد ذلك ـ البابُ الثَّاني بهلاله اللطيف وهو بعنوان: «من علماءِ الحديثِ والفقْه والسِّيرة» ، وقد تحدثْتُ من خلالِ هذا الباب عن جهابذةٍ مِنْ هذا العِلْم الدّقيق ، وهو كثرةُ الرِّواية والرّاوين الذين زادَتْ مرويّاتُهم عن ألفِ حديث ، ودار الحديثُ عن أربعةٍ من أعيان العُلماء هم: «سيّدنا أبو هريرة ، أنسُ بنُ مالك ، جابرُ بنُ عبد الله ، وأبو سعيد الخُدري» رضي الله عنهم أجمعين.

* ولقد اجتهدتُ ما بوسعي لكي أعطيَ الصُّورةَ الواضحةَ الصَّحيحة لحياةِ كلِّ واحدٍ من هؤلاء العُلماء الكبراء ، وكنتُ أسوقُ كثيراً من فوائدِ الشَّواردِ التي تهمُّ كلَّ متعلِّم ، وحرصتُ على ذِكْرِ الصَّحيحِ منَ الصَّحيح ، ليكون هؤلاء العلماءُ الأعلامُ قدوةً لمن أرادَ أَنْ يقتدي بهم ، ويسيرَ على نهجِهم ومنهاجِهم.

* ونستقبلُ أنفاسَ البابِ الثّالثِ وأنسامه بعنوان: «من علماء القِراءةِ

والتَّفسيرِ والجهاد» ، وأزاهيرُ هذا الباب نديةٌ عبقةٌ فوّاحة تغازلُ القلوبَ ، وتشيرُ إلى أنَّ الصَّحابةَ كثيرو العَدَدِ في هذا المجال ، ولكنّي اخترتُ منهم خمسةَ عُلماء وهم: «سيّدنا أبيُّ بنُ كعب ، أبو موسىٰ الأشعريّ ، معاويةُ بنُ أبي سفيانَ ، حذيفةُ بنُ اليمان ، والبراءُ بنُ عازب» رضي الله عنهم أجمعين.

* كشفتُ اللثام عن حياةِ هؤلاء الأعلامِ العلماء بشكل يقرّب صورتَهم الصَّحيحة من الأذهان ، وأبرزتُ جوانبَ حياتهم العِلْميّة ، وأعرضْتُ عن ذِكْرِ الأحداثِ السِّياسيّة وبعضِ الحياةِ الاجتماعيةِ في سِيَرِ بعضهم ، لأنَّها لا تتعلَّقُ بموضوعنا الرئيس عن العلْمِ والعُلماء.

* ولكنّي نوهْتُ بمكانةِ كُلّ صحابي من علماء الصَّحابة عند الحبيبِ الأعظمِ رسولِ الله ﷺ ، وذكرتُ بعض ما جاء بحقِّهِ من الأحاديث والآثارِ والفضائلِ؛ ثم إنّني دَلَلْتُ على بعضِ الأغاليط التي لحقتْ ببعضهم ، وصارت عند كثير من النَّاس من الحقائقِ التي لا يجوزُ النِّقاش فيها ، وأَخَذَ بعضُهم يبني عليها ما يروقُ له متّبعاً الهوى ، وها هنا يكونُ أمرُهُ فُرطاً ، إذ إنَّ الحقائقَ لا تخضعُ إلى الأهواء؛ ولا إلى رأي فُلانٍ وفُلان من الدَّهماء ، فالحقُّ أحقُّ أنْ يُتَّبع.

* أمّـا البـابُ الـرَّابـعُ ، فكـان عنـوانُـه: «مـن علمـاءِ الـزُّهـد والحكمـةِ والفتوى» ، وترجمتُ لستَّةٍ من عُلماء الصَّحابة وهم: «معاذُ بنُ جبل ، أبو ذرّ الغِفَاري ، أبو الدَّرداء ، تميمُ بنُ أوس الدَّاريّ ، جابرُ بنُ سَمُرة ، وفَضَالةُ بنُ عُبيد» رضي الله عنهم أجمعين.

* وقد أبرزتُ سيرةَ كلِّ واحدٍ منهم في أَشْهرِ المجالات التي عُرف بها ، فسيّدنا معاذُ بنُ جبل مثلاً اشتُهر بالعلْم والفتوىٰ والحكْمةِ ، واشتُهر أبو ذرّ بمواقفِهِ الحازِمةِ وزهده وحكَمِهِ المتأَلّقة ، وكذلك أبو الدّرداء ، وسائر الصَّحابة في هذا الباب ، وسائر الأبواب. وهذا لا يعني أنَّ غيرهم من علماء الصَّحابة لا يشتركون معهم في هذه الفَضَائل ، بل كلّ علماء الصَّحابة

مشتركون في هذه المكارم ـ أو علماء الصحابة كثيرون ليس من السّهل حصرهم ـ.

* ثم جاءتِ الخاتمةُ التي ذكرتُ فيها أبرزَ النّقاط التي اشتملَ عليها هذا الكتابُ بين دفتَيْه.

* كان الكتابُ ـ بحمد الله ـ ذا طابعٍ واضحٍ ، إذ عمدت إلى إلقاء الضَّوء حول شخصيّة كلّ عالمٍ من علماء الصَّحابة وتوضيحها ، واستخدمتُ منهجَ الاستنباطِ والاستقراء بالإضافةِ إلى ما تواترَ عن الصَّحابي ، واستخرجتُ كثيراً من المبادىء التَّربويّةِ وأساليبها التَّوجيهيّة المناسبة مُسْتقياً ذلك كلّه من القرآنِ ، والسُّنَّةِ ، ومن منهجِ علماءِ الصَّحابة في ترسيخ العلْمِ والفوائدِ بنفوسِ المتعلّمين ، ولهذا جاء الكتابُ ـ بحمدِ اللهِ ـ جامعاً نافعاً فيه ما يحتاجُه العالمُ والمتعلِّمُ:

هذا كتابٌ مَليحُ خفيفُ جسْمٍ ورُوح
يجمعُهُ كُلُّ فَنّ حَكَى سفينةَ نُوح

* ولا بدّ لي ـ في هذا المقام ـ من الإشارةِ إلى كثرةِ الكتب والمصادرِ التي عشتُ معها عقداً ونصفَ عقْدٍ ليخرجَ هذا الكتاب على الشَّكل الذي هو عليه الآن ، فقد كانت هذه المصادرُ كثيرةً جدّاً تجاوزتِ الألف كتاب ، وجلُّها منثورٌ في ثنايا الكتاب وهوامشه ، وهي تقصُّ على القارىء الحبيبِ مدى الجهد الذي لقيتُه في نَظْم المُتنَاثر منها ، ولمِّ شعثه ليكون كتابنا هذا زاداً لمحبّي الصَّحابة ، ولُباباً لعاشقي علمهم وأدبهم وسيرِهم.

* كانت المصادرُ والمراجعُ متنوّعةً جداً ، وكان في مقدّمتها الصَّحيح من كلّ شيءٍ ، ويمكنُ أنْ نجملَها على النّحو الآتي:

أولاً: القُرآنُ الكريم وعلومُه وتفاسيرُهُ: فكتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ هو أصدقُ الكلام وأوثقهُ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

* وتأتي علومُ القُرآنِ وأحكامُه وأسبابُ نزوله لترسّخَ كثيراً من المفاهيمِ والمعلوماتِ في ذهنِ القارىء ، أمّا كتبُ التَّفسير فتوضّح كثيراً من

الإشكال ، وتفصحُ عن كثيرٍ من المعلومات التي تغيبُ عن الأذهان ، وتجعلُها قريبة من النُّفوس محبّبة إلى قُلوب ذوي العرفان .

ثانياً: السُّنَّةُ المطهّرةُ وعلومُها وشروحُها: لا ريب في أنَّ كتبَ الحديثِ الشَّريف وعلومَه وشروحَه كانت المعينَ الثَّر بعد كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وقد عشتُ معها مدّةً طويلةً وأنا أدقّقُ النَّظَر والفِكْرَ فيها لأقتبسَ ما يتوافقُ مع شخصية الصَّحابي الذي أترجمُ له ، لأنَّ ذلك يوضّحُ سيرتَه العِلْميّة ، ويشرحُ حصيلتَه الحديثيّة ، ويعزّزُ أخباره بعامّة ، ويرفدُ القارىء بكثيرٍ من الأحكامِ الفقهيّة ، والأمورِ التي تهمُّه في دِينهِ ودنياه؛ وأشرتُ إلى تخريجِ الأحاديثِ في حواشي الكتاب ، وكنتُ أكتبُ الحديثَ وأنقلهُ من مظانّهِ ، وليس من مصادرَ ومَرَاجعَ أخرى. وكان في مقدمةِ مصادرِ الحديث: الصَّحيحان ، والسُّننُ الأربعة ، والمسانيدُ ، والمستدركاتُ ، والمصنّفاتُ ، وما يتعلّقُ في هذا العلْمِ المباركِ النَّفيس .

ثالثاً: السّيرةُ النَّبويَّةُ وشروحُها وفقهُها: كانت كتبُ السِّيرةِ النَّبويّة روحَ الكتابِ وريحانَتَهُ التي نستنشقُ من خلالها عبيرَ الأنفاسِ النّبويّة ، ونستروحُ عبقات الشّمائل المحمدية ، ومن المؤكَّد أنَّ مصادر السِّيرة تجلو كثيراً من الحقائقِ والأحداثِ التي لها علاقة بالصَّحابي مباشرة ، وتتَّصلُ بالحبيبِ الأعظمِ سيّدنا محمّد ﷺ ، كما أنها تفسّر ما جاء في القرآن والسُّنة .

* يتَّضح هذا جلياً في كُلّ شخصيّة من شخصيّات هذا الكتاب ، فمثلاً نقرأ نصيحةَ النّبيّ ﷺ لابنِ عمر ، وتعليمه الدّعاء لأبي هريرة وأنس بن مالك ، وهذا دعاؤهُ لمعاويةَ ، ومواساتُه لجابرٍ ولأبي سعيد الخُدريّ ، وحوارُه مع ابنِ مسعود ، وتصحيحُه لكثيرٍ من المفاهيمِ لكثير من الصَّحابة ، وأشياء يعرفُها القارىء من خلال زهر الكتاب المنثور ، على رقائق السطور .

رابعاً: كتبُ التَّراجمِ والطَّبقاتِ والسِّير: هذه الكتبُ لا غنى للباحثِ عنها مطلقاً ، فهي تلخّصُ معالمَ الشَّخصيّات وترشدُ إلى المَظَان التي جمعَ المؤلِّف منها كِتَابَهُ .

* ولعلّ كتبَ التَّراجم هذه كانت الأكثر في قائمةِ المصادرِ وهي كثيرةٌ جداً ، ولكنّي مع كثرتها كنتُ أقيسُ الخبرَ بما وردَ في كتبِ الحديثِ وصحيحها وسننها ، وغالباً ما كنتُ أشيرُ إلى هذه النَّاحية ليكونَ الخبرُ أوثقَ وأوفقَ وأصدقَ.

خامساً: كتبُ التَّاريخ العام والخاص: تفيدُ هذه الكتبُ الباحثَ في تحديدِ الزَّمان والمكان ، وتسلّطُ الأضواءَ على الشَّخصيّات التي يترجم لها. أما كتب التَّاريخ الخاص مثل: تاريخُ دمشقَ، وتاريخُ بغدادَ، وتاريخ الإسلام ، وتاريخ واسط ، فهي أكثرُ دقّة في معرفةِ شخصيّة الصَّحابي المُترجم له.

* وإذا كانت كتبُ التَّاريخ موسوعاتٍ معرفيةً ، إلاّ أنّنا لا نسلّمُ بما جاء فيها إذا خَالفَ ما جاء في الصَّحيح ، وكثيراً ما كنتُ أشيرُ إلى هذه النَّاحية زيادةً في الضَّبط والإتقانِ ، ولتخرجَ صورةُ الصَّحابي أقربَ إلى الحقيقةِ والعيان ، وقد صنعتُ ذلك في شخصيّة ابن الزّبير ومعاويةَ وحذيفةَ خاصّة وسائر الشَّخصيات.

سادساً: كتبُ الأدبِ ودواوين الشِّعر: كثيراً ما تأتي كتبُ الأدبِ لتوضّح مفهوماً مهمّاً في شخصيّةِ الصَّحابي ، وترشدُ إلى الخبرِ الوثيقِ الذي لا يخالفُ المعقولَ والمنقول ، وفي كتب الأدب من الفرائد البهية ، والطّرف الشّهية ، ما يجعل الكتاب روضة ندية تسرح فيها العيون والأنفس ، وتأنسُ إليها الأرواح والقلوب.

* ولكنَّ بعضَ هذه الكتب تحملُ الإساءةَ إلى الصَّحابي ، وتغضُّ من شأنهِ ، وتتلاعب بحقائق التَّاريخ ، بيد أنّي لم أسكتْ حِيالَ الأخبارِ التي تتعلّق بذلك ، فقد أشرتُ إلى زَيفها ووضعِها ، ومن ثمّ حذَّرْتُ منها ، وذكرتُ التَّناقضَ والافتراء الذي تحملُه هذه الأخبار ، وكلّ ذلك معززٌ بالأدلّةِ العلميّة والعمليّة والواقعية ، وقد نبّهتُ إلى ذلك في شخصيّةِ أبي هريرة ، وابن الزبير ، ومعاوية؛ وغيرِهم من العلماء في هذا الكتاب لنكونَ على

بصيرةٍ من الأمْرِ ، ولنكونَ على نهجِ الحقّ بإذن الله عزَّ وجلَّ.

سابعاً: كتبُ المعارفِ العامّة واللغة: إنّنا نظفرُ في هذه المصادرِ أحياناً على معلومات تزيدُ من رصيدِ الشَّخصيّة التي نتحدّثُ عنها ، بالإضافة إلى ما فيها من فصاحة وبلاغة ، وأدب وبراعة ، وفرائد لوامع ، وأفكار سواطع ، فكم من فكرةٍ شاردةٍ وجدتُها في كتابِ «المعارفِ» لابن قُتيبة ، أو في «لسان العرب» أو غيرها ، أَوْضَحَتْ ما كان فهمُه مُستغلقاً عليَّ. وهذه المصادرُ مبثوثةٌ في هذه الموسوعة وفي فهرسِ المصادر بآخر الكتاب.

* وأودُّ أنْ أذكِّرَ القارىءَ بأنّني حرصتُ على تقسيمِ التَّرجمةِ إلى فقْراتٍ متعدّدةٍ ، وكلّ فِقرةٍ تحملُ عنواناً واضحاً فيه إشارةٌ لمضمونها ، وليس هذا بالشَّيء السَّهل ، ولكنّه توفيقُ من اللهِ عزَّ وجلَّ ، كما حرصتُ كثيراً أنْ يكونَ الأسلوبُ مشرقاً ناصعاً مزداناً بألوانِ البلاغة ، مضمّخاً بعبيرِ الأدب ، سَلِساً ، سَهْلاً ، متنوعاً متناغماً ليستمرَّ القارىءُ في مطالعةِ الكتابِ من ألفِهِ إلى يائِهِ دون أنْ يتسرَّبَ المللُ إلى نَفْسِهِ ، ومن ثم يخرج بصورة لطيفة وحصيلة نافعة عن الصّحابي الذي يعيشُ معه.

* كما أحبُّ ـ عزيزي القارىء ـ أنْ أذكِّركَ بالهوامشِ الكثيرة في هذا الكتابِ ، فهي نفيسةٌ ومهمّةٌ جداً ، ولا يخدعنَّكَ أحدٌ عن مطالعتِها ، ففيها من بدائع الفوائدِ ، ومحاسنِ التَّعليقات ما لا يُوجدُ في المتْنِ ، ويزيدُ من فَهْم الشَّخصيّة وتوضيحها ، أو يكشفُ الأستارَ عن معلومات كانت غائبةً عن الذِّهْن ، أو ترشدُ إلى معاني وأشياء تفيدُ في الدِّين والدنيا ، كما تفيدُ القارىء في الرجوعِ إلى المصادرِ للوقوفِ على دقّةِ المعلومات وصحّتها.

* ولا يفوتُني قبلَ النِّهايةِ مِنْ أنْ أذكِّرَ فأقولَ: «إنَّ كثيراً منْ مؤلَّفاتي قد سَطا عليها كثيرون وكثيرات في بلادٍ شتى ، . . . . وقد أحببتُ ها هنا أنْ أذكِّرَ هؤلاء الأكارم باللهِ عزَّ وجلَّ ، وأنْ ينسبُوا الأعمالَ إلى أصحابِها ، وألاّ يخدعُوا بعضَ العلماءِ والمشايخ والأفاضل بتقديمِ كلمات لمسروقاتهم لِتروجَ بين النَّاس وفي الأسواق. . . !!! وما علم هؤلاء أَنَّ سرقاتهم ستظهر ، وتبدو

للآخرين ، بل ما علم هؤلاء أنَّ خداعَ النّاس لا يجوز ولا يليق بمن يدّعي العلم: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]».

* نرجو اللهَ سبحانه أنْ يصلحَ قلوبَنَا ونفوسَنَا ، وأنْ يحسنَ أفعالَنا ويسدّدَ أقوالنَا ، وأنْ يجعلَ أعمالَنَا خالصةً لوجههِ الكريم ، دون رياءٍ أو سمعةٍ ، ونسأله أنْ يتقبَّل منّا ، وأن يرحَمَنا وينفعَنَا ويغفر لنَا... وأنْ ينزعَ من صدورنا الغِلّ.... وأن يهدينا إلى ما فيه فلاح الدنيا والآخرة...

* وفي الختام ، أرجو من القرّاءِ الأعزّاء الذين أحببتُهم في اللهِ عزَّ وجلَّ في شرقِ البلادِ وغربها أنْ يخصُّوني بالدُّعاء في ظَهرِ الغيب ، وأنْ يتجاوزوا عن الخَللِ إنْ وُجِدَ ، كما أشكرُ كلَّ مَنْ يرشدني إلى أيّ خَطأ وقعتُ فيه، وله من اللهِ جزيلُ الثّواب ، فما حوىٰ العلْم أحدٌ ، وما أحدٌ معصومٌ من الخطأ:

وَمن ذا الذي تُرضي سَجَاياهُ كلّها كفَى المرءُ نُبلاً أنْ تُعَدَّ مَعَايبُه

* اللهمّ وفّقْنا لما تحبُّ وترضى ، واجعلْ أعمالنَا خالصةً لوجهكَ الكريم ، وقلوبنا سليمةً من الشوائب حتى نلقاك وأنت راضٍ عنّا.

* اللهم اشرحْ لنا صدورنَا ، ويسِّر لنا أمورنَا ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٣ ـ ٣٥].

* اللهمّ احشرنا في معيّةِ علماء الصَّحابة ، وَهَبْنَا لهم ، واغْفِرْ لنا وارحَمْنا ، وأكرمْنَا بفضلِكَ ، ومُنَّ علينا بِسترِكَ.

* اللهمّ اجعلْ آخر كلامنا: «لا إلهَ إلا الله محمّد رسول الله».

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

١٢ ربيع الأول ١٤٢٦ هـ
٢٠/ ٤/ ٢٠٠٥ م

وكتب خادمُ الصَّحابة ومحبُّهم
أحمد خليل جمعة
الحرستانيّ الدّمشقيّ
دمشق ـ حرستا
حي الشيخ موسى




الباب الأول



- عبد الله بن عبّاس
- عبد الله بن عمر
- عبد الله بن عمرو
- عبد الله بن الزُّبير
- عبد الله بن مسعود







عبد الله بن عبَّاس

* حبر الأمّة المحمّديّة وبحرها في العلم وهو أحدُ العبادلة .
* كان حريصاً على طلب العلم حتى غدا به نجم العبادلة .
* يسمّى ترجمان القرآن لِعُمق معرفته بالتّفسير واللغة .
* من علماء الصَّحابة المشهورين بالفقه والفتوى والحفظ والحكمة .
* له [١٦٦٠] حديثاً ، وله مكانة متميّزة بين علماء الصَّحابة الأخيار .




عبْدُ اللهِ بنُ عبَّاس

الحَبْرُ البَحرُ:

* عالمٌ نسيبٌ أديبٌ ، ولبيبٌ حسيبٌ أريبٌ ، كريمُ الأصولِ والأعراق ، فاقَ علماء مصْرَ والشَّامِ والعراق ، كان أصحابُه يسمّونه البَحْر ، وينعتونَه الحَبْر ، فقد كان بحقّ حبر هذه الأمّة وجمانها ، ومفسّر آيات كتابِ الله وترجمانها.

* فابنُ عمّه: الحبيبُ الأعظمُ ، النَّبيُّ الكريمُ ، محمّد ﷺ ، أفضلُ خَلْقِ اللهِ على الإطلاق ، وخاتمُ الأنبياءِ والمرسلين.

* وأبوهُ: العبّاسُ عمُّ النَّبيّ ﷺ ، وأحدُ أهلِ الفضل في دنيا الفَضْل ، بل كان يُكْنَى بأبي الفضل ، وكان أجود قريش كفّاً ، وكان النّبيّ ﷺ يُكْبرهُ ويحترمُه ، وينزلهُ منزلةَ الوالد ، ويقول: «هذا بقيّةُ آبائي».

* وأمُّه: أمُّ الفضلِ ، لبابةُ بنتُ الحارث الهلاليّة[1] ، كان رقمُها في سجلّ الإيمانِ لجماعةِ النّساء واضحاً بارزاً في الصَّفْحَة الأولى ، فلقد كانت أوّل امرأةٍ هلاليّةٍ آمنت باللهِ ورسوله بعد أُمِّنا الصِّدِّيقةِ خديجةَ بنةِ خُويلد أُمِّ المؤمنين[2] رضي الله عنها.

* وخالتُه: ميمونةُ بنتُ الحارث أمُّ المؤمنين[3] ، وسيّدةٌ من سيّداتِ نساءِ

---

(١) اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (ص ٤٣٩ ـ ٤٥٠).

(٢) اقرأ سيرتَها في موسوعتنا «نساء أهل البيتِ في ضوء القُرآن والحديث» ط٦ (ص ٢٥ ـ ٩٢) ، ستجد كنوزاً من الحقائق والفوائد والمعارف والبركات بإذن الله.

(٣) اقرأ سيرتها في موسوعتنا «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» ط٦ (ص ٤١٥ ـ ٤٣٢) ، فسيرتها خير في خير.

أهلِ البيتِ النّبويّ الطّاهر ، ومن فضلياتِ نساءِ عصْر النُّبوّة ، وممّن لهُنّ شأنٌ مذكور ، ونصيبٌ موفور ، ومساحة كبرىٰ في تواريخ النِّساء ، من خلال روضتهنّ الفيحاء ، وسيرتهنّ الناصعة التي تطاول عنان السّماء .

* وعمُّهُ: البطلُ الضّرغامُ ، والقرمُ الهمامُ ، فارسُ الفرسان ، وسيّدُ الشّجعان ، علَمُ المجاهدين ، أسدُ اللهِ ، وأسدُ رسوله ، حمزةُ بنُ عبد المطّلب[1] رضي الله عنه وأرضاه .

* فهذا العالمُ العيلَمُ من أسرةٍ لا عَيْبَ فيها ، غير أنّها علَمُ الأُسَرِ ، وزينتُها ، ودرّتها ، وعينها:

إنْ كَانَ أُسرَتُهُ بَيْنَ الوَرَىٰ عَلَماً فَإنَّه عَلَمٌ في ذَلِكَ العَلَمِ

* وهو منْ أهلِ بيتٍ نحبُّهم ونجلُّهم ، وكيف لا يزدادون حبّاً ، بعد قولهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشُّورى: ٢٣] ، وقد تبوّأَ وأسرته الجوزاء ، ونزلوا منازلَ السُّعداء:

قَوْمٌ لَهمْ في سَمَاءِ المَجْدِ مَنْزلةٌ زُهْرُ الكَواكبِ منْهَا النّورُ تَقْتَبِسُ

* فلنبدأ مع هذا الحبر ولِنُبحر معاً في بحْارِ العُلومِ مع حبرِ الأمّة ، وفقيهِ العَصْر ، وتحفةِ الدَّهْر ، وإمامِ التَّفسيرِ ، وحافظِ أسرارِ التّنزيل ، وعالمِ التّأويل ، والد الخلفاء العباسيين ؛ أبي العبّاس عبدِ الله بنِ عبّاس بنِ عبد المطّلب القُرشيّ الهاشميّ المكّيّ الأمير رضي الله عنه وأرضاه[2] .

* أشارَ ابنُ عبّاس إلى عراقةِ أصْلهِ ، وكريمِ فَضْلهِ فقال: «نحنُ أهلَ

---

(١) اقرأ سيرته في موسوعتنا «رجال أهل البيت» تجد خيراً كثيراً بإذن الله .
(٢) المصادرُ التي تحدّثت عن ابنِ عبّاس لا تُحصى ولا تُحصر ، ومنها: طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٥) ، والمستدرك (٣/ ٥٣٣ ـ ٥٤٦) ، وحلية الأولياء (١/ ٣١٤ ـ ٣٢٩) ، وتاريخ بغداد (١/ ١٧٣) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٦) ، وسير أعلام النّبلاء (٣/ ٣٣١ ـ ٣٥٩) ، والبداية والنهاية (٨/ ٢٩٥) ، وتهذيب التّهذيب (٥/ ٢٧٦) ، والاستيعاب (٢/ ٣٤٢ ـ ٣٤٩)؛ وغيرها كثير جداً جداً . .

البيتِ شجرةُ النُّبوّة ، ومختلفُ الملائكة ، وأهلُ بيتِ الرّسالةِ ، وأهلُ بيتِ الرّحمة ، ومعدنُ العِلْم»[1] :

نَسَبٌ تَرى عنوانَه في وجهِهِ لا شبهةً فيه ولا تأويلا

* والحقيقةُ ، فابنُ عبّاس يستحقُّ أنْ يُقالَ له :

أَنْتَ لِلْعِلْمِ في الحَقيقَةِ بَابٌ يا إمَامُ ومَا سِوَاكَ مَجازُ

* وفيه قال عبدُ الله بنُ أبيّ بن أبي زيد الهِلاليّ :

ونَحْنُ وَلَدْنَا الفَضْلَ وَالحبْرَ بَعْدَهُ عَنَيْتُ أبَا العبَّاسِ ذا الفَضْلِ والنَّدى[2]

* وكان بنو العبّاس عشرةَ ذكور نُجباءَ ، وهم : الفضْلُ ، عبدُ الله ، عُبيدُ الله ، معبدُ ، قثمُ ، عبدُ الرّحمن ، كثيرُ ، الحارثُ ، عونٌ ، وتمّامُ ، وكان تمّامُ أصغرهم ، ولهذا كان أبوه العبّاس يحملُه ويقولُ مُرتجزاً :

تمُّوا بتمّامٍ فَصَاروا عَشَرة يا ربّ فاجْعَلْهم كِراماً بَرَرَة

واجعَلْهم ذكراً وأنْمِ الثَّمرة[3]

النَّشْأَةُ والشَّخْصِيَّةُ :

* ولدَ ابنُ عبّاس بِشِعْبِ[4] بني هاشم قبلَ الهجرةِ بثلاثِ سنين ؛ وَوُلدتْ

---

(١) انظر : مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣٠٧).

(٢) الاستيعاب (٢/ ٣٤٦).

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٣٠٦).

(٤) «الشِّعْب» : بكسر الشّين ، واحد الشّعاب ، يُقال للطريق بين الجبلَيْن أو ما انفجر بينهما ، أو مسيل الماء في بطنٍ من الأرض له جرفان مشرفان ، وأرضُه بطحة ، وقد يضاف إلى عدد من الأماكن والأسماء.
ومن أشهرِ الشّعاب في مكّةَ والمدينة : شعبُ أحدُ بمكّة؛ وشعبُ ثبير بين المدينة وبدر ، وشعبُ الجرار قرب أحد ، وشعبُ العجوز في ظاهر المدينة ، وشعب سَلْع بالمدينة ، وشعب بني هاشم.
وشعبُ بني هاشم هو الذي أوىٰ إليه رسولُ اللهِ ﷺ ، وبنو هاشم لمّا تحالفت قريش على بني هاشم ، وكتبوا الصّحيفة ، وحصرتهم قريش فيه ، وكان هذا الشّعب منزل بني هاشم ومساكنهم. وبهذا الشّعب وُلدَ رسولُ اللهِ ﷺ ، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، ويسمّى أيضاً : شعب أبي طالب ، وشعب أبي يوسف ويدعى اليوم شعب عليّ.

معه السَّعادةُ التي لا حظَتْه عيونُها وصاحبته بركاتُها إلى نهايةِ حياته.

* كانت البشائرُ اللطيفةُ قد سِيْقَتْ إلى العبَّاسِ بنِ عبد المطّلب عندما كانت زوجُهُ أمُّ الفضْل حاملاً بابنهِ عبدِ الله، فقد أتى العباسُ رسولَ اللهِ ﷺ وأخبرهُ بحملِ زوجهِ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لعلَّ الله أن يقرَّ أعينكم».

* ولما تمّ حملُه، وجاءها المخاضُ، وضعتْه أمُّ الفضل غلاماً سوياً، فأتىٰ به العبّاسُ النّبيَّ ﷺ وهو في خِرقةٍ، فحنّكَه بريقهِ الشَّريف.

* قال مجاهدُ بنُ جبر رحمه الله: «فلا نعلمُ أحداً حُنِّكَ بِرِيقِ النّبيّ ﷺ غيرَ ابن عبّاس»(١).

* ومنذ أن كان ابنُ عبّاس في المهدِ صبيّاً، كانت علاماتُ النّجابةِ تلوحُ على محيّاهُ ناطقةً بنجابتِه:

في المَهْدِ يَنْطِقُ عَنْ سَعادةِ جدِّهِ   أَثَـرُ النَّجـابَـةِ سَـاطِـعُ البُـرهَـان

* ويظهرُ أنَّ أمَّ الفضل، كانت ترى في ابنها عبدِ الله مخايلَ السِّيادة، وملامحَ الذّكاء، فكانت ترقّصُه وترتجزُ:

ثكلْـتُ نَفْسـي وثكلْـتُ بكْـري   إنْ لـم يسـدْ فِهْـراً وغَيـرَ فِهـرِ
بِحَسَـبٍ زاكٍ وبَـذْلِ الـوَفْـرِ   حتّى يُـوارىٰ فـي ضَـريـحِ القَبْـرِ(٢)

* نشأ عبدُ الله يرتضعُ لبانَ الفَضْل من أمّه أمِّ الفضل، ويتغذّى على مائدةِ التّقوى، حيث كانت أمُّه توليه كلَّ عنايةٍ، وكلَّ رعايةٍ، وتغرسُ في نفسهِ محاسنَ الإسلام، وحبَّ العِلْم، كما كانت تغرسُ في جوانحهِ محبّة النّبيّ ﷺ وتوقيره، لذا، فقد كانت نشأةُ عبدِ الله بن عبّاس نشأةً صافيةً، عرفَ الإسلامَ منذ ولادته، وفتحَ عينَيْه على أنوارِ الإيمانِ وهمساتِ التّقوى لكمال سعادته.

* وفي مكّةَ أمِّ القُرىٰ، ظلَّ عبدُ الله بن عبّاس وأمّه إلى قبيلِ غزاةِ الفَتْح

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٢٩٣ و٢٩٤) بشيء من التصرف، وانظر: البداية والنهاية (٨/ ٢٩٥).

(٢) انظر: أمالي القالي (٢/ ١١٤)، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣٣٠) مع الجمع بينهما.

في السَّنةِ الثَّامنة منَ الهجرةِ ، إذْ أسلمَ العبّاسُ بنُ عبد المطلب رضي الله عنه ، فهاجرَ بأهلهِ إلى المدينةِ ، والتقوا رسولَ اللهِ ﷺ بالجُحْفَة ، وهو ذاهبٌ مع أصحابه إلى فتْح مكَّةَ ، وشهدَ العبّاس وابنُه فَتْحَ الفتوحِ صبيحة يوم الجمعةِ لِعِشْرينَ خلَتْ من شهرِ رمضان المبارك ، من ذلك العام الميمون.

* صحب ابنُ عبّاس النّبيّ ﷺ نحواً من ثلاثين شهراً ، ولزمَ مجالسه ، وأخذَ عنه ، وحفظَ ، وضبطَ الأقوالَ والأفعالَ والأحوالَ ، وكُتِبَ في سجلِّ الأصحابِ الذين حظوا بمعيّةِ الصّحبةِ النّبويّةِ المباركةِ ، كما كُتِبَ من الخالدين في دنيا العِلْمِ والعُلماء ، فقد مسحَ النَّبيُّ ﷺ رأسَه ، ودَعا لَهَ بالحكمةِ والبركةِ وتأويلِ الكتاب.

* عن عِكْرمةَ عن ابن عبّاس قال: «مسحَ النَّبيُّ ﷺ رأسي ودعا لي بالحكْمَة»[1].

* وقد أنعمَ اللهُ عزَّ وجلَّ على سيّدنا عبدِ الله بنِ عبّاس بالشَّكل الحسنِ والملاحة الكاملة ، وزادَهُ بَسْطَةً في العِلْم والجسمِ ، فلقد كان وسيماً جميلاً ، مديدَ القامة ، مهيباً ، كاملَ العَقْل ، زكيَ النَّفس ، من رجالِ الكَمال.

* قال الذَّهبيُّ رحمه الله: «كان ابنُ عبَّاس رضي الله عنه أبيضَ ، طويلاً ،

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٥) ، وللحديث أصلٌ في كتبِ الحديث ، فقد أخرجه البُخاري برقم (٧٥) ، ومسلم برقم (٢٤٧٧) ، والتّرمذي برقم (٣٨٢٤) ، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيح»؛ وابن ماجه في المقدمة (١٦٦) ، وأحمد في مواضع (١/ ٢٦٦ و٢٦٩ و٤١٣ و٣٢٨ و٣٣٥) ، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٣٤) و(٣/ ٥٣٧).
وقد تعدّدتِ الأقوالُ في المرادِ من قولهِ ﷺ «الحكمة»؛ فقيل: القرآن.
وقيل: العَملُ به.
وقيل: السّنّة؛ وقيل: العقل ، وقيل: ما يشهد العقل بصحّته.
وقيل: الإصابة في القول.
وقيل: الخشية.
وقيل: الفهم عن الله.
وقيل: نور يفرق به بين الإلهام والوسواس.
وقيل: سرعة الجواب مع الإصابة. واللهتعالى أعلم.

مشرّباً صُفرة ، جسيماً ، وسيماً ، صبيحَ الوجْهِ ، له وَفْرةٌ ، يخضبُ بالحنّاء ، دعا له النَّبيّ ﷺ بالحكمة»[1] .

* وكان يُشَبَّهُ بالقمرِ لوسامةِ وجهه وجماله ، وحُسْن شكْلهِ وكمالهِ. قال عطاءُ بنُ أبي رباح[2] رحمه الله: «ما رأيتُ القمرَ ليلةَ أربعَ عشر إلا ذكرتُ وجْهَ عبدِ الله بنِ عبّاس رضي الله عنهما».

* وقال مسروقُ بنُ الأجدع[2] رحمه الله: «كنتُ إذا رأيتُ ابنَ عبّاس قلت: أجملُ النَّاس»[3] .

* ومع هذا الجمالِ ، وتلكم الوسامة ، كان ابنُ عبَّاس مُغرماً بالطِّيْب ، يكثرُ من ألوانِ العِطْرِ والمسْكِ ، فكان يُعرف إذا مرَّ في طريقٍ من أثرِ المسْك الذي يفوحُ منه.

* قال مولاهُ عِكْرِمة: «كان ابنُ عبَّاس إذا مرَّ في الطَّريق قُلْنَ النّساءُ على الحيطان: أمرَّ المسْكُ أمْ مرَّ ابنُ عبَّاس»[4] .

* وكان ابنُ عبّاس يلبسُ الحلَّةَ بألفِ درهم ، وكان له من الولدِ: العبّاسُ ، وعليٌّ؛ وكان عليٌّ يُدعىٰ السَّجَّاد لكثرةِ صلاته ، وكان أجمل قرشيّ على وجْهِ الأرض ، وكان لابن عبّاس من الولد أيضاً: محمّد ، والفَضْل ، وعبد الله ، وابنة تدعى لبابة.

حِرْصُهُ عَلَىٰ طَلَبِ العِلْمِ:

* تبّوأ سيدنا عبدُ الله بن عبّاس رضي الله عنه سدّةَ العِلْمِ لأكثرَ من نصفِ قرنٍ من الزَّمن ، وشهدَ له أقرانُه بذلك ، فكانوا يغبطونه على ما أوتيه من فَضْل ونعمةٍ وعلْم ، ومعرفةٍ وذكاءٍ وفهم.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٣٦).
(٢) اقرأ سيرة هذَين العالمين في كتابنا «علماء التّابعين».
(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣١٢).
(٤) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٢٩٧) ، وسير أعلام النّبلاء (٣/ ٣٣٧).

* قال ابنُ عساكر: «قيل لابن عبّاس: كيفَ أصبتَ هذا العِلْمَ؟

قال: بلسانٍ سؤول، وقلْبٍ عقول»[1].

* وعن حرصهِ الشَّديدِ في طلبِ العلْم يتحدّثُ ابنُ عبّاس عن نفسه فيقول: «ذللتُ طالباً لِطَلَبِ العلْم، فعززتُ مطلوباً»[2].

* لم يدركْ سيّدنا عبدُ الله بن عبّاس من عُمْرِ النّبيّ ﷺ ما أدرك غيرهُ من نظرائِه في العلْمِ، ولكنه لازمَهُ فيما أدركَهُ من الزَّمن، وعَقَلَ وفَقهَ وجَدَّ واجتهدَ، واستعاضَ عمَّا فاتَه بملازمةِ أكابرِ الصَّحابةِ وعلمائِهم وساداتهم، مثل: عمر، وعليّ، وابن مسعود، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم.

* وكان حريصاً على العِلْمِ حرصاً ملحوظاً، شغوفاً به، نَهِماً له، يأخذهُ حيث وجدهُ من أفواهِ أهْلهِ، ويسعى إليه أنّى كان، ويحتملُ في سبيله من الجهدِ والمشقّةِ ما يحتملُ، وهو يقولُ معبّراً وواصفاً حالَه في ذلك: «طلبتُ العلمَ فلم أجدْه أكثر منه في الأنصارِ، فكنتُ آتي الرَّجُلَ فأسألُ عنه، فيقال لي: نائمٌ، فأتوسّدُ ردائي، ثمَّ اضطجعُ حتّى يخرجَ إليَّ الظّهر، فيقول: متى كنتَ ها هنا يا بن عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ؟ فأقول: منذُ وقْتٍ طويل.

فيقول: هلاّ أعلمتَنِي؟

فأقولُ: أردتُ أن تخرجَ إليَّ وقد قضيتَ حاجتَكَ. ثمَّ أسألُكَ عمّا أُريدُ؛ وأنصرفُ»[3].

* بلغَ حرصُ ابن عبّاس رضي الله عنه على طلب العلْمِ شأواً بعيداً، فقد كان يكثرُ من السُّؤال لكي يتثبَّتَ ويصبحَ من الرّاسخين فيه، وكان يفخرُ بأنّه

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣٠٢).
(٢) المصدر السَّابق نفسه. أقول: «ما أعظم هذه الحكمة لو سار عليها طلبة العلْم اليوم»!!.
(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٨)، وسير أعلام النّبلاء (٣/ ٣٤٤) مع الجمعِ والتّصرّف.

يكثرُ من سؤال الصَّحابةِ فيقول: «إنْ كنتُ لأسألُ عن الأمْرِ الواحدِ ثلاثين من أصحابِ النّبيّ ﷺ»[1].

* وابن عبّاس رضي الله عنه الحريصُ على طلبِ العلْم، والمعرفةِ، يعرفُ لِعُلماءِ الصَّحابة أقدارهم، ويحفظُ مكانتَهم، ويشيدُ بفضلِهم، ويدلُّ على مكارمهم، ويعطِّرُ بأقواله المندّاة فضائِلَهم، لأنَّه يستقي المعرفةَ منهم، ويسعىٰ لها سعيَها وهو حريصٌ على الاستزادةِ من العلْم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وعن واحدة من رحلاتِه الجميلةِ في طلبِ العلْم يقولُ: «كنتُ أكرمُ الأكابرَ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، وأسألُهم عن مغازي رسولِ اللهِ ﷺ، وما نزلَ من القُرآن في ذلك، وكنتُ لا آتي أحداً منهم إلا سُرَّ بإتياني لِقُربي من رسولِ الله ﷺ، فجعلتُ أسألُ أُبيَّ بنَ كعب[2] يوماً ـ وكان من الرَّاسخين في العِلْمِ ـ عمّا نزلَ من القُرآن بالمدينةِ فقال: نزل سبعٌ وعشرون سورة، وسائرهَا بمكَّة»[3].

* وكان ابن عبّاس يأتي أيضاً أبا رافع مولىٰ رسولِ الله ﷺ فيقولُ: «ما صنعَ النَّبيُّ ﷺ يومَ كذا وكذا؟»، ومع ابن عبّاس ألواحٌ يكتبُ ما يقولُ[4].

* وكان سيّدنا ابنُ عبّاس يُرغِّبُ النّاسَ في طلَبِ العلْم، وقصدِ مواردِه ومناهِلِه، حتّى غدا أمير العُلماء؛ قال يزيدُ بنُ الأصم رحمه الله: «خرجَ معاويةُ حاجاً معه ابنُ عبّاس، فكان لمعاويةَ موكبٌ، ولابن عبّاس موكبٌ ممن يطلبُ العِلْم»[5].

* ولابنِ عبّاس رضي الله عنه نَفَسٌ طويلٌ في الحصولِ على العلْم، وفي الحرصِ على معرفةِ أصحّ الرّوايات ممّا يتعلّقُ بأحكام القرآن وقصصه،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤٤).
(٢) اقرأ سيرته في هذه الموسوعة المباركة، في الباب الثالث.
(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣٠١)، والبداية والنّهاية (٨/ ٢٩٨).
(٤) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣٠١).
(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤٤).

فنجده يمكثُ سنةً يتحيَّنُ أفضلَ فُرَصِ آدابِ العلْم كي يسألَ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه عن معرفةِ المرأتَيْن اللتَيْن تظاهَرتا على رسولِ اللهِ ﷺ.

* أخرج البخاريُّ عن ابنِ عبّاس رضي الله عنهما قال: «مكثتُ سنةً أريدُ انْ أسألَ عمرَ عن المرأتَيْنِ اللتَيْن تظاهَرتا على رسولِ اللهِ ﷺ».

* وابن عبّاسٍ نفسُه، لم تمنعْهُ مشاقُّ الانتقالِ في البلادِ، وتجشّم أعباءِ السَّفر، وركوب المخاطر، ليسألَ عمّن أبْهمَ اللهُ عزّ وجلّ ذِكْرَهُ في قولهِ تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

* فعن عكرمةَ مولىٰ ابنِ عبّاس قال: «سمعتُ ابنَ عبّاس يقولُ: طلبتُ اسمَ رجلٍ في القرآن، وهو الذي خرجَ مهاجراً إلى اللهِ ورسوله، وهو ضمرةُ بنُ أبي العَيْص»(١).

* إنَّ النَّفسَ البشريّةَ المتلهّفة إلى سلسبيل العِلْم، تميلُ بطبعها إلى البحث عن موارد العُلوم ونوادرها ومناهلها، ولا غرابةَ أنْ يشمّرَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ عن سواعدِ الجِد، ويجتهدوا في تحصيلِ المعارفِ القُرآنيّة مهما كلَّفَهم ذلك، ليكون العلْم هو نبراسُ حياتِهم، ومنارُ سبيلهم، لأنَّ العلمَ شرفٌ لا يُدانى، وفضْلٌ لا يُجارى، ومنزلةٌ لا تُطال، إلا بِسَهر الليالي الطوال.

* قال طاووس رحمه الله عن ابن عبّاس: «كان ابنُ عبّاس قد بسقَ على النَّاس في العلْم كما تبسقُ النّخلةُ السَّحوق على الوَدِيّ الصّغار»(٢).

* وكان ابنُ عبّاس من السَّابقين في العلْم والمُجلّين في الفهم، حتى بلغ به منزلةً عُليا شهدَ بمكانتها القاصي والدّاني والحاضر والبادي، بل ألقوا

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/ ١٩٢ و١٩٣).

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣٠٨)، وصفة الصّفوة (١/ ٧٥٣)، ومعنى «بسق»: يقال: بسقَ النّخل: طال، ومنه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠]، و«الوَدِي»: صغار النخل.

رحالَ علْمهم أمامَه ، وسلّموا إليه زمامَ المسائل.

* قال عبدُ الله بنُ أبي الهُذيل: «أردتُ الخروجَ ، فعلم بي أهلُ الكوفةِ ، فجمعُوا مسائلَ ، ثمّ أتوني بها في صحيفةٍ ، فلما قدمتُ على ابن عبّاسٍ خرجَ ، فقعدَ للنّاس ، فما زالَ يسألونه حتّى ما بقي في صحيفتي شيءٌ إلا سألوهُ عنه»[1].

* ولله درُّ مَنْ قال:

لِمهْبِطِ الوَحْي حَقّاً تَرحَلُ النُّجبُ وعنْدَ هَذا المُرجّىٰ يَنْتَهِي الطَّلَبُ

* ومن جواهرِ الأسئلةِ النافعة، ولآلىء الإجابةِ الماتعة، ما ذكره أبو حيّان التّوحيديّ: «أنّه قيل لابن عبّاس: أيجوزُ أنْ يحلّى المصحف بالذّهب؟

فقال: حِليتُه في جَوفِهِ ـ يعني القُرآن ـ»[2].

أميرُ مفسّري العبادلة:

* كان ابنُ عبّاس عليه سحابات الرضوان يسمّى ترجمانَ القُرآن ، لأنَّه برعَ في مجالِ التّأويل والتّفسير ، حتّى غدا أمير مفسّري الصَّحابة ، وموئل أهلِ الفقه والمعرفةِ في سائرِ العُلوم ، فقد كان نابغةَ الصّحابةِ وعلاّمةَ أبناءِ الصَّحابة[3] في التَّفسير ، وفي عُلوم القرآن ، وأسباب النزول ، وغير ذلك.

* رأى ابنُ مسعود[4] ـ وما أدراك ما ابن مسعود ـ ابنَ عبَّاس ، وخَبِرَه ، وعرفَ مقدارَ علْمِهِ ، فشهدَ له بالتّقدّم والنّباهة فقال: «ولَنِعْمَ ترجمان القُرآن ابنُ عبّاس»[5].

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/٣١٢) ، وهذه القصّة تدلُّ على سعةِ علْم ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: البصائر والذخائر (٧/٤٧) أقول: «وهذه الإجابة من محاسن فقه ابن عباس ونباهته».

(٣) اقرأ كتابنا «صحابة من أبناء الصحابة» ففيه ما يسرّ الأفئدة بإذن الله.

(٤) اقرأ سيرته في هذه الموسوعة المباركة في الباب الأول تجد خيراً كثيراً بإذن الله.

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (٢/٣٦٦) ، والمعرفة والتاريخ (١/٤٩٥) ، أقول: «عاش =

* وقال مجاهد يصفُ ابن عبّاس عندما يفسّرُ القرآنَ: «كان ابنُ عبّاس إذا فسَّر الشّيء رأيتَ عليه نُوراً»[(١)].

* وأعتقدُ أنَّ سيّدنا عبدَ الله بنَ عبّاس رضي الله عنهما قد فَهِمَ معظم تفسير القرآنِ العظيم، وبرعَ في التّأويل، لأنَّه قد حازَ معارفه التّفسيريّة من ينابيعَ مباركةٍ؛ ومنها: ما سمعَهُ وفهمهُ من مُعلِّم العُلماء سيِّدنا وحبيبنا محمّدٍ ﷺ، وكذلك ما تلقّاهُ عن أكابرِ عُلماء الصَّحابة وأعيانهم، وأشهرهم: ابن عمّه علي بن أبي طالب الذي ورثَ عنه علمَ التَّفسير، كما أقرَّ ابن عبّاس نفسه بذلك فقال: «ما أخذتُ من تفسيرِ القرآن؛ فعَنْ عليّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه».

* وتلقّى العلمَ كذلك عن سيدنا عمر[(٢)] وثلةٍ من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ.

* ومن الينابيعِ التي رفدت علمَ التَّفسير عند ابن عبّاس رضي الله عنه تبحّره في علوم اللغةِ العربيةِ، وغوصهِ على معاني الكلام في أشعارِ العرب، فلقد كان له أصحابٌ يسألونَه عن العربيةِ وعن الشِّعر، وكلّهم يخرجُ بفائدة وعلْمٍ جمّ.

* قال السُّيوطي في «الإتقان»: «وقد وردَ عن ابن عبّاس في التّفسير ما لا يُحصى كثرة، وفيه رواياتٌ وطرقٌ مختلفةٌ، فمن جيّدها طريقُ عليٍّ بن أبي طلحة الهاشميّ عنه، وفيها يقولُ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل: بمصرَ صحيفةٌ في التّفسيرِ رواها عليُّ بنُ أبي طلحة، لو رحَلَ رجلٌ فيها إلى مصرَ قاصداً لما كان كثيراً».

* وقد اعتمدَ البخاري على هذه الصَّحيفة في صحيحهِ فيما علّقهُ عن ابن عبّاس رضي الله عنه وأرضاه.

* ونقل السّيوطي عن الخليلي صاحب «الإرشاد» أنَّه قال: «وهذه

= ابن عباس زمناً طويلاً بعد ابن مسعود رضي الله عنهما، واحتاجَ النَّاسُ إلى عِلْمِه».

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣٠٩).

(٢) أقول: «عاشَ ابن عبّاس بعد عمرَ رضي الله عنهما نحو سبع وأربعينَ سنة يُقصدُ ويُستفتى ويُعتمد، ومشهورٌ في الصَّحيحين تعظيمُ عمر بن الخطاب لابن عبّاس، واعتداده به، وتقديمه له مع حداثة سنّه».

التّفاسير الطّوال التي أسندوها إلى ابن عبّاس غير مرضية ، ورواتها مجاهيل . . .» إلى أن يقول السّيوطي : «وأوهى طرق التّفسير عن ابن عبّاس طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس ، فإن انضمَّ إلى ذلك رواية محمّد بن مروان السّدي الصّغير فهي سلسلة الكذب» .

* ويظهر أنّه لشهرة عبدِ اللهِ بنِ عبّاس بالعلْمِ والفضلِ ، ودعاءِ النّبيّ ﷺ له ، وطولِ عمره ، وأخذِه بعض المعارف عمّنْ أسلمَ من أحبارِ اليهود ، قد كثرتْ عنه الرّوايةُ في التّفسير من الذين دخلُوا الإسلامَ من اليهود والنَّصارى في قصصِ الأنبياء ، وتفسير الحوادث الماضية .

* فمن شواهدِ تفسيره الموثوق به الذي يوافقُ علمه ويتوافقُ مع عصرهِ ، ما أورده السُّيوطي أنَّه أخرجهُ ابن أبي حاتم من طريقِ عليّ بن أبي طلحة ، عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ . . .﴾ الآيات[1]؛ قال : «هذا مثلٌ ضربهُ اللهُ للمنافقين ، كانوا يعتزّون بالإسلام ، فيُناكحهم المسلمون ، ويوارثونهم ، ويقاسمونهم الفيء ، فلمّا ماتُوا سلبَهم اللهُ العزّ كما سلبَ صاحب الضّوء ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ يقول : في عذابٍ : ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه . ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ هو المطرُ ضرب مثله في القرآن . ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ يقول : ابتلاء . ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ : تخويفٌ ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ يقول : يكاد محكمُ القُرآن يدلُّ على عوراتِ المنافقين ، فإنْ وجدوا في الإسلام عزّاً اطمأنّوا ، فإنْ أصابَ الإسلامَ نكبةٌ ، قامُوا ليرجعوا إلى الكُفْر ، كقولهِ تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ . . .﴾ [الحج : ١١][2]» .

* وممّا أُثرَ عنه في تفسيرِ قوله تعالى : ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر : ٢٧] ، قال ابن عبّاس : «﴿ٱلسَّمُومِ﴾ الريحُ الحارّة التي تقتل» .

---

(١) الآيات من سورة البقرة (١٧ ـ ٢٠) .

(٢) انظر : الدر المنثور للسيوطي (١/ ٨٠ و٨١) طبعة دار الفكر؛ وانظر : تفسير الماوردي (١/ ٧٥) .

وعنه أيضاً: «أنّها نار لا دخان لها ، والصّواعق تكونُ منها ، وهي نارٌ تكون بين السَّماء والحجاب ، فإذا أحدثَ اللهُ أمراً اخترقتِ الحجابَ فهوتِ الصَّاعقةُ إلى ما أمرت ، فالهدَّةُ التي تسمعون خرقُ ذلك الحِجاب»[1] .

* وفي تفسيرِ قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النّحل : ٦٠] ، قال : « ﴿ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾ : النّار؛ و﴿ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ : شهادة أنْ لا إله إلا الله»[2] .

* وأخرج البخاريُّ في صحيحهِ في كتاب «التّفسير» بسنده عن سعيدِ بنِ جُبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : «لما نزلت : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] ، صَعِدَ النَّبيُّ ﷺ على الصَّفا ، فجعل ينادي : «يا بني فِهر ، يا بني عديّ» ـ لِبُطُون قريش ـ حتى اجتمعُوا ، فجعل الرَّجلُ إذا لم يستطعْ أن يخرجَ ، أرسلَ رسولاً لينظرَ ما هو ، فجاء أبو لهبٍ وقريشٌ ، فقال : «أرأيتكم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً بالوادي تريدُ أنْ تغيرَ عليكم أكنتُم مُصَدّقيَّ»؟

قالوا : نعم ، ما جرّبنا عليكَ إلاّ صدقاً .

قال : «فإنّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شَديد» .

فقال أبو لهب : تباً لك سائرَ اليوم ، ألهذا جمعتنا؟

فنزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾[3]» .

* ولابن عبّاس أقوالٌ في التَّفسير تتوافقُ مع الهدي النّبويّ ، منها تفسير قولِهِ تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

---

(١) انظر : تفسير القرطبي (١٠/ ٢٣)؛ ومعنى «الهدّة» : صوت وقع الحائط ونحوه ، و«الهدة» : صوت ما يقع من السَّحاب .

(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ١١٩) .

(٣) فتح الباري (٨/ ٣٦٠) حديث رقم (٤٧٧٠) .

* فقد أخرج ابنُ جرير ، وابنُ المنذر؛ وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ ، يقول: «لا تقتلُوا النّساء والصّبيان ، ولا الشّيخ الكبير ، ولا مَنْ ألقى السَّلم وكفَّ يده ، فإنْ فعلتُم فقد اعتديتم»[(١)].

* ولابن عبّاس رضي الله عنه أقوالٌ موجزةٌ في تفسير الآياتِ تشيرُ إلى ما أوتيه من فَهْم وعلْم ، ومنها في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعراء: ٨٩] ، قال: «شهادةُ أنْ لا إله إلاّ الله»[(٢)].

* وكذلك ما وردَ أنَّه قال في رجلٍ حلَفَ ألاّ يكلِّم فلاناً حتّى حين؛ فقال: «الحينُ في اليومِ والليلةِ ، وهو قولُه تعالى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الرّوم: ١٧] ، والحينُ في ثلاث؛ وهو قولُه تعالى في قومِ هود: ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الذاريات: ٤٣] ، والحينُ في كلّ سنة ، وهو قوله تعالى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: ٢٥]»[(٣)].

* وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]؛ قال: «إلى معاد: إلى مكّةَ»[(٤)].

* إنَّ كتُبَ التّفسيرِ على اختلافِ مشاربها تشهدُ لعبدِ اللهِ بنِ عبّاس رضي الله عنهما بعلو الكَعْب ، والتّبحّرِ في أعماق العلْم ، واستخراجِ دُرره وجواهره ، ممّا يجعلُه عبقرياً بارزاً من أئمةِ المفسّرين الصّحابة ، ولا يستطيع الباحثُ أن يحصرَها في كتابٍ ، وإنني أقترحُ أن يُقدّم تفسير ابن عبّاس منخولاً من الشّوائب في رسالةٍ علميةٍ لنيل شهادة العالمية.

---

(١) انظر: الدّرُّ المنثور للسّيوطي (١/ ٤٩٣)؛ وهذا يتوافقُ مع ما أخرجه ابنُ أبي شيبة عن أنس قال: «كنا إذا استنفرنا ، نزلنا بظهر المدينة حتى يخرجَ إلينا رسولُ اللهِ ﷺ ، فيقول: «انطلقوا بسم الله ، وفي سبيل الله تقاتلون ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً ، ولا امرأة ، ولا تغلّوا».

(٢) انظر: حلية الأولياء (١/ ٣٢٣).

(٣) البصائر والذخائر (٧/ ٨١ و٨٢).

(٤) شفاء الغرام (١/ ٧٩).

تَفسيرُ ابنِ عبَّاس القُرآنَ باللغَةِ:

* عُرِفَ ابنُ عبّاس رضي الله عنه بسَعةِ أُفقهِ، وكثرةِ تبحّره في اللغةِ العربيّةِ، وفي شعْرِ العرب، فكان يستخدمُ اللغةَ والشّعرَ في خدمةِ التّفسير لتتوضحَ معالمُ التّنزيل بما يسوقه من أشعارٍ تعزّزُ ما يذهبُ إليه في تفسيره.

* ولهذا قال عنه مجاهدٌ رحمه الله: «ما رأيتُ أحداً قطّ أعربَ لساناً من ابن عبَّاس».

* وعن عمرو بنِ دينار رحمه الله قال: «ما رأيتُ مجلساً قطّ أجمعَ لكلّ خيرٍ من مجلسِ ابن عبّاس للحلالِ والحرامِ، وتفسير القرآن، والعربيّة، والشّعر»[1].

* نقل السّيوطي رحمه الله في «الإتقان» أنَّ ابن عبّاس قال: «الشّعرُ ديوانُ العرب، فإذا خفي علينا الحرفُ من القرآن ـ الذي أنزله الله بلغةِ العربِ ـ رجعنا إلى ديوانها، فالتمسْنا معرفةَ ذلك منه».

* وقال ابنُ عبّاس أيضاً: «إذا سألتموني عن غريبِ القرآن، فالتمسوه في الشِّعر، فإنَّ الشّعرَ ديوانُ العرب».

* وعن عبد اللهِ بنِ عبد الله بن عتبةَ، عن ابن عبّاس: «أنَّه كان يسألُ عن القرآنِ، فينشدُ فيه الشّعر»[2].

قال أبو عُبيد: «يعني كان يستشهدُ به على التّفسير»[3].

* ولذلك كانت معرفتُه لِلُغَةِ القُرآن تتجاوزُ القضايا الدّينية والتّشريعية إلى الإحاطةِ بلغةِ العرب، والاستشهاد على أسلوب القرآن بما كان شائعاً من التَّعبير العربيّ الجاهلِيّ الصَّميم.

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣١٠)، والاستيعاب (٢/ ٣٤٥) بتصرف يسير.

(٢) أقول: «كان ابنُ عبّاس مع معرفته بالشّعر وصناعته، لا يجيزُ الشّعراء ولا يعطيهم»، فقد وردَ أن عتبة بن مرداس قد مدحَ ابنَ عباس فقال: «لا أعطي من يعصي الرحمن، ويطيعُ الشّيطان، ويقولُ البهتان» (البيان والتبيين ١/ ٢٨٤).

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٨٢) طبعة دار ابن كثير المحققة.

* كان العلماءُ من مختلفِ الفئاتِ يقفُون أمامَ منزلِ ابن عبّاس ، منهم مَنْ يطلبُ القرآنَ ، والحديثَ ، والحلالَ والحرامَ ، والفرائضَ ، وكلُّهم يدخلُ منزلَه ويسأله ، فيجيبُهم ويخبرهم ، وكان يُنادىٰ أمامَ منزله: مَنْ أرادَ أنْ يسألَ عن العربيةِ والشّعرِ والغريبِ من الكلامِ فليدخل ، فيدخلُوا حتى يملؤوا منزلَه ، فما يسألونه عن شيءٍ إلاّ كان يخبرهُم به ، ويزيدهُم مثله[1].

* ومن المؤكّد أنَّ مسائلَ نافعِ بنِ الأزرق معروفةٌ مشهورةٌ متعالَمةٌ بين أهلِ التّفسير ، وهي تلكم الكلمات التي سأل نافعُ ابنَ عبّاس ، فأجابه عنها ، واستشهد لكلّ كلمة فسّرها له ببيتٍ من الشِّعر ، قاله أحد مشاهير الشعراء وفطاحلهم.

* فقد روي أنَّ نافعَ بنَ الأزرق ، ونجدةَ بنَ عُويمر خرجا في نفرٍ من الخوارجِ يطلبون العلْمَ ، فدخلا مكَّة ، فإذا بابن عبّاس عند زمزمَ يسألهُ النّاسُ في التَّفسير وهو يجيبُهم ، فسأله نافعٌ عن آياتٍ في القرآن ، وعن كلماتٍ فيها ، فيقول له نافعٌ: وهل تعرفُ العربُ ذلك قبل أنْ ينزلَ الكتاب؟

فيقول له: نعم. وينْشِدهُ بيتاً من الشِّعر حتى شهدَ له هو وأصحابُه بسعةِ المعرفةِ ، وغزارةِ العِلْم.

* وهذه المسائلُ قد استوعبها السّيوطيُّ في كتابه الشَّهير «الإتقان في علوم القُرآن»[2] ، وذكر السُّيوطي أنَّ ابنَ الأنباري قد أخرجَ بعضها في كتاب «الوقْف» ، وكذلك الطَّبراني في «معجمه الكبير».

* بيد أنَّ السُّيوطي قد ساقَها بتمامِها حتى تكونَ الفائدةُ أعمَّ ، وليستفيدَ منها أهلُ العلْمِ والتّفسير واللغة.

* بدأ السُّيوطيُّ في ذكْرِ المسائل ، وساقَ فيها سنَداً طويلاً مرفوعاً إلى

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١١/ ٣١٠ و٣١١) ، والبداية والنهاية (٨/ ٣٠٢) مع الجمع والتصرف.
(٢) انظر الإتقان (١/ ٣٨٢ ـ ٤١٦).

حُميدِ الأعرج ، وإلىٰ عبدِ الله بنِ أبي بكر بن محمّد عن أبيه قال: «بينا عبدُ الله بنُ عبّاس جالسٌ بفناءِ الكعبةِ ، قد اكتنفه النّاسُ يسألونَه عن تفسيرِ القرآنِ؛ فقال نافعُ بنُ الأزرق لنجدةَ بنَ عُويمر: قمْ بنا إلى هذا الذي يجترىءُ على تفسيرِ القرآنِ بما لا علْم له به؛ فقاما إليه فقالا: إنّا نريدُ أنْ نسألك عن أشياءَ من كتابِ اللهِ فتفسّرْهَا لنا ، وتأتينا بمصادقة من كلامِ العرب ، فإنَّ الله تعالى إنّما أنزلَ القرآن بلسانٍ عربي مُبين.

فقال ابن عبّاس: سَلاني عمّا بدا لكما. . . .».

* ويمضي السُّيوطي ، فينقلُ مسائل ابن الأزرق مع أجوبةِ ابن عبّاس مع الشَّواهد الشّعرية ، وقد بلغ عددُ المسائل في كتاب «الإتقان» ما يقاربُ مئة وتسعين مسألة في التّفسير ، ويمكنني أنْ أصفَها بأنّها مسائل في التّفسير الأدبي لبعض مفردات القُرآن الكريم وألفاظه.

* وقد تتبعتُ المفرداتِ والكلماتِ في مسائل ابن الأزرق حسب ترتيب السُّيوطي لها ، وأحببتُ أنْ أسجّلَهَا هنا لتمامِ الفائدة ، وهي كما وردت تماماً في القُرآن الكريم: «عِزِين ، الوسيلة ، شرعة ومنهاجاً ، يَنْعِه ، ريشاً ، كبَد ، سَنا ، حَفَدة ، حناناً ، ييْأَس ، مثبوراً ، أجاءها ، نديّاً ، أثاثاً ورئيا ، قاعاً صفصفاً ، تضحى ، خوار ، تَنِيا ، القانع والمعتر ، مَشِيد ، شُواظ ، أفلح ، يؤيّد ، نُحاس ، أمشاج ، فُومها ، سامدون ، غَوْل ، اتَّسق ، خالدون ، جفَان كالجَواب ، في قلبه مرضٌ ، لاَزِب ، أنداداً ، لشوباً من حميم ، قطَّنا ، حمأ مسنون ، البائس الفقير ، غدقاً ، بشهاب قبس ، أليم ، قفينا ، تردّى ، نَهَر ، للأنام ، يحُور ، أدنى ألا تعولوا ، وهو مليم ، تحسّونهم ، ما ألفينا ، جنَفاً ، بالبأساء والضراء ، إلا رمزاً ، فقد فاز ، سواء ، الفلك المشحون ، زنيم ، قِددا ، الفلق ، خَلاَق ، قانتون ، جدّ ربّنا ، حميم آن ، سلقوكم بألسنة حداد ، أكدى ، وزر ، قضى نحبه ، ذو مرة فاستوى ، المعصرات ، عضدك ، في الغابرين ، فلا تأْسَ ، يصدفون ، أن تبسل ، فلما أفلت ، الصّريم ، تفتأ ، خشية إملاق ، حدائق ، مُقيتا ،

ولا يؤوده ، سرياً ، وكأساً دهاقاً ، لكَنُود ، فسينغضون إليك رؤوسهم ، يوعون ، الرّفد المرفود ، غير تتبيب ، هيت لك ، عصيب ، مؤصدة ، لا يسأمون ، أبابيل ، ثقفتموهم ، فأثرن به نقعاً ، في سواء الجحيم ، مخضود ، هضيم ، قولاً سديداً ، إلاًّ ولا ذمّة ، خامدين ، زُبَر الحديد ، فَسُحقاً ، إلا في غرور ، وحصوراً ، عبوساً قمطريراً ، يكشف عن ساق ، إيابهم ، حوباً ، العنت ، فتيلاً ، قطمير ، أركسهم ، أمرنا مترفيها ، يفتنكم ، كأن لم يغنوا ، عذاب الهون ، ولا يظلمون نقيراً ، لا فارض ، الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، ما شَروا ، حسباناً من السّماء ، وعَنتِ الوجوه ، معيشة ضنكاً ، من كلّ فج ، ذات الحبك ، حَرضاً ، يدع اليتيم ، السّماء منفطر به ، فهم يوزعون ، كلّما خبت ، كالمُهل ، أخذاً وبيلاً ، فنقّبوا في البلاد ، إلا همساً ، مقمحون ، في أمر مريج ، حتماً مقضياً ، وأكواب ، ينزفون ، كان غراماً ، التّرائب ، قوماً بوراً ، نفشت ، ألد الخصام ، بعجل حنيذ ، من الأجداث ، هلوعاً ، ولات حين مناص ، ودُسر ، ركزاً ، باسرة ، ضيزى ، لم يتسنّه ، ختّار ، عين القطر ، أُكُل خَمط ، اشمأزت ، جُدَدٌ ، أغنى وأقنى ، لا يلتكم ، وأبّاً ، ولا تواعدوهن سرّاً ، فيه تسيمون ، لا ترجون لله وقاراً ، ذا متربة ، مهطعين ، هل تعلم له سمياً ، يُصهر به ، لتنوء بالعصبة ، كل بنان ، فأصابها إعصار ، مراغماً ، صلداً ، ممنون ، جابوا الصخر ، جمّاً ، غاسق ، في قلوبهم مرض ، يعمهون ، إلى بارئكم ، لا ريب فيه ، ختم الله على قلوبهم ، صنوان ، فيها صرٌّ ، تبوئ المؤمنين ، رِبيّون ، مخمصة ، وليقترفوا ما هم مقترفون».

* ومن بين تلكم العشرات المضيئات من ألوان التّفسير ، انتقيتُ بعضَها لِتُنيرَ لنا دربَ التَّفسير عن الحبْرِ البحرِ ابن عبّاس رضي الله عنه وأرضاه.

* فمن ذلك أنّ نافعَ بنَ الأزرق قال لابن عبّاس: «أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨] قال: الشّرعة: الدّيْن. والمنهاج: الطّريق.

قال نافعُ بنُ الأزرق: وهل تعرفُ العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعتَ أبا سُفيان بنَ الحارث بن عبد المطلب[1] وهو يقول:

لَقدْ نَطَقَ المأْمُونُ بِالصِّدْقِ وَالهُدى   وبيَّـنَ لـلإسْـلامِ دِينـاً ومَنْهَجـا»[2]

* ومن بين الأسئلةِ الكثيرة التي سألَ نافعُ بنُ الأزرق ابنَ عبّاس، أنَّه قال له: «أخبرني عن قولهِ تعالى: ﴿شُوَاظٌ﴾ [الرحمن: ٣٥].

قال: الشّواظ: اللهبُ الذي لا دُخان له.

قال نافع: وهل تعرفُ العربُ ذلك؟

قال: نعم؛ أما سمعتَ قولَ أميّةَ بن أبي الصَّلت:

يَظَـلُ يشـبُّ كِيْـراً بَعْـدَ كِيـرٍ   وينفـخُ دائبـاً لَهـبَ الشُّـواظِ»[3]

* ومن خلال خضمّ موجةِ الأسئلةِ القرآنيةِ المُمتعَةِ، سأل نافعُ بنُ الأزرق الحبْرَ ابنَ عبّاس عن قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ [العاديات: ٤].

---

(١) اقرأ سيرة الصَّحابي الجليل «أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب» في كتابنا: «رجال مبشّرون بالجنة» ص (١٢٨ ـ ١٥١) الطبعة الرّابعة، ففي سيرته وقفاتٌ آسرةٌ مفيدة، تفوح بروائع الأنفاسِ المحمديةِ، وأبو سفيان هذا ابن عمّ عبد الله بن عبّاس، وهو شاعرٌ مجيدٌ محسنٌ من شعراءِ الصَّحابة الفصَحاء، ومن فرسانِ المدرسة النّبوية المباركة.

(٢) انظر: الإتقان (١/ ٣٨٣ و٣٨٤). ومن الجدير بالذكر أنَّ صيغة ﴿شِرْعَةً﴾ أتتْ وحيدةً في هذه الآية بالقرآن الكريم كاملاً.
وكذلك كلمة ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ فوحيدةٌ في القرآنِ الكريم صيغةً ومادةً.
وتفسيرُ ابن عبّاس للشّرعة بالدّين هو عَيْن الصَّواب، لأن الشّرعة هي الشّريعة، وفي أصل اللغة بأن الشّريعة: هي مورد الشّاربة.
والمنهاج: هو الطّريق المعبد المأمون.
فالمنهاج: الطّريق الواضح. (مختار الصّحاح).

(٣) انظر: الإتقان (١/ ٣٨٧).
إنَّ تفسيرَ ابن عبّاس لكلمة ﴿شُوَاظٌ﴾ باللهبِ الذي لا دخان فيه هو ما ذكره الرّاغبُ الأصفهاني في «مفرداته»، بل اقتصرَ على الصّيغة نفسها ولم يزدْ عليها شيئاً.
وقال الزّمخشري في «الكشّاف»: «الشّواظ: اللهبُ الخالصُ. وفي اللغة: «الشُّواط»: بضم الشّين وكسْرِها: اللهبُ الذي لا دُخان له».

فقال ابن عبّاس: «النّقع: ما يسطعُ من حوافرِ الخيلِ، أما سمعتَ قولَ حسان بنِ ثابت:

عَـدمْنَـا خَيْلَنَـا إنْ لَـمْ تَـروهَـا   تثيـرُ النَّقْـعَ مـوعـدُهـا كَـدَاء»[١]

* وسأل نافعُ عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠]، قال ابن عبّاس: «في باطلٍ، أما سمعتَ قول حسّان:

تَمنَّتْـكَ الأمَـانـي مِـنْ بَعيـدٍ   وقَولُ الكُفْرِ يرجعُ في غُرور»[٢]

* وكلمةُ ﴿غُرُورٍ﴾[٣] قد وردتْ مِراراً في القُرآن الكريم، وسياقها فيمن غرّتهم الحياةُ الدنيا، وغرّهم الشَّيطانُ، والأماني وزخرفُ القول، وما يَعِدُ الظّالمون بعضُهم بعضاً.

* وقال نافعٌ: أخبرني عن قولهِ تعالى: ﴿ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

قال ابن عبّاس: «بياضُ النّهار من سوادِ الليلِ، وهو الصُّبحُ إذا انفلق».

---

(١) الإتقان (١/١٠١).
و«كداء»: مكانٌ في أعلى مكّة. وهذا البيتُ من قصيدةٍ متألّقة، ومن عيونِ شعر حسّان ابن ثابت الأنصاري رضي الله عنه وانظر القصيدة كاملة في ديوانه، وفي السّيرة النّبوية لابن هشام.
وكلمة: ﴿نَقْعًا﴾ وحيدة في القرآن العظيم صيغةً ومادةً.
و«النّقع» بوزن النّفع، وهو الغبار ويبدو أنّ وجْه التّقريب في شرحه بما يصدر عن حوافر الخيل من الغبار حين عدوها وعند القتال والحرب، قال بشار بن برد:
كـأنَّ مثـارَ النّقـعِ فـوقَ رؤوسنـا   وأسيـافُنـا ليـلٌ تهـاوى كـواكبُـه

(٢) الإتقان (١/٤٠٢).

(٣) انظر مادة «الغرور» في القرآن الكريم في سورة: آل عمران آية (١٨٥)، والنّساء آية (١٢٠)، والأنعام آية (١١٢)، والإسراء آية (٦٤)، والأحزاب آية (١٢) وغيرها كثير.
ومما لا شكّ فيه أنَّ من يتبع الغرورَ والشّيطان يكونُ من أهل الضّلال والفساد، ولله درُّ مَنْ قال مقتبساً من القرآن الكريم من سورة الكهف آية (١٨):
أهْـلُ الضَّـلالِ سُمـومٌ   لا شـكَّ يصْلَـونَ نـارا
لـو اطّلعْـتَ عليهـم   ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾

فلمّا سأله نافعُ بنُ الأزرق: وهل تعرفُ العربُ ذلك؟

قال: «نعم ، أما سمعتَ قولَ أميّة[1]:

الخيطُ الأبيضُ ضوءُ الصّبحِ منفَلقٌ والخيطُ الأسودُ لونُ الليلِ مكْمُومُ[2]

* وتمضي مسائلُ نافع بنِ الأزرق على هذه الشَّاكلة ومن أرادَ الاستزادةَ ، فعليه بكتابِ «الإتقان» حيث يجدُ بغيتَه ، ويشبعُ رغبتَه ، بما أوردَ فيه من رائقِ الشِّعر الجاهليّ ورقائق الشِّعر الإسلاميّ[3].

* والآن ، لعلَّ سائلاً يسأل: أليسَ القرآنُ الكريم عربيّاً خالصاً؟ وهل يمكن أن نفسّرَهُ باللغةِ ، وأنْ نستوفيَ معانيه بذلك؟!

---

(١) «أميّة»: هو أمية بنُ أبي الصَّلت الشَّاعر الجاهليّ المشهور الذي كان يتأله في الجاهلية ، وأخبارهُ مشهورة في المصادر القديمة.

(٢) انظر: الإتقان (١/ ٤٠٤) ، وانظر: ديوان أمية (ص ٤٨٣). وفي تقديري أنَّ هذا البيتَ من الأبياتِ المصنوعةِ والمنسوبةِ إلى أميةَ بنِ أبي الصلت ، لأنّ معنى البيت مستوحىً من القرآنِ العظيم ، والحديثِ الشَّريف ، وهو بيتٌ يتيم وحيد ، وليس من قصيدةٍ ، وربما وُضعَ للدّلالة على محلّ الشّاهد ليس غير.
ومعنى «منفلق»: واضحٌ بيّن ، من فلق الله الفجرَ ، إذا أبدأه وأوضحه؛ و«المركوم: الذي تراكم بعضُه فوق بعض؛ و«المكمومُ»: المستور والمغطى بالظلام.
وقد ورد في الحديث الصّحيح المشهور بأنَّ عديَ بنَ حاتم الطّائي رضي الله عنه أخذ حبلاً أسودَ ، وحبلاً أبيضَ ، وجعلهما تحت وسادة لينظر إليهما عند الفجر ، وجاء إلى رسولِ الله ﷺ ، فأعلمه بذلك ، فقال: «إنّك لعريض القفا ليس المعنى ذلك ، ولكنّه بياض الفجر من سواد الليل». (الصّحيحان) ، وانظر: (لسان العرب؛ مادة: خيط).
ومن الجدير بالذكر أنَّ تفسيرها بياض النهار من سوادِ الليل منسجمٌ مع معنى الآية: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

(٣) نظم بعض الفضلاء قصيدة طويلة ، أشار فيها إلى الشّعر وإلى المعلقات ، ومسائل ابن الأزرق فقال:

لو لم يكن للشّعر عند مَنْ مضى فضلٌ على الكعبة لم يعلّق
لو لم يكن فيه بيانُ آية ما فسّرت مسائل ابن الأزرق
ما هو إلا كالكتابة وما فضلهما إلا كشمس الأفق
وإنما نزّه عنهما النبي ليدرك الإعجاز بالتّحقُّق

* وللإجابةِ عن هذا السُّؤال نقول: «من الصَّعبِ أن نتوقّفَ في تفسير القرآنِ العظيمِ على اللغةِ وحدها، أو على الشِّعر وحده؛ لأنَّ ذلك لا يفي بالغرض، لأنّنا باللغة قد نفهمُ بعضَ معاني الكلمات أوالألفاظ في دلالتها، وكذلك من شعْرِ الفصحى، وأقوالِ البلغاء، وديوان العرب نقتبسُ بعضَ الشّواهد لتبيان ما أشكل فهمُه في القرآن، ولكنْ يجبُ أن يكونَ التَّفسيرُ شاملاً كاملاً، إذ القرآنُ هو اللفظُ والمعنى، ويحتاجُ إلى توضيحٍ بالقرآن نفسه، وبحديث رسولِ الله ﷺ الذي بلَّغ القرآن وبيّنه، وكذلكَ بأقوال الصَّحابة والمفسّرين الذين نهلوا معارفهم من معين علمي كريم يصدر عن القرآن الكريم نفسه، وعن الحديثِ النبوي الشَّريف».

المُفْتِي المجتهد:

* يُعَدُّ سيّدنا ابنُ عبّاس من أكثرِ الصَّحابةِ الكرام فتوى، ومن أحسنِهم في هذا المجال، حتّى قال مجاهدٌ رحمهُ الله: «ما سمعتُ فُتيا أحسنَ من فُتيا ابن عبّاس، إلاّ أنْ يقولَ قائلٌ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ»[1].

* وعن طاووس اليمانيّ رحمه الله قال: «أدركتُ نحواً من خمس مئة من الصَّحابة، إذا ذَاكَروا ابنَ عبّاس فخالفُوه، فلمْ يزلْ يُقرّرُهم حتى ينتهُوا إلى قولِهِ»[2].

* وقال القاسمُ بنُ محمّد: «ما رأيتُ في مجلسِ ابن عبّاس باطلاً قطّ»[3].

* وكان ابنُ عبّاس أحدَ الفقهاء السَّبْعةِ الذين انتهت إليهم الفُتيا بعد رسولِ اللهِ ﷺ، فكانُوا من المكثرين فيها، وكان ابنُ عبّاس أكثرَ فقهاً وفُتيا واجتهاداً من عبدِ الله بنِ عمر رضي الله عنهم أجمعين وحشرنا في معيّتهم.

* وقد قام بالفتوى بعد النّبيّ ﷺ عددٌ كبيرٌ من الصَّحابة رضي الله عنهم

---

(١) انظر: سير أعلام النّبلاء (٣/ ٣٥٠ و٣٥١).
(٢) سير أعلام النّبلاء (٣/ ٣٥١).
(٣) المصدر السَّابق نفسه.

كلٌّ أفتى عمّا سُئِل عنه ، وكان فيهم مُكْثِرٌ ومقلٌّ ، بَيْد أنَّ الذين حُفظت عنهم الفتوى من الصَّحابةِ مئةٌ ونيفٌ وثلاثون نفساً ما بين رجلٍ وامرأة ـ كما أوردَ ذلك ابنُ حزم في كتابهِ الإحكام[1] ـ ، غير أنَّ المكثرينَ للفُتيا منهم سبعةٌ من أكابر علماء الصّحابة وفقائهم ، وهم :

* عمرُ بنُ الخطّاب .

* عليُّ بنُ أبي طالب .

* أمُّنا عائشةُ بنتُ أبي بكر الصِّدِّيق .

* عبدُ الله بنُ مسعود .

* زيدُ بنُ ثابت .

* عبدُ الله بنُ عبّاس .

* عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهم أجمعين وحشرنا في معيّتهم .

* أجمع علماءُ السَّلَف أنَّ أكثرَ هؤلاء السَّبْعة إفتاء هو : سيدنا عبدُ الله بنُ عبّاس رضي الله عنه ـ كما يقول الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل ـ ، وقد ذكر ذلك السّخاوي في «فتح المغيث» وقال : «كان كبارُ الصَّحابةِ يحيلُون عليهِ في الفتوى»[2] .

* قال ابنُ حزمٍ في كتابهِ النَّفيس «الإحْكام في أصولِ الأَحْكام» : «قد جمعَ أبو بكر محمّدُ بنُ موسى بنِ يعقوب ابن أمير المؤمنين المأمون فُتيا عبدِ الله بنِ العبَّاس في عشرين كِتاباً ، وأبو بكرٍ المذكورُ أحدُ أئمةِ الإسلام في العِلْم والحديث»[3] .

---

(١) انظر : الإحكام في أصول الأحكام (٥/٨٦٨) ، وانظر : جوامع السّيرة النبوية لابن حزم أيضاً ، حيث ذكر منهم (١٤٢ رجلاً) و(٢٠) امرأة على مراتبهم في الفتيا . (جوامع السّيرة ص ٣١٩ ـ ٣٢٣) .

(٢) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للسّخاوي (٣/١٠٨) طبعة القاهرة .

(٣) الإحكام في أصول الأحكام (٥/ ٨٦٩) .

* قسَّم ابنُ حزم الصَّحابة في الإفتاء «ثلاثةَ أقسامٍ فمنهم: مُكثرون، ومتوسّطون، ومُقلُّون.

فالمكثرون سبعةٌ كما أوردنا أسماءهم قبل قليل، ويمكنُ أن يجمعَ من فُتيا كُلِّ واحدٍ منهم سِفْرٌ ضَخْم.

والمتوسّطون ثلاثةَ عشرَ هم: أمُّنا أمُّ سَلمةَ، أنسُ بنُ مالك، أبو سعيد الخدريّ، أبو هُريرة، عثمانُ بنُ عفّان، عبدُ الله بنُ عمرو بنِ العاص، عبدُ الله بنُ الزُّبير، أبو مُوسىٰ الأشعريّ، سعدُ بنُ أبي وقّاص، سلمانُ الفارسيّ، جابرُ بنُ عبد الله، معاذُ بنُ جبل، أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنهم أجمعين.

* قال ابنُ حزم: «يمكنُ أنْ يجمعَ من كلّ امرىءٍ منهم جزء صغير». قال: «ويُضاف إليهم أيضاً: طلحةُ، والزُّبير، وعبدُ الرحمن بن عوف، وعمرانُ بنُ الحصين، وأبو بكرة، وعبادةُ بنُ الصَّامت، ومعاويةُ بنُ أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين».

* وأما المقلُّون للفُتيا من الصَّحابة عند ابن حزم، فهم الباقون ومنهم: «أبو الدّرداء، وأبو سلمةَ المخزوميّ، وأبو عُبيدة بنُ الجرّاح رضي الله عنهم أجمعين» وغيرهم.

* قال ابنُ حزم: «يمكنُ أنْ يجمعَ من فُتيا جميعهم جزءٌ صغيرٌ فقط بعد التّقصّي والبحث، وذكر أنّه لا يروي الواحدُ من هؤلاء المقلّين إلا المسألةَ والمسألتَيْن والزّيادةَ اليسيرةَ فقط»[1].

* وأمّا أحكامُ الحج فقد كان عبدُ الله بنُ عبّاس من علماء الصَّحابة بذلك، وكان من الصَّحابةِ العُلماءِ بما يتعلّق في هذه الفريضةومناسكها؛ وقد شهدتْ له أمُّنا عائشةُ بنتُ الصِّدِّيق رضي الله عنهما بهذهِ الميزةِ الميمونةِ فقالت: «ابنُ عبّاسٍ أعلمُ النّاسِ بالحجّ».

---

(١) انظر الإحكام (٥/ ٨٦٩ ـ ٨٧١) باختصار وتصرف.

* وعن نافع قال: «كان ابنُ عمر ، وابن عبَّاس رضي الله عنهم أجمعين يجلسان للنّاس عند قدوم الحاج ، فكنتُ أجلسُ إلى هذا يوماً ، وإلى هذا يوماً ، فكان ابنُ عبَّاس يجيبُ ويُفتي في كلِّ ما سُئِل عنه ، وكان ابنُ عمرَ يردُّ أكثرَ ما يفتي» .

* وكان سيدنا ابنُ عبّاس مبعثَ العُلماء على الفخرِ بفقههِ وعلمِه؛ قال مجاهدٌ: «كُنّا نفخرُ على النَّاس بأربعة: نفخرُ بفقيهِنا ، ونفخرُ بقاضينا ، ونفخرُ بقارِئنا ، ونفخر بمؤذننا ، فأمّا فقيهُنا ، فابن عبَّاس؛ وأمّا قاضينا ، فعبيد بن عمير ؛ وأمّا قارئنا ، فعبدُ الله بنُ السَّائب ؛ وأمّا مؤذنُنا فأبو محذورة»[1] .

* وقال عليُّ بنُ المَدينيّ رحمه الله : «لم يكنْ في أصحابِ رسولِ الله ﷺ أحدٌ له أصحابٌ يقومون بقولهِ في الفقْه إلاّ ثلاثةٌ: ابنُ مسعود ، وزيدُ بنُ ثابت ، وابنُ عبَّاس»[2] .

* ولم يكن ابنُ عبّاس يسلكُ في الفقْه مَسْلَكَ التَّعصُّب ، وإنّما كان ينهجُ في فقههِ النَّهجَ العلميَّ الموزونَ ، ولا يكادُ يقولُ برأيهِ إلاّ إذا لم يجدْ في ذلك نصّاً ، أو تقريراً ، أو فتوى قالها أساتذتُه في الفتوى كأبي بكْرٍ وعائشة وعمرَ وعليٍّ رضوان الله عليهم أجمعين .

* قال عُبيدُ الله بنُ أبي يزيد: «كان ابنُ عبَّاس إذا سُئلَ عن شيءٍ ، فإن كان في كتابِ اللهِ عزّ وجلّ قال به ، وإن لم يكنْ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وكان عن رسولِ اللهِ ﷺ فيه شيءٌ قال به ، فإن لم يكن من رسولِ اللهِ ﷺ فيه شيءٌ ، قال بما قال به أبو بكر ، وعمرَ ، فإن لم يكن لأبي بكر وعمرَ فيه شيءٌ قال برأيهِ»[3] .

* وعن ابن عبّاس قال: «كُنَّا إذا أتَانَا الثَّبْتُ عن عليٍّ رضي الله عنه لم نعدلْ بهِ» .

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣٠٩).
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٧٤).
(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣١٣).

* أمّا مسائلُ فقههِ فيمكنُ للباحثِ أن يجمعَها في مجلداتٍ عديدةٍ ، فهو حبْرُ الأمّةِ وترجمانُ القرآن ، والذي يتتبّعُ في كتبِ الفقْهِ يجد آثار ابن عبّاس العلميّة تحتلُّ الصَّدارة في بداياتِ الأبواب الفقهيّة ، وها نحن أولاء نسوقُ بعضَ الاجتهادات وألوان الفقه التي أُثرتْ عن الحبْرِ البحر ابن عبّاس رضي الله عنه وأرضاه.

* فقد كان ابنُ عبّاس رضي الله عنهما لا يرىٰ بأساً بقراءةِ القُرآنِ الكريمِ للحائضِ والجُنُبِ. قال الإمامُ البخاريُّ في صحيحهِ: «ولم يرَ ابنُ عبّاس بالقراءةِ للجُنبِ بأْساً».

* وإلى هذا الرّأي ، ذهب البخاريُّ رحمه الله ، وكذلك الإمام الطَّبريُّ ، وابنُ المنذر ، وداودُ ، ولم يصحّ عند الأحاديث الدّالة علىٰ المنع[1].

* وترىٰ أمّنا رضي الله عنها عائشة أنَّ ابنَ عبّاس من أفْقَهِ النّاس في أحكام الحجّ ، وكان له رأيٌ نفيسٌ في نيّةِ الحجّ ، فقد روىٰ ابنُ جرير الطَّبري في تفسيرهِ عن ابن عبّاس قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧] ، وهنَّ: شوال ، وذو القعدة ، وعشْرٌ من ذي الحجّة ، جعلهنَّ اللهُ سبحانه للحجّ ، وسائر الشّهورِ للعُمرة ، فلا يصلحُ أنْ يُحرمَ بالحجّ إلاّ في أشهرِ الحج ، والعمرةُ يحرمُ بها في كُلّ شَهْر.

* وقد ذهبَ ابنُ عبّاس إلى أنَّ أشهرَ الحجّ ـ كما ذكرنا ـ لذا فلا يصحُّ

---

(١) انظر: فتح الباري (١/ ١٨٠) بتصرف يسير.
وقد حكي عن الإمام مالك رحمه الله أنه يجوز قراءة القرآن للحائض دون الجنب ، لأن أيامها تطول ، فإن منعناها من القراءة نسيت انظر (المغني ١/ ١٤٠).
وقد ذهب كثير من العلماء والفقهاء إلى أنه لا يجوز للجنب والحائض قراءة شيء من القرآن، ولو كلمة بقصد القرآن، باستثناء ما يسمى بأذكار القرآن كالتسمية والحمد ، واحتجوا على ذلك بجملة من الأحاديث الدالة على المنع من ذلك ، بينما ذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنه يجوز له قراءة ما دون آية ، إذ لا يتحقق الإعجاز إلا بالآية فما فوق.

الإحرامُ بالحجّ في غير هذهِ الأشهر ، وقال: «من السُّنَّةِ ألّا يُحرَم بالحج إلا في أشهر الحجّ»[١].

* وكان لابن عبّاس رأيٌ واجتهادٌ في صومِ النَّافلة ، «فقد جاءه رجلٌ فقال: يابن عبَّاس ، كيف صومُك؟

قال: أصومُ الاثنين والخميس.

قال: ولِمَ؟

قال: لأنَّ الأعمالَ ترفعُ فيهما ، وأحبُّ أنْ يرفعَ عملي وأنا صائم»[٢].

* والحقيقة ، فما فعله ابنُ عبّاس في صومهِ ، لا يخرجُ عن الهدي النّبوي ، وذلك فيما رواه أبو هُريرة عن النّبي ﷺ قال: «تُعرضُ الأعمالُ يوم الاثنينِ والخميسِ ، فأحبُّ أنْ يعرضَ عملي وأنا صائمٌ»[٣].

الحَافِظُ المكْثر:

* لئن حلَّقَ ابنُ عبّاس عالياً في فضاءِ القُرآن الكريم وتفسيرِه ، لقد أجادَ وبرعَ في حفْظِ أحاديث ابن عمّهِ الحبيبِ البشيرِ رسولِ الله ﷺ ، فكان أحدُ المُحدّثين الكبار من عُلماء الصَّحابة ، وأحدُ السَّبعةِ الأكابر المكثرين الذين نقلُوا أكثر من ألف حديث نبويّ عن رسولِ اللهِ ﷺ ، وهو أحد الصَّحابة العبادلة الأربعة العُلماء الفُضلاء النُّجباء الصُّلحاء ، ممن قرعتْ مناقبُهم أذنَ الجوزاء وهم: عبدُ الله بنُ عمر ، عبدُ الله بنُ عبّاس ، عبدُ الله بنُ عمرو بنِ العاص ، وعبدُ الله بنُ الزُّبير ، رضي الله عنهم أجمعين ، وكلُّهم صحابةٌ من أبناء الصَّحابة.

* وفي مرتبةِ السَّادة العلماء الحفّاظ ، يأتي ابنُ عبّاس في المرتبةِ الخامسة

---

(١) انظر: تفسير القرطبيّ (٢/ ٤٠٦).

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣٥٢) ، والبداية والنّهاية (٨/ ٣٠٣).

(٣) أخرجه التّرمذي برقم (٧٤٧) وقال: «حديث حسن».
ولهذا الحديث شاهدٌ أيضاً من حديث أسامةَ بنِ زيد عند أبي داود برقم (١٤٣٦) ، وعند النّسائي (٢/ ٢٠١ و٢٠٢) ، ومن حديث حفصةَ عند النّسائي (٤/ ٢٠٣ و٢٠٤).

في قائمةِ السَّبعةِ المُكثرين من الرّواية ؛ فهو يلي في ذلك أمّنا عائشةَ بنتِ الصِّديق رضوان الله عليها.

* والمكثرون من الصَّحابة للرّواية عن رسولِ اللهِ ﷺ هم مَنْ روى ألفَ حديث فأكثر ، كما قاله الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل رحمه الله ، ونقله ابنُ كثير وغيره ، ذكر ذلك السَّخاوي في فَتْح المغيث[1].

* ولهذا لم يعدّوا عبدَ الله بنَ مسعود ونحوَهُ منهم ، لأنَّ أحاديثَهم لم تصِلْ إلى هذا العدد، إذ جملة ما ذُكرَ لعبد الله بنِ مسعود (٨٤٨ حديثاً)، وذلك لأنَّه كان مشتغلاً بالعبادةِ أكثر من التَّعليم ، ولأَنَّه أقام بعد الفُتوح بالطَّائف أو بمصرَ ، ولم يكن إليها رحلةٌ لِمَنْ يطلبون العِلْم ، كالرّحلة إلى المدينةِ[2].

* أمّا الصَّحابةُ الذين بلغَتْ مروياتُهم عن رسولِ اللهِ ﷺ أكثرَ من ألفِ حديث ، فسبعةٌ من فُضلاء الصَّحابة وخيارهم وكبرائهم ، وهم: أبو هُريرة عبدُ الرّحمن بنُ صخر الدّوسيّ ، عبدُ الله بنُ عمر بنِ الخطَّاب ، أنسُ بنُ مالك ، عائشةُ أمُّ المؤمنين الصِّدِّيقةُ بنتُ الصِّدِّيق ، عبدُ الله بنُ عبَّاس ، جابرُ بنُ عبد الله ، وأبو سعيد الخُدريّ واسمه سعدُ بنُ مالك ، رضي الله عنهم أجمعين ، وقد نظمَ أحدُ العُلماء الشُّعراء أسماءَ هؤلاء السَّبعة تسهيلاً لحفظِهم بقوله:

سَبْعٌ منَ الصَّحْبِ فَوقَ الأَلْفِ قد نَقَلُوا ... مِنَ الحَديثِ عنِ المُخْتَارِ خَيْرِ مُضَرْ
أبـو هُـريـرةَ سَعْـدٌ جَـابِـرٌ أَنَـسٌ ... صِدِّيقةٌ وَابنُ عبَّاسٍ كَذَا ابنُ عُمرْ[3]

* روي لابن عبّاس (١٦٦٠ حديثاً) ، اتّفق الإمامان المُحدّثان البخاريُّ ومسلم في صحيحهما على خمسةٍ وسبعين حديثاً منها ؛ بينما انفردَ البخاريُّ بمئةٍ وعشرين حديثاً ، وتفرّدَ مسلمٌ بتسعةِ أحاديث[4].

---

(١) فتح المغيث (٣/ ١٠٧).
(٢) المختصر في علم رجال الأثر (ص ٣٥).
(٣) انظر: تلقيح فُهوم الأثر (ص ٣٦٣) ، وجوامع السّيرة النّبوية (ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦).
(٤) انظر: سير أعلام النّبلاء (٣/ ٣٥٩) ، وأودّ التّنبيه إلى أنَّه قد وقع خطأ بقوله: «تفرّد =

* وقد جمعَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل رحمه الله أحاديثَ عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما فبلغَتْ ألفاً وسبعمئة وعشرة أحاديث بالمكرّر؛ وجمع الحافظ أبو يعلى الموصليّ أحاديثَ ابن عبّاس في مسنده فبلغَتْ (٤٢٨ حديثاً).

* وأحاديثُ عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما منثورةٌ في كتب الصَّحيح، والسُّنَن، والمسانيد، والمصنَّفات، وكتُب الحديث الأخرى، وكتُب التّراجم والطَّبقات والسِّيرة وغيرها.

* حدَّثَ ابنُ عبّاس عن النَّبيِّ ﷺ بجملةٍ صالحة.

* وحدّث كذلك عن أقاربه، فقد حدَّثَ عن أبيهِ العبّاس، وأمِّه أمِّ الفَضْل، وأخيهِ الفَضْل، وخالتِه ميمونة أمِّ المؤمنين، وابنة عمِّه أمِّ هانىء بنتِ أبي طالب، وابنِ خالتِه خالدِ بنِ الوليد، رضي الله عنهم أجمعين.

* وحدّث عن أسيادِ الصَّحابة وعلمائِهم وأكابِرهم كالخلفاءِ الرّاشدين الأربعة؛ أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، وعن عبدِ الرّحمن بنِ عوف، ومعاذِ بنِ جبل، وأُبيّ بنِ كعْب، وأبي ذرّ الغِفاريّ، وزيدِ بنِ ثابت، وأبي سعيد الخدريّ، وأبي هُريرة، وغيرِهم من الصَّحابةِ العُلماء الفقهاء، رضي الله عنهم أجمعين.

* وحدّث عن عددٍ من أُمّهاتِ المؤمنين: خالتُه ميمونة، وعائشةُ بنتُ أبي بكر الصّدّيق، وجويريةُ بنتُ الحارث، وسَودةُ بنت زمعة، وأمُّ سلمةَ رضي الله عنهنَّ.

* وحدث كذلك عن بعضِ الصَّحابياتِ العَالمات من مثل: أسماء بنت أبي بكر الصّدّيق، وأُمّه، وأمّ هانىء بنت أبي طالب وغيرهنَّ.

= مسلم بتسعة أحاديث»؛ والصّحيح أنَّ مسلماً قد تفرد بتسعة وأربعين حديثاً. فقد ذكر النّووي رحمه الله بأنّ الإمامَ مسلماً قد تفرَّد بتسعةٍ وأربعين حديثاً. (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٧٥)، وانظر كذلك دليل الفالحين لطرقِ رياض الصَّالحين (١/ ٣)، والمُجتبى من المجتبى لابن الجوزي (ص٨٩)، وتلقيح فهوم الأثر (ص ٣٦٣ و٣٩٥)، وجوامع السيرة النبوية (ص ٢٧٦) وغيرها.

* روى عنه من أقاربه وأهلِ بيته ابناه: عليٌّ ومحمّدٌ؛ وحفيدُه: محمدُ بنُ عليّ؛ وأخوه: كثيرُ بنُ العبّاس، وابنُ أخيه: عبدُ الله بنُ عُبيد الله بن عبّاس[1]، وابنُ أخيه الآخر: عبدُ الله بنُ معبد بن عبّاس. وكذلك مواليه: عِكْرمةُ[2]، ومِقْسَمُ، وكُريبُ، وأبو معْبد نافذ.

* وروى عنه من علماء الصَّحابةِ: عبدُ الله بنُ عمر بنِ الخطَّاب، وأنسُ بنُ مالك. كما روى عنه المسْورُ بنُ مخرمة، وأبو الطُّفيل وآخرون.

* وروى عنه من علماء التَّابعين وفقهائِهم عددٌ منهم: عروةُ بنُ الزُّبير، وعليُّ بنُ الحسين، وسعيدُ بنُ جبير، ومجاهدُ بن جبر، والقاسمُ بنُ محمّد، وعطاءُ بنُ يسَار، وعطاءُ بنُ أبي رباح، والشَّعبيُّ، ومحمدُ بنُ سِيْرين، وشهرُ بن حوشب.

* وروى عنه من عالمات النّساء التابعيات: فاطمةُ بنتُ الحُسين بن عليّ[3] وخلائق لا يُحْصَون[4].

---

(١) عبدُ الله بن عُبيد الله بنِ عبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم المدنيّ، روى عن أبيهِ وعمّه. وروى عنه: أبو جهضم موسى بنُ سالم، ويحيى بنُ سعيد الأنصاريّ. قال أبو زُرعة والنّسائي: «ثقة»، وذكره ابن حبّان في الثّقات. روى له الأربعة حديثاً واحداً. قال ابنُ سعد: «كان ثقةً وله حديثٌ واحدٌ» (تهذيب التّهذيب ٥/ ٣٠٦).

(٢) عكرمة مولى ابن عبّاس، أبو عبد الله، أصلُه بربري من أهلِ المغرب، وهو من كبار التّابعين، سمع ابنَ عبّاس، وابنَ عمر، وابنَ عمرو، والحسنَ بن علي، وأبا هريرة، وأبا سعيد، ومعاويةَ، وغيرَهُم.
وروى عنه جماعاتٌ من أكابرِ التّابعين؛ كالشّعبي، والنّخعي، وأبي الشّعثاء. قال يحيى بنُ معين: «عكرمةُ ثقةٌ، وإذا رأيتَ مَنْ يتكلّم في عكرمة فاتّهمه على الإسلام». وقال البخاري: «ليس أحدٌ من أصحابنا إلا يحتج بعكرمة». وقال محمد بنُ سعد: «كان كثيرَ العلْم، بحراً من البحور».
وقال أبو حاتم: «هو ثقةٌ، وهو أعلمُ موالي ابن عبّاس». توفي عكرمة سنَة (١٠٤هـ) رحمه الله (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٣٤٠ و٣٤١).

(٣) اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء من عصر التّابعين» (ص٢٣ ـ ٣٥) فسيرتها إمتاع للأسماع.

(٤) انظر: سير أعلام النّبلاء (٣/ ٣٣٢ و٣٣٣)، وتهذيب التّهذيب (٢/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨) مع الجمع بينهما.

* وفي «التّهذيب» من الرّواة عن ابن عبّاس مئتان سوىٰ ثلاثةِ أنفس[1].

* أمّا أصحّ الأسـانيد ، فكما ذكرَ النسائي : «أنَّ أصحَّ أسانيد ابن عبّاس في الحديث : ما رواه الزُّهري عن عُبيد الله بن عبد الله بن عتبةَ عن ابن عبّاس.

وأضعفُ الأسانيد ما يرويه : محمدُ بنُ مروان السُّديّ الصّغير عن الكلبيّ عن أبي صالح ، وهذه تسمّى : سلْسلَةَ الكَذب»[2].

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٣٣).

(٢) الحديثُ الموضوعُ هو الحديثُ المختلقُ المصنوعُ ، ويحرمُ روايتهُ مع العلْمِ به في أيّ معنى كان إلاّ مبيّناً.
والواضِعُون أو الوضّاعون أقسامٌ ، أعظمُهم ضَرراً قومٌ ينسبون إلى الزّهد ، وضعوه حسبةً في زعمهم ، فقُبِلَتْ موضُوعاتُهم ثقةً بهم. وهذا هو خلافُ إجماعِ المسلمين الذين يعتدُّ بهم ، ووضعتِ الزّنادقةُ جُملاً ، فبيَّن جهابذةُ الحديث أمرَها.
وقد ذكرَ العُلماء أسباباً عديدةً لوضعِ الحديث منها :
١ ـ **الدّسُّ علىٰ الإسلام** : إذ قامتْ فئةٌ منَ الزّنادقة قد وقرَ الحقدُ في نفوسِهم ، فأرادوا أنْ يفسدوا على النّاس دِيْنهم ، فشوّهوا الحديث النّبوي للتّضليل والإفساد.
٢ ـ **الانتصارُ للرّأي والهوى** : فقد كانت فئةٌ لعبتِ الأهواءُ بعطفِها ، وأرادتِ الانتصارَ لهواها ، فأخذتْ تضعُ الأحاديثَ على لسانِ رسولِ الله ﷺ تأييداً لمذهبها.
٣ ـ **التكسّبُ عن طريقِ القصص** : ركبَ بعضُ الوضّاعين طريقَ التّكسّب عن طريقِ القصص ، حيث جعلُوا له سنداً متصلاً برسولِ اللهِ ﷺ وهو منه بريءٌ ، وقصّة الإمامِ أحمدَ بنِ حنبل ، ويحيى بنِ معين ، مع أحدِ وضّاعي الحديث قصّةٌ مشهورةٌ متعالَمَة بين أهلِ هذه الصناعة وأهل الفقْه والعِلْم.
٤ ـ **التّكبّرُ عن الرّجُوع إلى الصَّواب** : وفئةٌ من الوضّاعين ساءَها أنْ يظهرَ الحقُّ على يدِ غيرها ، وأنْ تتقهقرَ أمام الحجّة والدّليل ، فلجأتْ إلى الحديثِ النبوي تضعُ فيه استكباراً عن الرّجوع إلى الحقّ والصّواب.
٥ ـ **التّرغيبُ والتّرهيبُ** : وهناك فئةٌ لعبتْ بها العاطفةُ والحميّةُ ، وأرادت أن يبتعد النّاس عن الرّذائلِ ويتمسّكوا بالفضائل ، فعمدت إلى وضعِ الحديث ترغّب وترهّب.
٦ ـ **التقرّب من السّلاطين وذوي النّفوذ** : وفئةٌ ضعُفَتْ نفوسُها فأرادت التّقرب من السّلاطين ، فوضعوا ما وضعوا ليبرّروا ما يرونه موافقاً لأهوائهم وأهواء السّلاطين.

* ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد هيّأَ علماءَ مخلصين ذوي بصيرة مستنيرة بيّنُوا زيفَ الوضّاعين ، وكشْفَ كذبهم(١).

* ومن مروياتِ ابن عبّاس ما جاء في النَّصيحة ، عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «الدِّينُ النَّصيحةُ».

قالوا: لمن يا رسول الله؟

قال: «لكتابِ اللهِ ، ولنَبيّه ، ولأئمةِ المُسلمين»(٢).

---

(١) من مشاهير الأحاديث الموضوعة: (حبُّ الدنيا رأسُ كلّ خطيئة) وهذا من كلام مالك بن دينار الزّاهد المشهورِ ، وينسبُ لنبي الله عيسى عليه السَّلام. (المعدةُ بيتُ الداء ، والحميةُ رأسُ كلّ دواء) وهذا من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب ، كما جاء في كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أُصيبعة.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٥١) ، والبزار في الإيمان (٦١) ، وانظر: مجمع الزّوائد (١/ ٨٧) وقال: «رواه أحمد ، والبزار ، والطبراني في الكبير».

و«**النّصيحة**»: قال ابن فارس رحمه الله: «النّون والصّاد والحاء؛ أصلٌ يدلُّ على ملاءمة بين شيئَين ، وإصلاح لهما ، أصل ذلك النّاصح: الخيّاط ، والنِّصاح بكسر النّون: الخيطُ يُخاط به.

فالنّصيحةُ لله: توحيدُه ، وتنزيهُهُ عن الشّبيهِ والمثيلِ والنّظير والكفء ، ووصفه بصفات الكمالِ ، واتّباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، والحبّ فيه ، والبغض فيه ، فإنَّ منْ لم يصحَّ منه الاعتقاد قتل نفسه بالشّك وجعلها طعمة للفساد.

والنصيحةُ لكتابه: تلاوتُه حقّ تلاوته ، والتّدبّرُ لما جاء فيه ، والوقوف مع أوامره ونواهيه ، لأنَّ من لا يفرُّ إلى شرع يهديه ، يستحيلُ عليه أن يجدَ القانون الذي يحميه.

والنصيحة للنّبيّ ﷺ: الإيمانُ به ، وحبُّه قبل كلّ شيء ، والعملُ بسُنَّته ، والتخلّق بأخلاقه ، فهو الأسوةُ وهو القدوة ، وهو الحبيبُ الكريم الذي لا ينطقُ عن الهوى وعن هوى ، فاتّباعه سلامة وأمان ، ومجانبتُه ضياعٌ وخذلان.

والنصيحةُ لأئمةِ المسلمين: حبّ صلاحِهم ورشدهم ورشادهم ، وحبّ اجتماع الأمّة عليهم ، وكراهة التّفرق عنهم ما داموا على الحقّ ، ومعاونتهم على الحقّ ، وطاعتهم فيه ، وتذكيرهم به ، وتنبيههم في رفق ولطف وحسنى ، والدّعاء لهم.

والنصيحةُ للمسلمين: أن يحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه ، وإرشادهم إلى مصالحهم ، وتعليمهم أمورَ دينهم ودنياهم ، وكلّ ما يصلحهم ، وبذلك تتم المواءمة والصّلاح والإصلاح. أقول: «سيأتي شرح هذا الحديث بشكل أوسع في سيرة تميم الدّاري من هذه الموسوعة».

* وعن بعضِ أحكام الحجّ يروي ابن عبّاس رضي الله عنه أنَّ امرأةً من خثعم سألت رسولَ الله ﷺ غداة النّحر فقالت: إنّ فريضةَ الله في الحجّ أدركتْ أبي وهو شيخٌ كبيرٌ لا يستطيعُ أنْ يستمسكَ على الرَّحْل، أفهل ترى أنْ نحجَّ عنه؟

قال: «نعم»[1].

* وما دام ابنُ عبّاس من أمراءِ الصَّحابةِ العُلماءِ في أحكام الحجّ، فلنسمعْ ما جاءَ عنه في الصَّحيح وغيرِه من أنَّ امرأة أخرجَتْ صبياً من مِحفَّةٍ لها، فقالت: يا رسولَ الله ألهذا حجٌّ؟ قال: «نعم، ولكِ أجرٌ»[2].

* وممّا رواهُ ابنُ عبّاس في الأدعيةِ والأذكار والتّهجّد ما وردَ في كتبِ الصَّحيح والسُّنن ومصنّفات الحديث عن طاووس عن ابن عبّاس قال: كان النّبيُّ ﷺ إذا قام يتهجّدُ من الليلِ قال: «اللهمّ لكَ الحمدُ، أنت نور السّماوات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمدُ أنت قيمُ السّماواتِ والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمدُ أنتَ ملكُ السَّماواتِ والأرضِ ومن فيهنَّ، ولك الحمدُ أنتَ الحقّ، ووعدُكَ حقٌّ، ولقاؤُك حقٌّ، والسَّاعة حقٌّ، والجنّةُ حقٌّ، والنّار حقٌّ، والنّبيون حقّ، اللهمَّ لكَ أسلمتُ، وبكَ آمنتُ، وعليك توكّلت، وإليكَ أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفرْ لي ما قدمْتُ وما أخّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنتَ المتقدّم، وأنتَ

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الحج (٩٨)، وأحمد (١/ ١٢٢ و٢١٣ و٢٥١ و٣٢٩ و٣٤٦ و٣٥٩)، والبخاري في مواضع؛ برقم (١٥١٣) وبرقم (١٨٥٤ و١٨٥٥) وبرقم (٤٣٩٩)، وبرقم (٦٢٢٨). وأخرجه مسلم في الجمع برقم (١٣٣٤) و(١٣٣٥)، والتّرمذي برقم (٩٢٨)، والنّسائي (٥/ ١١٧).
وفي الحديث النّيابة في السّؤال عن العلْم حتّى من المرأة عن الرّجل.
وفيه برُّ الوالدين والاعتناء بأمرهما والقيام بمصالحهما: من قضاءِ دَيْن، وخدمةٍ، ونفقةٍ، وغير ذلك من أمورِ الدّين والدّنيا.

(٢) أخرجه مسلم في الحجّ برقم (١٣٣٦)، وأحمد (١/ ٢١٩ و٢٤٤) و«المحفَّة»: بكسر الميم، وفتح الحاء، وتشديد الفاء: مركب من مراكب النّساء، كالهودج.

المؤخّر ، لا إله إلا أنتَ ، ولا إله غيرك»[1] .

* ومن الأحاديثِ الشَّهيرةِ والمتداولة بين الناس حديث تعليم النَّبيّ ﷺ لابن عبّاس. فقد أخرجَ الإمامُ أحمدُ وغيرهُ عن حنَشٍ الصَّنعاني عن عبدِ الله بنِ عبّاس أنَّه حدَّثه: أنَّه ركبَ خلْفَ رسولِ اللهِ ﷺ يوماً ، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «يا غلامُ ، إنّي معلّمُك كلماتٍ: احفظِ الله يحفظْكَ ، احفظِ اللهِ تجدهُ تجاهَك ، وإذا سألْتَ فلتسألِ اللهِ ، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله ، واعلمْ أنّ الأمّة لو اجتمعُوا على أنْ ينفعوكَ ، لم ينفعوكَ إلاّ بشيء قد كتبَهُ الله لكَ ولو اجتمعُوا على أنْ يضرُّوكَ لم يضرُّوكَ إلا بشيء قد كتبَهُ اللهُ عليكَ ، رُفعتِ الأقلامُ ، وجفّتِ الصُّحف»[2] .

* وأحاديثُ ابنِ عبّاس منثورةٌ في كتُبِ الحديث[3] ولا يكاد يخلو منها

---

(١) أخرجه أحمد (١/٢٩٨ و٣٠٨ و٣٥٨ و٣٦٦) ، ومالك برقم (٣٤) ، والبخاري برقم (١١٢٠) ومسلم برقم (٧٦٩) ، وأبو داود برقم (٧٧١ و٧٧٢) ، والتّرمذي برقم (٣٤١٤) ، والنّسائي (٣/٢٠٩ و٢١٠) ، وابن ماجه برقم (١٣٥٥) ، والحميدي برقم (٤٩٥) ، وابن حبّان برقم (٢٥٨٩ و٢٥٩٠) ، وابن السّني في عمل اليوم والليلة برقم (٧٦٠).

قال الكرماني رحمه الله: «هذا الحديثُ من جوامع الكلم ، لأنَّ لفظ «القيّم» إشارةٌ إلى أنَّ وجودَ الجواهر وقوامها منه. «والنّور»: إلى أنَّ الأعراضَ أيضاً منه. و«الملك»: إلى أنّه الحاكم عليها إيجاداً وإعداماً يفعل ما يشاء ، وكلّ ذلك من نِعَم اللهِ على عباده ، فلهذا قَرَنَ كلاً منها بالحمد ، وخصّص الحمد به. ثم قوله: «أنت الحقّ»: إشارة إلى المبدأ ، والقول ونحوه إلى المعاش ، والسّاعة ونحوها ، إشارة إلى المعادة ، وفيه الإشارة إلى النّبوة وإلى الجزاء ثواباً وعقاباً ، ووجوب الإيمان والإسلام والتّوكّل والإنابة والتّضرع إلى الله والخضوع له.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بهذا اللفظ (١/٢٩٣) ، وإسناده صحيح؛ وأخرجه التّرمذي برقم (٢٥١٨).

(٣) أودُّ التّنويه هنا إلى أنّ بعض جهلةِ النّاس ، قد نسبُوا إلى عبدِ الله بنِ عبّاس كتاباً صغيراً يسمّى «معراج ابن عبّاس» والحقيقةُ فابن عبّاس رضي الله عنه بريءٌ من هذا الكتاب براءةَ الذّئب من دم يوسُف عليه السّلام ، وقد تحدّثَ عن هذا الموضوع بتوسّع الدكتور محمد سعيد رمضان البُوطي في كتابه: «تجربة التّربية الإسلامية» (ص ١٠٩ ـ ١٢٢) فليراجع.

مصنف ، ونكتفي بهذا القَدْر في هذا الكتاب حتّى نجلوَ جانباً آخر من جوانب العلم عند سيدنا عبد الله بن عباس رضوان الله عليه.

في ميزانِ العُلَمَـاء:

* كان فقهاءُ الصَّحابةِ رضوان الله عليهم يُعنونَ أشدَّ العنايةِ بالعلْمِ ، كما كانوا يُعنونَ بعلومِ القرآنِ الكريمِ من حفظٍ وفهمٍ وتفسيرٍ وأسبابِ نزولٍ وغيرِ ذلك.

* وكانُوا متفاوتين في العِلْم وفي الحفْظِ[1] ، فمنهُم مَنْ حفظَ القرآنَ العظيمَ كلَّه ، وعمَل بقدرِ طاقتِه علمِهِ وتفسيرِه ، واشتهرَ من هذا القبيلِ عددٌ من أعلامِ الصَّحابة وأكابرهم ، ومن أشهرهم: الخلفاءُ الأربعةُ الرّاشدون ، وعبدُ الله بنُ مسعود ، وضيفُنا عبدُ الله بنُ عبَّاس رضي الله عنهم أجمعين.

* كان ابنُ عبَّاس أصغرهمُ سِنّاً ، فأخذَ عنهم علْماً غزيراً وكثيراً من المعارفِ في علومِ القرآنِ الكريمِ والحديثِ الشَّريف وغير ذلك ، وخُصوصاً عن عمرَ وعليٍّ رضي الله عنهما.

* وكان النَّبيُّ الكريمُ ﷺ قد دعا لابن عبّاس من قبلُ فقال: «اللهمّ فَقّههُ في الدِّين وعلّمْهُ التّأويل» ، فكان ابن عبّاس حبْرَ الأمّة وترجمانها ، إذ أُوتي علْماً عظيماً وفهماً ثابتاً ، وفصاحةً وملاحةً وجمالاً ، وإصابةً وبياناً ، واستيعاباً وجلالاً.

* وقد عرفَ سيّدنا عمرُ بنُ الخطّاب مكانةَ ابن عبّاس في عالَم الصَّحابةِ العُلماء الفتيان ، فكان يُؤثرهُ ويقرِّبُ مجلسَه ـ وعمر كما نعلمُ من أكابرِ الصَّحابةِ العُلماءِ ومن أخيارِهم ، وحسبُك بعمرَ شاهداً على فضْلهِ وجلالِ قَدْره ـ كما كان يُحضِرُهُ مشاهِدَهُ مع الأكابر من ذوي شُوراهُ من أجلَّةِ الصَّحابةِ وأعيانهم ويقولُ فيه مُفتخراً ومُنوّهاً إلى مقدارِ علْمهِ الذي بلغَ السُّها: «ذاكم

---

(١) اقرأ في هذا المجال كتابنا «القرآن وأصحاب رسول الله ﷺ» ، ففيه فوائد جليلة عن علوم القرآن ، وارتباط الصحابة الكرام به ، وكيفية تعاملهم معه.

فتى الكُهول ، إنَّ له لساناً سؤولاً ، وقلباً عقولاً»[1].

* وسيّدنا عمرُ بنُ الخطّاب العالِمُ المِفَنُّ الخبير بأمور العلْم يُدني ابنَ عبّاس ، ويكرمُه ، ويشير إلى علمه وفهمه أمامَ ملأ من أكابرِ قريش ، ويرشدهُم إلى مكانتهِ الفقهيّةِ في عالَمِ علومِ القرآنِ ، وغير ذلك ، فكان يثيرُ عجبَهم وتساؤلَهم[2].

* روى البخاريُّ رحمه الله عن طريقِ سعيدِ بنِ جُبير عن ابن عبّاس ، قال: «كان عمرُ يدخلني مع أشياخ بدرٍ ، فكأنَّ بعضهم وجَدَ في نفسهِ ، فقال: لِمَ يُدخِلُ هذا معنا ولنا أبناءُ مثله؟

فقال عمرُ: إنَّه منْ حيث عَلِمتم.

فدعا ذات يومٍ فأدخلَه معهم.

قال ابنُ عبّاس: فما رأيتُ أنَّه دعاني إلاّ ليريهم.

فقال: ما تقولونَ في قولِ الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١].

فقال بعضُهم: أمرنا أنْ نحمدَ الله ونستغفرَهُ إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكتَ بعضُهم فلم يقُلْ شيئاً.

فقال لي: أكذلك تقولُ يا بن عبّاس؟

فقلتُ: لا.

قلت: هو أَجَلُ رسولِ اللهِ ﷺ أعْلَمُه له ، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ

(١) المستدرك (٣/ ٥٣٩ و٥٤٠).

(٢) عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: «كان عمرُ رضي الله عنه يجلسُ مع الأكابر من أصحابِ محمّد ﷺ ويقول لي: لا تتكلمْ حتّى يتكلّموا ثم يسألُني ، ثم يقبلُ عليهم ، فيقول: ما يمنعكم أنْ تأتوني بمثلِ ما يأتيني به هذا الغلامُ الذي لم تستو شؤونُ رأسهِ؟!».
(مختصر تاريخ مدينة دمشق ١٢/ ٣٠٣ و٣٠٤).
و«شؤون الرأس»: عظامُه والشّعبُ التي تجمعُ بين قبائل الرّأس ، وهي أربعة أشؤن.

﴿وَٱلْفَتْحُ﴾ ـ وذلك علامةُ أجلك ـ فسبّح بحمدِ ربّك واستغفرهُ إنّه كان تواباً.

فقال عمر: لا أعلمُ منها إلاّ ما تقولُ»(١).

* ومن مبدأ هذه المكارم هنا استحقَّ ابنُ عبَّاس رضي الله عنه أن يُتوَّجَ بتاجِ أميرِ العُلماء ـ بعد سيّدنا أبي بكر الصِّدِّيق ـ وأنْ يلقَّبَ بحبْرِ الأمّة، وكما لاحظْنا من خلالِ الحديث السَّابق أنَّه كان على جانبٍ كبيرٍ من العلْم والمعرفةِ بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ حتى فاقَ جميعَ أقرانهِ، بل تعدّاهم كما رأيت.

* وفي مجلسٍ آخر يلفتُ سيّدنا عمرُ الأنظارَ إلى علْم ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما فيما رواه البخاري من طريقِ ابن أبي مليكةَ يحدّثُ عن ابن عبّاس قال: «قال عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه يوماً لأصحاب النّبيّ ﷺ: فيم ترونَ هذه الآية نزلَتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٦٦]؟!

قالوا: اللهُ أعلمُ.

فغضبَ عمرُ وقال: قولُوا نعلمُ أو لا نعلمُ.

فقال ابن عبَّاس: في نفسي منها شيءٌ يا أميرَ المؤمنين.

فقال عمر: يا بن أخي، قلْ ولا تحقِرْ نفسَك.

قال ابنُ عبَّاس: ضَرِبَتْ مثلاً لِعَمَل.

قال عمرُ: أيّ عَمَل.

---

(١) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في التّفسير برقم (٤٩٧٠)، وأخرجه أحمد (١/٣٣٧ و٣٣٨)، والترمذي برقم (٣٣٦٢)، والحاكم في المستدرك (٣/٥٣٩).
قال ابنُ حجر: «وفي الحديث فضيلةٌ ظاهرةٌ لابن عبّاس، وتأثيرٌ لإجابةِ دعوةِ النّبيّ ﷺ أنْ يعلّمه اللهُ التّأويل، ويفقهه في الدّين.
وفيه جوازُ تحديث المرء عن نفسه بمثل هذا لإظهار نعمة الله عليه، وإعلامُ مَنْ لا يعرف قَدْرَهُ لينزله منزلته، وغير ذلك من المقاصد الصّالحة، لا للمفاخرة والمباهاة.
وفيه جوازُ تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات، وإنّما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العِلْم، ولهذا قال عليٌّ رضي الله عنه: أو فهماً يؤتيه الله رجلاً في القرآن».
(فتح الباري ٨/٦٠٨ و٦٠٩).

قال ابنُ عبّاس: لرجلٍ غني يعملُ بطاعةِ الله عزَّ وجلَّ ، ثمَّ بعثَ اللهُ له الشَّيطان فعملَ بالمعاصي حتّى أغرقَ أعماله»[1].

* وكان علماءُ الصَّحابةِ الأكابر من مثلِ عمرَ وابنه عبد الله وغيرِهما يرشدون النَّاس إلى جواهر البحرِ الزّاخر بالعلْم إلى ابن عبّاس حتى يقتنصوا ما يشاؤون من حلي المعرفةِ ويتحلَّون بها ، إذ كان ابن عبّاس يسمّى ترجمانَ القرآن ، ويسمى الحبْرَ ، والبحرَ لِسَعةِ علْمِه.

* فعن عبدِ اللهِ بنِ عمر رضي الله عنهما «أنَّ رجُلاً أتاه فسأله عن السَّماواتِ والأرضِ كانتا رتْقاً ففتّقناهما ، فقال: اذهبْ إلى ابنِ عبّاس ، فاسْأَلْهُ؛ ثمّ تعالَ أخبرني.

فذهبَ الرَّجلُ ، فسألَ ابنَ عبَّاس ، فقال: كانتِ السَّماواتُ رتقاً لا تمطرُ ، وكانتِ الأرضُ رتْقاً لا تنبتُ ، ففتقَ هذه بالمطَرِ ، وهذه بالنَّباتِ ، فرجعَ إلى ابنِ عمرَ فأخبره ، فقال: قد كنتُ أقولُ: ما يعجبُني جراءة ابن عبّاس على تفسيرِ القرآن ، فالآن قد علمتُ أنَّه أُوتي عِلْماً»[2].

* قال المدائني: قال سيّدنا عليّ بنُ أبي طالب في عبدِ اللهِ بنِ عبّاس: «لله درّ ابن عبّاس إنَّه ينظرُ إلى الغيبِ من سترٍ رقيقٍ، لعقلهِ وفطنتهِ بالأمور»[3].

* وقال سيّدنا عليّ أيضاً: «أقرَّ الله مَنْ له ابن عمّ مثل هذا» ـ وأشار إلى

---

(1) أخرجه البخاري في التّفسير برقم (٤٥٣٨) قال ابنُ حجر رحمه الله: «وفي الحديث: قوةُ فهم ابن عبّاس ، وقربُ منزلته من عمرَ ، وتقديمُه له على صغره ، وتحريضُ العالم تلميذه على القولِ بحضرةِ مَنْ هو أسنّ منه إذا عرف فيه الأهليّة ، لما فيه من تنشيطه ، وبسط نفسه وترغيبه في العِلْم». (فتح الباري ١/ ٥٠) طبعة الدار السّلفية بمصر.

(2) حلية الأولياء (١/ ٣٢٠) ، وصفة الصّفوة (١/ ٧٥٢ و٧٥٣). أقول: «وشهادة ابن عمرٍ لابن عباس تزيد من قدرهما معاً رضي الله عنهما».

(3) بهجة المجالس (١/ ٤١٩).

ابن عبّاس ـ وناهيك بشهادة سيدنا عليّ فخراً لنا ولابن عباس ، ولمن يشهدْ له بالعلم.

* قال ابنُ عسَاكر رحمه الله: «كان عمرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه يُدنيه ويسألُه ويستشيرهُ ، ويدخلُه مع مشيخةِ أهل بدرٍ ، وكان له الجوابُ الحاضر ، والوجْهُ النَّاضر ، علمُهُ غزيرٌ ، وخيرهُ كثيرٌ ، يصدرُ الجاهل عن علمهِ وحكمتهِ يقظان»[1].

* وكانت أمُّنا عائشةُ رضي الله عنها تقولُ: «هو أعلمُ مَنْ بقيَ بالسُّنَّة»[1]. فأكرمْ بأمّنا وبقولها!.

* وشهادةُ أمِّنا عائشة هذه من عُليا الشَّهادات وأوثقها في هذا الحبْرِ ، لأنَّنا نعلمُ أنَّها أفْقَهُ نساءِ الأُمَّة على الإطلاق وأحفظهن لحديث رسول الله ﷺ.

* وقالتْ عائشةُ وأمُّ سلمة حين حجَّ ابنُ عبَّاس بالنَّاس: «هو أعلم النَّاس بالمناسك».

* وكان ابنُ عمر رضي الله عنهما إذا ذكرَ العِلْم والعُلَماء قال عن ابنِ عبّاس مشيراً ومشيداً ومنبّهاً ودالاً على علمهِ وفضلهِ: «هذا أعلمُ النَّاس بما أُنزلَ على محمّد ﷺ».

* أمّا الفاروقَ العبقريُ عمرُ فقال لابن عبّاس: «لقد عُلِّمتَ علْماً ما عُلِّمناهُ»[2].

وقال له مرّةً: «أشهدُ أنّكَ تنطقُ عن بيتِ نبوّة».

* وعن الأوزاعيّ قال: «قال عمرُ بنُ الخطَّاب لعبدِ الله بنِ عبّاس: واللهِ إنّك لأصْبَحُ فتيانِنا وجْهاً، وأحسنُهم عقْلاً، وأفقههم في كتابِ الله عزَّ وجلَّ»[3].

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٢٩٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤٥).
(٣) صفة الصفوة (١/ ٧٤٨) ، والبداية والنهاية (٨/ ٢٩٩).

* وكان عمرُ يستشيرهُ في الأمْرِ إذا أهمَّهُ ويقولُ له: «غُصْ غَوّاص»[1].

* وكان يقولُ وهو معجبٌ بعلمهِ وفهمهِ: «لا يلومُني أحدٌ على حبِّ ابنِ عبّاس».

* أمّا سيّدنا سعدُ بنُ أبي وقّاص ـ وهو من أعيانِ عُلماء الصَّحابةِ وفرسانِهم ـ فقد شهدَ بسَعَةِ عِلْم ابن عبّاس وحسنِ فَهمه، وكمالِ عقْله، وجمالِ حلْمه فقال: «ما رأيتُ أحداً أحضرَ فهماً، ولا ألبَّ لبّاً، ولا أكثَرَ علماً، ولا أوسعَ حلماً من ابن عبّاس لقد رأيتُ عمرَ بنَ الخطَّاب يدعوه للمعضلاتِ ثمّ يقولك قد جاءتك معضلةٌ، ثم لا يجاوزُ قوله، وإنَّ حولَه لأهْلُ بدْرِ من المهاجرين والأنصار»[2].

* وقال طلحةُ بنُ عُبيد الله رضي الله عنه: «لقد أُعطيَ ابنُ عبّاس فهماً ولَقَناً وعلْماً، ما كنتُ أرىٰ عمرَ يقدِّم عليه أحداً».

* وهذا ابنُ مسعود ـ وهو عَلَمٌ من علماءِ الصَّحابةِ ـ ينوّهُ بعلم ابن عبّاس فيقول: «لو أدركَ ابنُ عبّاس أسنانَنَا ما عشَّرهُ منّا أحد»[3].

* وقال عالمُ القُراء وقارئُ العُلماء أُبيُّ بنُ كعب رضي الله عنه وكان عند ابن عبّاس فقامَ وذهبَ: «هذا يكون حبْرُ هذه الأمّة، أرى عقْلاً وفهماً، وقد دعا له رسولُ الله ﷺ أنْ يفقّهه في الدِّين»[4].

* وقال معاويةُ بنُ أبي سفيانَ رضي الله عنهما ـ ومعاويةُ من عُلماءِ الخُلفاء ومن الخُلفَاء العُلماء ـ لِعِكرمةَ مولىٰ ابنِ عبّاس: «مولاكَ واللهِ أفْقَهُ مَنْ ماتَ ومَنْ عاشَ».

* وممّا يُزَيّنُ السّطورَ في هذا المكان، وما يجلو الصُّدور أيضاً، ما جاءَ

---

(١) سير أعلام النّبلاء (٣/ ٣٤٦).
(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣٠٦)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٩).
(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٦)، والمعرفة والتاريخ (١/ ٤٩٥).
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤٨).

في تاريخِ دمشق: «أنَّ الحُطيئةَ الشَّاعرَ المخضرمَ المشهور، قد نظرَ إلى عبدِ اللهِ بنِ عبّاس رضي الله عنهما في مجلسِ سيّدنا عمرَ وقد فاقَ النَّاس بكلامه فقال: مَنْ هذا الذي قد نزلَ عن القومِ في سِنّهِ، وعَلاهُم في قولهِ؟ قالوا: هذا عبدُ الله بنُ عبّاس الحبرُ البحرُ ابنُ عمّ النّبي ﷺ.

عندها أنشأ الحطيئةُ يقولُ:

إنّـي وَجَـدْتُ بيَـانَ المَـرءِ نَـافِلَـةً ... تُهدىٰ لَهُ وَوَجَدْتُ العَيّ كالصَّمَمِ
المَـرْءُ يَبْلَـىٰ وتَبْقَـىٰ الكَلْـمُ سَـائِرُهُ ... وقد يُلامُ الفَتَى يَوماً ولَمْ يلمِ[1]

* وحدَّثَ شاعرُ الإسلام حسّانُ بنُ ثابت قال: «كانت لنا عند عثمانَ حاجةٌ، فطلَبْناها إليهِ بجامعةٍ من الصَّحابةِ منهم ابن عبّاس، وكانت حاجةً صعبةً شديدةً، فاعتلَّ علينا، فراجعوه إلى أنْ عذروه، وقامُوا إلاّ ابن عبّاس، فلمْ يزلْ يراجعُهُ بكلامٍ جامعٍ حتى سدَّ عليه كُلَّ حاجةٍ، فلم يـر بدّاً من أن يقضيَ حاجتَنا، فخرجنا من عنده وأنا آخذٌ بيد ابن عبّاس، فمَرَرْنا على أولئك الذين كانُوا عذرُوا وضعفُوا، فقلتُ: كان عبدُ اللهِ أولاكم بها.

قالوا: أجَلْ.

فقلتُ أمدحُهُ:

كَفَى وشَفَى مَا في الصُّدُور وَلمْ يدَعْ ... لذي إرْبةٍ في القَولِ جدّاً ولا هَزْلا
سَمَـوتَ إلـى العَلْيـا بغَيـرِ شبيهـةٍ ... فَنلْـتَ ذُرَاهـا لا دنيّـاً ولا غـلا»

علاقـتُـهُ مَعَ الصَّحَابـةِ وَعُلمائِهـم:

* سيدُنا عبدُ الله بنُ عبّاس شخصيةٌ متفرّدةٌ من طرازٍ جديدٍ في أساتيذِ المدرسةِ المحمّديّة الخالدةِ، هذه الشّخصيةُ الكريمةُ عبّتْ من بحرِ العبقريّة الإسلاميّة، وتخرجت في مدارس أساتذتها من رعيلِ الأنصار الأبرارِ، وسادةِ المهاجرين الأوّلين، ومن منبعِ النّبوّةِ وفيضِ الوحي استقَتْ ونهلَتْ،

---

(1) الإصابة (٢/٣٢٦)، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/٣٢١) مع الجمع بتصرف يسير. و«الكلم»: ها هنا جمع كلمة، وأصله الكَلِم بكسر اللام، فسكّنه تخفيفاً لإقامة الوزن. وقوله: «سائرة»: يعني أنه يبقى سائر الكلام، يريد الحكم السائرة من الكلم.

ولكنّها أخذتْ منَ الحياةِ بجانبِ العقل والفكْر ، فانصرفَتْ إلى العلْم ترويهِ وتحفظُه ، وتبثُّه وتنشرهُ ، جائلةً في كنوزِ الإسلامِ وشرائعهِ ، وآدابهِ وتعليمهِ ، غائصة في بحاره لالتقاط دُرره ، فكانت شخصيةً عالميةً بارزة.

* ولهذه الشّخصية الفذّة المتميّزة ، وهذا الرّجلُ العبقري له أخبارٌ طريفةٌ ، وقصصٌ لطيفةٌ ، وحواراتٌ أليفةٌ مع أصحابِ رسولِ الله ﷺ تشيرُ إلى مكانتهِ العلْميّةِ التي تبوّأها بينهم ، وإلى مكانتهِ النَّفيسةِ في أهلِ البيتِ النّبويّ الطّاهرِ الكريم.

* فمن لطائفِ القصصِ الهامسِ الآسرِ السَّاحرِ ما جاء في المصادرِ المتنوّعةِ: «بأنَّ زيدَ بنَ ثابت رضي الله عنه أراد أنْ يركبَ دابّتَه ، فدنا منه ابنُ عبّاس ليأخذَ ركابَه ، فقال له زيدٌ بأدبٍ لطيفٍ: تنحَّ يا بن عمّ رسولِ الله ﷺ. فقال له زيدُ بنُ ثابت بهمسِ الأدب وأنداءِ نَسَمات العلْم: هكذا أُمرنا أنْ نفعلَ بأهلِ بيتِ نبيّنا»[1].

* وكان الأنصارُ يجلّون ابنَ عبَّاس ويوقّرونَه ، فقد دخلَ على بعضِ الأنصار في وليمةٍ لهم ، فقاموا له ، فاستحيا من ذلك ، وقال لهم: «بالإيواء والنّصر إلاّ جَلَسْتُهم»[2].

* ومن جميلِ قصصِ ابن عبّاس وأخبارِهِ مع الأنصارِ ، «ما وردَ أنَّ أبا أيّوب الأنصاريّ[3] رضي الله عنه أتى معاويةَ بنَ أبي سفيان رضي الله عنهما فلَمْ يرَ منه ما يحبُّ ، فقدمَ البصرةَ ، فنزلَ علىٰ ابن عبّاس ، ففرَّغَ له بيتَه ، وقال: لأصنعنَّ بك كما صنعتَ برسولِ اللهِ ﷺ.

ثمّ قال: كم دَيْنُك؟

قال: عشرون ألفاً.

---

(١) انظر: العقد الفريد (٢/ ١٢٧ و٢٢٤) بتصرف يسير.
(٢) انظر: البصائر والذخائر (٢/ ٢٥). وقول ابن عباس هذا يدلُّ على زكانته وحصافتِه ونُبلِهِ.
(٣) اقرأ سيرته في موسوعتنا «فرسان من عصر النبوة» (ص ٦٣٩ ـ ٦٥٧) طبعة دار اليمامة بدمشق.

فأعطاهُ أربعينَ ألفاً ، وعشرين مَمْلُوكاً ، وكلَّ ما في البيت»[1] .

* ولهذا كان يُقالُ ويُنادى: «مَنْ أرادَ العلْم والسَّخاء والجمالَ ، فليأتِ دارَ العبَّاسِ ، كان عبدُ الله أعلمَ النّاس ، وعُبيد الله أسخى النّاس ، والفضْلُ أجملَ النَّاس»[2] .

* ومن لطائفِ القصصِ التي نستخرجُ منها لُبابَ الحكمةِ ، وصفوةَ التَّفسير ، ما ذكره ابنُ عساكر رحمه الله قال: «قال معاويةُ رضي الله عنه يوماً لعبدِ الله بنِ عبّاس: إنّه ضربتْني البارحةُ أمواجُ القرآنِ في آيتَيْن لم أعرفْ تأويلهما ، ففزعتُ إليك[3] .

فقال ابنُ عبّاس عليه سحابات الرضوان: ما هما؟

فقال معاويةُ: قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ، فقلت: يونُس رسولُ الله ظنَّ أنَّه بقوّتهِ إذا أرادَهُ ، ما ظنَّ هذا مؤمن. وقول الله عزّ وجلّ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠] ، فقلت: سبحانَ الله! كيفَ هذا أنْ يستيئسَ الرسلُ من نَصْرِ اللهِ ، أو يظنّوا أنّهم كذبَهم ما وعدَهُم! إنَّ لهاتَيْن الآيتَيْن تأويلاً ما نعلمُه.

قال ابنُ عبَّاس: أمّا يونُس عليه السَّلام فظنَّ أن خطيئتَهُ أنْ يقدّر الله عليه تلك البلية ، ولم يشكّ أنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا أرادَهُ قدَّرَ عليه.

وأمّا قولُه: حتّى إذا استيأسَ الرُّسلُ من إيمان قومهم ، وظنَّ مَنْ أعطاهُم الرّضَا في العلانيةِ أنْ يكذّبَهم في السَّريرة ، وذلك أطولُ البلاء عليهم ، ولم يستيئسِ الرُّسلُ من نصرِ اللهِ ، ولم يظنّوا أنّهم كذبَهم ما وعدهم.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٥٢).

(٢) البصائر والذخائر (٥/ ٥٢).

(٣) كان معاويةُ يلقي على ابن عبّاس المسائلَ المعضلة فيجيبُ عنها سريعاً ، فكان معاويةُ يقول: «ما رأيتُ أحداً أحضرَ جواباً منه».

فقال معاويةُ رضي الله عنه: فرّجتَ عنّي فرَّجَ اللهُ عنك، واللهِ إنّ قريشاً لتُغْبط بك، لا بل جميعَ العرب، لا بل جميعَ أمّةِ محمّد ﷺ.

* فقال أيمنُ بنُ خُريم:

مَا كَانَ يَعْلَمُ هَذا العِلْمَ مِنْ أَحَدٍ	بعْدَ النَّبيِّ سِوىٰ الحبْرِ ابنِ عبّاسِ
مُسْتَنْبِطُ العِلْمِ غَضّاً مِنْ مَعادِنِهِ	هذا اليَقينُ ومَا بالحقِّ مِنْ باسِ
دِيْنُوا بِقَولِ ابنِ عبّاس وحِكمتِهِ	إنَّ المَنَافيَّ فيكم عَالِمُ النَّاسِ
كَالقُطْبِ قُطْبِ الرَّحَا في كُلِّ حادثةٍ	أو كَالحمامِ فمنهُ موضعُ الرَّاسِ
مَنْ ذا يفرِّجُ عنكم كلَّ معضلةٍ	إنْ صار رهْناً مقيماً بين أَرْماس»[1]

* وبهذه الفصاحةِ مَلَكَ سيّدنا ابنُ عبّاس الأسماعَ، وأدخلَ إلى القلوب الإمْتَاع، وسبقَ البلغاءَ، وكان إمامَ الفصحاء، حتى ألقىٰ أهلُ الفصاحةِ مقاليدَ صناعتِهم إليه، وقاموا خَدماً بين يديه.

* وهذا شاهدٌ من الفُصحاءِ البُلغاءِ والأدباء الفُضلاء يشهدُ له لا عليه، فقد وَرَدَ صعصعةُ بنُ صوحان علىٰ عليّ بنِ أبي طالب من البصرةِ، فسأله عن ابنِ عبّاس ـ وكان عليّ خلَّفَه بها ـ فقال صعصعةُ: «يا أميرَ المؤمنين إنهُ آخذٌ بثلاث؛ وتاركٌ لثلاثٍ؛ آخذٌ بقلوبِ الرّجالِ إذا حدَّثَ، وبحسنِ الاستماع إذا حُدّثَ، وبأيسرِ الأمرَين إذا خُولف؛ وترك المِراء، ومقارنة اللئيم، وما يعتذرُ منه»[2].

* وذكر أبو العبّاسُ المبرّدُ في «الكامِل»: «أنَّ عليّاً وجَّه ابن عبَّاس إلى الخوارجِ لِيُنَاظرهم، فقال لهم: ما الذي نقمتمْ على أميرِ المؤمنين؟

قالوا: قد كان للمؤمنين أميراً، فلمّا حكّم في دِيْن اللهِ خرج من الإيمان فليتُبْ بعد إقرارِهِ بالكفْرِ نَعُدْ له.

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣١٤ و٣١٥) باختصار يسير. ومعنى «المنافيّ» نسبةَ إلى عبد مناف: وهم بطن من بطون قريش.

(٢) البداية والنّهاية (٨/ ٣٠٠).

فقال ابنُ عبّاس: لا ينبغي لمؤمنٍ لمْ يَشُبْ إيمانه شكٌّ أن يقرَّ على نفسهِ بالكفْرِ.

قالوا: إنَّه قد حكَّم.

قال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أمرَنا بالتّحكيم في قَتْل صيدٍ.

فقال عزّ وجلّ: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، فكيفَ في إمامةٍ قد أشكلَتْ على المسلمين؟

فقالوا: إنّه قد حُكمَ عليه فلَمْ يرضَ.

فقال: إنَّ الحكومةَ كالإمامةِ، ومتى فسقَ الإمامُ وجبت معصيته.

وكذلك الحكَمان لمّا خالفا نُبذَتْ أقاويلهما.

فقالوا: إذ كان عليٌّ لمْ يشكك فيه، وحكم مُضطراً فما باله حيثُ ظفر لَمْ يَسْبِ؟

فقال ابن عبّاس: قد سمعتُم الجوابَ في التّحكيم، فأمّا قولُكم في السّباء، أفكنتم سابِينَ أمّكم عائشة؟!

فوضعُوا أصابعَهم في آذانِهم وقالوا: أمسك عنّا غربَ لسانك يابن عبّاس فإنّه طُلَق ذُلَق، غواصٌ على موضع الحجة».

* وفي الحقيقةِ لقد أصَاب الخَوارجُ في وصفِهم له، فإنَّه أُوتيَ من البَراعةِ في البيانِ والفصاحةِ وقوّةِ الحجّة ما سدَّ عليهم مسالكَ الجدلِ مع قوتهم في الاحتجاج واللجاج.

أَقْوالُـه في الخُلَـفَـاءِ الرَّاشدين:

* سيّدنا ابنُ عبّاس عليه سحاباتُ الرضوان من أعيان عُلماء الصَّحابةِ الأماجدِ الذين عرفُوا أقدارَ أصحابِ رسولِ الله ﷺ، فأعطوهم حقَّهم، إذ هم خيرُ أمّةٍ أخرجت للنّاس، وهم سادةُ الدّنيا وأعلامُ الهُدىٰ، وأهلُ النّدى، حازوا مراتبَ السَّعادة، واقتطعُوا مناصبَ السِّيادة، حين نظروا إلى الدّنيا فرفضُوها، وترفّعت بنصبِ زخارفها فخفضُوها، سهروا والنَّاسُ

رقود ، وتعبُوا والجاهلون قُعود ، فأضحوا بدورَ أفلاكِ المجدِ ، وجواهرَ قلائدِ الشّرف والسَّعْد.

* وكان للخُلفاء الرّاشدين مقامٌ رفيعٌ في نفسِ سيّدنا عبدِ الله بنِ عبّاس ، فأحلّهم المنزلةَ العظمىٰ ، والمكانةَ المُثلى ، وما ذُكروا أمامَه مرّةً إلّا رفَعَ من شأنِهم ، وأكبرَ عملَهم، وأشار إلى فَضْلهم، وأشادَ بمنزلتهم التي أكرمهم الله بها ، فكانت أقوالُه فيهم قلائدَ من جُمانٍ ، وجواهرَ في جِيْدِ الزَّمانِ ، تتحلّى بها القلوبُ والأفواه والأسماعُ، ما دامت السَّماواتُ والأرضُ والبقاع.

* فمن روائعِ أقوالهِ في صدّيقِ الأُمّةِ الأكبر ، وعالِم الصَّحابةِ أجْمَع ، ومَغْذَى التُّقى ، ومرَاحِ الهُدى ، ومثوىٰ الإخلاصِ ، وكهفِ الإيمان ، شيخ المؤمنين ، وأوّلِ الخلفاءِ الرَّاشدين ، الذي رأَبَ شعبَ الأمّة ، وكشفَ بحزمهِ عنها الغمّة ، وقهرَ المرتدّين ، وشتَّتَ شملَ المنافقين ، فهو أرجحُ النَّاس بعدَ رسولِ الله ﷺ إيماناً ، وأصفاهم سريرةً ، وأطهرهُم خليقةً ، وأنقاهم فطرةً ، وأرسخُهم يقيناً ، وأعظمُهم دِيناً، وأكملُهم نفساً ، وأرهفُهم حسّاَ ، وأهداهُم عقلاً ، أعزّ اللهُ به الدِّين ، وأيَّدَ به اليقين ، وشدَّ به أزرَ سيِّد المرسلين ، وكان عمرُ وعثمانُ والزُّبير وعبدُ الرحمن بن عوف وسعدُ بنُ أبي وقّاص ، وهؤلاء الكبار الأكابر حسنةً من حسناتِه ، ودعوةً من دعواته ، إنَّه سيدنا أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه وأرضاه وحشرنا في معيته.

* كانت تحفةُ ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ مدخرةً له دون الجميع ، فهو الثَّاني في الإسلام ، والثّاني في بذْلِ النَّفس والعمر ، وذلك لما وقى الرَّسولَ ﷺ بمالهِ ونفسهِ جُوزي بمواراتهِ معه في رِمْسِه تخليداً لخصيصة الصِّديقيّة ؛ وإلى هذه المكرمة يشيرُ أبو محجن الثَّقفي بقوله:

وسُمّيتَ صِدِّيقاً وكُلّ مُهاجرٍ سِواكَ يُسمّى باسمهِ غير منكرِ
سَبقتَ إلى الإسلامِ واللهُ شاهدٌ وكُنتَ جَليْساً بالعريشِ المشهَّرِ
وبالغَارِ إذ سُمّيتَ بالغَار صَاحِباً وَكُنتَ رَفيقاً للنَّبي المُطهّرِ

* ولله درُّ الآخر إذ قال مقتبساً من القرآنِ الكريم:

لا تُفَضِّلْ علىٰ العَتيقِ صَدِيقاً فَهوَ صِدِّيقُ أَحْمَدَ المُخْتَارِ
وَإنِ ارْتَبْتَ في الأَحَاديثِ فَاقْرأْ ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾[1]

* فمن روائعِ أقوالِ ابن عبّاس في سيّدنا الصِّديق الأكبر أبي بكر ، وقد سُئِل عنه ، فأجابَ وأفادَ وأجادَ وصدقَ فقالَ:

«رحمَ اللهُ أبا بكر ، كان واللهِ للقرآن تالياً ، وللشّرّ قالياً ، وعن المثلِ نائياً ، وعن الفحشَاء سَاهياً ، وعن المُنكر ناهياً ، وبدينهِ عارفاً ، ومن الله خائفاً ، ومن المُهلكات جانِفاً[2] ، يخافُ فلتةَ الدَّهْر.

كان واللهِ بإحياءِ الليلِ قائماً ، وبالنَّهار صَائِماً ، ومن دُنياه سَالماً ، وعلى عدل البريّةِ عازماً ، وبالمعروف آمراً ، وإليه صَائراً ، وفي الأحوالِ شاكراً ، ولله بالغدوِ والآصالِ ذاكراً ، ولنفسهِ في المصَالح قاهِراً ، فاق أصحابَه ورعاً وكفافاً ، وزُهداً وعفافاً ، وسرّاً وحياطةً».

* ومن بدائعِ أقوالهِ في عمرَ رضي الله عنه عندما سُئِلَ عنه فوصفَه وأنصفَه فقال: «رحم اللهَ أبا حفْصٍ ، كان واللهِ حليفَ الإسلام ، ومأوى الأيتام ، ومحلَّ الإيمان ، وملاذَ الضُّعفاء ، ومعقلَ الحنفاء ، قامَ بحقِّ اللهِ صابراً مُحتسباً حتى أظهرَ الدّين وفتحَ الدِّيار ، وذكرَ الله في الضَّواحي والبقاع ، عبدَ الجبَّار في الرَّخاءِ والشّدّةِ شكوراً له وفي كلّ وقت وآن ذكوراً».

* ومن جميلِ أقوالهِ في عثمانَ عليه سحائب الرّضوان عندما سُئِل عنه فأشارَ إلى فَضْل مكارِمه ، ومكارمِ فضْلهِ ، وإلى نبلهِ وكرمهِ وعبادته فقال: «رحمَ اللهُ أبا عمرو ـ كنية عثمان ـ كان واللهِ أكرمَ الحفدةِ ، وأفضلَ البررةِ ، وأصبرَ القُرّاء؛ هَجّاداً بالأسْحَار ، كثيرَ الدُّموع عند ذِكْر الدّار ، دائبَ الفكرِ فيما يعنيه بالليل والنَّهار ، نهّاضاً إلى كلّ مكرمةٍ ، سعّاءً إلى كلّ منقبةٍ ،

---

(١) اقتباسٌ من الآية (٤٠) من سورة التّوبة.

(٢) «جانفاً»: مائلاً؛ والجنف: الميل. ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا﴾ [البقرة: ١٨٢] ، وتجانف لإثم: مال.

فرّاراً من كلّ مُوبقةٍ ، صاحبَ جيشِ العُسرة ، وصاحبَ البئرِ ، وختنَ المصطفى ﷺ على ابنتيْه» .

* أمّا أقواله في معلّمِه وأستاذِه عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه فتطاولُ عنانَ السَّماء ، وتسمعُ أذنَ الجوزاء ، فقد سُئِلَ عنه فقال واستطالَ : «رحمَ اللهُ أبا الحسنِ ، كان واللهِ عَلَمَ الهدى ، وكهفَ التّقى ، ومحلَّ الحِجَا ، وطودَ الندى ، ونورَ السّفر في ظُلَم الدّجى ، وداعياً إلى المحجّةِ العظمى ، وعالماً بما في الصُّحف الأولى ، وقائماً بالتّأويل والذّكرى ، متعلّقاً بأسبابِ الهدى ، وتاركاً للجَوْرِ والأذى ، وحائذاً عن طرقات الرّدى ، وخير مَنْ آمن واتّقى ، وأفضل من حجَّ وسعى ، وأخْطَب أهلِ الدّنيا سوىٰ الأنبياء والمصطفى ، زوجُ خيرِ النّساء ، وأبو السِّبطَيْن ، لم تَرَ عينٌ مثلَه»(١) .

* وكان سيّدنا ابنُ عبّاس إذ ذُكرَ عليٌّ رضي الله عنه يقولُ في حقِّهِ : «كان واللهِ الكنز الكبير ، والبحرَ الغزير ، والغيث المطير ، والشُّجاع الخطير ، الذي لم يكنْ له في الورى نظير ، مؤدّب الأدباء ، وسيّد الخطباء ، وقائد النّجباء ، ومَن إذا عرضَتْ مشكلة أجابَ عنها والنّاسُ سكوت»(٢) .

* وفي الثّناء على طلحةَ والزُّبير رضي الله عنهما يقولُ ابن عبّاس : «كانا والله عفيفَيْن ، مسلمَيْن ، بَرّيْن ، طاهرَيْن ، مطهّرَيْن ، شهيدَيْن ، عالِمَين بالله ، لهما النّصرة القديمة ، والصّحبةُ الكريمةُ ، والأفعالُ الجميلةُ» .

* ولابن عبّاس أقوالٌ أخرى في كبارِ الصَّحابة ، وفي علمائِهم ، وهي منثورةٌ في ثنايا ترجمتِه في المصَادرِ المتنوّعة .

رَقَائِـقُ مِنْ كَلِمَاتِـهِ وَحِكْمَتِـهِ :

* كلماتُ ابن عبّاس رضي الله عنهما كلماتٌ مندّاةٌ برحيقِ الأنفاس القُرآنيةِ ، وشذى العبقاتِ النّبويّة ، فهي تنضحُ بالمسكِ وتنفحُ بالطِّيْب .

---

(١) انظر : مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣٢٢ و٣٢٣) بشيء من التّصرف اليسير .
(٢) البصائر والذّخائر (٨/ ١٦٦) .

* ورقائقُ ابنِ عبّاس وحكمتُهُ وحكمهُ تدلُّ على سعَةِ أفُقِهِ ، وفهمهِ لأحوالِ الحياة ، كما تشيرُ إلى عميق علْمهِ ، وغزيرِ معرفتهِ ومعارفهِ في شتّى المجالات .

* ولبلاغةِ ابن عبّاس وحكمتِهِ صدىً عند البُلغَاء والعُلماء والحكماء، فقد نظرَ معاويةُ إلى ابنِ عبّاس، فأتبعَهُ بصرَهُ، ثم قال متمثّلاً بأبياتِ حسان بن ثابت :

إذَا قَالَ لم يتْرُكْ مقَالاً ولَمْ يقفْ   لِعيٍّ ولمْ يثْنِ اللّسَانَ على هُجْر
يُصرِّفُ بالقَولِ اللّسانَ إذا انتحىٰ   وينْظُرُ في أعْطَافِهِ نَظرَ الصَّقْرِ[1]

* وقد جمعَ ابنُ عبّاس رضي الله عنه جمالَ الشّكلِ إلى جمالِ القول ، فقديماً قيل : «الجمالُ في اللّسان». وفي رحاب الجمالِ والعقلِ نعيشُ مع حِكَمِ سيّدنا ابن عبّاس وكلماته لنعيشَ سعداءَ في أجواء طيِّبِ الكَلِم ونفيسِ الحكم .

* ففي الحضّ على أخذِ الحكمةِ وتعلّمها يقولُ : «خُذِ الحكمةَ ممن سمعتها ، فإنَّ الرَّجُلَ قد يتكلَّمُ بالحكمةِ ، وليس بحكيمٍ ، كما أنَّ الرَّمية قد تجيءُ من غيرِ رام»[2] .

* وكان لطلابه ومَنْ يزوره مكانةٌ نفيسةٌ عنده ، فقد سُئِلَ : مَنْ أكرمُ النّاس عليكَ؟

قال : «أكرمُ النَّاسِ عليَّ جليسي حتّى يفارقُني ، إنَّ الذُّبابَ ليقَعُ عليه فيؤذيني» .

* وفي محاسنِ الصَّمتِ وآدابِ اللسان ، يروي التّابعي الجليلُ سعيدُ بنُ جُبير رحمه الله قال : «رأيتُ ابن عبّاس رضي الله عنه في الكعبةِ آخذاً بلسانهِ

(١) انظر : ديوان حسان بن ثابت (ص ٣٢٥ و٣٢٦) ، والاستيعاب (٢/ ٣٤٧).
(٢) بهجة المجالس (١/ ٣٨) ، وصفة الصفوة (١/ ٧٥٧).

وهو يقول: يا لسانُ قلْ خيراً تَغْنَم ، أو اسكتْ تَسْلم»[1].

* وكانت نظرةُ ابنِ عبّاس إلى الحياةِ نظرةً واقعيةً ، فهو يدركُ قيمةَ المال ، ويعرفُ أحوالَ التّجارة ، وما ينبغي للمرء أن يبيعَ ، وما ينبغي له أنْ يشتريَ ، وفي هذا يقول: «من اشترى مالا يحتاجُ إليه ، يوشكُ أنْ يبيعَ ما يحتاجُ إليه».

* وللمعروفِ عند ابن عبّاس قولٌ معروفٌ مشهور ، إذ به يتألّفُ النَّاسَ ويألفونَه ، ويزرعُ ما بينَه وبينهم المودّةَ ، يقول: «ما رأيتُ رجلاً أوليتُه معروفاً إلاّ أضاءَ ما بيني وبينَه ، ولا رأيتُ رجلاً فرطَ إليهِ منّي شيءٌ إلاّ أظلمَ ما بيني وبينه»[2].

* وقال أيضاً في المعروف: «لا يزهدنَّك في المعروف كُفْرُ مَنْ كَفَر ، فإنَّه يشكرُكَ عليه مَنْ لم يصنَعْه».

* وقال: «لا يتمُّ المعروفُ إلا بثلاثة: تعجيلُه ، وتصغيرُه ، وسترُه ، فإنَّه إذا عجَّلَه هيّأهُ ، وإذا صغَّرهُ عظّمه ، وإذا ستَرهُ فَخَّمهُ».

* وكأنّي بالشَّاعر أخذَ هذا المعنى ، فصاغَه ، فقال:

وَلَـمْ أرَ كَـالمعْـروفِ أمَّـا مـذَاقُـه ... فَحُلـوٌ وأمّـا وجْهُـهُ فَجَميـلُ[3]

* ويروي ابنُ عبّاس هذه الحكمةَ التي تلقّاها من والدهِ العبّاس فيقول: «قال لي أبي: يا بنيّ أنتَ أعلمُ منّي وأنا أفْقَهُ منك ، إنّي أرى أميرَ المؤمنين ـ يعني عمر بنَ الخطاب ـ يُدْنيكَ دون أصحابِ محمّدٍ ﷺ ، فاحفظْ عنّي ثلاثاً: لا يجرّبنَّ عليكَ كذباً ، ولا تَغْتابنَّ عنده أحداً ، ولا تفشينَّ له سِرّاً.

---

(١) بهجة المجالس (١/ ٥٥) ، والبداية والنهاية (٨/ ٣٠٤) ، والزهد للإمام أحمد (ص ٢٣٦)؛ وهذا صحيح لأنَّ الألسنَ خدَمُ القرائح.

(٢) بهجة المجالس (١/ ٣٠٢) ، والبصائر والذخائر (٥/ ١٧٦). ويُنسب هذا القول لأبيه العباس رضي الله عنه وأرضاه.

(٣) محاضرات الأدباء (١/ ٤١).

قال الشّعبيُّ: يا بن عبّاس، كُلّ واحدةٍ خيرُ من ألفٍ. فقال: كلُّ واحدةٍ خيرٌ من عشرة آلاف»[1].

* ويبدو لي أنَّ ابن عبَّاس من أساتذةِ علماء النَّفس، ففي تعريفهِ للغرائزِ في الإنسانِ تبدو خبرتُهُ الواسعةُ في أحوالِ النَّفسِ البشريةِ حيث يقول: «الجبنُ والبخلُ والحرصُ غرائزُ سوء يجمعُها كلُّها سوءُ الظَّنّ بالله عزَّ وجلَّ».

* ومن أقوالهِ النَّافعةِ التي تشيرُ إلى علمهِ وفهمهِ: «أُبهِمتِ البهائمُ إلاّ عن أربعٍ: عن معرفةِ الرَّبِ، وابتغاءِ النّسل، وطلبِ المعاش، وحذرِ الموت».

* وفي المزاحِ المباح يقول: «المزاحُ بما يَحْسُنُ مباحُ، وقد مزحَ رسولُ اللهِ ﷺ، فلم يقلْ إلا حقّاً».

* وكانت الحكمةُ تسيلُ على لسانِ ابن عبّاس كما يسيلُ الجدولُ العذبُ الفُراتُ، فها هو ذا يهدي كلماتِهِ السَّائرةَ إلى جلسائِهِ، وحكمتَه إلى شُداةِ العِلْم وطلاّبِ المعرفة.

* من ذلك ما ذكرهُ وبرة المُسْلي قال: «سمعتُ عن ابن عبّاس كلماتٍ لهي أحبُّ إليَّ من الدُّهم الموقفةِ، قال: لا تتكلمنّ فيما لا يعنيك حتى ترى له موضعاً، فربّ متكلّمٍ بالحقِّ في غيرِ موضعهِ قد عيْبَ، ولا تمارينَّ سفيهاً ولا حليماً، فإنَّ السَّفيهَ يُؤذيكَ، والحليمَ يَقْليك، ولا تذكرنَّ أخاك إذا غابَ عنك إلاّ بمثل ما تحبُّ أنْ يذكركَ به إذا غبْتَ عنه، واعملْ عملَ رجُلٍ يعلمُ أنّه مجزىءٌ بالإحسانِ، ومأخوذٌ بالإجرام.

فقال رجلٌ عنده: يا بنَ عبّاس، لَهذه خيرٌ من عشرة آلاف.

قال: كلمة منها خير من عشرة آلاف»[2].

* وفي الحبّ والكراهيةِ في ضوءِ مرضاةِ اللهِ عزّ وجلّ يقولُ: «أحببْ

---

(١) انظر: بهجة المجالس (١/٣٤٣)، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/٣٠٥)، وحلية الأولياء (١/٣١٨)، مع الجمع بينها.

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٣٠٥).

في اللهِ ، وأبغضْ في اللهِ ، وعَادِ في اللهِ ، فإنّه لا تُنالُ موالاةُ اللهِ إلا بذلك ، ولن يجدَ عبدٌ طَعْمَ الإيمانِ ـ ولو كثرت صلاتُه وصومُه ـ حتى يكون كذلك. ولقد صارتْ عامّة مؤاخاةِ النّاس على أمرِ الدُّنيا ، وذلك لا يجدي على أهله ، ثم قرأَ ابنُ عبّاس: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزُخرف: ٦٧]؛ وقرأ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمًا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢][1].

* وكان ابنُ عبَّاسٍ بليغاً مفوهاً يجيدُ نظْمَ الشِّعْر ، ويتذوّق فنونَه ، فقد وردَ أنَّه قال يصفُ الخيلَ:

أَحِبُّوا الخَيْلَ واصْطَبِروا عَلَيْها ... فَإِنَّ العِزَّ فيْهَا والجَمالا
إذَا مَا الخَيْلُ ضَيَّعها رِجَالٌ ... رَبَطْنَاهَا فشَارَكَتِ العِيَالا
نقَاسِمُها المَعِيْشَةَ كُلَّ يومٍ ... ونكْسُوها البَراقِعَ والجَلالا[2]

* ومن بليغِ كلامهِ وبديعِ وحكمهِ القصَارِ قولُه: «الخَطُّ لسانُ اليَدِ». وقولُه: «المطرُ بَعْلُ الأرض». وقولُه: «آخرُ شدّةٍ يلقاها المؤمنُ: الموتُ». وقولُه: «لا كبيرةٌ مع توبةٍ واستغفار ، ولا صغيرةٌ مع لجاجةٍ وإصرار». وقوله في الرّزقِ: «لو قنعَ النّاسُ بأرزاقِهم كقناعتِهم بأوطانِهم ما اشتكىٰ عبدٌ الرِّزقَ»[3].

* ومن بدائعِ حكمهِ وروائع أقوالهِ في العِلْم ، ما أوردَهُ ابنُ عساكر رحمه الله عنه قالَ: «لو أنَّ العلماءَ أخذوا العلْمَ بمقَةٍ لأحبَّهم اللهُ عزّ وجلّ ، والملائكةُ ، والصَّالحون مِنْ عبادِهِ ، ولهَابَهم الناسُ ، لِفَضْلِ العلْم وشَرفِه»[4].

---

(١) بهجة المجالس (١/ ٧٠٤).
(٢) بهجة المجالس (٦٩٢) ، و«الجلال»: بضم الجيم وفتحها: ما تلبسه الدابة لِتُصانَ به.
(٣) ولابن عبّاس في الرّزق أيضاً قول عظيم: «ما من مؤمنٍ ولا فاجرٍ إلا وقد كتبَ اللهُ تعالى له رزقُه من الحلال ، فإنْ صبرَ حتّى يأتيه ، آتاه اللهُ تعالى ، وإن جزعَ فتناولَ شيئاً منَ الحرام نقصه اللهُ من رزقهِ الحلال». (حلية الأولياء ١/ ٣٢٦).
(٤) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣٢٦) و«مِقة»: محبة.

* وذكرَ الجاحظُ في «البيانِ والتَّبيين» حكمةً علميةً لابن عباس وهي قوله: «العلمُ أكثرُ من أنْ يُحصى فخذوا من كُلّ شيءٍ أحسنه».

* وقال «إذا تركَ العالِمُ قولَ لا أدري، أُصيبَتْ مقاتلُه». وقال: «كُونوا ربّانين[1] حلماءَ فقهاءَ عُلماءَ».

* وقال في الحضِّ على العِلْمِ والتّرغيبِ في سلوكِ طريقهِ، فيما رواه عليٌّ الأزديّ قال: «سألتُ ابنَ عبَّاس رضي الله عنهما عن الجهادِ فقال: ألا أدلُّكَ على ما هو خيرٌ لكَ منَ الجهاد؟ تجيءُ مسجداً فتعلّمُ فيه القرآنَ والفقْهَ في الدِّين ـ أو قال: السُّنَّة ـ».

* ومن محاسنِ وصاياهُ النَّافعة هذه الوصيّةُ الجامعةُ لأصولِ الدِّين ومكارمِ الأخلاق، وخيرِ الدنيا والآخرة؛ ذكرَ ابنُ عساكر هذا فقال: «قال جندبٌ لابن عبّاس: أوصني بوصيّةٍ.

قال: أوصيكَ بتوحيدِ اللهِ، والعملِ له، وإقامِ الصَّلاة، وإيتاءِ الزّكاة، فإنَّ كلَّ خيرٍ أنتَ آتيه بعد هذه الخصَال منك مقبولٌ، وإلى الله مرفوعٌ. يا جندبُ، إنّكَ لن تزدادَ من يومك إلاّ قرباً، فصَلِّ صلاةَ مودّع، وأصبحْ في الدنيا كأنَّك غريبٌ مسافرٌ، فإنّك من أهلِ القبور، وابْكِ على ذنبكَ، وتبْ من خطيئتكَ، ولتكنِ الدُّنيا أهونَ عليك من شسْعِ نعلَيْك، وكأَنْ قد فارقْتَها، أو صرتَ إلى عدلِ اللهِ، ولن تنتفعَ بما خلّفتَ، ولن ينفعَك إلاّ عملُكَ»[2].

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾:

* عاش ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما الخلافةَ الرّاشدةَ، وهو أميرٌ من أمراءِ العِلْم والمعرفةِ والتَّفسير والحديثِ والأدبِ والكَرَمِ، ثمّ امتدَّتْ حياتُه صَدْراً من خلافةِ بني أميّةَ، وشهدَ الأحداثَ التي مرَّتْ بذينكِ العهدَيْن، وكانت له مواقفُ سليمةً منها؛ بل كانت له آراءُ سديدةً مع سيِّدنا عليِّ بنِ أبي طالب

---

(١) «ربّانيين»: الرّباني: يقال: الذي يربّي النّاس بصغار العِلْم قبل كِباره.

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣٢٦)، والبداية والنهاية (٨/ ٣٠٤ و٣٠٥).

رضي الله عنه في عَهْدِ خلافتِه ، وشهدَ معه الجملَ وصفّين ، وولاّهُ عليٌّ البصرةَ سنةَ (٣٦هـ) ، وظلَّ بها حتّى وفاة عليّ ، كما كانت له بعضُ الآراءِ السّياسيّة السَّديدة ، وخصوصاً نصائحُه للحُسين بنِ عليّ رضي الله عنهما ، ولابن الزُّبير رضي الله عنهما؛ ولا مجال لنا هنا لِذكْرِ تلكم المواقف ، لأنَّها خارجةٌ عن مضمون الكتاب وموضوعه ، ومَنْ أرادَ المزيدَ من هاتيكم الأخبار ، فابنُ كثير يروي غليلَه في «بدايتهِ ونهايتهِ» .

* وقُبيل وفاتِه أُصيب ابنُ عبّاس في بصَره[1]، ولكنَّ بصيرتَه ظلّتْ متّقدةً، وفكرته متوقّدةً ، وظلّت مجالسُهُ تفيضُ بالأنوارِ العلميّة؛ ولله درُّ القائل :

كُنَّا نجيءُ ابنَ عبَّاسٍ فيَقْبِسُنا فِقْهاً ويكسِبُنا أجْراً ويَهْدينا

* تذكر كتبُ المصادرِ والتَّراجم عن عكرمةَ عن ابنِ عبّاس «أنَّه وقعَ في عينَيْه الماءُ ، فقال له الطَّبيبُ : ننزعُ من عينَيْكَ الماءَ على ألاّ تصلّي سبعة أيّام إلاّ مُستلقياً فقال : لا واللهِ ولا ركعةٍ واحدة ، إنَّه مَنْ تركَ صلاةً واحدةً متعمّداً لقيَ اللهَ وهو عليه غضْبان» .

* وأنشد ابنُ عبّاس حين عميَ وتجاوزَ السَّبعين :

إنْ يأْخُذِ اللهُ مِنْ عَينيَّ نُورَهُما فَفِي لسَاني وقَلْبِي مِنْهُما نُورُ
قَلْبِي ذَكيٌّ وَعقْلِي غَيرُ ذي دَخَلٍ وَفي فَمِي صَارِمٌ كَالسَّيفِ مَأْثُورُ[2]

* وفي سنةِ (٦٨هـ) كان ابنُ عبّاس بالطَّائف ، فوهنَ ، ومرضَ ، وكان معه أهلُه ونساؤُه ، وأصحابهُ. قال مولاه عِكْرمةُ: «فبينما نحنُ عنده ، إذْ قالَ في مرضهِ: إنّي أموتُ في خيرِ عصابةٍ على وجْهِ الأرض ، أحبُّهم إلى اللهِ وأكرمُهم عليه ، وأقربُهم إلى الله زُلفىٰ ، فإنْ متُّ فيكم فأنتمْ هُم ، فما لبثَ بعد هذا القول إلاّ ثمانِ ليالٍ حتى توفي ، وصلّى عليه محمّدُ بنُ الحنفيّة ،

---

(١) قال النووي: «وكذلك أصيب والده العباس وجده عبد المطلب» (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٧٥).

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣٢٦) ، والبداية والنهاية (٨/ ٣٠٤ و٣٠٥).

وكبّر عليه أربعاً ، وضربَ على قبرِه فسطاطاً ، وقال: اليومَ ماتَ ربّانيُ هذه الأمّة ، فلمّا وضعوهُ ليدخلوه قَبرَهُ ، جاء طائرٌ أبيضُ لمْ يُرَ مثلَ خلقتِهِ ، فدخلَ أكفانَه ، ولم يُرَ خارجاً منها ، فلمّا وُضِع في اللّحدِ ، تُلِيَتْ هذه الآية على شفيرِ القبرِ ، لا يُدرىٰ مَنْ تَلاها: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠][(١)]».

* وما أجمل أنْ نقرأَ قولَ مَنْ قالَ:

لمَّا اطمأنّتْ نَفسُه الرّاضية	قِيلَ ارجِعي مَرضِيَّةً رَاضِية
وفي عِبَادي فَادْخُلي جَنَّتي	قُطوفُها يَانِعَة دانية

* ولما بلغَ جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنهما وفاةَ ابنِ عبّاس صفّقَ بإحدىٰ يَديْهِ على الأُخْرى وقال: «ماتَ أعلمُ النَّاس ، وأحلمُ النَّاس ، ولقد أُصيبتْ به هذه الأمّة مصيبةً لا تُرتقُ»[(٢)].

* وفي عَهدِ هارون الرّشيدِ الخليفةِ العبّاسيّ المجاهد ، حجّتْ زوجهُ زُبيدةُ بنتُ جعفر[(٣)] ، وأمرتْ بعمارةِ مسجدٍ بالطّائفِ يُنْسبُ للنَّبيِّ ﷺ ، وفي مؤخرِهِ قبرُ عبدِ الله بن عبّاس رضي الله عنهما.

* وفي عَهْدِ المُستعين العبّاسيّ عمّر ضريحَ ابن عبّاس. قال الفاسيُّ: «والمسجدُ الذي فيه قبْرُ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما أظنُّ أنَّ المستعينَ العبّاسيَّ عمَّرهُ مع ضريح ابن عبّاس رضي الله عنهما واسمهُ مكتوبٌ في المنبرِ الذي في هذا المسجد»[(٤)].

* ذلكم هو سيّدنا عبدُ الله بنُ عبَّاس الحبرُ البحرُ ، الذي كُلَّما اغترفْنَا من علومهِ ازددنا عطَشاً لمعرفةِ معارفَ أخرى. فابنُ عبّاس ذلك العالمُ العَيْلَمُ

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٨/٣٠٦) ، وسير أعلام النبلاء (٣/٣٥٨) ، ومجمع الزوائد (٩/٢٨٥) مع الجمع بينها.

(٢) صفة الصفوة (١/٧٥٨).

(٣) اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ٢٢٩ ـ ٣٤٤) فسيرتها إمتاع للأسماع.

(٤) شفاء الغرام (١/١٤٥).

الذي ملأَ الدُّنيا بعلمه وشغلَ علماءَ النَّاس بفقههِ ، وتأويلهِ.

* وما أجملَ أنْ نذكرَ في ختام هذه الصَّفحاتِ النَّواضرِ من سيرة ابن عبّاس فقرات بديعة من كلماتٍ أبي نُعيم الأصفهانيّ بدأَ بها كلامَه عن ابنِ عبّاس فقال: «ومنهم اللقِنُ المُعَلَّم ، والفِطنُ المُلهم ، فخرُ الفخارِ ، وبدرُ الأَحْبَارِ ، وقطبُ الأفلاكِ ، وعنصرُ الأملاكِ ، البحرُ الزّخّار ، والعينُ الخرّار ، مفسّرُ التّنزيل ، ومبيّنُ التّأويل ، المتفرّسُ الحسَّاس ، والوضيءُ اللباس ، مُكْرِمُ الجلاّس ، ومطعمُ الأناس ، عبدُ الله بن عبَّاس رضي الله تعالى عنه»[1].

* اللهمّ ربَّ النَّاس ، ملك النّاس ، مُذهبَ الباس ، احشرنا في زُمرةِ عبدالله بن عبّـاس ، وقنا من شرّ الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس.

* * *

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٣١٤).




عبد الله بن عمر

* كان كثير الاتّباع لآثار النّبيّ ﷺ والاقتداء بِهَدْيه.
* من الصّحابة العُبّاد والزّهّاد والمفتين والمفسّرين.
* روى [٢٦٣٠] حديثاً فهو ثاني حفّاظ الحديث.
* شُغِفَ بالحجّ والعمرة والتأسّي برسول الله ﷺ.
* أحد العبادلة الأربعة العلماء من الصّحابة، وابن فاروق الأمّة.




عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَر

الفَـرْعُ الرَّطيْـبُ:

* عالمٌ ارتقى ذُرا الفضَائِل ، وسَابقَ في حلبةِ العلوم فحازَ قَصبَ الفَواضِل ، فبحرهُ لا تكدِّرهُ الدِّلاء ، وموردُهُ العذبُ غذاءُ العُلماء.

* حاكَى أباهُ في العُلا وإيقاظِ الهِمَم ، ومَنْ يُشَابهْ أباهُ فما ظَلَم ، فهو حَبْرٌ تكتحلُ العيونُ بعيونِ أخباره ، وبَحْرٌ تُروى المسامعُ بِطيبِ إخْباره.

* حفظَ القرآنَ الكريمَ وفهمَ معانيه ، وعرفَ بلاغةَ الرَّسولِ ﷺ فكانت مغَانيه ، وأدركَ مقامَ النَّبي ﷺ وعرفَ قَدْره ، فكانَ الشِّعارَ الذي يردّدهُ في المجالسِ ، ليكونَ أُنْساً للمُجالِس ، قول الله عزّ وجلّ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ولهذا عُرِفَ بين علماء الصّحابة ، والصَّحابة العُلماء بلقب: «المُؤتسي برسول اللهِ ﷺ» ، فأُشيرَ إليه بالجلال ، وأُثني عليه بكرم الخلال ، وكريم الخِصَال.

* وإذا أردنا أنْ نتعرَّفَ هوّيةَ هذا العالم العيلَم ، فلنقرأْ هذه القصَّةَ التي تشهدُ لِضَيفنا بعزّ الشّرف ، ورفعةِ العلْم.

* تقولُ القصَّةُ: «حجَّ معاويـةُ بنُ أبي سُفيان رضي الله عنهما مرّةً ، فجلسَ بالأبطح[1] ،فإذا هو بجماعةٍ على رحَالٍ لهم ، وإذا شابٌّ منهم قد رفعَ عقيرتَه ينشدُ:

---

(١) «الأبطح»: اسمُ موضع؛ وهو اليوم من مكّة. والأبطح: كلّ مسيلِ ماء فيه دقاق الحصى.

وَأَنَــا الأَخْضَــرُ مَــنْ يَعْــرِفُنــي   أَخْضَـر الجِلْـدةِ مـنْ بيـتِ العَـربْ
مَـنْ يُسَـاجِلْنـي يُسَـاجِـلْ مـاجِـداً   يمـلأُ الـدّلـوَ إلـى عقْـد الكـربْ[1]

فقال معاويةُ رضي الله عنه: مَنْ هذا الفتى؟

فقالوا: يا أميرَ المؤمنين هو فلانُ بنُ جعفرَ بنِ أبي طالب.

قال: خلُّوا له الطَّريقَ فليذهبْ.

ثمّ إذا هو بجماعةٍ، وفيهم غلامٌ ينشدُ ويقولُ:

بَيْنَمـا يـذْكُـرُنَنـي أبْصَـرنَنَـي   عنْـدَ قـدّ الميْـلِ يَسْعـىٰ بـي الأغـرّ
قُلْـنَ تعـرِفْـنَ الفَتَـى قُلْـنَ نَعَـمْ   قَـدْ عَـرفنَـاهُ وهَـلْ يخفـىٰ القمـر

فقال معاويةُ رضوان الله عليه: ومَنْ هذا الفتى أيضاً؟ قالوا: عمرُ بنُ عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميّ.

قال: خلُّوا له الطَّريق فليذهبْ.

ثمّ إذا هو بجماعةٍ حولَ رجلٍ يسألونَه، فبعضُهم يقول: رَميتُ قَبْلَ أنْ أحْلِقَ؛ وبعضُهم يقول: حلقتُ قبلَ أنْ أرميَ؛ وبعضُهم يقول: فعلتُ كذا، وعملتُ كذا، يسألونه عن أشياءَ أشْكَلَتْ عليهم من مناسكِ الحجّ وأحكامِهِ.

فقال معاويةُ رضي الله عنه وعلائمُ الإعجابِ ترتسمُ على وجهه: مَنْ هذا؟ قالوا: هذا عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما.

فقال معاويةُ كلمةَ عالِمٍ فقيهٍ: هذا ـ واللهِ ـ الشَّرفُ، وهذا ـ واللهِ ـ شرفُ الدنيا وشرفُ الآخرة»[2].

* إذاً فهذا المؤمنُ العالمُ صاحبُ الشَّرف العلميّ في عَصْر الأَنْجاب،

---

(١) هذان البيتان من قول الفضْلِ بنِ العبّاس بن عتبةَ بن أبي لهب، وهو شاعرٌ هاشمي معاصرٌ للفرزدق، توفي في خلافةِ الوليد بن عبد الملك، وأخباره مبثوثة في دواوين الأدب.

(٢) انظر كتاب: جامع العِلْم وبيان فضْله (ص ١٠٦ و١٠٧) بشيء من التصرف، طبعة مصر الثانية، بتحقيق عبد الكريم الخطيب، واقرأ سيرة سيّدنا معاوية في هذا الكتاب.

ومَنْ سطعَ نجمُه فوقَ السَّحاب ، وقارعَ بعلمهِ ذوي الألباب ، عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطَّاب ، الصَّحابي الزّاهد ، أبو عبد الرّحمن القرشيّ العَدويّ ، المكّيّ ، ثم المدنيّ[1] رضي الله عنه وعن أبيه .

* كان مولدُ عبدِ الله بنِ عمر في فجرِ البعثةِ المحمديّةِ ، في السَّنةِ الثّانية منَ المبعَثِ ، وذلك عندما أشرقتْ شمسُ الإسلام بأشعّتها الإيمانية التي دخلت بيوتَ مكّةَ المكرمةِ ، فكان البيتُ العُمريُّ من البيوتِ الميمونة التي استقبلتِ الإسلامَ وتقبَّلَتْه بقَبولٍ حَسَن ، وأضاءَ الإيمانُ فؤادَ فتى الشُّبّانِ العدويّ عمر بن الخطاب ، فأصبحَ بالإسلامِ فاروق الإسلام ، وسَرَتْ أنسامُ الإيمانِ فلامستْ قَلْبَ فتَاهُ الصَّغير عبد الله الذي درجَ منذ نعومةِ أظفاره على أنفاس الإسلام تداعبُ وجدانَهُ وقلبَهُ ، ولاحظتْهُ عيونُ العنايةِ الإلهيّة فأسلمَ معَ أبويه[2] وهو صغيرٌ لم يشبَّ عن الطَّوق ، وتقلَّبَ في أحضانِ الحقّ تحنو عليه قلوبُ المؤمنين المحبّين ، ويرعاه قلْبُ الفاروق الرّجُلِ الثّاني والوزيرِ الثّاني والخليفةِ الثّاني ، ورجلِ المواقفِ في المكانةِ في عالَم عُلماء الصَّحابة وأعلامِهم بعد أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه وأرضاه وحشَرنا في معيّته .

* وبعينِ البراءةِ وعينِ الصِّدق ، كان سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرَ يرى ما يحلُّ بالمسلمين من أذى المشركين ، فكانت ذاكرتُهُ وبصيرتُه ترسمُ تلكم المناظرَ الوحشيّة التي يرتكبُها فجّارُ قريش وأشرارهم في أهلِ الإيمان ، وفي أسرتهِ

---

(١) المصادر التي تحدثت عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كثيرة لا تحصر ومنها: طبقات ابن سعد (٤/ ١٤٢ ـ ١٨٨) ، ونسب قريش (ص ٣٥٠ و٣٥١) ، والاستيعاب (٢/ ٣٣٣ ـ ٣٣٨) ، وأسد الغابة (٣/ ٢٣٦ ـ ٢٤١) ترجمة رقم (٣٠٨٠) ، وحلية الأولياء (١/ ٢٩٢ ـ ٣١٤) ، وتاريخ بغداد (١/ ١٧١ ـ ١٧٣) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٧٨ ـ ٢٨١).

(٢) أبوه: سيّدنا عمرُ بنُ الخطاب رضوان الله عليه ، وأمُّه: زينبُ بنتُ مظعون من بني جُمح ، وزينبُ هذه أُمُّ عبد الله بن عمر وأمُّ حفصة أمّ المؤمنين ، وهي من المهاجرات ، وجاء في صحيح البخاري عن عمرَ بنِ الخطاب أنّه قال في شأن ابنه عبد الله: «هاجر به أبواه». وقال ابنُ عبد البر: «أسلم عبدُ الله مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم». (الاستيعاب ٢/ ٣٣٤).

وأهلِه وذويه ، وبعد سبعةِ أعوامٍ كواملَ من إسلامه ، جاءَ الإذنُ الإلهيُّ بالهجرةِ إلى المدينة المنورة ، فهاجر عبدُ الله مع أبويه[١] وهو لم يبلغِ الحُلمَ بعد ، إذ كان عمره آنذاك في عمر الوَرْدِ والزَّهْر ، يقتربُ من أحد عشَرَ ربيعاً. . .

* قضى سيّدنا عبدُ الله بنُ عمر في المدينةِ المنوّرة عقْداً من الزَّمنِ وهو في رحابِ الحضرةِ النّبويّة ، تأنس روحهُ بعبير الشَّمائل والأنفاسِ المحمديّة ، ويغترفُ من بحارِ أنوارِ المعارفِ النّبوية ، فأضحى من أئمةِ الفضلِ ، وأعلامِ الزُّهد ، وأكابر العُلماء ، وسادتهم في دنيا العلْمِ والمعرفة على مدى ثلاثة أرباع قرنٍ من الزَّمان.

* وفي مجالِ الفضائل ، أبدعَ عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما ، فكان صالحاً من أتقياءِ الصُّلحاء ، وعابداً منْ أصفياء العَابدين ، وعالماً من أفاضلِ العُلماء ، سار على النَّهج النَّبوي لا يحيد ، بل قلَّ نظيرهُ في المُتابعةِ لرسول الله ﷺ في كلّ شيءٍ من الأقوالِ والأفعالِ وفي الزَّهادةِ في الدُّنيا ومقاصدِها ، والتَّطلُّع إلى الرِّياسةِ وغيرِها.

* شهدَ لعبدِ اللهِ بنِ عمر رضي الله عنهما بهذا الفضل سيّدنا جابرُ بنُ عبد الله الأنصاريّ أحد فضلاء الصَّحابة وعلمائهم فقال: «لم يكنْ أحدٌ منهم ـ أي الصَّحابة ـ ألزمَ لطريقِ رسولِ اللهِ ﷺ ، ولا أتْبعَ من ابنِ عمر رضي الله عنه»[٢].

* وقال ابنُ عبد البرّ رحمه الله: «كان عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما من أهلِ الورعِ والعلْمِ ، وكان كثيرَ الاتّباعِ لآثارِ رسولِ الله ﷺ ، شديدَ التّحري والاحتياطَ والتوقّي في فتواه ، وكلّ ما يأخذُ به نفسه»[٣].

---

(١) قصة هجرة عمر رضي الله عنه مشهورة متعالمة في السيرة النبوية.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٧٩).
(٣) الاستيعاب (٢/ ٣٣٤).

الصَّلاةُ في حَيَـاةِ ابنِ عُمَرَ:

* يمكنُنا أنْ نقولَ: «إنَّ علاماتِ النَّجابة كانت ترتسمُ على محيّا سيّدنا عبدِ اللهِ بنِ عمر، بينما كان العلْمُ يتفجّرُ من خلالِ جنباتِ نفسه وقلْبه، فلقد حباهُ اللهُ تعالى ذكاءً سخّرهُ في رعايةِ العِلْم والعُلَماء وطُلّاب المعرفة».

* وحينما أخذتِ الحلقاتُ العلميّةُ النّبويةُ تنعقدُ في المسجدِ النّبويّ الشَّريف، شرفَ عبدُ الله بن عمر وتشرّفَ بالانتسابِ إلى هذه المجالس السَّنيةِ المباركةِ، وحظي ببركة الصُّحبةِ النَّبويةِ، ونَعِمَ بنعيم العلْم المحمديّ الذي حفظَ منه نصيباً مُباركاً كثيراً نافعاً.

* وكان المسجدُ النّبويّ الشَّريفُ هو القلْبُ الحاني الذي يسكنُ إليه فتى العُلماء وعالمُ الفتيان عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما، كما كان المسجدُ اليدَ الحانيةَ التي تمسحُ على رأسه، لذا فقد اتّخذ عبدُ الله المسجدَ دُنيا عَملِهِ، وعملَ دُنياه، لِيَصلَ من خلالهِ إلى الآخرةِ، فَثَمَّ الجنَّة، فحرصَ على مَنْ يدلُّهُ على طريقِ الجنَّة، فكان معلّم البشريةِ رسولَ اللهِ ﷺ، فانتسبَ إلى المدرسةِ المحمديّةِ، ليكونَ أحدَ نُجباء العُلماء، وأحدَ العُلماء النُّجباء من عبادلةِ الإسلامِ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ، وأحدَ الأذكياء العالِمين في عَصْر النُّبوة الزّاهر الميمون.

* عكف عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنه على تلقّي العِلْم من رسولِ اللهِ ﷺ، وعَلِمَ فضْلَ قيام الليلِ وثوابه، فَثَابرَ على ذلك حينما سمعَ ثناء النّبيّ ﷺ عليه عندما قال: «نِعْمَ الرّجلُ عبدُ الله لو كان يصلّي من الليل» وفي رواية: «إنَّ عبدَ الله رجلٌ صالحٌ»(١)، فكان بَعْدُ لا ينامُ من الليلِ إلاّ قليلاً.

* ويبدو أنَّ هذا الإنعامَ النّبويَّ على الشَّابِ العالمِ العاقلِ عبدِ الله بنِ

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (٣/ ٥و٦) ومسلم برقم (٤٧٨، و٢٤٧٩)، والتّرمذي برقم (٣٨٢٥).

عمر ، قد جعله من أكثر الصَّحابة التماساً للأمكنة التي صلّى فيها النّبيّ الكريم ﷺ.

* روى نافعٌ مولى ابنِ عمر: «أنَّ ابنَ عمرَ رضي الله عنهما كان يتّبعُ آثارَ رسولِ الله ﷺ في كُلِّ مكانٍ صلّى فيه ، حتى إنَّ النَّبيَّ ﷺ نزلَ تحتَ شجرةٍ ، فكان ابنُ عمر رضي الله عنهما يتعاهدُ تلك الشَّجرة ، فيصبُّ في أصلِها الماء لكيلا تَيْبَس»[1].

* وظلّت كلمةُ الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ «نِعْم الرّجل عبد الله لو كان يصلّي منَ الليل» شعارَ عبدِ الله بنِ عمر المُحبّب ، فلا يكادُ يتركُ إحياءَ الليالي إلاّ وهو قائمٌ بالصَّلاةِ ومناجاةِ العليمِ الخبير واستغفاره.

* عَرَضَ مولاه نافعٌ هذه الصُّورة الجميلة فقال: «كان عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما يُحيي الليل ، ثمّ يقولُ لي: يا نافعُ ، هل جاء وقْتُ السَّحر؟

فأقولُ: لا يا أبا عبد الرّحمن ، ما زال الليلُ مُرخياً سدولَه. فيعاودُ صلاتَه وقيامَه ومناجاتَه ، فإذا ما عادَ وسألَني عن السَّحَرِ ، وقلتُ نعم ، قعدَ ، ثمّ بدأ يستغفرُ اللهَ ، ويدعوه تضرعاً وخيفةً حتى يصبح»[2].

* ولله درُّ مَنْ قال:

مَازالَ يضْرَعُ في الدُّعاءِ لِرَبِّه ... سِرّاً وجَهْراً مُجْمِلاً ومفصّلا
مُتوجّهاً بخُلوصِ قَلْبٍ صادقٍ ... فيما انْتَحَاهُ تَضرّعاً وتبتُّلا[3]

* وكان ابنُ عمر إذا فاتته صلاةٌ في جماعةٍ صلّى إلى الصَّلاةِ الأخرى ، فإذا فاتتْهُ العَصْر ، سبّحَ إلى المغربِ ، ولقد فاتته صلاة عشاء الآخرة في جماعةٍ ، فصلّى حتّى طلعَ الفجر[4].

* وفي رحلةِ العبادةِ والصِّلَةِ مع اللهِ والصَّلاةِ لله ، كان ابنُ عمر يقتبسُ كلَّ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١٣) ، وأسد الغابة (٣/ ٢٣٧).
(٢) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٦٢) بشيء من التصرف.
(٣) انظر: نفحة الريحانة (٢/ ٣٩٨).
(٤) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٦٢).

ما رآه من معلّمه رسولِ اللهِ ﷺ فيحذو حذوَهُ ، ويقتدي بهديه ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾[1] لا يحيدُ قِيْدَ أنملة .

* عن زيد بنِ أسلم[2] رحمه الله قال: «رأيتُ ابنَ عمر يصلّي محلولَ الإزار ، وقال: رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ محلولَ الإزار»[3].

* وأعتقدُ أنَّ هذا الإزارَ كان قد أعطاه إيّاه رسولَ اللهِ ﷺ ، فقد ذكر ابنُ عمر أنَّ النّبيّ ﷺ كسَاه حلّةً سِيرَاء ، وكسَا أسامة قبطيّتَين ، ثم قال: «ما مسَّ الأرض فهو في النَّار»[4].

* وعن حفْظِهِ صلاة السُّنّة ، واقتدائه بالأثرِ النّبويّ يروي ابن عمر رضي الله عنه ذلك فيقول: «حفظتُ من رسول الله ﷺ عشْرَ ركعات:

ركعتَيْن قبل صلاةِ الفَجر ، وركعتَيْن قبل صلاةِ الظّهر ، وركعتين بعد صلاة الظهر ، وركعتين بعد صلاةِ المغرب ، وركعتَيْن بعد صلاة العشاء»[5].

* ويبدو من أخبارِ ابنِ عمر رضي الله عنهما أنَّ الصَّلاة كانت قرّة عينِه ، ومهوى فؤادِه ، فهي العروةُ الوثقىٰ الزّاكية ، فمن خلالها يناجي ربَّه وهو قائمٌ يصلّي في المحراب ، ويدعو ما يحلو له أن يدعو ، لقد شاهدَ معلّمَه ومعلّمَ

---

(١) اقتباس من الآية (٤٢) من سورة النّمل ، وتمامها ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ .

(٢) زيدُ بنُ أسلم أبو أسامة القرشيّ العدويّ المدنيّ مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه التّابعي الصّالح الفقيه رحمه الله كان له حلقةٌ في مسجدِ رسول الله ﷺ ، وكان ثقة كثيرَ الحديث. قال أبو حازم: «لقد رأيتنا في مجلسِ زيد بن أسلم أربعين فقيهاً أدنى خصلة فينا التّواسي بما في أيدينا» وكان أبو حازم يقول أيضاً: «اللهم إنّك تعلمُ أني أنظر إلى زيد بن أسلم ، فأذكر بالنظر إليه القوة على عبادتك». وكان عليُّ بن الحسين يجلسُ إلى زيد بن أسلم ، ويتخطى مجالس قومه ، فقيل له: تتخطى مجالس قومك إلى عَبْدٍ لعمر بن الخطاب؟ فقال: «إنما يجلسُ الرجل إلى مَنْ ينفعه في دينه». توفي زيد بالمدينة سنة (١٣٦هـ) رحمه الله.

(٣) طبقات ابن سعد (٤/ ١٧٥).

(٤) طبقات ابن سعد (٤/ ١٤٥ و١٤٦). و«الحلّة» نوع من البرود يخالطه حرير. «وقبطيتين»: مثنى قبطية: وهو ثوب من ثياب مصرَ رقيق أبيض ، منسوب إلى القِبط.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٥١ و٧٤ و٩٩ و١٠٠ و١١٧).

البشريّة رسولَ اللهِ ﷺ يفعلُ ذلك ، فأحبَّ أنْ ينهجَ نهجَه بذلك .

* قال سيّدنا أبو موسى الأشعريّ[1] رضي الله عنه : «صلّيتُ إلى جانبِ عبدِ الله بنِ عمر رضي الله عنهما ، فسمعتُه حين سجدَ يدعو ويقول : اللهمَّ اجعلْ حبّكَ أحبَّ الأشياءِ إليّ ، وخوفَك أخوفَ الأشياء عندي ، وسمعتُه حين سجدَ يقول : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص : ١٧]. وقال : «ما صلّيتُ صلاةً مذ أسلمتُ إلا وأنا أرجو أن تكونَ كفَّارة»[2] .

* ومن لطائفِ أخباره في هذا المضمارِ الميمون ، ما وردَ عنه أنَّه كان إذا أصبحَ توجَّه بالدُّعاء إلى العزيزِ الحميد وقال : «اللهمّ اجعلْني منْ أعظمِ عبادِك عنْدَكَ نصيباً في كلّ خيرٍ تقسمُه الغَداة ، ونوراً تهدي به ، ورحمةً تنشرُهَا ، ورزقاً تبسطُه ، وضرّاً تكشفُه ، وبلاء ترفعُه ، وفتنة تصرفها»[3] .

* ويظهرُ أنَّ ابنَ عمر رضي الله عنهما كان يؤدّي صلاتَه في المسجدِ النّبويّ الشَّريف ، سمعاً وطاعة لما حفظه عن النّبيّ ﷺ ينوّهُ بفضلِ الصَّلاة في المسَاجد ويخصُّ بالذكرِ مسجده الشَّريف والمسجد الحرام .

* فعنِ ابنِ عمر رضي الله عنهما عن النّبيّ ﷺ قال : «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ فيما سواه من المساجد إلّا المسجد الحرام»[4] .

* وأخبارُ ابنِ عمر في هذا المضمار واسعةٌ كثيرةٌ ، وهي منثورةٌ كنثار الزّهر في رياض المصادرِ المتنوّعة .

ابنُ عُـمَـرَ والأسْـوَةُ النَّبويَّـةُ :

* في الفقرةِ السَّابقةِ ألفينا كيفَ كانت أسوةُ عبدِ الله بنِ عمرَ بصلاةِ رسولِ الله ﷺ ، وكيف كان يتتبّعُ الهديَ النّبويَّ بذلك .

* غير أنَّ ابنَ عمر كانت أسوتُه كاملةً بكُلِّ أعمال رسولِ الله ﷺ وأقواله ،

---

(١) اقرأ سيرته في هذه الموسوعة اللطيفة في الباب الثالث.

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٦٨) ، وحلية الأولياء (١/ ٣٠٤).

(٣) انظر : حلية الأولياء (١/ ٣٠٤) ، وصفة الصفوة (١/ ٥٧٧).

(٤) أخرجه مسلم برقم (١٣٩٥) ، وابن ماجه برقم (١٤٠٥).

فقد كان يتّبعُ آثارَ الحبيبِ الأعظمِ محمّد ﷺ ، ويقتفي أحوالَه ويُلزمُ نفسَه بتنفيذِ ما شاهدَهُ من الصَّادق المصدوق ﷺ.

* ففي رحلةٍ جمعت ابنَ عمر ونفَراً من أكابرِ العُلماء ، برهَنَ ابنُ عمر عن أسوتهِ الكاملةِ برسولِ الله ﷺ ، «إذ مرَّ بمكانٍ فحاد عنه ، فسُئِلَ: لمَ فعلْتَ ذلك؟

قال: رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ فعلَ ذلك ففعلتُ»[1].

* وشهدَ لابن عمر بحسنِ اقتفائه للآثارِ المحمّدية ، شاهدٌ من أهلِ البيت النّبويّ ، هذا الشَّاهد من فقهاءِ الصَّحابةِ ، ومن علماءِ الأُمّة ، بل أفْقَه نساء الأمّةِ على الإطلاق، سيّدتنا عائشة بنت أبي بكْر رضي الله عنهما حيث قالت: «ما كان أحدٌ يتّبعُ آثارَ النَّبيّ ﷺ في منازلهِ ، كما كان يتّبعهُ ابنُ عمر رضي الله عنه»[2].

* وقد أُغْرِمَ ابنُ عمرَ غراماً شديداً في أسوتهِ المباركةِ بالحضرةِ المحمّدية ، حتّى راودتِ الظُّنون بعضَ من كان يراهُ أنَّ بهِ شيئاً.

* أوردَ أبو نُعيم رحمه الله في حِلْيته خبَراً يوافقُ ما قُلناه ، فقال: «كان ابنُ عمرَ إذا رآه أحدٌ ظنَّ أنَّ به شيئاً مِنْ تتبُّعِهِ آثارَ النّبيّ ﷺ»[3].

* وقال الخطيبُ البغداديُّ رحمه الله في تاريخه «كان عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما يتحفظُ ما يسمعُ من رسولِ اللهِ ﷺ ، وإذا لم يحضرْ ، يسألُ مَنْ يحضر عمّا قالَ رسول اللهِ ﷺ وفعل. وكان يتتبّعُ آثارَ رسولِ اللهِ ﷺ في كلّ مسجد صلى فيه ، وكان يعترضُ براحلته في كُلّ طريق مرَّ بها رسولُ اللهِ ﷺ ، فيُقَال له في ذلك فيقول: أتحرّى أنْ تقعَ أخفافُ راحلتي على بعضِ أخفافِ راحلةِ رسولِ الله ﷺ»[4].

---

(١) المسند (٢/ ٤٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ١٤٥).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٣١١).

(٤) تاريخ بغداد (١/ ١٧٢) ، وانظر: نسب قريش (ص ٣٥٠ و٣٥١).

* وكان سيّدنا ابنُ عمر يحبُّ أن يقلّدَ النَّبيّ ﷺ في مشيتِه ، وفي المكانِ نفسِهِ الذي كان يمشي فيه ، ليحظى بالبركَةِ ، وليشيرَ إلى حبِّهِ للنّبيّ ﷺ ويدلَّ على تقواهُ وإيمانِهِ.

* روى عبدُ الله بنُ قيس بنِ مخرمةَ قال: «أقبلتُ من مسجدِ بني عمرو بنِ عوف بقباء على بغْلَةٍ لي ـ قد صلّيتُ فيه ـ ، فلقيتُ عبدَ الله بنَ عمر رضي الله عنهما ماشياً فلمّا رأيتُه نزلتُ عن بغلتي ، ثمّ قلتُ: اركبْ أي عمّ! قال: أي ابن أخي ، لو أردتُ أنْ أركبَ الدّوابَ لوجدتُها ، ولكنّي رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يمشي إلى هذا المسجدِ حتّى يأتيَ فيصلي فيه ، فأنا أحبُّ أنْ أمشيَ إليهِ كما رأيته يمشي «فأبى أنْ يركبَ ، ومضى على وجههِ»[1].

* إنَّ محبّةَ ابن عمر للهادي البشير ﷺ قد ملكَتْ عليه كلَّ شيء في حياتهِ ، فلقد سمعَ مرّةً رجُلاً ينشدُ بيتاً من قصيدةٍ للحُطَيئة:

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إلىٰ ضَوءِ نَارِهِ   تَجِدْ خَيرَ نَارٍ عنْدهَا خَير موقدِ

فقال ابنُ عمر: «ذلك رسولُ اللهِ ﷺ» فلم يرَ أحداً يستحقّ هذا المدحَ غيرَ رسولِ اللهِ ﷺ[2].

ثانـي الحُـفَّـاظ لِلْحَـدِيْثِ:

* رِوَايَةُ الحديثِ النّبويّ وحفظُهُ ، تزيدُ من رصيدِ سيّدنا عبد اللهِ بنِ عمر في عالَمِ المعرفةِ ، وميدانِ الفقْهِ ، وتجعلُه يحتلُّ الصَّدارة في أعلى المقامات بين العِلْم والعُلَمَاء.

* روى سيّدنا عبدُ الله بنُ عمر علْماً كثيراً نافعاً طيّباً مباركاً عن الصادق المصدوق ﷺ ، وروى كذلك عن أعلامِ الصَّحابةِ وعلمائِهم وفقهائِهم وساداتهم ، وفي مقدمتهم: الخُلفاءُ الأربعَةُ الرّاشدون: أبو بكر ، وأبوه

---

(١) المُسْند (٢/ ١١٩).
(٢) العقد الفريد (٥/ ٢٩٢).

عمر ، وعُثمانُ ، وعليٌّ ، رضي الله عنهم أجمعين ، وحشرنا في معيتهم ، وعفا عنا بفضله.

* وروى كذلك عن بلالِ بنِ رباح ، وصُهيبِ بنِ سنان ، وزيدِ بنِ ثابت ، وأبي ذرّ الغفاري ، ومعاذِ بنِ جبل ، وعامرِ بنِ ربيعة ، وعمّه زيدِ بنِ الخطّاب ، وعبدِ الله بنِ مسعود ، وسعدِ بنِ أبي وقّاص ، وعثمانَ ابنِ طلحة وغيرِهم من الصَّحابة رضي الله عنهم أجمعين وحشَرنا في معيتهم.

* وروى عنه من علماء الصَّحابة المكثرين: عبدُ الله بنُ عبَّاس ، وجابرُ ابنُ عبد الله رضي الله عنهم.

* وروى عنه كذلك ثلّةٌ من أعلامِ التَّابعين لا يُحْصون[1] منهم: آدمُ بنُ عليّ ، وبكْرُ المُزنيّ ، وثابتُ البُناني ، وجُبير بنُ نفير ، والحسنُ البصريّ ، وسعيدُ بنُ جُبير ، وسعيدُ بنُ المسيّب ، وسليمانُ بنُ يسار ، وشهرُ بنُ حوشب ، وعروةُ بنُ الزُّبير ، وعطاءُ بنُ أبي رباح ، والقاسمُ بن محمّد ، وقيس بنُ عُباد ، ومجاهدُ بنُ جبر ، ومحمدُ بنُ سِيرين ، وغيرهم كثير[2].

* وإنّنا نجدُ أعداداً كثيرةً من أكابرِ العُلماء وأعيانهم يتلقّون العلْمَ عن فتى العُلَماء وعالَم الأعلامِ عبد الله بن عمرَ رضي الله عنهما ، ومن المتوقّع أن يحتلَّ ابن عمر هذه المكانة العلمية لأمورٍ كثيرة منها:

* طولُ ملازمتهِ للنبي ﷺ في السَّفر والحضر.

* ملازمتُه لأكابرِ الصَّحابةِ وعلمائِهم وفقهائِهم.

* كثرةُ دخولهِ البيت النّبوي الطّاهر على أختهِ حفصةَ بنت عمر أمّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها.

---

(١) انظر أسماء رواته في سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٠٤ ـ ٢٠٨) فقد أوردَ الذّهبيُّ منهم أكثر من مئتي راوٍ وراوية ، وذكر أسماءهم حسب التّرتيب الأبجدي المعروف.

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٠٤ ـ ٢٠٨) ، والإصابة (٢/ ٣٣٩) مع الجمع بينهما.

* يُضافُ إلى ذلك همّته العالية ونباهته ، وحبّه للعِلْم وشغفه به ومحبّته لجميعِ ألوانِ المعرفة.

* ومن الممتع في سيرةِ هذا الصَّحابي الهُمام ، أنَّه كان يدعو اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يحقّقَ له العلْم النّافع ، وأنْ يرزقَه الله الجنّة ونعيمها.

* تذكرُ المصادرُ المتنوعةُ قصّةً مفادها: «أنَّه اجتمعَ بفناءِ الكعبةِ المشرفةِ عبدُ الله بنُ الزُّبير ، وعبدُ الملك بنُ مروان ، ومصعبُ بنُ الزّبير ، وعبدُ الله ابنُ عمر ، فتمنّوا ، ثم دعوا الله عزَّ وجلَّ أنْ يحقّق مآربهم ، فتمنّى عبد الله ابن الزّبير ولاية الحجاز فَنَالَها.

وتمنّى عبدُ الملك بنُ مروانَ الخلافةَ فنَالهَا.

وتمنّى مصعبُ بنُ الزُّبير ولايةَ العراق فنَالَها.

أمّا عبدُ الله بنُ عمر فقد تمنّى الجنَّة ، ولعلَّ الله قد غفَرَ له»[1].

* وتابعَ عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنه الطَّريق إلى الجنَّة ، وراحَ يلتمس ذلك من المجالسِ النّبويّة ما شاء له أنْ يلتمس ويقتبس ، حتّى غدا أوّل عبادلةِ الإسلام جميعاً في حفظِ الحديثِ النّبويّ ووعْيِهِ ، كما أصبح ثاني الصَّحابةِ العُلماءِ الحفّاظِ الأثباتِ لأحاديثِ النّبيّ ﷺ ، وأحد السَّبعةِ المكثرين من روايةِ الحديث النّبوي ، ونَقْلِها للأُمّة.

* ومما تحسنُ معرفتُه في هذا المقام الميمون ، أنَّ الصَّحابة الكرامَ يتفاوتُون في روايةِ الأحاديثِ النّبوية كثرةً وقلّةً ، حيث نجدُ بعضَهم يروي عن النَّبيّ ﷺ آلافَ الأحاديث ، وبعضُهم يروي مئات الأحاديث ، وبعضُهم يروي عشرات الأحاديث ، وبعضُهم يروي الآحاد ، بينما نجدُ منهم من لَمْ يروِ شيئاً؛ ولعلَّ هذا التّفاوت يعودُ إلى أسبابٍ كثيرةٍ منها:

---

(١) انظر: البداية والنّهاية (٨/ ٣٢٢ و٣٢٣) بتصرف ، وانظر المصادر التّالية مع الجمع بينها: حلية الأولياء (١/ ٣٠٩) و(٢/ ١٧٦) ، وعيون الأخبار (١/ ٢٥٨) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٧٢ و١٧٣).

أ ـ اختلافُ درجاتِ الحفظِ عند الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم.

ب ـ تفاوتُهم في مقدارِ ما تحمّلُوه عن النّبيّ ﷺ حسبَ تفاوتِهم في مُدّةِ ما صحبوه من أيّامهم، فبعضُهم صَحِبَهُ زمناً طويلاً، ولازمه دَهْراً، وبعضُهم كانت صحبتُه لا تتجاوز الأيّام أو السَّاعات.

ج ـ اشتغالُ بعضِ الصَّحابة بالجهادِ والفروسيّةِ من أجْلِ أن تكونَ كلمةُ الله هي العُليا، وكلمةُ الذين كفرُوا السُّفلى.

د ـ انصرافُ بعضِهم إلى الطَّاعةِ والعبادةِ، وانهماكُهم فيها أكثر من اشتغالِهم بالتَّعليم، أو انهماكهم في الرّواية، لعلمِهم أنَّ غيرهم قامَ مقامَهم في تبليغِ ما عندهم من مرويّاتهم.

هـ ـ تولّي بعضهم الخلافة، واشتغالُ بعضِهم بالإمارة، أو إرسال الجيوش وفتح الفُتوح لرفعِ راية الإسلام.

و ـ تحرّجُ بعضُ الصّحابة وتحفُّظ آخرين من إكثار الرّوايةِ عن الصادق المصدوق ﷺ، خشيةً من الزّيادة أو النّقص في الحديث النّبويّ.

ز ـ اشتغالُ بعضِهم بشؤون معاشِهم وحياتِهم اليومية، من تجارة، أو زراعةٍ، أو رعي، أو ما شابَه ذلك.

ح ـ قِصَرُ أعْمارِ بعضِهم بعد انتقالِ النّبيّ ﷺ، ممّا لم يتحْ لهم أداء كلّ ما عندهم.

ط ـ طولُ أعمارِ بعضِهم، ممّا جعلَهم مراجعَ في الفتوى والعِلْم والرّوايةِ والأحكامِ، واحتياج النّاس إلى علمِهم ومروياتهم، فاستخرجُوا كلّ أثارة من علْم عندهم[1].

* كان سيدنا عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما ممّنْ طالَ عمرُهُ وحسنَ عملُهُ وبُوركَ علْمُهُ، فروى عِلْماً طيّباً وجملةً صالحةً من الحديثِ النّبويّ، وكان أحدَ المُكثرين للرّواية وهم سبعةٌ، أولُهم:

---

(١) صحابة رسول الله (ص ١٣٥ ـ ١٣٧) بتصرف واختصار.

١ ـ أبو هُريرة ، مرويّاته (٥٣٧٤ حديثاً).

٢ ـ عبدُ الله بنُ عمر ، مرويّاتُه (٢٦٣٠ حديثاً).

٣ ـ أنسُ بنُ مالك ، مرويّاتُه (٢٢٨٦ حديثاً).

٤ ـ عائشةُ أمِّ المؤمنين ، مرويّاتُها (٢٢١٠ أحاديث).

٥ ـ عبدُ الله بنُ عبّاس ، مرويّاته (١٦٦٠ حديثاً).

٦ ـ جابرُ بنُ عبد الله ، مرويّاتُه (١٥٤٠ حديثاً).

٧ ـ أبو سعيد الخدري واسمه سعدُ بنُ مالك بن سنان ، مرويّاتُه (١١٧٠ حديثاً)[١].

* فمرويّاتُ عبدِ الله بنِ عمرَ بلغتْ (٢٦٣٠ حديثاً) ، أخرجَ له البخاريُ ومسلم (٢٨٠ حديثاً) ، واتّفقا على (١٦٨ حديثاً) منها ، انفردَ البُخاريُّ بـ(٨١ حديثاً) ، ومسلم (٣١ حديثاً)[٢].

* وأحاديثُ عبدِ الله بنِ عمرَ منثورةٌ في الكتُب السِّتَّةِ ، وفي المسانيدِ ، وسائرِ كتبِ الحديث ومصنفاته.

* ويدلُّ هذا العددُ الكبيرُ من الأحاديثِ التي وعَاهَا ابنُ عمر على تمكّنهِ من ناصيةِ العِلْم ، بل أحلَّهُ هذا الحفظُ أن يكونَ أحدَ الصَّحابةِ الفُقَهاء العُلماء الذين أكثروا من الفُتيا ، وحلّقوا في سماء الفِقْه.

* فالصَّحابةُ الذين حُفِظَتْ عنهم الفتوى مئةٌ ونيف وثلاثون نفساً ما بين رجُلٍ وامرأة ، وكان المكثرون منهم سبعة: عمرُ بنُ الخطَّاب ، وعليُ بنُ أبي طالب ، وعبدُ الله بنُ مسعود ، وعائشةُ أمُّ المؤمنين ، وزيدُ بنُ ثابت ،

---

(١) انظر: شذرات الذهب (١/ ٢٦١ و٢٦٢) طبعة دار ابن كثير المحققة. وقد جمع بعض العُلماء الشّعراء أسماءَ المكثرين من روايةِ الحديث في هذين البيتَين فقال:

سَبْعٌ منَ الصَّحْبِ فَوقَ الألفِ قد نقلُوا ... مِنَ الحديثِ عنِ المُختار خَيْرِ مُضَر
أَبُو هُريرة سَعْدٌ جَابِرٌ أنسٌ ... صِدّيقةٌ وابنُ عبّاسٍ كذا ابنُ عُمر

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٣٨).

وعبدُ الله بنُ عبّاس، وعبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهم أجمعين، ويمكن أنْ يُجْمعَ من فتوى كلّ واحدٍ منهم كتاب ضخم[1].

نَمَاذِجُ مِنْ مَروِيَّاتِهِ:

* كان ابنُ عمر أحدَ أفذاذ الدَّهْرِ علْماً وحفْظاً، وورعاً وديناً، قال الخطيبُ البغداديُّ: «كان ابنُ عمرَ من أئمةِ الدِّين»، وكان طلبةُ العلْمِ يحرصون على مُجالستهِ، والتّعلُّم منه ممّا علّمه اللهُ، ومع هذا كلّه كان شديدَ التّواضع، يخشى أن يتحدثَ، أو يكثرَ من نَقْلِ الحديثِ، بل إنَّه صرّحَ مرّةً فقال: «إليكم عنّي، فإنّي كنتُ مع مَنْ هو أعلمُ منّي، ولو علمتُ أني أبقى حتّى تفتقروا إليّ، لتعلّمْتُ لكم»[2].

* وشهد الشّعبيُّ رحمه الله لابن عمر بهذه المزية الحسنة فيقول: «جالستُ ابنَ عمر سنة، فما سمعتُه يحدّثُ عن النَّبيّ ﷺ إلاّ حديثاً واحداً»[3].

* أمّا أصحّ الأسانيدِ عن ابنِ عمر فهو ما يسمّى: «سلسلة الذّهب». قال البخاري: «أصحُّ الأسانيد مُطلقاً: مالكٌ، عن نافعٍ، عن ابنِ عمر، ويسمّى هذا الإسناد: مسبك الذّهب»[4].

* ومن الأحاديثِ الشَّريفةِ المشهورة التي رواها ابنُ عمر ما جاء في الصَّحيحَيْن عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «لا حَسَدَ إلاّ في اثنتَينْ: رجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ فهو يقومُ به آناء الليلِ وآناءَ النّهار، ورجلٌ آتاه اللهُ مالاً فهو ينفقُه آناء الليلِ وآناء النّهار»[5].

---

(١) شذرات الذهب (١/ ٢٥٩) بتصرّف يسير. وقال مالكٌ: «أقامَ ابنُ عمرَ بعد النّبيّ ﷺ ستين سنة يفتي بالنّاسِ في المواسمِ وغير ذلك». (تاريخ بغداد ١/ ١٧٢).

(٢) تاريخ بغداد (١/ ١٧٢)، أقول: «إن قول ابن عمر هذا ذِروة التواضع ومفتاح كل فضيلة».

(٣) سير أعلام النّبلاء (٣/ ٢٣٨).

(٤) انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/ ٢٨٠).

(٥) أخرجه البخاري (٩/ ٦٥) في فضائل القرآن، ومسلم في صلاة المسافرين برقم (٨١٥)، والترمذي في البر والصلة برقم (١٩٣٧). =

* ومن مروياتِه الحديث المشهور في أركان الإسلام، فقد روى عن النّبيّ ﷺ قوله: «بُني الإسلامُ على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ، وإقام الصّلاةِ، وإيتاء الزّكاة، وحجّ البيت، وصوم رمضان»[1].

* ومن مروياتِه الحديثُ المشهورُ في المسؤوليّةِ الذي أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ وغيرهُ، بسندٍ عن نافعٍ عن عبدِ الله بنِ عمر رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «كلّكم راعٍ، وكلّكم مسؤول عن رعيّته، فالأميرُ الذي على النَّاس راعٍ عليهم، وهو مسؤولٌ عنهم، والرَّجلُ راعٍ على أهلِ بيته، وهو مسؤولٌ عنهم، والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ بعلها وولده، وهي مسؤولةٌ عنهم، وعبدُ الرّجل راع على بيت سيّده، وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»[2].

= قال الحافظُ ابنُ حجر في «الفتح»: «قوله: «لا حسد» أي: لا رخصة في الحسَد إلا في خصلتَيْن، أو لا يحسن الحسدُ إنْ حَسُنَ، أو أطلق الحسد مبالغة في الحثّ على تحصيلِ الخصلتَين، كأنّه قيل: لو لمْ يحصلا إلاّ بالطّريق المذموم لكان ما فيهما من الفضلِ حاملاً على الإقدامِ على تحصيلهما به، فكيف والطّريق المحمود يمكن تحصيلهما به، وهو من جنسِ قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فإنَّ حقيقة السَّبق أن يتقدم على غيره في المطلوب.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦ و٩٣ و١٤٣ و٢١٠) والبخاري برقم (٨)، ومسلم برقم (١٦)، والترمذي برقم (٢٦١٢)، والنسائي (٨/ ١٠٧ و١٠٨) وقال النووي في شرح مسلم (١/ ١٥٢): «إن هذا الحديث أصل عظيم في معرفة الدين، وعليه اعتماده، وقد جمع أركانه، والله أعلم».

(٢) أخرجه الإمام أحمد بهذا اللفظ في مسنده (٢/ ٥٤)، وأخرجه البخاري في مواضع من صحيحه برقم (٢٥٥٤ و٢٥٥٨ و٥١٨٨ و٥٢٠٠ و٧١٣٨ و٨٩٣ و٢٤٠٩ و٢٧٥١)، وأخرجه مسلم برقم (١٨٢٩)، والترمذي برقم (١٧٠٥)، وأبو داود برقم (٢٩٢٨).
و«الرّاعي»: هو الحافظُ المؤتمنُ الملتزمُ صلاحَ وإصلاحَ ما قامَ عليه، وما هو تحت نظره، لأنّه مطالبٌ بالعدلِ فيه، والقيامِ بمصالحه كلّها، وبما يتعلقُ بأمْرِ دينه ودنياه».
وقد اشتركَ الأميرُ، والرّجلُ، والمرأةُ، والعبدُ الخادمُ في الوَصف بـ «الرّاعي» ـ كما رأيت ـ مع اختلاف رعاية كلّ منهم عن الأخرى، فإذا ما أدّى كلّ واحدٍ واجبَه، وعملَ=

مواقـفُـهُ مَعَ القُـرْآنِ:

* عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنه واحدٌ من كبارِ الصَّحابةِ العُلَماء الأخيارِ الأطهارِ ، وممّن فَهِمَ آياتِ القرآنِ الكريم ، وحفظه ، ووعاهُ ، وقد أفصحَ عن جَمْعِهِ وحفْظِه للقُرآن في كتابٍ بعثَه إلى الحجّاجِ بنِ يوسفَ عندما قال: «إنَّ مَنْ جمعَ كتابَ الله عزَّ وجلَّ ليس بعَييّ»(١) .

* كانت معرفةُ ابنِ عمر الواعية تدلُّ على علمهِ وفهمهِ الدّقيقِ لمقاصدِ القُرآنِ الشَّريفةِ ومعانيه ، فمن خلالِ حياتهِ العلميّةِ نجدُ كثيراً من المواقفِ والأحداثِ التي عبَّرَ فيها عن مدىٰ ارتباطِه الوثيقِ الدّقيق بالقُرآنِ الكريمِ ، وإحاطتِه ببعض الأحكام الشرعية التي توافق منهجه القويم.

* ولكي نعرفَ مدى عِلْمِ سيّدنا عبدِ اللهِ بن عمر بكتاب الله ، يجبُ أنْ ندركَ أنَّه كان يتعلّم القرآنَ من أجْلِ العِلْم لا من أجلِ الحفْظِ ، فقد تعلّمَ سورةَ البقرةِ في أربع سنين(٢) كانت سَنَواتٍ سماناً ، بل إنَّ ابنَ عساكر قد ذكرَ أنَّ ابنَ عمر رضي الله عنه مكَثَ على سورة البقرةِ ثماني سنين يتعلّمها(٣) .

* ويوضحُ ابنُ عمرَ رضي الله عنه كيف كان ينظرُ إلىٰ الأمورِ بمنظارِ الإيمانِ المتصلِ بمنظار القُرآنِ فيقول: «لقد عشْنا برهةً من دهرِنا ، وأحدُنا يرىٰ الإيمانَ قَبْلَ القرآنِ ، وتنزلُ السُّورةُ على محمّدٍ ﷺ ، فنتعلَّمَ حَلالَها وحرامَها ، وأمْرَها وزاجرَها ، وما ينبغي أنْ نقفَ عنده منها»(٤) .

* إنّني من خلالِ حياتي المونقة مع سيدنا عبدِ اللهِ بن عمرَ رضي الله عنه شعرتُ بمتعةٍ علميّةٍ لتذوّقهِ اللطيفِ لمعاني القُرآن الكريم ، وتعاملهِ الصَّحيح

= مسؤوليته ، عمّ الصّلاحُ والإصلاحُ في المجتمع ، وساد الأمن والسلام ، ووصل جميعهم إلى شاطىء الأمان بفضل تحقيق كلمات الإيمان ، والسّير على نهج الإسلام.

(١) انظر: حلية الأولياء (١/ ٢٩٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ١٦٤).

(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٦٩).

(٤) المصدر السابق عينه.

مع مرادِهِ ، وتفاعله مع إعجازِه وبيانِه ، فكان أحياناً يستجيبُ بالدَّمْع وهو يتلو آياتِ اللهِ البيّنات المضيئات.

* روىٰ أبو نُعيم رحمه الله خَبراً جميلاً عن هذا الأمْرِ فقال: «كانَ ابنُ عمر رضي الله تعالى عنه إذا قرأ: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦] بكىٰ حتى يغلبهُ البُكَاءُ»[1].

* وكأنّي بابنِ عمرَ رضي الله عنه يفهمُ معنى هذه الآية بأنّه عتابٌ مؤثّرٌ من العزيزِ الرَّحيمِ ، عتابٌ لتلكَ القلوبِ التي أفاضَ اللهُ عليها من فضْلِهِ ومن رحمتِهِ ومن ودّه ، شيئاً كثيراً ، فهلاّ شعرت هذه القلوبُ بجلالِ الخالق العظيم ، وهلاّ خشعَتْ لذكْرِه ، وتلقّي ما نزلَ من الحقّ؟.

* إنّ ابن عمرَ رضي الله عنه عندما يستشعرُ جلالَ اللهِ عزَّ وجلَّ تغلبهُ الدُّموع ، فيبكي من خشيةِ اللهِ ، ويزدادُ خُشُوعاً لجمالِ الموقفِ وجلالِ الكَلمات وعظم المعاني.

* إنَّ للقُرآنِ الكريم تأثيراً في قلوبِ العُلَماء ، وفي نفوسِ الأصفياء. نقل نافعٌ مولى ابن عمر مشهداً موحياً عن تأثيرِ القرآنِ الكريم في ابنِ عمر وحياته فقال: «ما قرأَ عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما هاتَيْن الآيتَيْن قطّ من آخر سورة البقرة إلاّ بكى ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ . . . ﴾ ثمّ يقول: إنَّ هذا لإحْصَاءٌ شديدٌ»[2].

* كانت تستوقفُ ابنَ عمرَ رضي الله عنه آياتٌ كثيرةٌ من القرآن الكريم ، فتأخذُهُ موجةٌ منَ البُكاءِ الشَّديد ، ثم يمتنعُ عن متابعةِ القراءةِ. ذكرتِ المصادرُ «أنَّه قرأَ مرّةً قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين: ١] ، حتّى إذا بلغَ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المُطففين: ٦] ، بكىٰ بكاءً شديداً

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٣٠٥) ، وصفة الصّفوة (١/ ٥٧٨) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٨٠).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٣٠٥) ، وصفَة الصّفوة (١/ ٥٧٦) وللحديث أصْلٌ في المسند.

حتى خرَّ من خشيةِ اللهِ ، ثمّ امتنعَ من قراءةِ ما بعدها»[1] .

* ولم يكن ابنُ عمرَ رضي الله عنه يبكي إذا قرأ القُرآنَ الكريم فحسب ، ولكنّه كان يبكي إنْ سمِعَه من غيرِه. ذكرَ عبدُ الله بنُ عُبيد بنِ عمير: «أنَّه قرأَ بقربِ عبدِ الله بنِ عمر قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] ، فجعلَ ابنُ عمر رضي الله عنه يبكي حتّى ابتلّتْ لحيتُه ، وابتلَّ قميصُه من دموعِهِ. . فأرادَ رجلٌ أنْ يقولَ لعُبيدِ بنِ عمير عندما رأى حالة ابن عمر: اقْصُرْ يا هذا، فإنّك قد آذيتَ هذا الشَّيخ»[2] .

* وأوردَ ابنُ الجوزي رحمه الله خبراً لطيفاً يدلُّ على خوفِ ابنِ عمر رضي الله عنه من الله عزَّ وجلَّ ويدلُّ على رقّةِ قلبه وخشوعهِ ، ويشيرُ إلى مدى تمكّنِ الخشيةِ من قلبهِ الذي مُلىءَ علْماً وفَهْماً لكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ فقال: «شربَ عبدُ اللهِ بنُ عمر رضي الله عنهما ماءً مبرّداً ، فبكى فاشتدَّ بكاؤُهُ ، فقيل له: ما يبكيْك؟

فقال: ذكرتُ آيةً في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤]، فعرفتُ أنَّ أهلَ النَّارِ لا يشتهون شيئاً شهوتهم الماءَ الباردَ، وقد قالَ اللهُ عزّ وجلّ: ﴿ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٥٠]»[3] .

* أمَّا تطبيقُ ابنِ عمر رضي الله عنه لكلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ فكانَ في غايةِ الكَمالِ ، فلقد أعتقَ جاريةً كانت عنده بمكانٍ أثيرٍ وقال: «إنّي سمعتُ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ في كتابهِ: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] ، اذهبي فأنتِ حرّةٌ لوجْهِ الله عزَّ وجلَّ»[4] .

* ويظهرُ أنَّ مثلَ هذا الموقف قد تكرّرَ أكثر من مرّةٍ في حياةِ العَالِمِ العارفِ باللهِ عبدِ اللهِ بنِ عمر رضي الله عنه ، فلقد أعتقَ مولاه نافعاً في وقتٍ

---

(١) عن سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٣٥ و٢٣٦) بشيء من التصرف.
(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ١٦٢) بتصرف يسير.
(٣) صفة الصفوة (١/ ٥٧٨).
(٤) حلية الأولياء (١/ ٢٩٥) بشيء من التصرف؛ وانظر: الإصابة (٢/ ٣٣٩).

أُعْطِيَ به مالاً جزيلاً ممدوداً ، فقد أعطى عبدُ اللهِ بنُ جعفر رضي الله عنهما ابنَ عمر بنافع عشرة آلاف ـ أو ألف دينار ـ فدخل ابنُ عمر على امرأتِهِ صفيّة بنت أبي عُبيد[1] ، فأخبرَها بما أُعْطيهِ منْ مالٍ في نافعٍ ، فقالت له : ما تنتظرُ يا أبا عبد الرّحمن؟ تبيع؟!

قال : فهلاّ ما هو خيرٌ منْ ذلك يا بنةَ أبي عُبيد ، هو حرٌّ لوجْهِ الله ، فكأنَّ عبدَ الله بنَ عمر كان ينوي قول الله عزّ وجلّ : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران : ٩٢][2] .

* وكان عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنه شديـدَ التَّعلُّـق بكتابِ اللهِ عزّ وجلّ وتفسيره ، وكثيراً ما كان يروي عن الحبيبِ المُصطفى ﷺ تفسيرَ آياتِ القرآن ، وتوضيحَ معانيها ؛ من ذلك ما رواهُ عن النّبيّ ﷺ قال : « مَنْ سرّهُ أنْ ينظرَ إلى يومِ القيامةِ كأنَّه رأي عين ، فليقرأْ : ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[3] » .

* ومن خلالِ حياةِ ابنِ عمرَ رضي الله عنه مع القُرآنِ العظيمِ نَراهُ يتحدَّثُ عن صفةِ الجنَّةِ ونعيمِها من رياضِ القرآنِ الكريم ، ومن نفحات الهدي النبوي ؛ روى ابن عمر أن النَّبيَّ ﷺ قال : «إنَّ أدنى أهلِ الجنَّةِ منزلةً الذي ينظرُ إلى جِنَانِهِ ونعيمِهِ ، وخدمِهِ وسُرُره من مسيرةِ ألف سنة ، وإنَّ أكرمَهم على اللهِ مَنْ ينظرُ إلى وجْههِ غُدْوَةً وعشيةً» ثمّ تلا هذه الآية ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢ و٢٣][4] » .

---

(١) اقرأ سيرة هذه التّابعية العالمة في كتابنا «نساء من عَصْر التّابعين» (١/ ٩١ ـ ١٠٣) ، فسيرتها رمز للعلم والعمل والوفاء وحسن التّبعُّل .

(٢) عن سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١٨) بتصرف يسير .

(٣) المسند (٢/ ٣٦) .

(٤) المسند (٢/ ٦٤) وقد أفرغَ أبو بكر الرّازي رحمه الله سوادَ عيونِ براعته البيانيّة في فهمه لهاتَيْن الآيتَيْن الكريمَتين ، إذ تساءل في تفسيره فقال :
«فإنْ قيل : كيفَ قالَ اللهِ تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢ و٢٣] ، والذي يُوصفُ بالنّظر ـ الذي هو الإبصارُ والإدراك ـ إنّما هو العين دون الوجْه؟! =

العَالِمُ بأحْكَامِ الحَجِّ:

* تذكرُ المصادرُ وكتب الفقه والعلم أنَّ الحجَّ قد فُرِضَ في أواخرِ سنة تسْعٍ من الهجرة النّبويّة إلىٰ المدينةِ، وأنَّ آيةَ فرضهِ هي قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

* والحجُّ يطهّرُ النُّفوسَ، ويعيدُها إلى الصَّفاءِ الروحي وإلى الإخلاصِ، ممّا يؤدي إلى تجديدِ الحياةِ، ورفعِ معنوياتِ النّاس، وتقويةِ الأملِ مع حسْنِ الظّنّ بالله عزّ وجلّ.

* والحجُّ يقوي الإيمانَ، ويعينُ على تجديدِ العهدِ مع اللهِ عزّ وجلّ؛ ويدفع النَّاسَ إلى التَّوبةِ الخالصةِ النَّصوح الصَّدوق، ويساعدُ على تهذيبِ النُّفوس وترقيق المشاعر والعواطفِ والأحاسيس.

* ومن لطائفِ الحجّ أنَّه يذكّرُ الصَّحابةَ والمؤمنين بماضي الإسلامِ المجيد وعهده المزهر بالعطاء، بل يعودُ بهم إلى معلّمهم ومرشدِهم ومنقذِهم من الضَّلال، ومخرجهم منَ الظُّلمات إلى النّور بإذنِ العزيز الحميد، يذكّرهم بالحبيبِ الأعظمِ نبيّنا وحبيبنا محمّد ﷺ.

* ولا شكَّ في أنَّ عَبد الله بنَ عمر رضوان الله عليه كان ممّن يستشعرُ تلكم المشاعر، ويستعيدُ ذكريات حجّة الوداع التي شهدهَا مع الحبيبِ المصطفى ﷺ، ووقفَ يومها مع الصَّادق المصدوق ﷺ في موقفهِ بعرفة[1]، ومنذ أن أدّى ابن عمر حجّته الأولىٰ ينعمُ بقربِ الهادي البشير ﷺ راحَ يكثرُ من الحجّ، وأخذ يقفُ في عرفَةَ في الموقفِ الذي كان يقفُه رسولُ اللهِ ﷺ

= قلنا: قيل: إنَّ المرادَ بالوجوهِ هنا السُّعداء، وأهل الوَجاهة يوم القيامة، لا الوجه الذي هو العُضْو، ولا أرىٰ هذا الجواب مطابقاً لقولهِ تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤]، لأنَّ العبوسَ والقطوبَ إنّما يوصف به الوجهُ الذي هو العضو.
وممّا يؤيد هذا ـ أنّ المرادَ بقولهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ الأعضاء المعروفةُ ـ قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]. (تفسير أبي بكر الرازي ص ٥٣٦).

(١) انظر في هذا: نسب قريش (ص ٣٥١).

كلّما حجَّ ، فقد كان ابن عمر كثيرَ الحجّ ، لا يفوته الحجُّ في كُلِّ عام[1] .

* وبالإضافةِ إلى غرامِ ابنِ عمر رضي الله عنه بالحجّ وحبّه لمناسكه ، كان شديد الشَّغف بالاعتمارِ أيضاً ، فقد كان كثيرَ العمرةِ؛ ذكرَ مولاهُ نافعٌ أنه كان لا يدعُ عمرةَ رجب . وقيل : «اعتمر قريباً من ألفِ عمرة»[2] .

* وكان جلّةُ علماء الصَّحابةِ وأكابرُ التّابعين ، وأعيان العُلماء يرون أنّ أعلمَ النَّاس بالمناسك عثمانُ بنُ عفّان ، ومن بعده عبد الله بن عمر رضي الله عنهم أجمعين[3] .

* قال ابنُ عبدِ البرّ : «كان ابنُ عمر رضي الله عنهما مُولعاً بالحجّ قبل الفتْنَةِ ، وفي الفتنةِ إلى أنْ ماتَ ، ويقولون : إنَّه كان أعلم الصَّحابةِ بمناسك الحجّ»[4] .

* ولذا فقد كان ابنُ عمر مرجعاً وثيقاً للسّائلين ومصدراً موثوقاً للمستفتين عن مناسك الحجّ ، يلجأُ النّاس إليهِ حينما تختلطُ عليهم الطُّرق ، فقد ذكروا : «أنَّ رجلاً أتاه فقال : أيصلحُ أنْ أطوفَ بالبيتِ وأنا مُحرِمٌ .

قال : ما يمنعُك من ذلك؟

قال : إنَّ فُلاناً ينهانا عن ذلك حتّى يرجعَ النّاسُ من الموقفِ ، ورأيته كأنّه مالَتْ به الدّنيا ، وأنتَ أعجب إلينا منه .

قال ابنُ عمر : حجَّ رسولُ اللهِ ﷺ ، فطاف بالبيتِ ، وسعىٰ بين الصَّفا والمروةِ ، وسنّة الله تعالى ورسوله ، أحقّ أنْ تُتّبعَ من سنّةِ ابنِ فلان إنْ كنتَ صادقاً»[5] .

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٦٠) ، ونسب قريش (ص ٣٥١) ، وأسد الغابة (٣/ ٢٣٩) مع الجمع والتصرف .

(٢) شذارت الذهب (١/ ٣١١) .

(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٦٩) .

(٤) الاستيعاب (ترجمة ابن عمر) .

(٥) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٦٧ و١٦٨) ؛ وأصل الحديث في مسند أحمد (٢/ ٥٦) .

* وكان ابن عمر رضوان الله عليه يوجِّهُ طلاّبه إلى معرفةِ أفعال الصّادق المصدوق ﷺ وأقواله في الحج. قال عُبيد بن عمير له: «ما لي لا أراك تستلم إلاّ هذين الركنين: الحجرَ الأسود، والركنَ اليماني»؟

فقال ابن عمر: «إن أفعلْ فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ استلامهما يحطّ الخطايا». وسمعته يقول: «من طاف أسبوعاً يحصيه، وصلى ركعتين كان له كعِدْل رقبة». وسمعته يقول: «ما رفع رجل قدماً ولا وضعها إلا كتبت له عشر حسنات، وحطّ عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات»[(١)].

* وعن الصلاة في مِنى روى سالم بن عبد الله بن عمر؛ أن أباه عبد الله قال: «صليت مع النبي ﷺ بمنى ركعتين»[(٢)].

* ويذكِّرُ ابنُ عمرَ الحُجَّاجَ بِسُنَّةٍ نبويةٍ كان رسولُ الله ﷺ يفعلُها في يوم عرفةَ، إذ يَحْسُن أن يذكُرَ الحجّاجُ اللهَ عزَّ وجلّ ويدعوه في ذلك اليوم، وأنْ يكثروا التّهليلَ، لقولِ النّبي ﷺ: «خيرُ الدّعاء دعاءُ يومِ عرفة، وخيرُ ما قلتُ أنا والنَّبيّون قبلي: لا إله إلاّ الله وحده، لا شريكَ له؛ له المُلْكُ، وله الحمدُ، وهو على كُلّ شيءٍ قدير»[(٣)].

* وينقلُ ابنُ عمر للنّاس دعاءَ النّبيّ ﷺ عندما كان يرجعُ منَ الحج أو العمرة أو الغزو، يقول: «كان رسولُ الله ﷺ إذا قفلَ من الجيوشِ، والسَّرايا، أو الحج والعمرة، فإذا أوفىٰ على أُرْبيّةٍ كبّر ثلاثاً، ثمّ قال: «لا إله إلاّ اللهُ وحده لا شركَ له، له المُلكُ وله الحمدُ، وهو على كُلّ شيءٍ قدير، آيبون تائبون، عابدون ساجدون، لربّنا حامدون، صدقَ وعده، ونصرَ عبده، وهزمَ الأحزابَ وحده»[(٤)].

---

(١) المسند (٢/٣).
(٢) المسند (٢/٨).
(٣) أخرجه التِّرمذي عن ابن عمر، وزاد البيهقي: «اللهمّ اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، اللهم اشرح لي صدري، ويسّرْ لي أمري».
(٤) المسند (٢/٩٣٨، و«أُربيّة»: الرّابية، وهي كل ما ارتفع من الأرض، وهناك مناطق كثيرة تسمى: الرابية.

* إنَّ الأخبارَ عن ابنِ عمر رضي الله عنه كثيرةٌ في هذا المجالِ لا تُدرك ، ولا يمكنُ الإحاطة بها ، بيد أنّني ألقيتُ بعضَ الأضواء الكاشفة لتتوضّح بعضُ معالم شخصية ابن عمر المُؤتسي بالنّبي ﷺ ، حيث كان يتلو دائماً: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب ٢١].

ابنُ عُمَـرَ وَالعَبَـادِلَـةُ:

* العبادلةُ منَ الصَّحابة كُثُرٌ ، بلغَ ممّن يُسمى منهم عبدَ الله مئتين وعشرين رجُلاً ، كما جاءَ في كتُبِ التَّراجمِ والطَّبقاتِ والسِّيَر وغيرِها.

* بيد أنّه قد اشتهرَ إطلاقُ اسمِ العبادلة على أربعةٍ من الصَّحابة وهم من قُريش ، ومن عليةِ الصَّحابة ومشاهيرهم ، وهم صَحَابةٌ منْ أبناءِ الصَّحابةِ ، وكلٌّ واحدٍ منهم يطاولُ عنان السَّماء بل الجوزاء بمكارمهِ ومناقبهِ ومآثرِه.

* وإنّه ممّا يزيدُ العبادلةَ فضْلاً أنَّ أمّهاتِهم من الصَّحابيات ، وممن بايعنَ النّبيّ ﷺ ، فالعبادلةُ ممن يتقلّبون من فَضْلٍ إلى فَضْلٍ إلى فَضْلٍ ، وكلُّهم ممّن شهدَ له أهلُ الفَضْلِ بالفَضْل ، وأهل العِلْم بالعِلْم ، وناهيك بها من شهادةٍ ، فلقد شربَ من زُلالهم العُلَماء حتّى ارتووا ، وحدّثُوا عنهم بما سمعُوا وروَوا ، واقتبسوا من مشكاتِهم أنوار الصَّلاح ، وأخذوا من منهجِهم أطوارَ الفلاح.

* ذكر أصحابُ الحديثِ وغيرُهم من فقهاءِ العُلماء أنَّ العبادلةَ أربعةٌ هم:

١ ـ عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطّاب.

٢ ـ عبدُ الله بنُ عبّاس بنِ عبد المطلب.

٣ ـ عبدُ الله بنُ الزُّبير بنِ العوّام.

٤ ـ عبدُ الله بنُ عمرو بنِ العَاص رضي الله عنهم أجمعين.

* هكذا سمّاهم الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل رحمه الله وكذلك سائر المحدّثين وغيرهم.

* وقيل في هذا للإمامِ أحمد بنِ حنبل رحمه الله: فعبدُ اللهِ بنُ مسعود؟!

قال: «ليس هو منَ العَبادلة»[1].

* وعلّلَ الحافظ البيهقيُّ رحمه الله قولَ الإمامِ أحمدَ بأنَّ ابنَ مسعود ليس منَ العبادلةِ فقال ما مفادُه: «السَّببُ في ذلك أنَّ عبدَ الله بنَ مسعود رضي الله عنه قد تقدَّمَتْ وفاتُه في سنةِ (٣٢هـ)، بينما عاشَ هؤلاء بعده طويلاً حتّى احتاجَ النّاسُ إلى عِلْمِهم وفقهِهِم، فإذا اتّفقُوا على شيءٍ قيل: هذا قولُ العبادلةِ، أو قيل: هذا فعلُهم، أو مذهبُهم».

* ويصنَّفُ ابنُ مسعود في هذا بسائرِ المسلمين ممّن اسمه عبد الله من الصَّحابة وهم نحو مئتَين وعشرين. أما قولُ الجوهريّ في «صحاح اللّغة» بأنّ عبدَ الله بنَ مسعود أحدُ العبادلةِ، وحذف عبدَ الله بنَ عمرو بن العاص، فغَلَطٌ ظاهرٌ، وليس مقبولاً منه، إذْ يعارضُ بقوله قولَ الإمامِ أحمدَ وغيره من علماءِ الحديث[2].

* أولئك همُ العبادلةُ أولي الفضْلِ والنُّهى، وأولئك هم أعلامُ العُلماء أهل التُّقى:

أُولِئكَ آبائي فَجِئْنِي بمثْلِهم إذَا جَمَعَتْنا يا جَريرُ المَجامِعُ

* وليتني أستطيعُ أنْ أفيَ بجزء من حقِّهم في هذا الكتابِ:

لَيْتَ الكَواكِبَ تَدنو لي فأَنْظِمُها عُقُودَ مَدْحٍ فمَا أَرضى لَكُمْ كَلِمي

* فهؤلاء العبادلةُ من أسيادِ العُلماء ومنْ أسيادِ ذوي الحسَبِ والنَّسب، فقد ارتقوا بالعِلْم والحسَب، وتصدروا سدة الفَضْل:

العِلْمُ يرفعُ أَقْواماً بِلا حَسَبٍ فكَيفَ مَنْ كانَ ذَا عِلْم لَهُ حَسَبُ

* وما أجمل أنْ نقرأَ ونحفظَ هذه الأبيات السِّينيّة الجميلة في العبادلةِ الأربعةِ: ابنُ عمر، وابنُ عمرو بن العاص، وابنُ الزّبير، وابنُ عبّاس، وقد

---

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/٢٦٧)، والأسماء المبهمة (٦٠٩) مع الجمع والتصرف.

(٢) الأسماءُ المبهمةُ (ص ٦٠٩) بتصرّف.

نظَمها أحدُ علماء وشعراء القرن الثّامن الهجري ، وهو محمدُ بنُ عبد المحسن الأرمنتي المتوفىٰ سنة (٧٣٠هـ) فقال:

إنَّ العَبَـادِلَـةَ الأَخْيَـارِ أَربَعَـةٌ مَنَاهِجُ العِلْمِ في الإسْلامِ للنّاسِ
ابنُ الزُّبير وابنُ العاصِ وابْنُ أبي حَفْصِ الخليفةِ والحَبْرُ ابنُ عبَّاسِ
وقد يُضَافُ ابنُ مسْعُودٍ لهم بَدَلاً عن ابنِ عَمْروٍ لِوهْمٍ أوْ لإلْبَاسِ[١]

حُبُّه لِلْجِهَاد وَالفُتُوحات:

* لئن حلَّقَ عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنه في آفاقِ العِلْم والفقْهِ والرّوايةِ ، لقد أثبتَ أنّه عَلَمٌ منْ فرسان المدرسةِ المحمديّة الذين جاهدوا وقاتلوا لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُلْيا ، وكلمةُ الذين كفروا السُّفْلى.

* ففي مسيرة الجهادِ والاستشهادِ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، كان ابنُ عمرَ لا يزالُ طريّ العود في عُمْر الزّهْر ، فلم يُسْمَحْ له بدخولِ غزوةِ بدر ، واستُصْغِرَ في يومِ أُحُدٍ أيضاً مع ثلّةٍ من أشبالِ الصَّحابة وفتيانهم ممّن عَمَر حبُّ اللهِ ورسولِهِ قلوبَهم ، وحبّذوا الشَّهادةَ وخوضَ غمارِ المعاركِ ليفوزوا مع الفائزين.

* ولما كانت غزاةُ الخندقِ ، سُمِحَ لابنِ عمر رضي الله عنه بدخولِ سلْك درر المجاهدين من أبطال الصَّحابةِ وفرسانهم ، وأجازَهُ النَّبيُّ ﷺ يومها ، وكان قد بلغَ من العمرِ (١٥ عاماً) ، ويوم إذ سَرَتِ الفرحةُ في نفسهِ ، لكونهِ أضحى من جنودِ الرحمن ، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قد أجازَه ليحمل السَّيف والسِّنان ، ويقاتل المشركين في المَيدان.

* روى ابنُ عمر هذا فقال: «عُرِضتُ على رسولِ اللهِ ﷺ يومَ أحد ، وأنا ابنُ أربع عَشْرةَ سنةً ، فلم يجزْني ، وعُرضتُ عليهِ يوم الخندقِ وأنا ابن خمس عشْرةَ فأجَازني»[٢].

---

(١) الدّليل الشّافي على المنْهَلِ الصَّافي (ص ٦٤٨) ، وطبقات الشّافعية (٩/ ١٦٦).
(٢) هذا الحديث متّفَقٌ عليه.

* ولابنِ عمر رضوان الله عليه صحائفُ بيضٌ وآثارٌ حِسانٌ في ميادين الجهادِ ، خطَّها بقائمِ سيفهِ ، وقوةِ ساعدهِ ، فلقد شاركَ في غزوة بني قُريظة عقب رحيلِ الأحزاب عن المدينةِ المنوّرة ، ومن ثمَّ شهدَ الحُديبية ، وبايع تحتَ الشَّجرةِ ، بل كان من أوائلِ المُبايعين ، فكُتِبَ مع الذين رضي الله عنهم ، ويخبرنا تاريخُ جهاده بأنَّه حَضَر غزاةَ خيبر في المعيّة النّبوية .

* وفي رحلةِ السَّرايا والبعوث النّبويّة إلى مشارقِ الأرضِ ومغارِبها كان ابنُ عمر رضي الله عنه يسيرُ إلى مؤتةَ ببلادِ الشَّام في سريّةٍ قائدها زيدُ بنُ حارثة رضي الله عنه ، ولمّا عادَ المسلمون من تلك السَّريةِ سمّاهم رسولُ الله ﷺ الكرّارين ، أو العكَّارين[١] .

* ولمّا توجَّه المسلمون لِفَتحِ مكَّةَ ، شهد ابنُ عمر رضي الله عنه ذلك الفَتْح الأعْظَمُ ، وإنّه ليسمعُ قولَ الرّسولِ الأعظم ﷺ وهو يتلو قولَ اللهِ الأكرم : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] .

* وها هو ذا بلالُ بنُ رباح رضي الله عنه يؤذّن بصوتهِ النّدي من على سطْحِ الكعبةِ : اللهُ أكبرُ . . . اللهُ أكبرُ . . . ، ألا ما أعظم ذلك اليوم ، يوم الفتح ، يوم أنْ فتحَ الله قلوباً ظلّتْ أكثر من عشرينَ سنة ، وقد رانَ عليها وَهْمُ الباطل ، فإذا به ينقشعُ في ساعةٍ وَقف فيها سيّدُ الأنبياء محمدٌ ﷺ يومَها لِيُعْلِنَ لأهلِ مكّة أنْ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] .

* كان ابنُ عمر رضي الله عنه يوم أنْ شهدَ فتح مكّة ابن عشرين سنة[٢] ، وكان يمتطي فرسَه ، ويحملُ رمحاً ثقيلاً وعليهِ بردة ، وأبصرهُ النَّبيُّ ﷺ ، فقال : «إنَّ عبدَ الله ، إنَّ عبدَ الله» ، يعني أثنى عليه خيراً كثيراً[٣] ، فهنيئاً

---

(١) «العكّارون» : الكرّارون إلى الحرب والعطافون نحوها .

(٢) قال ابن عمر : «شهدت الفتح وأنا ابن عشرين سنة» . (مختصر تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ١٥٥) .

(٣) انظر : طبقات ابن سعد (٤/ ١٧٢) بشيء من التصرف .

للعالِم الفارسِ الشّابِ الشّجاعِ ، وأكرِمْ به وأعظِمْ بشجاعته!.

* وشهدَ سيّدنا ابنُ عمر بقيَّة المشاهدِ مع رسولِ اللهِ ﷺ ، وكان له نشاطٌ وهمّةٌ في بعضِ السَّرايا ، قال ابنُ عساكر: «وكان عبدُ الله بنُ عمر يتوجَّهُ في السَّرايا على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ»[1].

* وفي العصرِ الرّاشدي الميمون شهدَ ابنُ عمر رضوان الله عليه معركةَ اليرمُوك. قال الذَّهبيُّ: «قدمَ ابنُ عمر الشَّامَ والعراقَ والبصرةَ وفارِسَ غازياً»[1].

* ونقلَ الذَّهبيُّ كذلك عن ابنِ يونُس قال: «شهدَ ابنُ عمر فَتْح مصْرَ ، واختطَّ بها ، وروى عنه أكثر من أربعين نفساً من أهلِها»[2].

* وقال النّووي وغيره: «شهدَ اليرموك ، وفَتْح مصْر ، وفتح إفريقية»[2].

* ونقل ابنُ عساكر عن الخطيبِ البغدادي قوله: «خرجَ عبدُ الله بنُ عمر إلى العراق ، فشهدَ يومَ القادسيّة ، ويوم جلولاء ، وما بينهما من وقائعِ الفرسِ ، ووردَ المدائنَ غير مرّة»[3].

* وكان ابنُ عمر فارساً شُجاعاً ، شهدت له ساحات القتالِ بالبسالةِ والمقدرة القتاليّة والمناورةِ والكرّ والفرّ.

* ذكرَ ابنُ سعد في «الطَّبقات»: «أنَّه غَزا العراق ، فبارزَ دهقاناً ، فقتَلَه وأخذَ سَلَبَه ، فَسُلِّمَ ذلك له ، ثمَّ أتى أباهُ فَسَلّمهُ لَه»[4].

أَخْلاَقُـهُ وَمنَـاقِبُـه:

* رأينا في شخصيّة عبدِ اللهِ بنِ عمر رضي الله عنهما جوانبَ سنيةً وثريّةً اقتبسَها من رسولِ اللهِ ﷺ ، ومن أصحابِهِ الكرام ، فأضحىٰ يتّسمُ بصفاتٍ

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٥٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٠٨ و٢٠٩) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٧٦).

(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٥٤).

(٤) طبقات ابن سعد (٤/ ١٧٠).

فريدةٍ كريمةٍ ، ومناقبَ حسانٍ أضحت قدوةً لمن أرادَ أنْ يقتديَ بأهلِ العلمِ والعُلمَاء من الصَّحابة والسَّلف الصّالح .

* ولو رحنا نستقصي مناقبَ ابن عمر لضاقت بنا الصَّفحات ، واحتجنا إلى كتابٍ كبيرٍ لِذكْرِ شيءٍ من مناقبه ، فقد ملأَ الدُّنيا بعلمه ، وشغلَ النَّاس بزُهْدِهِ وورعِهِ وجودِهِ وكرمهِ ، بل قلّد جِيْدَ الدَّهْرِ بتواضعِهِ وحسنِ خلقه ، وبكمالِ عبادتهِ وارتباطهِ بكتابِ اللهِ وسنّةِ النّبي ﷺ.

* فمن أجلِّ مناقبِ عبدِ اللهِ بنِ عمر رضي الله عنهما تأسّيهِ بالنّبي الحبيبِ ﷺ في معالمِ شخصيتِهِ ، فقد جاءَ وصْفُ ابن عمر بأنَّه : «كان مربوعَ القامةِ ، أسْمَرَ ، جسيماً ، يخضبُ لحيتَه بالصُّفْرةِ ، يلبسُ النّعال السَّبتيَّة ، اقتداءً بالنّبي ﷺ»[1] .

* وكان يحرصُ أنْ يكونَ لباسُه مُطابقاً ومشابهاً لِلباسِ النّبيّ ﷺ ، لأنَّه يخشىٰ الاختيالَ والزَّهو والفخر. لذلك كان يلبسُ الثّيابَ الخشِنَة القصيرةَ إلى أنصافِ ساقَيْه[2] ، وقد جاءه أحدُ تلامذتِهِ ولعلَّهُ ـ قزعةُ بنُ يحيى ـ بثوبٍ مصنوعٍ من القُطْنِ ، وقال له : «إنّي أتيتُك بثوبٍ ليّنٍ ممّا يُصْنَعُ بخُراسَان ، وتقرُّ عيناي أنْ أراهُ عليك» .

فقال ابنُ عمر لِقُزعةَ : «أَرنيهِ» فَلَمَسهُ وقال : «أحريرٌ هذا» قال قزعةُ : لا ، إنَّه من قُطن .

قال ابنُ عمر : «إنّي أخاف أنْ ألبِسَه ، أخافُ أنْ أكونَ مُختالاً فخوراً ، واللهُ لا يحبُّ كُلَّ مختالٍ فخور»[3] .

---

(١) انظر : طبقات ابن سعد (٤/١٧٩) ، وسير أعلام النبلاء (٣/٢٠٨) ، و«النّعال السَّبتيةُ» : أحذيةٌ مصنوعةٌ من الجلدِ المدبوغِ ، ولا شعْرَ عليه .

(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ١٧٤) .

(٣) عن حلية الأولياء (١/ ٣٠٢) ، وسير أعلام النّبلاء (٣/ ٢٣٣) مع الجمع والتّصرّف . وقد علّقَ الإمامُ الذّهبيّ رحمه الله على هذا الخبر تعليقاً نفيساً يشيرُ إلى مدى تمكّنهِ من ناصية العلْم والفِقْه فقال ما مفاده: «كلُّ لباسٍ أوجدَ في المرءِ خُيَلاء وفخراً ، فتَركُهُ مُتعيِّنٌ ولو كان من غيرِ ذَهَبٍ ولا حريرٍ ، فإنّا نرىٰ مَنْ يلبسُ الثّيابَ الواسعةَ من الصُّوف=

* لقد كان ابنُ عمرَ رضي الله عنه زاهداً في زخرفِ الدُّنيا ، بعيداً عن كُلِّ ما يدعو إلىٰ الترفِ ، شديد الزُّهد في كُلِّ أمورهِ ، ينظرُ إلى ما عندَ اللهِ من الأجْرِ والثَّوابِ بعينِ العبادةِ ، ويتمثّلُ الرُّسول ﷺ قولاً وفعلاً ، بل كان يرشدُ النَّاس إلى نَهْجِ الرَّسُول ﷺ ، وصاحبيْهِ الكريمَيْن أبي بكر وعمرَ رضي الله عنهما فقد سمعَ مرّة ـ وهو في المدينة ـ رجُلاً يقول: «أين الزَّاهِدون في الدُّنيا ، الرّاغبون في الآخرة»؟

فما كانَ من ابنِ عمر رضي الله عنه إلاّ أنْ أخذَ ذلك الرَّجل ، وأراه قَبْرَ النّبي ﷺ وأبي بكْر وعمَر رضي الله عنهما وقال له: «يا هذا ، عن هؤلاءِ تَسْأَل»[1]؟ . وهذا ـ والله ـ غاية اللطف والحبّ من ابن عمر رضي الله عنه.

* وكان ابنُ عمر مع زهدِهِ كريماً جَواداً سخيّاً ، لا تستقرُّ الأموالُ على كفّهِ ، بل يرسلُها إلى مَنْ يستحقّها ، فقد جاءَهُ في يوم عشْرةُ آلافِ درهم ففرّقها[2] . بل كان يوزّعُ في المجلسِ الواحدِ ثلاثين ألف درهم[1] . وكان كثير الصَّدقة يشتري الرّقيق ثمّ يعتقُهم في سبيلِ مرضاة الله عزَّ وجلَّ ذكرَ مولاهُ نافعٌ هذا فقال: «ما ماتَ ابنُ عمرَ حتّى أعتقَ ألفَ إنسان أو زاد»[3].

= أو القطن ذات الثّمن الكبير ، والكبْر والخيلاء تظهرُ على مشيتِهِ ، ولو نصحتَهُ لقال: ما فيَّ خُيلاء ولا فخر ، وهذا السَّيد ابنُ عمر رضي الله عنه يخافُ ذلك على نفسهِ ، فرضي اللهُ عن ابنِ عمر وأبيه ، وأينَ مثلِ ابن عمر في دِيْنِهِ ، وورعهِ وعلْمِهِ وتألههِ وخوفِهِ ، فقد عُرضَتْ عليه الخلافةُ فأباها ، وعَرضَ عثمانُ رضي الله عنه القضاء فردَّه ، وأرادَ عليّ أنْ يوليه نيابةَ الشّام فهربَ منه ، فالله يجتبي إليه مَنْ يشاء ، ويهدي إليه مَنْ يُنيب». (سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٣٤ و٢٣٥) بتصرف.

(١) حلية الأولياء (١/ ٣٠٦ و٣٠٧) بشيء من التصرف. وممّا يتوافقُ مع هذا ما جاء في «الطّبقات» لابن سعد قال: «كان عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما إذا قدمَ من سفرٍ بدأ بقبرِ النّبيّ ﷺ ، وأبي بكر وعمر ، فيقول: السّلامُ عليك يا رسولَ اللهِ ، السّلام عليك يا أبا بكر ، السّلام عليك يا أبتاهُ» (طبقات ابن سعد ٤/ ١٥٦).

(٢) سير أعلام النّبلاء (٣/ ٢١٨) ، وحلية الأولياء (١/ ٢٩٦).

(٣) حليةُ الأولياء (١/ ٢٩٦) ومن أجملِ القَصص في هذا المجالِ ، ما رواه زيدُ بنُ أسلم قال: «مرّ عبدُ اللهِ بنُ عمر رضي الله عنهما بِرَاعٍ ، فقال: يا راعي الغنم ، هل من =

* ولم يكن ابنُ عمرَ رضي الله عنه زاهداً في هذا كلّه فحسب ، وإنّما عُرضتْ عليه كُبرى المناصبِ في العَهْد الرّاشديّ فأَبَاهَا ورفَضَها ، وعكَفَ يشحَذُ نَفْسه ويصقلُها بالطَّاعَاتِ تقرُّباً إلى الله عزَّ وجلَّ ، وطلباً لرضوانهِ ومرضاتهِ.

* ومن بدائعِ مناقبِ ابنِ عمر وسجاياه ما جاءَ عنه في هذا الخبرِ اللطيفِ الذي يرفعُه إلى مصافِّ الأصفياء ، وطبقات الأتقياء ، يقولُ الخبر: «بعثتْ أمُّ وَلَدٍ لعبدِ الملكِ بنِ مروانَ إلى وكيلٍ لها بالمدينةِ المنوَّرةِ تستهديه غُلاماً ، وقالت له: أريدُ الغلامَ أنْ يكونَ على هذه الصِّفة: يكونُ عالماً بالسُّنَّة المطهّرة ، قارئاً لكتابِ الله عزّ وجلَّ ، فصيحَ اللسان ، حَسَن البَيان ، عفيفَ الفرج ، كثيرَ الحياء ، قليلَ المِراء.

فكتبَ إليها وكيلُها: «بسمِ اللهِ الرّحمن الرّحيم ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ الله ، أمّا بعدُ: قد طلبت هذا الغُلام الذي استهديتني على ما ذكرتِ وما وصفتِ ، فلم أجدْ غُلاماً بهذه الصِّفة إلاّ عبدَ الله بنَ عمر بنِ الخطّاب ، وقد ساومتُ به أهله ، فأبوا أنْ يبيعوه!! والسَّلام»[1].

* ألا ما أجملَ تلكم الصِّفات! وما أعظمَ أولئك الرِّجال الذين زيّنوا الدُّنيا بالأفعالِ والأقوالِ العظيمة ، فكانوا هم زينة المَجالِس وبهجتها ، وأُنْس المُجَالس ، تُعطِّر الأسماع بسيرهم ، وتُندّى القلوب بآثارهم ، وتُصقل النفوس بآدابهم! فلقد كانوا بحقّ مصابيحَ الهدىٰ في الدّياجير ، وما زالوا زادَ مَنْ أرادَ أنْ يستزيدَ مِنْ زَادهم الوفير.

= جَزَرة؟ قال الرّاعي: ليس ها هنا صاحِبُها. قال ابن عمر: تقول إنّه أكلَها الذّئب! قال: فرفَع الرّاعي رأسَه إلى السَّماء ، ثم قال: فأينَ الله؟! قال ابنُ عمر: فأنا واللهِ أحقّ أنْ أقول: فأينَ الله!! فاشترى ابنُ عمر الرّاعي ، واشترى الغنم ، فأعتقَه وأعطاه الغنم. فقالَ العبدُ: اللهم قد رزقتني العتق الأصغر ، فارزقني العتق الأكبر». (مختصر تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ١٦٢) ، و(البصائر والذخائر ٧/ ٤٩) مع الجمع والتصرف.

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٧٢) بتصرف يسير جداً. وانظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٢٢).

* وسيدنا عبدُ الله بنُ عمر رضوان الله عليه من علْيَةِ الصَّحابة وفقهائهم الأبرار الذين يعرفون ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]، ويدركون أنَّ الإنسانَ في هذهِ الدنيا له رسالة وعليه واجبات، وأنَّ الله تعالى ما خلقَ النَّاس عَبثاً، لذا نجدُ ابنَ عمر يُذكِّر النَّاسَ بهذا المبدأ في كلّ مجلس وفي كلِّ مكان، فما عرفَ إلاّ الجدَّ في القول والعمل، وهذه إحدى المناقبِ الكريمةِ التي تضفي مكرمةً إلى شخصيّة هذا العبقريّ ابن العبقريّ الذي ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النَّازعات: ٤٠]، فعَلِمَ تمامَ العِلْم بأنَّ ﴿ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النَّازعات: ٤١].

* وفي الخبرِ الجميلِ الآتي دليلٌ على جِدِّ واجتهاد ابنِ عمر رضي الله عنه، وفيه منقبةٌ شريفةٌ تدلُّ على خوفهِ الدّائم من العليمِ الخبيرِ.

* قال إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمه الله: «مرَّ عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما على قومٍ مجتمعين، وعليه بردةٌ حَسْنَاء فقال رجلٌ منَ القوم: إنْ أنا سلبتُه فما لي عندكم؟ قال: فجعلُوا له شيئاً إنْ أخذها.

فأتاه، فقال: يا أبا عبد الرّحمن، بردتُك هذهِ هي لي.

فقال ابنُ عمر للرّجل: يا هذا إنّي قد اشتريتُها بالأمسِ.

قال الرّجل: إنّي قد أعلمتُك، وأنتَ في حرجٍ من لبسِها بعد الآن.

صمتَ ابنُ عمر هُنيهةً، ثم نزَع الحلّة عن كتفَيْه ليدفعها إلى الرّجل، وهناك ضَحك القومُ أصحابُ الرَّجل... فقال لهم ابنُ عمر متعجّباً: ما لكم تضحكُون؟

فقالوا له: يا أبا عبد الرّحمن، إنَّ هذا رجلٌ بطّال.

فالتفتَ إليه ابنُ عمر وقال له واعظاً بكلماتٍ ترشحُ بنورِ الإيمان والإخلاص والرّفق: يا أخي أمَا علمتَ أنَّ الموتَ أمامك، لا تدري متى يأتيكَ صبَاحاً أو مساء، ليلاً أو نهاراً، قائماً أو قاعداً؟! ثمّ القبر، وهول

المطْلع ، ومنكر ونكير ، وبعد ذلك القيامة ، يوم يخسرُ فيه المُبطلون؟ فأبكاهم ثمّ مضىٰ رضي الله عنه»[1].

* إنَّ مناقبَ ابن عمر كثيرةٌ منثورةٌ في رياضِ المصادر وبساتينها لمن أرادَ أنْ يجتنيَ روضَ رياحينها ، ويجعلها طاقاتٍ يشمُّ عبيرها ، ويستروحُ رحيقها ، وينَدّي أعمالَه بها.

* وأجدني الآن أختمُ هذه الفقرة بكلماتٍ لطيفاتٍ عن مناقبِ سيّدنا ابنِ عمر وأخلاقه وصفاته ، نقلها ابن عساكر من كلامِ أبي نُعيم ، فقال: «عبدُ الله بنُ عمر بن الخطَّاب رضي الله تعالى عنه ، خالُ المؤمنين ، من أمْلكِ شبابِ قريش عن الدنيا ، كان أسمر له جمّـةٌ مفروقةٌ ، يقصُّ شارِبَـهُ ، ويصفّرُ لحيتَه ، ويشمِّرُ إزاره ، أُعْطِيَ القوّة في العبادة . . كان من التّمسُّك بآثارِ النّبيّ ﷺ بالسَّبيل المبين ، وأُعطيَ المعرفةَ بالآخرةِ ، والإيثار لها ، لم تغيّرْهُ الدنيا ، ولم تفتنْه ، كان مِنَ البكَّائين الخاشعين ، وعدّه رسولُ الله ﷺ من الصَّالحين ، نَقْشُ خاتمه: عبدُ الله للهِ»[2].

ثَنـاءُ الأكَابِـرِ عَلَيْـهِ:

* إذا شهدَ أهلُ الفضلِ لأُولي الفَضْل بالفضلِ ، فذلك هو عينُ الفَضْلِ ، وذلك الغِنَى المطلوب ، وتلك الحياةُ الحقيقيةُ ، إذ إنَّ ابنَ عمر رضي الله عنه قد سلَكَ طريقاً يلتمسُ فيه علماً ، ففاقَ أقرانَه أدباً وفَهْماً ، وكان بذلك ماجداً أفلح رائده ، وجلّتْ فوائدهُ وفرائدهُ ، وطلع طلوع النَّجمِ في الآفاقِ ، وعطَّرَ الدُّنيا بمحاسنِ العِلْمِ والأخلاقِ ، فناهيك بمحَاسِنَ قُلدها ، ومناقبَ أنبتها وخلَّدها.

* إنَّ أعظمَ حليةٍ قُلِّدها عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنه ، تلك الشَّهادة العظيمةُ المباركةُ التي نالها من الصادق المصدوق ﷺ حيثُ شهدَ له بالصَّلاح

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٧٤) بتصرف يسير جداً.

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٥٤) بتصرف يسير.

فقال: «إنَّ عبدَ الله رجلٌ صالح». كما قال عنه: «نِعْم الرّجلُ عبدُ الله»[1].

* ومنَ عُليا الثَّناءات التي حظيَ بها عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما شهادة سيّدتنا أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها إذ شهدتْ له باقتفاءِ الأثرِ النّبويّ والمنهج السَّوي فقالت: «ما رأيتُ أحداً ألزمَ للأمرِ الأوَّلِ من ابنِ عمر»[2].

* ومن بين مجموع شبابِ الصَّحابة وفتيانهم يبرزُ ابنُ عمر رضي الله عنه ليحظىٰ بالفضلِ من عالَم صاحبِ فَضْل وهو سيّدنا عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه إذ يقول: «لقد رأيتنا ونحنُ متوافرون، وما فينا شابٌ هو أمْلَكُ لنفسِهِ عن الدُّنيا من ابنِ عمر»[3].

* وهذا سيّدنا جابرُ بنُ عبد الله وهو عالمٌ من عُلماء الصَّحابة الأخيارِ، يشهدُ بالزُّهدِ لابنِ عمر، ويشهدُ له بالثَّباتِ أمامَ مغريات الدُّنيا فيقول: «ما منّا أحدٌ أدْرَكَ الدُّنيا إلا وقد مالَتْ بهِ، إلاّ ابن عمر»[4].

* وقال جابرُ رضي الله عنه أيضاً: «مَنْ سَرَّهُ أنْ ينظرَ إلى أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ الذين مضُوا قبله وبعده، ولم يغيروا، ولم يبدّلوا، فلينظرْ إلى هذا ـ يعني عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما ـ»[5].

* وأما حذيفةُ بنُ اليمان رضي الله عنهما فقد أقرَّ لابنِ عمر بالفضلِ والبعدِ عن العيوبِ فيقول: «ما مِنّا أحدٌ يُفَتَّشُ إلاّ فُتِّش عن جانفة أو مُثْقِلةٍ إلا عمر رضي الله عنه وابنه»[6].

---

(١) أخرجه البخاري كما مرَّ معنا.
(٢) صفة الصفوة (١/ ٥٦٨).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١١)، ومعنى «متوافرون»: أي كثيرون.
(٤) حلية الأولياء (١/ ٢٩٤)، والاستيعاب (٢/ ٣٣٥).
(٥) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٥٧).
(٦) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٥٧). و«جانفة» وقيل: جائفة، والجائفة: الطعنة القوية التي تصل إلى الجوف. و«جانفه»: الجنف: الميل، ومنه قول الله عز وجل ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ [البقرة: ١٨٢] وتجانف: مال.

* أمّا عُلماء التَّابعين ، ذووا النَّجابة ، وتلامذةُ الصّحابة ، فقد أشاعوا إعجابهم بعبدِ اللهِ بنِ عمر ، وأثنوا على طريقتِهِ ونهجه ، وأُعْجِبوا بمكارمه وأفعاله.

* فهذا عالمٌ نجيبٌ من علماءِ التَّابعين ، وعلَمٌ من أعلامِهم وهو سعيدُ بنُ المسيب رحمه الله يثني على ابنِ عمرَ ويشهدُ بفضلِهِ وورعهِ ونقائِهِ فيقول: «لو شهدتُ لأحدٍ أنَّه من أهل الجنَّةِ لشهدتُ لعبدِ اللهِ بنِ عمر رضي الله عنهما»[1].

* وكان سعيدُ بنُ المسيّب رحمه الله معجباً بابن عمر إعجاباً شديداً ، فكان كلّما سُئِلَ عن مسألةٍ عزَاهَا له ، واستشهد بفعلٍ من أفعالِهِ ، ويشيرُ إلى علْمِهِ وفقهِهِ وتمسّكِه بالهدي النّبويّ ، من ذلك أنَّ سعيداً سئلَ عنِ العَلَمِ يكون في العَمامةِ ، فقال: «كانَ عبد الله بنُ عمر يكرهه».

* وسئل سعيدٌ عن الحريرِ فقال: «كان ابنُ عمر يوم مات خيرَ مَنْ بقيَ ، وكان يقولُ: إنَّه ثيابُ مَنْ لا خلاقَ له».

* وقال سعيدٌ: «ماتَ ابنُ عمر يوم أنْ ماتَ ، وما في الأرضِ أحدٌ أحبَّ إليَّ أنْ ألقى الله بمثلِ عَملهِ منه».

* وسئل عن صوم يومِ عرفة ، فقال: «كان ابنُ عمر لا يصومُه» فقيل لسعيد: «فهلا رجلاً غير ابن عمر»؟!

فقال: «حسبُك بابنِ عمر شيخاً»[2].

* وأثنى السُّديّ رحمه الله على ابنِ عمر رضي الله عنه ، فقال: «رأيتُ نفَراً من أصحابِ النّبيّ ﷺ ، منهم: أبو سعيد الخُدريّ ، وأبو هُريرة ، وابنُ عمر رضي الله عنهم كانوا يرون أنَّه ليس أحدٌ منهم على الحالِ التي فارقَ

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٥٨).

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٥٨) بتصرف يسير جداً.

عليها محمّداً ﷺ إلاّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما»[١].

* وقال طاووسُ بنُ كَيْسَان[٢] رحمه الله في الثَّناء على ورعِ ابنِ عمر وفضلِه: «ما رأيتُ رجلاً أوْرَعَ من ابنِ عمر رضي الله عنه»[٣].

* وللإمامِ مالكِ بنِ أنسٍ رحمه الله أقوالٌ نفيسةٌ تشيرُ إلى إعجابهِ بابنِ عمر، ومنها قولُه: «لا يُعْدَلَنَّ برأي ابنِ عمر رضي الله عنهما؛ فإنَّه أقامَ بعدَ رسولِ الله ﷺ ستين سنة، فلم يذهبْ عنْهُ من أمرِهِ، ولا من أمورِ أصحابهِ شيءٌ»[٤].

* وقال: «كان ابنُ عمر من أئمةِ المُسلمين، ومن أئمةِ الدِّين»[٥].

* وقال: «كانَ إمامَ النَّاس عندنا بعد زيدِ بنِ ثابت عبد الله بن عمر، مكثَ ستّين سنة يُفتي النَّاس»[٦].

* وقال: «بلغَ عبدُ الله بن عمر ستّاً وثمانين سنةً، وأفتى في الإسلام ستين سنةً، ونشرَ نافعٌ عنه علْماً جمّاً»[٧].

* ونقل رجاءُ بنُ حيوة[٨] رحمه الله منقبةً فريدةً لابنِ عمرَ فقال: «أتانا

---

(١) الإصابة (٣/ ٣٣٩).

(٢) طاووسُ بنُ كيسان اليَمانيّ الحِمْيريّ أبو عبد الرّحمن، واحدٌ من كبار التّابعين والعُلماء والفضلاء والصّالحين؛ سمعَ ابنَ عبّاس، وابنَ عمر، وجابراً، وأبا هريرة، وزيدَ بنَ ثابت، وابنَ أرقم، وعائشة رضي الله عنهم، وروىٰ عنه خلائق من التّابعين، واتّفقوا على جلالتهِ وفضيلتهِ ووفور علمِه وصلاحِه وحفظِه وتثبّته توفي بمكّة في سابعِ ذي الحجّة سنة (١٠٦هـ) رحمه الله (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٥١).

(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٥٩).

(٤) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٧١)، والبداية والنهاية (٩/ ٥).

(٥) الإصابة (٢/ ٣٤٠).

(٦) تاريخ بغداد (١/ ١٧٢).

(٧) الاستيعاب (٢/ ٣٣٥).

(٨) رجاءُ بنُ حيوة بن جندل الكنديّ الشّامي الفلسطينيّ أبو المقدام، تابعيٌّ، إمامٌ، روى عن معاذ بنِ جبل، وعبادةَ بنِ الصّامت، ومعاويةَ بنِ أبي سفيان، وأبي سعيد الخُدري، وجابرٍ، والمسورِ، وابنِ عمرو بن العاص، وأبي أمامةَ ومحمودِ بنِ =

نعيُ ابنَ عمر ونحنُ في مجلسِ ابن مُحيريز ، فقال ابن مُحيريز: واللهِ إنْ كنتُ أعدُّ بقاءَ ابن عمر أماناً لأهلِ الأرض»[1].

* ولعلَّه منَ المفيدِ أنْ نشيرَ إلى أنَّ عبدَ الملك بنَ مروانَ كان يجلُّ عبدَ الله بنَ عمر ويعرفُ حقَّه ، فقد وردَ أنَّ عبدَ الله بنَ عمر كتبَ رسالةً إلى عبدِ الملك وهو خليفةٌ فقال: «منْ عبدِ اللهِ بنِ عمر إلى عبدِ الملك بنِ مروان».

فقال مَنْ حول عبدِ الملك: بدأَ باسمِه قبل اسمِكَ!

فقال عبدُ الملك: «هذا من أبي عبد الرّحمن كثيرٌ»[2].

* وقال عليُّ بنُ الحُسين يثني على زهدِ ابنِ عمرَ: «إنَّ ابنَ عمر أزهدُ القوم ، وأصوبُ القوم رأياً»[3].

* ولقد برعَ العلماءُ والمصنّفون في ثنائِهم على ابنِ عمر برقيقِ العبارات ، ودقيقِ الإشارات ، فأفاضُوا عليه ألواناً من الثَّناء والاعتراف بفضله ورسوخه في العِلْم ، فجاءتْ أقوالُهم قِطَعاً أدبيةً تحملُ روعةَ البيانِ ، وكمالَ الرَّصفِ والوصْفِ لهذا العبقري العالمِ الذي جمعَ جليل الصّفات ولطيف المكرمات.

* ففي «الحلْيَةِ» لأبي نُعيم أطواقٌ من الذَّهب افتتحَ بها ترجمتَه لعبدِ اللهِ

= الرّبيع ، وغيرِهم من الصَّحابة رضي الله عنهم ، وعن خلائق من التَّابعين ، وروى عنه ثلةٌ من أكابرِ التّابعين كالزّهريّ وقتادةَ وابن عون وغيرهم.
كان رجاءُ بنُ حيوة ثقةً عالماً فاضلاً كثيرَ العِلْم ، قال مكحول الشَّامي: «وجاء شيخنا وسيّدنا وسيدُ أهلِ الشّام». ومناقبه كثيرةٌ مشهورةٌ. وكان رجاء قاضياً ، وأجمعوا على جلالتهِ ، وعظمِ فضلِهِ في نفسه وعلمه. توفي سنة (١١٢هـ) رحمه الله تعالى. (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٩٠).

(١) انظر: تهذيب التهذيب (٥/ ١٣٠).
(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٧٩). وقول عبد الملك بن مروان يدلُّ على توقيرهِ لعلماء الصَّحابة ومعرفته بأقدار هؤلاء الأخيار الأبرار، وهكذا فليكن النّاس.
(٣) المستدرك (٣/ ٥٦٠).

ابنِ عمر ، فجاءت سِلْكاً من الدُّرر ، تزدان به صدور المجالس.

* قال أبو نُعيم ملخّصاً شخصية ابن عمر ومُوجِزاً أهمّ صفاتِه: «ومنهم الزّاهدُ في الإمرةِ والمراتبِ ، الرّاغبُ في القربةِ والمناقب ، المتعبّدُ المتهجد ، المتتبعُ للأثر المتشدد ، نزيلُ الحصباءِ والمساجد ، طويلُ الرّغباء في المشَاهد ، ويعدُّ نفسه في الدّنيا غريباً ، ويرى كلّ ما هو آتٍ قريباً ، المستغفرُ التّواب ، عبدُ الله بنُ عمر بنِ الخطّاب رضي الله تعالى عنه»[1].

* وفي «وفيَاتِهِ» ذكرَ ابنُ خَلكان ابن عمر بألطفِ الشَّمائلِ فقال: «أبو عبد الرّحمن عبد الله بن عمر بن الخطّاب رضي الله عنهما القرشيّ العدويّ ، أسلمَ مع أبيهِ وهو صغيرٌ لم يبلغِ الحُلمَ. . . وكان منْ أهلِ الورَع والعِلْم ، وكان كثيرَ الاتّباع لآثارِ رسولِ اللهِ ﷺ ، شديدَ التّحري والاحتياط والتّوقِّي في فتواه ، وكلّ ما تأخذ به نفسه ، وكان لا يتخلّف عن السّرايا على عهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ ، ثم كان بعد موتهِ ـ ﷺ ـ مُولَعاً بالحجّ ، ويقولون: إنّه كان أعلمَ الصَّحابة بمناسكِ الحج»[2].

* وأثنى عليه الإمامُ النَّوويُّ عندما تعرَّضَ لترجمتهِ في مواضعَ فقال: «الصَّحابيُ الزَّاهدُ. . . كان شديدَ الاتّباع لآثارِ رسولِ اللهِ ﷺ ، حتى إنَّه ينزلُ منازله ، ويصلّي في كلّ مكان صلّى فيه ، ويُبْرِكُ ناقتَه في مَبْرَكِ ناقتِه. . . ومناقبه كثيرةٌ مشهورة ، بل قَلَّ نظيرهُ في المتابعة لرسولِ الله ﷺ في كلّ شيءٍ من الأَقْوالِ والأفعال في الزّهادةِ في الدُّنيا ومقاصدها ، والتّطلّع إلىٰ الرّياسةِ وغيرِها»[3].

* أمّا الإمامُ الذَّهبيُّ رحمه الله فقد طابَ لهُ أنْ يقولَ عن سيّدنا ابنِ عمر: «الإمامُ القدوةُ ، شيخُ الإسلام ، رضي الله عنه»[4].

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٩٢).

(٢) وفيات الأعيان (٣/ ٢٨ و٢٩).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٧٨ و٢٧٩).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٠٤).

* وقال الذّهبيّ أيضاً: «كان إماماً متيناً ، واسعَ العِلْم ، كثيرَ الاتّباع ، وافرَ النُّسك ، كبيرَ القدر ، متينَ الدّيانة ، عظيمَ الحرمَةِ».

* وفي «شَذراته» قال ابنُ العِماد: «السَّيّدُ ، الجليلُ ، الفقيهُ ، العابدُ ، الزَّاهدُ ، أبو عبد الرّحمن عبدُ الله بنُ عمر بنِ الخطاب العدويّ ، كان من زُهّاد الصَّحابة ، وأكثرهُم اتّباعاً للسُّنَن ، وأعزفُهم عن الفِتن ، وتمَّ له ذلك إلى أنْ مات رضي الله عنه»[1].

* إنَّ سيِّدنا عبد الله بنَ عمر رضوان الله عليه قد سجّل أضوأَ الآثار وأنصعها في دُنيا العِلْم ، إذ العلمُ يرفعُ صاحِبَه إلى سُدّةِ المكارمِ ، وعالَم الأبرارِ ، فالعْلمُ نِعْمَ القرين ، ولله در أبي الأسودِ الدّؤلي إذ يقول:

العِلْـمُ زيـنٌ وتشـريـفٌ لِصَـاحبـهِ	فَاطْلُبْ هُديتَ فُنونَ العلْمِ والأدَبا
العِلْـمُ ذخـرٌ وكنـزٌ لا نَفَـادَ لـهُ	نِعْمَ القرينُ ونعمَ الخِدْنُ إنْ صحبا
قد يجمعُ المالَ شخصٌ ثمّ يُحرمُهُ	عمّـا قليـل فيلقـىٰ الـذُّلَّ والحَـرَبـا
وجـامـعُ العِلْـمِ مغبـوطٌ بـهِ أبـداً	فـلا يحـاذرُ منـه الفَـوتَ والسَّلَبـا
يا جامعَ العلْمِ نعم الذّخْرُ تجمعُه	لا تعـدلـنَّ بِـهِ دُرّاً ولا ذَهبـا

قَـلائِـدُ منْ جُمَـانِ أَقْوَالِـهِ:

* الأسلوبُ يفصحُ عن شخصيّة الرَّجُل ، والكلامُ يدلُّ على الإنسانِ ، ويشيرُ إلى عقلِهِ وفهمِهِ وعلمِهِ. وعبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنه واحدٌ من الصَّحابة العُلماء الذين عاشُوا مع آياتِ التَّنزيلِ الحميدِ ، وتقلّبوا في أحضانِ الفَصَاحةِ النّبوية ، واستساغوا البلاغةَ البكريّة ، واستلهموا المعاني العُمريّة ، فانحسرَ ذلك كلّه عن كلماتٍ مباركاتٍ كُتب لها الخلود؛ فكانت كلماتُ ابنِ عمر طيّبة ، وأعمالُه صالحةً ، فكأنَّه عندما ينطقُ بأي حكْمةٍ يتمثّل قولَ الله عز وجل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

* ولما عشْتُ مع سيِّدنا عبدِ الله بنِ عمر رضي الله عنهما ، ألفيتُ كلماتِه

---

(١) شذرات الذهب (١/ ٣١١).

تلامسُ القلوبَ ، وتؤثّرُ في حنَايَاهَا ، وتداعبُ الأضالع بجميلِ معانيها ، وكأنَّ لسانَ الحالِ يقولُ: «هذا كلامُ العارفين باللهِ ، فهل منه مزيد»؟!

* إنَّ أقوالَ عبدِ الله بنِ عمر تجمعُ بين مكارمِ الأخلاق وبين معاني القرآن والسّنّة ، وتزدان بالأدب ، وترفلُ بشذراتٍ من العلْمِ والورعِ والعبادةِ ، بل كلمات حِسَان تصقلُ الطّباع ، وتهذّبُ النُّفوسَ ، وتضفي السَّلاسة والفصاحة إلى ساحةِ البَيان.

* فمن لطيفِ أقواله ، وعقودِ جمانه ، ولآلىءِ لسانِهِ ، ودُرّ بيانِه ، ما وصَفَ به خير أمّة أُخرجَتْ للنّاس ، أصحاب رسولِ الله ﷺ ، أولئك الذين هداهم الله وهم الذين يحبّهم ويحبّونه ، فقال فيهم ونبّه على علمِهم وفضلِهم وبرّهم: «مَنْ كانَ مستنّاً فليستَنَّ بمن قد ماتَ ، أولئك أصحابُ محمّد ﷺ ، كانوا خيرَ هذه الأمّة ، أبرّها قلوباً ، وأعمقها علْماً ، وأقلّها تكلّفاً ، قوم اختارهم اللهُ لصحبةِ نبيّه ﷺ ، ونَقْل دِينه ، فتشبّهوا[1] بأخلاقهم وطرائقهم ، فهم أصحابُ محمّد ﷺ ، كانُوا على الهدىٰ المستقيم والله رب الكعبة[2]».

* ووصَفَ الصّحابةَ الكرامَ بالإيمانِ العظيمِ عندما سُئِل: يا أباعبد الرّحمن ، هل كان أصحابُ النَّبي ﷺ يضحكون؟ فقال عبدُ الله: «نعم»؛ ثمّ أردفَ قائلاً: «كانوا يضحكون والإيمانُ في قلوبهم أعظمُ من الجبالِ الرَّواسي»[3].

* ولعبدِ اللهِ بنِ عمر رضي الله عنه كلماتٌ تقطرُ عذوبةً وأدباً ، منها أنَّه لقي صديقاً له فقال: «إنّي لأغيبُ عنك بشوقٍ ، وألقاك بشوقٍ». فسمع أعرابي كلامَه ، فقال: «لو كان كلامٌ يؤتدمُ به لكانَ هذا»[4].

---

(١) كأنَّ الشَّاعر أخذ هذا المعنى وصاغَه فقال:

فتشبّهوا إنْ لم تكُونُوا مثلَهم ... إنَّ التشبّه بالكرامِ فَلاحُ

(٢) حلية الأولياء (١/ ٣٠٥ و٣٠٦).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٣١١) بتصرف يسير.

(٤) البصَائر والذّخائر (١/ ٧٥) طبعة دار صادر.

* وفي تعريف السُّؤدد والمروءةِ يقول: «إنّا معاشر قريش نعدُّ الحِلْمَ والجودَ سُؤدداً ، ونعدّ العفافَ وإصلاحَ المال مروءةً»[1].

* ومن روائعِ كلماته ، وحسانِ مفرداته ، أنَّه قال يوم مات أحد أبنائهِ ـ وكان أحبّ النّاس إليه ـ «إنّما نفرحُ بهم ، ونحزنُ عليهم ما داموا معنا ، فإذا انقرضُوا ، وصاروا إلى الله انقطعُوا منّا»[2].

* وله في هذا المجالِ أيضاً: «إذا وقع القضاء ، فليس إلا التَّسليم»[3].

* ومن أقوالِهِ الجوامع قولُه: «ساعةٌ للدّنيا ، وساعةٌ للآخرة ، وبين ذلك: اللهمّ اغْفِرْ لنَا»[4].

* وفي تعريفِ العِلْمِ يقولُ ابنُ عمر لرجلٍ كتبَ إليه: أن اكتبْ إليّ بالعلْم كلّه. فكتبَ إليه ابن عمر: «إنّ العلمَ كثيرٌ ، ولكنْ إنِ استطعتَ أنْ تلقىٰ الله خفيفَ الظَّهْر من دماءِ النّاس ، خميصَ البطن من أموالِهم ، كافّاً لسانَك عن أعراضِهم ، لازماً لأمْرِ جماعتهم ، فافعلْ والسَّلام»[5].

* أمّا شروطُ العِلْم والمتعلّم والعالم فتحتاجُ في رأي ابن عمر إلى بضعةِ أمور ، وفي ذلك يقول: «لا يكون الرّجل من العلْم بمكانٍ حتّى لا يحسد مَنْ فوقه ، ولا يحقرُ مَنْ دونَه ، ولا يبتغي بالعِلْم ثَمناً»[6].

* ويقولُ عن العِلْم: «العلمُ ثلاثةُ أشياء: كتاب ناطق ، وسنة ماضية ، ولا أدري».

* ومن جواهر كلامهِ في الأخلاقِ ومداراةِ النّاس والحياةِ معهم بأمنٍ وسلامٍ قولُه لرجلٍ أرادَ أن يعتزلَ النّاس: «إنّه لابدّ لكَ من النَّاس ، ولابدَّ

---

(١) المصدر السَّابق عينه (١٧٩/٥).
(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٦٧/١٣).
(٣) المصدرُ السَّابق نفسه.
(٤) المصدرُ السّابق (١٦٩/١٣).
(٥) المصدرُ السّابق (١٧٢/١٣).
(٦) حليةُ الأولياء (٣٠٦/١).

للنّاس منك ، ولكن كُنْ كأصمّ يسمعُ ، وأعمى يُبْصر ، وسَكُوْتٍ ينطقُ».

* وفي معرضِ الأدبِ نجدُ لابنِ عمرَ كلماتٍ ساحراتٍ آسراتٍ في الحِلْمِ حيث يقول: «إنَّ الحليمَ ليس مَنْ ظلم ثمّ حَلُم حتى إذا هيَّجَه قومٌ اهتاجَ ، ولكنَّ الحليم مَنْ قدر ثمَّ عفا ، وإنَّ الوصولَ ليسَ وصل ـ يعني مَنْ وَصَله ـ فتلك مجازاةٌ ، ولكنَّ الوصولَ مَنْ قَطع ثم وصَل ، وعطفَ على مَنْ لم يصلْهُ»[1].

* ويعرفُ البرّ بألطفِ المعانِ ، وأسهلِ الأقوال وأيسرِها فيقول: «البرُّ شيءٌ هيّنٌ: وجْهٌ طليقٌ ، وكلامٌ لين».

* أمّا المروءةُ فَلَها عند ابنِ عمر نظمٌ في عقْد نفيس فقد قال مرّةً لأصحابِهِ: «ما حمل الرّجال حملاً أثقل منَ المروءة».

فقال له أصحابُه: «أصلحَك الله صفْ لنا المروءة».

فقال رضي الله عنه: «ما لذلك عندي حدٌّ أعرفُه».

فألحَّ عليه رجلٌ منهم ، فقال: ما أدري ما أقولُ ، إلاّ أنّي ما استحييتُ من شيءٍ علانيةً ، إلاّ استحييتُ منه سِرّاً»[2].

* ومن جميلِ كلامهِ في الدَّعوة إلى الزُّهد ، والحذرِ من آفاتِ الدّنيا قوله: «يا بن آدمَ ، صاحبِ الدُّنيا ببدنك ، وفارقْها بقلبكَ وهمك ، فإنّك موقوفٌ على عملك ، فخذْ ممّا في يديك لما بين يديك عند الموتِ يأتيك الخيرُ»[3].

* ومن كلماتِه الرّائقة ، ومعانيهِ الفائقة المُستفادة من الهدي النّبويّ قوله في خلفِ الوعدِ وصدقه: «خَلْفُ الوعدِ ثلثُ النِّفاق ، وصدقُ الوعد ثلث الإيمان ، وما ظنّك بشيءٍ جعله الله تعالى مِدْحةً في كتابهِ ، وفخراً لأنبيائه ،

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٧٤).
(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٧٥).
(٣) حلية الأولياء (١/ ٣٠٦).

فقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ [مريم: ٥٤]»[١].

* وفي الحياءِ والإيمانِ يقول: «الحياءُ والإيمانُ مقرونان جميعاً، فإذا رُفِعَ أحدهما ارتفعَ الآخرُ معه»[٢].

* ومن بدائعِ كلمات سيّدنا ابنِ عمر اللواتي تشتهيها الأنفسُ وتلذُّ لها الأسماعُ، وتستهويها القلوبُ، مناجاتُه اللطيفة مع اللهِ عزّ وجلّ، فقد ذكرَ مولاه نافعٌ أنَّه كان ليلةً على الصَّفا، فوقفَ يدعو قائلاً: «اللهمّ اعصمْني بديْنكَ وطواعيتك وطواعية رسولكَ، اللهمّ جنبْنِي حدودك، اللهم اجعلني ممّن يحبُّك، ويحبُّ ملائكتك، ويحبُّ رسلَك، ويحبُّ عبادك الصَّالحين، اللهم حبّبْني إليكَ، وإلى ملائكتك، وإلىٰ رسلك، وإلى عبادك الصَّالحين، اللهم يسّرني لليُسرى، وجنبني للعُسرى، واغفرْ لي في الآخرةِ والأولى، واجعلني من أئمةِ المتّقين. اللهم إنَّك قلتَ: ادعوني أستَجِبْ لكم، وإنّك لا تخلفُ الميعاد؛ اللهم إذ هديتني للإسلام فلا تنزعني منه، ولا تنزعه مني حتّى تقبضني وأنا عليهِ»[٣].

العَالِمُ المُعَمَّرُ ورحْلَةُ الحقّ:

* يُعدُّ عبدُ الله بنُ عمر رضوان الله عليه أحدَ علماء الصَّحابة المعمَّرين، فقد عاشَ الخلافةَ الرَّاشدة، وصدْراً منْ خلافةِ بني أميّة، وكان يلقىٰ الاحترامَ والتّوقير من الخلفاء والأمراءِ والولاة وعليةِ القوم.

* وفي سنةِ أربعٍ وسبعين منَ الهجرةِ النّبويّة، آن للنّفْسِ المطمئنةِ أنْ ترجعَ إلى ربّها راضيةً مرضيّةً، وآنَ لعبدِ اللهِ بنِ عمر أنْ يلحقَ بالسلف الصَّالح من الصحابة وأهل الفضل.

* وتذكرُ المصادرُ المتنوعةُ قصّةً في سبب وفاةِ ابن عمر رضي الله عنه،

---

(١) العقد الفريد (١/ ٢٤٤ و٢٤٥).
(٢) حلية الأولياء (١/ ٣٠٦).
(٣) حلية الأولياء (١/ ٣٠٨).

فتقولُ ما مفادُه: «كان عبدُ اللهِ بن عمر في مكّة قد أدّى فريضةً الحجّ ، وهناك أصابه رأسُ رمحٍ في رجله».

* وقيل: «إنَّ الحجاجَ بنَ يوسف كان قد أمرَ بحملِ السّلاح في موسمِ الحجّ في الحرم ـ وذلك عقب مقتلِ عبدِ الله بنِ الزُّبير رضي الله عنهما ـ فأثّر ذلك في ابنِ عمر ، ودخل الحجاجُ يعودُهُ ، فقال له: مَنْ أصَابَك؟

قال: أنتَ قتَلْتَني.

قال الحجاجُ: وفيمَ؟

قال: حملتَ السِّلاحَ في حرمِ الله فأصَابني بعضُ أصحابك»[1].

* وأوصى ابنُ عمر عند الموتِ ابنه سالماً أنْ يدفنَه خارجَ الحرمِ وقال له: «يا بُنيّ ، إنْ أنا متُّ فادفني خارجاً منَ الحرم ، فإنّي أكرهُ أنْ أدفنَ فيه بعد أنْ خرجتُ منه مُهاجراً».

* فقال سالم: «يا أَبَه ، إنْ قَدَرْنا على ذلك».

فقال ابنُ عمر: «تسمعني أقولُ لك ، وتقولُ: إنْ قدرنا» قال سالمٌ: «أقول: الحجاجُ بنُ يوسف يغلبُنا فيصلّي عليك» قال: فسكتَ ابنُ عمر ولم يتكلّمْ[2].

* وقال سالمٌ: «أوصاني أبي أنْ أدفنَه خارجاً من الحرمِ ، فلم نقدرْ ، فدفناه في الحرمِ بفخٍ في مقبرةِ المُهاجرين»[3].

* ومات ابنُ عمر سنة (٧٤هـ) ، وكان آخر أصحابِ النّبي ﷺ موتاً بمكَّة ، وعمرهُ بضعٌ وثمانون سنة؛ رضي الله عنه وأرضاه.

* ولكنْ ، هل ننسى هذا العالِم العَيْلمَ والصَّحابي الصَّالحَ ، والكريمَ ابنَ الكريم عبدَ الله بنَ عمر؟! وهل تتلاشى أخبارُهُ؟!!

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٥٨١).

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٨٠ و١٨١) بتصرف يسير.

(٣) طبقات ابن سعد (٤/ ١٨٨).

لا ، لن ننْساه ، بل:

أَخُو العِلْمِ حَيٌّ خَالِدٌ بَعْدَ مَوتِهِ   وَأوْصَالُهُ تَحْتَ التُّرابِ رَمِيْمُ
وذو الجَهْلِ مَيْتٌ وَهُو مَاشٍ عَلَى الثَّرىٰ   يُظَنُّ مِنَ الأَحْيَاءِ وهُو عَدِيْمُ

* رضي اللهُ عن عبدِ اللهِ بنِ عمر ، وجعَلنا معه في جنّات ونَهر: في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

* * *




عبد الله بن عمرو بن العاص

* من كبار علماء العبادلة الأربعة الأخيار الفضلاء
* كان قويّاً خاشعاً وقارئاً متواضعاً صاحب صيام وقيام.
* كان يكتب في الجاهليّة ويحسن السّريانية وكتب الوحي.
* له أخبار وأحداث مهمة مع النّبيّ ﷺ.
* منزلته العلمية كبيرة وروى (٧٠٠) حديث ومات سنة (٦٥هـ).




عبدُ الله بنُ عَمْرو بنِ العَاص

في رحَابِ العِلْم والعُلَماء:

* عالِمٌ سادِ بالعلْمِ ورأس ، واقتبسَ بهِ مِنَ الحُظْوةِ ما اقْتَبَس ، كان بالعلْمِ ثابتَ الأسَاس ، واقتبسَ نارَ المعارفِ أيّ اقْتِبَاس ، برزَ في العبادةِ والفَهْم ، وأحرزَ منهما أوفر سَهْم ، كان من خيارِ الصَّحابة وعلمائهم ، ومن أفرادِ العَبادلةِ وعبَّادهم ونبلائهم ، امتلأ قلبهُ من خشيةِ الله بالضِّياء ، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]:

عَلى قَدْرِ عِلْمِ المرءِ يَعْظُمُ خوفُهُ   فـلا عَـالـمٌ إلاّ مِـنَ اللهِ خَـائِـفُ

* كان قويّاً خاشِعاً، وقارئاً متواضعاً ، صاحبَ صيامٍ وقيام ، إنه عبدُ الله بنُ عمرو بنِ العاص[١] ، أحد العبادلة الأربعة لا مناص ، كان بالحقائق قائلاً ، وعن الأباطيل مائلاً ، يطعم الطّعام ، ويفشي السّلام ، ويطيبُ الكلام رضي الله عنه.

* وعندما افتتحَ الإمام الذَّهبيُّ ترجمتَه وصَفَهُ بالعِلمِ والعبادةِ فقال: «عبدُ الله بنُ عمرو بن العاص الإمامُ الحبْر العابدُ ، صاحب رسول الله ﷺ وابنُ صاحبه ، أبو محمد القُرشيّ السَّهْميّ»[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٧٩ ـ ٩٤) ، وحياة الصَّحابة (انظر الفهارس ٣/ ٧٦٦) ، وحلية الأولياء (١/ ٢٨٣ ـ ٢٩٢) ، ومختصر تاريخ دمشق (١٣/ ١٩٤ ـ ٢٠٦) ، ونسب قريش (ص ٤١١) ، والمعارف (٢٨٦) ، وجمهرة أنساب العرب (ص ١٦٣) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٨١ و٢٨٢) ، وتهذيب التّهذيب (٥/ ٣٣٧) ، وأسد الغابة (٣/ ٢٤٥ ـ ٢٤٧) ترجمة رقم (٣٠٩٠) وغيرها كثير جداً.

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٧٩ و٨٠) بتصرف يسير.

* وأمُّهُ هي ريطةُ بنتُ مُنَبِّه بن الحجَّاج السَّهْميَّة ، وتزْعُمُ المصادرُ بأنَّ أباه عَمْراً أكْبرُ منه بإحدىٰ عشرة سنة أو نحوها!!! ، وقد أسلمتْ ريطةُ وبايعت.

* وقال ابنُ قتيبةَ في «معارفهِ»: «كان بينَ عبدِ الله بنِ عمرو وبين أبيه اثنتا عشْرةَ سنة في السِّنّ»[1].

* وتقولُ مصادرُ كثيرةٌ: «إنَّ عبدَ الله قد أسلم قبل أبيه عمرو ، وزعموا بأنَّ اسمَه كان العاص ، فلمّا أسْلَمَ غَيَّره النَّبيُّ ﷺ بعبدِ اللهِ».

* قال الذَّهبيُّ عنه: «وله مناقبُ وفضائلُ ومقامٌ راسخٌ في العِلْم والعَملِ ، حَملَ عن النَّبيِّ ﷺ عِلْماً جمّاً». وقال: «أسلمَ عبدُ الله ، وهاجرَ بعد سنة سبع ، وشهدَ بعضَ المغازي»[2].

الكَاتِبُ الحَصِيفُ:

* ذكرَ خَيرُ الدِّين الزِّركليّ في «الأَعْلام» بأنَّ عبدَ الله بنَ عمرو «كان يكتبُ في الجاهليّةِ ، ويحسنُ السِّريانيّة ، وأسلمَ قبلَ أبيهِ ، فاستأذنَ رسولَ الله ﷺ في أن يكتبَ ما يسمعُ منه ، فأذنَ له...»[3].

* ورثَ عبدُ الله الفَصَاحةَ وحسنَ الخِطَابِ عن أبيه عمرو بنِ العاص الذي كان أديباً بليغاً شاعراً من كبار الصَّحابة وأمرائهم ، أسلمَ طَوعاً في الهُدنةِ وهاجر واستعملَهُ النَّبي ﷺ على جيش ذات السَّلاسل وفيه أبو بكر وعمر ، وبعثَه إلى عُمان.. وروى عن النَّبيّ ﷺ أحاديث[4].

* وبلاغةُ سيّدنا عمرو لا تخفىٰ على كلّ متذوّقٍ للأدبِ ، فقد سألَه سيّدنا معاويةُ: «ما البلاغَةُ»؟

قال عمرو: «مَنْ تركَ الفُضُولَ ، واقتصرَ على الإيجاز».

---

(١) المعارف (ص ٢٨٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٨٠ و٩١).
(٣) الأعلام للزركلي (٤/ ١١١) ، دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط ٨ ـ ١٩٨٩م.
(٤) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٩/ ٢٣٢ و٢٥١ و٢٥٢) بتصرف يسير.

* ومن ألوانِ البلاغةِ العَمْريَّةِ قولُه وهو في الموتِ يُحْتَضَر: «اللهم لا ذو قوة فأنْتَصِرُ ، ولا براءة فأعتذرُ ، اللهم إنّي مقرٌّ بِذَنبي مُسْتغفِرٌ»

* وأنشدَ إبراهيمُ بنُ إسحاق الحربيّ لعمروِ بنِ العاص شِعراً يتّشحُ بالحكمة:

إذا المرءُ لمْ يتْركْ طعَاماً يحبُّهُ ولمْ يَنْهَ قَلْباً غاوياً حيثُ يمَّما
قَضَى وَطَراً منه وغَادَرَ سُبَّةً إذا ذُكِرتْ أَمْثَالُها تَمْلأُ الفَمَا[1]

* قال ابنُ عبد البرِّ رحمه الله في «استيعابه»: «كان عمرو بنُ العاص من فرسانِ قريشٍ وأبطالهم في الجاهليّة مذكوراً بذلك فيهم ، وكان شاعراً حَسَنَ الشّعر ، حُفِظَ عنه الكثير في مَشَاهِدَ شتّى . .»[2].

* وكان عمرو بنُ العاص رضي الله عنه من كُتَّاب الوحي الذين اختارهم النَّبيّ ﷺ لهذا الغرض الشَّريف ، ووحَّدَ لهم الاختصاصات ، ووزَّع عليهم الأعمال ، وربَّاهم تربيةً خاصّةً ، حتى أصبحوا جهازاً رفيعَ المستوى يتولّى شؤون الوحي والرّسالةِ بين يديه.

* ومن الجديرِ بالذّكر أنَّ سيّدنا عَمْراً وابنَه عبدَ الله كانا من كُتَّاب الوحي في شؤونِ الرِّسالة والدَّعْوةِ إلى الإسلام وتأسيسِ الدَّولةِ الإسلاميّةِ ، وقد بلغ هؤلاءِ الكتبةُ زيادة عن أربعين كاتباً أو ستين ، أمّا كُتَّاب التَّنزيل فكانوا ستة كُتّاب وهم: «عثمانُ بنُ عفّان ، وعليُ بنُ أبي طالب ، وأُبيُّ بنُ كعب ، وزيدُ بنُ ثابت ، ومعاويةُ بنُ أبي سفيانَ ، وعبدُ اللهِ بنُ سَعْد بن أبي سَرْحٍ رضي الله عنهم أجمعين؛ وحشَرنا في معيّتهم».

* وعمرو بنُ العاص أحدُ رجالاتِ العربِ وأذكيائهم ، ومواقفُه جميعُها تشيرُ إلى نَبَاهَتِهِ ورجولته ، ويكفيه فَضْلاً ومكرمةً أنَّه أدخَلَ الإسلام في مصْرَ أرض الكنانة والخيرِ والعطاء ، وأقرَّهُ بها ، ثم دُفِنَ عمرو في ثَراهَا رضي الله

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٩/ ٢٥٢) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٥٨).
(٢) الاستيعاب (٣/ ٥٠٥) بهامش الإصابة.

عنه؛ ولله دَرُّ سيّدنا عمرَ العبقريِّ الذّكيِّ الذي قالَ عن عمرو بنِ العاص: «ما ينبغي لأبي عبد الله أنْ يمشيَ على الأرض إلّا أميراً».

* ما أجملَ سير علماء الصَّحابة والرّحلة بمعيتهم!! وما أجملَ الحياة مع العبادلةِ وفقههم[1]!! وها نحنُ أولاء نطالعُ سيرةَ أحدهم: عبد الله بن عمرو بن العاص الكاتب الحصيف، والنَّجيب العالم.

* كان عبدُ الله يكتبُ عند رسولِ الله ﷺ ما يقولُ؛ وقد جاء عن عبدِ الله قال: قلتُ: يا رسولَ الله! أكتبُ ما أسمعُ منك؟

قال: «نعم».

قلت: في الرِّضى والغَضَب؟

قال: «نعم، فإنّي لا أقولُ إلّا حقّاً»[2].

* ولهذا قال سيّدنا أبو هُريرةَ رضي الله عنه وأرضاه: «ما منْ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ أحدٌ أكثر حديثاً عنه منّي إلّا ما كان من عبد اللهِ بنِ عمرو، فإنَّه كانَ يكتُبُ ولا أكتب»[3].

* ومن نفيس العِلْم والمعرفةِ في هذا المقام ما علَّقَ به الإمامُ ابنُ حجر رحمه الله على حديثِ أبي هريرة الآنف الذكر فقال: «هذا استدلالٌ من أبي هُريرة على ما ذكَرهُ من أكثريَّة ما عند عبد الله بن عمرو علىٰ ما عنده، ويُستفاد من ذلك أنَّ أبا هُريرة كان جازماً بأنَّه ليسَ في الصَّحابةِ رضي الله

---

(١) فقه العبادلة: وهم عدد من فقهاء الصّحابة وأثباتهم وعلمائهم، ومن أنبههم وهم: «عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وابن عمرو»، وإذا قُصد العبادلة وحدهم فالمخصوص أربعة: ابن عباس، ابن عمر، ابن الزبير، ابن عمرو رضي الله عنهم أجمعين (ثمار القلوب ص ٨٨) بتصرف.

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٨٨)، وأخرجه أحمد في المسند (٢/ ٥٥٨) برقم (٦٥٢٠) بلفظ: «اكتب، فو الذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق». وانظر: المسند أيضاً (٢/ ٦٢٥) برقم (٦٨١٦).

(٣) أخرجه البخاري بهذا اللفظ برقم (١١٣) في كتاب العلم، باب: كتابة العِلم.

عنهم أكثر حديثاً عن النَّبيّ ﷺ منه إلاّ عبد الله ، مع أنَّ الموجودَ المرويَ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو أقلّ من الموجود المروي من أبي هُريرة بأضعاف مضاعفة ، فإنْ قُلْنا: الاستثناءُ منقطعٌ فلا إشكال ، إذ التَّقدير: لكنَّ الذي كانَ من عبدِ اللهِ وهو الكتابةُ لم يكن منّي ، سواء لزمَ منه كونهُ أكثرَ حديثاً لما تقتضيه العادَةُ أمْ لا. وإنْ قُلنا: الاستثناء متَّصلٌ فالسَّببُ فيه من جهات:

أحدُهَا: أنَّ عبدَ الله كان مُشتغلاً بالعبادةِ أكثرَ من اشتغاله بالتَّعليم ، فَقَلَّتِ الرِّوايةُ عنه.

ثانيها: أنَّه كان أكثر مقامه بعد فتوحِ الأمصار بمصْرَ أو بالطَّائف ، ولم تكن الرِّحلةُ إليهما ممّن يطلبُ العِلْمَ كالرِّحلةِ إلى المدينةِ ، وكان أبو هريرة متصدياً فيها للفتوى والتّحديث إلى أنْ ماتَ ، ويظهرُ هذا من كثرةِ مَنْ حمل عن أبي هريرة ، فقد ذكرَ البخاري أنَّه رَوىٰ عنه ثمان مئة نَفْس من التَّابعين ، ولم يقعْ هذا لغيره.

ثالثها: ما اختصّ به أبو هُريرة من دعوة النَّبي ﷺ بألاّ ينسىٰ ما يحدّثه به.

رابعها: أنَّ عبد الله بنَ عمرو كان قد ظفرَ في الشَّام بِحمْلِ جَمَلٍ من كُتبِ أهْلِ الكتاب ، فكان ينظرُ فيها ويحدّثُ منها ، فتجنَّبَ الأخذ عنه لذلك كثيرٌ من أئمة التّابعين. والله أعلم»[1].

* إذن ، فقد كتبَ سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنه كثيراً عن النَّبيّ ﷺ بإذنهِ وترخيصهِ له في الكتابةِ بعد كراهيته للصَّحابة أنْ يكتبوا عنه سوىٰ القرآنِ ، وسوّغَ ذلك ﷺ ثم انعقدَ الإجماعُ بعد اختلاف الصَّحابةِ رضي الله عنهم على الجوازِ والاستحبابِ لتقييد العِلْم بالكتابة.

* قال الذَّهبي رحمه الله: «والظَّاهرُ أنَّ النَّهي كان أولاً لتتوفَّرَ هِمَمُهُم على القُرآن وحده ، وليمتازَ القرآنُ بالكتابةِ عمّا سواه منَ السُّنَن النَّبويّةِ ، فَيُؤْمَنُ

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٥٠) ، وانظر أيضاً قول الإمام النووي رحمه الله في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٨٢).

اللبْسُ ، فلمّا زالَ المحذور واللبس ، ووضح أنَّ القرآنَ لا يشتبه بكلام النّاس أُذِنَ في كتابة العلْم. واللهُ أعْلَمُ»[1].

* وشَبيهٌ بما ذكَرهُ الذَّهبيُّ من تقييد العِلْم ما أورده ابنُ حجر في «الفَتْحِ» قال: «قال العُلماءُ: كَرِهَ جَماعةٌ من الصَّحابةِ والتّابعين كتابةَ الحديث ، واستحبُّوا أنْ يُؤْخَذَ عنهم حفظاً كما أخذوا حفظاً ، لكنْ لما قَصُرَتِ الهممُ ، وخشيَ الأئمةُ ضياعَ العلْم دوَّنُوه. وأوّلُ مَنْ دوَّن الحديثَ ابنُ شهاب الزُّهريّ على رأْسِ المئةِ بأمرِ عمرَ بنِ عبد العزيز ، ثم كثُرَ التَّدوينُ ثمّ التَّصنيف ، وحصَلَ بذلك خيرٌ كثيرٌ ، فلله الحمد»[2].

* ولابن عمرو رضي الله عنه خصّيصةٌ أخرىٰ تُعَدُّ من بابِ معرفة الأديان الأخرى؛ وقد تحدَّثَ عبدُ الله بنُ عمرو عن هذه الميزة فقال: «رأيتُ فيما يرى النّائم كأنَّ في إحدىٰ أصبعيّ سمناً ، وفي الأخرى عَسَلاً ، وأنا ألعقهما؛ فلمّا أصبحتُ ذكرتُ ذلك لرسولِ اللهِ ﷺ فقال: «تقرأ الكتابَين: التّوراة والفُرقان» فكان يقرأهما[3].

* وفي النَّفس شيءٌ من هذا الخبر الذي يحومُ حولَه الشَّكُّ والرِّيبةُ والضَّعفُ ، فهل يسمح النَّبي ﷺ لأحدٍ مهما كان أنْ يقرأ في التّوراة؟ ونحنُ نعلمُ عِلْمَ اليقين أنَّ التَّوراةَ منسوخةُ العَملِ لأنَّها محرَّفَةٌ؟! هذا ما لا يكونُ أبداً ، وقد تحدَّث كثيرٌ من العُلماء عن هذا الموضوع ورجّحوا أنْ يكون هذا الحديثُ المرويُ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو من الموضُوعات أو من الأحاديث الضَّعيفة[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٨١).
(٢) فتح الباري (١/ ٢٥١).
(٣) حلية الأولياء (١/ ٢٨٦)!!
(٤) من هؤلاء العلماءِ الذّهبي رحمه الله الذي علّق على هذا الحديث فقال: «ابنُ لهيعة ـ أحد رواة الحديث في المسند والحلية ـ ضعيفُ الحديث؛ وهذا خبرٌ منكَرٌ ، ولا يُشرعُ لأحدٍ بعد نزولِ القرآن أنْ يقرأ التوراة ولا أنْ يحفظَها ، لكونها مبدّلةً محرّفةً منسوخةَ العملِ ، قد اختلطَ فيها الحقّ بالباطل ، فلتُجْتَنَبْ. =

* وفي المسند ما يدحَضُ مثل هذه الافتراءات فقد وردَ أنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه أتى النَّبي ﷺ بكتابٍ أصابه من بعض أهل الكتب؛ فقرأه النّبي ﷺ فغضبَ فقال: «أمتهوِّكُون فيها يابْنَ الخطَّاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة، لا تسألوهم عن شيءٍ فيُخْبِروكم بحقٍّ فتكذّبوا به، أو بباطل فتصدقُوا به، والذي نفسي بيده لو أنَّ موسى كان حيّاً ما وسعَهُ إلاّ أنْ يَتّبَعني»[1].

تَوجيهـاتٌ نَبويّـةٌ لعبد الله:

* سيِّدنُا وحبيبُنا رسولُ اللهِ ﷺ رؤوفٌ رحيمٌ بالمؤمنين، رفيقٌ بأُمّتهِ وأصحابهِ، يشْفِقُ عليهم ويرشدهم إلىٰ مصالحهم الدِّينيةِ والدّنيويةِ، يحثُّهم علىٰ ما يطيقون الدَّوامَ عليه، وينهاهم عن التَّعمُّق والإكثار من العبادات التي يخافُ عليهم الملل بسببها، أو تركها، أو ترك بعضها، بل إنَّه ﷺ أمرهم بأنْ يقومُوا بالأعمالِ التي يطيقونها، وأنْ يداوموا على العمل وإنْ كان قليلاً.

* وكان عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنه ممّن يستمتعُ بالحياةِ مع القرآنِ وقراءته، فقد كان صديقاً للقُرآن الكريم، يألفُ تلاوته، وينتظمُ في أداء وردِه بشكلٍ يوميّ حتى اشتُهرَ أمره في هذا المضْمار الميمون.

* وقد كان للسَّلفِ الصَّالح عاداتٌ مختلفةٌ فيما يقرؤون كلّ يوم من القُرآن الكريم وذلك بحسبِ أحوالهم، وأفهامهم، ووظائفهم، فكان بعضُهم يختمُ القُرآنَ العظيم في كلّ شَهْر، وبعضُهم في عشرين يوماً، وبعضُهم في عشرة أيّام، وبعضُهم أو أكثرهم في سبعةٍ، وكثيرٌ منهم في

= فأمّا النَّظرُ فيها للاعتبار وللردّ على اليهود، فلا بأس بذلك للرجلِ العالمِ قليلاً، والإعراض أولى.
وأمّا ما روي من النّبيّ ﷺ أذن لعبدِ الله أنْ يقومَ بالقرآن ليلة، وبالتوراة ليلة، فكذبٌ موضوعٌ قبّح اللهُ من افتراه». (سير أعلام النبلاء ٣/ ٨٦).

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٥) حديث رقم (١٥١٥٨) ومعنى «متهوّكون»: متحيرون، وفي رواية أخرى: «أمتهوكون كما تهوّكت اليهود والنّصارى».

ثلاثةٍ ، وكثيرٌ في كلّ يوم وليلة ، وبعضهم في كُلّ ليلةٍ ، وبعضُهم في اليومِ والليلةِ ثلاث ختمات.

* والمختارُ أنَّ قارىءَ القرآنِ وحافِظَه يستكثرُ منه ما يمكنه الدّوام عليه ، ولا يعتادُ إلاّ ما يغلب على ظنّه الدّوام عليه في حال نشاطه وغيره ، هذا إذا لم تكن له وظائف عامّة ، أو خاصّة يتعطَّلُ بإكثار القرآن عنها ، فإن كانت له وظيفةٌ عامةٌ كولايةٍ وتعليمٍ ونحو ذلك ، فليوظفْ لنفسهِ قراءةً يمكنُهُ المحافظةَ عليها مع نشاطه ، وغيره ، ومن غير إخلال بشيء من كمال تلك الوظيفة ، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السَّلف.

* بيد أنَّ سيّدنا عبدَ الله بنَ عمرو كان لا يزالُ شاباً قوي العُود ، عالي الهمّة ، وظنَّ أنَّه يستطيعُ قراءة القرآن كلّه في ليلةٍ ، ولكنْ هل يستطيعُ ذلك؟! ترى هل شَاورَ النَّبي ﷺ في هذا الأمرِ؟! وهل استفادَ من التَّوجيهِ النَّبويّ في القراءةِ؟! هذا ما ستشفُّ عنه السُّطور الآتية من حديثِ سيّدنا عبدِ الله بنِ عمرو نفسِه.

* أخرجَ مسلم في صحيحه بسنده عن عبدِ الله بنِ عمرو رضي الله عنهما ، قال: قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «اقرأ القرآنَ في كُل شَهْر».

قلت: إنّي أجدُ قوّة.

قال: «فاقرأْه في عشرين ليلة».

قلت: إنّي أجدُ قوّة.

قال: «فأقرأه في سبعٍ ولا تَزِدْ على ذلك»[1].

* وأخرج مسلم بسنده عن أبي سلمةَ بنِ عبد الرحمن عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا عبدَ اللهِ ، لا تكنْ بمثل فلان ، كان يقومُ الليل ، فتركَ قيامَ الليل»[2].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١١٥٩/ ١٨٤).
(٢) أخرجه مسلم برقم (١١٥٩/ ١٨٥).

* والمرادُ أنَّه ينبغي الدّوام على ما صار عادة من الخير ولا يفرّط فيه ، فلا تحسنُ قراءةُ القرآن الكريم في زمنٍ قصير ، لأنَّ الإنسانَ لا يتدبَّرُ معانيه ، وكان سيدنا ابن عمرو بن العاص يَجِدُ في نفسهِ القوّة في حال الشّباب وأنَّه يقدرُ على قراءةِ القُرآن في ليلةٍ واحدة ، ولكنَّ الحبيبَ المصطفى ﷺ وجَّهَهُ إلى الطَّريقِ السَّليمِ في قراءة القرآن.

* قال الذَّهبيُّ: «وصحَّ أنَّ رسولَ الله ﷺ نازَلَه إلى ثلاثِ ليال ، ونَهَاهُ أنْ يقرأه في أقلَّ من ثلاثٍ ، وهذا كان في الذي نزلَ من القُرآن العظيم ، ثم بعد هذا القول نزلَ ما بقيَ من القُرآن ، فأقلّ مراتبِ النّهي أنْ تُكره تلاوةُ القرآن كلّه في أقلَّ من ثلاثٍ ، فما فَقِهَ ولا تدبَّرَ مَنْ تَلَىٰ في أقلَّ من ذلك. ولو تلا ورتّلَ في أسبوعٍ ، ولازمَ ذلك ، لكان عملاً فاضِلاً ، فالدِّيْنُ يُسْرٌ ، فو اللهِ إنَّ ترتيلَ سُبُعِ القُرآن في تهجّدِ قيام الليل مع المحافظةِ على النَّوافلِ الثّابتة ، والقولِ عند النّوم واليقظة ، ودُبُرِ المكتوبة والسَّحر ، مع النَّظرِ في العلْمِ النَّافعِ والاشتغال به مخلصاً لله ، مع الأمْرِ بالمعروفِ ، وإرشادِ الجاهل وتفهيمه ، وزجْرِ الفاسق ، ونحو ذلك ، مع أداءِ الفرائض في جماعة بخشوعٍ وطمأنينة وانكسار وإيمانٍ ، مع أداءِ الواجب ، واجتنابِ الكبائر ، وكثرةِ الدّعاء والاستغفار ، والصَّدقة وصلَةَ الرّحم ، والتّواضع ، والإخلاص في جميعِ ذلك، لَشُغْلٌ عظيمٌ جسيم، ولمَقَامُ أصحابِ اليمين وأولياء الله المتّقين، فإنَّ سائرَ ذلك مطلوبٌ، فمتى تشاغَلَ العابدُ بختمة في كلّ يوم ، فقد خالفَ الحنيفيّة السَّمْحةَ، ولم ينهضْ بأكثرَ ما ذكرناه ، ولا تدبَّرَ ما يتلوه..

هذا السَّيّدُ العَابدُ الصَّاحبُ كان يقولُ لمَّا شَاخ: ليتني قبلْتُ رخْصَةَ رسُولِ الله ﷺ..»[1].

* أدركَ سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنه أنَّه قد جارَ على نَفْسِه ، وأَوْهَنَ جَسَدَه لمّا تقدمَتْ به السِّنُّ وكبرَ وعجزَ عن المحافظةِ على ما التزمه ، وما عاهدَ عليه نفسه زمانَ الصِّبا والشَّباب ، وذكروا أنَّه قال يوم أنْ وَهَنَ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٨٤).

العظْمُ منه واشتعل رأسه شيباً وبلغَ من الكبرِ عتياً: «لأنْ أكونَ قبلتُ الثّلاثة أيام التي قالَ رسولُ الله ﷺ أحبّ إليَّ من أهلي ومالي» أو قال: «يا ليتني أخذتُ بالرّخْصة».

* نعم إنَّ رسولَ الله ﷺ هو الأسوةُ الحسنَةُ في هذه الصِّلةِ بالقرآنِ العظيم، ومنه يتعلَّم الناسُ كلّهم كيف يُكوِّنون صِلَتهم بالوحي المبارك.

* إنَّ مَنْ يحيا في القُرآن الكريم ينشدُ للمجتمع حولَه أن يحيا هو الآخرُ فيه حياةَ الرُّوح، وأنْ يقيمَ أوامره ويجتنبَ نواهيه، وينفّذَ أحكامه، ويرعى حدودَهُ، ويقبلَ عليه إقبالَ المعظم لرسالته، الموقن بصدقها، الرّاجي سعادة الدَّارَيْن من ورائها. ولله درُّ مَن قال:

الـذّكْـر آيـةُ ربِّـك الكُبـرىٰ التـي ... فِيْهَـا لِبَـاغـي المُعْجِـزاتِ غَنَـاءُ
صَـدْرُ البَيَـانِ لـه إذا الْتَقَـتِ اللُّغَـى ... وتقــدَّم البلغـــاءُ والفُصَحـــاءُ
نُسِخَـتْ بـه التّـوراةُ وهـي وضيئـةٌ ... وتَخَلَّـفَ الإنجيـلُ وهـو ذُكـاءُ
لمـا تَمَشَّـىٰ فـي الحجـازِ حَكيمُـهُ ... قضَّـتْ عُكَـاظ بـه وقـامَ حـراءُ

وقال آخرُ في الهدفِ الرّئيس من القُرآنِ الكريمِ:

إنَّ هـذا القُـرآنَ يهـدي إلـى الرُّشـ ... ـد ويـدعـو لِصَـالـح الإنسـان
نحـنُ نَبْغـي القُـرآنَ عِلْمـاً وفهمـاً ... يخلقَـانِ الكَمَـالَ فـي الشَّبّـان
نحـنُ نبغـي القُـرآنَ لَفْظـاً ومعنـىً ... فهـو صَقْـلُ الحِجا وصَقْـلُ اللسان
نحـنُ نبغـي القـرآنَ دِيْنـاً ودُنْيَـا ... يتجلَّـى فـي هَـدْيـهِ الحُسْنَيـان
نحنُ نبغي القرآن في معهد الدّر ... س وفــي كُــلِّ منْـزِلٍ ومَكَـانِ

* وفي حياةِ سيّدنا عبدِ الله بنِ عمرو رضي الله عنه وسيرتهِ وقفاتٌ جميلةٌ مع التَّوجيهاتِ النَّبويةِ في الصَّوم، فقد كان النَّبيُّ ﷺ يَعْلمُ أحوالَ أصحابهِ شِيبهم وشَبابهم، ومنهم أنَّه ﷺ كان يعلمُ حالَ سيدنا عبدِ الله بنِ عمرو ونفسيّتَهُ، وأنّه لا يستطيع أنْ يداومَ على الصَّومِ، فقد جاء في الصَّحيحِ أنَّ عبد الله بنَ عمرو بن العاص قال: «أُخْبِرَ رسولُ الله ﷺ أنَّه يقول: لأقومنَّ الليلَ ولأصومنَّ النّهارَ ما عشْتُ. فقال رسولُ الله ﷺ: «أنتَ الذي تقولُ ذلك»؟

فقلت له: قد قُلْتُهُ يا رسولَ الله.

فقال رسولُ الله ﷺ: «فَإنَّكَ لا تستطيعُ ذلك، فَصُمْ وأفْطِرْ، ونَمْ وقُمْ، وصُمْ من الشَّهر ثلاثة أيّام، فإنَّ الحسنةَ بعشْرِ أمثالها، وذلك مثل صيام الدَّهْر».

قلت: فإنّي أطيقُ أفضَلَ من ذلك.

قال: «صُمْ يوماً، وأفطر يومَيْن».

قلت: فإنّي أطيقُ أفْضَلَ من ذلك، يا رسولَ اللهِ».

قال: «صُمْ يوماً وأفطرْ يوماً، وذلك صيامُ داود عليه السَّلام وهو أعدلُ الصِّيَام».

قلتُ: فإنّي أطيقُ أفضلَ من ذلك.

قال رسولُ الله ﷺ: «لا أفضلُ منْ ذلك».

قال عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنهما: لأن أكونَ قبلتُ الثلاثة الأيّام التي قال رسولُ الله ﷺ، أحبّ إليَّ منْ أَهْلِي ومَالي»[1].

* قال مجاهدٌ رحمه الله: «كان عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنهما حين

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١١٥٩/ ١٨١)، وذكر مسلم أنَّ عبد الله بنَ عمرو عجز في آخر عمره عن مداومة الصّوم والقيام، ونَدِمَ على كونه لم يقبلِ الرخصةَ، وكان ﷺ قد نهاهُ لعلمه أنّه سيعجزُ عندما يطول عمره ويشيخ، وأنَّه لا يستطيع الدّوام على الصّوم.
قال الإمامُ الذّهبي رحمه الله: «وكلُّ مَنْ لم يَزُمَّ نفسه في تعبّدهِ وأورادهِ بالسُّنَّةِ النّبوية، يندمُ ويترهَّبُ ويسوءُ مزاجه، ويفوتُه خيرٌ كثيرٌ من متابعة سنّة نبيّه الرّؤوفِ الرحيم بالمؤمنين، الحريص على نفعهم، وما زالَ ﷺ معلماً للأمّة أفضلَ الأعمال، وآمراً بهجر التّبتُّل والرّهبانية التي لم يُبْعَث بها، فنهى عن سردِ الصَّوم، ونهى عن الوصال، وعن قيام أكثر الليل إلا في العشر الأخير، ونهى عن العُزبةِ للمستطيع، ونهى عن تركِ اللحم إلى غير ذلك من الأوامر والنّواهي. فالعابدُ بلا معرفةٍ لكثير من ذلك معذورٌ مأجورٌ، والعابدُ العالِمُ بالآثارِ المحمديةِ المتجاوز لها مفضول مغرور، وأحبُّ الأعمالِ إلى الله تعالىٰ أدومها وإن قلَّ. ألهمَنا اللهُ وإياكم حسن المتابعة، وجنّبنا الهوى والمخالفة». (سير أعلام النبلاء ٣/ ٨٥ و٨٦).

ضَعُفَ وكَبِرَ ، يصومُ الأيّام كذلك ، يَصِلُ بعضَها إلى بعضٍ ، ليتقوَّىٰ بذلك ، ثم يُفطر بعد تلك الأيام وكان يقرأ في كل حزبه كذلك، يزيدُ أحياناً ، وينقصُ أحياناً ، غير أنَّه يُوفي العدد ، إمّا في سبْعٍ ، وإما في ثلاث ، ثمّ كان يقولُ بعد ذلك ، لأن أكون قبلتُ رخصةَ رسولِ الله ﷺ أحبّ إليَّ مما عُدِلَ به أو عَدَلَ ، لكنّي فارقتُه على أمرٍ أكره أنْ أخالفَهُ إلى غيره»[1].

* ومن العجيب أنّه بلغَ من عبادةِ سيّدنا عبدِ اللهِ بنِ عمرو وزهدِه وورعهِ أَن انصرفَ عن امرأتِهِ لشَغَفِهِ بالعبادة والصَّلاة والمناجاة، ولكنَّ التَّوجيهَ النَّبويَّ التَّربويَّ كان يأخذُ بيده إلى الحقِّ وطريقه ، وإلى الطَّريقةِ الماتعة المنبثقة من تعاليم المُصطفى ﷺ الذي ما ينطقُ عن الهوى ، إنْ هو إلا وحي يُوحى.

* أخرجَ الإمامُ أحمدُ رحمه الله تعالى بسنده عن مجاهد ، عن عبدِ الله بنِ عمرو رضي الله عنهما قال: «زوّجني أبي امرأة من قريش ، فلما دخَلَتْ عليَّ؛ جعلتُ لا أنحاشُ[2] لها ممّا بي من القوةِ على العبادة ، من الصَّوم والصَّلاة ، فجاء عمرو بنُ العاص - أبي - إلى كِنَّتِهِ[3] ، حتّى دخل عليها ، فقال لها: كيفَ وجَدْتِ بَعْلَكِ؟ قالت: خيرُ الرِّجال ، أو كخير البعولة من رجُلٍ لم يُفَتِّشْ لنا كَنَفاً[4] ، ولم يعرفْ لنا فراشاً!

فأقبلَ عليَّ فَعَذَمني[5] ، وعضَّني بلسانه ، فقال: أنكحتك امرأةً من قريش ذات حَسَب فَعَضَلْتَها[6] ، وفعلتَ وفعلتَ!! ثمَّ انطلقَ إلى النَّبيّ ﷺ فشكاني ، فأرسلَ إليَّ النَّبيُّ ﷺ ، فأتيتُه ، فقال لي: «أتصومُ النَّهار»؟

---

(١) المسند للإمام أحمد (٢/ ٥٥٠).
(٢) «لا أنحاش»: يعني لم يجتمع بها لقلة اكتراثه بها ولم يقربها.
(٣) «كنّته»: الكنة: زوج الولد واسم امرأة عبد الله هذه: أم محمد بنت محمية بن جزء الزّبيدي حليف قريش.
(٤) «كنفاً»: الكنف: الجانب ، أرادت أنه لم يقربها ، ولم يطلع منها على ما جرت به عادة الرجال مع نسائهم.
(٥) «عذمني»: لامني.
(٦) «فعضلتها»: من العضل: المنع ، فكأنه منعها من التصرف كزوجة ولم يعاملها معاملة الأزواج.

قلت: نعم.

قال: «وتقومُ الليلَ»؟

قلت: نعم.

قال: «لكنّي أصومُ وأفطرُ، وأصلّي وأنامُ، وأَمَسُّ النِّساء، فَمَنْ رغبَ عن سُنَّتي فليس منّي»[1].

* قال مصعبُ الزُّبيري: «عبد الله بن عمرو، صحبَ رسولَ الله ﷺ وروىٰ عنه الحديث، وكان يصومُ الدَّهْر، ويقومُ الليل، فبلغَ ذلك رسول اللهِ ﷺ، فقال له: «صُمْ وأفطرْ، وصَلِّ ونم»[2].

* وقال موفقُ الدّين المقدسيّ: «كان ابن عمرو يسردُ الصَّومَ ولا ينامُ الليل، فشكاه أبوه إلى النّبي ﷺ..»[3].

---

(١) المسند للإمام أحمد (٢/٤٤٩ و٥٥٠) حديث رقم (٦٤٨٧).
ومعنى قوله: «فمَنْ رغبَ عن سنّتي»: المرادُ بالسُّنَّةِ الطّريقة لا التي تقابل الفرض، والرغبة عن الشّيء: الإعراض عنه إلى غيره، والمرادُ: مَنْ ترك طريقتي وأخذَ بطريقةِ غيري فليس منّي، ولمح بذلك إلى طريقِ الرّهبانية، فإنّهم الذين ابتدعوا التّشديد كما وصفهم الله تعالى وقد عابهم بأنهم ما وفّوه بما التزموه، وطريقة النّبي ﷺ الحنيفية السَّمْحة، فيفطرُ ليتقوّى على الصّومِ، وينامُ ليتقوّى على العبادة، ويتزوّجُ لِكَسْرِ الشّهوة وإعفاف النَّفس، وتكثير النسل.
ومعنى قوله: «فليس منّي»: أي على طريقتي، ولا يلزم أنْ يخرجَ عن الملّة، وإنْ كان إعراضاً وتنطعاً يفضي إلى اعتقاد أرجحيّة عمله فمعنى فليس منّي: ليس علىٰ ملتي، لأنَّ اعتقادَ ذلك نوعٌ من الكفرِ.
وفي هذا الحديث فوائد كثيرة منها:
١ ـ تتبّع أحوال الأكابر للتّأسّي بأفعالهم.
٢ ـ إذا تعذّرت معرفةُ شيء من الرّجال جاز استكشافه من النّساء.
٣ ـ مَنْ عزمَ على عملٍ بر وعبادةٍ، واحتاجَ إلى إظهاره بحيث يأمنُ الرّياء لم يكن ذلك ممنوعاً. والله أعلم (فتح الباري ٩/٧ و٨) بتصرف.

(٢) نسب قريش (ص ٤١١).

(٣) التَّبيين في أنساب القُرشيين (ص ٤١٥) للمقدسي ـ حققه محمد نايف الديلمي ـ العراق ـ ط١ ـ ١٩٨٢م.

الكَـيِّـسُ الـفَطِـنُ:

* امتزجَ الإيمانُ بروحِ سيدنا عبدِ الله بنِ عَمْروٍ وجسمِهِ وحواسّهِ، فلمْ يلْهِهِ رسْمٌ أو بَنَانٌ مخضَّبٌ أو مالٌ أو ذَهَبٌ مع العِلْم أنَّ الذَّهبيَّ قال عنه: «ورثَ عبدُ الله منْ أبيهِ قناطيرَ مقنطرة من الذَّهبَ المصريّ، فكان من مُلوكِ الصَّحابة»[1].

* كان سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرو ذا قلبٍ صَافٍ وفكْرٍ وافٍ وهو لا يزالُ في ريعان الشَّبابِ، وكان قدوةً طيّبةً لشَباب الإسلام[2] الذين ينشدونَ محاسنَ الفضائلِ وكريم الشّمائل ولطيفَ الخصائل.

* وشخصيّةُ عبدِ الله بنِ عمرو رضي الله عنه من الشَّخصيات الكريمة من رجالات الإسلام، وعلماء الصَّدر الأوَّل، وتلاميذ مدرسة النّبوة النّجباء، هذه الشّخصيَّةُ الفذَّةُ تمثِّلُ اتّصال الثَّقافةِ الأجنبية ـ آنذاك ـ بالثَّقافة الإسلاميةِ المتألّقةِ المتنوعة.

* ولعلَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أراد بالعربِ خيراً، وبقريش خاصّة، فهيّأ هؤلاء الرّجال ليقوموا بأعباء الإسلام على هدىً وبصيرةٍ وثقافةٍ وحَصَافة، وكان سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرو واحداً ممن تعلَّم القراءةَ والكتابةَ عصر ذاك، ثم تجاوزَ ذلك إلى تعلّم لغاتِ الأممِ المجاورة، أو الذين يفدون إلى مكّةَ ويختلطون بالنَّاس، وهذا ما جعله ذا استعدادٍ فكريّ صالحٍ للحياة التي أنشأَهَا الإسلامُ، فسبَقَ أباه إلى الإسلام وهو في استواء رجولته واكتمالِ عَقْله، وكان قُبيل إسلامه ممن عنُوا ببعضِ المعَارفِ والعُلوم الفكريّة، وكتبوا وقرؤوا وتعلّموا لغاتٍ وافدة كانت تعيشُ معهم في الجزيرةِ العربيةِ، لأنَّ ابنَ قتيبة يذكرُ بأنَّ عبدَ الله بنَ عمرو «كان يقرأ بالسِّريانية»[3]، وكان

---

(١) سير أعلام النّبلاء (٣/ ٩٠).
(٢) اقرأ كتابنا «الشّباب مشكلات وحلول» طبعة دار اليمامة؛ ففيه فوائد جليلة في هذا المضمار القيّم.
(٣) المعارف (ص ٢٨٧).

كذلك يقرأ التّوراة، مُدْرِكاً ما فيها؛ وعارفاً خَوافيها، ويؤيد ما نقولُ ما أخرجه الإمامُ البخاري بسنده عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبدَ الله بنَ عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت: أخبرني عن صفَةِ رسولِ الله ﷺ في التَّوراة.

قال: «أجَلْ، واللهِ إنَّهُ لموصوفٌ في التَّوراة ببعضِ صِفَته في القرآن: يا أيّها النَّبيُّ إنَّا أرسلنَاكَ شَاهِداً ومبشّراً ونذيراً وحِرْزاً للأمّيين، أنتَ عَبْدي ورسُولي، سّميتكَ المتوكّلَ، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ولا سَخَّابٍ في الأَسْواق، ولا يدفعُ بالسَّيِّئة السيِّئة، ولكنْ يعفو ويغفرُ، ولن يقيضَه اللهُ حتّى يُقيمَ به الملّةَ العوجاءَ بأنْ يقولُوا: لا إلهَ إلاّ اللهَ، ويفتتح بها أعينٌ عميٌ، وآذانٌ صُمٌّ وقلوبٌ غُلْفٌ[1]».

* كانت لهذة المعرفة أكبر الأثرِ وأعظمه في توجيهِ حياة عبد الله بن عمرو، إذ انصرفَ إلى حياة العِلْم، ووجّه نفسه إليها دون غيرها من جوانب الحياة الإسلامية المتكاثرة، فكتب عن النّبي ﷺ، وحفظَ عنه كثيراً كثيراً.

* وقد جعلَ اللهُ عزَّ وجلَّ قرّةَ عينِ عبدِ اللهِ بنِ عمرو في العلْمِ والعبادةِ، فكان من علماءِ العَبادلةِ ومن أعْلَمِ أصحابِ النَّبيّ ﷺ بحديثهِ وسُنَّتهِ وأقضيته، وكان عنده منها ما ليس عند غيره من علماء الصَّحابة، فقد حفظ عن الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ أَلْفَ مثَل[2]، وشهد له بكثرةِ الحديثِ سيّدنا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢١٢٥)، ومعنى «شاهداً ومبشّراً»: أي شاهداً على الأمة ومبشّراً للمطيعين بالجنة وللعصاة بالنّار، أو شاهداً للرُّسل قبله بالإبلاغ. و«حرزاً»: حصناً. و«الأميين»: هم العرب. و«سمّيتك المتوكّل»: أي على اللهِ لقناعته باليسير، والصَّبر على ما كان يكره. و«بفظ ولا غليظ»: هو موافقٌ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] و«سخّاب»: صخّاب. و«لن يقبضه»: أي يميته. و«حتى يقيم به»: أي حتى ينفي الشّرك ويثبت التوحيد. و«الملّة العوجا»: ملّة الكفر. و«يُفْتح بها»: أي بكلمة التّوحيد. و«أعين عمي»: أي: عميت عن الحقّ وللمزيد من التوسع انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢٩٧ ـ ٣٠١).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٨٧).

أبو هريرة[1] ، مع العِلْم بأنَّ أبا هريرة قال له عبد الله بن عمر بن الخطاب: «أنتَ أعلمنا يا أبا هريرة برسولِ الله ﷺ وأحفظنا لحديثه».

* وكان سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرو كذلك أحدَ العَبادلةِ الكرام وعلماء الصَّحابة العِظَام الذين قامَتْ عليهم النَّهضةُ الفكرية في الأقطارِ الإسلاميةِ التي يحلُّون فيها فاتحين أو معلّمين.

* ونحنُ نعلمُ من خلالِ حياة الصَّحابة أنَّ سيّدنا عبدَ الله رَحَلَ في كَنفِ أبيه إلى مصرَ حينما جَعَلَه سيّدنا معاويةُ أميراً عليها ، وهناك أقامَ عبدُ الله بها ينْشُرُ علْمَهُ بين محبّيه من علماءِ مصرَ ومن تلاميذه الذين دوّنوا هذا العلْم وحفظوه ونَشَروه بين النَّاس في جميعِ الأمصار.

* وتذكرُ المَصادرُ أنَّ سيّدنا عبد الله بنَ عمرو كان ملازماً لأبيه سيدنا عمرو في ولايته على مصرَ ، فكان ذا شمائلَ يفوحُ النَّدىٰ من أكمامها ، فهو يُعتبرُ مؤسّسُ مدرسة الفِقْه ، والعلوم الإسلاميّة ، وصاحبُ الفُتيا فيها ، والمرجعُ لكلّ من أرادَ أنْ يستفسرَ عن أمرٍ من الأمورِ الشَّرعيّة ، ولما حضرَ سيّدنا عمرو بن العاص الموت قام عبدُ الله بأمره ، وأوصى عمرو إليه.

* أوردَ ابنُ عبد البرّ رحمه الله في «الاستيعاب» عن عبد الرحمن بنِ شماسة[2] قال: «لما حضرت عمرو بنَ العاص الوفاةُ ، بكى؛ فقال له ابنه عبد الله: لِمَ تبكي؟ أجزعاً من الموت؟! قال: لا والله؛ ولكنْ لما بَعْدَهُ.

فقال له: قد كنتَ على خَيرٍ ، فجعل يذكّره صحبةَ رسولِ الله ﷺ ، وفتوحه الشّام...

فقال له عمرو: تركْت أفضل من ذلك ، شهادة أنْ لا إله إلا الله؛ إنّي كنتُ على ثلاث أطباق ، ليس منها طبق إلا عرفت نفسي فيه:

---

(١) اقرأ سيرة سيدنا أبي هريرة في هذه الموسوعة المباركة ، فسيرته خير في خير في خير.

(٢) عبد الرحمن بن شِمَاسة المَهْري ، المِصْري ، ثقة ، ممّن روى عن سيدنا عبد الله بن عمرو ، مات سنة (١٠١هـ) أو بعدها (تقريب التهذيب ١/ ٤٨٤) تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ.

كنتُ أوّلَ شيءٍ كافراً ، فكنتُ أشدَّ النَّاس على رسولِ الله ﷺ ، فلو متُّ يومئذٍ وجَبَتْ لي النَّار ، فلمّا بايعتُ رسولَ الله ﷺ كنتُ أشدَّ النَّاس حياءً منه ، فما ملأتُ عيني من رسولِ اللهِ ﷺ حياء منه ، فلو متُّ يومئذٍ قال النَّاسُ: هنيئاً لعمروٍ أسلَمَ ، وكان على خيرٍ ، وماتَ على خيرِ أحوالهِ ، فتُرجى له الجنَّة؛ ثم بُليتُ بعد ذلك بالسُّلطان ، وأشياء ، فلا أدري أعليَّ أم لي؟ فإذا متُّ فلا تبكينَّ عليَّ باكية ، ولا يتبعني مادحٌ ولا نار ، وشدّوا عليَّ إزاري فإنّي مخاصمٌ ، وشنّوا عليَّ التُّراب شنّاً ، فإنَّ جنبي الأيمن ليس بأحقّ بالتّراب من جنبي الأيسر ، ولا تجعلنَّ في قبري خشبة ولا حجراً ، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قَدْرَ نَحْرِ جزورٍ وتقطيعها بينكم أستأنسُ بكم»[1] .

* كان عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنهما واسعَ العلْم ، مجتهداً في العبادةِ، ذا شمائل متفردةٍ في الفَضْل عاقلاً ، برّاً بأبيه أشدّ البرّ ، وكان يلومُ أباه على القيام مع سيّدنا معاويةَ بأدبٍ وتؤدةٍ وتبصُّرٍ وسكينةٍ ، لأنَّ أباه عَمْراً شَكَاهُ إلى رسولِ الله ﷺ ، فقال له الحبيبُ الأعظمُ ﷺ: «أطِعْ أباكَ ما دامَ حيّاً، ولا تعْصِه»[2] ، فكان عبدُ الله مُطيعاً لأبيه ، ولكنَّه شهدَ معه صفين ولم يقاتلْ، بل أقسمَ عبدُ الله فقال: «مالي ولصفّين؟ مالي ولقتالِ المسلمين؟. . . أمَا واللهِ على ذلك ما ضربتُ بسيف ، ولا رميتُ بِسَهم. . . . »[3] .

* ويؤيّدُ ما ذكره ابن عمرو رضي الله عنه ما وردَ من اعتذاره من سيدنا الحُسينِ بنِ عليٍّ رضوان الله عليهما فيما ذكرتْهُ المصادرُ المتنوعةُ بسندها إلى رجاء بن ربيعة قال: «كنتُ في مسجدِ رسولِ الله ﷺ ، في حلَقَةٍ فيها أبو سعيد الخُدري ، وعبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنهم ، فمرَّ الحُسينُ بنُ

---

(١) الاستيعاب (٣/ ٥٠٧) بهامش الإصابة ، وولاة مصر (ص ٥٦) ، وحياة الصحابة (٣/ ٥٤ و٥٥).

(٢) قطعة من حديث في المسند (٢/ ٥٦٤) برقم (٦٥٤٩) وانظر: مختصر تاريخ دمشق (١٣/ ٢٠١) وفيه: «ولا تعصه ما دام حياً»؛ وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٢٥٣).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٩٢) باختصار يسير وتصرف ، وانظر: أسد الغابة (٣/ ٢٤٦).

عليّ رضي الله عنهما ، فَسَلَّمَ ، فردَّ القوم السَّلامَ ، فسكتَ عبدُ الله بنُ عمرو حتّى فرغُوا ، ثمّ رفعَ صوته وقال: وعليكَ السَّلامُ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه. ثمَّ أقبلَ على القوم فقال: ألا أخبركم بأحبِّ أهلِ الأرض إلىٰ أهل السَّماء؟

قالوا: بلى.

قال: هو هذا الماشي ، واللهِ ما كلّمني كلمة منذ ليالي صفّين ، ولأنْ يرضى عنّي أحبُّ إليَّ من أنْ يكون لي حُمْرُ النَّعَم ، أو يكون لي مثل جَبَل أُحُدٍ ذهباً.

فقال أبو سعيد الخُدريّ: ألا تعتذر إليه؟

قال: بلى.

قال رجاءُ بنُ ربيعةَ: فتواعدا أنْ يَغْدُوا إليه ، فغدوتُ معهما ، فاستأذن أبو سعيد ، فأذن له ، فدخَلَ ، ثمَّ استأذن لعبد الله ، فلم يزلْ به حتّى أذن له الحُسَين ، فلمّا دخَلَ قال أبو سعيد: يا بنَ رسولِ الله ، إنَّكَ لمَّا مررْتَ بنا أَمْسِ. . فأخبره بالذي كان من قولِ عبد الله بن عمرو. . .

فقال الحسين: أعلمتَ يا عبدَ الله أنّي أحبُّ أهلِ الأرض إلى أهل السَّماء؟!

قال عبدُالله: إي وربِّ الكعبة إنّكَ لأحبّ أهلِ الأرض إلى أهل السَّماء!

قال: فما حملكَ على أنْ قاتلتني وأبي يومَ صفّين؟

فو الله لأبي كان خيراً منّي.

قال: أجَلْ ، ولكنْ عمرو شكاني إلى رسولِ الله ﷺ ، فقال له: يا رسولَ الله ، إنَّ عبد الله يقومُ الليلَ ويصومُ النَّهار.

فقال لي رسول الله ﷺ: «يا عبدَ الله ، صَلِّ ونَمْ ، وصُمْ وأفطرْ ، وأطعْ عَمْراً» فلما كان يوم صفّين أقسمَ عليَّ فخرجْتُ ، أما واللهِ ما كثّرتُ لهم سَواداً ، وما اخترطتُ سيفاً ، ولا طعنْتُ برمح ، ولا رميتُ بِسَهْم.

قال الحسينُ: فكأنّه ـ أي كأنّه حدثَ منك ذلك كلّه بخروجك إلى صفّين ـ.

قال رجاء بن ربيعة: كأنَّه قبل منهُ رضي الله عنهما[1]».

إرشاداتُهُ ونَصَائحُهُ:

* لا ريبَ في أنَّ الأسلوبَ هو الذي يرسم صفات الرَّجُل ويحدّد شيئاً من شخصيته، وأنَّ الكلماتِ المحفوظةَ عن شَخْصٍ ما، لها دلالتُها التي لا شكَّ فيها، فهي تمثّلُ طبيعةَ أعمالهِ وسلوكه منذ وُلدَ إلى أنْ يموتَ.

* إنَّ جمالَ شخصٍ ما، لا يُعرف من عينيهِ أو شَعْره، أو أي جزءٍ من جسْمِهِ، وإنّما يُعرفُ جمالُه بالتقاط صورة عامةٍ لملامحِهِ، وعلى ضوءِ هذه الصُّورة الشّاملة نحكمُ عليه، وقسْ على ذلك الحِكَم والمأثورات التي تصدرُ عن شخص ما، فإنّنا نرىٰ من خلالها شخصيته وصورتَه، ونعرفُ سلوكَه واتّباعه المنهجَ الصَّحيحَ.

* فَلعبدِ اللهِ بن عمرو رضوان الله عليه كلماتٌ تفوحُ منها الحكمةُ وفصلُ الخطاب، وتنبىءُ عن حكمته المستمدةِ من الهدي النّبويّ، ومن معاشرته لكبار الصَّحابةِ الأعلام واستفادته من تجاربهم وآرائهم.

* ذكرنا في ثنايا سيرته أنَّه ورثَ مالاً جمّاً عن أبيه، ولكنّه كان يؤدّي حقَّه المعلوم، ويتصدَّق، ويعطي ويبرّ من حوله، ولذلك كان يقولُ ناصحاً ومعلّماً: «لأنْ أكونَ عاشر عشرةِ مساكين يومَ القيامةِ، أحبُّ إليَّ منْ أكونَ عاشر عشرة أغنياء، فإنَّ الأكثرين هم الأقلّون يوم القيامة، إلاّ مَنْ قال هكذا

---

(١) انظر: أسد الغابة (٣/ ٢٤٧) ترجمة رقم (٣٠٩٠)، ومجمع الزوائد (٩/ ١٨٦ و١٨٧) مع الجمع والتصرف اليسير. وانظر: حياة الصحابة (٢/ ٤٣٤)، ومصادر أخرى.
ولله درّ مَنْ قال في معنى قصّة سيّدنا الحسين وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم:

لم آتِ ذنباً فإنْ زعمتَ بأنْ ... أتيتُ ذنباً فغير مُعْتَمِدِ
قد تطرفُ الكفُّ عينَ صاحِبها ... فلا يَرَى قطعَها منَ الرَّشَدِ

وهكذا ، يقولُ: يتصدّق يميناً وشمالاً»[1].

* وفي حسناتِ الدِّين وقوته وصحّته ينصحُ أبناءَهُ وأتباعه وتلامذته فيقول: «إنَّ هذا الدِّين متينٌ ، فأوغلُوا فيه برفق ، ولا تبغّضوا إلى أنفسكم عبادة اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنَّ المُنْبَتَّ لا بلغَ بعداً ، ولا أبقى ظَهْراً؛ واعملْ عَمَلَ امرىء يظنُّ ألا يموتَ إلا هَرِماً، واحذر حذرَ امرىء يحسبُ أنَّه يموتُ غداً»[2].

* وكان عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنه يرى محاسنَ الإسلام ويدركُها إدراكَ العالمين العارفين ، لذلك كان يقول: «لأنْ أعمل اليوم عملاً أقرُّ عليه، أحبُّ إليَّ مِنْ ضعفه فيما مضى؛ لأنَّا حين أسلمنا وقعنا في عملِ الآخرة ، فأمّا اليوم فقد خلبتنا الدنيا»[3] وفي رواية أخرى قال: «كُنّا مع رسولِ الله ﷺ يهمّنا الآخرة ولا تهمنا الدنيا ، وأنّا اليوم قد مالت بنا الدنيا»[4].

* وعُرِفَ عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنّه كان متبحّراً في المعارفِ ، وأخبارِ النّاس ، وأحوالهم ، قال عنه ابنُ الأثير في «أُسدِ الغَابة»: «كان عالماً فاضِلاً ، قَرَأ القرآنَ ، والكُتُبَ المتقدّمة. . . »[5].

* وقال ابنُ عبد البر: «كان فاضلاً حافظاً عالماً قرأَ الكتَاب. . . »[6].

* وهذا التَّبحُّر في أفانين المعارف ولغات الأقوام الأخرى جعلَهُ ذا تجربةٍ وفَهْمٍ لأحوالِ النَّاس وما ينفعهم وما يضرهم.

* روى أبو نُعيم في «حِلْيته» عن حُسَين بن شُفَي ، قال: «كُنَّا جُلُوساً عند

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٨٨)، ومختصر تاريخ دمشق (١٣/ ١٩٩)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٩٠).
(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٣/ ١٩٩).
(٣) المصدر السابق عينه ، وانظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٨٢) بمعنى قريب.
(٤) حلية الأولياء (١/ ٢٨٧).
(٥) أسد الغابة لابن الأثير (٣/ ٢٤٥) ترجمة رقم (٣٠٩٠).
(٦) الاستيعاب بهامش الإصابة (٣/ ٣٣٩).

عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه ، فأقبل تُبَيع[1] ، فقال عبدُ الله : أتاكم أعرفُ مَنْ عليها .

فلمّا جَلَس قال له عبدُ الله : أخبرنا عن الخيرات الثَّلاث، والشَّرَّات الثَّلاث .

قال نعم! الخيراتُ الثَّلاث : اللسانُ الصَّدوق ، وقلبٌ تقي ، وامرأةٌ صالحة .

والشَّرَّات الثَّلاث : لسانٌ كذوب ، وقلبٌ فاجر ، وامرأةٌ سوء .

فقال عبدُ الله : قد قلت لكم»[2] .

* وبهذا نعلمُ كيف كان عبدُ الله بن عمرو رضي الله عنهما يستثيرُ ما عند الفضلاء من معارفَ وتجاربَ وحكمٍ ، وهذا لَعمرُ الحقّ هو عَينُ الحكمةِ والصَّوابِ .

* ومن أزاهر كلمات سيّدنا عبدِ الله بنِ عمرو وخمائلِ حكمه الممزوجةِ برحيق الإرشاد نقله الحكمة والمعرفة للنَّاس ، فقد جاء في «الحِلْيَةِ» عن حُميد بنِ هلال عن عبد الله بنِ عمرو بن العاص قال : كان يُقال : «دعْ ما لسْتَ

---

(١) أقولُ: لعلَّ تُبيعاً هذا هو: تُبيع بنُ عامر الحِمْيري ابنُ امرأة كعب الأحبار.
قال الذّهبي: «قرأ الكتب ، وأسلمَ في أيام أبي بكرٍ أو عمر ، وروى عن كعبٍ فأكثر ، وعن أبي الدرداء ، وعرض القرآن على مجاهد ، وكان رفيقُه في الغزو ، روى عنه مجاهدُ ، وعطاء بن أبي رباح وحكيمُ بنُ عمير وآخرون. قال عنه عبد الغني المصري: هو تُبيع صاحبُ الملاحم. وقال ابنُ عساكر: «قرأَ القرآنَ بأرواد جزيرة قريبة من قُسطنطينية ، ونهى عَمْراً الأشدق عن خروجه على عبد الملك» وتوفي تُبيع سنة (١٠١هـ) بالإسكندريّة ، وخرّجَ له النّسائي. وكانت له أقوال وحكم منها قوله: «إذا فاضَ الظُّلم فيضاً ، وكان الولدُ لوالده غيظاً ، والشّتاء قيظاً ، والحكم حيفاً ، والشّرطة سيفاً ، أتاكم الدَّجَّال يزيفُ ـ يسرعُ ـ زيفاً».
(مختصر تاريخ دمشق ٥/٣٠١ ـ ٣٠٣) ، و«سير أعلام النبلاء ٤/٤١٣ و٤١٤) مع الجمع والتصرف.
(٢) حلية الأولياء (١/٢٨٧ و٢٨٨).

منه في شيء، ولا تنطقْ فيما لا يعنيك ، واخزُنْ لسانَك كما تخزن ورقك»[1].

* وجاء أيضاً من معرفةِ حِكَمِ الأقوام والكتب الأخرى وإرشاداتها ، أنَّ سيّدنا عبدَالله بنَ عمرو كان يعلّمُ أصحابَه ما يتوافقُ مع الهدي الصّحيح من الإسلام ، وينقلُ ما جاء في التَّوراة على شَكْل نصائحَ وكلماتٍ مأثورة؛ ومنها قوله: «مكتوب في التَّوراة: مَنْ تَجَر فَجَر ، وَمَنْ حفَر حُفْرة سوء لصاحبه وقع فيها»[2]. وقال: «إنّه في النَّاموس الذي أنزلَ اللهُ تعالى على موسى عليه السَّلام: إنَّ اللهَ تعالى يبغضُ من خلْقهِ ثلاثة: الذي يفرّق بين المتحابين ، والذي يمشي بالنّمائم ، والذي يلتمسُ البريء لِيُعَنّته»[3].

* ومن أجملِ كلماتِ سيّدنا عبد الله بن عمرو السَّائرات قوله: «ما أُعطي إنسان شيئاً خيراً من صحّةٍ ، وعفّةٍ ، وأمانةٍ ، وفقْه»[4].

* ولنستمع إلى هذا الحوار المُفيد بين عبدِ الله وأبيه عمرو إذ فيه ما فيه من خيرٍ ومن حِكَم.

* قال عمرو بنُ العاص لابنه عبد الله رضي الله عنهما: «يا بنيّ ، ما الشّرف؟

قال: كَفُّ الأذى ، وبذلُ النّدى.

قال: فما المروءةُ؟

قال: عرفانُ الحقّ ، وتعاهدُ الصَّنعة.

قال: فما المجدُ؟

قال: احتمالُ المغارمِ ، وابتناءُ المَكارمِ.

قال: فما الغيّ؟

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٨٨) ، ومختصر تاريخ دمشق (١٣/ ٢٠٠).
(٢) حلية الأولياء (١/ ٢٨٨).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) مختصر تاريخ دمشق (١٣/ ٢٠٠). وهذه الأشياء هي قوام الحياة ونعيمها.

قال: طاعةُ المفسدِ، وعصيانُ المُرشدِ.

قال: فما البَلَهُ؟

قال: عمىٰ القَلْبِ، وسرعةُ النِّسيانِ»[1].

* وكان يقولُ في الأمرِ بالمعروف: «لبَطْنُ الأرضِ خيرٌ لمن عليها لمن لم يأمرْ بالمعروفِ ولم يَنْهَ عن المنكر»[2].

* ولعبدِ الله بنِ عمرو شعرٌ جميل[3] وفصاحةٌ وبلاغةٌ تدلُّ على تمكُّنِهِ من ناصيةِ الكلام، ومنه ما قاله عمرو بنُ صفوان: «كان لعبدِ الله بنِ عمرو ابن له سبع سنين مثل الدّينار، فلدغَتْه حيَّةٌ، فمَاتَ، فقال:

فَلولا الموتُ لمْ يهلكْ كَرِيمٌ ... ولمْ يُصبحْ أخو عزٍّ ذَلِيْلا

ولكنَّ المنيّةَ لا تُبالي ... أغرّاً كانَ أمْ رجُلاً جليلا

لقد أهلكتِ حيّةَ بطْنِ وادٍ ... كَريماً ما أُريدُ بهِ بَديلا

مُقيماً ما أقامَ جِبَالُ لبسٍ ... فليسَ بزائلٍ حتى يزولا[4]

مسْنَدُهُ وصحيفَتُهُ الحَديثيَّةُ:

* أسلمَ سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرو قبلَ أبيه، وكان كاتباً قارئاً حافظاً ذكيّاً كثيرَ العِلْم، مجتهداً في العبادةِ، تلاّءً للقُرآنِ الكريم، وكان أكثر النَّاس أخذاً للحديث والعلْم عن النَّبيِّ ﷺ، وقد حملَ عنه علْماً جمّاً، وكتبَ عنه كثيراً، وكان له صحيفةٌ تسمّى «الصَّحيفة الصَّادقة».

* فعن مجاهد رحمه الله قال: «دخلتُ على عبدِ اللهِ بنِ عمرو، فتناولتُ صيحفةً تحت رأسِهِ، فتمنَّع عليَّ.

فقلتُ: تمنعني شيئاً منْ كُتُبِكَ؟

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٣/ ٢٠٠).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٣/ ٢٠٥).

(٣) انظر مثلاً: مختصر تاريخ دمشق (١٣/ ٢٠٢ و٢٠٣).

(٤) المصدر السابق (١٣/ ٢٠٥ و٢٠٦).

فقال: إنَّ هذه الصَّحيفةَ الصَّادقةَ التي سمعتُها من رسولِ اللهِ ﷺ ليس بيني وبينَه أحدٌ، فإذا سلمَ لي كتابُ الله، وهذه الصَّحيفةُ، والوَهْطُ، لم أبالِ ما ضَيَّعْتُ الدُّنيا»[1].

* ومن المؤكّدِ أنَّ بعضَ صحابةِ رسولِ الله ﷺ كتبوا بعضَ أحاديثه أثناء حياته بإذنٍ منه ﷺ، وهناك عددٌ من الصُّحُفِ التي كُتِبَتْ في زمنِهِ ﷺ، وهي مشهورةٌ ومنها:

١ ـ صحيفةُ سعدِ بنِ عبادةَ الأنصاري.

٢ ـ صحيفةُ سَمُرَةَ بنِ جُندب الفَزاريّ.

٣ ـ صحيفةُ جابرِ بنِ عبد الله الأنصاريّ.

٤ ـ صحيفةُ عبدِ الله بنِ عمرو بن العاص القرشيّ.

* وقد اشتملتْ هذه الصَّحيفةُ على ألفِ حديث، وقد وصلَ إلينا مضمونُها في مسندِ الإمامِ أحمد، حيثُ إنَّه أدرجَها ضِمْنَ مسنده، وهي أصدقُ وثيقةٍ تاريخيّةٍ تُثْبِتُ تدوينَ الحديث في زَمَنِ النَّبيّ ﷺ، لا سيما أنَّها كانت نتيجة فتوىٰ أفتى بها النَّبيّ ﷺ، وذلك عند اعتراض قريش على عبدِ اللهِ بنِ عمرو رضي الله عنه.

* وقد شهدَ بصحّةِ هذه الصَّحيفة وحقِّها الصَّحابيُ العالمُ العَيْلَمُ الحافظُ وسيِّدُ الحفّاظ الأثبات سيّدنا أبو هُريرة رضي الله عنه، ورآها التَّابعيُ الجليلُ مجاهدُ بنُ جَبْر رحمه الله.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٨٩)، وأسد الغابة (٣/ ٢٤٦). و«الوهْطُ»: أرض كانتْ له يزرعها، وذكروا أنَّ الوهطَ بستانٌ عظيمٌ كان لعبدِ اللهِ في الطَّائف، وقد غَرِمَ مرّةً على عروشه ألف ألف درهم.
وذكر ابنُ قيم الجوزية أنّه «صحَّ عن عبدِ الله بنِ عمرو أنّه كان يكتبُ حديثَه، وكان ممّا كتبه صحيفة تسمّى الصَّادقة، وهي التي رواها حفيدهُ عمرُو بنُ شعيب عن أبيه عنه، وهي منْ أصحّ الأحاديث، وكان بعضُ أئمة أهل الحديث يجعلُها في درجةِ أيوب عن نافع عن ابن عمر، والأئمة الأربعة وغيرهم احتجوا بها» (زاد المعاد ٣/ ٤٥٨).

* ونجدُ سيّدَ العبادلةِ المفسّرين عَبد الله بنَ عبَّاس رضوان الله عليه يشهدُ لِسَمِيِّهِ ابنِ عمرو بالعِلْمِ فيقول: «إنْ عنده لَعِلْماً ، ولقد كان يسألُ رسولَ اللهِ ﷺ عن الحلالِ والحرام»[1]؛ كما أنَّ أمَّنا أمَّ المؤمنين عائشةَ الصِّديقةَ بنتَ الصِّدِّيق رضي الله عنهما تشهدُ لسيّدنا عبدِ اللهِ بنِ عمرو بالحفْظِ عن الحبيبِ المُصْطَفى ﷺ؛ فتقول لابن أختها الفقيهِ عروةَ بنِ الزُّبير: «يا بْنَ أخت ، إنّي أُخْبِرتُ أنَّ عبدَ الله بنَ عمرو حاجّ في عامِهِ هذا ، فَالْقَهُ؛ فإنَّه قد حفظَ عن رسولِ الله ﷺ أحاديث كثيرة».

* والحقيقةُ فقد كان سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرو كما أثنى عليه هؤلاء الأعلام الكبار ، وقبلهم شهدَ له الحبيبُ الأعظمُ ﷺ باتّباع السُّنَّة ، وكان عبدُ الله إذ ذاك لا يزالُ شاباً في ريعانِ الشباب. فعن أبي أمامةَ رضي الله عنه قال: مرَّ ابنُ العاص على رسولِ اللهِ ﷺ ، وهو مُسْبِلٌ إزارَهُ ، ومسبل جمَّتَه ، فقال: «نِعْمَ الفتى ابنُ العاص لو شمَّرَ من مئزره ، وقصَّرَ من لِمَّتِهِ» ، قال: فحلقَ رأسه ، وقصَّرَ ، ورفعَ إزارَهُ إلى الرّكبة»[2].

* وأخرجَ الإمامُ أحمد بسنده عن عقبةَ بنِ عامر رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «نِعْمَ أهلُ البيت أبو عبد الله، وأمّ عبد الله، وعبد الله»[3].

* وعبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنه ممن شهدَ له العبقريُ الذّكيُّ سيدنا عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه بالعلْمِ والحفْظِ ، فعن سليمانَ بنِ الرَّبيع العدويّ قال: «لقينا عمر ، فقُلْنا: إنَّ عبد الله بن عمرو حدثنا بكذا وكذا؛ فقال عمرُ رضي الله عنه: عبدُ الله بنُ عمرو أعلمُ بما يقول؛ قالها ثلاثاً؛ ثمّ نُوديَ بالصَّلاة جامعة ، فاجتمعَ النَّاسُ إليه ، فخطبَهم عمر فقال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «لا تزالُ طائفةٌ من أمّتي على الحقّ حتّى يأتي أمرُ الله»[4].

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٣/ ١٩٨).
(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٣/ ١٩٥) ، ومعنى «جمّته»: اللمة: مجتمع شعر الرأس. و«اللمّة»: الشعر المجاوز شحمة الأذن ، والحديث في كنزل العمال برقم (٤١٩٠٤).
(٣) مسند الإمام أحمد (٦/ ١٣٢) برقم (١٧٣٦٥) طبعة دار الفكر الأولى ١٩٩١م.
(٤) مختصر تاريخ دمشق (١٣/ ١٩٧).

* وعلى الرّغمِ من كُلِّ ما قرأناه عن حفظِ عبدِ الله وروايته للحديث النّبويّ الشَّريف ، فقد رُوي لَهُ عن النّبيِّ ﷺ (٧٠٠ حديث) ، اتَّفقَ البخاري ومسلم على سَبعةِ أحاديث ، وانفردَ البخاري بثمانية ، ومسلم بعشرين[١].

* وقد روى سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرو أيضاً عن أسيادنا أبي بكْرٍ ، وعمَر ، ومعاذ، وأبيه عمرو ، وأبي الدَّرداء ، وعبد الرّحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين ، وطائفة؛ وعن أهلِ الكتاب ، وأدمنَ النَّظَرَ في كتبهم ، واعتنىٰ بذلك.

* وحدَّثَ عنه طائفةٌ من الصَّحابة والتَّابعين ومنهم: أنسُ بنُ مالك ، وأبو أمامة بنُ سَهْلٍ ، وابنه محمّد ، وحفيده شُعيب بن محمّد ، وسعيدُ بنُ المسيب ، وعروةُ بنُ الزُّبير ، ومجاهدُ ، وعِكْرِمةُ ، وعطاءُ ، وطاووسُ ، والشَّعبيُّ ، وعبد الرّحمن بن شماسة ، وخلقٌ لا يُحْصَون[٢].

* ومرويّاتُ سيّدنا عبدِ اللهِ بن عمرو مذكورةٌ في الصَّحيحين وكتب السّنّة والمسانيد وغيرها من كتب الحديث[٣] ، وقد مرَّتْ معنا أحاديثُ كثيرةٌ من مرويّاته في مختلف النَّواحي، وخصوصاً فيما يتعلَّقُ بالعباداتِ والعلْمِ والفِقْهِ.

* وممَّا أخرجَهُ الشَّيخان لعبدِ اللهِ في المُسْلمِ الحقِّ قولُه ﷺ: «المسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسلمون من لسانِهِ ويده ، والمهاجرُ مَنْ هَجَر ما نَهىٰ اللهُ عنه»[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٨٠)، وفي بعض المصادر: «اتفق الشيخان على سبعة عشر حديثاً».

(٢) المصدر السابق (٣/ ٨١ ـ ٨٣) ، والإصابة (٣/ ٣٤٣) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٨٢).

(٣) قال الإمام النووي: «وإنما قلَّتِ الرواية عن عبد الله بن عمرو مع كثرة ما حمل لأنه سكن مصر ، وكان الواردون إليها قليلاً بخلاف أبي هريرة فإنه استوطن المدينة ، وهي مقصد المسلمين من كل جهة.

(٤) أخرجه البخاري برقم (١٠)؛ ومسلم برقم (٤٠) ، والنسائي (٨/ ١٠٥) ومعنى الحديث: الحثّ على حسنِ معاملةِ العبد مع ربّه ، لأنَّه إذا أحسنَ معاملةَ إخوانه ، فأولى أنْ يحسنَ معاملة ربِّه ، والإتيان بجمع التّذكير «المسلمون» للتّغليب ، فإنّ المسلماتِ يدخلْنَ في ذلك.

* وفي تصريفِ اللهِ عزَّ وجلَّ القلوبَ كيفَ يشاء أخرجَ مسلمٌ بسندهِ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو: أنَّه سمعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّ قلوبَ بني آدم كلّها بين إصبعَيْن من أصابعِ الرّحمن، كقلب واحد، يصرفُه حيث شاء»، ثم قال رسولُ الله ﷺ: «اللّهم مصرِّفَ القلوب، صرّفْ قلوبنا على طاعتِكَ»[1].

* وأخرجَ الإمامُ أحمد في مسنده عن برّ الوالدَيْن، وتقديم ذلك عن الجهاد أنَّ عبدَ الله بنَ عمرو قال: جاءَ رجلٌ إلى النَّبيّ ﷺ يستأذنه في الجهادِ، فقال: «أحيٌّ والداكَ»؟ قال: نعم. قال: «ففيهما فَجاهِدْ»[2].

اجْتِهَادُهُ في التَّفْسير:

* عاش سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنه حياةً سعيدةً مع القرآنِ الكريم، فقد كانت تلاوتُه روحَ حياتِه وحياةَ روحهِ، وكم منْ ليلةٍ قامَ فيها مصلّياً قارئاً مناجياً وهو يرجو رحمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ ومرضاة النّبي ﷺ!

* وقد عرفَ سيّدنا عبدُ الله رضي الله عنه قَدْرَ القرآن ومكانتَه في نفوسِ المخبتين، فكان ينصحُ حامليه بالصَّفْح والعفوِ وعدمِ الخوض مع الخائضين، وكان يقولُ: «لا ينبغي لحاملِ القرآن أنْ يخوضَ مع مَنْ يخوض، ولا يجهلُ مع مَن يجهل، ولكنْ يعفو ويصفح لحقّ القرآن؛ لأنَّ في جوفهِ كلام الله تعالى»[3].

* وقد ثبتَ بالطُّرقِ المتواترة أنَّ سيّدنا عبدَ الله بنَ عمرو قد جمع القرآن الكريمَ في عَهْدِ النّبي ﷺ.

* وكان لعبدِ اللهِ بنِ عمرو رضوان الله عليه وقفاتٌ علميّةٌ فقهيةٌ مع القرآن، وله آراء وأحكامٌ في تفسيرِ كثيرٍ من آياتٍ القرآن الكريم، وكان يعظ أصحابَه بفهمِ القرآن وتعاهده وتعلّمه وتعليم أولادهم آياته وأحكامه فيقول:

---

(١) أخرجه مسلم في القدر برقم (٢٦٥٤).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٥٦٥) حديث رقم (٦٥٥٥).
(٣) تفسير القرطبي (١/ ٢١ و٥٧).

«عليكم بالقرآنِ فتعلّموهُ ، وعلِّموهُ أبناءَكم ، فإنّكم عنه تُسألون وبه تُجْزَون ، وكفىٰ به واعظاً لِمَنْ عَقَل»[1] .

* ومن فقْهِ سيّدنا عبدِ اللهِ بنِ عمرو وفهمِهِ للقرآنِ العظيمِ أنَّه كان يرىٰ أَنْ : لا صلاة إلا بفاتحةِ الكتاب ، وكان رأيُ عددٍ من كبار علماءِ الصَّحابة على مثْلِ رأيه ، ومنهم : سيّدنا ابنُ عبّاس ، وأُبيُّ بنُ كعب ، وعبادةُ بنُ الصَّامت ، وأبو سعيد الخُدريّ ، وأبو أيّوب الأنصاريّ وغيرهم ، وهؤلاء الصَّحابةُ بهم القدوةُ ، وفيهم الأسوةُ ، وكلُّهم يُوجبون قراءة الفاتحةِ في كلِّ ركعة في الصَّلاة[2] .

* ولعبدِ الله بنِ عمرو رضي الله عنه رأي في إيضاح بعضِ مفرداتِ القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى : ﴿أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ [آل عمران : ١٦٧] ، قال جمهورٌ من علماء التَّابعين ومن أهل التَّفْسير : «المعنى كثروا سوادنا ، وإن لم تقاتلوا معنا ، فيندفع القوم لكثرتكم ، فإنَّ السَّوادَ إذا كثر حصل دفع العدو»[3] .

* بينما ذهبَ عبد الله بنُ عمرو رضي الله عنه إلى أنَّ المعنى ها هنا : إنّما هو استدعاءٌ للقتال حميّة ، لأنَّه دعاهم إلى القتالِ في سبيلِ الله ، وهو أن تكون كلمةُ اللهِ هي العُليا ، فلمّا رأى أنّهم ليسوا أهل ذلك ، عرضَ عليهم الوجْهَ الذي يُحْشِمهم ، ويبعث الأنفة فيهم»[4] .

* وله تفسيرٌ بديعٌ في قولهِ تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران : ١٩١] ، فقد ذكر الله عزَّ وجلَّ ثلاث هيئات لا يخلو ابن آدم منها في غالب أمره ، فكأنّها تحصرُ زمانه ، وقد كان النَّبيُّ ﷺ يذكرُ اللهَ عزَّ وجلَّ على كلِّ أحيانه ، فدخَلَ في ذلك كونه على الخلاء وغير

---

(١) تفسير ابن عطية (ص ١٧) طبعة دار ابن حزم الأولى ٢٠٠٢م.
(٢) تفسير القرطبي (١/ ١١٩) بتصرف يسير.
(٣) تفسير ابن عطية (ص ٣٨٠) ؛ وتفسير القرطبي (٤/ ٢٦٦).
(٤) المصدران السّابقان عينهما.

ذلك ، وكان عبدُ الله بنُ عمرو يجيزُ ذلك استئناساً بالهدي النّبويّ[1] .

* وإكرامُ الجارِ والإحسانُ إليه له تفسيرٌ واضحٌ عند عبدِ الله بنِ عمرو رضي الله عنه ، إذ إنَّ الجارَ القريبَ والبعيدَ له مكانةٌ وحقٌّ على جاره ، وقد أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بحفظِهِ والقيامِ بحقِّه ، قال القُرطبيُّ : «الوصاةُ بالجار مأمورٌ بها مندوبٌ إليها مُسْلِماً كان أو كافراً ، وهو الصَّحيحُ ، والإحسانُ قد يكون بمعنى حسن العشرة ، وكفّ الأذى والمحاماة دونه . . فينبغي للمؤمن أنْ يحذَرَ أذى جاره ، وينتهي عمَّا نهى اللهُ ورسوله عنه ، ويرغب فيما رضياه وحضَّا العباد عليه»[2] .

* وعلى هذا الأساسِ كان سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرو يفهم قوله عزَّ وجلَّ : «﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ [النساء : ٣٦] ، فقد روي أنَّ شاةً ذُبحَتْ في أهلِ عبدِ الله بنِ عمرو ، فلمَّا جاءَ قال : «أهديتم لجارنا اليهودي» ـ ثلاث مرّات ـ ، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : «ما زالَ جبريلُ يوصيني بالجار حتّى ظنَنْتُ أنَّه سيورثه»[3] .

* ونجدُ عند سيّدنا عبد الله بنِ عمرو علْماً بأسباب نزول القرآن ، ومن أمثلة ذلك معرفته في نزولِ قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٥] . قال ابنُ عطيّة : قال عبدُ الله بنُ عمرو بن العاص : «المشارُ إليه في هذه الآية أميّةُ بنُ أبي الصَّلت ، وكان قد أُوتي علْماً ، وروي أنَّه جاء يريدُ الإسلام فوصلَ إلى بدرٍ بعد الوقْعةِ بيوم أو نحوه ، فقال : مَنْ قَتَلَ هؤلاء؟

فقيل : محمّد ﷺ .

قال : لا حاجةَ لي بدين مَنْ قَتَلَ هؤلاء .

---

(١) انظر تفصيل ذلك في : تفسير القرطبي (٤/ ٣١١) ، وزاد المسير (ص ٢٤٩) طبعة المكتب الإسلامي الأولى عام ٢٠٠٢م ، مع الجمع والتصرف.

(٢) تفسير القرطبي (٥/ ١٨٤) باختصار.

(٣) المصدر السابق (٥/ ١٨٨).

فارتدَّ ورجعَ وقال: الآن حلَّت لي الخمر ـ وكان قد حرّمها على نفسه ـ فمرَّ حتّى لحقَ بقوم من ملوك حمير فنادمهم حتّى مات»[1].

* وقال ابنُ الجوزيّ: قال عبد الله بنُ عمرو بن العاص: «إنَّه أميةُ بنُ أبي الصَّلْت، وكان أميّةُ قد قرأ الكتب، وعلم أنَّ الله مرسلٌ رسولاً، ورجا أنْ يكونَ هو، فلمّا بُعِثَ النَّبيُّ ﷺ حسده وكفر»[2].

* وعند القرطبي في تفسيره قال: قال عبدُ الله بنُ عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «نزلت في أميّةَ بنِ أبي الصَّلت الثَّقفي، وكان قد قرأ الكتب وعلم أنَّ اللهَ مُرسلٌ رسولاً في ذلك الوقت، وتمنّى أن يكون هو ذلك الرَّسول، فلمّا أرسل الله محمّداً ﷺ حَسَدَهُ وكفرَ به، وهو الذي قال فيه رسولُ الله ﷺ: «آمنَ شعره وكَفَرَ قلبُهُ»[3].

* وكان عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنه يرى أنَّ بعضَ الألفاظِ القرآنية لها تفسيرٌ ودلالةٌ مستخرجان من خلال سياق الآية، فقد فسَّرَ قوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] فقال: «إنَّ أثاماً وادٍ في جهنّم، هذا اسمه، وقد جعله اللهُ تعالى عقاباً للكفرة»[4].

* وكذلك فسَّرَ قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ من الآية: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ٥٧] فقال: «كانت الجنَّات بحافتي النّيل في الشّقتين جميعاً من أسوان إلى رشيد، وبين الجنّات زروع»[5].

* وفي علم القراءات له علْمٌ وفقْهٌ واجتهادٌ، فقد قرأ عبد الله بن عمرو ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ [الفلق: ٤] قرأها ﴿ومن شرّ النّافثات﴾، في وزن

---

(١) تفسير ابن عطية (٧٦١).

(٢) زاد المسير (ص ٥٢٨).

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٣٢٠).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية (ص ١٣٩١)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٧٦).

(٥) تفسير القرطبي (١٣/ ١٠٢) وورد في بعض التفاسير ابن عمر بدلاً من ابن عمرو.

فاعلات. وقيل: إنّ نساء سَحَرْنَ النَّبي ﷺ وكُنَّ من اليهود، وزعموا أنهنَّ بنات لبيد بن الأعصم اليهوديّ[1].

* ويستطيعُ الباحثُ أنْ يتتبَّع تفسير ابن عمرو في المصادر المتخصّصة، ويمكنُ أنْ يتحصَّلَ له مجلّدٌ كبيرٌ غني بالمسائل والأحكام والفوائد الفقهية.

عبدُ اللهِ وروايـةُ الإسْرائيليّـاتِ:

* صَحَابةُ النَّبيِّ ﷺ أحرصُ النّاسِ على اتّباع نهجِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأوامرِ رسولهِ محمّدٍ ﷺ، وتوجيهاتِه وإرشاداتهِ في أمْرِ الدِّين.

* وكان بعضُ الصَّحابةِ يأخذُ عمَّنْ أسلمَ من أهلِ الكتابِ بما يتوافقُ مع دينِ الهدىٰ والحقِّ، وكانوا يسألونَهم عن أشياءَ بسيطةٍ لتوضيحِ قصَّةٍ أو مَثَلٍ، وأخذوا منهم ذلك بدقَّةٍ وحرصٍ شديدَيْن، وعرضوه على دِيْنِ اللهِ، فإذا وافق أخذوه، وإنْ خالفَ رفضوه رفضاً شديداً وكذَّبوهُ، وردّوا عليهم خَطَأَهم.

* ومهما يكنْ منْ أمرٍ، فإنَّ علماءَ الصَّحابةِ الكرام لم يخرجُوا عن الدَّائرةِ التي حدَّدها لهم مربّيهم رسولُ اللهِ ﷺ، وعمّا أباحَهُ لهم، ولا عمّا فهموه من الإباحةِ في قوله ﷺ: «بلّغوا عنّي ولو آية، وحدّثُوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج، ومَنْ كذَب عليَّ متعمّداً فليتبوأْ مقعده من النَّار»[2].

* وكان عبدُ اللهِ بنُ عمرو رضي الله عنه من عُلماءِ الصَّحابةِ الذين أصابُوا عِلْماً من كُتبِ أهلِ الكتاب.

* ولكنْ ينبغي أنْ نعلمَ أنَّ ينبوعَ الثَّقافةِ الغزير الذي استقى منه سيّدنا عبدُ اللهِ رضي الله عنه كان من النَّبيِّ الكريمِ ﷺ، فقد كان ﷺ يحبُّهُ ويفضّلُه على والدِهِ، إذْ كان عبدُ الله مجتهداً في العبادةِ، مُكثِراً لتلاوة القُرآنِ الكريم آناءَ الليل وأطرافَ النَّهار، كما أنَّه كتَبَ وحفظَ عن النَّبيِّ ﷺ شيئاً كثيراً

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/٢٥٩) بتصرف.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٣).

بشهادةِ كبارِ علماء الصَّحابة كأبي هريرة وأمّ المؤمنين عائشةَ وعبدِ الله بن عبَّاس رضي الله عنهم أجمعين ، وجعلنا في معيتهم تحت ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلا ظلّه.

* وقد استمدَّ سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرو ثقافةً أخرى من كتبِ أهلِ الكتاب ، وعرفَ اللغةَ السِّريانيّة ، وكان قارئاً كاتباً ، وهذه الأمورُ لها كبيرُ الأثرِ في صَقْلِ ثقافته وغزارة معلوماته واطلاعاته ، حتى إنّ شريكَ بنَ خليفة قال: «رأيتُ عبدَ الله بنَ عمرو يقرأ بالسِّريانيةِ»[1].

* ولعلَّ سيّدنا عبدَ الله قد تعلَّمَ السِّريانيةَ في زَمَنِ شبابه ، حتّى إذا كانت فتوحاتُ الشَّام ، ظفرَ هناك بحملِ جملٍ من كتُبِ أهلِ الكتاب ، فكان ينظرُ فيها ، ويحدّثُ منها ، وهناك ظهرَ بعضُ التَّابعين الذين تجنَّبُوا الأخْذَ عنه.

* أخرجَ الإمامُ أحمد بسنده عن رُشَيْد الهَجَريّ عن أبيه: أنَّ رجُلاً قال لعبدِ اللهِ بنِ عمرو: حدّثْني ما سمعتَ من رسول اللهِ ﷺ ، ودعني وما وجَدْتَ في وسْقِكَ يوم اليرموك؟ أو دعنا وممّا وجدْتَ في وسْقَيْكَ. قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانِهِ ويدِهِ»[2].

* وفي رواية أخرى في المسندِ أيضاً بسندٍ رفعه إلى الأعمشِ عن أبي سعد قال: أتيتُ عبدَ الله بنَ عمرو ، فقلت: حدّثني ما سمعتَ من رسولِ الله ﷺ يقول ، ولا تحدّثني عن التَّوراة والإنجيل ، فقال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «المسلمُ مَنْ سلم المسلمون من لسانِه ويده ، والمهاجرُ مَنْ هَجرَ ما نهىٰ اللهُ عنه»[3].

* وعلى الرّغم ممّا مرَّ معنا منَ الأخبارِ والآثارِ التي تزعُمُ أنَّ عبدَ الله بنَ عمرو رضي الله عنه قرأَ كتبَ بعضِ أهلِ الكتاب ، وأنَّه تجنَّبَه بعضُ التَّابعين ، لذا قَلَّتْ روايةُ حديثهِ حتّى وصلَتْ إلى سبع مئة حديثٍ ، بينما روىٰ أبو هُريرة

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ٢٦٦).

(٢) المسند (٢/ ٦٣٠) رقم الحديث (٦٨٥٠ و٦٨٥١).

(٣) المسند (٢/ ٦٦٠) رقم الحديث (٦٩٧١).

ثمانية أضعاف ما روىٰ عبد الله تقريباً ؛ أي روىٰ (٥٣٧٤ حديثاً).

* ولعلَّ سببَ قلَّة روايةِ عبدِ الله بنِ عمرو رضي الله عنه للحديثِ يعودُ إلى حيطَتِهِ الزَّائدة ، وإلى ورعِهِ الشَّديد في هذا المضمارِ ، ولم يكن سيدنا عبدُ الله يسلكُ هذا الطَّريق وحْدَهُ فحسب ، وإنّما هناك عددٌ من كبراءِ الصَّحابة كانوا مُقلِّين ومنهم: سيّدنا أبو بكر الصِّدِّيق ، وعليُّ بن أبي طالب ، وعمرانُ بنُ حُصين ، وأبو عبيدةَ بنُ الجراح ، وعثمانُ بنُ عفَّان ، وسعيدُ بنُ زيد ، والزُّبيرُ بنُ العوّام ، وغيرُهم رضي الله عنهم ، ومعظمُ أحاديثِ هؤلاء لم تتجاوزِ المئات أو العَشَرات.

* أغلبُ الظَّنِّ أنَّ الزُّهدَ والورعَ والتَّقوى والحيطةَ كلّ هذا جعلَ سيّدنا عبدَ الله بنَ عمرو لا ينضحُ من وِعائهِ العِلْميّ الغزيرِ إلا بمقدار ، ولا يحدّثُ عن رسولِ اللهِ ﷺ إلا حين يُسْأَل أو يضطرُ إلى ذلك ، فهل يُعقلُ أو يصحُّ أنْ يبثَّ عبدُ اللهِ منْ وسْقَيهِ ما يُنْسَبُ إليهِ من رواياتٍ إسرائيليّةٍ ، وفي بعضِها كذِبٌ صريحٌ وبطلان لا يستقيمُ مع العقلِ أو الدِّين أصلاً؟! وكيفَ نصدّقُ أنْ يتفرَّغَ عبدُ الله كي يحدّثَ من وسْقَيه ، وهو الذي أحيا لَيْلَهُ بالقرآنِ قائماً ، وأفنى نهارَهُ بالعبادةِ صائماً ، ووقته كلّه بذكرِ الله قاعداً أو قائماً؟ زِدْ على ذلك أنَّ سيّدنا عَمْراً أباه قد شَكَاهُ إلى المربّي الأعظمِ سيّدنا رسولِ الله ﷺ فوجَّهَهُ إلى العبادةِ المُعْتَدلةِ الدّائمة.

* ما كان سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرو ليتركَ الخيرَ العميمَ من أحاديثِ الصّادق المصدوق ﷺ ، ويشغلَ نَفْسَهُ وغيرَهُ بما في وسْقَيهِ من أحاديثَ وأكاذيبَ وترَّهاتٍ وقَصَصٍ ، وإلّا كان قصَّاصاً لأَهْلِ الكتاب؛ وهذا لا يستقيمُ مع سيرتِهِ التَّقيةِ الزَّاهرةِ ، فهو الصَّحابيُّ الكريمُ الصَّادقُ الورعُ الحكيمُ. ثم إنّه كان يملكُ الصَّحيفةَ الصَّادقة التي إذا سلمتْ له لا يبالي بما على الدُّنيا ، وفي هذه الصَّحيفة كلامُ الحبيبِ الأعظمِ الصادق المصدوق محمدٍ رسولِ الله ﷺ ؛ ولله درّ القائل:

وَهبْنـي قُلْـتُ هـذا الصُّبـحُ لَيْـلٌ أيَعْمَـىٰ العـالِمـونَ عَـنِ الضِّيـاءِ؟!

* وإذا أردنا أنْ نُسَلِّمَ بصحَّةِ ما رُوي من أنَّ سيّدنا عبدَ الله بنَ عمرو رضي الله عنه قد أصابَ يومَ اليرموك وسقَيْن من كُتبِ أهلِ الكتاب وكان يحدِّثُ منهما ، فإنا نقول: «إنَّه لم يخرجْ عن الهديّ النّبويّ: «حدّثُوا عن بني إسرائيلَ ولا حرج» ، وإنَّه لمْ يحدّثْ إلا ما يتوافقُ مع الشَّرعِ الحنيف ، ومع الذي جَاءَ في القُرآنِ الكريم والحديثِ النَّبويّ الشَّريف».

* ويمكننا أنْ نقولَ أيضاً: «إنَّ سيّدنا عبدَ الله بنَ عمرو كان ذا حافظةٍ واعيةٍ ، شهدت له أُمُّنا عائشةُ رضي الله عنها بقولها: واللهِ لقد حفظ عبدُ الله» ، وفي روايةٍ أخرى أنّها قالت: «ما أحسبهُ إلا قد صَدَق ، أَراهُ لم يَزِدْ فيهِ شيئاً ولم ينقصْ»(١).

* إنَّ عبدَ الله بنَ عمرو رضي الله عنه صاحبَ الصَّحيفةِ الصَّادقةِ لصَادقٌ فيما يحدِّثُ وفيما يرويه عن النَّبيِّ ﷺ ، وليس معقولاً أنْ يجلسَ فيحدِّثَ ويكذبَ على النَّبيِّ ﷺ وهو الذي يعلمُ أنَّ الكذبَ على النَّبي ﷺ يحلّه البوارَ والخَسَارَ في النَّار؟ أضفْ إلى ذلك كلِّه أنَّ سيّدنا عبدَ الله هو واحدٌ من عُلَماء الصَّحابة الذين رووا حديثَ الكذبِ عن النَّبي ﷺ؟! فقد أخرجَ الإمامُ أحمدُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَليَّ متعمّداً فليتبوَّأْ مقعدَهُ مِنَ النَّارِ»(٢).

* ومن العجيب أنَّ بعضَ المتقوّلين زعمَ أنَّ سيدنا عبدَ الله بنَ عمرو كان تلميذاً لكعبِ الأحبار؛ وهذا ادّعاءٌ ليس له سَنَدٌ ، فأستاذُ عبدِ اللهِ ومعلّمهُ ومرشدُهُ هو الصّادق المصدوق الهادي البشير محمدٌ رسول اللهِ ﷺ ، ونحنُ

(١) أخرجه مسلم في العلم برقم (٢٦٧٣/ ١٤) ، ومعنى قول أمّنا عائشة من حديثها الطّويل الذي جاء بنهايته: «ما أحسبه إلاّ قد صدقَ. .» ليس معناه أنَّ عائشةَ قد اتّهمت عبد الله بن عمرو ، لكنها خافَتْ أنْ يكونَ اشتبَه عليه ، أو قرأه من كتبِ الحكمةِ فتوهّمه عن النّبي ﷺ ، فلما كرّره مرةً أخرى ، وثَبت عليه ، غلبَ على ظنّها أنّه سمعه من النّبي ﷺ ، وفي هذا الحديث: الحثُّ على حفظِ العلْم ، وأخذُه عن أهلهِ ، واعترافُ العالِم للعالم بالفضيلةِ والخير.

(٢) المسند (٢/ ٥٧٨) حديث رقم (٦٦٠٣).

نعلمُ أنَّ عبدَ الله نَفْسَه كان مطّلعاً على التّوراة والإنجيل ، وأنّه كان يعرفُ السِّريانية ، وأنَّه قد قرأَ في كتبِ أهلِ الكتاب التي أصابَها في اليرموك بالشَّام ، وهذا كلّه جعلَه يلمُّ بالمعارفِ والإسرائيليّات ، وبعضِ الأخبارِ التي يتحدَّثُ عنها بعضُ أهلِ الكتابِ ممَّن أسلم[1] أو لم يسلمْ وبقيَ على دينه.

* إذن ، فسيّدنا عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنه من علماء الصَّحابةِ الكبارِ ومن فقهائهم ، وممن لهم فتاوى كثيرة وآراء جميلة في الذي يتوافقُ مع شَرعِ اللهِ عزَّ وجلَّ ونهجِهِ ، وهو من الصَّحابةِ الذين أجمعَ العلماءُ على عدالَتهم ، وكذلك نجدُ عدالَتهم في السُّنَّةِ والكتابِ والإجماع.

* قال ابنُ الصَّلاح في مقدّمته: «إنَّ الأمّةَ مُجمعةٌ على تعديل الصَّحابة ، قال: وَمَنْ لابَسَ الفتنَ منهم ، فكذلك بإجماع العُلماءِ الذين يعتدُّ بهم في الإجماع ، إحساناً للظَّنِّ بهم ، ونظراً إلى ما تمهَّدَ لهم منَ المآثرِ ، وكأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أتاحَ الإجماعَ على ذلك لكونهم نَقَلَةَ الشَّريعة والله أعلم»[2].

* ولمحمود الآلوسيّ كلامٌ نفيسٌ في هذا المضمار ذكَرَهُ في كتابه «الأجوبة العراقيّة على الأسئلةِ اللاهورية» فقال: «اعلمْ أنَّ أهلَ السُّنَّة ـ إلاّ مَنْ شذَّ ـ أجمعُوا على أنَّ جميعَ الصَّحابةِ عدولٌ ، يجبُ على الأمّةِ تعظيمهم ، فقد أخلصُوا الأعمالَ من الرّياء نَفْلاً وفَرْضاً ، واجتهدوا في طاعةِ مولاهم ليرضىٰ ، وغضّوا أبصارهم عن الشَّهوات غضّاً ، فإذا أبصرتهم رأيتُ قلوباً صحيحةً وأجساداً مرضىٰ ، وعُيوناً قد أَلِفَتِ السَّهر فما تكادُ تطْعَمُ غمضاً ، بادروا أعمارهم لعلمِهم أنها ساعات تَتَقَضّى ، ولله درَّ مَنْ قال فيهم شعراً:

لله دَرُّ أُنــاسٍ أَخْلصُــوا عَمــلاً ... عَلَىٰ اليَقيـنِ ودَانُـوا بـالـذي أُمِـرُوا
أُوْلاهُـمُ نِعَمـاً فـازْدَادَ شكْـرهـمُ ... ثـمَّ ابتـلاهـم فـأرضَـوْه بمـا صَبَـروا
وَفَّـوا لَـهُ ثـمَّ وَافَـوْهُ بمـا عملـوا ... بـه سُيـوفهُـم يـومـاً إذا نَشَـروا

(١) من هؤلاء: عبد الله بن سلام رضي الله عنه.

(٢) مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث (ص ١٤٧) لأبي عمرو ابن الصلاح ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٧٨م.

ومنِ ارتكبَ منهم ما يخالفُ بعضَ هذه الأوصاف ، لم يمت إلاّ وهو أنقى من ليلةِ القَدْرِ غير مدنّسٍ بوصمةٍ ، ولا مصرّ على سيئة»[١] .

* إنَّ سيدنا عبدَ الله بنَ عمرو رضي الله عنه من أفاضلِ من هؤلاء الصَّحابة الكرام الذين رضي الله عنهم ورضُوا عنه ، وكان من سادةِ العُلماء وأذكيائهم ، كما كان ممن يُفتي النَّاسَ في عَهْدِ النَّبيّ ﷺ وفي عَهْدِ الخُلفاء الرَّاشدين ، فقد جاء في عددٍ من المصادرِ أنَّه وثلَّةٌ من علماءِ الصَّحابةِ كانون يُفتون بالمدينةِ ، ويحدّثون عن النَّبيّ ﷺ[٢] . وبلغ من شدّةِ ورعه وخشيته أنَّه كان يكثرُ البكاء من خشيةِ الله عزَّ وجلَّ ، فقد ذكرَ يَعْلى بنُ عطاء عن أُمِّه أنها كانت تصنعُ الكُحْل لعبدِ اللهِ بنِ عمرو ، وكان يكثرُ من البكاء ، ويغلِقُ عليه بابه ويبكي حتّى رَمِصَتْ عيناه ، وكانت أمّي تصنعُ له الكحل»[٣] .

* وكان عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنه يفتي في الحدودِ الشَّرعيّة التي يستقيها ويستلهمها من الهدي النّبويّ ، فكان يأمرُ بالوضوءِ والطَّهارةِ ومَسْحِ الأذنين على الصِّفَةِ التي رأىٰ النَّبيَّ ﷺ يفعلها[٤] ، وكان كذلك لا يصومُ أيّامَ التَّشريق[٥] ، وكان إذا أذّنَ المؤذّنُ يقولُ مثلما يقولُ ، ثمّ يُصلّي على النَّبيّ ﷺ ، ويسألُ له الوسيلة[٦] .

* ومن فتاوىٰ عبدِ اللهِ بنِ عمرو رضوان الله عليه ما جاء في «الحِلْية» أنَّ غُلاماً له باعَ فَضْلَ ماءٍ من عمٍّ له بعشرينَ ألفاً ، فقال عبدُ الله : «لا تَبِعْهُ ، فإنّه لا يحلُّ بيعه» .

* وقد فصَّلَ ذلك ابنُ قيم الجوزيّة رحمه الله في «الزَّاد» فقال : «ومما

---

(١) الأجوبة العراقية (ص ١٠).
(٢) انظر: حياة الصحابة (٣/ ٢٥٤ و٢٥٥) بتصرف.
(٣) حلية الأولياء (١/ ٢٩٠) ، ومعنى «رمصت»: تغيرت وفسدت والتصقت أجفانها.
(٤) البدر التمام (١/ ١٦١).
(٥) البدر التمام (٢/ ٤٦٠).
(٦) البدر التمام (١/ ٤٢٣) ، وصحيح مسلم برقم (٣٨٤).

رُوي عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو رضي الله عنهما أنَّ قَيِّمَ أرضِهِ بالوَهطِ كتبَ إليه يخبِرُهُ أنَّه سقَىٰ أرضَه ، وفضلَ له منَ الماءِ فَضْلٌ يُطلبُ بثلاثين ألفاً ، فكتبَ إليه عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنهما: «أقمْ قِلْدَكَ ثم اسقِ الأدنى ، فالأدنى ، فإنّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ ينهى عن بيعِ فَضْلِ الماء»(١).

* ومن فتاوى عبدِ الله بنِ عمرو التي تدلُّ على فقْهِهِ أنَّه سُئِلَ عن البِكْر يطلّقُها زوجُها ثلاثاً ، فقال: «لا تحلّ له حتّى تنكح زوجاً غيره»(٢).

* وكان عبدُ الله بنُ عمرو يرى أنَّ الأم أحقُّ بحضانةِ الولدِ ما دامتْ دونَ زواجٍ ، وحجّتُه في ذلك أنَّ امرأةً أتتِ النَّبيَّ ﷺ فقالت: يا رسولَ اللهِ ، إنَّ ابني هذا كان بطني له وعاءٌ ، وثديي له سِقَاءٌ ، وحَجْري له حواء ، وإنَّ أباه طلَّقني ، فأراد أنْ ينتزعَه منّي؛ فقال لها رسولُ الله ﷺ: «أنت أحقُّ به ما لم تنكحي»(٣).

* ومن ألوانِ فِقهِ عبدِ اللهِ وعلْمِهِ واتّباعه الهديَ النَّبويَّ ، أنَّه كرِهَ أكلَ الأرنبِ ، وقال: «جيء بها إلى رسولِ اللهِ ﷺ وأنا جالسٌ ، فلم يأكلْها ، ولم يَنْهَ عن أكلِها»(٤).

وَفاتُـهُ ووَصيَّـتُـهُ ووفـاؤه:

* كانت حياةُ سيّدنا عبدِ اللهِ بنِ عمرو رضي الله عنه حياةَ عِلْمٍ وفقْهٍ وتعليمٍ وعبادةٍ ، كانت حياةً حافلةً بالصَّومِ ، بتلاوةِ القرآنِ ، بالعِلْمِ ، بالعَملِ ، بالطَّاعات والقُربات ، وعمل المبرّات التي تقرّب إلى الجنات.

* وكان عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنه صادقَ الوعْدِ في قولهِ ، فقد

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٨٠١) ، و«الوهط»: قرية بالطَّائف على ثلاثة أميال من مرج ، وفيها كَرْمٌ لعبدِ الله بن عمرو بن العاص كان على ألف ألف. و«أقم قلْدك»: أي إذا سقيتَ أرضَكَ يومَ نوبتها فأَعْطِ مَنْ يليك.

(٢) زاد المعاد (٥/ ٤٣٢) ، والحديثُ أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٦٠٣) برقم (٦٧١٩).

(٣) المصدر السَّابق عينه.

(٤) تفسير القرطبي (٧/ ١٢٣) ، وانظر: حياة الحيوان للدميري (١/ ٣٢).

ذكروا أنَّه لما حضرتْهُ الوفاةُ قال يخبرُ مَنْ عنده بأنَّ ينفّذُوا وصيّته: «انظروا فلاناً، فإنّي كنتُ قُلْتُ له في ابنتي قولاً كَشِبْهِ العِدَةِ، فما أحبُّ أنْ ألقى اللهَ بثلثِ النِّفاق، فأشهدكم أنّي قد زوّجْتُه»[1].

* وفي شَهْرِ جُمادى الآخرة سنة (٦٥هـ) تُوفي عبدُ الله بنُ عمرو في مْصْرَ، ودُفِنَ في داره الصَّغيرة[2]، بعد أنْ مَلأَ الدّنيا بعلمِهِ وفقهِهِ وحديثِهِ، وتركَ منْ بعدهِ علْماً يتوارثه النّاس إلى ما شاء الله.

* رضي الله عن عبدِ الله بنِ عمرو، وجعَلَنا في معيّته ومعيّة العَبادلةِ، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ و٨٩].

* * *

(١) حياة الصحابة (٢/ ٥٢٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٩٤) أقول: «تعدّدتِ الأقوالُ والأمكنة في وفاةِ عبدالله بن عمرو، ولكنّا تركناها جميعاً وأخذنا برأي الأكثرين، وما يتوافقُ مع سيرته».




عبد الله بن الزبير

* كان كبيراً في العلم والشّرف والجهاد والعبادة والفقه.
* أوّل مولود للمهاجرين في المدينة، وأوّل شيء دخل جوفه ريق النّبيّ ﷺ، وهو أصغر العبادلة الأربعة.
* عالي الهمّة يحبّ معالي الأمور، لأنّه تربّى في حجر أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
* له أقوال مهمّة في التّفسير والفتوى والأدب وروى (٣٣) حديثاً.
* كان فارساً شجاعاً ذا أثر عظيم في هذا الميدان وتوفي سنة (٧٣هـ).




عبدُ اللهِ بنُ الزُّبَير

الأَصْلُ الكَريمُ:

* هذا العَالِمُ ذو خُلُقٍ عميم، وخَلْقٍ كريم ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، كان من أئمةِ العُلماء الأنجاب، الذين تحلّوا بحلَىٰ الآداب، وقد سُخِّرت له فنونُ العلْم والبيان، تسخير الجنّ والعفاريت لِسُليمَان، وتصرَّفَ في محاسنِ الكلام، تصرّف الرِّياح بالغمام:

شَـرُفَ الـزَّمَـانُ بمثلـهِ شَـرَفَ الأسنّـةِ بـالعَـوَامِـل
مُتَقَلِّـدٌ سَيْـفَ العُـلا والمكْـرُمَـاتُ لـه حَمـائِـل

* قال عنه الذَّهبيُّ: «أحدُ الأعلام.. له صحبةٌ، وروايةٌ وأحاديث؛ عدادُهُ في صغَارِ الصَّحابةِ، وإن كان كبيراً في العلْمِ، والشَّرفِ، والجهادِ، والعبادةِ.. وكان فارس قريشٍ في زمانه، وله مواقفُ مشهورةٌ.. شَهِدَ اليرموك وهو مراهق.. وَفَتْحَ المغربِ، وغَزْوَ القسطنطينية...»[(١)].

* أبوه مَنْ؟ وأمُّه مَنْ؟ وجدُّه مَنْ؟ وجدّتُه مَنْ؟ وخالته مَنْ؟ وهو مَنْ؟

* أبوهُ: الزُّبيرُ بنُ العوّام بن خُويلد الأسَديّ؛ حواريُّ رسولِ الله ﷺ، وابنُ عمّته صفيّة بنت عبد المطلب، وأحدُ العشرة المشهود لهم بالجنَّة، وأحدُ السِّتَّةِ أهل الشورى، وأوّلُ مَنْ سَلَّ سيفه في سبيلِ الله، أسلم وهو حَدَثٌ، له ست عشرة سنة رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٣ و٣٦٤) باختيارٍ واختصار وتصرّف يسير.

* وأمُّه: أسماءُ بنتُ أبي بكر الصِّديق القرشيّة التَّيميّة، وهي الصَّادقةُ الذّاكرةُ، الصَّابرةُ الشّاكرةُ، أخت أمّ المؤمنين عائشة، وآخرُ المهاجراتِ وفاةً، وتُعرفُ بذات النِّطاقين.

* وجدُّه لأمّه: أبو بكر الصِّدِّيق، السَّابق إلى التَّصديق، الملقّب بالعتيق، المؤيّدُ من اللهِ بالتّوفيق، صاحبُ النّبي ﷺ في الحَضرِ والأَسْفَار، ورفيقُه الشَّفيق في جميع الأطوار، وضجيعُهُ بعد الموتِ في الرَّوضةِ المحفوفةِ بِالأنوار، المخصوصُ في الذّكرِ الحكيم بمفخر فاقَ به كافّة الأخيار، وعامّة الأبرار، حيث يقولُ عالِمُ الجهرِ والأسرار: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، خليفةُ النَّبي ﷺ، وأوّلُ مَنْ أسلم وآمن مِنْ الرِّجال، وأحبّ النّاس إلىٰ النَّبيّ ﷺ، وفضائله ومناقبه لا تُحصى، ويكفيه من الفَضْل يكفيه، أنَّ الشَّاعر قال مترنّماً فيه:

لا تُفَضِّلْ علىٰ العَتيقِ صَدِيقاً ... فهو صِدّيق أحمدَ المُختارِ
وإنِ ارتبَتَ في الأحاديثِ فاقْرَأْ ... ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾

* وجدّتُهُ لأبيه: صفيّةُ بنتُ عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ، وهي شقيقةُ حمزةَ أسد الله، وهي أيضاً من المهاجراتِ الأُوَل رضي الله عنها وأرضاها.

* وخالتُه: الصِّدّيقةُ بنتُ الصِّديق، العتيقةُ بنتُ العتيق، حبيبةُ الحبيب، وأليفةُ القريب، سيّد المرسلين محمّد ﷺ الخطيب، المُعَرّاةُ من ارتياب القلوب، لرؤيتها جبريل رسول علاّم الغيوب، عائشة أمّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها، أَفْقَهُ نساءِ الأُمّة على الإطلاق؛ قال الذَّهبيُّ: «ولا أعلمُ في أمةِ محمّد ﷺ، بل ولا في النِّساء مطلقاً، امرأة أعلم منها...».

* وأمَّا عالمُ هذه الصَّفحَات فهو أحدُ العبادلةِ الأربعةِ الأعلام، الصَّائلُ بالحقّ، القائلُ بالصِّدق، المُحنَّكُ بريق النّبوة، المبجَلُ لشرف الأمومةِ والأبوّةِ، المشاهدُ في القيام، والمواصلُ للصّيام، ذو السَّيفِ الصَّارم، والرّأْي الحازم، مبارز الشّجعان، وحافظُ القُرآن، الْتَزَقَ بالنَّبيّ ﷺ لزوقاً،

والتصقَ بالصِّدِّيق لُصوقاً ، سبط عمّة النّبي ﷺ صفية ، وابن أخت زوجته الصِّدِّيقة الوفيّة ، عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه[1] .

* وهكذا يتبيّنُ لنا أنَّ هذا العالمَ الصَّحابيَ الجليلَ عريقُ النَّسبِ والحسَبِ والمحتد من جهة أبويه ، فهو قرشيٌ ذو نشأةٍ عاليةٍ رفيعةٍ ارتضعَ المجدَ من جميعِ أطرافه ، وهو من شجرةٍ مباركةٍ ، لها ظِلُّها الظَّليلُ ، ونسبُها النَّبيلُ ، وشهرتُها المونقةُ النّاصعة في الجاهليّةِ والإسلام.

* ينتمي سيّدنا عبدُ الله إلى الأسرةِ الزُّبيريّة والبكريّة وكلتا الأسرتَيْن من الأُسَرِ المرموقةِ والبيوت العريقة في تاريخِ الإسلام في مكَّة وَالمدينةِ ، وكان لهاتَيْن الأسرتَيْن أثرهما النَّفيس وفضلهما الكريم في نشأةِ عبد الله بنِ الزُّبير العلميّة كما سنقرأ ذلك في الصَّفحات الآتية بإذن الله تعالى.

في ديوان الأوائل:

* في ديوانِ الأوائلِ نجدُ اسمَ عبدِ الله بنِ الزُّبير رضي الله عنهما مع ثلّةِ الفُضَلاء حيث قالوا: «أوّلُ مولودٍ وُلد في الإسلامِ بالمدينةِ ـ من المهاجرين ـ عبدُ الله بنُ الزُّبير بن العَوَّام ، قالته عائشة. وعبدُ الله بنُ الزُّبير هذا أوّلُ شيءٍ دخلَ بطنه ريق النَّبيِّ ﷺ ، قالته أمُّه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما»[2] .

* كان مولدُ عبدِ اللهِ بن الزّبير رضي الله عنه في السَّنة الأولىٰ من الهجرةِ النَّبويّةِ المباركةِ ، فقد جاءَ في صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر: أنَّها حملَتْ بعبدِ اللهِ بنِ الزُّبير بمكَة ، قالت: «فخرجتُ وأنا مُتِمٌّ ، فأتيتُ

---

(1) حلية الأولياء (١/ ٣٢٩ ـ ٣٣٧) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٣ ـ ٣٨٠) ، ونسب قريش (ص ٢٣٧ ـ ٢٥٠) ، وأسد الغابة (٣/ ١٣٨ ـ ١٤١) ترجمة رقم (٢٩٤٧) ، ووفيات الأعيان (٣/ ٧١ ـ ٧٥) ، وشفاء الغرام (انظر الفهارس ٢/ ٥٣٨) ، العقد الثمين (٥/ ١٤١) ، مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٧٠ ـ ٢١٠) ، ومصادر أخرى كثيرة لا تحصى ولا تستقصى.

(2) محاسن الوسائل في معرفة الأوائل لمحمد بن عبد الله الشبلي الدمشقي (ص ٢١٣) دار النفائس ـ ط١ ـ ١٩٩٢م.

المدينةَ ، فنزلتُ بقُبَاء ، فولدتُهُ بقباء ، ثمَّ أتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ فوضَعَه في حجْرِهِ ، ثمَّ دعا بتمرةٍ فمضغهَا ، ثم تفلَ في فيه ، فكان أوّل شيءٍ دخَلَ جوفَه ريقُ رسول الله ﷺ ، ثم حنّكه بالتَّمرة ، ثمَّ دعا له ، وبرّكَ عليه ، وكان أوّل مولودٍ وُلدَ في الإسلام»[١].

* وفي رواية أخرى في صحيح مسلم أيضاً: «خرجتْ أسماءُ بنت أبي بكر حين هاجرت ، وهي حُبْلَى بعبدِ اللهِ بن الزُّبير ، فقدمت قباء ، فَنُفِسَتْ بعبدِ اللهِ بقباء ، ثمّ خرجتْ حين نُفِسَتْ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ليحنّكه ، فأخذه رسولُ اللهِ ﷺ منها فوضَعَه في حَجْرِه ، ثمَّ دعا بتمرةٍ ، قالتْ عائشةُ: فمكثْنَا ساعةً نلتمسُها قبلَ أنْ نجدَهَا ، فمضغَها ، ثمَّ بصَقَها في فيه ، فإنَّ أوَّلَ شيء دخلَ بطْنَهُ لَرِيقُ رسولِ الله ﷺ ، ثم قالت أسماء: ثمَّ مسحَه وصلّىٰ عليه ، وسمّاه عبدَ الله ، ثمَّ جاء وهو ابنُ سبع سنين أو ثمان، ليبايعَ رسولَ الله ﷺ ، وأمره بذلك الزُّبير ، فتبسَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ حين رآهُ مقْبلاً ، ثمَّ بايعه»[٢].

* كان سيّدنا عبدُ الله بنُ الزُّبير أوّلَ مولودٍ للمهاجرين وُلدَ في المدينةِ ، وسمَّاه النَّبيُّ ﷺ باسْمِ جدِّه لأمِّه أبي بكرٍ الصِّدّيق عليه سحاباتُ الرضوان ،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢١٤٦/٢٦) ، ومعنى «متمّ»: أي مقاربة الولادة ، ومعنى «كان أوّل مولود ولد في الإسلام»: يعني: أوّل مَنْ ولد في الإسلام بالمدينةِ بعد الهجرة من أولادِ المهاجرين ، وإلا فالنّعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه وُلدَ قبله بعد الهجرة النبويةِ المباركةِ.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢١٤٦) ، ومعنى «مسحه وصلّى عليه»: أي دعَا له ، ومسحه تبركاً ، وفيه استحبابُ الدُّعاء للمولود عند تحنيكه ومسحه للتّبريك. ومعنى «ثم بايعه»: هذه بيعة تبريك وتشريف لا بيعة تكليف.
وفي هذا الحديث مناقبُ كثيرة لسيدنا عبدِ الله بنِ الزّبير رضي الله عنه ، منها: أنَّ النَّبيَّ ﷺ مسحَ عليه ، وبارك عليه ودعا له ، وأوّل شيءٍ دخلَ جوفَه ريقه ﷺ ، وأنّه أول مَنْ ولد في الإسلام بالمدينة. والله أعلم.
وقد اتّفقَ العلماء على استحبابِ تحنيك المولود عند ولادته بتمر، فإنْ تعذّر فما في معناه، وقريب منه من الحلو ، فيمضغ المحنّك التمر حتى تصير مائعة بحيث تبتلع ، ثم يفتح فم المولود، ويضعها فيه ليدخل شيء منها جوفه ، ويستحب أن يكون المحنك من الصَّالحين وممّن يتبرك به رجلاً كان أو امرأة، فإن لم يكن حاضراً عند المولود حُمل إليه.

وأمرَ ﷺ أنْ يؤذّنَ في أذنيه للصَّلاة ، فأذَّنَ أبو بكْرٍ في أذنيه[1] .

* وطارَ نبأُ ولادةِ عبد الله في أنحاءِ المدينةِ المنوّرةِ ، فعندما سمعَ المسلمون بمولدِهِ كبّروا تكبيرةً واحدةً ، حتّى ارتجّتِ المدينةُ المنورةُ تكبيراً لهذا المولودِ الميمون، وسُرُّوا بولادته سُروراً عظيماً إذ كُبِتَ يهودُ المدينة الذين حَسَدُوا النَّبيَّ ﷺ والمسلمين ، وظنُّوا أنَّهم سحروهم فلا يُولَدُ لهم مولودٌ.

* قال زيدُ بنُ أسلمَ مولىٰ سيّدنا عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه: «لما دخلَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ المنورةَ؛ قالت يهود: قد سَحرْنا محمداً وأصحابَه فليس يُولدُ لهم بأرضنا. قال: فكان أوّل مولودٍ عبد الله بن الزُّبير. قال زيد: فسمعتُ أنَّ اليهودَ لما علموا أنَّ اللهَ تبارك وتعالى قد أبطلَ كيدهم حوّلُوا ، فكتبوا طِبّاً فجعلوا ما يضرُّ ينفع ، وما ينفع يضرّ»[2] .

* وذكروا أنَّ سيّدنا أبا بكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه وأرضاه قد حملَ حفيدَهُ عبدَ الله بنَ الزُّبير ، وأخذَ يمشي به مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ في أزقّةِ المدينةِ المنوّرةِ وطرقاتها حتى يشتهرَ مولدُهُ على خلاف ما زعمتْ يهودٌ بأنّهم قد سَحَروا النَّاسَ.

* قال الزُّبيرُ بنُ بكَّار: «إنَّ عبدَ الله بنَ الزُّبير وُلد بقباء ، والبيت الذي وُلدَ فيه قائمٌ معروف»[3] .

* وقال المصعبُ الزُّبيريُّ: «وعبدُ الله بنُ الزُّبير أسنُّ ولد الزُّبير ، وهو أوّلُ مولودٍ ولدَ بالمدينةِ من المسلمين ، ويُقال: بل مِنَ المُهاجرين ، وكان ابنُ الزُّبير يقول: هاجرت أمّي ، وأنا حَمْلٌ في بَطنِها ، فما أصابَهَا من مخمصةٍ ولا وَصَبٍ إلا قد أصابني. وحَكَّهُ رسولُ اللهِ ﷺ بريقه ويده؛ وله يقولُ العُقَيْلي:

---

(1) مختصر مدينة دمشق (١٢/ ١٧٢).
(2) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٧٢).
(3) المصدر السابق نفسه.

بَـرٌّ يُبَيِّـنُ مـا قـالَ الـرَّسـولُ لـه من الصَّـلاة بِضَـاحـي وجهِـهِ عَلَـمُ
حَمَـامـةٌ مِـنْ حَمـامِ البيـتِ قـاطنـةٌ لا يتبعُ النَّاسَ إنْ جَاروا وإنْ ظلموا»[1]

تربيَـةٌ مباركَـةٌ:

* لقي عبدُ الله بنُ الزُّبير رضي الله عنه عنايةً فائقةً منذ أنْ وُلدَ ، فقد ذكروا أنَّ الزُّبيرَ كان يقبّله وهو صغيرٌ يقول:

أبيـــضُ مـــنْ آل أبـــي عتيـــق أحبُّـــه كمـــا أُحِـــبُّ ريقـــي[2]

* نشأ عبدُ الله عند خالته أمِّ المؤمنين عائشة الصّدّيقة في البيت النّبوي ، وتربّىٰ على الأخلاقِ الماجدةِ ، وتلقّى كثيراً من المعارفِ والأحكام ، وكان منذُ صغره حصيفاً لبيباً متوقّد الذّهْنِ ، فقد ذكرتِ المصادرُ المتنوّعةُ نقلاً عن سيّدنا عبدِ الله بنِ الزُّبير أنَّه قال: «أتيتُ رسولَ الله ﷺ وهو يحتجمُ ، فلمّا فرغَ قال: «يا عبدَاللهِ ، اذهبْ بهذا الدم فأهرقْهُ حيث لا يراكَ أحدٌ» فلمَّا برزتُ عن رسولِ الله ﷺ عمدتُ إلى الدّم ثمَّ شربتُه ، فلما رجعتُ إلى النَّبيّ ﷺ قال لي: «ما صنعتَ بالدم يا عبدَ الله»؟

---

(١) نسب قريش (ص ٢٣٧) ، قال ابن عبد البر: «كان عبد الله كريم الجدات والأمهات والخالات».

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٧٣) ، ومعنى «أبيض»: المقصود: نقاء العرض وصفاؤه من الدنس.
ومن الجدير بالذكر أنَّ كثيراً من الأخبار وقصص العرب وأسمارهم التي وصلت إلينا تدلُّ على أنّهم حينما كانوا يصفون الفتى أو الفتاة بالبياض ، ولم يكونوا يريدون مجردَ نقاء اللون من السّواد أو الكَلف ، وإنّما كانوا يقصدون الحَسَب الصَّافي ، ونقاء العرض من العيوب ، بدليل أنّهم كانوا يقولون للأعاجم الذين يكون البياض غالباً على ألوانهم مثل الروم والفرس ومَنْ شاكلهم أنّهم الحمراء. وجاء في الحديث: «بعثْتُ إلى الأحمرِ والأسودِ» أي إلى العرب والعجم كافة ، وقد لقّب النّبي ﷺ أمّ المؤمنين عائشة بالحميراء لبياض لونها. وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ لفظة بيضاء كناية عن النّعمة والشّرف لا نصَّ على اللون نفسه ، إذ إنَّ العربَ كانوا يعدون النّعمة وخفض العيش من الجمالِ. وكانت العربُ لا تقول: رجل أبيض من بياض اللون ، وإنّما الأبيضُ عندهم الطّاهرُ النّقيُّ ، وكانت العربُ تعني به أحياناً نقاء اللون إذا تحدثوا عن ألوان النّاس وأشكالهم. وكلا الوجَهيْن وارد عند العرب. والله تعالى أعلم.

قلت: جعلتُه في مكانٍ ظننتُ أنَّه خافٍ على النّاس.

قال: «فلعلَّكَ شربتَه»؟

قلت: نعم يا رسولَ الله.

قال: «ولم شربتَ الدم»؟ وفي رواية: «ومَنْ أمرك أنْ تشربَ الدَّم؟ ويلٌ لكَ من النَّاس، وويلٌ للنَّاس منك».

قال العُلماء: «فكانوا يَرَوْنَ أنَّ القوَّة التي بهِ من ذلك الدّمِ الشريف»؛ وفي حديث: «من قوّة دمِ رسولِ الله ﷺ.

* وفي حديثٍ آخر بمعناه قال سيّدنا عبدُ الله: «إني أحببتُ أنْ يكونَ من دمِ رسولِ الله ﷺ في جوفي، فقال: «ويلٌ لك من النَّاس، وويلٌ للنّاس منك، لا تمسَّك النَّار إلا قسمَ اليمين»[1].

* وكان سيّدنا عبدُ اللهِ أثيراً محبوباً في بيتِ النُّبوّة، له مكانةٌ عند النّبيّ ﷺ، وعند خالتِهِ عائشةَ أمّ المؤمنين رضي الله عنها قال الذَّهبيّ: «قيل: إنَّ ابنَ الزُّبير أدركَ من حياةِ رسولِ الله ﷺ ثمانيةَ أعوامٍ وأربعةَ أشهرٍ، وكان ملازماً للولوج على رسولِ الله ﷺ، لكونه مِنْ آلهِ، فكان يتردَّدُ إلى بيتِ خالته عائشةَ رضي الله عنها»[2].

* وفي البيتِ النَّبويّ الكريمِ أخذتْ أمُّنا عائشةُ رضي الله عنها تغمرُ ابنَ أختها عبدَ الله بشتّى ألوانِ العطفِ والرّعايةِ والتّوجيهِ والحبِّ، وقد عرفَ النَّبيُّ ﷺ مدىٰ حبِّ عائشةَ لابنِ أختها، فقدَّرَ ذلك، وكنَّاها أمّ عبد الله، وكانت تقولُ: «ما أحببتُ أحداً حبّي عبدَ الله بنَ الزُّبير»[3].

* ذكر المصْعَبُ الزُّبيري هذا فقال ما مفادهُ: «قالت أمُّ المؤمنين ذات يوم

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٣٣٠)، ومختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٧٣ و١٧٤)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٠٣)، ومجمع الزوائد (٨/ ٧٢) مع الجمع والتصرف اليسير؛ وانظر: حياة الصحابة (٢/ ٣٢٦ و٣٢٧).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٤ و٣٦٥).

(٣) أخبار القضاة (١/ ١٨١) يعني تحبه بعد النبي ﷺ وبعد أبويها.

لسيّدنا وحبيبنا محمّد رسول الله ﷺ: يا رسولَ اللهِ ، اكْنِنِي.

فقال ﷺ: «تكنَّي بابن أختك عبد الله بن الزُّبير» أو قال: «تكنَّي بابنك عبدالله بن الزُّبير» ، وهي خالتُه أخت أمّه؛ وكانت كنيتها أمّ عبد الله؛ فرضي الله عنهما وأرضاهما»[1].

* وذكروا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد جمعَ أبناء المهاجرين والأنصار الذين وُلدوا في الإسلام حين ترعرعُوا ، فبايعهم ، فكان منهم عبدُ الله بنُ الزُّبير.

* جاء عن عبدِ اللهِ بنِ عروةَ بن الزّبير: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كُلِّم في غِلْمةٍ ترعرعُوا، منهم: عبدُ الله بنُ جعفر، وعبدُ الله بنُ الزّبير، وعمرُ بنُ أبي سلمة، فقيل: يا رسولَ اللهِ ، لو بايعتَهم فتصيبهم بركتُكَ ويكون لهم ذكْرٌ ، فأُتي بهم إليه ﷺ فكأنّهم تكعكعوا حين جيء بهم إلى النَّبيِّ ﷺ ، فاقتحم ابنُ الزُّبير أولهم ، فتبسَّم رسولُ الله ﷺ وقال: «إنّه ابنُ أبيه» ، وبايعوه»[2].

* نشأَ عبدُ الله بن الزُّبير رضوان الله عليه نشأةَ الأبطال ، وعاش تحت كنفِ أبيه الزبير حواري النَّبيّ ﷺ ، وكنفِ أُمّهِ أسماء الفدائيةِ الكبيرة يوم الهجرة ، ورضعَ الرّياسةَ والشَّجاعة ، والهيبةَ منذ نعومةِ أظافره ، وتربّى على الجرأةِ والسِّيادةِ منذ أنْ كان صبيّاً يلعبُ مع أترابه.

* وأوّلُ ما عُرِفَ من حسنِ تربيةِ ابن الزُّبير رضي الله عنه وعلوّ همّته ، وحصافته أنّه كان ذات يوم يلعبُ مع الصِّبيان وهو صبيٌّ ، فمرَّ رجلٌ فصاحَ عليهم ، ففرّوا ، ومشى عبدُ الله بنُ الزّبير القهقهرىٰ وقال: «يا صبيان ، اجعلوني أميركم ، وشُدُّوا بنا عليه»[3].

* وعن الحارث ومحمّد ابنا حاطب أنَّهما ذكرا ابن الزُّبير بالإقدام والشّجاعة منذ صغره فقالا ما مفاده: «طالما حرصَ ابنُ الزُّبير على الإمارة ، فقد أُتي رسولُ اللهِ ﷺ بلِصٍّ ، فأمرَ بقتله. فقيل: يا رسولَ الله ، إنَّه سَرَقَ.

---

(١) نسب قريش (ص ٢٣٧) بشيء من التصرف.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٧٣) ، و«تكعكعوا»: هابوا وداخَلَهم الخوف.

(٣) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٧٤).

فقال: اقطعوه. ثمّ جيء به بعد ذلك في خلافةِ سيّدنا أبي بكر الصِّدِّيق؛ وقد سرقَ، وقد قُطِعَتْ قوائمه، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ما أجدُ لكَ شيئاً إلاّ ما قضى فيك رسولُ الله ﷺ يوم أمرَ بقتلِكَ، فإنَّه كان بك أعلم، فأمرَ بقتله أغيلمةً من أبناءِ المهاجرين كان فيهم ابنُ الزُّبير، فقال لهم ابنُ الزُّبير: أمّروني عليكم، فأمّرناهُ، فانطلقْنَا به إلىٰ البقيع، فقتلناه»[1].

* وتنقلُ المصادرُ أنَّ سيّدنا عبد الله بنَ الزُّبير قد غُذّي الشَّجاعةَ منذ طفولته، فكان ثابتَ الجأشِ والنُّهى، ثابتَ القلبِ والقدم، لا يهابُ أحداً، ولا يخافُ من أحدٍ، فقد ذكرَ هشامُ بنُ عروةَ بن الزُّبير قال: كانَ أوَّلُ ما أفصحَ به عمّي عبدُ الله بنُ الزُّبير وهو صغيرٌ: السَّيفُ، فكان لا يضعه مِنْ فِيْهِ، فكان الزّبيرُ بنُ العوّام إذا سمع ذلك منه يقول: أمّا واللهِ ليكوننَّ لكَ منه يومٌ ويومٌ وأيّامٌ»[2].

* ومرَّ عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه بعبدِ اللهِ بنِ الزُّبير رضي الله عنه وهو صبيٌ يلعبُ مع الصِّبيان في أحدِ أزقةِ المدينةِ المنوّرة، فهربَ الصِّبيانُ من سيّدنا عمر، بينما وقفَ ابنُ الزُّبير رابطَ الجأشِ والنّهى، ثابتَ القلب والقدم كأنّه شبلُ الأَسَدِ، فتعجَّبَ منه سيّدنا عمر وقال له: يا بنيّ، مالكَ لمْ تفرَّ مع أصحابِكَ؟

فقال عبدُ الله في شجاعةٍ وحصافةٍ: يا أميرَ المؤمنين، لمْ أجْرِمْ فأخافُكَ، ولم تكنِ الطَّريقُ ضيقةً فأوسع لك..

فتعجَّبَ منه سيّدنا عمر، وتركه ومضى[3].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٧٤)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٦) مع الجمع والتصرف. وفي هذا الخبر نظر!! قال الذهبي: «هذا خبر منكر والله أعلم».

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٩٦) قال ابنُ حمدون في «تذكرته»: «عبدُ الله بنُ الزّبير بن العوام، معروفٌ بالأيدِ والبسَالةِ والإقدامِ، وهو قاتلُ جُرجير ملك أفريقية، وكان يرى أنَّه أشجع أهل عصره» (التذكرة الحمدونية ٢/ ٤٨٤).

(٣) انظر: التذكرة الحمدونية (٧/ ٢١٨ و٢١٩)، وعيون الأخبار (٢/ ١٩٧) مع الجمع والتصرف.

العَابدُ الخاشعُ:

* يعدُّ سيِّدنا عبدُ الله بنُ الزُّبير رضي الله عنه مِنَ العبادلةِ الأربعةِ الأعلام، وفوق هذا فهو صحابيٌ ابنُ صحابي ابن صحابية، وجدُّه أبو بكر الصِّدّيق شيخُ الصَّحابة وأوّل الرِّجال إسلاماً رضي الله عنه وأرضاه وحشرنا في معيّته.

* في هذا الجوِ المفعم بكلِّ خيرٍ وفضْلٍ؛ نشَأَ عبدُ اللهِ نشأةَ العُلماءِ العبّادِ، وكان نحيفَ الجسمِ أسمرَ اللون خفيفَ اللحية، يظهرُ بين عينَيْه أثرُ السُّجود، وكان يشبه جدّه أبا بكر الصِّدِّيق، حتّى قال له أبوه الزُّبير: «أنتَ أشبهُ النَّاسِ بأبي بكر»[1].

* وعن أبي مليكةَ عن عبدِ الله بنِ الزُّبير رضي الله عنهما قال: «سمّيتُ باسمِ جدّي أبي بكر الصِّدِّيق، وكنيتُ بكنيته»[2].

* وقال مجاهدُ بنُ جبر رحمه الله: «كان ابنُ الزُّبير إذا قامَ إلى الصَّلاة كأنّه عودٌ، وحدَّث أنَّ أبا بكر الصِّدّيق رضي الله عنه كان كذلك»[3]. وكان سيّدنا عبدُ الله بنُ الزُّبير لا يُنازع في ثلاثة: شجاعةٍ، ولا عبادةٍ، ولا بلاغةٍ[3].

* وعاش سيّدنا عبدُ الله شطراً من حياتهِ يرىٰ عبادة البيتِ النَّبويّ عن كَثَبٍ، فكان هذا البيتُ الطَّاهرُ قدوتَهُ في أموره جميعها، وكانتِ الصَّلاةُ قرّةً عينه، حتّى قال عمرُو بنُ دينار: «ما رأيتُ مصلّياً أحسنَ صلاةً من ابن الزُّبير»[4].

* وقال يحيى بنُ وثاب: «وكان ابنُ الزُّبير إذا سجد وقعتِ العصافيرُ على ظَهْرِهِ، تصعدُ وتنزلُ، لا تراهُ إلّا جِذم حائط».

---

(١) الإصابة (٢/٣٠٢).

(٢) الاستيعاب بهامش الإصابة (٢/٢٩٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٣٦٨ و٣٦٩ و٣٧٠)، ومختصر تاريخ دمشق (١٢/١٧٦) مع الجمع.

(٤) مختصر تاريخ دمشق (١٢/١٧٦).

* كان عبدُ الله بنُ الزُّبير رضي الله عنه وأرضاه من العُلماءِ العُبَّاد المجتهدين ، وما كان أحدٌ أعْلَمَ بالمناسكِ منه ، وأوصتْ إليه سيّدتنا عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها.

* أحبَّ سيّدنا عبدُ الله الصَّلاةَ حبّاً جمّاً ، وذكرتِ المصادرُ أنَّه قسمَ الدَّهْر على ثلاثِ ليال: فليلةٌ هو قائمٌ حتَّى الصَّباح ، وليلةٌ هو راكعٌ حتّى الصَّباح ، وليلةٌ هو ساجدٌ حتَّى الصَّباح[1].

* وكان كثيرَ الخشوعِ في الصَّلاة ، فقد كان يركعُ أحياناً زمناً طويلاً يسبّحُ بمقدار ما يقرأ القارىء أربع سُور طوال ولا يرفعُ رأسه من ركوعه ، وهذا ما جاء عن مسلم بن ينَّاق المكّيّ قال: «ركعَ عبدُ الله بنُ الزُّبير يوماً ركعةً ، فقرأنا بالبقرةِ ، وآلِ عمران ، والنّساءِ ، والمائدةِ ، وما رفعَ رأسه»[2].

* ويروى أنَّ سيّدنا عبدَ الله بنَ الزُّبير رضي الله عنه أوّلُ مَنْ صفَّ رجلَيْه في الصَّلاة ، فاقتدىٰ به كثيرٌ من العُبَّاد ، وكان مجتهداً من المصلّين حتّى أَثَّرَ السّجودُ بوجههِ ، فعن أبي إسحاق قال: «ما رأيتُ أحداً أعظم سجدةً بين عينَيْه من ابن الزُّبير».

* وقال ابنُ أبي مليكة: قال لي عمرُ بنُ عبد العزيز: «إنَّ في قلبك من ابنِ الزُّبير».

قلت: «لو رأيتَه ما رأيتَ مناجياً مثلَه ، ولا مصلّياً مثْلَه»[3].

* وحدثت أمُّ جعفر بنتُ النّعمان أنَّها سلَّمت على أسماءَ بنتِ أبي بكر ـ وذكر عندها عبد الله بنُ الزُّبير ـ فقالت: «كان ابنُ الزّبير قوّامَ الليل ، صوّامَ النّهار ، وكان يسمّى حمامةَ المسجد».

* وإلى جانب عبادةِ ابنِ الزّبير في الصَّلاة ، كان من العُبّاد الصَّوَّامين

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٩).
(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٧٦).
(٣) حلية الأولياء (١/ ٣٣٥).

الصَّابرين على مشقَّةِ الصِّيامِ ، روي أنّه كان يواصلُ في الصِّيام قرابةَ أسبوع ، ولا ينثني عزمه ولا يضعُفُ ولا يلينُ ، بل يغدو كأنَّه ليثٌ هَصُورٌ.

* فقد ذكروا أنَّه كان يصومُ يوم الجمعة ، ولا يفطرُ إلا ليلةَ الجمعةِ الأخرى ، وذكروا أيضاً أنّه كان يصومُ في المدينةِ المنورة فلا يفطرُ إلاّ في مكّةَ المكرمةِ ، وكان عند إفطاره يدعو بِقَعْبٍ من سَمْنٍ ، ثم يأمرُ بلبنٍ فَيُحلب عليه ، ثم يدعو بشيءٍ من صَبِرٍ فيذُرّه عليه ثم يشربُه.

* قال خالدُ بنُ أبي عمران: «كان ابنُ الزُّبير لا يفطرُ من الشَّهر إلا ثلاثة أيام»[1].

* وقال هشامُ بنُ حسَّان: «كان عبدُ الله بنُ الزُّبير يصومُ عشرة أيّام لا يفطرُ فيها ، فكان إذا دخلَ رمضان أكلَ أكلةً في نصف الشَّهر»[1].

* وعن ابن أبي مليكة قال: «كان ابنُ الزّبير يواصلُ سبعة أيام ، ويصبحُ في اليوم السَّابع ، وهو أَلْيَثُنَا»[2].

* قال القرطبيُّ رحمه الله: «تَرْكُ الوصالِ أولىٰ ، وذلك أرفعُ الدَّرجات ، وأعلىٰ المنازلِ والمقاماتِ ، حتى لا يفْتُرَ النَّاسُ أو يضعُفُوا عن الجهادِ والقوّةِ على العدوّ. وأنَّ الليلَ ليس بزمانِ صوم شرعي ، حتّى لو شرع إنسانٌ فيه الصَّوم بِنيّةٍ ما أثيب عليه ، والنَّبيّ ﷺ ما أخبرَ عن نفسِهِ أنَّه واصَلَ ، وإنّما الصَّحابةُ ظنُّوا ذلك ، فقالوا: إنَّكَ تواصل ، فأخبر أنَّه يُطْعَمُ ويُسْقَى. وظاهرُ هذه الحقيقة: أنَّه ﷺ يُؤتى بطعامِ الجنَّةِ وشرابها. وقيل: إنَّ ذلك محمول على ما يرِدُ على قلبهِ منَ المعاني واللطائف وإذا احتملَ اللفظُ الحقيقةَ

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٧٨) ، والبداية والنهاية (٨/ ٣٣٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٨) ، ومعنى «أليثنا»: أي أشدنا وأجلدنا ، يعني يكون كأنّه ليث. وعلّق الذّهبيّ على هذا الخبر فقال: «قلتُ: لعلّه ما بلغَهُ النّهي عن الوصالِ في الصَّوم ، ونبيّك ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وكلُّ مَنْ واصَلَ ، وبالغَ في تجويع نفسه ، انحرف مزاجه ، وضاق خلقه ، فاتباع السّنّة أولى ، ولقد كان ابن الزبير مع ملكه صنفاً في العبادة».

والمجاز فالأصلُ الحقيقةُ حتّى يردَ دليلٌ يزيلُها ، ثمّ لما أَبَوْا أنْ ينتهوا عن الوصالِ واصلَ بهم وهو على عادته كما أخبرَ عن نفسِهِ ، وهم على عادتهم حتى يضعُفُوا ويقلَّ صبرهم فلا يواصلوا. وهذه حقيقةُ التّنكيل حتى يدعوا تعمّقهم وما أرادوه من التّشديد على أنفسهم. لأنَّ الصَّحابةَ لما سألوه عن وصالهم أبدى لهم فارقاً بينه وبينهم ، وأعلمهم أنَّ حالتَه في ذلك غيرُ حالاتهم. والله أعلم[1]».

* ولشدّة شغفِ ابنِ الزُّبير بالعبادةِ والطَّاعةِ ، كان يعملُ ما يعجزُ عنه الأقوياء ، قال مجاهد: «ما كان باب من العبادةِ يعجزُ عنه النَّاس إلا تكلَّفَه عبد الله بنُ الزُّبير ، ولقد جاء سَيْلٌ طبَّقَ البيتَ ، فجعلَ ابنُ الزُّبير يطوفُ سباحةً»[2].

* ولعلَّ هذه الخصائلَ النَّبيلةَ أحلّت ابن الزّبير المحلَّ الأرفعَ في قلْبِ خالته أمّنا عائشة ، وأمه أسماء ، فقد روى أخوهُ عروةُ بنُ الزُّبير هذه المكرمة العظيمة لأخيه عبد الله فقال: «ما سمعتُ أُمّيَ: عائشة وأسماء تدعوان لأحدٍ من الخلق دعاءهما لعبدِ الله بنِ الزُّبير». وقال عروةُ أيضاً: «لم يكن أحدٌ أحبّ إلى عائشة بعد رسولِ الله ﷺ وبعد أبي بكر من عبد الله بن الزُّبير».

* ولهذه الأمورِ الكريمة كان سيدنا عبدُ الله بنُ الزُّبير رضي الله عنه يفخر على لداته وأصحابه ، ويقول بأنّه ليس لأحدٍ من العظائم مالَهُ هو ، وقال: «أيّ النّاس مثلي»؟!

* قال ابنُ أخيه هشامُ بنُ عروةَ: «كان عبدُ الله بنُ الزُّبير يعتدُّ بمكرماتٍ لا يعتدُّ بها أحدٌ من الناس: أوصتْ له عائشة بحجرتها ، واشترى حجرةَ سَوْدة»[3].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ٣٣٠) بشيء من التصرف والتقديم والتأخير.
(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٢/١٧٨ و١٨٣) ، والإصابة (٢/٣٠٣) ، وحياة الصحابة (٢/٦٠٩).
(٣) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٨٣).

* والحقيقةُ فهذه مكرماتٌ عظمى ، فأكرمْ بها وبصاحبها سيدنا عبد الله بن الزّبير!

* وممّا يُضافُ إلى مكارم عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه في باب العبادة الصَّحيحة تعليمه لابنه الذِّكْرَ الصَّحيح والخشيةَ الحقيقيةَ من الله عزَّ وجلَّ.
فقد جاء عن عامرِ بنِ عبد الله بن الزُّبير قال: «جئتُ أبي فقال: أين كنْتَ؟

فقلت: وجدتُ أقواماً ما رأيتُ خيراً منهم ، يذكرونَ الله تعالى ، فيُرعدُ أحدهم حتّى يغشى عليه من خشيةِ اللهِ تعالى فقعدتُ معهم.

قال: لا تقعدْ معهم بعدها ، فرأى كأنَّه لم يأخذْ ذلك فيَّ.

فقال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يتلو القُرآن ، ورأيت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما يتلوان القرآن فلا يصيبُهم هذا ، أفتراهم أخْشَعَ للهِ تعالى من أبي بكرٍ وعمرَ؟ فرأيتُ أنَّ ذلكَ كذلك فتركْتُهم»[١].

حياتُـه معَ القُرآن وعلومـه:

* كان سيّدنا عبدُ الله بنُ الزُّبير رضي الله عنه أحدَ أربعةٍ كرامٍ كلّفهم سيّدنا عثمانُ بِنَسْخِ القرآن الكريم؛ فهو أحدُ الحفّاظ لكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، التَّالين له آناءَ الليلِ وأطرافَ النَّهار ، الذّاكرين الله كثيراً في جميع الأوقات.

* ومن المعلوم أنَّ القرآنَ الكريم كان في مدّة النَّبيِّ ﷺ متفرّقاً في صدورِ الرِّجال ، وقد كتبَ النَّاس منه في صحفٍ ، وفي جريد ، وفي حجارٍ بيضٍ رقاق ، وفي خزفٍ ، وغير ذلك. فلمّا اشتدَّ القَتْل وكثُرَ بالقراء يوم اليمامةِ في زمنِ سيّدنا أبي بكر الصِّدِّيق رضوانُ اللهِ عليه ، وقُتِلَ منهم في ذلك اليوم قرابة سبع مئة قارىءٍ حَافِظٍ ، أشار عمرُ بنُ الخطَّاب على أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنهما بجمعِ القرآنِ مخافةَ أنْ يموتَ أشياخُ القُرّاء ، من مثل: أبيُّ بنُ كعب ، وعبدُ الله بنُ مسعود ، وزيدُ بنُ ثابت وغيرهم ، فندبا زيدَ بنَ ثابت لهذه المهمة ، فتتبّعَ القرآنَ وجمعَه ، وكانتِ الصُّحفُ التي جُمِعَ فيها

---

(١) حياة الصحابة (٣/٢٤٨).

القرآن عند سيّدنا أبي بكر حتى توفّاه اللهُ عزَّ وجلَّ، ثم عند عمر حتّى توفَّاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، ثمّ عند حفصةَ بنتِ عمر ، إلى أن كان عهدُ عثمانَ رضي الله عنه ، ورأى اختلافَ النَّاس في القراءات ، فشاوَرَ سيّد عُلماء الصَّحابة سيّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكبار فقهاء الصَّحابة في جَمْعِ النَّاس على قراءةٍ ، فكان القَبولُ ، فأرسلَ عثمانُ إلى أمِّ المؤمنين حفصةَ : أنْ أرسلي إلينا بالصُّحفِ ننسخُها في المصاحفِ ثمّ نردُّهَا إليك ، فأرسلتْ بها إليه ، فأمَرَ زيدَ بنَ ثابت ، وعبد الله بنَ الزُّبير ، وسعيدَ بنَ العاصي ، وعبد الرحمن بنَ الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف.

* وهكذا شارك ابنُ الزُّبير في هذا العملِ الميمونِ الذي ظلَّ وسيظلُّ في تاريخه إلى يومِ القيامة يحكي جهدَهُ ، واجتهادَهُ وفقْهَهُ وعلْمَه.

* لقد شارك عبدُ الله بنُ الزُّبير رضي الله عنه في رسم المصحف وفي وجوهِ القراءات، من ذلك أنَّهم اختلفُوا في كتابة «التّابوت» فقال زيدُ بن ثُابت: «التّابوه» ، وقال ابنُ الزُّبير وسعيدُ بنُ العاصي «التّابوت» ، ورُفعَ اختلافهم إلى سيّدنا عثمان فقال: «اكتبوه بالتّاء ـ التّابوت ـ فإنّه نزلَ بلسانِ قريش»[١].

* وكان لابنِ الزُّبير رضي الله عنه آراءُ فقهيّة تدلُّ على سَعَةِ علْمِهِ ، فقد ذهبَ مع فريقٍ من علماء الصَّحابة إلى الإسْرارِ بالبسْمَلَةِ مع الفاتحةِ؛ وكان يرفعُ صوته بقول «آمين» لأنّه يعلمُ بأنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا قرأَ ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] قال: «آمين» يرفعُ بها صوته. وقد ترجم البخاريُ «باب جَهْر الإمامِ بالتّأمين»[٢].

* ومن فقْهِ ابن الزُّبير رضي الله عنه في الصَّوم ما رواهُ قال: أفطر رسولُ اللهِ ﷺ عند سعدِ بنِ معاذ فقال: «أفطرَ عندكم الصَّائمون ، وأكلَ طعامَكم الأبرارُ ، وصلّتْ عليكم الملائكةُ»[٣].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٤٩ ـ ٥٤) باختصار وانظر: تفسير ابن عطية (ص ٢٦).
(٢) تفسير القرطبي (١/ ١٢٩).
(٣) تفسير القرطبي (٢/ ٣٣١) ، والحديث أخرجه ابن ماجه برقم (١٧٤٧).

* وفي رمي الجمرات في الحجّ ثبتَ أنَّ ابنَ الزُّبير كان يرميها وهو ماشٍ غير راكب، وأنَّه يكبّرُ مع كُلّ حصَاةٍ، وكان وجههُ في حالِ رميه إلى الكعبة(1).

* وفي مضمارِ القراءات ثبتَ عن ابن الزّبير أنّه قرأَ قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، فقد قرأ «يُمَحِّقُ» بضم الياء، وكَسْرِ الحاء مشدّدة، و«يُربِّي» قرأها: بفتح الرّاء وشدّ الباء، ورويت عن النّبيّ ﷺ كذلك(2).

* وفي قراءةِ قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، فقد قرأ ابنُ الزُّبير «وذلك أَفكَهُمْ» بفتح الهمزة والفاء والقاف على الفعل؛ أي ذلك القول صَرفَهم عن التّوحيد(3).

* وفي مجال مستحبّات قراءةِ القرآنِ الكريم، يُستحبُّ للقارىء إذا قرأَ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، أنْ يقولَ عَقِبَه: سبحانَ ربي الأعلى، قاله النَّبيُّ ﷺ، فقد روي عن سيّدنا عبدِ اللهِ بنِ الزّبير وثلّةٍ من علماء الصَّحابة أنّهم كانوا إذا افتتحوا قراءة هذه السّورة قالوا: سبحان ربي الأعلى امتثالاً لأمرِه في ابتدائها؛ فيختار الاقتداء بهم في قراءتهم(4).

* وفيما يتعلّقُ بأسبابِ النُّزول نجدُ شذراتٍ كثيرةً منها ما جاء عن عبدِ الله بنِ الزُّبير رضي الله عنه قال: «لما نزلت: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات ٢] ما حدث عمر عند النّبيّ ﷺ بعد ذلك فَسُمِع كلامه حتى يستفهمه ممّا يخفض؛ فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣](5).

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ١٠).

(٢) تفسير ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (ص ٢٥٤) دار ابن حزم ـ بيروت ـ ط ١ ـ ٢٠٠٢م.

(٣) تفسير ابن عطية (١٧١٤)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٢٠٩ و٢١٠) مع الجمع والتصرف.

(٤) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٤).

(٥) تفسير القرطبي (١٦/ ٣٠٨).

* ويذكر ابنُ الزُّبير رضي الله عنه أنَّ سورةَ الأعلىٰ نزلَتْ في أبي بكر الصِّدّيق رضي الله عنه[1].

* وعن ليلةِ القدرِ يقولُ ابنُ الزُّبير: «هي ليلةُ سبع عشرة من رمضانَ، وهي الليلةَ التي كانت صبيحتُها وقْعَةَ بَدْرٍ»[2].

* وكان لسيّدنا عبدِ الله بنِ الزُّبير رضي الله تعالى عنه بعضُ الآراء في تفسيرِ بعضِ آيات الأحكامِ وبعضِ الأمورِ الأخرى المتعلّقة بأركانِ الإسلام وبأمورِ العبادات، وقد وافقَه عليها كثيرٌ من عُلماءِ الصَّحابة والتَّابعين، ومن أمثلةِ ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، قال ابنُ الزُّبير والضَّحاكُ: «إذا كان مستطيعاً غير شاقّ على نفْسِهِ فقد وجبَ عليه الحجُّ»[3].

* وفي وجوه القراءة، كان ابنُ الزُّبير وقتادةُ وجماعةٌ، يقرؤون قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ . . .﴾ [النساء: ٣٧] فكانوا يقرؤون «بالبَخْل» بَفَتْحِ الباءِ وسكون الخاء وكلّها لغات»[4].

* ومن المفيد ها هنا أنْ نشيرَ إلى أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ قد نزلتْ في أحبارِ اليهودِ بالمدينةِ، فإنَّهم بخلُوا بالإعلام بِصِفَةِ محمّدٍ ﷺ، وبما عندهم من العلْم في ذلك، وأمروا النَّاس بالبخلِ على جهتَيْن:

الأولى: قالوا لأتباعهم وعوامّهم: اجحدوا أمْرَ محمّد وابخلوا به.

الثَّانية: قالوا للأنصار: لِمَ تنفقون أموالكم على هؤلاء المُهاجرين فتفتقرون[5]؟

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٠).
(٢) المصدر السابق (٢٠/ ١٣٥).
(٣) انظر: تفسر ابن عطية (ص ٣٣٣)، وتفسير البحر المحيط (٣/ ١٣).
(٤) انظر: تفسير البحر المحيط (٣/ ٢٥٧) واقرأ شيئاً عن القراءات في ترجمة سيدنا تميم الداري، وفضالة بن عبيد في هذه الموسوعة المباركة.
(٥) انظر: تفسير ابن عطية (ص ٣٤٥) بتصرف يسير.

* ولسيّدنا ابن الزّبير رضي الله عنه أكثر من قولٍ في تفسير آيةٍ واحدة، وهذا يدلُّ على تبحّره في العلْمِ، وعلى كونِه واحداً من عُلماء العبادلةِ الأربعة الأخيار. فمَن آرائه وعلمه في أكثر من تفسير لآية واحدة، تفسيره المنير الواضح لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ... ﴾ [الممتحنة: ٨]؛ فلهذه الآية عنده تفسيران:

أولهما: أراد النّساء والصِّبيان من الكفرة.

ثانيهما: الآيةُ الكريمةُ نزلت بسبب أمّ أسماء بنت أبي بكر واسمها قتيلة، قدمَتْ أمّها عليها وهي مشركةٌ بهدايا، فلم تقبلها، ولم تأذن لها بالدّخول، فأمرها النَّبيّ ﷺ أنْ تدخلَها وتقبل منها وتكرمها، وأن تحسن إليها وتبرّها وتَصِلُها[١].

* وفي تفسيرِ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ... ﴾ [المزمل: ٦] له قولان أيضاً:

الأولُ: ما كان بعد العشاء فهو ناشئة الليل، وما كان قبلها فليس بناشئة.

الثّاني: الليل كلّه ناشئة[٢].

ابنُ الزُّبير والحديثُ الشَّريف:

* أبدعَ عبدُ الله بنُ الزُّبير رضي الله عنه في ميدان التَّفسير، وكانت له آراء تدلُّ على فقْهِهِ وعلْمِهِ، ولكنّه كان مُقلاً في روايةِ الحديثِ النَّبويّ الشَّريف، فهو أقلُّ العبادلةِ الأربعةِ روايةً لأحاديثِ المُصْطفىٰ ﷺ.

* قال الإمامُ النَّوويُّ رحمه الله: «رُوي له عن رسولِ الله ﷺ ثلاثةٌ وثلاثون حديثاً، اتَّفقا على ستّةٍ، وانفردَ مُسْلمٌ بحديثَيْن»[٣].

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٩/٢٦٣)، وتفسير ابن عطية (ص ١٨٤٨) مع الجمع والتصرّف.

(٢) تفسير ابن عطية (ص ١٩١٢).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/٢٦٧).

* وقال ابنُ الأثير: «كان صوّاماً قوّاماً، طويلَ الصَّلاة، وروىٰ عن النَّبيّ ﷺ أحاديث، وعن أبيهِ، وعن عمرَ وعثمانَ وغيرهما»[1].

* وقال الذَّهبيُّ: «له صحبةٌ وروايةُ أحاديثَ، مسندهُ نحو من ثلاثةٍ وثلاثين حديثاً؛ روىٰ عن أبيهِ، وجدّه لأمِّه الصِّدِّيق، وأمِّه أسماء، وخالتِهِ عائشةَ، وعن عمرَ وعثمانَ وغيرهم»[2].

* حدَّثَ عن سيِّدنا عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير أخوه الفقيهُ عروة بنُ الزُّبير، وابناهُ: عامرٌ، وعبَّاد[3]، وابنُ أخيه محمّدُ بنُ عروة، وعبيدةُ السَّلماني، وطاووس، وعطاءُ، وابنُ أبي مليكة، وثابتُ البُنَاني، وحفيداه: مصعبُ بنُ ثابت بن عبد الله، ويحيى بنُ عبّاد بن عبد الله، وهشامُ بنُ عروة، وفاطمةُ بنتُ المنذر بن الزُّبير وآخرون.

* قال النَّوويُّ رحمَهُ اللهُ: «اِعْلَمْ أنَّ عبدَ الله بنَ الزُّبير هو أحدُ العبادلةِ الأربعةِ وهم: عبدُ الله بنُ عمر، وعبد الله بنُ عبّاس، وعبدُ الله بنُ الزُّبير، وعبدُ الله بنُ عمرو بن العاص، وهكذا سمَّاهم أحمدُ بنُ حنبلَ وسائرُ المحدّثين وغيرهم. وقيل لأحمد: فابنُ مسعود؟ قال: ليس هو منهم. قال البيهقيُّ: لأنَّه تقدَّمَتْ وفاتُه، وهؤلاء عاشوا طويلاً حتّى احتيج إلى علمهم؛ فإذا اتّفقُوا على شيءٍ قيل: هذا قول العبادلة أو فعلهم، ويلتحقُ بابن مسعود في هذا سائر المسلمين عبد الله من الصَّحابة، وهم نحو مئتين وعشرين، وأمّا قولُ الجوهريّ في «صِحاحِهِ»: أنَّ ابنَ مسعود أحدُ العبادلةِ الأربعةِ، وأخرج ابنَ عمرو بن العاص فَغَلَطٌ ظاهر نبَّهْتُ عليه لئلا يُغْتَرّ به»[4].

---

(١) أسد الغابة (٣/ ١٣٨) ترجمة رقم (٢٩٤٧).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٤).
(٣) قال ابن قتيبة: «ولد عبد الله بن الزّبير: حمزةَ، وخبيباً، وثابتاً، وموسى، وعبّاداً، وقيساً، وعامراً، وعبد الله، وبنات» وقال: «وزوّج عبد الله بن الزّبير بناته من بني أخيه». (المعارف: ص ٢٢٥ و٢٢٦).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٦٧).

* عاش ابنُ الزُّبير العقْد الأوَّلَ من حياتهِ وهو قريبٌ من بيتِ النُّبوة ، يكثرُ الدُّخُول على النَّبي ﷺ ويتردَّدُ إلى بيتِ خالتهِ الصِّدّيقة عائشةَ رضي الله عنها ، وينهلُ من يَنْبوعِ النُّبوَّةَ الصَّافي ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

* ومن مرويّات ابنِ الزُّبير في فضائلِ الصَّحابة ، ما أخرجه البخاري بسنده عن عبدِ الله بنِ أبي مليكة قال: كتَبَ أهلُ الكوفَةِ إلى ابن الزُّبير في الجَدّ ، فقال: أمّا الذي قال رسولُ الله ﷺ: «لو كنتُ متّخذاً من هذهِ الأمّةِ خليلاً لاتّخذته» ، أنزلَه أباً ، يعني أبا بكر[1] .

* وأخرج البخاري أيضاً حديثاً في مناقبِ الزُّبيرِ بنِ العوام رواه عبدُ الله ابنُ الزُّبير فقال: حدَّثنا أحمدُ بنُ محمد ، أنبأنا عبدُ الله ، أخبرنا هشامُ بنُ عروةَ عن أبيهِ ، عن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير قال: «كنتُ يومَ الأحزاب ، جُعِلْتُ أنا وعمرُ بنُ أبي سلمة في النِّساء ، فنظرتُ فإذا أنا بالزُّبير على فرسهِ يختلفُ إلى بني قُريظَةَ مرتَيْن أو ثلاثاً؛ فلمّا رجَعْتُ قلتُ: يا أبتِ رأيتُك تختلفُ ، قال: أَوَهَلْ رأيتني يا بُنيّ؟ قلتُ: نعم.

قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ يأتِ بني قُريظة فيأتيني بخبرِهم؟

فانطلقتُ ، فلمّا رجعتُ جمعَ لي رسولُ اللهِ ﷺ أبويه فقال: «فِداكَ أبي وأُمّي»[2] .

* وفي كتاب التَّفسير ، أخرجَ البخاريُّ عن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال: «ما أنزل الله إلا في أخلاق النَّاس»[3] .

* وفي رواية: «أمرَ اللهُ نبيّه ﷺ أنْ يأخذَ العفو من أخلاقِ النَّاس» أو كما قال[4] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦٥٨) انظر: فتح الباري (٧/ ٢١) طبعة مصر.
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٧٢٠).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٦٤٣).
(٤) أخرجه البخاري برقم (٤٦٤٤).

* أمّا في صِفَةِ الجلوس في الصَّلاة، وكيفيّة وضْع اليدين على الفخذَيْن، فقد جاء عن ابنِ الزُّبير في صحيح مسلم قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ، إذا قعدَ في الصَّلاةِ، جعلَ قدمه اليُسرى بين فخذِهِ وساقه، وفَرشَ قَدمَه اليمنى، ووضع يده اليُسرى على ركبته اليُسرى، ووضع يده اليمنى على فخذِهِ اليمنى، وأشار بإصبعه»[١].

* ولابن الزبير أحاديث أخرى في كُتب السُّنَن، وكتب المسانيد، ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد في المسندِ بسنده عن هشامِ بنِ عروةَ بن الزُّبير قال: كان عبدُ الله بنُ الزُّبير يقولُ في دُبرِ كلِّ صلاةٍ حين يُسَلِّم: «لا إله إلا الله وحْدَهُ لا شريكَ له، له المُلكُ وله الحمدُ وهو على كلّ شيءٍ قديرٍ، لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ، لا إله إلا الله، ولا نعبدُ إلا إياه، وله النّعمةُ وله الفَضْلُ وله الثّناءُ الحسَنُ، لا إله إلا الله مخلصين له الدِّين ولو كرِهَ الكافرون» قال: وكان رسولُ الله ﷺ يهلل بهنّ دبر كُلِّ صلاة[٢].

* وعن فَضْلِ صيام يوم عاشوراء يقول ابنُ الزُّبير: «هذا يومُ عاشوراء فصوموهُ، فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «صوموه»[٣]. وفي رواية: فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أمرَ بصومِهِ[٤].

* ويصفُ عبدُ الله بنُ الزُّبير صلاةَ النَّبيِّ ﷺ وكيف كان يُوترُ فيقول: «كان رسول اللهِ ﷺ إذا صلى العشاء ركعَ أربعَ ركَعاتٍ، وأوتر بسجدة، ثم نامَ حتّى يصلّي بعد صلاتِه الليل»[٥].

* وعن ذِكْرِ رسولِ اللهِ ﷺ عقبَ صلاتِهِ كان ابن الزُّبير يحدّثُ أصحابَه من على المنبرِ وهو يقولُ: كان رسولُ الله ﷺ إذا سلَّم في دُبر الصَّلاةِ أو

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٥٧٩).
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٠) برقم (١٦١٠٥).
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٢) برقم (١٦١١٩).
(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٤) برقم (١٦١٣٢).
(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥١) برقم (١٦١٠٩).

الصَّلوات يقولُ: «لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له ، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كل شيءٍ قدير ، لا حولَ ولا قوة إلا بالله ، ولا نعبدُ إلا إياه أهل النّعمة والفضْل والثّناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدِّين ولو كرِهَ الكافرون»[١] .

* ويروي ابنُ الزُّبير لنا شذرةً مباركةً من شذراتِ سيّدتنا فاطمةَ الزَّهراء ومكانتها العظمى في بيتِ النُّبوَّةِ ، فيقول: إنَّ علياً ذكرَ ابنةَ أبي جَهْل ، فبلغَ النَّبيَّ ﷺ فقال: «إنَّها فاطمةُ بضْعةٌ منّي يُؤذيني ما آذاها ، ويُنْصِبُني ما أنصبَها»[٢] .

* وللمسجدِ النَّبويّ والمسجدِ الحرام نصيبٌ في مروياتِ سيّدنا عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير ، إذ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألفِ صلاة فيما سواه من المساجدِ إلا المسجد الحرام ، وصلاةٌ في المسجدِ الحرامِ أفضلُ من مئةِ صلاةٍ في هذا»[٣] .

* وعمّا جاء في الحجِّ ومناسِكهِ جاء في قضاءِ الحجّ عند النّسائي عن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير قال: جاءَ رجلٌ من خَثْعَمَ إلى رسولِ الله ﷺ ، فقال: إنَّ أبي شيخٌ كبيرٌ لا يستطيعُ الركوبَ ، وأدركتْهُ فريضةُ اللهِ في الحجّ ، فهل يجزىءُ أنْ أحجَّ عنه. قال: «آنتَ أكبرُ ولده». قال: نعم. قال: «أرأيت لو كان عليه دَيْن أكنْتَ تَقْضيه»؟ قال: نعم. قال: «فحجَّ عنه»[٤] .

* وأداءُ الحقوقِ له نصيبٌ أيضاً في مرويات ابن الزُّبير ، فقد أخرجَ أبو نعيم عنه في «الحلْية» قال: لمّا نزلَتْ هذه الآية ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر: ٣١] ، قال: قال الزُّبيرُ: يا رسولَ الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الدّنيا مع خواص الذُّنوب؟

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٣) برقم (١٦١٢٢).
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٣) برقم (١٦١٢٣).
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٢) برقم (١٦١١٧).
(٤) سنن النسائي (٥/ ١١٧ و١١٨).

قال: «نعم! حتّى يؤدّىٰ إلى كلِّ ذي حقّ حقَّه»[1].

* وفي توضيحِ معنى النَّعيم في القُرآنِ الكريمِ قال ابنُ الزُّبير: لما نزلت ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨] قال الزُّبير: يا رسولَ الله أي نعيم نُسْأَلُ عنه؟ وإنّما هما الأسودان: الماء والتّمر!

قال: «أما إنَّ ذلك سيكون»[1].

* وعن القناعةِ الحقيقيّةِ نجدُ هذه الرِّوايةَ الكريمةَ، فعن سَهْلِ بنِ سعد السَّاعدي قال: سمعتُ ابنَ الزُّبير يقولُ في خطبتهِ على منبرِ مكَّة: يا أيها النّاس، إنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقولُ: «لو أنَّ ابنَ آدم أُعْطِيَ وادياً من ذهبٍ أحبَّ إليه ثانياً، ولو أُعطيَ ثانياً أحبَّ إليه ثالثاً، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلا التّراب، ويتوبُ اللهُ على مَنْ تاب»[1].

بلاغَتُهُ ومَدْحُ الشُّعَراءِ لَهُ:

* لئن سبقَ ابنُ الزُّبير رضي الله عنه كثيراً من النَّاس في ميدانِ العِلْم والفِقْهِ والرِّواية، لقد كان مُجليّاً في مضمارِ الأدبِ والبلاغةِ، وكيفَ لا، وقد تغذّى علىٰ البلاغةِ الكبرىٰ: بلاغةُ القرآنِ الكريمِ، والحديثُ الشَّريف، ورَفَدَ ذلك بالبلاغةِ العَائشيّة التي تعلَّمها من خالتِهِ أمِّ المؤمنين عائشةَ الصِّدِّيقةِ أفْقَه نساءِ الأمّةِ على الإطلاق؟!

* وقد أُثِرَتْ عن سيّدنا عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير رضي الله عنه كلماتٌ وحكَمٌ وأمثالٌ في غايةِ الجمالِ والبلاغَةِ، ومنها ما جاء عند ابن حمدون في تذكرتِه قال: «وقفَ عبدُ الله بنُ الزُّبير على باب مُنَّةٍ ـ أو ميّةٍ ـ مولاةٍ لمعاويةَ رضي الله عنه كانت ترفع حوائجَ النَّاس إليه ـ.

فقيل له: يا أبا بكر تقفُ على بابِ منّة؟!!

قال: إذا أعيتْكَ الأمورُ من رؤوسها فَأْتِها من أذنابها»[2].

---

(١) هذه الأحاديث أخرجها أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٣٧).

(٢) انظر: التذكرة الحمدونية (١/ ٤٦١) وقول ابن الزّبير هذا يذكرني بقول عمرو بن معدي =

* وأُثِرَتْ عنه حكمةٌ رفيعةٌ بليغةٌ في المشورةِ والرَّأْي ، وكيف تكشفُ التَّجارِب بصيرة ذوي الألبابِ ، فقال: «لا عاشَ بخيرٍ مَنْ لم يرَ برأيه ما لَمْ يَرَ بعينه»[1].

* وفي محبّةِ الوطنِ وأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عمَّر البلدان بحبِّ الأوطانِ يقولُ ابنُ الزبير: «ليس النَّاس بشيءٍ من أقسامهم أقنعَ منهم بأوطانهم»[2].

* ولعبدِ الله بنِ الزُّبير كلماتٌ جرَتْ مجرىٰ الأمثال ، ونظمتْ في الكتبِ التي تهتمُّ بهذا الشَّأْن ، ومن كلماتِهِ السَّائرة قولُه: «أكَلْتُم تَمْري وعصيتُم أمري»[3].

* وله من الأمثالِ السَّائرة قولُه: «عَشِّ ولا تَغْتَرَّ» ، وقصّة هذا المثَل ما رواهُ الميداني قال: «يُروى أنَّ رَجُلاً أتى ابنَ عمر ، وابنَ عبَّاس ، وابنَ الزُّبير رضي الله عنهم أجمعين فقال: كما لا ينفعُ مع الشِّرك عَمَلٌ ، كذلك لا يضرُّ مع الإيمانِ ذنب؛ فكلّهم قال: «عَشِّ ولا تَغْتَرَّ» ، يقولون: لا تفرطْ في أعمال الخيرِ وخذْ في ذلك بأوثق الأمور ، فإنْ كان الشَّأْنُ على ما ترجو من الرُّخصة والسَّعَةِ هناك كان ما كسبت زيادة في الخير ، وإن كان على ما تخاف ، كنت قد احتطت لنفسكَ»[4].

* وكان سيّدنا عبدُ الله بنُ الزُّبير يتمثّلُ بالشِّعر في الوقتِ المناسب ،

= كرب الزّبيدي لما سُبيت أخته ريحانةُ بنتُ معدي كرب سباها الصِّمَّة بن بكر الجشميّ:

إذا لَـمْ تستطـعْ أمـراً فَـدعْـهُ وجـاوزْهُ إلـى مـا تستطيـعُ

وكيـفَ تـريـدُ أنْ تُـدعـىٰ حكيمـاً وأنـت لكـلّ مـا تهـوىٰ تبـوعُ

وهي من قصيدة طويلة تبلغ (٣٧ بيتاً). انظر: (شعر عمرو بن معدي كرب الزّبيدي ص ١٤٠ ـ ١٤٨) مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ـ جمعَه ونسّقه: مطاع الطرابيشي ـ ط ٢ ـ ١٩٨٥م دمشق.

(١) التذكرة الحمدونية (٣/ ٣٠٥) ، وعيون الأخبار (١/ ٣٤).
(٢) التذكرة الحمدونية (٨/ ١٤٢).
(٣) مجمع الأمثال للميداني (١/ ١٣٥) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مصر ـ ١٩٧٨م.
(٤) مجمع الأمثال (٢/ ٣٤٠).

وعند حدوث أمرٍ ما؛ قال المبرّدُ: «لما أتىٰ عبدَ اللهِ بنَ الزُّبير رضي الله عنه قَتْلُ أخيهِ مصعبَ بنِ الزُّبير ، قال: أَشَهدَهُ المهلّب بن أبي صُفْرة؟

قالوا: لا. قال: أفشهده عبَّاد بن الحُصَيْن الحَبطيّ؟

قالوا: لا. قال: أفشهده عبد الله بنُ حازم السُّلَميّ؟

قالوا: لا.

فتمثّل بهذا البيت:

فَقُلْتُ لها عِيْثِي جَعارِ وأَبْشِري بِلَحْمِ امرىءٍ لم يشْهدِ اليومَ ناصره[1]

* ومن كلماته السَّائرة مَسْرىٰ المثَل قولُه: «اقتلوني ومالكاً».

* قال الميداني: «أوَّلُ مَنْ قال: اقتُلُوني ومَالِكاً عبدُ الله بنُ الزُّبير ، وذلك أنَّه عانقَ الأشْتَرَ النَّخعيَّ ، فَسَقَطَا عن جوادَيْهما إلى الأرضِ ، واسم الأَشْتَر مالك ، فَنَادىٰ عبدُ الله بنُ الزُّبير:

اقتلُوني ومَالِكاً واقتلُوا مَالكاً معي

يُضربُ مَثَلاً لكلِّ مَنْ أرادَ بصاحِبِه مكْروهاً ، وإنْ نَالَه منه ضَرَرٌ»[2].

---

(١) مجمع الأمثال (٢/ ٣٣٧) وقال الخليل بن أحمد رحمه الله: «لكثرةِ جَعْرها سمّيت جَعَار ، يعني الضَّبُع».

(٢) مجمع الأمثال (٢/ ٤٩٧).

ومنَ الفوائدِ التي ينبغي أن نعرفها ما جاء في «حياة الحيوان» للدَّميري قال: «كان اسمُ الجملِ الذي ركبته عائشة رضي الله عنها يوم وقعة الجمل «عَسْكَرا» ، اشتراهُ لها يعلى ابن أمية بمئتي درهم ، وأمّا الأشترُ النّخعي فهو مالكُ بنُ الحارث ، وكان من الأبطال المشهورة وكان من أصحابِ سيّدنا عليّ رضي الله عنه يومَ الجمل ، واشتبكَ الأشترُ مع عبد الله بنِ الزُّبير وكان ابنُ الزّبير مع عائشةَ رضي الله عنها ، فتماسكا ، فصَار كلُّ واحدٍ منهما إذا قوي على صاحبه جعله تحته ، وركب على صدره ، فعَلا ذلك مراراً ، وابن الزّبير يصيح بأعلى صوته:

اقتلُوني ومالكاً واقتلُوا مالكاً معي

يريدُ بذلك الأشتر النّخعي ، قال ابنُ الزّبير رضي الله عنه: أمسيتُ يومَ الجمل وفيَّ سَبْعٌ وثلاثون جراحة ما بين طعنةِ رمح وضربةِ سيف ورميةِ سَهْم ، قال: لا ينهزم من الفريقين أحد ، وما أخذَ أحدٌ بخطام الجمل إلا قتل ، فأخذت الخطام فقالت عائشة رضي الله =

* ويذكر ابنُ خَلِّكان في «وفياته»: «أنَّ الأشترَ النَّخعي قد دخلَ على عائشةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها بعد وقعة الجمل، فقالت له: يا أشتر أنت الذي أردتَ قَتْلَ ابنَ أختي يومَ الوقْعة؟ فأنْشَدَها:

أعائِشُ لولا أنّني كنْتُ طَاوياً ... ثلاثاً لألفيتِ ابنَ أختكِ هَالِكا
غداة يُنادي والرِّماحُ تنوشُهُ ... بآخر صوتٍ اقتلُوني ومَالِكا
فَنَجَّاهُ منّي أكْلُهُ وشبابُهُ ... وخلوة جوفٍ لم يكنْ متماسِكا»[1]

* ومن الإجاباتِ الحكيمةِ التي تدلُّ على عبقريةِ ابن الزُّبير وحصافته وسَعَةِ علْمه أنَّه سُئِلَ عن المُتْعَةِ وحكمها، فقال: «الذّئبُ يُكنَى أبا جَعْدة»: يعني أنَّ المتعةَ حَسَنةُ الاسم، قبيحةُ المعنى؛ كما أنَّ الذّئبَ حسنُ الكنيةِ، قبيحُ الفِعْل، خبيثُ المخبر، كذلك المتعة تَحسُنُ باسمِ التّزويج وهي فاسدة[2].

* ومما يشيرُ إلى فَصَاحةِ ابنِ الزُّبير وبلاغته أنّنا يمكنُ أنْ نقرأَ في «العِقْدِ الفريدِ» لابن عبد ربّه مفاخرات عبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن الزّبير، ومعاويةَ بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص والحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين.

* وكان ابنُ الزُّبير رضوان الله عليه يحفظُ شيئاً جميلاً من عُيون الشِّعر العربي، ويتمثَّلُ به، وينسجُ من خلال معانيه الحكمةَ والحنكةَ والتّجربةَ لسامعيه، من أمثلة ذلك ما جاء في مجلسِ سيِّدنا معاويةَ رضي الله عنه.

= عنها: مَنْ أنتَ؟ قلت ابن الزّبير، فقالت: واثكْلَ أسماء، ومرّ بي الأشتر فعرفته، فاقتتلنا، وضاع الخطام مني، ثم أخذَ الأشتر برجلي فرماني في الخندق، وقال: لولا قرابتك من رسول الله ﷺ ما اجتمع منك عضو إلى عضو أبداً. ويروى أنَّ عائشة رضي الله عنها أعطت الذي بشَّرها بسلامة ابن أختها عبد الله بن الزّبير لما لاقى الأشتر عشرة آلاف درهم». (حياة الحيوان للدّميري ١/ ٢٨٠ ـ ٢٨٢) و(وفيات الأعيان ٧/ ١٩٥ و١٩٦) مع الجمع والتصرف.

(١) وفيات الأعيان (٧/ ١٩٦)، وانظر: حياة الحيوان (١/ ٢٨٢).
(٢) انظر: حياة الحيوان (١/ ٥١١ و٥١٢) وثمار القلوب (ص ٢٥٢) مع الجمع.

* ذكرَ ابنُ عساكر هذه القصَّة فقال: «أَذِنَ معاويةُ للنَّاسِ يوماً فدخلوا عليه، فاحتفلَ المجلسُ وهو على سريره، فأجالَ بصرَهُ فيهم، ثم قال: أنشدوني لقدماء العربِ ثلاثة أبيات جامعةً مِنْ أجمع ما قالَتْها.

ثم قال: يا أبا خُبيب.

فقال: مَهْيَم.

قال: أنشدني ثلاثةَ أبياتٍ لقدماءِ العرب جامعةً من أجمع ما قالتا.

قال: نعم يا أميرَ المؤمنين، بثلاث مئة ألف.

قال معاوية: إنْ ساوَتْ.

قال: أنتَ بالخيارِ وأنتَ وافٍ كافٍ.

قال: نعم.

فأنشدَه للأفوه الأودي:

بَلَوْتُ النَّاسَ قَرْناً بعد قَرْنٍ ... فَلَمْ أرَ غَيرَ خَتَّالٍ وَقالِ

فقال معاويةُ: صَدَقَ.

ولم أرَ في الخُطُوبِ أشدَّ وقعاً ... وكيداً من مُعَاداةِ الرِّجالِ

فقال معاويةُ: صَدَقَ.

وذُقْتُ مَرارةَ الأَشْياءِ طرّاً ... فَما شَيءٌ أمرُّ مِنَ السُّؤالِ

فقال معاويةُ: صدقَ، هيه يا أبا خبيب.

قال: إلى ها هنا انتهىٰ بي.

فدعا معاويةُ رضي الله عنه بثلاثين عبداً، على عنق كلّ واحد منهم بَدْرة، فمرّوا بين يدي ابن الزُّبير، حتّى انتهوا إلى داره»[(١)].

* ولابن الزّبيرِ كلمات لسيّدنا معاويةَ تنضحُ بالجزالةِ والقوّةِ والفصاحةِ، فقد حدَّثَ هشامُ بنُ عروة: «أنَّ مروانَ بنَ الحكمِ نازعَ ابن الزُّبير، فكان

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٨٦ و١٨٧).

هوىٰ معاويةَ مع مروانَ ، فقال ابنُ الزُّبير : يا أميرَ المؤمنين ، إنَّ لك حقّاً وطاعةً ، فأطعِ اللهَ نُطِعْكَ ، فإنَّه لا طاعةَ لك علينا إلاّ في حقّ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولا تطرقْ إطراقَ الأفْعُوان في أصولِ السَّخبر فإنه أقرّ صامت»[1].

* وكان ابنُ الزُّبير نفسه يقرضُ الشِّعر ، ويحاورُ الشُّعراء ، ويكفُّ عن سفافِ القول إذا لزمَ الأمْرُ.

* ذكر عليُ بنُ ظافر الأزديّ : «أنَّ مروانَ بنَ الحكم وعبدَ الله بنَ الزُّبير اجتمعا ذاتَ يومٍ في حجرةِ عائشة رضي الله عنها ، والحجاب بينهما وبينها ، يحدّثانها ويسألانها ، فجرى الحديثُ بين مروانَ وابنِ الزُّبير ساعةً وعائشةُ تسمعُ ، فقال مروان :

فَمنْ يَشَأ الرّحمن يخفِضْ بِقَدْرِه ... وليس لِمَنْ لَمْ يَرْفَعِ اللهُ رافعُ

فقال ابنُ الزُّبير :

فَفوِضْ إلىٰ اللهِ الأُمورَ إذا اعترَتْ ... وباللهِ لا بالأقربين أدافعُ

فقال مروان :

وَدَاوِ ضَمِيرَ القَلْبِ بِالبرِّ والتُّقىٰ ... فلا يَستوي قَلْبان قَاسٍ وخاشعُ

فقال ابنُ الزُّبير :

ولا يَسْتَوي عَبْدانِ هَذا مُكذِّبٌ ... عُتُلٌّ لأَرحامِ العَشِيرةِ قَاطِعُ

فقال مروان :

وعبدٌ يُجافي جَنْبهُ عَنْ فِراشِهِ ... يبيتُ يُناجي ربَّه وهو خَاشِعُ

فقال ابنُ الزُّبير :

وللخيرِ أهلٌ يُعْرفُون بِهَديهم ... إذا اجتمعتْ عند الخُطُوبِ المَجامعُ

فقال مروان :

وللشَّرِّ أهلٌ يُعْرفُون بشَكْلِهم ... تُشِيرُ إليهم بالفُجُورِ الأصابعُ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٨٨)؛ ومعنى «السَّخْبر» : شجر تألفه الحيّات فتسكن في أصوله ، مفردها : سخبرة ، والمعنى : يا معاوية لا تتغافل عمّا نحنُ فيه.

فسكتَ ابنُ الزُّبير ولم يجبْ؛ فقالت عائشةُ رضي الله عنها: يا عبدَ الله، مالكَ لم تجبْ صاحِبَك! فو الله ما سمعتُ تجادل رجُلَيْن تَجَادَلا في نحوِ ما تجادلتُما فيهِ، أعجبَ إليَّ منْ تجادُلِكُما؟!

فقال ابنُ الزُّبير: إنّي خفْتُ عَوارَ القَولِ فكَفَفْتُ...»[1].

* ومن القَصص التي تدلُّ على نباهةِ ابنِ الزُّبير وأدبهِ وجرأته، وقَرضِهِ للشّعر في المواقفِ الصَّعْبة ما يُروىٰ أنَّه لما عادَ من البصرة إلى المدينةِ المنوّرة، مرَّ بمنازلِ بني مجاشع من تميم ليلاً، فبينما هو يسيرُ ومعه مولى يُقالُ له زيد، إذ سمعَ صَهيلَ البَسَّام ـ فرس الزّبير ـ فقال له مولاه: أشهدُ بالله إنه لَصهيل البَسَّام، وكان ابن جُرموزٍ قاتل الزُّبير قد أخذه.

فقال له ابنُ الزُّبير: ويحكَ واللهِ إنَّه لَصَهيلُ الأشقر، واللهِ لا أرجعُ الليلة حتّى آخذَهُ أو تعوقني دونَه العوائقُ. فقال له زيدٌ: أذكّرك اللهَ لما تركته وانطلقْتَ، إنّي أخافُ أنْ تُقْتَل، واللهِ ما نجوتَ من الموت إلا بما بقي لكَ من أجلكَ وقد عاينْتَه عياناً.

فقال له عبدُ الله: اثبتْ لي مكانَك، وهمُّكَ ما بينَكَ وبين نصف الليل، فإن جئتُكَ فَذَاك، وإلاّ فانطلقْ وانْعَنِي إلى أسماءَ.

ثمّ ترجَّلَ واشتملَ بسيفهِ وصمدَ لصوتِ الفرس، فعرضَ له رجلٌ من الحيّ في جنحِ الليل، فضربَه ابنُ الزُّبير فقتَلَهُ حتّى انتهى إلى الفَرس، فأخذَهُ من رَباطِهِ، وجاء به يقودُهُ حتّى انتهى إلى مولاه، فانطلقَا، وقال عبدُ الله في ذلك:

يُذكّرني الزُّبير صَهيلَ طَرفٍ ... تناوَلَه ابنُ جُرموز بغدْر
فقلتُ لِصَاحبي أروِدْ قليلاً ... لأقضيَ حاجَتي ووفاء نذري
فإنْ أرجعْ فذاك رجوعُ منْجٍ ... وإلاّ فانْعَني أو بخْ بِسرّي
فجئتُ أقودُهُ والنَّجمُ عالٍ ... وما هيَ من أبي بكْرٍ بِنُكْرِ

---

(١) بدائع البداءة لابن ظافر الأزدي (ص ١٩٢ و١٩٣) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٠م.

* ومن بلاغةِ الإيجازِ والتّعريض والذّكاء ما حُفِظَ عن سيّدنا عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير ، فقد جاء عند ابنِ دُريد في كتابه النَّفيس «الاشتقاق» قال: أخبرنا أبو حاتم عن أبي عُبيدة قال: لما قَتَل عبدُ الملك بن مروان عمرو بنَ سعيد ، بلغَ ذلك ابن الزّبير وهو بمكّة ، فَصَعِدَ المنبرَ ، فحمدَ الله ، وأثنى عليه ، ثم قال: «إنّ أبا ذِبّان قَتَل لَطيمَ الشّيطان ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩] [(١)]».

* ونقرأُ في تفسيرِ ابن عطيّة أنَّ عبدَ الله بنَ الزُّبير لما بلغه أنَّ عبدَ الملك بنَ مروان قَتَلَ عمرو بنَ سعيد الأشدق صَعِدَ المنبرَ فقال: «إنَّ فمَ الذُّبان قَتَلَ لطيمَ الشَّيطان» ، و﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩] [(٢)]» .

* ومن البدائعِ الأدبيةِ والذَّخائر البلاغيّة ما أسفَرتْ عنه قرائحُ الشُّعراء والأدباء والمحبين لآل الزُّبير ، إذ ترك هؤلاء تراثاً أدبياً تليداً ، يزهرُ به التَّاريخُ الزُّبيري على مدىٰ الأيّام والعصور ، كما يثمرُ ألبابَ الأدباء في كلّ وقتٍ وحينٍ ، ويدلُّ على تذوّقِ ابن الزُّبير للأدب وإثابته عليه .

* أوردتِ المصادرُ ذات المشاربِ المختلفةِ أنَّ النَّابغَة الجعْديَّ الصَّحابيَ الشَّاعر قد اشتدّتْ حاجته ، فقصدَ عبدَ الله بنَ الزُّبير بنِ العوام وهو جالسٌ بالمدينةِ ، ومدحه بأنَّه من طرازِ سيّدنا أبي بكر الصّديق وعمر الفاروق ، وعثمان ذي النُّورين ، وبأنَّه موئلُ المحتاجين ، ومُسَوٍّ بين الناس ، وقاضٍ حوائجهم فقال:

حَكَيْـتَ لَنَـا الصِّـدِّيـقَ لمّـا وَلَيْتَنَـا ... وعثمـانَ والفَـاروقَ فَـارتَـاحَ مُعْـدَمُ
وسَوّيتَ بين النَّاسِ في العَدْلِ فاستووا ... فَعادَ صَباحاً حَالِكُ اللونِ مُظْلِمُ

---

(١) الاشتقاق (ص ٧٩) تحقيق عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ .

(٢) تفسير ابن عطية (ص ٦٦٣) ، وانظر: ثمار القلوب: (ص ٧٥) ويقال «لطيم الشيطان»: لمن كان به لقوة أو شتر. واللقوة: داء في الوجه والشتر: انقلاب في جفن العين. وكان عمرو بن سعيد يلقّب بذلك.

أتـاكَ أبـو لَيْلـى يشُـقُّ بـه الـدُّجـىٰ دجـى الليـلِ جَـوَّابُ الفـلاةِ عَثَمْثَـمُ
لِتجبـرَ منـه جـانبـاً زعْـزَعَـتْ بـهِ صُروفُ الليالي والزَّمانُ المصمِّمُ

فقال ابنُ الزُّبير: هوّنْ عليكَ أبا ليلى ـ كنية النَّابغة الجعديّ ـ فإنَّ الشِّعرَ أهونُ وسائلك عندنا؛ أما صفوة أموالنا فلآل الزّبير، وأما عيونها فلبَني أَسَد، وأمّا ما تبقى وزاد فلآل الصِّدّيق؛ ولكنْ لكَ في بيتِ المال ـ أو مال الله ـ حقَّان: حقٌّ لرؤيتكَ وصحبتِكَ رسولَ الله ﷺ، وحقٌّ لشركتكَ أهلَ الإسلامِ في الإسلام.

ثمَّ أمرَ بهِ فأدخلَ دارَ النّعم، وأمرَ له بقلائص سَبْع وراحلةٍ قويةٍ، وأوقرَ له الرّكاب برّاً وتمراً، فجعل النَّابغة يستعجلُ فيأكل الحبّ صرفاً. فقال ابنُ الزُّبير: ويح أبي ليلى لقد بلغَ به الجهدُ مبلغاً كبيراً. فقال النَّابغةُ: أشهدُ لسمعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «ما وُلِّيَتْ قريش فعدلَتْ، واستُرحمَتْ فرحِمَتْ، وعاهدَتْ فوفتْ، وحدثَتْ فصدقَتْ، ووعدَتْ فأنجزَتْ إلا كنتُ أنا والنّبيون فراط القاصفين» وفي رواية: «إلا ـ وذكر كلمة معناها ـ أنّهم تحت النَّبيين بدَرَجَةٍ في الجَنَّةِ»[1].

* وهذا أبو وجزةَ الأسلميّ المعروفُ بالسَّعدي يقصدُ سيدنا عبد الله بنَ الزُّبير رضي الله عنه، فيعطيه ستّين وسَقاً، وها هنا يخلعُ عليه أبو وجزة بُروداً من المديح ـ وكان أبو وجزة قد عرَّض بإبراهيمَ بنِ هشام والي المدينة لهشام بن عبد الملك، وكان قد وفَدَ عليه أبو زيد الأسلمي مادحاً فضربه بالسّياط، لأنّه قال في مدحه: «يا بن هشام يا أخَا الكرام» فقال له: كأنّي لَسْتُ منهم ـ يقولُ أبو وجزةَ في مدحِ عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه هذه الدَّالية الرَّقيقة:

---

(١) انظر: مجمع الزوائد (١٠/ ٢٥)، وأسد الغابة (٤/ ٥١٧) ترجمة رقم (٥١٥٥)، والاستيعاب (٣/ ٥٥٧ و٥٥٨)، والإصابة (٣/ ٥١٠ و٥١١) مع الجمع والتصرف اليسير، ومعنى «عثمثم»: جمل محكم الخلق شديد. و«المصمم»: المؤذي القاطع. و«فراط»: جمع فارط، أي: متقدمون إلى الشفاعة، وقيل إلى الحوض، و«القاصفين»: القاصفون: المزدحمون.

راحَتْ رَوَاحاً قَلُوصي وهي حَامِدَةٌ آلَ الزُّبيرِ ولَمْ تَعْدِلْ بهم أحَدَا
راحَتْ بستّين وسقاً في حقيبتِها ما حُمِّلَتْ حملها الأدنى ولا السَّددا
ما إنْ رأيتُ قُلوصاً قبلها حملَتْ ستّين وسقاً ولا جابَتْ بها بلدا
ذاكَ القِرى لا قِرى قومٍ رأيتُهم يَقْرون ضيفَهم المَلْويَّةَ الجُدُدَا[1]

* ومدحه ابنُ قيس الرّقيات من قصيدةٍ فقال منوهاً إلى أمّه أسماءَ بنتِ أبي بكر رضي الله عنهما:

ابن أسماءَ خَيْر مَنْ مَسَح الرُّكْنَ فَعالاً وخيرهم بنيانا
وإذا قيلَ مَنْ هَجانُ قريش كنتَ أنتَ الفَتَىٰ وأنتَ الهجانا[2]

* وهناك كثيرون من أكابر الشُّعراء وفطاحلهم قد مدحَ ابنَ الزُّبير من مثل: ابنِ قيس الرّقيّات، وزُفَرَ بنِ الحارث، وأبي ذؤيب الهذلي، وأيمنَ بن خريم، والفرزدق وغيرهم، ـ وكان الفرزدقُ الشَّاعرُ المشهورُ زُبيريَّ الهوىٰ، وكان صادقاً جاداً في زُبيريته ـ كابن قيس الرّقيات ـ ثمّ انقلبَ عليها بلسانه خوفاً من بطشِ الحجّاجِ بنِ يوسف الثّقفي، ومما قاله في ابنِ الزُّبير:

فالأرضُ للهِ وَلاَّها خليفَتَه وصَاحبُ اللهِ فيها غيرُ مغلوبِ
بعد الفسادِ الذي قد كانَ قامَ به كذّابُ مكّة من مكْرٍ وتخريبِ
راموا الخِلافةَ في غَدْرٍ فأخطأَهُم منها صُدُورٌ وفازوا بالعراقيبِ

* وأما أيمنُ بنُ خُريم بن فاتك الأسديّ فكان أثيراً عند عبدِ العزيز بنِ مروانَ وعند عبد الملك بنِ مروان أيضاً، وكان أبوه خريم قد صحبَ النَّبيَّ ﷺ وروىٰ عنه أحاديث، وذات يومٍ قال عبدُ الملك لأيمنَ بنِ خُريم: «إنَّ أباكَ كانت له صحبةٌ وَلِعمِّكَ، فخذْ هذا المالَ وانطلقْ فقاتل ابنَ الزُّبير».

ولكنَّ أيمنَ أبى ورفضَ، وظلَّ وفيّاً لابن الزُّبير وقال:

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٤٧ و٤٨) بتصرف. ومعنى «قَلوصي»: الناقة الشابة. و«الوسق»: ستون صاعاً أو حمل بعير. و«السدد»: الحمل الكامل المعتاد. و«القرى»: الكرم و«الملوية»: المراد السّياط. و«الجدد»: حديثة الصّنع.
(٢) أدب السياسية في العصر الأموي (ص ٢٣٨) ومعنى «الهجان»: الحسب الرفيع.

ولَسْتُ بقاتِلٍ رجُلاً يُصَلّي على سُلطانِ آخرَ مِنْ قريشٍ
له سُلطانُهُ وعليَّ وِزْري معاذَ اللهِ مِنْ سَفَهٍ وطيشٍ
أأقتلُ مسلماً وأعيشُ حيّاً فليسَ بنافعي ما عشْتُ عيشي[1]

* ونختم هذه الفقرةَ بفريدةٍ من فرائدِ أدبِ ابنِ الزُّبير ومعرفتِهِ الواسعة بلغاتٍ عديدة تكادُ تكون ضَرْباً من الخيالِ ، أو نَسْجاً من المبالغات.

* أخرج الحاكمُ في «مستدركه» ، وأبو نُعيم في «حليته» عن عمرَ بنِ قيس قال: «كان لابنِ الزُّبير رضي الله عنهما مئةُ غلام يتكلّم كلُّ غلامٍ منهم بلغةٍ أخرى ، فكان ابنُ الزُّبير يكلِّم كلَّ واحدٍ منهم بلغته ، فكنتُ إذا نظرتُ إليه في أمْرِ دنياه قلتُ: هذا رجلٌ لم يُرِدِ اللهَ طرفةَ عَيْنٍ ، وإذا نظرتُ إليه في أمْرِ آخرته قلتُ: هذا رجلٌ لم يُرِدِ الدُّنيا طرفة عين»[2] . !!

صُورٌ منْ فقْهِهِ وفَتَاويه ومَوَاعِظِه:

* نحنُ نعلمُ أنَّ سيّدنا عبدَ الله بنَ الزُّبير رضي الله تعالى عنه ربيبُ بيتِ النُّبوّة ، وخريجُ مدرستها العظيمة ، وقد تلقّى كثيراً من الفقْهِ والعِلْمِ عن خالتِهِ أمِّ المؤمنين عائشَة رضوانُ اللهِ عليها ، بالإضافة إلى ما حَبَاهُ اللّهُ عزَّ وجلَّ من بصيرةٍ علميةٍ وفَهْم وعلْم ، فَغَدَا من عُلماء العَبادلةِ الأربعةِ الذين تفتخرُ بهم أمّةُ الإسلام إلى يوم القيامةِ.

---

(١) الشعر والشعراء (١/ ٥٥٢) لابن قتيبة ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٦٦م.

(٢) انظر: المستدرك (٣/ ٥٤٩) ، وحلية الأولياء (١/ ٣٣٤) ، وحياة الصحابة للكاندهلوي (٣/ ١٩١).
ومن الفوائدِ أنْ نشيرَ إلى تعلّم الرّجل لسانَ الأعداء ولغاتهم للضّرورة الدّينية ، والمصالح العامة ، فقد أمرَ النّبيُّ ﷺ زيدَ بنَ ثابت بأنْ يتعلّم لغةَ اليهود ، فقد روى زيد هذا قال: «أُتي بي النّبي ﷺ مقدمه المدينة المنورة فقالوا: يا رسول الله ، هذا غلامٌ من بني النّجار ، وقد قرأ مما أُنزلِ عليك سبع عشْرة سورة ، فقرأتُ على رسولِ الله ﷺ فأعجبَه ذلك فقال: «يا زيد تعلّم كتابَ يهود ، فإنّي والله ما آمنَ يهود على كتابي» فتعلّمته ، فما مضى لي نصف شهر حتى حَذِقْتُه ، فكنت أكتبُ لرسولِ الله ﷺ إذا كتب إليهم ، وأقرأ كتابهم إذا كتبوا إليه». (حياة الصَّحابة ٣/ ١٩٠ و١٩١).

* وكان لعبدِ الله بنِ الزُّبير رضي الله عنه بعضُ الآراء الفقهيّة ، والأحكام التي اقتبسَها عن الحبيبِ المصطفى ﷺ ومن فقهه «أنَّه كان يواصلُ الصِّيام خمسة عشَر يوماً» إذ كان يرى القُوةَ في ذلك ، واحتجّ بأنَّ النَّبيَّ ﷺ قد واصَلَ بأصحابه ، ولم يكن نهيُهُ ﷺ مُطلقاً ، وإنّما أرادَ بهم الرّحمة لهم والتَّخفيف عنهم ، وكان الصَّحابةُ يرجعون إلى فعلهِ المعلوم صفته ، إلا ما يتبيّن لهم الخصوصيّة به ﷺ[1].

* ومن صور فقْه ابن الزُّبير وفتواه في الرّضاع أنَّ كان يرى أنَّ الرَّضَاعَة التي تحرم ينبغي أنْ تكونَ بخمس رضعَات[2]. فالمصَّةُ والمصَّتان لا تحرِّم الرّضاع ، وهذا ما نصَّ عليه رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تُحرِّمُ المصَّة والمصَّتان»[3]. وكانت حجة ابن الزُّبير ـ ومَنْ رأىٰ رأيه بأنَّ التَّحريم لا يثبتُ بأقلَّ من خمسِ رَضعَات ـ إخبار عائشة رضي الله عنها أنَّ النَّبي ﷺ توفي والأمر على ذلك ، وقالوا ـ ابن الزّبير والصَّحابة ـ : ويكفي في هذا قول النّبيّ ﷺ لسهلةَ بنتِ سُهَيل رضي الله عنها: «أرضعي سالماً خَمْسَ رَضعات تَحْرُمي عليه».

وقالوا: «وعائشة رضوان الله عليها أعلمُ الأمّةِ بحكم هذه المسألة هي ونساءُ النَّبيّ ﷺ ، وكانت عائشة رضي الله عنها إذا أرادت أنْ يدخلَ عليها أحدٌ أمرت إحدى بناتِ إخوتها أو أخواتها فأرضعَتْه خمس رضَعَات»[4].

* وفي آدابِ القضاءِ وفتاويه كان ابنُ الزُّبير رضي الله عنه يرى التَّسوية بين الخصمَيْن وقال: «قضى رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ الخصمَيْن يقعدان بين يدي الحاكم»[5].

---

(١) انظر: البدر التمام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام ، لحسين محمد المغربي (٢/ ٤٠٩ ـ ٤١١) بتصرف ـ تحقيق الدكتور محمد شحود خرفان ـ دار الوفاء ـ المنصورة ـ ط ١ ـ ٢٠٠٤م.

(٢) انظر: البدر التمام (٤/ ٢٢٨ و٢٢٩) وزاد المعاد (٥/ ٥٦٥ ـ ٥٧١) مع الجمع والتصرف.

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٤٥٠) ، والترمذي برقم (١١٥٠) ، وأبو داود برقم (٢٠٦٣).

(٤) انظر: زاد المعاد (٥/ ٥٧٢ و٥٧٣) باختصار وتصرّف.

(٥) أخرجه أبو داود برقم (٣٥٨٨) ، والحاكم (٤/ ١٠٦).

* وكان ابنُ الزُّبير يأتسي بأفعاله بما رآهُ أو سمعه أو بلغه عن النَّبي ﷺ ، ومن ذلك رفع اليَديْن في الدُّعاء ومسح الوجْه بهما ، فقد جاء عن أبي نُعيم وهب قال: «رأيتُ ابنَ عمر وابن الزّبير رضي الله عنهم يدعوان يديران بالرَّاحتَيْن على الوجْهِ»[١].

* وللدعاء آدابٌ وأحكامٌ عند ابن الزُّبير ، فقد أخرجَ البخاريُ في «الأدبِ المفردِ» عن عبدِ الله بنِ الزُّبير أنَّه كان إذا سمعَ الرَّعْدَ تركَ الحديثَ وقال: «سبحانَ الذي يسبّحُ الرعدُ بحمده والملائكة من خيفتِه». ثمّ يقول: «إنَّ هذا لوعيدٌ شديدٌ لأهلِ الأرض»[٢].

* وأمّا فقهُهُ في القَضَاء فكان غاية في الدّقة ، وله آراء في الخُلعِ والطَّلاق لا تخرج قِيْد أنْمُلَة عمّا جاء في الهدي النّبويّ ، وقد تكفَّلَتِ المصادرُ بذكرها كَطَبَقات ابن سعد ، وزاد المعاد ، وحياة الصَّحابة ، وغيرها.

* ومن أمثلة قبول النَّاس لأقضيته ما ذكره وكيعٌ بسندٍ رفعه إلى مالك بن أنس قال: «بلغه أنَّ أبانَ بنَ عثمان كتبَ إلى عبدِ الملك بنِ مروان؛ أنَّ عبدَ الله بنَ الزُّبير قضى بين النَّاس بأقضية ، فما يرىٰ أمير المؤمنين فيها؟ أُمضيها أمْ أردّها؟

فكتبَ عبدُ الملك إلى أبانَ بنِ عثمان: إنّا واللهِ ما عبنا على ابن الزُّبير أقضيته ، ولكنْ عبْنَا عليه ما تناول من الأمْرِ ، فإذا أتاكَ كتابي هذا فأنفذ أقضِيته ، فإنَّ تَرْدادَ الأقضيةِ عندنا يتعسَّر»[٣].

* لا شك في أنَّ سيدنا عبدَ الله بنَ الزُّبير من بيتٍ عريقٍ تأصَّلَت فيه الحكمة والفتوى والفصَاحة ، فاغترفَ من هذه الفضائلِ حتى ارتوى؛ وقد

(١) حياة الصحابة (٣/ ٣٣٠) نقلاً عن الأدب المفرد (ص ٩٠).
(٢) عن حياة الصحابة (٣/ ٣٨٧).
(٣) أخبار القضاة (١/ ١٣٠) ، ومن أمثلة قضائه أنه سأله رجل من أهل العراق: دخلت في جرابي فأرة ، أيحلّ لي قتلها وأنا محرم؟ قال: «اقتل الفويسقة». (مختصر تاريخ دمشق ١٢/ ١٧٦).

أثّرت هذه البيئةُ الكريمةُ في ابن الزّبير، فنَشَأ رجلاً تقياً مُحافظاً على فروضِ اللهِ عزَّ وجلَّ وسنّته، فكان عَلَماً في التّقوى وفي العلْمِ والفقْهِ والقضاء والاقتداء بأكابر الصَّحابة.

* فقد كان بعض النّاس يجعلُ ابن الزُّبير حكماً في حلِّ المُشْكلات، وفَضّ المعضلات، وذلك لحصافتِهِ ورجاحة عقْلهِ وبُعْدِ نظره، واستقامة أمرِه، فقد طَلبَ سيّدنا الحسينُ بنُ عليّ من معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنهم في نزاعٍ بينهما في أرض، فقال الحُسَيْنُ لمعاويةَ رضي الله عنهما: «إما أنْ تشتريَ حقّي أو تردّه عليّ، أو تجعل بيني وبينك ابن عمر وابن الزّبير حكماً».

* ومن عيونِ الأخبار الزّبيرية في فضّ المنازعات ما ذكره ابن خَلّكان في «وفياته» فقال ما محصّله: «كانت النّوارُ بنتُ أعين بن ضبيعة المجاشعية قد خطبها رجل من قريش للزّواج، فبعثت إلى الفرزدق تسأله أن يكون وليّها إذ كان ابن عمّها، قال: فأشهدي أنّك جَعَلْتِ أمرك إليّ، ففعلت النَّوار ذلك، فخرجَ الفرزدقُ بالشُّهود، وقال لهم: قد أشهدتكم النّوار أنّها جعلت أمرها لي، وأنا أشهدكم أنّي قد تزوجتها على مئة ناقة حمراء سُود الحدق؛ فغضبت النّوار من فعْلةِ الفرزدق هذه واستعدت عليه، وخرجت إلى عبدِ الله بن الزّبير، وأمْرُ الحجاز والعراق يومئذ إليه، وخرج الفرزدق أيضاً، ورضياه حكماً، فأمر ابن الزبير الفرزدق ألا يقرب النَّوار حتى يصيرا إلى البصرة، فيحتكما إلى عاملِه عليها، فخرجَا، ثم إنَّ الفرزدقَ اتّفقَ معها، وتزوَّجها...»[1].

* وكان ابنُ الزُّبير رضي الله عنه يحبُّ سيدنا عمرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه ويتشبَّهُ به قَولاً وفعْلاً، وقد اشتُهِرَ ابنُ الزُّبير بذلك حتّى قال المدائني: «كان عبدُ الله بنُ الزُّبير يشمّر إزاره ويحملُ الدّرة يتشبّه بعمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه».

---

(١) وفيات الأعيان (٦/٩٩ و١٠٠) بتصرف واختصار.

* وبلغ من زهدِ ابنِ الزُّبير وفقهه أنَّه «لما قُتِلَ سيّدنا عمر مَحا الزُّبيرُ نَفْسَه من الدّيوان ، فلمّا قُتِلَ عثمان محا ابنُ الزّبير نفسَه من الدّيوان»[1] .

* ولهذا كلّه قيل : «كان عبدُ الله بنُ الزُّبير من العُلماء العباد المجتهدين ، وما كان أحدٌ أعلمَ بالمناسكِ منه ، وأوصتْ إليه عائشة أمّ المؤمنين»[2] .

* وقال أبو إسحاق التَّيميّ : سمعَ معاويةُ رجلاً وهو يقول :

ابـــنُ رقَـــاشِ مَـــاجـــدٌ سميـــدعُ يـــأتـــي فيُعطـــي عَـــنْ يَـــدٍ أو يمنـــعُ

فقال معاويةُ : ذاكَ عبدُ الله بنُ الزُّبير . وفي روايةٍ : ذاك منّا ، ذاك عبدُ الله ابنُ الزُّبير»[3] .

* ولابن الزُّبير رضي الله عنه مع هذا كلّه مواعظُ جميلةٌ وحكمٌ جليلةٌ وكلماتٌ نبيلةٌ تُشَنَّفُ بها الآذان ، وتلذّ لها الأسماع ، ومنها قولُه في خطبةٍ له : «يا معشرَ الحاج ، سَلُوني ، فعلينا كان التّنزيل ، ونحنُ حضرنا التّأويل»[4] .

* وله في عزّةِ النَّفْس هذه الكلمة : «واللهِ لَضَربةٌ بسيفٍ في عزٍّ أحبُّ إليَّ من ضربةٍ بِسَوطٍ في ذل»[5] .

* وكـان ابـن الـزبيـر رضـي الله عنـه مـن خطبـاء العبـادلـة المعـدوديـن المفوهين ، قال عبد الواحد بن أيمن : «رأيت على ابن الزبير رداءً عدنياً يُصلّي فيه ، وكان صيّتاً ، إذا خطبَ تجاوبَ الجبلان : أبو قُبيس ، وزَرزَر ، وكان له جمّة إلى العُنق ، ولحيته صفراء»[1] .

* ويشهدُ لابن الزُّبير بالبلاغةِ والجزالةِ وتأثير الموعظة في القلوب محمّد بن عبد الله الثَّقفي الذي عاينَ ذلك فقال : شهدتُ خطبةَ ابنِ الزّبير

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٨٢).
(٢) المصدر السابق (١٢/ ١٧٦).
(٣) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٨٥).
(٤) المصدر السابق (١٢/ ١٧٦).
(٥) المصدر السابق (١٢/ ٢٠١ و١٧٨ و١٧٩).

بالموسم ، خرجَ علينا قَبْلَ التَّروية بيوم وهو محرمٌ ، فلبّىٰ بأحسن تلبيةٍ سمعتُها قطّ ، ثم حَمِدَ اللهَ وأثنى عليه ثمّ قال: «أمّا بَعْدُ فإنكم جئتُم من آفاق شتى وفوداً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، فحقّ على اللهِ أنْ يكرمَ وفده ، فمن جاء يطلبُ ما عند اللهِ فإنَّ طالبَ اللهِ لا يخيبُ ، فصدقوا قولكم بفعل ، فإنَّ ملاكَ القولِ الفعل ، والنّية النّية القلوب القلوب ، الله الله في أيامكم هذه ، فإنّها أيامٌ تغفر فيها الذّنوب ، جئتم من آفاق شتّى في غير تجارة ولا طلبِ مال ولا دنيا ترجون ما هنا» ثم لبّى ولبّى النّاس ، فما رأيت يوماً قط كان أكثر باكياً من يومئذ[1]» .

* ومن بدائعِ مواعظِهِ الآسرة وفوائد حِكَمِه المؤثّرة ما وعظَ به وهْب بن كيسان فقال له: «إنَّ لأهلِ التَّقوى علاماتٍ يُعْرفُون بها ، ويعرفونها من أنفسِهم ، مِنْ صَبْرٍ على البلاءِ ، ورضيً بالقضاء ، وشكْرٍ للنّعماء ، وذلٍ لحكم القرآن ، وإنّما الإمامُ كالسّوقِ ما نَفَق فيها حُمل إليها ، إنْ نفقَ الحقّ عنده حُملَ إليه وجاءه أهل الحقّ ، وإنْ نفقَ الباطل عنده جاءه أهل الباطل ونفق عنده»[2] .

أوّلياتٌ زبيريـةٌ وأَعمَـالٌ خالدةٌ:

* لا ريب في أنَّ بقاءَ الذّكرِ وجميلَ النَّشْرِ من أجملِ ما يتمنّاهُ الإنسانُ في حياته ، لما في بقاء الأثرِ من الجمالِ ، وفي خلودِ الاسمِ من الكمال:

لَعَمــرُكَ إنَّ المــرءَ تخلــدُ بعــدَهُ ... أحــاديثُـهُ والمــرءُ ليــسَ بخــالـدِ

* والخلودُ الحقيقيُّ والنَّباهةُ الباقيةُ هي نباهةُ العُلماء ، وذِكْرُ الحكماء ، قال الشَّاعر:

وما الخيرُ في طولِ الحَياةِ إذا امرؤٌ ... مضىٰ ثمَّ لمْ تذكَرْ بخيرٍ عواقبُه

وقال آخر:

ردّتْ صنــائعُــهُ إليــه حيــاتَــهَ ... فكــأنَّــه مــن نشــرِهــا منشــورُ

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٣٣٥ و٣٣٦).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٣٣٦) ، وحياة الصَّحابة (٣/ ٥٢١).

وقال آخر:

فإنْ يكُ أفْنَتْهُ الليالي ومرّها ... فإنَّ له ذكراً سيفني اللياليا

* إنَّ معرفةَ الأوليات الميمونة شيءٌ لطيفٌ محبَّبٌ إلىٰ النّفوسِ ، كما أَنَّ عِلْمَ الأوائلِ لأكابرِ علماء الصّحابة علمٌ مفيدٌ لمن أحبَّ هؤلاء الأعلام الأخيار ، وهذا العلْمُ: «أنفسُ ما طلبَه الطَّالبون ، وأشرفُ ما رغبَ فيه الرَّاغبون ، وأعزُّ ما أفنيت فيه الأعمار ، وقضيتْ به أوقاتُ الليلِ وساعاتُ النَّهار، وأحسنُ ما شُنِّفت بذكرِه الأسماع ، وجُليت بالنَّظر في كتبه الأبصار ، يتشرّفُ به اللبيبُ المُجالِس ، ويتحلّى به الأديبُ في المجَالِس ، ويرتفعُ به قَدْرُهُ في أهله ، ويزدادُ به دونهم في نَيلهِ ، ويبلغُ به أوفى الرتب ، ويصيرُ إليه كالنَّسب»[1] .

* وعلمُ الأوائلِ ومعرفةُ الأوّليّات والأعمال البِكْر مما يزيدُ الرصيدَ المعرفيَ لكلّ مطّلع ، وقد ذكرَ حاجي خليفة في «كشْفِ الظُّنون» علم الأوائل ولخَّصَهُ بقوله: «هو علمٌ تتعرّف منه أوائل الوقائع والحوادث بحسبِ المواطن والنَّسب ، وموضوعه وغايته ظاهرة ، وهذا العلْمُ من فروعِ التَّواريخ والمحاضرات»[2] .

* وقد أحببتُ أنْ أتحفَ هذه الموسوعة المباركة بذكْرِ أوليات سيّدنا عبد الله بن الزّبير وأعماله الميمونة التي تشهدُ له لا عليه وتشيدُ بعلْمِهِ ، وتدلُّ على فهمِهِ وتقواه وتبحره في السُّنَّة ، حتى قالوا: «كان أحد فُضَلاء النَّاس عقلاً وحزماً وشجاعة وبياناً»[3] .

* والحقيقةُ فسيدنا عبدُ الله بن الزُّبير رضي الله عنه أحدُ الأتقياء الأصفياء ، وأحدُ الأولياء الصُّلحاء ، كان تقياً ورعاً شديدَ الحرصِ على التَّمسُّك بكتاب الله عزَّ وجلَّ وبسنَّة الحبيب الأعظم سيّدنا محّمد ﷺ ، فغدا

---

(١) محاسن الوسائل في معرفة الأوائل (ص ٢٥ و٢٦).
(٢) كشف الظنون لحاجي خليفة (٢/ ١٩٩).
(٣) الأوائل لأبي هلال العسكري (ص ١٥٢) ، ومحاسن الوسائل (ص ٢١٣).

مرجعاً مهماً في أصول التَّشريع ، وصار موئلاً لكلّ مَنْ أرادَ أنْ ينهَل من يَنْبوع العلْم الصَّافي ، ولهذا كان يقولُ للنَّاس في الموسم: «سَلُوني ، فعلينا كان التَّنزيل ، ونحنُ حضرنا التَّأويل».

* ولعبد الله بن الزّبير أوليات ذكرتها المصادرُ الموثوقةُ ، ومن هذه الأوليات:

* كان أوّل مولُودٍ وُلد في الإسلام منَ المهاجرين.

* أوّل شيءٍ دخَلَ جوفَه ريقُ النَّبي ﷺ.

* وأما أهمُّ الأعمالِ التي بدأها ابنُ الزُّبير ، فكانت الأولى في هذا المضمار ، فهي:

* هو أوّلُ مَنْ أمرَ بالحلفِ على المُصْحَف.

* هو أوَّل مَنْ صفَّ رجلَيْه في الصَّلاة ، فاقتدى به كثير من العِبَادِ ، وكان مجتهداً.

* هو أوَّل مَنْ ترخَّصَ في قَطْع شَجرِ الحرم للبُنيان حين ابتنى دُوراً بقيقعان.

* هو أوّلُ مَنْ استلم الرّكْنَ الأسودَ من الأئمةِ قبل الصَّلاة وبعدها ، فاستحسنَتْ ذلك الولاة بَعْدَهُ فاتّبعته.

* هو أوّلُ مَنْ ربطَ الرّكنَ الأسودَ بالفضّة لما أصابه الحريق.

* هو أوّلُ مَنْ خلَّقَ ـ طيَّبَ ـ الكعبة داخلها وخارجها.

* هو أوّلُ مَنْ كَسَا الكعبة الدَّيباج ـ أو القباطي ـ.

* هو أوّلُ مَنْ رفع قواعدَ البيتِ على قواعد نبيّ الله إبراهيم عليه السَّلام ، وذلك لما تهدَّمَتْ معظم أجزاء الكعبة إثر حصار الحصين بن نمير لها ، وضربَها بالمجانيق ، وها هنا أصبحَ أمر إعادة بنائها من شأن عبد الله بن الزُّبير الذي أعلن نفسه خليفة في الحجاز عقب موت الخليفةِ يزيد بن معاوية ، فهدمَ ما تبقَّى منها سليماً وأعاد بناءها من جديد.

وقد عاد ذلك عليه بالفائدة والضَّرر في وقتٍ واحد.

أثارت رغبةُ ابن الزُّبير في إعادة بناء الكعبة مشكلة كبرى له، فقد حار في الطَّريقة التي يتبعها في بنائها من جديد، أيَهْدم الكعبة تماماً ثم يعيد البناء من جديد، أم يحاول إصلاحَها وترميمها؟

ولما استوتِ الفكرةُ لديه جمعَ وجوهَ النَّاس من الصَّحابة والتّابعين وأشرافَ النّاس، وشاورهم في هَدْم الكعبةِ وإعادة بنائها، فهابوا ذلك، وأبى أكثرهم أنْ يهدمها، وقالوا: نرى أنْ يُصلح ما وهى منها ولا تُهدم. فقال ابنُ الزُّبير: لو أنَّ بيتَ أحدكم احترق لم يرض له إلا بأكمل إصلاح، ولا يكمل صلاحها إلا بهدمها.

وأمر ابنُ الزبير بهدمها، فلم يجترىء أحدٌ على ذلك مطلقاً، فأخذ المعولَ وجعل يهدمها بيديه ويرمي بحجارتها، فلما رأوا ذلك أخذوا يعملون معه حتّى كشفوا أساسَ إبراهيم عليه السَّلام، فبنوا على القواعد الإبراهيميّة.

وتمَّم ابنُ الزُّبير بناءَها، وألصقَ بابَها بالأرض، وعمل لها خلفاً ـ أي باباً من ورائها ـ وأدخلَ الحِجْر فيها.

وبذلَ ابنُ الزُّبير جهدَهُ في تجميلِ الكعبة حتّى تبدو في أجمل مظهر، وذكرَ المسعودي في «مروجه» جهودَ ابن الزُّبير في ذلك فقال: «وحُمِلَ إلى ابنِ الزّبير من صنعاء الفسيفساء التي كان بناها أبرهة الحبشي في كنيستِهِ التي اتَّخذها هنا لك، ومعها ثلاث أساطين من رخامٍ فيها وشي منقوش، قد حشي النّقش السّندروسي وأنواع الألوان من الأصباغ، فمن رآه ظنَّه ذهباً.

ومن بعد ذلك كَسَا الكعبة الدِّيباج، وكانت كسوتها المسوح والأنطاع، وكان يطيبها حتّى يوجد ريحها من داخل الحرم، وفعل ذلك كلّه ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجلَّ، ومرضاة رسوله ﷺ الذي كان يريدُ أنْ يبنيها على ما بناها ابنُ الزُّبير مع زيادة ارتفاعها.

وقد سوغ المسعودي زيادات ابن الزّبير في الكعبة فقال: «وشرع ابنُ الزُّبير في بناء الكعبة، وشهد عنده سبعون شيخاً من قريش أنَّ قريشاً حين

بَنَتِ الكعبة عجزت نفقتهم ، فنقصوا من سَعَة البيت سبعة أذرع من أساسِ إبراهيم الخليل الذي أسَّسه هو وإسماعيل عليهما السّلام ، فبناه ابنُ الزُّبير وزاد فيه الأذرع المذكورة ، وجعلَ فيه الفسيفساء والأساطين ، وجعل له بابين: باباً يُدخَل منه ، وباباً يُخرج منه».

ويذكر العمريُ في «مسالكِ الأبصار» أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يريدُ أنْ يزيدَ في بناء الكعبةِ ما زادَهُ ابن الزُّبير فقال: «وذلك لأنَّ خالتَه عائشةَ رضي الله عنها ، حدّثَتْه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أَلَمْ تري أنَّ قومكِ قصرت بهم النَّفقة حين بنوا الكعبة ، فاقتصروا على قواعد إبراهيم». ثم قال: «لولا حدثان قومك بالجاهلية لهدمتها ، وجعلت لها خَلْفاً ، وألصقتُ بابَها في الأرض ، وأدخلْتُ فيها الحِجْرَ» ، فقال ابنُ الزبير: فليس بنا عجز عن النَّفَقَة ، فبناها على مقتضى حديثِ عائشة.

* هو أوّلُ مَنْ أدّى عمرة الأكمة ، فبعد أنِ انتهى من بناء الكعبة خرجَ عبدُ الله بنُ الزبير من مكّة مَاشياً حافياً معتمراً ومعه أهل مكة ، فانتهى إلى أكَمَة عند مسجدِ عائشة ، وكان ذلك يوم (٢٧ رجب) ، وكان أهدى هو وأشراف مكّة عدداً لا يُحصى من البُدن شكراً للهِ على ما وهَبَهم من المعونةِ والتَّيسير في بناءِ بيته الحرام على الصِّفةِ التي كان عليها مدّة إبراهيم عليه السَّلام.

* هو أوَّلُ مَنْ ضربَ الدَّنانير والدَّراهم في دولةِ الإسلام سنة (٧٠ هـ).

* وأولياتُ ابنِ الزُّبير وأعماله لا يمكن أنْ تُستقصى في هذه الموسوعةِ ، ولكنّا ذكرنا منها ما وجدناه في المصادر[1] التي بين أيدينا.

---

(١) رجعتُ في كتابة هذه الفقْرة إلى عشرات المصادر والمراجعِ ومنها: فتح الباري ، ووفَيات الأعيان ، ومختصر تاريخ دمشق ، ومروج الذّهب ، والكامل لابن الأثير ، وسير أعلام النّبلاء ، وعبد الله بن الزّبير من سلسلة أعلام المسلمين رقم (٥٩) ، وحلية الأولياء ، والسّيرة الهشامية ، وأخبار مكة ، وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، وطبقات ابن سعد ، والأوائل للعسكري ، ومحاسن الوسائل للشبلي ، والمدينة في العصر الأموي لمحمد شراب ، والكعبة على مر العصور لعلي خربوطلي من سلسلة اقرأ رقم (٢٩١)...

* ويكفيه من الفخر يكفيه أنَّ ابنَ عباس قال فيه: «قارىء لكتاب الله ، عفيف في الإسلام ، أبوه الزّبير ، وأمّه أسماء ، وجدّه أبو بكر ، وعمّته خديجة ، وخالته عائشة ، وجدّته صفية ، والله إنّي لأحاسب له نفسي محاسبةً لم أحاسبْ بها لأبي بكر وعمر»[1] .

شجَاعَتُهُ وجهَادُهُ:

* رضعَ عبدُ الله بنُ الزُّبير لبانَ الفروسيّة منذ صغره ، فأبوه فارسُ النَّبي ﷺ وحواريه ، وقد تعلَّم عبد اللهِ فنونَ الفروسية على يدي والده الزُّبير رضي الله عنه ، وشهدَ كبريات المعارك وهو في عمر الزَّهر .

* أخرج البخاري بسندهِ عن عروةَ بنِ الزُّبير من حديثٍ ذكر من خلالهِ معركة اليرموك ، وحضور عبد الله إيّاها فقال: «وكان معه ـ أي مع الزّبير ـ عبدُ الله بن الزُّبير ، وهو ابن عشْر سنين ، فحملَه على فرسٍ ، ووكَّلَ به رجُلاً»[2] .

* قال ابنُ حجر رحمه الله: «وكأنَّ الزُّبير آنسَ من ولده عبدِ الله شجاعةً وفروسيةً ، فأركبَهُ الفرسَ ، وخشيَ عليه أنْ يهجمَ بتلك الفرس على ما لا يطيقه ، فجعلَ معه رجُلاً ليأمن عليه من كَيدِ العدو إذا اشتغلَ هو عنه بالقتال ، وروى ابنُ المبارك في الجهاد عن ابن الزّبير أنّه كان مع أبيه يومَ اليرموك ، فلمّا انهزم المشركون حَمل فجعل يجهِزُ على جرحاهم»[3] .

* ونشأ سيدنا ابنُ الزُّبير نشأةَ المجاهدين على ما كان عوَّدَه أبوهُ ، وظهرَ

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٧) ، وحلية الأولياء (١/ ٣٣٤) ، والحديث أخرجه البخاري برقم (٤٦٦٤ و٤٦٦٥).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٩٧٥).

(٣) فتح الباري (٧/ ٣٥٠) ، ومعنى «يُجْهِزُ»: أي يكمل قَتْل مَنْ وجده مجروحاً من المشركين؛ وهذا مما يدل على قوة قلبه وشجاعته من صغره رضي الله عنه.

حبُّه للقيادةِ وطموحه وشدّة بأسه منذ طفولته النّاعمة الغضّة ، فاشتركَ مع أبيه الزبير في معركةِ اليرموك ـ كما ذكرنا ـ ، ولما تمّ له عشْرون عاماً واستوى أشدّه اشتركَ مع أبيهِ أيضاً في فَتْح مصْرَ أرض الكنانة وأرض الخير ، وكان من شهود عقْد الصُّلح مع المقوقس سنة (٢١ هـ) ، وجاء في نهايةِ هذا العقد: «شهد الزُّبير بنُ العوام وعبدُ الله ومحمّد ابناه ، وكتبَ وردان»[١].

* وعندما تمّ فتح ليبيا ، وجَّه سيدنا عمرو بنُ العاص مجموعةً من الفُرسان بقيادة سيدنا عبدِ الله بنِ الزّبير لفَتْح صبراته ، وأسرعَ عبدُ الله في سَيْرِه ، وقامَ بهجومٍ مباغتٍ ونجحَ في احتلال صَبْراته.

* وكان لعبدِ اللهِ كبيرُ الأثرِ في فَتْح إفريقية بقيادةِ عبد الله بن سَرْح ، واستطاع تدمير جرجير عامل الرُّوم[٢].

* وكان عبدُ الله بنُ الزّبير السّاعدَ الأيمنَ لمعاويةَ بنِ حديج السّكني في أفريقية.

* وفي عام (٤٥ هـ) فتح عبدُ الله السّوسة في أفريقية.

* أمّا في عام (٤٩ هـ) فكان عبدُ الله فيمن سَار إلى غزو القُسطنطينية في عَهْد سيّدنا معاويةَ بنِ أبي سفيان رضي الله عنهما. وكان لابن الزّبير مكانةٌ كبيرةٌ عند معاويةَ فعندما كان معاويةُ يلقى ابنَ الزُّبير يقولُ له: «مرحباً يا بن عمّةِ رسولِ الله ﷺ وابنِ حواري رسولِ الله ﷺ» ثمّ يأمرُ له بمئةِ ألف.

* ويذكر تاريخُ ابنِ الزُّبير الجهاديّ أنَّه ملأَ ساحات الجهاد بشخصيّته الفذّة وصوته الجهور وجرأته المعهودة ، ففي سنة (٢٥ هـ) تقريباً استأذن عبدُ الله بنُ سرح سيّدنا عثمانَ بنَ عفَّان رضي الله عنه لغزوِ أفريقية ، فأذِنَ له وأمدّه بجيش كبير فيه منْ خيارِ المُسلمين ومن صفوة علمـاء الصّحابة وكان في هذا الجيش الميمون: سيدنا عبدُ الله بنُ عبّاس ، وعبدُ الله بنُ عمر ،

---

(١) الكامل (٢/٣٩٦).

(٢) سيأتي بعد قليل كيف قتل ابن الزبير جرجير.

وعبدُ الله بنُ عمرو بن العاص ، وعبدُ الله بنُ الزبير ، وعبدُ الله بن جعفر ، والحسنُ والحُسينُ رضي الله عنهم أجمعين ، وسمّي هذا الجيش المبارك المظفّر بـ «جيش العَبادلة».

* وكان لسيدنا عبد الله بن الزُّبير دورٌ مهمٌّ وواضحٌ في انتصار الجيشِ الإسلامي على الأعداء ، فقد اعتمدَ عبد الله على مبدأ المباغَتَةِ ، فعندما طال أمدُ القتالِ بين عبد الله بن سعد وجرجير ملكِ أفريقية عام (٢٥ هـ) ، طرح ابنُ الزُّبير فكرةَ المباغتةِ للخصْمِ بهجوم غير متوقّع في تاريخه ، فقسم الجيش إلى مجموعَتين قتاليتين ، تقاتل الأولى من الفجرِ وحتّى الظَّهيرة ، ثم تنطلقُ المجموعةُ الثَّانية بعد عودةِ الأولى.

* وذات يومٍ علم ابنُ الزُّبير بغياب عبدِ الله بنِ أبي سرح فسأل عنه فقيل له: إنَّه سمع منادي جرجير يقول: مَنْ قتل ابن أبي سرح فَلَهُ مئة ألفِ دينار ، وأزوّجه ابنتي ، فخافَ وتأخّر عن شهودِ القتال.

* فقال له ابنُ الزبير: تنادي أنتَ بأنَّ مَنْ قَتَل جرجير نَفَلْتُه مئة ألف ، وزوجته ابنته ، واستعملْتُه على بلاده ، فخافَ جرجير أشدّ منه.

* واستمرّ القتال ، وأرادَ ابنُ الزبير المباغتَة وحسم القتال ، فجلسَ إلى عبدِ اللهِ بنِ أبي سرح وقال له: «إنَّ أمرنا يطولُ مع هؤلاء ، وهم في أمدادٍ متّصلة وبلادٍ هي لهم ، ونحنُ منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيتُ أنْ نتركَ غداً جماعةً صالحةً من أبطالِ المسلمين في خيامهم متأهّبين ، ونقاتلُ نحنُ الرُّوم في باقي العسكر إلى أنْ يضجروا ويملّوا ، فإذا رجعوا إلى خيامِهم ورجعَ المسلمون ، ركب مَنْ كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ، ونؤصدهم على غرة ، فلعلَّ اللهَ ينصرُنا عليهم...»[1].

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٤٠١ و٤٠٢) ، وذكر هشام بن عروة قال: سمعت عمي عبد الله بن الزبير يقول: «والله ، ما أبالي إنْ وجدتُ ثلاث مئة يصبرون صبري لو أجلب عليَّ أهل الأرض» (مختصر تاريخ دمشق ١٢/ ١٩٧).

* وكانت فكرةُ ابنِ الزّبير وخطته ناجحةً نابعةً من بصيرتِه العلميّة وبصره بالحرب وجرأته وقوّة قلبه ، وأخذَ ينتظرُ الغَدَ ليفتح الله فتحه عليهم ، وينزلَ نَصْرَهُ على المؤمنين.

* ولنتركْ زمام الحديثِ البطولي الآن لسيّدنا عبدِ الله بن الزُّبير رضي الله عنه إذ يقولُ ما مفاده: «هجم علينا جُرجير ملك إفرنجة في عشرين ومئة ألف ، فأحاطوا بنا ، والمسلمون في عشرين ألفاً ، فدخلَ ابنُ أبي سرح فسطاطاً له فخلا فيه ، ورأيت غِرَّةً من جُرْجير: بَصُرتُ به خلْفَ عساكره على بِرْذَون أشهب ، معه جاريتان تظلاّن عليه بريش الطواويس ، وبينه وبين جنده أرضٌ بيضاء ليس فيها أحدٌ ، فخرجتُ وأخبرتُ ابن أبي سرح ، فقام معي مُسْرعاً وقال: يا أيّها النّاس! انتدبوا مع عبدِ الله بنِ الزُّبير؛ وها هنا اخترتُ ثلاثين فارساً من صفوةِ فُرسان المسلمين وأبطالهم وقلتُ لهم: احموا لي ظهري؛ وحملتُ في الوجْهِ الذي رأيتُ فيه جُرجير ، وخرقْتُ الصَّفَّ إليه ، وخرجْتُ صامِداً إليه ، ما يحسبُ هو وأصحابه إلا أنّي رسولٌ من المسلمين ، حتى دنوتُ منه؛ فعرفَ الشَّرَّ ، فثنى برذونه مولياً ، وأدركته ، فطعنتُه ، فَسقَط ، فأهويتُ عليه ، ضربتُهُ بالسَّيف ، وذفَّفْتُ عليه ، ثمّ احتززتُ رأْسَه ، وجعلتُه على رمحي ، وكبّرتُ ، ورفعتُ الرّمح ، وحملَ المسلمون في الوجْه الذي كنتُ فيه ، وارفضَّ العدوُّ من كلّ وجْهٍ ، ومنحَ اللهُ المسلمين أكتافَهم»[1].

* ونتابع رحلةَ البطولة والجهاد مع ابن الزُّبير بعد مقْتلهِ جُرْجير فيقول: «.. فوجّهني ابنُ أبي سرح بشيراً إلى عثمانَ بنِ عفّان ، فقدمت عليه ،

---

(١) انظر: نسب قريش (ص ٢٣٧ و٢٣٨) بشيءٍ من الاختصار والتّصرف اليسير. وذكر البلاذري هذه المعركة عن لسان ابن الزبير فقال: «أغزانا عثمان رضي الله عنه أفريقية ، وكان بها بطريق سلطانه من طرابلس إلى طنجة ، فسار ابن أبي سرح إليه ، فقاتله أياماً فقتَلَه الله ، وكنتُ أنا الذي قتلتُه ، وهرب جيشه فتمزقوا ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة..» (فتوح البلدان ص ٢٦٧ و٢٦٨) بتصرف. نشره د. صلاح الدين المنجد ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٦م.

وأخبرتُه بفتحِ اللهِ ونَصْره ، ووصفتُ له أمْرنا كيف كان ، فلمّا فرغْتُ من ذلك قال: يا عبدَ اللهِ هل تستطيع أنْ تؤديَ هذا إلى النَّاس؟

قلتُ: وما يمنعني من ذلك؟ أنتَ أَهْيَبُ عندي منهم.

قال لي: فاخرجْ إلى المسجدِ فأخبرهم.

فخرجتُ حتى أتيتُ المنبرَ ، فاستقبلتُ النَّاس ، فَتَلَقَّاني وجْه أبي الزُّبير بن العّوام ، فدخلتْني له هيبةٌ ، فعرفها منّي ، وهمَّ أنْ يحصبَني ، فصعدتُ المنبرَ وتكلمتُ.

قال أبي الزُّبير حينَ فرغْتُ: كأنِّي سمعتُ كلامَ أبي بكر الصِّديق ، فَمَنْ أرادَ أنْ يتزوَّجَ فلينظرْ إلى أبيها أو أخيها ، فإنّها تأتيه بأحدهما»[١] .

* إنَّ الحديثَ عن شجاعةِ ابنِ الزُّبير وجهاده حديثٌ طويلٌ ، ولكنّا تحدّثنا عن شَذَرات منه فيما يتناسبُ مع خطَّةِ هذه الموسوعةِ المباركة وفكْرتها.

طوبى لأمّةٍ أنتَ منها:

* كان سيّدنا عبدُ اللهِ بنُ الزبير رضي الله عنه قد تطلَّعتْ نَفسُه إلى الرّياسةِ منذُ حصار سيّدنا عثمانَ رضي الله عنه ، حيثُ ولاّه عثمانُ أميراً على الدَّار ، فاعتبرَ سيدنا عبدُ الله بنُ الزُّبير هذا العمل تنويهاً بمكانتِهِ ، وكان من المُدافعين عن عثمانَ ، وولاّهُ عثمان توزيع الودائع بعد موته ، بالإضافة إلى أنّ ابنَ الزبير كان ربيباً لأمّنا عائشة رضي الله عنها ، وكانت تكنى به ، وترفعُ من شأنه وقدره ، وتنوه بمكانته ، وتقدّمُه على بعضِ الصَّحابةِ الكرامِ رضيَ الله عنهم أجمعين.

* رویٰ ابنُ الأثير ما يؤيّدُ ذلك فقال: «خَرجَتْ عائشةُ رضي الله عنها ومن معها من مكّة ، فلمّا خرجُوا أذَّنَ مروانُ ابنُ الحكم ، ثم جاء حتّى وقفَ على طلحةَ والزُّبير ، فقال: على أيكما أسلّم بالإمرةِ فأؤذن بالصّلاة؟ فأرسلتْ

---

(١) نسب قريش (ص ٢٣٨ و٢٣٩) بتصرف. وأخذت ابنة جرجير سبيّة ، فنفلها ابن الزبير.

عائشة إلى مروانَ وقالت: أتريدُ أَنْ تفرِّقَ أمرنا؟ ليصلِّ بالنَّاسِ ابن أختي - تعني عبد الله بن الزّبير رضي الله عنه».

* وكانَ ابنُ الزُّبير ممّن خاض معركةَ الجمل وله شأنٌ فيها وله أخبارٌ كثيرةٌ تكفَّلتِ المصادرُ المتخصّصةُ بذكْرِها، وله ذكرٌ أيضاً في وقْعَةِ صفّين إذا كان من الحاضرين التّحكيم بين الطَّرفين.

* كما أنّ لابن الزُّبير أخباراً كثيرةً مع الخلافةِ الأمويةِ، وشاركَ في كثيرٍ من الأحداث السِّياسيّة، ولهُ مواقفُ مشهورةٌ مع سيّدنا معاويةَ، ومع يزيد بن معاويةَ ليس ها هنا محلّها، إذا إنّنا اشترطْنَا في مقدّمة هذه الموسوعة أنْ نشيرَ إشاراتٍ سريعةً إلى بعضِ الأحداثِ السِّياسيّة التي تخصُّ الصَّحابيَ العالمَ الذي نترجمُ له، بينما يكون جُلُّ حديثنا عن الآثارِ العلميّةِ والفِقْهيّةِ للصَّحابي، إذ العُنوانُ الرئيسُ للكتاب هو «علماء الصَّحابة». والذي يريدُ أنْ يعرفَ هذه الأحداث فعلَيهِ بأمّات كتبِ التّأريخ، كتاريخ الطَّبري، وابنِ الأثير، والبداية والنّهايةِ، وتاريخ الإسلام للذّهبي، ووقعة صفّين وغير ذلك من مصادرَ متنوعةٍ.

* إنَّ الذي يهمّنا الآن معرفة نهاية عبدِ الله بن الزُّبير دون أنْ نعرّج على التَّفاصيل، فقد دعا ابنُ الزَّبير للخلافةِ بعد وفاةِ يزيدَ بن معاويةَ في ربيع الأوّل عام (٦٤ هـ)، وظلّت خلافةُ ابنِ الزُّبير إلى حين مقتلهِ عام (٧٣ هـ) على يدِ الحجّاج بنِ يوسُف الثّقفيّ بأمر من عبدِ الملك بن مروانَ الخليفةِ الأمويّ بدمشقَ الشَّام.

* فقد قدمَ الحجَّاجُ بجنْدِهِ مكَّةَ المكرمةِ حيثُ اعتصمَ بها ابنُ الزُّبير وسمّي «العائذ ببيتِ اللهِ الحَرام»؛ ومن ثم نصبَ الحَجّاج المنجنيقَ على جَبَلِ أبي قبيس ورمىٰ به الكعبةَ المُشرَّفة، وكانتِ الحجارةُ تقعُ بين يدي ابن الزّبير وهو يصلّي فلا ينصرفُ ولا يهابُ شيئاً.

* وطالَ الحِصارُ وغَلَتِ الأسعارُ حتّى خرجَ نحو من عشرة آلافِ إلى الحجَّاجِ يطلبون الأمان، وتفرّق عن ابن الزُّبير أصحابه ومنهم بعضُ أولاده:

حمزة وحبيب ، فدخل على أُمّهِ سيّدتنا أسماء وشكا لها قائلاً: «يا أمّاه ، قد خَذَلني النَّاس حتّى أهلي وولدي. . والقوم يعطونَني ما أردتُ من هذه الدّنيا فما رأيكِ»؟

فقالتِ السَّيدةُ أسماء: «يا بنيّ ، أنتَ أعلمُ بنفسِكَ ، وإنْ كنتَ تعلمُ أنَّكَ على حقٍّ وإليهِ تدعو ، فامْضِ له ، فقد قُتِلَ عليه أصحابك. . . وإنْ كنتَ أردتَ الدُّنيا فبئس العبدُ أنت».

فقال: «يا أمّاهُ أخافُ إنْ قُتِلْتُ أنْ يمثّلُوا بِي ويصلبوني».

قالَتْ: «يا بنيّ إنَّ الشَّاةَ لا تتألّم بالسَّلخِ ، فامْضِ على بصيرتكَ واستعنْ باللهِ عزَّ وجلَّ».

* فقبَّلَ رأْسَها وقال: «هذا رأيي والذي خرجتُ به دائباً إلى يومي هذا ، ما ركنتُ إلى الدنيا ، ولا أحببتُ الحياةَ فيْها ، وما دعاني إلى الخروجِ إلاّ الغضبُ للهِ عزَّ وجلَّ ، وأنْ تُسْتَحلَّ حرماتُه ، فانظري يا أمّاه ، فإنّي مقتولٌ في يومي هذا فلا يشتدّ حزنُكِ ، وسلّمي الأمْرَ إلى اللهِ تعالى فإنَّ ابنكَ لم يتعهَّدْ إيثارَ مُنْكرٍ ، ولا عملاً بفاحشةٍ. . ولم يبلغني ظُلمٌ من عمّالي فرضيتُ به بل أنكرتُه ، ولم يكن عندي شيءٌ آثَر من رضَا ربّي عزَّ وجلَّ ، اللَّهُمَّ لا أقولُ هذا تزكيةً لنفسي ، ولكنّي أقولُه تعزيةً لأمّي حتّى تسلوَ عنّي. . قالت أمّه: امضِ على بصيرتكَ ، وادنُ منّي حتّى أودّعكَ.

فدَنا منها وعانقَها وقبّلَها ، وخرجَ ؛ وأخذَ يصولُ وَيجولُ بين أبوابِ المسجدِ الحرام كأنَّهُ أسدُ هصورٌ في أجمةٍ ولا أحد يجرؤ أن يقتربَ منه.

* وفي ليلةِ الثُّلاثاء (١٧/ جمادى الأولى) بات ابن الزُّبير يصلّي طولَ ليلتهِ ، ثمّ جلسَ فأغْفَى قليلاً ، ومن ثمّ انتبهَ مع الفجر كعادته ، وقال للمؤذن: أذّن يا سعد ، وتوضأ وصلّىٰ ركعتي الفجر وقرأ سورة «القلم» «نون» حرفاً حرفاً ، وسيفُه إلى جنبهِ ، وإنّه ليتمُّ الرّكوع والسُّجود كهيئته قبل ذلك ، وقال يوم قُتِلَ: «واللهِ لقد مَلَلْتُ الحياةَ ، ولقد جاوزتُ سِنّ أبي ، هذه لي

ثنتان وسبعون سنة ، اللّهُمَّ إني قد أحببتُ لقاءكَ فأحببْ لقائي ، وجاهدتُ فيكَ عدوَّكَ فأَثِبنِي ثوابَ المجاهدين» .

* ثمَّ إنّ عبدَ الله قال لأصحابهِ الذينِ بقوا معه: «احملُوا على بركةِ الله» . ثم حملَ على جيش الحَجاجِ حتّى بلغَ بهم الحجون ، وهناك رُمي بآجرّةٍ أصابتْهُ في وجههِ ، فأرعش لها ، ورُمي وجهه ، وصاحَتْ مولاةٌ لآلِ الزُّبيرِ: واأمير المؤمنيناه! وكانت رأته يَتَشمَّر ويرتجزُ:

أسمـــاءُ يـــا أسمـــاءُ لا تبكينـــي لـــم يبـــقَ إلا حَسبـــي ودِينـــي
وصَارمٌ لانَتْ بهِ يَميني

* وكان قَتْلُهُ يومَ الثّلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيتْ من شَهرِ جَمادى الأولىٰ سنة ثلاث وسبعين هجريّة وقيل: جمادى الآخرة[1] . ثم صلّبه الحجّاج.

* ولما قُتل ابنُ الزُّبير كَبَّرَ جُند الحجّاجُ لذلك ، فقال عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما: «الذين كبّروا على مولدِه خيرٌ منَ الذين كبّروا على قَتْلِهِ»[2] .

* وعن مجاهد قال: قال ابنُ عُمر لغلامه: «لا تمرّ بي على ابن الزّبير ، فغَفلَ الغلامُ ، فمرّ به فرفَع رأْسَهُ فرآه فقالَ: رحمكَ اللهُ ، ما علمتُكَ إلا صواماً قوّاماً ، وصُولاً للرّحمِ»[1] .

وروي أنَّه قال: «لقد أفلحتْ قُريشُ إنْ كنتَ شَرّ أهلها». وقيل إنّه قال

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٢/٢٠٣ ـ ٢٠٨) باختصار وتصرف ، وتذكرُ الأخبار أنَّ الحجاجَ بنَ يوسف كان يمتدحُ نفسهُ عند الوليد بن عبدالملك بأنّه قاتلُ ابن الزبير ، وقد قرّعته أمّ البنين بنتُ عبد العزيز زوجة الوليد فقالت له: «ويحكَ يا حجّاج أنتَ الممتنُّ على أمير المؤمنين بقَتْل ابن الزبير ، وابن الأشعث ، أما والله لولا أنَّ الله عز وجل علم أنك أهونَ خليقته ما ابتلاكَ برمي الكعبةِ وقتلِ ابن ذات النّطاقين». . ثم إنَّ أمّ البنين ذكّرتهُ بفرارهِ أمامَ غزالة الحرورية ، ثم أخرجتهُ وهو في أسوأ حالٍ.
انظر موسوعتنا (نساء من التّاريخ ص ١١٢ ـ ١١٥) بتصرف واختصار.

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/٣٧٨) بتصرف يسير.

له: «يرحمكَ اللهُ ، فواللهِ إنّ قوماً كنتَ أخسَّهم لَقوم صدق»[1]. ورأى عبدُ الله بنُ عمرو بنُ العاصِ عبدَ اللهِ بنَ الزُّبيرِ مصلوباً فقال: «طُوبى لأمّة أنتَ شَرُّهَا»[1].

* وتذكرُ المصادرُ على اختلافِ ألوانها أنّ مكّةَ قد ارتجَّتْ بالبكاءِ والعَويل على ابن الزُّبير بعد صلبه[2].

* وجاءت أسماءُ فأخذت جثّةَ ابنها وغَسَلتهُ بماء زمزم[3]، وحنّطته، وكفَّنته، وصلّت عليه، ودفنَتْهُ بالمعلاة بمكّة المكرمةِ[4].

* رضي الله عن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير بن العَوامِ، وأدخله الجنَّةَ بسَلام، حشَرنا في معيّة أصحاب رسول اللهِ ﷺ، وعفَا عنّا ورحمنا برحمته الواسعة، إنّه سميعٌ مجيب.

* * *

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ٢٠٨ و٢٠٩)، وذكر الصفدي «بأنه قُتل مع ابن الزبير مئة وأربعون رجلاً، منهم من سال دمه من جوف الكعبة» (فوات الوفيات ١/ ٤٤٩).

(٢) انظر مثلاً: التذكرة الحمدونية (٦/ ٢٧٤)، والبداية والنهاية (٨/ ٣٤١)، وتاريخ الخميس (١/ ٣٠٦) وغيرها كثير.

(٣) شفاء الغرام للفاسي (١/ ٤١٥). وذكر الفاكهيُ أنَّ السَّيدةَ أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قد غسَّلَتْ ابنَها عبدَ الله بنَ الزُّبير بماء زمزم. وذكر كذلك أنّ أهلَ مكّة كانوا يغسلون موتاهم بماء زمزم.

(٤) وهناك روايةٌ ذكرها مصعبَ بن عبد الله تفيدُ: «بأنّ السَّيدة أسماء قد حملت ابنها عبد الله فدفنته بالمدينةِ المنورة في دار صفية أمّ المؤمنين، ثم زيدتْ دار صفية في المسجدِ، فهو مدفون مع النّبي ﷺ، يعني بقربهِ» (سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٧٩).
ومن الجدير بالذّكر أنّ السَّيدة أسماء رضي الله عنها قد ماتَتْ بعدَ عبد الله ابنها بشهرين أو نحو ذلك، ولها قريبٌ من مئة عام. وهي آخرُ من ماتت منَ المهاجرات الأوَلِ رضي الله عنها وعنهنّ أجمعين، ويقال لها: ذات النّطاقين، وكانت أسنّ من أمّنا عائشة بِسنَواتٍ، وروت عدّة أحاديث وفضائلها لا تُحصىٰ رضي الله عنها وأرضاها.




عبد الله بن مسعود

* كان من السّابقين الأوّلين ، وهاجر الهجرتين .
* أوّل من جهر بالقرآن من الصّحابة في مكة المكرمة .
* عاش للقرآن ومع القرآن والحديث النّبويّ وروى (٨٤٨ حديثاً) .
* من علماء الصّحابة العالمين بالتّفسير والرّواية والفقه والفتوى .
* كان عاقلاً عاملاً عالماً لبيباً ذا مكانة بين علماء الصّحابة .




عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ

مِنْ النّجباءِ الأذكياء:

* فاضلٌ بلغَ من المَعالِي مُرتقاها، وله معارفُ تستقبلُها النُّفوسُ بالقَبولِ وتتلقّاها؛ نَما في منبتِ النَّجابةِ، وكان من أعلامِ الصَّحابةِ؛ فَهِمَ كلماتِ العليمِ الجليلِ، فكان كشّافَ حقائقِ التّنزيل، والعالمَ بأسرارِ دقائقِ التّأويل.

* كان من السّابقين الأوّلين، ومن النُّجباءِ العالِمين، شهدَ بدراً وهاجرَ الهجرتَيْن، تحدَّثَ عن سبقهِ إلى الإسلامِ فقال: «لقد رأيتني سادسَ ستّةٍ وما على ظَهْرِ الأرض مُسلمٌ غيرنا»[١].

* وهذا العالِمُ هو أوّلُ من جَهرَ بالقرآنِ بمكّةَ المكرمةِ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ، ولو كانَ رسولُ اللهِ ﷺ مُستخلفاً أحداً من غيرِ مشورةٍ لاستخلفَه، أو كان مُؤمّراً أحداً دون مشورةِ المؤمنين لأمَّرهُ.

وعندما تحَدَّثَ الإمامُ الذَّهبيُّ رحمه الله عن هذا العالِم الكبير النَّجيب قال: «كان معدوداً في أذكياءِ العُلماء»[٢].

* إذاً، فمن هذا العالِمُ الذّكيُ الأريبُ النَّجيبُ؟

* الإمام الذَّهبيّ نفسه يقدّمُ لنا هويته المُسْفرةَ وبطاقتَهُ المزهرة فيقول: «عبدُ الله بنُ مسعود بن غافل، الإمامُ الحبْرُ فقيهُ الأمّة، أبو عبد الرّحمن

---

(١) انظر: حلية الأولياء (١/ ١٢٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٦٢).

الهُذليّ ، المكّيّ ، المُهاجريّ ، البدريّ ، حليفُ بني زُهرة»[1].

* وأمُّهُ واحدةٌ من أمّهاتِ الصَّحابة[2] الكريماتِ اللواتي حلّقنَ في سماءِ المكارم ، وكُنَّ من ذواتِ الفَضلِ في دنيا نساءِ الإسلام؛ إنّها أمّ عبدِ بنتُ عبد ودّ الهذليّة ، أسلمت ، وصحبتْ ، وبايعت ، وهاجرت ، وكُتبت في ديوان السَّابِقات دوحةِ الإيمان باللهِ عزَّ وجلَّ ، وبرسولهِ ﷺ ، وبهذا يكونُ عبدُ اللهِ بنُ مسعود صحابياً ابن صحابيةٍ ، وبالتّالي يُعرفُ أيضاً بأمِّه ، فيُقَالُ له : ابن أمِّ عبد.

* كان إسلامُ سيِّدنا عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قديماً قبل دخول رسول الله ﷺ دارَ الأرقَمِ بن أبي الأرقم المَخزوميّ[3] ، وكنّاه رسولُ اللهِ ﷺ أبا عبد الرّحمن قبل أنْ يُولَدَ له. وتوفي رسولُ اللهِ ﷺ وهو يحبُّه ويحبُّ عمارَ بن ياسر رضي الله عنهم أجمعين[4].

«إنَّكَ غُلامٌ مُعَلَّمٌ»:

* يظهرُ من أخبارِ عبدِ اللهِ بنِ مسعود رضي الله عنه التي وصلت إلينا أنَّه قد عَرَفَ طيْب عَرْفِ عُود الدَّعوةِ الإسلاميّةِ وهي غضّةٌ لا تزالُ في بدايتها تتثنّى ، وستبقى كذلك بإذن الله تعبق بنفح الطِّيبِ.

وفي مهدِ الرّسالَةِ شهدَ عبدُ اللهِ بن مسعودٍ مشارقَ الأنوارِ المحمديّةِ ، فأدركَ بِنُورِ بصيرته الصَّافيةِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ هو السِّراجُ المُنيرُ ، والنّورُ المُضيءُ ، وهو رسولُ ربِّ العالمين.

---

(١) انظر: سير أعلام النّبلاء (١/ ٤٦١) وانظر: مُسند أحمد (١/ ٣٧٤ ـ ٣٨٤)، وحلية الأولياء (١/ ١٢٤ ـ ١٣٩)، والاستيعاب (٢/ ٣٠٨ ـ ٣١٦)، وأسد الغابة (٣/ ٢٨٠ ـ ٢٨٦) ترجمة رقم (٣١٧٧) ، وتاريخ بغداد (١/ ١٤٧ ـ ١٥٠) ، وكثيراً من المصادر المتنوّعة التي يصعبُ حصرها في هذا المقام.

(٢) اقرأ كتابنا الشَّهير «نساء من عصر النبوة» حيث تجدُ فيه فوائد جليلة ومعلومات مهمة ، ومواقف مشهورة. .

(٣) اقرأ سيرة الأرقم في موسوعتنا المباركة «فرسان من عصر النبوة» (ص ٣١٦ ـ ٣٢٧).

(٤) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٥٤).

* ففي لقاءٍ مباركٍ مثمرٍ اقتطفَ عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنه جنى ريحانِ الإيمان منذ أن شهدَ موقفاً ميموناً ومتألقاً لرسولِ اللهِ ﷺ إذ شهدَ له الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ بالعِلمِ والفَهْمِ ، بعدَ أَنْ سبرَ أغوارَهُ وعرفَ قرارَهُ.

* ولنتركِ الكلام الآن لسيّدنا عبدِ اللهِ بنِ مسعود ليحدِّثنا عن ذلك اللقاءِ الميمون فيقول: «كنتُ غُلاماً يافعاً أرعىٰ غنماً لِعقبةَ بنِ أبي مُعيط[1] بمكَّةَ؛ فجاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وأبو بكرٍ الصِّديقِ رضي الله عنه ، فقال: «يا غُلامُ ، هل عندك من لَبَنٍ تسقينا؟».

قلت: «إنّي مؤتمنٌ[2] ، ولستُ بساقيكما.

فقال النَّبيُّ ﷺ: «هل عندكَ من جذعةٍ لم يَنْزُ عليها الفَحلُ؟».

قلتُ: نعم.

فأتيتهُ بِشاةٍ ، فاعتقلَها النَّبيُّ ﷺ ، ومسحَ ضرعَها ودعا ، فحفلَ الضّرعُ ، فحلبَ وشربَ هو وأبو بكر ، ثمّ قال للضَّرع: «اقْلِصْ» فقلصَ؛ فأتيتهُ بعد ذلك فقلتُ علّمني من هذا القولِ الطَّيبِ!

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّكَ غلامٌ مُعَلَّم» فأخذتُ من فيهِ سبعينَ سورةً ما ينازعُني فيها أحدٌ»[3].

* وهكذا كانَ سيّدنا عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضي الله عنه أحدَ أفذاذِ السَّابقينَ

---

(١) اقرأ سيرة هذا الفاجر الكفور الظّلوم الغشوم عقبة بن أبي معيط في كتابنا «المبشرون بالنار» (ص ١٤٠ ـ ١٥٩) ولاحظ مواقفه المخزية ، ولؤم طبعه وسوء منقلبهِ.

(٢) بهذه الكلمة الواعية الصَّادقة افتتح عبدُ الله بن مسعود إسلامه، حيثُ الأمانة التي حمّلها الله عزَّ وجلَّ الإنسان على هذهِ الأرض ، ولم يحمّلها أحد غيره من مخلوقاتِ الله عز وجل.

(٣) انظر: حلية الأولياء (١/ ١٢٥) بتصرف يسير ، وللحديث أصلٌ في المسند (١/ ٣٧٩ و٤٥٧ و٤٦٢) ،

ومعنى: «جذعة»: الشّاة التي دخلت في السّنة الثانية.

و«ينزو»: يثبُ ، والماضي منها وثَب.

و«قلَص» ارتفعَ ، و«اقلصْ» اجتمعَ. والمعنى: أنْ يعودَ الضّرعُ كما كان.

و«اعتقلها» أي: وضع رجلها بين ساقه وفخذه ثم حلبها.

الأوّلينَ الذين نالُوا وسامَ القُربِ منَ المليكِ المُقتدرِ ، وحظُوا عنده بمقعدِ صِدْقٍ ، وهم في الغُرفاتِ آمنون. . . :

صُغْتُ القَوافِي لا زُلفَى ولا مَلَقا شِعْراً نظمتُ بِهِ أمجادَ مَنْ سَبَقا
مِنْ صَحْبِ أحمدَ مَنْ طابَتْ سرائرهُم فَطابَ منزلُهم ظَلاًّ ومُرتَفقا
مَنْ علّمُوا النَّاسَ قُرآنا يطهّرهم ويرفعُ الإصْرَ والأَغْلاَلَ والرَّهقا

أوَّلُ مَنْ جَهَرَ بِالقُرآنِ :

* كانت قُريشٌ يأخذُهَا ما يأخذُها كلّما سمعت أنَّ رجلاً قد دخلَ في الإسلام ؛ في دِينِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، واتّبعَ النَّبيَّ محمّداً ﷺ ، فراحتْ تُذيقُ المؤمنينَ ألوانَ العقابِ والعذاب ، وتنقم منهم لأنّهم آمنوا بربّهم ، ونبذوا أصنامَ القومِ وراءَ ظهورهم ، بل سخروا منها سخريةً شديدةً ، وطرحُوا بعضَها أرضاً ، وبعضها أَلْقَوهُ في الأماكنِ القذرة. .

* وكان عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنهُ ممّنْ تحدّىٰ كبرياءَ قريش ، وتصدّى لهم ليسمِعَهم القرآنَ العظيمَ رغم كبريائهم وصلفهم.

* وقد يخطرُ في بالِ القارىءِ الكريم أنَّ هذا المتحدّي قد أوتي بسطةً في الجسم ، وقوّةً في الذّراعِ والعضلاتِ ، غير أنَّ الأخبارَ التي وصلت إلينا عن طريقِ الرّواة تؤكدُ أنَّ عبدَ الله بنَ مسعود كان أسمرَ ، خفيفَ اللحم ، نحيفاً ، قصيراً ، دقيقَ السّاقين ، بل لم يكنْ من قريش ، ولا من عُليا قبائلهم ، وإنّما كان حليفاً لهم ، وليس له عشيرةٌ تحميهِ إذا ما ألَمَّ به حدَثٌ ، أو نزلتْ به نازلةٌ من نوازل الدَّهر.

* بيد أنَّ هذا الرَّجُلَ النَّحيفَ كان في أثوابهِ أسدٌ هصورٌ ، ويحملُ بين جوانحه قَلْباً جريئاً ، لا يهابُ من قريش ، ولا يخشىٰ الفجرةَ الكفرةَ من مسانِدِ الشّركِ كأبي جهل[١] ، وأبي لهب[٢] ، وعتبةَ بنِ ربيعة[٣] ، وأميّة بنِ

(١) (١ـ٣) اقرأ سير وأخبار هؤلاء الأشرار الفجار في كتابنا «المبشَّرون بالنار» تجد صَبْر رسول الله ﷺ ، وكيف كان يعاملهم ، وكيف كانت نهايتهم.

خلف ، والعاصِ بن وائل ، ومَنْ في سلكِ هؤلاء مِنْ وَقُودِ النّار.

* وقفَ عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه في بدء الدّعوة على الملأ القرشيّ الكافر ، ومن ثمّ أخذَ يجهرُ بالقرآنِ الكريمِ أمام كِبارِهم ، وملءَ أسماعِهم ، وأبصارِهم ، بل يجهرُ به أمامَ قلوبِهم التي رانَ عليها ضلالُ الجاهليّة ، وإضلالُ الأصنام وأوهام الأوثان ، ويصمّ آذانَهم التي أبَتْ أن تستجيبَ لصوتِ الحقّ ونداءِ الإيمان.

* شهدَ بشجاعةِ سيدنا عبدِ اللهِ بنِ مسعود رضي الله عنه أحدُ شجعانِ الصَّحابَةِ وفرسانهم ، وأحدُ السَّابقين الأوّلين إلى دوحةِ الإيمانِ ، الزّبيرُ بنُ العوّام رضي الله عنه حيثُ قال: «أَوّلُ مَنْ جهرَ بالقرآنِ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ بمكّةَ عبدُ اللهِ بنُ مسعود ، اجتمعَ يوماً أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ فقالوا: واللهِ ما سمعتْ قريش هذا القرآن يُجْهَرُ لها به قطّ ، فمَنْ رجلٌ يُسمعْهمُوهُ؟ فقال عبدُ الله بنُ مسعود: أنا!

قالوا: إنّا نخشاهم عليكَ ، إنّما نريدُ رَجُلاً له عشيرةٌ يمنعونه من القوم إنْ أرادُوهُ!

قال: دعوني ، فإنَّ الله سيمنعُني!

فغدا ابنُ مسعود حتى أتى المقام في الضُّحى ، وقريش في أنديتها ، حتى قام عند المقام ، ثمّ قرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ـ رافعاً بها صوته ـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٢] ، ثم استقبلَها يقرؤُها ، فتأمّلوه ، فجعلُوا يقولون: ماذا قال ابنُ أمِّ عبد؟! ثمّ قالوا: إنّه ليتلو بعضَ ما جاءَ به محمّد!

فقاموا إليه، فجعلُوا يضربونَهُ في وجههِ ، وجعلَ يقرأُ حتّى بلغَ منها ما شاء اللهُ أنْ يبلغَ؛ ثمّ انصرفَ إلى أصحابهِ ، وقد أثّروا في وجههِ ، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك!

فقال: ما كان أعداءُ اللهِ أهونَ عليّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينّهم بمثلها غداً!

قالوا: لا ، حسبُكَ ، قد أسمعتَهُم ما يكرهون»[1].

* وما أجمل أن نقرأ هذه الخفقات النّاعمة عن ابن مسعود وعن جَهْرِه بالقرآن:

الوحيُ عَادَ إلى النّبيّ وخَابَ ظَنُّ المُشْركين
إنَّ الشَّماتَةَ لمْ تَطُلْ يا بئسَ قوماً شَامتين
ظَنُّوا بأنَّ الوحيَّ غابَ ولنْ يعودَ إلىٰ الأمين
لكنَّه قد عادَ بالقُرآن والرَّدِ المتين
فأجَابَ عن كُلِّ المَسائِلِ مُفحماً للسَّائلين
نادىٰ الرَّسُولُ على صَحَابتِهِ خِيارِ العالمين
مُتَسائلاً مَنْ يَقْرأُ القُرآنَ عندَ الكافرين
كي يسمعوه فربما أن يهتدوا في المهتدين
قالَ ابنُ مسعودٍ أنا يا خيرَ كُلِّ المُرسلين
قالَ النَّبيُّ له فسوفَ تنالُ بطشَ المُعتدين
فأَجَابَهُ إنّي سأتْلو في سَمَاعِ الكَارِهين
إنْ يبطشُوا بي فهو حظّي نِعْمَ حَظُّ الصَّابرين
هذا ابنُ مسعود تهيَّأَ للتّلاوةِ في يقين
فتلا على أسماعِهم قولاً من الذِّكرِ المُبين
سمعُوا التِّلاوةَ جاءَهُ فوراً أَبو جَهْل اللَّعين
قدْ صَكّه في أذنِهِ خُرِقَتْ أمَامَ النَّاظرين[2]

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ :

* منذ أن عرفَ سيّدنا عبدُ اللهِ بنُ مسعود القرآنَ الكريمَ ، عرفَ عظمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأدركَ كيفَ يتعاملُ مع كلامِ ربِّ العالمين ، ونظرَ بعينِ البصيرةِ الصَّافيةِ إلى ثلّةِ المؤمنين الذين استجابُوا للهِ والرَّسولِ ، فرأىٰ صدقَ إيمانِهم ، وعلمَ أنَّهُ وأنّهم يريدونَ وجهَ الله وثوابَه ورضوانَه ليس غير ، لذلك ازداد قُرباً

(١) السيرة النبوية (١/ ٣١٤ و٣١٥) ، وأسد الغابة (٣/ ٢٨١ و٢٨٢) ترجمة رقم (٣١٧٧).
(٢) تغريدة السّيرة النبّوية (١/ ١٨٦).

من مُعلّم النَّاس الخيرَ الصَّادقِ المصدوقِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وأخذ ينهلُ ما قُدِّرَ له من ينابيعِ المعرفةِ القرآنيةِ ، ممّا أغاظَ كبارَ المُجرمين من قريش ، فأتوا رسولَ اللهِ ﷺ ، وقالوا: «يا محمد ، أرضيتَ بهؤلاءِ من قومكَ؟! أهؤلاء الذين منَّ اللهُ عليهم من بيننا؟ اطردهُمْ عنك فلا يجترؤون علينا ، ولعلّك إنْ طردتهم أنْ نتّبعكَ». فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢ ـ ٥٣][١]».

* وعلمَ ابنُ مسعود رضي الله عنه أنَّه أحدُ المؤمنين الذين منَّ اللهُ عليهم بالإيمان ، وشملهم بالإحسان ، وخصَّهم بالتَّوحيدِ والعِبادَةِ ، وأنزلَ في حقِّهم قرآناً يُتلى في المحاريبِ آناءَ الليلِ وأطرافَ النَّهارِ ، فأخذتْ معاني القُرآن بمجامعِ نفسهِ ، وملكَتْ عليه فؤادَهُ ، فغدا يعيشُ للقرآن ، بل غدا عميدَ حَملةِ القُرآن ، وفقيهَ القُرّاء ، وقارىءَ الفُقهاء ، عاشَ للقرآنِ ، ومعَ القُرآن ، وإلىٰ القُرآنِ ، وفي كُلّ لحظةٍ كان القرآنُ هو النّورُ يضيءُ له طريقَه ، ويستضيءُ به في سلوكهِ ، ويجعلُهُ نبراساً في جميعِ أمورهِ ، وفي حلِّهِ وترحالهِ ، وفي مواقفهِ وأعمالهِ ، كما سنرىٰ في الفقراتِ الآتية بإذن الله.

في صُفُوفِ المُهاجرين:

* في عدادِ المُهاجرينَ إلى أرضِ الصِّدقِ ، كان عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه ممّن هاجرَ إلى اللهِ بدينهِ مخافةَ الفتنةِ.

* وعندما تحدّثَ علماءُ التَّراجم وكتّاب السّيرةِ عن عبدِ اللهِ بنِ مسعود قالوا: «أسلَمَ قديماً ، وهاجرَ الهجرَتين[٢] إلى أرضِ الحبشة»[٣].

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٤٧) بشيء من التّصرّف؛ وللحديث أصلٌ في الصّحيح ، حيث أخرجه مسلم برقم (٢٤١٣).

(٢) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٥٥).

(٣) انظر: الطّبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢٠٤) ، والاستيعاب لابن عبد البر (٢/ ٣١٠) ، =

* والذي تميلُ إليه النَّفسُ أنّ عبدَ الله بنَ مسعود رضي الله عنه كان من ثلّةِ المهاجرين إلى الحبشةِ في الهجرةِ الثّانيةِ وهم نحو من ثمانينَ رجلاً ، أمّا في أحداثِ الهجرةِ الأولى فيبدو أنّه كان في أمِّ القُرى مكّة لأنَّهُ شهدَ إسلام الوزيرِ المحمديّ الثّاني الفاروق عمرَ بنِ الخطاب عليه سحابات الرّضوان.

* وعن إسلامِ سيّدنا عمر تحدّثَ ابنُ مسعود رضي الله عنه حديثاً طيّباً مباركاً يكتنفهُ الحقُّ من كلّ جانب ، فقال: «إنَّ إسلامَ عمرَ رضيَ اللهُ عَنْهُ كان فتحاً ، وإنَّ هجرتَهُ كانت نَصراً ، وإنَّ إمارته كانت رحمةً ، ولقد كُنَّا ما نصلّي عند الكعبةِ حتى أسلم عُمرُ ، فلمّا أسلمَ قاتلَ قُريشاً حتّى صلّى عندَ الكعبةِ ، وصلَّينا مَعَهُ»[1].

* وإسلامُ سيِّدنا عُمرَ بنِ الخَطابِ رضي اللهُ عنه مشهورٌ معروف متعالمٌ بين طبقاتِ النَّاسِ ، وفي كُتُبِ السِّيرَةِ بأنّه كانَ عقبَ الهجرةِ الأولى إلى بِلادِ الحبشةِ ، وكان إسلامهُ في الدَّارِ الأرقمية الميمونةِ دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي[2].

= بينما قال غيرهما من كتّاب التّراجم والسِّير «أنَّ عبدَ اللهِ بنَ مسعود رضي الله عنه قد هاجرَ الهجرتين» ولم يحدد هؤلاء الهجرة إلى الحبشةِ أو إلى المدينة المنوّرة ، انظر مثلاً: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٤٤) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٤٦١) ، والإصابة (٢/ ٣١١).

وحديثُ الهجرة إلى الحبشة ، وإلى المدينة المنوّرة متعالَمٌ مشهورٌ في كتب السّيرة فليرجعْ إليه القارئُ الكريم إنْ أراد.

(١) في السِّيرةِ النبويةِ العطرةِ ذكرَ ابن هشام أنَّ سيّدنا عبدَ اللهِ بنَ مسعود رضي الله عنه لم يهاجرْ إلى الحبشةِ الهجرةَ الأولى ، وقد ذكرَ أسماء عشرة رجالٍ ، وأربع نسوة هاجروا هجرةَ الحبشة الأولى ، ولم يذكر ابنَ مسعود فيهم (السيرة النّبوية ١/ ٣٢٢ و٣٢٣).
وعزَّزَ هذه المقالة الحافظُ ابنُ حجر في «الفتح» إذ قال: «وظهرَ بما تقدمَ من أسماءِ أهل الهجرة الأولى إلى الحبشةِ وَهْمُ مَنْ زعمَ أنَّ ابنَ مسعود كان منهم ، وإنمّا كان من أهلِ الهجرةِ الثّانية (فتح الباري ٧/ ١٩٠).
أما النّووي رحمه الله فلم يحدّد هجرةً أولى أو ثانية ، وإنمّا قال: «هاجر إلى الحبشة ثمّ إلى المدينةِ» (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٨٨).

(٢) ما أجملَ أنْ نشدوَ بهذهِ الأبيات التي تحكي بعضَ قصةِ إسلامِ عمر بن الخطاب رضي الله=

* أمّا في الهجرة الثّانيةِ فقد نُظِمَ ابنُ مسعود رضي الله عنه في عِقْدِ المُهاجرينَ إليها ، وهنالكَ عاشَ في الأمن والأمانِ مع المؤمنين، يعبدون الله عزَّ وجلَّ في جوارِ النَّجاشي ، ثم إنّهُ رجعَ من أرضِ الحبشةِ ليسعدَ في جوارِ أمير الأنبياء ومعلّمِ الأصفياءِ حبيبنا وسيّدنا محمّد رسول الله ﷺ.

* وفي ثنايا الحديثِ الآتي دليلٌ على هجرةِ ابنِ مسعود رضي الله عنه الهجرةَ الثّانيةَ إلى الحبشة حيثُ قال: «كُنّا نسلِّمُ على النّبيِّ ﷺ فيردُّ علينا ، ـ يعني في الصَّلاة ـ فلمّا أنْ جئْنَا من أرضِ الحَبشة ، سلّمْتُ عليه فلم يردَّ عليّ ، فأخذني ما بَعُدَ وما قَرُبَ ، فجلستُ حتّى إذا قضى الصَّلاةَ ، قلتُ له: إنّكَ كنتَ تردُّ علينا.

فقال: «إنَّ الله يُحدِث ما شاء ، وقد أحدثَ في أمرهِ قضاءً: أن لا تتكلّمُوا في الصَّلاة».

* وفي روايةٍ أنَّه ﷺ قال: «إنَّ في الصَّلاةِ لَشُغلاً»[1].

تبحّرُهُ في القُرْآنِ:

* ينتظمُ عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنه في سِلْكِ علماءِ الصَّحابَةِ الأفذاذِ الذين نقلُوا إلينا كثيراً من الوقائعِ ، وكثيراً من المواقفِ المهمّةِ التي تتعلّقُ بنزولِ القُرآنِ الكريم ، بل كان يشهدُ بعضَها ، ويشاهدُ أحداثَها.

* ولعلّ مردَّ ذلكَ كلّه إلى أنَّ سيّدنا عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ رضي الله عنه كان

= عنه وأرضاهُ وحشرنَا في معيّته ومعيّة الخُلفاء الرّاشدين:

وأتـى ابـنُ الخطّـابِ يـؤمـنُ بـا ... للهِ ويختـارُ دينَـهُ المـأثـورا
قـال كـلاّ لـن يُعبـدَ اللهُ سِـرّاً ... ويُـرَى نُـورُ دينـهِ مستـورا
اخـرجُـوا فـي حمـى الكتـابِ أسـوداً ... واطلُعـوا فـي سنـا النّبـي بُـدورا

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٧٦ و٣٣٧ و٤٠٩ و٤١٥ و٤٣٥ و٤٦٣)؛ والبخاري برقم (١١٩٩) و(١٢١٦)؛ ومسلم برقم (٥٣٨) ، ومعنى قوله: «فأخَذَني ما بَعُدَ وما قَرُبَ»: يُقالُ للرّجلِ إذا أقلقهُ الشّيءُ وأزعجه: أخذهُ ما قَرُبَ وما بَعُدَ ، وما قدُمَ وَما حدُث ، كأنّه يفكّر ويهتمّ في بعيد أموره وقريبِها.

مُلازماً للنّبيّ ﷺ يخدمهُ في الإصباحِ وفي الإمساءِ ، بل كان له اختصاصٌ بإذنِ الدّخولِ على النّبيّ ﷺ ، وهذا ممّا جعلهُ من أحدِ العُلماء المُقرّبين في بيتِ النّبوةِ الكريم ، حيث يُؤذنُ له ، ويُحجبُ غيرُهُ ، ويشهدُ ما لم يشهدهُ غيرُه.

* وعن هذا الاختصاصِ الفريدِ يحدّثُ ابن مسعود رضي الله عنه فيقول: قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «إذنكَ عليّ أن يرفعَ الحجابُ ، وأن تستمعَ سِوادي حتّى أنهاكَ»[1].

* ويُضافُ إلى ذلك أنَّ عبدَ الله بنَ مسعود رضي الله عنه كان يعيشُ مع القرآنِ الكريمِ حياةً كاملة ، فكان إذا هدأتِ العُيونُ قامَ ، فيُسْمَع له دويّ كَدويّ النَّحلِ حتّى يصبحَ ، وكانَ حسنَ الصَّوتِ بالقُرآنِ الكريم[2]. وله مع القرآن وقفاتٌ جميلةٌ وأحداثٌ جليلةٌ ، تشيرُ إلى حياتهِ القُرآنيةِ المفعمةِ بالمواقفِ الغنيةِ التي أَثْرَتْ حياتَه وأَثَّرتْ في حياته العلميّةِ.

* ومن تلكمِ الأحداثِ القُرآنيةِ والقَصص الجلاليّة ، ما رواهُ سيّدنا عبدُ اللهِ بنُ مسعود عن قصّةِ نزولِ آية كريمة ، عندما كان ذات مرّة مختبئاً تحت أستارِ الكعبةِ المُشرّفة ، وذلك في بداية الدعوةِ المُحمديّة ، ونزول الرّوحِ الأمين على الصَّادقِ الأمينِ محمّدٍ ﷺ.

* روى سيّدنا ابن مسعود هذا فقال: «إنّي لمستترٌ بأستارِ الكعبةِ ، إذ جاءَ ثلاثةُ نفَرٍ: ثقفيٌّ ، وخَتَنَاهُ قرشيّان ، كثيرٌ شحمُ بطونِهم ، قليلٌ فِقْه قلوبِهم ، فتحدّثُوا بينَهم بحديثٍ ، فقال أحدُهم: ترىٰ أنَّ اللهَ يسمعُ ما قُلنا؟.

قال الآخر: أراهُ يسمعُ إذا رفعْنَا ، ولا يسمعُ إذا خَفَضْنَا!

قال الآخر: إن كان يسمعُ شيئاً منه ، إنّه ليسمعهُ كلّه!

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٤٩)؛ وللحديث أصلٌ في الصَّحيح ، إذ أخرجهُ مسلم برقم (٢١٦٩) و«السِّواد» السِّرار والمحادثة.

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٦٤) بتصرف يسير.

فذكرتُ ذلك لرسولِ اللهِ ﷺ ، فأنزلَ اللهُ عَزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ . . . حتّى ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٢٢ ـ ٢٣][1]» .

* وفي موقفٍ قرآني آسِر ، يزفُّ الهادي البشيرُ رسولُ اللهِ ﷺ لابنِ مسعود رضي الله عنه بشرى مختومةً برحيقِ الإيمانِ، وشهادة تقول بأنّه من المؤمنين، وممّن يعملون الصَّالحات؛ فقد روىٰ عبدُ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه هذا فقال: «لمَّا نزلتْ ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ . . .﴾ [المائدة: ٩٣] ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «قيل لي: أنتَ منهم»[2] .

* وكانَ عبدُ اللهِ بن مسعود رضوان اللهِ عليهِ يتلقّى القُرآنَ الكريمَ مُشافهةً من فم الصَّادق المصدوق ﷺ ، وكان يقرأُ عليهِ ليتأكَّدَ من حفظهِ ، ويعزّزُ ما وَعَاه.

* أخرجَ البخاريُ بسندٍ رفعَه إلى عبدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه قال: «قرأتُ على النبيِّ ﷺ: ﴿فَهَل من مُذّكر﴾ فقالَ النّبي ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٤٠][3] .

* وتظلُّ شذا الكلماتِ المُحمديّـةِ النّبويّـةِ وأنداؤها تَروي قلْبَ العَالِمِ الفَطِنِ الذّكي الحافظِ عبد اللهِ بن مسعود رضي الله عنه الذي كان ينقلُها لتلامذتهِ ولمحبّي العِلْم والقرآن من كافةِ الأقطارِ ليحفظُوها ويعملُوا بها ويعلّمرها غيرَهُمْ.

---

(١) أخرجه البخاري؛ انظر: فتح الباري (٨/ ٥٦١) ، ومسلم برقم (٢٧٧٥) ، وأحمد في مسنده واللفظ له. وذكر ابنُ حجر أنّ القرشيَ هو الأسود بنُ عبد يغوث ، والثّقفيّ الأخنس بن شَريق ، ولم يُسَمِ الثّالث. ومعنى «ختناه». زوجا بنتيه.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٤٥٩) ، والترمذي برقم (٣٠٥٦).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٨٧٤). وهذا الحديث يتوافق أيضاً مع ما جاءَ في الصَّحيح وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ أنّه كان يقرأ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥]. أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥ و٤١٣ و٤١٦ و٤٣١ و٤٣٧ و٤٦١) ، والبخاري في الأنبياء برقم (٣٣٤١ و٣٣٧١ و٣٣٤٥)؛ وفي التّفسير برقم (٤٨٧٤ و٤٨٦٩ و٤٨٧٠ و٤٨٧٢ و٤٨٧٣) ، ومسلم برقم (٨٢٣).

* وروى الأسودُ بنُ يزيد[1] رحمه الله عن عبدِ اللهِ بنِ مسعود رضي الله عنه قال: «أقرأني رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٤٠]».

فقال رجلٌ: يا أبا عبد الرّحمن ﴿مدّكر﴾ أو ﴿مذّكر﴾؟

قال: أقرأني رسولُ اللهِ ﷺ ﴿مدّكر﴾»[2].

* وقد أفادَ ابنُ مسعود رضي الله عنه حفظاً وفهماً للقُرآنِ العظيمِ لكثرةِ مُلازمتهِ للنّبيِّ ﷺ، وقد أنعمَ اللهُ عليهِ بالحفظِ والفَهْمِ، وعن هذه النّعمةِ العظيمةِ التي لا تدانيها نعمةٌ يتحدّثُ ابنُ مسعود فيقول: «واللهِ لقد أخذتُ من فيّ رسولِ اللهِ ﷺ بضعاً وسبعين سورةً، واللهِ لقد علمَ أصحابُ النّبيّ ﷺ أنّي من أعلمِهم بكتابِ اللهِ، وما أنا بخيرِهم»[3].

* وهذا العالمُ النّحرير[4] يطلبُ منه رسولُ اللهِ ﷺ أن يقرأَ عليهِ القُرآنَ، لأنّهُ ﷺ يحبُّ أَنْ يسمعَهُ مِنْ غيره.

---

(١) الأسودُ بنُ يزيد بن قيس النّخعيّ، الكوفيّ، التّابعيّ، الفقيهُ، الإمامُ الصّالحُ، رأى أبا بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما، وروىٰ عن أكابر الصّحابة رضي الله عنهم جميعاً؛ قال أحمدُ بنُ حنبل «هو ثقةٌ من أهلِ الخيرِ واتّفقوا على توثيقهِ وجلالته». كان شديدَ الحرص على الصّلاةِ لوقتها، كثيرَ الصّيام، كثيرَ الحجّ والاعتمار، روي أنّه سافرَ ثمانين حجةً وعمرةً لم يجمعْ بينهما، وكان يصومُ في اليوم الشّديد الحرّ حتى يسودّ لسانه من الحرّ. وكان دائمَ الملازمةِ للقرآن، فكانَ يختمُ القرآنَ في شهر رمضانَ في كلّ ليلتَيْن، وكان يقرأُ القُرآنَ في ستٍّ، امتدحته أمّنا عائشة رضي الله عنها فقالت: «وما بالعراقِ رَجُلٌ أكرمُ عليّ من الأسودِ» وقال ابنَ حجر: «مخضرمٌ، ثقةٌ، مكثرٌ، فقيهٌ».
وقال ابنُ سعد: «توفي الأسودُ بنُ يزيد بالكوفة سنة (٧٥ هـ)، وكان ثقة، وله أحاديث صالحة»، وأخبارهُ كثيرةٌ منثورةٌ في المصادر، (طبقات ابن سعد (٦/ ٧٠)، و(تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٢٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٧٨٠)، ومسلم برقم (٨٢٣).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٥٠٠٠)، ومسلم برقم (٢٤٦٢).

(٤) «النحرير»: بوزن المسكين: العالم المُتقن.

* جاء في الصَّحيحِ وغيره عن عبدِ اللهِ بنِ مسعود رضي الله عنه قال: «قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «اقرأْ عليَّ».

قُلت: أقرأُ عليكَ وعليكَ أُنْزِل؟!

قال: «إنِّي أشتهي أنْ أسمعَهُ مِنْ غيري».

فقرأتُ النّساءَ حتّى إذا بلغتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

قال لِي: «كُفَّ» أو «أَمسك». فرأيتُ عيناهُ تذرفانِ»[1].

* إنّ من يقرأُ هذا الحديثَ قراءةً واعيةً، تظهرُ له مكانةُ عبدِ اللهِ بنَ مسعود في صفوف عُلماء الصَّحابةِ، حيثُ يشيرُ رسولُ اللهِ ﷺ بأسلوبه التّعليميّ، إلى ما عند تلميذه النّجيب الحصيفِ ابنِ مسعودٍ من حفْظٍ للقرآن، واستيعابٍ لمعانيه الحِسَان، وإلى صوتهِ الآسر المُؤثّر في القُلوب التي تطمئنُ بذكر الرحمن.

* ومن ناحيةٍ أخرى يظهرُ تواضعُ النَّبيّ ﷺ، إذ يصغي لطلاّبِ العِلمِ الذين تخرّجُوا في مدرستهِ الزَّهراء، ويعلّمهم بذلكَ أنْ يحذوا حذوَه في مجالس العلماء، وأنْ يزرعُوا بذورَ الشَّجاعَةِ في نفوسِ المُتعلّمين كي يحلّقُوا في سماواتِ المعرفةِ ويطالوا الجوزاء.

---

(١) أخرجهُ البخاري في مواضع من صحيحه، في التّفسير برقم (٤٥٨٢)؛ وفي فضائل القرآن برقم (٥٠٤٩ و٥٠٥٠ و٥٠٥٥ و٥٠٥٦)؛ ومسلم في صلاة المُسافرين برقم (٨٠٠)؛ وفي الحديث فوائدُ جليلة ينبغي أنْ تدوّنَ ليستفيدَ منها العالمُ والمتعّلِّمُ فمن هذه الفوائد:
* استحبابُ طلب القراءةِ من غيرهِ ليستمعَ له، وهو أبلغُ في التّفهم، والتّدبر من قراءته بنفسه.
* استحبابُ استماعِ القراءة، والإصغاءِ لها، والبكاءِ عندها، وتدبّرها.
* وفيهِ تواضعُ أهلِ العلمِ والفَضْل، ولو مع أتباعهم.
وعلّل الحافظ ابنُ حجر رحمه الله بكاءَ النّبيّ ﷺ فقال: «والذي يظهرُ أنّه بكىٰ رحمةً لأمّته، لأنَّه علمَ أنَّه لا بدَّ أن يشهدَ عليهم بعملِهم، وعملُهم قد لا يكون مستقيماً، فقد يفضي إلى تعذيبهم، والله أعلم».

* ومن المواقف القرآنيّةِ المباركةِ موقفٌ كريمٌ ، جاءت الإشارةُ فيهِ إلى عِلْمِ عبدِ اللهِ بنِ مسعود رضي الله عنه من ذلك الذي اختصَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيه؛ فقد وردَ أنَّ قولَ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ [محمّد: ١٦] يخصّ ثلة من علماء الصَّحابةِ ومِنهُمْ: عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ، وعبدُ اللهِ بنُ عباسٍ رضي الله عنهم»[١].

* ويشيرُ القُرآنُ الكريمُ إلى إيمانِ ابنِ مسعود وثلةٍ من الصَّحابةِ الكِرام رضي الله عنهم ، وذلك في قولهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأحقاف: ١١]؛ فالكفَّارُ هم: كُفارُ قُريش.

والمؤمنون هم: صُهيبُ الرُّومي ، وعمّارُ بنُ يا سِر ، وعبدُ اللهِ بنُ مسعود[٢] رضي الله عنهم أجمعين.

* ومرّةً أخرى يُشارُ إلى عبدِ اللهِ بنِ مسعود رضي الله عنه بأنَّهُ من أهلِ الإيمانِ في قولهِ تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢١٢] ، حيثُ قيل: إنَّ المؤمنين هؤلاء هم: عمّارُ بنُ ياسر ، وبلالُ بنُ رباح ، وعبدُ اللهِ بنُ مسعود[٣] رضي الله عنهم.

* وفي قولهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النّساء: ٦٦]؛ قيل: إنّها نزلَتْ في عبدِ اللهِ بنِ مسعود ، وعمّارِ بنِ ياسر[٤] رضي الله عنهما.

* ويروي سيّدنا عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنه أنَّه ممن سارعَ إلى الاستجابَةِ إلى أمْرِ اللهِ ، وذلكَ في قولهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [آل عمران: ١٧٢] ، قال: «كُنّا ثمانيةَ عَشر رَجُلاً»[٥].

---

(١) انظر: غُرر التبيان لابن جماعة (ص ٤٧٩) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٦٠).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٦/ ١٩٠) بتصرف يسير.
(٣) انظر: تفسير الخازن للآية (٢١٢) من سورة البقرة.
(٤) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٤٧).
(٥) المصدر السَّابق عينه (١٤/ ٤٨).

* وعن إبراهيمَ بن ميسرةَ قال: بلغَني أنَّ ابنَ مسعود مرّ بلهوٍ معرضاً، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنْ أصبحَ، أو أمسىٰ ابنُ مسعودٍ لَكريماً». ثمَّ تلا إبراهيم: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢][1].

* لقد كان ابنُ مسعود رضي الله عنه يعيشُ مع القُرآن في كلِّ وقتٍ وأوانٍ، فقد فَهِمَ مقاصِدهُ، وعاشَ أحداثَه، فكان يعيشُ للقُرآن، ويعلّم ما تعلّمَهُ من رسولِ اللهِ ﷺ، ويُجيبُ عمّا يُسألُ إجابةَ العالِمِ الثَّبْتِ الواثقِ؛ أليسَ ابن مسعود تلميذَ البيتِ النّبويّ الكريم؟!

* لقد كان ابنُ مسعود رضي الله عنه بحقّ عَلَماً بين العُلماء، ونجماً ساطِعاً بين ثلة الفقهاء، وبحراً لا تكدّرهُ الدّلاء.

* وفي الخبرِ التّالي الذي يرويهِ التّابعيُّ الثّقةُ الإمامُ الشّعبيُّ نجدَ مصداقَ ما ذكرناه، يقولُ الشّعبي: «ذكروا أن عمرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه لقيَ ركْباً في سَفَرٍ له، فيهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فأمرَ عمرُ رجلاً يناديهم: من أينَ القوم؟

فأجابَ عبدُ الله: أقبلنا من الفجِّ العميقِ.

فقال عُمر: أين تُريدون؟

فقال عبدُ الله: البيت العتيق.

فقال عمر: إنَّ فيهم عالماً.

وأمرَ رَجُلاً فناداهُمْ: أي القُرآن أعظم؟

فأجابهُ عبدُ الله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. حتى ختم الآية.

قال: ناداهم؛ أي القُرآنِ أَحْكَم؟

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٥٥).

فقالَ ابنُ مسعود: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

فقال عمر: نادِهم: أيّ القرآنِ أجْمع؟

فقال ابنُ مسعود: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٩].

فقال عُمر: نادهم؛ أي القُرآنِ أخوف؟

فقالَ ابنُ مسعود: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

فقال عُمر: نادهم؛ أي القرآنِ أرجىٰ؟

فقال ابنُ مسعود: ﴿ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ . . .﴾ [الزمر: ٥٣].

فقال عمر: نادهم؛ أفيكم ابن مسعود.

قالوا: اللّهُمّ نعم»[١].

* وهكذا كان سيّدنا عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنه رجُلاً مُلِيءَ عِلْماً، وحباهُ الله معرفةً، ومع هذا كان بَطَلاً من أعلامِ المجاهدين الذين أبدعوا في ساحاتِ الجهاد، وتركوا أجملَ صور البطولةِ في سجلِّ فرسانِ المدرسةِ المحمديّةِ، وهذا ما سنلمسهُ في الفِقْرَةِ الآتية بإذنِ العزيز الرحيم.

المُجاهِدُ الغازي:

* عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه، عالمٌ صحابيٌّ، وبطلٌ من فرسانِ مدرسةِ النّبوّةِ المحمديّةِ الذين تخرّجُوا فيها بتفوّقٍ، وأبدعوا في ساحاتِ الجهاد، وتركوا أجملَ الآثارِ وأعمقها في الميادين وفي نفوسِ الأعداء.

* ولما استقرَّ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه في المدينةِ المنوّرةِ مع الصَّحابةِ الكرام، وبدأَتْ فرضيّةُ الجهادِ، كان منَ الذينَ شهدوا المَشاهدَ جَمِيعَها مع

(١) انظر: صفة الصّفوة (١/ ٤٠٠ و٤٠١).

قائدِ الغُرِّ المُحجّلين، وسيّد الخلق أجمعين، محمّد رسول اللهِ ﷺ، وبذلَ ابنُ مسعود ما بذلَ في سبيلِ اللهِ، لتكونَ كلمةُ اللهِ هِيَ العُليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفلى.

* وفي رحلةِ المغازي النّبويّة نجدُ العالمَ الفارسَ عبدَ الله بن مسعود رضي الله عنه في السَّابقين فيها، حيثُ شهدَ بدراً وأُحداً، والخندقَ، والحُديبية، وخيبرَ، وفَتحَ مكّة، وحُنيناً، وتبوك؛ ونُظِمَ في عدادِ العُلماء المُجاهدين من الصَّحابةِ، وكانت له أعظم الآثارِ مع أعلامِ أهلِ الشِّركِ، وأسيادِ الطُّغاةِ؛ وسنشهدُ معهُ بعضَ غزواتهِ، لنتعرف جوانبَ الفروسيّةِ في شخصيّةِ هذا الرّجلَ الفذّ.

* ففي غزاةِ بدرٍ، سار عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنه مع الجيشِ تحتَ رايَةِ فارسِ الفُرسانِ، وسيّدِ الشُّجعانِ، رسولُ الله ﷺ؛ وعند بَدْرٍ كان بالقُرْبِ من رسولِ اللهِ ﷺ يستمعُ إلى توجيهاتهِ القياديّةِ، وهو يحثُّ أصحابَهُ على الثَّباتِ، وعلى قتالِ الفَجَرَةِ المشركين، ومن ثم أراهم مصارعَ الكَفرةِ البُغَاةِ الطُّغاةِ؛ وقد ذكرَ ابنُ كثيرٍ رحمه الله صورةً من بعضِ المشاهدِ البدريّة فقال: «ومشىٰ ﷺ في أرضِ المعركةِ، وجعلَ يُريهم مصارعَ رؤوس القوم واحداً واحداً، ويقول: «هذا مصرعُ فلانٍ غداً إنْ شاءَ اللهُ، وهذا مصرعُ فلان، وهذا مصرعُ فلان». قال عبدُ اللهِ بنُ مسعود: فوالذي بعثَهُ بالحقِّ ما أخْطَأَ واحدٌ منهم موضعَهُ الذي أشارَ إليهِ رسولُ الله ﷺ»[1].

* واصطفَّ الفريقانِ، وتراءىٰ الجمعان؛ فأمّا المسلمون فقد اتّصلتْ قلوبُهم باللهِ عزَّ وجلَّ ورأوا المشركين قلّةً؛ وأمّا المشركون فقد لعبَ بهم الشَّيطانُ وسوَّلَ لهُمْ سُوء أعمالِهم، ومنَّاهُم واستخفَّ بهم، فإذا بالمُسلمين يرونهم قلّةً، ويوافقُ هذا الكلامَ ما ترجمهُ عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنه ترجمةً حيةً قُبيلَ بدءِ المعركةِ فقال: «لقد قُلِّلوا في أعيننا في بدر، حتّى قلت لرجلٍ إلى جانبي: تراهم سبعين؟

(١) انظر: الفصول في سيرةِ الرّسول لابن كثير (ص ١١٧).

قال: لا ، بل مئة!! حتّى أخذنا رجُلاً منه فسألناه ، فقال: كُنَّا أَلْفاً»[1].

* وفي القُرآنِ الكريم تأكيدٌ وتصويرٌ لمجرياتِ المعركةِ ، وتقليلُ عدد المشركين ، حيثُ قال اللهُ عَزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الأنفال: ٤٤].

* وقاتلَ المؤمنون المشركين ، وأنزلَ اللهُ نَصره على المؤمنين ، إذ استغاثُوا بهِ ، فاستجابَ لهم: ﴿ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩] ، وكان سيّدنا وحبيبُنا رسولُ اللهِ ﷺ يلحُّ على ربّهِ في الدُّعاءِ ، وينقلُ سيّدنا ابنُ مسعود صورةَ تلكم المناشدةَ الرّبانيّةَ والمعركةُ مستعرةٌ فيقول: «ما سمعنَا مُناشداً ينشدُ ضالة أشدَّ مناشدةً من محمدٍ لربِّه يومَ بدرٍ: «اللهم إنّي أنشدكَ ما وعدتني»[2].

* ومرّتْ سُويعاتٌ معدوداتٌ فإذا بالجمعِ المُشرك يولّون الدُّبر ، بعد أن قُتِلَ منهم فريقٌ ، وأُسِرَ فريقٌ ، وكان قد قُتِلَ عددٌ من أكابرِ المجرمين وأعيانِهم ومنهم: فرعونُ الأمة أبوجهل عمرو بنُ هشام؛ وكان عبدُ اللهِ بنُ مسعود ممن شهدَ مصرعَ هذا الطَّاغية الكفور ، ومن ثمَّ بشَّرَ رسولُ اللهِ ﷺ بمقتله ، فأعطاهُ ﷺ سيفه من الأنفال.

* ولنَعِشْ لحظاتٍ من السُّرورِ مع هذه البَشارَةِ العظيمةِ التي يرويها العالمُ الفارسُ سيّدنا عبدُ اللهِ بنُ مسعود حيث يقول: «كنتُ أفتّشُ القَتْلَىٰ يوم بَدْرٍ ، لأبشّرَ رسول اللهِ ﷺ بمن أراهُ مقتولاً منهم ـ بعدَ أَنْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ ينظرُ ما صنعَ أبو جهل»؟ ـ فرأيتُ أبا جَهْلٍ صريعاً قد ضربه ابنا عَفْراء[3] ، وكان به بقيّةُ رمقٍ ، فجلستُ على صدْرِهِ ، وأخذتُ بلحيتهِ ، وفتحَ عينَيْهِ ،

---

(١) انظر: البداية والنّهاية (٣/ ٢٦٩) ، وتفسيرابن كثير للآية (٤٤) من سورة الأنفال.

(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٢٨٩) ، وقال ابن حجر رحمه الله «رواه الطبراني بإسناد حسن».

(٣) اقرأ سيرة الصّحابية عفراء بنت عبيد الأنصارية في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (ص ١٨٣ ـ ١٨٨) في سيرتها وسيرة أولادها مواقف متفردة.

وقال لِي بِلهجَةِ غضبٍ وحسرة: لقد ارتقيتَ مرتقىً صعباً يا رويعي الغنم!!

فقلتُ في شجاعةِ المؤمنِ الموقنِ بنصرِ اللهِ: الحمدُ للهِ الذي مكّنني من ذلك.

فقال والحسرةُ تملأُ أنفاسَهُ الأخيرةَ: لمن الدّبرةُ؟

فقلتُ: لله ورسولهِ يا عَدوَّ الله.

فقال: وما تُريدُ أَنْ تصنعَه الآن؟

فقلت: أحزُّ رأسَكَ.

ثمّ أنّي ضربتُه بسيفي، وسيفه بيده، فلم يُغْنِ شيئاً فبصقَ عدو الله في وجهي، وقال: سيفُكَ كليل الحدِّ لا يقطعُ، فخذْ سيفي فهو أمضَى لما تُريد، واقْطَعْ رأسي من كاهِلي ليكون أهيب في عَيْن النّاظر؛ وإذا ما عدتَ إلى محمّدٍ بن عبدِ اللهِ فأخبرهُ أنّي اليوم أشدُّ بغضَاً له ممّا كنتُ من قبل.

فأتممتُ قَتْله، وقطعتُ رأسهُ بسيفهِ، ثمّ أتيتُ به رسولَ اللهِ ﷺ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، هذا رأسُ عدوِ اللهِ أبي جهل؛ فقال ﷺ: «اللهُ أَكْبَر، هذا فرعوني، وفرعونُ أمّتي، كان شرّهُ عليّ، وعلى أمّتي أعظمَ من شرِّ فرعون على موسى وأمّته»؛ ثمّ إنّ رسولَ اللهِ ﷺ نفَلني سيفَه»[١].

* وقد صاغ «أحمد محرّم» مصرَعَ أبي جَهل على يدِ ابن مسعود بسيفِ أبي جَهْل، فتعالُوا نمتّع الأسماع بقراءةِ وسماعِ بعضِ الأبياتِ الجميلةِ من الإلياذةِ الإسلاميةِ، حيث قالَ أحمد محرم فيها:

بسَيْفِكَ فيما اخْتَرْتَ من عاجلِ القَتْلِ ... سقيتَ ذُعافَ الموتِ فاشرَبْ أبا جَهْل

شَهدتَ الوَغىٰ تَبغي على الضَّعيفَ راحَةً ... لِنَفْسِكَ من حِقْدٍ مُذيبٍ ومن غلّ

أَفرعَونُ إنْ تَجهَلْ فَلنْ تَجهل الوغىٰ ... فَراعِنَها من ذي شَبابٍ ومنْ كَهْلِ

أَصَابَكَ فيهَا مَا أَصابَكَ مِنْ أَذَىً ... وفَاتَكَ مَا نَالَ الرُّويعيُّ مِنْ فَضْلِ[٢]

---

(١) انظر: السّير الكبير للشّيباني (٢/ ٦٠٠)، والبداية والنّهاية (٣/ ٢٨٧)، مع الجمع والتّصرف.

(٢) «الرُّويعي»: تصغير الراعي.

سَقى السَّيْفَ عَفْواً من دَمٍ لكَ طَيِّعٌ فَمِنْ مُرتقىً صَعْبٍ إلىٰ مُستقىً سَهلِ
هِـيَ الّـلاتُ والعُـزّىٰ أَضلَّتْكَ هَـذِهِ وزَادَتْكَ هَذي مِنْ ضَلالٍ وَمِنْ خَبْلِ[1]
مضَى جَارُكَ المأْفُونُ خَزْيَانَ وانقضَتْ حِبالُكَ فانْظُرْ هَلْ تَرىٰ الآنَ من حَبْلِ[2]
لَقَدْ كُنْتَ ترجُو أَنْ تَرىٰ الهُبَلَ الّذي رَضِيْـتَ بـهِ رَبّـاً يَفُـوزُ ويَسْتَعْلِـي
أَصَبْـتَ ابـنَ مَسعـودٍ سَنَـاءً ورفعَـةً وبـاءَ عـدوُّ اللهِ بـالخِـزْيِ والـذُّلِّ
فَخُذْ سَيفَهُ ثمّ ارفَعِ الصَّوتَ شاكِراً فمَا بَعْدَ ما أَعْطَاكَ ربُّكَ مِنْ سُؤلِ[3]

* وتابعَ ابنُ مسعود غزواتهِ ، وما زالَ يحضرُ الغُزاةَ إثْرَ الغزاةِ ، وفي كلِّ غزوةٍ يتركُ أثراً واضحاً ، حتى كان يوم حُنين ، حيث كان ابنُ مسعود رضي الله عنه أحدَ الذين ثبتُوا معَ رسولِ اللهِ ﷺ إلى أَنْ فتحَ اللهُ عليهم بالنَّصرِ ، وأنزلَ سكينَته على رسولهِ وعلىٰ المُؤمنين المجاهدين.

* وصوّرَ ابنُ مسعود رضي الله عنه جانباً مهماً من وقائعِ ذلكَ اليوم الشَّهيرِ في دنيا المَغازي النّبويّة ، ذلكَ اليوم الميمون الذي حظِيَ فيهِ بشرفِ الجهادِ فقال: «كنتُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ يوم حنين ، فولّىٰ عنه النَّاس ، وثبتَ معه ثمانون رَجُلاً من المهاجرين والأنصار ، فنكصنَا على أعقابنا نحواً من ثمانينَ قدماً ، ولم نولّهم الدُّبُرَ ، وهم الذين أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهم السَّكينةَ ،

---

(١) كان المسلمون في غزوة بدرٍ يقولون: «اللهُ مولانا ولا مولىٰ لكم» بينما كان أبو جهل يقولك «لنا العزّىٰ ولا عزّى لكم».

(٢) تذكرُ كتبُ السّيرةِ: أنّ إبليسَ قد تمثّل في صورةِ سُراقَةَ بن مالك للمشركين وقال لهم: «لا غالبَ لكم اليوم من النّاس ، وإنّي جارٌ لكم» ، وكانت يدهُ في يدِ الحارثِ بن هشام أخي أبي جَهْل ، فلمّا رأىٰ الملائكة انتزعَ يده من يدهِ ، ثمّ نكصَ على عقبيهِ ، فقال له الحارث: «يا سراقة أتزعمُ أنّك جارٌ لها»؟ قال: ﴿ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٤٨] ، فتشبثَ به الحارثُ ، وقال: «واللهِ لا أرىٰ إلّا خفافيشَ يثرب» قال الحارثُ: «ما علمتُ أنّه الشّيطان إلا بعد أنْ أسلمتُ».
ولما قُتلَ رؤوسُ المشركين قال أبو جهل: «يا قوم لا يهولنكم قتل مَنْ قُتل ، فواللات والعزّى لا نرجع حتى نقرن محمّداً وأصحابه بالحبال.. لا تقتلوهم ولكن خذوهم باليد..».

(٣) انظر: ديوان مجد الإسلام لأحمد محرم (ص ٩٢ ـ ٩٣).

ورسولُ اللهِ ﷺ على بغلتِه يمضي قُدماً، فحادت به بغلتهُ ، فمالَ عَنْ السَّرجِ، فقلتُ له: ارتفعْ رَفعكَ اللهُ!

فقال: «ناولني كفّاً من تُراب» فضربَ بهِ وجوهَهم ، فامتلأَتْ أَعْينُهم تُراباً ، لْاثمّ قال: «أَين المهاجرون والأنصار»؟

قلت: هم أولاء.

قال: «اهتف بهم».

فهتفتُ بهم ، فجاؤوا وسيوفُهم بأَيمانِهم كأنّها الشُّبُ وولّى المُشرِكُونَ أدربَارَهُم»[1].

* وانتصرَ المسلمون ، وولّى المشركونَ الدُّبرَ ، وغنمَ المسلمون أموالاً كثيرةً ، فأعطىٰ النَّبيُّ ﷺ بعضَ النّاسِ عطاءً كثيراً يتألّفُ به قلوبَهم ، فقدحَ فريقٌ من المنافقين في تلكم القسمةِ العادلةِ ، فغضبَ رسولُ اللهِ ﷺ لذلكَ حتّى احمرّ وجههُ الشَّريف.

* ومن سيدنا ابنِ مسعود رضي الله عنه نستمعُ إلى تفاصيلِ ذلك فيقول «لمّا كان يومُ حُنين ، آثرَ رسولُ اللهِ ﷺ ناساً في القسمَةِ ، فاعطىٰ الأقرعَ بنُ حابس مئةً من الإبلِ ، وأعطىٰ عُيينةَ مثلَ ذلك ، وأعطى أُناساً من أشرافِ العرب ، وآثرهم يومئذٍ في القِسمة.

فقالَ رَجُلٌ: واللهِ إنَّ هذه لَقِسْمَةٌ ما عُدِلَ فيها ، وما أُريدَ فيها وجهَ الله.

فقلتُ: واللهِ لأخبرنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ، فأتيتُه وأخبرتُه بما قال ، فتغيَّرَ وجهُهُ حتى كان كالصَّرْفِ ، ثم قال: «فَمَنْ يعدلُ إنْ لَمْ يَعْدِلِ اللهُ ورسولُهُ؟!» ثمّ قال: «يرحمُ اللهُ موسى قد أُوذي بأكثرَ من هذا فَصَبَر».

قلتُ: لا جرمَ ، لا أرفعُ إليه بعدَها حديثاً»[2].

---

(١) انظر: المسند (١/ ١٥٣)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٨٠)؛ ومعنى «نكصنا»: رجعنا، و«النكوص» الإحجام عن الشيء، يقال: نكص على عقبيه، أي رجع، و«حادت»: مالت.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣١٥) ، ومسلم برقم (١٠٦٢) ، واللفظ له؛ وقيل: إنّ الذي =

* وتابعَ ابنُ مسعود رحلةَ الجهاد في العَصْرِ الرّاشدي ، فشاركَ في حروبِ الرِّدَّةِ ، ثم شهدَ معركةَ اليرموكِ الشَّهيرةِ ، وكان يومها على الغنائمِ ، وظلَّ ابنُ مسعودٍ يعملُ لرفعِ كلمةِ اللهِ إلى أَنْ لقي اللهَ.

فِقْهُـهُ وَفَتَـاوَاهُ:

* لا غرابةَ إِنْ قُلْنا: «إن سيّدنا عبدَ اللهِ بنَ مسعود رضي الله عنه واحدٌ مِنْ نُبَهَاءِ رجالاتِ الإسلامِ ، ومن علماء الصَّدرِ الأوَّلِ ، وتلاميذِ مدرسةِ النّبوةِ الأكابرِ ، وهو كذلكَ شيخُ العبادلةِ الكرام ، وفقيهُ المهاجرين الأوّلين ، وحبْرٌ ممن تُؤخذُ عَنهم المعرفةُ؛ وكان سادسُ ستّة كانوا أسبقَ السُّبَّقِ من أهل مكَّةَ وأهلِ الأرضِ إلى منبعِ الهدايةِ الرّبانيةِ والأنوار المحمدية ، والاستجابةِ إلى كلمةِ الحقّ ودعوةِ اليقين ، وأوّل مَنْ جهرَ بالقُرآنِ الكريمِ بِمَكَةَ ، فَصَكَّ بقوارعهِ أسماعَ المُشركين ، وهزَّ عنجهيةَ الشِّركِ وطغيانَ الجبروتِ ، وهو أيضاً صاحبُ الهجرتَيْن ، والغلامُ المُعْلَمْ ، وفارسُ من فرسانِ بَدْرٍ الكُبرىٰ ، وغيرها من مغازي الإسلامِ في عصرِ النّبيّ ﷺ ، ثم غدا مبعوثُ الفاروقِ عمر إلى أهلِ القادسيةِ معلّماً ومرشداً».

* وعبدُ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنه صحابيٌّ من فُقَهاءِ العُلماءِ السَّابقين في عصرِ الصَّحابَة الكِرامِ ، فقد عُرِفَ رضي الله عنه بفهمه لكتاب اللهِ عزَّ وجلَّ ، كما عُرِفَ بحفظهِ لأقضيةِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ لذلكَ كان إذا سُئِلَ عن مسألةٍ من مسائلِ الدِّين أَعملَ فِكْرَهُ ، وأجابَ في هدوءٍ ورويّةٍ ، وأرشدَ السَّائلَ إلى خيرِ الوَسائل.

* وقد شهدَ لابنِ مسعودٍ رضي الله عنه بسَعَةِ العِلْمِ واستيعاب أبواب الفقهِ ؛ أبو موسى الأشعريّ رضي الله عنه ، وهو أحدُ أكابر الصَّحابةِ وعلمائِهم ، وكان يقولُ للنّاسِ عن ابنِ مسعودٍ: «لا تسألوني عن شيءٍ ما دام هذا الحبرُ بين أظْهُرِكُم».

= تكلّم في قسمتهِ ﷺ هو: معتّب بنُ قُشير من بني عمرو بن عوف ـ أحد المنافقين ـ ، ومعنى «الصرف»: صبغ أحمر يُصبغ به الجُلود. و«لا جرَمَ»: لا بدَّ.

* وتفصيلُ قصّةِ ذلك ما حدثَ في زمنِ عثمانَ بن عفّان رضي الله عنه ، فيما أخرجهُ البخاري ، بسندهِ عن هُزَيلِ بنِ شَرحبيل ، قال: «سُئِلَ أبو مُوسىٰ عن ابنةٍ ، وابنةِ ابنٍ ، وأخت؛ فقال: للابنةِ النّصفُ ، وللأختِ النّصفُ ، وائت ابنَ مسعود فَسَيُتابِعُني.

فَسُئِلَ ابنُ مسعود: وأُخْبِرَ بقولِ أَبي موسى ، فقال: لقد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدين؛ أقضي فيها بما قضىٰ النَّبي ﷺ: للابنةِ النِّصفُ ، وللابنةِ الابنِ السُّدس تكملة الثُّلثَين ، ما بقي فللأخت.

فأتينا أبا موسىٰ ، فأخبرناهُ بقولِ ابنِ مسعود فقال: لا تسألوني ما دامَ هذا الحبرُ فيكم»[1].

---

(١) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في الفرائض برقم (٦٧٣٦)؛ وأخرجه أحمد في المسند (١/ ٤٦٣) ، و«الحبرُ»: هو العالمُ بتحبيرِ الكلامِ وتحسينهِ. وقال الرّاغب: «سُمّي العَالمُ حَبْراً لما يبقى من أثرِ عُلومهِ».
قال ابن بطّال رحمه الله «في الحديث فوائدُ منها:
* أنَّ العالمَ يجتهدُ إذا ظنّ أنْ لا نصّ في المَسألةِ ، ولا يتولّىٰ الجوابَ إلى أنْ يبحثَ عن ذلك.
* وفيه أنّ الحجّةَ عند التّنازع سُنَّةُ النَّبي ﷺ ، فيجبُ الرُّجوع إليها.
* وفيهِ ما كانوا عليه ـ أي الصّحابةِ وعلماء التّابعين ـ من الإنصافِ والاعترافِ بالحقّ والرجوع إليه ، وشهادة بعضهم لبعض بالعلمِ والفضلِ؛ وكثرةِ اطلاع ابن مسعود على السُّنّةِ ، وتثبّت أبي موسى في الفُتيا ، حيث دلّ على مَنْ ظنّ أنّه أعلمُ منه.
قال: «ولا خلافَ بين الفقهاءِ فيما رواه ابن مسعود ، وفي جواب أبي موسىٰ بأنَّه رجعَ عمّا قاله».
وقال ابنُ العربي رحمه الله: «يُؤْخَذُ من قصَّةِ أبي موسىٰ وابن مسعود جواز العمل بالقياسِ قبل معرفةِ الخبر ، والرجوع إلى الخبر بعد معرفته ، ونقضِ الحكم إذا خالفَ النّصّ».
وقال ابنُ حجر رحمه الله معقّباً على قول ابن العربي: «قلتُ: يُؤخذُ من صنيع أبي موسىٰ أنّه كان يرى العملَ بالاجتهادِ قبل البحث عن النّص وهو لائقٌ بمن يعملُ بالعام قبل البحث عن المخصص. وقد نقل ابنُ الحاجب الإجماع على منعِ العملِ بالعموم قبل البحثِ عن المخصص» (فتح الباري ١٢/ ١٩) طبعة مصر.

* ولهذا كانَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضي الله عنه مَلاذاً يرجعُ إليه أكابرُ الصَّحابةِ في الفقهِ والعلْمِ والفُتْيا وأصولِ الدِّين. فقد روىٰ ابنُ سعد في طبقاتهِ: «أنّ نَفراً من أصحابِ النّبيّ ﷺ كانُوا في دارِ أبي موسى الأشعريّ يعرضون مصحفاً ، فقام عبدُ اللهِ بنُ مسعود فخرج ، فقال أبو مسعود: هذا أعلمُ من بَقيَ بما أُنْزِلَ على مُحمدٍ ﷺ؛ فقال أبو موسى: «إنْ يكن كذلكَ ، فقد كان يُؤذَنُ له إذا حُجِبْنا ، ويشهدُ إذا غبنا» .

* وكان أبو موسى رضي الله عنه يسمّي ابن مسعود «الحَبْرَ» في كثيرٍ من المواقفِ ، فقد جاءَ في «الطبقاتِ» عن أبي عطيّةَ الهمدانّي قال: «كنتُ جالساً عند عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ، فأتاهُ رجلٌ ، فسألَ عن مسألةٍ ، فقال: هل سألتَ عنها أحداً غيري؟

قال نَعَمْ ، سألتُ أبا موسى ، وأخبرهُ بقولهِ؛ فخالفَهُ عبدُ اللهِ ثمّ قام فقال: لا تسألوني عن شيءٍ وهذا الحبرُ بينَ أظهُركم» .

* وكان عُمر بنُ الخطَّاب رضي الله عنه إذا ذُكِرَ عبدُ اللهِ بنُ مسعود يقول: «كُنَيْفٌ مُلِيءَ علماً آثرتُ به أهلَ القادسيّة» .

* ولمَّا سيَّرَهُ عُمر إلى الكوفة معلّماً ، وبعثَ عمّار أميراً ، قال: «إنّهما من النُّجباء من أصحابِ محمّد فاقتدوا بهما» .

* وقال سيّدنا عَليّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: «لو كنتُ مُؤمّراً أحداً بغير مشورة لأمّرتُ ابنَ أمِّ عبد» .

* وجاء في صحيح البخاري عن مسروق قال: ذُكِرَ عبدُ اللهِ بن مسعود عند عبد الله بن عَمْرو فقال: ذاكَ رجلٌ لا أزالُ أحبُّه بعدما سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «استقرؤا القرآنَ من أربعةٍ: من عبد اللهِ بن مسعود ، فبدأ به» .

* وكانَ سيدنا ابن مسعود عالماً فقيهاً متّبعاً للسُّنَّةِ الغَرَّاء ، وممَّا يدلُ على ذلكَ ما ذكَرهُ أبو وائل: «أنَّ ابنَ مسعود رأى رجلاً قد أسبلَ إزاره ، فقال: ارفعْ إزارَكَ .

فقالَ الرَّجُلُ: وأنتَ يا بنَ مسعود فارفعَ إزارَكَ.

فقال له ابنُ مسعود: إنّي لستُ مثلكَ، إنّ بِسَاقيَّ حَموشةً[1]، وأنا أَؤمُّ النَّاسَ.

فبلغَ ذلك عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، فجعلَ يضربُ الرَّجُلَ، ويقولُ له: تردُّ على ابنِ مسعود؟!! تردُّ على ابنِ مسعود وهو هو»[2].

* وإذا ما رحنَا نتتبَّعُ جوانبَ الإلهامِ والعطَاءِ الإلهيّ في العلمِ لابن مسعود، لألفيناهُ بارِعاً في الفُتيا، عارفاً في الفقْهِ، غوّاصاً في استخراج دُرَرِ الأحكامِ من خلالِ معرفتهِ لمعاني القُرآنِ الكريم، والسُّنَّةِ النّبويّةِ المُطهَّرةِ، ويتوافقُ مع هذا ما جاءَ من أخباره عن أبي عمرو الشَّيباني قال: «أتى رجلٌ ابن مسعود فقال: في حجري بنتُ عمٍّ لي، إنّ امرأتي خافَتْنِي عليها، فأرضعَتْها.

فقال عبدُ اللهِ بنُ مسعود: هل سألتَ أحداً قَبْلي؟

قال الرّجلُ: نعم، لقد سألتُ أبا موسى الأشعريّ، فقال لي: لَقَد حرمتْ عليكَ.

قال: إنه لا يقول شيئاً، لا أحرّم من الرضاع إلا ما أثبتَ اللحم والدم.

قال الرّجل: فأتيتُ أبا موسى فذكرتُ ذلكَ له فقال: لا تسألوني عن شيءٍ ما دامَ هذا الحبُر بين أظهركم، فواللهِ لقد رأيتُهُ وما أراهُ إلا عند آل محمّدﷺ»[3].

---

(١) «حموشة»: دقّة السّاقين.

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٦٠) بشيء من التّصرف.

(٣) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٤/ ٦١) بتصرف يسير.
أقوال: «إنّ ما ذكر عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنه يتوافقُ مع الذي ثبتَ في السُّنَّةِ الصّحيحةِ من حديث أمِّ سلمة أمّنا أمّ المؤمنين رضي الله عنها، أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «لا يحرمُ من الرّضاعة إلا ما فتقَ الأمعاء في الثّدي وكان قبلَ الفِطام». أخرجه التّرمذي في الرّضاع برقم (١١٥٢)، وقال: حديث صحيح». =

* وهاكم قصّة أخرى تبيِّنُ مدىٰ فقهِ ابن مسعود وتضلّعه من الفُتيا ، وسَعَةِ اطّلاعه على الأحكام والسُّنَّة؛ فعن أبي عطّية قال: «جاء رجلٌ إلى أبي موسىٰ فقال: إنَّ امرأتي ورمَ ثديُها فمصصتُ ، فدخل في حَلقي شيءٌ فَسَبَقَنِي فشدَّدَ عليه أبو موسىٰ ، فأتى ابنَ مسعود ، فقال: سألتَ أحداً غيري؟

قال: نعم ، أبا موسى ، فشدَّدَ عليَّ.

قال: فأتى أبا موسى فقال: أَرضَعَ هذا؟

فقال أبو موسى: «لا تسألوني ما دامَ هذا الحبْرُ بين أظهركُم»[(١)].

* وبأمثال هذه الفتاوى كان أبو موسىٰ يجلُّ الحبرَ العالمَ المفتي ابن مسعود، ويعرفُ له مكانتَه العلميّة في مجالِ الفُتيا والفقهِ ويقول عنه: «لمجلسُ كنتُ أجالسهُ عبد الله بن مسعود أوثقُ في نفسي من عَملي سنَة».

* نعم ، فالعلمُ زينٌ وتشريفٌ ، ورفعةٌ وحليةٌ لصاحبهِ:

العِـــزُّ مَخصـــوصٌ بـــهِ العُلَمَـــاءُ مَـا لـلأنـامِ سـوَاهُـم مـا شَـاءوا
إنَّ الأكَـابِـرَ يَحْكُمُـونَ علـى الـوَرَىٰ وعَلـىٰ الأكَـابِـرِ يَحْكُـمُ العُلَمـاءُ

فَهْمُـه لكتـابِ اللهِ:

* هذا البحرُ الزاخرُ بالعلمِ من كبار علماءِ الصَّحابةِ الذين أجادُوا في تفسيرِ القرآنِ العظيم ، وتوضيحِ معانيهِ ، والوقوف عند دقائقِ مثانيهِ؛ فابنُ مسعود هو الفصيحُ اللسان ، العالمُ باللغةِ ، العارفُ بأجناسِ الكلام ، وأفانين بلاغةِ القول وفصلِ الخطاب ، وهو من فصحاءِ الصَّحابةِ وخطبائهم

= وثبتَ في الصحيحين من حديثِ عائشةِ أمِّنا أمِّ المؤمنين رضي الله عنها أنَّ النَّبي ﷺ قال: «إنّما الرّضاعةُ من المجاعةِ». أخرجه البخاري في النّكاح (٩/ ١٢٦) ، ومسلم في الرضاع برقم (١٤٥٥).

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٦١).
يقولُ الفقهاءُ: «إنَّ رضاعَ الكبيرِ لا ينبتُ لحماً ، ولا ينشزُ عظماً». لذلك لم تحرمْ على هذا الرّجل امرأته ، لأنّ زمنَ الرّضاع في الصِّغر ، إذ لا رضاع إلا ما كان في الحولَيْن. . ».

الأَبْنَاء ، يمتحُ من منبعِ الدِّين ووحي الرّوح ، لهذا فهو من أعيانِ العلماء الذين يُؤخذ عنهم التّفسير ، كما يُؤخذ عنهم علوم التّنزيل.

* ولقد أشارَ ابنُ كثير رحمه الله إلى منابعِ التّفسيرِ ، وإلى أصولهِ ، وذكر بأنّ أجودَها تفسيرُ القُرآنِ بالقرآنِ ، أو تفسيرُ القرآنِ بالسُّنَّةِ؛ ثمَّ أشارَ إشارةً واضحةً إلى أعيانِ المُفسِّرين وأعلامِهم من علماءِ الصَّحابةِ ، ومن بينهم عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنه؛ فقال: «وإذا لم نجد التّفسير في القرآنِ ، ولا في السُّنَّةِ ، رجَعنا في ذلك إلى أقوالِ الصَّحابةِ ، فإنّهم أدرى بذلك ، لما شاهدوا من القرآنِ والأحوالِ التي اختّصوا بها ، ولما لهم عن الفَهْم التّامّ ، والعلمِ الصَّحيح ، والعملِ الصَّالح ، لا سيما علماؤُهم وكبراؤُهم ، كالأئمةِ الأربعةِ الخلفاء الرّاشدين والأئمة المهديين وعبد اللهِ بن مسعود رضي الله عنه»[1].

* لقد كان عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنه من كبراءِ الصَّحابةِ ومجتهديهم الذين عاشوا وعايشوا نزول القُرآنِ الكريم ، وعلموا ، أسبابَ نزوله ، وعرفوا أين نزلتْ آياتهُ ، وفيمَنْ نزلَتْ ، ومتى نزلت[2] ، كما عرفُوا

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير.

(٢) الأمثلةُ في هذا المجالِ الطّيّب المباركِ كثيرةٌ جداً تُعَطِّرُ الأفواهَ والأسماعَ ، ومنها: أنَّ ابنَ مسعود قال عن سورة ﴿النجم﴾: «هي أوّلُ سورة أعلنَها رسولُ اللهِ ﷺ بمكّةَ» (تفسير القرطبيّ ١٧/ ٨١).
ومن الأمثلةِ أيضاً في أسبابِ النّزول ما جاء عن ابنِ مسعود قال: «لما نزلت سورةُ النّصر ، كان عليه السّلام يكثر أنْ يقول: «سبحانَك اللّهُمْ وبحمدك ، اللهم اغفرْ لِي إنّك أنتَ التّوّاب الغفور» (تفسير الرّازي ٣٢/ ١٤٧).
ومن الأمثلةِ أيضاً ما سجّله تاريخُ الإسلام لابن مسعود في مجالِ أسباب النّزول ، وقراءة النّبي ﷺ القرآن على الجِنّ ، ومن خلال هذه القصّة تظهرُ أيضاً شجاعة ابن مسعود رضي الله عنه ، كما تظهرُ جرأته وثباته في موقفٍ من أعظمِ المواقف في دينا الإسلام.
فقد روي أنَّ النّبيَّ ﷺ قال يوماً لأصحابه: «إنّي أمرتُ أنْ أقرأَ على الجنّ الليلةَ ، فمَنْ يتبعُني»؟ قالَها ثلاثاً ، فأطرقُوا إلاّ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال: «لم يحضر ليلة الجنّ أحدٌ غيري ، فانطلقنا حتى إذا كُنّا بأعلى مكّةَ في شِعْب الحَجون ، فخطّ لي خطاً ، وقال: لا تخرج منه حتّى أعود أليكَ ، ثم افتتح القرآن ، وسمعتُ لغطاً شديداً =

النَّاسخَ ، وعلموا المنسوخَ ، وفهموا الأحكامَ ، وما يتعلَّقُ بأمور الدِّين .

* وكان ابنُ مسعود رضي الله عنه من جهابذةِ الصّحابةِ المفسّرين ، ومن مفسّري القرآن عن علم وفهم ، ويتحدَّثُ ابن مسعود عن نعمةِ اللهِ عليه في معرفةِ نزولِ القُرآنِ فيقول: «واللهِ الذي لا إلهَ غيرُه، وما أُنزلَتْ سورةٌ من كتابِ اللهِ إلا أنا أعلمُ أين نَزلَتْ ، ولا أُنزلتْ آيةٌ من كتابِ اللهِ إلّا أنا أعلمُ فيمَنْ أُنْزِلَتْ، ولو أعلمُ أحداً أعلَمَ مِنّي بكتابِ اللهِ تبلغهُ الإبل لركبتُ إليه»[1] .

* والمتفرّسُ البصيرُ في آراء ابن مسعود رضي الله عنه في التّفسير ، يجدُ أنَّه قد نهل معارفَه واستقاها من عدّة ينابيعَ ، وفي مقدمتها: ما حفظَهُ من رسولِ اللهِ ﷺ من توضيحٍ لمعاني بعضِ الآيات ، بالإضافةِ إلى ما فهمهُ من آياتِ القرآنِ الكريم ، وما علمَهُ من أسبابِ نزولٍ ، ناهيك بمعرفتهِ لوجوهِ اللغةِ والبيان ، وإلى ما كان يسمعهُ من المعارفِ العامّةِ من خلالِ مكثهِ في البيتِ النّبوي وملازمته للصادق المصدوق ﷺ.

* ولو رحنا نستقصي تفسيرَ سيّدنا ابن مسعود الذي أُثِرَ عنه لتحصَّلَ عندنا مجلّدٌ كبيرٌ ، فلا نكادُ نمرُّ بقراءةِ سورةٍ من سُوَرِ القُرآنِ الكريمِ إلا نجدُ ابنُ مسعود قد أدلى دلوه ، وأبانَ عن عبقريته التّفسيريّة ، وعن فهمهِ العميق والدّقيقِ لكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

* وفي الفقرات الآتية نعرضُ صوراً متنوّعةً لتفسيرِ ابنِ مسعود لبعضِ الآياتِ القرآنيّةِ ، كما نذكرُ بعضَ آرائهِ وأقوالهِ وتوجيهاتهِ في هذا المضمارِ الميمون.

* فمن بدائعِ تفسيره الذي يغذّي الألبابَ ، ما وردَ في قولهِ تعالى:

= حتى خفتُ على رسول الله ﷺ ، وغشَيتهُ أسودةٌ كثيرةٌ حالت بيني وبينَه حتى ما أسمعُ صوته ، ثمّ انقطعُوا كقطعِ السّحاب ، فقال لي رسول الله ﷺ: هل رأيتَ شيئاً؟ قلتُ: نعم ، رجالاً سوداً مستثغري ثياب بيض ، فقال: أولئك جنّ نصيبين».

(١) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في فضائل القرآن برقم (٥٠٠٢) ، ومسلم في فضائل الصحابة برقم (٢٤٦٣).

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ [غافر: ١١] قال: هي التي في البقرة: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٨].

* ويقولُ في تفسيرِ قول اللهِ عزّ وجلّ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ [الرحمن: ٥٤]، إذا كانتِ البطانةُ التي تلي الأرض هكذا فما ظنُّكَ بالظِّهارةِ؟[١].

* وفي تفسيرِ قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النّجم: ١١] يقول: «رأى رسولُ اللهِ ﷺ جبريلَ على صورتهِ مرتَيْن».

* وتظهرُ معرفةُ ابن مسعود بالتّفسير، ودرايتُه الواسعةُ بالحديثِ النّبويّ عندما فسّر قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [قٓ: ٣٠]؛ فقال: «ما في النّار بيت، ولا سلسلةٌ، ولا مِقْمعٌ، ولا تابوت إلاّ وعليه اسم صاحبهِ، فكلّ واحدٍ من الخزنةِ ينتظرُ صاحبهُ الذي قد عرفَ اسمَه وصفتَهُ، فإذا استوفى كلُّ واحدٍ منهم ما أمرَ به، وما ينتظرهُ، ولم يبقَ منهم أحدٌ، قال الخزنةُ: قطْ قطْ، حسبُنا حسبُنا! أي: اكتفينا اكتفينا، وحينئذ تنزوي جهنّمُ على من فيها، وتنطبقُ إذا لم يبقَ أحدُ ينتظر».

* وتبدو كذلك معرفتهُ الحديثيةُ الواسعةُ في تفسيرِ قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ [الفجر: ٢٣] فيقول: «تُقادُ جهنمُ بسبعينَ ألف زمام، كلّ زمام بيد سبعين ألف ملَك، لها تغيّظٌ وزفيرٌ، حتى تُنْصب عن يسارِ العرشِ»[٢].

* ويبيّنُ ابنُ مسعودٍ تفسيرَ قولهِ تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ

---

(١) تفسير القرطبي (١٧/١٧٩).

(٢) تفيسر القرطبي (٢٠/٥٥)، وهذا القولُ يتوافقُ مع الذي جاء في صحيح مسلم عن عبدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنّم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كلّ زمام سبعون ألف ملَكٌ يجرّونها».

أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة: ١١] فيقول: «مدحَ اللهُ العُلماءُ في هذه الآيةِ»[١].

* ومن إصابات التّفسيرِ واستيعابها عند ابن مسعود رضي الله عنه أنّه كان يوضّحُ لأصحابهِ بعضَ المفاهيمِ القرآنيةِ في ضوءِ الحقائقِ التي يعيشونها، ويرسمُ لها خُطوطاً واقعيةً يفهمونها من خلالِ حياتهم، ومن خلال معيشتهم في مختلفِ المجالاتِ؛ وكان يضربُ الأمثلةَ اللطيفةَ التي تدخلُ شغافَ القلوب، وتستقرُّ في حناياهُ، لتبقى آثارُها واضحةَ المعالمِ، وأعتقدُ أنَّ هذا الأسلوبَ التّعليميّ القيم يرجعُ إلى تفاعلِ ابن مسعود مع معاني القرآن العظيم الذي خالطتْ آياتُه كلّ ذرّةٍ في جسمه وروحهِ، ومن ثمّ استولت أحكامهُ على مجامعِ قلبه، وآفاقِ فكرهْ وتفكيرِه.

* ومن أمثلةِ هذا النّوعِ من التَّفسير، أنّه قرأ قولَ اللهِ عزَّ وجل: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٦]، فقال: «أتدرون لِمَ آثرنا الحياةَ الدّنيا على الآخرةِ؟ لأنّ الدّنيا حُضِّرتْ وعُجلَّتْ لنا طيِّباتُها، وطعامُها، وشرابُها، ولذّاتها، وبهجتُها، والآخرةُ غُيِّبَتْ عَنّا، فأخذنا العاجِلَ وتركنا الآجلَ»[٢].

* ولابن مسعود تفسيراتٌ قيمةٌ مركَّزةٌ تتجلّى فيها روائعُ البيانِ، وتتحلّى بها الأفواهُ والأسماعُ، من ذلكَ تفسيره في قوله عزّ وجل: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، قال: «طريق الخيرِ، وطريقُ الشّر»[٣].

* وتفسيرُ هذه الآية الكريمة مُقْتَبَسٌ من قولهِ عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

---

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٩٩).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣).
(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ٦٥)، قال الرّازي: «قال أهلُ العربية: النّجد: الطّريق في ارتفاع، فكأنّهُ لما وضحت الدّلائل جعلت كالطّريقِ المرتفعةِ العاليةِ، بسبب أنّها واضحةٌ للعقول، كوضوحِ الطّريق العالي للأبصار، وإلى هذا التّأويل ذهب عامّةُ المفسّرين في النّجدين، وهو أنّهما سبيلا الخير والشّر» (التّفسير الكبير للرازي ٣١/ ١٦٦).

* ومن بدائع التّفسيرِ القيّم لابنِ مسعود رضي الله عنه ، ما جاء عنه في قوله عزّ وجل: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ، قال: «ظلمةُ بطن الحوتِ ، وظلمةُ البحر ، وظلمةُ الليل»[١].

* ومن تفسيرِهِ الجميل الموجز لقولهِ تعالى: ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦] ، قال: «أُلوف».

* وفي قوله تعالى: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]: يقول «الصّائمون».

* وكذلك في قولهِ تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الأعلى: ٨] قال: «اليسرى: الجنّة»[٢].

* وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] قال عن النّعيم: «إنّه الأمنُ والصِّحةُ والفراغُ»[٣].

* وفي رحلةٍ جميلةٍ ماتعةٍ مع علومِ القرآنِ وفضائله نستجلي بعضَ الأقوالِ والآراءِ للعالم النّحرير الصَّحابي ابن مسعود ، حتى تتوضحَ معالم معارفهِ أكثر ، وتظهرَ شخصيّته القُرآنيّة بصورة نادرة بين الصحابة الكرام رضي الله عنه .

* فمن ذلك في فضل تعلّم القُرآنِ وتعليمه ، يروي الأعمشُ واسمهُ سُليمانُ بنُ مهران قصّة عن ابن مسعود فيقول: «مرّ أعرابيٌّ بعبدِ اللهِ بنِ مسعود ، وهو يُقرِىءُ قوماً القرآنَ ، أو قال: «وعنده قوم يتعلّمون القرآن ، فقال: ما يصنعُ هؤلاء؟

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير للآية (٨٧) من سورةِ الأنبياء. وكذا روي هذا التّفسير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ، وعن عمر بن ميمون ، وسعيدِ بنِ جبير ، والحسنِ البصريّ ، وقَتَادَةَ ، وغيرِهم.
(٢) انظر: تفسير الرّازي (٣١/ ١٣٠).
(٣) المصدر السّابق نفسه (٣٢/ ٧٨).

فقال ابنُ مسعود: يقتسمون ميراثَ محمّد ﷺ»[١].

* وفي ترغيب قراءةِ القُرآنِ الكريمِ يروي أبو عُبيدة معمر بنُ المثنّى التَّيمي عن سيدنا عبد اللهِ بنِ مسعود أنّه كان يقرىءُ القرآن فيمرُّ بالآيةِ، فيقول: للرّجل: «خذها، فاللهِ لَهِيَ خيرٌ ممّا على الأرض من شيء»[٢].

* وكان عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنه يقولُ دائماً في فضلِ القرآن وفضل مَنْ قرأه: «لا يَسْأَلُ عبدٌ عن نفسهِ إلا القرآن، فإن كان يحبُّ القُرآن فإنّه يحبُ اللهَ ورسله»[٣].

* وفي تعليم القُرآنِ والاستماع إليهِ يقولُ ابنُ مسعود رضي الله عنه: «تعلّموا القرآن واتلوهُ، فإنّكم تُؤجَرونَ فيه بكلّ حرفٍ عشْرَ حسنَات، أما إنّي لا أقول: الٓمٓ، ولكنْ أَلفٌ، لامٌ، وميمٌ»[٤].

* وذكر أبو وائلِ الكوفيُّ واسمه شقيقُ بنُ سلمة الأسديّ أنَّه قيل لعبدِ اللهِ بنُ مسعود: إنّك لتُقِلُّ الصَّوم! قال: إنّه يضعفُني عن قراءةِ القُرآنِ، وقراءةُ القُرآنِ أحبُّ إليَّ منه»[٥].

* ويقولُ رضي الله عنه في الحضِّ على قراءةِ القُرآنِ، وإشغالِ القلوبِ به: «إنَّ هذه القلوبَ أوعيةٌ فاشغلُوها بالقُرآنِ، ولا تشغلوها بغيرهِ».

* ويروي أبو حصين عثمان بنُ عاصم الكوفيّ كيفَ أنّ ابن مسعود رضي الله عنه كان يعلّم القرآنَ فيقول: «جاء رجلٌ إلى عبدِ اللهِ بنُ مسعودٍ فقال: علّمني كلماتٍ جوامعَ نوافعَ، فقال: نعم، تعبدُ الله ولا تشركَ به شيئاً، وتزولُ مع القرآنِ أينما زال، ومَنْ جاءكَ بصدقٍ من صغيرٍ أو كبيرٍ،

---

(١) انظر: مجمع الزوائد (١/ ١٢٣ و١٢٤)، وتفسير ابن عطية (١/ ٣٧).

(٢) فضائل القرآن لابن الضريس (ص ٤٧).

(٣) مجمع الزوائد (٧/ ١٦٥).

(٤) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن برقم (٢٩١٢)، والدارمي (٢/ ٤٢٩)، وانظر: الدر المنثور للسّيوطي (١/ ٢٢).

(٥) انظر: فضائل القرآن لابن كثير (ص ١٦٣) طبع جدة ودمشق عام ١٩٨٨ م.

وإن كان بعيداً بغيض فاقْبَلْهُ مِنْهُ ، ومَنْ جاءَكَ بِكذب وإِنْ كانَ حبيباً قريباً فارددهُ عليه»[1] .

* واسمع إليه في هذهِ النّصيحـةِ القيّمةِ المهمّةِ حيث يقول لرجلٍ جاءه فقال : «أوصني ؛ فقال : إذا سمعتَ اللهَ تباركَ وتعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[2] ، فَأَرْعِهَا[3] سَمْعَك ، فإنّهُ خيرٌ يأمرُ به ، أو شرٌّ يُنهى عنه»[4] .

* ويقول : «إذا أردتم العِلْمَ فأَثيروا القرآنَ ، فإنَّ فيه خبرَ الأوّلين والآخرين»[5] .

* وكانَ يكثرُ من قوله : «أديموا النَّظرَ في المُصحف»[6] .

* وكان رضي الله عنه إذا اجتمعَ إليه إخوانه نشروا المصحفَ ، فقرؤوا وفسّرَ لهم ، وعلَّمهم ممّا علمهُ اللهُ! وكان يقول : «مَنْ ختَمَ القرآن فَلهُ دعوةٌ مستجابةٌ» . فكان إذا ختمَ القرآنَ ، جمعَ أهله ، ثمَّ دعا ، وأمَّنُوا على دعائهِ[7] .

* ومن أخبارِ سيّدنا ابنِ مسعود المزهرةِ في حياتهِ مع القرآن وتفسيره ، أنّه كان يتدبّرُ آياتِ الله إذا سمعَها من غيره كما كان يحبُّ أنْ يقرأَ هو بنفسه ، ويُسمعَ أهلَ الدّار وكان يقرأُ القرآنَ ـ في غير رمضان ـ من الجمعةِ إلى الجمعةِ[8] اتّباعاً لأمرِ الحبيبِ الأعظم محمّد ﷺ ونصائحهِ في هذا المجال .

* وكان رضي الله عنه يحدّثُ أصحابَهُ بكثيرٍ من فضائل بعضِ السُّوَرِ

---

(١) انظر : فضائل القرآن لابن سلام (ص ٧٤) طبعة دار ابن كثير بدمشق عام ١٩٩٥ م .
(٢) وردت هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في (٨٦) موضعاً من القرآن الكريم .
(٣) «أرعها» أي اسمتع إليها ، وأصغِ إليها .
(٤) فضائل القرآن لابن سلام (ص ٧٥) .
(٥) مجمع الزّوائد (٧/ ١٦٥) .
(٦) مجمع الزّوائد (٧/ ١٦٥) ، والإتقان (١/ ٣٠٥) .
(٧) انظر : مجمع الزّوائد (٧/ ١٧٢) ، والنّشر في القراءات العشر (٢/ ٤٥٦ ـ ٤٥٧) ، وتفسير القرطبي (١/ ٣٠ و٣١) .
(٨) فضائل القرآن لابن سلام (ص ١٧٧) .

والآياتِ ، من ذلك ما ذكره شُتَيْرُ بنُ شَكل قال : «سمعتُ عبدَ اللهِ بنَ مسعود يقول : ما خلقَ اللهُ من سماءٍ ولا أرضٍ ، ولا نار ، أعظمَ من آيةٍ من سورةِ البقرة : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ثمّ قرأها حتّى أتمها»[1] .

* وكان عبدُ الله بنُ مسعود يرىٰ أنّ الشِّفاء في القرآنِ ، فكان يقول : «عليكم بالشِّفاءَيْنِ : القُرآن والعَسل»[2] .

* ولو رحتُ أنقلُ لكَ ما تحدّثَ به عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنه عن القرآنِ ، وعن التّفسيرِ ، لتحصَّل لديّ مجلدةٌ ضخمةٌ ، بيد أنّ فيما أوردتهُ من أزاهرَ قرآنيةٍ ؛ يشفي القلوب وينعشُ والصّدور .

فِيْ رِحابِ البَيْتِ النَّبويِّ :

* عندما أسلمَ سيِّدُنا عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنه كان في زهرِ ربيعِ حياتهِ المتدفّقة بالعطاء ، وصاحبتْهُ عيونُ العنايةِ الرّبّانيةِ ، فباركَ اللهُ في وقتهِ وفي علمهِ وعَمَلهِ ، ودخلَ البيتَ المحمديّ ليكون ممّنْ حظيَ بملازمةِ معلّم العُلماء الصّادق المصدوق ﷺ ، ومن ثمَّ حظيَ بخدمته وتشرّف بها ، كما أُكرِمَ بالأخذِ عنه ، والاقتباسِ من تلكم الأنوار المحمديّة والصّفات السَّنيّة التي ملأتِ الدُّنيا ، وأضاءت قلوبَ النَّاس ، وغمرتها ، بنفحاتِ الإيمان المندى باليقين وعمَرتها بالبركَات .

* دخل ابنُ مسعود رضي الله عنه البيتَ النَّبويّ الطّاهر فبلغَ من الفَضْلِ مواردَهُ ، والتقطَ نفائسَ دُرِّهِ ، وارتضعَ حلائبَ دَرِّهِ ، وسلكَ من شعابِ الفضلِ أقوم سبيل ، وشربَ من حياضِهِ أعذبَ سلسبيل .

* وفي البيتِ النبويّ الكريم الذي أذهب اللهُ عنه الرجسَ وطهَّره تطهيراً حظيَ ابنُ مسعود رضي الله عنه باختصاصاتٍ متمّزية جعلَتْهُ واحداً من صحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، الذين يعلمون ما لا يعلمُ غيرهُم من شمائل محمّديّةٍ ونبويّةٍ ،

---

(١) انظر : فضائل القرآن (ص ٢٣٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطب برقم (٣٤٥٢).

فأفادوا بها النّاس ، وروَّوْهم من مناهلِ عرفانِ معارفهم ، فسقى هؤلاء الدُّنيا من العلومِ النَّافعةِ الماتعةِ ، فأثمرتِ البشريةُ برجالٍ لم يَعْرفْ لهم الدَّهْرُ مثيلاً ، فكان رجالُ عصرِ التّابعين[1] الذين أضاءت معارفُهم الدّنيا ، وفتحوا الدنيا والعالَمْ بما آتاهم اللهُ من العِلْمِ والفَهْمِ والإخلاص.

* كان سيّدنا ابنُ مسعود ذا إذنٍ بالدّخولِ على النّبيّ ﷺ، وكانَ معه الضّوءُ الأخضرُ ـ إن صحَّ التّعبير ـ في الدخولِ ، وعن هذه النّعمةِ الكبرىٰ والمنّةِ العُظمىٰ والمنحةِ الفُضْلَى يقولُ ابنُ مسعود رضي الله عنه: قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «إذنُكَ عليَّ أنْ ترفعَ الحجابَ ، وأنْ تستمعَ سوادي حتى أنْهاكَ»[2].

* وهذا السَّعيدُ ابنُ مسعود كان يحبُّ الخيرات المفيدة المنبعثةَ من البيتِ النَّبويّ الطّاهر ، فكنت أمُّهُ ترفدهُ بمعلوماتٍ نبويّة وفي هذا يقول: «كانت أمّي تكونُ مع نساءِ النّبي ﷺ بالليل ، وكنتُ ألزمه بالنّهار»[3].

* إنَّ هذا التّفاني في خدمةِ البيتِ النّبويّ الطّاهر ، قد أحلَّ عبدَ اللهِ بنَ مسعود رضي الله عنه مكانةً فُضْلى ، بل إنَّهُ قد حظي ذاتَ مرّةٍ ببشرى جَعَلَتْهُ السُّعداء من أهلِ الجنَّةِ ، فلنسمعْ إلى هذه البشارة من ابنِ مسعود نَفسهِ حيثُ يقول: «دخلَ النَّبيُّ ﷺ حائطاً ، فاتّبعتْهُ بإداوةٍ من ماءٍ ، فقال: «مَنْ أَمركَ بهذا»؟

قُلت: لا أحد.

قال: «أحسنت».

---

(١) في كتابنا «عُلماء التابعين» الذي سيصدر قريباً إن شاء الله ، سيجدُ القارىء الكريم ألواناً من المعارفِ المتنوعة التي أتحفَ بها هؤلاء الدّنيا.

(٢) أخرجه مسلم في السّلام برقم (١٢٦٩) ، وابن ماجه في المقدمة (١٣٩) و«السِّواد»: بكسر السّين: السّرار ، أو: السر ، وقالوا: السّواد: المحادثة.

(٣) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٤٩).

قال: وقال: «أبشر بالجنّةِ، والثّاني، والثّالث، والرّابع» فجاء أبو بكرٍ، وجاء عمرُ، وجاء عليٌّ، فَبشَّرتُ»[1].

* ومن المحفوظِ لدىٰ المطّلعين أنّ ابنَ مسعود وأمَّهُ رضي الله عنهما كانا من المقربين إلى البيتِ النّبويّ الكريم، بحيثُ إنَّ أبا موسى الأشعريّ وأخاه لما قَدِما من اليمنِ، مكَثَا حيناً مِنَ الدَّهْرِ، وهما يحسبان ابنَ مسعود وأُمَّهُ من عدادِ أهلِ البيتِ النّبوي. وقد ذكرَ أبو موسىٰ هذا فقال: «قدمتُ أنا وأخي من اليمنِ، فمكثنا حيناً، وما نحسبُ ابن مسعود وأمّهُ إلاّ من أهلِ بيتِ النّبي ﷺ، لكثرةِ دخولهم وخروجِهم عليه»[2].

* بل إنّ أبا موسى ظنَّ بأنَّ ابن مسعود من عبيد آل محمَّد ﷺ[3].

* وكان ابنُ مسعود رضي الله عنه لا يُحبَسُ عن النّجوى، وعن أشياءَ كثيرةٍ، ولذا كان يشهدُ مع الهادي البشير ﷺ صلاةَ الليل. وها هو ذا ينقلُ صورةً تعليميّةً عن واحد من تلكم الليالي، وعمّا جرى له خلالها فيقول: «صلّيتُ مع النّبي ﷺ ذات ليلةٍ، فلم يزلْ قائماً حتى هَمَمْتُ بأمرِ سوء.

قُلنا: وما هَممتَ به.

قال: هممتُ أَنْ أَجلسَ وَأَدَعَهُ»[4].

* وكان من اختصاصِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه في بيت النبوة الطّاهر الإشرافُ على اغتسالِ النَّبي ﷺ ونومه، فقد روىٰ سعد في «الطّبقات» بسنده

---

(١) المصدر السابق (١٤/ ٥٠).
(٢) أخرجه البخاري في الفضائل برقم (٣٧٦٣)، ومسلم في الفضائل برقم (٢٤٦٠)، والترمذي في المناقب برقم (٣٨٠٨).
(٣) انظر: المعرفة والتاريخ (٢/ ٥٤١ و٥٤٢).
(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٥ و٣٩٦ و٤١٥ و٤٤٠)، والبخاري برقم (١١٣٥)، ومسلم برقم (٧٧٣). وقال ابن حجر رحمه الله: «وقد كان ابن مسعود قوياً محافظاً على الاقتداء بالنبي ﷺ وما همّ بالقعود، إلا بعد طول كثير ما اعتاده».

فقال: «كانَ عبدُ الله يَسْتُرُ رسولَ اللهِ ﷺ إذا اغتسلَ ، ويوقظُه إذ نام ، ويمشي معه في الأرض وحشاً»[1].

* ولعبدِ اللهِ بن مسعود اختصاصٌ آخرَ في البيتِ النَّبوي ، فكان يقوم على أمرِ النّبي ﷺ إذا نام ، وإذا ما أَثَّر في جنبهِ الشَّريفُ شيءٌ مسَحه ، ويذكر ابنُ مسعود شيئاً عن هذا الاختصاصِ المشرّف فيقول: «اضطجعَ رسولُ اللهِ ﷺ على حصير، فأثّر في جنبهِ، فلمّا استيقظَ جعلتُ أمسحُ جنْبَه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، ألا آذنتنا حتى نبسطَ لك على الحصيرِ شيئاً؟

فقال رسول الله ﷺ: «ما لي وللدّنيا ، وما أنا والدنيا؟ إنّما مَثلي ومثلُ الدّنيا كراكبٍ ظلَّ تحتَ شجرة ، ثمّ راحَ وَتَرَكَها»[2].

* ومن لطائفِ الأخبارِ المسعودية أنّه لم يكنْ متخصّصاً في ملازمةِ النّبي ﷺ في الحضرِ وفي بيتهِ الطّاهرِ فحسبَ ، وإنّما كان يلازمُهُ في أسفارهِ ، يقتبسُ منه العلمَ والمعرفةَ والآثارَ الحِسَان.

* قال ابنُ سعد رحمه الله: «كان عبدُ الله بنُ مسعود صاحبَ سوادِ رسول الله ﷺ ، ووسادِهِ ، وسواكِهِ ، ونعليهِ ، وطهورهِ ، وهذا يكونُ في السَّفَرِ»[3].

* وكانَ عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضوان الله عليه يُلْبِسُ رسولَ اللهِ ﷺ نعليْه ، ثمّ يمشي أمامَهُ بالعَصَا ، حتّى إذا أتى مجلسَهُ ، نزعَ نعلَيه ، فأدخلَهُما في ذراعَيْهِ ، وأعطاهُ ، فإذا أرادَ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يقومَ ألبسَهُ نعلَيهِ ، ثم مشىٰ بالعَصا أمامَه ، حتّى يدخلَ الحجرةَ قبلَ رسولِ اللهِ ﷺ[4].

* ومن خلالِ أسفارِ ابنِ مسعودِ الموثقةِ مع مُعلِّمِ العُلماءِ ورحمةِ اللهِ

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ١٥٣) ، وصفة الصفوة (١/ ٣٩٧) ، ومعنى «وحشاً» أي: وحده ، ليس معه أحدٌ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٣٩٠) ، ومعنى «آذنتنا»: أخبرتنا.

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ١٥٣). ومعنى: «السِّواد»: السِّر ، و«الوساد»: الفراش.

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ١٥٣) ، وصفة الصّفوة (١/ ٣٩٧).

للعالمين محمّدٍ ﷺ ، ينقلُ لنا بعض المعارفِ المُفيدة ، والأحكامِ المهمّة ، ومنها ما أخرجَهُ الإمامُ أحمد بسندهِ عن ابن مسعود: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يصومُ في السَّفر ، ويفطرُ ، ويصلّي ركعتَين لا يدعُهما ، يقول: لا يزيدُ عليها ، يعني الفريضة»[1].

* وفي بعضِ الأسفارِ النّبويّةِ ، يكونُ ابنُ مسعود رضي الله عنه في المعيّةِ النّبويةِ ، ويذكرُ ما شاهده من صاحبِ ماشية ، وشهادة النّبي ﷺ له بالنّجاةِ من النّار ، يقول ابنُ مسعود: «بينما نحنُ مع رسولَ الله ﷺ في بعض أسفاره إذا سمعنا مُنادياً ينادي: اللهُ أكبر ، اللهُ أكبر.

فقال النّبي ﷺ: «على الفطرة».

فقال: أشهدُ أنَّ لا إلٰه إلا الله ، أشهد أنَّ لا إله إلا الله.

فقال النبي ﷺ: «خرجَ من النَّار».

فابتدرناه فإذا هو صاحبُ ماشية ، أدركتهُ الصَّلاةُ فنادى بها»[2].

* وظلّ عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه في خدمةِ رسولِ اللهِ ﷺ حتّى آخر حياته ، وشهدَ وفاته وحضَرها.

* حدَّث ابنُ مسعود رضي الله عنه عن ذلك فيما جاء في الصَّحيحِ وغيرِه عنه قال: «دخلتُ على رسولِ اللهِ ﷺ وهو يُوعَك ، فمَسَسْتُه بيدي ، فقلتُ: يا رسول الله ، إنّك لتوعكُ وعكاً شديداً!

فقال رسول الله ﷺ: «أجل: إنّي أوعكُ كما يُوعك رجلان منكم.

فقال: ذاك أنّ لك أجران..

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٤٠٢ ـ ٤٠٧) ، والبزار برقم (٩٩٢) ، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٥٨ و١٥٩) ، وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى ، والبزار بنحوه ، ورجال أحمد رجال الصّحيح».

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٦ و٤٠٧) ، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٣٤) ، باب: الأذان في السفر وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى ، والطبراني في الكبير ، ورجال أحمد رجال الصحيح».

قال رسول الله ﷺ: «أجل».

ثم قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ مُسلمٍ يصيبُهُ أذىً من مرضٍ فما سواهُ، إلاّ حطَّ اللهُ بهِ من سيئاتهِ، كما تحطُّ الشّجرةُ ورقَها»(١).

* ولحقَ رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، فانقطعَ دخولُ ابن مسعود عن البيت النّبويّ، لكنه حفظَ ما حفظ، ووعىٰ ما وعىٰ من المعلِّمِ العظيم الهادي البشير، محمّدٍ ﷺ، وبُوركَ لهُ في حفظهِ وعلمهِ، وأخذ يمتحُ النّاسَ بما أفاءَ اللهُ عليهِ من العلم، وطفقَ يغذّي العقولَ المتعطّشةَ إلى ما تلقّفه عن رسولِ الله ﷺ، ويلقحُ الألبابَ بنفائسِ علومِ القرآنِ الكريم، ومعارفِ الحديثِ الشَّريفِ، الذي تعلّمه من الصُّحبةِ النّبويةِ الزّاكية، فكان بحقّ من أسيادِ علماءِ الصَّحابة، من أعيان سادات الأصحابِ الكرامِ، وغدا القارىءُ والفقيهُ والمعلّمُ الفطنُ الذي تخرَّجَ بدرجةِ الامتيازِ في مدرسةِ النّبوّةِ المباركةِ التي أثرتِ الدُّنيا بهؤلاءِ الأعلام الكرامِ والعلماء العظام ممن رضي اللهُ عنهم ورضُوا عنه.

* وقد تفتَّقتِ الصّحبةُ الزَّاكيةُ عن حفْظِ ابنِ مسعود رضي الله عنه لمئاتِ الأحاديثِ النّبويةِ كما نقرأُ في الفقرةِ الآتيةِ بإذنِ الله تعالىٰ..

منْ وُعاةِ الحَدِيثِ النَّبويِّ:

* عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضوان اللهُ عليه من أعيان الحفّاظِ الأثباتِ ورواتهم الذين نقلوا حديثَ رسول الله ﷺ، وكان في نَقْلهِ للحديثِ النّبوي الشّريفِ يتحرّى الدّقّةَ حتّى يصلَ الحديثُ النّبويُ للنّاسِ كأنّه هو.

* ولقد أحسنَ الذَّهبيُّ رحمهُ الله في هذا حيثُ وصفَ هذا التّحرّي فقال:

---

(١) أخرجه البخاري في المرض برقم (٥٦٤٧ و٥٦٤٨ و٥٦٦٠ و٥٦٦١، ٥٦٦٧)؛ ومسلم برقم (٢٥٧١). ومعنى «الوَعْك» بفتح الواو وسكون العين: الحمى؛ وقيل: أَلَم الحمى؛ وقيل: تعبها؛ وقيل: إرعادها الموعوك وتحريكها إياه.

«كان من يتحرّى في الأداءِ ، ويشدّدُ في الرِّوايةِ ، ويزجرُ تلامذتَهُ عن التّهاونِ في ضبطِ الألفاظِ»[1].

* وكان ابنُ مسعود رضي الله عنه قدوةً صالحةً في التّحديثِ ، بل كان يخشى أنْ يقولَ: قال رسول الله ﷺ ، وذلك خيفة أنْ يحدّثَ عن النّبيّ ﷺ.

* وكان عُمر بنُ ميمون رحمه الله ممن صحبَ ابنَ مسعود رضي الله عنه ، وشهدَ له بهذا التَّحرّي والورعِ الشَّديدِ فقال: «كانَ عبدُ اللهِ تأتي عليه السَّنَةُ لا يحدّثُ عن رسول الله ﷺ ، فحدَّثَ ذاتَ يوم عن رسولِ اللهِ ﷺ بحديث ، فَعَلَتْهُ كآبةٌ ، وجعلَ العرقُ يتحادرُ على جبهتِهِ ويقول: نحو هذا أو قريباً مِنْ هذا»[2].

* ويعدُّ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه ممن حفظَ مئات الأحاديث النّبويةِ عن رسول الله ﷺ ، حيثُ يحتلُّ مرتبةً رفيعةً في الحفظِ بعدَ السَّبعةِ المكثرين[3].

* روي لابن مسعود رضي الله عنه في كتب الحديث (٨٤٨ حديثاً)؛ قال النّووي ـ رحمه الله ـ: «له ثمانمئة وثمان وأربعون حديثاً ، اتّفق البخاري ومسلم منها على أربعةٍ وستين ، وانفردَ البُخاري بأحد وعشرين ، ومسلم بخمسة وثلاثين»[4].

* أقول: «جمعَ الإمامُ أحمد حنبل رحمه الله أحاديث سيّدنا عبد الله بن

---

(١) انظر: تذكرة الحفّاظ (١/ ١٣ و١٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣١٤) ، وقال: «هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشّيخين ولم يخرجاه» ، وواقفه الذهبي في التّلخيص. ومعنى: «يتحادر» ينزل.

(٣) «المكثرين»: المكثر: كلّ صحابي زاد على رواية ألف حديث عُدّ مُكثراً.
و«المكثرون» من الصحابة سبعة وهم: أبو هريرة روي له (٥٣٧٤) ، وعبد الله بن عمر روي له (٢٦٣٠) ، وأنس بن مالك روى له (٢٢٨٦) ، وأم المؤمنين عائشة روي لها (٢٢١٠) ، وعبد الله بن بن عباس روي له (١٦٦٠) ، وجابر بن عبد الله روي له (١٥٤٠) ، وأبو سعيد الخدري روي له (١١٧٠).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٨٨) ، وانظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٤٦٢).

مسعود في مسندهِ فبلَغَتْ بالمكرر (٩٠٠) حديثاً»[١].

* وجمَعَ الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي رحمه الله في مسنده أحاديث عبد الله بن مسعود أيضاً ، فبلغت عنده (٤٤٨ حديثاً).

* وقد حدَّثَ عن ابن مسعود ثلّةٌ من أكابر علماء الصَّحابة ، كأبي موسىٰ الأشعري[٢] ، وأبي هُريرةَ[٢] ، والعبادلةِ الأربعة[٢] ، وجابرِ بن عبد الله ، وأنسِ بن مالك[٢] ، وعمرانَ بنَ حصين ، وعمرو بنِ حريث ، وأبو أمامة ، وأبو الطّفيل ، وغيرِهم من أعيانِ الصَّحابةِ ، رضي الله عنه أجمعين.

* كما روىٰ عنه طائفةٌ من أعلام علماء التّابعين اقتربَ عددهم من (١٥٠ راوياً) كانوا سُرُجَ البلدانِ التي يَحُلُّونَ فيها ، وقد اقتبسوا من أستاذِهم عبدِ اللهِ بنُ مسعود الحلمَ والعلمَ والتأسيّ بالأخلاقِ المحمديّةِ؛ إذ إِنَّ عبدَ اللهِ أقربُ الناسِ هدياً برسولِ اللهِ ﷺ.

* ومن أعلامِ التّابعين وعلمائِهم الذين نهلوا من علمهِ ، ورووا عنه الحديث النّبوي الشّريف: علقمةُ بنُ قيس[١] ، والأسودُ بنُ يزيد[٢] ، وعبيدةُ بنُ عمرو السّلماني[٣]، ومسروقُ بنُ الأجدع[٤] ، وقيسُ بنُ أبي حازم[٥] ، والرّبيعُ بنُ خثيم الثّوري[٤].

---

(١) المسند (١/ ٣٧٤ ـ ٤٦٦). وأودّ التّنبيه هنا إلى ناحيةٍ مهمّةٍ وردت في كتاب عبد الله بن مسعود من سلسلة أعلام المسلمين ، وذلك أنّ المؤلف الفاضل قد سها عندما ذكر أنّ ابن مسعود يتبوأ المرتبة السّابعة بين محدثي الصّحابة ، والصواب أنّ السّابع هو أبو سعيد الخدري كما أسلفنا آنفاً ، وليس ابن مسعود كما وهم المؤلف الفاضل. انظر (عبد الله بن مسعود ص ١٩٠ و١٩١). أو: لعل المؤلف الفاضل لم يذكر أمّ المؤمنين عائشة وأراد أن ترتيب ابن مسعود السَّابع من الرّجال ، والله أعلم.

(٢) اقرأ سيرَ هؤلاء العلماء الأعلام في هذه الموسوعةِ المباركةِ حيث تجد خيراً، إن شاء الله تعالى.

(٣) (١ـ٥) لنا وقفة ـ بإذن الله ـ مع هؤلاء في كتاب «رجال من عصر التّابعين».

(٤) الربيعُ بنُ خثيم الثوري أبو يزيد ، روى عن عبد اللهِ بن مسعود ، كانت له عنده منزلة رفيعة ، حيث قال له ذات مرّة: «يا أبا يزيد ، لو أنّ رسولَ اللهِ ﷺ رآك لأحبّك ، ما رأيتك إلا ذكرت المخبتين». =

* وروى عنه القراءة القرآنية: أبو عبد الرحمن السُّلميّ، وعبيد بنُ نضلة، وآخرون[1].

* ومن مروياتِ ابن مسعود التي جاءت في الصَّحيح وغيره، ما جاء في الحسدِ المشروع حيث قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسدَ إلاّ في اثنتين: رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فسلَّطَه على هلكتهِ في الحقّ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ الحكمةَ فهو يقضي بها ويُعلِّمُها»[2].

* ومن مروياتهِ في مجالِ الأخلاقِ والإصلاحِ والصّدقِ وما يهدي إليه، والكذبُ وما يهدي إليه، الحديث الشّهير المُتعالَم بينَ النّاس، إذ روى عن رسول الله ﷺ قوله: «إنَّ الصّدقَ يهدي إلى البِرِّ، وإنّ البرَّ يهدي إلى الجنَّةِ، وإنّ الرّجُلَ ليصدقُ حتّى يُكتبَ عندَ اللهِ صدّيقاً، وإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النَّار، وإنَّ الرجلَ ليكذبُ حتى يكتَبَ عند اللهِ كذاباً»[3].

= كان الربيع كثير الخشية من اللهِ عزَّ وجلَّ، شديدَ الخوف منه، كثيرَ العبادةِ والصلاةِ دائم الاستعداد للآخرة، زاهداً، وله أقوالٌ نفيسة في الزهد، وكان يتحرّى الكلامُ النّفيس وكان يقول: «أقلّوا الكلام إلا من تسع: سبحان الله، والحمدُ لله، ولا إلٰه إلا الله، واللهُ أكبر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكرِ، وتلاوةِ القرآن، ومسألة الخير، والاستعاذةُ من الشر». وأخبار الربيع كثيرة لا تُحصر، وهي مبثوثة في المصادر المعتمدةِ وتثلج الصّدور، وتدفئ المقرور. توفي سنة (٦١ هـ) رحمه الله. (طبقات ابن سعد (٦/ ١٨٢ ـ ١٩٠).

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٨٨ و٢٨٩)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٦١ و٤٦٢)، وتهذيب التهذيب (٦/ ٢٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٨٥ و٤٣٢)، وأخرجه البخاري في مواضعَ متعددةٍ من صحيحه برقم (٧٣) ورقم (١٤٠٩)، ورقم (٧١٤١)، وأخرجه مسلم برقم (٨١٥ ـ ٨١٦)، وابن ماجه برقم (٤٢٠٨).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٤ و٣٩٣ و٤٣٢ و٤٣٩ و٤٤٠)، وأخرجه البخاري برقم (٦٠٩٤). و«الصّدق»: مطابقة القول الضّمير والمخبر عنه، فإن انخرمَ شَرْطٌ لم يكن صدقاً. وللمزيدِ عن موضوعِ الصّدق، اقرأ كتابنا «الصّدق والصّادقون في ضوءِ القرآنِ والسُّنّة».

* وممّا رواهُ في فضائلِ الأعمالِ ما رواهُ عنه أبو عمرو الشّيباني قال: «حدّثني صاحب هذه الدّار ـ وأشار بيده إلى دار عبد الله ولم يُسَمِّه ـ.

قال: قلتُ: يا رسولَ الله ، أيّ الأعمالِ أحبّ إلىٰ الله؟

قالَ: «الصَّلاةُ على مواقيتها».

قال: قلتُ: ثمّ أيّ.

قال: «برّ الوالدين».

قال: قلتُ ثمّ أي؟

قال: «الجهادُ في سبيلِ الله»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في مواضعَ من صحيحه ، في المواقيت برقم (٥٢٧) ، وفي الجهاد برقم (٢٧٨٢) ، وفي الأدب برقم (٥٩٧٠) ، وفي التّوحيد برقم (٧٥٣٤) ، ومسلم في الإيمان برقم (٣٨ و١٣٨٩ ، و١٤٠) ، وأحمد (١/ ٤٠٩ و٤١٠ و٤٢١ و٤٥١) ، والترمذي في الصلاة برقم (١٧٣).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في «الفتح»: «ومحصلُ ما أجابَ به العُلماءُ عن هذا الحديث وغيرهِ مما اختلفَ فيه الأجوبة بأنّه أفضلُ الأعمالِ؛ أنّ الجواب اختلفَ لاختلافِ أحوالِ السّائلين ، بأن أعلم كلّ قوم بما يحتاجون إليه ، أو بما لهم فيه رغبة ، أو بما هو لائقٌ بهم ، أو كان الاختلاف؛ باختلافِ الأوقات بأن يكون العملُ في ذلك الوقت أفضل منه في غيره».

وقال الطّبري: «إنّما خصَّ ﷺ هذه الثّلاثة بالذّكر لأنَّها عنوانٌ على ما سواها من الطّاعاتِ ، فإنَّ مَنْ ضَيّعَ الصَّلاةَ المفروضة حتى يخرجَ وقتها من غير عذر ـ مع خفّة مؤنتها عليه وعظيم فضلها ـ فهو لما سواها أضيع ، ومن لم يبرّ والديه مع وفور حقّهما عليه كان لغيرهما أقلّ برّاً ، ومن تركَ جهادَ الكُفّار مع شدّة عدواتهم للدين كان لجهاد غيرهم من الفسّاق أترك ، فظهر أنّ الثّلاثة تجتمع في أنّ مَنْ حافظَ عليها كان لما سواها أحفظ ، ومن ضيّعها كان لما سواها أضيع».

وقال ابنُ بزيزة: «الذي يقتضيه النّظر تقديم الجهاد على جميع أعمال البدن ، لأنّ فيه بذل النّفس ، إلا أنّ الصَّبر على المحافظة على الصّلوات وأدائها في أوقاتها ، والمحافظة على برّ الوالدين أمر لازم متكرّر دائم لا يصبر على مراقبة أمر الله فيه إلا الصّديقون».

وفي هذا الحديثِ فضلُ تعظيم الوالدين ، وأنّ أعمالَ البرّ يفضلُ بعضها على بعض ، =

* ومن مروياته في تبليغ العلمِ ، ما أخرجه الإمامُ أحمدُ في مسنده ، بسندٍ رفعه إلى عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود ، عن النّبيّ ﷺ قال: «نَضَّرَ اللهُ امرءاً سمعَ منّا حديثاً فحفظَهُ حتّى يبلّغه ، فربَّ مبلَّغٍ أحفظُ له من سامع»[1].

* ومرويات سيّدنا عبدِ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنه كثيرةٌ منثورةٌ في مصادر الحديث والمسانيد والسّنن ، كما أنّ علومَهُ وعلومَ الصّحابة تضيءُ قلوبَ المتعلّمين إلى ما شاء الله:

صُغْتُ القَوافيَ في أصْحَابِ سيّدنا محمّـدٍ سيّـدِ الإنسـانِ مُـذْ خُلِقـا
مَنْ علّموا النَّاسَ قُرآناً يطهْرهم وَيَـرْفَـعُ الإصْـرَ والأَغـلالَ والـرَّهقـا

رقَـائِقٌ مِنْ حِكَمتـهِ:

* لعبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه أقوالٌ وفوائد تتأرَّجُ في روضِ المعارفِ زَهراتُها ، وتجتني من أغصانِ السُّطور ثمراتُها ، ولهُ كلماتٌ آسرةٌ لمجامعِ القلوبِ ، فلقد استقى حِكَمَه من كتابِ علاّم الغيوب ، ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفه؛ واتّخذ من حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ

= وفيه السّؤال عن مسائل شتّى في وقت واحد ، والرّفقُ بالعالم ، والتوقّف عن الإكثار عليهِ خشية ملاله ، وفيه ما كان ﷺ من إرشاد المسترشدين ، ولو شقّ عليه ، وفيه ما كان عليه الصّحابةُ من تعظيم النّبيّ ﷺ والشّفقة عليه.

(1) أخرجه الإمام أحمد بهذا الفظ في المسند (١/ ٤٣٦ و٤٣٧) ، قال الخطّابي رحمه الله في «معالم السنن» (٤/ ١٨٧): «قوله: «نضّر الله» معناه: الدعاء له بالنّضارة ، وهي النِّعمةُ والبهجة ، يُقال بتخفيف الضّاد وتثقيلها ، وأجودهما التخفيف».
وقال الرّامهرمزي: «معناه: أوصله الله إلى نضرةِ الجنّة ، وهي بهجتها ونضارتها ، قال عز وجل: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].
وفي هذاالحديث الشريف فوائد جليلة منها:
* الحثّ على تبيلغ العلم المفيد ونقله.
* جوازُ التحمّل قبل كمال الأهلية.
* الفهمُ ليس شرطاً في الأداء ، وأنه قد يأتي في الآخرِ من يكون أفهم ممن تقدّمه.
* وجوبُ التَّفقهِ ، والحثّ على استنباط معاني الحديث واستخراج المكنون من سرّه.

معيناً آخر يستقي منه ما استطاعَ إلى ذلكَ من سبيل ، لذلكَ جاءَتْ رقائقُهُ ألينَ من السَّلسبيل ، وتفصحُ عن استيعابهِ لمعاني القُرآنِ العظيم ، وفهم لبلاغهِ حديث النّبيّ الكريم ، بل إنَّ أقوالَه تنضحُ بالفوائدِ المجموعةِ ، وتشعُّ بالعِلْمِ وَالمعرفةِ والآثار المرفوعة.

* فلقد كان القرآنُ الكريم هو الأنيسُ الذي يقضي معه وقته ، وهو الجليسُ الذي يسلّيه في وحدته ، وهو شعار الحليةِ الذي يتحلّى به ، ويعمل وفقَ مراده ، ويحلّه السّاحة العظمىٰ من قلبه ، وكيف لا وقد تلقّى سبعينَ سورةً من رسولِ اللهِ ﷺ ، وشهدَ لهُ سيّدٌ من أسيادِ علماءِ الصَّحابةِ بفهمِ القرآن وحفظهِ ، هذا العَلَمُ العالِمُ هو عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه الذي يقولُ عن ابن مسعود: «قرأَ القُرآنَ ثمَّ وقَفَ عنده ، وكفى به»[1]. ويقول عنه: «عَلِمَ القرآنَ والسُّنَّةَ ، ثم انتهىٰ ، وكفىٰ بذلك علْماً»[1].

* ومن رياضِ أقوالِ ابن مسعود المُستطابة ، سنقتطفُ طاقاتِ زهرٍ نديّة ، نرطّبُ بها القلوب الوامقةَ ، التي تودُّ الاستزادةَ من تلكم الحِكم الرّائقة ، التي كان ينثرُهَا في مجالسهِ العامرةِ بالإيمان التي وصفَها بقوله: «مجالسُ الذّكرِ محياةٌ للعِلْمِ ، وتُحْدِثُ للقلب خشوعاً»[2].

* ولحفاظِ القرآن وحَمَلَتِهِ نصيبٌ وافرٌ في أقوال ابن مسعود ووصاياه ، يقول: «ينبغي لحاملِ القُرآن أنْ يُعرفَ بلَيْلهِ إذا النّاسُ نائمون ، وبنهارهِ إذا النّاسُ يفطرون ، وبحزنهِ إذا النّاسُ يفرحون ، وببكائِهِ إذا النّاسُ يضحكون ، وبصمته إذا النّاسُ يخلطُون ، وبخشوعه إذا الناسُ يختالون ، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً، حكيماً حليماً، عليماً سكيناً ، ولا ينبغي لحامل القرآنِ أن يكونَ جافياً، ولا غافلاً، ولا صخّاباً، ولا صيّاحاً، ولا حديداً»[3].

---

(١) انظر: حلية الأولياء (١/ ١٢٩).

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٦٩).

(٣) انظر حلية الأولياء (١/ ١٣٠) ويُلاحظُ أنَّ هذا الكلام مقتبسٌ من معاني قوله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٨].

* والقُرآنُ الكريمُ مأدبةُ اللهِ ، وكنزُ العُلوم ، وفيه كلّ شيء ، وقد أوجزَ ذلكَ ابنُ مسعود فقال: «إذا أردتم العلمَ فانثروا القرآن ، فإنَّ فيهِ علمَ الأوّلينَ والآخرينَ»[1].

* إنَّ المؤمنين في شُغُلٍ فاكهون بذكرِ اللهِ ، وقلوبهم معمورة بكتابه العظيم ، ولا عَجَبَ إذا رأينا ابن مسعود يشيرُ إلى ذلك ، ويشيدُ بالعملِ في القرآن ، فيقول: «إنّما هذه القلوبُ أوعيةٌ ، فاشغلوها بالقرآن ، ولا تشغلوها بغيره»[2].

* وفي تقديري أنّ عبارةَ سيّدنا ابن مسعود هذه تدلّ على مدى تبحّره بالعلمِ ، وفهمهِ لكتابِ اللهِ عزّ وجلَ ، ولما فيه من معان تحارُ فيها العقولُ ، ومن فوائد يستفيدُ منها أربابُ المعارف ، ولذلكَ فقد ورد أنَّه علَّمَ رجلاً فقال له: «زُلْ مع القُرآن حيث زالَ ، ومَنْ جاءكَ بالحقّ فاقبل منه»[3].

* ومن بدائع كلامهِ عن القرآنِ الكريم قولُه: «لا يسألُ أحدكم عن نفسهِ إلاّ القرآنَ ، فإنْ كان يحبُّ القُرآنَ فهو يحبُّ اللهَ ، وإنْ كان يبغضُ القُرآنَ فهو يبغضُ الله»[4].

* وفي الأمثال التي وردتْ في القُرآنِ ، وفي حاملهِ ومَنْ يَعْمَلْ بِه ، ومَنْ يتركهُ ، يوردُ ابن سلام في «فضائل القرآن الكريم» قولاً مشهوراً لابن مسعودِ ، وذلكَ بسنده عن القاسمِ بنِ عبد الرحمن عند عبدِ اللهِ بن مسعود قال: «مثلُ الذي يقرأُ القُرآن ولا يعملُ به ، كَمثلِ الرّيحانةِ ريحُها طيِّبٌ ، ولا طعمَ لها ، ومثلُ الذي يعملُ بهِ ولا يقرؤه كمثَلِ التّمرة طعمُها طيّب ، ولا ريحَ لها ، ومَثلُ الذي يعملُ به ويقرؤه مثل الأترجة ، طعمُها طيّب ،

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي (١/ ١٦).
(٢) حلية الأولياء (١/ ١٣١).
(٣) حلية الأولياء (١/ ١٣٤) ، وصفة الصفوة (١/ ٤١٩).
(٤) انظر: شذرات الذهب (١/ ١٩٦).

وريحها طيّب ، ومَثلُ الذي لا يعملُ به ، ولا يقرؤه ، كمثَلِ الحنظلة ، ريحُها خبيثٌ ، وطعمُها خبيثٌ»[1] .

* ولابنِ مسعود رضي الله عنه أقوالٌ كنظم الدُّرّ في معرفةِ قدرِ العُلماء ، وتقديرِ الفُقهاء ، ومحبّة الأتقياء ، والالتصاق بهم لصوقَ الخِلْبِ بالكبدِ ، فمن جوامع أقواله في هذا قوله: «المتقون سادةٌ ، والفقهاءُ قادةٌ ، ومجالستهم زيادة»[2] .

* وفي حكمةٍ دالةٍ على علمه ، وعلى تقدير العُلماءِ وصيانة معارفهم ، يقول: «إنّكم لن تزالوا بخيرٍ ما دامَ العلمُ في كباركم ، فإذا كان العلمُ في صغاركم سَفَّه الصَّغيرُ الكبيرَ»[3] .

* ويدلُّ ابن مسعود رضي الله عنه على أسلوبِ العلمِ ، وسلوكِ طريقهِ بشكلٍ سليمٍ ، لكي تعمرَ القلوب بالمعرفةِ ، وتنمو فيها التّربية الصّحيحة على محبّةِ أكابرِ أهلِ العِلمِ ، فإذا ما خالفَ النّاسُ هذه القاعدة كان الهلاكُ لهم بالمرصاد ، وعن هذا المعنى يتحدّثُ ابن مسعود فيقول: «لا يزالُ النّاس بخير ما أخذوا العِلمَ عَنْ أكابِرهم ، فإذا أخذوه من أصاغرهم هلكوا» .

* ويلوِّحُ ابن مسعود بطريقة تربويّة لأهل العلم ليحفظوا العِلمَ ، ولا يشتروا به ثمناً قليلاً ، لئلا يصابوا بالهَلاكِ ، فيقول: «لو أنَّ أهلَ العلمِ صانُوا العلمَ ، ووضعُوه عند أهلهِ لسادوا أهلَ زمانهم ، ولكنّهم وضعوه عند أهل الدّنيا لينالوا من دنياهم ، فهانُوا عليهم؛ سمعتُ نبيَّكم ﷺ يقول: «مَنْ جعلَ الهمومَ همّاً واحداً همّه المعاد ، كفَاه اللهُ سائرَ هُمومهِ ، ومَنْ شعبته الهمومُ في أحوالِ الدّنيا لم يُبال الله في أيّ أوديتها هَلَك»[4] .

---

(١) انظر: فضائل القرآن (ص ٣٨٧ و٣٨٨).

(٢) حلية الأولياء (١/ ١٣٤) ، وصفة الصّفوة (١/ ٤٠٩).

(٣) انظر: حياة الصحابة (٣/ ٧٠٣) طبعة دار القلم الأولى.

(٤) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ١٦) ، وكشف الخفاء (٢/ ١٥٢) برقم (٢٠٨٩).

وإنّني أحسبُ الشّاعرَ القاضي أبا الحسن بن علي بن عبد العزيز الجرجانيّ ، قد انتبه إلى=

* وكان سيّدنا ابنُ مسعود رضي الله عنه يخافُ على العلْم أن يكونَ غرضاً لسببٍ لا يغني من الحقّ شيئاً ، وكان يخشىٰ من اضطرابِ جماعةِ العُلماءِ والمتعلّمين ، وأنْ تهفوَ قلوبُهم ذاتَ اليمين وذاتَ الشِّمال دون أن يحقِّقوا الفائدةَ لأهلِ العلم ومحبّيه ، يقولُ ابنُ مسعود: «سيأتي على النّاسِ زمانٌ تملحُ فيه عذوبةُ القلوبِ ، فلا ينتفعُ بالعلمِ يومئذ عالمهُ ولا متعلِّمه ، فتكون قلوبُ علمائِهم مثلَ السِّباخ من ذواتِ الملح ، ينزلُ عليها قطرُ السماءِ ، فلا يوجد لها عذوبة ، وذلك إذا مالتْ قلوبُ العُلماء إلى حُبِّ الدُّنيا ، وإيثارِها على الآخرةِ ، فعند ذلك يسلبُهَا اللهُ ينابيعَ الحكمة ، ويطفئ مصابيحَ الهدى من قلوبهم ، فيخبرُكَ عالمهم حين تلقاه أنّه يخشى الله بلسانهِ ، والفجورُ ظاهرٌ في عملهِ ، فماأخْصَبَ الألْسُنَ يومئذٍ ، وما أجْدَبَ القلوبَ! فواللهِ الذي لا إلٰه إلاّ هو ما ذلك إلا لأنَّ المعلّمين علّموا لغير الله تعالى ، والمتعلّمين تعلّموا لغير اللهِ تعالى»(١) .

= حكمةِ ابن مسعود هذه ، واستلهمَ منها شعرهُ فقال:

ولو أنَّ أهلَ العِلْمِ صانُوهُ صانَهُمْ ... ولو عظّموهُ في النّفوسِ لَعظَّمَا
ولكن أذلّوهُ فهان ودنّسُوا ... محيَّاهُ بالأطماعِ حتّى تجهَّما

(معجم الأدباء ١٤/ ١٧).

(١) انظر اتحاف السّادة المتقين بشرح إحياء علوم الدّين (١/ ٦١٣ و٦١٤). ومعنى «السِّباخ»: جمع سبخة وهي الأرض المالحة.
أقول: «إنّ فهم ابن مسعود في غاية الدّقة ، ويشيرُ إلى إحساسهِ العظيم بما سيكون من أنصاف العُلماء وأشباه المتعلمين ، ومن خدعوا النّاس بالعلم ، فنجدُ من يتقنَ الكلام ، ولا يلحنُ في حرفٍ واحد أحياناً ، ولكن يلحنُ في عَملِهِ ، وينحرفُ عن الطريقِ السَّوي ، ولله درُّ من قال:

لم نؤتَ من جهلٍ ولكنّنا ... نستُرُ وجهَ العلْم بالجهلِ
نكرهُ أَنْ نلحنَ في قولنا ... ولا نبالي اللحنَ في الفعلِ

فالميزانُ الصّحيحُ هو ميزانُ التّقوى والخشيةِ ، وليس ميزانُ الإعرابِ والتّفننِ في القول ، ولله درُّ القائل:

وما ينفعُ الإعرابُ إنْ لمْ يكُنْ تُقىً ... وما ضَرَّ ذا تقوىٰ لِسانٌ معجمٌ».

ولهذا كان للعلمِ مكانةٌ متميزةٌ عند ابنِ مسعود ، فهو ليس بالكثرةِ لروايته ، أو التّظاهر =

* ومن جليل أقوالهِ ونفائسها في مجالِ الخيرِ العملِ به قولُه: «قولُوا خيراً تُعرفُوا به، واعملُوا به تكونُوا من أهلهِ»[1].

* وفي توضيحِ بعضِ المفاهيم عن المؤمنِ والفاجر يقول: «مستريحٌ ومستراحٌ منه: فأمّا المستريحُ؛ فالمؤمنُ استراحَ من همّ الدُّنيا؛ وأمّا المُستراحُ منه؛ فالفاجر»[2].

* وللحلمِ والحُلماءِ، والأمانةِ والأُمناء معنى لطيفٌ عند ابن مسعود رضي الله عنه إذ يقولُ: «انظروا إلى حلمْ المرءِ عند غضَبهِ، وإلى أمانتِهِ عند طمعهِ، وما علمكَ بحلمه إذا لم يغضبْ؟ وما علمكَ بأمانته إذا لم يطمعْ؟ ولا يعجبنكم صاحبكم حتى تنظروا على أيِّ شِقَّيْه يَقَعُ».

* أما في فَهْم معاشرةِ النّاس والتّعامُلِ معهم معاملةً سليمةً فيقول: «لا تعجلوا بحمد النّاس، ولا بذمهم، فإنّكَ لعلّكَ ترى من أخيكَ اليوم شيئاً يسُّركَ، ولعلكَ يسوؤكَ منه غداً، والنّاس يغيرون، وإنّما يغفر الذّنوب الله، واللهُ أرحمُ بالنّاس من أمّ واحدٍ فرَشَتْ له بأرض فيءٍ ثم لمست، فإن كانت لَدْغةً كانت بها قبله وإن كانت شوكةٌ كانت بها قبله»[3].

* ومن بدائعِ أقوالهِ وحكمه في الراحة الحقيقيّة للمؤمن العامل قوله: «ليس للمؤمنِ راحةٌ دون لقاء الله عزّ وجلّ، فمن كانت راحتُه في لقاء الله عزّ وجلّ فكأَنْ قَد»[4].

* وقولُه في الحقّ والباطل: «الحقُّ ثقيلٌ مريءٌ، والباطلُ خفيفٌ وبيء، وربّ شهوةٍ تورثُ حُزْناً طويلاً»[5].

= بحفظه، ولكنّ العالمَ هو الذي يخشى الله عزَّ وجلَّ ويراقبهُ، وفي ذلك يقولُ: «ليس العلمُ بكثرةِ الرِّوايةِ، ولكنَّ العلمَ الخشيةُ» (صفة الصّفوة ١/ ٤١٦ و٤١٧).

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٦٨).

(٢) المصدر السابق نفسه (١٤/ ٦٧).

(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٦٨ و٦٩).

(٤) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٦٨ و٦٩).

(٥) صفة الصفوة (١/ ٤١٩ و٤٢٠).

* وعن فوائد ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ يقول: «الذِّكْرُ ينبتُ الإيمانَ في القَلْب، كما ينبتُ الماءُ البقلَ، والغناءُ ينبتُ النّفاقَ في القلبِ، كما ينبتُ الماء البقل»[1].

* ولابن مسعود رضي الله عنه رأيٌ نفيسٌ، وقولٌ سديدٌ في جماعةِ المُنافقين ومَنْ دارَ في فَلَكِهم، فيقولُ: «جاهدُوا المنافقين بأيديكم، فإنْ لم تستطيعُوا فبألسِنَتكم، فإن لم تستطيعُوا إلاّ أن تكفهرُّوا في وجوههم فافعلُوا»[2].

* ومن أجملِ أقوالهِ التي تدني العبد من الجنَّةِ، وتجعلُهُ غنياً ورعاً عابداً قولُه: «اِرْضَ بما قسمَ اللهُ لكَ تكُنْ من أغنى النّاس، واجتنب المحارمَ تكُنْ من أورعِ النّاس، وأدِّ ما افترِضَ عليكَ تكُنْ من أعبدِ النّاس»[3].

* ومن بدائعِ أقوالهِ، ما كان يترنّمُ به في دعائه، فيقول: «خائفٌ، مستجيرٌ، تائبٌ، مستغفرٌ، راغبٌ، راهبٌ»[4].

* وفي الوقوفِ بين يدي الله عزَّ وجلَّ يقول: «ما دمتَ في صلاةٍ فأنتَ تقرعُ بابَ المَلِكِ، ومَنْ يقرعُ بابَ الملكِ يُفْتَحُ لَهُ»[5].

وفي الصَّمتِ وآدابِ اللسان يقولُ: «واللهِ الذي لا إله إلاّ هو، ما على وجهِ الأرضِ شيءٌ أحوج إلى طولِ سجنٍ من لِسَانٍ»[6].

* ولابن مسعود رضي الله عنه أقوالٌ نفسيةٌ في الثَّناء على أكابرِ الصَّحابةِ، لا يتّسع المقامُ لذكْرِها، كما أنَّ له أقوالاً في الأحكامِ والعباداتِ، تكفّلتِ المصادرُ الوثيقةُ بإيرادها؛ فمن أرادَ المزيد فليرجعْ إليها.

---

(١) شذرات الذهب (١/ ١٩٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٩٧).

(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٦٧)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٩٧).

(٤) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٩٦).

(٥) صفة الصفوة (١/ ٤١٥).

(٦) كأنّي بالشّاعر العربيّ قد استعارَ هذه المعاني العِذاب من ابن مسعود فقال:

إذا المرءُ لم يخزُنْ عليهِ لِسانُهُ ... فليسَ على شيءٍ سواهُ بخزّانِ

وقال غيره:

كمْ في المقَابرِ من قَتيلِ لِسانهِ ... كانَتْ تَهابُ لِقاءَهُ الشُّجعانُ

مَكَانَتُهُ العلميّةِ وثَنـاءُ الأعيان عليـهِ:

* لمعَ اسمُ ابنِ مسعود رضي الله عنه في قائمةِ الصَّحابةِ العُلماءِ ، وتبوّأَ مكانةً طيّبة في مَقَامَاتِ أهل الفَضْلِ والفُضَلاء ، فلقد كان من أَوْلَى النَّاسِ للمجدِ تفضيلاً ، وأحقِّهم للتَّرجيح تكميلاً وتفصيلاً ، فهو في حوزةِ المعالي ذو قدرٍ معظّم ، وفي ميدان العلم صاحبُ دُرّ مُنَظَّم.

* ففي كتابِ ربِّنا عزَّ وجلَّ القرآنُ الكريم كان الثَّناءُ عليه منهلاً من العزيز الرّحيم في غيرِ موضع ـ كما مرّ معنا ـ ، حيث جاء وصفهُ بالإيمانِ ، والإحسانِ ، والإخلاصِ ، والهدي ، والعبادَة ، وغير ذلك من كريمِ شمائلٍ وجليلِ صفاتٍ تجعلُ صاحبَها في العلياءِ يقرعُ أُذُنَ الجوزاء.

* أمّا سيّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ فقد خصَّ تلميذهُ النَّجيبَ الأريبَ الأديبَ عبد الله بن مسعود بما يستحقّ من تكريم ، فقد أمرَ بأن يؤخذ القُرآنُ من أربعةِ أركانٍ علميّةٍ ، ابن مسعود أحدها ، بل أوّلها ، فقال ﷺ: «خُذوا القرآنَ من أربعة ، من ابن أمّ عبد ـ فبدأ به ـ ومعاذ بن جَبَل ، وأُبيّ بن كعب ، وسالم مولىٰ أبي حذيفة»[1].

* ويشيرُ النَّبيُّ ﷺ إلى فضائلِ ابنِ مسعودٍ ، وإلى مكانتهِ العلميّةِ في أكثرَ من موقفٍ وفي أكثرَ من موضعٍ ، من ذلكَ قولُه ﷺ: «تمسّكوا بعهد ابن أمِّ عبد»[2].

* وقوله: «رضيتُ لأمّتي ما رضيَ لها ابنُ أمّ عبد»[3].

* وقوله: «ما حدّثكم ابنُ مسعود فصدّقُوه»[4].

* وفي واحدٍ من المواقفِ المشهورة المشهودةِ يلفتُ النَّبيُّ ﷺ نظرَ

---

(١) أخرجه البخاري في الفضائل برقم (٣٧٥٨) ، ومسلم برقم (٢٤٦٤).
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٥ ، ٤٠٢) ، والترمذي برقم (٣٨١٠).
(٣) المستدرك (٣/ ٣١٧) ، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٩٠).
(٤) أخرجه الترمذي برقم (٣٨٠٤) ، وانظر جامع الأصول (٨/ ٥٧٢ و٥٧٣).

أصحابه إلى مكانةِ ابنِ مسعود عند اللهِ عزَّ وجلَّ ، وإلى وزنِهِ العِلْمي في عالَمِ الأبرارِ ، وعالَم المتّقين الأخيار؛ فعن زرِّ بنِ حُبيش عن ابنِ مسعود: «أنّه كان يجتنِ سِواكاً من الأراكِ ـ وكان دقيق السَّاقين ـ فجعلتِ الرّيحُ تكفوه ، فضحكَ القومُ منه ، فقال رسول الله ﷺ: «مِمَ تَضحكون؟» .

قالُوا: يا نبيَّ اللهِ ، من دِقَّـةِ ساقَيْـهِ!

فقال: «والذي نفسي بيدهِ؛ لهُما أثقلُ في الميزانِ من أُحُدٍ»[1] .

* وفي روايةٍ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «مِمَ تضحكون؟ لَرِجْلُ عبدِ اللهِ يومَ القيامةِ في الميزانِ أثقلُ من أُحُدٍ»[2] .

* وفي واحدةٍ من سُبُحاتِ العبادةِ والمُناجاةِ ، يحظىٰ ابنُ مسعودٍ بشهادة معلمةٍ من رسولِ اللهِ ﷺ؛ فعن زرِّ بن حبيش عن عبدِ اللهِ؛ «أنَّ النَّبي ﷺ أتاه مع أبي بكرٍ وعمرَ ، وعبد الله يصلّي ، فافتتحَ النّساء فَسَجلهَا ، فقال النّبي ﷺ: «مَنْ أحبَّ أَنْ يقرأَ القرآنَ غَضّاً كما أُنْزِلَ ، فليقرأهُ على قراءةِ ابنِ أمِّ عبد» . ثمّ تقدّمَ فسألَ ، فجعلَ النَّبيُّ ﷺ يقول: «سَلْ تُعْطَه ، سَلْ تُعْطَه» فقال فيما سأل: «اللَّهُمَّ إنّي أسألُكَ إيماناً لا يرتدُّ ، ونعيماً لا ينفدُ ، ومرافقةَ نبيّكَ محمّدٍ ﷺ ، في أعلى جنّة الخُلد.

فأتى عمر رضي الله عنه عبد الله يبشّرهُ ، فوجدَ أبا بكر رضي الله عنه قد سبقَه ، فقال: إنْ فعلتَ ، لقد كنتَ سبّاقاً بالخير»[3] .

* وفي روايةٍ أخرى أنَّ عُمر قال: «فوجدتُ أبا بكرٍ قد سبقني فبشّره ، ولا اللهِ ما سابقتهُ إلى خيرٍ قطّ إلا سبقني إليه» .

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٠) ، والهيثمي في المجمع (٩/ ٢٨٩).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ١٥٥) ، والمسند (١/ ١١٤) ، وحلية الأولياء (١/ ١٢٧) وغيرها كثير.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٨٦ و٤٠٠ و٤٣٧ و٤٤٥ و٤٥٤) ، وانظر: مجمع الزّوائد (٩/ ٢٨٨) ، وقال: «رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ، وفيه جرير بن أيوب البجلي وهو متروك» .

* وكان لابنِ مسعود رضي الله عنه مكانةٌ كبرىٰ عند خُلفاءِ الرَّسولِ ﷺ ، فقد كان سيّدنا أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه يجلّهُ ويحترمُه ، وكان عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه يفخرُ به ، وعندما بعثَهُ إلى الكوفةِ ، ولاّه بيتَ المال هنالك ، وأوصى به الكوفيين وقال: «وهو من النُّجباء ، وآثرتكم بعبدِ اللهِ على نفسي ، فاقتدوا بهِ». وقال: «هو وعاءٌ مُلِىءَ عِلْماً وفقْهاً»[1].

* وهذا سيّدنا حذيفةُ بنُ اليمان رضي الله عنه وهو من علماء الصَّحابةِ ، يرشدُ أحبابَهُ إلى الاقتباسِ من عبدِ اللهِ بن مسعود ، فعن عبدِ الرّحمٰنِ بن يزيد قال: «أتينا حذيفةَ فقُلنا له: حدّثنا بأقربِ النّاس برسولِ ﷺ هدياً وسمتاً ودلاًّ نأخذُ عنه ، ونسمعُ منه.

قال: كان أقربَ النّاسِ برسولِ اللهِ ﷺ هدياً وسمتاً ودلاًّ عبدُ اللهِ بنُ مسعود ، حتى يتوارىٰ عنّا في بيتهِ ، ولقد علمَ المحفوظون من أصحابِ محمّدٍ ﷺ أنَّهُ مِنْ أقربهم إلى الله زُلفى»[2].

* وأقـرَّ سيّدنا أبو موسى الأشعريّ لابنِ مسعود رضي الله عنه بالرُّسوخِ في العلْمِ ، وذلك لمَّا استُفْتِي في شيءٍ من الفرائض فغلطَ فخالفهُ ابنُ مسعود فقال: أبو موسى: لا تسألوني عن شيءٍ ما دام هذا الحبرُ بين أظهركم»[3].

* وشهد سيّدنا عمرو بنُ العاص رضي الله عنه بمحبّةِ الرَّسولِ ﷺ لرجُلَيْنِ أحدهما ابن مسعود فقال: «أشهدُ على رجلَيْن توفي رسولُ اللهِ ﷺ وهو يحبُّهما: عبدُ اللهِ بنُ مسعود ، وعمارُ بنُ ياسر»[4].

* وقد شهد لابنِ مسعود بمكانته العلميّةِ عددٌ من أكابرِ علماءِ الصّحابةِ من مثل: «عليُّ بنُ أبي طالب ، وأبو الدّرداء ، ومعاذُ بنُ جبل ، وأبو مسعود البدريّ ، وغيرهُم» رضي الله عنهم ، وحشرنا في معيّتهم.

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذّهبي (عهد الخلفاء الرّاشدين ص ٣٨٥).
(٢) أخرجهُ البخاري مختصراً في فضائلِ الصحابة برقم (٣٧٦٢).
(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٣٤٣).
(٤) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٢٦٣) ، وأخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٩٩).

* وأما تلامذته وأكابرُ علماء التَّابعين فقد أشاروا وأشادُوا بعلمِ ابن مسعود ، ومن بين أولئكَ العُلماء الأكابر: مسروقُ بنُ الأجدع الذي عرفَ مكانةَ الصَّحابةِ الكرامِ وعلمهم ، وأشار إلى أنَّ عِلْمَ الصَّحابةِ قد انتهىٰ إلى عالمَيْن اثنين ، وعلمَين كبيرين هما: «عليُّ بنُ أبي طالب ، وعبدُ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنهما»(١).

* أمّا التّابعيُ الجليل عامرُ بنُ شراحيل المشهور بلقبه «الشّعبي» ، فلا يعدلُ بفقهِ ابنِ مسعود أحداً وكان يقول: «ما دخلَ الكوفةَ أحدٌ من أصحابِ محمّدٍ ﷺ أنفع علماً، ولا أفقهَ صاحباً من عبدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه».

* وقال تلميذهُ علقمةُ: «كان عبدُ الله يُشَبَّهُ بالنَّبي ﷺ في هديةِ ودَلّه وسَمْتِه»(٢).

* وقال تميمُ بنُ حذلم الضّبي الكوفيّ المتوفى سنة (١٠٠ هـ): «ما رأيتُ أحداً أزهدَ في الدّنيا ، ولا أرغبَ في الآخرة ، ولا أحبَّ أنْ أكونَ في مسلاخهِ منكَ يا عبدَ الله بن مسعود»(٣).

* وفي كُتُبِ العُلماء ومصنّفاتهم والمؤلّفين وتحقيقاتهم نجدُ لابن مسعود رضي الله عنه مساحاتٌ واسعةٌ ، واعترافاتٌ علمية ، تشهدُ له بالنّباهةِ والفضْلِ والتّقدم ، ومن بين هؤلاء: أبو نُعيم الأصفهاني رحمه الله الذي افتتحَ ترجمةَ ابن مسعود في «حليته»(٤) بحلى كلماتٍ سَلِسة ومتناغمة فقال: «ومن طبقة السّابقين المهاجرين ، المعروفين بالنُّسك من المُعمَّرين ، القارىءُ المُلَقّنُ ، والغلامُ المُعَلَّمُ ، والفقيهُ المفهَّمُ ، صاحبُ السّواد والسّرار ، والسّباق والبدار ، أقربهم وسيلة ، وأرجحهُم فضيلة ، كان من الرّفقاء

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٣٥١) ، والمعرفة والتاريخ (١/ ٤٤٤ و ٤٤٥).
(٢) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٥٥)؛ ومن الجدير بالذكر أن علقمة هذا كان يُشبّه بأستاذه عبد الله بن مسعود. رضي الله عنه وحشرنا في حزبه وزمرته.
(٣) انظر: صفة الصفوة (١/ ٤٠٣) ، ومعنى «مسلاخه» جلده وهديه وطريقته.
(٤) «حليته»: أي كتابه الشهير: «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء».

والنّجباء والوزراء والرّقباء ، عبدُ الله بنُ مسعود ، الكلفُ بالمعبود ، والشّاهدُ للمشهود ، والحافظُ للعهود ، والسّائلُ الذي ليس بمردود»[1].

* وقال أبو نُعيم أيضاً في موضع آخر: «كان لفضولِ الدُّنيا من أهلٍ وولدٍ شانياً ، وعلى نفسه وأحوالِهِ وأورادِه زارياً ، ولما منحه اللهُ عزَّ وجلَّ من توحيدِهِ راجياً»[2].

* وفي «شذارتِهِ» أثنى ابنُ العماد على عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه ، وقلّده قلائدَ من جمانِ أقوالِهِ النَّفيسة فقال عنه: «وهو أحد القرَّاء الأربعة ، ومن أهل السَّوابق في الإسلام ، ومن علماءِ الصَّحابة رضي الله عنهم أجمعين ، هاجرَ الهجرتَيْن ، وصلى إلى القبلتَيْن ، وشهد له رسولُ اللهِ ﷺ بالجنّة»[3].

* وشاركَ الإمامُ النَّووي رحمه الله بالثَّناءِ على ابن مسعود فقال: «هو صحابي ابنُ صحابية. . وكان من كبار الصَّحابة ، وساداتهم ، وفقهائهم ، ومقدّميهم في القُرآن ، والفقه ، والفتوى ، وأصحاب الخلق ، وأصحابِ الأتباعِ في العِلْم»[4].

* وفي «أعلامِ نُبلائه» ذكره الذّهبيّ بقوله: «الإمامُ ، الحبرُ ، فقيهُ الأمّة ، من السَّابقين الأوّلين ، ومن النُّجباء العالمين ، ومناقبه غزيرةٌ ، روىٰ علماً كثيراً ، وكان معدوداً من أذكياءِ العُلماء»[5].

* وفي «تذكرته» يذكرُ الذّهبي ابن مسعود أيضاً فيقول: «أبو عبد الرحمن، عبدُ اللهِ ابن أمّ عبد الهذليّ ، صاحبُ رسولِ اللهِ ﷺ وخادمَهُ ، وأحدُ السَّابقين الأوّلين ، ومن كبار البدريين ، ومن نُبلاء الفقهاء والمقرئين ، كان ممن

---

(١) حلية الأولياء (١/ ١٢٤).
(٢) حلية الأولياء (١/ ١٣١).
(٣) شذرات الذهب (١/ ١٩٥).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٨٩).
(٥) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٦١) بشيء من الاختصار.

يتحرّىٰ في الأداء ، ويتشدَّدُ في الرّواية ، ويزجرُ تلامذته عن التّهاون في ضبطِ الألفاظِ»[1] .

* ولا عجبَ في أنْ يحظىٰ ابنُ مسعود رضي الله عنه بهذهِ الأوسمةِ الرفيعةِ ، فقد كان ربّانياً عابداً ، شديدَ التأسّي برسولِ اللهِ ﷺ ، كثيرَ الطّاعةِ له ، لا يحيدُ عن أوامره لا في حياتهِ أو بعد وفاتِه ، وكان ملتزماً بالسُّنّةِ يأمرُ بسلوكِ طريقها ، حريصاً على الصَّلاةِ لوقتها مع الجماعةِ ، كثيرَ صلاةِ النّافلة ، كثيرَ التّهجدِ يقطعُ الليالي بالركوع ، والسُّجود ، ونهارهُ بالعبادة ، وكان يصومُ الاثنين والخميس ، وعندما يحجُّ يقتفي آثارَ النّبيّ ﷺ .

* وكان كثيرَ التّلاوةِ للقرآنِ العظيم ، وإدامَةِ النَّظر في المصحف ، يتفاعلُ مع القراءة ، ويتأثّرُ بمعاني القُرآن الكريم ، بل كان لسانه رطْباً بذكرِ اللهِ ، ولا يتكلّمُ إلا بذكرهِ ، سبحانهُ ، ويُوصي بذلك ، بل يوصي الإنسان بأنْ يصحبَ من يعينهُ على ذكرِ اللهِ؛ وكان مع هذا كلّهُ كثيرَ الاستغفارِ يلهجُ لسانه بالدُّعاء ، وهو يرغبُ بالثّوابِ من الكبيرِ المتعال ، وكان أمّاراً بالمعروفِ ، راضياً بحكمِ اللهِ ومشيئتهِ ، زاهداً ، ورعاً ، متواضعاً ، مُخلصاً ، بعيداً عن اللغو ، كريمَ النّفس . .

* وهذه الصّفاتُ وحصائلُ الفضائل ، وخصائلُ المكارم جعلت ابن مسعود رضي الله عنه من المتفردين في سدّةَ الفضل ، ويعتلي منبر العِلْمِ ، فأكرِمْ به!

* ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ :

* عاشَ سيّدنا عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه حياةً علميةً تفوحُ بالفائدةِ ، وظلَّ وفيّاً على العهدِ الذي أدّاهُ لرسولِ اللهِ ﷺ .

* وفي خلافةِ سيّدنا عثمان بنِ عفان رضوان الله عليه أحسَّ ابنُ مسعود بقربِ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، واشتاق إلى نبيّه ﷺ ، ورُئيتَ له المناماتُ المبشّرة

---

(١) انظر: تذكرة الحفاظ (١/ ١٣).

لذلك ، ومنها ما ذكره ابنُ الأثير فقال: «لقي رجلٌ ابن مسعود فقال: لا تعدمُ حالماً مذكِّراً ، رأيتكَ البارحةَ ، ورأيتُ النَّبيَّ ﷺ على منبرٍ مرتفعٍ ، وأنتَ دونَهُ ، وهو يقول: يا بنَ مسعود ، هلمّ إليّ ، فلقد جُفيتَ بعدي.

فقال: آلله ، لأنت رأيتَ هذا؟

قال: نعم.

قال: فعزمتُ ألا تخرجَ من المدينةِ حتى تصلّي عليَّ ، فما لبث أيّاماً حتّى مات»[(١)].

* ولمَّا مرضَ ابنُ مسعود رضي الله تعالى عنه كتبَ وصيّـةً لأحدِ فُرسان مدرسةِ النّبوة ، وهو حواري النّبيّ ﷺ الزّبير بن العوّام رضي الله عنه ، وإلى ابنهِ عبدِ الله بنِ الزبير ، وقد ذكر هذه الوصيّة عامر بن عبد الله بن الزّبير قال: «أوصى ابنُ مسعود فكتبَ: إنَّ وصيتي إلى اللهِ ، وإلى الزّبير بن العوام ، وإلى ابنه عبدِ اللهِ بن الزّبير ، وإنّهما في حَلٍّ وبلٍّ ممّا قضيا في تركتي ، وإنَّهُ لا تزوّجُ امرأة من نسائي إلاّ بإذنهما»[(٢)].

* وأوصىٰ ابنُ مسعود أنْ يكفَّنَ في حلّةٍ بمئتي درهم ، وأن يُدفَن عند قبرِ عثمانَ بنِ مظعون رضي الله عنه ، كما أوصى ابنَهُ أبا عبيدة[(٣)] بثلاث كلمات فقـال: «أيّ بنـي ، أوصيـكَ بتقـوى الله ، وليسعـكَ بيتُـك ، وابْـكِ علـى خطيئتكَ».

* وقد حضر سيّدنا عثمانُ بنُ عفّان وفاةَ ابن مسعود فيما روته المصادر

---

(١) انظر: أسد الغابة (١/ ٢٨٥) ترجمة رقم (٣١٧٧).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٤/ ٧٠) ، والبداية والنهاية (٧/ ١٦٣) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٩٧ و٤٩٨) ، ومعنى: «حل وبل»: أي شفاء. وقال الذهبي: «كان ابن مسعود قد قدم على عثمان من العراق ، وشهد في طريقه الربذة ، أبا ذر الغفاري وصلى عليه».

(٣) لابن مسعود ثلاثة أولاد: ذكرت المصادر اثنين منهما ، وهما: عبد الرحمن ، أبو عبيدة واسمه عامر ، أما الثالث فلم تذكره المصادر ، وله بضع بنات لم تذكر منهن سوى واحدة اسمها سارة.

قالت: «مرضَ عبدُ الله بن مسعود ، فعادَهُ عثمانُ بنُ عفَّان ، فقال: ما تشتكي؟

قال: ذُنوبي!

قال: فما تشتهي؟

قال: رحمة ربي.

قال: ألا آمرُ لكَ بطبيب؟

قال: الطّبيبُ أمرضني!

قال: ألا آمرُ لك بعطاء؟

قال: لا حاجة لي فيه!

قال: يكونُ لبناتِكَ!

قال: أتخشى على بناتي الفقر؟! إنّي أمرتُ بناتي أنْ يقرأْنَ كلّ ليلةٍ سورة الواقعة ، إنّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «مَنْ قرأَ الواقعةَ في كلّ ليلةٍ لم تُصبْهُ فاقةٌ أبداً»[1].

* وتوفي سيّدنا عبدُ اللهِ بنُ مسعود سنة (٣٢ هـ)[2] ، وصعدت روحُهُ إلى بارئها راضيةً مرضيةً ، وكان عمرهُ ثلاثاً وستين سنة ، قضاها في العلم والعمل ، وصلّى عليه عثمان رضي الله عنه ، ودُفنَ بالبقيع[3].

* ولمّا جاءَ نعيُ عبد اللهِ بن مسعود رضي الله عنه إلى أبي الدّرداء قال: «ما تركَ بعده مثلَه»[4].

* رضي الله عن ابن مسعود ، فقد كان بحقّ من سفراء حملةِ القُرآنِ الكريم ، ومن فقهاءِ الصَّحابة وعلمائهم ، وكان ممّن عناهم القائل:

---

(١) أسد الغابة (٣/ ٢٨٦) ترجمة رقم (٣١٧٧) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٩٨).

(٢) انظر: أسد الغابة (٣/ ٢٨٦).

(٣) المستدرك (٣/ ٣١٢) ، وأسد الغابة (٣/ ٢٨٦).

(٤) أسد الغابة (٣/ ٢٨٦) ترجمة رقم (٣١٧٧).

قَوْمٌ لَهُمْ في سَماءِ المَجْدِ مَنْزِلَةٌ　　زُهْرُ الكَواكِبِ مِنْهَا النُّورُ تَقْتبِسُ

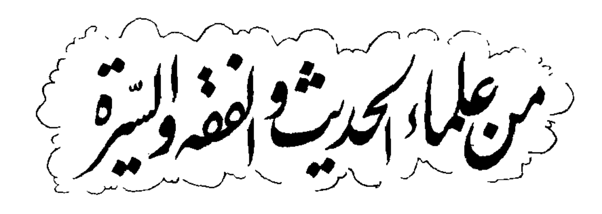
* ومع وداع سيرةِ عبدِ اللهِ بن مسعود ، نسألُ اللهَ أَنْ يحشرَنا في معيّتهِ ، ومعيّةِ الصَّحابةِ الكرامِ أهلِ الفضلِ والسَّبْق إلى دوحةِ المكارم ، وتعالوا نقرأ قول الله عز وجل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١٢].

* * *






الباب الثاني



- أبو هريرة
- أنس بن مالك
- جابر بن عبد الله
- أبو سعيد الخدري







أبو هريرة

* سيّد الحفاظ الأثبات بلا خفاء؛ وعالمهم في هذا المضمار الوضّاء.

* محبّ للنّبيّ ﷺ متّبع لآثاره الشّريفة، وشمائله العظيمة اللطيفة.

* كان عالماً راوياً للحديث لبيباً؛ مجتهداً مفسّراً مفتياً فقيهاً أديباً.

* روى (٥٣٧٤) حديثاً، وأحاديثه منثورة في كتب الحديث جميعها.

* مناقبه جمّة وفضائلُهُ لا تُحصر، توفي سنة (٥٧ أو ٥٩ هـ) ودفن بالبقيع.




أبو هُرَيْرَةَ

وذلـكَ فَـضْلُ اللهِ:

* إنَّ مِنْ كلِّ مئةِ شخصٍ تسعةً وتسعينَ يعرفونَ علمنا كبيرَ الشَّأْنِ والعَلاء ، وذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتيهِ مَنْ يشاء ، داوَمَ على طلبَ العلم صَباحَ مساءَ ، حتَّى غدا من سادةِ العُلَماء الأتقياء ، وذلكَ فضلُ اللهِ يُؤتيه منْ يشاء؛ حظيَ بدعوةٍ مباركةٍ من سيِّدِ الأنبياء ، فغدا سيّدَ الحفّاظ الأثبات بلا خفَاء ، وذلك فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يَشاء ، فإنْ تكلَّمَ عنهُ بالقولِ المُضلِّل حاسدٌ فإنّ كلامَ الحاسدين هراء ، وسيبقى هذا العالمُ العَيْلَمُ أشهرَ منَ الجوزاء ، وذلكَ فضْلُ الله يُؤتيهِ مَنْ يشاء:

ما ضَرَّ شَمْسَ الضُّحَىٰ والشَّمْسُ طالعَةٌ ... ألاّ يرىٰ ضَوْءَهَا مَنْ لَيْسَ ذا بَصَرِ

* كان هذا الحافظُ العالمُ أحدَ أئمةِ الدَّهر ، فهو ذو الباع الواسع في دقَّةِ الحفظِ ، وكان إماماً في التّفسير ، وإماماً في الزُّهدِ وَالورع ، فرداً من أفرادِ الزَّمان ، قال عنه الإمام الشَّافعي: «أحفظُ مَنْ روى الحديث في دهرِه».

* أما الإمامُ الذَّهبيّ فقد قدَّمَ بطاقته التي تشرّف الحفَّاظ؛ فقال: «الإمامُ الفقيهُ ، المجتهدُ الحافظُ ، صاحبُ رسولِ اللهِ ﷺ ، أبو هُريرةَ الدَّوسي اليَماني ، سيّد الحفَّاظ الأثبات ، اختلف في اسمه على أقوالٍ جمّة؛ أرجحُها: عبدُ الرّحمن بنُ صَخْر . . كَنَّاهُ النَّبيُّ ﷺ أبا هُريرةَ . . وأُمُّهُ هي: ميمونةُ ـ أو أميمةُ ـ بنتُ صُفيح ـ أو صُبيح ـ رضي الله عنها . . حملَ عن النَّبي ﷺ عِلْماً كثيراً طيّباً مباركاً فيه ـ لم يُلْحَقْ في كثرتِهِ ـ . . . »[1].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٧٨ و٥٧٩) بتصرف ، واعلم عزيزي القارىء أنَّ المصادرَ =

* وصفهُ معاصروه ومحبُّوه بأنَّه كان رجلاً أسمَرَ ، بعيدَ المنكبين ، أفرقَ الثَّنيتَين ، ذا ضفرتَيْن ، وله لحيةٌ حمراء ، وكانَ يخضبُ ، ويَحفي عارضيه يأخذُ منهما ، ويلبسُ ثياباً من كتّان؛ أمَّا زوجتهُ فهي بسرةُ بنتُ غزوانَ ، وله ثلاثةُ أولاد وهم: بلالٌ ، وعبدُ الرحمن ، والمحرَّرُ ، كلُّهم رووا عنه ، وله ابنةٌ واحدةٌ لم نظفرْ بمعرفةِ اسمها ، ولكننا عرفنا بأنها زوجة لسيد جليل من سادات التابعين ، كما أنَّ له عدّةَ أحفادٍ من العُلَماء.

صُحبةٌ مباركـةٌ مِعْطـاء:

* نشَأ أبُو هُريرةَ يتيماً في قبيلَتِهِ دَوْس ، وكانت هذه القبيلةُ وثنيّةً ، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هَدَاهَا إلى الإسلامِ ، وكان ممَّنْ هُدُوا ـ إلى الطَّيِّبِ من القولِ وهُدُوا إلى صراطِ العزيز الحميدِ ـ شابٌ في مجتمع شبابهِ هو أبو هرُيرة ، إذ أقبلَ في أوّلِ سنَةِ سَبْع من الهجرةِ النّبويّةِ ، ومن ثَمّ أسْلَمَ عامَ خيبر في شهر المُحرّم على أصحِّ الرِّوايات وأغلبِها.

* ولهجرتهِ قصّةٌ شائقةٌ وحَدَثٌ طريفٌ ، رواه بأسلوبه الجميل الطريف فقال: «لمّا قَدِمتُ على النّبيّ ﷺ ، قلتُ في الطَّريق:

يـا ليلــةً مــن طــولِهـا وعنـائِهـا   علـى أنَّهـا مـن دَارةِ الكُفْـرِ نَجَّـتِ

قال: وأَبَقَ لِي غُلامٌ في الطَّريق ، فلمّا قدِمْتُ على النَّبي ﷺ فبايعتُه ، فبينا أنا عنده ، إذ طلعَ الغلامُ ، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هُريرةَ ، هذا

= والمؤلفاتِ عن سيدنا أبي هُريرةَ لا تحصىٰ ولا تُستقصى. ومنها على سبيلِ التّذكير: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٧٠) ، ومشاهير علماء الأمصار (ص ٣٥) ، وحلية الأولياء (١/ ٣٧٦ ـ ٣٨٥) ، ومجمع الزوائد (٩/ ٣٦١) ، ومختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ١٧٩ ـ ٢٠٧) ، والمسند الجزء الثالث كاملاً طبعة دار الفكر؛ الاستيعاب (٤/ ٢٠٠ ـ ٢٠٧) ، والإصابة (٤/ ٢٠٠ ـ ٢٠٨) ، والمستدرك (٣/ ٥٧٨ ـ ٥٨٨) ، وجامع الأصول (٩/ ٩٥) ، وأبو هريرة راوية الإسلام لمحمد عجاج الخطيب من سلسلة أعلام العلاب رقم (٢٣) مصر ١٩٦٢ م ، والبداية والنهاية (٨/ ١٠٣ ـ ١١٥) ، وغيرها كثير من المؤلفات في الشرق والغرب.

غلامُكَ» فقلتُ : هو حرٌّ لوجهِ الله ؛ فأعتقْتُهُ»[1].

* وهكذا افتتح أبو هُريرةَ إسلامهُ بهذه المكرمةِ التي تعبّر عن غاية الجود ، والتي تعبقُ بالنَّدىٰ والحريّةِ والسَّخاء ، فأكرِمْ بهِ[2]!!

* وكما كانت بدايةُ إسلامِ أبي هريرة ميمونةً ، كانت صحبتُه للنّبي ﷺ ميمونة أيضاً ، إذ لزمه حوالي أربعة أعوامٍ كوامل وزيادة ، وكانت أعواماً سِماناً مباركةً ، صحب من خلالها النّبي ﷺ في الحلِّ والتّرحال ، واقتبسَ من هدْيهِ الميمون ما جعلَهُ إماماً كبيراً من أئمة العُلماءِ وساداتهم ، كما أنَّ الحبيبَ المُصْطَفَىٰ ﷺ حَنَا على أبي هُريرةَ ، وجعلَهُ عريفَ أهلِ الصُّفَّةِ[3] ، وأخذَ يوليهِ رعايته ، ويمدُّ له يدَ العَون ، ويوجّههُ ويرأفُ به ، فكان أبو هريرةَ أهلاً لذلكَ كلّه ، وغدا من فقهاء المدرسةِ النّبويةِ النُّجباء ، ومن المقرّبين العُلمَاء ، ومن الصَّحابة الأصفياء .

* وكان ممّا أنعم اللهُ عزَّ وجلَّ به على سيّدنا أبي هُريرةَ أنَّهُ صَحِبَ النَّبيَّ ﷺ في سنواتٍ ثريةٍ بالتَّشْريعاتِ والأحكامِ ، فأقبلَ برغبةٍ عظيمةٍ على العِلْمِ ، وترك الصَّفقَ بالأسواقِ ، وتعلّق بالواحدِ الخلاّقِ ، وزهدَ بزخرفِ الدُّنيا ، وعملَ لما بعدَ الدُّنيا ، وتفرَّغَ للصُّحبةِ النّبويّةِ ؛ فصار من النُّبلاء ، وصار يُذكرُ في المجالسِ المُبارَكَةِ كلّ صبح ومساء ، بعد أن كاد يكون منْسيّاً في الصَّحراء .

* ومن البركاتِ النَّبويّةِ والنَّفحات المصطفويّةِ التي تحصَّلتْ لسيِّدنا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٥٣١) واللفظ له. وبنحوه أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٧٩).

(٢) لا يستطيع الباحث الإحاطة بأحداث وصور حياة أبي هريرة ، ولكننا سنذكر في هذه الفقرة ما يفي بالغرض.

(٣) «الصُّفَّة» الصُّفّةُ مكانٌ مؤخّر المسجد النّبويّ الشّريف مظللٌ ، أُعدَّ لنزولِ الغُرباء فيه ممن ليس له مأوى أو أهل ، وكانوا يكثرون فيه أو يقلّون ، وقد سردَ أسماؤهم أبو نعيم في «الحلية» فزادوا عن مئة صحابي ، وكان لهؤلاء دور جليل في خدمةِ الإسلام ، وتلقي علوم القرآن وحراسة رسولِ الإسلام ، وكان عريفهم سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنهم وحشرنا في معيتهم.

أبي هُريرةَ أنّه حجَّ مع الحبيبِ المُصْطَفى ﷺ حجَّةَ الوَداعِ ، وأخذ عَنْهُ مناسِكَها ، ورأى أفعالهُ ، وحفظَ أقواله؛ وقد نقلَها لنا أبو هريرة نقلاً واضحاً بأسلوبِ العُلماءِ كأنَّنا معه.

* كان سيدنا أبو هريرةَ شديدَ القُربِ من النَّبي ﷺ وروى: «أنَّه كان يحملُ مع النَّبيِّ ﷺ إداوةً لوضوئهِ وحاجته..»[١] وهذا ما جعله من أكثر علماءِ الصَّحابة معرفةً بالخَصائصِ النَّبويّةِ والأحوال المحمدية.

* جاء في الصَّحيح أنَّ النَّبيّ ﷺ أعطىٰ أبا هُريرةَ نعلَيْهِ ، وذلك في قصّةٍ لطيفةٍ مفادَها أنَّهُ ﷺ دخلَ بُستاناً فتأخرَ على أصحابهِ ، ففزعوا ، وقامُوا ، وكان أبو هُريرةَ أشدهم وأوّلهم فزعاً ، فقامَ ودخلَ على رسولِ اللهِ ﷺ ، فقال: «أبو هريرة»؟!

فقال: نعم يا رسول الله ، أنا أبو هُريرة.

قال: «ما شأنُكَ»؟

قال: كنتَ معَنَا ، فقُمْتَ فأَبْطَأْتَ علينا ، ففزعْنا ، وكنْتُ أَوّلَ مَنْ فَزِعَ ، فأتيتُ هذا البُستانَ ، وهؤلاء النَّاس ورائي أهمَّهم ما أهمّني.

فقال: «يا أبا هُريرة» ـ وأعطاني نعلَيْه ـ قال: «اذهبْ بنعليَّ هاتَيْن فمَنْ لقيتَ من وراء هذا الحائطِ يشهدُ أن لا إلهَ إلاّ الله ، مستيقناً بها قلبه ، فَبَشِّرهُ بالجنَّةِ»[٢].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري برقم (٣٨٦٠).

(٢) أخرجه مسلمٌ من حديث طويل في الإيمان برقم (٣١). ومعنى «فزعنا»: الفزع يكونُ بمعنى الروع ، وبمعنى الهبوب للشّيء والاهتمام له ، وبمعنى الإغاثة. و«أبو هريرة؟» أي: أنتَ أبو هريرة. وأعطاني نعليه»: أعطاه إياهما لتكون علامة ظاهرة معلومة عندهم بأنه لقي النبي ﷺ و«الحائط»: البُستان ، وسمي بذلك لأنّه حائط لا سقف له. و«يشهد أن لا إله إلا الله..»: معناه: أخبرهم أنّ من كانت هذه صفته فهو من أهلِ الجنةِ. وفي هذا دلالةٌ ظاهِرَةٌ لمذهبِ أهلِ الحقّ أنّه لا ينفعُ اعتقاد التّوحيد دونَ النّطق ، ولا النّطق دون الاعتقاد ، بل لا بدّ من الجمعِ بينهما.

وفي هذا الحديث فوائد منها: جلوس العالم لأصحابه ولغيرهم ليعلمهم ويفيدهم =

* وفي أسفَارِ النَّبيِّ ﷺ ومغازيهِ ، كان أبو هريرة رضي الله عنه قريباً منه ، يمسكُ بزمامِ ناقتهِ ليركبَها ، وفي واحدة من غزواتِ الجهاد نرى هذا المنظرَ الجميلَ: أبو هريرة يقدّم النَّاقة للنّبي ﷺ ليركبَها وعندها ينقل لنا أبو هريرة دعاءً نبوياً نقوله عند السَّفر.

* أخرجَ الحاكمُ في مستدركه بسندٍ له عن أبي زرعةَ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أنّي لآخذُ بخطامِ النّاقةِ لأزمَّها ، حتى استوىٰ رسولُ اللهِ ﷺ عليها فقال: «اللَّهُمَّ أنتَ الصَّاحبُ في السَّفَر ، والخليفةُ في الأهلِ ، اللَّهُمَّ أَصْحِبْنَا بصحبةٍ ، واقلبنا بذمَّة ، اللَّهُمَّ ارزُقني قَفَلَ الأرض ، وهوِّن علينا السَّفر ، اللهم إنّي أعوذُ بكَ من وعثَاءِ السَّفَر ، وكآبةِ المنقلب»[1].

* ومن ثنايا حياةِ سيّدنا أبي هريرةَ وسيرتهِ نلمحُ كثيراً من الأخبار والأحداثِ المُهمةِ التي يتجلّى من خلالها محبّة النّبي ﷺ له ، وحفاوته به؛ وقد أخبرنا أبو هُريرة بذلك كلّه ، فمن ذلك ، أن الصَّادق المصدوق ﷺ قال له: «يا أبا هُريرةَ ، ألا أدلّكَ على كَنْزٍ من كَنْزِ الجنَّةِ تحتَ العَرش»؟

قال أبو هريرة: نعم فداكَ أبي وأمّي.

قال: «أن تقول: لا قوَّةَ إلاّ بالله»[2].

= ويفتيهم. وفيه بيان ما كان عليهِ الصحابة رضي الله عنهم من القيام بحقوق النبي ﷺ وإكرامه والشفقة عليه. وفيه إرسال الإمام إلى أتباعه بعلامة يعرفونها ليزدادوا بها طمأنينة. والله تعالى أعلم.

(١) المستدرك (٢/ ١٠٩) طبعة دار الكتب العلمية. ومعنى «اقلبنا بذمة»: أي أرجعنا بأمان. و«قفل الأرض»: أي الرجوعَ من السفر إلى الأهل. وقال أبو زرعة راوي الحديث عن أبي هريرة: «كان أبو هريرة رجلاً عربياً ، لو أراد أن يقول: وعثاء السفر: لقال: «اللهم اقلبنا بذمّة ، اللهم ازْوِ لنا الأرض ، وسيّرنا فيها» (المستدرك ٢/ ١٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٣٤) حديث رقم (٨٤٣٤) وقال أبو بلج أحد سند رجال هذاالحديث متابعاً: «وأحسبُ أنَّه قال: «فإنّ الله عزَّ وجلَّ يقول: أَسْلَمَ عَبدي واستسلم». قال عمرو بن شهاب: قلت لأبي هريرةَ: «لا حول ولا قوة إلا بالله» فقال: «لا إنها في سورة الكهف: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٩]» (المسند ٣/ ٢٣٤) بتصرف يسير جداً.

* ومن الأخبارِ التَّربوية الخلاّبةِ أنَّ النّبي ﷺ علّمه خَمسَ خصَالٍ مفيدةٍ يعمل بهنَّ ويعلّمهنَّ ، فقد أخذ ﷺ بِيَدِ أبي هُريرة وعدَّ الخصَالَ الخمس وقال: «اتقِ المحارمَ تكن أعبدَ النَّاس ، وارضَ بما قَسَمَ اللهُ لكَ تَكُنْ أغنى النَّاس ، وأحسِنْ إلى جارِكَ تكنْ مؤمناً ، وأحبَّ للنَّاس ما تحبُّ لنفسِكَ تكنْ مُسلِماً ، ولا تكثر الضَّحِكَ فإنَّ كثرةَ الضَّحكِ تُميتُ القَلْبَ»[1].

* وكان سيّدنا أبو هريرة يرافقُ النَّبيّ ﷺ أحياناً في بساتين المدينةِ ويتعلّمُ منه وفي هذا يقول: «كنتُ أمشي مع رسول الله ﷺ في نخلٍ لبعضِ أهلِ المدينةِ. . . »[2].

* وذات يومٍ مرَّ الصَّادق المصدوق ﷺ بأبي هُريرةَ ، فعلَّمَهُ التَّسبيحَ والذّكر ، أخرجَ هذا الحديثَ ابنُ ماجه بسندهِ عن عثمانَ بنِ أبي سَوْدةَ ، عن أبي هُريرة؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ مرّ به وهو يغرسُ غرساً ، فقال: «يا أبا هريرةَ! ما الذي تغرس»؟

قلتُ: غراساً لي.

قال: «ألا أدلك على غراسٍ خير لكَ من هذا»؟

قال: بلى يا رسول الله.

قال: «قُلْ: سُبحانَ الله ، والحمدُ للهِ ، ولا إله إلا الله ، واللهُ أكبر ، يُغرسُ لك بكلّ واحدةٍ شجرةٌ في الجنَّة»[3].

* ومن الأحوالِ المتألّقة في حياةِ سيّدنا أبي هُريرة أن الحبيبَ الأعظم سيّدنا رسولَ الله ﷺ كان يعدُّهُ من الأُمَنَاءِ ، ويوكّلهُ بزكاةِ رمضان ، ثم يعلّمُه كلماتٍ نافعاتٍ. . ويكرّرها ثلاثاً كي يتعلّمها ويعلّمها.

---

(١) المسند (٣/ ١٨٢) حديث رقم (٨١٠١). وانظر: الأحاديث الصحيحة للألباني برقم (٩٣٠).

(٢) المسند (٣/ ١٨٠) حديث رقم (٨٠٩١) وهو قطعة من حديث طويل.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأدب برقم (٣٨٠٧). وانظر صحيح الجامع الصغير (١/ ٥١٠) برقم (٢٦١٣).

* جاءَ عن أبي هريرةَ قوله: «وكّلني رسولُ اللهِ ﷺ بحفظِ زكاةِ رمضان. . .»[1] الحديث. .

* وعندما اشتكىٰ النّبي ﷺ، دخلَ عليهِ أبو هريرة يعودُهُ، فأدناهُ منه حتّى مسَّ أطرافُ أصابع أبي هريرة أصابع النَّبي ﷺ - والنَّبي ﷺ باسطٌ رجليْهِ الشَّريفتَيْن - ثم قال له: «اجلس يا أبا هريرة» فجلس، فقال له: «ادْنِ منّي طرفَ ثوبك»، فمدَّ أبو هريرة ثوبَه، فأمسَكَهُ بيدهِ، ففتحَهَ وأدناهُ من وجهِ النَّبيّ ﷺ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «أوصيكَ يا أبا هريرة؛ خِصَالٌ لا تدعهنَّ ما بقيتَ»، ثم أوصاهُ بالغُسلِ يومَ الجمعة والبكورِ إليها، وصيامِ ثلاثة أيام كلّ شهر، والمحافظة على صلاة الفجر، وأنْ يعلّمَ النّاس هذه الخصال[2].

* وكانت لأبي هريرة رضي الله عنه منزلة كبرىٰ عند حبيبنا رسولِ اللهِ ﷺ، فكانَ إذا أَلَمَّ مرضٌ بأبي هريرةَ رأينا النَّبيَّ ﷺ يعودُهُ فيرقيه؛ ويُعَلّمه، فأبو هريرةَ من كرامِ أهلِ الصُّفّةِ وفقرائهم، ومن خيارِ المسلمين ونبلائهم، وممّن يحبُّهم النّبيّ ﷺ، والنَّبيُّ الكريمُ ﷺ رؤوفٌ ولا يحبُّ إلّا طيّباً، ولا يرقي من أصحابهِ إلّا من يحبُّهُ ويحنو عليه، وثَبَتَ أنَّه زارَ أبا هريرة في مرضٍ، ومن ثمّ رقاه، ولنترك زمامَ الحديثِ الآن لسيّدنا أبي هريرة لينقلَ لنا بِجَلاءٍ هذه الرُّقيَةِ المباركةِ مُعَلّماً ومُتَعَلِّماً وناصحاً ومرشداً.

* قال سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: «جاء النَّبيُّ ﷺ يَعُودُني، فقال لي: «أَلا أرقيكَ برقيةٍ جاءَني بها جبرائيل»؟

قلتُ: بأبي وأمّي، بلى يا رسول الله.

قال: «بسمِ اللهِ أرقيك، واللهُ يشفيك من كلِّ داءٍ فيك، من شرِّ النَّفّاثات

---

(١) قطعة من حديث علّقه البخاري في صحيحه برقم (٢٣١١).

(٢) انظر القصة والحديث كاملاً في مختصر تاريخ دمشق (٢٩/١٨٩ و١٩٠)، وانظر: الإصابة (٤/٢٠٥) وقال: «والحديث المذكور من علامات النبوة، فإنّ أبا هريرة كان أحفظ الناس للأحاديث النبوية في عصره».

في العُقَد ، ومن شَرِّ حاسدٍ إذا حسد» ثلاث مرات[١].

المُحِبُّ الأديبُ:

* كان حبيبُنا رسولُ اللهِ ﷺ أحسنَ النَّاس وجْهاً ، وأحسنهم خُلُقاً ، فهو ﷺ أجملُ خَلْقِ اللهِ عزَّ وجلَّ خَلْقاً ، وأكملُهم خُلُقاً ، وهو يَنْبُوعُ المحاسنِ وأصلُ المكارمِ ، كان خلقُهُ عظيماً لأنّهُ ارتقى عن الدنيا وزخرفها ، ولم يكن له هِمَّةٌ سوى اللهِ عزَّ وجلَّ.

* وكان ﷺ لينَ الجانبِ ، لطيفَ الخُلقِ حسنَ المعاشرةِ كريمها ، رحبَ الصَّدرِ ، يُعطي جلساءَهُ اهتمامَهُ وهو في غايةِ المُلاطفة.

* وكان أبو هُريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ أحدَ علماءِ الصَّحابةِ الذين ملأَتْ محبّةُ النَّبيِّ ﷺ قلبَهُ وروحَهُ ، فقد تشرّفَ بالصُّحبةِ النّبويّةِ ، وخَبِرَ سيرتَهُ الشَّريفةَ العطرة عن تجربةٍ وقربٍ ، كما أنَّ أبا هريرة رضوان الله عليه قد نَعِمَ بالآدابِ المُحمّديةِ والشّمائلِ المصطفوية، واهتدىٰ بِهُداها من أَلِفِهَا إلى يائِها ، وصار الحبيبُ المُصْطَفَى ﷺ مُنَىٰ روحهِ ، وحياةَ قلبه ، فامتزجتِ المحبّةُ النّبويَّةُ بروحهِ ، وأصبحَ ﷺ الحبيبَ المُصْطَفَى لديه ، فهو أحبُّ إليهِ من نفسهِ ، ومن النَّاسِ أجمعين ، حتّى يحقّ لنا أن نُسَمّيَ أبا هريرة «الملازم الحافظ».

* وأوردَ صاحبُ «أسد الغابة»[٢] ما يتوافقُ مع قولنا من أنَّ ابن عمر قال

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (٢٥٢٤).

(٢) «أُسد الغابة»: أسد الغابة في معرفة الصحابة من أشهرِ الكُتب التي ترجمت للصَّحابة الكرام ، ومؤلفه هو عزّ الدين أبو الحسن عليُّ بنُ محمد الشّيباني المعروف بابن الأثير الجزري.
ولابن الجزري هذا أخوان من كبار العُلماء والمصنّفين ، أحدهما أكبر منه وهو: مجدُ الدين أبو السّعادات ولد سنة (٥٤٤ هـ) وتوفي سنة (٦٠٦ هـ) وهو صاحبُ كتاب «جامع الأصول في أحاديث الرسول» ، وكتاب «النّهاية في غريب الحديث والأثر».
والآخر أصغر منه وهو: ضياء الدين أبو الفتح ، ولد سنة (٥٥٨ هـ) وتوفي سنة (٦٣٧ هـ) وهو صاحب كتاب «المثل السّائر في أدب الكاتب والشاعر».
أما صاحبنا عزّ الدين أبو الحسن ، فقد كان واسطةَ العقد بين العائلة «الجزريّة والأثيرية»=

لأبي هريرة: «أنتَ كنتَ ألزَمَنَا لرسولِ اللهِ ﷺ وأحفظَنَا لحديثِهِ»[1]. وكلنا يعلمُ أنَّ سيدنا ابنَ عُمرَ من عمالقةِ عُلماءِ الصَّحابةِ وأكابِرَهُمْ وحفّاظِهم ومكثريهم فأكرمْ به!

* قال ابنُ الأثير: «أسلمَ أبو هُريرةَ عام خيبر، وشهدها مع رسولِ اللهِ ﷺ؛ ثمّ لزمَهُ وواظبَ عليهِ رغبةً في العلمِ، فدعا له رسولُ اللهِ ﷺ»[2].

* ومن خلال هذه المواظبة الهُريرية استقرَّ حبُّ النَّبيِّ ﷺ في قلبِ أبي هريرةَ، وغدَتْ صورَتُهُ ﷺ لا تفارقُ وجدانَ المُحبِّ أبي هريرة رضي اللهُ عنه، وكأنَّ حالهُ تشبهُ ما قاله الشَّاعر قديماً:

لقــد نَبَتَــتْ بــالقلــبِ مِنْــكَ محبّــةٌ   كما نَبَتَتْ في الرّاحَتَيْنِ الأَصَابِعُ

= ولد سنة (٥٥٥ هـ) ومات سنة (٦٣٠ هـ) وعمره (٧٥ عاما) ألف كتاب «الكامل في التاريخ؛ وكتاب «أسد الغابة» وهذا الكتاب يدل على سَعَةِ اطلاعه وعلمه ومعرفته بالأخبار والبحث والتّدقيق.

حاول ابنُ الأثير أنْ يجمعَ في «أسد الغابة» كلّ ما استطاع جَمْعَهُ من معرفة أسيادنا الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين وحشَرنا في معيتهم ووهبنا لهم؛ وقد جَمعَهُ عن أغلبِ الكتب التي تقدمَّتْهُ في هذا المضمار الرّحب المونق، واعتمد على أربعةٍ من كتب المشاهير وهم: «ابن منده، وأبو نعيم، وأبو موسى، وابن عبد البرّ»، وقد أشار إلى هذا في مقدمة الكتاب فقال: «فرأيتُ أنْ أجمعَ هذه الكتب .. ورأيتُ ابن منده وأبا نعيم، وأبا موسى عندهم أسماء ليست عند ابن عبدالبرّ، وعند ابن عبدالبر أسماء ليست عندهم، فعزمت أنْ أجمعَ بين كتبهم الأربعة» (أسد الغابة ١/ ١٠) باختصار.

ورتّب ابنُ الأثير الأسماء في التَّرجمة على حسبِ حروف المعجم (أ، ب، ت، ث، ج...) واعتنى بذلكَ اعتناء ظاهراً، ثم يذكر في الشّخصية التي يترجمها أهم الحوادث والغزوات والرواية وبعض الأحوال الخاصة بالمترجم له.

وكغيره من أصحاب المؤلفات في هذا الفنّ ذكرَ الرّجال، ثم الكنى، ثم النّساء، ثم كناهُنّ وحشد فيه طائفةً من المعلوماتِ المهمّةِ التي تفيدُ العالمَ والمتعلّمَ والمصنّف، والكتاب محقق ومطبوع مرات كثيرة في مصر ولبنان. فرحم الله ابن الأثير وأجزل مثوبته.

(١) أسد الغابة (٥/ ٣٢٠) ترجمة أبي هريرة برقم (٦٣١٩).

(٢) المصدر السابق عينه.

* ومن المؤكّدِ في سيرةِ سيّدنا أبي هريرة أنَّه لم يفارقِ النّبيّ ﷺ يوماً أو بعض يوم ، إلا مرّةً واحدة بأمرٍ نبويٍّ كريمٍ حينما بعثَهُ ﷺ مع العَلاءِ بنِ الحضرميّ إلى البحرين ، وأوصاهُ بأبي هريرةِ خيراً ، فقال له العلاء: «يا أبا هريرة؛ رسول الله ﷺ قد أوصاني بك خيراً فانظرْ ماذا تُحبّ»؟

فقال للعلاء: تجعلني أؤذنُ لك ، ولا تسبقني بآمين. فكان ذلك[1].

* وكان سيّدنا أبو هُريرةَ عليه سحاباتُ الرّضوان شديدَ التّأدّبِ مع النّبي ﷺ عالماً بذلك ، يَعي ما يقولُ إذا ما تحدثَ عن الحبيبِ الشَّفيعِ رسول الله ﷺ ، فاسمعْ إليه كيف يصِفُ حُسْنَه وجمالَهُ وإشراقَ وَجهِهِ الشّريفِ ولطافَةَ مشيتِهِ فيقولُ في أسلوبٍ أدبي رقيقٍ يمسُّ شغافَ القَلْبِ فيخلبُ الألباب: «ما رأيتُ شيئاً أحسنَ من رسولِ اللهِ ﷺ ، كأنَّ الشَّمسَ تجري في وجهه ، وما رأيتُ أحداً أسرعَ في مِشْيتِهِ من رسولِ اللهِ ﷺ ، كأنَّما الأرضُ تُطْوىٰ له؛ إنّا لَنُجهِدُ أنفسنا ، وإنّه لَغَيرُ مُكْتَرِثٍ»[2].

* والحقيقة ، فهذا الحبُّ للنّبيّ ﷺ من أبي هريرة شيء عجيب ، وطبعٌ راضَ عليهِ نفسَهُ حتّى صار سجيّةً وعلماً:

تملَّكَ بعضُ حُبِّكَ كُلَّ قَلْبِي فإنْ تُرِدِ الزِّيادَةَ هَاتِ قَلْباً

* وتذكرُ لنَا المصَادِرُ بأنَّ أبا هُريرةَ كان يَجِدُ الأنسَ والسُّرورَ في رؤيةِ الحبيب المصطفى ﷺ ، وقد قال له مرّةً في ودٍّ هامسٍ ، وأدبٍ رفيع:

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ١٨٧) ، وأبو هريرةَ لمحمد عجاج الخطيب ص(٩٠) مع الجمع والتصرف.

(٢) الشّمائل المحمدية للترمذي ص(٩٥ و٩٦) برقم (١١٧) تحقيق عبده كوشك ـ دار اليمامة ـ دمشق ط ١ ـ ٢٠٠٢ م. وأخرجه الترمذي في جامعه برقم (٣٦٤٨) ، وأحمد (٣/ ٣٢٢) برقم (٨٩٥٢) طبعة دار الفكر ومعنى: «كأنَّ الشَّمس تجري في وجهه»: شبّه جريان الشَّمسِ في فلكها بِجَريان الحُسْنِ في وجههِ الشّريف ﷺ ، وفيه عكسَ التشبيه للمبالغة. و«إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث»: المعنى: أنّنا نُتْعِبُ أنفسنا في مساواة مشيه وهو ﷺ مستريح ، أو إنّنا نبذلُ وسعنا وطاقتنا وهو غيرُ مبالٍ بمشيه. وانظر: طبقات ابن سعد (١/ ٤١٥).

«يا رسولَ اللهِ ، إنّي إذا رأيتُكَ طابَتْ نفسي ، وقرّت عيني . . »[1] نَعَمْ فرؤيتُه ﷺ قُوتٌ للقُلُوب ، وجلاء للأرواح والنّفوس .

* وإذا أراد سيّدنا أبو هريرة أنْ يتحدَّثَ عن الحبيبِ الأعظمِ ﷺ تحدَّثَ بأدبِ العُلماءِ ، وانتقى الكلماتِ التي تَمَسُّ شغافَ القُلُوب ، وتدخلُ خَبَايا النُّفوس ، ثمّ نظَمَها بجانبِ اسمِ رسولِ اللهِ ﷺ لِيُبرهن عن أدبهِ الرّفيعِ ؛ أمامَ الحبيبِ الشَّفيعِ ﷺ ، ومن عباراته التي تنمُّ عن حبِّهِ قوله : «حدَّثني خليلي أبو القاسم نبيُّ الله ﷺ . . »[2] ، وكان عندما يحدِّثُ أصحابهُ بذلك لا يملكُ نَفْسَه ، وتبدأُ العبرات تنهمرُ من عينه انهماراً غزيراً ، ونارُ الوجدِ تستعر من بين جنبيه استعاراً ، وأحياناً يجهَشُ بالبُكاءِ ، ويقوم وهو لا يقدرُ على الكلام[2] .

* وأحياناً نجدُ أبا هريرةَ يستجمعُ قواه ، ويُحلّي الأفواهَ والأسماعَ بلذيذ الكلام عن رسولِ الإسلام ﷺ فيقول كما جاء في «المسند» : عن أبي هُريرةَ قال : «سمعتُ رسولَ الله الصَّادقَ المصدوقَ ؛ أبا القاسمِ ، صاحبَ الحجرةِ ﷺ . . »[3] .

* وهل أتاكَ نبأُ هذا الوصفِ الجميلِ الذي ينمُّ عن أخلصِ الحُبِّ للحبيب المصطفى ﷺ ؟! فقد روى موسى بنُ مسلم مولى ابنة قارظ عن أبي هريرة ؛ أنّه ربّما حدَّثَ عن النّبي ﷺ ، فيقول : «حَدَّثَنِيهِ أهدبُ الشَّفْرَين ، أبيضُ الكشحين ، إذا أقبلَ أقبلَ جميعاً ، وإذا أدبرَ أدبرَ جميعاً ، لم تَرَ عينيَّ مثلَه ، ولن تراه»[4] .

---

(١) انظر : المستدرك (٤/ ١٧٦) وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه» .
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦١١) بتصرف يسير .
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٦٤) برقم (٨٠٠٧) وتتمة الحديث ؛ يقول : «لا تُنزعُ الرحمةُ إلاّ من شقي» .
(٤) أخرجهُ ابن سعد في الطَّبقات (١/ ٤١٥) . وكان أبو هُريرة ينعتُ رسولَ الله ﷺ بأنَّهُ : شَبْحُ الذّراعين ، أهدبُ أشفار العينين ، بَعيدُ ما بين المنكبين ، يقبلُ جميعاً ويدبرُ جميعاً ، لم يكن فاحِشاً ولا متفحّشاً ، ولا صخّاباً في الأسواق . =

* وكثيراً ما كان أبو هريرة يفديهِ بأبيه وأمهِ فيقول للحبيب الأعظم ﷺ: «يا رسولَ الله ، بأبي أنتَ وأمي . . »[1].

* وظلَّ أبو هريرة العالمُ المحبُّ وفيّاً في محبّتهِ الصَّادقةِ للصَّادقِ المصدوق صاحبِ الحجرةِ محمّدٍ رسول الله ﷺ ، فبَعْدَ أنِ انتقلَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى الرّفيقِ الأعلى ، كان أبو هريرةَ يقِظَ القلب والسَّريرةِ ، ينظرُ نظرةَ العالمِ الحصيفِ إلى مَنْ كانَ يحبُّهُ ﷺ ، فيقبلُ عليهِ ، ويبثُّهُ محبَّتَهُ الصَّادقةَ ، ويصنعُ كما كان يصنعُ النَّبي ﷺ مع بعض أحبابه .

* عن سعيد المَقبُرِيّ قال: «كُنَّا معَ أبي هُريرةَ ، فجاء الحسنُ بنُ عليّ رضي الله عنهما ، فسَلَّمَ ، فردَّ عليه القوم ، ومعنا أبو هريرة لا يعلمُ؛ فقيل له: هذا حَسن بنُ عليّ يُسَلِّمُ ، فَلَحِقَهُ فقال: وعليك ـ السَّلامُ ـ يا سيّدي .

فقال: تقول: يا سيّدي!

فقال: أشهدُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنّه سيِّدٌ»[2].

* وتعالوا نَعِشْ ونتخيَّلْ هذه الصُّورةَ الجميلةَ للمحبّةِ الهُريريّة أبي هُريرة لسيّدنا الحسن فيما جاء في المصادر عن عُميرِ بنِ إسحاق قال: «كنتُ أمشي مع الحَسنِ بنِ علي رضي الله عنهما في طرقِ المدينة ، فلقينا أبا هريرة ، فقال للحسن: اكشِفْ لي عن بطنِكَ جُعِلْتُ فِدَاكَ ، حتّى أقبّل

= وكان يقول: «كان رسول الله ﷺ رحبَ الصَّدر ، رَجِلَ الرّأس ، أهدبَ العينين حسنَ الفم ، حسنَ اللحية ، تامَّ الأذنين ، رَبْعةً من القوم ، لا طويلاً ولا قصيراً ، أحسن النّاس لوناً ، يُقبلُ معاً ويدبر معاً ، ولم أرَ مثله ، ولم أسمعْ بمثله. (طبقات ابن سعد (١/ ٤١٥) بتصرف.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٥٥٢) برقم (١٠٤١٣) وهو من حديث طويل. وأخرجه البخاري برقم (٧٤٤) ، ومسلم برقم (٥٩٨). وكان أبو هريرة يصف النبي ﷺ للأعراب الذين لم يروه ويقول: «فدىً له أبي وأمي».

(٢) مجمع الزوائد (٩/ ١٧٨) وقال: «رواه الطبراني؛ ورجاله ثقات». واقرأ سيرة سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما وأرضاهما في موسوعتنا «رجال أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» ، تجدْ ما يسرُّ الفؤاد بإذن الله.

حيث رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُقبّلهُ. قال: فكشفَ عن بطنه فقبّلَ سُرَّتَهُ»[1].

* وفي رحلةِ الوفاء في محبّةِ هذا السَّيِّد الشَّريفِ الحسنِ رضيَ اللهُ عنه نجدُ أبا هُريرةَ في ذِرْوَةِ الصَّفَاءِ في إخلاصِ المحبّةِ له حتّى آخر نَفَسٍ من حياته. ذكرَ مُسَاوِرُ مولىٰ بني سعد بن بكر قال: «رأيتُ أبا هُريرةَ قائماً على مسجد رسولِ اللهِ ﷺ يوم مات الحسنُ بنُ عليّ يبكي وينادي بأعلى صوته: يا أيّها النَّاس، مات اليوم حبّ رسولِ الله ﷺ، فابكوا»[2].

* وكما كان سيدنا أبو هريرة وفيّاً للحسَنِ بن عليّ رضي الله عنهما كان وفيّاً ومحبّاً لأخيهِ الحُسَيْنِ رضي الله عنه أيضاً، والآثارُ في ذلك كثيرةٌ جدّاً، ولا يتّسعُ المقامُ لِذِكْرِها ها هُنا ويكفي منها: «مَنْ أَحَبَّهما فقد أحبَّ النَّبيَّ ﷺ». ونحنُ ـ واللهِ ـ نُحبُّهما، ونحبُّ مَنْ يحبُّهما، فرضي الله عنهما وأرضاهُما، وحشَرنا في معيّتهما.

المُجتهدُ السَّعيد:

* عندما أسلمَ أبو هريرةَ رضي الله عنه كان في سنِّ اكتمالِ الشَّباب، واستوائهِ ونشاطهِ، وكانت تظهرُ عليه علائمُ النَّجابةِ والذَّكاء، فأحبَّ الإسلامَ، ونبيَّ الإسلام رسول الله ﷺ، فصحبَهُ وتشرَّفَ بخدمته، وانقطعَ إليهِ انقطاع المحبّين، فكان يشهدُ ويشاهدُ دقائقَ السُّنَّةِ وتطبيقَها، وظهرَ حبّه للعلم وشغفهُ به وحرصهُ عليه، فكان لا يُرىٰ إلاّ مع النَّبي ﷺ يدورُ معه حيث دار، ويحفظُ ما يسمع، ويعاينُ ما يرى، يتركُ الدّنيا وصَخَبَها، ويرضى بالكفافِ مؤثراً الصُّحبةَ الزَّاكيةَ عن كلّ شيء.

* وكان الحبيبُ المُصْطَفى ﷺ يرى هذا التّلميذَ النَّجيبَ المحبَّ الذي

---

(١) أخرجه ابن حبان برقم (٥٥٩٣ و٦٩٦٥). وأحمد في مواضع برقم (٧٤٦٦ و٩٥١٥ و١٠٣٣٠)، وانظر مجمع الزوائد (٩/ ١٧٧) وقال: «رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح غير عمير بن إسحاق وهو ثقة».

(٢) انظر: تهذيب الكمال (٦/ ٢٥٥) للمزّي ـ تحقيق د. بشّار عواد معروف ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

ترك كلّ شيءٍ من أجله ، فمنحه الحُبَّ والعطفَ والرعايةَ ، فدعا له دعوةً مباركـةً بأنْ يفهِّمهُ اللهُ العِلْم ، وأنْ يرزقَـهُ حافظةً واعيةً ، فكان ذلـك كما سنقرأ .

* وقد اختارَ اللهُ عزَّ وجلَّ لِنَبيّه ﷺ أصحاباً كانوا خيرَ الناس ، ومنهم «أبو هريرة» الذي هيّأهُ الله ليتفرّغ للعلم ، وحبَاهُ همةً من أعظم الهمم في طلب العِلْمِ ومحبّتهِ ، حتّى إنّه كان يسألُ الحبيب المصطفى ﷺ أسئلةً عظيمةً تدلُ على حرصهِ على طلبِ العِلْمِ والحديث ، وحتى ظنَّ ﷺ ألا يسألهُ أحدٌ عن الشَّفاعَةِ قبل أبي هُريرةَ .

* جاء في الصَّحيح وغيره ، عن أبي هريرةَ رضوان الله عليه أنَّه قال: «قلتُ: يا رسولَ الله ، مَنْ أسعدُ النَّاسِ بشفاعَتِكَ يومَ القِيامَة؟

قال: «لقد ظننْتُ يا أبا هريرةَ أن لا يسألَني عن هذا الحديثِ أحدٌ أوَّلَ منكَ ، لما رأيتُ من حرصكَ على الحديث ، أَسْعد النَّاسِ بشفاعتي يومَ القيامةِ مَنْ قال: لا إلٰه إلا الله ، خالصاً منْ قَلْبِهِ ، أو نفسِه»[1]. وفي روايةٍ أخرى عند أحمد «لقد ظننتُ لتكونَنَّ أوَّلَ مَنْ سأَلَني ممّا رأيتُ من حرصكَ على العِلْم؛ شفاعتي لمن يشهدُ أَنْ لا إلٰه إلاَّ الله مخلصاً يُصَدِّقُ قَلْبُهُ لِسَانَهُ؛ ولسانُهُ قَلبَهُ»[2].

* ويذكرُ سيّدنا أبو هريرةَ ملازمتَهُ الدائمةَ للنَّبيِّ ﷺ طلباً للعلم ، وفي حين أنَّ غيرَهُ من المهاجرين والأنصار شُغلوا بأراضيهم وبالصَّفْقِ بالأسواق ، يقولُ أبو هريرة: «. . . كنتُ ألزمُ رسول الله ﷺ على ملء بطني ، فأشهدُ إذا

---

(١) أخرجه البخاري في العلم برقم (٩٩) ، وأخرجه برقم (٦٥٧٠) ، وأخرجه ابن حبّان برقم (١٠٠٢ و١٠١٨ و١٠١٩ و١٩٦٧) ، وأحمد في المسند (٣/٣٠٨) برقم (٧٧٦٧) ، وغيرهم كثيرون ، وقوله: «من قال لا إله إلاالله» احتراز من الشّرك ، وقوله «خالصاً» احترازٌ من النفاق. وفي الحديث دليلٌ علىٰ اشتراط النطق بكلمتي الشهادةِ لتعبيره بالقول في قوله: «من قال» والمراد بالشهادة قوله: «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله». وانظر مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ١٨٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٦٠٢) برقم (١٠٧١٨).

غابوا، وأحفظُ إذا نَسوا. .»(١) وفي رواية: «وإِنَّ أبا هريرة كان يلزمُ رسول الله ﷺ بِشِبَعِ بطنه، ويحضرُ ما لا يحضرون، ويحفظُ ما لا يحفظون»(٢).

* وفي لقاءٍ علميّ مبارك لأبي هريرةَ مع أحدِ أكابرِ عُلماء الصَّحابة وحفّاظهم الأثبات يقولُ أبو هريرةَ لسيّدنا عبدِ اللهِ بن عمر رضي الله عنهم أجمعين: «واللهِ يا أبا عبد الرحمن ، ما كان يَشْغَلُنِي عن رسول الله ﷺ الصَّفْقُ في الأسواقِ ، ما كان يهمُّني من رسول الله ﷺ إلاّ كلمةً يُعَلِّمُنِيها ، أو لقمةً يُلْقِمُنِيْها»(٣).

* ومما يدلُّ على اجتهادِ أبي هريرةَ وطلبهِ للعِلْمِ أنَّه كانَ يغتنمُ الفرصةَ الملائمةَ ، فيسأَلُ ، ويستزيدُ من المعرفةِ ، وقد تكونُ الفرصةُ في الصَّلاة ، فعندما ينتهي رسولُ اللهِ ﷺ من الصَّلاة يتجرّأ ويسأَلَ.

* جاء في الصَّحيحَيْنِ وغيرِهما من كتبِ الحديثِ المُعتمدة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ ، إذا كبَّرَ في الصَّلاة ، سَكَتَ هُنَيَّةً قبل أَنْ يَقرأ.

فقلتُ: يا رسولَ الله بأبي أنت وأمي! أرأيتَ سكوتَكَ بينَ التَّكبيرِ ، ما تقول؟

فقال: «أقول: اللهمّ باعِدْ بيني وبين خطايايَ كما باعَدْتَ بينَ المشرِقِ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٠٢٧) ، ومسلم برقم (٢٤٩٢) ، وابن حبان برقم (٧١٥٣) ، وابن سعد (٤/ ٣٣٠) ، وانظر المسند (٣/ ٣٠) حديث رقم (٧٢٧٩) ، وأيضاً المسند (٣/ ١٠٨) حديث رقم (٧٧٠٩).
ومعنى «الصّفْقِ» هو ضرب اليد على اليد ، وجرت به عادتهم عند عقد البيع.

(٢) أخرجه البخاري في العلم برقم (١١٨) واللفظ له. وقوله: «ويحضر ويحفظ»: أي من الأقوال.

(٣) أخرجه البخاري برقم (١٣٢٣ و١٣٢٥) ، ومسلم برقم (٩٤٥) ، وهو في السُّنن الأربعة وعند أحمد وغيرهم وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يترحّمُ على أبي هُريرة في جنازته ويقول: «كان يحفظ على المسلمين حديث النبي ﷺ (فتح الباري (١/ ٢٥٨) ، وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ١٩٣).

وَالمَغرِب. اللّهُمَّ نقِّني من خطاياي كما يُنَقَّى الثَّوبُ الأبيضُ من الدَّنس. اللهُمَّ اغْسِلْنِي من خطاياي بالثّلج والماءِ والبَرَد»[1].

* وعلَّقَ ابنُ حَجرٍ رحمه الله على هذا الحديث فقال: «وفيهِ ما كانَ الصَّحابةُ رضي الله عنهم عليهِ من المحافظة على تتبُّع أحوالِ النَّبيّ ﷺ في حركاتهِ وسكَناتِهِ وإسرارِه وإعلانِهِ حتَّى حفظَ اللهُ بهم الدِّين»[2].

* ولا ريبَ في أنَّ سيّدنا أبا هريرة كان ممّن عَنَاهُمْ ابنُ حجر في قوله السَّابق. ولا ريبَ أيضاً في أنَّ أصحابَ رسول الله ﷺ قد علموا ملازمةَ أبي هريرةَ للنّبي ﷺ، وعرفوا أنّه قد صار أكثرهم حديثاً وأحفظهم، فأثنوا عليه، واعترفوا بفضله الظَّاهر في هذا المضمارِ الكريمِ، كما اعترفوا بأنَّه العالمُ الجريءُ في الأسئلةِ، الأديبُ في تعليمها للنّاس، فهذا سيّدٌ من أسيادِ علماء الصّحابـةِ عبدِ اللهِ بن عمر كان إذا سمعَ أبا هُريرةَ يتكلَّمُ قال: «إنا نَعرِفُ ما يقولُ أبو هريرة، ولكنّا نجبنُ ويجترىءُ»[3]. وفي روايةٍ: «ولكنّه اجترأَ وجَبُنَّـا».

* وهذا عَلَمٌ آخرُ وعالِمٌ منْ عُلماءِ أسيادِنا الصَّحابة الكرام يشهدُ

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد برقم (٥٩٨) واللفظ له. وهو عند البخاري في الأذان برقم (٧٤٤)، وأحمد في المسند (٣/٥٥٣) رقم الحديث (١٠٤١٣)، وابن حبان برقم ١٧٧٥، و١٧٧٦ و١٧٧٨). وقوله «سكتَ هُنيّةً» تصغير هَنَة، أصلها هَنْوة، فلما صُغّرت صارت هنيوة، فاجتمعت واو وياء فوجب قلب الواو ياء، فاجتمعت ياءان، فأدغمت إحداهما في الأخرى، فصارت هنية. وقوله: «بأبي أنت وأمي»: المعنى: أنتَ مفديٌّ أو أفديكَ. وقوله «باعد»: المراد بالمباعدة: محو ما حَصَلَ منها، والعصمة عما سيأتي منها، وهو مجاز، لأنّ حقيقةَ المباعدة إنّما هي في الزمانِ والمكانِ. وقوله «نقّني»: مجاز عن زوال الذّنوب ومحو أثرها، والمعنى: اللهُمَّ طهّرني طهارة كاملةً معتنى بها، كما يعتني بتنقية الثوب الأبيض من الوسخ، وقوله: «بالثلج والماء والبرد» عبّر بذلك عن غاية المحو. قال الكِرماني: «يحتملُ أن يكون في الدعوات الثلاث إشارة إلى الأزمنة الثلاثة؛ فالمباعدة للمستقبل، والتنقية للحال، والغسل للماضي».

(٢) فتح الباري (٢/٢٦٩).

(٣) الإصابة (٤/٢٠٦)، وانظر: المستدرك (٣/٥٨٣).

لأبي هُريرة بالجرأةِ في الأسئلةِ والاجتهادِ في طَلَبِ العِلْم ، إِنَّهُ أُبيُّ بنُ كعب الذي يقولُ: «كان أبو هريرة جريئاً على النَّبيِّ ﷺ يسألهُ عن أشياءَ لا نسألُه عنها»[١].

* أمّا أبو أيّوب الأنصاريّ وهو من الصَّحابة العُلماء الكُرماء ، فكان يقول: «إنَّ أبا هريرةَ قد سَمِعَ ما لَمْ نَسْمَع»[٢].

* وجاء في «المستدرك»[٣] للحاكم ، أنَّ طلحةَ بنَ عبدِ اللهِ رضي الله عنه شهد لأبي هُريرةَ بالاجتهادِ والتّحصيل ، وأنّه سمع ما لم يسمع الصَّحابة ، وعلم ما لم يعلموا ، وشهد ما لم يشهدوا فقال: «واللهِ ما نشكُّ أنَّه سمعَ من

---

(١) أخرجهُ ابن حبان برقم (٧١٥٥) ، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٨٤).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٨/ ١٠٩).

(٣) «المستدرك»: المقصود بالاستدراك: هو أنْ يأتي صاحبُ المستدرك ويستدركُ بعض الأحاديثِ التي تكون على شرط صاحب الكتاب المستدرك عليه ، إلا أنّه لم يخرجها في كتابه.
ولما كان البخاري ومسلم رحمهما الله لم يستوعبا جميعَ الأحاديثِ الصَّحيحة ، فإذنْ لا بدَّ أنْ تكونَ فاتَتْهُما أحاديثٌ كثيرةٌ على شرطهما ، لذا جاءتِ المستدركات ، واستدركتْ عليهما بعضَ الأحاديثِ التي على شرطهما ، ومن أشهرِ هذهِ المستدركات: مستدركُ الحاكم أبي عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري المتوفى سنة (٤٠٥ هـ) ، إذ استدركَ فيه كثيراً من الأحاديثِ على شرطِ الصَّحيحين ، أو شرط أحدهما ممّا لم يخرجاه في كتابيهما.
وقد نبَّه على ذلك في كتابه هذا بقوله: «هذا حديث على شرط الشَّيخين» أو يقول: «هذا حديث على شرط البخاري ، أو على شرط مسلم». وأما ما عدا ذلك فيطلق عليه: «هذا حديث صحيح الإسناد» وممّا أخذ عليه أنّه متساهلٌ في التَّصحيح ، حتى نجدَ أنّ ابنَ الجوزي ، والذّهبي ، قد نبّها على كثير من الأحاديثِ الضعيفةِ في كتابه؛ بل أخرجا حوالي (١٦٠ حديثاً) اعتبراها من الموضوعات.
لذا نجد أنّ بعضَ المحدثين نبهوا إلى أنَّ ما ينفردُ الحاكم بتصحيحه في مستدركه ، ينبغي أن يبحثَ فيه ، ويحكم فيه على حسب ما يستحقّه من الصّحة أو الحسن أو الضّعيف.
ومن الجدير بالذكر أنّ هناك كتاب المستدرك على الصّحيحين للحافظ أبي ذرّ عيد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأنصاري الهروي المتوفى سنة (٤٣٤ هـ) وغيرهما من المستدركات.

رسول الله ﷺ ما لم نسمع ، وعلمَ ما لم نعلمْ ، إنا كُنَّا قوماً أغنياء ، لنا بيتٌ وأهلون ، كنّا نأتي نبيَّ الله ﷺ طرفَي النَّهار ، ثم نرجعُ ، وكان أبو هريرةَ رضي الله عنه مسكيناً لا مالَ له ولا أهل ولا ولد إنّما كانت يدهُ مع يَدِ النَّبي ﷺ، وكان يدورُ معه حيث ما دار ، ولا نشكُّ أنَّه قد علمَ ما لم نعلمْ ، وسمعَ ما لم نسمع ، ولمْ يتهمْهُ أحدٌ منّا أنَّهُ تقوّلَ على رسول الله ﷺ ما لم يَقُلْ»[1] .

* وبلغَ من شدّةِ نَهْمِ أبي هُريرةَ واجتهادِهِ في طلبِ العِلْمِ وحبّه له أنْ روى عن عددٍ من الصَّحابة ممن تقدَّم عنه في الإسلام وهم كثيرون ، كما روى عن بعضٍ من هو أقلّ رواية منه ، وفي هذا يقول أبو بكر ابن خزيمة: «فمن حرص أبي هريرة على العلم ، روايته عمّن كان أقلّ رواية عن النَّبيّ ﷺ منه؛ حرصاً على العِلْم ، فقد روى عن سهل بن سعد السَّاعدي»[2] .

وقال ابن خزيمةَ أيضاً: «فحرصهُ على العِلْمِ يبعثهُ على سماعِ خَبرٍ لم يسمعهُ من النَّبي ﷺ منه»[3] .

الحافظُ للحديثِ ببركَـةِ دُعَـاءِ النَّبي ﷺ:

* تعالَ نسمع في بدايةِ هذه الفقرةِ إلى هذه الهمسَاتِ الدافئة من أبي هريرةَ رضي الله عنه حيث يقولُ ما مفادهُ وملخّصُهُ: «قدمتُ على رسول الله ﷺ سنةَ سبعٍ وأنا يومئذ قد زدتُ على الثلاثين سَنَة ، وأقمتُ معه حتّى توفي ، أدورُ معه في بيوتِ نسائه وأخدمُهُ ، وأصلّي خلفه ، وأغزو معه ، فكنتُ واللهِ أعلمُ النَّاسِ بحديثِهِ . . وواللهِ ما يخفى عليّ كلُّ حديثٍ بالمدينة . . وليسألني مَنْ شَاءَ عن هذا وأشباهِهِ ، فإنَّه يجِدُ عندي منه عِلماً جمّاً ومقالاً . . »[4] .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٨٥). وانظر: البداية والنهاية (٨/ ١٠٩).
(٢) المستدرك (٣/ ٥٨٦).
(٣) المستدرك (٣/ ٥٨٧).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٨/ ١٠٨) بتصرف واختصار ، وذلك من قصة يردُّ بها على مروان بن الحكم.

* إذن كان سيّدنا أبو هريرةَ عند هجرتهِ في أوجِ أشدّهِ ، وفورَةِ شبابهِ ، وتفتُّحِ ذهنِهِ ، وعلو همّتهِ ، وصفاءِ روحهِ ، وهذه الطَّاقاتُ جميعُها سخَّرهَا في ملازمةِ النّبي ﷺ وحفظِ أقوالهِ وأفعالهِ ، وكان يدربُ نَفْسَهُ على الحفظِ والاستذكار ، ويعتمدُ على ذاكرتهِ الواعية وذكائهِ المتوقّد ، وحرصه على الحِفْظِ في السِّنيِّ التي قَضَاها مع الحبيبِ المصطفىْ ﷺ ، وعلى وَعْيِ ما يقول فيهنّ.

* ولكنَّ أبا هُريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ على الرّغمِ من ذاكرتهِ الواعية ، خشي أنْ يسقُطَ شيءٌ ممّا يحفظه ، ورغب في أن يحظى بدعاءٍ مباركٍ من النّبيِّ ﷺ يجعلهُ حافظاً واعياً لا ينسى ، فكان له ما أرادَ ، وخصَّهُ سيّدنا وحبيبُنا رسولُ الله ﷺ بذلك ودعا له ، فتفرَّدَ أبو هريرةَ من بين الصَّحابةِ ببركةِ دُعاءِ رسول الله ﷺ بالحفظِ الخارقِ التَّامِ ، والضَّبطِ الوثيقِ الكامل.

* جاء عن أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال له: «ألا تسألني من هذهِ الغنائمَ التي يسألُني أصحابك»؟ قلت: أسألك أن تُعلّمني ممّا علَّمكَ الله. . فنزعَ نمِرةً كانت على ظهري ، فَبَسَطَها بيني وبينها. . . فحدَّثَني ، حتّى إذا استوعبتُ حديثهُ قال: «اجمعها فَصُرها إليك ، فأصبحتُ لا أسقطُ حرفاً ممّا حدَّثني»[1].

* وفي الصَّحيحِ عن أبي هريرةَ قال: «قلتُ يا رسول اللهِ ، إنّي أسمعُ منكَ حديثاً كثيراً أنساهُ».

قال: «ابسُطْ رداءَكَ». فبسطتُه. قال: فغرفَ بيديهِ ثمّ قال: «ضُمَّهُ» فضممتُهُ فما نسيتُ شيئاً بعدهُ»[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٦٤) ، وحلية الأولياء (١/ ٣٨١) ، و«النمرة» شملة فيها خطوط بيض وسود.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١١٩). وذكر محمّد بنُ عمارة بن حزم: «أنّه قعدَ في مجلس فيه مشيخة من الصّحابة بضعة عشرَ رجلاً؛ فجعل أبو هريرة رضي الله عنه يحدّثهم عن رسول الله ﷺ بالحديثِ فلايعرفه بعضهم ، فيراجعون فيه حتّى يعرفوه ، ثمّ يحدّثهم =

* وحدَّث أبو هريرة أيضاً أنَّ النَّبي ﷺ قال: «مَنْ يبسطُ ثوبه حتّى أقضيَ مقالتي، ثمّ قبضَه إليه، لم ينسَ شيئاً سمعَ منّي أبداً» ففعلتُ، فوالذي بعثه بالحقّ، ما نسيتُ شيئاً ممّا سمعتهُ منه»(١).

* وجاء من حديثٍ طويلٍ أنَّ أبا هُريرةَ دعا الله عزَّ وجلَّ فقال: «اللهم إنّي أسألُكَ عِلْماً لا يُنسَىٰ». فقال رسول اللهِ ﷺ: «آمين»(٢).

* إذن، كان أبو هريرةَ حافظاً متميزاً في الحفظِ، لا ينسىٰ ببركةِ الدُّعاءِ النَّبويّ، لأنّ دعاءه ﷺ لأبي هريرةَ بألّا ينسى كان معجزة، قال ابن حجر مُعَلّقاً على حديث عدم نسيان أبي هريرة: «وهو من علامات النُّبوَّةِ، فإنَّ أبا هريرة كان أحفظَ مِنْ كلِّ من يروي الحديث في عَصْرِه، ولم يأتِ عن أحدٍ من الصَّحابةِ كلّهم ما جاءَ عنه»(٣).

* ولهذا كلّه حقّ لأبي هريرة رضي الله عنه أنْ يقول من باب التحدّث بِنِعَمِ الله: «لا أعرفُ أحداً من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ أحفظَ لحديثهِ منّي»(٤).

* وقد أنصفَ الإمامُ الذَّهبي أبا هريرةَ عندما قال عنه: «احتجَّ المسلمون

= بالحديثِ كذلك حتى فَعَلَ مراراً، فعرفتُ يومئذ أنَّ أبا هُريرة أحفظُ النّاس» (فتح الباري ١/ ٢٥٩)؛ ومختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ١٩٠).

(١) أخرجه الشيخان: البخاري (١/ ١٩٠)، ومسلم برقم (٢٤٩٤). وقوله: «ما نسيتُ شيئاً» المعنى أنّ أبا هريرة لم ينسَ أي شيء من الحديثِ وغيره. وفي هذا الحديث والذي قبله فضيلة ظاهرة لأبي هريرة رضي الله عنه، ومعجزة واضحة من علامات النّبوة؛ لأنّ النِّسيان من لوازم الإنسان، وقد اعترفَ أبو هريرة أنّه كان يكثر منه، ثم تخلّف عنه ببركةِ النّبي ﷺ. في الحديث أيضاً: الحثّ على حفظِ العِلْم.

(٢) المستدرك (٣/ ٥٨٢). وحدَّث أبو الزعيزعة كاتب مروان بن الحكم: «أنّ مروان دعا أبا هريرة فأقعدني خلفَ السّرير وجعلَ يسألهُ، وجعلتُ أكتبُ، حتّى إذا كان عند رأس الحول، دعا به، فأقعده وراء الحجاب، فجعلَ يسأله عن ذلك، فما زادَ ولا نقص، ولا قدَّمَ ولا أخر» (المستدرك ٣/ ٥٨٣)، و(سير أعلام النّبلاء (٢/ ٥٩٨)، قال الذهبي معلقاً على هذا الخبر: «هكذا فليكن الحفظ».

(٣) انظر تهذيب التهذيب (١٢/ ٢٩٠).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٥٩).

قديماً وحديثاً بحديثه ، لحفظهِ وجلالتِهِ وإتقانِهِ وفقههِ ، وناهيكَ أنَّ مثلَ ابن عبّاس يتأدَّب معه ، ويقولُ: أَفْتِ يا أبا هُريرة . .»[1] . وقال الذهبيُّ أيضاً: «وأينَ مثل أبي هريرةَ في حفظِهِ وسَعَةِ علمِهِ»[2] . وقال: «وكانَ حفْظُ أبي هريرةَ الخارق من معجزاتِ النّبوّةِ» وقال أيضاً بعد أنْ أوردَ قصّةً عجيبةً: «وأبو هريرةَ إليه المنتهىٰ في حفظِ ما سمعه من الرّسولِ عليهِ السَّلام وأدائه بحروفه»[3] . وقال: «وقد كان أبو هريرة وثيق الحفظ ، ما علمنا أنه أخطأ في حديث»[4] .

* وعن أبي صالح السَّمّان قال: «أبو هريرة لم يكن بأفضلهم ـ أي الصَّحابة ـ ولكنّه كان رجُلاً حافظاً»[5] .

* وقال الحسنُ البصري: «كان أبو هريرةَ من أحسنِ القوم كلاماً» ـ يعني عندما يحدِّث ـ.

* وقال ابنُ كثير: «كان أبو هُريرةَ من حُفَّاظِ الصَّحابةِ»[6] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ٦٠٩).

(٢) المصدر السابق عينه.

(٣) سير أعلام النُّبلاء (٢/ ٦١٩). وأمّا القصّةُ العجيبةُ فهي قصّةُ الحيّةِ ، وقد أوردَها الذّهبيُّ في السِّيرِ والتّاريخ؛ عن أبي الطّيب الطّبري قال: «كنّا في مجلسِ النَّظرِ بجامعِ المنصور ، فجاء شاب خراساني ، فسأل عن مسألةِ المُصَرَّاة ـ المصراةُ النَّاقةُ أو البقرةُ أو الشّاةُ التي يحبِسُ البائع لبنها في ضرعها أياماً ليظنَ المشتري أنها كثيرةُ اللبن فيزيد ثمنها ـ ، فطالبَ بالدليلِ ، حتى استدلّ بحديث أبي هريرة الواردِ فيها ، فقال ـ وكان حنفياً ـ: أبو هريرة غير مقبول الحديث. فما استتمَّ كلامه ، حتّى سقطَ عليهِ حيّةٌ عظيمةٌ من سقفِ الجامعِ ، فوثبَ النّاسُ من أجلها ، وهربَ الشّاب منها ، وهي تتبعُهُ.
فقيل له: تُبْ تُبْ ، فقال: «تُبتُ ، فغابتِ الحيّةُ ، فلم يُرَ لها أثر». (سير أعلام النبلاء (٢/ ٦١٨ و٦١٩) وقال الذهبي: «إسنادها أئمة».

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٢١).

(٥) البداية والنهاية (٨/ ١٠٦) ، وجاء في «السير» عن أبي صالح السّمّان قال: «كان أبو هريرة من أحفظِ الصّحابةِ» (سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٩٧).

(٦) البداية والنّهاية (٨/ ١٠٣) ، وقال ابنُ كثير أيضاً: «وقد كان أبو هريرةَ من الصّدقِ والحفظِ والدّيانةِ والعبادةِ والزّهادةِ والعملِ الصّالح على جانبِ عظيم». (البداية والنّهاية ٨/ ١١٠).

حَافِـظُ الصَّحَابَـةِ الأَوَّلِ:

* أبو هُريرةَ رضي الله عنه واحدٌ من علماءِ الصَّحابةِ المشاهير ، وأحدُ كبارِ أئمةِ الصَّحابةِ في روايةِ الحديثِ النّبويّ وحفظه ، وهو بذلك يتبوأُ مكانَ الصَّدراةِ بين الصَّحابةِ في هذا الميدانِ الذي اشتُهِرَ به ، وعرف بأنَّهُ محدِّثُ الصَّحابةِ الأوَّلِ والأكبرِ.

* وقد باركَ اللهُ عزَّ وجلَّ في علمِ أبي هُريرةَ وحفظِهِ ، ورزقَهُ اللهُ عِلماً لا يُنْسَى بدعاءٍ لطيفٍ من النَّبي ﷺ ، فكان حافظاً ضابطاً ما أخطأَ في حديثٍ ، وهذا كلُّهُ بفَضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومن معجزاتِ النُّبوّةِ في أبي هُريرة رضي الله عنه.

* وتذكرُ المصادرُ الموثوقةُ أنَّ أبا هريرةَ أخذَ الحديثَ عن الحبيبِ المصطفى ﷺ ، وعن أكابرِ أصحابهِ الكرام.

* قال عنه الذَّهبيُّ: «.. أبو هريرةَ الدَّوسيُّ اليمانيُّ ، سيّدُ الحفّاظِ الأثبات.. حَمَلَ عن النَّبيِّ ﷺ علْماً كثيراً طيّباً مباركاً فيه ، لم يُلْحَقْ في كثْرتهِ. وروى عن أبي بكر ، وعمر ، وأبيٍّ ، وأسامةَ ، وعائشةَ وغيرِهم من جلّةِ عُلماء الصَّحابةِ وأكابرهم»[1].

* قال الإمامُ البخاريُّ رحمه الله: «روىٰ عن أبي هريرة أكثر من ثمانِ مئة رجلٍ من صاحبٍ وتَابعٍ»[2].

* وممن رَوىٰ عنه من علماء الصَّحابةِ وأكابرهم أسيادُنا: أُبيُّ بن كعب ، وأنسُ بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وزيدُ بنُ ثابت ، وأبو موسى الأشعريّ ، وهؤلاء من الأنصارِ.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٧٨ و٥٧٩) بشيءٍ من التصرف.
(٢) أسد الغابة (٥/ ٣٢١).

* وروىٰ عنه من علماءِ العبادلة: عبدُ اللهِ بنُ عبّاس ، وعبدُ اللهِ بنُ عمر ، وعبدُ اللهِ بنُ الزُّبير، ومن النِّساءِ العالماتِ: أمّنا عائشةُ رضي الله عنها وأرضاها وهؤلاء من المُهاجرين ، وجميعُهم مذكورون في هذا الكتاب المبارك إنْ شاء الله ، ما عدا أمنا عائشة ، فقد ترجمت لها في كتابي «نساء أهل البيت».

* كما روىٰ عنه صحابة آخرون منهم: أبو أيّوب الأنصاريّ ، وأبو أمامة سهل بن حُنيف ، والمِسورُ بن مخرمة وآخرون.

* وحدَّثَ عَنْهُ من التّابعين وعلمائهم عددٌ لا يُحصىٰ ومنهم: سعيدُ بن أبي سعيد المَقْبُري ، والشَّعبيُّ ، وطاووس ، وسليمانُ بن يسار ، وعطاءُ بنُ أبي رباح ، ومجاهدُ بنُ جبير ، وأبو سلمةَ بن عبد الرحمن؛ وآخرونَ؛ ومن النساء: كريمة بنتُ الحسحاس ، وأمّ الدرداء الصغرى[1].

* بعد أن عرفْنَا كثرةَ الرّاوين عن أبي هُريرَةَ ، لن نستغربَ كثرة روايته عن النّبي ﷺ وعن أصحابهِ الكرامِ، ولذا فقد كان محلَّ عنايةِ المسلمين واحترامهم قديماً وحديثاً، فهو أكثَرُ الصَّحابةِ روايةً عن سيّدنا رسول الله ﷺ.

* بلغ مجموعُ ما رواهُ سيّدنا أبو هريرةَ رضي الله عنه (٥٣٧٤ حديثاً) قال أهلُ العِلْمِ: «مسندهُ: خمسةُ آلافِ وثلاث مئة وأربعة وسبعون حديثاً. المتَّفقُ في البخاري ومسلم منها (٢٣٦ حديثاً) ، وانفردَ البُخاري بـ (٩٣) ، ومسلم بـ (١٩٠ حديثا) ، فيكونُ مجموعُ حديثهِ في الصَّحيحين (٦٠٩ أحاديث) والله أعلم»[2].

* وقد أخرجَ حديث أبي هريرة أئمةُ الحفَّاظ وأعلامهم ، فأخرج له: الشَّيخان: البخاريُّ ومسلمٌ، وأصحابُ السُّنن والموطأ؛ وأصحابُ المسانيد،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٧٩ ـ ٥٨٥) ، وأسد الغابة (٥/ ٣٢١) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص ٣٤٨ و٣٤٩) ، والبداية والنهاية (٨/ ١٠٣) مع الجمع والتصرف. وهناك كتب متخصصة في هذا المجال فيمن روىٰ عن أبي هُريرة مع تراجمهم.

(٢) انظر على سبيل المثال: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٦٢٣) ، وأبو هريرة (ص ١٧٢ و١٧٣) ، والرياض المتسطابة ص ٢٧١).

والمعاجمُ ، والمصنَّفاتُ ، بل إنّهُ ما من كتابٍ معتمدٍ في الحديث النّبوي الشَّريفِ إلا نجدُ فيهِ بعضَ الأحاديثِ عن هذا الصَّحابي الحافظِ الأوّلِ بين جمهورِ الصَّحابةِ وعلمائِهم[1].

* ومن اللافتِ للنَّظَر أنَّ مرويّاتِ أبي هريرة قد تضمّنت جُلَّ أبوابِ الفقهِ والعِلْمِ ، فقد تناولتِ العقائدَ والعباداتِ ، والمعاملاتِ ، والجهادَ ، والسِّيَرَ ، والمناقبَ ، والتَّفسيرَ ، والذّكرَ ، والتّسبيحَ وغيرَها.

* ونظرةٌ واحدةٌ في «صحيح البخاري» يتبيّنُ لنا مصداق ما ذكرناه ، ويتبيّنُ لنا مقدار أبي هُريرة العِلْميّ والحديثيّ فقد جاءت أحاديثهُ في البُخاري في الكتبِ الآتية: «كتاب الرّقاق، المزارعة، الإيمان، الشَّهادات ، الوصايا ، الأدَب ، الاستئذان ، النَّفقات ، العِلْم ، المناقب ، الوضوء ، المحاربين ، الأحكام ، التّفسير ، الطّلاق ، المغازي ، الصَّوم ، الوضوء ، الأنبياء ، الحدود ، الأشربة ، اللباس ، الجهاد والسِّير ، مواقيت الصَّلاة ، البيوع ، الطّبّ ، الجزية والموادعة ، القدر ، التّوحيد ، السَّهو ، العتق ، الأطعمة ، العمل في الصّلاة ، بدء الخلق ، التّعبير ، الجمعة ، صفة الصّلاة ، تقصير الصَّلاة ، الدّعوات ، النّكاح ، الحيل ، الأذان، الأيمان والنّذور، الخمس، فضائل المدينة ، الحجّ ، الخصومات، الجنائز ، أخبار الآحاد ، الهبة ، الدّيَات ، الغسل ، اللّقطة ، الوكالة ، الاعتصام ، الاستسقاء ، الإكراه ، الفرائض ، الزّكاة ، الاستقراض ، الشّروط ، الكفالة ، كفّارات الأيمان ، العُمرة ، الرّهن ، الفتن ، سجود القرآن ، المرضى والطّبّ ، العدّة ، الإجارة ، الذّبائح والصّيد ، فضل ليلة القدر ، صلاة التّراويح ، فضائل القرآن ، استتابة المرتدين».

* أمّا أصحّ الطُّرق والأسانيد عن أبي هريرة رضي الله عنه فكما ذكرَ الذَّهبيُّ قال: «وأصحّ الأحاديث ما جاء عن الزُّهري ، عن سعيد بن المسيّب ، عن أبي هريرة.

---

(١) أبو هريرة (ص ١٧١) بتصرف.

وما جاء عن أبي الزّناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرةَ. وما جاء عن ابن عون ، وأيّوب ، عن محمّد بن سيرين ، عن أبي هريرة»[1] ثم قال الذّهبيّ بعد هذا مباشرة: «وأين مثل أبي هريرة في حفظه وسَعَة علمه»[1].

* إنَّ ما حفظَهُ أبو هريرةَ من الحديثِ الكثير المبارك عن الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ ، أتقنَهُ ووعاه ، وضبطَه ضَبْطاً سليماً صحيحاً ، وجَوَّدَهُ إجادةً تامّةً ، ومن هُنا أقرّ له علماءُ الصَّحابةِ وفقهاؤُهم وأكابرهُمْ بأنَّهُ قد سمعَ من صاحبِ الحجرةِ الصَّادق المصدوق ﷺ ما لم يسمعوا ، ووعَىٰ ما لم يَعُوا ، وحفظَ ما لم يحفظُوا، فقد ثبتَ أنَّ بعضَهم قد اعترضَ عليهِ في إكثاره، فأخبره أنْ ليس له ذنب إذا حفظَ هو ونَسُوا هم ، ثمّ إنَّهُ أوضحَ لبعضهم سبب كثرةِ حديثه وغزارةِ ما يحفظهُ ، وذكّرهم بما لا يخفى عليهم ممّا علموه أو عاينوه.

* من أمثلة ذلك ما أخرجه البخاريُّ بسندهِ عن ابنِ أبي ذئب عن سعيد المَقْبُري قال: قال أبو هريرةَ رضي الله عنه: «يقولُ النَّاسُ: أكثَرَ أبو هريرةَ ، فلقيتُ رَجلاً فقلتُ: بِمَ قرأ رسولُ اللهِ ﷺ البارحةَ في العَتمَةِ؟

فقال: لا أدري.

فقلت: لمْ تشهدها.

قال: بلى.

قلت: لكن أنا أدري ، قرأ كذا وكذا»[2].

* قال ابنُ حَجْرٍ رحمهُ الله في شرحهِ وتعليقهِ على هذا الحديثِ اللطيف: قوله: (يقولُ النَّاسُ أكثَرَ أبو هريرة): فيهِ الإشارة إلى سببِ إكثاره ، وأنَّ المهاجرين والأنصار كانوا يشغلهم المعاش ، وهذا يدلُّ على أنَّهُ كان يقول هذه المقالة أمام ما يريدُ أنْ يحدّثَ به ، ممّا يدلُّ على صحّةِ إكثارهِ ، وعلى

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٠٩).
(٢) أخرجه البخاري برقم (١٢٢٣) ، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٦٣).

السَّبب في ذلك ، وعلى سببِ استمراره في التّحديث»[1].

* وقال ابن حجر أيضاً: «وفي هذه القصَّة إشارةٌ إلى سببِ إكثارِ أبي هريرة وشدّةِ إتقانه وضبطِهِ ، بخلافِ غيرِهِ ، وشاهد التّرجمة دلالة الحديث على عدمِ ضبط ذلك الرّجل ، كأنَّهُ اشتغل بغير أمرِ الصَّلاة حتّى نسي السُّورة التي قُرئت ، أو دلالته على ضبطِ أبي هريرة كأنّه شغل فكره بأفعالِ الصَّلاة حتّى ضبطها وأتقنَها»[1].

* وفي «الإصابة» قال ابن حجر أيضاً: «وقد أجمعَ أهلُ الحديثِ على أنَّه أكثر الصَّحابةِ حديثاً ، وذكر أبو محمّد بن حزم أنَّ مسند بَقِي بن مَخْلَد احتوى من حديث أبي هريرة على خمسةِ آلاف وثلاث مئة حديث وكَسْر»[2].

* وفي «مستدركه» أخرجَ الحاكمُ عن أبي بكر محمّد بن إسحاق الإمام ـ ابن خزيمة ـ يقول: ذكر أبا هريرةَ فقال: «كان من أكثرِ أصحابهِ ﷺ روايةً فيما انتشرَ من روايته ، ورواية غيره من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ مع مَخَارِجِ صِحَاح»[3].

* ومن الجدير بالذِّكرِ ها هنا أنّني لم أورد بعضَ نماذج من مروياتِ سيِّدنا أبي هريرة من كتبِ الحديث ، لأنّ كثيراً من أحاديثهِ قد مرّتْ معنا في ترجمته ، وسيمرُّ معنا إنْ شاء اللهُ أحاديث أخرى. وهذا يعني أنّنا نستجلي شخصيّة أبا هريرة الموسوعيّة من خلالِ أحاديثهِ المتنوعةِ في معظمِ المجالات في أمورِ الدِّين.

* ونعتقدُ أنَّ لقبَ «موسوعة الأحاديث النبوية المتحركة» ينطبقُ على أبي هريرة العالِم العَيْلَم[4] ، والحافظِ المتثبّت[5] ، والفقيهِ المفتي ،

---

(١) فتح الباري (٣/ ١١٠) طبعة المكتبة السلفية الرابعة بالقاهرة (١٤٠٨ هـ).
(٢) الإصابة (٤/ ٢٠٢).
(٣) المستدرك (٣/ ٥٨٦).
(٤) «العيلم» البحر.
(٥) ويمكن أن نسميه «الموسوعة الفقهية المتحركة».

والمحبِّ الصّادق للصَّادق المصدوق سيّدنا رسول الله ﷺ ، فأكرمْ به! وأعظم به! وارضَ اللهم عنه وأرضهِ واحشُرنا في معيّته.

المُعَلِّـمُ لِلصَّحَابَـةِ والتّـابعين:

* أبو هُرَيرَةَ رضي الله عنهُ مُحَبٌّ محبوبٌ ، باركَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في علْمهِ ، فأخذ يَعْمَلُ على نَشْرِهِ ، ولا يكتُم النَّاسَ ممّا حباهُ اللهُ من هذا الخيرِ العميمِ.

* فقد جلسَ للنّاس في المسجدِ النّبوي الشّريف يعلّمهم ويفقّههم ، وكان يتشرف ويتبرك في الجلوسِ على منبرِ الصَّادقِ المصدوق الحبيبِ المصطفى ﷺ يحدِّثُ النَّاسَ ، وعلماءُ الصَّحابةِ ومشاهيرهم مصغُون له ، مجمِعُونَ على صحَّةِ ما يحدّثُ ويُفتي ، ويعلِّمُ ، وكذلكَ علماء التّابعين وفقهاؤهم.

* وكان عندما يُنهي مجلسهُ العلميّ من المسجدِ النَّبويّ ، يعلّمُ النّاس في بيتهِ ، ويعلّمُ الذين رحلُوا إليهِ من كلّ فجٍّ عميق طلباً للأخذ عنه ، وبالتّالي صار بيتهُ مركزاً جامعيّاً عِلْمياً ، ومدرسةً كبرى تخرَّج فيها أكابرُ العُلماء ، ومشاهيرُ الفقهاء ، وأعلامُ المحدِّثين ، ممّن أناروا طُرقَ العِلْم لمن بعدهم من الأتباع في جميعِ الأصقاع ، فنشأت كوكبةٌ من علماء التّابعين[1] تفخرُ بهم أممُ الأرضِ جميعاً بما قدّموه للنّاسِ من جليلِ العُلوم ، ولطيف المعارف.

* ولم يكتفِ سيدنا أبو هريرةَ بإبلاغهِ النَّاسَ الحديثَ في المسجدِ النَّبويّ ، أو في بيتهِ بالمدينةِ المنوّرةِ ، وإنّما نَشَرَ علْمَه في مجالسِ النّاس ، وأنديتهم ، ومكانِ تجمّعِهم ، بل إنَّهُ كان يهتبلُ وَقتَ طَوافِ النَّاس حولَ الكعبةِ المشرفةِ في المواسمِ ويحدثهم ، وكثيراً ما كانوا يلقونه في البقيع فيأخذُ في الحديثِ والعلمِ ، فيرشدُ ، ويقوّمُ ، ويهذّبُ ، ويصحّحُ ، ويوجّهُ ، ويجيبُ عن المسائل الفقهيّةِ ، ويفهِّمُ العام والخاص.

* ومن المُفيد في شخصيّةِ أبي هريرة العلميّةِ الغنيةِ أنَّه حدَّثَ في أمِّ

---

(١) سنقوم بعون الله ومدده وفضله بإصدار موسوعة تحت عنوان «علماء التابعين» وستصدر عن دار اليمامة الغراء بدمشق بوقت غير بعيد بإذن الله الحميد المجيد.

القُرى ، وفي طيبةَ الطَّيبةِ مدينةِ رسول الله ﷺ ، وفي الشَّام ، وفي البحرين ، وفي العراقِ ، واجتمعَ في مجالسهِ بتلكَ البلاد محبّو العلْم وطالبو الحديث ، أَضِفْ إلى ذلكَ أنَّ الحكّامَ والأمراءَ والأعيانَ قد حضروا مجلسَهُ العِلْميّ ، واستفادَ منه أهلُ الأمصارِ قرابةَ نصف قرنٍ من الزَّمان ، وكانوا ينهلون من هذا الينبوعِ الغزير الذي نهلَ من بحار النّبوّة ما روىٰ القلوبَ وشفى الأسماعَ ، وعطّرَ المجالِسَ ، وآنَسَ المُجالِسَ.

* وكانَ شعارُ سيّدنا أبي هُريرةَ في التَّصدّر لنشرِ العِلم ما جاء عنه عن رسولِ اللهِ ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عن علمٍ فكتمَهُ ، أُلجمَ بلجامٍ من نارٍ يومَ القيامة»(١).

* قال ابن عساكر: «وكان أبو هريرة من أحفظِ أصحابِ رسول الله ﷺ ، وألزمهم له.. وكان من أحفظِ الصَّحابةِ لأخبارِ رسول الله ﷺ وآثاره.. وكانَ أبو هريرة إذا مرَّ بالسُّوقِ قال: أيّها النَّاسُ ، مَنْ عَرَفني فقد عرفَني ، ومن لم يعرفني فأنا أبو هريرة ، أيّها النّاس ، إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كذبَ عليَّ متعمّداً فليتبوأْ مقعدَهُ من النَّار». فدعوا أبا هريرةَ يتبوأ مقعده من النار ، إن هو كذبَ على رسولِ اللهِ ﷺ»(٢).

* وأخرجَ أحمدُ عن عاصم بن كُليب الجَرمي قال: حدثني أبي قال: «سمعتُ أبا هريرة يقول ، وكان يبتدئ حديثهُ بأنْ يقول: قال رسول الله ﷺ أبو القاسم الصَّادق المصدوق: «مَنْ كَذَبَ عليَّ متعمِّداً ، فليتبوأ مقعده من النّار»(٣).

* وفي مسيرةِ تحديثِ أبي هُريرة النّاس في عصرِ الخِلافةِ الراشدة الميمون ، نجدُ علماءَ الصَّحابةِ والتَّابعين يعترفون بحفظِهِ وفضلهِ عليهم ،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٨٢) برقم (٧٥٧٤) ، وانظر الأحاديث (٤٩٤٨ ، ٨٥٤١ ، ٨٠٥٥ ، ٨٦٤٦ ، ١٠٤٢٥). وانظر تفسير ابن عطية ص ١٤٨.

(٢) انظر مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ١٨٠) ، (٢٩/ ١٩٣) بشيء من الاختصار والتصرّف.

(٣) أخرجه أحمد بهذا اللفظ (٣/ ٣٨٩) حديث رقم (٩٣٦١).

فيأخذون عنه وهم معجبون بما أكرمه اللهُ من هذا العِلْمِ الكريم.

* أخرج الحاكمُ في «مستدركهِ» عن عاصم بن محمّد، عن أبيهِ، قال: «رأيتُ أبا هُريرةَ رضي الله عنه يخرجُ يومَ الجُمعةِ، فيقبضُ على رمّانتي المنبر قائماً ويقول: «حدّثنا أبو القاسم، رسولُ الله، الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ، فلا يزالُ يحدّث، حتّى إذا سمعَ فَتْحَ بابِ المقصورةِ لخروجِ الإمام للصّلاةِ جلس»[1].

* وجاء في «المسند» عن همّام بنِ منبّه قال: «قدمتُ المدينةَ فرأيتُ حَلْقَةً عند منبرِ النَّبيّ ﷺ، فسألتُ، فقيل لي: أبو هريرة.

قال: فسلّمتُ، فقال لي: ممّن أَنْتَ؟

قلتُ: مِنْ أهلِ اليَمَن.

فقال: سمعتُ حِبّي، أو قال: سمعتُ أبا القاسم ﷺ يقول: «الإيمانُ يَمَانٍ، والحكمةُ يَمانيّةٌ، وهم أرقُّ قلوباً، والجفاءُ في الفَدَّادِينَ، أصحابُ الوَبَر»، وأشارَ بيدهِ نحو المشرق»[2] هذا ما جاء عن أكابرِ علماء التَّابعين.

* وأمّا أكابرُ علماءِ الصّحابة فكانوا يجلسُون إلى أبي هريرةَ الذي كان يحرصُ على تعليمهم ما لم يسمعوه من الحبيبِ المصطفى ﷺ، وقد روىٰ عنه سيّدنا المضيافُ الكريمُ أبو أيوب الأنصاريّ رضوان الله عليه مع جلالة قَدْرِه، ورجاحةِ عِلْمِهِ وفقههِ، ونزول النَّبيّ ﷺ، ولا عيبَ في هذا الأمر، ولا غرابةَ، فقد روى أشعث بن أبي الشَّعثاء قال: سمعتُ أبي يحدّثُ قال:

---

(١) المستدرك (٣/ ٥٨٦) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه» وقال الحاكم: «قد تحرّيتُ الابتداء من فضائلِ أبي هريرة رضي اللهُ عنه لحفظه لحديث المصطفى ﷺ وشهادة الصَّحابةِ والتّابعين بذلك، فإنَّ كلَّ من طلبَ حفظَ الحديث من أوّلِ الإسلام وإلى عصرنا هذا، فإنهم من أتباعه وشيعته، إن هو أوّلهم وأحقّهم باسم الحفظ» (المستدرك ٣/ ٥٨٦).

(٢) المسند (٣/ ٧٠) حديث رقم (٧٥٠٨). ومعنى «الفدّادين» الفدّادون: الذين تعلو أصواتهم في حروثهم ومواشيهم، واحدهم: فدّاد، وقيل: هم المكثرون من الإبل، وقيل: هم الجمّالون والبقّارون والحمّارون والرّعيان.

«قدمتُ المدينَةَ ، فإذا أبو أيوب يحدثُ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، فقلت: تحدِّثُ عن أبي هُريرةَ ، وأنتَ صاحبُ منزلةٍ عند رسولِ اللهِ ﷺ؟ فقال: لأنْ أحدِّثَ عن أبي هريرةَ أحبُّ إليَّ من أنْ أحدِّثَ عَن النَّبي ﷺ»[١].

* وهذا عالمٌ عَيْلَمٌ من علماءِ الصَّحابةِ يُعلِّمه أبو هُريرةَ ويحدّثه بأخبار الهدي النَّبويّ التي ينبغي على كلِّ مسلم أن يتبعهَا في كلّ يوم. لنسمعْ من أبي الزُّبير المكّيّ إذ يقول: «أخبرني جابرُ بنُ عبد اللهِ رضي الله عنه ، أنَّ أبا هُريرةَ رضيَ اللهُ عَنْهُ أخبره ، وأنّ النَّبيّ ﷺ قال: «إذا استيقظَ أحدكم من منامه ، فَلْيُفْرِغْ على يديهِ ثلاثَ مرَّات قبل أنْ يدخلَهما في الإناءِ ، فإنَّهُ لا يدري فيمَ باتَتْ يَدُهُ»[٢].

* وذكروا أنَّ رجُلاً جاءَ إلىٰ فَرضِيِّ الصَّحابةِ زيدِ بنِ ثابت رضي اللهُ عَنْهُ ، فسألَهُ عن شيء ، فأحالَهُ سيّدنا زيدٌ إلى حافظِ الحُفَّاظِ وقال: «عليكَ بأبي هُريرةَ . . »[٣].

* وما ظنّكَ بأميرِ المفسّرين ، وحبرِ الأمّة وبحرِها سيّدنا عبد الله بن عبّاس يروي عن أبي هريرة؟ وابن عبّاس يروي حديث أبي هريرة لمن يقصدون مجلسَه طلباً للحديث والتّفسير؟! حَسَناً أمامنا الدّليل من صحيحِ البخاري إذ أخرجَ بسندهِ عن معمر عن عبدِ اللهِ بن طاووس عن أبيه عن عبد الله بن عبّاس قال: «ما رأيتُ شيئاً أشبهَ باللمم ممّا قال أبو هُريرة عن النّبيّ ﷺ: «إنَّ اللهَ كتبَ على ابنِ آدم حظَّهُ من الزِّنىٰ أدركَ ذلكَ لا مَحَالَةَ: فزنى العين النّظر ، وزنى اللسان المنطق ، والنّفس تتمنّىٰ وتشتهي ، والفَرْجُ يُصدِّقُ ذلك كلّه ويكذّبه»[٤].

---

(١) المستدرك (٣/ ٥٨٦) ، ومجمع الزوائد (٩/ ٣٦٢)، وعزاه للطّبراني، ومعنى قول أبي أيوب «أحبّ أليّ من أن أحدّث عن النبيﷺ»: أحب أن أحدث عن أبي هريرة ما لم أسمع من النبي ﷺ».

(٢) المسند (٣/ ٣٦٩) حديث رقم (٩٢٤٩).

(٣) المستدرك (٣/ ٥٨٢) وهو قطعة من حديث طويل. وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٠٠).

(٤) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في الاستئذان برقم (٦٢٤٣) ، وأخرجهُ في القدر برقم =

* وهذا الصّحابي الجليلُ خادمُ النَّبيِّ ﷺ وصاحبُه العالمُ الحافظُ المُكثرُ أنسُ بنُ مالكٍ أحدُ علماء الصّحابةِ الأنصار يروي عن سيِّد الحُفَّاظ الأثباتِ أبي هُريرةَ رضي الله عنه؛ وأنس كما نعلم هو الإمامُ المفتي، المقرئ، المحدّث، راويةُ الإسلام، خادمُ الصّادقِ المصدوقِ صاحبِ الحجرةِ حبيبُنا محمدٌ ﷺ، وتلميذهُ، وتَبَعُهُ، وقرابتُهُ من النّساء، وآخرُ أصحابه موتاً، وأحسنُ النّاس صلاةً في الحَضرِ والسَّفَرِ، وعلى الرّغمِ من هذهِ المناقب

= (٦٦١٢)، ومسلم في القدر برقم (٢٦٥٧)، وابن حبان برقم (٤٤٢٠)، وأحمد (٣/ ٦٢٢) حديث رقم (١٠٨٣١).

ومعنى «اللّمَمْ»: هو ما يلمّ به الشّخص من شهوات النَّفسِ، وقيل هو مفارقة الذّنوب الصّغار، وقال الرّاعب الأصفهاني: «اللمُم مقارفةُ المعصية ويعبَّرُ به عن الصّغيرة».

ومحصّل كلام ابن عبّاس: تخصيصه ببعضها، ويحتمل أن يكونَ أرادَ أنْ يكون ذلك من جملة اللمم، أو في حكم اللمم، قوله: «إنَّ الله كتبَ على ابنِ آدم»: أي قدّر ذلك عليه، أوأمر المَلك بكتابته. وقوله: «أدركَ ذلك لا محالة»: أي: لا بدّ له من عملٍ ما قدر عليه أنّه يعمله. وقوله: «حظّه من الزّنى» إطلاق الزّنى على اللمس والنّظر وغيرهما بطريق المجاز، لأنّ كلّ ذلك من مقدماته.

وقال الإمام النَّووي رحمه الله في شرح هذا الحديثِ الشَّريف: «معنى الحديث أنَّ ابنَ آدمَ قُدّرَ عليه نصيبٌ من الزّنى، فمنهم من يكون زِناهُ حقيقياً بإدخالِ الفرجِ في الفرجِ الحرام، ومنهم من يكون زناه مجازاً بالنَّظر الحرام، أو الاستماعِ إلَى الزّنى، وما يتعلّقُ بتحصيلهِ، أو بالمسّ باليد، بأن يمسَّ أجنبية بيده، أو يقبّلهَا، أو بالمشي بالرِّجل إلىٰ الزنى، أو النَّظر، أو اللمس، أو الحديث الحرام مع أجنبية، ونحو ذلك، أو بالفكر بالقلب، فكلّ هذه أنواع من الزّنى المجازي. «والفرج يصدّقُ ذلك كلّه أو يكذّبه» معناه: أنّه قد يحقق الزّنى بالفرج، وقد لا يحقّقه بأن لا يولج الفرج في الفرج، وإن قارَبَ ذلكَ. والله أعلم.

وأما قول ابن عباس: «ما رأيتُ شيئاً أشبه باللمم...» فمعناه: تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢] ومعنى الآية والله أعلم: الذين يجتنبون المعاصي غير اللمم يغفر لهم اللمم، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] فمعنى الآيتين: أنَّ اجتنابَ الكبائر يسقط الصَّغائر، وهي اللمم، وفسّره ابن عباس بما في هذا الحديث من النظر واللمس ونحوهما.. وأصل اللمم والإلمام: الميل إلى الشّيء وطلبه من غير مداومة. والله أعلم. (المنهاج ص ١٨٨٠).

كلّها، فإنّه يقعدُ في حلقةِ سيّدنا أبي هُريرةَ ليسمعَ منه حديثاً في فضلِ الذّكرِ، والدّعاءِ، والتّقرّب إلى اللهِ عزَّ وجلَّ.

* فإلى المائدةِ الحديثةِ الأَنَسِيَّةِ الهُرَيْرِيّةِ نغذّي الأرواحَ والقُلوبَ من رحيقها المعطَاء، فعن سُلَيمان التّمْيميِّ، عن أنسِ بنِ مالك، عن أبي هُريرةَ، عن النَّبيّ ﷺ قال: قال اللهُ عزّ وجلّ: إذا تقرَّبَ عبدي منّي شبراً، تقرَّبْتُ منهُ ذراعاً، وإذا تقرَّبَ منِّي ذراعاً، تقرّبتُ منه باعاً، ـ أو بُوعاً ـ، إذا أتاني يمشي أتيتهُ هَرْولةً»[1].

* ولم يتوقّفْ علمُ أبي هُريرةَ وتعليمَه عند هذا الحدِّ، وإنَّما حدَّثَ بحضورِ سيّدنا عُمرَ بنِ الخطّاب رضي اللهُ عنه، بل كان عمرُ نفسُهُ يستثيرُ ما عندَ أبي هُريرَة من العِلْمِ لمعرفتهِ بجودةِ حفظِه وذكائه.

* من ذلكَ ما أخرجَهُ الإمامُ أحمد بسنده عن يزيد الأصمّ عن أبي هُريرةَ قال: «قال رسولُ الله ﷺ: «تظهرُ الفِتنُ، ويكثرُ الهَرْجُ، ويُرفَعُ العِلْمُ». فلمّا سمعَ عمرُ أبا هُريرةَ يقولُ: «يُرفَعُ العِلْم»، قال عمرُ: أَمَا إِنَّهُ ليس يُنْزَعُ من صدورِ العُلماءِ، ولكن يذهبُ العُلماءُ»[2].

* ومرَّةً أخرى يقفُ عمرُ ليسألَ عن المستوشمةِ حينما أُتي بامرأةٍ تَشِمُ، وعندها قام عمرُ فقال: «أنشدُكُمْ باللهِ مَنْ سمعَ منَ النَّبيِّ ﷺ في الوشْمِ؟ فيقومُ أبو هُريرةَ من بين الصّحابةِ ويقول: سمعتُ من النّبيّ ﷺ يقول: «لا تَشِمْنَ ولا تَسْتَوْشِمْنَ»[3].

---

(١) أخرجه مسلم بهذا اللفظ برقم (٢٦٧٥/ ٢٠)، والبخاري برقم (٧٥٣٧)، وابن حبان برقم (٣٧٦). ومعنىٰ «باع» الباع والبوع: طول ذراعي الإنسان وعضديه وعرض صدره، والمعنى هنا مجاز.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٥٢٦) حديث رقم (١٠٢٣٥).

(٣) أخرجه البخاري في اللباس برقم (٥٩٤٦). وقوله: «أنشدكم الله» يحتمل أن يكون عمرُ سمعَ الزَّجْر عن ذلك فأرادَ أَنْ يتأكد وأن يسمعه ممن سمعه عن النّبي ﷺ. وقوله: «ولا تستوشمن»: لا تطلبن الوشم. قال ابن حجر: «وفائدةُ ذِكْرِ أبي هُريرةَ قصةَ عمر،

* وكان أبو هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يحدّثُ أينما حَلَّ ، وترىٰ علماءَ الأمصارِ يتحلّقونَ حوله حيثما حلَّ ، يزدحمون وهم يعلمون أنّهم سيتلقون علماً نافعاً وخَبَراً يقيناً ممّن شهدَ الأنوارَ المُحمديّة وعاينَها ، وحظِيَ بدُعاءٍ مُبارك من النّبيِّ ﷺ بأنْ يكونَ وعاءً للعِلْمِ.

* فقد ذكرَ التّابعيُّ الجليلُ محمّدُ بنُ سيرينَ «أنَّ أبا هُريرةَ كان يقومُ كلَّ خميسٍ فيحدّثهم»[1].

* وكانت لأبي هُريرة جلساتٌ مباركةٌ في بعضِ مساجدِ الأنصارِ ، فقد ذكرَ أحدُ تلامذتهُ وهو سعيدُ بنُ سمعان قال: «أتانا أبو هُريرةَ في مسجدِ بني زُرَيْق . . »[2]. ثمّ يحدثهم أبو هُريرةَ عن النَّبي ﷺ.

* وذكرَ مكحولٌ قال: «تواعدَ النَّاس ليلةً من الليالي قبة من قبابِ معاويةَ رضي الله عنه ، فقام فيهم أبو هريرة يحدّثهم عن رسول الله ﷺ حتّى أصبحوا»[3].

* وكان أبو هريرة يتّخذُ من بيوتِ التَّابعين العلماء مكاناً لِنَشْرِ العِلْمِ وتعليم المُتَعلّمينَ حديثَ رسولِ اللهِ ﷺ ، فقد حدَّثَ في بيت أمِّ الدّرداءِ التّابعيّة المشهورة ، فقد روى إسماعيلُ بنُ عُبيد اللهِ عن كريمةَ بنةِ الحَسحَاسِ المُزْنيّة أنّها حدَّثَتْهُ قالت: «حدَّثَنا أبو هُريرةَ رضي الله عنه ونحنُ في بيتِ هذه يعني أمّ الدرداء: أنَّهُ سمعَ رسول الله ﷺ يأثِرُ عَنْ رَبّهِ عَزَّ وجلَّ أنَّه قال: «أنا

= إظهار ضبطه ، وأنَّ عمر كان يستثبته في الأحاديثِ مع تشدّدِ عُمر ، ولو أنكر عليه ذلك لَنُقِلَ» (فتح الباري (١٠/ ٣٩٣).
وقال الخطابي: «إنما ورد الوعيد الشديد في هذه الأشياء لما فيها من الغِش والخداع ، وتغيير الخلقة».

(١) أبو هريرة راوية الإسلام (ص ١٣٩) وكذلكَ عندما نزل بالكوفة أتاه الناس وطلبوا منهم أن يحدّثهم.
(٢) انظر: مسند أحمد (٣/ ٤٣٠) جزء من حديث برقم (٩٦١٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٩٩).

مع عَبدي ما ذكَرني وتحركَتْ بِي شفتاه»[1].

* وحيثما كان يحلُّ أبو هريرةَ كان طلاّبُ العِلْمِ يتسابقون إلى مجلسهِ ، يسألونه ويستفتونه ، فكان يعلّمهم ويرشدهم لما فيه صلاحُ أمرهم في الدّنيا والآخرةِ ، ينقلُ لهم ما تعلَّمه من رسول الله ﷺ ، وقد مُلِئَتِ المصادرُ بذكرِ سؤالات العُلماء له ، وغيرهم منَ الأعرابِ ومنَ الأمراءِ والأعيانِ ، والنِّساء والرّجال.

* وكان من خلالِ تعليمه النَّاس يلجأُ إلى تصحيحِ كثيرٍ من الأخطاءِ التي يرتكبُها النَّاسُ ، فقد كان لمّاحاً شديدَ المُلاحظةِ رأى رَجُلاً لم يُحْسِنِ الوضوءَ ، فعلَّمه أنْ يسبغَ الماءَ على أعضائه ، كما علّمَ أصحابَهُ الصَّلواتِ التي يُجْهَر فيها ، والتي لم يُجْهِرْ فيها النّبي ﷺ ، كما علّمهم آدابَ الأذان إذا أذن المؤذِّنَ ، وهذا كثيرٌ مبثوثٌ في سيرةِ أبي هُريرة ، وفيمن ترجمَ لهُ من القُدماء والمُحدثين.

* ومن الأساليبِ القيّمةِ التي طرقَها أبو هُريرةَ في تعليمِ النّاسِ أنّه كان يسمحُ للعُلماءِ والحفظةِ أنْ يكتبوا عنه ، وأنْ يرووا ذلكَ للنّاسِ ويعلموهُ بعد أنْ يتأكّدوا من صحّةِ ما يكتبون.

* ومن أشهرِ العُلماءِ الذين كتبوا عنه : همام بنُ منبّه الصَّنعاني الذي كتبَ صحيفةً عن أبي هُريرة سمّاها : «الصّحيفة الصَّحيحة» ، وقد ضمّنها الإمامُ أحمد في مسنده[2]. وروىٰ بعضها عددٌ من كبارِ المحدّثين كالبخاري ومسلم ، وابن حبّان ، والبغوي ، والبيهقي.

* وفي نهاية هذه الفقرة يمكننا أنْ نقولَ : «لقد حملَ أبو هريرةَ علماً كثيراً مباركاً وعلَّمهُ للنّاس ، وكان يبثُّ علْمَهُ في كلّ مكانٍ ، وفي كلّ مناسبةٍ ، وفي كلّ زمنٍ يقدرُ عليهِ ، وعملَ على إحياء السُّنَّة من خلالِ رحلتهِ العلميّةِ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٦٤٨) حديث رقم (١٠٩٧٦).

(٢) انظر المسند (٣/١٨٦ ـ ٢٠٣) ، من حديث رقم (٨١٢١) إلى رقم (٨٢٥٩) ، فيكون عدد أحاديث المسند لهذه الصحيفة(١٣٨ حديثاً) ، والله تعالى أعلم.

الميمونة ، وحياته الطّويلةِ التي قضَاها عالماً ومعلّماً ومتعلّماً رضي اللهُ عنهُ وأرضاه».

حظُّـهُ مِنَ الـفَتْـوَى والـفِـقْـه:

* لئن اشتُهرَ سيّدنا أبو هُريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ في دقَّةِ الحفظِ وجَودَةِ الضَّبطِ ، لقد أبدعَ في الفَتوىٰ والفقه ، وكان من المبرزين فيهما ، ومن رؤوسِ العلم في ميدانهما الرّحب.

* وأعتقدُ أنَّ أبا هُريرةَ عليه سحابات الرضوان من أكثرِ الصَّحابةِ عِلْماً بأحوالِ الصُّحبةِ النَّبويّةِ وأحكامها ، وقد شَهدَ ما لم يشهدْ غيرهُ ، وعلمَ ما لم يعلمْهُ المبرّزون ، ورأىٰ ما لَمْ يَرَهُ المُفْتُونَ ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

* من خلالِ هذه الصُّحبةِ الزَّاكيةِ تكوّنَتْ عند سيّدنا أبي هُريرة معلومات عظيمة من المسائل الشّرعيةِ والفقهية التي كانت تحصلُ مع الصَّحابةِ في العهدِ النّبويّ الميمون وفي حياتهِ ﷺ ، وهذا كُلّه جَعَلَ أبا هُريرةَ علامةً في الفتوى مع ثلّةٍ من أكابرِ علماء الصّحابةِ ، وقد أفتى أبو هريرةَ قرابةَ ربعِ قرنٍ في المدينةِ المنوّرةِ ، وكانت فتاويه مستقاةً من الهديّ النّبويّ لا يحيدُ عنها ، ولا يريمُ ، وقد ألقيَتْ أزمّةُ الفتوى إل خَمْسَةٍ من علماء الصَّحابة الكرام ، يوم أنْ كانتِ المدينةُ مهوىٰ أفئدةِ العُلماءِ والفقهاء.

* قال زياد بن مينا: «كان ابنُ عبّاس ، وابن عمر ، وأبو سعيد ، وأبو هُريرةَ ، وجابر ، مع أشْبَاهٍ لهم ، يُفْتُونَ بالمدينةِ ، ويحدّثون عن رسول الله ﷺ من لدنْ توفي عثمانُ إلى أَنْ تُوفُّوا ، وهؤلاءِ الخمسةُ ، إليه صارتِ الفتوى»(١).

* وذكر ابنُ حزم أنَّ أبا هُريرةَ من الذين حُفِظَتْ عنه الفتوى من الصَّحابة ، لكنّه من المتوسّطين فيها ، فهل نوافق ابن حزم على هذا الرأي؟

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٠٦ و٦٠٧) نقلاً عن طبقات ابن سعد (٢/ ٣٧٢) بتصرف.

* إنَّ ما نلمسهُ من فقهِ أبي هُريرة وكثرةِ فتاويه لا نستطيعُ أنْ نعدَّهُ من المتوسّطين ، بل هو ممن يُرجعُ إليهم في هذا الشّأْنِ ، وفي ثنايا سيرتهِ ما يبرهنُ على ذلك ، إذ إنّنا نقرأ كثيراً من المسائل التي تندرجُ تحتَ بابِ الفتاوىٰ وأحكامها ، والفقهِ ومسائله.

* قال الإمامُ الذَّهبيُّ رحمه الله: «كان ـ أبو هريرة ـ من كبار أئمةِ الفتوى»[1]. وقال في موضعٍ آخر عن أبي هريرةَ: «وكذلكَ أفتى أبو هريرة في دقاقِ المسائلِ مع مثل ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما»[2].

* ولمكانةِ أبي هريرةَ في سدةِ الفتوىٰ ، ولاّهُ عُمرُ بنُ الخطاب البحرين ، وقال أبو هريرة: «استعملني عُمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه على البحرين. . .»[3] ، فكان يفتي ويفقّهُ النَّاسَ في دينهم.

* وخلال ولايةِ أبي هُريرةَ لعمر البحرين أفتى بها في مسألةِ المطلّقةِ طلقةً، ثم يتزوّج بها آخر ، ثم بعدَ الدُّخول فارقها ، فتزوّجها الأوّل ، هل تبقى عنده على طَلقتَيْن ـ كما هو قول عمرَ وغيرِهِ من الصَّحابة ومالكٍ والشّافعي وأحمدَ في المشهور عنه ـ أو تُلغى تلك التّطليقةِ ، وتكون عنده على الثّلاث ، كما هو قول ابنِ عبَّاسٍ وابنِ عمر وأبي حنيفة ، وروايةٌ عن عُمر ، بناءً على أنَّ إصابةَ الزَّوج تهدمُ ما دون الثَّلاث ، كما هدمت إصابتهُ لها الثلاث.

* فالأوّلُ مبنيٌّ على أنَّ إصابةَ الزَّوجِ الثَّاني ، إنَّما هي غايةُ التَّحريم الثَّابت بالطّلاق الثَّلاث؛ فهو الذي يرتفعُ ، والمطلّقة دون الثّلاث لم تحرم ، فلا ترفعُ الإصابة منها شيئاً ، وبهذا أفتى أبو هريرةَ فقال له عمر: «لو أفتيتَ بغيره ، لأوجعتكَ ضرباً»[4].

---

(١) تذكرة الحفاظ (١/ ٣٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٢٠).
(٣) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٠٠). وقال البلاذري: «إنَّ عُمر ولّى قدامة بن مظعون الجُمَحِيّ جباية البحرين ، وولّى أبا هريرة الأحداث ـ القضاء ـ والصلاة».
(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٢٠).

* وسألَ جماعةٌ مُحرِمون أبا هُريرةَ عن أُناسٍ مُحِلِّينَ أدوا لهم صيداً ، فأخبره بأنّه لايرى بأساً بأكله ، ثم إن أبا هريرة لقي عُمر رضي الله عنهما فأخبره فتواه ، فأعجب عمر ذلك وقال لأبي هُريرةَ: «لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعتكَ»[1].

* وأفتى أبو هريرةُ في مسائل دقيقة مع ابن عباس ، وعمل الصحابة الكرام فَمَنْ بَعدَهُمْ من علماءِ التَّابعين وغيرهم بحديثِ سيّدنا أبي هُريرةَ في مسائل كثيرةٍ تخالفُ القياس ، كما عملوا جميعهُمْ بحديثه عن النّبي ﷺ ، أنَّهُ قال: «لا تُنْكَحُ المرأةُ على عمتِها ، ولا خالتها»[2].

* وعملَ أبو حنيفةَ ، والشَّافعي ، وغيرُهما بحديثه: «أنَّ مَنْ أَكَلَ ناسياً ، فليُتِمَّ صومه»[3]. مع أنَّ القياس عند أبي حنفية: أنّه يُفطرُ ، فتركَ القياسَ لخبرِ أبي هُريرةَ.

* وأيضاً فقد عملَ الإمامُ مالك بحديثِ أبي هُريرةَ في غسلِ الإناءِ سبعاً من ولوغِ الكلبِ[4] ، مع أنَّ القياسَ عنده: لا يُغسل لطهارتهِ عنده»[5].

* وعند مالك أيضاً أنَّ نافعاً مولىٰ عبد اللهِ بن عمر قال: «شهدتُ الأضحى والفِطْرَ مع أبي هُريرةَ ، فكَبَّرَ في الرّكعةِ الأولىٰ سبعَ تكبيرات قبل القراءة ، وفي الآخرةِ خمس تكبيرات قبل القراءة»[6].

* وبلغَ الإمامُ مالك أنَّ أسيادنا عثمانَ بنُ عفَّان ، وعبد الله بن عمر ، وأبا هريرة كانُوا يُصَلُّونَ على الجنائزِ بالمدينةِ؛ الرّجالُ والنِّساء ، فيجعلون

---

(١) عن سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٢٣) بشيء من التصرف.
(٢) أخرجه مسلم برقم (١٤٠٨) ، ومالك (٢/ ٥٣٢) ، وأحمد (٣/ ٤٨٧) حديث رقم (٩٩٥٩).
(٣) أخرجه مسلم برقم (١١٥٥).
(٤) أخرجه مالك (١/ ٣٤) ، ومسلم برقم (٢٧٩/ ٩٠).
(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٢١).
(٦) الموطأ (٢/ ١٨٠) ، وهذا تمام معرفته بالفتوىٰ والفقه رضي الله عنه وأرضاه.

الرّجال ممّا يلي الإمام ، والنّساء ممّا يلي القبلة»[1] .

* ولسَعَةِ فقهِ أبي هُريرة ، ومعرفتهِ بالفتوىٰ المستمدّة من هدي النّبيّ ﷺ ، أقْبَلَ العُلماءُ من مختلفِ الطَّبقاتِ والأمصارِ يسألونه ويتعلّمون منه ممّا علّمهُ الله ، وينقلون ما أفتاهُ بهم إلىٰ مَنْ حولهم ومن بعدهم.

* فمما أفتى به أبو هريرةَ انقضاء عدّةِ المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحَمْلِ ، وعلى أضواءِ هذه الفتوىٰ الهُريريّةَ سار جماهيرُ العُلماء من السَّلف والخَلَف وقالوا: «عدَّةُ المتوفى عنها بوضعِ الحَمْلِ ، حتّى لو وضعَتْ بعد موتِ زوجها بلحظةٍ قبل غسْلِهِ انقضتْ عدّتها ، وحلّتْ في الحالِ للأزواجِ»[2] .

* فقد جاء في الصّحيح وغيره: «أنَّ التَّابعيّ الجليلَ أبا سلمة بنَ عبد الرحمن ، وابنَ عبّاس ، اجتمعا عند أبي هُريرةَ ، وهما يذكران المرأة. تُنْفَسُ بعد زوجها بليالٍ.

فقال ابنُ عبّاس: عدّتها آخر الأجلين.

وقال أبو سلمةُ بنُ عبد الرحمن: قد حلَّتْ بولادتها.

وجعلا يتنازعان ذلك ، وعندها قال أبو هريرة رضي الله عنه: أنا مع ابن أخي أبي سلمة بنِ عبد الرحمن.

ثمّ أنّهم بعثوا كُريباً مولى سيّدنا عبدِ اللهِ بنِ عبّاس إلى أمِّنا أمِّ سلمةَ أمِّ المؤمنين يسألها عمّا ادلوا دلاءهم فيه من هذه المسألةِ ، فجاءهم فأخبرهم أنّها قالت: إنَّ سُبيعةَ الأسلميّةَ نُفِسَتْ بعد وفاةِ زوجها بلَيالٍ ، وأنَّها ذكرت ذلك لرسولِ اللهِ ﷺ فأمرَها أنْ تَتزوَّجَ»[3] .

---

(١) الموطأ (١/ ٢٣٠).

(٢) المنهاج (ص ١١٣٥).

(٣) أصل هذا الحديث في الصحيحين ، أخرجه البخاري برقم (٤٩٠٩) ، ومسلم برقم (١٤٨٥) ، وابن حبان برقم (٤٢٩٥ و٤٢٩٦ و٤٢٩٧). وأخرجه مالك (٢/ ٥٨٢ و٥٩٠) بأنّه سُئل عبد الله بن عباس وأبو هريرةَ عن المرأة الحامل يتوفّى عنها زوجها؟ =

* ومن لطائفِ فتاوىٰ أبي هُريرةَ وفقهِهِ ما جاء عن معاوية بنِ أبي عيّاش الأنصاريّ: «أنَّهُ كان جالساً مع عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير ، فجاء محمّد بنُ إياس بن البُكَير ، فسأل عن رجل طلّقَ ثلاثاً قبل الدخول ، فبعثهُ إلى أبي هُريرةَ ، وابن عبّاس ـ وكانا عند خالته أم المؤمنين عائشة ـ فذهب فسألهما.

فقال ابنُ عباس لأبي هُريرة: أفْتِهِ يا أبا هُريرةَ ، قد جاءتك معضلَةٌ ، فقال: الواحدةُ تُبينُها ، والثّلاثُ تحرمها. وقال ابنُ عبّاس مثلَ قولِ أبي هُريرةَ»[1].

* وقد كان سيّدنا أبو هريرةَ رضي الله عنه يجلسُ إلى حجرةِ سيّدتنا أمّ المؤمنين عائشةَ رضوان الله عليهما ، ومن ثمّ يحدِّثُ ، وتنثالُ على ذهنهِ الأحاديثُ فيأخذُ في سَرْدِهَا ، ثم يقولُ مخاطباً أمّنا عائشة الصّديقة بنتُ الصِّدِّيق: يا أمَّاهُ ، أتنكرين ممّا أقولُ شيئاً؟ ـ وكانت عائشةُ تصلّي النّافلة ـ فلمّا قضَتْ صلاتها ، ولم تنكرْ ما رواه سيّد الحفاظ الأثبات ، وإنّما قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ يسردُ الحديثَ سَرْدَكُمْ»[2].

* ومن الواضح في سيرةِ سيّدنا أبي هُريرةَ أنَّه كانَ يألفُ المسجدَ النَّبويّ ، ويجلسُ إلى جانب الحجرةِ النّبويّةِ المشرفة ، وفيها الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ ، الذي كان السَّبب في إخراجهِ من الظُّلماتِ إلى النّور بإذنِ العزيز الحميدِ ، وكان العلماءُ والفقهاءُ وأصحابُ الفتوىٰ يطلبون مجلسَهُ ، لما يعرفون من سَعَةِ علمهِ ، وحسنِ ضبطهِ وفهمهِ ، فكان إذا قال عن شيء فيه رأيه أخبرَ الحاضرين فقال: «هذه من كيسي» وقد يؤكّدُ أحياناً صحّةَ

= فقال ابن عباس: آخر الأجلين ، وقال أبو هريرة «إذا ولدت فقد حلت. . ».

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٠٧) بشيء من التصرف.

(٢) المصدر السابق عينه بتصرف أيضاً. وقد بيّنت أمُنا عائشة رضي الله عنها لأبي هريرةَ أنّ التّرتيل في الحديث أولى من السّرد. وقال ابن حجر: «واعتُذر عن أبي هريرة بأنّه كان واسع الرواية ، كثير المحفوظ ، فكان لا يتمكن من المهل عند إرادة التّحديث ، كما قال بعض البلغاء: أريد أن اقتصر ، فتزدحم القوافي علىٰ فيَّ» (نقلاً عن هامش السِّيَر ٢/ ٦٠٧).

ما يرويه عن صاحبِ الحجرةِ الصَّادقِ المصدوقِ محمّدٍ ﷺ فيقول: «يشهدُ على ذلكَ لحمُ أبي هُريرةَ ودمُهُ»، إذ إنَّه على وعيٍ ويقينٍ وتثبُّتٍ مما يقول ويفتي، فقد شهدَ بعينه، وسمعَ بأذنهِ، ووعى بقلبه، وذكَرَ بلسانه.

* وقد يسألهُ بعضُ العُلماء قائلاً: يا أبا هُريرةَ، أسمعتَ هذا الأمرَ من رسول الله ﷺ؟

فيقول أبو هريرة بلسانِ اليقين: نعم، ويبيّن بأنَّ ما أفتىٰ به أو ما قاله ليسَ من قولهِ أو من رأيه، أخرجَ أحمدُ بسنده عن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرو القاريّ، قال: سمعتُ أبا هُريرةَ يقول: «لا وربِّ هذا البيت ما أنا قلت: «مَنْ أصبحَ جُنُباً فلا يصومُ» محمَّدٌ وربّ هذا البيتِ قاله، ما أنا نهيتُ عن صيامِ يومِ الجمعَةِ، محمّدٌ نَهىٰ وربّ البيت»[1].

* وكان رضي الله عنه يقول: «ثلاثٌ أوصاني بهنَّ خَلِيلي ﷺ، لا أدعُهُنَّ أبداً: الوترُ قبلَ أنْ أنام، وصيامُ ثلاثة أيّام من كلّ شَهر، والغُسْلُ يومَ الجمعة»[2].

* وعندما سأله أبو عثمان النّهدي: كيفَ تصومُ؟

قال: «أصومُ من أوّلِ الشَّهر ثلاثاً»، كما أنَّهُ كان يصومُ الاثنين والخميس، وكان أحياناً يصومُ مع بعضِ أصحابهِ ويجلسون في المسجدِ يقولون: «نُطَهِّرُ صيامنا».

* ومن المُفيدِ في فقْهِ أبي هُريرةَ وحسنِ رأيهِ وبراعتِهِ في لفتِ نظرِ النَّاسِ إلى الإقبالِ على العِلْم والفقْهِ، ما جاء عنه بأنَّهُ كان يدعو إلى ذلكَ بحكمةٍ لطيفةٍ، وخفَّةِ ظلٍّ ممزوجة بأدبِ الفقهاءِ وجلالِ العُلماء، فتتقبّل النّفوس هذهِ الدّعوة الجميلة، وتطمئنُ القلوب إليها اطمئنانَ الوحيدِ إلى أمِّهِ الرّؤوم.

* جاء مصداقُ ذلك عن أبي هُريرةَ نفسِهِ: «أنَّهُ مرّ بسوقِ المدينةِ، فوقفَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩ و٥٠) حديث رقم (٧٣٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٦٢) حديث رقم (٧٤٦٣).

عليها ، فقال: يا أهلَ السُّوقِ ، ما أعجزكم! قالوا: وما ذاكَ يا أبا هُريرة؟

قال: ذاكَ ميراثُ رسولِ اللهِ ﷺ يُقسَمُ ، وأنتم ها هُنا!! ألا تذهبونَ فتأخذونَ نصيبَكُمْ منه؟

قالوا: وأين هو؟

قال: في المسجدِ.

فخرجوا سِراعاً ، ووقفَ أبو هُريرةَ لهم حتّى رجعُوا ، فقال لهم: ما لكم؟

قالوا: يا أبا هُريرةَ ، فقد أتينا المسجدَ ، فدخلنا ، فلَمْ نَرَ فيه شيئاً يُقسم.

فقال لهم أبو هريرة: وما رأيتم في المسجد أحداً؟

قالوا: بلىٰ؛ رأينا قوماً يصلُّون ، وقوماً يقرؤون القرآن ، وقوماً يتذاكرون الحلال والحرامَ.

فقال لهم أبو هريرة: ويحكم؛ فذاكَ ميراثُ محمّدٍ ﷺ»[1].

* ولأبي هريرةَ رضي الله عنه أقوالٌ نفسيةٌ تندرجُ تحت باب الفقهِ والفتوىٰ ، ومنها قوله: «مَنْ أدركَ الرّكعةَ فقد أدركَ السَّجدةَ ، ومَنْ فاتَهُ قراءةُ أمّ القرآنِ ، فقد فاتهُ خيرٌ كثيرٌ»[2].

* وقال: «غُسلُ يومِ الجمعةِ واجبٌ على كلِّ محتلمٍ، كغسلِ الجنابةِ»[2].

* وكان أبو هريرةَ يُصَلّي على سقفِ المسجدِ بصلاة الإمام ، كما كان يرىٰ الجهرَ بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[3] في افتتاحِ القراءةِ في الصَّلاةِ الجهريّةِ ، وإلى هذا ذهبَ الشّافعي.

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (١/ ١٢٣و١٢٤) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط ، وإسناده حسن».

(٢) الموطأ (١/ ١١).

(٣) المعرفة والتاريخ (١/ ٥٦٧).

* ومما حُفِظَ عنه في الفتوىٰ والفِقْهِ قوله: «ليسَ على المُحتبي النَّائمُ، ولا على القائِمِ النّائم، ولا على السّاجِدِ النّائم وضوءٌ حتّى يضطجعَ، فإذا اضطجعَ توضّأَ»[١].

* وهكذا كان أبو هريرةَ رضي الله عنه رأساً في الفتوىٰ، رأساً في الفقهِ، وعَلَماً في نَقْلِ العِلْم؛ ترى كيفَ كانت حياتهُ مع القرآنِ الكريم؟ وهل كان من حُفَّاظِهِ؟ هذا ما تجلُوه لنا الفقرةُ الآتيةُ بإذن الله تعالى.

أبو هريرةَ والقُرآنُ الكريمُ:

* هذه فقرةٌ ماتعةٌ ممتعةٌ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ نعرضُ فيها لحياةِ القارئ الحافظِ أبي هُريرةَ مع القرآنِ الكريمِ في مجالاتٍ متنوعةٍ مثريةٍ معطاء، حيث إنّنا نعرفُ جوانبَ طيّبةً عن سيدنا أبي هُريرة، ومنها أنّهُ واحدٌ من الصَّحابة القُراءِ على الرّغمِ من تأخُّرِ إسلامه إلى سَنَةِ سَبْعٍ من الهِجْرةِ.

* ويمكن أنْ نستأنسَ بما نقَلَه ابنُ حجر في «الفَتْح» عن أبي عُبيد، قال: «قَد ذكرَ أبو عُبيد القرّاءَ من أصحابِ النَّبي ﷺ، فعدَّ من المهاجرين: الخُلفاءَ الأربعة، وطلحةَ، وسعداً، وابنَ مسعودٍ، وحذيفةَ، وسالماً، وأبا هُريرةَ، وعبدَ الله بنَ السَّائب، والعبادلةَ؛ ومن النّساء: عائشةَ، وحفصة، وأمّ سلمة..»[٢].

* وذكَرَ الذَّهبيُّ نقلاً عن أبي خالد الوالبي: «أنَّ أبا هُريرةَ رضي الله عنه كان إذا قرأَ بالليلِ خفَضَ طَوْراً ورفعَ طوراً، وذكَرَ أنَّها قراءةُ رسولِ الله ﷺ»[٣].

* وقال الذّهبيُّ أيضاً عن حفْظِ أبي هريرةَ للقرآن: «وقد ذكرتُه في «طبقات القُراء»، وأنَّه قرأَ على أُبيّ بنِ كعْبٍ؛ أخذَ عنه الأعرجُ وأبو جعفر

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٦١٨)، وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص ٣٥٥).
(٢) فتح الباري (٨/٦٦٨).
(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص ٣٥٥).

وطائفةٌ. وذكرتُه في «تذكرة الحفّاظ». فهو رأسٌ في القُرآن، وفي السُّنَّة، وفي الفِقْهِ»[1].

* وقال أبو عَمْرو الدَّانيّ[2] رحمه الله: «عرضَ أبو هريرةَ القُرآنَ علىٰ أُبيّ بنِ كَعَبٍ»[3].

* وقال الذَّهبيُّ: «قَرأَ ـ أبو هريرةَ ـ القرآنَ علىٰ أبيّ بن كعب، وقرأ عليه غيرُ واحدٍ... وكان إماماً، مفتياً، فقيهاً، صالحاً، حَسَنَ الأخلاقِ،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٢٧) بشيءٍ من التصرّف.

(٢) «أبو عمرو الداني»: الإمام الحافظ المجوّدُ المقرئ، الحاذقُ عالمُ الأندلس، أبو عمرو عثمان بن سعيد الأمويّ الأندلسيّ القرطبيّ ثمّ الدّاني، ولدسنة (٣٧١ هـ) ورحلَ إلى المشرقِ وحجَّ، ثم سكنَ في دانية حتى مات سنة (٤٤٤ هـ).
قال المُغامي: «كان أبو عَمْرو مجابَ الدَّعوة، مالكي المذهب» وقال الحُميدي في «جذوةِ المقتبس»: «هو محدثٌ مكثرٌ، ومقرىءٌ متقدّم، سمعَ بالأندلس والمشرق» وقال أبو القاسم بن بشكوال في «الصِّلةِ»: «كان أبو عمرو أحدَ الأئمةِ في علم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه، وطرقه وإعرابه، وجمع في ذلكَ كلّه تواليف حساناً مفيدة..» وقال الذّهبيُ: «إلى أبي عمرو المنتهىٰ في تحريرِ علمِ القراءات، وعلمِ المَصاحف، مع البراعةِ في علمِ الحديثِ والتّفسيرِ، والنّحو وغير ذلك، بلغت تواليف أبي عمرو المئة وعشرين كتاباً».
وهو القائلُ في أرجوزتهِ السّائرة:

تَدري أخي أينَ طريقُ الجنة	طريقها القُرآنُ ثمّ السُّنة
كلاهما ببلد الرّسول	وموطِنُ الأصحاب خير جيل
فاتّبعنْ جماعة المدينة	فالعلم عن نبيّهم يروونَه
وهم فحجّةٌ على سواهم	في النّقل والقولِ وفي فتواهم

ومنها:

ومن عقودِ السّنة الإيمان	بكلّ ما جاءَ به القُرآن
وبالحديثِ المسندِ المروي	عن الأئمةِ عن النّبي
وأنّ ربّنا قديمٌ لم يزل	وهو دائمٌ إلى غيرِ أجل
وحبّ أصحاب النّبي فرضُ	ومدحُهم تزلّفُ وفرض
وأفضلُ الصحابةِ الصّديق	وبعده المهذب الفاروق
فالحمدُ للهِ الذي هدانا	لواضح السُّنَّةِ واجتبانا

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٢٨).

متواضعاً، مُحبّباً إلى الأمّةِ.. وكانَ كثير العبادةِ والذّكرِ..»[1].

* وشَرَعَ أبو هُريرةَ رضي الله عنه بعدَ أَنْ أخذَ القرآن عن سيدنا أبيّ بن كعب يتصدَّرُ للإقراء، فعرضَ عليهِ طائفة من العلماءِ منهم أبو جعفر المدنيّ أحد القُرّاء المشهورين، وقرأَ نافعُ بنُ عبد الرحمن على الأعرج، وعلى أبي جعفر المدنيّ، ونافعٌ هو قارىءُ أهلِ المدينةِ المنوّرةِ دون منازع، بل هوأحد القُراءِ السَّبعةِ المشاهير[2]. وذلكَ قال ابنُ الجزَريّ: «تنتهي إلى أبي هُريرةَ قراءةُ أبي جعفر ونافع».

* وكان أبو هريرةَ عالماً بآدابِ القُرآنِ وقراءتهِ، وتوجيهاتهِ من ذلك ما أخرجهُ الإمامُ أحمد عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأَ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ فبَلَغَ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ فليقلْ: آمنّا باللهِ، ومَنْ قرأَ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، فليقلْ: بلىٰ وأنا على ذلكَ من الشّاهدين، ومَنْ قَرأَ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فليقلْ: بلى»[3].

* وكذلك كان عالماً بمواضعِ سجودِ التّلاوةِ وهذا ما وردَ عن أبي رافع قال: «صلّيتُ مع أبي هُريرةَ صلاةَ العَتمةِ، أو قال: صلاةَ العِشاءِ، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ فسجدَ له، فقلتُ: يا أبا هُريرةَ!؟!.

فقال: سَجَدْتُ فيها خَلْفَ أبي القاسمِ ﷺ، فلا أزالُ أسجُدهَا حتّى ألقاهُ»[4].

* كما كان يعيشُ بروحهِ وعقلِهِ معَ النَّبيّ ﷺ، فكان يقرأُ من القرآنِ ما كان يقرأُ ﷺ في صلاةِ الجُمْعَةِ؛ فعن عبيدِ اللهِ بن أبي رافع مولى رسولِ الله ﷺ

---

(١) معرفة القرّاءة الكبار على الطبقات والأعصار (١/ ٤٣ ـ ٤٤) بتصرف يسير.

(٢) نظم أحدُ الفضلاء أسماء القُراء السبعة فقال:

ألا إنَّ قــرّاءَ الأئمــةِ سبعــةٌ ... بهـم يهتـدي فـي الـذكـر كـلُّ كبيـر

علـيٌّ أبـو عمـر وحمـزةُ عـاصـمٌ ... ونـافـعُ عبـدُ الله وابـن كثيـر

(٣) المسند (٣/ ٥٠) حديث رقم (٧٣٩٥).

(٤) المسند (٢/ ٧) حديث رقم (٧١٤٣).

قال: «استخلفَ مروان أبا هُريرةَ على المدينةِ، وخرجَ إلى مكّةَ، فصلّى بنا أبو هريرةَ يومَ الجمعة، فقرأ سورةَ الجمعةِ، وفي السَّجدةِ الثّانيةِ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾. قال عُبيدُ الله: فأدركتُ أبا هريرةَ فقلتُ: تقرأُ بسورتَيْن كان عليٌّ يقرؤهما بالكوفةِ؟ فقال أبو هريرة: إنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأُ بهما»[1].

* وكما كان أبو هريرةَ يعيشُ بوجدانه مع آياتِ القُرآنِ الكريمِ، ويهتدي بالحبيبِ الأعظمِ ﷺ بما يقرأُ في صلاتهِ، كانَ كذلكَ ينقلُ لنا بعضَ الأحداثِ التي رافقتِ السِّيرةَ النّبويّةَ وبعضَ الأخبارِ التي لقيَ فيها النّبيّ ﷺ ما لقي من عُتاةِ المُشركين وفجّارِهم، وفي الحديثِ الآتي نشهدُ على ذلك.

* قال أبو هريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ: «قال أبو جَهْلٍ: هل يعفرُ محمّد وجهه بين أظهركم»؟

قال: فقيل نعم.

فقال: واللاتِ والعزّى ـ يميناً يحلفُ بها ـ لئن رأيتهُ يفعلُ ذلكَ لأطأنَّ على رقبتهِ، أو لأعفرنَّ وجَهُهُ في التُّراب.

قال: فأتى رسولُ اللهِ ﷺ وهو يصلي زعم ليطأَ على رقبتِهِ؛ فما فَجَأَهُمْ منه إلا وهو ينكصُ على عقبَيْهِ ويتّقي بيديهِ،

قال: قالوا له: مالك؟

قال: إنَّ بيني وبينَهُ لخندقاً من نارٍ، وهؤلاءِ أجنحةٌ.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا منّي لخطفتهُ المَلائكةُ عضواً عضواً».

قال: فأنزلَ لا أدري من حديث أبي هريرة أو شيء بلغه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ـ يعني أبا جهل ـ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي (٣/ ٥٤) حديث رقم (٥١٨) وقال: «حديث أبي هريرة حديث حسَنٌ صحيح». وقوله: «مروان»: هو مروان بن الحكم الأموي. وقوله: فأدركت أبا هريرة»: أي لقيته.

يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ قال: يدعو قومه ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ قال: يعني الملائكة ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩﴾[1]».

* ونجدُ صورةً أخرى من صور فجور المشركين وكبرهم تكشفُ عنه هذه الحادثة التي نزلَ فيها القُرآنُ الكَريمُ. أخرجَ مسلمٌ بسنده عن محمد بن عباد بنَ جعفر المخزوميّ ، عن أبي هُريرةَ قال: «جاءَ مشركو قريش يخاصمون رسولَ الله ﷺ في القدر ، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٨ ـ ٤٩][2]».

* ويجلو سيدنا أبو هريرة مفهوماً عظيماً من مفاهيم القُرآن الكريم في هذا الحديث الذي يرويه فيقول: «لمّا نزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] ، قال الناسُ: يا رسول الله ، عن أيّ نعيمٍ نُسأل: وإنَّما هُما لأسودَان والعدوُّ حاضرٌ ، وسيوفُنا على عواتقنا؟!

قال: «إنَّ ذلكَ سيكون»[3].

* وينبغي هنا أنْ نعرف بأنَّ أبا هُريرةَ رضيَ اللهُ عَنْهُ يفسِّرُ القُرآنَ الكريمَ ضمنَ ضوابطَ معينةً ، ويعتمدُ في تفسيرِه على عدةِ مصادرَ منها:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ النَّبيُّ ﷺ.

٣ ـ الاجتهادُ وقوَّةُ الاستنباط.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٢ و ٣٠٣) حديث رقم (٨٨٣٩).

(٢) أخرجه مسلم في القدر برقم (٢٦٥٦) ، وفي الآية والحديث تصريح بإثبات القدر ، وأنه عام في كل شيء.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٤١٥) انظر تحفة الأحوذي (٩/ ٢٨٩ و ٢٩٠). وقوله ﴿عَنِ النَّعِيمِ﴾ أي: عن شكرِ ما أنعمَ اللهُ به عليكم من الصّحة والأمن والرزق وغير ذلك. وقوله «الأسودان» التمر والماء أما التّمر فأسود ، وهو الغالبُ على تمر المدينةِ المنورةِ ، فأضيفَ إليه الماء ، ونُعتَ بنعتهِ اتباعاً ، والعرب تفعل في الشّيئين يصطحبان فيسميان معاً باسمِ الأشهرِ منهما: كالقمرين ، والعمرين ، والله أعلم.

٤ ـ وأحياناً يعتمدُ على أهلِ الكتابِ في بعضِ الأخبار.

* غير أنَّهُ ينبغي علينا أن نعرفَ أيضاً بأنَّ الصَّحابةَ الكرام كانوا متفاوتين في معرفتهم بهذه الأمور، إذ لم يكونوا جميعاً في مرتبةٍ واحدةٍ، وقد اختلفَت آراؤُهم اختلافاً يسيراً في فهمِ بعضِ معاني القُرآنِ الكريم، وهذا الأمرُ ليسَ بِضَائِرٍ.

* وقد اشتُهِرَ بالتّفسيرِ خاصَّة عددٌ من الصَّحابةِ عدَّ السّيوطي منهم في «الإتقان» وسمّاهم؛ وهم: «الخُلفاءُ الرّاشدون الأربعة، وابنُ مسعود، وابنُ عبّاس، وأبيُّ بنُ كعب، وزيدُ بنُ ثابت، وأبو موسى الأشعريّ، وعبدُ اللهِ بن الزُّبير رضي الله عنهم أجمعين.

وهناكَ مَنْ تَكَلَّمَ في التَّفسيرِ من الصَّحابةِ غير هؤلاءِ من علماء الصَّحابةِ الكرام: كأنِسِ بنِ مالك، وأبي هُريرةَ، وابنِ عُمر، وجابرِ بن عبد الله، وعبدِ اللهِ بنِ عمرو بنُ العاصِ، وأمِّ المؤمنين عائشةَ، وأمِّ سلمةَ؛ رضي الله عنهم أجمعين؛ «غير أنَّ ما نُقِلَ عنهم في التَّفسير شيء قليلٌ جدّاً، ولم يكنْ لهم من الشُّهرةِ بالقولِ ما كانَ للعشَرةِ المذكورين أوّلاً»[1].

* ولكنّا نقولُ: «... يمكنُ لنا أنْ نستثني سيّدنا أبا هريرةَ خاصّة، إذ إن له أقوالاً كثيرةً ملأَتْ بطونَ كُتُبِ التَّفسيرِ، وله مئاتُ الأقوالِ في معظمِ التّفاسيرِ بل آلافُ كتفسير القرطبي، وقبله الطّبري، وتفسير ابن عطيّةِ ثمّ الرّازي، والبحر المحيط، وغيرها ممّا لا يُحصىٰ ولا يُستَقْصَىٰ، وإذا أراد الباحثُ أنْ يستنبطَ الآراءَ الهُريريةَ من كتبِ التَّفسيرِ لتحصَّلَ لديه مجلدٌ كبيرٌ يحملُ عِلْمَ أبي هُريرةَ وفَضْلَه وسَعَةَ أفقِهِ في هذا المجالِ الكريم».

* ومن الجدير بالذّكرِ أنّني تتبَّعْتُ تفسيرَ أبي هُريرةَ وأقواله في تفسيرِ

---

(١) التفسير والمفسرون (١/٦٧) لمحمد حسين الذهبي ـ دار القلم ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٧ م. ومن الواضح أنَّ هذا الكلام لا ينطبق على من ذكرهم محمد حسين الذهبي ها هنا، وإنما نجد لهم آثاراً كثيرة في التفسير، وفي هذه الموسوعة دليل ذلك وخصوصاً تفسير عائشة وأبي هريرة وجابر..

القرطبي ، وتفسيرِ البحرِ المحيط ، فألفيتُ أنَّ ما فيهما وحدهما يصلحُ أَنْ يكون مجلّداً كبيراً ، فكيفَ ببقيّةِ التَّفاسير الأخرىٰ كزاد المسيرِ ، وتفسيرِ ابن كثير ، والخازنِ ، والبغويِّ ، والدّرِّ المنثورِ للسُّيوطي ، والمحرر الوجيز لابن عطيّة ، والطّبري ، والشَّوكاني ، والآلوسي ، والقاسمي ، وغير ذلك؟!

* إذن كان أبو هُريرة من الرّاسخين في العلم في تفسيرِ القرآنِ العظيم ، وقد أظهرَ براعته في علومِ القرآن جميعها ، من تلاوةٍ ، وقراءةٍ ، وتفسير مفردات ، وأسبابِ نزولٍ ، وآراء عن الصَّحابة ، وحوار معهم ، وسؤالاتهم له ، وأشياءَ أُخرىٰ نلقي الضّوءَ عليها من خلالِ السُّطور الآتية بإذن اللهِ.

* فقد كان أبو هريرة رضي الله عنه يتبع الهديَ النَّبويَّ في تلاوةِ كتابِ اللهِ تعالى ، وقد سمعَ النَّبيّ ﷺ يقول: «زيّنوا أصواتكم بالقرآن»[1] ، فكان رضي اللهُ عَنْهُ يحسِّنُ صوتَهُ بقراءةِ القُرآنِ في خُشوعٍ وترقيقٍ وتحزُّنٍ وجَهْرٍ به؛ وكان كذلك يُعلِّمهُ معرباً دونَ لحنٍ أو أي خطأ كان؛ كما كان يقرأ الفاتحة مع البسملةِ كما قرأَها النّبي ﷺ ، وقد ذكر القرطبيُ هذا في تفسيره عن أبي هُريرةَ عن النّبيِّ ﷺ قال: «إذا قرأتُم الحمد لله ربِّ العالمين ، فاقرؤوا بسم الله الرحمن الرحيم ، إنّها أمّ القُرآن ، وأمّ الكتاب ، والسّبع المثاني ، وبسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها»[2].

* وقد فسّرَ أبو هريرةَ آياتٍ كثيرةً من القرآنِ الكريم مستنداً إلى الحديثِ

---

(١) راجع في هذا المجال تفسير القرطبي (١/ ١٠ ـ ١٧) ففيه فوائد جليلة نافعة.

(٢) تفسير القرطبي (١/ ١٩٣). وروى التّرمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمدُ للهِ أمّ القرآن ، وأمّ الكتاب والسّبع المثاني». وقال التّرمذي: «هذا حديثٌ حَسنٌ صحيح». وفي البخاري قال: «وسمِّيت أمّ الكتاب لأنّه يبتدأ بكتابتها في المصاحفِ ويُبدأ بقراءتها في الصّلاة». وقال يحيى بن يعمر: «أمّ القرى: مكّة ، وأمّ خراسان: مرو ، وأمّ القرآن: سورة «الحمد».وقيل: سمّيت أمّ القرآن لأنّها أوّله ، ومتضمنة لجميع علومه ، وبه سمّيت مكة أمّ القرى لأنّها أوّلُ الأرض ومنها دُحيت ، ومنه سمّيت الأمّ أمّاً لأنها أصل النّسل ، والأرض أمّاً». (تفسير القرطبي (١/ ١١٢).

النّبوي الشّريف من مثل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١] ، والأوزار هي الخطايا والآثامُ؛ وقد فسَّرَ أبو هُريرةَ رضي الله عنه هذه الآية بمعنىً مجازي وذكرَ «بأنَّ عَمَلَ الإنسانِ يُمثَّل له في صورةِ رجلٍ قبيحِ الوجْهِ والصُّورةِ ، خبيثِ الرّيح ، فيسألهُ ، فيقول: أنا عملُكَ طالما ركبتَنِي في الدُّنيا ، فأنا اليومَ أركبُكَ فيركبُه ، ويتخطّىٰ بهِ رقابَ النَّاس ، ويسوقُه حتّى يدخله النّار»[1] .

* وكذلكَ يفسّرُ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] ، فيقول: «يحشرُ اللهُ الخَلْقَ كلّهُمْ يومَ القِيامةِ ، البهائم ، والدّواب ، والطّير وكلّ شيء ، فيبلغ من عدلِ اللهِ عزَّ وجلَّ يومئذٍ أنْ يأخذَ للجمَاء من القرناء ، ثمّ يقولُ: كُوني تُراباً ، فذلكَ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ: ٤٠][2]» .

* ويدلي أبو هريرةَ دلوَهُ مع دلاء المفسّرين من علماء الصَّحابةِ في تفسيرِ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ . . .﴾ [الأنعام: ١١٩] ، فيقول: «يحلّ أكل متروك التّسميةِ عمداً كان التّركُ أو نسياناً»[3] ، بينما يرىٰ آخرون كراهةَ أكْلِ ذبيحةِ تركِ التّسميةِ عمداً[4] .

* ويوضحُ أبو هُريرةَ مفهوماً مهماً في تفسيرِ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ . . .﴾ [الأنعام: ١٥٨] فيقول: «طلوع الشمس من مغربها ، والدّجّالُ ، والدّابةُ ، وفتح يأجوج ومأجوج»[5] .

* وفي تفسيرِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى

---

(١) انظر: تفسير البحر المحيط (٤/ ١١١). بتصرف يسير.
(٢) البحر المحيط (٤/ ١٢٦) بتصرف. وانظر البحر المحيط أيضاً (٨/ ٤٠٨).
(٣) البحر المحيط (٤/ ٢١٥).
(٤) المصدر السابق عينه.
(٥) البحر المحيط (٤/ ٢٥٩) ، وانظر تفسير عطية ص(٦٧٨ و٦٧٩).

﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، نجد أنّ أبا هُريرةَ يخبرنا بأنّ النَّبيَّ ﷺ قد أخذَ بيدِهِ وفسَّرَ لهُ هذه الآية.

* جاء هذا في الصَّحيح عن أبي هُريرةَ قال: أخذَ رسولُ اللهِ ﷺ بيدي فقال: «خلقَ اللهُ عزَّ وجلَّ التُّربةَ يومَ السَّبْتِ، وخلقَ فيها الجبال يوم الأحد، وخلقَ الشَّجر يوم الاثنين، وخلقَ المَكروه يوم الثّلاثاء، وخلقَ النُّورَ يومَ الأربعاء، وبثَّ فيها الدَّوابَ يومَ الخميس، وخلقَ آدمَ عليه السَّلامَ بعدَ العَصْرِ مِنْ يومِ الجُمْعَةِ في آخرِ الخَلْقِ، في آخرِ ساعةٍ من ساعاتِ الجمعةِ، فيما بين العَصْرِ وَالليلِ»[1].

* ونجدُ من تفسير أبي هُريرةَ لبعضِ الآياتِ علْماً جمّاً قد استقاهُ من حفْظِهِ للقُرآنِ كاملاً، ومن كثرةِ حفظهِ للحديث النّبويّ، وقد نجدُ أيضاً اطّلاعَهُ على بعضِ آراء الصّحابةِ الكرامِ في هذا المضمار، من ذلكَ ما فسَّرَ به قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، فقال: «إن النَّاسَ إذا ماتوا في النَّفخةِ الأولى مُطِرَ عليهم مَطَرٌ من ماءٍ تحتَ العرشِ يُقالُ لَهُ: ماءُ الحيوان، أربعينَ سَنةٍ، فينبتُون كما ينبتُ الزَّرْعُ، فإذا كملتْ أجسادُهم نَفخَ فيهم الرّوحَ، ثمّ تُلقىٰ عليهم نومةٌ فينامون، فإذا نُفِخَ في الصُّورِ ثانية قامُوا وهم يجدون طعم النّوم فيقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢] فيناديهم المنادي: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]»[2].

* وفسّرِ كذلكَ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] فقال: «هذه الآية نزلَتْ في المشركين، كانوا إذا صلّى الرسولُ ﷺ يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، فنزلت جواباً لهم»[3].

---

(١) البحر المحيط (٤/٣٠٩)، والحديث أخرجه مسلم بهذا اللفظ برقم (٢٧٨٩).
(٢) تفسير ابن عطية ص ٧١٤، وانظر: تفسير البحر المحيط (٤/٣٢١).
(٣) تفسير البحر المحيط (٤/٤٤٨).

* وفسَّرَ أيضاً قولهُ تعالى: ﴿يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٨]، فقال: «سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عن هذا، وكان سلمانُ الفارسي إلى جنبهِ، فوضعَ يدهُ على فخذِه، وقال: «قومُ هذا، لو كان الدّين في الثّريا، لنالَهُ رجالٌ من أهلِ فارسٍ»، وفي رواية: «والذي نفسي بيده، لو كان الإيمانُ منوطاً بالثُّريا لتناولَهُ رجالٌ من فارس»(١).

* ولأبي هُريرةَ رضوانُ اللهِ عليهِ أقوالٌ مختصرةٌ في توضيحِ بعضِ المعاني والألفاظِ القُرآنيةِ، من ذلكَ ما وردَ في كثيرٍ من التّفاسير، إذ فسَّرَ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦] فقال: هي: لا إلٰهَ إلاّ الله، محمّد رسولُ الله»(٢).

* وفسَّرَ كلمة ﴿مَّرِيجٍ﴾ [قٓ: ٥] فقال: «فاسدٌ» ومعنىٰ مرجَتْ أماناتُ النَّاسِ: فَسَدتْ؛ ومرج الدِّين: اختلَطَ(٣).

* وفسَّرَ كذلكَ كلمتَي: ﴿سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ [ق: ٢١]، فقال: «السّائق: مَلَكٌ. والشَّهيد: العَمل»(٤).

* وقال في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠]: «هما ركعتان بعد المغرب»(٥).

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية (١٧٢٧)، وتفسير البحر المحيط (٨/٨٦) و(٨/٢٦٣) مع الجمع والتصرف. والحديث أخرجه مسلم برقم (٢٥٤٦/ ٢٣٠ و٢٣١).

(٢) تفسير ابن عطية (ص ١٧٣٧)، والبحر المحيط (٨/ ٩٩).

(٣) تفسير البحر المحيط (٨/ ١٢١). قال أبو حيان الأندلسي: «مريج: الأصلُ فيه الاضطراب والقلق، مرجَ الخاتم في أصبعي، إذا قلقَ من الهُزال، ويجوز أن يكون الأمر المريج باعتبار انتقال أفكارهم فيما جاء به المنذر قائلاً عدم قبولهم أو إنذاره إياهم، ثمّ العجب منهم، ثم استبعاد البعث الذي أنذر به، ثم التكذيب لما جاء به» (تفسير البحر المحيط ٨/ ١٢١).

(٤) تفسير ابن عطية ص ١٧٥٣، وتفسير البحر المحيط (٨/ ١٢٤).

(٥) تفسير ابن عطية ص ١٧٥٨، وتفسير البحر المحيط (٨/ ١٢٨).

* ومن تفسيرِ أبي هُريرةَ الموجزِ أيضاً تفسيره لكلمةِ ﴿ٱللَّمَمَۚ﴾ [النجم: ٣٢] حيث قال: «كلُّ ذنبٍ لمْ يذكُرِ اللهُ تعالى عليه حداً ولا عذاباً»[١] وقال: «اللمم، صغار الذّنوب التي بين الحدَّين الدنيا والآخرة، وهي ما لا حدَّ فيه ولا وعيد مختصّاً بها مذكورٌ لها»[٢].

* وفي تفسيرِ قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ . . .﴾ [الطّلاق: ٤]، نلمح أبا هريرةَ يقول: «هو عام في المُطلّقة، وفي المتوفّى عنها زوجها»[٣].

* ونلمح تفسيره الجميل الممزوج بالأدبِ لقوله تعالىٰ: ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦] إذ يقول: «الشّفقُ: هو البياضُ الذي يتلوهُ الحمرة»[٤].

* وفسّرَ قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣] فقال: مشهود: يوم القيامة»[٥]، وقال: «شاهد: يوم الجمعة، ومشهود يوم عرفة»[٦].

* كما فسّرَ قوله تعالى: ﴿دِهَاقًا﴾ [النّبأ: ٣٤] فقال: «متتابعة»[٧] وفسّرَ كلمةَ ﴿سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧] فقال: «قال ﷺ سجين جبٌّ في جهنّم»[٨]، وفسَّرَ ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ [البروج: ٢] بيوم القيامـة[٩]. وفسّرَ ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] بسبيلِ الخيرِ وسبيلِ الشّرّ، وقال نقلاً عن الحبيبِ المصطفى الصَّادِقِ المَصدوق محمد ﷺ: «ولا يكون نجدُ الشّرّ أحبّ إلى أحدكم من

---

(١) تفسير البحر المحيط (٨/ ١٦٢).
(٢) تفسير ابن عطية ص ١٧٨٣.
(٣) تفسير البحر المحيط (٨/ ٢٨٠).
(٤) انظر: تفسير ابن عطية ص (١٩٦٢)، وتفسير البحر المحيط (٨/ ٤٣٨). وقال ابن عطية: «الشفق: الحمرة التي تعقبُ غيبوبةَ الشمس مع البياض التابع لها في الأغلب» (تفسير ابن عطية ص ١٩٦٢).
(٥) تفسير البحر المحيط (٨/ ٤٤٣).
(٦) تفسير ابن عطية ص (١٩٦٣).
(٧) انظر: التفسير الكبير للرازي (٣١/ ١٩).
(٨) المصدر السابق (٣١/ ٨٤).
(٩) المصدر السابق (٣١/ ١٠٤).

نجدِالخير»[1]. وفسرَ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢] فقال: «إِنَّهُ المستغني عن كُلِّ أحد»[2].

* كما أنّنا نجدُ لسيّدنا أبي هُريرةَ رضي الله عنه توضيحاً لبعضِ الآياتِ، حيثُ يفسّرها بطريقة بين الإيجاز والمدّ، ويقتصرُ في تفسيرهِ على المعنى العام بشكلٍ مبسّط قريبِ التّوسط، ومن أمثلة ذلك أنهُ فسَّرَ قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ١٠] فقال: «إنَّ فرعون وتَّدَ لامرأته أربعة أوتاد، وجعلَ على صدرها رحا، واستقبل بها عينَ الشّمس، فرفعت رأسها إلى السَّماء، وقالت: ربّ ابنِ لِي عِنْدكَ بيتاً في الجنَّةِ، ففرجَ اللهُ عن بيتها في الجنَّةِ فرأته»[3].

* ومن تفسيرِ سيّدنا أبي هُريرةَ المتوسّط تفسيرهُ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢] يقول: المرادُ بالنّاس: أهلِ اليمن، وقال: لما نزلت هذه السُّورةُ قال رسول الله ﷺ: «اللهُ أكبر، جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحِ، وجاء أهلُ اليمن، قومٌ رقيقةٌ قلوبهم، الإيمان يَمان والفقهُ يمان، والحكمةُ يمانية» وقال: «أجدُ نَفَسَ ربكم من قبل اليمن»[4].

* ولأبي هُريرةَ رضي الله عنه مشاركةٌ في علمِ القراءاتِ، فقد وردَ أنَّهُ قرأَ

---

(١) المصدر السابق (٣١/ ١٦٦).

(٢) التفسير الكبير (٣٢/ ١٦٧). وقال ابن عطية: «الصمد: في كلام العرب: السيد الذي يُصْمَدُ إليه في الأمور، ويُستقبل بها. واللهُ مُوجد الموجدات، وإليه تصمدُ، وبه قوامها ولا غنيّ بنفسه إلا هو سبحانه».

(٣) انظر التفسير الكبير (٣١/ ١٥٣).

(٤) التفسير الكبير (٣٢/ ١٤٤) قال ابنُ عبد البر: «لم يمتْ رسول الله ﷺ وفي العرب رجلٌ كافرٌ، بل دخلَ الكلّ في الإسلامِ بعد حُنين والطائف، منهم من قدمَ، ومنهم من قدّم وافده، ثم كان بعدهُ ﷺ من الرّدة ما كان، ورجعوا كلّهم إلى الدّين». وقال ابن عطيّة: «والمراد ـ والله أعلم ـ العرب عبدة الأوثان، وأما نصارىٰ بني تغلب فما أراهم أسلموا قط في حياة رسول الله ﷺ، ولكن أعطوا الجزية» (تفسير ابن عطية ص ٢٠٠٩).

كلمة ﴿جنّة﴾ بلفظ ﴿جَنَّه﴾ بهاء الضَّمير من قوله تعالى: ﴿جَنَّةُ﴾ [النّجم: ١٥]. وجَنَّ: فعل ماض، والهاءُ ضميرٌ عائدٌ على النّبيّ ﷺ، أي: عندها سَتَرَهُ إيواءُ اللهِ تعالى وجميل صنعه. وقيل: المعنى ضمَّهُ المبيتُ والليل[١].

* ومن ألوانِ التَّفسيرِ المُنير عند أبي هريرةَ رضي الله عنه ما كان يسألُ أهلَ الكتابِ عن أشياءَ لا تعدَو أنْ تكونَ توضيحاً لقصة ما، أو بياناً لما أجملَهُ القرآنُ منها، مع توقُّفِهِ فيما يسمعهُ منهم، فلا يحكم عليه بصدق، أو بكذب، ما دامَ يحملُ كلا الأمرَيْن، امتثالاً لأمر الصّادِقِ المصدوقِ صاحبِ الحجرةِ محمّد رسول اللهِ ﷺ: «لا تصدقُوا أهلَ الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] الآية[٢].

* وكان أبو هريرةَ والصَّحابة أجمعون لا يسألون أهل الكتاب عن شيءٍ ممّا يتعلّق بالعقيدةِ، أو يتّصلُ بالأحكام، ولا يعدلون عما ثَبَتَ عن الصَّادق المصدوق ﷺ إلى سؤال أهل الكتاب. وكانوا إذا سألوهم عن شيءٍ فأجابوا عنه خطأ، ردّوا عليهم خطأهم، وبينوا لهم وجهَ الصَّواب فيه.

* من أمثلة ذلكَ ما رواهُ البخاري عن أبي هُريرةَ رضي اللهُ عَنْه أنَّ رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «فيه ساعةٌ لا يوافقُها عبدٌ مسلمٌ وهو قائمٌ يصلّي يسألُ الله تعالى شيئاً إلا أعطاهُ إيّاه» وأشارَ بيدهِ يُقَلِّلُها[٣].

* فقد اختلفَ السَّلفُ في تعيين هذه السَّاعة، وهل هي باقية أو رفعت؟ وإذا كانت باقية، فهل هي في جُمعةٍ واحدةٍ، من السَّنة، أو كلّ جمعةٍ منها؟ وها هنا نجدُ سيّدنا أبا هُريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ يسألُ كَعب الأحبار عن ذلك، فيجيبه كعب: «بأنّها موجودةٌ لكنْ في جمعةٍ واحدةٍ من كلّ سنة»[٤].

---

(١) انظر: (تفسير ابن عطية ص ١٧٨٠)، وتفسير البحر المحيط (٨/١٥٧) مع الجمع والتصرف اليسير.
(٢) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في الاعتصام برقم (٧٣٦٢).
(٣) أخرجه البخاري في الجمعة برقم (٩٣٥).
(٤) انظر: فتح الباري (٢/٤٨٣).

فيردُّ عليهِ أبو هريرةَ قوله هذا ، ويبيّن له بأنَّها في كلِّ جمعة؛ فيرجع كعب إلى التّوراة ، فيرى أنَّ الصَّوابَ مع أبي هريرة ، فيرجع إليه(١) .

* كما نجدُ سيّدنا أبا هريرةَ يسألُ عبد اللهِ بنَ سلامٍ رضي الله عنه عن تحديد هذه السَّاعة ويقول: «أخبرني ولا تضنَّ عليَّ» ويجيبهُ عبد الله بنُ سلام بأنَّها آخرُ ساعةٍ في يومِ الجُمعةِ. فيردُّ عليهِ أبو هريرةَ بقوله: كيف تكون آخر ساعةٍ في يوم الجمعةِ وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يصادفها عبدٌ مسلمٌ وهو يصلي» وتلك السّاعةُ لا يُصلى فيها؟ فيجيبُه عبدُ الله بنُ سلام بقوله: ألم يقُلْ رسول الله ﷺ: «مَنْ جَلَسَ مَجْلِساً ينتظرُ الصّلاةَ فهو في صلاةٍ حتّى يصلّي . . ؟»(٢) .

* إنَّ مثلَ هذهِ المراجعات والمحاورات في التَّفسير التي كانت بين أبي هُريرة وكعب ، أو بينه وبين عبدِ اللهِ بنِ سلام ، تدلّنا على أنَّ أبا هريرة لم يكن يقبَلُ كلّ ما يُقال له ، وإنّما كان يتحرّى الصَّوابَ ما استطاعَ إلى ذلكَ سبيلاً .

* وبهذا لم يخرج سيّدنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه عن دائرةِ الجوازِ التي حدَّدها النّبي ﷺ من الإباحةِ في الحديثِ عن بني إسرائيل في مجالِ العِظَةِ وَالعِبرةِ.

* وبعد فهل نستطيعُ أن نقولَ: «إنَّ أبا هُريرةَ من المتوسّطين في التّفسير»؟! إنَّ ما قرأناهُ من نماذجَ مختلفةٍ تشيرُ إلى رسوخهِ في علومِ التّفسير، وقد رأيناه لا يخالفُ الأصولَ العامّةَ ، وإنّما يردّ ما يقوله في تفسيره إلى المصدرِ الذي يستقيه منه؛ كما رأينا أنّ المادةَ التَّفسيريّةَ عنده مادةٌ غزيرةٌ لو تتبَّعَها الباحثُ في مظانها لخرجَ بمصنّفٍ نفيسٍ يساوي مجلّداً أو مجلّدين ، ولعرفَ النَّاسُ مدى عِلْمِ أبي هُريرةَ في مضمار علومِ القُرآنِ الكريم وتفسيره.

---

(١) الفتح: (٢/ ٤٨٤).

(٢) انظر: فتح الباري (٢/ ٤٨٧ ـ ٤٨٩). وقد توسع ابن حجر في شرح هذا الحديث (٩٣٥) توسعاً مفيداً في الفتح وجاء بـ(٤٢ قولاً). انظر (فتح الباري (٢/ ٤٨٣ ـ ٤٨٩).

هَلْ كَانَ أَبُو هُرَيرةَ مِنَ المُجاهِدِينَ؟

* عرفنا في الفِقراتِ السَّابقةِ سيّدنا أبا هُريرةَ رضي الله عنه رجُلَ عِلْمٍ وحفظٍ وروايةٍ وفقْهٍ وتفسير؛ ملأَ الدّنيا بحفظهِ، وشغَلَ العلماءَ والحفَّاظَ بِفَهْمِهِ، فهل كانَ بالإضافةِ إلى كلِّ ما ذكرناهُ مُجاهداً وفارساً من فرسانِ المدرسةِ النّبويّةِ؟! هذا ما ستجلوهُ رقائقُ السُّطورِ الآتيةِ بإذن الله.

* شهدَ أبو هُريرةَ عليه سحائب الرضوانِ الثُّلُثَ الأخيرَ مِنَ العَهْدِ المدنيّ، أي من أواخرِ غَزاةِ خَيبر سنة سبْع إلى وفاةِ المصطفى ﷺ في أوائل سنة إحدى عشرةَ من الهجرة، وكانت هذه السّنواتُ ـ على الرغمِ من قلّةِ عَددها ـ سنواتٍ سماناً حافلةً بالعطاء، إذا حظيَ بالمعيّةِ النّبويّةِ في المغازي في خيبرَ، وعمرةَ القضيّة، وذاتِ الرّقاع، وكان من أفرادِ سريةِ مؤتة، وشهد فَتْحَ مكّة، ثم شهدَ غزوتَي حُنين والَطّائفَ، وغزاةَ تبوك، ثم يُرسلُهُ النّبي ﷺ في بَعْثٍ لَقَتْلِ رجلَيْن من المشركين من قريش، ثمَّ تابعَ رحلة الجهاد في العهدِ الرّاشدي الميمون، فقارع المرتدين وقاتلهم، وشهدَ اليرموكَ وشاركَ فيها، كما شاركَ في فتوحات إرمينية وجرجان، وتمنّى أنْ يشاركَ في غزوِ الهندِ، فإن نالَ الشَّهادةَ كان من خيرِ الشُّهداء، وإن رجعَ أُعْتِق مِنَ النَّار.

* وفي أواخرِ السَّنَةِ الثَّامنةِ من الهجرةِ النّبويّةِ المُباركةِ، أرسلهُ صاحبُ الحجرةِ الصَّادقِ المصدوقِ الحبيب الأعظم رسولُ اللهِ ﷺ إلى البحرين[1] مع العلاءِ بنِ الحضرمي لدعوة أهلِ البحرين إلى الإسلام، وكان ملكهم المنذر بن ساوى، ويومها قال أبو هريرةَ لحبِّهِ وحبيبهِ الصَّادقُ المصدوقِ ﷺ: «إِنَّهُ يعزُّ

---

(١) «البحرين» أودُّ التّنبيهَ ها هنا إلى أنَّ البحرين كان اسماً لسواحل نَجدْ بين قطر والكويت، وكانت هَجَر قصبته، وهي «الهفوف» اليوم، وقد تسمّىٰ «الحَسا»، ثم أطلقَ على هذا الإقليم اسم «الإحساء» حتى نهاية العهد العثماني. وقد انتقل اسم «البحرين» إلى جزيرة كبيرة تواجه هذا السّاحل من الشّرق، وكانت من قبل تسمّى «أُوال» وهي مملكة البحرين اليوم. وإنّ معظم ما يحدد بالبحرين في كتب السّيرة النبوية والمغازي هو من شرق السّعودية اليوم.

عليَّ فراقُكَ يا رسولَ الله ، ولكنّي أطيعُكَ فيما أحببت». وعندها قال له النّبيُّ الرّؤوف الرّحيم ﷺ: «أستودِعُكَ اللهُ الذي لا تضيعُ ودائعه». وقد هدىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ المنذرَ بن ساوى فأسْلَمَ وأسلم بإسلامِهِ خلْقٌ كثيرٌ من قومه. وبعثَ الحبيبُ المصطفى ﷺ أبان بن سعيد بن العاص والياً على البحرين ، ومعه الأمر بعودةِ العلاءِ بنِ الحضرمي ، وأبي هريرةَ إلى المدينةِ المنورةِ.

* وعاد الحافظُ المجاهدُ إلى حيث كان، عاد وعاش مع أهلِ الصُّفَّةِ عريفاً عليهم، بعد أنْ غابَ نحواً من ستّةِ أشهرٍ من العام التّاسعِ من الهجرةِ المباركةِ.

* أرسلهُ سيّدنا شيخُ الصَّحابةِ وأميرهم أبو بكر الصِّديق عليه سحائب الرضوان في خلافته المباركة إلى البحرين مع العلاء بنِ الحضرمي ، ليعلِّمَ النّاسَ ويفقّههم بدين الله.

* ثم ولاّهُ فاروقُ الإسلام عُمر بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه في خلافتهِ الميمونةِ على البحرين ، ثمَّ عزلهُ ، ثمَّ دعاه ليولّيه فاعتذرَ اعتذارَ الزَّاهدين ، واتَّخذ المدينةَ المنوّرةَ مقرّ إقامته المفضّل ، كلّما تركها مسافراً أو مجاهداً عاد إليها كما يعودُ الطِّفْلُ البريءُ إلى أحضانِ أمّه الرؤومُ ليجدَ الأمانَ والرَّاحةَ والأنسَ والإيناسَ بقربِ مثوىٰ الحبيبِ صاحبِ الحجرةِ ﷺ.

* وسنعيشُ في السُّطورِ الآتيةِ أويقاتٍ لطيفةً نجلو من خلالها صفحاتٍ وصوراً من جهاد سيّدنا أبي هُريرةَ وهو يروي لنا بنفسه مَشَاهِدَ من مشاهِدِهِ بمعيّةِ عَلَمِ المُجاهدين وأمامهم الصَّادقِ المصدوق ﷺ.

* يذكر سيّدنا أبو هريرةَ خبر وصوله المدينة المنورة ، وقدومه على رسول اللهِ ﷺ في ثمانين بيتاً من دَوس ، وأنّهُ ﷺ قد استخلفَ سِبَاع بن عُرفُطة الغِفاريّ على المدينةِ ، فصلّى الصُّبح خلفَه ، ثم قال: «. . فلمّا فرغْنَا من صلاتنا ، قال قائل: رسولُ اللهِ ﷺ بخيبرَ وهو قادمٌ عليكم.

فقلتُ: لا أسمعُ به في مكانٍ أبداً إلاّ جئته.

فزوّدنا سِباعُ بن عرفطة ، وحملنا حتّى جئْنَا خيبرَ ، فنجدُ رسولَ اللهِ ﷺ قد فتحَ النّطَاة ـ اسم حصن ـ ، وهو محاصرٌ الكتيبةَ ، فأقمنا حتّى فتح الله علينا»[1] .

* ونستنبطُ من هذا الخبرِ الهُريريّ المباركِ بأنَّ سيدنا أبا هُريرةَ قد وَصَلَ خيبرَ قُبيلَ أَنْ يفرغَ الحبيب صاحب الحجرة ﷺ من فتحها جميعاً ، فشهدَ معه فتحَ بعض حصونها والتي ورد اسمها في حديثهِ آنفِ الذّكر .

* وقد صرّحَ أبو هريرةَ بأنَّهُ شهد غزوةَ خيبرَ فيما جاءَ عنه في الصَّحيح قال : «خرجنا مع النّبيِّ ﷺ إلى خيبر ، ففتحَ اللهُ علينا ، فلم نَغْنَمْ ذهباً ولا وَرِقاً ، غنمنا المتاع ، والطَّعام ، والثّياب . . » . ثم يصفُ قصّةَ رجلٍ أقدمَ على الانتحار[2] .

* من خلالِ هذا الحديث الذي جاء في الصّحيحين وغيرهما ، يظهر لنا بأنَّ سيدنا أبا هُريرةَ قد شهدَ أخرياتِ هذه الغزوةِ ووصفَ نتائجها ، ونَقَلَ المغانمَ الخيبريّةِ ؛ وفي نهاية الحديث يصفُ قصَّةَ الرّجلِ الذي قاتل أشدّ قتال ثمّ ماتَ منتحراً فكان مأواهُ النّار ؛ وقد وردتْ قصّةُ هذا الرّجل أكثر من موقعٍ

---

(1) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٢١٢) ، وطبقات ابن سعد (٤/ ٣٢٥ و٣٢٧ و٣٢٨) ، ودلائل النبوة (٤/ ١٩٨ و١٩٩) ، والمعرفة والتاريخ (٢/ ٧٣٩ و٧٤٠) وغيرها كثير .
و«خَيبر» : على وزن جَعْفر ، اسم ولاية تشتملُ على حصونٍ ومزارعَ ، ونخل كثير ، على ثلاثة أيام من المدينة المنورة على يسار حاجّ الشّام ، والخيبر بلسان اليهود : «الحصْنُ» ولذا سميت «خَيابر» أيضاً . قال حسّان بن ثابت رضي الله عنه :
بئسَ ما قاتَلْتُ خَيابرُ عمّا ... جمَّعُوا من مزارعٍ ونخيل
وتوصفُ خيبر بكثرة التمر ، قال حسان بن ثابت رضي الله عنه يذكر ذلك :
وإنّا ومن يُهدي القصائد نحوَنا ... كمستبضعٍ تمراً إلى أهل خيبر
وروىٰ البخاري عن أمنا عائشة بنتَ سيدنا أبي بكر الصّديقِ رضي اللهُ عَنهما قالت : «لما فُتحت خيبر ، قلنا : الآن نشبع من التّمر . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : «ما شبعنا من التمر حتى فتحت خيبر» .

(2) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (١١٥) واللفظ له . وأخرجهُ كذلك البخاري برقم (٤٢٣٤) ، ومالك (٢/ ٤٥٩) ، وابن حبان برقم (٤٨٥١) .

من كتب الصَّحيح وغيرها ، وجاء في آخر الحديث: «إنَّ اللهَ ليؤيدُ هذا الدِّينَ بالرّجُلِ الفاجر»[1].

* وشهدَ أبو هُريرة عمرةَ القضاءِ بصحبةِ الحبيبِ المحبوبِ ﷺ ، ويومها ساقَ النّبي ﷺ الهَديَ ، وجعلَ ناجيةَ بن جندبَ الأسلميّ ، يسير به أمامه ، ومعه أربعة فتيان من أسْلَمْ؛ وأبو هريرة»[2].

* كما شهدَ غزوة ذات الرّقاع[3] ، وحضر معركة مؤتة وقال: «شهدتُ مؤتة»[4] ، وشهد النَّبي ﷺ لجيش مؤتةَ بالخير وسمّاهم الكرّارين[5].

* وفي فتح مكّة المكرمة كان سيّدنا أبو هريرةَ بمعيّةِ رسول الله ﷺ ، وله رواياتٌ جليلةٌ وأخبارٌ جميلةٌ عن هذا الفتح المبين[6]. ثم أنَّهُ رافق النَّبيَّ ﷺ فشهد معه حُنيناً ، ثم حصارَ الطّائف بعد حُنين[7] ، ثم شهدَ غزوةَ تبوك ، وعن شهودهِ هذه الغزاة يقول: «خرجنا مع رسولِ اللهِ ﷺ في غزوةِ تبوك ، فنزلنا ثنيّةَ الوداع . . »[8].

* وبعد وفاةِ النَّبيّ ﷺ شارك سيدنا أبو هريرةَ في مغازي المسلمين ، وشهدَ معركةَ اليرموك وشاركَ بسيفهِ وسنانهِ ، وقاتلَ بضرواةٍ الرّومَ ، وكان قد

---

(١) انظر مثلاً: صحيح البخاري برقم (٣٠٦٢ و٤٢٠٣ و٦٦٠٦) واللفظُ له. ومسلم برقم (١١١) ، وابن حبان برقم (٤٥١٩) وغيرهم كثير.

(٢) انظر: سبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٨٩) بتصرف يسير. وانظر المغازي (٢/ ٧٣٣).

(٣) انظر المسند (٣/ ٢٠٤ و٢٠٥) الحديث رقم (٨٢٦٧) ، وفيه الحديث عن صلاة الخوف.

(٤) البداية والنهاية (٦/ ٢٤٤) ، وانظر المغازي (٢/ ٧٦٠).

(٥) انظر صحيح البخاري حديث رقم (٤٢٦٢) ، والبداية والنهاية (٦/ ٢٤٨).

(٦) انظر؛ مثلاً: المسند (٣/ ٦٤٣ و٦٤٤) حديث رقم (١٠٩٤٨) ، ومسلم برقم (١٧٨٠) وغيرهما.

(٧) انظر: البخاري برقم (١٥٨٩ و٤٢٨٥) ، ومسلم برقم (١٣١٤) ، والمسند (٣/ ٢٤) حديث رقم (٧٢٤٤) ، والمغازي (٣/ ٩٣٦).

(٨) مسند أبي يعلى برقم (٦٦٢٥) ، ومجمع الزوائد (٤/ ٢٦٤).

شاركَ في هذه المعركة الحاسمة في (١٢ رجب) سنة (١٣ هـ) في خلافة الصِّدِّيق.

* قالَ بسَّام العَسَليّ في موسوعته «فنّ الحربِ الإسلاميّ» يصفُ بسالةَ أَبي هُريرةَ وشجاعته يوم اليرموك: «. . . وانطلقَ أَبو هُريرةَ رضي اللهُ عَنه من أصحابِ الرَّسولِ ﷺ يُقاتلُ بِشجاعة، ومعه مجموعةٌ من الأزد، فيثيرُ الحَماسَة واستطاعَ المقاتلونَ تكوينِ حلقة أحاطَتْ بالمتسلّلين من الرُّومِ، واستمرَّ القِتالُ بعنادٍ وضراوةٍ بعدَ أَنِ اختلطَ مقاتلو جناح الميمنة بِمقاتلي القلب»[1].

* وفي هذه المعركةِ الحاسِمة وقفَ أبو هُريرةَ يعظُ النَّاسَ ويشجعُهم، ويبثُّ في نُفوسهم الحميةَ والجرأةَ والإقدامَ، كما قاتلَ هو رضي الله عنهُ بسنانه، وأخذ يشجِّعُ بلسانهِ فرسانَ المدرسةِ المحمدية[2] وأبطالها فيقولُ لَهم مصبّراً: «سارعوا إلى الحُورِ العِين، وجوارِ ربّكم عزَّ وجلَّ في جنَّاتِ النّعيم، ما أنتم إلى ربّكم في موطنٍ بأحبَّ إليهِ منكم في مثل هذا الموطن، ألا وإِنَّ للصَّابرين فضلهم»[3].

* وفي سنة (٣٢ هـ) شاركَ أبو هُريرةَ أيضاً في فتوح «بَلَنْجر» ـ مدينةَ ببلاد الخزر ـ، تحتَ قيادة عبد الرحمن بن أبي ربيعة، ولكنَّ هذا البطلَ يحظَىٰ بالشَّهادةِ وهم محاصرون مدينة بلنجر، فاضطر الجيشُ الإسلامي للانسحابِ، ونظّمَتْ عَمليةُ الانسحاب تحت إشرافِ سليمانَ بنِ أبي ربيعةَ، وتمَّتْ على محورَيْن:

١ ـ المحورُ الشّرقي شرق بحر قزوين، حتّى جيلان وجرجان، ويتبعهُ

---

(١) فن الحرب الإسلامي (١/ ١١٩) لبسام العسلي ـ دار الفكر ـ بيروت ١٩٨٨ م.
(٢) اقرأ موسوعتنا «فرسان من عصر النبوة» طبعة دار اليمامة، حيثُ تجد فيها كثيراً عن شجاعة المسلمين.
(٣) انظر البداية والنهاية (٧/ ٩) وفيه أيضاً كلماتُ رائعة لأبي سفيان رضي اللهُ عَنْهُ وغيره من الصحابة رضي الله عنهم.

جيش الشّام ، وجيش الكوفة ، وفيهم : سلمان الفارسي وأبو هريرة[1].

٢ ـ المحور الغربي غرب بحر قزوين ، ويتبعه سلمان بن أبي ربيعة ، وجيش عبد الرّحمن بن أبي ربيعة[2].

* وهكذا نَرىٰ أبا هُريرةَ فارساً كراراً، وبطلاً مغواراً ، واعظاً ومحدّثاً لا يترك جانباً من جوانبِ الخيرِ إلاّ طرقه، وأدلىٰ دلوهُ فيهِ، ويعلّمُ هنا وهناك، فرضي اللهُ عَنْه وأرضاهُ.

أدبـهُ وتذوُّقـهُ الشِّعَـر :

* لأبي هريرة رضي الله عنه أنفاسٌ لطيفةٌ في الأدبِ وتذوقه ، وله كذلك أقوالٌ موشّاةٌ بأزرارِ الأدبِ وزَهْرِهِ ، استقى ذلكَ كلّه من ملازمةِ أفصحِ الخلقِ على الإطلاقِ ، نبيّ الرّحمةِ العربيّ ، محمّد ﷺ.

* فقد كان سيّدنا أبو هريرة يميّزُ جَيِّد الشِّعْر من رديئه ، ويحفظُ مِنَ الهَدي النّبويّ ذلك ، فقد جاء عن أبي سلمةَ عن أبي هُريرةَ رضي اللهُ عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «أصدقُ كلمةٍ قالها شاعر كلمةُ لبيد :

ألا كُل شيءٍ ما خَلا اللهُ باطلُ

وكادَ أُميّةُ بنُ أبي الصَّلْتُ أَنْ يُسْلِمَ»[3].

* وفي روايةِ «أشعرُ كلمةٍ قالَتْهَا العَرَب كلمة لبيد :

ألاّ كُلّ شيءٍ ما خَلا اللهُ باطل»[4]

* وسيّدنا أبو هُريرة نفسُهُ كان يقرضُ الشِّعْرَ ويتفاعل معه ، ويتذوَّقُ معانيهِ ويطربُ لمغانيهِ الرّائقة ، فقد روىٰ أبو هُريرةَ قال : «لما قدمتُ على النَّبيِّ ﷺ قُلْتُ في الطَّريقِ شِعراً :

---

(١) فن الحرب الإسلامي (١/ ٤١٥).

(٢) المرجع السابق (١/ ٤١٦).

(٣) المسند (٣/ ٥٠٤) حديث رقم (١٠٠٨٠) ، وانظر بهجة المجالس (٢/ ٥٨٦ و٥٨٧).

(٤) المسند (٣/ ٥٢٦) حديث رقم (١٠٢٣٤). وانظر كذلك حديث رقم (٧٣٨٧).

يـا ليلـةً مِـنْ طُـولِهـا وعنـائِهـا علىٰ أَنَّها مِنْ دارةِ الكفْر نَجَّت[1]»

* ومن زَهْر آدابِ أبي هُريرةَ رضي الله عنه وثَمرِ محفوظاته ، أنَّه روىٰ قصَّةَ مَقْتَلِ الصَّحابي الجَليل خُبيب بن عُديّ بن عامِر الأنصاري الشَّهيد ، الذي بعثهُ النَّبيُّ ﷺ مع عشرةٍ مِنَ أصحابهِ ، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاريّ ، فلمّا كانوا بالرَّجيع غدرَ بهم بنو لحيان ، واستصرخُوا عليهم ، وقتلوا فيهم ، وأسَرُوا خُبيباً وزيدَ بنَ الدَّثِنة ، فباعوهما بمكَّةَ ، فقتلوهما ، وصلبوهما بالتَّنعيم .

* ويذكرُ أبو هُريرةَ بأنّ سيّدنا خُبيباً قد وُضِعَ ـ وهو أسيرٌ ـ عندَ إحدى بناتِ الحارثِ بن عامر الذي قَتَلهُ خُبيبٌ يومَ بَدرٍ، ثم يذكرُ أبو هُريرةَ هذه الكرامةَ لخبيبٍ فيقول : « . . فلبثَ خُبيبٌ عِندهم أسيراً ، حتّى اجمعوا قَتْلَه ، فاستعارَ من بعضِ بناتِ الحارثِ موسى يستحدُّ بها للقَتْلِ ، فأعارتهُ إياه ، فدَرَجَ بنيٌّ لها وهي غافلةٌ عنه حتّى أتاه ، فَوَجَدَتْهُ يجلسهُ على فخذهِ وَالموسى بيدهِ . قالَتْ : ففَزِعْتُ فَزعةً عَرفهَا خُبيبٌ : فقالَ : أتخشينَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟! ما كنتُ لأفعل .

قالتْ : واللهِ ما رأيتُ أسيراً قَطّ خيراً مِنْ خُبيب ، والله لقد وجدتهُ يوماً يأكلُ قطْفاً من عنبٍ في يدهِ ، وإنَّهُ لموثقٌ في الحديد ، وما بمكّةَ من ثمرةٍ ، وكانت تقولُ : إنَّهُ لَرِزْقٌ رَزَقَ اللهُ خَبيباً . فلما خرجوا به من الحرمِ ليقتلوه في الحِلِّ ، قال لهم خُبيب : دعوني أركعُ ركعتَيْن ، فتركوه فركع ركعتين ، ثم قال : واللهِ لولا أَنْ تحسبوا أنَّ ما بِي جَزعاً مِنَ القَتْلِ لَزِدْتُ . ثُمَ قال : اللَّهُمَّ أحصِهِمْ عدداً واقتلهم بَدداً ، ولا تُبقِ مِنهم أحداً ، ثمّ أَنشأَ يقول :

فَلَسْـتُ أُبـالِـي حِيـنَ أُقْتَـلُ مُسْلِمـاً على أيِّ جَنْبٍ كانَ في اللهِ مَصْرَعِي
وذلـكَ فِـي ذاتِ الإلـهِ وإنْ يَشَـأْ يبـارِكْ علـى أوصـالِ شِلْـوٍ مُمـزَّعِ

ثم قامَ إليه أَبو سرْوَعَةَ عقبةُ بنُ الحارثِ ، فقَتَلَهُ ، وكان خُبيبٌ هو قد سنَّ لكلِّ مسلمٍ قُتِلَ صَبْراً الصَّلاة . . . »[2] .

---

(١) انظر : المسند (٣/ ١٣٢) حديث رقم (٧٨٥٠) ، وانظر حلية الأولياء (١/ ٣٧٩).

(٢) انظر : المسند (٣/ ١٤٩ و١٥٠) بتصرف يسير واختصار ؛ وانظر المسند أيضاً (٣/ ١٨٢ =

* ومن أدبيّات أبي هُريرةَ اللطيفة التي رواهَا من محفوظاتِهِ مع أبياتِها الشِّعريّةِ الجميلةِ قصّة مبايعةِ جُهَيْشِ بن أُويس النَّخعيّ الذي وفَدَ مُسْلماً وبايعَ الصَّادقَ المصدوق ﷺ.

* عن أبي هُريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ قال: «قدمَ جُهيشُ بنُ أويس النَّخعيّ عند رسول الله ﷺ فقال:

أَلا يا رسول اللهِ إنَّكَ صَادِقٌ ... فَبُورِكْتَ مَهْدِيّاً وبُورِكْتَ هاديا

شَرَعْتَ لنا دِيْنَ الحنفيةِ بعدما ... عَبَدْنا كأمثَالِ الحَميرِ طَواغِيَا

فيا خيرَ مَدعوٍ ويا خَيرَ مُرْسَلٍ ... مِنَ الإنسِ بلْ والجَانِ لَبّيكَ داعِيا

أتيتَ ببرهانٍ مِنَ الأَمْرِ واضحٍ ... فأَصْبَحْتَ فِينا صادقَ الوعدِ زَاكيا[1]

* وذكر ابنُ حجر في «الإصابة» أنَّ رسول الله ﷺ دعا له ولقومه فقال: «اللهمَّ باركْ فِي النّخع»[2].

* وذكروا أنَّ أبا هُريرةَ كان يترنّم بالشِّعرِ أحياناً، من ذلك ما جاء عن عمرَ بنَ أبي الصَّهباءِ قال: «مررتُ بأبي هُريرةَ رضي الله عنه وهو مُسْتَلْقٍ واضعٌ ثَوبه تحتَ رأسهِ، وإحدى رجليْهِ على الأخرى، وهو يتغنّى غناءَ الرُّهْبان:

لمـا رأيتُكَ لي محبّاً ... وإليَّ حينَ أغيبُ صَبّا

أعرضتُ لا لملالةٍ ... حدثَتْ ولا استحدثْتُ ذَنْبا

إلّا لقولِ نَبِيِّنا ... زُوروا عن الأيّامِ غِبّا

ولقولهِ مَنْ زَارَ غِبـ ... ـاً منكم يزدادُ حُبّا[3]

= و١٨٣) حديث رقم (٨١٠٢)، وانظر صحيح البخاري رقم (٣٠٤٥، و٣٩٨٨ و٤٠٨٦ و٧٤٠٢)، والسيرة النبوية (٢/ ١٦٩) وغير ذلك كثير.

(١) انظر: مِنح المِدح لابن سيد الناس (ص ٦٨) تحقيق عفت وصال حمزة ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.

(٢) الإصابة (١/ ٢٥٦ و٢٥٧).

(٣) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠٤). والحديث الشريف الذي اقتبس منه «زُر غبّاً تزدَدْ حُباً» حديث صحيح. أقول «ونحنُ نشكّ في صحّةِ هذا الخبر، وسنورده كاملاً مع =

* وذكر أبو هريرةَ أنَّ أبا سفيان بنَ الحارثِ بنِ عبد المطلب كان يهجو النَّبي ﷺ ـ وذلكَ قبلَ أَنْ يُسلمَ ـ فقال ﷺ: «مَنْ لهذا»؟ فأتاهُ عبد اللهِ بنُ رواحة فقال: «إنّي لأرفعكَ عن ذلك»؛ وجاء كعب بن مالك فقال له: «أريدُ أمتنَ من شِعْرِكَ» ، فجاء حسّان بنُ ثابت فأدلعَ لساناً أسودَ فضَربَ به صدره ، ثم ضربَ به أرنبةَ أنفه ، ثم قال: يا رسولَ اللهِ ، ما أحبُّ أنّ لِي به مقولاً في العرب فقال: «اهجُهُ وجبريلُ معكَ ، أيدكَ اللهُ برُوحِ القُدس؛ اذهبْ إلى أَبي بَكر يعلّمكَ من تلكَ الهَنات». فأنشأَ حسَّان يقول:

أبلــغْ أبــا سفيــانَ أنَّ محمّــداً هو الغُصنُ ذو الأفنانِ لا الواحدُ الوغْدُ
وأبلــغ أبــا سفيــان عنّــي رســالــةً فَمَا لكَ منْ إصدارِ عَزْمٍ ولا وِرْدِ[1]

* وجاء في الصَّحيحِ عن أبي هُريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ: «أنَّ عمرَ مرَّ بحسَّان هو ينشدُ الشِّعرَ في المسجِدِ ، فَلَحظَ إليهِ فقال: «قد كنتُ أُنْشدُ ، وفيهِ مَنْ هُوَ خيرٌ مِنْك؛ ثمَّ التفت إلى أبي هُريرةَ ، فقال: أَنْشُدُكَ الله ، أسمعتَ رسول الله ﷺ يقول: «أجب عنّي ، اللهم أيّده بروح القدس»؟ قال: اللهمّ نعم»[2].

* وفي روايةٍ أخرى في الصَّحيح: «أنَّ حسَّانَ قالَ في حلقةٍ فيهم أبو هريرةَ: «أَنْشُدُكَ الله يا أبا هُريرةَ أَسمعتَ رسول الله ﷺ. . . . . ؟»».

* وفي رواية عن أبي سلمةَ بنِ عبدِ الرّحمن: «أنّه سمعَ حسّان بن ثابت

= التعليق عليه في فقرة: «هل هذه الأخبار صحيحة» ، فلتراجع هناك.

(١) انظر: ديوان حسان بن ثابت (ص ١١٧ و١١٨) بتصرف ـ تحقيق د. سيد حسين ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ دون تاريخ. وانظر: المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص ١٨٠٢).

(٢) أخرجه مسلم بهذا اللفظ في فضائل الصحابة برقم (٢٤٨٥). «وحسَّانُ بنُ ثابت»: هو من الأنصار شاعر النّبي ﷺ ، عاشَ هو وآباؤه الثّلاثة كلّ واحدٍ (١٢٠ سنة). وفي هذا الحديث: جواز إنشاد الشّعر في المسجد إذا كان مباحاً ، واستحبابه إذا كان في ممادحِ الإسلام ، وأهله ، أو في هجاء الكفّار ، والتحريضِ على قتالهم ، أو تحقيرهم ، ونحو ذلكَ ، وهكذا كان شعر حسّان وفيه استحباب الدعاء لمن قال شعراً من هذا النوع ، وفيه جواز الانتصار من الكفّار ، ويجوز من غيرهم بشرطه. ومعنى «روح القدس» جبريل عليه السلام.

الأنصاري يستشهدُ أبا هُريرةَ: «أَنْشُدُكَ اللهَ! هل سمعتَ النَّبيّ ﷺ يقولُ: «يا حسَّانْ! أَجِبْ عن رسول الله ﷺ اللَّهُمَّ أيّدهُ بِروحِ القُدس»؟ قال أبو هريرةَ: «نعم»[1].

* وأخبارُ أبي هُريرةَ رضي الله عنه مع كبار الشُّعراء وأعلامهم تملأُ الصَّفحاتِ والأسماع، وتُثْري المُتأدّبين وطلاّبَ العِلْمِ، وممن التقوا أبا هُريرةَ العجَّاجَ الرَّاجز، واسمه عبدُ اللهِ بنِ رؤبة، وكان يكنى أبا الشَّعثاء، والشَّعثاء ابنته، وكان لقي أبا هريرة وسمع منه أحاديث[2].

* قال العجاج: «قال لي أبو هُريرةَ: ممّنْ أنت؟

قُلْتُ: أنا من أهلِ العراق.

قال: يوشكُ أَنْ تأتيكَ بُقْعَانُ الشَّام فيأخذوا صدقَتَكَ، فإذا أتوكَ فتلقَّهُمْ بِها، فإذا دخلوها فكُنْ في أقاصيها، وخلِّ عَنْهُم وعَنْها، وإيّاكَ أَنْ تَسُبَّهُمْ، فإنَّكَ إِنْ سببتَهم ذهبَ أجرُكَ، وأخذوا صدقَتَكَ، وإِنْ صبرتَ جاءتْ في ميزانِكَ يومَ القيامةِ»[3].

* وكان أبو هُريرةَ يستوعبُ الشِّعرَ الجيّدَ ويستسيغُهُ، ويتذوّقهُ، ويسمعُ

---

(١) للمزيد من مثل هذه الأحاديث والأخبار انظر: المسند (٣/ ٩٥) حديث رقم (٤٦٤٨)، والبخاري برقم (٤٥٣)، ومسلم برقم (٢٤٨٥)، وابن حبان برقم (١٦٥٣ و٧١٤٨). وغير ذلك.

(٢) انظر ترجمة العجاج في الشِّعر والشُّعراء لابن قتيبة (٢/ ٥٩١ ـ ٥٩٣) تحقيق أحمد شاكر ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٦٦ م. وقال البخاري في التّاريخ الكبير: «**عجاج بن رؤبة**، واسمه عبد الله، سمع أبا هُريرة». وللعجاج ديوان حققه عبد الحفيظ السّطلي، وطبع بدار أطلس بدمشق عام ١٩٧١ م.

(٣) انظر: الشعر والشعراء (٢/ ٥٩١)؛ وفي رواية أخرىٰ أن أبا هُريرةَ قال للعجاج: «إذا أتاك المصدِّق فقل: خذِ الحقّ دع الباطلَ، فإنْ أبى فلا تمنعهُ إذا أقبل ولا تلعنْهُ إذا أدبرَ، فتكون عاصياً خفَّفَ عن ظَالم» (عيون الأخبار ١/ ٧) ومعنى: «بقعان الشّام»: خدمهم وعبيدهم، شبَّهَهُم لبياضهم وسوادهم بالغراب الأبقع، وهو ما خالَطَ سواده بياض، يعني بذلك الرّوم والسّودان.

للعجّاجِ وهو ينشدُ ، فإنْ قال حسناً ولم يفحشْ رضيَ ، لأنّه كان ينشدهُ في المسجدِ .

* قال العجّاجُ : «وردتُ المدينةَ المنوّرةَ ، فقصدتُ إلى مسجدِ النَّبيِّ ﷺ ، فأتيتُ أبا هُريرةَ وقد أكبّ عليهِ النَّاسُ يسألونَهُ ، فقلتُ : أفرجوا لي عن وجههِ ، فأُفرِجَ لِي عنه ، فقلتُ : يا صاحِبَ رسول الله : إنّي رجلٌ أقولُ من هذا الرجزِ شيئاً ، فهل ترىٰ عليّ فيهِ حَرجاً؟ قال : أسمعني بعضَ ما قُلْتَ .

قال فأنشدتْهُ :

طَافَ الخَيالانِ فَهَاجَا سَقَما ... خَيالُ أَروىٰ وخَيالُ تَكْتما

تريكَ وجْهاً ضَاحِكاً ومعْصَما ... وساعداً عَبْلاً وكَعْباً أَدْرَما

فقال : قد كان رسول الله ﷺ يُنْشَدُ مثل هذا في المسجدِ ، فلا ينكرهُ ولا يرىٰ بأْساً»[1] .

* وأوردَ ابنُ قتيبةَ في «الشِّعْر والشُّعراء» أنَّ الفرزدقَ واسمُهُ هَمَّام بن غالب بنِ صعصعةَ التَّميميّ قد لقي أبا هُريرةَ رضي الله عنه ، وكان أبو هريرة قد سمعَ عن الفرزدقِ فسْقَه ، فقال له : يا فرزدقُ ، أراكَ صغيرَ القدمَيْن ، فإنِ استطعتَ أَنْ يكونَ لهما غداً مقامٌ على الحوضِ فافعلْ»[2] .

---

(١) انظر : (ديوان العجاج (١/ ٤٠٣) ، والعقد الفريد (٥/ ٢٨٨) مع الجمع والتصرف .

(٢) الشّعر (١/ ٤٧٨) . وقال ابنُ حجر في لسانِ الميزان (٦٠/ ١٩٩) نقلاً عن كتاب «حُسْنِ الظّنّ» لابن أبي الدنيا بإسناده إلى : «القاسمِ بنِ الفضلِ عن لبطةَ بنِ الفرزدق عن أبيه قال : لقيتُ أبا هريرةَ فقال : مَنْ أَنْتَ؟ .
فقلتُ : الفرزدق .
قال : أرىٰ قدميكَ صغيرَتين ، وكم من مُحصنةٍ قَذَفْتَ!
فلما قمتُ قال : مهما صنعتَ فلا تقنطنَّ» (الشعر والشعراء ١/ ٤٧٨) الهامش .
وفي رواية أنّ الفرزدق قال لأبي هُريرةَ : «إنَّ ذنوبي كثيرةٌ» ؛ فقال له : «لا بأسَ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «إنَّ بالمغربِ باباً مفتوحاً للتّوبةِ لا يُغلقُ حتّى تطلعَ الشَّمس من مغربها» (البداية والنهاية ٩/ ٢٦٥) . أقول : «وتصرّف أبي هريرة يدلُّ على حسن دعوته إلى الله عزَّ وجلَّ بالحكمة والموعظة الحسنة ، والتذكير برحمة الله تعالى وسعة مغفرته» .

* ولأبي هُريرةَ أدبيّاتٌ برَّاقَةٌ خلاّبةٌ وجميلةٌ مع قطبِ الجودِ سيدنا جعفرَ بنِ أبي طالبٍ رضي اللهُ عَنْهُ ، فلنسمعْ أبا هريرة ما يقولُ عنه: «ما وَدِدْتُ أنَّ أحداً ولدتني أمُّه إلا أمّ جعفر بن أبي طالب رضي اللهُ عنه ، تبعتهُ ذاتَ يومٍ وأنا جائعٌ ، فلمّا بلغَ البابَ التفَتَ فرآني ، فقال لي: ادخُلْ؛ فدخلتُ؛ ففكَّرَ حيناً فما وجدَ في بيتِهِ شيئاً إلاّ نِحياً ـ وعاءً للسَّمنِ ـ كان فيه سَمْنٌ مرٌّ ، فأنزلَهُ من رفٍّ لهم ، فشَقَّهُ بينَ أيدينا ، فجعلنا نلعقُ ما كانَ فيه من السَّمنِ وهو يقول:

ما كلَّفَ اللهُ نَفْساً فوقَ طاقتِها ولا تجودُ يدٌ إلاّ بما تَجِدُ[1]»

* ومن اللطائفِ الأدبيّةِ والظَّرائفِ الجميلة ما جاء عن أبي ميمون قال: «عقلتُ بعيري ، ودخلتُ المسجدَ ، فجاءَ رجلٌ فأطلقهُ ، فجئتُ إليه ، فقلتُ: يا فاعلاً بأمّه! فرفَعَنِي إلى أبي هريرةَ ، فضربني ثمانين ، فركبتُ بعيري ، وأنا أقولُ:

لَعَمْرُكَ إنِّي يوم أُضْرَبُ قائماً ثمانينَ سَوطاً إنّني لَصَبُورُ[2]»

الأديب الحكيم:

* شَخصيَّةُ سيّدنا أبي هُريرةَ رضي الله عنه شخصيةٌ ثريةٌ بالعِلْمِ ، غنيةٌ بالمعرفةِ وجودة الفهم ، فقد حبَاهُ اللهُ فَضْلاً وفهماً وأدباً وعلماً وحصافةً ، فإذا نطقَ جاء نطْقُهُ محلّى بالأدبِ والحكمةِ ، وإذا قصَّ جاءت قصّتهُ مثمرةً تحملُ الموعظةَ والتَّوجيهِ ، وإذا سُئِلَ عن شيءٍ أجابَ إجابةَ الحكيم الأديب ، وكلّ ما يقولهُ لا يخرجُ عن الآدابِ التي تعلَّمها من مدرسةِ النُّبوّةِ الكريمةِ ، وكان بالإضافةِ إلى ذلكَ يحفظُ الحِكَمْ النَّافعةِ التي جاءت عن كبارِ الصَّحابةِ وعلمائِهم.

* أوردَ أبو حَيَّان التَّوحيديّ نتفاً أدبيةً لِمَا اختزنته ذاكرةُ أبي هريرةَ الأدبيّة ، ومنها ما جاءَ عنه قال: «لمّا استخلفَ عمر صَعِدَ المنبر ، فحمدَ اللهَ

---

(١) العقد الفريد (١/ ٢٣٥).
(٢) أخبار القضاة (١/ ١١١).

وأثنىٰ عليهِ ثم قال: «أيّها النّاسُ إنّي نظرتُ إلى الإيمانِ فوجدتهُ يقومُ على أربعِ خِصَالٍ. فقام إليه عمّار بن ياسر فقال: ما هُنَّ يا أميرَ المُؤمنين؟ قال: **الأولَى**: تقوىٰ اللهِ في جمعِ المال من أبوابِ حِلّهِ، فإذا جمعتهُ عففتُ، وإذا عففْتُ عنه وضعتهُ في مواضعهِ حتّى لا يبقى عندي منه دينار ولا درهم ولا عندَ آل عمر خاصة.

والثّانية: أعرفُ للمهاجرين حقّهم، وأقرّهم على منازلهم.

والثالثة: الأنصارُ الذين آووا ونصروا، أحفظُ وصيّة رسولِ اللهِ ﷺ فيهم، فأقبلُ من محسِنِهم، وأتجاوزُ عَنْ مسيئهم، وأكونُ أنا عيالهم حتى ينصرفوا إلى منازلهم.

والرابعة: أهل الذّمةِ، أفي لهم بعهدهم، وأقاتلُ من ورائهم ولا أُكلّفهم إلا طاقتهم. قال: إذا فعلتُ ذلك كنت معترِفاً عند اللهِ جلَّ اسمهُ بالذّنوب»[1].

* ومن القَصَصِ الشَّائقةِ التي كان أبو هريرةَ من خلالها ناصحاً ومرشداً ومذكّراً بالهديّ النّبويّ، ما ذُكِرَعَنْ مكحول: «أنَّ رجُلاً أتى إلى أبي هريرة رضي الله عنه، فقال: أُدْعُ اللهَ لابني، فقد وقعَ الخوفُ في نفسي من هلاكهِ؛

فقال له: ألا أدلكَ على ما هو أنفعُ من دعائي وأنجعُ وأسرع إجابة؟

قال: بلى.

قال: تصدّق عنه بصدقةٍ تنوي بها نجاةَ ولدكَ، وسلامة ما معه.

فخرجَ الرَّجُلُ من عنده، وتصدَّقَ على سائلٍ بدرهم، وقال: هذا خلاصُ ولدي وسلامته وما معه؛ فنادىٰ في تلكَ السَّاعةِ مُنادٍ في البحر: ألا إنَّ الفداءَ مقبولٌ وزيدٌ مُغاث، فلمّا قدمَ سألَهُ أَبوهُ عن حاله، فقال: يا أبتِ، لقد رأيتُ في البحر عجباً، يوم كذا وكذا في وقتِ كذا وكذا ـ وهو

---

(١) البصائر والذخائر (٦/ ١٣٩ و١٤٠) تحقيق د. وداد القاضي ـ دار صادر ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٨٨ م.

اليومُ الذي تصدَّق فيه والده عنه بالدرهم ـ وذلك أنا أشرفنا على الهلاكِ والتَّلفِ ، فسمعنا صوتاً من الهواء : ألا إنَّ الفداء مقبول ، وزيدٌ مُغاثٌ ، وجاءنا رجالٌ عليهم ثيابٌ بيضٌ ، فقدَّموا السَّفينةَ إلى جزيرةٍ كانت بالقربِ منّا ، وسَلِمْنَا ، وصرنا بخيرٍ أجمعين!!!»[1] .

* وممّا يندرجُ تحتَ بابِ القَصصِ المفيدِ ، والتّذكيرِ برحمةِ اللهِ تعالى ، ما رواهُ أبو هُريرةَ قال : «تكلَّمَ النَّبيُّ ﷺ ، فأبكىٰ مَنْ فِي البَيتِ ، فكان رَجلٌ في زاويةِ البيتِ تسيلُ دُموعُهُ على خدَّيهِ لا يُسْمَعُ له صوتٌ ، ولا تُرى له عَبْرةٌ ، فجاء جبريل عليه السلام فقال : «يا محمد ، أما أنَّ هذا الباكي قد أطفأ بدموعهِ بحوراً مِنْ جَهنَّم!!»[2] .

* ولأبي هُريرةَ أقوالٌ رائعة وحِكَمٌ ناجعة كأنَّها نثرُ الدُّرِّ ومنها قولهُ في صِفَاتِ القاضي : «لا ينبغي للقاضي إلاّ أنْ يكونَ عالماً فِهماً ، صارِماً»[3] .

* وكانَ يرى أنَّ سيّدنا عليَّ بنُ أبي طالبٍ قد اجتمعتْ فيه شُروطُ القاضي فقال : «أقضىٰ أهلِ المدينةِ عليّ»[4] .

* ويرىٰ أبو هُريرةَ لزومَ طاعةِ الأئمةِ والنُّصحِ لهم امتثالاً لقولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ [النساء : ٥٩] ، وكان يقول : «أُمِرنا بطاعَةِ الأئمةِ ، وطاعتهم من طاعةِ اللهِ ، وعصيانهم من عصيان الله»[5] .

* لكنْ لأبي هُريرةَ رأيٌ في الولاةِ والقضاةِ أصحابِ الأمرِ والنّهي فيقول : «ما من امرئ يؤمّرُ على عشرةٍ إلا جيء به مغلولاً يومَ القيامةِ ، أنجاهُ عملهُ أو أهلكهُ»[6] .

---

(١) المستطرف (١/ ٤١ و٤٢).
(٢) البصائر والذخائر (٣/ ٢٠).
(٣) أخبار القضاة (١/ ٧٩).
(٤) المصدر السابق عينه (١/ ٩٠).
(٥) العقد الفريد (١/ ٩).
(٦) سراج الملوك للطرطوسي (ص ١٣٨) تحقيق جعفر البياتي ـ مؤسسة رياض الريس ـ =

* وله في العلمِ آراء تربويةٌ سبقَ بها أساطين أهلِ التّربيةِ من الشَّرقِ والغربِ ، ومن المعلوم أنَّ الصَّحابةَ كانوا يسلمون شيوخاً وكهولاً وشباباً وولداناً وأحداثاً ، وكانوا يتعلّمون العلْمَ والقرآنَ والسُّنَنَ ، وهم بحورُ العِلْمِ ، وأطوارِ الحِكمةِ ، ومعادنِ الفقهِ.

* إنَّ الرجلَ الجاهلَ إذا تعلَّمَ قليلاً قليلاً يوشكُ أنْ يحقّقَ بغيتَهُ ، وإنْ لم يتعلَّمْ في الكبرِ لما فاته في الصِّغرِ ، فأحرى به أنْ يرزحَ تحت عبء الجهلِ وثقلهِ.

* وذكروا أنَّ رجلاً جاء إلى أبي هُريرةَ رضي اللهُ عَنْه فقال له: يا أبا هُريرة ، أريدُ أَنْ أتعلَّمَ العِلْمَ وأطلبَهُ ، وأخافُ أن أضيّعَهُ!

فقال أبو هريرة له: «كفاكَ بتركِ طلب العلم إضاعةً له ، وبعضُ الخيرِ خير من كُلِّ الشَّرِّ»[1].

* وله أقوالٌ تنطوي تحت باب علْم الجغرافية ، والأنواء ، فقد أوردتْ بعضُ المصادرِ الأدبية وكتبِ المسايرات والمجالس أنّه قال: «مُثِّلَتِ الدُّنيا على طائر؛ فالبصرةُ ومصرُ الجناحان ، والشَّامُ والجزيرةُ الجؤجؤ ـ الصّدرُ ـ واليمنُ الذنبُ»[2].

* ومن أقوالِهِ وحكمهِ الموجزة النّافعة وقد سُئِلَ عن المُروءةِ؟ فأجاب: «المروءةُ تقوى الله وتفقّد الضَّيْعَة»[3].

* وله حكمةٌ جميلةٌ في ذمِّ العيّ وحشو الكلام ، لأنَّ الصَّحابةَ كانوا يكرهونَ كثرةَ الكَلامِ ، وكان شعارهم دائماً: بتركِ الفُضُولِ تكمُلُ العُقول ،

= ط ١ ـ ١٩٩٠ م ، وانظر: المستطرف (١/ ٣٠٧).

(١) انظر سراج الملوك (ص ٢٠٦) ، والعقد الفريد (٢/ ٢١١) ، مع الجمع والتصرف.

(٢) انظر: البصائر والذخائر (٣/ ١٤٥) ، وعيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ٢١٦) ، وبهجةُ المجالس (٢/ ١٨١).

(٣) العقد الفريد (٢/ ٢٩٢) ، وقال: «المروءة: استصلاح المال ، ومعونة الإخوان ، والذّبّ عنهم».

يقولُ أبو هُريرةَ رضي الله عنه: «لا خيرفي فضولِ الكلامِ»[1].

* ومِنْ أبدعِ ما قيلَ في طلبِ الرّزقِ ما أُثِرَ عَنْ أبي هُريرةَ قال: «إذا سألَ أحدكم اللهَ الرّزَق، فلينظر كيف يسأل، فإنَّ اللهَ يرزقُ الحلالَ والحرام، ولكنْ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ ارزقني ما ينفعني ولا يضرّني»[2].

* وفي الحبِّ والكراهيةِ يتحفُ أبو هريرةَ العقولَ بهذه الحكمةِ المُنْبَثقةِ عن حقيقةِ زهدِهِ وحياتِهِ فيقول: «كَرِهَ النَّاس ثلاثاً وأحببتُهنَّ: كرهوا المرضَ وأحببتهُ، وكرهوا الفقرَ وأحببتهُ، وكرهوا الموتَ وأحببتُه»[3].

* ومن حكمهِ التّربويةِ التي تهمُّ النَّاشئة والشَّباب وعموم الأبناءِ؛ فقد رأى رجلاً يمشي خَلْفَ رجلٍ، فقالَ: مَنْ هذا؟

فقال: أبي.

قال: «لا تَدْعُهُ باسمهِ، ولا تجلسْ قَبْلَهُ، ولا تَمْشِ أمامَهُ»[4].

* وكان أبو هريرةَ يكرهُ الحمَّامَ على الرّغمِ من أنَّ عدداً من السَّلف قد امتدحوهُ، ولكنَّهُ كان يقول: «بئسَ البيتِ الحمّام، يكشفُ العورة، ويُذهبُ الحياء»[5]!!!.

* وكان أبو هريرةَ حفيفَ الظِّلِّ، لطيفَ المعشَر، وكان إذا استثقلَ رجلاً قال: «اللهم اغفرْ لنا وله، وأرحنا منه»[6]، لأنّه كان يعتبر مجالسةَ الثَّقيلِ من حمّى الرّوح، وسمّ القلب.

* ومن المستطرفاتِ التي تحملُ الظَّرفَ الحكمةَ وخفّةَ الظِّلِّ معاً، ما جاءَ

---

(١) بهجة المجالس (١/ ٦٠).
(٢) بهجة المجالس (١/ ١٤٢).
(٣) العقد الفريد (٣/ ١٩٦).
(٤) بهجة المجالس (٢/ ٧٦٢).
(٥) المصدر السابق (٣/ ٩٥).
(٦) العقد الفريد (٢/ ٢٩٦)، وبهجة المجالس (٢/ ٧٣٤)، والتذكرة الحمدونية (٩/ ٣٧٢)، وعيون الأخبار (١/ ٣٠٩).

في المصادرِ ، عن سعيد المقْبُري : «عن أبي هُريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَجلاً قال له: إني أصبحتُ صائماً ، فجئتُ أبي فوجدتُ عندهُ خُبزاً ولحماً ، فأكلتُ حتّى شبعتُ ونسيتُ أني صائم.

فقال أبو هريرة : اللهُ أطعمكَ.

قال: ثم خرجتُ حتّى جئتُ فلاناً ، فوجدتُ عندهُ لِقْحةً تُحلَبُ ، فشربتُ من لبنها حتّى رويت.

قال : اللهُ سَقاكَ.

قالَ: ثمّ رجعتُ إلى أهلي ، فَقِلْتُ ـ نِمْتُ ـ فلمّا استيقظتُ دعوت بماء فشربتُه.

فقال : أنتَ يا بن أخي لم تعوَّدِ الصّيام»[1].

* وقال يوماً لأصحابهِ يداعبُهم : «ألاّ أدلكُمْ على غنيمةٍ باردةٍ؟

قالوا: ماذا يا أبا هُريرة؟

قال : «الصَّومُ في الشِّتاء»[2].

* وفي مراقبةِ النَّفسِ ، وتركِ عُيوبِ الآخرين ، ينطقُ أبو هريرة بهذه الحكمة البديعة : «يبصرُ أحدكم القذاةَ في عينِ أخيهِ ، وينسى الجذع ـ أو الجذع ـ أصل الشَّجرة ـ في عين نفسه»[3].

* والفاجرُ الصَّفيقُ ذو النّعمةِ والبطر نهايتهُ وخيمة ، ترى ما الحكمة التي

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ١١٤) ، والإصابة (٤/ ٢٠٧) ، ومختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠٢) ، مع الجمع والتصرف اليسير. وجاءت القصة في المصادر برواية عن رجل ، وأنَّ الرجل قال للسائل: «أرىٰ ألا تصومَ إلا ويديك مغلولة إلى عنقك». (نثر الدر ٤/ ٢٨٧) ، و(التذكرة الحمدونية ٩/ ٤٥٠).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٣٨١).

(٣) الأدب المفرد برقم (٥٩٢). أقول: «لو طبّقَ النَّاسُ هذه الحكمة لَسادَ الحبُّ والوئامُ بين النّاس».

جرتْ على لسانِ أبي هُريرةَ في ذلكَ؟ قال أبو هريرة: «لا تغبطنَّ فاجراً بنعمتهِ، فإنَّ من ورائهِ طالباً حثيثاً طلبُه ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]»[١].

* وللعلمِ فضْلٌ ومكانةٌ كبرىٰ عند سيّدنا أبي هُريرة، ففي حكمةٍ قالها عن تعلُّمِ العلمْ نلمسُ مدىٰ حرصهِ الشَّديدِ عليه، فعن أبي سلمةَ قال: قال أبو هريرةَ وأبو ذرّ: «بابٌ من العلمِ نتعلَّمُه أحبُّ إلينا من ألفِ ركعةٍ تطوّعاً، وبابٌ من العلْمِ نعلِّمهُ، عَمِلْنا بهِ أَوْ لم نَعملْ به، أحبُّ إلينا من مئةِ ركعةٍ تطوّعاً، وقالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إذا جاءَ طالبَ العلْمِ الموتُ وهو على هذه الحال مات وهو شهيد»[٢].

* قال الحسن البصري: «كان أبو هريرةَ رضي الله عنه من أحسن القوم كلاماً»[٣].

* ولأبي هريرةَ حِكَمٌ عذبةُ المشاربِ، لطيفةُ المَسَارب، ومنها ما قالهُ في قبولِ الهَديّةِ: «ما من أحدٍ من النّاسِ يهدي إليّ بهديّةٍ إلا قبلتها، فأمّا المسألةُ فإنِّي لم أكنْ أسأل»[٤].

* وقال: «درهمٌ يكونُ من هذا ـ وكأنَّهُ يمسحُ العرقَ عَنْ جبينهِ ـ أتصدَّقُ به، أحبُّ إليّ من مئةِ ألفٍ، ومئة ألف، ومئة ألف، من مال فلان»[٥].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠٠).

(٢) المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٩٩ و٥٠٠)، ومختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠١). وذكرت المصادر الأدبيةُ أنَّ سلمانَ الفارسيَّ كتبَ لأبي هريرةَ رضي الله عنهما: «إنك لن تكونَ عالماً حتى تكون متعلماً، ولن تكون بالعلم عالماً حتى تكون به عاملاً» (التذكرة الحمدونيّة ١/ ١٣٩ و١٤٠)، و(نثر الدر ٢/ ٧٥).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠٢).

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠١) وهكذا ربّى الإسلام أبناءَه على العفّة، وعلو الهمة، وتطبيق الأوامر النبوية، والبعد عن النواهي المخلة بالآداب.

(٥) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦١٥).

* وفي استعمالِ السِّواكِ والإشارة إلى فوائده يقول: «السِّواكُ بعدَ الطَّعامِ يزيلُ وَضَرَ الطَّعَامِ»[1].

* ومن محاسنِ حِكمهِ وأقوالهِ في بذرِ المحبّةِ والوئامِ بينَ النّاسِ قوله معلّماً ومذكّراً: «مَنْ لَقيَ أخاهُ فليُسلِّمْ عليهِ، فإنْ حالتْ بَيْنَهُما شَجرةٌ أَوْ حائطٌ، ثمَّ لقيهُ فليسلم عليه»[2].

* وقال أيضاً: «أبخلُ النَّاسِ الَّذي يَبخلُ بِالسَّلامِ، وإنَّ أعجزَ الناس مَنْ عَجِزَ بالدُّعاء».

* ومن أدبيّاتهِ التَّوجيهيّة قوله: «إذا رأيتم ستّاً فإنْ كانت نفسُ أحدكم في يدهِ فليرسلها، فلذلكَ أتمنىٰ الموت، أخاف أنْ تدركني إذاً: إمْرةُ السُّفهاء، وبيعُ الحكم، وتهون بالدم، وقطعُ الأرحامِ، وكثرة الجلاوزة، ونشأةٌ نشو يتّخذون القرآنَ مزامير»[3].

* وكان رجلٌ يؤذيهِ بِلسانه، فقيل له: مات فلان، فقال: «ليسَ في الموتِ شماتَةٌ، لو أخبرتموني أنَّهُ أُمِّرَ على إمْارةٍ، أو أصابَ مالاً، أو وُلدَ له ولد».

* وله هذه الحكمةُ اللطيفةُ والموعظةُ البليغةُ، فقد كان رضي الله عنه إذا سمعَ أحداً يسألُ: مَنْ هذه الجنازة؟ قال: «هذا عبدُ الله، دعاهُ فأجابَهُ، أو أَمَتَهُ دعاها فأجابته، اللهُ يعرفهُ، وأهلهُ يفقدونه، والنّاسُ ينكرونه، أُغْدُوا فإنّا رائحون، أو روحوا فإنّا غادون؛ موعظةٌ بليغةٌ، وغفلةٌ سريعةٌ، تُذهبُ الأوّلَ، وتُبقي الآخرَ لا عَقْلَ لَهُ».

* وقال لِبَنَّاء مرّةً: «تبنونَ شديداً، وتأمُلُونَ بَعيداً، والأجلُ قريبٌ»[4].

---

(١) التذكرة الحمدونية (٩/ ٨٥).

(٢) أبو هريرةَ راوية الإسلام (ص ١٢٠، ١٢١). نقلاً عن الأدب المفرد.

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠٥). أقول: «وهذا الكلام من سيدنا أبي هريرة يدلُّ على طيب عنصره، وتفاعله مع تعاليم الإسلام الذي يكره الضَّغائن».

(٤) المصدر السابق (٢٩/ ٢٠٤) بتصرف يسير.

* إنَّ أقوالَ سيّدنا أبي هريرةَ ، ومواعظَهُ ، وحكمَهُ ، ووصاياهُ ، وتوجيهاتهُ تملأُ صدورَ الكتبِ وتزيّنها ، ولا يستطيعُ الباحثُ أنْ يستقصيها أو يحيطَ بِها ، وقد أَوردتُ منها طاقاتٍ لتتوضّحَ شخصيّةُ أبي هُريرةَ العلميّةَ والأدبيّةَ والموسوعية ، فرضي الله عنه وأرضاه.

هل هذهِ الأخبارُ صحيحَة؟

* تشتملُ بعضُ كتبِ الأدبِ والأسمار على التّاريخِ والنّوادرِ والأشعارِ والمحاورات والأخبارِ وقصص المجالس ، كما أنّها تشتملُ على الغثّ والسَّمينِ والمعرفةِ والنّكرةِ ، ولا يعوّلُ عليها في معظمِ ما تضمّه بين دفتيها ، على الرّغمِ من سيرورتها بين النّاس ، وحبّهم لمطالعتها لها ، ومن هذه الكتب: مُحاضراتُ الأدباء ، وثمارُ القُلوب ، والتّذكرةُ الحمدونيةُ ، والعقدُ الفريدُ ، والتّمثيلُ والمحاضرة ، وخاصُّ الخاصِّ ، وربيعُ الأبرارِ ، وبهجةُ المجالسِ ، والبصائرُ والذّخائرُ ، ونثر الدُّرِّ ، وسراجُ المُلوكِ ، والغيثُ المسجم ، والمستطرفُ ، وثمراتُ الأوراق ، وأدبُ الدُّنيا والدِّين ، ونشوارُ المحاضرةِ ، والفرجُ بعدَ الشِّدّةِ ، وعيونُ الأخبارِ ، والأغاني ، ومعاهد التّنصيص ، ونهايةُ الأربِ ، ويتيمةُ الدّهر ، وتزيينُ الأسواق ، والزّهرةُ ، والجليسُ الصَّالحُ ، وما شابهها ، وسارَ على شاكلتها.

* أقول: «في أردان هذه الكتبِ وثناياها ، وبين خبايا زواياها نجدُ بعضَ الأحايين والأوقات شيئاً من الأخبارِ العجيبةِ ، والنّوادرِ الغريبةِ ، والقصصِ الرهيبةِ التي فيها تعريضٌ بأكابرِ الصَّحابةِ ، بل نجدُ أحياناً هذا التّعريضَ يمتدُّ إلى القدحِ والنَّيل من الصحابة الأعلام الكرام رضي الله عنهم أجمعين».

* وممن نالتْهُ بعضُ هذه الكتبِ وغيرها سيّدنا أبا هُريرةَ رضيَ اللهُ عَنْهُ ظناً مِمَنْ سَولَتْ لَهُمْ أَنْفُسهم شيئاً ، أنّهم يغضُّونَ من شأن سيّدنا أبي هُريرةَ رضي الله عنه ، ولله درُّ أبي حيّان الأندلسيّ ، إذ نَظَمَ في هذا المعنىٰ بيتينِ فقال:

عِـداي لَهُـمْ فَضْـلٌ عَلـيَّ ومنَّـةٌ فلا صَرَفَ الرَّحمنُ عَنِّي الأَعَادِيا

هُـمُ بحثُـوا عَـنْ زَلَّتـي فـاجْتَنبتُهـا   وهمْ نافَسُوني فاكتسَبْتُ المعاليا[1]

* وأنا لم أكتبْ هذه الفقرة ها هنا للدّفاع عن أبي هُريرةَ الصَّحابي الحبيبِ المحبِّ فحسب، وإنّما كتبتُها لِبيانِ وتبيين الأخبار الزَّائفة التي لا تنسجمُ مع حقائقِ التَّاريخِ والواقع ، ولما فيها من استخفافٍ بعقولِ النَّاسِ في مشرقِ الأرض ومغربِها ، أمّا العُلماء[2] فقد كتبوا دفاعهم عن أبي هُريرة فكَفَوا وَوَفَّوا ، ثم إنَّ موضعَ كتابنا هو الحديثُ عَنْ عِلْمِ الصَّحابةِ وأدبِهم وفقهِهِم وإبرازِ النَّواحي العلميّةِ في حياتهم ، والاستفادةُ من علومهم ، والمسيرِ على دربهم بما تركوه من زاد العلمِ والحفظِ والاتّباعِ لنهجِ الحقّ ، بما جاءهم به الصَّادق المصدوق ﷺ.

* ومن الأخبارِ التي تُسيءُ إلى عددٍ من أعيان الصَّحابةِ ـ ومنهم: سيدنا أبو هريرةَ ، ومعاويةُ ، والحسنُ بنُ علي رضي الله عنهم ـ هذه القصّةُ التي باطِنُها العذابُ والافتراء ، وظاهرها الجرحُ والغمزُ واللمزُ.

* قال ابنُ حمدون في تذكرتهِ ما نصُّهُ: «قال معاويةُ لابنهِ يزيد: هل بقيَ في نَفْسِكَ من النِّساءِ شيءٌ؟

قال: نَعم ، هندُ بنتُ سُهيل بن عمرو ـ وكانت يومئذ عند عبد الله بن عامر ـ فكتبَ معاويةُ إلى عبدِ اللهِ: إِنَّكَ إِنْ طلَّقتها زوجتُكَ بنتي هنداً.

قال: فطلَّقها ابن عامر ، فقدمتِ المدينةَ ، فأرسلَ معاويةُ بأبي هريرةَ يخطبُها على يزيدَ ابنِهِ ، ويتلطَّفُ لها في ذلك. قال: «فلقيهِ الحسنُ فقال: لأمرٍ ما قدمتَ له يا أبا هريرة ، لا وقت حجّ ولا غيره!

قال: بعثَني معاويةُ أخطِبُ هنداً بنتَ سُهيلِ بنِ عمرو على ابنهِ يزيد.

---

(١) البدر الطالع للشوكاني (٢/ ٢٩٠).

(٢) قيّضَ اللهُ عزَّ وجلَّ لأبي هريرةَ رضي الله عنه رجالاً من أهلِ العلمِ والمعرفةِ ، من المشرقِ والمغربِ ، ليدافعوا عن أبي هُريرةَ ويدفعوا الأوهامَ والأخبارَ الواهيةَ الموضوعةَ في سيرته ، وهم كثيرون والحمدُ للهِ ، ومصنّفاتهم تملأُ المكتبات ، وهم في الحقيقة أقدرُ مني في هذا الموضوع، مع العلم أنَّ مجال كتابنا وموضوعه لا يسمحُ بالردّ.

قال: فإذا ذكرتَ يزيد فاذكُرني لها بعده.

قال: فدخلَ عليها أبو هريرةَ، فأبلغَها عن الحسنِ بنِ عليّ.

قال: ما ترىٰ لي أبا هريرةَ؟

قال: أرىٰ أَنْ تتزوّجي الحسَنَ، وإِنْ استطعتِ أَنْ تضعي فَاكِ حيثُ رأيتُ رسول الله ﷺ وَضَعَ فَاهُ، فافْعَلي؛ فتزوَّجتِ الحَسنَ.

فمكثتْ عِنده، ثم قدمَ ابنُ عامرٍ المدينة، فاستأذنَ الحسنَ بنَ عليّ في الدُّخولِ عليها، وقال: إِنَّ لي عندها ودائع، فأذنَ له، فدخلَ عليها فكلَّمها، فدمَعتْ عينهُ وعيناها! فقال له الحسن: إِنْ شئتما كنتُ لكما خير مُحَلِّل!!!

قال ابنُ عامر: لا واللهِ، ما لذاكَ بكائي. وطلبتْ إلى ابن عامر أنْ يدعَ ابنتَه منها عندها. وكلَّمهُ الحسنُ فأجابه، وقال: واللهِ لو غيركَ يا أبا مُحمّد من النّاس كلّمني ما فعلتُ»[1].

* نقول: «تحملُ هذه القصّة من البلاء والسُّوء شيئاً عظيماً لا يقدمُ عليه سوقةُ النّاس، فكيف بأكابر الصَّحابة وأشرافهم؟! وأودُّ أن أذكر القارئ بأنَّ يزيدَ بنَ معاويةَ قد وُلدَ سنة (٢٥ هـ)، بينما توفي سهيلُ بنُ عمرو والدُ معشوقةِ يزيدَ ـ كما زعموا ـ سنة (١٧ هـ)، وعبدُ اللهِ بنُ عامر من صغار الصَّحابة، فهو صحابيُ ابنُ صحابي!!. ثم هل يعقل أنْ يكونَ أبو هريرة وسيطاً في مثلِ هذه الحالة، ويخطبُ هنداً ليزيدَ؟ ثمّ ما هذه المصادفةُ التي جعلتِ الحَسنَ بنَ عليّ يلتقي أبا هُريرة، ثمّ يطلبُ إليهِ أنْ يذكره عند هندٍ!! ثم يكونُ مُحلّلاً!! وما أدراك ما المُحلّل!؟!! واللهِ إِنَّ هذه القصَّةَ لا تصلحُ أن تكون «فِلْماً فاشِلاً» في أيّامنا هذه، فكيف في أحدِ كتبةِ الوَحي وأمناءِ الرّسالة سيّدنا معاوية؟!! أو معَ حافظِ الصحابةِ الأوّل وسيّدهم في كثرةِ الرّواية؟! بل مع

---

(١) التذكرة الحمدونية (٩/٢٦٩) تحقيق إحسان عباس وبكر عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.

سيّدنا وحبيبنا سبطِ رسولِ اللهِ ﷺ وسيّد شباب أهل الجنّة الحسنِ بنِ عليّ رضوان اللهِ عليهما!!!! إِنَّ هذا لشيء عجيبٌ!».

* هذا وفي القصَّةِ سقطاتٌ كثيرةٌ تزيدُ عن عشرين سقطة فاحشة يدركُها القارئ الكريم بذهنه، ولن أطيلَ عليه، لأنّني سأوردُ قصّةَ شِبْهَ مطابقة لها جاءت في المصادرِ والمراجعِ، وهي تقدح أيضاً في عدد من الصَّحابةِ الأعلامِ، وتغمزُ سيرتهم النَّاصعةَ النَّقية، ومنهم سيدنا معاويةُ، وأبو هريرةَ، وأبو الدّرداء، وسيدنا وحبيبنا الحسينُ بنُ عليّ رضي الله عنهم أجمعين وحشرنا في زمرتهم.

* وملخّصُ هذه الفِرية الغاشمة ومفادها: «أَنَّ أُرَينبَ بنت إسحاقَ ذات الجمالِ البارعِ والشَّرفِ التَّليد كانت متزوجةً من ابن عمّها عبد الله بن سلام القُرشي!! وصادفَ أَنْ عشقها يزيدُ بنُ معاوية، وكادت تتلفُ نفسه، وغُمَّ وأصابهُ هَمُّ الهيام وأَرَقُ الغرام.. وساء معاوية ما رأى من نحولِ ابنهِ وحالته؛ وأنَّ قلبَه قد أضناه العشق وأثّرت به تباريح الحبّ، فاحتالَ على ابن سلام، وبعثَ إليه برسالةٍ مُنَمَّقةٍ إلى العراق يأمرهُ بالقدومِ إليه إلى الشَّامِ، فقدِمَ مُسرِعاً، وكان عند معاوية بالشّامِ أبو هُريرةَ وَأبو الدّرداء، فأوهمهما أنَّه يريدُ ابنَ سلام زوجاً لابنتهِ، وأرادَ بذلكَ رأيهما فقالا: إنَّ أولىٰ النَّاس برعايةِ أَنْعُمِ اللهِ وشكرِها، وطلبِ مرضاته فيها فيما خصَّهُ به منّا أنتَ صاحبُ رسول الله ﷺ وكاتبُهُ.

فقال معاويةُ لهما: اذكرا ذلكَ عنّي، ورغبتي في زواجِهِ ابنتي.

ثمَّ خرجَا إلى منزلِ عبدِ الله بن سلام، ثمّ اتَّفقَ معاويةُ معَ ابنتهِ بأن تُوْهِمَ أبا هريرة وأبا الدّرداء وابنَ سلام برضاها بشرط أنْ يطلّقَ ابنُ سلام أُرَينبَ زوجتهُ، لِيصفوَ لها الجوّ، ولا تتكدّرَ من الضُّرَّة!!. وانطلتِ الحيلةُ على الثَّلاثةِ، وطلّقَ ابنُ سلام زوجتَهُ، ثمَّ إنَّ ابنةَ معاوية تنصَّلَتْ مِنَ الأمرِ كما رسمَ لها أبوها؛ وعلم ابنُ سلام أنَّهُ خُدعَ فَحَزِنَ!!

ثم عندما انتهت عدّتها أرسلَ معاويةُ يخطبُها على ابنه يزيد، وخرجَ

رسولُ معاويةَ إلى العراقِ ، فالتقى الحسينَ بنَ عليّ رضي اللهُ عَنْهما ، وقصَّ عليهِ القَصص ، وبالنّهاية خطبَها الحُسينُ ، ثم تزوّجها ، وجاءَ زوجها ابنُ سلام فاجتمعا وبكيا ورآهما الحسين فَـرَقَّ لحالهما وقال: أُشْهِدُ اللهَ أنَّها طالقٌ ثلاثاً ، اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعلمُ أني لم أستنكحها رغبةً في مالِها ولا جمالِها ، ولكني أردتُ إحلالها لِبعلها!!! فأوجبْ لي بذلكَ الأجر ، وأجزلْ لي عليه الذّخر ، إنَّكَ على كلّ شيءٍ قدير. . ثمّ تزوّجها ابنُ سلام وعاشا متحابين متصافيين حتّى قبضهما الله. . »[1].

* وهذا القصّةُ كسابقتها في المضمون إلاّ أنَّ المُحلل الآن هو السِّبْطُ الشريفُ سيّدنا الحُسينُ بنُ علي رضي الله عنهما ، مع اختلافِ أبطالِ الغرام في الأسماءِ فقط. . . !! . . . !!. . نعوذُ باللهِ من الأهواءِ ومن الشّطط.

* وممّا نُسِبَ إلى سيّدنا أبي هُريرةَ أنَّهُ قال: «لما كان الفتحُ قالَ لي خالدُ بنُ الوليد: يا أبا هُريرةَ ، اذهبْ بنا إلى هندِ بنتِ عتبةَ لعلّكَ تقرأُ عليها بعضَ القُرآنِ لينفعَها اللهُ تعالى به.

قلتُ: انطلقْ. فدخَلْنَا عليها كأنَّها واللهِ فرسٌ عربي ، فقال لها خالدُ بنُ الوليد: يا أمَّ معاوية ، هذا أبو هريرة صاحبُ رسولِ اللهِ ﷺ ، جئتكِ به ليتلوَ عليكِ القرآنَ ، ويذكرَ أمْرَ الإسلام.

قالَتْ: هات.

قال أبو هريرةَ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] ، حتّى انتهى إلى قوله عز وجل: ﴿كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤].

---

(١) أعلام النساء (١/ ٣٤ ـ ٤١) باختصار وتصرف؛ نقلاً عن الإمامة والسياسة لابن قتيبة ، وثمرات الأوراق لابن حجة الحموي. وسأترك التعليق للقارىء الكريم حتى ينظر الاستخفاف بأمور الدين وبالصحابة الكرام ، وبالفجواتِ والمغالطاتِ التاريخية والجغرافية في أمثال هذه القصص الجوفاء الهزيلة.

قالَتْ: لا وسدنِ الكعبة ، ما سمعنا بشاعرٍ قطّ ينتحلُ خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ إلّا صاحبكم هذا.

قال: يقول خالد: قمْ يا أبا هُريرةَ ، فواللهِ لا تُسْلِمُ هذه أبداً. فقمنا فخرجنا من عندها»[1]!!!

* وهذه القصّةُ فيها استخفافٌ بالعقولِ ، وإقحامٌ لأبي هريرةَ وخالدٍ وهندٍ رضي الله عنهم في ابتداعِ قصّةٍ وافتعالِها ، فمن المؤكَّدِ أنَّ السَّيِّدة هِنْدَ بنتَ عتبةَ قد أسلمَتْ يومَ الفَتْحِ وحَسُنَ إسلامها ، أسلمت بعدَ زوجها أبي سفيانَ بليلةٍ واحدةٍ فقط ، وقصّةُ بيعتها مشهورةٌ في كُتُبِ التَّفسيرِ وكتبِ الحديثِ ، وكتبِ التَّراجمِ والسِّيرةِ والطَّبقات ، وكذلك كتب الفقه والأحكام.

* ثم متى كان الصَّحابةُ كخالدٍ وأبي هُريرةَ وغيرِهما يذهبون إلى أيّ مكانٍ دونَ أمْرٍ مِنَ الصَّادقِ المصدوق ﷺ؟ ولماذا انفردَ سيّدنا خالدٌ وأبو هُريرةَ بالرّأيِ وذَهَبا إلى السَّيِّدة هندِ بنتِ عتبةَ رضي الله عنها ولم يذهبا إلى غيرِها مِنَ المُبايعاتِ من نساءِ مكّة وهنّ كثيرات[2]؟! أضفْ إلى ذلك أنَّ هذا الخبرَ ذو تركيبٍ ركيكٍ يدركهُ أدنى مَنْ له معرفة بالأدبِ. ولانقولُ في نهاية هذا التَّعليقِ إلا ما يرضي الله: «اللَّهُمَّ أصلحْ سرائرنا وعلانيتنا ، وارزقْنَا الحقَّ وحبَّ الحقِّ».

* وهذه أبطولةٌ من كبرياتِ الأباطيل والمفريات جاءت عند أبي منصور الثَّعالبي في كتابه «ثمار القلوب» تحت عنوان «شيخ المَضِيرة» يقولُ الثَّعالبيُّ: «كان أبو هريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ على فَضْلِهِ واختصاصِهِ بالنَّبيِّ ﷺ مزَّاحاً أكولاً؛ وكانَ مروانُ بنُ الحكم يستخلفُهُ على المدينة[3] ، فيركبُ حماراً قد شدَّ عليهِ

---

(١) التذكرة الحمدونية (٩/ ١٤٩).

(٢) للمزيد من أخبار المبايعات يوم فتح مكة ، وفي سائر المواقف اقرأ كتابنا«بيعة النساء في القرآن والسيرة» طبعة دار اليمامة ، ففيه فوائد كثيرة ، وتصحيح لمفاهيم كثيرة ينبغي أن يعرفها الناس.

(٣) قال الذهبي: «كان أبو هريرةَ طيب الأخلاق ، ربما ناب في المدينة عن مروان أيضاً». (سير أعلام النبلاء ٢/ ٦١٤).

برذعة ، فيلقىٰ الرَّجُلَ فيقول: الطريقَ الطريقَ ، قد جاء الأمير!

وعن أبي رافع قال: كان أبو هريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ ربّما دعاني إلى عشائهِ فيقول: : دع العُراقَ[1] للأمير ، فانتظرنا فإذا هوُ ثريد بزيتٍ ، وكان يدّعي الطِّبَّ فيقول: أكلُ التَّمرِ أمانٌ من القولنج ، وشربُ العَسَلِ على الريقِ أمانٌ مِنَ الفالج ، وأكلُ السَّفرجل يحسِّنُ الولد ، وأكلُ الرُّمانِ يصلح الكبد ، والزّبيبُ يشدّ العصب ، ويذهبُ الوصب والنَّصب ، والكَرَفس يقوي المعدة ، ويطيبُ النّكهة ، والعدس يُرقُّ القلب ، ويذرفُ الدَّمعة ، والقرعُ يزيدُ في اللّب ويرقُّ البشَرة ، وأطيبُ اللحم الكتف وحواشي فقار العنق والظَّهر.

وكان يديمُ أكلَ الهَريسة والفالوذج ، ويقول: هما مادَّة الولد وكان يعجبهُ المَضيرة[2] جدّاً؛ فيأكلُ مع معاوية ، فإذا حضرت الصَّلاةُ صلَّى خلفَ عَليّ رضي اللهُ عَنْهُ!!!! فإذا قيلَ له في ذلكَ: قال: مَضيرةُ معاوية أدسمُ وأطيبُ ، والصَّلاةُ خلف عليّ أفْضَل!!!

وكان يُقال له: شيخُ المضيرة ، وقيل فيه:

وتــولّــىٰ أبــو هُــريــرة عــن نَصْـ ـــرِ علــيٍّ ليستفيــدَ الثَّــريـــدا
ولَعمـــري إِنَّ الثَّـــريـــدَ كَثيـــرٌ للــذي ليـسَ يستحـقُّ الهبيــدا»[3]

---

(١) «العُراق» بضم العين ، جمع عَرْق ، وهو العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم وهبره وبقي عليه لحوم رقيقة طيبة فتكسر وتطبخ ، وأراد أبو هريرة أن يداعب أبا رافع فيوهمه أن يترك العُراق له ، وقدم له ثريد بزيت وأطلق على نفسه الأمير ، لأنه كان يتولى أمارةَ المدينة أحياناً نيابةً عن مروان وقد وهم بعضهم فقال: دع العِراق للأمير ، وقَصَد به بلد العراق.

(٢) «المضيرة»: مُريقة تطبخ بلبن وأشياء. وقيل: المضيرة: أن تطبخ اللحم باللبن الصريح. أقول: «لعلها تشبه أكلة «الشاكرية» عند أهل الشام» ويلقّبُ الطفيليون المضيرة بـ «أم الفضل».

(٣) ثمار القلوب (ص ١١١ و ١١٢) ، وعنه أخذ الزمخشري في ربيع الأبرار (٣/ ٣٧٠ و ٣٧١) ، وكذلك الأبشيهي في المستطرف (١/ ٥٣٩). ومعنىٰ «الهبيد»: الحنظل.

* هذا الخبرُ فيه من الخرقِ والعيوبِ والمُغَالطاتِ والتَّعريض شيءٌ كثيرٌ ، ومن العجيبِ أنَّ عيبَها يدلُّ عليها وعلى ناسجها الذي لم يحسنْ صنعةَ الكذبِ والدَّسّ والافتراءِ والتّزوير ، وظنَّ أنَّ هذا الهراء ينطلي على النَّاسِ ، ولم يعلم بأنَّ أقلَّ النّاسِ عِلماً ومطالعةً يكشفُ زيفَ هذا الخبر بكلّ بساطةٍ.

* والأمرُ الأشدُّ نكداً والأكثر ويلاً أنَّ بعضَ أصحابِ النُّفوسِ المريضةِ ممن لا يدركون أقدارَ الصَّحابةِ ومكانتهم قد سوَّلَتْ له نفسهُ أمراً وبيلاً ، ودخلَ مدخلاً مريباً عرَّضَ من خلالهِ بسيّد الحفّاظِ الأثباتِ أبي هُريرةَ ، ونسج كِتاباً جعل عنوانه «شيخَ المَضيرة» ودلف من خلالهِ إلى أضاليلَ وترهات لا يجرؤ أنْ يقولَها على «عُمْدة» أو «مُختار» أو «زامرحي» أو «مُعلّم» ولكنّه تجرأَ على سيّدنا أبي هُريرةَ وقال وتقوّلَ عليه ، ولكنْ؛ للهِ دَرُّ المُتنبّي إذْ يقول:

وَهَبْنِـي قُلْـتُ هـذا الصُّبـحُ لَيْـلٌ أَيَعْمـىٰ العَـالِمـون عَـنِ الضِّيـاءِ

* ونحنُ هنا لا نُريدُ أَنْ نُعرّضَ بأحدٍ ، بيد أنّنا سندلُّ على بعضِ الأباطيلِ والأَضاليلِ وخَلْط الزّمان بالمكانِ في هذا الخبر ، فنقول: «إنَّ أبا هُريرةَ رضي الله عنه لم يكنْ يدّعي الطِّبّ وإنما تعلَّمَ أشياءَ مفيدة من الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ ، وإنَّ الكَلامَ الذي نُسِبَ إليهِ في وصفِ الأطعمةِ كلامٌ ركيكٌ لا يعدو أنْ يكونَ مزاحاً ، بل هذا الكلام يشبهُ إلى حدٍّ بعيدٍ كلامَ الطُّفيليّين وأصحابَ الموائد ، ويُقال هذا الكلامُ للدُّعابةِ وتلطيفِ الأجواء. . .».

* أمّا الطّامةُ الكبرىٰ في هذا الخبر المُفْترىٰ السَّخيف ، فهو التَّلاعبُ بحقائقِ التَّاريخِ وثوابتهِ وأركانه ومسلّماته ، والتَّلاعب كذلك بالزّمان والمكان ، إذ كُلّنا يعلم علْمَ اليَقينِ أنَّ من الثَّابتِ في سيرةِ سيّدنا أبي هُريرةَ أنَّهُ اعتزلَ الفتنَ جميعها ، فلم يشهرْ فيها سيفاً أو رمحاً أو حتى لم ينطقْ بكلمةٍ تُؤْخَذُ عليه ، فكيفَ نصدّقُ إذن بأنَّه كان يأكلُ على خوانِ معاوية ، ويُصَلّي خلفَ عليّ ، ومعاوية بالشَّامِ ، وعليّ بالعراق ، وهو في المدينة المنوّرة؟! وهَبْ أنَّ سيّدنا عليّاً ومعاويةَ التقيا في صفّين وتقاتلا ، فأين

أبو هريرة؟! ومن المعلوم أنَّه لم يحضرْ معركةَ الجمل ولا صفّين وليس له ذِكْر فيهما في المصادرِ الموثوقةِ؟ فكيفَ يصحُّ أَنْ يتغذّىٰ مع معاويةَ ويصلّي مع عليّ؟!

* وأودُّ أَنْ أُشيرَ أيضاً إلى أنَّ أبا منصور الثَّعالبيّ في تصانيفهِ هذه ليس حجّةَ فيما يحتطبه من أخبارٍ من الشَّرق والغرب، ثم يضعُها في «ثمار القلوب» أو «خاصّ الخاص» إنّما صنعَ هذا ـ ربّما ـ للتّرفيهِ عن النُّفوسِ، ولكن الغِرَّ يأتي فيحتطبُ في ليلِ هذه الأخبار، ولا يدري أيدوسُ أفعىٰ أَمْ يُلامسُ عَقْرباً؟! أم يتردَّى في حفرةٍ قلما ينجو منها أحد؟؟!.

* ومن باب الدّعاباتِ نجدُ أنَّ الثَّعالبيَّ يفرِدُ فَصْلاً في كتابهِ «خاص الخاص» وعنوانه: «فَصلٌ في لطائفِ الظُّرفاءِ في الطَّعام، وما يتَّصلُ به»، وافتتحهُ بقولٍ نسبهُ إلى أبي هُريرةَ رضي الله عنه بأنَّهُ كان يقول: «ما شممتُ رائحةً أطيبَ من رائحةِ الخُبزِ الحارّ، وما رأيت فارساً أحسنَ مِنْ زُبْدٍ على تَمْر»[1].

* وهذا القولُ إنْ صَحّ عن أبي هُريرةَ فلا يعدو أن يكونَ من باب خفَّةِ الظِّلّ والرُّوح، وحلاوة العبارة، وتلطيف جوّ المجالس بالنّكتةِ والدُّعابةِ؛ على أنَّ مجلسَ أبي هريرةَ اشتهرَ بالأدبِ والعِلْمِ والرِّواية بشهادةِ الثَّعالبي نفسِهِ، والذي أوردَ هذه الفقرةَ البلاغيةَ عن أبي سَعْد الواذاري أنّه كتبَ إلى أبي الفَضْلِ ابنِ العميد: «أنا أَيَّدَ اللهُ الأستاذَ الرّئيسَ: سلْمَانُ بيتِهِ، وأبو هُريرة مجلسِهِ، وأنسُ خدمتِهِ، وبلالُ دعوتهِ، وحسَّانُ مدحته»[2].

---

(١) خاص الخاص ص (٥٦)، قدم له: حسن الأمين ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ ١٩٦٦ م. ومن مداعبات أبي هريرة أيضا قوله: «إذا نزلتَ برجلٍ ولم يَقْرِك ـ يطعِمْك ـ فقاتله» (عيون الأخبار (٣/ ٢٣٤).

(٢) المصدرُ السَّابق ص (١١). أقول: ذكرتُ في مقدمةِ كتابي: «نساء في قُصور الأمراء» (ص٨) أنَّ مثلَ هذه الرّوايات والأخبار: لا تغني فتيلاً ولا تروي غليلاً، وإنّما هي أباطيل وأسمار أرادوا بها الزّيفَ والباطل، وحاربوا بها العقول، وزوّروا الحقائقَ؛ وقديماً تنبّه أبو العلاء المعري إلى هذا فقال: =

* والآن أدعوكم لقراءةِ هذا الخبر الذي ذَكَرَهُ ابنُ عَساكر في تاريخهِ لدمشقَ ، وقد وَرَدَ في مختصرهِ أيضاً ، هذا الخبرُ يقول بأنَّ أبا هُريرةَ كان يتغنّى بالشِّعْر غَنَاء الرُّهْبان ، وبالطَّبعِ هذا الخبر ، وهذه البائيةِ الشّعرية من نظمِ أبي هُريرةَ؟! ـ كما زعم الزَّعمونَ ـ.

* دعونا أوّلاً نقرأُ الخبرَ كما وردَ في تاريخِ مدينةِ دمشقَ ومختصره لابن عساكر: قال عمرُ بنُ أبي الصَّهْبَاء: «مررتُ بأبي هريرة وهو مُستلقٍ واضعٌ ثوبه تحت رأسه ، وإحدى رجلَيْه على الأخرى ، وهو يتغنَّى غناءَ الرُّهبان:

لمَّـــا رأيتُـــكَ لـــي مُحِبّـــا ... وإلـــيَّ حيـــنَ أغيـــبُ صَبّـــا
أعـــرضـــتُ لا لِمَـــلالَـــةٍ ... حـــدثَـــتْ ولا استحـــدثْـــت ذَنْبـــا
إلاّ لِقَـــــولِ نَبِيِّنَـــــا ... زُورا عـــن الأيّـــامِ غِبّـــا
وَلِقَـــوْلِـــهِ مَـــنْ زَارَ غِبـــ ... ـــاً منكـــمُ يـــزدادُ حُبّـــا[1]

* هذا الخبر يحومُ حولَهُ الشَّكُّ ، بل إِنَّ الشِّعْرَ ليسَ لأبي هُريرةَ رضي الله عنه ، وتظهرُ على الأبياتِ صفة الصَّنعة والتَّكلُّفِ في الوزنِ والعروضِ والقافيةِ.

* وسنتكَلَّمُ في نَقْدِ هذا الخَبَرِ المنوطِ بأبي هُريرةَ رضي الله عنه:

أوّلاً: لمْ أَجِدْ ـ فيما بين يدي من مصادرَ ـ ترجمةً لراوي الخبرِ عمر بن أبي الصَّهباء.

ثانياً: لم ندركْ معنى قوله: «يتغنّى غناء الرُّهْبان» فهل هؤلاء هم القدوةُ لأبي هُريرةَ حتّى يقلّدَهُمْ في غنائه بالشِّعرِ؟

ثالثاً: إنَّ فنَّ الاقتباس من الحديثِ الشَّريفِ ـ خاصّة ـ لم يكنْ قد نَضَجَ

= هَـلْ صـحَّ قـولٌ مـن الحـاكـي فَنَقبلـهُ ... أمْ كُـلُّ ذاكَ أبـاطيـلٌ وأَسْمَـارٌ
أمّـا العُقـولُ فـآلَـتْ أنَّـه كَـذِبٌ ... والعقـلُ غَـرسٌ لـه بـالصّدقِ إثمـار

(١) تاريخ دمشق (٦٧/ ٣٧٦) تحقيق عمر الغمروي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ومختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠٤) ، وحديث: «زر غبا تزدد حباً» حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني برقم (٣٥٦٨).

واستوىٰ على سُوقِهِ في عَصْرِ سيّدنا أبي هُريرةَ رضوان الله عليه ، أمْ أنَّ أبا هُريرةَ كان فاتحةً جميلةً لهذا الفنِّ الذي ازدهرَ بعدَ القرنِ الثّالثِ الهجريّ ازدهاراً ملحوظاً ، وتألّقَ فيه عددٌ من مشاهيرِ الأدباءِ الشُّعراءِ؟!

رابعاً: قال الصَّادقُ المصدوق ﷺ لسيّدنا أبي هريرةَ رضي الله عنه: «يا أبا هُريرةَ! زُرْ غبّاً تزدَدْ حُبّاً». وقد رقَّ هذا الحديث ورقَّتْ بلاغته وراقَتْ جزالتُه للأدباءِ والشُّعراء فأخذوا يقتبسون ألفاظَهُ في أشعارهم ، ويزيّنون به قصائدهم ، ويتبادلون أشعارهم وأهازيجهم فيما بينهم وهم يقتبسون المعاني النّبويّةِ من خلالِ الأحاديثِ الشّريفةِ ، وممّنْ خلبَتِ الأحاديثُ النّبويّةُ لُبَّهُ ، وخصوصاً هذا الحديث «زُرْ غبّاً تزْدَدْ حُبّاً» عليّ بن أبي طالب الكاتب[1] ، فاقتبسَ معانيه ونظمَ أبياته على نحوٍ قريبٍ من الأبياتِ المنسوبةِ لأبي هُريرةَ والموجودة في تاريخِ دمشقَ ، فقال:

---

(١) ذكر علياً الكاتبَ هذا عليُ بنُ ظافر الأزديّ في «بدائع البدائه» فقال: «كان يصحبني وأنا في خدمةِ الأشرف ـ أبقاه الله ـ رجلٌ كاتبٌ حَسَنُ الخَطّ من أهلِ العِلْم والخبرةِ ، هاجرَ إلى دمشقَ يُقَالُ له جَمالُ الدّين عليّ بن أبي طالب ، فلما رأيتُ ما عليه الأحوال من الاختلال ، وقَوِيَتْ في نفسي شهوةُ الانفصالِ؛ كنتُ ليلي ونهاري مكبّاً على الدّعاءِ بتسهيلِ ذلك وتعجيلهِ ، وتيسيرِ ما أرجوهُ منه ، وأقمتُ على هذا مدة طويلة ، بحيثُ كان الأمرُ مشهوراً عند كلّ أحدٍ من الحاشيةِ ، فأخبرني بأنّه بات مشغول القلبِ بما سمعهُ منّي في ذلكَ؛ فرأى كأنّه في جامعِ دمشقَ تحت النّسر ، إلى جانب شيخ؛ وكأنّهم ينتظرونَ الصَّلاة ، وإذا برجلٍ شابّ قد أقبلَ من البابِ الغربي ، فقال له الشيخ: يا أبا العبَّاس ، أجز:

إنَّ ابـــنَ ظـــافـــرَ ســـوف يظـ ـفَـرُ بـــالـــذي يـــرجُـــوهُ عَـــاجِـــلْ

فقال:

ظفـــــرتْ عِـــــداهُ بخيبـــــةٍ وغَـــدا لمـــا قَـــدْ شـــاءَ نَـــائِـــل

فسررتُ بذلكَ ، فلم يكن شيءٌ أسرعَ من عَودِ الملكِ الأشرف ـ أبقاهُ الله ـ من دمشق ، وانفصالي من خدمتهِ على الوجهِ الجميل ، وكان ذلكَ ـ واللهِ ـ أعظم ظفرٍ ، وأرفقُ قدرٍ ، ولو لم يكن فيه إلا الرجوع إلى الباب الذي منهُ دَرَجْتُ ، وفي خدمته تخرجت ، والوطن الذي هو أوّلُ أرضٍ مسّ ثراها جلدي ، وعُلّقت فيه تمائمي ، فالله تعالى يحقق الرجاء ، ويكمل الأمل ، بمنّهِ وطوله». (بدائع البدائه ص ١٠٤).

إنّـــي رأَيْتُـــكَ لِـــي مُحِبَّـــا		وإلـــيَّ حيـــنَ أغيـــبُ صَبَّـــا
فَهَجَـــرْتُ لا لَمـــلالَـــةٍ		حَـــدَثَـــتْ ولا استحـــدثـــتُ ذَنْبـــاً
إلاّ لِقَـــــولِ نَبينـــــا		زُورا علـــى الأيّـــامِ غِبّـــا
ولقـــولـــهِ مَـــنْ زَارَ غِبْــ		ــاً منكُـــم يـــزدادُ حُبَّـــا[1]

* وقال غيرهُ مقتبساً من الحديثِ الشَّريفِ نفسهُ:

إذا شئـتَ أنْ تُقْلَـى فَـزُرْ متـواتـراً		وإِنْ شئتَ أَنْ تَزْدادَ حُبّاً فزُرْ غِبَّا

* وقال آخرُ في المعنى ذاته:

وقـد قـالَ الـرَّسـولُ وكـانَ بَـرّاً		إذا زُرْتَ الحَبيـبَ فَـزُرْهُ غِبّـا
وأَقْلِـلْ زَوْرَ مَـنْ تهـواهُ تَـزْدَدْ		إذا مـا زُرْتَـهُ مِقـةً وحُبّـا

* ولغيرِه:

ودونَـكَ الشُّكْـرَ مـن صـديـقٍ		واظَـــبَ وُدّاً وزارَ غِبّـــاً

* ومن الأخبار التي يتطرّقُ إليها الشَّكُّ ما جاء عن ابن عساكر قال: «كان أبو هريرةَ يسبُّ مروانَ، فإذا أعطاهُ سَكَتَ»[2]!!؟!!!.

* وهذا الخبرُ ينمُّ عن نفسهِ أصلاً وعن نفسية واضعِهِ ومخترعهِ، فهل يُعقلُ أنْ يسبَّ أبا هُريرةَ أحداً وَقَدْ تَخَرجَ في مدرسةِ الأدب النّبويّ؟ ثم إِنّه يسكتُ لقاءَ دُريهمات؟! فاللهُ المستعانُ على ما يصفون. ونرجو الله عزَّ وجلَّ أن يلهمنا الصّواب في الأقوال والأفعال، وأنْ يلهمنا التأدّب مع أصحاب رسولِ الله ﷺ.

لَمَحاتٌ من أخبارِه وشمائله:

* أخبارُ سيِّدنا أبو هريرةَ رضي الله عنه ثريةٌ كثيرةٌ تملأُ الأسماعَ بحسنِها، والأفواه بحلاوتها، فقد صحبَ النَّبيَّ ﷺ وأفادَ منه، وأفادَ أسرتهُ حتّى كانَ السَّبب في إسلامِ أمّه، فقد كان يدعوها إلى الإسلام، فتأبى عليه وتسمعهُ

(١) بهجة المجالس (١/٢٥٧).
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/٢٠٣).

ما يكره ، فَشَكَا حاله إلى الصَّادقِ المصدوقِ رسول الله ﷺ قائلاً: «اللهم اهدِ أمّ أبي هُريرة». وعندما رجعَ إلى بيتهِ استقبلتهُ قائلةً: «أشهدُ أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله». ولشدّةِ فرحهِ بإسلامها رجعَ وأخبرَ النَّبيَّ ﷺ بإسلامِها ودموع الفرحِ تنساب من عينيهِ حارّةً ، وقال له: يا رسولَ الله ، ادعُ اللهَ أنْ يحبّبني أنا وأمّي إلى عبادِهِ المؤمنين ، ويحبّبهم إلينا ، فقال: «اللهمّ ، حبِّب عُبيدكَ هذا وأمّهُ إلى عبادكَ المؤمنين ، وحبّب إليهم المؤمنين»[1] ، فما خُلِقَ مُؤمنٌ يسمعُ بأبي هريرةَ ولا يراهُ إلا أحبّهُ.

* وكان أبو هريرةَ بارّاً بأمّه ، وكان كريماً أيضاً ، فقد ذكر حُمَيدُ بنُ مالك بن خُثَيم قال: «كنتُ جالساً عند أبي هُريرةَ في أرضهِ بالعقيق ، فأتاهُ قومٌ ، فنزلُوا عنده ، فقال لحميد: اذهب إلى أمّي ، فقُلْ لها: إنَّ ابنكَ يقرئكِ السَّلام ، ويقول: أطعمينا شيئاً.

قال: فوضَعَتْ ثلاثةَ أقراصٍ في الصَّحْفَةِ وشيئاً مِن زيتٍ وملحٍ ووضعَتْها على رأسي فحملتُها إليهم ، فلمّا وضعتُهُ بينَ أيديهم ، كبَّرَ أبو هُريرة ، وقال: «الحمدُ للهِ الذي أشبعَنا من الخبز ، بعد أن لم يكنْ طعامنا إلا الأسودَيْن: التَّمرُ والماء..»[2].

* وكان أبو هُريرةَ رضي الله عنه سخيّاً جواداً مضيافاً؛ لا يرىٰ رَجُلٌ أَشَدَّ تشميراً ولا أقومُ على ضيفٍ منه[3].

* ولشدّةِ برِّ أبي هُريرةَ بأمّه ، كان إذا غدا من منزلهِ لبسَ ثيابَهُ ، ثمَّ وَقَفَ عليها فقال: السَّلامُ عليكِ يا أمّتاه ورحمةُ اللهِ وَبَركاتُهُ؛ جزاكِ اللهُ عنّي خيراً كما ربّيتني صغيراً؛ فتردّ عليهِ: وأنتَ ، فجزاكَ اللهُ عني خيراً كما بررتني كبيرةً؛ ثمّ تخرجُ فإذا رجعَ قال مثلَ ذلكَ ، ولم يحجّ أبو هريرة حتّى ماتت أمه»[4].

---

(١) أصل الحديث عند مسلم في فضائل الصحابة برقم (٢٤٩١).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦١٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٩٣ ـ ٥٩٤) بشيء من التصرف.
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠٢).

* وكان أبو هريرةَ يُكثر من التكبير والشُّكرِ للهِ الذي جَعَلَهُ زوجاً لبُسْرَةَ بنتِ غزوانِ ، ذكرَ هذا مضاربُ بنُ حَزْن ، قال: «بينما أنا أسيرُ تحتَ الليلِ ، إذا رجلٌ يكبِّرُ فألحقه بعيري ، فقلتُ: من هذا؟

قال: أبو هريرةَ.

قلت: ما هذا التَّكبير؟

قال: شكرٌ.

قلتُ: علىٰ مَهْ؟

قال: كنتُ أجيراً لبسرةَ بنتِ غزوانَ بعُقْبة رجلي ، وطعامِ بطني ، وكانوا إذا ركبوا ، سُقْتُ بهم ، وإذا نزلُوا خدمتُهم ، فزوجنيها الله! فهي امرأتي»[١].

* وفي رواية أنَّه قال: «كنتُ أحطبُ لهم إذا نزلوا وأحدو بهم إذا ساروا ، فالحمدُ للهِ الذي جعلَ الدِّيْنَ قواماً وأبا هُريرةَ إماماً»[٢].

* وأمّا أخبارُهُ مع ابنتِهِ فجميلةٌ أيضاً ، ذكروا أنَّها قالَتْ لَهُ: إنَّ الجواري يعيرنَني يقُلْنَ: أباكَ لا يحليكِ الذَّهب.

فقال لها: قولي لَهُنَّ: «إِنَّ أبي لا يُحَلِّيني الذَّهَبَ ، يخشىٰ عَلَيَّ حَرَّ اللَّهب»[٣].

* وقد ذكرنا في مطلَع حديثنا عن سيّدنا أبي هُريرةَ أنَّ لهُ ابنة واحدة لم نَهْتَدِ إلى معرفةِ اسمها ، لكنّنا نقول بأنّها كانت زوجةَ سعيدِ بن المسيب[٤] سيّد التَّابعين على الإطلاقِ ، وكان سعيدٌ أعلمَ النَّاسِ بحديث أبي هُريرةَ[٤].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠٠) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٦١٢) ، وحلية الأولياء (١/ ٣٨٠).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠٠).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠٠) بتصرف يسير.

(٤) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٩/ ٩٩).

* أمّا عِبَادَةُ أَبي هُريرةَ وزهدِهِ ، ومداومته على الخير ، فشيءٌ يملأُ القلوبَ إعجاباً ، ومن ذلكَ ما ذكرَهُ أبو عثمانَ النَّهديّ قال: «تَضيَّفْتُ أبا هريرةَ سَبْعاً ، فكان هو وامرأتهُ وخادمهُ يعتقبون الليلَ أثلاثاً: يُصَلّي هذا ، ثمّ يوقظُ هذا ، ويصلّي هذا ، ثمّ يوقظُ هذا.

قلت: يا أبا هُريرةَ ، كيف تصومُ؟

قال: أصومُ من أوَّلِ الشَّهرِ ثلاثاً»[1].

* وكان أبو هريرةَ يسبّحُ كُلَّ يومٍ اثني عَشَرَ ألف تسبيحة ، يقول: أسبح بِقَدرِ ديَّتي[2] وفي روايةٍ: بقدرِ ذنبي[3].

* ولما سُئِلَ عن سببِ صيامِهِ لِيومي الاثنين والخميس قال: «إِنَّهما يومان تُرفَعُ فيهما الأعمالُ»[4].

* وكان لأبي هريرةَ صَيحَتان في كل يوم ، أوّل النَّهار فيقول: ذهبَ الليلُ وجاءَ النَّهار ، وعُرِضَ آلُ فرعونَ على النّارِ ، فإذا كان العَشي قال: ذهبَ النَّهارُ وجاءَ اللَّيلُ وعُرِضَ آلُ فرعونَ على النَّار ، فلا يَسْمَعُ أحدٌ صوتهُ إلا استعاذَ باللهِ من النَّار[5].

* وفي ميدانِ العبادةِ والذّكر ، كان سيّدنا أبو هريرةَ من المجلّين فيه ، فكان يقولُ: «إنّي لأجزىءُ الليلَ ثلاثةَ أجزاء: جزءاً للقرآن ، وجزءاً أنامُ ، و جزءاً أتذكّرُ فيهِ حديثَ رسولِ اللهِ ﷺ». كما كان يصلّي ثلث الليل ، وامرأته ثُلثاً ، وابنتهُ ثُلثاً.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٠٩). وذكر الذهبي نقلاً عن تاريخ دمشق: «أن أبا هُريرةَ رضي اللهُ عنه كان يصومُ الخميس والاثنين» (تاريخ الإسلام: عهد معاوية ص ٣٥٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٠٩).
(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص ٣٥٥).
(٤) مختصر تاريخ دمشق (ترجمة أبي هريرة).
(٥) المصدر السابق نفسه.

وظلَّ أبو هريرةَ عابداً قانتاً ذاكراً شاكراً مُصلّياً خائفاً يُحاسِبُ نفسهُ إلى أن لقي ربّه ، كما سنقرأُ هذا في السُّطورِ الآتية.

وداعـاً سيِّـدَ الحُفّـاظِ:

* سيرُ أعلامِ نبلاءِ المتّقين ريحانُ القلوب ، وروحُ الأرواحِ فهي تبعَثُ في النُّفوسِ الهمم والنَّشاط ، وتجعلُها في غاية السَّعادةِ ، إذ إنَّ هؤلاءِ الأتقياءَ هُمْ القدوةُ لكلِّ مَنْ أرادَ أَنْ يقتديَ ، ويربحَ السَّعادَةَ والرَّاحةَ النَّفسيّة في الدَّارين.

* وهكذا كان أبو هريرةَ رضي الله عنه ، قدوةً وعَلَماً من أعلام علماء الصَّحابةِ الكرام ، وكان ذا منزلةٍ رفيعةٍ عند الحبيبِ المصطفى ﷺ ، وعند علماء الصَّحابةِ وساداتهم وكذلك عند عُلماءِ التَّابعين الذين تخرجوا في مدرستهِ الهُريريّة العلميّة النّادرة ، وكذلكَ سائر عُلماء الدّنيا وأدبائها وعامةُ النّاس ممّن يُحبُّ الحبيبَ الأعظم ﷺ وسائر صحابتهِ الكرام ، وقد أوردنا في غُضونِ ترجمتهِ وثنايا سيرته أزاهرَ من ثناء رسول الله ﷺ على أبي هُريرةَ ، وكذلكَ أكابرَ الصَّحابةِ ، وسادة العُلماءِ والأئمة.

* وها نحنُ أولاء نحبُّهُ ونجلّه تحقيقاً لأمرِ الصَّادقِ المصدوقِ سيّدنا وحبيبنا وشفيعنا محمّد رسول الله ﷺ الذي دعا لأبي هُريرةَ وأمِّهِ السَّيّدةُ أميمةَ فقال: «اللهم حبِّبْ عُبَيْدَكَ هذا وأمَّهُ إلى عبادِكَ المؤمنين ، وحبِّبْهُمْ إليهما».

* وقد صدقَ سيّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ ، وصدقَ أبو هريرة ، فكلُّ مؤمنٍ من لدنِ عَصْرِ الصَّحابةِ ، وإلى أنْ يرثَ اللهُ الأرض وَمَنْ عَليها يلهجُ قلبُهُ بحبِّ أبي هريرة ، ويتحركُ لسانه بالثَّناءِ عليه والتّرضّي عنه ، فهو بحقّ مالىءُ الدنيا وشاغلُ العُلماء.. ملأَ الدُّنيا بعلمِهِ ، وشغل العلماء بأحاديثِهِ ، وكل يقول: «عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ..» حقاً إنَّ هذا هو الخلودُ الحقيقي ، إذ الذِّكرُ للإنسانِ عُمْرٌ ثان:

فارفَعْ لِنَفْسِكَ قَبلَ مَوتِكَ ذِكْرَها ... فـالـذّكـرُ لـلإنسـانِ عُمـرٌ ثـانِ

* عاشَ أبو هريرةَ طيلة الخلافةِ الرّاشدة مرعي الجانب ، يعرفُ قدره كلّ

مَنْ عاشره ، وكانت علاقته علاقـةَ علمٍ وعَمَلٍ مع السَّادةِ الخلفاءِ الرَّاشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم أجمعين ، وكذلكَ كانت علاقته علاقةَ علمٍ مع سيّدنا معاويـة رضيَ الله عنه ، وكان يقول: «تشبثوا بصدغي معاوية»[1] .

* ومرضَ أبو هريرةَ رضي الله عنه ، وشعرَ بدنو الأجل ، فبكىٰ ، فقيل له: ما يبكيكَ؟

قال: ما أبكي على دنياكم هذه ، ولكنّي أبكي على بُعدِ سفري وقلّةَ زادي ، وإنّي أمسيتُ في صَعُودٍ مهبطةٍ على جنّةٍ ونار ، فلا أدري إيّهما يُؤخذ بي[2] .

* وذكر أنَّ سيّدنا أبا هريرة لما حضَره الموتُ أوصىٰ قائلاً: «لا تضربوا عليّ فسطاطاً ، ولا تَتْبَعُوني بِمِجْمَر ، وأسرعوا بي ، فإنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا وُضِعَ الرَّجُلُ الصَّالحُ على سريرِه قال: قدّموني قدّموني ، وإذا وُضِعَ الرَّجل السُّوء على سريره قال: يا وَيْلَه! أين تذهبون بي»[3] .

* وعن محمّدِ بنِ عمرو قال: سمعتُ أبا هريرةَ ـ وجئتُه في مرضه أعودُهُ ـ وهو يقولُ: «قد قلتُ لأهلي إذا أنا متّ فلا تعمّموني ، ولا تقمّصوني ، فإنَّ رسول الله ﷺ لم يعمّم ولم يقمّص»[4] .

* وعن سعيد المَقْبُري قال: «دخلَ مروانُ على أبي هريرةَ في شكواه الذي ماتَ فيه ، فقال: شفاكَ اللهُ يا أبا هُريرةَ فقال أبو هريرةَ: اللهُم إنّي أحبُّ لقاءَكَ فأحِبَّ لقائي. فما بلغ مروان أصحاب القَطَا حتى مات»[5] .

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠٦).
(٢) المصدر السابق نفسه وطبقات ابن سعد (٤/ ٣٣٩). ومعنى «صعُود» الطريق الصاعد الشاهق.
(٣) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٣٨) ، والإصابة (٤/ ٢٠٧) ، ومختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠٦).
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠٦) ، وطبقات ابن سعد (٤/ ٣٣٩).
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠٦) ، وطبقات ابن سعد (٤/ ٣٣٩).

* وفي رواية: «فخرجْنَا من عندِه ، فما فاتَنا الصّوتُ ، حتَّى سمعنا الصَّائحة عليه»[1].

* وتوفي أبو هريرةَ سنة تسع وخمسين في أواخرِ خلافةِ معاويةَ وله (٧٨ سنة) رضي اللهُ عنه[2].

* ودوىٰ موتُ أبي هريرةَ في المدينة المنورة ، فجاء النَّاسُ يشهدون جنازته؛ وقد شهدها رجلان من علماء الصَّحابة وحفّاظهم وهما: عبدُ اللهِ بنُ عمر ، وأبو سعيد الخُدْريّ رضي الله عنهم أجمعين ، وكانا يمشيان أمامَ الجنازةِ ، وكان ابنُ عمر يكثر التّرحُّم عليه ويقول: «كان ممّن يحفظُ حديثَ رسول الله ﷺ على المسلمين» ، وكان وَلَدُ سيدنا عثمان بن عفّان يحملون سريره حتّىٰ بلغَ البقيعَ ، حفظاً بما كان من رأيه في سيّدنا عثمان رضي الله عنه ، فقد كان أبو هريرةَ ممّن نَصَرَ عثمان ، وكانَ معه في الدَّار رضي الله عنهما وأرضاهما.

* وكانت وفاةُ سيدنا أبي هُريرةَ في داره بالعقيقِ ، ثم حُمِلَ إلى المدينةِ ، فصُلِّي عليه ، صلى عليه الوليدُ بنُ عتبةَ وكان أمير المدينةِ ، ثمّ إنَّهُ دُفِنَ بالبقيعِ في جوارِ السَّلفِ الصَّالحِ من كبراء الصَّحابةِ فرضي اللهُ عنه وأرضاهُ[3] ، وحبَاه بنعيمٍ مقيمٍ ليس ينفَد ، ورحمَهُ رحمةً تنفعهُ وتنفعُنا ، فهو رضي اللهُ عنه:

بــرٌّ تقــيٌ نقــيٌ فــاضِــلٌ وَرِعٌ ... جَليْسُـهُ الـذّكْرُ والآيـاتُ والسُّـورُ
مَـا زَالَ يحتقـرُ الـدُّنيـا وزهـرتَهـا ... حتّى تَساوىٰ لَديهِ الدُّرُّ والحجرُ
لا فارقَتْ رحمةُ الرّحمن مضجعَه ... ولا عَــداهُ نميــرُ القَطْــرِ منهمــرُ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٠٧).
(٢) المصدر السابق عينه. وهناك قولان بأن وفاته كانت سنة (٥٧ و٥٨).
(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٤/ ٣٣٩ و٣٤٠) ، والبداية والنهاية (٨/ ١١٤ و١١٥) مع الجمع والتصرف.

* وبعد ، فقد كانت الرِّحلَةُ مع أبي هُريرةَ شائقةً ، مونقةً ، مباركةً ، استمتعنا خلالها بالنَّافع المفيد ، وإنْ كان ما كتبته عنه لا يعد عشر معشار سيرته الطَّيِّبةِ ، ولكنَّ ذَلكَ جهد المُقلّ ، نرجو اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يجمَعنا معه تحتَ ظِلِّ عرشهِ يوم لا ظلَّ إلا ظلهُ ، والحمدُ للهِ أولاً وآخراً.

* * *




أنس بن مالك

* صحابي ابن صحابية خدمَ النَّبي ﷺ عشر سنين.
* له ولأمّه مواقف مشرقة ومشرّفة في السّيرة النّبويّة.
* كان يتشبّه بالنّبيّ ﷺ في كل شيء.
* من أصحاب الألوف وفرسَانِ الرواية إذ روىٰ (٢٢٨٦) حديثاً.
* كان عالماً فقيهاً مجاهداً ذا مواقف مشهورة في تاريخ علماء الصَّحابة.




أَنَسُ بنُ مَالِك

طُفُولَـةٌ مَيـمُونَـةٌ وَأَصْلٌ زَاكٍ:

* رجلٌ تفرَّعَ من دوحةٍ سناء، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، كَلِفَ بالعلْمِ حتّى صارَ ملهَجَ لسانهِ، وروضةَ أجفانهِ، كان خادم رسول الله ﷺ القريب، وصاحبه في المشهدِ والمغيب، حَفِظَ سِرَّ رسول الله ﷺ صغيراً، وحافَظَ عليهِ حتّى غدا كبيراً، أسلمَ وهو غلام، فصار منَ سادةِ علماء الصَّحابةِ الأعلام.

* هذا العالمُ العيلَمْ جمّاعُ العلْمِ والفضلِ سيّدنا أنسُ بنُ مالكٍ بن النَّضر الأنصاريّ الخزرجيّ النَّجاريّ[1]، الإمامُ، المُفتي، المقرىءُ، المحدّثُ، راويةُ الإسلام، أبو حمزة خادمُ رسول الله ﷺ، وتلميذهُ وتبعهُ، وآخرُ أصحابهِ موتاً.

* كانت الإشراقاتُ الباسمةُ تحفُّ بسيّدنا أنسِ بنِ مالكٍ منذ أن استنشقَ عبيرَ الحياة، فقد وُلدَ أنسٌ في المدينةِ المنوّرة، إذ كان الإسلامُ غضّاً طرياً في مكّةَ المكَرمةِ، ولم تتبلَّغ الدُّنيا بأنداثهِ، ولم تنعمِ الآذانُ بهمساتِهِ التي تداعب شغافَ القُلوبِ، وتدقُّ أبوابَ حناياها، وتعمرُهَا بشهادةِ التَّوحيدِ.

(١) المصادر التي تحدثت عن سيّدنا أنس بن مالك كثيرة جداً، ولا تحصى في هذا المقام ومنها: الإصابة (١/ ١١٢ ـ ١١٤)، ومشاهير علماء الأمصار (ص ٦٥)، والاستيعاب بهامش الإصابة (١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٩)، وأسد الغابة (١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٧)، والوافي بالوفيات (٩/ ٤١١ ـ ٤١٦)، تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٣٦ و١٣٧)، وشذرات الذهب (١/ ٣٦٥)، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٥/ ٦٤ ـ ٧٦)، وغيرها كثير جداً.

* ولد أنسُ تحفُّ به رعايةَ أمّه أمِّ سُليم بنت ملحان تلكَ المرأة الحصيفةُ التي صاغَ منها الإسلامُ أمّاً مثاليةً ، فقد آمنت مع ثلّةِ الأنصار الذين تروّحُوا ريحانَ الهدىٰ المنبعث من أمِّ القُرى، وتفاعلُوا مع روحهِ التي هذَّبت أرواحَهم وصقلَتْها وجعلَتْها تحظىٰ بصحبةِ الهادي البشير محمّد رسول الله ﷺ.

* أمّا زوجُها مالكُ بنُ النَّضْر فلم يوفَّق إلى الإسلام ، بل إنَّهُ غاضَبَ امرأتَهُ أمَّ سُليم والدةَ أنس لأنّها قد بادرت إلى الإيمان بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، ومن ثمّ خرجَ إلى الشَّام فلقي حتفَهُ هناك ، وكان نسياً منسياً ، هنالكَ قامت أمُّ سليم فربَّت ابنها تربيةً فريدةً فغدا من ساداتِ الصَّحابة وأعيانهم.

أنسٌ وأمُّـهُ رضي اللهُ عَنْهُما:

* لم يكنْ نشرُ الإسلامِ وتبليغهُ والدعوةُ إليهِ مقتصراً على جماعةِ الرِّجالِ وحدهم، وإنَّما أدَّتِ النِّساءُ المُسلمات أوفرَ نصيبٍ وأوفاهُ في الدَّعوةِ إلى اللهِ، والتَّرغيبِ في دِيْنِه القيّم.

* ومن بين أولئكَ النّسوةِ المُسلماتِ الطَّاهراتِ العالماتِ: السَّيِّدةُ الجليلةُ **أمُّ سُليم بنتُ مَلْحانَ أمُّ أنس رضي الله عنهما** ، فقد أثرت تواريخُ النساء بقصة تعليمها الإسلام لابنها أنس ، وكيفَ عارَضَتْ زوجَها بذلكَ ، فقد حرصت أم سُليم على تلقينِ ابنها أنس شهادةَ الإسلامِ رغمَ معارضةِ أبيهِ ، ودعَتْ ـ فيما بعد ـ أبا طلحة الأنصاريّ إلى الإسلامِ حينما تقدَّمَ لخطبتها ، ولم تقبلْ منهُ درهماً ، ولا ديناراً ولا أرضاً ، لكنّها طلبَتْ مَهْراً يدخِلُهُ الجنَّـةَ ، طلبَتْ منه الإسلامَ ، فأسلمَ وسعدَ بـهِ أهلُ الإسلامِ ، وغدا من فرسانهم ، وكُتب في ديوانِ الأعلام ، ومشهوري الأنام ، الذين تُقرأ سيرهم على الأيام والأعوام.

* أمّا قصّةُ ذلكَ فقد أفاضَت المصادرُ بذكرِهَا ، وها نحنُ أولاء نحطُّ رحالَ التَّرحالِ عند ابنِ سعدِ نستجلي من طبقاتهِ ما يسفرُ لنا عن حرصِ أمِّ سُليم على إسلامِ ابنها أنس وكذلك إسلام أبي طلحة ، رضي الله عنهم أجمعين.

* رویٰ ابنُ سعد رحمه الله عن إسحاق بن عبد اللهِ ، عن جدّتهُ أمّ سُليم رضي الله عنها: «أَنَّها آمنَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، قالَتْ: فجاءَ أَبو أَنَس ـ وكان غائباً ـ ، فقال: أَصَبَوْتِ؟

قالت: ما صَبوتُ ولكنّني آمنتُ بهذا الرَّجُل.

فجعلتْ تلقّنُ أَنَساً وتشيرُ إليه ، قُل: لا إله إلّا الله؛ قُلْ: أشْهدُ أَنَّ محمّداً رسولُ اللهِ. ففعل.

فيقولُ لَها أبوه: لا تفسدي عليّ ابني.

فتقولُ: إنّي لا أفسدُه.

فخرجَ مالكُ أبو أنس فلقيهُ عدوٌ فقتلَه. فلمّا بلغهَا قَتْلهُ قالَتْ: لا جرمَ ، لا أفطمُ أنساً حتى يدعَ الثّدي حيّاً ، ولا أتزوّجُ حتّى يأمرني أنس ، فيقول: قد قضَتِ الذي عليها.

فتركَ الثّدي ، فخطبَها أبو طلحة وهو مشركٌ ، فأَبَتْ؛ فقالَتْ لَهُ يَوماً فيما تقول: أرأيتَ حَجَراً تعبدهُ لا يضرُّكَ هلْ ينفعُك»[1].

* وفي رواية أنّها قالَتْ: «إِنَّهُ لا ينبغي لي أنْ أتزوَّجَ مشركاً؛ أَمَا تعلمُ يا أبا طلحة أنَّ آلهتكم التي تعبدون ينحتُها عبد آل فلان النَّجار ، وأنّكم لو أشعلتم فيها ناراً لاحترقَتْ..؟ فانصرفَ عنها وقد وقعَ في قلبهِ من ذلكَ موقعاً ، وجعلَ لا يجيئُها يوماً إلّا قالَتْ له ذلكَ»[2].

* وفي روايةٍ عندَ النّسائي قالَتْ: «وَاللهِ ما مثلُكَ يا أبا طلحةَ يُرَدُّ ، ولكنَّكَ رجلٌ كافرٌ ، وأنا امرأةٌ مُسلمةٌ ، ولا يحلُّ لِي أَنْ أَتزوَّجَكَ ، فإِنْ تُسلِم فذاكَ مهري ، وما أسأَلُكَ غَيره»[3].

---

(١) انظر: الطّبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ٤٢٥ و٤٢٦).

(٢) الطّبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ٤٢٧) ، وأمهات وآباء وأبناء (ص ٩٦ و٩٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٥ و٣٠٦) ، وانظر كتابنا: نساء من عصرالنبوة (ص ٣٥) ، والحديث أخرجه النسائي.

* وفي روايةٍ عند ابن سعد قالَتْ: «فهل لك أَنْ تشهدَ أَنْ لا إلٰهَ إلّاالله وأنَّ محمداً رسول الله ، وأزوّجكَ نفسي ، لا أُريدُ منكَ صَداقاً غيره»؟!

* وفي روايةٍ عند أحمد عن أنس رضي اللهُ عنه: «أنَّ أبا طلحة رضي اللهُ عَنه خطبَ أمَّ سليم رضي الله عنها فقالَتْ: ألستَ تعلمُ أنَّ إلهكَ الذي تعبدُ نَبْتٌ من الأرض؟

قال: بَلىٰ.

قالَتْ: أفلا تستحي تعبدُ شجرةً؟ إنْ أَسلمتَ فإني لا أريدُ منكَ صداقاً غيره.

قال: حتىٰ أنظرَ في أمري.

فذهبَ ثمَّ جاءَ فقال: أشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاّ اللهَ وأنَّ محمّداً رسولُ الله ، فقالَتْ: يا أنسُ زوِّجْ أبا طلحةَ ، فزوَّجها».

* وفي هذه القصةِ يقولُ ثابت البُناني رحمه الله «فمَا سمعتُ بامرأةٍ قطّ كانت أكرمَ مهراً من أمّ سُليم رضي الله عنها الإسلام ، فدخلَ بها فولَدْت له»[1].

* للهِ دَرّ أمّ سُليم أيّ امرأةَ هي!! لقد صنعَ منها الإسلامُ أحدوثةً طيّبةَ النَّشْر بين نساء الإسلام ، لا تذهبُ رائحةُ مواقِفها التربوية العطرةِ على مرِّ الأيّام. . . فقد لقَّنَتْ ابنَها أنساً الشَّهادة وهو لا يزالُ في المهدِ صبيّاً ترضعهُ لبنَ التَّوحيد مع الفِطْرةِ التي فَطَرَهُ اللّهُ عَليها ، ثم يدخلُ الإسلام على يديها رجلٌ باعَ نَفْسَه للهِ ، قال عنه حبيبُنا وشفيعُنا سيّدنا محمّدُ رسول الله ﷺ: «لَصوتُ أبي طلحة في الجيش خيرٌ من ألفِ رَجل»[2].

* لقد أردتُ من إيرادِ هذه القصّة الجميلة أنْ يدرك القارىءُ الكريمُ بعضَ ملامحِ شخصيّةِ السَّيدة أمّ سُليم في حسنِ الدَّعوة والعِلْمِ والتّعليم والتّفهيم

(١) المصادر والمراجع السّابقة نفسها.
(٢) صحيح الجامع برقم (٥٠٨١).

والثّبات على حبِّ اللهِ ورسولهِ ، ولذا فقد كان لها كبيرُ الأثرِ في تربيةِ ابنها أنس العلميّةِ والعمليّة ، كما تظهرُ شخصيّتها الفذّة في صراحتِها الجميلة ، وحماستِها العظيمةِ للإسلامِ ، ناهيكَ بعقلِها الوافرِ الكبير وهي تتحدّىٰ زوجَها مالكَ بنَ النَّضر ، وكذلكَ وهي تخاطبُ أبا طلحةَ بصراحة وتقريع وتوجيهٍ وعلاج : «ألستَ تعلمُ أَنَّ إلهكَ الذي تعبدُ نبتٌ من الأرض. . . » .

* ترى هل لأمّ سُليم مَثَلٌ في نسائِنا المُعاصرات؟ أمْ هل فتنتهمُ الحضارةُ المجلوبةُ بصخَبها وزُخْرفها فأصبحن لا يعرفنَ واجباتهنَ تجاهَ أولادهنّ فَضْلاً عن أزواجهنَّ!! بل وأمور دينهنّ !!؟!

* أقول : «لا جرمَ أنَّ هُناك فُضليات في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، ولكنّ النِّسبَ الآن بدأت بالاضمحلال ، وخصوصاً أنَّ وسائل التّرفيه قد كثُرت وأصبحتِ المغرياتُ وتقليدُ الأخرياتِ شُغْلَ المرأةِ الشّاغل ، كما أنَّ الحضارةَ الزائفة ، قد أخذتْ بعقولِ كثيرٍ من النّساء المشرقيّات وأشكالهنَّ ، وغدونَ يسألْنَ عن كلِّ جديد من «الموضات» والأزياء والأصباغ والصَّرعات ، ونسينَ واجباتهنّ وشؤونهنّ وشؤون أسرهنّ ، بل أمور دينهنّ ، نسألُ اللهَ السّلامةَ والصَّونَ» .

في استِقْبالِ النَّبيِّ ﷺ :

* هُوَ ذا أَنسُ بنُ مالك طفلٌ لمّا يبلغِ العاشرة بعْدُ ، عرفَ شهادَةَ أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمّداً رسول الله ، وقد عقَلَها وهو صغيرٌ ، وأسلمَ للهِ ربِّ العالمين ، بفضلِ اللهِ ، ثمّ بعنايةِ أمّهِ المؤمنةِ العاقلةِ . .

* وفي تقديري أنَّ هذهِ السَّيّدة الفاضلةَ الكريمةَ الحصيفة ، قد راحتْ تذكُرُ لابنها الأثيرِ الحبيبِ المسلمِ الكَيِّسِ محاسنَ الإسلامِ ، وشيئاً عن نبيّ الإسلام ، وتغرسُ في قلبهِ الصَّغيرِ الخالي حبَّ النّبيِّ ﷺ ، وتوقيرَهُ وتقديرَهُ ، إذ أخرجَ النَّاسَ من ظلماتِ الوهم إلى أنوارِ الفَهْمِ ، ودلَّهُمْ على صراطِ العزيزِ الحميد . .

* وتبلَّغَ حبُّ النَّبيِّ ﷺ حَنايا قلبِ الطِّفْل الصَّغير أنس ، وتضلَّعَ تقديره في أضالعِه ، حتّى غدا هذا الطِّفل يرقبُ بشوقٍ ـ كسائر الأنصار ـ تلكَ

اللحظاتِ الباسمةِ التي يرىٰ فيها النّبيّ المختارَ ﷺ ، ومن ثم تكتحلُ عيناهُ برؤيةِ مَنْ آمنَ به ولما يَرَهُ بعْدُ.

* وتمضي الأيّامُ وأنسٌ مسرورٌ بنعمةِ الإسلام وهو ينتظرُ قدومَ الصَّادق المصدوق محمّد ﷺ ، إلى أَنْ جاءَتِ البشائرُ بقدومِ البشيرِ الرّؤوف الرحيم مهاجراً إلىٰ المدينةِ المنورةِ ، وعندها جعلَ أنسُ يخرجُ في جماعةٍ من أترابهِ كلَّ يوم إلى ظاهرِ المدينةِ حتّى يتشرّفُوا باستقبالِ النّبيّ الكريم ﷺ.

* وممّا نفتخر به في تاريخ تربية الأطفال المسلمين أنَّ هؤلاء الأطفال الذين آمنوا باللهِ ، قد تكرّرَ خروجهم مرّاتٍ إلى ظاهرِ المدينةِ ، ولم يفْتُرْ شوقُهم ، ولم تفترْ عزائمهُمُ الصّغيرةُ ، كلٌّ يدفعهُ الشَّوقُ إلى رسول الله ﷺ. . . فكيفَ كان الكبار؟!

* لقد كان الأنصارُ في ذروةِ المكارمِ ، فقد كان خزرجُهم وأوسُهم ، رجالُهم ونساؤُهم ، شيوخُهم وشبابُهم ، فتيانُهم وفتياتُهم أصدقَ النّاس وعداً ، وأصفاهم ودّاً ، وأعلاهم في المكرماتِ كعباً ، وأخلصهم سريرةً ، وأرفعهم في ذُرا الشّمائلِ مروءةً ، وأحبّهم لرسولِ اللهِ ﷺ.

* قدموا أرواحَهم وأموالَهم وفلذات أكبادهم فداءً لرسولِ اللهِ ﷺ ، فأحبَّهم وأثنى عليهم ، ونوّه بفضلهم على النّاس.

* ولو لم يكنْ للأنصار من شمائلِ الفضائلِ ، وفضائلِ الشَّمائل ، ومحاسنِ الخصائل التي سبقُوا فيها وبلغُوا النّهاية ، فلا يلحقُهم فيها أحدٌ من النَّاس ، ما أنزله اللهُ عزَّ وجلَّ فيهم قرآناً ثناءً عليهم ، وتنويهاً بفضلِهم وسخائِهم ، وذلكَ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] ، لكفاهم ذلك في سجلِّ المفاخر ، ومناقبِ المآثر ، ومآثرِ المكارم.

* وعندما وصل الرّكبُ الميمونُ المدينةَ المنوّرةَ ، كان رسولُ اللهِ ﷺ يحفّه الإجلالُ والإعظامُ ، ومن حولهِ أهل المدينةِ يتزاحمونَ بالمناكبِ

لمشاهدتهِ ، ووجوههم طافحةٌ بالبشرِ والابتسامِ وقلوبُهم عامرةٌ بالحبّ والاحترام ، وهم يهتفون: اللهُ أَكبر جاء محمّد ، اللهُ أكبر جاءَ رسول الله ، وكانتِ العَذارىٰ والمخدّراتُ على الأجاجيرِ والأسطحةِ وخلفَ النَّوافذِ يتنافَسْنَ لرؤيةِ النّبيّ ﷺ. وكان الفرحُ يرتسمُ على كلّ شيءٍ ، وكأنَّ المدينة قد أشرقت بحلولهِ ﷺ فيها.

* ويرسمُ أنسُ بنُ مالك رضي اللهُ عنه صورةً حيّةً واقعيةً عن جمالِ المدينةِ يومَ استقبالِ النَّبيّ ﷺ فيقول: «لما كان اليوم الذي دخلَ فيه رسولُ اللهِ ﷺ أضاءَ منها كلّ شيء»[1].

* وقال أنس أيضاً: «شهدتُ يومَ دخولِ النَّبيِّ ﷺ المدينة ، فلم أرَ يوماً أحسنَ منه ولا أضوأَ من يومِ دخلَ علينا فيه ﷺ المدينة»[2].

* وقال أنسٌ: «لما قدمَ النّبيُّ ﷺ المدينةَ لعبتِ الحبشةُ بحرابهم فرحاً بقدومهِ ﷺ»[3].

* قال القسطلاني في «المواهبِ اللدنية» بعد أن ساقَ حديث أنس: «وصَعِدَتْ ذواتُ الخدور على الأجاجيرِ ـ أي الأسطحة ـ عند قدومهِ ﷺ يقُلْن:

طَلَعَ البَدرُ علينا ... من ثنيَّاتِ الوداع
وجبَ الشُّكرُ علينا ... ما دعا للهِ دَاع
أيّها المبعوثُ فينا ... جئتَ بالأمرِ المُطَاع»

* وأخرجَ البيهقي عن ابن عائشة ـ واسمه عُبيد الله بن محمَّد التَّميميّ المتوفىٰ (سنة ٢٢٨ هـ ـ) يقول: «لما قدمَ رسول الله ﷺ جعل النّساء والصِّبيان يقلنَ:

طلعَ البدرُ علينا ... من ثنيّاتِ الوَداع
وجبَ الشّكرُ علينا ... ما دعَا للهِ دَاع[4]»

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه عن أنس.
(٢) أخرجه الدارمي عن أنس.
(٣) أخرجه أبو داود عن أنس.
(٤) انظر البداية والنهاية (٣/١٩٧).

* هذا الشعرُ ، أو هذا النّشيدُ المطربُ الجميلُ لم يعثرِ الباحثون على اسم قائله ، بل لم ينسبوهُ لشاعرٍ صغيرٍ أو كبيرٍ ، أو مشهورٍ أو مغمورٍ ، بَيْدَ أنَّهُ شعْرٌ مشهورٌ مذاعٌ مساغٌ على الألسنةِ ، لطيف على الأسماع ، وهو موجودٌ في بطونِ الكتب والدَّواوين.

* وقد اختلفَ أئمةُ العِلْمِ قديماً وشايَعَهُمْ مَنْ بعدَهُمْ فِي وقتِ إنشادِ هذا الشِّعرِ عند استقبالِ النّبي ﷺ لتحيتِهِ وإظهارِ الفرحِ والسُّرور بلقائهِ ، هل كان ذلك عند تلقّيهِ ﷺ وهو قادمٌ مِنْ مكَّةَ مُهاجراً إلى المدينةِ المنوّرةِ؟ فلمّا وصلَ المدينةَ استقبلَ بهذا الشّعر إظهاراً للفرحةِ والسّرورِ بوصولهِ إلى مهاجره ومستقرّهِ؟ أو كان ذلك في قدومهِ من غزاةِ تبوك؟!

* وذكر العُلماءُ كثيراً من الأقوالِ في هذا ، ومنهم القسطلاني ، وابنُ قيّم الجوزيّة ، والدّاوديُّ شارح البخاري ، وابنُ العراقي وغيرهم كثير ، إلا أنَّ ما تطمئنُ إليهِ النَّفس أنَّهُ لا مانع قطّ أنْ يكونَ النَّبيُّ ﷺ تلقّاهُ أهلُ المدينةِ أوّلاً ، وهو قادمٌ من مكَّةَ مهاجراً إلى المدينةِ عند ثنيّةِ الودَاعِ التي هي من جهةِ مكّة بالفرحةِ وإنشاد هذا الشّعر اللطيف المعبّر عن الحبِّ ، وعمّا يعتلجُ في الصُّدورِ والنُّفوسِ من الشَّوقِ للحبيبِ المصطفىٰ ﷺ ، وخصوصاً النّساءُ المؤمنات ، والصّبيان الصّغار ، والولائد الذين تغلّبتْ عليهم مشاعرُ الفرحةِ ، فأخذوا يعبّرون عنها بهذه الأهزوجةِ النّشوىٰ ، والتّرنّم في إنشادِ هذه الهمسَات الجذلى.

* وتلقّاهُ أهلُ المدينةِ ثانياً وهو قادمٌ من غزاةِ تبوك منصوراً مؤيّداً بتوفيقِ اللهِ تحيطُ بهِ الهيبةُ ، فأنشدوا هذا الشِّعرَ الذي صار لديهم نشيداً يعبّرون به عن الفَرحةِ والسُّرور.

* قال صاحبُ «الخميس» : «ولا مانعَ من تعدُّدِ وقوعِ هذا الشِّعرِ مرّةً عند الهجرة ، ومرّةً عند قدومهِ من تبوك».

* وهذا كلامٌ ، يحلُّ الإشكال ، ويؤيّدُ المشهورَ من الرّوايات ، ويدفعُ عنها الخلاف ، واللهُ أعلم بالحقيقة.

* وبالجملةِ فقد كان استقبالُ الأنصارِ لرسولِ اللهِ ﷺ استقبالاً تاريخيّاً ميموناً مباركاً على الدّنيا ، حيث صار مبدأُ الهجرةِ بدايةَ تاريخٍ موفّقٍ لِبَني الإسلام ، وما أجملَ أنْ نمتّعَ الأسماعَ الآنَ بهذه الأبياتِ التي تصوّرُ استقبالَ الأنصارِ للنّبيّ ﷺ :

أقبِلْ فتلْكَ ديارُ يثربَ تُقبِلُ ... يكفيكَ من أشْواقِها ما تحملُ
القَومُ مُذْ فارقتَ مكّةَ أَعْيُنٌ ... تأبىٰ الكَرىٰ وجوانحٌ تتململُ
يتطلّعُون إلى الفِجاج وقولُهُم ... أفَما يُطالِعُنا النّبيّ المُرسَلُ
أقبلَت في بِيضِ الثّيابِ مُباركاً ... يُزجي البشَائرَ وجهُكَ المُتهلّلُ
خَفَّ الرِّجالُ إليكَ يهتفُ جَمْعُهم ... وقلوبُهم فرحاً أخفُّ وأعجلُ
أُنْظُر بني النّجارِ حولَكَ عُكّفاً ... يَرِدُونَ نُوركَ حينَ فاضَ المنهلُ
نَزَلُوا على الإسلامِ عندك إنّه ... نَسَبٌ يعمُّ المسلمين ويشْمَلُ
ما للدّيارِ تهزُّها نَشَواتُها ... أَهِيَ الأناشيدُ الحِسَانُ تُرتَّلُ
رفَّتْ نضارتُها وطابَ أريجُها ... وترَدَّدتْ أنفاسُها تَتَسَلْسَلُ
فكأنّما في كلّ مغنى روضةٌ ... وكأنّما في كلِّ دارٍ بُلبلُ
هُنَّ العَذارىٰ المُؤمناتُ أَقَمْنَهُ ... عيداً تحييّهِ الملائكُ مِنْ عَلُ
في موكبٍ للهِ أشرقَ نُورُهُ ... فيهِ وقامَ جلالُهُ يتمثّلُ
إيهٍ بَني النَّجار إنَّ محمّداً ... لأشدُّ حبّاً للّتي هِيَ أجمْلُ
يتنافَسُ الأنصارُ فيكَ وما دَروا ... لمن المَفازُ وأيُّهم هُوَ أَوّلُ

«اللهم أكثِرْ مالَه وولدَه» :

* إنَّ القلوبَ لتهفو إلى معرفةِ أخبارِ عُلماءِ الصَّحابةِ ، كما أنَّ الأعينَ تلَذُّ بقراءةِ حياتِهم ، وها نحنُ أولاءِ نعيشُ بعضَ الوقتِ مع عالمٍ عَيْلمٍ ، نخطُرُ في أزهارِ رياضِ طفولَتِه في ظلالِ النّبي ﷺ ، ونقتطفُ أوراقَ الورْدِ النّديةِ ، بعبقات الأنفاسِ المحمّديّةِ ، من هاتيكم الطُّفولة الأنَسيَّةِ ، لعلّنا نربّي أبناءَنا وجيلنا على شيءٍ منها ، فيغدونَ مِن العُلماء النّافعين إنْ شاءَ اللهُ.

* تذكرُ كتبُ التّراجمُ والسيرةُ وكثيرٌ من المصادرِ الأخرىٰ أنّه لما قدمَ

النَّبيُّ ﷺ المدينة المنوَّرة كان سيّدنا أنسٌ في عُمْرِ الزَّهْر لا يتجاوزُ عمره عشر سنوات.

* ومن لطائفِ المعارفِ أنْ نشيرَ هنا إلى أنَّ أنساً كان ـ في تلك السِّنّ ـ غلاماً فَطِناً ذكيّاً نبيهاً، وقد زادَ من نباهتهِ وحصافتهِ أمُّه السَّيدةُ أمّ سُليم التي أولَتْه كلَّ عناية، فعلّمتهُ الكتابة، فنشأَ غلاماً كاتباً لم يبلغْ سنَّ الحلمِ بعد، وهذا ممّا زادَ في رصيدهِ العلميّ بين أطفالِ الصَّحابةِ الذين غدوا من الصَّحابةِ الفقهاء ومن علماءِ الصَّحابةِ ونجبائهم عندما اشتدَّ عودُهم وصَلبتْ قناتُهم.

* كان أنسٌ قد نشأَ منذ نعومةِ أظفارهِ على حبِّ النّبيّ ﷺ، وكم سمعَ من أمِّهِ عن هذا النَّبيّ الأميّ الخاتم الذي أرسلَهُ اللهُ رحمةً للعالمين، وتكوّنت في قلبهِ الصَّغيرِ أطيافٌ من الأحلامِ الجميلةِ، وفي عقلهِ الصّافي أسئلةٌ كثيرةٌ عن هذا الحبيبِ رسول الله ﷺ.

* وفي يومٍ من الأيّامِ المشهودةِ في المدينةِ المنوّرةِ، وفي بداية مقدم النّبي ﷺ إليها، هيّأَتْ أُمُّ سُليم ابنَها وفلذةَ كَبدها أَنَساً، وأفهمَتْهُ أنَّها ستذهبُ به إلى النّبيّ الكريم ﷺ كي يخدمَه ويا لها من فرحةٍ استولتْ على قلبِ أنس، ذلكَ القلبُ الذي رفرفَ لهذه البشارةُ إِنَّهُ سيرى النّبيّ ﷺ وسيخدمه.

* وجاءت أمُّ سُليم النّبيّ ﷺ تمشي على استحياءٍ، ومعها أنسُ تلهثُ مِنْ على رأْسِهِ ذؤابةٌ جميلةٌ تحكي براءَتَهُ وصفاءَهُ ورقَّتَهُ.

* واستأذنَتِ السَّيِّدَةُ الفاضلةُ العاقلةُ أمّ سُليم على النّبيّ ﷺ، وفي أدبِ الفاضلاتِ قالت تُخاطبُ رسول الله ﷺ وجلالُهُ يكادُ يلجُمها: «يا رسول الله، هذا أُنَيسٌ أتيتكَ بهِ يخدمُكَ، فادعُ اللهَ لَهُ..».

* ويا لفرحتُها وسرورُهَا وهي تسمعُ النّبي ﷺ يدعو له قائلاً: «اللَّهُمّ أكثرْ مالَهُ وَولده»[1].

---

(1) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٣٧) ترجمة رقم (٧١).

* وفي البيتِ النّبوي تفيّأَ أَنَس بظلالهِ الوارفةِ ، ونَعِمَ بعطفِ النّبي ﷺ وحنانهِ ، وأخذتْ يدُ النّبيّ الشريفةُ تداعبُ ذؤابتَهُ وتمدّها ، فقد كان النّبيّ ﷺ يمدُّها ويأخذُها[1] .

* ويظهر أنّ أنساً لاحظَ اليد المحمديّة الشَّريفةَ تلمسُ رأسَهُ ولاحظتْ والدتُهُ أم سُليم ذلك ، فرفضتْ بشدّة أنْ تقصَّ ذؤبةَ ابنها ، لأنَّ النّبي الكريم ﷺ كان يَلْمسُها بيدهِ الشَّريفَة. قال أنسٌ عن هذا: «كان لي ذؤابةٌ فقالت لي أمّي: «لا أجزُّها كان رسول الله ﷺ يمدُّها ويأخذُها»[2] .

* وعاشَ أنسٌ في البيتِ النّبويّ خادماً ومحبّاً للنّبي الكريم ﷺ ، فقد خدمهُ أوفى خدمةٍ وأحسنَها وأكملَها ، ولازمهُ أتمَّ مُلازمةٍ منذ أَنْ هاجرَ إلى أَنْ لقي ربّه ، لقد خدمه في حضَرِهِ وسَفَرِهِ ، وفي سلمِهِ وحربهِ ، وفي جميع أطوار حياتهِ الشَّريفَةِ ﷺ.

* جاء في الصحيح عن أنسٍ رضي اللهُ عَنْهُ قال: «لما قدمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينة ، أخذَ أبو طَلحةَ بيدي ، فانطلقَ بي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنَّ أنَساً غلامٌ كيِّسٌ ـ عاقلٌ ـ فليخدمكَ ، قال: فخدمتهُ في السَّفرِ والحَضرِ ، واللهِ ما قال لشيءٍ صنعتُه: لِمَ صنعتَ هذا هكذا ، ولا لشيءٍ لم أصنَعْهُ: لِمَ لَمْ تصنعْ هذا هكذا»[3] .

* ويبدو من خلالِ هذا الحديثِ أنَّ تقديمَ أنسٍ للنّبيّ ﷺ قد تكرّرَ أكثر من مرّةٍ ، حيثُ قدمتْهُ مرّة أمُّ سُليم ، وأخرى أبو طلحة ، وقد تعدَّدَت بعضُ الرّواياتِ في صورةِ تقديم أنسٍ للنّبيّ ﷺ من قِبَلِ أُمِّهِ ، ومنها ما جاءَ عند ابنِ عساكر في تاريخهِ.

* فعن سعيدِ بنِ المسيّب رحمه الله عن أنسٍ قال: «أخذتْ أمّي بيدي وانطلقَتْ بي إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَتْ: يا رسولَ اللهِ ، إنّه لم يبقَ رجلٌ

---

(١) انظر: مجمع الزوائد (٩/ ٣٢٥).
(٢) أخرجه أبو داود عن أنس.
(٣) أخرجه مسلم.

ولا امرأةٌ من الأنصار إلا قد أتحفتكَ بتحفةٍ ، وإنّي لا أقدرُ على ما أتحفُك به إلاّ ابني هذا؛ فخذْهُ فليخدمكَ ما بدا لك. فخدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما ضربني ضربةً ، ولا سبَّني سبَّةً ولا انتهرني ، ولا عبسَ في وجهي ، فكان أوّلُ ما أوصاني به أنْ قالَ: «يا بنيّ اكتمْ سرّي تَكُ مؤمناً». فكانتْ أمّي وأزواجُ النَّبيِّ ﷺ يسألنَنِي عن سِرِّ رسول الله ﷺ فلا أخبرهُم به ، وما أنا مخبرٌ بِسِرِّ رسولِ اللهِ ﷺ أحداً أبداً حتّى أموتَ»[1].

* وقد وثقَ النَّبيُّ ﷺ بهذا الخادم الأمين الحصيفِ أنس ، وثقَ به ثقةً كبيرةً على الرغمِ من نضارة عوده ورقّة إهابِهِ في ذلكَ الوقتِ ، وجعلهُ أميناً على بعضِ أسراره ، وحفظَها التلميذُ النَّجيبُ أنس ، ولم يبحْ بها لأحدٍ قطّ في حياةِ النَّبيّ ﷺ ، وبعد وفاتهِ كذلكَ ، ولذا فقد أبانَ أنسٌ رضي اللهُ عَنْهُ عن هذه الخُصوصيّة فقال: «أسرَّ إليَّ رسولُ اللهِ ﷺ سرّاً ، فما أخبرتُ به أحداً ، ولقد سألتني عنه أمُّ سليم ـ أمّي ـ فما أخبرتُها به»[2].

* ومن المتوقَّع والمظنونِ أنَّ السَّيّدةَ العاقلةَ أمَّ سُليم قد سألت ابنَها أنساً عمّا قالَهُ له النّبيّ ﷺ ظنّاً منها أنَّ ذلكَ ليس سرّاً ، ولكنّها عندما علمت بأنّهُ سرٌّ من الأسرار طفقت تُوصي ابنها أنساً ألاّ يحدِّثَ أحداً بسرِّ النّبيّ ﷺ وتحضَّهُ على ذلكَ وتشجّعه.

* روىٰ ثابتُ بنُ أسلم البُناني التّابعي الجليل ، عن أنس رضي اللهُ عَنْهُ قال: «أتى عليَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعبُ معَ الغلمان ، فسلَّمَ علينا ، فبعثَني إلى حاجةٍ فأبطأتُ على أُمّي ، فلمّا جئْتُ قالت: ما حَبَسَك؟

قلتُ: بعثني رسولُ اللهِ ﷺ لحاجةٍ.

قالت: ما حاجتُه؟

قلت: إنّها سِرٌّ.

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٥/ ٦٦) ، ولباب الآداب ص (٦ و٧).
(٢) أخرجه مسلم.

قالَتْ: لا تحدثنَّ بسرِّ رسول الله ﷺ أحداً.

قال أنسٌ: واللهِ لو حدّثتُ به أحداً لحدثتُكَ يا ثابت»[١].

* وهكذا كان أنسُ خادماً أميناً بحقّ، ولم يكنْ محتاجاً إلى مَنْ يوجّههُ ويحثُّهُ على خدمةِ النَّبيِّ ﷺ، ومع هذا وذاك كانت أمُّهُ وخالتهُ وسائرُ نساءِ أسرتهِ يحثُثْنَه على خدمةِ رسول الله ﷺ.

* روىٰ الزُّهريُّ عن سيّدنا أنسِ بنِ مالك قال: «قدمَ رسول الله ﷺ وأنا ابنُ عشر سنين، وتوفي وأنا ابنُ عشرينَ سنة، وكُنَّ أُمّهاتي يحثثني على خدمتهِ، فدخلَ علينا دارنا فاستقينا من بئرِنا، وحلَبْنَا له من شاةٍ لنا داجن، فناولتهُ فشربَ، وعن يمينهِ أعرابيٌّ وعن يسارِهِ أبو بكر، وعمرُ ناحيته، فشربَ ﷺ، فقال عمر: أعطِ أبا بكر يا رسولَ الله، فناولَه الأعرابيَّ وقال: «الأيمنُ فالأيمنُ»[٢].

* وفي أفياءِ البيتِ النَّبويّ وظلالهِ لقيَ أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه رعايةً نادرةً، حيثُ هيّأ اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ يحظىٰ بالحياةِ في كنفِ النَّبيّ ﷺالذي تشرَّفَ بخدمتهِ وصحبتهِ والتّلمذة له، فكان سيّدنا رسولُ اللهِ ﷺ أباً عطوفاً لأنس ومربّياً ومعلّماً وموجّهاً. . فأكرمْ به! وأعظمْ بتربيته!

* وفي ظلالِ النّبيّ ﷺ سعدَ سيّدنا أنسُ عشرَ سنين كانت سِمَاناً، لقيَ خلالَها كلَّ خيرٍ، وكلَّ بركةٍ، فقد ظلَّتِ البركاتُ تصاحبهُ إلى آخرِ نَفَس من حياتِهِ، ولمَ لا وقد تربّى على يدِ المُصْطَفىٰ ﷺ تربيةً فريدةً!!؟!.

* ومن الأنداءِ التّربوية التَّوجيهيّة لأنسٍ تلكم المعاملةُ الرفيقةُ الشَّفيقةُ الرّقيقةُ التي عُوملَ بها أنسٌ، إذ كانَ يناديه: «يا بُني»[٣]، ففي سُنن التّرمذي

---

(١) أخرجه مسلم. أقول: «وكذا فلتكن الأمانة، وليكن الأمناء».

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (١٧/٧)، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٦٦/٥).

(٣) أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود.

عن أنسٍ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بنيّ إذا دخلتَ على أهلِكَ فسلِّم، يكنْ بركةً عليكَ وعلى أهلِ بيتكَ».

* وعن سيّدنا أنس أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «يا بُنيّ إنْ قدرتَ أن تصبحَ وتمسيَ وليس في قلبكَ غشٌّ لأحدٍ فافعَلْ»، ثمّ قال لي: «يا بنيّ، وذلكَ من سُنَّتي، ومن أحيا سُنّتي فقد أحبَّني، ومَنْ أحبَّني كانَ معي في الجنَّة»[1].

* وقال أنسُ أيضاً: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بنيّ، إيّاكَ والالتفاتَ في الصَّلاةِ، فإنَّ الالتفاتَ في الصّلاةِ هلكةٌ، فإنْ كان لا بدّ ففي التطوّعِ لا في الفريضةِ»[2].

* وفي كتابهِ النَّفيس «لُباب الآداب» أجْمَلَ أسامةُ بنُ منقذ جُملةً من الوصايا النّبويّةِ الأبويّةِ لأنسٍ، حيث ذكرَ عن أنس رضي اللهُ عنه أنّ رسول الله ﷺ أوصاه، وقال له: «يا بنيّ، عليكَ بإسباغِ الوضوء يُزَدْ في عُمرِكَ ويحبُّكَ حافِظاك. يا بني، بالغْ في غسلكَ من الجنابَةِ، فإنَّكَ تخرجُ من مغتسلكَ وليسَ عليكَ ذَنبٌ ولا خطيّة». قلتُ: يا رسول الله وما المبالغةُ في الغُسل؟ قال: «أنْ تبلَّ أصولَ الشَّعر وتنقّي البَشَر، يا بنيّ، كنْ إنِ استطعتَ أَنْ تكونَ على وضوءٍ فافعل، فإنَّهُ مَنْ أتاهُ مَلكُ الموتِ وهو على وضوءٍ أُعْطِيَ الشَّهادة. يا بنيّ إنِ استطعتَ أن لا تزالَ تصلّي فافعل، فإنَّ الملائكةَ تصلّي عليكَ ما دمتَ تصلّي. يا بني، إيّاكَ والالتفاتَ في الصَّلاةِ فإنهُ هَلَكَة. يا بنيّ إذا ركعتَ فارفعْ يَديكَ عن جنبَيْكَ، وضعْ كفّيكَ على ركبتيكَ. يا بنيّ إذا رفعتَ رأسَكَ من السُّجودِ فأسْكِنْ كلّ عضوٍ موضعه، فإنّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا ينظرُ يومَ القيامةِ إلى من لا يقيمُ صُلْبَهُ فِي ركوعهِ. يا بنيّ إذا قعدتَ بين

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب العلم (٢/ ٩٢). أقول: «إنَّ مَنْ يستطيع أنْ يعيشَ ويصبحَ ويمسيَ، وليس في قلبه غشٌ أو حسدٌ لأحد، فإنّه من أنْعَمِ النّاس بالاً، وأهناهم معيشة؛ فليجربْ كلُّ واحد منّا أنْ يمسيَ يوماً وليس في قلبه غلٌّ لأحد».

(٢) أخرجه الترمذي.

السَّجدتين فابسطْ ظَهْرَي قَدميْكَ على الأرضِ ، وضعْ أَلْيَتيكَ على عقبيْكَ ، فإنَّ ذلكَ مِنْ سُنَّتي ، ومن أحيا سنّتي فقد أحبّني ، ومن أحبَّني كان معي في الجنَّةِ ، لا تُقْعِ كما يقعي الكَلْب ، ولا تنقُرْ كما ينقرُ الدِّيك. يا بنيّ إذا خرجتَ من منزلكَ فلا يقعنَّ بصرُكَ على أحدٍ من أهلِ القِبْلَةِ إلّا سلمتَ عليه ، فإنَّكِ ترجعُ وقد زِيْدَ في حسناتِكَ. يا بني إنِ استطعتَ أَنْ تمسيَ وتصبحَ وليس في قلبكَ غشٌ لأحدٍ فافعلْ ، فإنّهُ أهونُ عليكَ في الحسابِ ، يا بنيّ إنْ حفظتَ وصيّتي فلا يكونن شيءٌ أحبّ إليكَ من الموت»[1].

* ومن الأشكال الممتعة لألوانِ الحياةِ الأَنَسِيَّةِ التّربوية في ظلالِ البيتِ المحمّدي تلكم المعاملةُ النّبويةُ البنّاءةُ لهذا الطّفلِ النَّجيبِ الأريبِ أنس الذي نقل لنا كثيراً من الآثار النبويةِ في كثيرٍ من أمور الحياةِ وأنواعِ العباداتِ والأحكام.

* وقد أشارَ سيّدنا أنَسٌ رضي اللهُ عنه إلى أنَّهُ ظلَّ في خدمةِ رسول الله ﷺ قرابةَ عَشر سنين ، فلم يسمعْ كلمةَ أفّ ، أو أقلّ منها ، بل لم يسألْهُ عن شيءٍ لِمَ فَعلته ، يقول أنسٌ: «خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين؛ واللهِ ما قال لي أفاً قطّ ، ولا قال لي لشيءٍ: لِمَ فَعَلتَ كذا ، وهلا فعلتَ كذا»[2].

* وكانَ أنسُ يلهو أحياناً كغيرهِ منَ الصِّبيان ، فربّما أنساهُ اللعبُ مهمتَه ، أو تشاغلَ باللعب مع أترابهِ ، وعلى الرغم من هذا كلّه فقد كانَ النَّبيُّ ﷺ يعامِلُه بلطفٍ ويوجههُ إلى قضاءِ ما أرسلهُ إليهِ.

* جاء في الصّحيح عن سيّدنا أنس رضي اللهُ عَنْهُ قال: «كانَ رسول الله ﷺ من أحسنِ النَّاسِ خُلُقاً ، فأرسلنِي يوماً لحاجةٍ؛ فقلتُ: واللهِ لا أذهبُ ، وفي نفسي أَنْ أذهبَ لما أمرني به نبيُّ اللهِ ﷺ ، فخرجتُ حتى أمرَّ على صبيان وهم يلعبون في السُّوق ، فإذا رسول الله ﷺ قد قبضَ بقفاي من ورائي

---

(١) انظر: لباب الآداب (ص ٧ و٨) ، وهذا الحديث لا يوجد بهذا السّياق ، ولكن يوجد شيء منه في كتب السّنّة.

(٢) أخرجه مسلم. و«أفاً» فيها عشر لغات.

فنظرتُ إليهِ وهو يضحكُ فقالَ: «يا أُنيسُ أذهبتَ حيثُ أمرتُكَ»؟

قلتُ: نعم أنا أذهبُ يا رسولَ اللهِ. .

قال أنسٌ: واللهِ لقد خدمتهُ تسع سنين ما علمتهُ قال لشيءٍ صنعتُه لم فعلتَ كذا وكذا، أو لشيءٍ تركتهُ هلاّ فعلتَ كذا وكذا»[1].

* ولم يكنِ النَّبيُّ ﷺ يؤاخذُ أنساً على شيءٍ أو يلومُهُ بل كان ينهى أهلَ بيتهِ عن لومه إذا ما قصَّرَ في أمْرٍ أو توانى عنه، أو ربّما تركهُ، فقد أخرجَ الإمامُ أحمدُ عن أنسٍ قال: «خدمتُ النَّبيَّ ﷺ عشر سنين، فما أمرني بأمرٍ فتوانيتُ عنه أو ضيّعْتُهُ، فلامني، وإنْ لامني أحدٌ من أهلهِ إلا قال: «دَعوهُ فلو قُدِّرَ ـ أو قال: قُضِي ـ أَنْ يكون كان»[2].

* وكان سيّدنا رسول الله ﷺ ليّنَ الجانبِ بشوشاً، يمزحُ ولا يقولُ إلاّ حقّاً، وقد وردَ أنَّهُ كان يمازحُ أنساً ويداعبهُ، فقد جاء عن أنسٍ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا ذا الأُذنَيْن»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٢٥٣) وقوله «تسع سنين» معناه تسع سنين وأشهر، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ أقام بالمدينة عشر سنين تحديداً لا تزيد ولا تنقص، وخدمهُ أنس في أثناء السنة الأولى، ففي رواية التّسع لم يحسب الكسر، بل اعتبر السنين الكوامل، وفي وراية العشر حسبها سنة كاملة؛ وكلاهما صحيح (شرح صحيح مسلم).

(٢) انظر: المُسند (٣/ ٢٣١)، البداية والنهاية (٦/ ٣٧)، وطبقات ابن سعد (٧/ ١١).
وجاء عند أبي نعيم في «الدّلائل» عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «خدمتُ رسول الله ﷺ عشْرَ سنين فما سبّني سبّةً قطّ، ولا ضربني ضربةً، ولا انتهرني، ولا عبسَ في وجهي، ولا أمرني بأمرٍ فتوانيتُ فيه فعاقبني عليه، فإنْ عاتبني عليه أحدٌ من أهلهِ قال: «دعوه فلو قُدّرَ له شيءٌ لكان» (دلائل النّبوة ص ٥٧)
وفي روايةٍ أخرى عنه: «خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، لم يضربني قطّ، ولم يسبّني، ولم يعبسْ في وجهي» (كنز العمال ٧/ ٩).

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب برقم (٥٠٠٢) والتّرمذي في الشّمائل (ص ١٦).
ومعنى الحديث: الحضُّ والتنبيه على حسنِ الاستماع لما يُقال له، لأنّ السمعَ بحاسّة الأذن، ومن خلقَ اللهُ لهُ الأذنين وغفل ولم يحسنِ الوعي لم يعذر، وقيل: «إنّ هذا القول من جملةِ مداعباته ﷺ ولطيفِ أخلاقهِ» وقيل: «الأظهرُ أنّهُ حمله على ذكائهِ وفطنتهِ وحسنِ استماعهِ ويحتملُ أنَّه قال ذلكَ على سبيلِ الانبساطِ إليه والمزاحُ معه» (المرقاة ٩/ ١٧٣).

* وكانتِ المداعباتُ النَّبويّةُ الحانيةُ تشملُ أطفالَ بيتِ أمّ سُلَيم أيضاً ، فقد كانَ الحبيبُ المُصطفى ﷺ يمزحُ مع أبي عُمير أخي أنسٍ ويباسطُهُ ويداعبُهُ ويُدخِلُ السُّرورَ إلى قلبهِ الصّغير.

* فقد أخرجَ أحمد وغيرهُ عن سيّدنا أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسنَ النَّاسِ خُلُقاً[1] ، وكان لي أخٌ يقالُ له: أبو عمير[2] ، فكان إذا جاءَ رسولُ اللهِ ﷺ فرآهُ قال: «أبا عُمير ، ما فعَلَ النُّغَيْرُ؟»[3] قال: نُغَيّر كان يلعبُ به ، فربّما تحضُرُ الصَّلاةُ وهو في بيتنا فيأمرُ بالبساطِ الذي تحته فيكنَسُ ثمّ ينضح ، ثم يقومُ رسول الله ﷺ ، ونقومُ خلفَه يصلّي بنا ، وكان بساطُهم من جريدِ النَّخْلِ»[4].

* وعند ابنِ سعد عن سيدنا أنسٍ رضي اللهُ عَنهُ «أنَّ النَّبيَّ ﷺ دخلَ على أبي طلحةَ رضي اللهُ عنه فرأىٰ ابناً له يُكنىٰ أبا عُمير حزيناً ، وكان إذا رآه مازحه النَّبيُّ ﷺ ، فقال: «ما لي أرىٰ أبا عُمير حزيناً»؟ قالوا: مات

---

(١) هذه الجملةُ اللطيفةُ قالها أنسٌ توطئةً لما يُريدُ ذكرهُ من قصّةِ الصّبي (فتح الباري ١٠/ ٥٨٣).

(٢) «أبو عُمير»: هو أخو أنس بن مالك من أمّه؛ وعند أحمد «وكان لها من أبي طلحة ابنٌ يكنى أبا عُمير». انظر في هذا: فتح الباري.

(٣) «النُّغيرُ»: بضمٍ ، فتح تصغير نُغَر ـ بضم النّون وفتح الغين المعجمة ـ: طائر يشبهُ العصفور أحمر المنقار؛ وقيل: هو العصفور صغير المنقار أحمر الرّأس؛ وقيل: أهلُ المدينةِ يسمّونهُ البُلبلَ ، والمعنى: «ما جرىٰ للنّغير حيثُ لم أرهُ معكَ»؟
وفي الحديثِ: جواز تصغيرِ الأسماءِ وتكنيةِ الصّغار ، ورعايةِ السَّجْع في الكلامِ وإباحة لعب الصّبي بالطّيور إذا لم يعذّبه ، وإباحةِ صيد المدينةِ المنورةِ ، كما هو مذهبُ الحنفية: من أنّ المدينةَ ليس بحرم ، وإنّما سُمّي حرماً بمعنىٰ الاحترام والتّعظيم ، لا حرمة الصّيد والكلاء ولزوم الجزاء (حاشية ابن ماجه ١/ ٢٦٤).

(٤) أخرجهُ الإمام أحمد (٣/ ٢١٢) ، والجماعة إلا أبا داود من طرق عن أنس بنحوه. فقد أخرجه البخاري (٢/ ٩٠٥) ، ومسلم (٢/ ٢١٠) ، والترمذي (٢/ ٢٠) ، وابن ماجه (٢/ ٢٦٤).

يا رسول الله نُغْرُهُ الذي كان يلعبُ به ، فجعلَ النّبي ﷺ يقول: «أبا عُمير ، ما فعلَ النُّغير؟»[1] .

* وكان الصَّادق المصدوق محمّد ﷺ يمزحُ مع أنس بما يتوافقُ مع حاله ، فقد كان أنسُ يجني بقلةً في طعمها لَذع ، فسمّيت حمزةً لفعْلِها ، فكان النّبي ﷺ يُكنّي أنساً بأبي حمزة: وذلك لحبهِ هذه البقلة. وروىٰ أنسٌ هذا فقال: «كنّاني رسول الله ﷺ ببقلةٍ كنتُ أجتَنيها»[2] .

* وبهذه الصورة الأنيقة الأليفة كان مزاحُ الرّسولِ المربي ﷺ مع مَنْ يعيشُ في كنَفِهِ ، ومَنْ يخالطُهم ، ومن يعاملُهم ومن يعاملونهُ ، لأنَّ القلوبَ الصَّافيةَ تُسْتَمالُ بلطيف المزاحِ والمرح ، وتركِ التَّعبُّس والتَّجهم.

* ومن فَصْلِ المقال لدىٰ العُقلاءِ أنَّ المُزاحَ نوعان: محمودٌ ومذمومٌ. فالمحمودُ هو الذي لا يشوبُه ما كَرِهَ اللهُ عزَّ وجلَ ولا يكونُ بإثمٍ ولا قطيعةِ رحمٍ. والمذمومُ هو الذي يثيرُ العداوةَ ، ويُذهبُ البهاءَ ، ويقطعُ الصَّداقة ، ويُجرِّيءُ الدَّنيء عليهِ ، ويُحْقَرُ الشَّريف به.

* قال أبو حاتم البُستيّ في «روضته»: «المزاحُ في غير طاعةِ اللهِ مسْلبةٌ للبهاءِ ، مقطعةٌ للصداقة ، يورثُ الضَّغن ، وينبتُ الغلّ»[3] .

* وقال أيضاً: «المزاحُ إذا كان فيه إثمٌ ، فهو يسوِّدُ الوجهَ ، ويدمي القلْبَ ، ويُوَقِّعُ الخُلَّةَ ـ الصَّداقة ـ ، ويحيي النّفوس ، ويذهبُ الحشمة ، فالواجبُ على العاقلِ أن يستعملَ من المزاحِ ما يُنْسَبُ بفعلهِ إلى الحلاوةِ ، ولا ينوي به أذىٰ أحد ، ولا سرورَ أحدٍ بمساء أحد»[4] .

* ومن النَّفَحات الأنَسِيّةِ المباركةِ في ظلالِ الحياةِ النّبويّةِ تلكمُ المكرمةُ

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٥٠٦).
(٢) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/١٣٧) ترجمة رقم (٧١) ، والحديث أخرجه الترمذي وأبو داود.
(٣) روضة العقلاء (ص ١٢٧).
(٤) المصدر السابق ص ١٣٠.

العظيمةُ التي نالَ بها أنس خيرَ الدّنيا والآخرة، هذه المكرمةُ: الدَّعوةُ المباركةُ التي حظيَ بها من النَّبيِّ الكريمِ ﷺ، فرأىٰ آثارهَا في حياتهِ، ويرجو البقية فيما بعد.

* فقد أخرجَ البخاريُّ رحمه الله في صحيحهِ عن أنسٍ «أنَّ رسول الله ﷺ دخلَ على أمِّ سُليم، فقدّمتْ له تمراً وسمناً، فقال ﷺ: «أعيدوا سمنكم في سقائِهِ، وتمركم في وعائهِ فإنّي صائمٌ».

قال: ثمّ قامَ في ناحيةٍ من البيتِ فصلّىٰ غيرَ المكتوبة، فدعا لأمِّ سُليم وأهلِ بيتها. فقالَتْ أمُّ سليم: يا رسولَ الله إنَّ لي خُويصة[1].

قال: «وما هي»؟.

قالَتْ: خادمُك أنس، فما تركَ خَيْرَ آخرٍ وَلا دنيا إلاّ دعا لي به: «اللهمّ ارزقْهُ مالاً وولداً وبارْك له».

قال: فإنّي لمن أكثرُ الأنصارِ مالاً، وحدَّثتني ابنتي أمينةُ أنَّهُ دُفِنَ لِصُلبي مقدم[2] الحجَّاج البصرة بضعٌ وعشرون ومائة»[3].

* وأخرج ابنُ سعدٍ هذه الحادثةَ عن أنسٍ رضي اللهُ عنه بشكلٍ قريبٍ منَ البخاري فقال: «ذهبتْ بي أمّي إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَتْ: يا رسول الله، خُويدمُكَ ادْعُ اللهَ لَهُ. قال: «اللهمّ أكثر مالَهُ وولدَهُ، وأطِلْ عُمْرَهُ، واغفرْ ذَنْبه». قال أنسٌ: فقد دفنتُ من صُلبي مئة غير اثنين ـ أو قال: مئة واثنين ـ وإنَّ ثَمَرَتي لَتَحمِلُ في السَّنةِ مرتَيْن، ولقد بقيتُ حتى سئمتُ الحياةَ، وأنا أرجو الرَّابعة»[4].

---

(١) «خُويصة»: تصغير كلمة خاصة، قالَتْها أمّ سليم هنا: أدباً وتحشماً أمام النّبي ﷺ.

(٢) أقول: «كان قدومُ الحجاج بن يوسف إلى البصرة سنة (٧٥ هـ) وكان عمر أنس عام ذاك زيادة على ثمانين عاماً».

(٣) أخرجه البخاري.

(٤) طبقات ابن سعد (١٩/٧)، وأخرجه أحمد مطولاً في المسند (٢٤٨/٣)، ومسلم في المساجد (٢٣٤/١). ومعنى: «سئمتُ» مللتُ منَ الحياةِ. قالَ زهيرُ بنُ أبي سلمى المزنيّ الشّاعرُ الجاهليّ المشهور: =

* وذكر أبو نُعيم في «الدَّلائل» عن أنسٍ قال: «قالت أمُّ سُليم: يا رسولَ اللهِ، ادعُ لأنس، قال: «اللَّهُمَّ أكثرْ مالَهُ وولدَهُ، وبارِكْ لهُ فيه»، فلقد دفنتُ من صُلبي سوىٰ وَلَدِ وَلَدي خمساً وعشرين ومئة، وإنَّ أرضي لتثمرُ في السَّنةِ مرتين، ما في البلد شيءٌ يثمرُ مرتين غيرها»[1].

* وفي روايةٍ أخرى قال أنسُ: «مرَّ رسول الله ﷺ فَسَمِعَتْ أَمّي صوتَهُ، فقالَتْ: بأبي أَنْتَ وَأمّي يا رسول الله، أُنيسٌ؛ فَدعا رسولُ اللهِ ثلاثَ دعواتٍ، قد رأيتُ منها اثنتينِ في الدّنيا، وأنا أرجو الثالثةَ في الآخرة»[2].

* ومن أجَلِّ وأعظمِ الحياةِ الأنَسيّةِ في الظِّلالِ المُحمديّةِ الشَّفاعةُ له يومَ العرض، وقد روىٰ أنس هذا فقال: «سألتُ النَّبيَّ ﷺ أنْ يشفعَ لي يوم القيامة فقال: «أنا فاعلٌ».

قال: قلتُ: يا رسول الله، فأينَ أطلبُكَ؟

= سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يعشْ ثمانين حولاً لا أبا لك يسأمُ
وقال لبيدُ بنُ ربيعة العامري:
ولقد سئمتُ من الحياة وطولها وسؤال حال الناس كيفَ لبيدُ
وقال عليّ بنُ المديني رحمه الله: «كان أنسُ آخرَ الصَّحابةِ موتاً بالبصرة سنة ٩٣ هـ» (الإصابة ١/ ١١٣) ومعنى «أرجو الرّابعة» أي: غفران الذَّنب.

(١) دلائلُ النّبوةِ (٦/ ١٩٤ و١٩٥). وأخرجَ مسلم طرف هذه الرّواية في كتاب الفضائل. باب فضائل: أنس بن مالك رضي اللهُ عَنْهُ (٢/ ٢٩٨). وكان أنس يقول: «إني لأعرف دعوة رسول الله ﷺ فيّ وفي مالي وفي ولدي. (طبقات ابن سعد (٧/ ٢٠).

(٢) هذا الحديثُ والأحاديث التي قبله، تشيرُ إلى أعلامِ نبوتهِ ﷺ في إجابةِ دعائهِ المبارك، وفي الأحاديثِ فضائلُ جمّةٌ لأنسٍ. وفيها: «دليلٌ لمن يَفضل الغنيّ على الفقير، ومن قال بتفضيل الفقير أجابَ عن هذا بأنّ هذا قد دعا له النّبيّ ﷺ بأنْ يباركَ له فيه، ومتى بُورِكَ فيه لم يكن فتنة، ولم يحصلْ بسببهِ ضررٌ ولا تقصير في حقّ، ولا في غير ذلك من الآفاتِ التي تتطرقُ إلى سائرِ الأغنياء بخلافِ غيره، وفيها طلبُ البركةِ والصيانةِ وكان مالُ أنس بركةً وخيراً ونفعاً بسببِ الدّعاءِ النّبويّ المبارك.

قال: «اطلبني أوّلَ ما تطلبُني على الصِّراطِ».

قال: فإنْ لم ألقَكَ على الصِّراط؟

قال: «اطلُبني عند الميزان».

قلت: فإنْ لم ألقَكَ عِنْدَ الميزان؟

قال: «فاطلبني عندَ الحوضِ فإنّي لا أخطىءُ هذه الثَّلاثة المواطن»[1].

* وذلكَ كان أنسٌ رضي اللهُ عنه يقول: «إنّي لأرجو أنْ ألقىٰ رسول الله ﷺ فأقول: يا رسولَ اللهِ خُويدمكَ»[2]، وكان يفخرُ ويفتخرُ بذلكَ.

* وكلمةُ «خُويدمك» كانت منىٰ أملِ أنس وروح نفسه، وكيف لا، وهو يلمسُ بركةَ دعاءِ النّبيّ ﷺ تسري فيه وفي حياتهِ، حتى ذكروا أنَّهُ كان له بستان يحملُ في السَّنةِ الفاكهةَ مرتين، وكان فيها ريحانٌ يجيءُ منه ريحُ المسْكِ»[3].

* وقال أنسُ نفسه: «وأكثرَ اللهُ مالي حتَّى إنَّ كَرماً لي تَحملُ في السَّنةِ مرتَيْن».

* وختاماً نقول: «الحديثُ عن التّربيةِ النَّبويّةِ لأنسِ بن مالك جميلٌ وساحرٌ وآسرٌ للنُّفوس المحبّةِ للنَّبيّ ﷺ ولأصحابهِ الكرام الذين حملُوا عنه العِلْم، ورأوهُ وآمنوا به، فكانوا غرّةً في جبين الدَّهر، ونجماً مضيئاً في سماءِ المعرفةِ، نرجو الله عزَّ وجلَّ أَنْ يشملنَا بعفوهِ، وأنْ يحشرَنا في معيّتهم، ويغفرَ لنا إنَّه سميعٌ عليم».

من ثَمَرَاتِ التَّربيَةِ النَّبويَّةِ لأنَسٍ:

* عاش أنسٌ رضي اللهُ عنه في كنفِ النّبيّ ﷺ عشر سنين كانت سنواتٍ سماناً بكلِّ فضلٍ وفضيلةٍ، وكلِّ مكرمة نبيلة، وتخرَّجَ في تلكَ المدرسةِ

---

(١) أخرجهُ التّرمذي وأحمد. والمعنىٰ: لا أتجاوزُ هذه المناطق الثّلاثة، ولا أحد يفقدني فيهنّ جميعاً.

(٢) انظر: مجمع الزوائد (٩/ ٣٢٥)، وأسد الغابة (١/ ٢٩٥).

(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ١٩)، ومختصر تاريخ مدينةِ دمشق (٥/ ٦٧ و٦٨).

تلميذاً شاباً عالماً من أشهر تلاميذِ الدّنيا في دنيا الشَّباب النُّجباء.

* ولنا أنْ نتذكّرَ أنَّ من حصائلِ المجالسِ النَّبويّةِ تلكم الخصائل المباركةِ التي كان يحظى بها مجالسو النّبي ﷺ ، فكمْ من رجلٍ من ألدِّ أعدائهِ ﷺ جاء ومراجلِ الحقد تغلي وتفورُ بداخلهِ ، ويضمرُ الشَّرَّ للنَّبيّ ﷺ ، فما أنْ جالَسَهُ أو خالَطَهُ إلاّ شُغفَ بهِ حبّاً ، وامتلأَ قلبُه باحترامهِ وتوقيرهِ وهيبتهِ ، وغدا من ألدِّ الخِصَامِ لمنْ خاصَمهُ ﷺ؛ فكيفَ بأنسِ بنِ مالكٍ المحبِّ الوامقِ والفتىٰ العالم الذي خالَطَ النّبيَّ ﷺ وخدمهَ وصحبهُ في الحلِّ والسَّفرِ ، ولمسَ من عطفهِ وحبِّهِ ورعايته وأُنْسهِ الشَّيءَ العظيمَ، فتخلَّقَ أنسٌ بأخلاقهِ الشَّريفةَ:

فَلْينظُـرَنَّ المـرءُ مِـنْ غلمَـانِـهِ　　　فَهـمُ خـلائقُـه علـىٰ أخـلاقِـهِ

* ولعلَّ من أجلِّ ثمراتِ تلكم التّربيةِ النَّبويّةِ لأنس ثمرةُ المحبّةِ التي نمتْ في فؤادِهِ ، وغدت ذات فروعٍ متطاولةٍ في فضاءِ المكارم ، ولشدّةِ شغفِ سيّدنا أنسٍ بمحبّةِ النّبي ﷺ أنّه كان يراهُ في نومهِ دائماً ومن ثمّ تتحدرُ دموعَه حرّىٰ تبكيه.

* قال المثنّى بنُ سعيد: سمعتُ أنساً يقول: «ما من ليلةٍ إلا وأنا أرىٰ فيها حبيبي» ، ثمّ يبكي[1].

* ومن الثَّمراتِ اليانعةِ التي آتت أكلها والتي اقتطفَها أنسٌ: العِلْمُ، وأكرمْ بهذهِ الثمرةَ! قال الذَّهبيُّ رحمه الله: «وقد كان النَّبيُّ ﷺ يخصُّهُ ببعضِ

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٠) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٤٠٣) ، وبلغ من حبّ أنس للنّبيّ ﷺ أنّهُ لا يملكُ نفسهُ إذا ذُكِرَ فإنّه يبكي ، وخصوصاً عندما يتذكّرُ قولَ سيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي اللهُ عنها حيثما قالت له: «يا أنس ، أطابتْ أنفسُكم أنْ تحثّوا على رسولِ اللهِ ﷺ التّراب»؟ (البخاري ٢/ ٦٤١).
وعند أحمد قالَتْ فاطمةُ رضي اللهُ عَنها لأنس: «يا أنس أطابت أنفسكم أنْ دفنتم رسول الله ﷺ في التّراب ورجعتم»؟ (المسند ٣/ ٢٠٤).
بمثل هذا ونحوه كان يبكي أنس رضي اللهُ عَنه ويتذكَّر الأيّامَ الخوالي مع الحبيب المصطفى ﷺ.

العِلم»[1]. وقد نقل أنسٌ جانباً ممّا خصَّهُ به النَّبيّ ﷺ، ونقله عنه أئمةُ الحديثِ في كتُبِهم[2].

* وممّا يستحقُ أنْ يُسجَّلَ في هذه الفقرة، أنَّ سيّدنا أنساً رضي الله عنه قد استفادَ من الصُّحبةِ النّبويّةِ، وغدا يتابعُ أقوالَ النَّبيِّ ﷺ وأفعاله، وحرصَ أشدَّ الحرصِ على اقتفاءِ محبوبهِ ﷺ، والتَّمسُّكِ بسنَّتهِ الغرّاء، حتّى اشتهرَ بهذه الأمور الحميدةِ بينَ علماءِ الصحابةِ وفقهائِهم، وبين علماء التَّابعين، وتلامذتهِ وغيرِهم ممّنْ رآهُ أو خالَطهُ.

* من ذلكَ ما رواهُ الترمذي عن شعبةَ بنِ سيّار قال: «كنتُ أمشي مع ثابتِ البُناني، فمرَّ على صبيانٍ فسلَّم عليهم؛ وقالَ أنسٌ: كنتُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ فمرَّ على صبيانٍ فسلَّمَ عليهم»[3].

* وكان سيّدنا أنسٌ يتشبَّهُ بالنَّبيِّ ﷺ في صلاتهِ، فقد كان يصلّي حتّى تقطرَ قدماه دماً ممّا يطيلُ القيامَ؛ ولقد ذكرَ هذه الصِّفةَ الحسناءَ لأنسٍ عالمٌ جليلٌ من علماءِ الصَّحابةِ، هو أبو هُريرةَ رضي الله عنه، وذكرَ حُسْنَ تَمسّك أنسٍ بصميمِ السُّنَّةِ المحمديّةِ وجوهرها، يقولُ أبو هُريرةَ: «ما رأيتُ أحداً أشبهَ بصلاةِ رسولِ اللهِ ﷺ من ابنِ أُمِّ سُليم ـ يعني أنساً ـ»[4].

* وهذا: أحدُ تلامذته وهو: أنسُ بنُ سيرين يصِفُ حُسْنَ صلاةِ أستاذهِ أنس بنُ مالكٍ فيقول: «كان أنسُ بنُ مالكٍ أحسنَ النَّاسِ صَلاةً في الحضَرِ والسَّفَرِ»[4].

* وأمّا إحرامُهُ فكان كما ينبغي أنْ يكونَ، ذكرَ همامُ بنُ يحيى أنَّه حدَّثه

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٠٢).

(٢) انظر مثلاً: البخاري (١/ ٣٢٤)، ومسلم (٣٠٩)، وسنن أبي داود (٢١٨)، والنسائي (١/ ١٤٤)، وابن ماجه (٥٨٨)، والترمذي (١٤٠).

(٣) أخرجه التّرمذي، وثابت بن أسلم البُناني من أكثر تلامذة أنس ملازمة له صحبة أربعين سنة وكان عابداً حافظاً قارئاً للقرآن، صائماً، وفضائلهُ كثيرة، توفي سنة (١٢٣ هـ).

(٤) سيرُ أعلامِ النّبلاء (٣/ ٤٠٠).

مَنْ صَحِبَ أنساً في الحجِّ قال: «لمّا أحرمَ أنسٌ، لم أقدرْ أنْ أكلّمَهُ حتّى حلَّ من شِدّةِ إبقائهِ على إحرامهِ»[1].

* وقال الجريري: «أحرمَ أنسُ بنُ مالكٍ من ذاتِ عِرْقٍ، فما سمعناه متكلّماً إلّا بذكرِ اللهِ حتّى حلَّ»[2].

* ومنَ القطوف الأنَسِيَّة الدّانية التي اجتناها أنسٌ من الصُّحبةِ النَّبويّةِ الماتعةِ المثمرة: تقصِّيهِ آثارَ النَّبيِّ ﷺ ما استطاعَ إلى ذلكَ سبيلاً.

* أخرجَ الإمامُ أحمدُ عن ثمامةَ بن أنس يذكرُ: «أنَّ أنساً كان إذا تكلَّمَ تكلَّمَ ثلاثاً، ويذكرُ أنَّ النَّبيّ ﷺ كان إذا تكلَّمَ تكلَّمَ ثلاثاً؛ قال أبو سعيد - أحدُ رجالِ السَّنَد - وحدَّثنا بعد ذلك بهذا الحديث أنَّ النَّبي ﷺ كان يستأذنُ ثلاثاً».

* ومن الفوائد التربوية في هذهِ الفِقْرةِ أنَّ أنساً رضي الله عنه كانَ يحبُّ الطَّعامَ الذي كان الحبيبُ الأعظمُ ﷺ يحبُّه.

* جاء في «الصّحيح» عن سيّدنا أنسٍ قال: «إنَّ خياطاً دعا رسولَ اللهِ ﷺ لطعامٍ صَنَعَهُ، قال أنسُ ابنُ مالكٍ: فذهبتُ مع رسول الله ﷺ إلى ذلكَ الطَّعامِ، فقرَّبَ إلى رسول الله ﷺ خبزاً من شعيرٍ ومرقاً فيه دُبّاء وقديد. قال أنس: فرأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يتتبّعُ الدُّباءَ من حوالي الصَّفحة؛ قال: فلم أزلْ أحبُّ الدَّباءَ منذ يومئذ». وفي روايةٍ أخرى: «فما صُنِعَ لي طعامٌ بعدُ أقدرُ على أنْ يُصنعَ فيه دبّاء إلّا صُنِعَ»[3].

* وجاء في «المسند» عند الإمامِ أحمد عن سليمان التَّيمي قال: «ما أتينا أنسَ بنَ مالك قطّ في زمنِ الدّبّاء إلّا وجدناهُ في طعَامِه».

* وأخرجَ التّرمذيُّ عن أبي طالوت قال: «دخلتُ على أنسِ بنِ مالك وهو

---

(١) المصدرُ السّابق عينه (٣/ ٤٠١).

(٢) طبقات ابنُ سَعْد (٧/ ٢٢).

(٣) أخرجه مسلم. و«الدبّاء»: اليقطين.

يأكلُ القرعَ وهو يقول: يا لكِ من شجرةٍ ما أحبُّكِ إلا لحبِّ رسول الله ﷺ إيّاكِ».

* ومن ثمار التّربيةِ النّبويةِ المباركةِ التي استفاد منها سيّدنا أنسُ بنُ مالك رضي اللهُ عَنه تلكم المحبّةُ الأَنَسيّةُ لمعلّمهِ محمّد ﷺ، والاحتفاظُ بأشياءَ من آثارهِ كي يتعاهدَهَا بينَ حينٍ وآخر؛ ويمتّعَ ناظريهِ بها.

* ومن ذلكَ أنَّهُ رضي الله عنه قد نقشَ في خاتمهِ: «محمد رسولُ اللهِ»[1].

* وأخرجَ الإمامُ أحمد رحمه الله عن حجّاجِ بنِ حسّانٍ قال: «كنّا عند أنس بنِ مالكٍ فدعا بإناء وفيهِ ثلاثُ ضِبَاب حديد، وحلقةٌ من حديد، فأخرجَ من غلافٍ أسود، وهو دون الرّبع وفوق نصف الرّبع، فأمرَ أنس بنُ مالك فجعلَ لنا فيه ماء، فأتينا بهِ، فشربنا وصَبَبْنَا على رؤوسِنا ووجوهنا، وصلّينا على النّبي ﷺ».

* والحديثُ عن فوائد الصّحبةِ النّبويةِ طويلٌ طويلٌ وممتعٌ ممتعٌ، بيدَ أنّنا اكتفينا بذكرِ ما أوردناهُ ليكونَ فاكهةً تتحلّى بها الأفواهُ وتلذُّ لها الأسماعُ في المجالسِ والمسايرات وفي كلّ زمانٍ ومكان.

كَرَامَـاتٌ أَنَسِيَّـةٌ:

* هذا الصَّحابيُ الجَليلُ العالِمُ من الموفّقين الذين مَشَتِ السَّعادَةُ في رِكابِهم، ولاحظَتْهم عين الرِّعايةِ الرَّبانيةِ، لأَنَّهُمْ صدقُوا ما عاهدوا اللهَ عليهِ، وعملُوا لما بعدَ الدُّنيا، فنالُوا بإذنِ اللهِ مُنَاهُمْ وما كانوا يصبُونَ إليهِ.

* وهذا الصَّحابيُ النّبيهُ كان ممّنْ حفَّتْهُم العنايةُ الإلهيّةُ، وممن استُجيبَ دعاؤهم، وذلكَ لمّا تركُوا الأسبابَ الماديّةَ ولزمُوا الأسبابَ الرّوحانيةَ، دونَ أنْ يفرطُوا في أخذِ ما يوصلُهم إلى النَّجاحِ من توكُّلٍ على اللهِ وأَخْذٍ بأسبابِ النَّجاة، وكان همُّهُمْ بذلكَ كَهَمِّ النَّبيّ ﷺ في دعوةِ الأقوامِ إلى اللهِ

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٢ و٢٣). وزاد ابن سعد على هذا بقوله: «فكان إذا دخلَ الخلاء نزعه».

وهدايتهم ، وكانوا في دعائِهم وتوجّههم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مُتَّصفين بأخلاقِ حبيبنا محمّدٍ ﷺ؛ وهذا ممّا جعلَ أولو الفضل يخدمون أولي الفضْلِ ، لأنه لا يعرف الفضل لأولي الفضل إلا أولو الفضل روىٰ ثابتُ البُناني عن أنس قال: «صحبتُ جريرَ بنَ عبد اللهِ ، فكان يخدمني ، وقال: إني رأيتُ الأنصارَ يصنعونَ برسولِ اللهِ ﷺ شيئاً ، لا أرىٰ أحداً منهم إلاّ خدمتهُ»[1].

* وممّا يضافُ إلى ذلكَ ما رواهُ ثابتُ البُناني تلميذُ أنس النَّجيب اللبيب قال: «دخلتُ على أنسِ بنِ مالكٍ ، فقلتُ: «رأتْ عيناكَ رسول الله ﷺ؛ أظنُّهُ قال: نعم ، فقبّلتُهما. قال: فمشَتْ رجلاكَ في حوائجِ رسول الله ﷺ؟ قال: نعم؛ فقبّلتُهما ، ثم قلتُ: فصببتَ الماءَ بيديكَ؟ قالَ: نعم؛ فقبّلتُهما. ثمَّ قالَ لي أنس: يا ثابتُ! صببتُ الماءَ بيدي على رسولِ اللهِ ﷺ لوضوئه ، فقال لي: «يا غلامُ أسبغِ الوضوءَ يُزَدْ في عُمرِكَ ، وأفشِ السَّلامَ تكثر حسناتُكَ ، وأكثِرْ من قراءةِ القُرآنِ تجيءُ يومَ القيامةِ معي كهاتَيْن» ، وقالَ بأصبعَيه هكذا السَّبابة والوسطى»[2].

* تذكر جميلةُ مولاةُ سيّدنا أنس مكرمةً وخصوصيةً لسيّدها أنس بنِ مالكٍ فتقول: «كان ثابتُ ـ البُناني ـ إذا جاء إلى أنسٍ قال: يا جميلةُ ناوليني طِيْباً أمسُّ بهِ يدي ، فإنَّ ابنَ أبي ثابت ـ يعني ثابتاً البُناني ـ لا يرضى حتى يقبِّلَ يدي يقولُ: يدٌ مسَّتْ رسولَ اللهِ ﷺ».

* هذه الخصائصُ والخصائلُ وأمثالُها كثيرةٌ في سيرةِ هذا العالمِ الصَّاحبِ الخادمِ الأمينِ الذي ورثَ كثيراً من الشَّمائلِ المحمديّةِ ، فكان بحقّ من مشاهيرِ عُلماءِ الصَّحابةِ الذين أضاؤوا الدّنيا بعلمِهم ، وكانوا قدوةً حسنةً لمن أرادَ أن يتقديَ بهم؛ فقد ساروا في طريقِ الصَّفاءِ والوفاء ، فغدا دعاؤُهم مُجاباً عند خالق الأرض والسّماء.

* روىٰ ابنُ سعد رحمه الله عن ثمامةَ بنِ عبدِ اللهِ قال: «جاءَ أنساً

---

(1) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٠١).

(2) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٥/ ٦٩ و٧٠).

رضي الله عنه أكّارٌ[1] بُسْتانِهِ في الصَّيفِ ، فشكَا العطَش[2] ، فدعا بِماءٍ فتوضّأَ وصلّى ، ثمّ قال: هل ترى شيئاً؟

فقال: ما أرىٰ شيئاً.

فدخلَ فصلّى ، ثمَّ قال في الثَّالثةِ ـ أو في الرّابعة ـ انظر ، قال: أرى مثلَ جناحِ الطَّيرِ من السَّحاب.

فجعلَ يصلّي ويدعو ، حتَّى دخلَ عليه القَيِّمُ فقال: قد استوتِ السَّماءُ ومطرت.

فقال: اركبِ الفرسَ الذي بَعَثَ بهِ بِشْرُ بنُ شَغاف فانظر أينَ بلغَ المطر؟

فركبه فنظرَ ، قال: فإذا المطر لم يجاوزْ قُصورَ المُسَيَّرِين ولا قَصْرَ الغَضْبان»[3].

* وفي روايةٍ أخرىٰ عن ثابت البُناني قال: «جاءَ قيّمُ أرضِ أنس ، فقال: عطشتْ أرضوكَ ، فتردَّىٰ أنسُ ، ثمَ خرجَ إلى البريّةِ ، ثم صلّى ودعا ، فثارت سحابةٌ وغشيت أرضَهُ ومطرتْ ، حتى ملأَتْ صهريجَه ، وذلكَ في الصَّيف ، فأرسلَ بعضُ أهلهِ ، فقال: انظرْ أينَ بلغَتْ؟ فإذا هيَ لم تَعْدُ أرضَهُ إلاّ يسيراً»[4].

* ويعلّقُ الذّهبي رحمه الله ـ بعد أنْ ذكرَ هذه الرِّواية مشيراً أيضاً إلى روايةِ ابنِ سعد ـ فيقول: «هذهِ كرامةٌ بيِّـنةٌ ثبتَتْ بإسْنَادَيْن»[5].

* أقول: «وقد ثبتَ أنَّ الغيثَ نزلَ بدُعاءِ رسول الله ﷺ ، ودعاءِ عددٍ مِنَ الصَّحابةِ الكرامِ مِنْهُمْ: سيدنا عمرُ بنُ الخطّاب ، ومنهم: معاويةُ ، ويزيدُ بنُ

---

(١) «أكّار» الأكار الذي يحرث الأرض.

(٢) «العطش»: المقصود حاجة بستان أنس إلى الماء.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٧/ ٢١).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٠٠) ، ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٧٢). ومعنى «تردّى»: لبس الرّداء.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٠١).

الأسود الجُرشيّ، وأنسُ بنُ مالك، وحُجْر بنُ عدي، وغيرهُمْ رضي اللهُ عَنْهُمْ جميعاً، وأخبارُ ذلكَ منثورةٌ في تراجمهم في المصادرِ الموثوقةِ؛ ومن أرادَ المزيدَ فليرجعَ إلى مظانّ تراجِمهم».

في ساحَاتِ الجِهَادِ:

* سجلُّ أنسِ بنِ مالكٍ في الجهادِ سجلٌّ حافلٌ بالإقدامِ والبطولةِ والتّفوّقِ في ميادينِ النّضال؛ وله مواقفُ عظيمةٌ وبطولات جسيمةٌ في هذا المجالِ على الرّغمِ من صِغَرِ سِنِّهِ يوم شُرِعَ الجهاد. إذ إنّهُ لما شُرِعَ الجِهَادُ كان لا يزالُ في عُمْرِ الزَّهْر الغافي بين أحضان الأغصان، كما كان غضّ العُودِ لدناً، لم يشبَّ عن طوقِ الرُّجوليّةِ والفروسيةِ الحقّة.

* ومن المُتَعالَمِ أنَّ تشريعَ الجِهادِ(١) قد شُرِعَ في أوائلِ السَّنةِ الثَّانيةِ من

(١) لعلّ سائلاً يسألُ: ما حكمُ الجهادِ في الإسلامِ؟
فنقولُ ـ واللهُ المُستعان ـ: «الجهادُ في الإسلامِ منَ الفُروضِ الكفائيةِ عند جمهورِ أهلِ العلم من السَّلفِ والخلف، ومعنىٰ هذا أنَّه إذا قامَ بهِ مَنْ يكفي في دفعِ غائلةِ الأعداءِ ونصرِ الإسلامِ سقطَ عن الباقين، ولا يكونون آثمين، وإنْ لم يقمْ بهِ من يكفي الأمّةَ كلّها ولا يرتفعُ هذا الإثمُ إلاّ بخروجِ مَنْ فيهم الكفايةُ، ولو أدّىٰ ذلكَ إلى تجنيدِ الجميع، والدّليل على هذا قول اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].
ويصير الجهادُ فرضُ عينٍ في ثلاثةِ أحوالِ أفاضَ العُلماءُ فيها، ونوجزها فيما يلي:
١ ـ إذا التقى الجيشان والتقى الصَّفانِ، تعيّنَ الجهادُ على مَنْ حضرَ، وحُرِّمَ عليهِ الفرار، إلاّ أنْ يكونَ ذلكَ لمكيدةٍ أو خدعةٍ حربيةٍ، أو لأخذِ مكانٍ أفضلِ وأحسن، أو للانحياز إلى فئةٍ أخرى من الجيش، قال اللهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥ ـ ١٦].
٢ ـ إذا هاجمَ الكفّارُ بلداً من بلادِ الإسلامِ، أو نزلُوا فيه، تعيَّنَ على أهلهِ قتالهم ودفعهم بما استطاعُوا ووجبَ على أخوانهم في كلّ قطرٍ وبلد أنْ يخفّوا إليهم بالعون والمُساعَدَةِ أداءً لحقِ الأخّوةِ الإسلاميةِ، قال ﷺ: «المسلمُ أخو المسلم لا يظلمهُ ولا يخذلهُ» (رواه مسلم). وفي روايةٍ أخرى للبخاري «ولا يسلمه». =

الهجرةِ ، وكان أنسٌ حينئذ وعامَ ذاكَ في بدايةِ ربيعهِ الثّاني عشر ، وما كان النّبيُّ ﷺ يسمحُ لصغَارِ الصَّحابةِ وصبيانهم أن يشتركُوا في الجِهادِ وجلاد المُشركين ، إلاّ بعدَ أَنْ يشتدَّ عودهم[1].

* وتذكرُ كتبُ التَّراجمِ والسِّيرة أنَّ أنساً لم يشاركْ في الجهادِ في غزاتَي بدرٍ وأحدٍ ، ولم يجالدِ المشركين بالسِّنانِ وبالصَّارمِ وبالخطّيِّ ، بيد أنه حضرهما ليخدمَ الحبيبَ الأعظمَ محمّداً ﷺ.

* قال الذّهبي: ذكرَ ابنُ سعدٍ في «طبقاتهِ» عن مولىٰ لأنسٍ؛ أنّهُ قالَ لأنس: «أشهدتَ بدراً؟».

فقال: «لا أمَّ لك ، وأينَ أغيبُ عن بدر؟!».

* قال الأنصاريُّ: «خرجَ مع رسول الله ﷺ إلى بدرٍ ، وهو غلامٌ يخدمهُ»[2].

* وقال الذّهبيّ رحمه الله عن مغازي أنس بن مالك وجهاده: «فصحبَ أنسٌ نبيَّهُ ﷺ أتمَّ الصُّحبةِ ، ولازمَهُ أكملَ الملازمةِ منذ هاجرَ ، وإلى أنْ مات ، وغزا معه غيرَ مرّة ، وبايعَ تحتَ الشَّجرةِ»[3].

* وقالَ موسىٰ بنُ أنس: «إنَّ أنساً غزا ثمان غزوات»[4].

= ٣ ـ إذا استنفرَ وليُّ الأمرِ قوماً أو أقواماً لزمهم الخروجُ وتعيّنَ عليهم الجهادُ ، ففي الحديثِ الصَّحيح: «لا هجرةَ بعد الفتح، ولكنْ جهادٌ ونيّة ، وإذا استنفرتم فانفروا» واللهُ اعلم».

(١) عندما اشتدّ عودُ أنس شهدَ مع رسولِ اللهِ ﷺ غزوات ، وقد ذكر بعضها فقال: «شهدتُ مع رسول الله ﷺ الحديبية ، وعمرته ، والحج ، والفتح ، وحُنيناً ، والطائف» (تهذيب التهذيب (١/ ٣٩١) ترجمة رقم (٦٠٧).

(٢) انظر سير أعلام النّبلاء (٣/ ٣٩٧). وقال الذّهبي رحمه الله تعالى: «لم يعدّهُ أصحابُ المغازي في البدريين لكونه حضَرها صبيّاً ما قاتل ، بل بقي في رحالِ الجيش» (سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٩٧ و٣٩٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٩٧).

(٤) المصدر السابق (٣/ ٤٠٠).

* أقول: «قد ظَهَرَ لنا من خلالِ حياتِنا مع أنسٍ رضي اللهُ عنه أنَّهُ بدأ حياتَهُ الجهاديّةَ منذ أوّلِ غزوةٍ غزاهَا رسول الله ﷺ، بيد أنَّه شاركَ بنفسهِ في ساحاتِ الجِهادِ منذ غزوةِ الخندقِ حيثُ إنَّ عُودَهُ كان قد اشتدَّ، وأضحىٰ من عدادِ الفرسان المُيامين الذين ينافحون عن الإسلامِ بأرواحِهم وأجسادِهم وأموالهم».

* وقد رسمَ سيّدنا أنسٌ رضي اللهُ عَنه صورةً جميلةً صادقةً عمّا صنعَهُ المسلمون في غزاةِ الخندقِ فقال: «خرجَ رسول الله ﷺ إلى الخندقِ، فإذا المهاجرونَ والأنصارُ يحفرون في غداةٍ باردةٍ، فلم يكنْ لهم عبيدٌ يعملونَ ذلكَ لهم، فلمّا رأىٰ ما بهم من النَّصَبِ والجُوعِ قال:

اللَّهُمَّ إِنَّ العيشَ عَيشُ الآخرة ... فاغفرْ للأنصار والمهاجرة»

فقالوا مُجيبين له:

نَحْنُ الذين بايَعُوا مُحمّداً ... على الجِهادِ ما بَقينا أَبد»[1]

* وتمضي الأيّامُ فإذا بأنسٍ من فريقِ الذينَ بايعوا تحت الشَّجرةِ بيعةَ الرضوان، فرضيَ اللهُ عنهم وجعلَهم خيرَ أهلِ الأرضِ، وبشَّرهم بالجنَّةِ، وقد ساقَ لنا أنسٌ جانباً من حضورهِ تلكم البيعة وتحدّث بها فقال: «لمّا رجعنا من غزوةِ الحُديبيةِ وقد حيلَ بيننا وبين نسكِنا، فنحنُ بين الحزنِ والكآبةِ، أنزلَ اللهُ عزَّو جلَّ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أُنزلتْ عليّ آيةٌ هي أحبُّ إليَّ منَ الدُّنيا وما فيها كلّها»[2].

* وفي روايةٍ أخرى عن سيّدنا أنسٍ رواها في أسلوب أدبيّ سَلِسٍ قال: «أنزلَتْ هذه الآيةُ على النّبي ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ عند مرجعهِ من الحديبية، نزلَتْ وأصحابُه مخالطون الحزنَ، وقد حِيْلَ بينهم وبين نسكهم، ونحروا الهديَ بالحديبيةِ، فلمّا أنزلَتْ هذه الآيةُ قال لأصحابهِ: «لقد أُنْزلَتْ

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ٥٨٨)، والحديث أخرجه مسلم أيضاً.

(٢) انظر: أسباب نزول القرآن للواحدي (ص ٣٩٧ ـ ٣٩٩)، والحديث أخرجه مسلم برقم (١٧٨٦).

عَليّ آيةٌ خيرٌ مِنَ الدُّنيا جميعها» ، فلمّا تلاها النّبيّ ﷺ قال رجلٌ من القومِ: هنيئاً مريئاً يا رسولَ اللهِ ، قد بيّنَ اللهُ لَنا ما يفعلُ بكَ ، فماذا يفعلُ بنا؟ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ . . .﴾[1]» .

* وتتألّقُ المواقف الأَنَسيّة النّاصعة في مضمارِ الجهادِ وميدانه ، فها هو ذا يشدُّ رحالَهُ وعدّتَهُ ويتّجهُ نحو خيبرَ في معيّةِ حبيبهِ محمّدٍ ﷺ ، وقد شهدَ خطوات هذه الغزوةَ من أَلِفها إلى يائِها ، ووصفَ لنا بعضَ المعالم المفيدة لهذه الغزاةِ فيما ذكرَهُ ابنُ إسحاق عنه قال: «وحدّثني من لا أتّهمُ عن أنسِ بنِ مالكٍ قال: كان رسول الله ﷺ إذا غزا قوماً لم يُغِرْ عليهم حتّى يصبح ، فإن سمعَ أذاناً أمسَكَ ، وإن لم يسمعْ أذاناً أغار ، فنزلنا خيبرَ ليلاً ، فباتَ رسول الله ﷺ ، حتى إذا أصبحَ لم يسمعْ أذاناً ، فركبَ وركبنا معهُ ، فركبتُ خلفَ أبي طلحة ، وإنَّ قدَمي لتمسَّ قدم رسول الله ﷺ ، واستقْبَلنا عُمّالُ خيبرَ غادين ، قد خرجُوا بمساحيهم ومكاتِلهم ، فلمّا رأوا رسول الله ﷺ والجيشَ قالوا: محمّدٌ والخميسُ معه ، فأدبروا هُرَّاباً ، فقال رسول الله ﷺ: اللهُ أكبر ، خربتْ خيبرُ ، وإنّا إذا نزلنا بساحةٍ قومٍ فَساء صَباح المنذَرين»[1] .

* كما أنَّ سيّدنا أنساً كان من أفرادِ الجيشِ الذي ذهبَ إلى مؤتةَ ، وممن شاركَ في غزاةِ حُنين ، فقد أخرجَ الإمامُ أحمدُ في «المسند» أنَّ أنساً سُئِلَ: هل غزوتَ معَ نبي اللهِ ﷺ؟!

قال: «نعم غزوتُ معهُ يومَ حُنين» .

* انتقل رسولُ اللهِ ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى وهو راضٍ عن الفارسِ الفتىٰ أنسِ بنِ مالكٍ ، ولكنَّ وفاةَ النَّبي ﷺ لم تُجعلْ أنساً يتكاسلُ أو يتقاعس عن

---

(١) انظر: السّيرة النّبوية (٣/ ٤٥٧ و٤٥٨) بشرح أبي ذر الخشني ، طبعة دار المنار ١٩٨٨ م. وللحديث أصل في الصحيح ، فقد أخرجه البخاري (١/ ٤٧٩ و٤٨٠) و(٢/ ٨٩ و٩٠) ، ومسلم (٣/ ١٤٢٦ و١٤٢٧) ، ومعنى «مساحيهم»: جمع مسحاة وهي المجرفة من الحديد ، و«مكاتلهم» جمع مكتل وهي قفّةٌ كبيرة. «والخميس» الجيش لأنه ينقسم خمسة أقسام: مقدمة وساقة وجناحان والقَلب.

الجهادِ ، والرّكضِ بفرسهِ في ميادينِ الحربِ والجلادِ؛ فقد شاركَ أنسٌ حروبَ المسلمينَ في العهدِ الرَّاشدي الزَّاهر ، وخصوصاً في خلافةِ سيّدنا أبي بكر الصِّديق رضي اللهُ عنه وحشَرنا في معيّتهِ؛ فقد نجمَ رأسُ المرتدّينَ في خلافتهِ ، وأحبَّ الصّديقُ أَنْ يقطعَ رأسَ أفعى الارتدادِ والمرتدّين والمتنبئين ، فرماهم بأصلبَ عيدانه ، فكان الصَّحابةُ الكرامُ هم الذين طهَّروا الأرضَ من الخرّاصينَ المرتدّينَ وشهدَ سيّدنا أنسٌ تلكم المعاركَ الضَّاريةَ الشّديدةَ التي ظهرتْ في أرضِ اليمامةِ بزعامةِ مُسيلمةَ الكذّابَ الذي عاثَ في الأرضِ فساداً ، وفعلَ الأفاعيل ، وسرىٰ كذبه في قومهِ سريانَ النَّارِ في أضعفِ الهشيم ، واستحوذَ بخبثه على نفوسهم ، بَيْدَ أنَّ العُقلاءَ مِنْهُم عرفُوا أحابيلَهُ الواهيةَ وألاعيبَهُ الدَّاهية ، فأخذوا يسخرون منه وممّن شايعَهُ عصبيّةً أوغيرَ عصبيّةٍ ، يقولُ ثمامةُ بنُ أثال بن النُّعمان الحنفي رضي الله عنه في سجعِ مسيلمةَ وكذبهِ ، ويسخرُ منه:

دَعَانَا إلىٰ تَرْكِ الدِّيانَةِ والهُدَىٰ　　مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابَ إِذْ جَاءَ يَسْجَعُ
فَيَا عَجَباً مِنْ مَعْشَرٍ قَدْ تَبايعُوا　　لَهُ في سَبيْلِ الغَيِّ والغَيُّ أَشْنَعُ

* وزادَ الطِّينَ بِلَّةً والأمر شدّةً وعِلّة أَنْ تزوّجَ هذا الفاجرُ الكذابُ من امرأةٍ متنبئةٍ زعمتْ أنَّها نَبِيّةٌ يُوحىٰ إليها ، وقد قرنَتْ نبوّتهاْ المزعومةَ الفاشلة إلى نبوّتهِ المزعومةِ القاحلة ، واستسلمتْ له واتّبعَتْهُ ، هذه المرأةُ تُدعى سَجَاحِ بنتَ الحارثِ التّميميّة ، وقد تندّرَ أحدُ الشُّعراء بهذَيْن الكذّابَيْن فقال:

مُسليمةُ اليمامةِ كانَ أَدْهَىٰ　　وأكذبُ حينَ سارَ إلى سَجَاحِ
ليَمدحَ قومَهُ بأَبي رباحِ　　وفازَ ورُدَّ مقصوصَ الجَناحِ

* وأمام هذه التّحديات كلّها ، وتجمع جيشِ المرتدين خاضَ سيّدنا أنسُ بنُ مالكٍ غمارَ المعارك ، ورسمَ بعضَ أجزاءِ مشاهِدها ، ووصفَ بطولةَ فرسانِ المسلمين وإقدامَهم ، ومنهم ثابتُ بنُ قيس رضي الله عنه؛ ومن ذلك ما وردَ عنه أنّهُ قال:

«أتيتُ على ثابتِ بنِ قيس يوم اليَمامةِ وهو يتحنّطُ ، فقلتُ: أيّ عم ، ألا ترىٰ ما لقي النّاسُ؟

فقال: الآن يا بن أخي.

ثم أقبلَ فقال: هكذا عن وجوهنا نقارعُ القوم ، بئسَ ما عوّدتم أقرانَكم ، ما هكذا كُنّا نقاتلُ مع رسول الله ﷺ ، فقاتلَ حتى قُتِلَ»[1].

* وفي روايةٍ أخرى أنَّ سيّدنا أنساً قالَ: «جاءَ ثابتُ بنُ قيس يومَ اليمامةِ ، وقد تحنَّطَ ، ولبسِ ثوبَيْن أبيضَيْن ، فكفَّنَ فيهما ، وقد انهزمَ القوم ، فقال: اللَّهُمَّ إنّي أبرأُ إليكَ ممّا جاء به هؤلاء ، وأعتذرُ من صنيعِ هؤلاء ، بئس ما عوّدتم أقرانكم؟ خلّوا بيننا وبينهم ساعةً ، فحملَ ، فقاتلَ حتى قُتِلَ»[2].

* ولم تكن مواطنُ الجهادِ محصورةً في نطاقٍ محدودٍ عند سيّدنا أنسِ بنِ مالك ، بل وسّعَ دئرةَ جهادِهِ إلى محيطٍ أكبرَ وأكثرَ ضرواةً ، فها هو ذا في بلادِ العراقِ يشاركُ في معركةِ القادسيّةِ التي ملأَتِ الدُّنيا بصيتها وشغلتِ الفُرسان بصَلِّها وصليلها. ورحابة ميادينها وساحاتها.

* فعندما سار أبطالُ المسلمين وفرسانُهم إلى العراق والتقوا الفرسَ في القادسيّةِ ، كان أنسُ رضي الله عنه أحدَ أولئكَ الميامينِ الذين صدقُوا ما عاهدوا اللهَ عليه ، بل نقلَ لنا صورةً فريدةً نادرةً لابنِ أُمِّ مكتوم الأعمىٰ ذلكَ الرجلُ الصّحابيُ الشَّهيرُ الذي لبسَ درعاً واسعةً طويلةً ، وحملَ الرّايةَ الإسلاميةَ ، يقولُ أنسٌ: «إنَّ ابنَ أمِّ مكتومٍ يومَ القادسيّةِ كانت معه رايةٌ له سوداءُ ، وعليه درعٌ له»[3].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٣١١) بتصرف يسير جداً. وللحديث أصل في الصحيح فقد أخرجه البخاري في الجهاد برقم (٢٨٤٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٣١١) ، وانظر: مجمع الزوائد (٩/ ٣٢٢).

(٣) انظر موسوعتنا «فرسان من عصر النبوّة» (ص ٤٢٢ و٤٢٣) ، طبعة دار اليمامة الغراء بدمشق.

* وشاركَ أنسٌ أيضاً في حصارِ مدينة تُستَر ، وتعرّضَ وقتذاكَ إلى مخاطِرَ جسيمةٍ كادتْ تذهبُ به لولا بطولةُ أخيهِ البراءُ بن مالك وشجاعتُهُ إذ انتشلهُ من براثنِ الخطر.

* وملخّصُ ذلكَ ومحصّلُه أنَّه بينما كان سيّدنا أنسٌ قربَ أحَدِ حُصونِ المشركين ، علقَتْ كلاليبُ العدوّ المحمّاةِ بالنَّارِ بأنسِ بنِ مالك ، وشَرَعَ الأعداءُ يرفعونَهُ عن الأرضِ ، وفي تلكم اللحظاتِ الحرجةِ ، نُميتِ الأخبارُ إلى أخيهِ البراءِ أنْ أدركْ أخاكَ أنساً ، فقد نشبتْ فيه كلاليبُ العدوِ.

وبسرعةِ البرقِ الخاطفِ كان البراءُ قربَ أخيهِ ، وقد وثبَ وثبةً قويةً على جدارِ الحصنِ ، وقبض على كلاليبِ العدوّ وسلاسلِهم المحمّاةِ بالنّار ، وأخذ يجرّهم ويداهُ تحترقانِ وتدخنّان حتى قطعَ حَبْلَ الكلاليبِ ، ثم نظرَ إلى يديهِ ، فإذا عظامه تلوحُ ، قد ذهبَ ما عليها من اللّحمِ ، ولكنّهُ نسيَ آلامَهُ إذْ تحقَّقَتْ آمالُهُ بنجاةِ أخيهِ أنس الذي كانَ يأنسُ إليهِ ، ويجدُ عندهُ أُنْسَ الرُّوحِ ، وروحَ الأنسِ ، ونعيمَ الأمنِ ، وأمنَ النَّعيمِ ، فأخوه أنسٌ هو الإمامُ العاملُ العيلمُ الفارسُ الرّامي المحدّثُ ، الخادمُ للحضرةِ النبويّةِ ، والحاملُ لرايةِ العلمِ ، وراية الرّوايةِ ، ولواءِ الفضلِ والفضيلةِ ، فأكرم بهِ!!

* ولأنسٍ رضي الله عنه مواقفُ لا تُنْسىٰ في ساحِ الجهادِ ، ومواطن الجلاد ، ومقارعةِ الخطوبِ ، وكان له ذكرياتٌ طيّبةٌ في فتوحِ تُسْتَر ؛ فها هو ذا ينقلُ لنا مشاهدَ واضحةَ المعالم وهو يجاهدُ تحتَ ظلالِ السّيوفِ وكلمة التّوحيد ، فلنستمع إليهِ حيث يقول: «حضرتُ عند مناهضةِ حِصنِ تُسْتَر عند إضاءة الفجرِ ، واشتدَّ اشتعالُ القتالِ ، فلم يقدروا على الصَّلاةِ ، فلم نصلِّ إلّا بعد ارتفاع النَّهارِ ، فصلّينا ونحنُ معَ أبي موسى فتح لنا وما يسرّني بتلكَ الصّلاة الدُّنيا وما فيها»(١).

* وكان سيّدنا أنسٌ رضي الله عنه أحدَ الرُّماةِ المُصيبين ، ويأمرُ ولدَهُ أنْ

---

(١) صحيح البخاري.

يرمُوا بينَ يديهِ ، وربّما رمى معهم فيغلبَهم بكثرةِ إصابتهِ. قال ثمامةَ حفيده: «كان أنسٌ يجلسُ ، ويُطرحُ له فراشٌ ويجلسُ عليهِ ، ويُرمىَ بين يديهِ ، فخرجَ علينا يوماً ونحنُ نرمي ، فقال: يا بني بئس ما ترمون ، ثمّ أخذَ القوسَ فرمى ، فما أخطأَ القِرطاس»[1].

الـفَقيـهُ المفسِّـرُ:

* عندما تُوفيَ رسول الله ﷺ كان أنسٌ رضي اللهُ عنهُ لا يزالُ فتىً في ميعةِ الصِّبا ، في نهايةِ العقدِ الثَّاني من عمرهِ ، وكان حادَّ الذِّهنِ ذكيَ الفؤادِ حصيفاً ، فقد باركَ اللهُ في علمهِ لطولِ صحبتهِ رسول الله ﷺ منذ أنْ أتَتْ بهِ أمُّه أمُّ سُليم في أوّلِ الهجرةِ النَّبويّةِ إلى أن انتقلَ النَّبيُّ ﷺ إلى الرّفيقِ الأعلىٰ وهو راضٍ عن تلميذهِ الفتى الحصيفِ النَّجيب الفطِن.

* وكان الصَّحابةُ الكرامُ يحبّونَ هؤلاء الفتيانِ العُلماء الفقهاء المفسّرين ، وفي مقدمتهم: ابنُ عباس ، وابنُ الزُّبير ، وأنسٌ وغيرهم ، وكان عمرُ بنُ الخطاب رضوانُ اللهِ عليه إذا أعياهُ الأمرُ المعضلُ دعا الأحداثَ ، فاستشارهم لحدّةِ عقولهم[2].

* وما أجملَ قولَ مَنْ قال:

إنَّ الحَـــداثـــةَ لا تُقَصِّـــرُ بــالفَتــىٰ المــرزُوقِ ذِهنــاً
لَكِـــنْ تُـــذَكّـــي قَلْبَـــه فيفُـــوقُ أكبَـــرُ منـــه سِنّـــاً

* قال الخطيبُ البغداديُّ رحمه الله: «التَّفقُّهُ في زمن الشّبيبةِ وإقبالِ العُمر ، والتّمكنُ منه بقلّةِ الأشغالِ ، وكمالِ الذّهنِ ، وراحةِ القريحة يرسَخُ

---

(١) انظر: مجمع الزوائد (٩/ ٣٢٥). ومن المعروف أنَّ القوةَ في الرّمي ، بل القوة الرّمي ، كما جاء في الصحيح عن عقبةَ بن عامر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ وهو على المنبرِ يقرأ ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] «ألا إنَّ القوةَ الرّميُ ، إلا إنَّ القوة الرميُ؛ ألا إنَّ القوةَ الرميُ». أخرجه مسلم برقم (١٩١٧).
(٢) انظر: المحدّث الفاصل بين الرّاوي والواعي (ص ١٩٣).

في القلبِ ، ويثبتُ ، ويتمكَّنُ ويستحكمُ ، فيحصلُ الانتفاعُ به والبركةُ ، إذا صَحِبَهُ من الله حُسْن التّوفيق»[1].

* ولهذا فقد كان أنسٌ رضي اللهُ عنه أحدَ كبراءِ الصَّحابةِ الذين أُخذَتْ عنهم كثيرٌ من الآراء والأحكامِ الفقهيّةِ والعُلوم المتنوعةِ؛ وكان في معظمِ فقههِ وعلْمِهِ يميلُ إلى جانبِ التّيسيرِ اقتداءً بالنّبيِّ ﷺ الذي ما خُيِّرَ بين أمرينِ إلاّ اختارَ أيسرهما.

* فمن فقه سيدنا أنسٍ وعلمهِ في ميدانِ فضائلِ القرآنِ الكريم ، أنَّهُ كان يكرهُ مَنْ يتّخذُ القرآنَ مزاميرَ ، يغنّي به غناءً ، وليسَ بفقيهٍ ولا عالمٍ بقراءته ، فقد ذكرَ أبو عُبيد القاسمُ بنُ سلام بسنده عن الأعمشِ عن رجلٍ عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أنَّهُ سمعَ رجُلاً يقرأُ بهذه الألحان التي أحدثَ النّاسُ ، فأنكرَ ذلكَ ، ونهى عنه»[2]. ويقصدُ أنسٌ تلكم الألحانُ المبتدعةَ التي لا تتوافَقُ مع جلالِ القُرآنِ.

* ومن علمِ أنسٍ وفقههِ في هذا المَنْحىٰ أيضاً ما أورده القرطبيُّ في تفسيره قال: «رُوي عن زيادِ النُّميري أنَّه جاءَ مع القُرّاء إلى أنسِ بنِ مالك فقيل له: اقرأْ؛ فرفعَ صوتَهُ وطرَّبَ ، وكان رفيعَ الصَّوتِ ، فكشفَ أنسٌ عن وجههِ وكان على وجههِ خرقةٌ سوداءَ فقال: يا هذا ، ما هكذا كانوا يفعلُون! وكان إذا رأىٰ شيئاً ينكرهُ كشفَ الخِرقةَ عن وجههِ»[3].

* ولعلّ سيّدنا أنساً قد كرهَ هذه الطَّريقةَ في القراءةِ لأنَّ المقصودَ بالقراءةِ الصَّحيحةِ الإكثار من تلاوةِ القُرآنِ وإشغالِ الصَّوتِ بقراءتهِ ، واتّخاذهُ شعاراً وزينةً في الأسحارِ والليالي ، والمثابرةِ على قراءتهِ والدُّؤوبِ عليها ، وتحسينِ الصَّوتِ بالقراءةِ الصَّحيحةِ ، فالقرآنُ العظيمُ هو كلامُ اللهِ عزَّ وجلَّ ،

---

(١) انظر كتاب: الفقيه والمتفقّه (٢/ ١٧٩).
(٢) فضائل القرآن (ص ١٦٧).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (١/ ١١) المقدمة. طبعة دار الكتب العلمية الأولى عام (٢٠٠٠ م).

وهو النُّورُ والضِّياءُ والزّينُ الأعلىٰ لمن أُلْبِسَ بهجته ، واستنارَ بضيائه.

* ومن المُتعالمِ بين أهلِ القرآن أنَّ قراءةَ النّبيِّ ﷺ كانت قراءةَ المدّ ليسَ فيها ترجيعٌ ، ونهىٰ ﷺ مؤذِّناً كان يطرِّبُ فقال: «إنَّ الأذانَ سهلٌ سمحٌ فإذا كان أذانُكَ سمحاً سهلاً ، وإلاّ فلا تؤذن». فإذا كان النّبيّ ﷺ قد منعَ ذلكَ في الأذان ، فأَحرى ألاّ يجوِّزَهُ في القُرآنِ الذي حفظَهُ الرّحمن فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

* وللقرطبيِّ رحمه الله كلامٌ نفيسٌ في هذا المجالِ ، ونَقْدٌ موزونٌ لمن حادَ عن طريقِ القراءةِ الصَّحيحةِ ولَحّنَ وردَّدَ الحروفَ ، فيقولُ: «وهذا الخلافُ إنَّما هو ما لم يفهم معنى القُرآنِ بترديدِ الأصواتِ وكثرة التّرجيعات ، فإنْ زاد الأمرُ على ذلكَ حتّى لا يفهم معناه ، فذلكَ حرامٌ باتّفاق؛ كما يفعلُ القراء بالدّيار المصريّةِ الذين يقرؤونَ أمامَ الملوكِ والجنائزِ ، ويأخذونَ على ذلك الأجورَ والجوائزَ ، ضَلَّ سعيُهم ، وخابَ عملُهم ، فيستحلّونَ بذلك تغيير كتاب اللهِ ، ويهوّنونَ على أنفسهم الاجتراءَ على اللهِ بأنْ يزيدوا في تنزيلهِ ما ليسَ فيهِ ، جَهلاً بدينِهم ، ومُروقاً عن سنّةِ نبيّهم ، ورفضاً لِسِيَرِ الصَّالحين فيهِ مِنْ سَلَفِهم ، ونزوعاً إلى ما يزيّنُ لهم الشَّيطانُ أعمالهم ، وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً ، فهم في غيِّهم يتردّدون ، وبكتابِ اللهِ يتلاعبون ، فإنّا للهِ وإنّا إليهِ راجعون! ولكنْ قد أخبرَ الصَّادق أنَّ ذلكَ يكون ، فكان كما أخبرَ ﷺ»[1].

* لا نزالُ مع أنسٍ ، وعلومِ القُرآنِ ، وتبحّرهُ في الفقْهِ ، وتعاملهِ مع القرآنِ معاملةَ العالِم البصيرِ ، فقد وردَ أنَّهُ سُئِلَ عن القومِ يُقْرأُ عليهم القرآنُ فيُصْعَقُون ، فقال: «ذلكَ فِعلُ الخوارج»[2].

---

(١) المصدرُ السَّابق عينه (١/ ١٥).

(٢) فضائل القُرآن (ص ٢١٥) ، ومن الجديرِ بالذّكرِ أنَّه كان كثيرٌ من علماءِ التَّابعين يرون رأيَ أنس بنِ مالكٍ في هذا المجال ومنهم محمدُ بنُ سيرين ، حيث سئلَ عنِ الرجلِ يُقرأ عندهُ القرآن فيُصْعَقُ فقال: «ميعادُ ما بيننا وبينه أنْ نجلسَ على حائط ثم يُقرأُ عليهِ القُرآن من أوّلهِ إلى آخرهِ ، فإنْ وقعَ فهو كما قال» (فضائل القرآن ص ٢١٥).

* وفي ميدان قرّاء القرآنِ الكريمِ ، ومن كانت القراءة تؤخذ عنه من الصحابة والتابعين بعدهم ، يَسْرِدُ أنس أسماء حفَّاظَ أربعة؛ جمعوا القرآن في حياةِ الحبيبِ المصطفى ﷺ فيقول: «جمع القرآن على عهدِ رسول الله ﷺ أربعة كلهم من الأنصار: أبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد أحد عمومتي»(١).

* ولأنسٍ رضي اللهُ عنه أراءُ وأحكامٌ في التَّفسيرِ وبعض القراءات القرآنية وهي كثيرةٌ جدّاً مبثوثةٌ في بطونِ التَّفاسير ، وثنايا المصَادر ، وفي كتبِ الأحكامِ ، وقد استقى كثيرٌ من المفسّرين آراءه وتلقّوها بالقبولِ ومنها تفسيرهُ لقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦] ، وقال: «هو ما بين المغربِ والعشاء»(٢) حيثُ أرادَ بذلكَ معنى ناشئة الليل. وعن الأعمش قال: «قرأَ أنسُ بنُ مالك «إنَّ ناشئةَ الليلِ هيَ أشدُّ وطئاً وأصوبُ قيلا» ، فقيلَ له: «أقومُ قيلا» فقال: أقومُ وأصوبُ وأهيأُ: سواء(٣).

* وروي أنَّ أنساً قرأَ قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] ، قرأها هكذا ﴿تِسْعَةُ وَعَشَر﴾ ، وقرأها أيضاً هكذا: ﴿تِسْعَةُ وَعَشْرُ﴾ ، وقرأَها أيضاً: ﴿تِسْعَةُ أَعْشُر﴾(٤).

* وفي تفسيرِ قولهِ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٦] ينقلُ لنا أنس هذا الأثرَ الطَّريف في فَهْمِ هذه الآيةِ وتوجيهها فيقول: «كُنَّا مع أبي موسى ـ الأشعريّ ـ في مسير ، والنّاس يتكلّمون ويذكرون الدّنيا ، قال أبو موسىٰ: يا أنسُ ، إنَّ هؤلاءِ يكادُ أحدهُمْ يفري الأديم بلسانهِ فرياً ، فتعالَ فلنَذْكُرْ ربَّنا ساعةً؛ ثمّ قال: يا أنسُ: ما ثَبَرَ النّاس ، ما بطّأَ بهم؟

---

(١) سير أعلام النّبلاء (١/ ٣٩١) و(٢/ ٤٣١) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٥/ ٣١٩) ، والحديث أخرجه البخاري في فضائل القرآن برقم (٥٠٠٣) ، ومسلم في فضائل الصّحابة برقم (٢٤٦٥) ، والتّرمذي في المناقب برقم (٣٧٩٦).
(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٨) طبعة دار الكتب العلمية.
(٣) المصدر السّابق (١٩/ ٢٩) طبعة دار الكتب العلمية.
(٤) المصدر السّابق (١٩/ ٥٣) طبعة دار الكتب العلمية.

قلتُ: الدُّنيا والشَّيطان والشَّهوات.

قال: لا، ولكن عُجِّلَتِ الدُّنيا، وغُيِّبت الآخرة، أمَّا واللهِ لو عاينوها ما عَدَلُوا ولا مَيَّلُوا»[1].

* ويسوقُ أنسٌ قراءةً سمعها من عليّ رضي الله عنه للآياتِ الآتية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠] قال: «صَلَّيْتُ خلفَ عليّ رضي اللهُ عنه فقرأَ: ﴿كيفَ خَلَقْتُ﴾ و﴿رفَعْتُ﴾ و﴿نَصَبْتُ﴾ و﴿سَطَحْتُ﴾ بضم التّاء أضافَ الضَّمير إلى اللهِ تَعالى»[2].

* وكان لأنسٍ رضي الله عنه بعضُ الأحكام والآراءِ الفقهيةِ التي أُذيعَتْ عنه، وهيَ لا تخرجُ في مضمونها عمّا سمعهُ من النّبيّ ﷺ، أو فيما رواهُ الصَّحابةُ عن النَّبيّ ﷺ، من ذلك أنَّهُ كان لا يتوضأُ لكلِّ صلاةٍ إذا ظلَّ طاهراً على وضوئهِ لم يحدِثْ فيقول: «كان أحدُنا يكفيهِ الوضوء ما لم يُحدث»[3].

* وفي الأحكام التي تتعلّقُ بالمرأةِ نجدُ لأنسٍ رأياً لا يخرجُ عن الهدي النّبوي، والإرشاداتِ المحمديّةِ، التي تأخذُ بالنّاسِ إلى نعيمِ الدّنيا والآخرة.

* ففي أحكامِ الحيضِ ـ مثلاً ـ يرىٰ سيّدنا أنس أنَّـهُ عشرة أيّام، والزّائدُ عليهِ استحاضة، وكان يقول: «لتنتظرِ الحائضُ خمساً، سبعاً، ثمانياً، تسعاً، عشراً، فإذا مضَتِ العشر، فهي مُستحاضةٌ»[4].

* ولعلَّ سيّدنا أنساً رضوانُ اللهِ عليه قد استلهمَ هذا الرأيَ الميمونَ من أحكامِ حبيبنا وسيّدنا رسولِ اللهِ ﷺ، ومن ثم بنىٰ عليه حكمهُ ورأيه، وفي الحديثِ الآتي الذي روتهُ سيّدتنا وأمّنا أمّ سلمة نجد مصداق ما قُلناه.

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/١٧).

(٢) تفسير القرطبي (٢٠/٥٢).

(٣) مصنف عبد الرزاق (١/٥٦).

(٤) انظر: مسند أبي يعلى.

* فقد أخرجَ الإمامُ مالك في «الموطأ» عن نافع ، عن سُليمانَ بن يسار ، عن أمِّ سلمةَ زوجِ النّبي ﷺ: أنَّ امرأةً كانت تُهراقُ الدِّماءَ في عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ ، فاستفتَتْ لَها أمّ سلمة رسولَ اللهِ ﷺ ، فقال: «لتَنْظُرْ إلى عددِ الليالي والأيّامِ التي كانت تحيضُهُنَّ مِنَ الشَّهر قبل أنْ يصيبَها الذي أصابها ، فلتتركِ الصَّلاةَ قَدْرَ ذلكَ من الشَّهرِ ، فإذا خلَّفَت ذلكَ ، فلتغتسل ، ثمّ لِتَسْتَثْفِرْ بثوبٍ ، ثم لِتُصلِّي»(١).

* ويرى أنسٌ أنَّ أكثرَ النِّفاسِ أربعون يوماً ، وكانَ يقولُ: «وقَّتَ رسول الله ﷺ للنُّفساء أربعينَ يوماً إلاّ أنْ ترىٰ الطُّهرَ قبل ذلكَ».

* وعن البِكْر إذا ولدت كان يقول: «تنتظرُ البكْرُ إذا ولدتْ وتطَاولَ بها الدَّمُ أربعينَ ليلةً ثمّ تغتسلُ»(٢).

* ومن فقْهِ أنس للمرأَةِ المُسلمةِ أنّه كان يرىٰ أنَّ على المرأَةِ أنْ تَقِفَ في صلاةِ الجماعة وراءَ صفوفِ الرِّجالِ بصفٍّ مستقلّ؛ وقد نقلَ لنا ثابتُ البُناني تلميذ أنسٍ النّجيب صورةَ ذلكَ فقال: «صَلّيتُ مع أنسٍ فأقامني عن يمينِهِ ، وقامَتْ جميلةُ أمُّ ولدِهِ خلفَنا»(٣).

---

(١) الحديثُ بهذا اللفظ أخرجَهُ مالك في الموطأ (١/ ٦٢) ، وأبو داود في الطّهارة برقم (٢٧٤) ، والنّسائي في الحيض والاستحاضة (١/ ١٨٢ و١٨٣) ، وابنُ ماجه برقم (٦٢٣) ، والشّافعي في الأمّ (١/ ٣٨). ومعنى «كانت تُهراقُ الدّماء»: قال الباجي: «يُريدُ أنّها من كثرةِ الدمِ بها كأنّها كانت تهريقه».
وقال ابن الأثير: «جاء الحديث على ما لم يُسَمَّ فاعله؛ أي: تُهراق هي الدّماء؛ منصوب على التَّمييز وإن كان معرفة ، أو أجرى «تهراق» مجرى: نفستِ المرأة غلاماً ، ونتج الفرسُ مهراً ، قال: ويجوزُ الرّفع بتقدير: تُهراق دماؤها ، قال: والهاءُ في «هراق» بدل من همزة «أراق» ، يقال: «أراق الماء يريقه ، وهَراقه ، يهريقه ـ بفتح الهاء ـ هراقةً».
ومعنى: «فإذا خلَّفَتْ ذلكَ» أي: تركت أيّام الحيض الذي كانت تعهده وراءها. «ولتستثفر بثوب»: أي: تشدُّ فرجها بخرقةٍ عريضةٍ بعدَ أن تحتشيَ قطناً ، وتوثّقَ طرفي الخرقة في شيءٍ تشده على وسطها ، فيمنع ذلك سيل الدم.
(٢) المصنّف (١/ ٣١٢).
(٣) المصنف (٢/ ٤٠٨) ، وقد استقىٰ أنسٌ حكمه هذا من حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ حيثُ قال: =

* وقد استلهمَ أنسٌ هذا الحكْمَ من الهديِ النَّبويّ معه ومع غيرهِ من الصَّحابةِ. فقد جاء في الصَّحيحين أنَّهُ صلَّى وراء النّبيّ ﷺ مع يتيمٍ وعجوزٍ، فقال: «صَفَفتُ أنا واليتيم وراءه، والعجوزُ من ورائنا»[1].

* وروىٰ جبّار بنُ صخر الأنصاريّ قال: «صليتُ مع النَّبيِّ ﷺ، فقمتُ عن يسارِه، فأخذني وجعلَني عن يمينهِ»[2].

* ومن فقهِ أنسٍ في قَصْرِ الصَّلاةِ أَنَّهُ كان يقصرُ الصَّلاةَ في السَّفرِ مهما امتدَّ سفره، إذ لم ينوِ الإقامة، فقد أقامَ شهرين بالشَّامِ يُصلّي ركعتَيْن ركعتَين.

* وقد استقى أنسٌ حكمَه من النَّبيّ ﷺ، حيث كان رسول الله ﷺ يواظبُ على أسفارِهِ على ركعتَينِ ركعتَيْن، وقد روىٰ أنسٌ رضي الله عنه قال: «خَرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينةِ إلى مكّةَ، فكان يصلّي ركعتَيْن ركعتَيْن، حتّى رَجعنا إلى المدينةِ»[3].

* وعنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا خرجَ مسيرةَ ثلاثةِ أميالٍ أو فراسخ، صلّى ركعتَيْن»[4].

* إنَّ فقْهَ سيّدنا أنس بنِ مالك وعلمَهُ معروفٌ وله مواقفُ كثيرةٌ في كثيرٍ

= «خيرُ صفوفِ الرّجالِ أوّلها، وشرّها آخرها، وخيرُ صفوفِ النّساء آخرها، وشرّها أوّلها» أخرجه مسلم برقم (٤٤٠).

(١) أخرجهُ البخاري برقم (٧٢٧)، ومسلم برقم (٦٥٨)، ولفظ البخاري: «صلى رسول الله ﷺ، فقمتُ ويتيم خلفه، وأمّ سُليم خلفنا».

(٢) انظر: الاستيعاب بهامش الإصابة (٢/١٢٦)، ومعجم الصّحابة لابن قانع (١/١٦١)، وأسد الغابة (١/٥٠٥)، والحديث أخرجهُ أحمد في المسند (٣/٤٢١)، والهيثمي في المجمع (٢/٩٧).

(٣) أخرجه البخاري في التّقصير برقم (١٠٨١)، ومسلم في صلاة المسافرين برقم (٦٩٣)، والتّرمذي في الصّلاة برقم (٥٤٨)، والنّسائي في تقصير الصّلاة (٣/١٢١)، وابن ماجه في إقامة الصّلاة برقم (١٠٧٧).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٦٩١).

من الأحكامِ تكفّلتِ المصادرُ بذكرِها ، ولولا الإطالةُ لذكرنا واستزدْنَا منها هنا ، بَيْدَ أنَّ ما ذكرناه يوضح صورته العِلميّة.

المحدِّثُ المُكْثِر:

* هذا الفتىٰ العالمُ الحصيفُ أحد فتيانِ الصحابةِ وشبابهم الذين حفظُوا أحاديثَ رسولِ اللهِ ﷺ ، فهو ـ ولا شكّ ـ أحدُ كبار رواةِ الإسلام من علماء الأنصار ، وأحدُ السَّادةِ الأعلام الذينَ مَنَّ اللهُ عليهم بالعِلْم ، ونوَّرَ قلوبَهم بالفَهْمِ ، فكانوا سادةَ السَّادةِ ، لهم في سماءِ المجدِ منزلةٌ وسيادة ، وأي فضْل أعظمُ من حفظهِ السُّنَّة؟! بل مَنْ يداني أنس بن مالك الذي لازمَ النّبيّ ﷺ وخدمَهُ عشر سنين كوامِلَ كانت سِماناً ميمونة؛ تلقّى خلالَها علماً جماً من النّبيّ ﷺ ، فكان أوّلَ الأنصارِ حِفْظاً للحديثِ النّبويّ ، وثالث ثلاثة في الحفظِ ، فلم يسبقه في الحفظِ من علماءِ الصَّحابةِ ورواتهم سوىٰ اثنَيْن هما: أبو هُريرةَ ، وعبد الله بنُ عمر بن الخطّاب رضي الله عنهم أجمعين.

* وأنسُ بنُ مالك أصغرُ علماءِ الصَّحابةِ الأنصارِ سِنّاً ، ولكنّه أكثرهُمْ حفْظاً ، وبذلكَ سادَ وأفادَ ، فاحتاجَ إليهِ الأئمةُ والأعلامُ على الرّغمِ من صغرِ سنّهِ:

فكَــمْ مِــن صَغيــرٍ لاحَظَتْــهُ عِنَـايَــةٌ مِـنَ الله فَـاحْتَـاجَـتْ إليـهِ الأكَـابِـرُ

* بلغَ مسندُ سيّدنا أنسٍ (٢٢٨٦ حديثاً) ، اتّفَقَ له البخاريُ ومسلم على (١٨٠) حديثاً) ، وانفردَ البخاريُ بثمانينَ حديثاً ومسلم بتسعينَ[١].

* روىٰ سيّدنا أَنسٌ عن النّبي ﷺ ، وعن خلفائهِ الثّلاثة: أبي بكر وعمرَ وعُثمان رضي الله عنهم أجمعين وحشرنا في معيّتهم.

* كما روىٰ عن عددٍ من كبارِ عُلماءِ الصَّحابةِ ومشاهيرهم وأعيانهم من مثل: عبد اللهِ بن رواحة ، أبو هريرةَ ، ثابتُ بن قيس ، عبد الرحمنِ بن

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٣٩٦) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/١٣٧) ترجمة رقم (٧١).

عوف ، معاذُ بن جبلٍ ، عبادةُ بن الصَّامت ، أبو طلحةَ الأنصاريّ ، أسيدُ بن الحضير ، أبو ذرّ الغِفَاريّ ، عبدُ اللهِ بن مسعود ، أبيُ بن كعب ، ومالكُ بن صعصعة؛ وغيرهُمْ رضي اللهُ عنهم أجمعين.

* وروىٰ كذلكَ عن عددٍ من الصَّحابياتِ العالماتِ ، عن أمِّه أمّ سُليم بنت ملحان ، وخالتهِ أُمّ حرام ، وأمّ الفضل امرأة العبّاس ، وسيّدتنا فاطمة النّبويّة الزّهراء رضي الله عَنْهُنّ جميعاً[1].

* وأمّا من روىٰ عنه فكثيرون ، ومنهم جماعةٌ من أهلِ بيتهِ وفي مقدمتهم: أولاده: موسى ، النّضر ، وأبو بكر ، وحفيداه: ثمامة، وحفص.

* وروىٰ عنه كبارٌ من علماءِ التَّابعين وأسيادهم منهم: الحسنُ البصري ، وسليمان التّيمي ، وثابتُ البُناني ، ومحمّد بن سيرين ، وأنسُ بن سيرين ، ومحمّد بن المنكدر ، والزُّهريّ ، وبكر بن عبد اللهِ المزني ، وخلائقُ من الآفاقِ لا يُحصَون[2].

* وعلى الرّغمِ من ثباتِ أنسٍ في دنيا الرِّوايةِ ودُنيا الحديث ، فإنَّهُ كان يحتاطُ ويقتصدُ في روايةِ السُّنَّةِ خشيةَ الخطأ ، وكان يدلي رأيه لتلاميذهِ قائلاً لهم: «لولا أن أخشى أنْ أُخطىءَ لحدّثتكُمْ بأشياءَ سَمعتُها مِنْ رسول الله ﷺ لكنّه قال: «مَنْ كذبَ عليَّ متعمّداً فليتبوأْ مقعدَهُ من النَّار»[3].

* وكان أولادُهُ وكثيرٌ من تلاميذهِ ومحبّيهِ يرجونَهُ أنْ يحدّثهم ويكثرَ لَهُمْ روايةَ الحديث. ولكنّهُ لا يستجيبُ لرغباتهم. ذكر هذا تلميذهُ ثابت أنَّهُ قيل لأنس بن مالك: «ألا تحدثنا؟ قال: يا بنيّ إِنَّهُ مَنْ يُكْثِرْ يَهْجُر»[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٣٩٦) ، وتهذيب التهذيب (١/ ٣٩٠) ترجمة رقم (٦٠٧) مع الجمع والتّصرّف.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٩٦) ، وتهذيب التهذيب (١/ ٣٩٠ و٣٩١) مع الجمع والتصرف.

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد.

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (٧/ ٢٢) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٤٠٣) مع الجمع.

* وقال محمّد بنُ سيرين: «كان أنسُ إذا حدَّثَ عن رسول الله ﷺ حديثاً ففرغَ منه، قال: أو كما قال رسول الله ﷺ».

* وكان إذا تحدَّثَ يعيدُ كلماتِه ثلاثاً حتّى يحفظها عنه طلابُ العلمِ، متأسياً بذلكَ بالحبيبِ الأعظمِ الصَّادق المصدوق سيّدنا رسولِ اللهِ ﷺ.

* ويرىٰ أنَّ العلمَ لا ينفعُ صاحبَهُ إلاّ إذا سارَ وفْقَ مرادهِ، ومن أقوالهِ في هذا المجالِ: «تعلّمُوا ما شئتم أنْ تعلّموا، فإنَّ اللهَ لا يأجركم على العلمِ حتّى تعملُوا به؛ إنَّ العلماء همّتهم الوعايةُ، وإنَّ السُّفهاءَ همّتهُمْ الرِّواية».

* بل كان يأمرُ بنيه وذويهِ بالكتابةِ لما يسمعونَه من العلْم، فعن ثمامةَ بن عبدِ اللهِ عن أنسِ بنِ مالك أنّه قال لبنيه: «يا بني قيّدوا العلمَ بالكتاب»[1].

* ومن التَّربويات المفيدة في سيرةِ هذا الصَّحابي الكبير أنّه كانَ يعيبُ على أهلِ الأهواء، ويقفُ ضدَّ آرائِهم الفاسدةِ والهدّامة التي رانَ عليها الضَّلالُ، فانحرفَتْ عقيدتهم وحادوا عنِ الصَّواب، فهجرهم أولو الألباب، وابتغوا بذلكَ الثَّواب.

* ومن المؤكّد أنَّ كثيراً من علماءِ التَّابعين قد عرفوا وقفاتِ أنس ضدَّ هؤلاءِ المنحرفين الذين نجموا أوّلَ ما نجموا في العراقِ، فلمّا لحقَ أنسٌ بربِّه كانت وفاتهُ عندهم ثغرةً لا تُسَدُّ في حصنِ العلم، وأركانِ الحقيقةِ والحقّ، وسدّاً منيعاً يذودُ عن السُّنَّةِ المُطهّرةِ الزَّهراء.

* وإذا أردنا أنْ ندركَ مقدارَ خسارةِ أهلِ العلمِ لأنس، فلنستمع ما قاله تلميذهُ مُوَرِّقُ العجليّ[2] عندما مات أنس رضي الله عنه حيث سطَّرَ الحقيقةَ

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٢).

(٢) مورّق بن مشمرج، ويقال مورّق بن عبد الله العجليّ البصريّ. روىٰ عن عمر، وأبي ذرّ وأبي الدّرداء، وابن عبّاس وأنس وعبد الله بن جعفر وغيرهم. روى عنه عدد من علماء التّابعين مثل: قتادة، وعاصم الأحول، وحميد الطويل، ومجاهد وآخرون. قال النّسائي: «ثقة» وقال ابن سعد: «كان ثقةً عابداً»، وقال العجلي: «بصري، تابعي ثقة». توفي سنة (١٠٣ هـ) (تهذيب التهذيب (٣٨٤ و٣٨٥) ترجمة رقم (٧٢٢١).

بكلماتهِ عن أنس فقال: «ذهبَ اليومُ نصفَ العلمِ».

فقيلَ: «وكيفَ ذاك يا أبا المغيرة؟!».

قال: «كانَ الرجلُ مِنْ أهلِ الأهواء إذا خالفنا في الحديثِ عن رسولِ اللهِ ﷺ قُلنا له: تعال إلى مَنْ سمعه منه»[1].

* وكان سيّدنا أنسٌ يسوءهُ أنْ يرىٰ أهلَ الخَطَلِ قد لعبتْ بهم الأهواءُ ذات اليمين وذاتَ الشّمال، وهم يخوضونَ في اللجاجِ من أجلِ اللجاجِ والمماراةِ والكلامِ الذي لا طائلَ من ورائه، ولا يستندُ إلى دليل.

* فقد أوردَ القُرطبيُّ رحمه الله في تفسيرِ سورةِ الكوثر، أنَّ سيّدنا أنساً رضوانُ اللهِ عليه قد سمعَ قوماً يتذاكرون في الحوضِ، ويتمارون فيه، وكلٌّ يدلي دلوَهُ في بئرِ الوهمِ، فقال رضي اللهُ عَنْهُ لهم والاستنكارُ يظهرُ على وجههِ: «ما كنتُ أرىٰ أنْ أعيشَ حتّى أرىٰ أمثالكم يتمارونَ في الحوضِ لقد تركتُ عجائزَ خلفي، ما تصلّي امرأةٌ منهنَّ إلا سألتْ اللهَ أَنْ يسقيها من حوضِ النّبيّ ﷺ»[2].

* ومرويات أنسِ بنِ مالك مشهورةٌ منثورةٌ في كتبِ الصَّحيحِ والسُّننِ والمسانيد وسائر مصنَّفات الحديث، وشملت معظمَ أمور الدّين، وسائر شؤونِ الحياةِ مما يجمعُ خير الدّنيا والآخرةِ، كالذّكر والدُّعاء، والعلْمِ، والجهاد، والمناقب، والأخلاق، وغير ذلك كثير.

* ومما وردَ في الصَّحيح عن أنس في باب الذِّكر والدّعاء أنَّهُ قال: «كانَ أكثرُ دُعاءِ رسول الله ﷺ: «ربّنا آتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرةِ حسنةً وقنا عذابَ النّار»[3].

* وفي الدعاءِ للاستفادةِ من العلمِ، ما وردَ عن سيّدنا أنس رضي الله عنه

---

(١) انظر: أنس بن مالك لطهماز (ص ١١٤) نقلاً عن مجمع الزوائد.

(٢) تفسير القرطبي (١٤٨/٢٠) طبعة دار الكتب العلمية.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٣٨٩)، ومسلم برقم (٢٦٩٠).

قال: «كانَ رسول الله ﷺ يقول: «اللهمّ انفعني بما علّمتني، وعلّمني ما ينْفَعُني، وارزُقْني عِلْماً ينفعني»[1].

* ومن مروياتِ سيّدنا أنس رضي الله عنه في باب الجهاد، ما جاءَ في «المسند» أنَّ النّبي ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسِكم، وألسنتِكم»[2].

* وعن حبِّ الأنصار يروي سيّدنا أنسٌ رضي الله عنه عن النّبي ﷺ أنَّه قال: «آيةُ الإيمان حبُّ الأنصار، وآيةُ النّفاق بغْضُ الأنصار»[3].

* ومروياتِ سيّدنا أنس رضي الله عنه تضيءُ الأسفارَ الحديثيّةِ ومنها ما جاء في السَّلام وفيمن يُسلَّم عليه، وأحكام السَّلام.

* فقد جاء في الصَّحيحِ والسُّنن عن أنس رضي اللهُ عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «إذا سلَّمَ عليكم أهلُ الكتابِ فقولوا: وعليكم»[4].

* وممّا نقرؤه في الصَّحيح أيضاً عن أنسٍ قصّةَ إسلام الغلام اليهوديّ الذي أسلمَ، قال: «كانَ غلامٌ يهودي يخدمُ النّبي ﷺ، فمرضَ، فأتاهُ

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٥١٠) وهو حديث حسن.
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٤ و١٥٣ و٢٥١)، والنّسائي (٦/ ٧)، وأبو داود برقم (٢٥٠٤).
(٣) رواه البخاري.
(٤) أخرجه البخاري برقم (٦٢٥٨ و٦٩٢٨)، ومسلم برقم (٢١٦٣)، وأبو داود برقم (٥٢٠٧)، والترمذي برقم (٣٢٩٦)، والنّسائي في عمل اليوم والليلة (٣٨٥ ـ ٣٨٧)، وانظر جامع الأصول (٤٨٦٧). قال النّووي رحمه الله في السَّلام على أهلِ الذّمة: «وأمّا أهلُ الذّمةِ فاختلف أصحابُنا فيهم، فقطعَ الأكثرون بأنَّهُ لا يجوزُ ابتداؤهم بالسّلام. وقال آخرون: ليسَ هو بحرامٍ، بل هو مكروه، فإنْ سلموا هم على مسلم قال في الرّد: وعليكم، ولا يزيدُ على هذا.
وحكى الماوردي وجهاً لبعضِ أصحابنا، أنّه يجوزُ ابتدائهم بالسّلام، ولكن يقتصرُ المسلم على قوله: السَّلام عليك، ولا يذكرهُ بلفظ الجمع.
وحكىٰ الماورديُ وجهاً أنّه يقولُ في الرّدِ عليهم إذا ابتدؤوا: وعليكم السَّلام، ولكنْ لا يقول: ورحمةُ اللهِ، وهذان الوجهان شاذّان، مردودان» (رياض الصَّالحين ص ٣٦٩).

النَّبيُّ ﷺ يعوده ، فقعدَ عند رأسهِ فقال له : «أسْلمْ» فنظرَ إلى أبيه وهو عنده ، فقال : أطعْ أبا القاسم ، فأسلمَ ، فخرجَ النّبيّ ﷺ وهو يقول : «الحمدُ للهِ الذي أنقذَهُ منَ النَّار»[1] .

* ومروياتُ سيّدنا أنس مفيدةٌ وكثيرةٌ في هذا الباب الجميلِ البسيطِ الذي تغيبُ آدابُه عن بالِ عددٍ منّا ، مع سهولتهِ وجمالهِ وحاجةِ المسلمين إليه في سائرِ الأحايين والأوقات ، وفي سائر البلدان والمجتمعات .

* ولعلّي أجدُ منَ الفائدةِ هنا أنْ أستطردَ قليلاً لأبيّنَ صُوراً مُستَجلاةً من الآداب الإسلاميةِ في هذا المقام ، لما في ذلكَ منَ الفائدةِ إنْ شاءَ الله .

* فمن المعلومِ أنَّ أصلَ السَّلامِ ثابتٌ بالقُرآنِ الكريم ، والسُّنَّةِ المحمديّةِ ، والإجماعِ ، لأنَّ بذلَ السَّلامِ وإفشاءَهُ فيه خيرُ الدّنيا والآخرة .

* ومن الأفضلِ أنْ يقولَ المسلمُ عندما يلقي السَّلام : «السّلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وَبَركاتُهُ» ؛ فيأتي هنا : بضمير الجمع ، وإنْ كان المُسَلَّمُ عليه واحداً ، وإذ ذاكَ يقول المجيب : «وعليكم السّلامُ ورحمةُ الله وبركاتُه» ويأتي بواو العطفِ في قوله : وعليكم .

* قال الإمامُ النّووي رحمه الله تعالى : «وأقلّ السّلام الذي يصيرُ به مُسَلِّماً مؤدِّياً سنّة السَّلام أنْ يرفعَ صوته بحيثُ يُسْمعُ المُسَلَّم ، فإنْ لم يسمعهُ لم يكن آتياً بالسَّلام ، فلا يجبُ الرَّدُّ عليهِ ، وأقلُّ ما يسقط به فرضُ ردّ السَّلام أن يرفعَ صوته بحيث يسمعهُ المُسَلِّم ، فإن لم يسمعْهُ لم يسقط عنه فرض الرّدّ» .

* والمستحبّ أنْ يرفعَ صوته رفعاً يسمعهُ به المُسَلَّم عليه أو عليهم سماعاً

---

(1) أخرجه البخاري برقم (١٣٥٦ و٥٦٥٧) ، وأبو داود برقم (٣٠٩٥) . وقال النّووي رحمه الله في عيادةِ الذّمي والسّلام عليه : «ينبغي لعائدِ الذّمي أنْ يرغّبه في الإسلام ، ويبين له محاسنه ، ويحثّهُ عليه ، ويحرّضهُ على معالجتهِ قبلْ أنْ يصيرَ إلى حالٍ لا ينفعهُ فيها توبته ، وإنْ دعا له ، دعا بالهدايةِ ونحوها» . (رياض الصالحين ص ٣٧٢) طبعة دار ابن كثير الأولى عام ٢٠٠٠ م) .

محقّقاً ، وإذا تشكّكَ في أنَّه يسمعهم زاد في رفعهِ ، واحتاطَ واستظهر ، أمّا إذا سلّمَ على أيقاظٍ عندهم نِيامٌ ، فالسُّنَّةُ أنْ يخفضَ صوتَهُ بحيثُ يحصلُ سماعُ الإيقاظ ، ولا يستيقظُ النّيام.

* أمّا حكم السَّلام فمن الواضح أنَّ ابتداءَ السَّلام سنّة مستحبّة ليس بواجبٍ ، وهو سنّةٌ على الكفاية ، فإنْ كانَ المسلِّمُ جماعة كفى عنهم تسليمُ واحدٍ منهم ، ولو سلَّمُوا كلّهم كان أفضل.

* وإذا بعثَ إنسانٌ مع إنسانٍ سلاماً ، فقال الرّسول: «فلانٌ يسلِّم عليك» ، فإنّه يجبُ عليه أنْ يردَّ على الفور ، ويستحبّ أن يردّ على المبلِّغ أيضاً ، فيقول: «وعليكَ وعليه السَّلام»[1].

قِصّتُـهُ مع الحَجّـاجُ بنُ يُـوسُف:

* تذكرُ كتبُ السِّيرِ والتّراجم أنَّ سيّدنا أنساً رضي الله عنه أحدُ الصَّحابةِ المعمَّرين ، فقد عاش وطالَ عمرهُ حتى أدركَ زمنَ الحجّاج بن يوسف الثَّقفي ، وامتُحِنَ معه ، كما امتُحِنَ أيضاً من الصَّحابةِ: سهلُ بنُ سعد بن مالك السَّاعديّ ، وجابرُ بن عبد الله الأنصاريّ ، وقد أرادَ الحجّاج بذلكَ إذلالهم ، وأنْ يتجنَّبهم النَّاس ، ولا يسمعوا منهم»[2].

* وقصّةُ محنةِ سيّدنا أنس رضي الله عنه مع الحجّاجِ بنِ يوسُف الثّقفيّ أوردها ابنُ الأثير في «أسدِ الغَابةِ» ، والذّهبي في «السِّير» وغيرُ هؤلاء من مثل صلاح الدِّين الصَّفدي في موسوعتهِ الكبرى «الوافي بالوفيَات» ، بالإضافة إلى كثير من المصنّفين الذين ترجموا لسيّدنا أنس وذكروا مواقفَ من حياتهِ في ظلالِ الخُلفاء والأمراء ، فإنّهم قد أرسلوا القولَ في قصّةِ أنس مع الحجّاج في أيّام عبد الرّحمن بن الأشعث الذي تزعَّم ثورة ضد الحجّاج بن يوسُفَ ،

---

(١) هذا باب طويل وله أحكام وتفرعات كثيرة ، فمن أرادَ الاستزادةَ فليرجع إلى المصادرِ المتنوعةِ من كتبِ التفسير والحديث والفقه والرقائق وغيرها.

(٢) انظر في هذا: أسد الغابة لابن الأثير (٢/٥٧٦).

وكادت تزلزِلُ أركانَه لولا أن قُضيَ على هاتيكَ الثّورة[١].

* أمّا تفاصيلُ محنةِ سيّدنا أنسٍ رضي الله عنه مع الحجّاجِ فقد سَاقَها صلاحُ الدّين الصَّفديُّ في موسوعتهِ المونقةِ «الوافي بالوفيَات» ، وها نحنُ أولاء مرسلو القول في ذكرها وإيرادها ، لما فيها من عظاتٍ وكراماتٍ وفقْهٍ وعلْمٍ ومكانةٍ لسيّدنا أنسٍ رضي اللهُ عنه وأرضاه.

* قال عليُّ بن زيدِ بن جُدعان[٢]: «كنتُ في دارِ الإمارةِ ، والحجَّاجُ يعرضُ النَّاسَ أيَّامَ ابنِ الأشعثِ ، فدخلَ أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه ، فلمّا دنا منَ الحجّاجِ ، قال الحجاجُ: يا خَبَثَةُ! جوّالٌ في الفتنِ ، مرّةً مع عليٍّ بن أبي طالب ومرّةً معَ ابن الزُّبير ، ومرّةً مع ابن الأشعث! واللهِ لأستأصلنَّكَ كما

(١) انظر: البداية والنّهاية وغيرها من كتب التّواريخ لمعرفة ثورة ابن الأشعث.
(٢) عليُّ بنُ زيد بن عبد الله بن جدعان التّميميّ البصريّ ، أصلهُ من مكّةَ ، روىٰ عن أنس بن مالك وسعيد بن المسيّب ، والحسن البصريّ ، والنّضر بن أنس بن مالك ، وعن جماعةٍ من النساء منهنّ أمّ محمّد امرأة أبيه ، وآمنة بنتُ عبد الله ، وخيرة أمّ الحسن البصري وطائفة. وروىٰ عنه جماعة منهم قتادة والحمادان والسّفيانان ، وهشيم ، ومعتمر بن سليمان وآخرون.
قال ابنُ سعد: «وُلدَ وهو أعمى ، وكان كثيرَ الحديث ، وفيه ضعفٌ ولا يحتجُّ به».
وقال صالح بنُ أحمد عن أبيه: «ليس بالقويّ ، وقد روىٰ عنه النّاس».
وقال أحمد: ليس بشيءٍ.وقالت جماعةٌ من العُلماء: «ضعيفُ الحديثِ ، ليس بذاكَ القوي ، وضعيفٌ في كلّ شيءٍ ، وليسَ بحجّة ، واهي الحديث ، وفيه ميلٌ عن القصدِ ، لا يحتجُّ بحديثه ، وكان يتشيّعُ ، وربما رفع الشّيء الذي يوقفُه غيره».
وقال ابنُ خزيمة: «لا يحتجُ به لسوءِ حفظهِ». وقال ابنُ عدي: وكان يغلو في التّشيع ومع ضعفه يُكتبُ حديثه ، وقال حمادُ بنُ زيد: «كان يقلبُ الأحاديثَ ، وكان يحدّثنا اليومَ بحديثٍ ثم يحدّثنا غداً فكأنّهُ ليسَ ذلك». وكان يحيى بن سعيد يتّقي الحديثَ عن علي بن زيد. وقال يزيدُ بنُ زُريع العيشي البصريّ الحافظ الذي كان ريحانة البصرة في الحفظِ والرواية: «رأيته ولم أحملْ عنه لأنّه كان رافضيّاً».
ومن الجدير بالذّكر أنَّ عليّ بن زيد قد وثّقه بعضهم ، توفي علي بن زيد سنة (١٢٩ هـ). (تهذيب التهذيب ٥/ ٦٨٥ ـ ٦٨٨) ترجمة رقم (٤٧٨٨) بتصرف.

تُستأْصَلُ الصَّمغةُ ، ولأجرّدنّكَ كما يجرّدُ الضَّبّ! فقال له أنس: مَنْ يعني الأمير ، أصلَحه الله؟

قال: إيّاكَ أعني ، أصمَّ اللهُ سَمعَك!

فاسترجعَ أنسٌ وشُغِلَ عَنْه؛ فخرجَ أنسٌ وتبعتهُ وقلت: ما منعكَ أَنْ تجيبَهُ؟

فقال: واللهِ لولا أنّني ذكرتُ كثرةَ وَلدي ، وخَشِيْتُهُ عليهم لأسمعتُه في مقامي هذا ما لا يُسْتَحسَنُ لأحدٍ بعدي.

وكتبَ إلى عبدِ الملكِ: بسم اللهِ الرَّحمن الرَّحيمِ ، لعبدِ الملكِ أميرِ المُؤمنين من أنس بنِ مالكٍ خادمِ رسولِ اللهِ ﷺ وصاحِبه. أمّا بعد: فإنَّ الحجَّاجَ قال لي هُجراً من القولِ وأسمعني نُكْراً ، ولم أكنْ لما قال أهلاً ، إنَّهُ قال لي كذا وكذا ، وإنّي أقسمتُ بخدمتي لرسولِ اللهِ ﷺ عشر سنين كوامِل: لولا صبيَةٌ صغارٌ ما باليتُ أيةَ قَتْلَةٍ قُتِلْتُ ، واللهِ لو أنَّ اليَهودَ والنَّصارىٰ أدركوا رجُلاً خدم نبيّهم لأكرموه! فخذ لي على يدهِ ، وأعنّي عليهِ والسَّلام.

فلمّا قرأَ عبدُ الملكِ الكتابَ استشاطَ غَضَباً ، وكتبَ إلى الحجّاج: أمّا بعدُ: فإنَّكَ عَبدٌ من ثقيفٍ ، طمحتْ بك الأمور ، فعلوتَ فيها وطغيتَ حتّى عدوتَ قَدْرَكَ ، وتجاوزتَ طورَك ، يا بنَ المستفرمة بعجم الزّبيب ، لأغمزنَّكَ غَمزَ الليثِ ، ولأخبطنّكَ خبطةً ، ولأركضنَّكَ ركضةً تودُّ معها لو أنّكَ رجعتَ في مخرجك من وجارِ أمِّكَ ، أمَا تذكرُ حالَ آبائِكَ ومكاسبَهم بالطَّائفِ ، وحفرهم الآبارَ بأيديهم ، ونقلهم الحجارةَ على ظهورهم؟ أمْ نسيتَ أجدادكَ في اللؤمِ والدّناءةِ وخساسةِ الأصلِ؟ وقد بلغَ أميرُ المؤمنينَ ما كان منكَ إلى أبي حمزةَ أنسِ بنِ مالكٍ خادمِ رسولِ اللهِ ﷺ القريب ، وصاحبه في المشهدِ والمغيبِ جرأةً منكَ على الله ورسولهِ وأميرِ المؤمنين والمسلمين ، وإقداماً على أصحابِ رسول الله ﷺ ، فعليكَ لعنة اللهِ من عبدٍ أخفشَ العينين ، أصك الرّجلين ، ممسوحَ الجاعرتَيْن ، لقد هممتُ أنْ أبعثَ

إليكَ من يسحبك ظَهْراً لبطنٍ ، حتى يأتيَ بكَ أبا حمزةَ ، فيحكمَ فيكَ بما يراه؛ ولو علم أميرُ المؤمنين أنَّكَ اجترمتَ إليه جُرماً أو انتهكتَ له عرضاً غيرَ ما كتبَ به إليه لفعل ذلكَ بك؛ فإذا قرأتَ كتابي هذا فكُنْ له أطوعَ من نَعْلهِ ، وأعرِفْ حقَّهُ وأكرِمْهُ وأهلَهُ ولا تقصرنَّ في شيءٍ من حوائجهِ ، فواللهِ لو أنَّ اليهودَ رأتْ رجُلاً خدمَ العُزيرَ ، أو النَّصارىٰ رجلاً خدمَ المسيحَ لوقَّروهُ وعظَّمُوهُ ، فتباً لك! لقد اجترأتَ ونسيتَ العَهْدَ ، وإيّاكَ أنْ يبلُغَني عنك خلافُ ذلك ، فأبعثُ إليكَ مَنْ يضربُكَ بطناً لظهرٍ ، ويهتكُ ستركَ ، ويُشمتُ بك عدّوكَ! والْقَهُ في منزلهِ متنصّلاً إليه ، ليكتبَ إليّ برضاهُ عنك و ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧].

وكتبَ عبد الملكِ إلى أنسٍ: لأبي حمزةَ أنسِ بن مالكٍ خادمِ رسول الله ﷺ ، من عبدِ الملكِ ، سلامٌ عليكَ؛ أمَّا بعدُ: فإنّي قرأتُ كتابكَ ، وفهمتُ ما ذكرتَ في أمْرِ الحجّاجِ ، وإنّي واللهِ ما سلّطتهُ عليكَ ولا على أمثالِكَ ، وقد كتبتُ إليه ما يبلغكَ ، فإنْ عادَ لمثلِها فعرفني حتّى أحلَّ به عقوبتي ، وأذلّهُ بسطوتي ، والسَّلام عليك.

ثم أرسلَ إلى إسماعيل بنِ عبد اللهِ بن أبي المُهاجر ، ودفع إليه الكتابين ، وقال: اذهب إلى أنس والحجّاج ، وابدأ بأنسٍ ، وقلْ له: أميرُ المؤمنين يسلِّم عليكَ ويقولُ لكَ: قد كتبتُ إلى عبدِ بني ثقيف كتاباً إذا قرأه كان أطوعَ لك من أَمَتِكَ ، وأستعرضَ حوائجه.

فركبَ إسماعيلُ البريدَ ، فلمّا دفعَ الكتابَ إلى الحجَّاج جعل يقرؤه ، ويتمعرُ وجههُ ، ويرشحُ عرقاً ويقول: يغفرُ اللهُ لأميرِ المؤمنين؛ ثمّ قال: نمضي إلى أنسٍ. فقال له: على رسلِكَ ، ثمّ مضى إلى أنس وقال له: يا أبا حمزة ، قد فعلَ أميرُ المؤمنين ما فعلَ ، هو يقرأُ عليكَ السَّلام ويستعرضُ حوائجكَ.

فبكىٰ أنسٌ وقال: جزاهُ اللهُ خيراً ، كان أعرفُ بحقّي وأبرُّ بي من

الحجاج. قال: وقد عزمَ الحجاجُ على المجيءِ إليكَ ، فإنْ رأيتَ أنْ تتفضّلَ عليه فأنتَ أولىٰ بالفَضْلِ.

فقامَ أنسٌ ، ودخلَ إلى الحجّاجِ ، فقام إليه واعتنقهُ ، وأجلسهُ على سريرهِ ، وقال: يا أبا حمزةَ ، عجلت عليَّ بالملامةِ ، وأغضبتَ أميرَ المُؤمنين ، وأخذَ يعتذرُ إليهِ ويقول: قد علمتَ شغبَ أهلِ العراق ، وما كانَ من ابنك مع ابنِ الجارود ، ومن خروجِكَ مع ابنِ الأشعث ، فأردتُ أن يعلموا أنّي أُسرعُ إليهم بالعقوبة ، إذ قلتُ لمثلكَ ما قلتُ.

فقال أنسُ: ما شكوتُ حتّى بلغَ منّي الجهدُ ، زعمتَ أنّنا الأشرارُ واللهُ سمّانا الأنصار ، وزعمتَ أنّنا أهلُ النِّفاقِ ونحن الذين تبوأنا الدَّارَ والإيمان ، واللهُ يحكمُ بيننا وبينكَ ، وما وكلتكَ إلى أمير المؤمنين إلا حيثُ لم يكنْ لي به قوة ولا آوي إلى ركنٍ شديد. ودعا لعبدِ الملكِ وقال: إنْ رأيتُ خيراً حمدتُ وإِنْ رأيتُ شرّاً صبرتُ ، وباللهِ استعنتُ.

وكتبَ الحجَّاجُ إلى عبدِ الملكِ: أما بعد ، فأصلحَ اللهُ أميرَ المُؤمنين وأبقاهُ ولا أعدمناه ، وصلَني الكتابُ يذكرُ فيه شتمي وتعييري بما كان قبل نزول النّعمةِ بي من أمير المؤمنين ، ويذكرُ استطالتي على أنس جرأةً منّي على أمير المؤمنين ، وغرّةً منّي بمعرفةِ سطواتهِ ونقماتهِ ، وأميرُ المؤمنين أعزَّهُ اللهُ في قرابتهِ من رسول الله ﷺ أحقُّ مَنْ أقالَني عثرتي ، وعفا عن جريمتي ، ولم يعجّلْ عُقوبتي ، ورأيهُ العالي في تفريجِ كُربتي ، وتسكينِ روعتي ، أقالهُ اللهُ العثَرات ، قد رأىٰ إسماعيلُ بنُ أبي المهاجرِ خُضوعي لأنس ، وإعظامي إيّاه ، وأَعتذرُ اعتذاراً كثيراً»[1].

أنسٌ وكلمـاتٌ نَبويّـةٌ نافعـةٌ:

* من خلالِ الصُّحبةِ النّبويّةِ الزّاكية فازَ سيّدنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه بكثيرٍ من الخيراتِ والبركاتِ ، ومنها كلماتٌ نافعةٌ لا يضرّهُ معهنَّ شيءٌ ،

(١) انظر: الوافي بالوفيات (٦/ ٤١٢ ـ ٤١٥).

وقد حاوَلَ الحجاجُ بنُ يوسفَ معرفتها ، بيد أنَّ المنيَّةَ كانت أسبق إليه منهنَّ .

* فقد ذكروا أن الحجَّاجَ بنَ يوسفَ الثَّقفيّ لما قدمَ العراقَ ، أرسلَ إلى سيّدنا أنسَ بنِ مالكٍ ذات يومٍ وقال له : «يا أبا حمزةَ ، إنَّكَ قد صحبتَ رسول الله ﷺ ورأيتَ من عمله ، وسيرته ، ومنهاجه؛ فهذا خاتمي ، فليكُنْ في يدكَ فأرىٰ برأيك ، ولا أعملُ شيئاً إلا بأمركَ» .

فأجابهُ أنسُ إجابةَ العالِمِ الخبيرِ والورع الزّاهد والحصيف العيلم بالرّجال : «أنا شيخٌ كبيرٌ قد ضعفتُ ، ورققتُ ولَيسَ فيَّ اليوم ذاك» .

فقال الحجاجُ يذكِّرُ أنساً بمن عملَ لهم من قَبْلُ : «يا أبا حمزةَ ، إنَّكَ قد عملتَ لفُلانٍ ، وفلانٍ ، وفلان . . فما بالي أنا؟! يا أبا حمزة انظرْ إنْ كانَ في أولادِكَ ممن تثقُ بدينهِ وأمانتهِ وعَقْلِهِ حتى أستعملهُ» .

قال أنس : «يا هذا ، ما في أولادي مَنْ أثقُ لك به» .

فكرّرَ عليه الحجّاجُ ذلك ، وألحَّ عليه أنْ يعملَ له ، بيد أن سيّدنا أنساً رفضَ طلبَهُ ، وكثرَ الكلامُ بينهما ، ولم يَحْظَ الحجاجُ بإجابةٍ شافيةٍ أو موافقةٍ من أنس .

وتمضي الأيّامُ وصَدْرُ الحجَّاجِ قد ضاقَ من رفضِ أنس لطلباتهِ ، واستخفافهِ به ، وذات يوم أرسلَ إليه ، وبدأ يقول له من جملةِ كلام : «لقد عبتَ فما تركتَ شيئاً ، ولولا خدمتُكَ لرسول الله ﷺ ، وكتابُ أميرِ المؤمنينَ لكان لي ولك شأنٌ من الشَّأن» .

فقال أنسُ : «هيهاتَ ، إنّي لما خدمتُ رسول الله ﷺ علّمني كلماتٍ لا يضرّني معهنَّ عتو جبّار» .

فقال له الحجاجُ : «يا عمّاهُ ، لو علمتنيهنّ» .

فقال : لستَ لذلكَ بأهْلٍ .

فدسَّ إليهِ الحجّاجُ ابنَهُ محمّداً ومعه مئتي ألف درهم ، ومات الحجَّاجُ قبل أن يظفرَ بالكلمات النبوية المباركة النّافعة .

أمَّا الكلماتُ النّبويّةُ المباركةُ التي لا يضرُّ معها عتو جبّار فهي: «بسم اللهِ على نفسي ودِيْني، بسمِ اللهِ على أهلي ومالي، بسمِ اللهِ على كُلّ شيءٍ أعطاني، بسمِ اللهِ خيرِ الأسماءِ، بسم اللهِ ربِّ الأرضِ والسَّماءِ، بسم اللهِ توكّلتُ، اللهُ ربّي لا أشركُ به أحداً، اللّهُمَّ أنتَ جاري من كل شيء ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]، مِنْ خلفِي، وعن يميني، وعن شِمالي، ومن فوقي، ومن تحتي»[١].

لا إله إلاّ الله:

* انتقل رسول الله ﷺ إلى الرَّفيقِ الأعلى، هو راضٍ عن خادمهِ الأمين الحصيفِ الفتى العالمِ أنسِ بنِ مالكٍ الأنصاريّ، وعاشَ سيّدنا أنسٌ بعدهُ أكثرَ من ثلاثةِ أرباعِ القرنِ يحملُ بينَ جوانحهِ حُبَّ النّبيّ ﷺ، ويعي في وجدانهِ ما حفظَهُ عنه ورآهُ وسمعَهُ، فقد كانَ رضي الله عنه من العُقلاءِ الألبّاء، وممّن يحسنونَ القراءةَ والكتابة[٢]، فكان من العُلماءِ العُبّاد الأخيارِ من الأنصارِ الأبرار الذين أحبّوا رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابَهُ وخصوصاً الخلفاء الرّاشدين الأربعة، وفي مقدمتهم: الشّيخان العُمران الأكبران: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وحشَرنا في معيّتهما، وقد عبّرَ أنسٌ رضي الله عنه عن هذا الحُبِّ الفريدِ لذلكَ الجيلِ الفريدِ بقولهِ: «ما فرحْنا بشيءٍ فرحنا بقولِ النّبي ﷺ: «أنتَ مع مَنْ أحببتَ»[٣] فأنا أحبُّ النّبيَّ ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكونَ معهم لحبّي إياهم». وكان يقول: «يقولون: لا يجتمعُ حبُّ عليّ وعثمان في قلبٍ وقد جمعَ اللهُ حبَّهُما في قلوبنا»[٤].

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات (٩/ ٤١٥).

(٢) كان أنس كاتباً قارئاً وكان يوصي أولاده بالكتابة، فعن ثمامة بن عبد الله بن أنس بن مالك أنه قال لبنيه: «يا بنيّ قيدوا العلم بالكتاب» (طبقات ابن سعد ٧/ ٢٢).

(٣) أخرجه أبو يعلىٰ الموصلي (٥/ ٣٧٣)، حديث رقم (٤٠٢٤)، وللحديث شواهد أخرى في كتب السنن ومسند أحمد وغير ذلك.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٠٥).

* وتظلُّ صورةُ النَّبيّ ﷺ ماثلةً في وجدان سيِّدنا أنس بنِ مالك وقلبه إلى آخرِ نَفَسٍ في حياتهِ ، فقد كان شديدَ التّأسّي بهِ في حِلّهِ وترحالهِ ، يقلّده في الصَّلاة ، وفي الحديثِ ، وتفهيم النّاس ، وفي الدُّعاء وما شَابه ذلكَ.

* وظلتِ بركة الدّعاء النّبويّ تصحبُ أنَساً وتصاحبُهُ طيلةَ عمره ، فبوركَ لهُ في عُمْره ، ووقتِهِ ، ومالِهِ ، وأولادِهِ ، وأحفادِهِ ومن الجميل أنَّ عدداً من أولادِهِ وأحفاده قد حملوا عنه العِلْم ، ونقلوا لمن بعدهم ما حفظوه عن عالمِ الأنصار وخادمِ النَّبيّ ﷺ أنس بن مالك ، وقد عرفَ المحدّثونَ من أولادِ أنس ابنَه أبا بكر بن أنس[1] ، وعبيد الله بن أنس[2] ، والنضر بن أنس[3] ؛ وموسى بن أنس ، ومن أحفادِهِ: عبد الله بن أبي بكر بن أنس ، وثمامة بن عبد الله بن أنس[4] ، وأبو بكر بن عبيد الله بن أنس[5] وحفص بن عبيد الله بن أنس[6] ، وغيرهم وعرف له بناتٌ هُنَّ: حفصة وأمّ عمرو وأمينة.

* وامتدتِ الحياةُ بأنس حتّى وهَنَ العَظمُ منه ، واشتعلَ رأسُهُ شَيباً ، وسئم من الحياةِ وطولها وتكاليفها ، فهو أحدُ الصَّحابةِ الأنصار المُعَمَّرين الذين زادت حياتهم عن قرنٍ مِنَ الزَّمانِ ، وكان يرىٰ بأنَّهُ أطولُ الصَّحابةِ الرّواةِ المكثرين عُمراً ، حتى وردَ عَنْهُ أنَّهُ قال: «ما بقيَ أحدٌ صلَّىٰ القبلتَيْن غيري»[7] ، وذلكَ أنَّ مولدَ أنسٍ كان قُبيلَ الهِجرةِ بعشر سنين كوامل ، وعاش إلى سنةِ (٩٣ هـ) ، فيكونَ عمره قرابة (١٠٣ سنوات).

---

(١) انظر: ترجمته في تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٧) ترجمة رقم (٨٢٤٤) طبعة دار الفكر.
(٢) انظر: ترجمته في تهذيب التهذيب (٥/ ٣٦٤) ترجمة رقم (٤٤٠١).
(٣) انظر: ترجمته في تهذيب التهذيب (٨/ ٥٠١) ترجمة رقم (٧٤١١).
(٤) انظر: ترجمة ثمامة في تهذيب التهذيب (١/ ٥٧٠) ترجمة رقم (٨٩٤).
(٥) انظر: ترجمة أبا بكر بن عبيد الله بن أنس في تهذيب التهذيب (١٠/ ٣٥) ترجمة رقم (٨٢٥٩).
(٦) انظر: ترجمة حفص بن عبيد الله بن أنس في تهذيب التهذيب (٢/ ٣٦٩) ترجمة رقم (١٤٦٨).
(٧) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٠٣) ، والإصابة (١/ ١١٣) ترجمة رقم (٢٧٥).

* قال عليُّ بنُ المديني رحمه الله: «آخر مَنْ بقي بالبصرةِ من أصحابِ رسول الله ﷺ أنس»[1].

* وكان أنسُ إذا أراد أنْ يختمَ القرآنَ الكريم جمعَ أهله وعيالَه وولدَه، فيختمُ بحضرتهم[2].

* وكان أنسٌ رضي الله عنه يحتفظُ ببعضِ آثار النَّبيِّ ﷺ، وكان يوصي أنْ

(١) انظر: تهذيب (١/ ٣٩١) ترجمة رقم (٦٠٧).
ومن الجدير بالذّكر أنَّ ابنَ قتيبةَ قد عقدَ في كتابه «المعارف» فَصْلاً عنوانه «مَنْ تأخرّ موتُه من الصّحابة» رضي اللهُ عنهم، فذكرَ ما مفادُهُ، ومحصلّه وملخّصه:
* آخرُ مَنْ ماتَ بالكوفةِ مِنَ الصّحابة: عبدُ اللهِ بن أبي أوفى، توفي سنة (٨٦ هـ).
* آخرُ مَنْ مات بالمدينةِ من الصّحابةِ: سهل بن سعد الساعدي توي سنة (٩١ هـ) وعمره مئة سنة.
* آخرُ مَنْ ماتَ بالبصرةِ من الصحابة: أنس بن مالك سنة (٩٣ هـ).
* آخر مَنْ ماتَ بالشّامِ من الصَّحابةِ: عبد اللهِ بن بسر سنة (٨٨ هـ).
* وكذلكَ ممن تأخر موته بالشّام من الصحابة: واثلة بن الأسقع مات سنة (٨٥ هـ) وعمره (٩٨ سنة).
* آخر من ماتَ من الصحابة: أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي مات سنة مئة.
انظر المعارف (ص ٣٤١ و٣٤٢) بتصرف. وانظر تراجم هؤلاء الصحابة في تهذيب التهذيب؛ والإصابة.

(٢) من الطَّرائف والفوائد التي تستحقُّ التّسجيل في هذا المقام عن أولاد سيّدنا أنس وكثرتهم، ما أورده ابن قتيبة قال: «قال الحِرمازي: ثلاثةٌ من أهلِ البصرةِ لم يموتوا حتى رأىٰ كلّ رجل منهم من صلبه مئة ذكرٍ: خليفة بن بدر، وأبو بكرة، وأنس بن مالك». (المعارف ص ٣٠٨).
وقال صلاحُ الدّين الصّفدي: «قال سبطُ ابنُ الجوزي: كان لجماعةٍ مئةُ ولَدٍ؛ منهم:
* أبو بكرة نفيع مولى رسول الله ﷺ.
* وخليفة السّعدي.
* وعبد الله بن عمر الليثي.
* وجعفر بن سليمان الهاشمي.
* وأنس بن مالك. لم يمت كلّ واحد من هؤلاء حتى رأىٰ من صلبهِ مئة ولد. ويقال: إنَّهُ لا يُعرفُ لهم سادس». (الوافي بالوفيات ٩/ ٤١٦).

تُدفن معه عند موتهِ قال تلميذُه ثابتُ البُناني: «قال لي أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: هذه شَعْرةٌ من شَعْرِ رسول الله ﷺ فضعْها تحتَ لساني، قال: فوضعتُها تحت لسانهِ، فدُفِنَ وهي تحتَ لسانِهِ»[(١)].

* وعن تلميذهِ الحصيفِ التَّابعي الكريم محمّد بن سيرين عن أنسِ بن مالك: «أنَّه كان عنده عُصَيّة لرسولِ اللهِ ﷺ، فماتَ فدُفِنَتْ معه بينَ جيبه وبين قميصه»[(٢)].

* توفي أنسٌ رضي اللهُ عنه وقد تجاوزَ المئةَ، ودُفنَ على مسافةِ فرسخَيْن من البصرةِ، ودُفنَ هُناكَ في موضعٍ يعرف بقَصْرِ أنس رضي الله عنه مات أنسٌ وهو يقول: «لا إله إلا الله» ولم يزلْ يقولُها حتّى صعدتْ روحُه إلى بارِئها راضيةً مرضيةً[(٣)].

* ويمكننا أن نقول الآن: «لقد عشنا أويقاتٍ نافعةً غنيةً نقتبسُ منها نوراً مع هذا الصَّحابيّ العالِم الذي تربّى في بيتِ رسولِ الله ﷺ، فكان من نُبلاءِ العُلماء، ومن العُلماء النّبلاء، واقتبسَ من زكي الخِصالِ وكريمها ما جعلَهُ قدوةً لمن بعده من الأجيال، فقد تمثَّل كثيراً من الشَّمائل المحمديّةِ سلوكاً وقولاً، ورسمَ كثيراً من جوانبِ السِّيرةِ النّبويّةِ لطّلاب العلوم، والتي لولاه لَفَقْدنا شيئاً من هذه الإشراقات الثّرية، ولذلكَ لمَّا ماتَ أنسٌ تركَ فراغاً كبيراً في دنيا عُلماء الصَّحابة وعالَم علماءِ التّابعين، حتى قال مورّقُ العجليّ يوم ماتَ أنس وهو يتحسَّرُ عليه: «ذهبَ اليومَ نصفُ العِلْم»[(٤)]. ولقد صدقَ هذا التّابعي الثّقةَ العابد فيما قال، فأنسُ بنُ مالك من أكثرِ فتيانِ الأنصارِ وشبابهم صحبةً للنّبيّ ﷺ، وسماعاً منه، ومعرفةً لكثير من أحوالهِ وخلالهِ الشّريفةِ».

---

(١) الإصابة (١/ ١١٣) ترجمة رقم (٢٧٥).

(٢) مختصر تاريخ مدينةِ دمشق (٥/ ٧٥)، وأسد الغابة (١/ ٢٩٦) ترجمة رقم (٢٥٨).

(٣) المصدر السابق عينه بتصرف يسير؛ وانظر: البداية والنهاية.

(٤) تهذيب التّهذيب (١/ ٣٩٢) ترجمة رقم (٦٠٧).

* حقاً لقد أودىٰ أنسٌ رضي الله عنه بعد أنْ ملأَ الدنيا بأعمالهِ التي تسري كما تسري النّجوم الطُلَّعُ.

ما كُنتُ أعَلمُ وهو يُوْدَعُ في الثَّرىٰ ... أنَّ الثَّرى فيهِ الكَواكِبُ تُودَعُ
لو فَاضَتِ المُهجاتُ يوم وَفاتِهِ ... ما استُكْثِرَتْ فيه فكيفَ الأدمُعُ
تَتصرَّمُ الدُّنيا ويأتي بعدَهُ ... أممٌ وأنتَ بمثلهِ لا تَسْمعُ
ما ضَيَّعَ الباكي عليكَ دُمُوعَهُ ... إنَّ الدُّموعَ علىٰ سِوَاكَ تُضَيَّعُ
قَصَدتْكَ طلاّبُ العُلُومِ ولا أرىٰ ... لِلْعِلْمِ باباً بعدَ بابِكَ يُقْرَعُ

* رضي اللهُ عن أنسِ بنِ مالك، ووقانا شرّ المهالك، وجعلنا معه في الجنّة هنالك.

* * *




جابر بن عبد الله

* من كبار علماء الصَّحابة الحفَّاظ المكثرين له (١٥٤٠ حديثاً).
* لم يتخلّف عن المشاهد بعد غزوة أحد وله آثار محمودة في ميادين الفضائل.
* كان أحد الذين انتهت إليهم الفتوى في المدينة المنورة.
* حظي بمكانة كبرى عند الصّادق المصدوق ﷺ، وعند الخلفاء الراشدين.
* مات سنة (٧٨ هـ) وعمره (٩٤ سنة) وهو آخر الصّحابة موتاً بالمدينة المنورة.




جَابرُ بنُ عبد الله

الإمامُ الكبيرُ المجتهد :

* كان سيّدنا جابرُ بنُ عبد الله الأنصاري[1] نجماً أشهر من زُحَل ، وبحراً عُبابُهُ القولُ والعَمَل ، أمَّا عُلمَاءُ التَّابعين فعيال عليه ، وأمّا الحفّاظ منهم فِصغَارٌ بين يديه :

هَيْهـاتَ لا يـأتـي الـزَّمـان بمثلـهِ　　إنَّ الـــزّمـــانَ بمثلـــهِ لَبخيـــلُ

* وما عسيتُ أنْ أقولَ فيمن جمعَ طرائفَ المحاسن ، وصحبَ النَّبيّ ﷺ في أفضلِ الأماكن ، فإذا ذُكِرَ كرمُ الحسب ، وشرفُ المنتسب ، كانت شجرتُه الأنصاريةُ الخزرجيّةُ في قرارةِ المجدِ والعلاء ، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم : ٢٤].

لـولا عَجـائـبُ لطْـفِ اللهِ مـا نَبَتَـتْ　　تلك الفَضَائِلُ في لَحْمٍ وفي عَصَبِ

* وصَفَه الإمامُ الذَّهبيُّ في مفتتح ترجمتِهِ له بقولِه : «الإمامُ الكبيرُ ، المجتهدُ الحافظُ ، صاحبُ رسولِ الله ﷺ ، الأنصاريُّ الخزرجيُّ السُّلَميُّ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/١٨٩ ـ ١٩٤) ، والمحبر (ص ٢٩٨)، وجامع الأصول (٩/ ٨٦) ، والإصابة (١/ ٢١٤ و٢١٥) ، والاستيعاب (١/ ٢٢٢ و٢٢٣) ، والمسند (٥/ ٥ ـ ٢٢١) ، والمستدرك (٣/ ٦٥٢ ـ ٦٥٤) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٤٢ و١٤٣) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٥/ ٣٥٧ ـ ٣٦٣) ، وتذكرة الحفاظ (١/ ٤٠) ، وحياة الصَّحابة (انظر الفهارس ٣/ ٧٤٦) ، ومشاهير علماء الأمصار (ص ٣٠) وغيرها كثير لايُحصر.

المدنيُّ الفقيهُ، من أهل بيعةِ الرّضوان، وكان أبوهُ عَقِبيّاً بدريّاً من النُّقباء.»[١].

* وقال عنه صاحبُ «الإصابة»[٢]: «جابرُ بنُ عبد الله.. الأنصاريّ السُّلَميّ، أحدُ المكثرين عن النَّبيّ ﷺ... لهُ ولأبيه صحبةٌ، وفي الصَّحيح أنَّه كان مَعَ مَنْ شهد العقبة».

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/١٨٩)، وتاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٦١ ـ ٨٠) (ص ٣٧٧و٣٧٨) مع الجمع.

(٢) «الإصابة»: من أشهرِ الكتبِ التي تناولتْ حياةَ الصَّحابة وسيرهم، ومؤلفه هو ابن حجر العسقلاني، واسمه: أحمد بنُ محمد الكناني العسقلاني، وُلِدَ سنة (٧٧٣ هـ) بالقاهرة، ولع بالأدب والشّعر، ثم أقبل على الحديث، ورحل في طلبهِ إلى اليمن والحجاز، وعَلَتْ شهرتُه وأصبحَ حافظَ الإسلام في عَصْرِهِ، وكان عالماً ثقة ألّف كثيراً من الكتبِ المفيدة، ودافعَ عن السُّنَّة دفاعاً شديداً، ومن أشهر كتبه: «فتح الباري في شرح صحيح البخاري، وتهذيب التهذيب، والإصابة في تمييز الصحابة» وكثير جداً وهي مشهورةٌ بين أهل العلْم. توفي ابنُ حجر بالقاهرة سنة (٨٥٢ هـ). أمّا كتابُ الإصابةِ فقد استعرضَ ابنُ حجر في مقدمته كثيراً من أسماء الكتبِ التي تقدَّمَتْهُ في هذا الموضوع، ثم بيَّن أنَّه جمعَ كتاباً حاول أنْ يميزَ فيه الصَّحابة عن غيرهم، فقال: «فجمعتُ كتاباً كبيراً في ذلك ميزت فيه الصَّحابة من غيرهم؛ ومع ذلك فلم يحصلْ لنا من ذلك جميعاً الوقوف على العُشْر من أسامي الصَّحابة...» (الإصابة ١/ ٤). وقسم كتابه أربعة أقسام:

القسم الأول: ذكرَ فيه مَنْ وردت صحبته بطريق الروايةِ عنه أو عن غيره.

القسم الثاني: ذكرَ فيه مَنْ ذكر من الصّحابة الأطفال، والذين عندما توفي النّبي ﷺ كانوا دون سنّ التّمييز.

القسم الثالث: مَنْ أسلم ولم يرَ النّبي ﷺ، وهم الذين شهدوا الجاهلية والإسلام، وهؤلاء لا يعتبرون من عداد الصّحابة، وذلك مثل: النّجاشي وأويس القرني.

القسم الرابع: ذكر فيه الأشخاص الذين ذكروا في الكتب التي تقدّمته على سبيل الوهْمِ والغَلَط من الصَّحابة، ويقول إنَّه لم يسبق في ذلك أبداً، ويعتبر إنْ كان للكتاب فضلٌ فهو هذا؛ ثم بدأ كتابه بتعريف الصّحابي، والطريقة التي يثبت فيها الصّحابي وعدالة الصّحابة رضي الله عنهم أجمعين، ثم يرتب الصّحابة على حسب حروف المعجم.

وفي تراجمه للصّحابة يذكر بعض الأحداث المهمّة التي حصلت لهم، ويذكر وفاة الصّحابي، وعمّن روى ومَنْ روى عنه. وبالجملة فهو كتاب جليلُ القدْرِ كثير النّفع، طبع مرات عديدة، في بلدان عديدة، بأثواب جديدة، وتحقيقات مفيدة.

* وقال الإمامُ النَّووي رحمه الله: «جابرُ بنُ عبد الله الصَّحابيُّ ابنُ الصَّحابي الأنصاريّ السُّلَميّ، أحدُ المكثرين الرّواية عن رسول الله ﷺ».

* إذن، فسيّدنا جابرُ هذا من الكرامِ أبناءِ الكرام الأخيارِ البررة، فوالده: عبدُ الله بنُ عمرو بن حرام، أسلم قبلَ بيعةِ العقبة، وكان ممّن حضَرها، واختارَهُ قومه نقيباً عليهم فيها.

* وأمُّه: أُنَيْسةُ بنتُ غنمة أخت ثعلبة، أسلمتْ وبايعت رسول الله ﷺ.

* وأخواته: كُنّ سَبْعَ بناتٍ، أو تسعاً، وكلهنّ أسلمْنَ، وكان جابرُ هو الابنُ الذّكَرُ الوحيدُ لأبيه.

* في الأجواءِ الكريمةِ هذه كانتِ النَّشأة «الجابريّةُ» الكريمة، فقد أسلمتْ الأسرةُ الجابريّة الكريمةُ في المدينةِ المنوّرةِ على يَدِ الدَّاعيةِ المُخلِص مصعب بن عُمير رضي الله عنه، وأسلم سيّدنا جابر قُبيلَ بيعةِ العقبةِ الثَّانية بحوالي سنة تقريباً، ونُظِمَ في عدادِ الصَّحابة الكرام الذين رضي الله عنهم ورضُوا عنه.

بيعتُهُ واستشهادُ أبيهِ:

* عندما قدمَ النَّبيُّ ﷺ المدينةَ المنورةَ مهاجراً كان سيّدنا جابرُ بنُ عبد الله قد تجاوزَ سنَّ الخامسة عشرة فهو في بدايةِ الشَّباب، واستقبلَ النَّبيَّ ﷺ مع الأنصار استقبالاً زاهراً لا يزالُ رحيقُه الخالص المنعش يُحيي النُّفوسَ المُحِبّةَ للنّبيّ ﷺ إلى الآن وإلى ما شاء الله عز وجل.

* ولم يكن هذا اللقاءُ هو الأوّلُ بين سيّدنا وحبيبنا محمّد رسول الله ﷺ وبين جابر، بل سبقَه لقاءٌ في بيعةِ العقبةِ الكبرى ـ وهي بيعةُ العقبة الثَّالثةُ ـ فقد شهدها جابرٌ مع أبيهِ عبد الله، وكان سيّدنا جابرُ أصغرَ مَنْ حَضَرَ من الأنصار، وصرَّحَ بذلك فيما ذكره الإمامُ الذَّهبيُّ عن جابر قال: «كُنَّا مع رسولِ اللهِ ﷺ ليلةَ العقبة، وأخرجني خالي، وأنا لا أستطيعُ أنْ أرميَ

الحجرَ»[1] ، وقال جابرُ أيضاً: «حملني خالي في السَّبعين الذين وفدوا على رسولِ الله ﷺ ، فخرجَ إلينا ومعه ـ عمُّه ـ العبَّاسُ بنُ عبد المطلب ، وذكر البخاري عن عمرو ، عن جابر أنّه شهد العقبة»[1].

* والحقيقةُ فقد رسمَ سيّدنا جابرُ منظراً جميلاً موحياً من مناظرِ بيعةِ العقبةِ الثَّالثةِ ، وأشارَ إلى أهمّيتها، وإلى إسلامِ الأنصارِ ودَوْرهم في البيعةِ العقبيّةِ الميمونة.

* قال جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنهما: «إنَّ رسول الله ﷺ لبثَ عشْر سنين يتبعُ النَاسَ في منازلهم: مَجَنَّة ، وعُكاظ؛ وفي المواسم بِمِنىٰ يقول: «مَنْ يؤويني؟ ومَنْ ينصرني حتّى أبلّغَ رسالات ربّي وله الجنَّة»؟ ، فلا يَجدُ أحداً يؤويه ولا ينصرُهُ ، حتى إنَّ الرَّجُلَ ليرحلُ من مُضَرَ أو اليمنِ ، فيأتيه قومُهُ وذوو رحمه فيقولون: احذْر فتى قريش لا يفتِنُكَ . . حتى بعثَنَا اللهُ عزَّ وجلَّ إليه من يثربَ ، فيأتيه الرّجلُ منّا فيؤمنُ به ، ويقرِئُهُ القرآنَ ، فينقلبُ إلى أهله ، فيسْلِمُون بإسلامهِ ، حتّى لم تَبْقَ دارٌ من دُوْرِ يثربَ ، إلاّ وفيها رهطٌ من المسلمين يُظهرون الإسلام. . ثم بعثَنَا اللهُ عزَّ وجلَّ فائتمرنا واجتمعْنَا فقُلْنا: متى نَذَرُ رسولَ اللهِ ﷺ يطوفُ في جبالِ مكّةَ ويخاف؟!

فرحلَ إليه منَّا سبعون رجُلاً حتى قدموا عليه في الموسم ، فواعدناه شِعْبَ العقبةِ ، فاجتمعنا فيه مِنْ رجُلٍ ورجُلين حتّى توافينا عنده؛ فقُلْنا: يا رسولَ اللهِ عَلاَمَ نبايعُكَ؟

قال: «تبايعوني على السَّمْعِ والطَاعة في النَّشَاط والكَسَل ، وعلى النَّفقةِ في العُسْر واليُسْرِ ، وعلى الأمرِ بالمعروفِ والنّهي عن المنكر ، وعلى أنْ تقولوا في اللهِ ، لا تأخذكم لومة لائم ، وعلى أنْ تنصروني إذا قدمتُ عليكم يثربَ ، تمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسَكم وأزواجَكم وأبناءَكم ولكم الجنَّةُ».

فقُمنا نبايعه ، فأخذَ بيده أسعدُ بنُ زرارة ، وهو أصغرُ السَّبعين رجلاً

---

(1) تاريخ الإسلام للذهبي (حوادث ووفيات ٦١ ـ ٨٠) (ص ٣٧٨ و٣٧٩) بتصرُّف يسير.

إلاّ أنا ، فقال: رويداً يا أهلَ يثرب ، فإنّا لم نضربْ إليه أكبادَ الإبل إلا ونحنُ نعلمُ أنَّه رسولُ اللهِ ، وأنَّ إخراجَه اليوم مفارقةُ العربِ كافّةً ، وقَتْلُ خياركم ، وأنْ تَعضَّكم السّيوف ، فإما أنتم قومٌ تصبرون على عضّ السّيوف إذا مَسَّتْكُمْ ، وعلى قتلِ خياركم ، وعلى مفارقةِ العرب كافّة ، فخذوه؛ وأجْركم على اللهِ ، وإمّا أنتم تخافون من أنفسكم خيفةً ، فذروهُ ، فهو أعْذر لكم عند الله عزَّ وجلَّ.

فقلنا: ابسطْ يدكَ يا أسعدَ بنَ زراة ، فواللهِ لا نَذَرُ هذه البيعةَ ولا نستقيلها ، فقمنا إليه نبايعُهُ رجلاً رجلاً ، يأخذُ علينا شرطَهُ ، ويعطينا على ذلك الجنَّة»[1].

* ولما هاجرَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى المدينةِ المنوّرة ، كان الأنصار يرحّبون بمقدمه الشَّريف أجمل ترحيب وأكمله ، وكلّ قبيلةٍ تدعوه للنّزول عندها حيثُ العزُّ والثَّروةُ والقوّةُ والجَلَدُ والعددُ ، إلى أنْ نزل على أبي أيّوب الأنصاريّ النّجاريّ ، وأكرمَ اللهُ الأنصار فيه ، ولله درُّ أبي قيس صرمة بن أبي أنس إذ يقولُ من قصيدة:

فلمَّا أتَانَا أظْهرَ الله دِيْنَه ... فأصبحَ مسْروراً بِطَيْبَةَ راضيا

فأصبحَ لا يخشى من النَّاس واحداً ... قريباً ولا يخشى منَ النَّاس نائيا

نُعادي الذي عادىٰ من النَّاسِ كُلِّهم ... جميعاً وإنْ كان الحبيبَ المُصَافيا[2]

* وبعد أن استقرَّ الحبيبُ الأعظمُ سيدنا وحبيبنا الصادق المصدوق محمدٌ ﷺ طفقَ جابرُ بن عبد الله رضي الله عنه يتردَّدُ على المسجدِ النّبويّ ، ويجلسُ في حلقاتِ المجالسِ النّبويّةِ ، وينهلُ من المعين العِلْميّ من سيِّدنا

---

(١) سُبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصّالحي الدمشقي (٣/ ٢٧٧ و٢٧٨) تحقيق عدد من العلماء ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ـ ١٩٩٠ م. والحديث أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٦٧ و٦٨) حديث رقم (١٤٤٦٣).

(٢) سبل الهدى والرشاد (٣/ ٣٩٤ و٣٩٥) باختصار وانتقاء.

رسولِ الله ﷺ ، وإذا ما دعا داعي الجهاد كان من فرسانِ المدرسةِ النَّبويةِ لإعلاء كلمة الله عز وجل.

* وتبدأُ رحلةُ سيّدنا جابر الجهاديّة منذ اليوم الأوَّل الذي أُعْلِنَ فيه الجهاد ، بيد أنَّ سيّدنا جابراً لم يشهدْ غزاتَي بدرٍ ولا أحدٍ إذ مَنعَه أبوهُ ، وأوصاهُ بأخواته البَنَاتِ خيراً ، فامتثلَ الأمْرَ طائعاً ، ولم يشارك فيهما.

* أخرج مسلمٌ بسنده عن سيّدنا جابرٍ رصوانُ اللهِ عليه أنَّه قال: «غزوتُ مع رسولِ الله ﷺ تسْعَ عشْرةَ غزوة» قال جابرٌ: «لم أشهدْ بدراً ولا أحداً ، منعني أبي ، فلمَّا قُتِلَ عبدُ الله - أبي - يومَ أحدٍ ، لم أتخلَّفْ عن رسولِ الله ﷺ»[1].

* وذكر سيّدنا جابر رضي الله عنه أنّه شهدَ العقبةَ فقال: «أنا وأبي وخالاي من أصحابِ العقبة»[2].

* ولما كانت غزوةُ أحدٍ ، جلسَ عبدُ الله ليلتَها إلى ابنهِ جابرٍ ، وحدَّثه ، ثم أخذَ يقولُ له: «يابنيّ ، ما أراني إلاّ مقتولاً في أوّلِ مَنْ يُقتل من أصحابِ النَّبيِّ ﷺ ، وإنّي لا أتركُ بعدي أعزَّ عليَّ منك ، غير نفْسِ رسولِ الله ﷺ ، وإن عليَّ دَيناً ، فاقْضِ ، واستوصِ بأخواتِكَ خيراً»[3].

* ودارتْ رحى المعركة عند الصَّباحِ ، فكان عبدُ الله بنُ عمرو أوَّلَ قتيلٍ

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨١٣).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٨٩١).

(٣) أخرجه البخاري برقم (١٣٥١) ، وقد تصرفتُ فيما عدا الأقواس من عندي لتمام الفائدة.

وفي قصّة جابر مع والده فوائدُ جليلة منها:

١ـ الإرشاد إلى برّ الأولاد بالآباء خصوصاً بعد الوفاة ، والاستعانة على ذلك بإخبارهم بمكانتهم من القلب.

٢ ـ قوة إيمان عبد الله والد جابر لحبّه النبي ﷺ.

٣ ـ كرامته بأن الأرض لم تأكل جسده وأنه حظي بالشهادة.

٤ ـ فضيلة لجابر لعمله بوصية أبيه.

فيها ، قَتَلَهُ سفيان بن عبد شمس ، فصلَّى عليه النَّبيُّ ﷺ قبل الهزيمة؛ وأصيب كذلك عمرو بن الجموح وحظيَ بالشَّهادة ، فقال ﷺ: «أجمعوا بينهما فإنّهما كانا متصادقَيْن في الدُّنيا» فَدُفِنا في قبرٍ واحد.

* قال جابر: «لم تطبْ نفسي أنْ أتركه مع الآخر ، فاستخرجتُه بعد ستّة أشهر ، فإذا هو كيوم وضَعْتُهُ هُنَيَّةً ، غير أُذُنِه».

* ويروي سيّدنا جابر بأنَّ أباه عبد الله لما استُشْهِدَ بغزاةِ أحدٍ جعلت عمّة جابر تبكي ، فقال سيّدنا وحبيبنا رسولُ الله ﷺ: «مايبكيها؟! مازالتِ الملائكةُ تظلُّ عليه بأجنحتها حتّى دُفِنَ».

* ويقول جابرٌ: «فرأيتُ أبي في حفرته ـ أي بعد ستة أشهر ـ كأنّه نائمٌ ، وماتغيَّر من حالهِ قليلٌ ولا كثيرٌ..».

* كان سيّدنا جابرٌ رضي الله عنه حزيناً على فَقْدِ والدهِ ، ورآه الحبيبُ المصطفى ﷺ على هذهِ الحال ، فأحبَّ أنْ يُدخِلَ السُّرور على قلبه الصَّافي فقال: «يا جابر ، ألا أبشّركَ؟».

قال: بلى بأبي أنتَ وأمّي يا رسول الله!

فقال ﷺ: «فإنَّ اللهَ أحيا أباك ، ثمَّ كلّمه كلاماً فقال: تمنَّ على ربّك ماشئْتَ.

فقال: أتمنى أنْ أرجعَ فأُقْتَلَ مع نبيّك؛ ثمّ أحيا فأُقْتَلَ مع نبيّك.

قال: إنّي قد قضيتُ أنّهم لا يرجعون»[1].

* وفي رواية أخرى أنَّ جابراً قال: «نظرَ إليَّ رسولُ اللهِ ﷺ فقال: مالي أراك مهتماً؟».

قلت: يا رسول الله ، قتل أبي ، وترك ديناً وعيالاً.

فقال: «ألا أخبرك؟ ماكلّم اللهُ أحَداً قطّ إلاّ مِنْ وراءِ حجاب ، وإنّه كلّم أباكَ كفاحاً ، فقال: يا عبدي سَلْني أعْطِكَ.

---

(١) المغازي (١/٢٦٨) ، وتفسير ابن عطية (ص ٣٨١).

قال: أسألُكَ أنْ تردَّني إلى الدّنيا فأُقْتلَ فيك ثانيةً.

فقال: إنَّه قد سبقَ منّي أنّهم إليها لا يرجعون.

قالّ يا رب، فأَبلغْ مَنْ ورائي؛ فأنزلَ الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩][1]».

* إنَّ هذه الآيةَ العظيمةَ قد غيّرتْ من مفهومِ الحياةِ والموت عند النَّاس، فلم يمتِ الشُّهداءُ كما نتصوّرُ، ولم تنقطعْ صِلاتُهم بِنَا، وإنّما هم عند اللهِ عزَّ وجلَّ في عُليا الجنَّات، يتمتعُون بحياةٍ خاصّةٍ، لا نستطيع أنْ ندرك كنهها، لكنَّ الخبرَ اليقينَ ذكرَهَا وأَثْبَتَها.

* وإنّهم في هذه الحياة يأتيهم رزقُهم من عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فسيتقبلونه بحفاوةٍ وارتياحٍ بالِغَيْن، وإنّهم يفرحون بما يؤتيهم اللهُ عزَّ وجلَّ، لأنّه من فضلِهِ العميم، وخيرِهِ الكريم، ونِعمِهِ التي لا تُحصى، وأفضالِهِ التي لا تُستقصى.

* وإنّهم موصولون بإخوانهم الذين لم تكتبْ لهم الشَّهادةُ، فيتمنّونها لهم، لأنَّ فيها مرضاةَ اللهِ عزّ وجلّ، وهي عينُ السَّعادة.

* كم أخطأَ الذين حسبوا هذا الموت نهاية! إنّه بدءُ حياةٍ سعيدةٍ أبدية، صوّرها القرآنُ الكريم: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ...﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠][2].

بلاؤه في المغَازي:

* هذا الفتى العالمُ كان من أبطالِ المسلمين وفرسانِهم، لم يتخلَّفْ عن غزوة بعد أحد، وإنّما صحبَ النَّبيّ ﷺ في مغازيه، وكان جندياً وفيّاً أميناً، وعالماً حصيفاً، نقل للأُمّةِ كثيراً من المشاهدِ والأحكامِ الجهاديةِ.. وسنشهدُ معه بعضَ مغازيه لنتقرب من شخصيته أكثر.

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص ١١٠).

(٢) صور وعبر من الجهاد النّبوي في المدينة (ص ١٤٠) بتصرف واختصار.

أولاً: مشاركتُهُ في غزوة حمراء الأسد:

* كانت غزوةُ حمراء الأسد[1] أوّل المغازي التي شارك فيها سيّدنا جابر رضي الله عنه، وكانت بعد غزوةِ أُحُدٍ مباشرةً بيومٍ واحد.

* ومن العجيب أنَّ اليهودَ والمنافقين كانوا قد أظهروا شماتَتهم بالمسلمين بعد هزيمتهم في أحد، وملؤوا المدينة بالأراجيف، وأطلقوا ألسنتهم في النّبي ﷺ وأصحابهِ الكرام، وهاهنا كان لابدّ من عملٍ سريع يُعيدُ إلى المسلمين ثقتهم بأنفسهم، ويستردّ هيبتَهم في نفوسِ أعدائهم فكانت غزوة حمراء الأسد التي أعلنها رسولُ الله ﷺ من أجلِ أنْ يقطعَ الطَّريقَ على المرجفين، وأنْ يُشعِرَ قريشاً أنَ المسلمين لم يتسرَّبْ إليهم الوهنُ أو الضَّعفُ، وأنَّهم على الرغم ممّا أصابهم ومسَّهم من القرحِ لا يزالون أقوياء، يستطيعون أنْ يُرهبوا عدوَّ الله وعدوهم.

* قال ابنْ إسحاق: «وكان يوم أحد يوم السَّبت للنّصف من شوال؛ فلمَّا كان الغدُ من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضَتْ من شوال، أَذَّنَ مؤذّنُ رسولِ اللهِ ﷺ في النَّاسِ بطلب العدو، فأذَّنَ مؤذّنه «ألا يخرجنَّ معنا أحدٌ، إلا أحدٌ حضَرَ يومنا بالأمس»[2].

* وسمعَ جابرٌ هذا النَّداء، فأصبح فؤادُهُ فارغاً وخشي ألا يقبله رسولُ اللهِ ﷺ في هذه الغزوة، فهو لم يتخلَّفْ عن أُحُدٍ جبناً ولا تكاسلاً، وإنّما أمرهُ أبوه أنْ يمكثَ عند أخواته إذ لا رجُل فيهنّ، فتخلَّف عليهنّ بالأمس.

* وجاء جابر يمشي على وجَلٍ واستحياء، واقترَب من الصادق

---

(١) «حمراء الأسد»: حمراء الأسد: جبل أحمر جنوب المدينة المنورة على مسافة عشرين كَيْلاً تقريباً، إذا خرجت من ذي الحليفة تؤمّ مكة، عن طريق بدر، رأيت حمراء الأسد جنوباً، وتقع حمراء الأسد على الضفة اليسرى لعقيق الحسا على الطريق من المدينة إلى الفرع. (المعالم الأثيرة ص ١٠٣).

(٢) السيرة النبوية بشرح أبي ذر الخشني (٣/ ١٤٧ و١٤٨).

المصدوق سيّدنا رسولِ اللهِ ﷺ ، ثم استجمعَ ماحَضَرهُ من شجاعة وقال: يا رسولَ الله، إنَّ منادياً نادىٰ ألا يخرج معنا إلاّ مَنْ حضرَ القتالَ بالأمس، وقد كنتُ حريصاً على الحضورِ والخروجِ معك ، ولكنَّ أبي خلّفني على أخواتٍ لي سَبْعٍ وقال: يا بني ، لا ينبغي لي ولا لك أنْ نتركَ هؤلاء النّسوة ولا رَجُلَ عندهنَّ، وأخافُ عليهنَّ وهُنَّ نُسَيَّاتٌ ضعافٌ، وأنا خارجٌ مع رسولِ الله ﷺ ، لعلَّ اللهَ يرزقني الشّهادة.. فتخلَّفْتُ عليهنَّ ، فاستأثره اللهُ عليَّ بالشّهادة ، وكنت رجوتها ، فأذن لي يا رسولَ الله أنْ أسيرَ معك في سَيْرِك هذا[(١)].

* إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ ، فأَذِنَ لابن الشّهيد أن يخرج ، فخرجَ معه وهو مسرورٌ إذ اختصَّه ﷺ بهذه المكرمة ، قال جابرٌ: فلم يخرجْ معه أَحَدٌ إلى القتال بالأمس غيري ، واستأذنه رجالٌ لم يحضروا القتالَ فأبى عليهم ذلك»[(٢)].

* ولما أذَّنَ مؤذّنُ رسولِ الله ﷺ ، جعل الناسُ يسارعون إلى أسلحتهم فيلبسونها ، ولا يتخلَّفُ عن ذلك جريحٌ ولا صحيح ، ومع أنَّ الجراحاتِ كانت فاشيةً في النَّاسِ ، وهم مشغولون بمداواةِ جراحهم ، فإنَّ النِّداءَ وداعيَ الجهاد شَغَلَهم عن أنفسِهم ، فما منهم منْ أحدٍ إلا نسيَ جراحَهُ ودواءَه ، وأسرعَ إلى درعه فلبسَها ، ولحق برسولِ الله ﷺ ، حتى إنَّ الضَّعفاءَ جعلُوا يتحاملون على أنفسِهم امتثالاً لأمْرِ الحبيبِ المُصْطَفى ﷺ ، الذي سار بأصحابه حتّى عَسْكروا بحمراء الأسد ، فأقام بها الاثنين والثّلاثاء والأربعاء ، ووصلَ خبرهُ إلى المشركين ، فخافوا ، وزادَ منْ خوفهم أنْ قيَّضَ اللهُ عزَّ وجلَّ للمسلمين مَنْ يخذلُ أبا سفيان ومَنْ معه عن الرُّجُوعِ إلى المدينةِ ليستأصلَ المسلمين بزعمِهِ ، وكان هذا الرجل الذي خذل المشركين هو معبدُ الخزاعيّ الذي أخافَ أبا سفيان وصحبَه ، فرجعوا إلى مكّةَ وهم وَجِلُون ، ورجعَ النّبي ﷺ إلى المدينةِ عزيزَ الجانب.

---

(١) السيرة النبوية (٣/١٤٨) ، والمغازي (١/٣٣٦) مع الجمع والتصرف.
(٢) المغازي (١/٣٣٦).

ثانياً: مشاركتُه في غزوة ذات الرّقاع وأحداثٌ مثيرةٌ:

* كان إجلاءُ يهود بني النَّضير عن المدينةِ المنورة وغزوهم خطوةً ميمونةً موفقةً، وكانت غزوةُ بني النَّضير في شَهْرِ ربيع الأوّل من السَّنة الرابعة للهجرة النبوية المباركة التي كانت مفتاح خير للبشرية، ويَنْبوع رحمة للمسلمين.

* وبعد هذه الغزاة أقام النبي ﷺ في المدينةِ المنورة شَهْرَ ربيع الآخر، وبعض الشَّهر من جمادى الأوّل، فجاءَهُ الخبرُ بأنَّ بني محارب وبني ثعلبةَ في نَجْدٍ يتجهّزون لحربه، فخرجَ إليهم في سبع مئة مقاتل، وساروا إليهم حتى وصلُوا نجداً، ونزلوا في أرضٍ تسمّى نَخْلاً، فاعتصم المشركون بالجبالِ تاركين مالَهم ونساءهم فغنمها المسلمون دون قتال.

* ولما رأىٰ المشركون أنَّ نساءهم سُبيت وأموالَهم ذَهَبَتْ، تحدّروا من الجبال لمواجهةِ المسلمين، وقد خاف النّاسُ بعضهم بعضاً حتى صلّى النّبي ﷺ بالنّاس صلاة الخوف، فكان إذا حضرتِ الصَّلاةُ صلّى بفريق من أصحابه، وبقيَ فريق قائماً يحميهم من غدرةِ العدو، حتى إذا انتهى الفريقُ الأول من صلاتهِ قامَ تُجاه العدو، وصلى النَّبيُّ ﷺ بالفريقِ الآخر.

* سمّيت هذه الغزوة ذات الرّقاع[1]، لأنَ الحجارة أوهنَتْ أقدامَ المسلمين، فكانوا يشدّون عليها رقاع الخِرق.

* ومع هذا النَّصْرِ اللطيف الذي أحرزَهُ المسلمون بقيادة النّبيِّ ﷺ دونَ مبارزة أو اشتجارٍ بالرّماح، فقد حدثت جملةُ من الوقائع سجَّلَها سيّدنا جابرُ بنُ عبد الله، فمنها ماروواها لنا، ومنها ما حدَثَ معه، وكانت في

---

(١) «ذات الرقاع»: هذا هو الاسم الصَّحيح لها، سمّيت بذلك لأنَّ الصَّحابةَ نقبَتْ أقدامهم، فلفّوا عليها الخرق. وقيل: سميت بذلك باسم جبل هناك فيه بياضٌ وسواد وحُمرة. وقيل: سميت باسم شجرة هناك وقيل: لأنّه كان في ألويتهم رقاع، ويحتمل أنّها سميت بالمجموع.
ومن الملاحظ هاهنا أنَّ الصّحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين قد كابدوا وتحمّلوا كثيراً من المشاق في طاعة الله عزّ وجلّ وهم يبتغون مرضاته ومرضاة رسوله ﷺ.

جملتها ذات دروس تعليميّةٍ وتوجيهيّةٍ للمسلمين ، وعظاتٍ بالغة وتدابير وألطاف إلهيّة ، ويمكنُ أنْ نذكرَ منها مانقلَه سيّدنا جابرٌ رضي الله عنه.

١ـ روى سيّدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قاتلَ قبيلة مُحارب في مكانٍ يُدعى «نخْل» ، بغزوةِ ذات الرقاع؛ وفي هذه الغزوة ذهبَ رسولُ الله ﷺ يقيلُ في ظلِّ شجرة ، وعلّقَ سيفَه في فرعٍ من فروعها ـ وكان مُحلًّى بالفضّة ـ فتَسَلَّلَ إلى مكانه رجل من محارب يُقال له: «غَوْرثُ بنُ الحارث» ، فأخذَ سيفَ رسولِ الله ﷺ ، فاستلَّه من غمده؛ فاستيقظَ رسولُ اللهِ ﷺ فإذا الرَّجُل قائماً على رأسه والسَّيفُ في يدّه يهزُّه ، ويهمُّ ، فَيَكْبتُهُ الله عزَّ وجلَّ ، وهو يقول: يا محمد أمَا تخافني؟

قال ﷺ: «لا ، وما أخافُ منك».

قال: مَنْ يمنعُكَ منّي وفي يدي السَّيف؟

قال ﷺ: «اللهُ».

فَسَقَطَ السَّيفُ من يده ، فأخذَهُ رسولُ اللهِ ﷺ ، فقال: «مَنْ يمنعُكَ منّي..؟

قال: كُنْ خيرَ آخذٍ.

قال ﷺ: «تشهدُ أنْ لا إله إلا الله وأنّي رسولُ الله».

قال: لا ، ولكنْ أعاهدك على أنْ لا أقاتِلَكِ ، ولا أكونَ مع قومٍ يقاتلونك.

فعفى عنه ﷺ وخلّى سبيلَه ، وجاء أصحابه وقومه وقال لهم: جئتكم من عند خيرِ النَّاس[1].

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذّهبي (المغازي ص ٢٤٩)، والمسند (٥/ ٢٠٠ و٢٠١) حديث رقم (١٥١٩٢) ، وفتح الباري(٧/ ٤٩٠ و٤٩١) حديث رقم (٤١٣٥) مع الجمع والتصرف.
وانظر: المستفاد من مبهمات المتن والإسناد (٢/ ١٢٥٦) ، وكثير من المصادر وكتب الحديث والطّبقات والسّيرة.
وقد دلتْ قصّة غورث التي رواها سيدنا جابرٌ رصي الله عنه على ما كان يتمتّع به =

* وما أجملَ أنْ نذيِّلَ هذه القصَّةَ بهذهِ الأنسام الشِّعريّةِ المعّبرة التي تصوِّرُ قصّةَ غورثٍ وتدلُّ على لطفِ اللهِ عزّ وجلّ بالنَّبي ﷺ! :

في الظِّلِّ نامَ المُصْطَفى لم يخْشَ غَدْرَ المُعْتَدين
السَّيــف علَّقَــهُ بغصْــنِ شُجَيــرةٍ كــالآمنيــن
وإذا بِغَــورثَ قــد تَسلَّــلَ آخــذاً سيــف الأميــن
السَّيــفُ فــي يــدهِ فقــالَ مقــالــة المتمكِّنيــن
قَــلْ لــي فَمَــنْ يمنعْكَ مِنّــي قــالَ ربُّ العــالَميــن
السَّيــفُ يسقُــطُ منــه يــأْخــذهُ أميــرُ المُــرسليــن
لكــنْ رَســولُ اللهِ يعفــو عنــه عفْــو القــادريــن

٢- وروى سيّدنا جابرٌ أيضاً صورةً من صُورِ الإخلاص الفريدة في حياةِ الصَّحابة وتاريخهم ، وكذلك تبيّنُ هذه الصّورة مدى اجتهادِ الصَّحابةِ وفقههم وشدّة طاعتهم لله ورسوله.

* ذكرتِ المصادرُ بسندٍ عن سيّدنا جابرِ بن عبد الله رضي الله عنه قال: «خرجْنَا مع رسولِ اللهِ ﷺ في غزوةِ ذات الرّقاع ، فأصابَ رجلٌ منّا امرأةَ رجُلٍ منِ المشركين ، وكانت وضيئةً ، وكان زوجها يحبُّها ، فلمّا انصرفَ رسولُ اللهِ ﷺ راجعاً إلى المدينةِ المنوّرة ، جاء زوجُها وكان غائباً ، فلمّا أُخْبِرَ الخبر ، أخذَهُ مابعُدَ وقرُبَ ، وحلفَ بأغلظِ الأَيْمان ليطْلُبنَّ محمّداً ، ولا يرجع إلى قومهِ حتى يصيبَ محمّداً ، أو يهريق فيهم دماً ، أو تتخلَّصَ

= النّبيّ ﷺ من رعايةِ الله عزَّ وجلّ ، وعنايته ، وحفظه ، ولطفه ، وعلى ثقةِ النّبي ﷺ بخالقه عزّ وجلّ في هذا الأمر وفي جميع الأمور.

وماظنّك بالنّبيّ ﷺ ينامُ تحت شجرةِ سَمُرة ، ثمّ يستيقظُ فيجدُ غورثاً بيده السّيف وهو يهدّدُ؟! ويجيبهُ المحبوبُ ﷺ واثقاً بربه: «لا أخافُ منك ، اللهُ يمنعني منك» ليس لهذا تفسير إلا العنايةُ الرّبانيةُ لنصرة رسول الله ﷺ والذّود عن دعوته ، أليس الله عز وجل قد قال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] ، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

فهذا الحفظُ والصَّونُ من فضل الله وتكرمه ولطفه.

صاحبته ، وانطلقَ الرجلُ مُسرِعاً يتبعُ أثر النّبي ﷺ ، فنزلَ النّبي ﷺ منزلاً في شعبٍ من شعابِ الوادي ، فقال: «مَنْ رجلٌ يكلؤنا ليلتنا هذه»؟

فقام رجلُ من المهاجرين هو عمّارُ بنُ ياسر ، ورجلٌ من الأنصار هو عبّادُ بنُ بِشْر فقالا: نحنُ يا رسولَ اللهِ نكلؤك.

قال ﷺ: «فكُونا بِفَمِ الشِّعْب».

فلمّا خرجَ الرجلان إلى فم الشِّعْب قال الأنصاريُّ للمهاجري: أيَّ الليل تحبُّ أنْ أكفيكَه؛ أوَّله أمْ آخره؟

قال: بل أكفني أوّله.

فاضطجعَ المهاجري فنامَ ، وقامَ الأنصاريّ يصلّى ، وأقبلَ الرجلُ المشركُ يطلبُ غِرّةً ، فلمّا رأى شَخْص الأنصاريّ عرفَ أنّه ربيئة المسلمين ، فرمىٰ بِسَهْمٍ فوضعه فيه ، فنزعَه الأنصاريّ ووضعه ، وثَبَتَ قائماً يتابعُ صلاته ، ثم رماه بِسَهمٍ آخر فوضعه فيه ، فنزعه الأنصاريّ وثَبَتَ قائماً ، ثمَّ عاد له بالثّالث فوضَعَهُ فيه ، فنَزَعَهُ الأنصاري ، ولما غلبَ عليه الدم ركعَ وسجَدَ ، ثمّ أيقظَ صاحبه فقال له: اجلسْ فقد أُثْبِتُّ ، فوثَبَ المهاجريُّ قائماً ، فلمّا رآهما الرَّجُلُ عرفَ أنّهما قد نَذِرا به ، فولّى هارباً لايلوي على شيء.

ولما رأىٰ المهاجري ما بالأنصاري من الدّماء قال: سبحان اللهِ! أفلا أيقظتني أوّلَ ما رَمَاكَ؟

قال كنتُ في سورةٍ أقرؤها ، فَلَمْ أحبَّ انْ أقطعَها حتى أفرغ منها ، فلمّا تابعَ عليَّ الرّمي ركعتُ فأعلمتُكَ ، وايمُ اللهِ لولا أنّي خشيتُ أنْ أضيّع ثغراً أمرني رسولُ اللهِ ﷺ بحفظه لقطع نَفَسي قبل أنْ أقطعَ السُّورة»[1].

---

(١) انظر: المغازي (١/ ٣٩٧)، والسيرة النبوية مع شرح أبي ذر الخشني (٣/ ٢٩٠ ـ ٢٩٢)، ومسند الإمام أحمد (٥/ ١١٠) حديث رقم (١٤٧١٠) مع الجمع والتصرف. ومعنى «يكلؤنا»: يحفظنا ويحرسنا. و «غِرة»: غفلة ، و «ربيئة»: الطّليعة الذي يحرس القوم ، و «أُثبتُّ»: أُصبتُ وجُرحت جرحاً لا يمكن التحرك معه ، و«نَذِرا»: عَلِما به ، =

٣ ـ ويحدّثنا سيّدنا جابرٌ في هذه الغزوةِ أيضاً عن النّبيّ الكريمِ ﷺ ، وكيف أنَّه كان كريم العشرة ، لطيف الحديث ، بالغ العناية بأصحابه ، كثير التّواضع لهم ، يهتمُّ بالضّعيف منهم حتّى يساوي القوي ، ويسهِمُ في بعثِ الثّقة بأنفسهم حتى يكونوا ناجحين في حياتهم ومعيشتهم . . من أمثلة ذلك ما جرى لسيدنا جابر مع جَمَلِهِ الضَّعيف ، ترى ماقصّة هذا الجمل في هذهِ الغزوة الثّرية بالأخبار؟ .

* رُويَ عن سيّدنا جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنه قال: «خرجتُ مع رسولِ الله ﷺ إلى غزوةِ ذات الرقاع من نَخْل[1] ، على جَمَلٍ لي ضعيف ، فلمَّا قَفَلَ رسولُ الله ﷺ راجعاً ، جَعَلَتِ الرّفاق تمضي ، وجعلتُ أتخلَّفُ عنهم حتّى أدركني رسولُ الله ﷺ ، فقال لي: «مالك يا جابر»؟

قلت: يا رسولَ الله ، أبطأَ بي جَمَلي هذا عن رفاقي.

قال: «أَنِخْهُ».

= و «السورة»: هي سورة الكهف. انظر (المستفاد ٢/ ١٢٥٥).
وقد أفصحت قصّة عمار بن ياسر المهاجري ، وعبّاد بن بشر الأنصاري الحارسَيْن للثَّغر عن مدى امتثالِ الصّحابة لأمر النّبيّ القائد ﷺ ، فالمحبّ الصّادق في الله محبٌ لمن يطيع:

لو قال تيهاً قفْ على جمرِ الغَضَا ... لوقفتُ ممتثلاً ولم أتوقّف

وليس الجهادُ في الإسلام قوةً عسكريةً لتحقيق النَّصر كيفما كان ، كلا؛ إنَّه في الإسلام عبادة ، والقصد فيه مرضاة الله بِنَشْر دينه ، وتطبيق شرعه ، ولما تمثّل عبادُ بنُ بشْر هذه الحقيقة وهو حارسٌ على الثّغر ، قام يصلّي ويقرأ ويستغرقُ في عبوديته لله عز وجل ، فلم يشعر وهو ممتزجٌ في عبوديته بوقع السّهام في جسمه ، وراح ينتزعها بغير مبالاة ، إلى أنْ جُرح جراحات بالغة وكاد يقع على الأرض ، وهو يخشى أن يقطعَ صلاته التي كان متلذذاً بها بموقف الحراسة وهو بين يدي الله.
ألا ما أعظم هذه النفوس وهؤلاء الرجال!!.

(١) «نَخْل»: جمع نخلة: وهو الوادي الذي تقع فيه بلدة الحناكية شرق المدينة المنورة ، على مسافة مئةِ كَيْلٍ.
ولهذا الوادي ذكر في غزوة ذات الرقاع.

فأنختُه وأناخَ رسولُ الله ﷺ ، ثمَّ قال: «أعطني هذه العصا منْ يدك» أو قال: «أقطعْ لي عصاً من شجرة».

ففعلتُ ، فأخذها رسولُ اللهِ ﷺ ، ثم نَخَسَ بها جملي نخسات ، ثمّ قال: «اركبْ» ، فركبتُ ، فخرجَ الجملُ ـ والذي بعَثَه بالحقّ ـ يُسابقُ ناقته مسابقةً ما تفوته ناقته ، وجعلت أكفُّه عن رسولِ اللهِ ﷺ حياءً منه.

ثمَّ إنّي تحدَّثْتُ مع رسولِ الله ﷺ ونحن راجعون من ذات الرّقاع ، وكان يبتسمُ في وجهي ، فقال ﷺ لي وهو يباسطني مباسطةَ الأبِ الرَّحيم لوحيده: «أتبيعني جملك هذا يا جابر»؟

قلت: يا رسول الله ، بل أهَبُهُ لك.

فقال ﷺ: «لا ، ولكنْ بِعْنيهِ».

قلت: فَسُمْنيهِ يا رسولَ الله.

قال: «قد أخذته بدرهم».

قلتُ: لا ، إذا ، تَغْبِنُني يا رسولَ الله!

قال ﷺ: «فبدرهمين».

قلت: لا.

فلم يزلْ يرفعُ لي رسولُ الله ﷺ في ثمنه حتى بلغَ الأوقيّة.

فقلت: أَفَقَدْ رضيتَ يا رسولَ الله؟!

قال ﷺ: «نعم».

قلت: فهو لك.

قال: «قد أخذتُه».

* وفي رواية البخاري عن جابر أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «فقد أخذته بأربعةِ دنانير ، ولك ظهرهُ إلى المدينة».

* وما أجمل أنْ نركنَ إلى واحةِ الأدب نستروحُ قليلاً في أفيائها ، ونجدّد

النّشاط ونحنُ نقرأ هذا الحوار اللطيف بين سيدنا وحبيبنا رسولِ الله ﷺ وجابرِ بنِ عبد الله الأنصاري حول جمل جابر:

يـروي ابـنُ عبـدِ اللهِ جـابـرُ قصّـةً للمُسْلميـن
قد عُدتُ من ذاتِ الرّقاع مع الجميع العائدين
قد كنتُ خلْفَ الرّكب أَرَدَكَني رسولُ العالمين
المُصْطَفـى متسـائـلاً لِـمَ أنـتَ خَلْـفَ القـافليـن
فـأجبتُـه جَمَلـي ضعيـفٌ لا يُجـاري المُسـرعيـن
قـالَ النَّبـيُّ أنخْـهُ فـوراً نَـاخَ حتّـى أستبيـن
بعَصَـاهُ قـد نَخـسَ البعيـرَ فصَـار شبْـه السَّـابقيـن
فـركبتُـه وإذا بـه يعـدو كعـدوِ الشَّـارديـن
قد صار يمشي مُسْرعاً مع ناقةِ الهادي الأمين
طلـبَ الـرَّسـول شـراءه منّـي شـراءَ الـرَّاغبيـن
بـادرتُـه بـالقـولِ سُمْـهُ فـإنّنـي فـي البـائعيـن
ظـلَّ النَّبـيُّ يسـومُـه ويـزيـدُ مثـلَ المشتـريـن
فَـأَتَمَّـهُ أوقيّـةً فـرضيـتُ بـالبيـعِ الثَّميـن
قـد بعتُـهُ للمصطفـى وَقَـدِ اتّفَقْنـا مـرتضيـن
لـي ظهـرُهُ حتّـى نعـودَ إلـى المـدينـةِ وَاصِلِيـن

٤ـ لا يزالُ الحديثُ الجابريُّ الأنيقُ موصولاً مع الصادق المصدوقِ الحبيبِ المصطفى ﷺ الذي أحبَّ أنْ يتعرفَ أخبارَ الأسرةِ الجابريّة المُسْلمة بعد استشهادِ عائِلها عبدِ الله والدِ جابر في أُحد، فقد عضَّ الدهرُ جابراً بِنابِهِ، وأمسى هو المسؤولُ عن أسرتهِ وحده، وعن أخواته التّسع، وعن زوجته التي تزوَّجَها ثيّباً لتقومَ على أخواتهِ، وتلمَّ شعثهنَّ، ترى ما أحداث هذه القصّة المُثيرة؟!

* ذكرنا في السُّطور السَّابقة أنَّ جابراً سار بمعّية النّبيّ ﷺ وهو راجعٌ من غزوةِ ذات الرّقاع إلى المدينةِ المنورة، وقد اشترى منه جَمَله، وجرى حديثٌ بين النّبيّ ﷺ وبين جابر عن زواجه، ولنستمعْ إلى سيّدنا جابر وهو

يروي حديثه الشَّائق الممتع بأسلوبه الجميل الذي يحملُ بين طيّاته التّعليمَ والتَّربية والتَّوجيهَ.

* قال جابر: قال لي رسولُ الله ﷺ وهو يحدثني بعد أن اشترى جَمَلي: «يا جابر، هل تزوّجتَ..؟

قلت: نعم يا رسولَ الله.

قال ﷺ: «أثيّباً أمْ بِكْراً..؟

قلت: لا، بل ثيّباً.

قال: «أفلا جارية تلاعبُها وتلاعبُك»؟

قلت: يارسولَ الله! إنَّ أبي أُصيبَ يوم أحد ـ كما تعلم ـ وترك بنات له سبعاً ـ أو تسعاً ـ فتزوجتُ امرأةً جامعةً، تجمعُ رؤوسهنَّ، وتقومُ عليهنّ.

قال ﷺ: «أصبْتَ إنْ شاء الله، أَمَا إنَّا لو قد جئنا صِراراً[1] أمرنا بجزَورٍ فنُحرت، وأقمنا عليها يومَنَا ذاك، وسمعَتْ بنا فنفَضَتْ نَمارِقها»[2].

قلتُ: والله يارسولَ الله مالنا منْ نمارق.

قال ﷺ: «إنّها ستكون، فإذا قَدِمْتَ فاعملْ عملاً كَيِّساً».

فلمّا جئنا صِراراً، أمرَ رسولُ الله ﷺ بجزور فَنُحِرتْ، وأقمنا عليها ذلك اليوم، فلمّا أمسى رسول الله ﷺ، دَخلَ ودخَلْنا المدينةَ المنوَّرةَ.

فحدّثتُ المرأةَ وقلتُ لها: قد أمرني رسولُ الله ﷺ أنْ أعملَ عملاً كيّساً.

قالت: سمعاً وطاعة لأمرِ رسولِ الله ﷺ، فدونكَ فافعل ما أمرك..

فلمّا أصبحتُ أخذتُ برأسِ الجملِ، وأقبلتُ به حتّى أنختُهُ على بابِ رسولِ الله ﷺ، ثم جلستُ في المسجد قريباً منه.

---

(١) «صِرار»: موضع على ثلاثة أميال من المدينة المنورة على طريق العراق (معجم البلدان ٣/٣٩٨).

(٢) «نمارقها»: النمارق: جمع نُمرقة: وهي الوسادة الصغيرة وفي القرآن الكريم: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ [الغاشية: ١٥].

وخرج رسولُ اللهِ ﷺ ، فرأى الجملَ على بابهِ ، فقال: «ماهذا»؟

قالوا: يا رسولَ اللهِ ، هذا جَمَلٌ جاءَ به جابر.

قال: «فأين جابر»؟

فَدُعيتُ له ، فقال: «يابن أخي ، خُذْ برأسِ جملك ، فهو لك» ودعا بِلالاً ، فقال له: «اذهبْ بجابر ، فأعطِهِ أوقية».

فذهبت مع بلال ، فأعطاني أوقيه وقال: واللهِ لأعطينَّك ولأزيدنّك ، فزادني شيئاً يسيراً.

فواللهِ مازالَ ينمي عندي ، ويُرى مكانه من بيتنا ، حتّى أُصيبَ أمس فيما أصيبَ لنا ، يعني يوم الحرّة»[1].

* ومع هذه الهمسة الأدبيّة المعبّرة حولَ زواج جابر رضي الله عنه:

المُصْطفى ما زال يَسْألُ جابراً في اختصار
كانَ السُّؤالُ فهل تزوَّج جابرٌ أمْ بانتظار

---

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد (٧/ ١٧٨ و١٧٩) ، والمغازي (١/ ٣٩٩ ـ ٤٠١) ، والسّيرة النّبويّة مع شرح أبي ذرّ الخشني (٣/ ٢٨٩ و٢٩٠) مع الجمع والتّصرّف.
ومن الملاحظِ في هذه القصّة الطريفة أنَّ رسولَ الله ﷺ أحبّ أن يكرمَ الصَّحابي الفتى الشّاب المجاهد معه في غزوةِ ذات الرقاع ، لقرب عهده بالزّواج ، عندما يقتربُ من المدينة المنورة ، فيكون منها على بُعْدِ أميال ، فيأمر فتنحر الجزور ، ويقيم عليها يومه ، وتسمع زوجه العروس بمقدمه ، فتصلح من شأنها ، وتتعهد بيتَها ، وتنفضُ وسائدها ، تأهباً لِلِقَاءِ زوجها جابر المجاهد.
ولما عقّب جابر بأنه ليس في بيته وسائد، أخبره الصّادقُ المصدوقُ ﷺ مبشّراً بأنّه ستصلح حاله ، وسيغتني بفضل الله عزّ وجلّ ، وستكون له وسائد وغيرها من وسائل النّعيم.
أيّ لطف هذا ، وأية مواساة هذه ، وأية طمأنينة وطمأنة وإحسان صحبة في أوبة من غزوة بلا تكلّف ولا تهيؤ ولا استعداد سابق؛ أبرأ جَمَله وقوّاه له بلمسةٍ خارقة ، ومعجزة ظاهرة ، ثم وهبه إيّاه بعد أنْ نقده ثمنَه ، ثم احتفى به ، فأمر فنحرَ القوم الجزور لتسعَدَ زوجه لاستقباله ، ثم طمأنه عن النعيم منظور ، وغنى مذخور في جيب الأيام ، فكان ذلك كلّه.
(صور وعبر من الجهاد النّبويّ في المدينة ص ١٨٠) بتصرف.

فـأجـابَ جـابـرُ قـد تـزوَّجَ ثيِّبـاً لـلاعتبـار
قـال النَّبـيُّ لـه فـإنَّـكَ قـد أَصَبْـتَ الاختيـار

* وهكذا نجدُ رسولَ الله ﷺ سخياً كريماً مع جابر ، بل مع الصَّحابة أجمعين ، فقد أعطى جابراً جملاً وثمنَه ، ونحرَ له وأكرمَه وأكرمَ مَنْ معه من المجاهدين ، وهذه بعضُ شمائله ﷺ في هذا المضمار ، ويرحمُ الله ابن جابر الأندلسي حيث قال:

لقـد كـان فِعْـلُ الخيـرِ قـرّةَ عينـهِ فليـسَ لـه فيمـا سِـواهُ مَجـالُ
فلـو سـألـوا مِـنْ كفّـهِ رَدَّ سَـائـلٍ أجـابَهُـم هـذا السُّـؤالُ مُحـالُ
ولـو عـرفَ المُحتـاجَ قَبْـلَ سـؤالِـهِ كفَـاهُ وأغنـى أنْ يكـونَ سـؤالُ
يبـادرُ للحُسنـى ويبـذلُ زادَهُ ولـو بـاتَ مسُّ الجـوعِ منه يَنَالُ

* وقال ابنُ جابراً أيضاً في جودِهِ وسخائهِ ﷺ:

هـذا الـذي لا يخشـى فقـراً إذا يُعْطـى ولـو كثـر الأنـام وداموا
هـذا مِـنَ الأنعـام أعطـىٰ أمـلاً فتحيّـرتْ لِعَطـائِـهِ الأَفْهَـامُ

٥ ـ وهناك معجزاتٌ وكراماتٌ يرويها سيدنا جابر ، وجميعُها قد وقعت في غزوةِ ذات الرّقاع ، قال الصَّالحيُّ رحمه الله:

«وقد وقعَ في هذه الغزوة آياتٌ كثيرةٌ ، روى أكثرها جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه»[1].

* ومن هذه الآيات قصّة الصّبي الذي به جنون ، فعن جابر رضي الله عنه قال: «خرجْنَا مع رسولِ الله ﷺ في غزوةِ ذات الرقاع، حتى إذا أتى حَرَّةَ واقم[2]،

(١) سُبُل الهدى والرّشاد (٥/ ٢٦٩)؛ومنها أنّ النّبيّ ﷺ استغفر لجابر ليلة البعير خمساً وعشرين مرة.
(٢) «حرة واقم»: الحرّة: بفتح الحاء وتشديد الراء ، أرض ذات حجارة سود نخرة ، كأنّها أحرقت بالنار ، والجمع: الحرات والحِرار ، وحرّة واقم: هي حرة المدينة الشّرقية ، وفيها كانت وقعة الحرّة زمن يزيد بن معاوية. =

حضرت امرأة بدوية بابنٍ لها ، فقالت: يا رسولَ الله ، هذا ابني قد غَلَبني عليه الشَّيطان.

ففتح فاه ، فبزقَ فيه ، فقال: «اخسَأْ عدوّ الله ، أنا رسولُ اللهِ» ثلاثاً ، ثمّ قال: «شأنكِ بابنك لن يعودَ الله بشيء ممّا كان يصيبُه»[(١)].

* ومنها قصَّةُ البيضات الثَّلاث ، فعن جابر رضي الله عنه قال: «في غزوة ذات الرّقاع جاء عُلْبَةُ بن زيد الحارثيّ رضي الله عنه بثلاث بيضات أَداحيّ ، فقال: يا رسولَ اللهِ ، وجدتُ هذه البيضات في مفحص نَعام.

فقال رسولُ الله ﷺ: «دونك يا جابر ، فاعْمل هذه البيضات» فوثبتُ فعملتهنَّ ، ثم جئتُ بهنَّ في قصْعَةٍ ، وجعلتُ أطلبُ خبزاً فلا أجده ، فجعلَ رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز ، فرأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ قد أمسكَ بيده ، وأنا أظنُّ أنَّه قد انتهى إلى حاجته ، والبيض في القصعة كما هو ، ثم قامَ رسولُ الله ﷺ ، فأكلَ منه عامة أصحابه ، ثم رحنا مُبْرِدين»[(٢)].

* ومنها قصّةُ الطَّائر التي رواها جابر فقال: «إنّا لمع رسول الله ﷺ إذ جاء رجلٌ من أصحابه بفرخِ طائر ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه ، فأقبلَ أبواه ، أو أحدهما ، حتى طرحَ نَفسه في يدَي الذي أخذ فرخه ، فرأيتُ النَّاس يعجبون من ذلك ، فقال رسول الله ﷺ: «أتعجبون من هذا الطائر؟ أخذتم فرخه ، فطرح نفسه رحمةً بفرخه ، والله لربّكم أرحم بكم من هذا الطَّائر بفرخه»[(٣)].

ثالثاً: مع النَّبيّ ﷺ في غزوة الخندق:

* جاءتْ غزوةُ الخندقِ بعد غزوةِ أُحُدٍ ، وهي آخرُ معركةٍ هجوميّة في معاركِ أحلاسِ الشِّركِ ، وعبيدِ الوثنيّةِ ، وكان في هذه المعركةِ الحاسمةِ

---

(١) سبل الهدى والرشاد(٥/ ٢٧٠).

(٢) سبل الهدى والرّشاد (٥/ ٢٧٠) ، والمغازي (١/ ٣٩٩) مع الجمع والتصرّف اليسير.

(٣) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٧٤) ، وأورد الصالحي كثيراً من أخبار جابر في هذه الغزوة المباركة.

أعظم هزيمةٍ للمشركين ، ومن ورائهم وحولهم اليهود الخُبثاء الذين أحرقَ الحسَدُ أكبادهم ، وأعمى الحقدُ الأسودُ قلوبَهم ، وسدّ طرقهم ونفوسهم .

* وتسمّى هذه الغزوة في مؤلّفاتِ المغازي والسِّير «غزوة الخنْدق» تسميةً لها بوسيلةِ الحربِ التي ابتكرها المسلمون يومذاك برأي صَدرَ عن سيّدنا سلمان الفارسيّ رضي الله عنه .

* ومن بركات هذه الغزوة أنَّ القرآنَ الكريمَ قد حفلَ بها ، وسمّى سورةً كبيرةً باسمِ «الأَحْزَاب» ولَعَلَّ هذه التّسمية التي جاءتْ في القرآنِ الكريمِ تعبِّرُ تعبيراً صادقاً عن الصُّورة التي وضع المشركون واليهودُ هذه الغزوة في إطارها للأحداثِ التي جمعَتْ حشودَ الشِّركِ ، وأقامت عناصرها على التّكالُب المسعور ، لمهاجمةِ النّبي ﷺ وأصحابهِ في المدينة المنوّرة مستقرّ الدّعوة ، وموئل الهداية ، ومنار الإسلام والسَّلام والمودَّة والخير .

* كانت هذه الغزوةُ مليئةً بالأحداث والوقائعِ التي قابلَها رسولُ الله ﷺ بأعظمِ الصَّبرِ وقوةِ الاحتمالِ ، فكان لأصحابهِ المجاهدين تحت لوائه أجلَّ قدوة ، وأعظمَ أسوةٍ في العزائم الصَّادقة ، والاستسلامِ للعزيزِ الحكيمِ .

* كانت هذه الغزوةُ في شوّال من السَّنَة الخامسة من الهجرةِ ، وقد جزم بذلك شيخُ الكاتبين في السِّيرةِ محمّد بن إسحاق ، ورجّحَ ابن قيّم الجوزيّةِ قولَ ابنِ اسحاقَ ، وكذلك الذّهبيُّ ، واعتمده ابنُ حجر ، بينما ذهبَ بعضُ أعلامِ الأئمة أنَّ غزوةَ الأحزاب كانت في السَّنةِ الرَّابعة[١] .

* وكان سيّدنا جابرُ بن عبد الله الأنصاريّ من أبرزِ علماء الأنصارِ وشبابهم الذين شاركوا بأنفسهم وأموالهم في هذه الغزوةِ العظيمةِ .

* وقد بدأ النَّبيُّ الكريمُ ﷺ العملَ في حفْرِ الخندق بجدٍ ودأبٍ ليكمله قبل وصول جموعِ الأحزاب إليه ، فقسم العملَ على المجاهدين من المهاجرين والأنصارَ ، وكانوا يتنافسون في العملِ أجمعين ، وشمَّر الحبيبُ

---

(١) انظر هذه الآراء في سبل الهدى والرشاد (٤/ ٥٦١ و٥٦٢) إذ توجد فوائد قيمة جداً.

الأعظمُ ﷺ عن جهدِهِ في العملِ مع أصحابه ليتأسَّوا به ، وينشطُوا وهم راغبون في ثواب الله عزَّ وجلَّ ، وجزيل إحسانه وعظيم فضله.

* كان الصَّحابةُ أجمعون يمكثون وقتاً طويلاً بلا طعَام ، وذكروا أنهم لبثُوا ثلاثةَ أيّام لا يذوقُون طعَاماً ، أو يأكلُون شيئاً ، بل لم يقدروا على ذلك أيام حفْرِ الخندقِ.

* وإذا جاءهم اللهُ عزَّ وجلَّ بطعامٍ ، أو رزقَهم رزقاً يتزوَّدون به ، جعلَه النَّبيُّ ﷺ شركةً بين جميعِ المجاهدين من أصحابه يتواسون فيه ، فقد كان ﷺ يهتمُّ بأصحابه ، ولا حدَّ لهذا الاهتمام بأمرهم وامتزاجِهِ بهم إحساساً وشعوراً؛ وما كان له ﷺ وهو الرَّؤوفُ الرحيمُ بالمؤمنين أنْ يستأثرَ بطعامٍ عن دونهم ، فلقد حدَثَ في هذه الغزوةِ المباركة أنْ أكرمَ اللهُ عزَّ وجلَّ نبيَّه ﷺ مرتَيْن ، وأطعمَ أصحابَه من جوعٍ حتّى شبعوا.

أولاهما: قصَّةُ أختِ النُّعمانِ بنِ بُشَيرٍ رضي الله عنهم أجمعين ، فقد أوفدتها أمُّها عمرةُ بنتُ رواحةَ بتمرٍ إلى أبيها وخالِها ، فكانت البركةُ في حفنةِ التّمر هذه وأكل المجاهدين جميعهم ، وهذه القصّة ترويها صاحبةُ العلاقة نفسُها.

* روى محمّد بن إسحاق عن سعيد بن مينا: أنَّ بنتاً لِبُشَيرٍ أخت النُّعمان بن بُشَير قالت: «دعتني أمّي عمرةُ بنتُ رواحةَ فأعطتني حفنةً من تمرٍ في ثوبي ، وقالت: اذهبي بهذا إلى أبيكِ وخالكِ عبدِ الله بن رواحةَ لغدائهما ، قالت: فمررتُ برسولِ اللهِ ﷺ وأنا ألتمسُ أبي وخالي ، فقال: «ما هذا معك»؟

قلت: هذا تمرٌ بعثَتْني به أمي إلى أبي وخالي يَتَغَدَّيانه.

قال: «هاتيه».

قالت: فَصَبَبْتُه في كفَيّ رسولِ اللهِ ﷺ فما ملأهما ، ثمّ أمر بثوبٍ فَبُسِط ، ثمَّ دحا بالتَّمرِ عليه ، فتبدَّدَ فوقَ الثَّوب؛ ثم قال لإنسانٍ عنده: «اصرخْ في أهلِ الخندق: أنَّ هَلُمّ إلى الغداء».

فاجتمعَ أهلُ الخندقِ فجعلوا يأكلون ، وجعل يزدادُ حتّى صدر أهلُ الخندق ، وإنَّه ليسقطُ من أطرافِ الثَّوب ، وهم ثلاثة آلاف»[1].

* وفيما يأتي نقرأ قصَّة هذه الفتاة الصَّغيرة المؤمنة ضمن هذه التَّغريدة العذبة ، وهي من بعض الآياتِ لرسولِ الله ﷺ أمامَ المسلمين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم :

ظَهَرَتْ من الآياتِ يومَ الحفْرِ تُرضي المؤمنين
فَبُنَيَّةٌ صُغْرىٰ تجيءُ ببعضِ تَمْرِ الآكلين
أَخذَ الرَّسولُ التَّمرَ في كَفَّيْهِ حتّى يَسْتَبِين
أمرَ الرَّسُولُ مَنَادياً نادىٰ جميعَ المُسْلِمين
قَدْ قالَ هيَّا للغَداءِ أَتَوا جميعاً مُسْرعين
الكُلُّ قد شبعُوا وفاضَ التَّمرُ يُغْري الطَّامعين
هي آيةٌ كُبرىٰ أمامَ الكُلِّ كانوا ناظرين

* ونستجلي قصَّة هذه الفتاة بنت بُشَيرِ بنِ سعد عند الشَّاعر أحمد محرّم :

كانتْ فتاتُكَ يابنَ سَعْدٍ إذْ أتَتْ ... غوثاً وخيراً للغُزاةِ عميما
جاءتْ بِبَعْضِ التّمر تطعمُ والداً ... برّاً وخالاً في الرّجالِ كريما
ألقىٰ عليهِ اللهُ مِنْ بركاتِهِ ... فكفىٰ برحمتهِ وكان رحيما
أخذَ النَّبيُّ قليلَه فَدَعَا الطّوى ... داعي الرّحيلِ وما يزالُ مقيما
جَمعَ الجنودَ وقال هذا رزقُكُم ... فكَلُوا هنيئاً واشكروه نعيما
فرحوا بنعمةِ ربّهم وتبدّلو ... حالاً تزيدُ الكافرين وجوما

الثَّانيةُ : قصّةُ تكثير طعَام جابرٍ في غزوة الخندقِ الذي يدخلُ في سنَنِ اللهِ الخاصّة ، ولا ينكرها العقلُ السَّليمُ ، وهو من دلائل نبوةِ الهادي البشير رسولِ اللهِ ﷺ ، إذْ رآه جابر يومَ الخندق عاصباً بطنَهُ بحجرٍ من الجوعِ ، وكان مع أصحابه قد لبثوا ثلاثةَ أيّام لا يذوقُون ذُواقا .

---

(١) أسد الغابة (٦/ ٤١٤) ترجمة أخت النعمان بن بشير رقم (٧٦٣٣) ، وانظر : سبل الهدى والرشاد (٥/ ٥٢١ و٥٢٢).

* وسنستمعُ ونستمتع بحديثِ جابرٍ الذي جاء في الصَّحيح وغيره عنه حيثُ يقول ما مفاده: «استأذنتُ يومَ الخندقِ رسولَ الله ﷺ إلى المَنزلِ، فأَذِن لي؛ فذهبتُ فقلتُ لامرأتي: إنّي رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ خَمِصاً شديداً، ماكان في ذلك من صَبْر، فَعِنْدَكِ شيءٌ؟

قالت: عندي صاعٌ من شعيرٍ وعَنَاق ـ سَخْلة ـ فأخرجتْ إناءً فيه صَاعٌ من شعيرٍ، وذبحت العناقَ، وطحنت الشَّعيرَ، وجعلنا اللحمَ في البرمةِ ـ القِدْر ـ، ثمّ جئتُ النَّبيَّ ﷺ والعجينُ قد انكسرَ، والبرمةُ بين الأثافي قد كادت أنْ تنضجَ، وأرادَ النَّبيُّ ﷺ الانصرافَ ـ وكُنَّا نعملُ نَهاراً، فإذا أمسينا رجْعنَا إلى أهلنا، وكانت زوجتي قد قالت لي: لا تفضحني برسولِ اللهِ ﷺ ومَنْ معه ـ.

فقلت: يا رسولَ اللهِ، طُعَيِّمٌ لي، فقم أنتَ ورجلٌ أو رجلان.

فشَبَك ﷺ أصابعَه الشَّريفةَ في أصابعي وقال: «كم هو»؟

فذكرتُ له ما عندنا، فقال: «كثيرٌ طيّبٌ، قُلْ لها: لا تُنزلنّ البرمةَ، ولا تخبزنَّ عجينكم حتّى آتي».

وصاحَ النَّبيُّ ﷺ: «يا أهلَ الخندقِ إنَّ جابراً قد صنعَ لكم سُوراً ـ طعاماًـ فحيَّ هَلَا بِكُم».

وصار رسولُ اللهِ ﷺ يقدّم النَّاسَ من أهلِ الخندقِ من المهاجرين والأنصار، ولقيتُ من الحياءِ مالا يعلمهُ إلاّ الله تبارك وتعالى، وقلتُ، جاءَ الخَلْقُ، واللهِ إنّها لَلْفَضيحةُ على صاعٍ من شعير وعَنَاق.

ودخلتُ على امرأتي وقلتُ لها: ويحك!! جاء النّبيّ ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم.

فقالت: بِكَ وبكَ، هل سألَكَ.

قلتُ: نعم.

قالت: أأنتَ دعوتهم أو هَو؟

قلتُ: بل هو دعَاهم.

قالت: دعهم، اللهُ ورسولُه أعلمُ، نحنُ قد أخبرناهُ بما عندنا فكَشفَتْ عنّي، فدخلَ رسولُ اللهِ ﷺ وقال: «ادخلوا عشرةً عشرةً، ولا تضاغَطُوا» فجعل يكسرُ الخبزَ، ويجعلُ عليه اللحمَ، ويغطّي البرمةَ والتَّنُّور إذا أخذ منه، ثمّ يقربُ إلى أصحابه ويقول لهم: «كلُوا» فإذا شبعَ قومٌ انصرفوا، ثم دعا غيرهم حتّى أكلوا وشبعوا وهم ألف، وبقيت بقيةٌ، فقال: «كلُوا هذا واهْدُوا، فإنَّ النَّاسَ أصابَتْهم مجاعةٌ شديدةٌ» فلمْ نزلْ نأكلُ ونهدي يومنا ذلك أجمع، فأقسمُ باللهِ لقد أكلُوا حتّى تركوه وانحرفوا، وإنَّ برمتنا لَتَغِطُّ كما هي، وإنَّ عجينَنَا ليخبزُ كما هو»(١).

---

(١) انظر: صحيح مسلم برقم (٢٠٣٩)، وسُبُل الهُدىٰ والرَّشاد (٤/ ٥٢٠ و٥٢١)، والمغازي (٢/ ٤٥٢) مع الجمع فيما بينها والتّصرّف اليسير.
ومعنى «بك وبك»: أي: ذمّته ودعَتْ عليه. وقيل: معناه بك تلحق الفضيحة، وبك يتعلّق الذم، وقيل: معناه جرى هذا برأيك وسوء نظرك وتسببك و «نحن قد أخبرناه»: معناه: هو أعلم بالمصلحة بعد أن أخبرناه.
و «تركوه وانحرفوا»: أي: شبعوا وانصرفوا، و«تَغِطُّ»: بكسر الغين: أي: تغلي ويسمع غليانها.
وقد تضمّن هذا الحديث الشريف علمَين من أعلام النبّوة:
أحدهما: تكثير الطعام القليل.
الثاني: علْمُهُ ﷺ بأنَّ هذا الطعامَ القليلَ الذي يكفي في العادةِ خمسة أنفسٍ أو نحوهم، سيكثرُ، فيكفي ألفاً وزيادة، فدعا ألفاً قبل أن يصلَ إليه، وقد عَلِمَ ﷺ أنّه صاعُ شعيرٍ وبهيمة والله أعلم (المنهاج ص ١٥٤٤) بتصرف.
قال أستاذنا وحبيبنا الدكتور محمّد فوزي فيض الله حفظه الله ورعاه وبارك في حياته وعمله، معلقاً على هذا الحديث بما مفاده: «أرأيتَ كيف اكتشفَ جابرُ جوعَ النّبي ﷺ فلم يطقْ لذلك المنظرِ صبراً، فَهُرِعَ إلى أهلهِ، فلم يجدْ إلاّ مايكفي بضعة أشخاص، فقصَرَ الدّعوة عليهم.
وما كان للنبي ﷺ أن يستأثرَ بالطَّعام من دون الصَّحابة، والطَّعام في ظاهره لا يكفيهم جميعاً، لكنَّ قدرة اللهِ على تكثير القليل، ومباركة اليسير فوق الظَّواهر الطبيعية، وقد التمسها النَّبيُّ ﷺ في هذا المقام فأطعم أهلَ الخندق وكانوا ألفاً أو ثلاثة آلاف.
إنّها عنايةُ الله تعالى برسوله ومَنْ معه، جاءت في موضعها المناسب، إذ كانوا يعملون =

* إنَّ حبيبنا الأعظمَ سيدنا رسول اللهِ ﷺ يعلِّمُ أمّته أرفعَ درجاتِ المواساة في أشدِّ مواطنِ البأساءِ ويشاركُ مجتمعُه شدائده.

* فهو ﷺ القائدُ القدوةُ لمجتمعهِ ، يجوعُ معه ، ويشبعُ معه ، ويألْمُ لألمهِ ، ويُسَرُّ لسروره وفرحه.

* فهو ﷺ يشتدُّ به الجوعُ حتّى تلتصقَ بطنُهُ بظهرهِ ، ويخشى أنْ يعجزَهُ ذلك عن العملِ ، كما يعملُ أصحابه ، فيشدُّ على بطنه الحجرَ ليقيمَ به صلبه ، ويرى ماعليه أصحابه من شدّةِ الجوعِ وقسوةِ البَرْدِ ، وهم يعملون في حفْرِ الخندقِ ، فيشاركهم في هذه المشقّةَ ، فينسون ما بهم من آلام ، ويصحبُهم ﷺ إلى دعوةِ جابرِ بنِ عبد الله على طعامهِ القليل ، فيباركُ اللهُ في الطّعام ، وينزلُ السّكينةَ على قلوبِ المؤمنين ، ويقهرُ المشركين وجموعَ الكفْرِ والأحزاب ، ويأتي بالنَّصرِ ، وتنهزم الأحزاب:

مضَتِ السُّيوفُ وولّتِ الأربابُ ... فإلىٰ الهزيمةِ أيُّها الأحزابُ
لا الّلاتُ نافِعَةٌ ولا أخواتُها ... كُلٌّ بلاءٌ واقعٌ وعذابُ

* والآن ونحنُ في نهاية الفقْرة ، ما أجمل أنْ نقرأ ما صاغته قريحة «أحمد محرم» في ديوانه «مجد الإسلام» وهو يرسمُ بالكلماتِ قصَّة سيّدنا جابر وطعامه يومَ الخندقِ ، في هذه الميميةِ «الأحمد مُحَرّميّة» وهذه النَّفَحات:

هذا الذي صنَعَ الشُّويهة قادمٌ ... أحبِبْ بذلكَ مَشْهداً وقُدُوما
حيَّا النَّبيَّ وقالَ جئتُكَ داعياً ... ولقد أراني في الرِّجالِ عديما
ما لي رعاكَ اللهُ غير شُويهةٍ ... لو زادَها ربي بذلت جسيما
أعددتُها لكَ يا محمّدُ مطعماً ... يشفيكَ من سَغَبٍ أراهُ أليما
يكفيكَ من أَلَمِ الطّوى وعذابِهِ ... حَجَرٌ يظلُّ على الحشا محزوما
سَارَ الرَّسولُ بجندِهِ ومشَى الذي ... صَنَعَ الشُّويهة حائراً مهموماً

= في سبيل الله ، فأكرمهم بقدرته إكراماً ، ومسّهم برحمته ، وكانوا بها جديرين» (صور وعبر من ٢٣٥) باختصار يسير.

يا ربّ صاعٌ واحدٌ وشويهةٌ   دَبِّرْ وَدَاوِ فقد دعوتُ حكيما
وُضِعَ الطَّعامُ فظلَّ يشرقُ وجهُهُ   بِشراً وكان من الحَياءِ كظيما
وَضَعَ النَّبيُّ يديه فيه فزادَهُ   ربٌّ يزيدُ رسوله تكريما
كَرَمٌ صَميمٌ راحَ يُورِثُ جابراً   شَرَفاً يفوتُ الوارثين صميما[1]

* إنَّ الأدبَ يجلو النُّفوسَ ويصقلُ الطِّباعَ ، ولا مانع من قراءةِ هذه التّغريدة الجميلة أيضاً التي تصوّرُ معجزةَ تكثيرِ الطَّعام وآيته وبركته في بيت سيّدنا جابر رضي الله عنه ، يقولُ ناظِمُهَا:

يروي ابنُ عبدِ اللهِ جابرُ حاكياً للسَّامعين
عن آيةٍ كُبرىٰ مِنَ الآياتِ للهَادي الأمين
ويقولُ كانتْ تلكَ في بيتي أمامَ النَّاظرين
في يومِ حَفرِ الخنْدَقِ المَشْهُورِ كُنَّا مُتْعَبين
فَلَقَدْ ذبحتُ شُويهةً لغَداءِ خيْر المُرسَلين
فذهبتُ أخبرتُ الرَّسولَ بما صَنَعْتُ لِيَسْتَبين
ودعوتُهُ ليجيءَ منفرِداً بغيرِ مُرافقين
فَطَعامُنا جدٌّ قليلٌ ليس يكْفِي الأكثرين
أمرَ النَّبيُّ من فوراً فنَادَى المُسْلمين
هيّا فجابرَ قَدْ أعدَّ لَنَا طعَاماً أجمعين
المسلمون جميعُهم جاؤوا لِبيتِي مُسْرعين
سمّى الرَّسولُ على الطَّعامِ بِاسِمِ ربّ العالمين
أكلَ الرِّجال جميعُهم كانوا كثيراً جائعين
فحمدْتُ ربّي كنْتُ في حرجٍ شَديدٍ عن يقين[2]

(١) مجد الإسلام (ص ٢١٢ و٢١٣).
(٢) انظر: تغريدة السّيرة النبوية (٣/ ١٤٨) بتصرف يسير جداً.
ومعنى «شُويهة»: تصغير شاة ، و «ليستبين»: ليكون لديه علمُ ، و «بغير مرافقين»: لا يجيء معه أحد ، و «حرج شديد»: أخشى ألا يكفيهم الطعام.

رابعاً: جابر في الحديبيةِ وبيعةِ الرّضوان:

* في السَّنةِ السَّادسةِ من الهجرةِ النَّبويّةِ المباركةِ، فُرِضَ الحجُّ والعمرةُ، ورأىٰ رسولُ اللهِ ﷺ في منامه ذات ليلة أنّه دخلَ المسجدَ الحرامَ في أصحابهِ، آمنين مُحلِّقين رؤوسَهم ومقصّرين، لا يخافون عدوّاً يصدهم ولا مانعاً يمنعُهم، فاستبشروا وفرحُوا، واستيقنوها حقيقةً واقعةً لاشكَّ فيها، فإنَّ رؤيا الأنبياء حقٌّ، وإلهامٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ بما سيكونُ من قابلِ أمرهم، وكان رسولُ اللهِ ﷺ والمسلمون في أشدِّ الشَّوقِ إلى زيارةِ البيتِ الحرام، فحركتْ هذه الرّؤيا المباركةُ كوامنَ الشَّوق والحنين في نفوسِهم، وعزمَ ﷺ أنْ يزورَ البيتَ الحرامَ في عامهِ هذا.

* وكانتِ الفرصةُ مواتيةً، والظّروفُ مهيأةً لزيارةِ البيتِ الحرام، فقد خَلا جوُّ المدينةِ من اليهودِ ومكائدهم، وغدتْ كلمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ تمتلكُ القلوبَ، وتحتوي النّفوسَ بما يتنزّلُ من القرآنِ والذّكْرِ الحكيم، وبما بدا للنَّاس من دَفْعِ الله عزَّ وجلَّ عن الدِّين وتأييده له.

* وخرج رسولُ اللهِ ﷺ في ذي القعدة معتمراً، لايريدُ حرباً، واستنفرَ العرب ومَنْ حولَه من أهلِ البوادي ليخرجوا معه، وهو يخشىٰ من قريش أنْ يعرضوا له بحربٍ أو يصدُّوهُ عن البيت الحرام.

* وركبَ النَّبيُّ ﷺ ناقتَه القصواء، وسار نحو المدينةِ المنوّرةِ ومعه من المسلمين نحو ألف وخمس مئة، معهم سيوفهم في أغمادها فقط، وظلَّ الموكبُ النّبويّ سائراً حتى وصل الحديبيةَ، وأقامَ ﷺ مع أصحابه فيها أيّاماً حتى شرِبَوا ماء بئرها، وهنالك كانت مكرمةٌ ربانيّةٌ لِنَبيّه ﷺ، إذا أكرَمهُ اللهُ بالماءِ بعد أنْ عطشَ أصحابه وهم حول بئر الحُديبية ولم يجدوا قطرةَ ماء يشربونها.

* وكان جابرُ بنُ عبد الله حاضراً وشهدَ ما شهدَ من الإنعام الرَّبَّاني، ونقل ذلك للأمّةِ فقال: «عطشَ النَّاسُ يومَ الحديبية، ورسولُ اللهِ ﷺ بين يديه ركوة، فتوضَّأَ منها، ثمّ أقبلَ النَّاسُ نحوه، فقال رسولُ الله ﷺ: «مالَكم»؟

قالوا: يا رسولَ اللهِ ، ليس عندنا ماءٌ نتوضّأُ به ، ولا نشربُ إلاّ مافي ركْوتك.

فوضعَ النَّبيُّ ﷺ يده في الرّكوة ، فجعلَ الماءُ يفورُ من بين أصابعه كأمثالِ العُيون.

فقلتُ لجابر: كم كنتم يومئذٍ؟

قال: لو كُنّا مئة ألفٍ لكفَانا ، كنّا خمس عشرة مئة»[1].

* ولما ركبتْ قريشٌ رأسَها ، واحتجزتْ عثمانَ بنَ عفّان رضي الله عنه ، دعا النَّبيُّ ﷺ أصحابَه إلى البيعةِ ، فأقبلَ عليه المؤمنون واحداً واحداً يشدُّون يدَهُ يبايعونه على الموتِ ، وكان ﷺ جالساً تحت شجرةٍ في الحُديبية وبارك الله عزَّ وجلَّ هذه البيعةَ الرّضوانيةَ الصَّادقةَ ، وأنزلَ من لدنه قُرآناً غير ذي عوجٍ يبشّرهم بالفَتْحِ القريب ، والمغانمِ الكثيرة ، وكفَّ أيدي الكفّار عنهم ، يقولُ رّبنا جَلَّ وعزَّ: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨ ـ ١٩].

* وبالإضافةِ إلى إكرامِ اللهِ عزَّ وجلَّ للمؤمنين في هذه البيعةِ الميمونةِ ، نجدُ الحليةَ النَّبويّةَ تطوّقُ أعناقَ المؤمنين المبايعين ، وتشيرُ إلى فضلِهم ، ويكشفُ لنا سيّدنا جابر عن هذه الحِلْية فيقول: قال لنا رسولُ الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خيرُ أهلِ الأرض..»[2] وكذلك هم من أهل الجنَّة أيضاً قال جابرُ بنُ عبد الله أيضاً: «أخبرتني أمّ مُبَشِّر: أنّها سمعَتِ النَّبيَّ ﷺ يقول عند حفصةَ: «لا يدخلُ النَّارَ إنْ شاءَ اللهُ من أصحاب الشَّجرة أحدٌ الذين بايعوا تحتها..»[3].

(١) الحديث أخرجه البخاري برقم (٤١٥٢).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٤١٥٤).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٤٩٦).

خامساً: جابرُ في غزوة الفَتْح الأعظمِ:

* لم تكنْ غزوةُ مكّةَ المكرمةِ غزوةَ قتالٍ كما كانت غزاةُ بدرٍ وأُحدٍ، ولكنّها كانت غزوة مسالمة ووفاء بالعهودِ والمواثيق، وتأديباً للعدو، وإلغاءً للوثنية.

* وكان الجيشُ الذي سار لفَتْحِ مكَّةَ لتأديبِ العُصاة يقدّر بعشرة آلاف مقاتل تحت قيادة رسول الله ﷺ، وكان سيّدنا جابرُ بنُ عبد الله الأنصاريُّ رضي الله عنه من فرسانِ هذا الجيشِ الغازي؛ وكان صلحُ الحديبية ومعه بيعة الرّضوان أوّل مَفاتيح هذا الغزو، ثمّ تبعَ ذلك عمرة القضاء فكانت هي المفتاح الثَّاني، ثم نقضَتْ قريشٌ عَهْدَ الحديبيّة فحقَّ الفتحُ؛ فتح أغلاقِ البلدِ الحرامِ، ليكونَ مثابةً للنَّاس وأَمْناً، ومن ثمّ ينشرُ فيه رسولُ اللهِ ﷺ دينَ الحقِّ، ليخرجَ النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور.

* ودخل الجيشُ المسلمُ مكَّةَ دون مقاومةٍ، وتمّ فتحُ البلدِ الأمين بلا كبيرِ قتال، ودخلَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ مكَّة على ناقتهِ خاشِعاً حامِداً شاكراً متواضعاً تالياً لسورتَي الفَتْحِ والنَّصْرِ يرجّعُ صوتَه بالقراءةِ وهو يقولُ: «هذا ما وعدني ربّي»[1].

* وكان سيدنا جابرٌ ممّن حظيَ بالمعيّةِ المحمّديّةِ يومَ الفتح، وأخذَ ﷺ يدلُّه على منزلهِ قبل محالفة قريش وكنانة على بني هاشم بألَّا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتّى يسلموا إليهم رسولَ اللهِ ﷺ.

* روى سيّدنا جابرٌ رضي الله عنه هذه الإشراقات السَّنية عن يومِ الفتح فقال: «كنتُ ممّن لزمَ رسولَ اللهِ ﷺ، فدخلتُ معه يومَ الفتح من أذاخر، فلمّا أشرف علىٰ أذاخر، ورأىٰ بيوتَ مكّة، وقفَ عليهما، فحمدَ اللهَ، وأثنى عليه، ونظرَ إلى موضعِ قبّتِهِ، فقال: «هذا منزلُنا يا جابرُ، حيثُ تقاسمت ـ تحالفت ـ علينا قريشُ في كُفرِها» قال جابر: فذكرتُ حديثاً كنتُ

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٥/٣٤٨) بتصرف.

أسمعهُ منه ﷺ قبل ذلك بالمدينة: «منزلنا غداً إنْ شاء اللهُ، إذا فتح الله علينا مكّة في الخَيْفِ حيثُ تقاسموا على الكُفْر».

وكُنّا بالأبطحِ وُجَاهَ شِعْب أبي طالب حيثُ حُصِرَ رسولُ الله ﷺ وبنو هاشم ثلاثَ سنين»(١).

سادساً: جابرٌ يشهدُ يومَ حُنَين:

* قال أئمةُ المغازي: «لما فتحَ رسولُ اللهِ ﷺ مكَّةَ المكرمة، مشَتْ أشرافُ هوازن؛ وثقيف بعضها إلى بعض، وأشفقُوا أنْ يغزوهم رسولُ اللهِ ﷺ وقالوا: قد فرغَ لنا، فلا نَاهِيَة له دوننا، والرّأي أنْ نغزوَهُ، فحشدوا وبغوا وقالوا: واللهِ إنَّ محمداً لاقىٰ قوماً لا يحسنون القتال، فأجْمِعُوا أمركم، فسيروا في الناس وسيروا إليه قبل أنْ يسيرَ إليكم..»(٢).

* وسمعَ رسولُ اللهِ ﷺ بما أعدَّت له هوازن وثقيف، فبعثَ عبدَ اللهِ بن أبي حَدْرَد رضي الله عنه، وأمره أَنْ يدخلَ في القوم، ويستطلعَ حقيقةَ أمرِهم وقال له: «اعلمْ لنا علمَهم»، فأتاهم فدخلَ فيهم فأقامَ يومَيْن حتى سمعَ

---

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد (٥/٣٤٨)، والمغازي (٢/٨٢٨) مع الجمع والتصرف اليسير.
و«أذاخر»: وَرَدَ في السِّيرة النّبوية وكتب الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ، دخل مكّةَ المكرمة عام الفتح من ثنيةِ أذاخر، وهو مكانٌ في مكّةَ اختلفوا في تحديده.
و«خَيْف»: الخَيْف: ما انحدرَ من غِلَظِ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، والمقصود بالخيف هاهنا: هو بطحاء مكّة وقيل: مبتدأ الأبطح، وهو الحقيقة فيه، والخيفُ اسم يقعُ مضافاً إلى مواضعَ كثيرةٍ، وأشهرُ الأخياف: خَيْف مِنى: ومسجده مسجد الخيف، قالوا: وهو خيف بني كنانة، وخيف نوح: على طريق بدر، من المدينةِ المنورة،
و«شعب أبي طالب»: هو الذي حَصَرت قريش فيه بني هاشم عند بدءِ الدَّعوةِ الإسلامية بمكَّةَ المكرمةِ، ويسمّى شِعْب بني هاشم، وشعب عليّ، وبه ولد رسول الله ﷺ، وكذلك مولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
ويسمى أيضاً: شعب أبي يوسف؛ ويسمّى اليوم شِعْب علي.
(٢) سبل الهدى والرشاد (٥/٤٥٩).

وعلم ما قد أجمعُوا عليه من حربِ النَّبيّ ﷺ ، ثم أقبلَ وجاء إلى النّبيّ ﷺ وأخبره الخبر[١].

* وخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى لقاء هوازن وجموعها ، وكان معه في هذا الجيشِ الكبيرِ؛ الإمامُ الكبيرُ جابرُ بنُ عبد الله الأنصاريّ الذي ذكرَ لنَا حُكْماً جليلاً من الأحكامِ النّبويّة ، ألا وهو استعارةُ رسولِ الله ﷺ أَدْرعاً من صفوانَ بنِ أميّة وكان صفوانُ يومها لا يزالُ مَشْركاً ، وفي هذا جواز استعانةِ المسلمين بأسلحةِ الكفَّار لقتال أعداء الله.

* قال سيّدنا جابرٌ رضي الله عنه: «لما أجمعَ رسولُ اللهِ ﷺ السَّيْرَ إلى هوازن ذُكِرَ له أنَّ عند صفوان بن أميّة أدْرُعاً وسلاحاً ، فأرسلَ إليهِ وهو يومئذ مشركٌ فقال: «يا أبا أميّة أعرنا سلاحَكَ هذا نلقى فيه عدوّنا».

فقال صفوان: أَغَصْباً يا محمّد؟

قال ﷺ: «لا بل عارية مضمونة حتّى نردَّها إليك».

قال: ليس بهذا بأس.

فأعطى مئة درع بما يكفيها من السِّلاح ، فسأَله رسولُ الله ﷺ أَنْ يكفيهم حَمْلَها ، فحملَها إلى أوطاس ولما هزمَ اللهُ المشركين ردَّها النَّبيُّ ﷺ ، وقد ضاع بعضها، فعرضَ عليه أنْ يضمنها له، فقال صفوانُ: أنا اليوم يا رسولَ اللهِ في الإسلام أرغب»[٢].

* وينقل لنا سيّدنا جابر رضي الله عنه حدثاً مهمّاً من معركةِ هوازن ، وكيفية الوقعة ، وماكان في أول الأمر من فرار المسلمين ، ثمّ كيف كانتِ

---

(١) المصدر السابق (٥/ ٤٦٣) بتصرف.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٢٤) ، وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٤٦٢ و٤٦٣) مع الجمع والتصرف ؛ و «أوطاس»: وادٍ في ديارِ هوازن ، وهناك عسكروا هم وثقيف إذ أجمعوا على حربِ رسول الله ﷺ ، فالتقوا بحُنَين.. وإلى أوطاس تحيز فلّ هوزان بعد أن انهزموا ، وعنده قسَّم رسول الله ﷺ غنائم حنين.
ويقال: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يرضع في تلك النّاحية في بني سعد.

العاقبةُ للمتقين؛ وإنزالُ الله نَصْرَهُ على الجيش المحمديّ.

* قال سيّدنا جابرٌ رضي الله تعالى عنه: «فخرجَ مالكُ بنُ عوف النَّصْريّ بمن معه إلى حُنين، فسبقَ رسولَ الله ﷺ إليهما، فأعدّوا وتهيّأوا في مضايقِ الوادي وأحنائه، وأقبلَ رسولُ الله ﷺ وأصحابُهُ حتّى انحطَّ بهم الوادي في عمايةِ الصُّبح، فلما انحطَّ النَّاسُ ثارت في وجوههم الخيلُ، فشدَّت عليهم، وانكفأ النَّاسُ منهزمين لا يُقبل أَحدٌ على أَحَدٍ، وانحازَ رسولُ الله ﷺ ذات اليمين يقول: «أين أيُّها النَّاس؟ هلمُّوا إليَّ أنا رسول الله، أنا محمّد بن عبد الله».

قال: فلا شيءَ، وركبتِ الإبلُ بعضَها بعضاً، فلمّا رأى رسولُ الله ﷺ أمرَ النَّاس، ومعه رهطٌ من أهلِ بيته: عليُّ بنُ أبي طالب، وأبو سُفيان بنُ الحارث بن عبد المطلب، وأخوه ربيعةُ بنُ الحارث، والفضلُ بنُ العبَّاس، وأيمنُ ابن أمّ أيمن، وأسامةُ بنُ زيد، ورهطٌ من المهاجرين منهم أبو بكر وعمر؛ والعبَّاسُ آخذٌ بِحَكَمةِ بغلته البيضاء وهو عليها قد شجرها، قال: ورجلٌ من هوازنَ على جملٍ له أحمر، بيده رايةٌ سوداء في رأسِ رمحٍ طويل أمامَ هوازن، وهوازن خلفه، إذا أدرك طعنَ برمحه، وإذا فاته النَّاسُ رفع رمحه وراءه فاتبعوه، فبينما هو كذلك إذ هوى له عليُّ بنُ أبي طالب، ورجلٌ من الأنصار يريدانه، فيأتي عليّ من خلفهِ، فضَربَ عرقوبي الجمل فوقعَ على عجزه، ووثب الأنصاريُ على الرجل فضربَهُ ضربةً أطنَّ قدمه بنصف ساقه، فانجعَفَ عن رحْلهِ، واجتلد النّاس فواللهِ مارجعت راجعة النّاس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مُكتّفين عند رسولِ الله ﷺ»[١].

* ويصفُ سيدنا جابر جانباً مثيراً من مشاهدِ غزوةِ حنين، فيقول: «إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال يوم حُنين حين رأىٰ من النَّاس ما رأى: «يا عبّاس، نادِ: يا معشرَ الأنصار، يا أصحابَ الشَّجرة» فأجابوه: لبَّيكَ لبَّيكَ، فجعلَ الرَّجُلُ يذهبُ ليعطفَ بعيره فلا يقدرُ على ذلك، فيقذف درعَه عن عنقه، ويأخذُ

(١) البداية والنهاية (٤/٣٢٦)، وانظر: المغازي (٣/ ٩٠٠).

سيفه وترسه ، ثمّ يؤمُّ الصَّوتَ حتى اجتمعَ إلى رسولِ الله ﷺ منهم مئة ، فاستعرضَ النَّاسُ فاقتتلوا ، وكانت الدعوةُ أوّل ما كانت للأنصار ، ثمَّ جعلت آخراً للخزرج ، وكانوا صُبُراً عند الحرب ، وأشرف رسولُ اللهِ ﷺ في ركائبه فنظرَ إلى مجتلد القوم فقال: «الآن حمي الوطيس».

قال: فواللهِ ما راجعَهُ النَّاس إلاّ والأسارى عند رسولِ الله ﷺ مكتّفون ، فقتَلَ اللهُ منهم مَنْ قتَل ، وانهزمَ منهم من انهزم ، وأفاءَ اللهُ على رسولهِ ﷺ أموالَهم وأبناءهم. . »[1].

سابعاً: جابرٌ يشهدُ غزوةَ تبوك:

* غزوةُ تبوكٍ من الغزواتِ المشهورة في تاريخِ المغازي النّبوية ، ويُقال لها: غزوة العُسْرة ، ويقال لها: الفاضحة ، لأنّها أظهرتْ حالَ كثيرٍ من المنافقين ، وهي آخر غزوةٍ نبويّةٍ.

* وكان سيّدنا جابرُ بنُ عبد الله من جنودِ هذا الجيش الغازي بقيادةِ رسولِ الله ﷺ ، وكان عددُ هذا الجيشِ الخارجِ إلى تبوكَ ثلاثين ألفاً ، وقاسىٰ رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابَه الكرامَ في هذه الغزوةِ البعيدةِ مشقَّةً بالغةً ، إذ اجتمع فيها: البعدُ ، شدَّةُ الحرِّ ، جَهدُ الحالِ ، شحُّ المؤونةِ ، قلّةُ الركائبِ والخيل ، حتّى سمّاها اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧].

* روى الإمامُ أحمدَ في تفسيرِ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧].

قال: «خرجوا في غزوة تبوك الرّجلان والثّلاثة على بعيرٍ واحد ، وخرجُوا في حرّ شديد ، وأصابهم عطشٌ حتى جعلُوا ينحرون إبلهم لينفُضُوا أكراشها

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٣٢٩ و٣٣٠).
وهكذا أعزَّ الله المسلمين في هذه الغزوة العظيمة وأذل الله الشرك والمشركين ، ومن الجدير بالذكر أن الملائكة قد قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هذه الغزوة ، وفي غزوة بدر ، وقد رأى بعض المسلمين الملائكة وهي تقاتل مع المسلمين.

ويشربوا ماءها ، فكان ذلك عسرةً في الماء ، وعسرة في النَّفقة ، وعسرة في الظَّهر».

* وممّا يشيرُ إلى حضور سيّدنا جابر في غزوة تبوك. قوله: «كنّا مع رسول الله ﷺ في تبوك. . »[1].

* وكذلك روايته لحديث قَصْرِ الصَّلاة ، فقد أخرجَ الإمام أحمد بسنده عن جابرِ بنِ عبد الله قال: «أقامَ رسولُ الله ﷺ بتبوكَ عشرين يوماً يقصرُ الصَّلاة»[2].

* كما انَّ جابراً رأى أُكيدر دُومةَ أسيراً في تلك الغزاةِ فقال: «رأيتُ أُكيدر حين قدمَ به خالدُ بنُ الوليد وعليه صليبٌ منْ ذَهَبٍ وعليه الدِّيباج ظاهر»[3].

ثامناً: جابـرٌ في سَريةِ الخَبط مع أمينِ الأُمَّة:

* كان سيّدنا جابرٌ في سَريةِ أبي عُبيدةَ بنِ الجرَّاح رضي الله عنه ، وتُعرفُ بِسَرِيَّةِ الخَبط ، وسرية سِيْف البحر ، قال جمهورُ أئمةِ المغازي: «كانت هذه

---

(1) انظر: المغازي (٣/ ١٠٣٤).
(2) أخرجه أحمد (٥/ ١١) حديث رقم (١٤١٤٢) طبعة دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١م.
ومن الجدير بالذكرِ أنَّ قَصْر الصَّلاة الرّباعية جائزٌ بالقرآن والسُّنة والإجماع.
ومعنى القصر: هو اختصار الصَّلاة الرباعية إلى ركعتَيْن ، والذي يُقصر إجماعاً: هو الصّلاة الرّباعية من ظُهْرٍ وعَصْرٍ وعشَاءٍ ، دون الفجر والمغرب.
والقصرُ رخصةٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ على سبيل التّخيير ، فللمسافر أن يتمّ أو أن يقصرَ ، والقصر أفضل لأنَّ النبي ﷺ داوم عليه ، وكذا الخلفاء الراشدون من بعده.
والحكمة من القصر: هو دفْعُ المشقّةِ والحرجِ الذي قد يتعرّض له المسافر غالباً ، والتّيسير عليه في حقوق الله عزّوجلّ ، والتّرغيبَ في أداء الفرائض ، وعدم التَّنفير من القيام بالواجب ، فلا يبقى لمقصر ، أو مهمل حجّة أو ذريعة في ترك فرض الصَّلاة.
وسبب مشروعية القصر: هو السَّفر الطّويل المباحُ ، ولا يزالُ المسافرُ على حكم السّفر حتى ينوي الإقامة مدة معينة وهي (١٥ يوماً فصاعداً).
وإن كان ينتظر قضاء حاجة معينة له القصر ولو طال التّرقب سنين ، فابن عمر أقام بأذربيجان ستة أشهر وكان يقصر.
(3) المغازي (٣/ ١٠٣٠).

السَّريَّةُ في شَهْرِ رجب سنة ثمان من الهجرةِ النّبوية المباركة»[1].

* وكان في هذه السّريةِ المباركةِ مفاجآتٌ مثيرةٌ رواها سيدنا جابر، كما كان فيها بعض الأحكامِ فيما يجوزُ أكله، وما لا يجوز، وهذا كلُّه قد نَقَله سيدنا جابر للنَّاس ليُعَلّموا ما تعلّمه هو والصَّحابةُ من النَّبيّ ﷺ، كما نقلَ لنا صوراً من صور الفتوى في حياتهِ ﷺ واجتهاد الصَّحابة في تحري الصَّحّ والصَّحيح في الأقوال والأعمال.

* أمّا تفاصيل سرية الخَبَط أو سِيْف البحر فقد أوردتها المصادرُ الموثوقةُ وفي المقدمة: الصَّحيحان، وكتب السّيرة النّبوية، ودلائل النّبوّة، والتّراجم، والمغازي، والتّفاسير، وغيرها من أُمّاتِ المصَادر المتنوعة.

* أخرجَ البخاريُ بسنده عن سفيانَ بنِ عمرو قال: سمعتُ جابراً يقول: «بعثَنَا النَّبيُّ ﷺ ثلاث مئة راكبٍ وأميرُنَا أبو عبيدة نرصُدُ عِيْراً لقريش، فأصابنا جوعٌ شديدٌ حتّى أكَلْنا الخَبطَ، فسمّي جيش الخَبط، وألقى البحرَ حُوتاً يُقال له العَنْبر، فأكلنا نصف شَهْر، وادَّهَنَّا بودكهِ حتّى صلحت أجسامنا، فأخذ أبو عُبيدة ضِلعاً من أضلاعه فنَصَبهُ فمرَّ الرَّاكب تحته..»[2].

* وقصَّةُ هذا الحديثِ نجدُهَا عند مُسْلمٍ بشكل أوسع وأكثر تفصيلاً، وقد أخرجها أيضاً بسنده عن أبي الزُّبير، عن جابر، قال: «بعثَنَا رسولُ الله ﷺ، وأمَّر علينا أبا عُبيدة، نتلقَّى عيراً لقريش، وزوَّدنا جِراباً من تمرٍ لم يجدْ لنا غيره، فكان أبو عُبيدة يعطينا تمرةً تمرةً.

قال: ـ أبو الزبير ـ فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟

قال: نَمَصُّها كما يَمَصُّ الصَّبيُّ، ثمّ نشربُ عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنّا نضربُ بعِصيِّنَا الخَبطَ ثمّ نبلُّهُ بالماء فنأكله.

قال: وانطلقنا على ساحلِ البحر، فَرُفِعَ لنا على ساحل البحر كهيئة

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٦/ ٢٧٥).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٤٩٤).

الكثيبِ الضَّخمِ ، أتيناه ، فإذا هي دابّةٌ تدعىٰ العَنْبر.

قال أبو عبيدة: مَيْتَةٌ ، ثم قال: لا ، بلْ نحنُ رُسُلُ رسولِ الله ﷺ ، وفي سبيلِ اللهِ ، وقد اضْطُررتم فكلوا.

فأقمنا عليه شهراً ، ونحنُ ثلاثَ مئة حتَّى سَمِنَّا ، ولقد رأيتُنا نغترفُ من وَقْبِ عينهِ بالقلال الدُّهْنَ ، ونقتطعُ منه الفِدَرَ كالثور ـ أو كَقَدْر الثّور ـ فلقد أخذ منّا أبو عُبيدةَ ثلاثة عشر رجلاً ، فأقعدهم في وقب عينه ، وأخذ ضلعاً من أضلاعه ، فأقامَها ، ثمّ رَحَلَ أعظم بعير معنا ، فمرَّ من تحتها ، وتزوّدنا من لحمه وشائق ، فلمّا قدمنا المدينة أتينا رسولَ اللهِ ﷺ ، فذكرنا ذلك له ، فقال: «هو رزقٌ أخرجَهُ اللهُ لكم ، فهل معكم من لحمِهِ شيء فتطعمونا»؟ قال: فأرسلنا إلى رسولِ الله ﷺ منه ، فأكَلَه»(١).

---

(١) أخرجه مسلم بهذا اللفظ برقم (١٩٣٥) وانظر: سبل الهدى والرشاد (٦/ ٢٧٥ و٢٢٧).
ومعنى قوله «وأمّر علينا أبا عبيدة»: فيه أنَّ الجيوشَ لابدّ لها من أمير يضبطها ، وينقادون لأمره ونهيه ، وأنَّه ينبغي أنْ يكون الأمير أفضلهم؛ أو من أفضلهم. وقوله «نتلقى عيراً لقريش»: العير: الإبل التي تحمل الطعام وغيره. وفي هذا الحديث صدّ أهل الحرب واغتيالهم ، والخروج لأخْذِ مالهم واغتنامه. و«جِراباً»: بكسر الجيم وفتحها ، وهو الكيس. و«نَمَصُّها»: بفتح الميم وضمّها ، والفتحُ أفصحُ وأَشْهرُ؛ وفي هذا بيان ما كان الصحابة رضي الله عنهم عليه من الزهد في الدنيا ، والتّقلّل منها ، والصبر على الجوع ، وخشونة العيش ، وإقدامهم على الغزو مع هذه الحال. و«كهيئة الكثيب الضّخم»: الرمل المستطيل المحدودب. و«فإذا هي دابة تدعى العنبر. . . . إلى قوله: فأكله»: معنى الحديث: أنَّ سيدنا أبا عبيدة رضي الله عنه قال أولاً باجتهاده: إنَّ هذا ميتة ، والميتة حرام ، فلا يحل لكم أكلها؛ ثم تغيّر اجتهاده فقال: بل هو حلال لكم وإنْ كان ميتةً ، لأنكم في سبيلِ اللهِ وقد اضطررتم ، وقد أباح الله تعالى الميتة لمن كان مضطراً غير باغٍ ولا عادٍ. فكلوا فأكلوا منه ، وأما طلب النبي ﷺ من لحمه وأكله ذلك: فإنّما أراد به المبالغة في تطييب نفوسهم في حِلِّهِ ، وأنه لا شك في إباحته ، وأنّه يرتضيه لنفسه ، أو أنَّه قصد التّبرّك به لكونه طعمةً من الله تعالى خارقة للعادة أكرمهم الله بها.
وفي هذا دليلٌ على أنَّه لا بأس بسؤال الإنسان من مالِ صاحبه ومتاعه إدلالاً عليه ، وليس هو من السُّؤال المنهي عنه ، إنّما ذاك في حقّ الأجانب للتمول ونحوه ، وأما هذه فللمؤانسة والملاطفة والإدلال. وفيه جوازُ الاجتهاد في الأحكامِ في زمن النّبي ﷺ؛ =

* وأوردَ الدَّمِيريُّ في كتابه «حياة الحيوان» حديث سيّدنا جابر عندما ذكر «العَنْبر»؛ وقال: «العنبر: سمكةٌ بحريةٌ كبيرةٌ، يتخذ من جلودها التُّرس، ويُقال للتّرس عنبر»[1].

* وذكرَ الدّمِيري أيضاً العنبر في موضعٍ آخر من كتابه فقال: «البَالُ: سمكةٌ تكونُ في البحرِ الأعظمِ يبلغُ طولُها خمسين ذراعاً، يُقال لها: «العَنْبر»، وليست بعربيةٍ. قال الجواليقي: كأنّها عُرِّبَتْ. وقال في الصِّحاح: البالُ: الحوتُ العظيمُ من حيتان البحرِ ليس بعربيّ. وقال القزوينيّ: البَالُ سمكةٌ طولُها خمس مئة ذراع أو أكثر، تُظْهِرُ في بعضِ الأوقات طرفَ جناحها كالشّراع العظيم، وأهل المراكب يخافون منها أعظمَ خوفٍ، فإذا أحسّوا بها ضَربُوا بالطُّبول لتنفرَ عنهم، فإذا بَغَتْ على حيوانِ البحر، بعثَ اللهُ سمكةً نحو الذّراع تلصق بأذنها فلا خلاصَ للبال منها، فتطلب قَعْر البحر، وتضربُ الأرض برأسها حتّى تموتَ، وتطفوَ على الماء كالجبلِ العظيم، ولها ناسٌ من الزّنج يرصدونها، فإذا وجدوها طرحُوا فيها الكلاليب وجذبوها إلى السّاحل، وشقّوا بطنها، واستخرجوا العنبر منها»[2].

= كما يجوزُ بعده. وفيه أنّه يُستحبُّ للمفتي أنْ يتعاطى بعض المباحات التي يشُك فيها المستفتي إذا لم يكن فيه مشقة على المفتي، وكان فيه طمأنينة للمستفتي. وفيه إباحة ميتات البحر كلها سواء في ذلك ما مات بنفسه أو باصطياد وقد أجمع المسلمون على إباحة السمك.

ومعنى قوله «من وقب عينه»: الوَقْب: داخل عينه ونقرتها. و«القِلال»: بكسر القاف جمع قُلة بضمها: وهي الجرة الكبيرة التي يقلّها الرجل بين يديه، أي يحملها. و«الفِدر»: القِطَعُ. و«رَحَل»: جعل عليه رحلاً. و«شائق»: اللحم يُؤخذ فيُغلى إغلاءً ولا ينضح، ويحمل في الأسفار، يقال: وشقت اللحم فاتّشق، والوشيقة الواحدة منه، والجمع: وشائق ووشق، وقيل: الوشيقة: القديد. والله أعلم. (المنهاج ص ١٤٧٨ ـ ١٤٨٠) بتصرف واختصار.

(١) حياة الحيوان (٢/ ٧٩). وانظر: المستطرف (٣/ ٥٥٠ و٥٥١) طبعة دار صادر الأولى ١٩٩٩م.

(٢) حياة الحيوان (١/ ١٥٩)، أقول: «أوردت هذه القصة للترفيه والاستئناس وتوضيح الصورة للعنبر».

جهادُهُ بَعْـدَ المغَازِي الـنَّبويّـة:

* تابعَ سيّدنا جابر رحلةَ الجهادِ بعد عَصْر النّبوّة، فشهد حصارَ دمشق، وقد حدَّثنا عن ذلك فقال: «كنتُ في الجيشِ الذين أُمِدَّ بهم أبو عُبيدة بن الجراح وهو محاصِرٌ دمشق، فلمّا قدمنا عليهم، قال لخالد: تقدّم فَصَلِّ فأنتَ أحقّ بالإمامة لأنّك جئتَ تمدّني، فقال خالد: ما كنتُ لأتقدم رجلاً سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «لكلّ أمّةٍ أمينٌ، وأمينُ هذه الأمّة أبو عُبيدة بنُ الجرّاح»[1].

* وكان سيّدنا جابر رضي الله عنه إذا خرجَ إلى إعلاء كلمةِ اللهِ عزّ وجلّ يكثرُ من التّكبيرِ والتّسبيح، ويحبُّ أنْ تغبرَّ قدماهُ في سبيلِ الله عزّ وجلّ، فقد كان مرةً في غزوِ الرُّوم، ومرَّ به مالكُ بنُ عبد الله الخثعمي، وكان جابرُ يقودُ بغلاً له، فقال له مالك: أي أبا عبد الله اركبْ فقد حَمَلَكَ اللهُ.

فقال جابر: أريحُ دابتي، وأستغني عن قومي، وسمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «من اغبرت قدماهُ في سبيلِ الله حرّمه اللهُ على النَّار»، ونزل النّاس عن دوابهم لما سمعوا جابراً، وما رُئي يوم أكثر ماشياً منه»[2]. وكان جابر من علماء الصَّحابة يُؤخذُ عنه العلْم ويُقتدى به.

* ولما كان جابر رضي الله عنه في القادسيّة رأى إخلاصَ المسلمين وأبطالهم الذين يريدون وجْه اللهِ عزَّ وجلَّ والدار الآخرة، فأثنى عليهم وقال: «والله الذي لا إله إلا هو، ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنّه يريدُ الدّنيا مع الآخرة؛ ولقد اتَّهمنا ثلاثة نَفَرٍ، فما رأينا كالذي هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم: طليحة بن خُويلد، وعمرو بن معدي كرب، وقيس ابن المكشوح»[3].

* وهكذا كان جابرٌ رضي الله عنه ومعه الصّحابةُ الكرامُ رضي الله عنهم

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٥٧)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٢).

(٢) انظر: حياة الصَّحابة (١/ ٤٧٦) بشيء من التصرّف والاختصار.

(٣) حياة الصحابة (٣/ ٦٨٢ و٦٨٣).

أجمعين ، كانوا جميعاً يبتعدون عن كلّ ما يتعلَّقُ بالأسبابِ المادّيةِ في جهادهم ، ويتعلّقُون بالآخرة ويعملون لها ، ويطلبون النَّصْر من اللهِ عزَّ وجلَّ ، فكانوا الفرسان بالنهار ، والرُّهبان بالليل رضي الله عنهم أجمعين ، وحشَرنا في معيّتهم ، وعفَا عنّا بفضلهِ وكرمِه.

رواياتُه لأحاديث المُصطَفى ﷺ:

* أوّلُ ما يلفتُ نظرَ الباحث والقارىء في سيرةِ سيدنا جابرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنه وأرضاه كثرة أحاديثهِ المبثوثةِ في مصادرِ الإسلام، وفي مقدمتها: الصَّحيحان ، فالسُّنن ، فالمسانيد ، فالمصنّفات ، فكتب السّيرة والطَّبقات. وهذا يعني أنَّه من المُكثرين المجوّدين في الرِّواية والعلْم والفقْهِ والفتوى.

* وهذا الكلامُ الذي أوردناه نجدُ مصداقيته من خلالِ حياة سيّدنا جابر العلْميّة؛ فهو من شَبابِ الصَّحابةِ الذين نعموا بالإسلام منذ فجرِه ؛ ولزموا النَّبيَّ ﷺ ينهلون من معين النُّبوّة ، حتّى غدا واحداً من علماءِ الصَّحابة ومجتهديهم وحفّاظِهم ، وقد وصفَه الإمامُ الذّهبي بقوله: «الإمامُ الكبيرُ ، المجتهدُ الحافظ ، صاحبُ رسولِ الله ﷺ أبو عبد الله الأنصاريّ الخزرجي الفقيه»[1].

وقال عنه النّووي: «هو أحدُ المكثرين الرّواية عن رسولِ اللهِ ﷺ»[2]. ونعته ابن عبد البرّ بقوله: «كان من المكثرين الحفّاظ للسُّنن»[3].

* قال أئمةُ العلْمِ وكُتَّاب التَّراجم: «روى جابر بن عبد الله (١٥٤٠ حديثاً) عن النّبي ﷺ ، اتّفق البخاريُ ومسلم منها على ستّين حديثاً ، وانفردَ البُخاري بستة وعشرين ، ومسلم بمئة وستة وعشرين»[4]؛ فجابر إذن من أصحابِ الألوف.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٨٩) بتصرف يسير واختصار.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٤٢) ، وانظر: الإصابة (١/ ٢١٤).
(٣) الاستيعاب بهامش الإصابة (١/ ٢٢٣).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٤٢) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٤).

* وقد رأينا من خلالِ ما قرأْنا عن حياته أنَّه روى عدداً من الأحكامِ الإسلاميّةِ المختلفة والرّقائق والأخلاق والجهاد.

* وكانت مروياتُ جابر العلميّة كثيرةً عن النَّبي ﷺ وعن كبارِ أصحابه؛ فقد روى عن ساداتنا: أبي بكر، وعمر، وعلي، وأبي عُبيدة، ومعاذ، وأبي هُريرة، والزّبير، وأبي سعيد، وعبد الله بن أنيس وغيرهم من علماء الصَّحابة وأسيادهم وأعيانهم.

* وروى كذلك عن عددٍ من الصَّحابيات من مثل: أمّ شريك، أمّ مالك، وأمّ مبشّر.

* ومن التّابعيات: أمّ كلثوم بنت أبي بكر الصديق أخت عائشة لأبيها.

* وروى عنه جماعاتٌ من علماء التّابعين ومن أئمتهم منهم: سعيدُ بنُ المسيب، وأبو سلمة، وعطاءُ بنُ أبي رباح، والحسنُ البصريّ، وأبو الزبير، والشّعبي وخلائق ومناقبُه كثيرة[1].

* ومن اللافت للنَّظر أنَّ سيدنا جابراً قد رحل في طلبِ العلم إلى مكّة، فالشَّام، فمصْرَ.

* قال عُبيدُ الله بنُ مقسم: «رحلَ جابرُ بنُ عبد الله في آخر عمره إلى مكّةَ في أحاديث سمعها، ثمّ انصرفَ إلى المدينةِ»[2].

* ويروىٰ أنَّ جابراً رحلَ في حديث القِصاص إلى الشَّام ليسمعه من عبدِ اللهِ بنِ أُنَيس[3]، وكذلك رحل إلى مصرَ ليسمع حديثاً في ستْر المؤمن[4].

* ولشدّة حرصِ جابر على العلْم كان يقول: «تعلّموا العلم، ثم تعلّموا

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٤٢ و١٤٣)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٨٩ و١٩٠) مع الجمع بينهما.

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩١).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩١ و١٩٢) وانظر الحديث والقصة كاملة في حياة الصحابة (٣/ ١٩٦).

(٤) انظر الحديث والقصة في حياة الصحابة (٣/ ١٩٦ و١٩٧).

الحلم ، ثم تعلموا العِلْم ، ثم تعلّموا العملَ بالعلْمِ ، ثم أبشروا»[1] ، ولهذا كان لجابر رضي الله عنه حلقة في المسجد النّبوي ليؤخذَ عنه العِلْم ، وقد قرأنا نماذج كثيرة من مروياته.

* وكان جابرُ رضي الله عنه من المتوسّطين في الفتيا ، وقد عده ابنُ حزم من بين (١٣ صحابياً) كانوا من المتوسطين في الفتوى.

* قال الذّهبي: «وكان مفتي المدينة في زمانه ، عاش بعد ابن عمر أعواماً وتفرد»[2].

* وجاء في المصادر أنَّ جابراً ونفراً من علماء الصَّحابة كانوا يفتون بالمدينةِ المنورةِ ، ويحدّثون عن النّبيّ ﷺ من لدن توفي سيدنا عثمان إلى أن توفوا ، والذين صارت إليهم الفتوى جماعةٌ منهم: جابر رضي الله عنه[3].

* ويمكن أنْ ندركَ مدى علْمِ جابر وفقهه وفتواه من خلال الأحداثِ الآتية التي تبيّن رحابة صدره لنَشْر العلْم والفهم.

* روى عبد الرحمن بن سعيد قال: «جئت جابرَ بنَ عبد الله الأنصاري في فتيان من قريش ، فدخلنا عليه بعد أنْ كُفَّ بصره ، فوجدنا حبلاً معلّقاً في السَّقف ، وأقراصاً مطروحة بين يديه ، أو خبزاً ، فكلّما استطعتم مسكين قام جابر إلى قرص منها ، وأخذَ الحبل حتّى يأتي المسكين فيعطيه ثم يرجع بالحبل حتى يقعد.

فقلت له: عافاك الله؛ نحنُ إذا جاء المسكين أعطيناه. فقال: إنّي أحتسبُ المشي في هذا. ثمّ قال: ألا أخبركم شيئاً سمعته من رسولِ اللهِ ﷺ؟

قالوا: بلى.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٦٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٠). أقول: «وهذا يعني أن جابراً ليس من المتوسطين في الفتيا ، بل هو من المكثرين فيها ، لأنه كان مفتي المدينة في زمانه ، وله فتاوى كثيرة منثورة في المصادر».

(٣) انظر بتوسع: حياة الصحابة (٣/ ٢٥٥).

قال: سمعتُه يقولُ: «إنَّ قريشاً أهلُ أمانَةٍ، لا يبغيهم العَثَراتِ أحدٌ إلا أكبّه اللهُ عزَّ وجلَّ لمنخريه»[1].

* وفي القصَّة الآتية نسمعُ جواب سيّدنا جابر لمن كذَّبَ بالشَّفاعةِ، ونرى مدى حلمه الممزوجِ بالعلْمِ والفَهْمِ والفقْهِ والفتوى، وحتّى التَّفسير.

* عن يزيد الفقير قال: «جلستُ إلى جابرِ بنِ عبد الله وهو يحدّث، فحدّث أنَّ ناساً يخرجون من النَّار..

قال: وأنا يومئذ أنكرُ ذلك، فغضبتُ وقلت: ما أعجب من النّاس، ولكن أعجبُ منكم يا أصحابَ محمّدٍ ﷺ! تزعمون أنَّ اللهَ يخرج ناساً من النَّار، واللهُ يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]؛ فانتهرني أصحابُهُ، وكان أحلمهم، فقال: دعوا الرَّجلَ، إنَّما ذلك للكفَّار، فقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حتى بلغ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦ ـ ٣٧] أَمَا تقرأ القُرآن! قلت: بلى، قد جمعتُه.

قال: أليسَ الله يقول: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]؟ فهو ذلك المقام، فإنَّ الله تعالى يحتبسُ أقواماً بخطاياهم في النار ما شاء لا يكلمهم، فإذا أرادَ اللهُ أنْ يخرجَهم أخرجهم.

قال: فلم أعدْ بعد ذلك إلى أن أكذّب به»[2].

* ومن أمثلة فقْهِ وفتاويه: أنَّه سُئِل عن الجُنب يتوضّأ بعد الغسْل؟ فقال: «لا، إلا أنْ يشاء، يكفيه الغسْل».

* وفي نزولِ الرُّخْصة في فرضِ قيام الليلِ يقول: «كُتِبَ علينا قيامُ الليل

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٦٣).

(٢) حياة الصحابة (٣/ ٤٩ و٥٠).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٢] فقمنا حتّى انتفخت أقدامنا، فأنزلَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠][1]».

* أقول: «إنَّ أمثال هذه الفتاوى والاجتهادات مبثوثةٌ في ثنايا ترجمتنا له، وكذلك في المصادر التي ترجَمَتْ لجابرٍ، وقد أتينا منها ما يفي بالمطلوب في هذه الموسوعةِ المباركة».

صحْبَـةٌ مُبارَكـةٌ ومكانَـةٌ كُبرىٰ:

* سيدنا جابرُ بنُ عبد الله الأنصاريّ علَمٌ شهيـرٌ من علمـاءِ الصَّحابـة الذين نعموا ببركـةِ الصُّحبةِ النَّبويّـةِ، واستنشَقُوا عبقَاتِهـا ما وسعهم إلى ذلك سبيلاً..

* تأدّبَ رضي الله عنه بأدبِ النُّبوّة، وتخلّق بأخلاقها، وصحبَ النَّبيَ ﷺ في حِلِّهِ وترحالهِ، وعرفَ عنه أشياء مباركة، وكان ﷺ يجلُّ جابراً ويحترمُهُ، ويضعُهُ في المكانةِ اللائقةِ التي رفَعَتْهُ مكاناً عليّاً بين علماءِ الأنصار وفتيانهم وشبابهم.

* ومن الرصيدِ العظيمِ الذي يُحْتَسب لسيّدنا جابر أنَّه ﷺ كان يناديه باسمِهِ «يا جابر»، وكان ﷺ يعلّمه كُلّما ناداهُ، ونظرةٌ واحدةٌ في صحيح مسلم نجدُ مصداق ذلك، فقد ثبتَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ ناداه مراراً: «يا جابر!!»[2]، «يا جابر! أتوفيتَ الثَّمن»[3]؟ «يا جابر! إذا كان واسعاً فخالف بين

---

(١) حياة الصحابة (٣/ ١٤١) نقلاً عن مجمع الزوائد للهيثمي (٢/ ٢٥١).
(٢) انظر: صحيح مسلم برقم (٧١٥ و١٤٦٦).
(٣) صحيح مسلم برقم (٧١٥ و١٥٩٩).

طرفيه»[1] ، «يا جابر! تزوجت»[2]؟ «يا جابرُ! نادِ بجفنة»[3] ، «يا جابرُ! نادِ بوضوء»[4] ، «يا جابرُ! ناد مَنْ كان له حاجة بماءٍ»[5] ، «يا جابرُ! هل رأيتَ مقامي»[6]؟ وثبتَ في «سُنَن الدارقطْني» عن جابرٍ قال: «دخلتُ على رسولِ الله ﷺ فقال: «مرحباً بك يا جُويبر» ومن المعلوم أنَّ صيغةَ «جُويبر» ها هنا تُقالُ للتَّحبُّبِ.

* وكان سيّدنا جابرٌ رضي الله عنه من المقرّبين للنّبيّ ﷺ ، حتّى ثبتَ مرّةً أنَّه أسمعَه سبعينَ حديثاً وحْدَهُ ، فعن جابرٍ قال: «أردفني رسولُ اللهِ ﷺ خلْفَه ، فجعلتُ فمي على خاتَم النُّبوّة ، فجعلَ يَنْفَحُ عَليَّ مِسْكاً ، وقد حفظتُ منه تلك الليلة سبعين حديثاً ما سمعَها معي أحدٌ»[7].

* والحقيقةُ فهذه منقبةٌ كبرى لسيّدنا جابر فأكرمْ به! لكنْ هل أتاكَ خبرُ مكانتِهِ عند النّبيّ ﷺ؟! وتعليمه الدّعاء لجابر؟! وكان الدّعاءُ لا يزالُ غضّاً طريّاً علّمه جبريل عليه السّلام لحبيبنا رسولِ اللهِ ﷺ حَسَناً تعالوا نتبارك جميعاً بهذا الدُّعاء ونتعلّمه ونحفظه ونعمل به.

* قال جابرٌ رضي الله عنه: «دخلتُ على رسولِ الله ﷺ ذاتَ يوم ، فقال: «مرحباً بك يا جابر ، جزاكمُ اللهُ معشَرَ الأنصار خيراً ، آويتموني إذْ طَرَدَني النّاسُ ، ونصرتموني إذ خذلَني النّاسُ ، فجزاكم اللهُ خيراً».

قلتُ: بل جزاكَ اللهُ عنّا خيراً ، هدانا اللهُ إلى الإسلام ، وأنقذنا من شفا حفرة النّار ، فيك نرجو الدّرجات العُلا من الجنَّة.

ثم قال: «يا جابرُ! هؤلاء الأعنز ـ أحد عشَر عنزاً في الدار ـ أحبُّ إليك

---

(1) صحيح مسلم برقم (٣٠١٠).
(2) صحيح مسلم برقم (٧١٥ و١٤٦٦).
(3) صحيح مسلم برقم (٣٠١٣).
(4) صحيح مسلم برقم (٣٠١٣).
(5) صحيح مسلم برقم (٣٠١٣).
(6) صحيح مسلم برقم (٣٠١٢).
(7) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٦١).

أمْ كلمات علمنيهنَّ جبريل عليه السَّلام آنفاً تجمعُ لك خيرَ الدُّنيا والآخرة»؟

فقلت: واللهِ يا رسولَ الله إنّي لمحتاجٌ ، وهؤلاء الكلمات أحبّ إليّ ، قال: «قُلْ؛ اللهمّ أنتَ الخلاّقُ العظيمُ ، اللهم إنّك سميعٌ عليمٌ ، اللهم إنّكَ غفورٌ رحيمٌ ، اللهم إنكَ ربُّ العرشِ العظيم ، اللهم إنك أنتَ الجوادُ الكريمُ ، فاغفر لي وارحمني ، وعافني ، وارزقْني ، واسترني ، واجبُرني ، وارفعني ، واهْدِني ، ولا تضلّني ، وأدخلني الجنَّةَ برحمتك يا أرحمَ الرّاحمين».

قال: فطفقَ يردِّدُهُنَّ عليَّ حتّى حفظتهنَّ ، ثم قال لي: «تعلَّمهنّ وعلِّمْهُنَّ عقبكَ من بعدكَ». ثم قال: «سُقْهُنَّ معك». قال: فَسُقْتهنَّ معي»[1].

* وكان لقربِ سيّدنا جابر من النَّبيِّ ﷺ أثرٌ واضحٌ في حياتِهِ الطَّويلة ؛ فكان يتأسَّى بالأخلاقِ النّبوية والعاداتِ المحمديّةِ قولاً وفعلاً ، فقد ذكروا أنَّه «نزلَ بجابرٍ رضي الله عنه ضيفٌ فجاءهم بخبزٍ وخَلّ ، وقال: كُلُوا فإنّي سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «نِعْمَ الإدامُ الخَلُّ». ثم قال جابر: هلاكٌ بالرَّجُلِ أنْ يدخلَ عليه الرَّجُلُ منْ إخوانه فيحتقرَ ما في بيته أنْ يقدّمَه إليه ، وهلاكٌ بالقوم أنْ يحتقروا ما قُدِّم إليهم»[2].

* وهذا الأثرُ اقتبسه سيّدنا جابرٌ من النّبي ﷺ ، فقد ثبتَ أنَّه ﷺ كان يكرمُ جابراً بما تيسَّر عنده دون تكلُّف ، وقد وردَ في الصَّحيح وغيرِه ما مفاده من «أنَّ جابراً كان جالساً يوماً في ظلِّ داره ، فمرَّ به النَّبيّ ﷺ ، فلمّا رآهُ جابر نهضَ وأخذ يمشي خلفه ، فقال له ﷺ: «اُدْنُ» ، فاقتربَ منه ، فأخذَ بيده ، وانطلقا حتى أتى بعضَ حجراتِ نسائهِ فدخَلَ ، ثم أذِن لجابر فدخل ، وكان عليها الحجاب ، فقال ﷺ: «أعندكم غداء»؟

فقالوا: نعم ، فأُتيَ بثلاثة أقْرصَةٍ ، فَوُضِعَت على طبق ، ثم قال: «هل عندكم منْ أدَمٍ»؟

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٦١ و٣٦٢).

(٢) حياة الصحابة (٢/ ١٨١) ، ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٦٢) مع الجمع بينهما.

فقالوا: لا ، إلاّ شيءٌ من خلّ.

فقال: «هاتوه»؛ فأتَوْهُ به ، فأخذَ قرصاً فوضعه بين يديه ، وقرصاً بين يدي جابر ، وكسَر الثّالث نصفَيْن ، فوضع نصفاً بين يديه ، ونصفاً بين يدي جابر»[1].

* وبلغت مكانةُ سيدنا جابر مبلغاً عظيماً عند الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ بحيث أعطاه مرةً قطعةً من المَنِّ مرتَيْن إكراماً له ولأخواته البنَات ، فقد روى سيّدنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه هذا فقال: «أهدى الأُكَيْدر إلى النَّبيّ ﷺ جَرةً مِنْ مَنٍّ ، فلمَّا انصرفَ ﷺ من الصَّلاة مرَّ على القومِ ، فجعل يعطي كلَّ رجلٍ منهم قطعةً ، وأعطى جابراً قطعةً ، ثم إنّه رجعَ إليه فأعطاه قطعةً أخرى ، قال: إنّك قد أعطيتني مرّةً؛ فقال: «هذه لِبَنَات عبدِ الله»[2].

جابـرٌ وأقباسٌ نبويَّـةٌ هاديـةٌ:

* حيَاةُ سيّدنا جابرٍ مع النَّبيِّ ﷺ نورٌ في نورٍ في نورٍ ، فقد قَبسَ كثيراً من الأنوارِ المحمديّة ، ونقلَها للأمّةِ المحمّديةِ كي تسيرَ على النَّهج المحمديّ المُونق لتسعدَ في الدُّنيا وفي الآخرة ، وتدخلَ في عبادِ اللهِ الصَّالحين ، باتّباعها سُنَنَ سيّد الأنبياء والمرسلين ﷺ.

* فمن الأَقْباسِ الجميْلَةِ المُزهرة والمفيدةِ للمؤمنين ما ذكرهُ سيدنا جابرٌ عن أذكارِ النّبي ﷺ قبْل نومهِ ، إذ روى رضي الله عنه ، «بأنّ النَّبيَّ ﷺ كان لا ينامُ حتَّى يقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ . . .﴾ [السّجدة: ١ ـ ٢] و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [المُلك: ١] ، قال طاووس: تفْضُلان على كلِّ سورة في القرآن بسبعين حسنة»[3].

---

(١) هذا الحديث عند مسلم برقم (٢٠٥٢/١٦٧) ، وانظر: حياة الصحابة (٢/١٨٣) بشيء من التصرف.

(٢) انظر: مجمع الزوائد (٥/٤٤) وقال: «رواه أحمد وفيه علي بن زيد وفيه ضعف ، ومع ذلك فحديثه حسن».

(٣) انظر: حياة الصحابة (٣/٢٨٧) بتصرف يسير ، والحديث أخرجه الترمذي.

* أمّا ما كان يقولُه ﷺ عقب الصَّلاة ، فكما روى جابر: «لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له ، له الملكُ ولهُ الحمد يحيي ويميتُ وهو على كلّ شيءٍ قدير ، اللهم لا مانعَ لما أعطيت ولا معطيَ لما منعتَ ، ولا رادَ لما قضيتَ ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ»(١) .

* ومن الأقباسِ النّبويّةِ في الصَّحيفةِ الجابريّةِ ما أورده جابرٌ رضي الله عنه قال: «جاء رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: واذُنوباه! واذُنوباه! فقال هذا القول مرتَيْن أو ثلاثاً؛ فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «قُل: اللهمّ مغفرتك أوسعُ من ذنوبي ، ورحمتُك أرجى عندي من عَمَلي» ، فقالها ، ثمّ قال ﷺ: «عُدْ» ، فعاد ، ثم قال: «عُدْ» فعاد ، ثم قال: «قُمْ فقد غَفَرَ اللهُ لك»(٢) .

* ومن الجَابريّات المُقتبسة من الأنوارِ المحمديّة التّأكيد على صلاة الجمعةِ ، والإنابة إلى الله عزّ وجلّ ، وتشييدِ الصَّالحات ، وعملِ المبرّات ، والإكثار من ذكْرِ اللهِ وحمده ، وهذا كلُّه يرويه جابرٌ رضي الله عنه فيقول: «خَطَبَنَا رسولُ اللهِ ﷺ ، فقال: «يا أيّها النَّاس ، تُوبُوا إلى الله قبل أنْ تموتوا ، وبادروا بالأعمالِ الصَّالحةِ قبل أنْ تُشْغَلُوا وَصِلُوا الذي بينكم وبين ربّكم بكثرة ذِكْركُم له، وكثرة الصَّدقة في السِّرِّ والعلانية تُرزقوا ، وتُنْصروا ، وتُجبروا ، واعلموا أنَّ اللهَ افترضَ عليكم الجُمَعَة في مقامي هذا ، في يومي هذا ، في شهري هذا ، من عامي هذا إلى يومِ القيامة ، فَمَنْ تركها في حياتي أو بعدي ، وله إمامٌ عادلٌ ، أو جائر استخفافاً بها ، وجُحوداً بها ، فلا جَمَعَ الله شَمْلَه ، ولا بارك له في أمرِه ، ألا ولا صَلاةَ له ، ألا ولا زكاةَ له ، ألا ولا حجَّ له ، ألا ولا صوم له ، ألا ولا بِرَّ له حتّى يتوبَ ، فَمَنْ تابَ تابَ اللهُ عليه ، ألا لا تؤَمَّنَّ امرأةٌ رجلاً ، ولا يؤم أعرابيٌّ مهاجراً ، ولا يؤمَّ فاجرٌ مؤمناً ، إلاّ أنْ يقهرَهُ بسلطانٍ يخافُ سيفَه وسوطَه»(٣) .

---

(١) مجمع الزوائد (١٠/ ١٠٣).
(٢) حياة الصحابة (٣/ ٣١٧).
(٣) انظر: حياة الصحابة (٣/ ٣٩٧ و٣٩٨) ، والترغيب والترهيب (١/ ٥١٠ و٥١١) ، وقال=

* ومن صُور الهدي النبوي التربوي في سيرةِ سيّدنا جابر أنَّ الصادق المصدوق رسول الله ﷺ كان يمشي ليقضيَ بعضَ الأمورِ لجابر ، ويدعو له في البركةِ في التَّمر والرُّطب حتى يقضيَ دَيْنه ، وهذا ما سنعرفه من الصَّحيح بروايةِ جابر.

* جاء في صحيح البخاري بسندهِ عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما قال: «كان بالمدينةِ يهوديٌّ ، وكان يُسلِفُني في تمري إلى الجِذَاذ ، وكانت لجابرٍ الأرضُ التي بطريق رُومة ، فجلستُ ، فخَلاَ عاماً ، فجاءَني اليهوديُ عند الجِذاذ ولم أَجِدَّ منها شيئاً ، فجعلتُ أستَنْظرهُ إلى قابل ، فيأبىٰ ، فأُخْبِرَ بذلك النَّبيُّ ﷺ ، فقال لأصحابهِ: «امشُوا نستنظرُ لجابرٍ من اليهودي» ، فجاؤُوني في نَخْلي ، فجعلَ النَّبيُّ ﷺ يُكَلِّمُ اليهودي ، فيقول: أبا القاسم لا أنظِرُهُ ، فلمّا رأىٰ النَّبيُّ ﷺ قامَ فطافَ في النَّخْل ، ثمَّ جاءَ فكلَّمَهُ ، فأبىٰ ، فقمتُ فجئتُ بقليلِ رُطبٍ فوضعْته بين يَدَي النَّبيّ ﷺ ، فأكَلَ ، ثمَّ قال: «أين عريشكَ يا جابر»؟ فأخبرتُه ، فقال: «افرشْ لي فيه» ، ففرشته ، فدخَلَ فَرقَدَ ، ثم استيقظَ ، فجئتُه بقبضةٍ أخرى فَأَكَلَ منها ، ثمَّ قامَ فكَلَّمَ اليهودي ، فأبى عليه، فقامَ في الرّطابِ في النَّخْلِ الثّانيةِ، ثم قال: «يا جابرُ، جُذَّ واقْضِ».

فوقَفَ في الجِذاذ ، فجذَذْتُ منها ما قضيتُه ، وفَضَلَ منه. فخرجتُ حتَّى

= المنذري: «رواه ابن ماجه ، ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري أخصر منه».
والحديث أخرجه ابن ماجه برقم (١٠٨١) ، وانظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١١٩ و١٢٠).
والمطلوب من المسلم يوم الجمعة أنْ يشتغل بالأدعية المأثورة ، ويلهج بالتسبيح ، ويكثر من الاستغفار والتحميد من بعد عصر يوم الخميس ، وينشغل بإحياء ليلة الجمعة بالصلاة على النبي الحبيب ﷺ ، وتلاوة القرآن الكريم ، وذكر الله عز وجل ، ويغتسل مبكراً ، ثم يلبس الثياب النظيفة مع مسّ الطّيب ، ويسعى إلى صلاة الجمعة خاشعاً مبكراً إليها ، ويستمع الخطبة ، ثم بعدها يسعى ويطلب رزق الله تعالى.

جئتُ النَّبيَّ ﷺ فبشّرته؛ فقال: «أشهدُ أنِّي رسولُ اللهِ»[1].

* ومن الإشراقاتِ النَّبويّةِ المونقةِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد دعا لجابرٍ وأهلِهِ في دعوة جابريّةٍ للحضْرة النَّبويّة إلى منزله. فتعالوا نحضر هذه الإشراقةَ المباركة.

* قال جابر: «أتيتُ النَّبي ﷺ أستعينُه في دَيْنٍ كان على أبي، فقال: «آتيكم»، فرجعتُ فقلتُ للمرأة: لا تُكلِّمي رسولَ الله ﷺ ولا تسأليه. فأتانا، فذبحْنَا له دَاجِناً كان لنا، فقال: «يا جابر كأنّكم عرفتم حُبَّنَا اللحْمَ»! ، فلمّا خرجَ قالت له المرأةُ: صَلِّ عليَّ وعلىٰ زوجي، أو: صَلِّ علينا، فقال: «اللهم صَلِّ عليهم»، قلتُ لها: أليس قد نهيتُكِ؟ قالت: ترىٰ رسولَ الله ﷺ يدخلُ علينا ولا يدعو لنا»[2]؟!

جَابِـرٌ المفسِّرُ الفقيه:

* ليس غريباً إذا قلنا: «إنَّ سيّدنا جابرَ بنَ عبد الله الأنصاريَّ رضي الله عنه من كبارِ عُلماءِ الصَّحابةِ المفسّرين الذين لهم آثارٌ مونقةٌ وأقوالٌ مشرقةٌ في كتُبِ التَّفْسيرِ، ونزلَ بسببه آيات».

* ولا نبالغُ لو قُلنا: «إنَّ سيِّدَنا جابراً من أكثرِ علماءِ الصَّحابةِ الأنصارِ الذين أُثِرَ عنهم التّفسيرُ وعلومُه، وإنَّ نظرةً واحدةً في كتبِ التَّفسير تجلو مصداقَ ما قلناه».

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة برقم (٥٤٤٣) ومعنى «الجِذاذ»: بكسر الجيم ويجوز فتحها: زمن قطع ثمر النّخل. وقوله: «طريق رُوْمة»: رُوْمة: هي البئرُ التي اشتراها عثمانُ بنُ عفَّان رضي الله عنه، وتصدَّقَ بها، ولا يزالُ مكانها معروفاً اليوم في وادي العَقيق، وتسمّى «بئر عثمان» وقوله: «فجلستُ فخلا عاما»: المقصدود تأخرت الأرض عن الإثمار؛ أو تأخّر جابر عن قضاء التّمر. وقوله: «أستنظره»: أستمهله. وقوله: «إلى قابل» إلىٰ عام ثانٍ، وقوله: «جذّ»: فعل أمر بالجذاذ، وقوله: «اقْضِ»: أوفِ وقوله «أشهدُ أنّي رسول الله»: قال ذلك لما فيه من خرق العادة الظَّاهر منْ إيفاء الكثير منَ القليل.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٦١).

* ومن الرصيدِ العِلْميّ الذي يُضاف لسيّدنا جابر ما جاء في الصَّحيح عنه في التَّفْسير في معظمِ أبوابِ الفقْهِ والأحكام ، وإذا استعرضنا مثلاً صحيح البُخاري لألفينا جابراً يدلي دلوه في كثيرٍ من ألوان التَّفْسير في أبوابِ صحيح البخاري مثل: «التّيمم، الجهاد والسِّير، الصَّلاة، الحج ، البيوع ، الخُمْس، الأنبياء، المغازي، الذّبائح، الفرائض، الاعتصام ، والتّوحيد»[1].

* ومما يزيدُ في شخصيّةِ جابر العلميّة ثراءً وغنىً وعلماً في التَّفْسير ، هذه الشَّهادةُ العلميةُ الموقَّعَةُ من سيِّد عالمٍ من أعيان الصَّحابة وكبرائهم سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه الذي كان مُعْجباً أيّما إعجابٍ بعلم جابر في مجالِ تفسيرِ القُرآن الكريم ، إذ إنّ جابراً أَهْلٌ لذلك ، بل هو من أهل التّفْسير.

* أوردَ العلماء «أنَّ سيدنا عليَ بنَ أبي طالب ذَكَرَ جابرَ بنَ عبد الله ووصفَه بالعلْم ، فقال له رَجُلٌ: جُعِلْتُ فداءك! تَصِفُ جابراً بالعلْم وأنتَ أنتَ!

فقال: إنَّه كان يعرفُ تفسيرَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [القصص: ٨٥]»[2].

* وسيّدنا جابرٌ نفسُه ينقلُ لنا بعضَ المسائل الفقهيّة المستنبطة من خلالِ تفسير سورةِ الفاتحة ، وقد تعلَّمها من النَّبيِّ ﷺ؛ فقد جاء عن جابر أنّ النّبيّ ﷺ قال له: «كيف تقول إذا قمتَ إلى الصَّلاة»؟

---

(١) وللمزيد من الإيضاح انظر البخاري بالأرقام الآتية: «٣٣٥ ـ ٩٣٠ ـ ٣٩٦ ـ ١٥١٥ ـ ٢٠٦٤ ـ ٣١١٤ ـ ٣١١٥ ـ ٣٤٠٦ ـ ٤٠٥٢ ـ ٥٤٩٤ ـ ٦٧٢٣ ـ ٧٣١٣ ـ ٧٣٩٠ ـ ٧٤٠٦». ومواضع أخرى كثيرة في صحيح مسلم أيضاً.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٩٢٦) وقال إياسُ بنُ معاوية: «مَثَلُ الذين يقرؤون القرآنَ وهم لا يعلمون تفسيره ، كمثَل قومٍ جاءهم كتابٌ من ملكهم ليلاً وليسَ عندهم مصباحٌ ، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتابِ ، ومثل الذي يعرفُ التفسير كمَثَل رجلٍ جاءهم بمصباحٍ فقرؤوا ما في الكتاب».

قال: أقولُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

قال: «قُلْ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]»[١].

* ومن أحكامِ سورةِ الفاتحة أيضاً، أنَّه لا تجزىءُ أحداً صلاةٌ حتّى يقرأَ بفاتحةِ الكتاب في كُلِّ ركعةٍ، إماماً كان أو مأموماً، جهرَ إمامه أو أسرَّ، ولكنَّ جابراً كان يرى أنَّ الإمام قراءته لمن خلفه قراءة[٢].

* ولسيدنا جابر بعضُ الآراء في التَّفسير، وأحياناً يكون تفسيره لآيةٍ ما وصْفاً لِعَمَلٍ قام به النَّبيُّ ﷺ، وغالباً ما يكون هذا التَّفْسيرُ في الأركان أو الأحكام، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]؛ يقول جابر: «إنَّ النَّبيَّ ﷺ حين قدمَ مكَّة فطاف بالبيت سبعاً فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾. وصلّى خلْفَ المقام، ثمَّ أتى الحجرَ فاستلمه ثمّ قال: «نبدأ بما بدأ الله به»، فبدأ بالصَّفا وقال: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[٣]».

* وفي تفسيرِ وتبيان قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، يقولُ جابر: «سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عن العمرة أوَاجِبَةٌ هي أمْ لا؟ فقال: «لا، وإنْ تعتمر خيرٌ لك»[٤].

* وفي ترجمة معنى الدّعاء وشرحه وتفسيره يقول جابر في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ . . .﴾ [البقرة: ١٨٦]: «دعا رسولُ اللهِ ﷺ في مسجدِ الفتح ثلاثاً يوم الاثنين، ويوم الثّلاثاء، فاستجيبَ له يوم الأربعاء بين الصَّلاتين، فعرفتُ السُّرورَ في وجههِ» قال جابر: «ما نزلَ بي أمرٌ

---

(١) تفسير الرازي (١/ ١٦٢).
(٢) تفسير القرطبي (١/ ١١٩ و١٢٢).
(٣) تفسير القرطبي (٢/ ١٨٢ و١٨٣).
(٤) انظر: تفسير الرازي (٥/ ١٢٠)، وتفسير القرطبي (٢/ ٣٦٨).

مهمٌّ غليظ إلا توخيتُ تلك السَّاعة فأدعو فيها فأعرفُ الإجابة»[1].

* وفيما يتعلَّقُ بأسبابِ نزولِ الآيات نجدُ عند جابر علماً في ذلك ، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ . . . .﴾ [البقرة: ٢٣٢] ، يروي جابر فيقول: «بأنَّه كانت له بنت عمّ فطلَّقها زوجها ، وأراد رجعتها بعد العدة فأبى جابر ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية ، وكان جابر يقول: فيَّ نزلَتْ هذه الآية»[2].

* وفي سببِ نزولِ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ . . .﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] ، يقول جابرٌ رضي الله عنه: «نزلَتْ في عوفِ بنِ مالك الأشجعيّ ، أَسَر المشركون ابناً له يسمّى سَالماً ، فأتى رسولَ الله ﷺ وشكا إليه الفاقة ، وقال: إنَّ العدو أسرَ ابني وجزعتِ الأمُّ ، فما تأمرني؟

فقال ﷺ: «اتّقِ اللهَ واصبر ، وآمُرُك وإياها أنْ تستكثروا من قولِ لا حول ولا قوة إلا بالله».

فعاد إلى بيتهِ وقال لامرأته: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أمرني وإياك أنْ نستكثرَ من قولِ: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقالت: نِعْمَ ما أمرنا به. فَجعلا يقولان؛ فَغَفلَ العدوُّ عن ابنه ، فساقَ غنمهم ، وجاء بها إلى أبيهِ ، وهي أربعة آلاف شاة ، فنزلتِ الآية ، وجعلَ النَّبيُ ﷺ تلك الأغنام له»[3].

* وفي تفسيرِ بعضِ مفردات القُرآن الكريم نجد سيّدنا جابراً ذا إجابةٍ مختصرةٍ مفيدةٍ واضحةٍ ، فقد فسَّر الصَّلاة الوسطى في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] ، فسّرها بـ:

---

(١) تفسير القرطبي (٣١٣).
(٢) تفسير الرازي (٦/ ٩٥).
(٣) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص ٣٥٦) ، وتفسير ابن عطية (ص ١٨٦٨) ، وتفسير القرطبي (١٨/ ١٦٠).

الصُّبح[1] وكذلك فسَّر قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨] فقال: «النَّعيم: ملاذّ المأكول والمشروب»[2].

* كما أننا نجدُ في تفسيرِ جابر بعضَ الأخبارِ والآثارِ التي رواها عن النَّبيّ ﷺ، ومثال ذلك تفسيره لقولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١٤]، روى جابرُ بنُ عبد الله قال: «قال النَّبي ﷺ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي من شهدَ أنْ لا إله إلا الله، وخلعَ الأنداد، وشهد أنّي رسولُ الله»[3].

* وفسَّر كذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ [القارعة: ٤] فقال: «قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلي ومثلكم كمثَل رجُلٍ أوقدَ ناراً فجعل الجَنَادبُ والفراشُ يقعْنَ فيهِ وهو يذبُّهُنَّ عنها، وأنا آخذٌ بحجزكم عنِ النَّار، وأنتم تَفلَّتون من يدي»[4].

وأحياناً نجدُ في تفسير سيّدنا جابر وصْفاً لحالٍ من أحوال النّبوّة، أو وصفاً لأمْر يحتاجُ إلى إيضاح فِقهيّ، كَعَدد المصلّين يومَ الجمعة، وفي تفسيرِ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الجمعة: ١١]، نجد مصداق ذلك.

* فعن جابرِ بنِ عبد الله «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يخطبُ قائماً يومَ الجمعة، فجاء عيرٌ من الشَّام، فانفتلَ الناسُ إليها حتّى لم يبقَ إلاّ اثنا عشَر رجلاً، فأنزلت هذه الآية في الجمعةِ ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ﴾[5].

---

(١) تفسير ابن عطية (ص ٢١٥)، وتفسير الرازي (٦/ ١٢٦) وفسّر جابر كلمة الفلق بالصّبح.
(٢) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٧٦).
(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢).
(٤) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٦٥)، وانظر تفسير ابن عطية (ص ٢٠٠١).
(٥) تفسير القرطبي (١٨/ ١٠٩)، وتفسير ابن عطية (ص ١٨٥٨) مع الجمع بينهما. وقد ورد بأنّه لم يبقَ مع النّبيِّ ﷺ إلا العشرة المشهود لهم بالجنّة وهم: أبو بكر، وعمرُ، وعثمانُ، وعليٌ، وطلحةُ، والزبيرُ، وسعدُ بنُ أبي وقاص، وعبد الرحمن بنُ =

* وفي إيضاح قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [النّصر: ٢]، ذكرَ جابرٌ فُرقةَ الصَّحابة فبكىٰ، وقال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «دخلَ النَّاس في الدينِ أفواجاً، وسيخرجون منه أفواجاً»(١).

* وفيما نزل بسبب جابرٍ قوله تعالى ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ [النساء: ١٧٦]. قال جابر بن عبد الله رضوان الله عليه: «نزلَتْ بسببي، عادني رسولُ اللهِ ﷺ وأنا مريضٌ، فقلْتُ: يا رسولَ اللهِ، كيف أقضي في مالي؟ وكان لي تسعُ أَخَوَاتٍ، ولم يكن لي والدٌ ولا وَلَد، فنزلتِ الآيةُ»(٢).

* وفي حديث آخر قال جابر: «عادني رسولُ الله ﷺ في بني سَلِمَةَ، فوجَدَني لا أعقلُ، فدعَا بماءٍ فتوضَّأ ثمَّ رشَّ عليَّ منه، فأفقْتُ فقلت: كيف أصنعُ في مالي يا رسولَ اللهِ؟

قال: فأُنزلت: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ ﴾ [النّساء: ١١]»(٣).

* وقال جابرٌ: «إنَّ أهلَ الجاهليةِ كانوا لا يورثون إلاّ مَنْ لاقى الحروبَ

= عوف، وأبو عبيدة بنُ الجراح، وسعيدُ بن زيد. ومع هؤلاء ذكروا أنّه بقي عبدُ الله بن مسعود، أو عمارُ بن ياسر، وجابرُ بن عبد الله رضي الله عنهم أجمعين والله أعلم. (تفسير القرطبي ١٨/ ١١٠)، و(تفسير ابن عطية ص ١٨٥٨).

(١) تفسير ابن عطية (ص ٢٠٠٩)، وتفسير الرازي (٣٢/ ١٤٥) مع الجمع بينهما. ومعنى «أفواجاً»: الأفواج: الجماعة إثر الجماعة، وكما قال تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك: ٨]. وقال جمهور العلماء: المراد بالفوج جميع وفود العرب. (تفسير ابن عطية ص ٢٠٠٩) بتصرف.

(٢) تفسير ابن عطية (ص ٥٠٤)، وأسباب النزول للواحدي (ص ١٥٨)، وتفسير الطبري (٦/ ٤١).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٦٢)، وحياة الصحابة (٢/ ٥٠٩).

وقاتلَ العدو ، فنزلتِ الآياتُ تبييناً أنَّ لكلّ أنثى وصغيرٍ حظّه»[1].

خاتِمَةٌ طيِّبَةٌ:

* عاشَ سيدنا جابرٌ حياةً طويلةً اقتربتْ من قرنٍ من الزّمان ، وكانت حياةً حافلةً بالعلْمِ والرِّوايةِ والعَطَاء ، وقد ذهبَ بصرهُ في آخرِ عمره ، لأنَّه عندما سُئِلَ عن بيعةِ الرّضوانِ تحت الشَّجرة قال: «لو كنتُ أبصرُ اليومَ لأريتكم مكان الشَّجرة»[2].

* ومن الجديرِ بالذّكرِ أنّه حيثما أُطْلِقَ جابرٌ في كُتُبِ الحديثِ والسِّيرة والمصنَّفات بعامة ، فإنّما هو جابرُ بنُ عبد الله ، وإذا أرادوا جابرَ بنَ سَمُرةَ قيّدوه.

* ولجابر في حياته الميمونة أخبارٌ وأحداثٌ كثيرةٌ لا نستطيعُ أنْ نحصرهَا في هذا المقام ، وقد أَشرْنا إلى ما يوضّح صورته في هذه التّرجمة ، وخاصّة شخصيته العلميّة التي تميَّزَ بها عن غيرهِ من الصَّحابةِ الأنصار.

* عاش سيدنا جابر (٩٤ سنة) وتوفي في المدينة المنورةِ سنة (٧٨هـ) ، فهو بهذا من الصَّحابة المُعَمَّرين ، وكان آخر مَنْ شَهدَ بيعةَ العقبةِ موتاً رضي الله عنه[3].

* وقال ابنُ عساكر: «وكان جابرٌ آخرَ مَنْ ماتَ بالمدينةِ من أصحاب سيّدنا رسولِ اللهِ ﷺ ، مات سنة (٧٨هـ) وهو ابن (٩٤سنة) وصلّى عليه أَبَانُ ابنُ عثمان وهو والي المدينة»[4].

---

(١) تفسير ابن عطية (ص ٤٠٦).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٤٣) ، وقال جابر عن ذهاب بصره عندما أُخبر عن ناس يلبسون الخزّ والوشي: «ليت سمعي قد ذهب ، كما ذهب بصري ، حتى لا أسمع من حديثهم شيئاً ولا أبصره». وقال زيد بن أسلم: «كُفّ بصرُ جابر». وقال الذهبي: «أضرَّ بأخرة» وقال عاصم بن عمر: «أتانا جابر وعليه ملاءتان وقد عمَى مصفّراً لحيته ورأسه بالورس». (سير أعلام النبلاء ٣/ ١٩٣ و١٩٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٤).

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٦٣) وانظر الإصابة (١/ ٢١٥) وذكر ابن كثير أن سيدنا =

* ولجابرٍ أثرٌ في المدينةِ يُدعى «أرض جابر» وهو معروف باسم «القراصة»: والقراصة: بئرٌ بالمدينة، كان بها بستان له، وقد مرَّ معنا من خلالِ ترجمته قصّة بستانه ونَخْلِهِ عندما زاره النَّبيُّ ﷺ وقضى دَيْنَه. وتقعُ البئرُ غربي مساجد الفَتْح في جهَاتِ رومة[1].

* هذا هو جابرُ بنُ عبد الله؛ جَمعَنا الله في الجنَّةِ وإياه؛ وغَفَرَ لنا وله، وحشرنا في معية علماء الصَّحابة، وأدخلنا برحمته في عباده الصّالحين.

* * *

= أنس بن مالك رضي الله عنه آخر الصحابة موتاً، ثم أبو الطّفيل عامر بن واثلة الليثي، وقد جزَم ابن الصَّلاح، والحافظ العراقي، والإمام مسلم أن آخر الصحابة موتاً على الإطلاق هو أبو الطفيل عامر بن واثلة. قال علي بن المديني: «وكانت وفاته بمكة، فعلى هذا هو آخر من مات بها». أما آخر من مات من الصحابة بمكة فهو: عبد الله بن عمر، وبمصر فهو: عبد الله بن الحارث بن جَزْء، وباليمامة فهو: الهِرْماس بن زياد، وبالجزيرة فهو: العُرس بن عَميرة، وبأفريقية فهو: رُويفع بن ثابت، وبالبادية فهو: سلمة بن الأكوع.

(١) انظر: المعالم الأثيرة (ص ٢٦ و٢٢٤) بتصرف.




أبو سعيد الخدري

* من علماء الصّحابة ومعلّميهم وفقهائهم ومحدّثيهم ونبلائهم.
* له صحبة وجهاد في المعيّة النّبويّة، وهو صحابي ابن صحابي.
* روى (١١٧٠) حديثاً فهو من أصحاب الألوف.
* اشتهر بالتّفسير والرّواية والفتوى والاجتهاد.
* نقل جانباً من السّيرة النّبويّة، وتوفي سنة (٧٤هـ).




أبو سَعيد الخُدْريّ

الفذُّ البَـارِعُ:

* قال أحدُ النُّبهاء: «مَنْ تحلّىٰ بالعلْم لم تُوحشْه خلوةٌ ، ومَنْ تَسَلَّى بِسَيرِ الصَّحابة لم تَفُتْهُ سَلوة».

* وقال أحدهم:

العِلْمُ آنَسُ صَاحِبٍ أخلُو بِهِ في وَحْدَتي
فإذا اهتَمَمْتُ فَسَلْوتي وإذا خلوتُ فَلَذَّتي

* وها نحنُ أولاء الآن في جلْسَةِ أُنْسٍ لطيفةٍ مع علم نبيلٍ من عُلماء الصَّحابة وحُفّاظِهم وفُضلائهم البارعين ، ونجبائهم الميامين ، وفقهائهم المجتهدين ، ونُبهائهم المفتين ، وفرسانهم المجلّين.

* ترىٰ مَنْ هذا العالمُ الفارس البارعُ النَّجيبُ الفقيهُ المفتي الحافظ؟

* كان هذا العالمُ من صِغَارِ الصَّحابةِ الأحباب الكرام ، ثمَّ منْ علمائِهم ومعلِّميهم وفقهائهم ومحدّثيهم الأعلام.

* كان يقولُ للمتعلّمين الصِّغار من حديثي السِّنّ وممن يَسْتَمِعُ إليه: «إذا أنتَ لم تَفْهمِ الشَّيءَ استَفْهمنيْهِ ، فإنّكَ إنْ تقومَ وقد فهمتَهُ ، أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ تقومَ ولم تفهمْهُ».

* وكان إذا ما أتَاهُ الأَحْداثُ والشَّبابُ الصِّغارُ لِطلبِ العِلْم والحديثِ قال

ووجهُهُ يعلوهُ الابتسامُ: «مرحباً بوصيّةِ رسولِ الله ﷺ[1]، أمرنَا رسولُ اللهِ ﷺ أن نوسِّعَ لهم في المجلسِ، ونفقّهَهُم الحديثَ، فإنّهم خُلُوفُنا ـ الذين يخلُفُوننا من بعدنا ـ والمحدّثون بعدنا».

* وكان إذا أتاهُ طالبو الفقْهِ في الدِّينِ والفتوى قال لهم «مرحباً بوصيةِ رسولِ الله ﷺ».

* كان هذا العالمُ المُعَلِّم المحدِّثُ يحتفي بطلّاب العِلْم ومحبّي الحديث النّبويّ عملاً بوصيّةٍ نبويّةٍ كريمةٍ أخرجَها ابنُ ماجه بسنده عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «سيأتيكم أقوامٌ يطلبون العلْم، فإذا رأيتموهم فقولُوا لهم: مرحباً مرحباً بوصيّةِ رسولِ الله ﷺ»[2]، كما أنَّ التّرمذي أخرجَ بسنده عنه في «بابِ ما جاء في الاستيصاء بمن يطلُب العلْم» بأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ النَّاسَ لكم تَبَعٌ وإنَّ رجالاً يأتونكم منْ أقطارِ الأرض يتفقّهون في الدِّين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»[3] وفي روايةٍ أخرى عنه: «يأتيكم رجالٌ من قِبَلِ المشرق يتعلَّمون، فإذا جاؤوكم فاستوصُوا بهم خيراً»[4].

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي (٧/٤٠٩) ضبطه عبد الرحمن محمد عثمان ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ـ ط٣ ـ ١٩٨٧م.

(٢) أخرجه ابنُ ماجه في المقدمة، باب الوصاة بطلبة العِلْم برقم (٢٤٧)؛ ومعنى «مرحباً»: أي صادفتَ رحباً، أو لقيت رحباً وسعة، وقيل: رحّبَ الله بك ترحيباً، فوضع مرحباً موضع ترحيباً. و«بوصية رسول الله»: أي يامَنْ أوصى بهم رسول الله ﷺ.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٧٨٨) انظر: تحفة الأحوذي (٧/٤٠٩)، ومعنى «إنَّ النَّاسَ لكم تَبَعٌ»: جمع تابع، كخَدَم جمع خادم، والخطابُ ها هنا لِعُلماءِ الصَّحابة رضي الله عنهم، يعني: إنَّ النَّاسَ يتبعونكم في أفعالكم وأقوالكم لأنكم أخذتم عنّي مكارمَ الأخلاق. وفيه مأخذ لتسميةِ التّابعي تابعياً، وإن كانت التّبعيةُ عامةً بواسطةٍ أو بغير واسطة. و«أقطار الأرض»: جمع قطر، النّاحية والجانب من جوانبها. و«يتفقهون في الدِّين»: أي يطلبون الفِقْه والفَهم فيه. و«فاستوصوا بهم خيراً»: أي في تعليمهم علوم الدِّين ومراعاة أحوالهم؛ وقيل: الاستيصاء طلب الوصية من نفسه أو من غيره، بأحد أو بشيء، والمعنى: اقبلوا الوصيّة منّي بإتيانهم خيراً، أو مروهم بالخير وعظوهم وعلموهم.

(٤) انظر: تحفة الأحوذي (٧/٤١٠) حديث رقم (٢٧٨٩)، وأخرجه ابن ماجه برقم (٢٤٩).

* كان هذا العالمُ الكبيرُ من المؤمنين الأخيار الذين رضيَ اللهُ عنهم ، إذ شهدَ بيعةَ الرِّضْوان تحتَ الشَّجرةِ يوم الحُديبيّة.

* بايع هذا العالمُ ـ مع ثلّةٍ من الصَّحابةِ ـ النَّبيَّ ﷺ على ألاّ تأخذَهُ في اللهِ عزَّ وجلَّ لومةُ لائم.

* كان هو وثلّةٌ من عُلَماء الصَّحابة وفقهائهم يفْتُون في المدينة المنوّرة ، ويحدّثون عن الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ ، منذ أنْ توفي سيّدنا عثمان ذو النورين ، إلى أنْ توفّاهم اللهُ تعالى.

* كان من الذين صارت إليهم الفتوى في زمانهم وهم: عبد الله بنُ عبّاس ، وعبد الله بن عمر ، وأبو هُريرة ، وجابر بنُ عبد الله ، وكلّهم من علماء الصّحابة الحفاظ المكثرين رضي الله عنهم أجمعين.

* كان من أفاضلِ الأنصار وساداتِهم ، وروي أنَّهُ لم يكن أحدٌ من أحداثِ الصَّحابة أفْقَهَ منه.

* كان من مشهوري الصَّحابة ، وكان معدوداً من أهل الصُّفَّة ، محبّاً للفُقَراء ، صابراً محتسباً ، فقيهاً جليلاً.

* كان ممّن روىٰ كثيراً من الأحاديثِ فهو من أصحابِ الأُلوف ، وروىٰ عنه جماعةٌ من عُلماءِ الصَّحابةِ وفقهائهم.

* وهذا العالمُ الشَّهير ممن وُلدَ في المدينة المنورة وماتَ فيها.

* وهذا العالمُ أيضاً أبوهُ صحابي ، وأمُّهُ صحابيةٌ ، وأخوهُ لأمّهِ صحابي ، وأختُه الشَّقيقةُ صحابيةٌ ، فأكرمْ بهذهِ الأسرة المؤمنة!!

* أبوهُ: صحابيٌ فارسٌ صنديدٌ من شهداء أُحُد ، وهو الذي مصَّ جُرْحَ النَّبيِّ ﷺ يومَ أُحُد ، ثمّ ازدردَ الدّمَ الشَّريفَ الذي مصَّهُ ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ أحَبَّ أنْ ينظرَ إلى مَنْ خالَطَ دمي دمَهُ فلينظُرْ إلى هذا»[1]. وأشار ﷺ إلى أبيهِ.

---

(١) انظر: المعجم الكبير للطبراني برقم (٥٤٣٠) ، والمغازي للواقدي (١/ ٢٤٧ و٢٤٨) ، المستدرك (٣/ ٦٥٢).

وفي روايةٍ أخرى: «مَنْ مَسَّ دمي دمَهُ لمْ تصبْه النَّار»[1].

* والآن ، ما رأيكم لو ندخل رحابَ هذا العالمِ الصّاحب المُفتي ونتعرَّفَ بطاقتَهَ وشخصيّتَه؟!

* إنَّه سعدُ بنُ مالك بنِ سِنَان الأَنْصاريّ الخَزْرجيّ ، أبو سعيد الخُدري[2] ، الإمامُ المجاهدُ ، مفتي المدينةِ ، صاحبُ رسولِ الله ﷺ. وأمُّه أُنَيسةُ بنتُ أبي حارثةَ من بني عديّ بن النَّجّار ، وأخوه لأمّه: قَتَادَةُ بنُ النّعمان الأنصاري[3] ، وأختُه: الفُريعةُ بنتُ مالك[4] رضي الله عنهم أجمعين.

* إذن ، فلتكن أوقاتنا سعيدةً مع سيِّدنا أبي سعيد الخُدريّ الجِهْبذ الفذّ الذي تربى في مدرسةِ النّبوّة تربيةً نقيةً ، فكان من المبرزين في مجالاتٍ شتّى ، فقد جاهدَ ، وحدَّثَ ، وعلَّمَ ، وأفتى ، وفَسَّرَ ، وأوقفَ حياتَه كلَّها على العِلْمِ والتَّعلُّم ، والفِقْهِ والاجتهادِ ، فكان بحقّ منَ الذين يُقتدىٰ بهم بعد النَّبي ﷺ ، وفي الصَّفحات الآتيةِ نشهدُ حياتَه المفْعَمةَ بالعطاء والخير.

تربيـةٌ صَافيـةٌ ورعايـةٌ مُـتَّزنـةٌ:

* من خلالِ حياتي مع سيرةِ سيِّدنا أبي سعيد الخُدريِّ ، رأيتُ أنَّه نَشَأَ نشأةً صافيةً واعيةً للظُّروفِ التي كانت تعيشُها المدينةُ المنوّرةُ قبلَ الهجرةِ النَّبويّةِ.

---

(١) السّيرة النّبويّة بشرح أبي ذرّ الخشني (٣/ ١١٦) تحقيق د. همام سعيد ، ومحمد أبو صعيليك ـ دار المنار ـ الأردن ـ ط١ ـ ١٩٨٨م. وانظر: المغازي (١/ ٢٤٧).

(٢) الإصابة (٢/ ٣٢ و٣٣) ، والمستدرك (٣/ ٦٥٠ ـ ٦٥٢) ، ومشاهير علماء الأمصار (ص ٣٠) ، وحلية الأولياء (١/ ٣٦٩ ـ ٣٧١) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٣٧) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٨ ـ ١٧٢) ، ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٧٢ ـ ٢٧٩) ، ودلائل النبوة للأصبهاني (انظر الفهرس ص ٨٣٦)؛ ومصادر أخرى كثيرة لا تحصر.

(٣) اقرأ سيرة سيدنا قتادة بن النعمان في موسوعتنا «فرسان من عصر النبوة» (ص ٦٢٧ ـ ٦٣٨) ففيها خير كثير.

(٤) اقرأ سيرة هذه الصحابية الكريمة الفريعة بنت مالك في كتابنا «نساء مبشرات بالجنة» (ص ٢٢٩ ـ ٢٣٩) فسيرتها مباركة.

* فقد كان نفَرٌ من أهلِ الكتابِ من اليهودِ يعلمون أنَّه سيخرجُ نبيٌّ من الحرم ، وكانوا يعرفون صِفَتَهُ ، وكانوا لشدّةِ خبثِهم يستفتحون على الأوسِ والخزرجِ برسولِ اللهِ ﷺ قبلَ مبعَثِهِ ، فلمّا بعَثَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ من العربِ كفروا به ، وجَحَدُوا ما كانوا يقولون فيه ، مع العِلْم أنَّهم كانوا يدرسون ذِكْرَ رَسولِ اللهِ ﷺ في كُتبِهم ، ويعلّمون الولْدان بصفَته واسمِهِ ومُهاجرِهِ إلى المدينةِ ، ولمَّا ظهرَ حَسَدوا وبغوا وأنكروا.

* وكان كثيرٌ من أهلِ المدينة منَ الأوسِ والخزرجِ يعرفون من اليهود علاماتِ رسول الله ﷺ ، فأحبُّوهُ قبل أنْ يَرَوْه أو أنْ يعلَمُوا بظهوره ، وكان من بين هؤلاء: مالكُ بنُ سِنان والد أبي سعيد الخُدري الذي عرفَ صِفَةَ النّبيّ ﷺ من يهود يثرب.

* أخرجَ أبو نُعيم الأصبهانيّ رحمه الله في «دلائلهِ» بسندٍ رفَعَهُ إلى سيّدنا أبي سعيدٍ الخُدريّ رضي الله عنه قال: «سمعتُ أبي مالك بن سنان يقول: جئْتُ بني عبدِ الأَشْهَلِ يوماً لأتحدَّثَ فيهم ونحنُ يومئذٍ في هُدنةٍ مِنَ الحربِ فسمعْتُ يُوشَعَ اليهوديَّ يقولُ: أظلَّ خروجُ نُبيّ يُقالُ له أحمدَ ، يخرجُ منَ الحرمِ.

فقال له خليفةُ بنُ ثعلبةَ الأَشْهليّ كالمستهزىء به: ما صِفَتُه؟ قال: رجلٌ ليسَ بقصيرٍ ولا بالطَّويل ، في عينَيْه حُمْرةٌ ، يلبسُ الشَّملة ، ويركبُ الحمار ، سيفُه على عاتقِهِ ، وهذا البلدُ مُهاجَرهُ.

قال ـ مالكُ بنُ سنان ـ: فخرجتُ إلى قومي بني خُدْرةَ وأنا يومئذٍ أتعجَّبُ ممّا قال ، فأسمعُ رجُلاً يقولُ: ويوشعُ يقولُ هذا وحده؟! كُلُّ يهودِ يثربَ تقولُ هذا!!

قال أبي مالكُ بنُ سِنان: فخرجتُ حتّى جئتُ بني قُريظةَ ، فأجِدُ جَمْعاً؛ فتذاكروا النَّبيَّ ﷺ ، فقال الزَّبيرُ بن باطا: قد طلَعَ الكوكبُ الأحمرُ الذي لم يطلعْ إلا بخروجِ نبيّ وظهوره ، ولم يبقَ أحدٌ إلاّ أحمد ، وهذه مُهَاجَرَهُ.

قال أبو سعيد: «فَلَمَّا قَدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ ، أخبره أبي هذا الخبرَ.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لو أسلمَ الزَّبيرُ وذووهُ مِنْ رؤوسائِهم كلّهم له تَبع»[1].

* ولما راحتْ تباشيرُ الإسلام تَظْهرُ بوادرها في المدينةِ المنورة ، كان مالكُ بنُ سِنانَ ممّنِ التحق بالرّكْبِ الميمونِ وأعلنَ إسلامه ، وكان ابنهُ لا يزالُ في ميعةِ الصِّبا وزهرةِ العمرِ الأوّل لم يشبَّ عن الطَّوقِ بَعْدُ ، إذ كان عمرهُ يزيدُ عن عشْرةِ أعوامٍ قليلاً عند الهجرةِ النَّبويّةِ المُباركةِ.

* وكان أبو سعيد قد نشأ على حُبِّ النَّبيِّ ﷺ قبل أنْ يراهُ ، وكذلك أسرتُه السَّعيدةُ التي سعدت بالإسلام أُمّاً وأباً وأخاً وأختاً ، فكانت الأسرة الخُدريّة من الأُسَرِ التي أسلمت في وقتٍ مبكّر من بين دُوْرِ الأنصار الخزرجيين.

* ولمّا هاجر سيّدنا وحبيبُنا رسولُ اللهِ ﷺ إلى المدينة المنوّرة استقبله أهلُها شِيبُهم وشبابُهم بالتّرحاب ، ولعلَّ سيّدنا أبا سعيد الخُدريّ كان من بين الغلْمان الذين رحَّبوا بمقدمه الشَّريف إلى مُهاجَره الميمون.

* ومنذ الأيّامِ الأولى لدخولِ النَّبيّ ﷺ المدينةَ المنوّرة لزم سيّدنا أبو سعيد الخُدريّ مدرسة النُّبوّة التي تخرَّج فيها بمرتبة الشَّرفِ ، ومرتبة العِلْم والفَهْم ، فغدا من علماء الصَّحابةِ الأنصارِالأخيارِ الذين لهم نَسَبٌ عظيمٌ في ديوانِ العُلماء من أصحابِ النَّبيّ ﷺ.

* وقد أشرقَتْ نفسُ أبي سعيد صفاءً بما كان يتعلّمه من الصادق المصدوق ﷺ ، وصدقَ اللهَ عزَّ وجلَّ في إسلامه ، كما صدَق في بيعتِهِ للنَّبيِّ ﷺ مع ثلّةٍ من الأنصار حسبما روى ذلك سهلُ بنُ سعد السَّاعديّ فقال: «بايعت النَّبيّ ﷺ أنا ، وأبو ذرّ ، وعُبيدةُ بنُ الصَّامت ، ومحمدُ بنُ مسلمةَ ،

(١) انظر: دلائل النبوة للأصبهاني (١/ ٩٢ و٩٣) خبر رقم (٤٠).

وأبو سعيد الخُدري ، وسادسٌ ، على ألاّ تأخذنا في اللهِ عزَّ وجلَّ لومةُ لائمٍ ، فاستقالَ السَّادسُ فأَقَالَهُ»[١].

* على أنَّ هذه البيعةَ لم تكنْ وحيدةً ، بل نجدُ أبا سعيد يشهدُ المشاهدَ العظامَ ، والمغازي النّبوية التي تفصحُ عنها الصَّفحاتُ الآتية.

المُجاهدُ في ركابِ النُّبوَّةِ:

* تخرَّجَ في مدرسةِ النُّبوّةِ الميمونةِ منْ قادَةِ الفِكْرِ ، وكبراءِ العُلماء ، ورجالِ الفُتوحات كَثْرةٌ لا تُعرفُ في التَّاريخ لمدرسةٍ أخرى في أمّةٍ من الأُمم التي عاصرت الأمةَ الإسلامية أو سبقَتْها. وقد بَرعَ فيها جماعاتٌ تألّقُوا في جوانبَ عديدةٍ من الحياةِ ، فكان منهم سيّدنا أبو سعيد الخُدري الذي برزَ في العِلْمِ ، والنُّبْلِ ، والشَّجاعةِ ، والصَّبْرِ ، والوفاءِ ، وحُسْنِ الأُحدوثة.

* ومن الطَّبيعي أنَّ الإسلامَ قد غرسَ الصَّبْرَ في قلوبِ أبنائهِ ، وعلَّمهم الشَّجاعةَ ، إذْ إنَّ الشَّجاعةَ فضيلةٌ من أسمى الفضائلِ ، وإنْ شئتَ فقُلْ: حارسةُ الفضائل كلّها ، وإكسير السَّعادة في الدنيا والآخرة.

* كانتِ الشَّجاعةُ من المناقب التي امتازَ بها الأنصار بعامّةٍ ، وفي ثنايا السِّيرة النَّبويّة شذراتٌ توضِّحُ ذلك ، وفي عرينِ الأنصار تربَّى أبو سعيد على الإقدامِ ، فعَرَفَ منذ نعومةِ أظفاره جلائلَ الأمور ، وعظائمَ الأعمال ، وخرجَ مع المجاهدين يوم أُحدٍ ، فاستصغرَ النَّبيُّ ﷺ عَدَداً مِنَ الغلْمان عندما عُرِضُوا عليه ومنهم: عبدُ الله بنُ عمر ، وزيدُ بنُ ثابت ، وأسامةُ بنُ زيد ، والنُّعمانُ بنُ بُشير ، وزيدُ بنُ أرقم ، والبراءُ بنُ عازب ، وأُسيدُ بنُ ظُهَير ، وعَرابةُ بنُ أوس ، وأبو سعيد الخُدريّ ، فردّهم[٢]. وكان أبو سعيد يومذاك ابنَ ثلاث عشر سنة.

---

(١) انظر: الإصابة (٢/ ٣٣).

(٢) انظر: المغازي (١/ ٢١٦)؛ أقول: «ومن الملاحظ أن هؤلاء الغلمان الأخيار كلهم من أبناء الأنصار عدا عبد الله بن عمر فهو من أبناء المهاجرين. كما أن معظم هؤلاء الصبيان قد غدا من علماء الصحابة».

* وسنتوقف الآن مع أبي سعيد ليخبرنا عن قصّةِ إرجاعه ، وعدمِ قبوله في جيشِ المسلمين لِصِغَرِ سنِّهِ فيقول: «عُرِضْتُ يومَ أُحُدٍ على النَّبيِّ ﷺ، وأنا ابنُ ثلاث عشرة ، فجعل أبي يأخذُ بيدي ويقول: يا رسولَ الله؛ إنّه عَبْلُ العِظَام ، وجعلَ النَّبيُّ ﷺ يُصَعِّدُ فِيَّ النّظرَ ثمّ يصوّبُهُ ، ثمّ قال: «رُدَّهُ» ، فَرَدَّني»[1].

* قُلْ لي بربِّكَ: بأيّ الشَّخْصَيْن نعجب؟ بأبي سعيدٍ الغُلام الذي خرجَ لإعلاء كلمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ أمْ بأبيهِ مالكِ بن سِنان الذي يحاولُ أنْ يجعله كبيراً ممتلىءَ العِظام أمامَ النَّبيّ ﷺ؟!

* إنَّ المجتمعَ الإسلاميَّ في المدينةِ يومذاك كان مُجتمعاً كريماً ، يسعىٰ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويسعى للشَّهادةِ بشيوخهِ وكهولهِ وشبابهِ ، حتّى غلمانه يُقبِلُون على هذه المكْرمةِ إقبالَ الأبطالِ الرَّاغبين في نَيْلِ مرتبة الشَّهادة ، هذا المجتمعُ الصَّادقُ تربّى في المدرسةِ المحمّديّةِ التي تدعو إلى النَّجاةِ ، وإلى العلياء ، والتَّرفُّع عن الدُّنيا وزُخْرفها ، لأنَّ ما عند اللهِ باقٍ.

* ودارتْ معركةُ أُحدٍ ، فكان والدُ أبي سعيد أحد المؤمنين الذين اتَّخذهم اللهُ شهداء ، وكان له موقفٌ متألِّقٌ قَبْلَ أنْ يحظىٰ بالشَّهادة ، فقد أُصيبَ وجْهُ النَّبيِّ الحبيبِ ﷺ يومَ أُحُدٍ ، ودخلتِ الحلقتان مِنَ المِغْفَر في وجنتَيْه الشَّريفتَيْن ، ولمّا نُزِعَتَا ، جَعَلَ الدمُ يسربُ من وجههِ الشَّريف ، فأسرعَ مالكُ بنُ سِنان وأخذَ يمصُّ الدَّمَ الشَّريفَ بِفيهِ ثمّ يبتلعُهُ. فقال الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ: «مَنْ أحبَّ أنْ ينظرَ إلى مَنْ خالطَ دمي دمَه ، فلينظرْ إلى مالكِ بنِ سِنانَ».

* وتعجَّبَ الصَّحابةُ مِنْ هذا الموقفِ الذي يفصحُ عن حُبِّ مالكِ بنِ سنان للنَّبيّ ﷺ ، ومن ثمَّ قيل لمالكٍ: تَشْرَبُ الدَّمَ؟!

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٩) ، والمستدرك (٣/ ٦٥٠ و٦٥١) ، ومعنى «عَبْل»: العبل: الضخم من كل شيء ، والأنثى عبلة ، والجمع عبلات وعِبال. (لسان العرب: مادة عبل).

فقال: نعم ، أشربُ دمَ رسول الله ﷺ؟

فقال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ مسَّ دمُه دمي ؛ لم تُصِبْهُ النَّارُ»[1].

* وعادَ النَّبيُّ ﷺ إلى المدينةِ المنورة بعد أنْ استُشْهِدَ سبعون من أصحابه ، ودُفنُوا في سَفْح جَبَلِ أُحُدٍ ، وعند عودةِ النّبي ﷺ مع أصحابهِ إلى المدينةِ عقِبَ الغزوة ، لَقِيَهُ أبو سعيد الخُدري ، فعزَّاه النَّبي الكريم ﷺ بأبيهِ ودعَا لَهُ ، وما كان همُّ الغُلامِ اليَفعَةِ أبي سعيد وقتذاك إلاّ سلامةُ النَّبيّ ﷺ ، فكلّ مصيبة بعده هيّنة.

* كان سيدنا أبو سعيد الخُدري ممّن ردَّهم النَّبيُّ ﷺ من الشَّيخَيْن[2] ، لم يُجَزْ معَ المُقاتِلةِ ، فلمّا كان منَ النَّهار ، بلغَ أهلُ المدينةِ المنورةِ مُصَاب رسول الله ﷺ ، وتفرُّق النّاس عنه؛ جاء أبو سعيد مع غلمان من بني خُدرة يعرضون لرسولِ الله ﷺ ينظرون إلى سلامتِهِ ، فيرجعون بذلك إلى أهلِهم ، فَلَقُوا الناس متفرقين ببطنِ قَنَاة[3] ، فلم يكن لهؤلاءِ الغلمان هِمَّة إلاّ النّبيّ الكريم ﷺ ينظرون إليه بعيونِ الأطفالِ البريئةِ المفعمةِ بصدقِ الحُبِّ ، ووفاءِ الودّ؛ ولما رأىٰ النَّبيُّ ﷺ أبا سعيد قال: «سعدُ بنُ مالك»؟ قال: نعم بأبي وأمّي أنتَ يا رسولَ الله!!

* ودنا أبو سعيد من الحبيبِ المُصطفى ﷺ بلطف وهدوء ، وقبّلَ ركبتَه الشَّريفةَ وهو علىٰ فرسِهِ؛ فقال ﷺ له: «آجرَكَ اللهُ في أبيك»!

* ثمَّ إنَّ أبا سعيد نظرَ إلى وجههِ الشَّريف ، فإذا في وجنتَيْه الشَّريفتَيْن مثل موضع الدِّرهم في كُلِّ وجْنَةٍ ، وإذا شجَّةٌ في جَبْهتهِ الشَّريفةِ عند أصولِ الشَّعْر ، وإذا شَفَتُهُ السُّفْلى تدمى ، وإذا في رباعيّته اليُمْنى شظية ، وإذا على جُرحهِ شيءٌ أسودُ.

---

(١) المغازي (١/٢٤٧) بشيء من التصرف.

(٢) «الشيخين»: موضع بالمدينة استعرض فيه النبي ﷺ جيشه قبل أن يسير إلى أحد.

(٣) «بطن قناة»: أحد أودية المدينة المنورة.

* وسأل أبو سعيد النَّاسَ: ما هذا على وجهه؟ فقالوا: حصير مُحرَّق.

ثمَّ سأل: مَنْ دمَّى وجنتَيْه؟

فقيل: ابنُ قميئة.

فقال: ومن شجَّه في وجههِ وجبهته؟

قيل: ابنُ شهاب.

فقال: مَنْ أصابَ شفَتَه؟

قيل: عتبةُ بنُ أبي وقاص.

* وجعل سيّدنا أبو سعيد يعدو بين يدي رسولِ الله ﷺ حتّى نزلَ ببابه، وما نزلَ ﷺ إلا حَمْلاً، ويرىٰ أبو سعيد ركبتَي النَّبيّ ﷺ مجحوشتَيْن، يتكىءُ على السَّعْدَيْن: سعدِ بنِ عبادة؛ وسعدِ بنِ معاذ، حتّى دخَلَ بيته.

* ولما غربتْ شمسُ ذلك اليوم، وأذَّنَ بلالُ بنُ رباح بالصَّلاة، خرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ على مثل تلك الحال يتوكّأ على السَّعدَيْن، ثمَّ انصرفَ إلى بيته؛ والنَّاسُ في المسجد يوقدون النِّيران يُكمّدون بها الجراح، ثمّ أذّن بلالٌ بالعشاءِ حين غاب الشَّفَقُ، فلم يخرجْ رسولُ الله ﷺ، وجلسَ بلالٌ عند بابِهِ حتَّى ذهبَ ثلثُ الليل، ثمَّ ناداه: الصّلاة يا رسولَ الله! فخرجَ رسولُ الله ﷺ وكان نائماً؛ ونظرَ أبو سعيد الخُدري إلى النَّبيّ ﷺ فوجَدَهُ أخفَّ في مشيته منه حين دخلَ بيتَه[1].

* يقول أبو سعيد رضي الله عنه: «فصلَّيتُ معه العشَاء ثمَّ رجعَ إلى بيته، وقد صفَّ له الرِّجالُ ما بين بيته إلى مُصَلاّه، يمشي وحدَهُ حتَّى دخَلَ، ورجعتُ إلى أهلي فخبّرتُهم بسلامةِ رسولِ الله ﷺ، فحمدوا اللهَ عزَّ وجلَّ على ذلك وناموا، وكانت وجوهُ الخزرج والأوسِ في المسجدِ على باب النَّبيّ ﷺ يحرسونَهُ، فَرَقاً من قريش أنْ تكرَّ»[2].

---

(١) انظر: المغازي (١/٢٤٧ و٢٤٨) بشيء من التصرف.

(٢) المغازي (١/٢٤٨ و٢٤٩).

* وظلَّ شهداءُ أحدٍ في وجدان سيّدنا أبي سعيد الخُدريّ ، وفي مقدمتهم: سيدنا حمزة بن عبد المطلب أسدِ الله وأسدِ رسوله ، ومصعب بن عمير ، ومالك بن سِنان وثلّة من الشُّهداء الأخيار ، فكان أبو سعيد يزورُهُم ويسلّمُ عليهم ويدعو لهم ، تطبيقاً لأمْرِ النَّبيّ ﷺ الذي أمرَ بزيارتهم والسّلامِ عليهم. وقد أوردَ الواقدي خبرَ زيارةِ أبي سعيد لشهداء أُحُدٍ فقال: «وكان أبو سعيد الخُدري يقفُ على قَبْرِ حمزةَ فيدعو ويقولُ لمن معه: لا يُسَلِّمُ ، عليهم أَحَدٌ إلَّا ردُّوا عليه السَّلام ، فلا تَدَعُوا السَّلامَ عليهم وزيارتهم»[1].

* وتبدأُ رحلةُ الجهادِ العَمَليّةِ بالمشاركةِ الجسميّة لأبي سعيد بعد غزاةِ أحد ، وإن كانت مشاركة أبي سعيد الوجدانية قبلَ أُحدٍ لا تخفى على كلِّ ذي بَصِيرةٍ.

* أخذ أبو سعيد يدرجُ في مدارجِ الصِّبا والشَّباب ، ويصقلُ ذلك كلّه بالعلْمِ وحضورِ مجالسِ التَّعليمِ النَّبويّة الميمونة ، فقد جمعَ سيّدنا أبو سعيد الخدري الحسنَيين: حبّ العلْم وحبّ الجهاد ، وتوّجَ ذلك كلّه بالمحافظةِ على مرضاةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ومرضاةِ نبيّه ﷺ.

* ذكر كُتَّابُ السِّيرةِ والطَّبقاتِ والتَّراجمِ وغيرهم أنَّ سيدنا أبا سعيد الخُدري: «غزا مع رسولِ اللهِ ﷺ ـ بعد أن استُصْغِرَ يوم أُحُد ـ ثنتي عشرة غزوة»[2].

* أخرج الحاكمُ في «مستدركه» عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: «خرجتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ في غزوةِ بني المصطلق». قال ابنُ عمر: «وهو يومئذٍ ابنُ خمس عشرة سنة. وقال: «وشهدَ أيضاً أبو سعيد الخندقَ وما بعد ذلك منَ المشاهدِ»[3].

---

(١) المغازي للواقدي (١/ ٣١٣ و٣١٤). واقرأ سيرة سيدنا حمزة بن عبد المطلب في موسوعتنا «رجال أهل البيت».
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٣٧) ، وتهذيب التهذيب (٣/ ٤١٦).
(٣) المستدرك (٣/ ٦٥٠).

* وقال الذَّهبيُّ رحمه الله: «شهدَ أبو سعيد الخندق، وبيعةَ الرضوان»[١].

* أما عن مشاركة سيّدنا أبي سعيد غزوةَ بني المصطلق، فقد كان في سنةِ خمسٍ من الهجرةِ المباركة، وأخبر أبو سعيد بمشاركتِهِ فيها فقال: «خرجْنَا مع رسولِ اللهِ ﷺ فأصبْنَا سَبَايا.. فقدم علينا وفودهم فافتدوا الذّرية والنِّساء...»[٢].

* وأمّا عن حضورِهِ الفعَّال في غزاةِ الخندق فيشهدُ له تاريخُهُ العِلْميُّ بذلك، فقد نَقَلَ لنا بأسلوبهِ الصَّادقِ المُعبِّر صِفَةً من صفاتِ النَّبي ﷺ ومشاركته أصحابه في حفْر الخندق، فيقول: «لكأنّي أَنظُرُ إلى رسولِ الله ﷺ وهو يحفرُ في الخندقِ مع المسلمين، والتُّراب على صدره وبين عُكَنِهِ، وإنّه ليقولُ:

اللهم لَوْلاَ أنتَ ما اهتدينا ... ولا تَصَدَّقْنَا ولا صَلّينا»[٣]

* وينقلُ لنا أبو سعيد مشْهداً آخرَ من مشاهدِ غزوة الخندق، ويظهرُ من خلال حديثه علمُهُ واهتمامُه بأحكامِ الصَّلاة التي صلاّها النَّبيّ ﷺ يومَها.

* قال أبو سعيد الخُدري رضوانُ اللهِ عليه: «حُبِسْنَا يومَ الخندقِ، فلمْ نُصَلّ الظُّهْرَ، ولا العَصْرَ، ولا المغربَ، ولا العشَاءَ، حتى كان بعد هويّ من الليلِ كُفينا، وأنزلَ اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، وأمرَ رسولُ اللهِ ﷺ بلالاً فأقامَ، وصلَّى الظُّهرَ فأحْسَنَها، ثم كذلك كلّ صلاةٍ بإقامةٍ إقامةٍ»[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٩).

(٢) المغازي (١/ ٤١٣) باختصار، وانظر: الاستيعاب (٤/ ٩٠) بهامش الإصابة.

(٣) المغازي (٢/ ٤٤٩).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية (ص ١٥٠٨)، وكان ابنُ عبَّاس يحدّثُ فيقول: قال رسولُ اللهِ ﷺ يومئذ: «شغَلنا المشركون عن صلاةِ الوسطى ـ يعني العصر ـ ملأَ اللهُ أجوافَهم وقبورهم ناراً». وقال ابنُ كثير رحمه الله: «وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] أي: لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتّى يجلُوهم عن بلادهم، بل كفى اللهُ وحده، ونَصَر عبده، وأعزّ جندَه، ولهذا كان رسولُ الله ﷺ يقول: «لا إله=

* وضعت غزوةُ الخندقِ أوزارها وكفى اللهُ المؤمنينَ القتالَ ، وكان أبو سعيد الخُدريّ أحدَ المؤمنينِ الذين كفاهم اللهُ القِتال ، ورأينا كيف حدَّثنا عن الصَّلواتِ التي حَبَسهم وشغَلَهم عنها المشركون ، ومن الجدير بالذّكْر أنَّ هذه الصَّلاة لم تكن صلاةَ خوفٍ ، وإنَّما كان ذلك قبل أنْ ينزلَ اللهُ عزَّ وجلّ صلاة الخوف في قوله عزَّ وجلّ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩][1].

* وتعقبُ غزوةُ بني قريظة غزوة الخندق ، فيشهدُهَا سيّدنا أبو سعيد

= إلا الله وحده ، صدقَ وعده ، ونصرَ عبده ، وأعزّ جنده ، وهزمَ الأحزابَ وحده ، فلا شيءَ بعده».
وقال ﷺ: «اللهم منزّل الكتاب ، سريعَ الحساب ، اهزم الأحزابَ ، اللهمّ اهزمهم وزلْزِلْهُم». وهكذا وقعَ بعدها ، فلم يغزهم المشركون ، بل غزاهم المسلمون في بلادهم ، وكان اللهُ قوياً عزيزاً بحوله وقوّته ، فردهم خائبين ، ولم ينالوا خيراً ، وأعزَّ اللهُ الإسلام وأهله ، وصدق وعده ، ونصرَ رسولَه وعبده ، فلَه الحمدُ والمنّة». (تفسير ابن كثير ٣/ ٩٨٨) بتصرف.

(١) انظر: تفسير زاد المسير لابن الجوزي (ص ١٤٥ و١٤٦) ، قال ابنُ عطيّة رحمه الله في تفسيره: «أمرَ اللهُ تعالى بالقيامِ له في الصَّلاة بحالةِ قنوت ، وهو الوقارُ والسَّكينةُ ، وهدوء الجوارح ، وهذا على الحالةِ الغالبةِ من الأمْنِ والطُّمأنينةِ ، ثمَّ ذكر تعالى حالةَ الخوفِ الطَّارئة أحياناً ، فرخَّصَ لعَبيدِهِ في الصَّلاةِ رجالاً متصرفين على الأقدام ، وركباناً على الخيلِ والإبلِ ونحوهما ، إيماءً وإشارة بالرأس حيث ما توجّه ، هذا قولُ جميعِ العُلماء ، وهذه هي صلاةُ الفذّ الذي قد يضايقه الخوف على نفسهِ في حالِ المسايفة ، أو من سَبُعٍ يطلبه ، أو من عدوٍ يتبعه ، أو سَيْلٍ يحمله. وبالجملةِ فكل أمْرٍ يخاف منه على روحهِ فهو يبيحُ ما تضمنته هذه الآية.
وأمّا صلاةُ الخوفِ بالإمام ، وانقسام النّاسِ فليس حكمُها في هذهِ الآية ، وفرّق مالك رحمه الله بين خوف العدو المقاتل ، وبين خوف السَّبُع ونحوه ، بأن استحب في غير خوف العدو الإعادة في الوقت ، إن وقعَ الأمنُ ، وأكثر فقهاء الأمصار على أنَّ الأمر سواء». (تفسير ابن عطية: المحرر الوجيز ص ٢١٦ و٢١٧).
ومن الجدير بالذكر أنَّ المسلمين في يوم الخندق لم يقدروا أنْ يزولوا من مواضعهم ، وما يقدرُ رسولُ الله ﷺ على صلاةِ الظُّهر ، ولا العصر ، ولا المغرب ، ولا العشاء ، فجعل أصحابه يقولون: يا رسولَ الله ما صلّينا؛ فيقول: «ولا أنا والله ما صليتُ» حتى كشَفَهم الله تعالى ، وعندها أذّنَ بلالٌ وأقام للظّهرِ ، وأقام بعدُ لكل صلاة إقامةً إقامةً.

الخُدريّ مع الصَّحابةِ المؤمنين ، وروى قصَّة تحكيمِ سعدِ بنِ معاذ رضي الله عنه في بني قُريظة ، وهذا ما جاء في الصَّحيحَيْن بسندٍ عن أبي أمامةَ سهلِ بنِ حُنيف قال: سمعتُ أبا سعيد الخُدريّ قال: نزلَ أهلُ قُريظَة على حكْمِ سعدِ بنِ معاذ ، فأرسلَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى سَعْدٍ ، فأتاهُ على حِمَارٍ ، فلمّا دنا قريباً من المسجدِ ، قال رسولُ الله ﷺ للأنصار: «قوموا إلى سيِّدكم ـ أو: خيركم» ، ثم قال: «إنَّ هؤلاء نزلُوا على حكْمِكَ».

قال: تَقْتُلُ مُقَاتِلَتَهُمْ؛ وتَسبي ذرّيتَهم».

فقال النَّبي ﷺ: «قضيتَ بحكْمِ الله». وربّما قال: «قضيتَ بحكم المَلِك»[(١)].

* ولما توفي سعدُ بنُ معاذ رضي الله عنه ، كان أبو سعيد مع ثلّةٍ من الصَّحابة مع النَّبي ﷺ ، فبلغَهُ ﷺ موت سعد ، فخرجَ بالنَّاس ، فلمّا برزَ إلى البقيعِ قال: «خُذوا في جهازِ صاحبكم».

قال أبو سعيد: «وكنتُ ممَّنْ حفَرَ لسعدِ بنِ معاذ قبره بالبقيع ، فكان يفوحُ علينا المسك كلّما حفرنا ، حتّى انتهينا إلى اللحد»[(٢)].

* وروىٰ أبو سعيد عن النَّبيّ ﷺ قال: «اهتزَّ العرشُ لموتِ سعدِ بنِ معاذ»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤١٢١) ، ومسلم برقم (١٧٦٨) ، ومعنى قوله: «نزل أهل قريظة على حكْمِ سعد بن معاذ»: فيه جواز التحكيم في أمور المسلمين ، وفي مهمّاتهم العظام ، وقد أجمع العلماءُ عليه. و«قوموا إلى سيّدكم ـ أو خيركم»: فيه إكرامُ أهلِ الفضْلِ ، وتلقّيهم بالقيام لهم إذا أقبلوا؛ هكذا احتجّ به جماهيرُ العلماء لاستحباب القيام. قال القاضي: وليس هذا من القيامِ المنهي عنه ، وإنّما ذلك فيمن يقومون عليه وهو جالس ، ويمثلون قياماً طول جلوسه. قال النّووي رحمه الله تعالى: «القيام للقادم من أهل الفضل مستحبٌ ، وقد جاءت فيه أحاديث ، ولم يصح في النّهي عنه شيء صريح. وقد جمعت كل ذلك مع كلام العلماء عليه في جزء ، وأجبتُ فيه عما توهم النهي عنه ، والله أعلم». (المنهاج ص ١٣٦٣).

(٢) انظر: المغازي (٢/٥٢٨) ، وسير أعلام النبلاء (١/٢٨٩) مع الجمع والتصرف.

(٣) أخرجه أحمد (٤/٤٨) حديث رقم (١١١٨٤) ، والحاكم في المستدرك (٣/٢٢٧) ، =

* وفي فَرضيّة الجهادِ ومسيرته شاركَ أبو سعيد في غزوةِ الحُديبية ، وبايعَ بيعةَ الرضوان وانضوى تحت الذينَ رضي الله عنهم ، كما خرجَ أبو سعيد في سَرِيَّةِ مؤتة ، وأُصيبَ يوم مؤتة زيدُ بنُ حارثةَ ، وجعفرُ بنُ أبي طالب ، وعبدالله بنُ رواحةَ رضي الله عنهم ، فأخذَ الرَّايةَ خالدُ بنُ الوليد سيفُ اللهِ وسيفُ رسوله ، وعادَ بالنَّاس إلى المدينة ، يقولُ أبو سعيد: «فلمّا سَمِعَ أهلُ المدينةِ بجيشِ مؤتةَ قادمين ، تلقوهم بالجُرْفِ فجعلَ النَّاس يَحْثونَ في وجوههم التُّراب ويقولون: يا فُرّار ، أفررتم في سبيلِ الله؟! فيقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «ليسوا بفرّار ، ولكنّهم كرارٌ إنْ شاء الله»[(١)].

* وتابع سيّدنا أبو سعيد رضوان الله عليه مسيرةَ الجهادِ في المعيَّةِ النَّبويّة ، فحضرَ فتح مكّة ، ثمّ حُنيناً ، وله يومها حديثٌ شائقٌ مؤثّرٌ عن الأنصارِ وعتبِهم على النّبي ﷺ في توزيع غنائم حُنين ، ثم انتهى الحديثُ بدعاءٍ نبوي مباركٍ للأنصار وأبنائِهم. . وهاكم حديثُ أبي سعيد الخُدريّ الجميلِ الآسرِ والمؤثّرِ.

* أخرجَ الإمامُ أحمد رحمه الله ورضي عنه بسندهِ عن محمود بنِ لبيد عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: «لمَّا أعطىٰ رسولُ اللهِ ﷺ ما أعطىٰ من تلك العطايا في قريش وقبائلِ العرب ، ولم يكنْ في الأنصار منها شيء ، وَجَدَ هذا الحيُّ من الأنصارِ في أنفسِهم ، حتى كَثُرَتْ فيهم القَالةُ ، حتّى قال قائلُهم: لقيَ رسولُ اللهِ ﷺ قومَه.

فدخلَ عليه سعدُ بنُ عُبادة رضي الله عنه فقال: يا رسولَ اللهِ ، إنَّ هذا الحيَّ قد وجَدُوا عليكَ في أنفسِهم لِما صَنَعْتَ في هذا الفيء الذي أَصَبْتَ ،

= وقال: «هذا حديثٌ صحيح على شرطِ مسلمٍ ولم يخرّجاه ، وقد صحَّ سنده عن جابر بنِ عبدالله رضي الله عنهما». ومعنى «اهتزَّ»: فَرِحَ. وفي هذا الحديث إشارة إلى كرامات الأولياء في الحياة وبعد الممات والله تعالى أعلم؛ وانظر: الاستبصار (ص ٢١٠).

(١) المغازي (٢/ ٧٦٤).

قَسَمْتَ في قومكَ ، وأعطيتَ عطايا عظاماً في قبائلِ العرب ، ولم يكنْ في هذا الحي من الأنصارِ شيء .

قال: «فأين أنتَ منْ ذلك يا سَعْدُ»؟

قال: يا رسولَ الله؛ ما أنا إلاّ امرؤٌ من قومي ، وما أنا؟

قال: «فاجمعْ لي قومَكَ في هذهِ الحظيرة» .

فخرجَ سعدٌ ، فجمعَ النَّاس في تلك الحظيرة؛ فجاء رجالٌ من المهاجرين فتركَهم ، فدخلُوا ، وجاء آخرون فردَّهم ، فلمّا اجتمعُوا أتاه سَعْدٌ فقال: قد اجتمعَ لك هذا الحيّ من الأنصار .

فأتاهم رسولُ الله ﷺ ، فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه بالذي هو له أهلٌ ، ثمّ قال: «يا معشرَ الأنصار؛ ما قَالَةٌ بلَغَتني عنكم ، وجِدَةٌ وجدتموها في أنفسِكم ، أَلَمْ آتكم ضَلاّلاً فهداكم اللهُ ، وعالَةً فأغناكم اللهُ ، وأعداءً فألَّف اللهُ بين قلوبكم»؟!

قالوا: بلىٰ؛ اللهُ ورسولُهُ أَمَنُّ وأفْضَلُ .

قال: «ألا تجيبوني يا معشرَ الأنصار»؟

قالوا: بماذا نجيبُكَ يا رسولَ اللهِ ، وللهِ ولرسولهِ المنُّ والفَضْلُ . قال: «أما واللهِ لو شئتم لقُلْتُم ، فلصدقْتُم وصُدِّقْتُم: أتيتنا مُكَذَّباً فصدّقْنَاك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فأغنيناك ، أوجدتُمْ في أنفسكم يا معشرَ الأنصار في لُعَاعةٍ من الدنيا تألَّفْتُ بها قوماً لِيُسْلمُوا ، ووَكَلْتُكُمم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضَوْن يا معشرَ الأنصار أنْ يذهبَ النَّاسُ بالشَّاةِ والبعيرِ ، وترجعُون برسولِ اللهِ في رحالكم؟ فو الذي نفسُ محمّدٍ بيدهِ لولا الهجرةُ لكنْتُ امرءاً من الأَنْصَارِ ، ولو سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً ، وسَلَكَتِ الأنصارُ شِعْباً لسلكْتَ شعْبَ الأنصار ، اللهم ارحمِ الأنصارَ ، وأبناءَ الأنصارِ ، وأبناءَ أبناء الأنصار» .

فبكى القومُ حتّى أخضَلُوا لِحَاهُم ، وقالُوا: رضيْنَا برسُولِ اللهِ قسماً

وحظاً. ثم انصرفَ رسولُ اللهِ ﷺ ، وتفَرَّقْنَا»[1].

* وهذا تعليقٌ نفيسٌ ولطيفٌ على حديثِ سيّدنا أبي سعيد الخُدري ، أودُّ أنْ أسوقَهُ ها هنا لأستاذِنا الدُّكتور مُحمَّد فَوزِي فيض الله حفظَه اللهُ ورعَاهُ ، لما فيهِ من شفافيةٍ وفائدةٍ وحبٍّ للنبيّ الكريمِ ﷺ ، وما أجملَ الحديثَ إذا كان عن الحبيبِ محمّدٍ ﷺ!! يقولُ فضيلةُ الدّكتور محمّد فوزي فَيْضُ الله حفظه الله ورعاه: «هكذا تتسرَّبُ المادَّةُ لتَّتخِذَ سبيلها إلى القلوبِ؛ لكن هيهات هيهات أنْ يكونَ لها محلٌّ من الإعراب في قلوبِ المؤمنين الصَّادقين. .

وهكذا يُصارحُ الرَّسولُ الأمينُ محمّد ﷺ صحابتَه من الأنصار رضي الله عنهم ، فيعرّفهم بفضلهِ عليهم: في الإيمان؛ وتوحيدِ الصَّف ، وتأليفِ القُلوب ، ويذكرُ لهم تصديقهم برسالتِهِ ، وإيواءَه في الهجرة ، ومواساته أصحابه من المهاجرين أموالهم. . .

لكنْ ما الذي حَدَثَ؟ كلُّ هذا الذي أُعطي قريشاً والقبائل ، ما هو في ميزان الإسلام إلاّ كبقلة خضراء ، تُقدّم إلى حيوان يُرادُ استئناسه. . والذي عند الله عزَّ وجلَّ خيرٌ وأبقى للأبرار ، وهو ما أُعطي لهم إلا للتّألّف ، ورجاء أن يكونوا مثلهم مسلمين؛ إنّها ليست قوميةً ولا عصبيةً ، إنّها لله عزَّ وجلَّ ، ولدِيْنِهِ الحقّ ، وشرعهِ الحنيف ، وليس للرَّسولِ ﷺ نفْسِهِ ولا لأهله منها شيءٌ ، لقد رجع صفر اليدين من كل الغنائم ، لم يتخذ لنفسه منها نقيراً ، كما رجعَ الأنصارُ ، فهل عَرَفَتِ الدُّنيا نظيراً لهذا السّمو والتّرفُّع والصَّفاء والنَّقاء؟

---

(١) المسند (٤/١٥٢ و١٥٣) حديث رقم (١١٧٣٠) ، والسيرة النبوية (٤/١٩٨ ـ ٢٠٠) ، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/١٧٦ ـ ١٧٨).
ومعنى «القالة»: الأمر الرديء. و«وجدة»: العتاب. و«عالة»: فقراء. و«أمن»: النعمة. و«عائلاً»: فقيراً. و«لُعَاعة»: بقية يسيرة واللعاعةُ: بقلة خضراء ناعمة شَبَّه بها زهرة الدنيا ونعيمها. و«شعباً»: الشِّعْبُ: الطَّريقُ بين جَبَلَيْن. و«أخضلوا»: بلّوا لحاهم بالدُّموع.

إنَّهم ذهبوا بالشّياه والبعران ، وحظي الأنصارُ بسيِّدِ الخلْقِ الحبيبِ المحبوبِ ﷺ ، ومَنْ يسوّي الشِّياه والبعران بسيّد الوجودِ ﷺ؟. . . . لو كان للرّسولِ العظيم ﷺ أنْ ينتسبَ لانتسبَ إلى الأنصار ، ولو افترقَ النَّاسُ لكان هو في صفِّ الأنصار ، إنّهم الخيرةُ المختارةُ ، والصَّفوةُ المُصْطفاةُ من النَّاس أجمعين . .

إنّهم جسمُ الأمّةِ ، والنَّاسُ ثيابٌ ، إنّهم أصلُ الإسلام ، وعدّتُه ، وهُيولاهُ وجوهرُه ، والنَّاسُ لونُه وزينتُه ومظهرهُ.

ولن تجدَ بين حاكمٍ ومحكومٍ صراحةً صادقةً أبرزَ من هذهِ المصارحةِ ، ولن تجدَ في دنيا النَّاس تجرُّداً عن المادّة وإخلاصاً للعقيدةِ والمبدأ كهذا التَّجرُّدِ والإخلاص.

أَفَلَمْ يأَنِ لأهلِ العقائدِ ، والفَلْسَفاتِ الماديّةِ ، والمذاهب البرَّاقةِ الخادعةِ ، أنْ ينكبوا عمّا شغَلُوا به أنفسهم وشغَلُوا به النَّاس وفتنوهم عمّا يسعدهم إلى ما يشقيهم ويغويهم ، وأنْ يلتفتُوا إلى هذا الدِّين ، ويتلقَّفُوا هذه المبادىء السَّامية ، في العدلِ والمساواةِ في الحريّةِ والتَّأسّي ، في التَّجرُّدِ للواحدِ الأحد ، وتخير هذا الوجود كلّه لخالقهِ ومالكهِ؟»[1].

* وتذكرُ المصادرُ وكتُبُ المغازي أنَّ أبا سعيد الخُدريّ رضي الله عنه قد شهدَ غزوةَ تبوك في معيّةِ النَّبيّ ﷺ وجيشِهِ الذي زادَ يومَها عن ثلاثين ألف مجاهد ، يتقدّمهم عشرةُ آلاف فارس ، ولمَّا وصلَ جيشُ المسلمين تبوك لم يجِدْ أحداً هنالك ، لأنَّ الرُّومَ لما بلغَهم مسير هذا الجيش الذي يؤْثرُ الموتَ على الحياة ، آثروا الانسحابَ إلى بلاد الشَّام ، فلم يتبعهم النّبيّ ﷺ.

* وفي هذه الغزوة المباركة نقل سيّدنا أبو سعيد كثيراً من الأحداثِ والمعجزاتِ التي صارت خلالها ، كما أنَّ النَّبيّ ﷺ قد بعثَ سريةً من هناك

(١) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ؛ للدكتور محمد فوزي فيض الله (ص ٤٤٥ و٤٤٦) ، دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.

إلى أُكيدر دُومةَ الجنْدلِ ، وكان أبو سعيد من أفرادِ هذه السَّريّة ، وقد أخبرَ النَّبيُّ ﷺ خالداً بأنَّه سيجدُ أكيدرَ دُومةَ وأخاه حسَّان في نَفَرٍ من أهْلِ بيتهِ يصطادون بَقَر الوحْشِ ليلاً ، فذهبَ خالدٌ ومَنْ معه ، فلم يجدوا مقاومةً تُذكر ، فقتلوا أخاه حسَّانَ وأسروا أكيدراً ، وكان عليه قباءٌ من ديباج مزيّن بالذَّهَب ، فاستلبه خالد ، وأرسلَ به إلى النَّبي ﷺ قبل قدومِهِ عليه ، فتعجَّب منه المسلمون فقال لهم رسول الله ﷺ: «أتعجبون مِنْ هذا؟ فو الذي نفسي بيده ، لمناديلُ سعد بن معاذ في الجنّةِ أحسنُ من هذا».

ثم إنَّ خالداً قدم بأكيدر على رسولِ الله ﷺ ، فحقنَ له دمه ، وصالَحه على الجزيةِ ، ثم خلّى سبيله. فقال رجلٌ من طيء يُقال له: بُجَير بن بُجَرَة يذكرُ قَولَ رسولِ الله ﷺ لخالد: «إنَّك ستجدهُ يصيدُ البقر» وما صنعتِ البقرُ تلك الليلة حتى استخرجَتْه ، لتصديق قولِ رسولِ الله ﷺ:

تَبَارِكَ سَائِقُ البَقَراتِ إنّي ... رأيتُ اللهَ يهدي كُلَّ هَادِ
فمن يَكُ حائداً عن ذي تَبوكٍ ... فإنّا قَدْ أُمِرنَا بالجِهَادِ[1]

* ويتحدَّثُ أبو سعيد رضي الله عنه عمَّا أصاب من مغانم هذه السَّريّة التي أسروا خلالَها أكيدر فيقول: «أَسَرْنا أكيدر ، فأصابني من السِّلاح درعٌ وبيضةٌ ورمحٌ ، وأصابني عَشْرٌ من الإبل»[2].

* ومع هذه النَّغمات المعبّرة التي تحكي قصَّة أكيدُر دومة:

أمّا أكيدرُ فهو حَاكمُ دُومَةٍ كالحَاكمين
قالَ النَّبيُّ لِخَالدٍ اِذهبْ إليهِ لِتَسْتَبين
تَلْقَاهُ خَارجَ بيتِهِ لِيَصِيدَ بقْراً مُوحشين
قد سَارَ خالدُ بالرِّجالِ كما أشَارَ لهُ الأمين

(١) السيرة النبوية بشرح أبي ذر الخشني (٤/ ٢٣١ و٢٣٢) بشيء من التصرّف.

(٢) انظر: المغازي (٣/ ١٠٢٩) وهكذا نجدُ أنَّ سيدنا أبا سعيد الخدري قد جمعَ بين العلم والجهاد ، وكان يقول: «كنّا نغزو ونَدَعُ الرّجلَ والرّجلين لحديث رسول الله ﷺ ، فنجيء من غزاتنا ، فيحدّثونا بما حدّث به رسول الله ﷺ ، فنحدّث به نقول: قال رسول الله ﷺ» (الكنز ٥/ ٢٤٠).

حتَّى إذا كانوا على بُعْدٍ يُرى للنَّاظِرين
وأكيدرٌ مع زَوْجِهِ في القَصْرِ كانا سَاهِرين
في لَيْلةٍ قَمْراءَ صَائِفَةٍ كَلَيْلِ الحالمين
في ذلك الوقتِ المُقَدَّرِ من إلهِ العالمين
قد جَاءَتِ الأبقارُ بابَ القَصْر مثْلَ الطَّالبين
لم يسْتَطِعْ صَبْراً أتاهم في لِباسِ الصَّائدين
جَاءتْهُ خَيْلُ مُحَمَّدٍ أَخَذُوهُ أَخْذَ القَادِرين
قتلُوا أخاهُ وصَارَ مأْسُوراً بأيدي المسلمين
جَاؤوا بهِ للمُصطفى أعطاهُ عَهْدَ الآمنين
المُسلمون رأَوا ملابِسَه غَدوا مُتعجِّبين
قالَ النَّبيُّ لهم فَلا تتعجَّبوا يا مؤمنين
في جنَّةِ الرّضوان سَعْدٌ في عدادِ الخالدين
منديلُهُ قد فَاقَ للدِّيباجِ والخزّ الثَّمين(١)

* كما أنَّ أبا سعيد شاركَ في عددٍ من السَّرايا ، ومنها سريةُ بُشَيرِ بنِ سَعْد؛ وسريةُ علقمةَ بن مُجزِّز المُدْلجيّ ، وسريةُ عليّ بن أبي طالب إلى اليمن وغيرها. ومن خلالِ مغازيه وسراياه كان أبو سعيد يتركُ أنْصعَ الآثار العِلْميّةِ والجهاديّةِ ، وينقلُ لنا الأحكامَ والمشاهدَ والأخبارَ مُستفيداً من الصُّحبة النَّبويّة ، فقد لزم أبو سعيد النّبيّ ﷺ التزام الرّضيع بأمّه حتّى غدا من عُلماءِ الصَّحابةِ الحفَّاظ الذين أكثروا فأطابوا ، وهو من أصحابِ الألوفِ في الرِّواية؛ والصَّفحاتُ الآتيةُ تبيِّن ذلك.

---

(١) تغريد السيرة النبوية لمحمد عايش (٤/ ١٣٤) مكتبة دار التراث ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
ومعنى «أخذوه أخذ القادرين» أخذوه عنوة أسيراً. و«سعد»: هو سيدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه.

مِنَ الحُفَّاظِ المُكْثِرِين:

* عندما تحدَّثَ ابنُ عبد البرّ رحمه الله في «الاستيعاب»[1] عن سيِّدنا أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه، أَنْصَفَه فقال: «كان أبو سعيد منَ الحفَّاظِ

---

(١) «الاستيعاب»: الاستيعابُ في معرفةِ الأصحابِ من أهمّ الكتبِ التي ترجمتْ لأسيادنا الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، ومؤلّفه هو: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القُرطبي المولود في قرطبة عام (٣٦٨هـ) من كبارِ حفّاظ الحديث، مؤرّخٌ، أديبٌ، بحّاثة، يُقال له: حافظُ المغرب، له مؤلّفات كثيرة أشهرها «الاستيعاب»، وهو ثقةٌ مأمونٌ، توفي في آخرِ يومٍ من شَهْرِ ربيع الثاني عام (٤٦٣هـ).
جمع ابنُ عبد البرّ مادّة كتابه «الاستيعاب» ممّن تقدَّمه من المؤلفين، فأخذ عن موسى ابنِ عقبة، ومحمد بنِ إسحاق، ومحمد بنِ عمر الواقديّ، وخليفة بنِ خياط، والزّبير ابنِ بكّار، وعن البُخاري من تاريخه الكبير، وعن الطَّبري من كتابه: ذيل المذيل، وغير هؤلاء كثير.

وقد قسم كتابه الاستيعاب إلى عدة أقسام:

الأوّل: المقدمة: تحدَّث فيها بإيجازٍ عن النبي ﷺ ومغازيهِ وزوجاتهِ وعلامات نبوته.

الثّاني: تضمَّن أسماء الصَّحابة وجعله أبواباً، وراعىٰ في تراجمه ترتيبَ المعجم.

الثالث: ضمّنه كنى الرّجال الأصحاب، حيث ذكرَ فيه مَنْ عُرِفَ بكنيته أو لقبه سواء عرف اسمه، ولكنّه اشتهر بالكنية ـ كأبي سعيد الخدري مثلاً ـ، أمْ لم يعرف اسمه، وذكر قبل أنْ يبدأ في هذا القسم الطريقة التي سار عليها في ترتيبه فقال: «.. هذا كتاب ذكرتُ فيه من عرف من الصَّحابة رضوان الله عليهم بكنيته واشتهر بها ولم يوقف على اسمه، أو وقف على اسمه، ولكن غلبت عليه كنيته، فلم يُعرفْ إلا بكنيته ممّن اختلفَ في اسمه أو اتّفق عليه، وجعلته كتاباً مفرداً وصلْتُ به كتابي في الصَّحابة، إذ هو جزءٌ منه، وآخر أبوابه، وخاتمة فائدته، وجريتُ فيه على شرط الإيجاز والاختصار، ومجانبة التطويل والتكرار.. وجعلتُه أيضاً على حروفِ المعجم، ليكونَ أقرب على مَنْ أرادَ حفظه وعلمه. (الاستيعاب ٤/ ٢).

الرابع: كتاب النّساء، وذكر فيه النّساء اللواتي روينَ، وغيرهنّ ممن أتى في الرّوايات ذكرهنّ ممن رأى النّبيّ ﷺ، وسمعَ عنه، وحفظ عنه منهنّ.

الخامس: كنى النّساء، وذكر في هذا القسم النّساء اللواتي عُرفن بكناهنّ مثل أمّ فلان فيمن غلبت عليها كنيتها.

وبلغ مجموع من ترجم لهم من الرّجال والنساء (٤٢٢٥ صحابياً وصحابيةً).

المكْثِرين العُلماءِ الفُضَلاءِ العُقَلاءِ ، وأخبارُهُ تَشْهدُ له بتصحيحِ هذه الجُمْلَةِ»[1] .

* وقال ابنُ الأثير عنه : «من مشْهُوري الصَّحابةِ وفضلائِهم ، وهو مِنَ المكثرينَ مِنَ الرِّوايةِ عنه ﷺ»[2] . وقال عنه في موضع آخر : «كان من الحُفَّاظ لحديثِ رسولِ الله ﷺ المكثرين ، ومن العُلماء الفُضَلاء»[3] . وقال ابنُ حجر عنه : «روى عن النّبي ﷺ الكثيرَ . . وهو مكْثرٌ منَ الحديث»[4] .

وقال الخطيبُ البغدادي : «كان من أفاضلِ الصَّحابةِ ، وحفظَ عن رسولِ الله ﷺ حديثاً كثيراً»[5] . وقال الإمامُ الذَّهبيُّ عنه أيضاً : «حدَّثَ عن النَّبيّ ﷺ فأكثرَ وأطَابَ»[6] .

* هذه الأقوالُ القيّمةُ تنبىءُ عن قَدْرِ أبي سعيد الخُدريِّ ومقدارِه في عالَمِ روايةِ الحديثِ النَّبويّ الشَّريف وحفظه ، فهو أحدُ السَّبْعةِ المكثرين منَ الرِّوايةِ عن النَّبي ﷺ ، وجمعَ العلماءُ المتخصّصون حديثَه وقدروه بـ (١١٧٠ حديثاً) .

* قال النّووي رحمه الله : «روي لأبي سعيد عن النَّبي ﷺ ألف حديثٍ ومئة وسبعون حديثاً»[7] .

* وقال الذَّهبيُّ : «مسندُ أبي سعيد ألفٌ ومئةٌ وسبعون حديثاً»[8] .

* وقد ذكرَ العُلماءُ والمحدّثون والمصنّفون بأنَّ أبا سعيد الخُدريّ يأتي في المرتبةِ السَّابعةِ من الصَّحابة المكثرين عن رسولِ الله ﷺ ، علماً بأنَّ سيّدَ

---

(١) الاستيعاب (٤/ ٩٠) بهامش الإصابة ـ طبعة دار الكتاب العربي .
(٢) أسد الغابة (٢/ ٢١٣) ترجمة رقم (٢٠٣٥) .
(٣) أسد الغابة (٥/ ١٤٢) ترجمة رقم (٥٩٥٤) .
(٤) الإصابة (٢/ ٣٢) .
(٥) الإصابة (٢/ ٣٢ و٣٣) نقلاً عن تاريخ بغداد (١/ ٣٨٠) .
(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٩) .
(٧) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٣٧) .
(٨) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٧٢) .

الحفَّاظ الأثبات ، هو سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه ، وهو صاحبُ المرتبةِ الأولى في الرّوايةِ عن النبي ﷺ حيث روىٰ (٥٣٧٤ حديثاً).

* إذن ، فسيّدنا أبو سعيد من المكثرين في الحديثِ النَّبوي ، له في الصَّحيحَيْن (١١١ حديثاً) اتَّفقا على ثلاثةٍ وأربعين ، وانفردَ البخاري بستَّةَ عشَر حديثاً له ، ومسلم باثنين وخمسين حديثاً[١]. وأحاديثُهُ ورواياته موزّعة في المصنَّفات الحديثيّة ، إذ روى له الشَّيخان ، وأصحاب السُّنَن: أبو داود ، النّسائي ، التّرمذي ، وابن ماجه. كما روىٰ البيهقي والدارقطني ، وروى له أصحابُ المسانيد وفي مقدمتهم: الإمام أحمد بن حنبل ، وأبو يعلى الموصلي ، وعبد بن حميد ، والطّيالسي ، كما روى له عبد الرّزاق في المصنّف ، والحاكم في المُستدرك ، ولم يَخْلُ من حديثه مصنَّفٌ قديمٌ من المصنَّفات الحديثيّة.

* روى سيّدنا أبو سعيد عن النَّبيّ ﷺ؛ وعن أبيهِ ، وأخيهِ لأمّه قتادةَ بنِ النُّعمان ، وعن سادتنا عُلماء الصَّحابة الكبار الأعلام: سيّدنا أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم وأرضاهم وحشَرنا في معيّتهم وعفَا عنّا برحمته وفَضْله ومنِّهِ؛ كما روىٰ عن عددٍ من عُلماء الصَّحابة وفقهائهم من مثل: «زيدُ بنُ ثابت ، وعبدُ الله بنُ سلام ، وأبو قتَادَة الأنصاري ، وأبو موسىٰ الأشعري ، وعبدُ الله بنُ عباس ، ومعاويةُ بنُ أبي سفيان ، وجابرُ بنُ عبد الله ، وأسيدُ بنُ الحضير[٢]».

* أمّا من روى عنه فكثيرون ، وكان يستوصي بهم خيراً ، عَمَلاً بوصيةِ حبيبهِ ومعلّمه ومربّيه سيّده وسيّدنا محمد ﷺ.

* روى عنه من عُلماء الصَّحابة: عبدُ الله بنُ عمر ، وعبدُ الله بنُ عبّاس وهما من كبارِ عُلماء العبادلةِ الأخيار ، وهما أيضاً من أصحابِ الأُلوف في

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٧٢) ؛ وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٣٧).

(٢) عن تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٣٧) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٩) ، والإصابة (٢/ ١٣٢) مع الجمع والتصرف.

الرّواية، وروى عنه: جابرُ بنُ عبد الله، وأنسُ بنُ مالك، وهما أيضاً من عُلماء الصَّحابة ومن أصحابِ الألوف وهما أنصاريّان أيضاً من سَادةِ الأنصار.

* وروى عنه كذلك من أقربائه: زوجتُه زينبُ بنتُ كعب بنِ عجْرةَ وهي تابعيَّةٌ روت كذلك عن أختِ زوجها فريعةَ بنتِ مالك.

* أمّا مَنْ روى عنه من التَّابعين من أبناء الصَّحابة وغيرهم فكثيرون ومنهم: ابنُه عبدُ الرّحمن، وحُميدُ بنُ عبد الرحمن بن عوف، وأخوه أبو سلمةَ بنُ عبد الرحمن بن عوف، وسعيدُ بنُ المسيب، وعطاءُ بنُ يسار، وسعيدُ بنُ جبير، والحسنُ البصري وخَلْقٌ كثير[1].

* وأحاديثُ سيّدنا أبي سعيد كثيرةٌ ومشهورةٌ، وقد مرَّ معنا منها كثيراً، وسيمرّ في ثنايا التَّرجمة، وسأختارُ بعضَها ها هنا لتتوضّح الصُّورةُ العلميَّة بشكلٍ أكثرَ لسيّدنا أبي سعيد.

* ومن نماذجِ أحاديث أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه ما جاء في المستدرك في فضائل الصَّحابة ومعرفتهم، حيث أخرج بسندهِ عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «فاطمةُ سيّدةُ نساء أهل الجنَّة، إلا ما كان من مريمَ بنتِ عمران»[2].

* وما دمنا في الحديثِ عن المرأةِ، فلنذكر هذه الرّواية التي جاءت في الصَّحيح عن أبي سعيد وتشرح تعليمَ وتعلُّم النِّساء أمور الدِّين. فقد جاء في الصَّحيحَين عن أبي سعيد رضوان الله عليه قال: «جاءتِ امرأةٌ إلى رسولِ الله ﷺ، فقالت: يا رسولَ اللهِ! ذهبَ الرِّجالُ بحديثكَ، فاجعلْ لنا من نَفْسِك يوماً نأتيك فيه، تعلّمنا ممّا علمكَ اللهُ.

قال: «اجتمعْنَ يومَ كذا وكذا».

فاجتمعنَ، فأتاهنَّ رسولُ اللهِ ﷺ فعلَّمَهُنَّ ممّا علَّمه اللهُ، ثمَّ قال:

---

(١) المصادر السابقة عينها.

(٢) المستدرك (٣/١٦٨) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه».

«ما منكُنّ من امرأةٍ تُقدّم بين يديها ، من ولدها ، ثلاثة إلاّ كانوا لها حجاباً من النّار» .

فقالتِ امرأةٌ منهنَّ : واثنَين ، واثنَين ، واثنين؟

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : «واثنَين ، واثنَين ، واثنَين»[1] .

* ومن المفيدِ أنْ نعلِّقَ على حديثِ أبي سعيد تعليقاً يصقُل عَملَنا ويزيّنُه ، إذْ إنَّ هذا الحديثَ النَّبويّ الشَّريفَ من الأحاديثِ النّبويَّة التي ترسمُ طَلَبَ المرأةِ المسلمة للعلْمِ ومعرفة أمور الدّين .

* نلاحظُ من خلالِ هذا الحديث أنَّ امرأةً ذات جراةٍ أدبيةٍ طيِّبة مع ثباتِ قَلْبٍ تقولُ للحبيبِ المعلِّمِ محمّدٍ ﷺ معلنةً بأنَّ الرِّجالَ ذهبوا بحديثكَ ، ونالُوا حظَّهم من المعرفةِ ، لكنَّ النِّساءَ لا يستطعْنَ أنْ يسألْنَ دائماً عمَّا يخصهنَّ من أمورِ الدِّين ، وقد يستحين أمامَ الرّجال إذا كُنَّ في مجالسِ النَّبيِّ ﷺ منعزلاتٍ عن الرّجال ، فاجعلْ لنا معاشرَ النّساء يوماً نتعلَّم منك فيه ممّا علمكَ اللهُ عزَّ وجلَّ .

---

(١) أخرجه الشّيخان في صحيحهما؛ البخاري في العلم برقم (١٠١) ، ومسلم في البرِّ والصِّلة برقم (٢٦٣٤) واللفظ له؛ ومعنى «ذهبَ الرّجال بحديثك» : الرّجال استأثروا بحديثِ رسول الله ﷺ ، فلم يبقَ للنّساء وقتٌ خاص بهنَّ يتعلمْنَ فيه ما يخصهنّ ويتّصل بشؤونهنّ من أمور الدِّين . و«اجتمعْنَ يومَ كذا وكذا» : كذا : كلمة مركّبة من كاف التّشبيه؛ وذا التي هي من أسماءِ الإشارة ، ويُجاءُ بها «كذا» للكناية عن أمْرٍ ما ، إذا لم يقصدِ المتكلّم تحديد ذلك الأمر ، بل قصدَ أنْ يشيرَ إليه إشارةً عامةً ، أو كان يجهل تحديده .
ومعنى «ما منكنّ من امرأة تقدم بين يديها من ولدها ثلاثة» : المرادُ من قولهِ ﷺ : أنّهم يموتون قبلها ، فتتقبلُ قضاءَ اللهِ وقَدَرهُ راضيةً غير متسخّطة ، فكأنّها قدّمتهم بنفسها إلى الله عزَّ وجلَّ ، محتسبة أجر مصيبتها فيهم عنده ، إذ إنَّ الصَّبرَ من الأعمال التي يستحقّ فاعلها الأجر عند الله عز وجل بحسب وعده الكريم . ومعنى «فقالت امرأة منهنّ : واثنين» : على الاستفهام ، أي : أو تقديم اثنين من الولد كذلك يحجب من النّار . ومعنى «اثنين» على الإثبات ، أي : وتقديم اثنين من الولد كذلك .

* ولا ريبَ في أنَّ العلْمَ بهذه الطَّريقةِ يحافظُ على النِّساء وعلى عفافهنّ وأخلاقهنّ ، وبالعلمِ يصلحُ المجتمع بكلّ أفراده.

* وقد حرصَ الإسلامُ الحنيفُ على تعليمِ المرأة ما تكون به عنصَر صلاحٍ وخيرٍ وإصلاح وبناءٍ في المجتمعاتِ الإسلاميّة ، فرَغَّبَ المرأةَ في حضورِ الجمعةِ والجماعةِ ، وخطبةِ العيد ، وأمرها بالحجِّ والعمرةِ ، وحثّها على حضور مجالس العِلْم؛ فبمقدار صلاح المرأة وثقافتها الدِّينية الشَّاملة يكونُ صلاحُ المجتمع عامة والأسرة والأولاد خاصّة ، إذ إنَّ المرأةَ ذات عاطفةٍ ليّنةٍ تستطيع أنْ تفهمَ الصِّغَار وتشاركهم في أمورِهم ، وتطبعَ في نفوسِهم البريئةِ العاداتِ الصَّالحة والقيمَ التّربويةَ الفاضلَةَ ، كما تستطيعُ بعلمها وحصافتها أنْ تكونَ قدوةً لهم في الأخلاقِ والأعمالِ والأقوالِ ، وسائر تصرفاتها.

* وهكذا كانت هؤلاء الصّحابيات ، فقد تعلمْنَ أمورَ دينهنَّ من النَّبيّ ﷺ ، فكُنَّ من النَّاجحاتِ في أمورِ الحياة ، وقد أثنى النَّبي ﷺ على نساءِ الأنصار بأنَّه لا يمنعهنّ حياؤهنّ أنْ يسألْنَ عن أمورِ دينهنّ ، وسعيهن إلى مجالس التّعليم النّبويّة المباركة ليكُنَّ ممن يبني المجتمعَ بناءً صالحاً.

* ومن الجديرِ بالذّكرِ أنَّني توسَّعْتُ في الحديثِ عن دورِ الأمّهاتِ المُسلماتِ في العلم والتّربية لأبنائهنّ في كتابي «أمّهات وآباء وأبناء من التَّاريخ والسِّيرة» وهو مطبوعٌ بدارِ اليمامة الغراء.

* ومن مرويات أبي سعيد ما جاء عند مُسلم عنه عن النَّبي ﷺ قال: «إنَّ الدُّنيا حُلوةٌ خَضِرَةٌ ، وإنَّ اللهَ مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتّقوا الدنيا ، واتقوا النّساء ، فإنّ أوّلَ فتنةِ بني إسرائيل كانت من النِّساء»[1].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الرقاق برقم (٢٧٤٢) ، ومعنى «فاتقوا الدنيا»: تجنّبوا الافتتان بها، وبالنّساء ، وتدخل في النّساء: الزّوجات ، وغيرهنّ ، وأكثرهنّ فتنة الزّوجات ، ودوام فتنتهنّ، وابتلاء أكثر الناس بهنّ. ومعنى «الدُّنيا حلوة خضرة»: يحتملُ المرادُ به شيئان: **أحدهما**: حسنُها للنّفوس ونضارتها ولذتها ، كالفاكهةِ الخضراء الحلوة ، فإنَّ النُّفوس تطلبها ، فكذا الدنيا. =

أبو سعيد بينَ الفقْه والفَتْوىٰ :

* كان الصَّحابةُ الكرامُ رضوان الله عليهم يرغبونَ في العِلْم ويُرغّبون فيه ، ويعلِّمون ويتعلَّمون ما فيهِ من الإيمانِ والعمل ، حتّى توصّلوا إلى مرتبةِ الإفتاءِ ، وفقْه الأحكام ، ومنهم سيّدنا أبو سعيد الخُدريّ الذي تبوَّأ منزلةً رفيعةً بين عُلماءِ الصَّحابة وفقهائهم ومفتيهم .

* وقد شهدَ له بالفقْهِ الأكابرُ من عُلماء التَّابعين وغيرهم ، فقد جاء عن حنظلةَ بنِ أبي سُفيان عن أشياخه قالوا : «لم يكن أحدٌ من أحداثِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ أفْقَه من أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه»[1] .

* وفي مجالِ علوم الفتوى كان سيّدنا أبو سعيد ممّن يفتي في عَهْدِ الخلفاء الرّاشدين ، مع ثلّةٍ من علماءِ الصَّحابة ، بل إنَّ أبا سعيد قد صارت إليه الفتوى بعد وفاةِ عثمانَ بنِ عفان رضي الله عنه[1] .

* ولهذا نَعَتَهُ صاحب كتاب «الرّياض المُستطابة» بقوله : «فقيهاً نبيلاً جليلاً» ؛ كما ذكرَهُ الذَّهبي في «السِّير» بأنَّه «مُفتي المدينة» ، وعدَّهُ ابن حزم في «الإحكام» من المتوسّطين في الفتيا ، ويمكن أن تُجمع فتاواه في جزء صغير .

* يمكننا أن نقول : «إنّنا نستطيعُ أنْ نفهمَ بأنَّ فتاوى أبي سعيد يمكنُ أن تُجمعَ في مجلدٍ ضَخْم ، أمّا قولُ ابنِ حزم بأنَّ فتاواه تجمعُ في جزءٍ صغير فَلَعَلّه قصَدَ رؤوس المسائلِ فَقَط وعناوينها ، وليس شروحها وتفاصيلها وأحكامها وأحداثها» .

* ولأبي سعيد رضي الله عنه نظرةٌ بعيدةٌ في أمور الفقْهِ ومجالاته منها أنَّه كان يرى أنْ يعتمدَ المتعلّمُ والمتفقّهُ على الحفْظِ من دون الكتابةِ أو التَّدوين ،

= **الثاني** : سرعة فنائها ، كالشّيء الأخضر في هذين الوصفين.
ومعنى «مستخلفكم» : جاعلكم خلفاء من القرون الذين قبلكم ، فينظر هل تعملون بطاعته ، أم بمعصيته وشهواتكم.

(١) حياة الصحابة (٣/ ٢٥٤ و٢٥٥) بتصرف.

فكان يأمرُ طلاّبَه بقولهِ: «خُذُوا عنَّا كما أخذنا عن رسولِ اللهِ ﷺ» ويقولُ لهم أيضاً وقد أرادوا الكتابةَ عنه: «احفظُوا عنَّا كما حفظْنَا». وفي روايةٍ أخرى: «احفظوا منّا كما حفظناه منه»(١).

* وكان رضي الله عنه يأمرُ أصحابَه بالإكثار من مذاكرةِ العِلْم والحديث ويقول لهم: «تحدّثوا فإنَّ الحديثَ يذكّرُ الحديث»(٢).

* ومن الجديرِ بالذكر أنَّ هناك بعضَ الأمورِ جعلتْ أبا سعيد فقيهاً مفتياً محدّثاً وعالماً من كُبَراء علماء الصَّحابة، ومن أهم هذه الأمور وأبرزها:

١ ـ ذكاءُ أبي سعيد واجتهادُهُ وحرصُهُ على حبِّ العلْم، وقد استقى ذلك من طولِ الصُّحبةِ النَّبويّةِ المباركةِ في المرحلةِ المدَنية، وكان أبو سعيد إذ ذاك في سنّ التّوقُّد والشَّباب والنَّشاط، فهذه العواملُ كلُّها ساعدته على الحفْظِ والفَهْمِ والاستيعاب، فلم يعرفْ عنه غيابٌ عن مجلسٍ نبويّ، أو مشهدٍ، أو سَفرٍ، وكان أبو سعيد متفرغاً للعِلْم عمّن يكبرهُ من الأنصار الذين شغلَتْهم مسؤولياتُ الحياةِ والجهاد عن متابعةِ العلْم.

٢ ـ يعدُّ سيّدنا أبو سعيد رضي الله عنه من علماء الصَّحابة المُعَمَّرين نوعاً ما، إذ عاشَ قرابة (٨٤ عاماً) منها قرابة (٦٤ عاماً) بعد وفاةِ النّبيّ ﷺ، وكان خلال هذه الفترة قد توفي كثيرٌ من علماء الصَّحابة وفقهائهم، فاحتاجَ النَّاس إلى علْمِ أبي سعيد وفقههِ وفتاويهِ، وخصوصاً بعد الخلافة الرَّاشدة، حيث كانتِ الخلافةُ الأمويةُ وبخاصة في عهد سيّدنا معاوية رضي الله عنه، فقد أدركَ أبو سعيد خلافته كلّها، وعلى الرّغم من أنَّ سيدنا معاويةَ كان من فُقَهاءِ الصَّحابة وعلمائِهم إلا أنَّ حاجةَ النَّاس كانت منصرفة إلى فقهاءِ المدينةِ المنوّرةِ وعلمائها، ومنهم: سيّدنا أبو سعيد الخُدري، وابنُ عمر، وأمّنا عائشة، وأبو هريرة، وزيدُ بنُ ثابت، وجابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنهم أجمعين، وغيرهم كثير ممّن كانوا مصابيحَ الهدى وأوعيةَ العِلْم، وقد

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٧٧) بتصرف.
(٢) المستدرك (٣/ ٦٥١).

حضروا من القرآن الكريم تنزيله ، وأخذوا عن النّبي ﷺ تأويله .

٣ ـ شهدتِ المدينةُ المنورةُ بعد العَهْد الرَّاشدي الميمون ازدحاماً بالعُلماء ، ممَّا جعلَها أرضاً خصبةً ومنهلاً ثرّاً بين المدن الإسلاميةِ الأخرى في العِلْم ، ولذلك يقصدها الطَّالبون من كلِّ فجٍ عميق ، لأنّها نواةُ العلْم ، وفيها مدرسةُ الصَّحابة الكبرى التي كان لها جليلُ الأثرِ في إثراءِ مدرسة علماء التَّابعين[1]؛ وكان أبو سعيد أحدَ أعلام هذه المدرسة ، وممن يُؤخذُ عنه الفقْهُ وأمورُ الفتوى ، وممن يُقتدى به في الفضائلِ وجلائلِ الأعمال .

* والآن ، أعتقد أنَّه اتَّضحتْ شخصيّةُ أبي سعيد العلميّة ، فقد كان بحقّ دائرة معارف ، برزَ في التّحديث عن النّبي ﷺ ، وفي الفقْه والفتوى وسائرِ العُلوم الدِّينية .

* فمن فقْه أبي سعيد أنّه كان يرى أنَّ الأصل في الماء الطَّهارة ، وأنَّ الماء إذا لم يتغيّر طعمهُ أو ريحهُ أو لونُه يبقى طاهراً؛ وقد استندَ في ذلك على الهدي النّبويّ «بأنَّ الماءَ طهورٌ لا ينجّسه شيء»[2] .

* وكان أبو سعيد رضي الله عنه يرى أنَّ من تيمم وصلى لا يعيدُ الصَّلاة ، وإنْ وجَدَ الماء[3] . وكان يكره أنْ يصلي الإنسان بعد انقضاء صلاتَي الصُّبح والعَصْر[4] .

* وفي أحكامِ الأذان نجدُ لسيدنا أبي سعيد فِقْهاً متميزاً ، وفكْراً نقياً ، لأنَّه يعلمُ بأنَّ الأذانَ يبدأ بالأكبريةِ ، وهي تتضمَّنُ وجود الله عزَّ وجلَّ وكماله ، ثمَّ يلي ذلك التَّوحيد ونفي الشّركاء ثمّ إثبات الرّسالة المحمّدية ،

---

(١) «علماء التابعين»: سوف نقوم بإذن الله وعونه ومنّه بإصدار موسوعة كبرى مباركة تضم آثار علماء التابعين وسيرهم ومشاهيرهم ، نرجو الله أن يمدنا بفضله لنكمل هذا العمل.

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٦٦) ، والترمذي برقم (٦٦) ، والنسائي (١/ ١٧٤) ، وأبو يعلى برقم (١٣٠٤).

(٣) انظر: سنن أبي داود برقم (٣٣٨) ، والنسائي (١/ ٢١٣).

(٤) انظر: البخاري برقم (٥٨٦) ، ومسلم برقم (٨٢٧) ، والنسائي (١/ ٢٧٧) ، وأحمد (٤/ ٩٠) برقم (١١٤٠٩).

ثم الدَّعوة إلى الطَّاعة والفلاح ، بالإضافة إلى أنَّ الأذانَ فيه إظهار شعائر الإسلام بسهولةٍ ولطفٍ وتيسير. فقد كان سيّدنا أبو سعيد رضي الله عنه يردِّدُ ما يقول المؤذّن امتثالاً لأمر النَّبيِّ ﷺ[1]. وكان إذا دخل في الصَّلاة يكثرُ من الذِّكْر إذا رفَعَ رأسه من الركوع اقتداءً بالحبيبِ المصطفى ﷺ ، كما كان يُوتر قبل أنْ يصبحَ أيضاً.

* ومن فقْهِ أبي سعيد رضي الله عنه في صلاة الجمعةِ أنَّه كان يصلِّي صلاة تحيّة المسجدِ والإمام يخطبُ ، فقد جاء عند التّرمذي وغيره «أنَّ أبا سعيد الخُدري دخل ومروان يخطبُ فصلاَّهما ، فأراد حرس مروان أنْ يمنعوه فأبى حتّى صلاهما ، ثم قال: ما كنتُ لأدعهما بعد أنْ سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يأمر بهما»[2].

* وأما فقْهُ سيّدنا أبي سعيد في الزّكاة ، فكان يرى أنَّ الأقربين هُم الأَوْلَىٰ ، وأنَّ الصَّدقة على مَنْ كان أقرب إلى المتصدّق أفضل وأولى ، وخصوصاً صدقة التّطوّع لا صدقة الوجوب.

* ولفريضةِ الصَّومِ مكانةٌ أثيرةٌ عند سيّدنا أبي سعيد ، فهو لا يرى أنْ يواصلَ المسلمُ الصَّومَ ، «لأنَّ اليهودَ والنَّصارى يؤخّرون»[3] ، فلمّا كان ذلك شعاراً للمخالفين في الملّة ، كرَّرَ النَّبيُّ ﷺ إظهار مخالفَتِهم فيما يدينون به ، وكان ذلك شعاراً لِسُنَّةِ النّبي ﷺ ، وموافقاً لما ألفه ومضى عليه. وقالت العُلماء: «والحكمةُ في ذلك أنّه لا يزاد في النَّهار من الليل ، ولأنّه أرفقُ بالصَّائم وأقوى له على العبادة». ولذا كَرِهَ أبو سعيد المواصلة في الصّوم. وحجّته هَدْيُ النّبي ﷺ فيما جاء في الصَّحيح وغيره قوله: «لا تواصلوا ،

(١) انظر: البخاري برقم (٦١١) ، ومسلم برقم (٣٨٣) ، والترمذي برقم (٢٠٨) ، والنسائي (٢/ ٢٣) ، وأبو داود برقم (٥٢٢) ، وابن ماجه برقم (٧٢٠) ، وأحمد (٤/ ١٠٧) برقم (١١٥٠٤).

(٢) انظر: البدر التمام (٢/ ١٣٤ و٣٧٠).

(٣) الحديث أخرجه أبو داود برقم (٢٣٥٣) ، وابن ماجه برقم (١٦٩٨).

فأيّكم أرادَ أنْ يواصلَ ، فليواصِلْ إلى السَّحَر»[1]. فإباحةُ المواصلة إلى السَّحرِ تأخير للإفطار ، وتأخير الإفطار نظراً إلى سياسةِ النَّفس وقمع الشَّهوة أمر قد صنعه كثير من الرّبّانيين ، وأصحاب النّظر في الأحوالِ والمعارف ، ولكنْ في الحديثِ القُدسي دلالةٌ على محبوبية الله عزَّ وجلَّ لمن جرى على وفق سُنَّةِ نبيّه ﷺ[2]؛ وكان أبو سعيد رضي الله عنه ممّن يصنعُ ذلك ويسيرُ وفْقَ الهدي النّبويّ؛ فكان يصومُ في بعض الأحايين والأوقات صيام تطوّع في سبيلِ الله[3] ، شريطة ألاّ يفوّت به حق ، أو يتضرر ، ودون أن يختل بسَببه القيام بجهاده ، أو كَسْبهِ على نفسه ومَنْ يعول.

* وقد شهدَ أبو سعيد كثيراً من المغازي مع النَّبيِّ ﷺ ، ومنها الغزو في رمضان فكان الصَّائم والمفطر ، أخرج هذا مسلم في صحيحه بسندهِ عن أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه قال: «كُنَّا نغزو مع رسولِ اللهِ ﷺ في رمضان ، فمنا الصّائمُ ومنّا المفطر ، فلا يجدُ الصَّائم على المفطر ، ولا المفطر على الصَّائم ، يَرَوْنَ أنَّ مَنْ وجَدَ قوّة فصام ، فإنَّ ذلك حسن ، ويرون أنَّ مَنْ وجَد ضعفاً فأفطر ، فإنَّ ذلك حسن»[4].

* كان أبو سعيد رضوان الله عليه يفتي لأصحابه ولطلاب العِلْم على ضوءِ هذه الأحكام الفقهية التي استقاها من النّبيّ ﷺ ، ولا يحيدُ عنها ، بل يتحرَّى الصّواب والدّقّة في الأمور الشَّرعية كلّها ، وكان يُوصي مَنْ يفتيه وصية جامعة تدلُّ على سَعَةِ علمه وفقهه فيقول: «عليك بتقوى الله فإنّه رأسُ كلّ شيء ، وعليك بالجهاد فإنّه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكْرِ اللهِ وتلاوة القرآن ، فإنّه روحُكَ في أهل السَّماء ، وذكرك في أهل الأرض ، وعليك بالصَّمتِ إلا في حقّ ، فإنّك تغلبُ الشَّيطان»[5].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٨٦٢) ، وأبو داود برقم (٢٣٦١) ، وأحمد (٤/ ١٩) حديث رقم (١١٠٥٥).

(٢) البدر التمام (٢/ ٤٠٣) بشيء من التصرف.

(٣) انظر: البخاري برقم (٢٨٤٠) ، ومسلم برقم (١١٥٣) ، والنسائي (٤/ ١٧٤).

(٤) أخرجه مسلم برقم (١١١٦/ ٩٦).

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٧٠).

القرآنُ في حَيَاتهِ عِلْماً وَعَملاً وتَفْسيراً:

* لئن اشتُهِرَ سيّدنا أبو سعيد الخُدريّ رضي الله عنه بالفقْهِ والرّوايةِ والإفتاء، لقد حلَّقَ عالياً عالياً في فَهمِهِ لكثيرٍ من آياتِ القرآن الكريم وأحكامهِ وأسبابِ نزوله؛ ولهُ في كتبِ التفسير آثارٌ ناصعةٌ تدلُّ على فَهمِهِ الكاملِ للكتابِ العزيزِ، وتشيرُ إلى إصابتهِ للمعَاني واستيعابهِ للمفرداتِ القُرآنية وربطِها بالسِّياقِ العام للآيات.

* كان القرآنُ الكريمُ منارَ سبيلِ الصَّحابةِ أجمعين، فهو حليةٌ للأولياءِ، ونورٌ للأبصارِ، وشفاءٌ للغليلِ، وروحٌ للأرواحِ، وحياةٌ للقلوبِ، وربيعٌ للنُّفوسِ، وكان سيّدنا أبو سعيد رضي الله عنه ممَّنْ حفظَ القُرآنَ الكريمَ ووعَاهُ ودرسَهُ وعلَّمه وتعلَّمه وفسَّر كثيراً من آياته.

* وقد انصرفَ أبو سعيد إلى الحياةِ مع القُرآنِ الكريمِ بشكلٍ منهجي، فكان قدوةً في تحفيظِ القُرآنِ وتفهيمهِ معانيه لمن يقصدُهُ منَ الحفَّاظ، ويسهِّلُ عليهم طريقةَ الحفْظِ والفَهْم؛ والتّطبيق العِلْميِّ والعَمَليّ، ويروي لنا هذا المنهجَ الجميلَ أبو نَضْرة العبدي أحدُ الملازمين له، وأحدُ مَنْ حفظوا على يَدَيْهِ القرآن الكريم فيقول: «كان أبو سعيد الخُدريّ رضي الله عنه يُعلِّمُنا القرآنَ خَمْسَ آياتٍ بالغَداةِ، وخمساً بالعشي، ويخبرُ أنَّ جبريلَ عليه السَّلام نزلَ بالقرآنِ خَمْس آياتٍ خمسَ آيات»[1].

* ومن الجدير بالذّكر أنَّ مجالسَ الصَّحابةِ الكرام كانت مثل مجالسِ أبي سعيد الخدريّ غنيّة بعلومِ القرآنِ وتلاوته، وقد شرحَ لنا أبو سعيد صفةَ هذه المجالس فقال: «أصحابُ النَّبيّ ﷺ إذا جلَسُوا كان حديثُهم ـ يعني الفقْه ـ إلا أنْ يقرأَ رجلٌ سورةً، أو يأمرَ رجُلاً بقراءة سُورة»[2].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٧٧)، ومن بدائع أقوالهِ العظيمةِ، وفوائده القيّمة وذات القِيمة قوله: «يُؤتى بأعمالٍ كجبالِ تِهَامة، فلا تزنُ عند الله شيئاً». (حياة الحيوان ١/ ١٨٢).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ١٧٣)، وقال الحاكم: «هذا حديثٌ صحيحٌ على =

* ومن خلالِ حياة أبي سعيد الخُدري مع القرآنِ الكريمِ علم أنَّه شفاءٌ ورحمةٌ ، لذلك ثبتَ أنَّه عالجَ بالقرآنِ رجلاً لديغاً فَقَرَأَ عليه فاتحةَ الكتاب فَشُفِي بإذنِ الله ، وأخذَ على ذلك أُجْرةً منه.

* أخرج الحاكم بسنده عن أبي نضرةَ ، عن أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه قال: «بعَثَنا رسولُ الله ﷺ في غزاةٍ أو سَريةٍ ، فمررنا على أهلِ أبياتٍ ، فاستضفناهم فلم يضيفونا ، فنزلْنَا بأخرى ، ولُدِغَ سيّدهم ، فأتونا فقالوا: هل أحد منكم يرقي؟

فقلت: أنا راقٍ.

قال: فَارْقَ صاحبنا.

قلت: لا؛ قد استضفناكم فلم تضيّفونا.

قالوا: فإنّا نجعل لكم.

فجعلُوا لنا ثلاثين شاة ، فأتيتُه ، فجعلتُ أمسحه وأقرأُ فاتحةَ الكتاب وأردِّدُها حتى برأَ ، فأخذنا الشّياه فقلنا: أخذناه ونحنُ لا نحسنُ أن نرقيَ ،

= شرطِ مسلم». ومن المفيد ها هنا في التّعليق على هذا الأثرِ عن وصفِ سيّدنا أبي سعيد لمجالس الصَّحابة أن نُبرزَ بعضَ الأمورِ المهمّة التي ينبغي أنْ يعرفَها شبابُ المسلمين اليوم بل عامة المسلمين رجالاً ونساء فنقول:

أ ـ كانت مجالسُ الصَّحابةِ الكرام تزخرُ بالمفيدِ من الأعمالِ والأقوالِ ، وفي مقدمتها: قراءة القرآن الكريم وحفظه وتفسيره وسماعه ، وطرح أمور الفقْه والعِلْم.

ب ـ ينبغي على المسلمين في كلّ زمان ومكان أنْ يشغلوا مجالسهم بما ينفعهم في أمورِ دينهم ، ومعرفةِ ما يفيدهم في أمور دنياهم ، لا أن يعبثوا بأوقاتهم وأعمارهم ويدمرونها في متابعة المحطّات الفضائية والتّمثيليات الهابطة ، والأحاديث الفارغة.

ج ـ الوقتُ أثمن الأشياء عند الصّحابة ، فهم يشغلونه بالفوائد ، وعلى السّائرين على دربهم أن يستفيدوا من الوقت ولا يبعثرونه دون فائدة ، فالوقت أثمن شيء يُعنى العاقل بحفظه واستغلاله استغلالاً مفيداً. وللمزيد من هذه الإشراقات ، اقرأ كتابنا «الشّباب مشكلات وحلول» ففيه من الفوائد القيمة ما يسرُّ الفؤاد بإذن الله.

ما نحنُ بالذي نأكلها حتى نسألَ رسول الله ﷺ ، فأتيناه ، فذكرنا له ، فجعل يقول: «وما يدريك أنّها رقيةٌ»؟

قلت: يا رسولَ الله ما دريتُ أنَّها رقية ، ولكنْ شيءٌ ألقىٰ الله في نفسي.

فقال رسولُ الله ﷺ: «كُلُوا واضربوا لي معكم بِسَهْمٍ»[1].

* وأخرج مسلم هذه القصّة الجميلةَ بسنده عن محمد بن سيرين ، عن أخيه مَعْبَد بن سيرين ، عن أبي سعيد الخُدريّ قال: «نزلنا منزلاً ، فأتتنا امرأة فقالت: إنَّ سيّدَ الحي سليم ـ لُدغَ ـ فهل فيكم مِنْ راق؟

فقام معها رجلٌ منّا ، ما كنّا نظنُّه يُحْسن رقيةً ، فَرَقَاهُ بفاتحةِ الكتاب فبرأَ ، فأعطوه غنماً ، وسَقَوْنا لَبناً ، فقلنا: أكنتَ تحسنُ رقيةً؟

فقال: ما رقيته إلاّ بفاتحةِ الكتاب.

قال: فقلت: لا تحركوها حتى نأتيَ النَّبيَّ ﷺ ، فأتينا النَّبيَّ ﷺ ، فذكَرْنَا ذلك له فقال: «ما كان يدريه أنّها رُقْيَةٌ؟! اقسموا واضربوا لي بِسَهمٍ معكم»[2]. وفي روايةٍ أخرى أنَّه قال: «وما أدراك أنّها رُقيةٌ؟» ، ثم قال: «خُذُوا منهم واضربوا لي بِسَهمٍ معكم»[3].

---

(١) المستدرك (١/٧٤٦) ، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذه السياقة» وقال الذهبي في التلخيص: «على شرط مسلم ، وأخرجه مختصراً ، وأخرجه البخاري من حديث محمد بن سيرين عن أبي سعيد».

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٢٠١/٦٦) ، وانظر كتاب المستفاد (٢/ ٨٣٤).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٢٠١/٦٥) ، وقد فسَّر النّووي قوله «رجل»: بأنّه هو أبو سعيد الخدري وهو الذي رقى سيّدَ الحيّ ، وقد كنى أبو سعيد عن نفسه في هذا الحديث. وقوله «سيّد الحي سليم»: أي لديغ. قالوا: سمّي بذلك تفاؤلاً بالسَّلامة. وقوله: «ما أدراك أنها رقية»: فيه التّصريح بأنّها رقية ، فيستحبّ أنْ يقرأ بها على اللديغ والمريض وسائر أصحاب الأسقام والعاهات. وقوله: «خذوا منهم...»: هذا تصريح بجواز أخذ الأجرة على الرقية بالفاتحة والذّكر ، وأنَّها حلال لا كراهة فيها ، وكذا الأجرة على تعليم القرآن ، وقوله «واضربوا لي بسهم معكم»: فهذه القسمة من باب المروءات والتبرعات ومواساة الأصحاب والرفاق ، وإلا فجميع الشياه أو الغنم ملك للراقي مختصة به ، لا حقَّ للباقين فيها عند التنازع ، فقاسمهم تبرعاً وجوداً ومروءة. =

* وهكذا كانت حياة سيّدنا أبي سعيد الخُدريّ مع القرآن الكريم ، كانت حياته خيراً في خيرٍ في خيرٍ ، وبركةً في بركةٍ في بركةٍ.

* أمّا فهمُهُ للقرآن وتفسيره ، فإنّنا نجدُ عنده سهماً وافراً في هذا المضْمار ، أضفْ إلى ذلك كلِّه أنَّه كان يروي القراءات عن النَّبيِّ ﷺ ، كما كان عنده عِلْمٌ بأسباب النُّزول ، وغير ذلك من علوم القرآن الكريم ومعارفه؛ وسوف نُطالع شذاراتٍ متنوعةً من كافّة هذه المعارف والمعلومات القيمة ، وبالتّالي ندرك مكانةَ أبي سعيد بين مفسِّري الصَّحابة وعلمائهم.

* فمن بدائعِ تفسيرِ المفرداتِ عند سيّدنا أبي سعيد الخُدريّ بشكلٍ مُيسَّرٍ تفسيرُهُ لكلمةِ ﴿قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠] حيث قال: «القنطارُ: هو ملء مَسْك ـ جِلد ـ ثور ذهباً»[١].

وفسَّر كلمة ﴿طَيْرًا﴾ [آل عمران] فقال: «الطَّير هو الخفَّاش»[٢] وروي عن أبي سعيد الخدري: «أنَّه ـ أي نبي الله عيسى ـ قال لهم: ماذا تريدون؟ قالوا: الخفّاش؛ فسألوه أشدّ الطَّير خلقاً لأنَّه يطيرُ بغير ريش»[٣].

* كما فسَّر كلمة ﴿ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] فقال: «الضَّنكُ: هو عذاب القبر»[٤] وفسَّر كلمة ﴿غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] فقال: «غراماً: لازماً مُلحّاً دائماً»[٥]. ومن بدائعِ تفسيره للمفردات أنَّه فسَّر كلمة: ﴿مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] فقال: «المَعَاد: الموت»[٦].

= وقوله «معكم»: قاله تطيباً لقلوبهم وتعريفهم بأنه حلال.

(١) انظر: البدر التمام شرح بلوغ المرام (٤/ ٩) وقال معاذُ بنُ جبل رضي الله عنه «القنطار: ألف ومئتا أوقية» ، وقال ابنُ عبّاس نقلاً عن أهل اللغة: «سبعون ألف مثقال» ، وقال أبو صالح: «مئة رطل ذهباً». وهناك أقوال كثيرة انظرها في البدر التمام (٤/ ٩).

(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسيّ (٢/ ٤٨٨).

(٣) المصدر السابق عينه.

(٤) تفسير البحر المحيط (٦/ ٢٦٥).

(٥) تفسير البحر المحيط (٦/ ٤٧٠).

(٦) المصدر السابق (٧/ ١٣٢).

* أما تفسيرُ سيِّدنا أبي سعيد لمعاني الآيات وأسبابِ نزولها ، فهو بلاغةٌ في فَصَاحةٍ في بيانٍ في علْمٍ وفَهمٍ وفقْهٍ ، ومن أمثلةِ ذلك تفسيرهُ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ . . . ﴾ [آل عمران: ١٨٨] قال: «هذه الآية نزلتْ في المنافقين ، كانوا يتخلّفُون عن رسولِ الله ﷺ في الغزو ، فإذا جاء استعذروا له ، فَيُظْهِر القبول ، ويستغفرُ لهم ، فَفَضَحهم اللهُ بهذهِ الآية»(١).

* قال ابنُ عطيّة رحمه الله: «قال أبو سعيد الخُدري رضي الله عنه: الآية نزلت في المنافقين ، وذلك أنّهم كانوا إذا خرجَ النَّبيُ ﷺ للغزو تخلَّفُوا عنه ، فإذا جاء اعتذروا إليه وقالوا: كانت لنا أشغالٌ ونحو هذا ، فيُظهرُ رسولُ اللهِ ﷺ القبولَ ، ويستغفر لهم ، فَفَضحهم اللهُ تعالى بهذهِ الآية ، فكانوا يفرحون بما يأتونه ويفعلونه من التَّخلُّف والاعتذار ، ويحبّونَ أنْ يُقالَ لهم: إنّهم في حكْمِ المجاهدين ، لكنَّ العذرَ حَبَسَهم»(٢).

* وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠] قال ابن عطيّة: قال أبو سعيد الخُدريّ رضي الله عنه: «هذه الآية نزلتْ في الأعرابِ الذين آمنوا بعد الهجرة ، فضاعفَ اللهُ حسناتهم للحسنةِ عشْر ، وكان المهاجرون قد ضُوعف لهم للحسنة سبْع مئة»(٣).

* ومن آراء سيّدنا أبي سعيد التّفسيريّة القيّمة ، رأيُهُ في تفسير قول اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ [التوبة: ١٠٨]؛ فقد جاء عن أبي سعيد قوله: «هو مسجدُ رسولِ الله ﷺ بالمدينة. . . وأسند الطَّبري عن أبي سعيد الخدريّ أنّه قال: اختلفَ رجلٌ من بني خُدرة ، ورجلٌ من بني عمرو بن عوف ، فقال الخُدريُّ: هو مسجدُ الرَّسول ﷺ.

وقال الآخر: هو مسجدُ قباء.

---

(١) تفسير البحر المحيط (٣/ ١٤٣) بتصرف يسير.
(٢) تفسير ابن عطية (ص ٣٩٠) بتصرف يسير.
(٣) تفسير ابن عطية (ص ٦٨٠) ، وتفسير البحر المحيط (٤/ ٢٦١).

فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه ، فقال: «هو مسجدي هذا ، وفي الآخر خيرٌ كثير»[1].

* قال ابنُ عطيّةَ رحمهُ الله تعالى معلِّقاً ومعقّباً وشارحاً وموضّحاً للآيةِ وتفسير أبي سعيد لها ، وتخصيصه المسجد بأنّه المسجدُ النّبوي الشَّريف الذي فيه المنبرُ والقبرُ: «ومسجدُ رسول الله ﷺ كان في بقْعَتِهِ نَخْلٌ؛ وقبورُ مشركين ، ومِرْبَدٌ ليتيمَيْن كانا في حِجْر أسعد بنِ زرارة ، وبناه رسولُ الله ﷺ ثلاث مرات:

الأولى: بالسَّميط: وهي لبنةٌ أمامَ لَبِنَةٍ.

الثّانية: بالصَّعيدة: وهي لبنةٌ ونصف في عرضِ الحائط.

الثّالثة: بالأُنْثى والذَّكَر ، وهي لَبِنَتَان تعرض عليهما لبنتان ، وكان في طوله سبعون ذراعاً ، وكان عُمُدُهُ النَّخْل ، وكان عريشاً يكشفُ المطر ، وعرض على رسولِ اللهِ ﷺ بنيانه ورفعه فقال: «لا ، بل يكون عريشاً كعريش أخي موسىٰ ، كان إذا قام ضربَ رأسه في سقفِهِ» ، وكان رسولُ الله ﷺ ينقلُ فيه اللَّبِن على صدره؛ ويقال: إنَّ أوَّلَ مَنْ وضعَ في أساسِهِ حَجَراً رسولُ الله ﷺ ، ثم وضعَ أبو بكر حجراً ، ثمّ وضع عمر حجراً ، ثمّ وضع عثمان حجراً ، ثمّ رمىٰ النّاس بالحجارة ، فتفاءَل بذلك بعضُ الصَّحابةِ في أنَّها الخلافةُ فَصَدَقَ فَأْله»[2].

* ولقد أجادَ سيّدنا أبو سعيد الخُدريّ في تفسيره لقوله عزَّ وجلَّ:

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية (ص ٨٨١ و٨٨٢) بتصرف واختصار يسير. وانظر: تفسير البحر المحيط (٥/ ١٠٢) ، وزاد المسير (ص ٦٠٦) مع الجمع بينهما والاختصار اليسير أيضاً.
قال ابن الجوزي رحمه الله: «وفي هذا المسجد ثلاثةُ أقوال:
أحدها: أنه مسجدُ رسول الله ﷺ بالمدينةِ الذي فيه منبرهُ وقبرهُ.
الثاني: أنّه مسجدُ قباء.
الثالث: أنّهُ كلّ مسجد بُنيَ في المدينة. (زاد المسير ص ٦٠٦) مختصراً.

(٢) تفسير ابن عطية (ص ٨٨٢).

﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾ [الدخان: ١٠] ، وأتى بما يشفي النُّفوس، ويرويها ، ويزيدها يقيناً بنبوّةِ الصَّادقِ المصدوقِ محمّد ﷺ الذي ربّى أمثالَ أبي سعيد وغيره؛ فكانوا غُرّةً في جبينِ الأيّام. . . يقولُ أبو سعيد: «بِدُخَانٍ مبين: هو دخانٌ يجيءُ يومَ القيامة يصيبُ المؤمنَ منه مثل الزّكام ، وينضجُ رؤوسَ الكافرين والمنافقين ، حتى تكون مصقلة حنيذة»[1] .

* ويقولُ في تفسير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴾ [محمد: ٦]: «بيَّنها لهم ، أي جعلهم يعرفون منازلهم منها؛ وفي الحديث: «لأحدكم بمنزله في الجنّة أعرف منه بمنزله في الدُّنيا»[2] .

* وفي تفسير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ ﴾ [الحديد: ١٠] يقول سيّدنا أبو سعيد مستنيراً بالهدي النّبويّ: «هو فتحُ الحديبية ، ورفعه أبو سعيد رضي الله عنه إلى النّبيّ ﷺ: «إنَّ أفضلَ ما بين الهجرتَيْن فتح الحُديبية»[3] .

* وكذلك نجد حَياةَ أبي سعيد ثريةً مع تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴾ [المعارج: ٤]. «قَدْرُهُ في هولهِ وشدّته ورزاياه للكفّار قَدْر خمسين ألف سنة» ـ وهذا كما تقول في اليوم العصيب: إنّه كَسَنةٍ ونحو هذا ـ؛ قال أبو سعيد: «قيل: يا رسولَ الله ، ما أَطولَ يوماً مقدارُهُ خمسون ألف سنة؟! فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده إنّه ليخفّ على المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة»[4] .

* ولأبي سعيد تفسير لبعض الآيات مربوط بالقصّة وسبب النّزول ، وقد فسّر قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ . . . ﴾ [الحج: ١١] فقال:

---

(١) تفسير ابن عطية (ص ١٦٩١) ، وتفسير البحر المحيط (٨/ ٣٤) ، وتفسير القرطبي (١٦/ ٨٧ و٨٨).
(٢) تفسير ابن عطية (ص ١٧١٩) ، وتفسير البحر المحيط (٨/ ٧٦).
(٣) تفسير ابن عطية (ص ١٨٢١) ، وتفسير البحر المحيط (٨/ ٣٢٧).
(٤) تفسير ابن عطية (ص ١٨٩٦) ، وتفسير البحر المحيط (٨/ ٣٢٧) ، والحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ، وهو حديث ضعيف.

«إنَّ رجُلاً من اليهود أسلمَ فذهب بصرهُ ومالهُ وولدهُ ، فتشاءم بالإسلام ، فأتى رسول الله ﷺ ، فقال : أقلني .

فقال : «إنَّ الإسلام لا يُقال» .

فقال : إنّي لم أُصِبْ في ديني هذا خيراً ، أذهب بصري ومالي وولدي .

فقال ﷺ : «يا يهودي ، إنَّ الإسلامَ يسبك الرِّجال ما تسبكُ النّار خبث الحديد والفضّة والذَّهب» ، فنزلتْ هذه الآية»[1] .

* وحياة سيّدنا أبي سعيد مع القرآن حياة غنية بالعلْم ، فقد فسَّر قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النور : ٢٧] فقال : «كنتُ جالساً في مجلسٍ من مجالسِ الأنصار ، فجاء أبو موسى ـ الأشعري ـ فزعاً ، فقلنا له : ما أفزعك؟

فقال : أمرني عمرُ رضي الله عنه أنْ آتيه ، فاستأذنتُ ثلاثاً ، فلم يُؤْذن لي فرجعتُ .

فقال ـ عمر ـ : ما منعك أنْ تأتيني؟

فقلت : قد جئتُ فاستأذنتُ ثلاثاً ، فلم يُؤذنْ لي ، وقد قال ﷺ : «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع» .

فقال ـ عمر ـ : لتأتيني على هذا بالبيّنة ، أو لأعاقبنّكَ .

فقال ـ أُبيّ بن كعب ـ : لا يقوم معك إلاّ أصغر القوم .

فقام أبو سعيد فشهدَ له»[2] .

* وعن كيفيّة الوقوف على الباب يشرحُ لنا سيّدنا أبو سعيد صورة ذلك

---

(١) انظر : التفسير الكبير للرّازي (١٣/٢٣) ، وزاد المسير (ص ٩٥٠) ، والدّرّ المنثور للسّيوطيّ (٣٤٦/٤) ، وأسباب النّزول للواحدي (ص ٢٥٧) ، ومعنى «أقلني» : انقض بيعتي لك . و«تسبك» : تذيب الحديد وتخلصه من الشوائب وتجعله صافياً . و«خبث الحديد» : ما يكون فيه شوائب .

(٢) التفسير الكبير (١٧٢/٢٣) .

فيقول: «استأذنتُ على رسولِ اللهِ ﷺ وأنا مستقبل الباب. فقال ﷺ: «لا تستأذن وأنت مستقبل الباب»[1].

* وكما أبدع أبو سعيد في حياتهِ العمليّةِ مع التَّفسيرِ وأسبابِ النّزولِ وما يتعلّق بهذا الشّأن، أبدعَ كذلك في القراءاتِ، إذ كان له أثرٌ جليٌ في هذا الميدان الرَّحْبِ الميمون المُونق، ومن أمثلةِ ذلك أنَّه قرأَ كلمة ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢]. سَكْرىٰ وقد رواها عن النَّبيّ ﷺ[2]. وقرأ كذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ [الحجرات: ١٢]. فكُرّهتموهُ بضم الكاف وتشديد الرّاء رواها عن النّبي ﷺ[3]. وقرأ كذلك ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ٢] غَلَبَتِ الروم مبنياً للفاعل وقرأ ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣] سيُغْلَبون: مبنياً للمفعول[4].

* وفي فضاءِ الحياة مع القُرآنِ الكريم، حلَّق سيّدنا أبو سعيد الخُدري في سماءِ الفضائل، فها هو ذا يذكرُ لنا فضائل سورة الكهف، فيما رواه عن النَّبيّ ﷺ قال: «مَنْ قَرأَ سورة الكهف كما أُنزلت كانت له نوراً يوم القيامة من مقامه إلى مكّة؛ ومَنْ قرأَ عشر آيات من آخرها ثمّ خرجَ الدَّجَّال لم يُسَلّط عليه، ومن توضَّأ ثمّ قال: سبحانك اللهم وبحمدكَ، لا إله إلا أنتَ، أستغفركَ وأتوبُ إليك؛ كتب في رقّ ثمّ طبع بطابع فلم يكسر إلى يوم القيامة»[5].

* ومن خلال هذه الأخبار الموثقة نجد الصُّور المشرقة السَّنية من حياةِ سيدنا أبي سعيد الخُدري مع القُرآن الكريم، فالقرآنُ كتابٌ مباركٌ، جعلَ من العربِ والمسلمين أمةً ذا مكانةٍ، واستبقى على القرون جيلاً من النَّاس العلماء، ما كانوا ليدخلوا التاريخ أبداً لولا نهوض القرآن الكريم بهم. فما

---

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ١٧٢)، وتفسير ابن عطية (١٣٥٦).
(٢) تفسير البحر المحيط (٦/ ٣٢٥).
(٣) تفسير البحر المحيط (٨/ ١١٤).
(٤) تفسير البحر المحيط (٧/ ١٥٧).
(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٧٥٢ و٧٥٣) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

أحرانا أن نظلَّ مع القرآن لنكون كما كان أولئك الأسلافُ الأخيارُ!!:

أولئــكَ آبــائــي فجئْنــي بمثلهــم إذا جمعَتْنــا يــا جــريــرُ المجــامــعُ

نَفَحاتٌ خُدريّـة من السِّيرة النَّبويّـة:

* عشنا في الصَّفحاتِ الماضيةِ مع أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه في حياته مع العِلْمِ، ومع الجهادِ، ومع القُرآن الكريم، ومع الحديثِ الشَّريف، ومع الفقْهِ والفتوى، وأعتقدُ أنَّنا كُنَّا سعداء مع سيرتهِ العلمية الغنية بكلّ ما هو مفيد، وأحببتُ قبل أنْ نودِّعَ سيرةَ هذا العالم الكبير والحافظ المُتقن أنْ نعيشَ معه أويقات مونقة في ظلال السِّيرةِ النّبويّةِ، نستروحُ من زَهْرِ رياضها بعض الطُّيوب لنحييَ بها النُّفوس العطشىٰ والمتلهّفة لمعرفةِ المزيد من سيرةِ سيّدنا أبي سعيد وها نحنُ أولاء نقتطفُ بعضَ أوراق الورد الجميلةِ من هذا البُسْتان المزدان بشتى أنواعِ العلومِ والتَّوجيهات التّربويّة القيّمة.

* إنَّ في حياة سيّدنا أبي سعيد الخُدريّ مع أقباسِ السِّيرةِ النّبويّة كنوزاً من الحكْمةِ والمعرفةِ، وزاداً من الأدب والتّقوى، وهذه الكنوزُ المستخرجةُ من المصادر ليست مختصّة بأبي سعيد وحده، وإنّما تنطبقُ على كلِّ صحابي عاشَ وعاصر الصَّادق المصدوق ﷺ، فلكل صحابي مواقفُ لا تُنْسى، ومشاهد خالدة خلود الأيام...

* وإذا علمنا بأنَّ سيّدنا أبا سعيد الخُدريّ «هو من نجباءِ الأنصار وعلمائِهم وفُضَلائهم»[1]، عرفنا مواقفَه الخالدةَ التي عاشها مع النّبيّ ﷺ، فرواها تعليماً وتفهيماً وترغيباً للنَّاس.

* كان أبو سعيد في أوّل أمره من أهلِ الصُّفّة، وكان صابراً حامداً، قال أبو نعيم في «الحِلْية»: «وحالهُ قريبٌ من حال أهل الصُّفّة، وإن كان أنصاري

---

(١) الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار لابن قدامة المقدسي (ص ١٢٨)، دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٧٢م.

الدَّار لإيثاره الصَّبر ، واختياره للفقر والتّعفّف»[1] .

* وهذا يعني أنَّ أبا سعيد رضوان الله عليه كان قريباً جداً من النّبيّ ﷺ ، وقد خَبِرَ كثيراً من أحوالِهِ الشَّريفة ﷺ وأخباره وتعليمه وإرشاده للنّاس . .

* وقد ساقَ أبو سعيد جانباً من ذلك فقال: «أتىٰ علينا رسول الله ﷺ ونحنُ أناس من ضَعَفَةِ المسلمين ما أظنُّ رسولَ الله ﷺ يعرفُ أحداً منهم ، وإنَّ بعضَهم ليتوارىٰ مِنْ بعضٍ مِنَ العُريّ ، فقال رسولُ الله ﷺ بيده ، فأدارَهَا شبْه الحَلقة ، فاستدارت له الحلقة ، فقال: «بما كنتم تراجعون»؟

قالوا: هذا رجلٌ يقرأُ لنا القرآن ، ويدعو لنا .

قال: «فعودوا لما كنتم فيه» .

ثمَّ قال ﷺ: «الحمدُ لله الذي جعلَ في أمّتي مَنْ أُمِرْتُ أنْ أصبِرَ نفسي معهم» .

ثمّ قال: «لِيُبَشَّرَ فقراء المؤمنين بالفوزِ يومَ القيامة قبل الأغنياء بمقدار خمس مئة عام ، هؤلاء في الجنَّة يتنعّمون ، وهؤلاء يحاسبون»[2] .

* وأحبَّ أبو سعيد حياةَ الصَّابرين هؤلاء فلم يسألْ أحداً إلى أنْ أغناهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، فلنستمع إلى ما حدث لأبي سعيد وهو يروي لنا ذلك فيقول: «أصبحتُ وليس عندنا طعام ، وقد ربطتُ حجراً من الجوع ، فقالت لي امرأتي: ائتِ النَّبيَّ ﷺ فاسْأَلْهُ ، فقد أتاه فلانٌ فسأَلَه فأعطاهُ ، وأتاه فلانٌ فسأَلَهُ فأعطاه ، وأتاه فلانٌ فسأَلَهُ فأعطاهُ .

فقلت: لا ، حتّى لا أجدُ شيئاً .

فطلبتُ ، فلم نجدْ شيئاً ، فأتيتُ النَّبيَّ ﷺ وهو يخطبُ ، فأدركتُ من قولِهِ: «مَنْ يَسْتَغْنِ يغْنِهِ اللهُ ومن يَسْتَعْفِفْ يعفّه الله» .

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٣٦٩ و٣٧٠) .
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٧١ و١٧٢) .

فما سألتُ أحداً بعده ، وما زال الله يرزقنا حتّى ما أعلم أهلَ بيتٍ من الأنصار أكثر أموالاً منّا»[1].

* وهذه قصةٌ جميلةٌ فيها دليلٌ لطيفٌ من دلائل النُّبوَّة ، يرويها أبو سعيد بأسلوبهِ البديع ، وقد حدثتِ القصَّةُ مع أخيهِ لأمّه قتادةَ بنِ النُّعمان رضي الله عنه ، فمع أبي سعيد وهذا الحدث السَّعيد المونق من أحداث السِّيرةِ النَّبويّةِ العطرةِ. فقد روي عن أبي سعيد رضي الله عنه: «أنَّ النَّبي ﷺ خرجَ ذات ليلة لصلاةِ العشاء ، وهاجتِ الظلمةُ والسَّماءُ ، وبرقَتْ برقةً ، فرأى رسولُ الله ﷺ قتادةَ بنَ النّعمان ، فقال له: «قتادة»؟! قال: نعم يا رسولَ الله ، علمت أنَّ شاهدَ الصَّلاةِ الليلة قليلٌ ، فأحببتُ أنْ أشهدهَا.

فقال له: «إذا انصرفْتَ فأتني»؛ فلما انصرفَ أعطاهُ عُرجوناً فقال: «خذْ هذا فسيضيء أمامك عَشْراً ، وخلْفَكَ عَشْراً»[2].

* وفي رحلةٍ لطيفةٍ مع المعيّةِ النّبويّةِ يروي أبو سعيد الخُدريّ هذه الحادثة التي تصوِّرُ اتّباعَ الصَّحابةِ الكرام للنَّبيّ ﷺ اتّباعاً كاملاً. يقولُ أبو سعيد: «صلّى النَّبيُّ ﷺ بأصحابه يوماً ، فنزعَ نعلَيْه ووضعهما على يساره ، فلمّا رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم ، فلما انقضتِ الصَّلاةُ قال: «مالكم خلعتم نعالكم»؟

قالوا: يا نبيَّ اللهِ رأيناكَ خلعْتَ نعليكَ فخلعْنَا نعالنا.

فقال ﷺ: «إنّما نزعتُهما لأنَّ جبريلَ أخبرني أنَّ فيهما دم حلمة»[3].

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٧١٥) ، وأخرجه أحمد في المسند (٤/ ٨٩) حديث رقم (١١٤٠١).

(٢) الاستبصار (ص ٢٥٦) ، ومعنى «عرجون»: العِذق المعوج الذي يشبه الهلال. ومعنى «عشراً»: أي عشر خطوات.

(٣) انظر: حياة الحيوان للدميري (١/ ٣٣٨) ، والحديث عند أبي داود. ومعنى «حلمة»: الحلم: القراد العظيم الواحدة حلمة. قال الدميري: «والمراد به الدم اليسير والمعفوّ عنه ، وإنّما فعله النّبي ﷺ تنزّهاً عن النّجاسة ، وإن كان معفواً عنها ، وقد أطلق أصحابنا العفو عن اليسير من سائر الدماء. . إلا دم الكلب أو الخنزير. . » (حياة الحيوان ١/ ٣٣٨) بتصرف يسير.

* وحياةُ أبي سعيد غريرةُ النَّفع بما رأى وسمع من رسولِ الله ﷺ ، فإلى هذه القصّة الغريبة الشَّائقة التي عاينها أبو سعيد مع أحدِ جيرانه ، وكيف علّمهم النَّبيّ ﷺ أنْ يتعاملوا مع الهوام ، وعوامر الجن التي كانت تعيش في المدينة على شكل حيَّات ، وكان في بيت أبي سعيد واحدة منها ، ترى ما قصّة هذه الحيّة؟!

* حدَّثَ أبو السَّائبِ مولى هشَام بن زُهْرَةَ: أنَّه دخلَ على أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه في بيته ، قال: فوجدتُهُ يُصَلّي ، فجلستُ أنتظره حتّى يقضيَ صلاته ، فسمعتُ تحريكاً في عراجينَ في ناحية البيت ، فالتفتُّ ، فإذا حيَّةٌ ، فوثبتُ لأقتُلَهَا ، فأشار إليَّ أن اجْلِسْ ، فجلست ، فلمّا انصرفَ أشار إلى بيتٍ في الدَّار ، فقال: أترىٰ هذا البيت؟

فقلت: نعم.

قال: كان فيه فتىً منَّا حديثُ عَهْدٍ بعُرسٍ؛ فخرجْنَا مع رسولِ الله ﷺ إلى الخَنْدقِ ، فكان ذلك الفتى يستأذنُ رسولَ اللهِ ﷺ بأنصاف النَّهار ، فيرجع إلى أهله ، فاستأذنه يوماً ، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «خُذْ عليكَ سلاحكَ ، فإنّي أخشى عليكَ قُريظة».

فأخذَ الرَّجُلُ سلاحه ، ثمَّ رجعَ ، فإذا امرأته بين البابين قائمة ، فأهوى إليها الرّمح ليطعنَها به ، وأصابته غَيْرة ، فقالت له: اكفُفْ عليكَ رمحكَ ، وادخلِ البيتَ حتّى تنظرَ ما الذي أخرجني!!

فدخل ، فإذا بحيّةٍ عظيمةٍ منطوية على الفِراشِ ، فأهوى إليها بالرّمح فانتظمَها به ، ثم خرجَ فركزَهُ في الدَّارِ ، فاضطربتْ عليه ، فما يُدْرَىٰ أيهما كان أسرع موتاً: الحيّةُ أمْ الفتى.

فجئنا إلى رسولِ اللهِ ﷺ ، فذكرنا ذلك له ، وقلنا: ادعُ اللهَ يحييه لنا.

فقال: «استغفروا لِصَاحبكم».

ثم قال: «إنَّ بالمدينة جنّاً قد أسلموا ، فإذا رأيتم منهم شيئاً ، فآذنوه

ثلاثة أيام ، فإنْ بدا لكم بعد ذلك ، فاقتلوه ، فإنّما هو شيطان»[1].

* وهذه قصّةٌ من قَصَصِ السِّيرةِ ينقلُها أبو سعيد رضي الله عنه ، وفيها معجزةٌ وخَرْقٌ للعادةِ ، إذ تكلَّم ذئبٌ في عَهْدِ النَّبيّ ﷺ ، ويحدّثنا أبو سعيد عن ذلك قال: «بينما راعٍ يرعىٰ بالحرَّةِ ، إذ انتهزَ الذِّئبُ شاةً فتبِعَهُ الرَّاعي ، فحالَ بينه وبينها ، فأقبلَ الذّئبُ على الرَّاعي فقال: يا راعي ألا تتقي الله ، تحولُ بيني وبين رزقٍ ساقَهُ اللهُ إليَّ.

فقال الراعي: العَجبُ من ذئبٍ مُقْعٍ على ذنبه يكلِّمُني بكلام الإنس.

فقال الذئبُ: ألا أخبركَ بما هو أعجبُ مِنْ هذا؟ هذا رسولُ اللهِ ﷺ بين الحرّتَيْن يدعو النَّاسَ إلى أنباء ما قد سبق.

فساقَ الرَّاعي شاءَهُ حتّى أتى إلى المدينةِ ، فَزَواهَا إلى زاويةٍ من زواياها ، ثمَّ دخلَ على رسولِ اللهِ ﷺ فأخبرهُ بما قال الذّئب.

فقال رسولُ الله ﷺ: «صدقَ الرَّاعي ، ألا إنّه من أشراطِ السَّاعةِ كلام

---

(١) أخرجه مسلم في السَّلام برقم (٢٢٣٦) ، وانظر: المغازي (٢/ ٤٧٥) ، وحياة الحيوان (١/ ٤٠٢). ومعنى «يستأذن رسول الله ﷺ»: قال العلماء: هذا الاستئذان امتثال لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾ [النور: ٦٢] و«أَنصاف النهار»: أي منتصفه. و«فيرجع إلى أهله»: ليطالع حالهم ، ويقضي حاجتهم ويؤنس امرأته ، فإنّها كانت عروساً كما ذكر في الحديث. وقوله «فآذنوه ثلاثة أيّام»: قال العُلماء: معناه: وإذا لم يذهب بالإنذار علمتم أنّه ليس من عوامرِ البيوت ، ولا ممن أسلم من الجنّ ، بل هو شيطان ، فلا حرمة عليكم فاقتلوه ، ولن يجعلَ اللهَ له سبيلاً للانتصار عليكم بثأره ، بخلاف العوامر ومن أسلم والله أعلم.
قال المازريُ: «لا تُقتلُ حيّاتُ مدينةِ النّبي ﷺ إلاّ بإنذارها ، كما جاء في هذه الأحاديث ، فإذا أنذرها ولم تنصرفْ قتلَها».
وأما حيّات غير المدينة في جميع الأرض والبيوتِ والدورِ فيندب قتلها من غيرِ إنذار ، لعموم الأحاديث الصَّحيحة في الأمر بقتلها.
وأما صفَةُ الإنذار ، فقال القاضي: روى ابنُ حبيب ، عن النّبي ﷺ أنّه يقول: «أنشدكنّ بالعهدِ الذي أَخذَ عليكنّ سليمانُ بنُ داود ألا تؤذونا ولا تظهرن لنا». (المنهاج ص ١٦٦٢ و١٦٦٣) بتصرف.

السّباع الإنس ، والذي نفسي بيده لا تقومُ السّاعةُ حتّى يكلِّمَ الرَّجلَ شِراكُ نعلِهِ ، ويحدثَه سوطه ، ويخبرَه بما أحدثَ أهلُه بعده»[1] .

* ومن الأحداثِ المهمّةِ في حياةِ سيّدنا أبي سعيد الخُدريّ رضي الله

---

(١) دلائل النّبوّة للأصبهاني (٢/ ٤٨٢ و٤٨٣) ، وانظر: مجمع الزّوائد (٨/ ٢٩١ و٢٩٢) وقال الهيثمي: «رواه أحمد ، والبزار بنحوه ، باختصار ، ورجال أحَدِ إسنادي أحمد رجال الصّحيح» وقال الهيثمي أيضاً: «رواه أحمد ورجاله ثقات». وانظر: المُستفاد من مبهماتِ المتن والإسناد (٣/ ١٦٧٠ ـ ١٦٧٢) ، وكشف الأستار (٣/ ١٤٣) برقم (٢٤٣١) ، وحياة الحيوان (١/ ٥١٥) ، وغير ذلك كثير جداً.
ومعنى «مقْعٍ»: أقعىٰ من الإقعاء: وهو أنْ يلصقَ أَلْيَتَيهِ بالأرض ، وينصب ساقيه وفخذيه ، ويضع يديه على الأرض. و«ذَنبه»: الذَّنَب: الذيل.
والرجل: هو أهبانُ بنُ أوس الأسلميّ ، قديمُ الإسلام ، صلّى القبلتَيْن ، ونزل الكوفةَ ، ومات بها في ولايةِ المغيرة ، وكان من أصحاب الشّجرة (أسد الغابة ١/ ١٦١ و١٦٢) ترجمة رقم (٢٨٠).
قال الدميريُّ: «قال ابنُ عبد البرّ وغيره: كلّم الذّئبَ من الصَّحابة ثلاثةٌ: رافع بن عميرة ، وسلمة بن الأكوع ، وأهبان بن أوس الأسلميّ رضي الله عنهم. قال: ولذلك تقول العرب: هو كذئب أهبان؛ يتعجّبون منه ، وذلك «أنَّ أهبانَ بنَ أوس المذكور كان في غنمٍ له ، فشدَّ الذّئب على شاةٍ منها ، فصاحَ به أهبان ، فأقعى الذّئبُ وقال: أتنزع مني رزقاً رزقنيه الله تعالى؟
فقال أهبان: ما سمعتُ ولا رأيتُ أعجبَ من هذا الذّئب يتكلّم!
فقال الذئب: أتعجبُ من هذا ورسول الله ﷺ بين هذه النّخلات ـ وأومأ بيده إلى المدينة ـ يحدّث بما كان وبما يكون ، ويدعو الناس إلى الله ، وإلى عبادته وهم لا يجيبونه؟!
قال أهبانُ بنُ أوس: فجئتُ النّبيَّ ﷺ ، وأخبرتُه بالقصّةِ وأسلمت. فقال لي: «حدّث به النّاس».
قال عبد الله بن أبي داود السّجستاني الحافظ: «فيقال لأُهبانَ مكلّم الذّئب ، ولأولاده: أولاد مكلّم الذئب؛ ومحمد بن الأشعث الخزاعي من ولده ، واتّفق مثل ذلك لرافع بن عميرة ، وسلمة بن الأكوع». (حياة الحيوان ١/ ٥١٥).
وممّا أنشدوا في الذئب قول أحد الصَّعاليك في العصر الأموي:
عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى وصَوَّت إنسانٌ فكدتُ أطيرُ
ومن العجيب بأمر الذئب ، أنّه ينام بإحدى مُقلتيه والأخرى يقظى حتّى تكتفي العين النّائمة من النوم فيفتحها وينام بالأخرى ، ليحترسَ باليقظى ويستريح بالنّائمة ، فهو يقظان هاجع.

عنه ، أنَّه قد حظيَ بزيارةِ النَّبي ﷺ في بيتهِ ، وكان أبو سعيد يومها مريضاً فأضافَ النَّبيَ ﷺ فأكلَ عنده.

* روت هندُ بنةُ سعيد بن أبي سعيد الخُدري[1] عن عمِّها: «جاء رسولُ الله ﷺ عائداً إلى أبي سعيد ، فقدَّمْنَا إليهِ ذراع شاة»[2].

* وكان علماء التَّابعين وفقهاؤهم يغبطون الصَّحابة الكرام لرؤيتهم سيّدنا رسول الله ﷺ ، فقد ورد أنَّ المسيب قال: أتيتُ أبا سعيد فقلتُ له: هينئاً لكَ برؤيةِ رسول الله ﷺ؛ وصحبته.

فقال: يا بن أخي ، لا تدري ما أحدثنا بعده»[3].

وصيَّتُـهُ لابنهِ ووفاتُـهُ:

* عاشَ أبو سعيد الخُدريّ رضي الله عنه حياةً طويلةً حافلةً بجلائل الأعمالِ ، ولمَّا شعرَ بدنو أجلهِ دعا ابنه عبد الرحمن وأوصاهُ وصيةً جامعةً نافعةً ، وأوصاه بأن يدفُنَهُ في مكانٍ بالبقيع ، بالإضافة إلى أشياءَ أخرى نسمعُها من ابنه عبدِ الرّحمن حيث قال: «قال لي أبي: يا بُنيّ ، إنّي كبرتْ سنّي ، وذهبَ أصحابي وجماعتي ، فخذْ بيدي؛ فاتّكأَ عليَّ حتّى جاءَ البقيع ، وأشارَ إلى مكان لا يُدفنُ فيه فقال: يا بنيّ ، إذا أنا متُّ فادفني ها هنا ، ولا تضربنَّ عليَّ فُسْطاطاً ، ولا تمشينَّ معي بنار ، ولا تبكِ عليَّ باكية ، ولا تؤذننَّ أحَداً ، وليكنْ مشيكَ بي خَبَباً».

---

(١) كان لأبي سعيد أولاد وهم: عبد الرحمن ، عبد الله ، حمزة ، سعيد ، بشير.

(٢) الإصابة (٢/ ٣٢) ، وفي رواية أخرى عن هند بنت سعيد بن أبي سعيد الخُدري عن عمّتها قالت: «جاء رسولُ اللهِ ﷺ عائداً لأبي سعيد الخُدريّ ، فقدمنا إليه ذراع شاة ، فأكلَ منها ، وحضرت الصَّلاة ، ثمّ قام فصلّى ، ولم يتوضأ» (مختصر تاريخ دمشق ٩/ ٢٧٧).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٧٧). وهذا الأثرُ يتوافقُ مع ما وردَ عن أبي سعيد نفسِهِ قال: «ما عدا وارينا رسولَ اللهِ ﷺ في التراب ، فأنكرنا قلوبنا» (مجمع الزوائد ٩/ ٣٨) ، وقال الهيثمي: «رواه البزّار ورجاله رجال الصحيح». وهناك آثار كثيرة تدلُّ على مثل هذه المعاني صدرت عن عددٍ كبير من الصَّحابة رضي الله عنهم. =

فماتَ يوم الجمعةِ ، فجعل النّاس يأتوني فيقولون: متى تخرج به؟ فأكرهُ أنْ أخبرهم وقد نَهَاني؛ فقلتُ لهم: إذا فرغتُ من جهازه؛ فخرجتُ به من صَدْرِ يوم الجمعةِ ، فوجدتُ البِقيع قد امتلأَ بالنَّاس[1].

* وتصفُ ابنة أبي سعيد السَّاعات الأخيرة من حياةِ أبيها ، وكيف دعا كبراء الصَّحابة ، وأوصاهم وصيةً جامعةً ، فقالت: «لما حُضرَ أبو سعيد ، بعث إلى نَفَرٍ من أصحاب رسولِ الله ﷺ فيهم: ابنُ عبّاس ، وابنُ عمر ، وأنسُ بنُ مالك ، وجابرُ بنُ عبد الله فقال: لا يغلبنّكم وَلَدُ أبي سعيد ، إذا أنا متُّ ، فكفّنوني في ثيابي التي كنتُ أصلّي فيها وأذكرُ اللهَ فيها ، وفي البيتِ قُبْطية ـ أو قِطْرية ـ فكفّنوني فيها ، ولا تضربوا على قبري فسطاطاً ، ولا تتبعوني بنار ، ولا تتبعني باكية ، ففعلوا ما أمرهم»[2].

* وعن أمّ عبد الرحمن بنتِ أبي سعيد قالت: «لما احتُضِرَ أبو سعيد حضَرَهُ ابنُ عمر ، وابنُ عبّاس ، فقال لهم: إذا حملتم فأسرعوا» أي أسرعوا بي[1].

* وتوفي أبو سعيد سنة (٧٤ هـ)[3] فارتجتِ المدينةُ المنورةُ لوفاته ، ودُفِنَ في البقيع ، وكانت وفاتُه يوم الجمعة[4] ، وبوفاته فقدتِ الأمّةُ عالماً جليلاً من أشهرِ علمائِها ، لكنَّ آثارَه لا تزال تشهدُ بفضلهِ ومناقبهِ رضي الله عنه وأرضاه.

* * *

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٧٩)؛ والمستدرك (٣/ ٦٥١) مع الجمع والتصرف اليسير.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٧٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٧١) ، والإصابة (٢/ ٣٣).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٣٧).




الباب الثالث

من علماء القراءة والتفسير والجهاد

- أُبيّ بن كعب
- أبو موسى الأشعري
- معاوية بن أبي سفيان
- حذيفة بن اليمان
- البراء بن عازب







أُبَيّ بن كعب

* من كبار علماء الصّحابة الأنصار وقرّائهم وحفّاظهم.
* قال له النّبيّ ﷺ: «إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك. . .».
* قال عنه عمر: «من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب».
* كان حافظاً واعياً روى (١٦٤) حديثاً، وله تاريخ حافل بالجهاد.
* أسفر عن أقوال وحكم تداعب العقول وتهذّب النّفوس، وتغذّي الأرواح.




أُبَيُّ بنُ كَعْب

الشَّرفُ الوَافي:

* علَمٌ نجيبٌ سمّاهُ اللهُ عَزَّ وجلَّ لرسولهِ ﷺ إذ ذُكِرَ عنده ـ في الملأ الأعلى ـ بذكر حميد.

* هذا العالمُ العَلَمُ نفسُه، هو مَنْ أُمِرَ فيهِ رسولُ الله ﷺ أنْ يقرأَ عليه القرآنَ، وذلك بوحيٍ من بديعِ السَّماوات والأرض.

* ألا إنَّ الفخرَ كلَّه، والشّرفَ جُلَّه، لَيحفُّ بهذا العالمِ القارىءِ الجليل.

* اللهُ ربُّ العالَمين، يُوحي للنّبيّ ﷺ أنْ يقرأَ كلامه، ويتلو آياتهِ على ضيفنا!! فيقفُ النّبيّ ﷺ مُمتثلاً أمْرَ ربّهِ، ويتلو القرآن نديّاً لهذا العبقريّ الفذّ الذّكي المُلهم.

* إنَّ هذا العالمَ لمْ تملكْهُ نَشْوةُ العُجْب، وإنّما فاضتْ جوارحُهُ باستشعارِ عظمةِ الله ربّ العالمين، وصدَّقَتْ عيناه ذلك، فذرفت دَمْعَ الخشيةِ لجلالِ الموقفِ العظيم، إذ شرّفَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بهذا المقام الكريم، وخصّه به وحده، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٣ ـ ٧٤].

* حقاً إنّها رحمة الله عزَّ وجلَّ، وما أدراك ما رحمةُ الله؟ رحمةٌ يختصُّ بها مَن يشاء من عبادهِ المؤمنين، ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسُف: ٥٥].

* في سُبُلِ المتّقين ومدارجِ السَّالكين نلتقي عالِمَ الحفَّاظ، وحافظَ

العُلماء ، وقارىءَ القُرآن وحافظَ كلام الرّحمن: أُبيّ بن كعب بن قيس[1] ، سيّد القُراء ، أبو منذر الأنصاريّ ، النَّجّاريُّ ، المقرىءُ ، البدريُّ ، الصّحابيُ ، الكريمُ ، الأريبُ ، الأديبُ ، النَّجيبُ.

* ومن فُراتِ سيرِ عُلماء الصَّحابةِ الكرام ونَميرهم نرتشفُ ما هو أشفُّ من الماءِ في زُجاجه ، ونشتفُّ ما هو ألذُّ من الرّحيق في مزاجهِ ، فَنَرِدُ من تلكم السِّير ما صفَا من الأمواه ، ونلتقطُ من دُررها ما نعطّرُ الأسماع والأفواه ، ولله درُّ مَنْ قال:

وكَذا الدُّرُّ ضَائِعُ الحُسْنِ في البَحْـــرِ فإنْ بانَ عنه راقَ جَمالاً
ومياهُ البحار مِلْحٌ فَمَهْمَا حمّلَتْها السَّحابُ عُذْنَ زُلالا

* أَجَلْ ، لقد هبَّتْ من علماءِ الصَّحابةِ أنفاسٌ شذيةٌ ، وتنفَّستْ أسحارُهم بروائح ندية ، فكانت أعطر من نَشْر الخُزامىٰ[2] ، بل تتفتّق سِيَرهم مسكاً أذفر يعطّر الزّمان والمكان والآذان ، ويصقل النفوس والأرواح والأبدان ، فهم أئمة الفضل المتوجون بتيجان المكارم ، وهم مطمح أنظار الأمل ، فَبِهم تُفَضَّلُ البلاد ، وبهم يرتوي بستان الفكر فَنِعْمَ الزّاد!.

* إنَّ حياتي مع سيّدنا أُبيّ بن كعب نديّةُ النَّسمَات ، عذبةُ الهمسَات ، أجتلي من خلالها خِلالَ العُلماء من الصَّحابة الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، فهلْ هناك مكرمةٌ أعظم من هذه المكرمة؟! وهل هناك شرفٌ أعظم من هذا الشَّرف الوافي؟! وهل هناك فضْلٌ أعظم من مرضاة الله عز وجل ورضاه؟!

طيبُ أَصْلِهِ ومَنْبَتِهِ:

* ينحدرُ أبيّ[3] بنُ كعب رضي الله عنه من نسبٍ عريق يطاولُ عنانَ

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد (٥/ ١١٣ ـ ١٤٤) ، وطبقات ابن سعد (٣/ ٤٩٨ ـ ٥٠٢) ، والاستبصار (ص ٤٨) ، وحلية الأولياء (١/ ٢٥٠ ـ ٢٥٦) ، والاستيعاب (١/ ٢٧ ـ ٣٠) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٤/ ١٩٧ ـ ٢٠٤) ، وأسد الغابة (١/ ٦١). وغيرها كثير مما لا يُحصر.

(٢) «الخزامىٰ»: نبتٌ زهْرهُ أطيبُ الأزهار نفحةً ، ويسمّى خيري البَرّ. (مختار الصّحاح).

(٣) قال ابن دريد رحمه الله في كلمة أبيّ واشتقاقها ما نصُّه: «أبيّ؛ الذي تنسبُ إليه =

السَّماء ، فهو زاكي الأرومة ، أصيلٌ كريم ، من بني النّجّار الأخيار ، الذين امتدحهم رسولُ الله ﷺ بقوله: «خيرُ دورِ الأنصار بنو النّجار»[1].
وأبيٌّ رضي الله عنه أنصاريٌّ خزرجيٌّ نجاريٌّ من جهة أبويه.

* عرف سيّدنا أُبيُّ بنُ كعب الإسلامَ منذ أنْ تنفَّسَ صبْحُهُ وتبسَّم فجرهُ في أمّ القرى مكّة ، فأضاء ما حولَها ، وأرسلتْ شمسُ الإيمان أشعّتها على المدينة ، فصادفتْ قلوباً خاليةً ترغب في ذلك النّور المنبعثِ من هاتيك البقاع الطّاهرة ، فأَتْبَعَتْه أبصَارها ، وهفتْ إليه بصائرها ، فكان أهلوها من زمرةِ السُّعداء ، وكانوا من حملةِ أقباس الهداية إلى سائرِ البلاد.

* وفي مكَّة المكرمة ، التقى رسولُ الله ﷺ بضعةَ رجالٍ من الأنصار ، فآمنوا بما جاء به ، وعَمرَ حبُّ الصَّادق المصدوق ﷺ قلوبَهم ، وغَمرَ كلامُ الله عزَّ وجلَّ مشاعرهم وخالطَ نفوسَهم ، فاستنارت بصائرهم بالهدى ودينِ الحقّ ، فرجعوا إلى المدينةِ ، وذكروا لأهلها محاسنَ الإسلام وفضائلَ الإيمان ، ففشا فيهم ، ودخل دُروهم.

* وبعد عام ، انطلقَ فتيةٌ من الأنصار ، قد آمنوا بربّهم وزادهم هدىً ، ووافوا البيت العتيقَ ، والتقوا رسولَ اللهِ ﷺ ، وبايعوه بيعةَ العقبةِ الأولى ، وكانوا اثني عشرَ رجلاً ، ولما أزفَ رحيلُهم إلى المدينةِ ، بعث معهم النّبيّ ﷺ شاباً وسيماً جميلاً بهيَّ الطَّلعة ، نديَّ الكلمات ، عالماً عارفاً بالله ورسوله ، أدرك كيف يعرّفهم بكتابِ ربّ السَّماوات والأرض من خلالِ الموردِ العذب ، الذي نهلَ منه وعبّ. هذا العالمُ الوسيمُ هو أحد فتيان الصَّحابة وشبابهم الأصفياء الذين تلاشوا في محبّةِ اللهِ ورسوله ، وعملوا على نصرةِ الحقّ وأهله ، إنّه مصعبُ بنُ عمير العبدريّ ، الذي حدَّدت الأوامرُ

= القراءة ، شهد بدراً.
وأبيّ تصغير أبٍ ، واحدُ الآباء.
أو تصغير أبٍّ ، وهو المرعىٰ من قوله عز وجل: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١] والله أعلم». (الاشتقاق ص ٤٤١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

المحمديّة مهمّتَه ، إذ أمره الصادق المصدوق ﷺ أنْ يقرىءَ أهل المدينة ويعلّمهم القرآن ، ويفقّههم في دِينْ الإسلام.

* وفي المجالسِ العِلْميّة فِي المدينةِ ، تلك المجالس الطَّيّبة التي حفَّتْها العناية الإلهيّةُ ، اجتذبتِ الدعوةُ المُصعبيّةُ الحصيفة اللطيفة قلوبَ عليةِ القوم وأعلامهم ، فنسجَ بين حناياها الشّوق إلى لقاء الحبيبِ الأعظم والهادي البشير محمّد ﷺ ، فنطقتْ بالشَّهادة ، ودخلت في عقدِ الأوائلِ من المسلمين ، وأسلم منهم: أسيدُ بنُ الحُضير ، وسعدُ بن معاذ ، وعددٌ من كبار الأوس ثمّ الخزرج[1].

* ومضى عامٌ من الزّمن ، فإذا بسبعين مُسلمٍ من خيار الأنصارِ يتوجَّهُون إلى منبعِ النُّور ومطلعه ، ومعهم امرأتان من نسائِهم ، ويبدو من بين أولئك السَّبعين رجُلٌ ربْعَةٌ ليس بالطَّويل ولا بالقصير ، قد عَلَتْ جبينَهُ عزّةُ الإيمانِ بالله عزّ وجلّ ، ولهجَ قلبُه شوقاً إلى لقاء معلّم الناس الخيرَ الحبيبِ المصطفى ﷺ ، وها هو ذا على مقربةٍ من مكّة قابَ قوسَيْن أو أدنى.

* وفي العقبة بِمِنى ، كان اللقاءُ السَّعيد ، وكانت أوّل نظرة يرى فيها أُبيّ رسولَ الله ﷺ ، فإذا بيمينهِ تصافحُ يمينَ رسولِ الله ﷺ مبايعةً إيّاه على السَّمْعِ

---

(١) وما أجملَ أنْ نقرأ هذه الأبيات الكاشفات عن مصعبَ وعلْمِه وعمله:

يا مصعبَ بن عمير طبْتَ مِنْ دَاع ... في الأوسِ في خَزْرجٍ نعْمَ الفتى الرّاعي
بلغتَ بالحلم فيهم مبلغاً حَسناً ... حتّى استملتَ قُلوباً بعد إقناعِ
ما جَاءَهُ ذو حجى إلاّ وباعدَهُ ... عن شِرْكهِ والهدى مصباحُ رجّاعِ
وأعلنَ ابنُ معاذٍ في عشيرته ... إسلامَه وتحدّى كلّ أشياعَ
وفاءتِ الأوسُ للإسلام راشدةً ... فكانَ ذلك منها خيرَ إجماعَ
وذاكَ فضلٌ من الرحمنِ يسَّرهُ ... على يدِ ابن عمير صاحب الباعَ
وغيظَ من كثرةِ الأنصار ذو حَسَد ... من اليهودِ ومن أصحابِ أطمَاعَ
ضاقُوا بمصعبَ مصباحاً فكيفَ بهم ... وذاك مشكاةُ أنوار وإشعاعَ
تباركَ اللهُ يعطي الحقَّ قوّتَه ... فيسقطُ الباطلُ المغرورُ للقَاعَ
ويرفعُ اللهُ بالقرآنِ مَنْ حَملُوا ... ويخفضُ اللهُ ذا بغي وإيقاعَ
يزولُ ذِكْرُ ذوي جاهٍ وسلطنةٍ ... وذكرُ مصعبَ باقٍ ملءَ أسماعِ

والطَّاعةِ في النِّشاط والكَسَل ، والنَّفقةِ في العُسْر واليُسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

* وسَرَتْ أنسامُ الإيمان وهمساتُه في نفْس أبيّ بن كعب رضي الله عنه فإذا بها تملأُ كلّ ذّرةٍ من نفسه ، فقد أحسّ بالحقّ ينيرُ جوانحَهُ ، وهو يطردُ ظلماتِ الجهل التي رانت على قلوب أهل المدينة قروناً عديدة ، وأيّاماً وليالي كثيرة.

* عاد أبيّ بن كعب إلى المدينةِ بوجهٍ غير الذي جاء به من مكّةَ قبل أسابيع ، عاد وهو يحملُ بين جوانحه نورَ الله عزّ وجلّ ، وكلماتٍ منعشةً من رسولِ اللهِ ﷺ لتكون زاد مسيرِه، وقُوتَ نفسِهِ ريثما يصلُ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ، ومن ثمّ ينتشرُ نورُ الإسلام فيغمرُ الدّنيا بأسرِها ويعمرُ القلوب جميعها.

* رجع أُبيّ إلى المدينةِ وقد بهرته آيات القرآن الكريم ، وعملت فيه عملَها ، وأضاءتْ له مستقبلاً زاهراً مشرقاً رآه ببصيرته ، وعلمَ أنّها الحقُّ المبينُ ، لذا فإنّه اتّخذ القرآنَ الكريم نبراساً له ، وما كان يحسبُ أنّه سيغدو حافظَ العلماءِ ، وسيّد قرّاءِ القرآن العظيم في زمانهِ من الأنصار.

* كان سيّدنا أُبيٌّ من أهلِ المدينةِ الذين آووا وآثروا ونصروا ومنعوا حتى أذنَ اللهُ عزَّ وجلَّ بالفرج ، وقد تحدَّث أبيٌّ عن هذا فقال: «لمَّا قدم النّبيُّ ﷺ المدينةَ ، وآوتهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوسٍ واحدة ، فكانوا لا يبيتون إلا في السّلاح ، ولا يصبحون إلاّ فيه ، فقالوا: ترون أنّا نعيشُ حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخافُ إلا الله. فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥][1]».

* وأنزلَ اللهُ عزّ وجلّ سكينتَهُ على المؤمنين ، وعزَّ المسلمون بوعدِ الله ، إذ استخلفهم في الأرضِ ، ونصرهم على الباطلِ وأهله ، وغدوا مصابيح الأنام على مرِّ الأيّام.

---

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٦ و٧).

أُسْـرَةٌ كَريمَـةٌ وذريّـةٌ طيّبَـةٌ:

* تزوّجَ أبيُّ بنُ كعب رضي الله عنه امرأةً من فواضلِ نساءِ عَصْرِها تُدعى أمَّ الطُّفيل بنتَ الطّفيل بن عمرو الدَّوسيّ[1]؛ وأمُّ الطُّفيل هذه صحابيةٌ ابنة صحابي، ولها أثرٌ كريمٌ في تاريخ العصر النّبويّ، فقد انتظمتْ في ديوانِ النّساء اللواتي حظَيْنَ بصحبةِ رسولِ الله ﷺ، وروين عنه، وعرفت أمورَ الإسلام وشيئاً من أحكامهِ وفقْههِ، وقد روى الإمامُ أحمدُ حديثها في مسنده[2].

* وكان أبيُّ بنُ كعب وأمُّ الطُّفيل رضي الله عنهما سعيدَيْن بهذا الزّواج الميمون الموفَّق، فقد رزقهما الله عزَّ وجلَّ الذُّريةَ الطَّيِّبَةَ الصّالحة، فكان لأُبيّ بضعةُ أولادٍ، جاء ذكْرُهم في المصادرِ وهم: محمدٌ، والطُّفيلُ، وعبدُ الله، كما كان له ابنةٌ واحدةٌ تدعى: أمَّ عمرو.

* عاشَ هؤلاء الأولادُ الأبرار في كنفِ أسرةٍ كريمةٍ طيّبةٍ، زادُها الإيمانُ، ورحيقُها التّقوى، وشعارُها محبّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ، ودثارُهَا محبّةُ النّبيّ ﷺ، فكانت من خيرِ أسر الأنصار في العَصْر النّبويّ في المدينة المنورة.

* كان أبيٌّ وزوجُه أمّ الطُّفيل من خيارِ المؤمنين، وقد عاشَا الأحداثَ النّبويّة كُلَّها، وكان لهما مواقفُ وضيئةٌ وكلماتٌ مضيئةٌ وآثار جريئة، ترشحُ بنورِ الإسلام، وتعبقُ بسواطعِ الإلهام، وتدلُّ على إيمانهما العميق، وتسليمِهما واستسلامهما لقضاء العزيز الحميد الذي له مُلْك السَّماوات والأرض.

* ومن أَنْصع المواقفِ الكريمةِ لهذَيْن الكريمَيْن استنكارهما لحديث الإفكِ الذي أرجفَ به المنافقون عن أمنا عائشة رضي الله عنها عقبَ غزاةِ المُريسيع، فقد أحزن أبيّاً وأمَّ الطُّفيل ما يفتريه المنافقون ويجترهُ المتقوّلون على أطهرِ الطَّاهرات أمِّنا أمِّ المؤمنين الصِّديقة عائشةَ بنتِ الصِّديق الأكبر رضوان الله عليهما، وسنقرأُ ما جاء عند الواقدي في «مغازيه» عن هذا الأمر إذ قال:

---

(١) انظر: ترجمة أم الطّفيل في أسد الغابة (٦/ ٣٥٥) ترجمة رقم (٧٤٩٨).
(٢) انظر: المسند (٦/ ٣٧٥).

«قالت أمُّ الطُّفيل لزوجها أبيّ، وأنفاس الحق تحرّكُ مشاعرهَا وتوقظُ إيمانها: ألا تسمعُ ما يقولُ النّاسُ في عائشةَ أمِّ المؤمنين، وزوجِ رسولِ ربِّ العالمين؟!

قال: أبيٌّ رضي الله عنه: أيّ ذلك تقصدين؟

قالت: ما يقولون ويتقوّلون ويرجفُون ويخوضُون في الإفْكِ[1].

قال أُبيٌّ: هو واللهِ الكذب؛ أوَ كُنْتِ تفعلين ذلك أنْتِ؟

قالت: أعوذُ بالله.

قال: فعائشةُ والله خيرٌ منكِ ومن نسائنا أجمعين.

فقالت أمُّ الطُّفيل في يقينِ المؤمنين وإيمانِ الصَّادقين: واللهِ، وأنا أشهدُ بذلك يا أبا المنذر، فهي واللهِ خيرٌ منّي، وأبوها خيرٌ من أبي.. فنزلت هذه الآية: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢][2]».

سجايا نبيلةٌ وأخلاقٌ جليلة:

* لسيّدنا أبيّ بن كعب رضي الله عنه أسوةٌ حسنةٌ برسولِ اللهِ ﷺ، فقد كان يترسّمُ الهديَ النّبويّ في الأقوالِ والأفعالِ...

* فقد كان أبيّ رضي الله عنه رجُلاً سَمْحاً جواداً سخيّاً بما مَلَك؛ متخلياً عن الإمساكِ أيّة طريقة سَلَك[3]، كريمَ الأخلاق، طيّبَ الأعراق، يعْبَقُ

---

(١) «الإفك»: أقبحُ الكذبِ وأفحشُه وأبشعُه وأوقحه؛ والمرادُ ما أُفِكَ به على أمّنا عائشة بنتِ الصديق رضي الله عنهما، وقد أنزلَ الله عزّ وجلّ براءتها قرآناً يُتلى في المحاريب إلى ما يشاء الله عزّ وجلّ، وللمزيدِ من أخبارِ أمنا وسيّدتنا أمّ المؤمنين عائشة راجع كتابنا الشّهير «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» (ص١٢٣ ـ ١٨٨) ـ ط٦، تجد خيراً كثيراً بإذن الله.

(٢) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٤٣٤ و٤٣٥) بشيء من التّصرف.

(٣) للهِ درُّ مَنْ قال:

قد يجمعُ المرءُ مَالاً ثم يُسْلبهُ ... عمّا قليل فيلقى الذّلّ والحَرْبَا
وجامعُ العلْم مغبوطٌ به أبداً ... فلا يحاذرُ منه الفوتَ والطَّلبا

فوحُ زَهْر سيرتهِ بأنفاسٍ نديّةٍ على القلوبِ ، فتنتعشُ النّفوسُ بزهر أخلاقهِ ووَرْد صفاته الحِسَان ، التي اقتطفَها من أزاهرِ القُرآن الكريم ومعانيه ، فالعلمُ ميراثٌ غيرُ مسلوب ، وقريبٌ غيرُ مغلوب ، فلنجلسْ[1] إلى مائدة أبيّ المنذر أبيّ بن كعب نروي أرواحَنا من معينها ، ونندّي أنفسَنا من نميرها ، ونقفو آثاره وآثار أولئك الأعلام الكبار من علماء الصَّحابة رضي الله عنهم جمعياً.

* كانت أخلاقُ أبيّ رضي الله عنه تجمعُ بين كمالِ القُرآن العظيم وجلاله ، وبين آداب الهديّ النّبويّ وجمالهِ ، لذلك كان يوصي دائماً أن يكون القرآنُ الكريم زاد المعاد ، والسُّنّةُ النّبويةُ هديَ العباد.

* أخرجَ أبو نُعيم رحمه الله في «حلْيتهِ» خبَراً لطيفاً تزدان به السُّطورُ ، وتنشرحُ من عبيره الصُّدور ، لما فيه من الأدبِ الرّبانيّ النّبويّ الوافر ، الذي يظهرُ كالبدرِ السَّافر ، فقال: «قالَ رجلٌ لأبيّ بن كعب رضي الله عنه أوصني.

قال: اتخذْ كتابَ الله إماماً ، وارضَ به قاضياً وحكَماً ، فإنّه الذي استخلفَ فيكم رسولكم؛ شفيعٌ مطاعٌ ، وشاهدٌ لا يُتّهم ، فيه ذكركم وذكْرُ مَنْ قبلكم ، وحَكَمُ ما بينكم ، وخبرُكم وخبرُ ما بعدكم»[2].

* كان أُبيٌّ مُخَمَّرَ الطِّينةِ بالفضلِ المحض ، مجبولَ الفطرةِ على الأدب النّبويّ الغَض ، لا يرضى بالهدي النّبوي بديلاً ، لأنه نشأَ وشبَّ على غصونِ التّربيةِ النّبويّةِ التي ذُللتْ قطوفها تذليلاً ، وكان شديدَ المحافظةِ على الوصيّةِ النّبويّة قولاً وفعلاً وسُلوكاً وخُلُقاً ، وحرصَ أشدَّ الحرص أنْ يَتْبَعَ الوصايا النّبويّة بحذافيرها ، ففي وصيةٍ نبويّة مفادها أنْ يكونَ المهاجرون والأنصارُ في الصَّفّ الأوّلِ عند الصَّلوات الخمس ، ـ وذلك لِسَابقتِهم وفضلِهم وعلمِهم ومعرفتِهم الحقيقية قَدْرَ الله عزَّ وجلَّ ، وقَدْرَ النّبيّ ﷺ ـ كان أبيُّ بنُ

---

(١) قيل لابن المبارك: مَنْ تجالس؟!
فقال: «أصحاب النّبي ﷺ ، إنّي أنظرُ في كتب آثارهم وأخبارهم». (محاضرات الأدباء ١/ ٣٣).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٢٥٣).

كعب يحرصُ على ألا تفوته الوقفة في الصَّفِ الأوّل ، سمعاً وطاعةً وتنفيذاً لمعلّمه ومربّيه سيّدنا محمّد رسول الله ﷺ.

* أخرج الإمام أحمدُ وغيرهُ عن قيسِ بنِ عُبَاد[1] رحمه الله قال: «أتيتُ المدينةَ للقاء أصحاب محمّد ﷺ ، ولم يكن فيهم رجلٌ ألقاهُ أحبُّ إليَّ من أُبيّ ، فأقيمتِ الصّلاةُ ، وخرجَ ، فقمتُ في الصَّفّ الأوّل ، فجاء رجلٌ فنظرَ في وجوهِ القوم ، فعرفهم غيري ، فنحّاني وقامَ في مقامي ، فما عقلتُ صلاتي ، فلمّا صلّى قال: يا بنيّ! لا يسوؤك الله ، فإنّي لم آتِ الذي أتيتُ بجهالة ، ولكنَّ رسول الله ﷺ قال لنا: «كونُوا في الصَّف الذي يليني» ، وإنّي نظرتُ في وجوهِ القوم ، فعرفتُهم غيرَك ، وإذا هو أبيُّ رضي الله عنه»[2].

* وتشيرُ الأخبارُ التي وصلَتْ إلينا عن أبيّ بنِ كعب رضي الله عنه إلى أنّه كان في خُلُقهِ بعض الحِدّةِ ، والشّدّة ، لذا فقد كان طلبةُ العلْم الذين يقصدون المدينةَ المنوّرةَ يعرفون هذه السِّمة في هذا العالِم الصَّحابي الفقيه.

* أخرجَ ابن سعد رحمه الله عن زرّ بن حبيش[3] قال: «كانت في أُبيّ بن كعب شراسةٌ، فقلت له: أبا المنذر أَلِنْ لي من جانبِكَ، فإنّي إنّما أتمتّعُ منك»[4].

---

(١) قيس بن عُبَاد الضّبعي: أحدُ المخضرمين ، قدمَ المدينةَ في خلافةِ عمر بن الخطاب ، فروى عنه ، وعن أبي ذرّ ، وعليّ ، رضي الله عنهم ، كان ثقةً قليلَ الحديث ، قتلَه الحجاجُ ابن يوسف الثّقفي لخروجه عليه مع ابنِ الأشعث (طبقات ابن سعد ٧/ ١٣١).

(٢) انظر: المسند (٥/ ١٤٠) ، وحلية الأولياء (١/ ٢٥٢) ، وأخرجه النّسائي (٢/ ٨٨) ، وعبد الرّزاق في المصنف (٢/ ٥٣) ، والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٠٤) وعنده: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يقوم في الصّف الأوّل إلا المهاجرون والأنصار». وانظر: حياة الصَّحابة (٣/ ١٢٦ و١٢٧).

(٣) زرُّ بنُ حُبيش الأسديّ الكوفيّ التّابعي الكبير المخضرم ، أدرك الجاهلية ، وسمعَ عمر وعثمان وعلياً وابنَ مسعود ، وآخرين من كبار الصَّحابة رضي الله عنهم أجمعين.
وروىٰ عنه أكابرُ من التّابعين منهم: الشّعبيّ ، والنّخعي ، وعدي بن ثابت؛ واتفقوا على توثيقه وجلالته. توفي سنة (٨٢هـ) ، وعمره (١٢٠) سنة رحمه الله (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٩٧).

(٤) طبقات ابن سعد (٣/ ٥٠٠).

* وساقَ الذَّهبيُّ رحمه الله هذا الخبرَ بصيغةٍ أخرى عن زرِّ بنِ حبيش قال: «أتيتُ المدينةَ ، فأتيتُ أبيّاً ، فقلتُ: يرحمُك الله! اخفضْ لي جناحَك ـ وكان امرءاً فيه شراسةٌ ـ فسألته عن ليلةِ القَدْر ، فقال: ليلةُ سبعٍ وعشرين»[١].

* أقول: «هذه الحّدة لم تكنْ متأصّلةً في أخلاقِ أُبيّ رضي الله عنه ، وإنَّما كانتْ من الحمّى التي لازمتْهُ منذ أنْ علمَ فَضْلَ الصَّبر عليها إلى آخرِ نَفَسٍ في حياته». ويشهدُ لأُبيّ بهذا ما رواه أبو سعيد الخدريّ قال: «قال رجلٌ لرسولِ الله ﷺ : أرأيتَ هذه الأمراض التي تصيبُنا ، ما لَنَا بها؟

قال: «كفّارات».

قال أُبيّ: وإنْ قلَّتْ؟

قال: «وإنْ شوكَة فما فوقَها».

قال: فدعا أبيٌّ على نفسه أن لا يفارقَه الوعكُ حتى يموت؛ في أن لا يشغله عن حجّ ولا عمرة ، ولا جهاد في سبيلِ الله ، ولا صلاة مكتوبة في جماعة. فما مسَّه إنسانٌ إلا وجَدَ حرَّه حتّى مات»[٢].

* وأخرج أبو نُعيم في «الحلية» عن أُبيّ رضي الله عنه قال: «يا رسول الله، ما جزاءُ الحمّى؟

قال: «تُجري الحسناتِ على صاحِبها ما اختلجَ عليه قدمٌ ، أو ضربَ عليه عرقٌ».

فقال أُبيّ بن كعب: اللهم إنّي أسألك حمّى لا تمنعُني خروجاً في سبيلك، ولا خروجاً إلى بيتكَ، ولا مسجد نبيّك. . فلم يُمْسِ أُبيّ قط إلاّ وبه حُمّى»[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٩٤).

(٢) المسند (٣/ ٢٣) ، وانظر: حياة الصحابة (١/ ٥٠٢ و٥٠٣).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٢٥٥) ، وأخرجه أحمد في المسند (٣/ ٢٣) ، والطبراني في الكبير (١/ ٢٠١) رقم (٥٤٠).

* وعلّق الإمامُ الذّهبيّ رحمه الله تعليقاً مفيداً نافعاً على هذا الحديث أوضحَ فيه طبيعةَ خُلُقِ أبيّ رضي الله عنه فقال: «ملازمةُ الحمى له حرَّفَتْ خُلُقَه يسيراً ، ومن ثمّ يقولُ زرّ بن حبيش: كان أبيّ فيه شراشة»[1] .

* كانت رقّةُ القلبِ وخشوعه ، وكثرةُ الخشية من الله عزَّ وجلَّ سجيةً من سجايا سيّدنا أُبيّ بن كعب رضي الله عنه ، وكان الحقُّ هو الصَّرحُ الذي بنى عليه أخلاقه ، والسّبيل الذي جعله منهاجَه ، يطلبُ الخيرَ أينما وُجِدَ ، وكيفما كان ، وفي هذه القصّة مصداق ما نقول: روى جندبُ بن عبد الله البَجَليّ رحمه الله قال: «أتيتُ المدينةَ ابتغاء العِلْم ، وإذا الناسُ في مسجدِ رسولِ الله ﷺ حَلَقٌ حَلَقٌ يتحّدثون؛ قال: فجعلت أمضي الحلق حتى أتيتُ حلقةً فيها رجلٌ شاحب ، عليه ثوبان ، كأنّما قدمَ من سَفَر ، فسمعتُه يقول: هلك أصحابُ العقْدة[2] وربّ الكعبة ، ولا آسى عليهم ، قالها ثلاثَ مرّات.

قال: فجلستُ إليهِ فتحدَّث. بما قُضي له ، ثمّ قام؛ فلمّا قام سألتُ عنه ، قلت: مَنْ هذا؟

قالوا: هذا أبيٌّ بن كعب سيّد المسلمين؛

فتبعتُه حتى أتى منزلَه ، فإذا هو رثُّ المنزل ، ورثُّ الكسوة ، يشبهُ بعضُه بعضاً ، فسلّمتُ عليه ، فردَّ عليَّ السَّلام ، ثمّ سألني: مَنْ أنتَ؟

قلت: منْ أهل العراق. .

قال: أكثرُ شيء سؤالاً!

قال: جندبُ: فلمّا قال ذاك ، غضبتُ ، فجثوتُ على ركبتي ، واستقبلتُ القبلةَ ، ورفعتُ يدي ، فقلت: اللهمّ أنّا نشكوهم إليك ، وإنّا

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٣٩٢) ، أقول: «وهذه الصّفة لا تغضُّ من مكانة سيدنا أبيّ العلميّة ، فلقد حلّق في مجالِ الفضائل عالياً رضي الله عنه».

(٢) «العقدة»: بالضّم: موضع العقد وهو ما عقد عليه؛ والعقدة: الضّيعة (مختار الصحاح). وقال ابن الأثير في «النهاية»: «هلك أهل العقدة» يريد البيعة المعقودة للولاة ، والعقد من عقد الألوية للأمراء».

ننفقُ نفقاتنا ، وننصبُ أبداننا ، ونرحلُ مطايانا ابتغاءَ العلْم ، فإذا لقيناهم تجهَّمونا وقالُوا لنا!

قال: فبكى ، وجعل يترضّاني ، وقال: ويحك ، لم أذهبْ هناك؛ ثمّ قال: إنّي أعاهدُك لئن أبقيتني إلى يوم الجمعةِ لأتكلمنَّ بما سمعتُ من رسولِ الله ﷺ ولا أخاف فيه لومةَ لائم؛ ثمّ أراه قام ، فلما قال ذلك انصرفتُ عنه ، وجعلتُ أنتظرُ الجمعةَ لأسمع كلامه.

قال: فلمَّا كان يوم الخميس ، خرجتُ لبعضِ حاجاتي ، فإذا السِّكَكُ غاصّة من الناس ، لا آخذُ في سكّة إلا تلقاني النّاس؛

قلت: ما شأنُ النّاس؟

قالوا: نحسبُكَ غريباً.

قلت: أجل.

قالوا: ماتَ سيّدُ المسلمين أبيُّ بن كعب..

قال: فلقيتُ أبا موسى الأشعريّ بالعراق فحدثتُه بالحديث!

فقال: والهفاه ، ألا كان بقيَ حتّى يبلِّغنا مقالة رسولِ الله ﷺ»[1].

* إنَّ هذا الصَّحابيَّ الجليلَ ذو سجايا كريمة ، فقد كان يقتدي برسولِ الله ﷺ إلى أخرِ حياته ، وقد وصفه الرُّواةُ وذكروا صفته وشخصيّته فقالوا: «كان أبيُّ بن كعب رَبْعَةً منَ الرِّجال ، نحيفاً ، شيخاً ، أبيضَ الرّأسِ واللحيةِ رضي الله عنه».

* وهذا الشّيخُ العالمُ العيلمُ كان واحداً من حفّاظ الصَّحابةِ وعلمائِهم ، وواحداً من قرائهم الذين شهدَ لهم النّبيُّ ﷺ بِعِلْمِ القراءة ، وأمرَ النَّاس أنْ يأخذوا عنهم ، وفي الفقرةِ الآتية نتعرفُ ذلك بإذن الله.

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (٤/ ٢٠٢ و٢٠٣) ، وانظر كذلك القصّة بمعنى قريب في طبقات ابن سعد (٣/ ٥٠١) ، والمستدرك (٣/ ٣٠٤ و٣٠٥).

أقرؤهم أُبَيّ:

* تبوأ سيّدنا أبيُّ بنُ كعب رضي الله عنه مكانةً عظمى ومنزلةً كبرى بين طبقاتِ القراءِ وعلماء الصَّحابة، فقد كان سيّد القُراء، جمعَ القرآنَ الكريمَ في حياةِ النّبيّ ﷺ، وعرضَ حِفْظَه عليه، وحَمَلَ عنه علْماً مُباركاً، وكان رأساً في العِلم والعَملِ والعبادةِ والتَّقوى.

* وكان أُبيُّ رضي الله عنه واحداً من أسيادِ عُلماءِ الصَّحابةِ وأعيانهم في حفظِ القرآنِ العظيم وفهمه وتفسيره، فقد عاشَ مع القرآنِ الكريم ينهلُ منه ما تشتهيه نفسُه، وتلذُّ عينهُ، وتنعمُ روحهُ بقراءتهِ، ناهيك أَنَّه تشرّفَ بكتابتهِ، وسما بحفظِهِ، حتى أضحى من أربابِ الاختصاصِ في القرآنِ إذا يُشارُ إليه بالبَنان، ويُدَلُّ عليه لِوَعْيهِ كلام الرّحمان.

* وقد شهدَ لأبيّ رضي الله عنه معلّمُهُ الصّادقُ المصدوقُ سيّدنا محمّد رسولُ الله ﷺ بجودةِ قراءةِ كتابِ الله عزَّ وجلَّ، وهل هناك شهادة أرفع من هذه الشَّهادة المباركة المختومةِ برحيقِ الهديّ النّبويّ؟! فقد قال رسولُ الله ﷺ عن حفظِ أبيّ وفضْله، وفضْل ثلة من أعلام الصَّحابةِ وأعيانِهم: «أرحمُ أُمّتي بأمّتي أبو بكر، وأشدهم في أمْرِ الله عمر، وأصدقُهم حياءً عثمان، وأقرؤُهم لكتابِ الله أُبيّ بن كعب»[1]، فأكرم بهؤلاء العُبَّاد الأخيار!.

* وقد رغَّبَ الهادي البشير ﷺ مَنْ أرادَ قراءةَ القرآنِ أنْ يأتي نَفراً من الصَّحابة، وأمره أنْ يتلقّى القرآنَ عن علماءَ كُبراءَ ذكرَهُم بأسمائهِم تشريفاً وتكريماً.

* جاء في الصَّحيح وغيرهِ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «استقرئوا القرآن من أربعة: من

---

(١) أخرجه التّرمذي برقم (٣٧٩٣)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في المقدمة (١٥٤) باب (١١)؛ وأحمد في المسند (٣/ ١٨٤ و٢٨١).

عبد اللهِ بنِ مسعود فبدأَ به ، وسالم مولى أبي حذيفة ، ومعاذ بن جبَل ، وأبيّ بن كعب»[1] .

* فهؤلاء الأربعة[2] العُلماءُ الأعلامُ أئمةُ الحفّاظ ، ومنهم سيّدنا أبيّ بنُ كعب الذي يتحلّى بعلمِهِ جِيْدُ كلّ عصر على مرِّ الدّهرِ ، فكم هبَّتْ له أنسامُ أنفاسٍ قرآنيّةٍ معطّرة بالنّجاح ، وآثارٌ حسانٍ ملامح عنوانُها الفلاح ، فهو من أدلّاء الهدى وأهل الصَّلاح ، الذين اقتبسوا معاني القرآن من الصادق المصدوق الحبيبِ محمّد ﷺ ، وأناروا بها قلوبَ طلّاب الحقائقِ والعِلْمِ ، ومحبّي المعرفةِ ممّن نذروا حياتهم للحياةِ مع حياةِ القُلوبِ والأرواحِ ، القرآن الكريم ، فعملُوا وفْقَ تشريعه ومراده ، وساروا على طريقه ومنهاجه وإرشاده .

* وفي الرصيدِ القرآنيّ والنّبويّ لأبيّ بن كعب رضي الله عنه نجدُ رسولَ اللهِ ﷺ يكرمه بمكرمةٍ نفيسةٍ رفعتْهُ إلى الجوزاء ، فلقد قرأَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ القرآن أمامَ أبيّ ، وذلك بوحي من رفيعِ الدَّرجات ذي العرش الله ربّ العالمين .

* جاء في الصَّحيح وغيره بسند عن قتادةَ عن أنسٍ بن مالك رضي الله عنه قال : قال النّبيُّ ﷺ لأبيّ بن كعب : «إنَّ اللهَ أمرني أنْ أقرأَ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ . . .﴾ [البيّنة : ١] ؛

قال : وسمَّاني؟!!

قال : «نعم» . فبَكَى[3]» .

---

(١) أخرجه البخاري في الفضائل برقم (٣٧٥٨) ، واللفظ له ؛ وفي مناقب الأنصار برقم (٣٧٦٠ و٣٧٠٦ ، و٣٨٠٨ و٤٩٩٩) ، وفي فضائل القرآن أيضاً برقم (٤٩٩٩) ، وأحمد في المسند (٢/ ١٨٩ و١٩٥) ، والحاكم في المستدرك (٣/ ٢٢٥) .

(٢) أخرج ابنُ سعد رحمه الله في «الطّبقات» عن محمّد بن كعب القرظيّ قال : «جمعَ القرآن في زمان النّبي ﷺ خمسةٌ من الأنصار : معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبيّ بن كعب ، وأبو أيوب ، وأبو الدرداء ، رضي الله عنهم» . (طبقات ابن سعد ٤/ ١٧٢) .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب برقم (٣٨٠٩) واللفظ له ؛ (٤٩٦٠ و٤٩٦١) ، ومسلم برقم (٧٩٩) ، والترمذي برقم (٣٧٩٥ و٣٨٩٤) ، وأحمد في المسند (٣/ ١٣٠ و١٣٧ و١٨٥=

* وجاء في روايةٍ للطَّبراني من وجْهٍ آخر عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له: «نعم؛ باسمِكَ ونسبِكَ في الملأ الأعلى».

* قال القُرطبيُّ رحمه اللهّ: «تَعجُّب أبيّ منْ ذلك، لأنَّ تسميةَ اللهِ له، ونصّه عليه، ليقرأ عليه النّبيّ ﷺ تشريفٌ عظيم، فلذلك بكى إمّا فرحاً وإمّا خشوعاً».

* وقال القرطبيُّ أيضاً: «خصَّ هذه السّورة ـ أي البيّنة ـ بالذّكْر لما اشتَمَلَتْ عليه من التَّوحيدِ، والرّسالةِ، والإخلاصِ، والصُّحفِ؛ والكتبِ المنزّلةِ على الأنبياء، وذكر الصَّلاة، والزكاة، والمعاد، وبيان أهل الجنَّة والنّار مع وجازتها».

* وقال أبو عُبيد القاسمُ بن سلام الهرويّ رحمه الله: «معنى هذا الحديث عندنا، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ إنّما أرادَ بذلك العرضَ على أبيّ أنْ يتعلّمَ منه القراءةَ، ويسْتثْبتَ فيها، وليكونَ عَرْض القُرآن سُنّة[1]، وليس هذا على أنْ يستذكرَ النّبيّ ﷺ منه شيئاً بذلك العرض»[2].

* وقال ابنُ حجر رحمه الله في «الفتح»: «ويُؤخذُ من هذا الحديث مشروعيةُ التّواضع في أَخْذِ الإنسان العِلْم من أهلهِ وإن كانوا دونَه»[3].

= و٢١٨ و٢٣٣، و٢٧٣، ٢٨٤). ومعنى قوله: «وسمّاني»؟ أي: هل نصّ عليّ باسمي، أو قال: «اقرأ على واحد من أصحابك فاخترتني أنت»؟ فلما قال له: «نعم» بكى إما فرحاً وسروراً بذلك، وإما خشوعاً وخوفاً من التقصير في شكر تلك النعمة. والله أعلم.

(١) قال خارجةُ بنُ زيد: «قال لي زيدُ بنُ ثابت: القراءةُ سُنّةٌ». ومن المعروف أنَّ زيدَ بنَ ثابت رضي الله عنه هو الذي وَليَ نسخَ المصاحف التي أجمعَ عليها المهاجرون والأنصار، فرأى اتّباعها سنّة واجبة.
وقال عروةُ بنُ الزبير رحمه الله: «إنَّ قراءةَ القرآن سنّةٌ من السُّنن، فاقرؤوه كما أقرئتموه». (فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٣٦١ و٣٦٢) بتصرف يسير.

(٢) فضائل القرآن (ص ٣٥٩).

(٣) فتح الباري (١٥٩/٧) طبعة المكتبة السّلفية بمصر (١٤٠٨هـ).

* وكان سيّدنا أُبيُّ بنُ كعب رضوان الله عليه شديدَ الفَخْرِ والاعتزازِ بالقرآنِ العظيم ، يتلوه آناءَ الليلِ ، وأطرافَ النَّهار ، وكانت تسري في رحاب قلبه فيوضاتُ المعرفةِ ، ويشعرُ ببركةِ كتابِ الله تسري في كيانه ، وكان يُوصي بتعاهدِ كلام الله عزَّ وجلَّ في العشي والإبكار ، فقد وردَ أنَّه كان يختمُ القرآن في ثماني ليال.

* أخرج ابنُ سعد رحمه الله عن أبي قلابة ، عن أبي المهلَّب ، عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: «إنّا لنقرؤه في ثمان» ـ يعني القرآن ـ[1].

* أمّا عن تلقّي أبيٍّ القرآن الكريم ، فكثيراً ما كان يقول لعمرَ رضي الله عنه: «يا أميرَ المؤمنين؛ إنّي تلقَّيتُ القرآنَ ممَنْ تلقّاه مِنْ جبريل ، وهو رطْبٌ»[2].

فَهْمُهُ مَعَاني القُرآن ومَكرُمة خاصة:

* نزلَ القرآنُ الكريمُ على النّبيِّ الكريم ﷺ بلسانٍ عربيٍ مبين ، فتلقّاه الصَّحابةُ الكرامُ من فمه الشَّريف مشافهةً ، فحفظَهُ كلَّه حفّاظُهم في صدورهم ، وكتبهُ كلّه كُتابُهم بين يدي رسولِ اللهِ ﷺ على سمعهِ وبصرهِ ، وبتعليمه وإرشاده ، وتدارسه مع جمهورهم تفقيهاً لهم في دستورِ دِيْنهم ، وبياناً لنظام دنياهم ، يسألونه عمّا خفيَ عليهم من فقههِ ومعانيهِ ، فيجيبُهم مبيناً من غير إسهاب؛ لأنّهم لم يكونُوا في حاجةٍ إلى إسهاب ، وهم أهلُ لسانهِ ، والقيّمون على لغتِهِ ، العارفون معانية بسليقتهم ، ومشاهدتهم لنزوله ، وخدمتهم لحقيقته ومجازه ، وكانوا أقدرَ الناسِ على فهم أسلوبه ، يدركون بفطنتِهم إشارتَه ومراميه ، لا يختلفون عليه ، ولا يختلفون فيه ، وإذا تنازعوا[3] في علْمٍ من علمِهِ ردّوه إلى الرّسول ﷺ ليبيّن لهم وهو بين أظهرهم عملاً بإرشاد الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٥٠٠).

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٤/١٩٩).

(٣) ذكر أئمةُ العلماء أنّ اختلافَ السّلف في التفسيرِ هو اختلاف تنوع ، لا اختلاف تضاد.

كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النّساء: ٥٩][1].

* وكان الحبيبُ المُصطفى ﷺ يجيبُ أصحابَهُ إذا سألوا، ويرشدُهم إذا سكتُوا، يعجبُه منهم أنْ يسألوا فيما ينفعهُم في دينهم ودنياهم، وأنْ يعملُوا بما علمُوا، ولا يعجبُه أن يستكثروا من المسائلِ رحمةً بهم وشفقةً عليهم، والوحيُ ينزلُ عليه، يخشى أنْ يشدّد اللهُ عليهم فيضعُفُوا عن العملِ، وهو الرّؤوفُ الرّحيم بهم، الحريصُ عليهم وعلى سلامتهم، العزيزُ عليهم ومشقّتهم، ولمَّا أكثر عليه مَنْ لم يرسَخْ بَعْدُ في الإيمان، وسألوا فيما يفيد وما لا يفيد، أدّبهم الله عزّ وجلّ، فأنزل الله قولَه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١].

* وقد التزمَ سيّدنا أبيُّ بن كعب رضي الله عنه بهذا المنهج القويم، ووعى القرآنَ العظيم ضمنَ الحدودِ التي أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عبادَهُ بها، فلم يكنْ يتجاوز مفهومه، وإنّما كان فهمُهُ للقرآنِ الكريم فهماً لطيفاً يشيرُ إلى مدى علْمِهِ بأحكامِ القرآن، وعمّا فيه، يشهدُ بهذا ما أخرجه الحاكمُ في «مستدركه» بسندٍ رفعه إلى عبدِ الرحمنِ بن أبزَى عن أبيه، عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «أُنزلتْ عليَّ سورةٌ، وأُمرتُ أنْ أقرئكها...».

قال: قلتُ: أسُمّيتُ لكَ؟

قال: «نعم».

---

(١) أخرج الدارمي بسند رفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قُبض، كُلهنّ في القرآن، منهن: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ...﴾ و﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ وشبهه، ما كانوا يسألون إلاّ عما ينفعهم».
وقال الإمامُ مالك رحمه الله: «أدركتُ هذا البلدَ ـ يعني المدينة ـ وما عندهم علم غير الكتاب والسّنّة، فإذا نزلت نازلةٌ جمع الأمير لها من حضر من العلماء، فما اتّفقوا عليه أنفذه، وأنتم تكثرون المسائل، وقد كرهها رسولُ الله ﷺ».

قلتُ لأبيّ: أفرحتَ بذلك يا أبا المنذر؟

قال: وما يمنعني والله تعالى وتبارك يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]»[١].

* وكان سيّدنا عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنه يشهدُ لأبيّ بن كعب بجودةِ حفظِ القرآنِ وفهمهِ، ولذلك نوّه عن هذه المزيةِ لما خطبَ بالجابية في الشّام قال: «مَنْ أرادَ أن يسألَ عن القرآن، فليأت أبيَّ بن كعب»[٢].

* وقال عمرُ أيضاً: «أقضَانا عليٌّ، وأقرؤنا أبيٌّ»[٣].

لذلك كان عمرُ رضي الله عنه كثيراً ما يسألُ أبيّاً عن بعضِ معاني القرآن، ويقفُ معه عند بعضِ الآيات الشّريفة يستجلي معناها، فيستحلي ما يجيبه أبيّ رضي الله عنه.

* روى سعيدُ بنُ المسيب رحمه الله: «أنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه أتى على هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ فأتى أبيَّ بنَ كعب رضي الله عنه فسأله: أيّنا لم يظلمْ؟!

فقال له: يا أميرَ المؤمنين، إنَّما ذاك الشِّركُ، أمَا سمعتَ قول لقمانَ لابنهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣][٤]».

* إنَّ أبيَّ بن كعب رضي الله عنه كان يقضي نهاره بين سؤالٍ وجوابٍ وعِلْمٍ وتعلُّم، أمّا ليلُه فكان كلُّه للقرآن والذّكْرِ:

---

(١) المستدرك (٣/ ٣٠٤)، وانظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (٤/ ١٩٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٩٤)، وانظر: المعرفة والتاريخ (١/ ٤٦٣).

(٣) قطعة من حديث أخرجه البخاري بأكثر من موضع، في التفسير برقم (٤٤٨١)، وفي فضائل القرآن برقم (٥٠٠٥)، وأحد (٥/ ١١٣)، والحاكم (٣/ ٣٠٥)، والفسوي (٢/ ٤٨١).

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٨١٠)، وأبو داود في الوتر برقم (١٤٦٠)، وانظر التفسير الكبير للرازي (١/ ١٠٠). وذكر الرازي في موضع آخر من تفسيره أنَّ النّبيَّ ﷺ سأل أبيّاً: «ما أعظم آية في كتاب الله»؟ قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [التفسير الكبير ١/ ١٦٤].

يَقْضِــي النَّهــار بــآرَاءٍ مُســدَّدةٍ ويقطــعُ الليــلَ تَسْبيحــاً وقُــرآنــا
مُصَاحِبٌ حُسْنَ فِعْلِ الخيرِ يعشقُه مــراقــبٌ ربَّــه سِــرّاً وإعــلانــا

* وقد هنَّأَ النَّبيُّ ﷺ أُبيّاً رضي الله عنه لجودةِ فهمهِ القرآن الكريم؛ وذلك لما سأل النّبيّ ﷺ أبيّاً قائلاً: «أيّ آيةٍ في القُرآن أعظم»؟

فقال أبيّ: «﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فضرب النَّبيُّ ﷺ في صدره وقال: «ليهنك العلمُ أبا المُنذر»(١).

* إنَّ هذه الشَّهادةَ المحمّديةَ الزّاكيةَ لأبيّ بن كعب رضي الله عنه جعلته يتبوأ مكانةً رفيعةً في عالَم تفسير القرآنِ وفهمه، فلقد فسَّر قول الله عزّ وجلّ: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ[1] أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: «هنَّ أربعٌ، وكلّهنَّ عذابٌ، وكلّهنّ واقعٌ لا محالة، فمضتِ اثنتانِ بعد وفاة النّبيّ ﷺ بخمس وعشرين سنة، فألبسُوا شيعاً، وذاق بعضُهم بأسَ بعض، وبقيتْ ثِنْتان واقعتان لا محالة: الخسفُ والرجمُ»[2].

* وكان أبيٌّ رضي الله عنه إذا ما حزَبَه أمْرٌ من أمورِ فهمه للقرآنِ العظيم لجأَ إلى معلمهِ، وأستاذِه رسولِ الله ﷺ فيوضحُ له الإشكال، ويرشدُه إلى طريقِ الصَّواب.

* من ذلك ما أخرجه محمدُ بن جرير الطَّبري رحمه الله في تفسيرهِ عند

---

(١) إنَّ العذابَ الغامرَ من فوق، أو العذابَ النّابعَ من تحت، أشدُّ وقعاً وأكثرُ أثراً في النَّفس من تصوّره آتيا عن يمين، أو عن شمال أو من أمام أو من وراء؛ فالوهمُ قد يخيلُ للإنسان أنّه قد يستطيع دفْعَ العذاب من جهةٍ من الجهات الأربع، أمّا العذابُ الذي يصبُّ عليه من فوق أو يأخذه من تحت، فهو عذابٌ قاهر، لا مقاومة له، ولا ثبات معه.
إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قادرٌ على أخذِ العباد بالعذاب من حيث شاء، وكيف شاء، وأنى شاء، سبحانه وتعالى عمّا يعمل الظّالمون.

(٢) هذا الحديث أخرجه الإمامُ أحمد رحمه الله في المسند (٥/ ١٣٥)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٥٣).

قوله عزّ وجلّ: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أنَّه سألَ النَّبيَّ ﷺ عن قولِ اللهِ عز وجل: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قال: ﴿الذين أحسنوا﴾ أهل التّوحيد؛ والحسنى: الجنّة، والزّيادة: النّظر إلى وجهِ الله عزَّ وجلّ»[١].

* وأخرجَ ابنُ جرير أيضاً في تفسيره عند قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصَّافات: ١٤٧]، عن أبيّ بنِ كعب رضي الله عنه قال: «سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قولِ الله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصَّافات: ١٤٧] قال: «يزيدون عشرين ألفاً»[٢].

* ومرّةً أخرى يسألُ أبيٌّ رضي الله عنه رسولَ اللهِ ﷺ عن معنى أيةٍ ليكونَ من العالِمِيْن بها، من ذلك سؤاله عن قولهِ تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٦]، قال أبيّ: سألتُ رسول الله ﷺ عن الحسنى قال: «الحسنى: الجنّة»[٣].

التِّلميذ النَّجيب الكاتب:

* أبو المنذر أبيُّ بنُ كعب رضي الله عنه ذو فضل جسيم، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١٢]، أحبَّ النّبيّ ﷺ حبّاً يفوقُ التَّصوُّر، وارتضع دُرَر المعالي من نبع النُّبوّة الصّافي، وعكفَ على اقتطافِ ثمارِ الشمائلِ الكريمة من الرّسول المعلم ﷺ ليغذّي روحَهُ من أنوارها، ويكون ممن تعلّمُوا وعلمُوا، فإذا هو في وادٍ علميّ خصيب، وإذا هو تلميذٌ من تلامذةِ مدرسةِ النّبوّة نجيب، صرفَ رأْسَ مالِ عمرهِ وحياتهِ في تحصيلِ العلْم من شجرة النّبوة الزّكيّة، المسقيّة بماء الوحي والمندّاةِ النّدية، فحفظ عن النّبيّ ﷺ عِلْماً عملَ وفْقَ مرادِهِ، فكان من قدوةِ علماءِ الصّحابة وفقهائِهم رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) تفسير الطبري (١١/١٠٧).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/١٠٤).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير للآية (٦) من سورة الليل.

* لزمَ أبيُّ بنُ كعب رضي الله عنه المجالسَ النّبويّة السَّنية ، وأخذ يقتبس من سناها ، ويستفيدُ من كلِّ ما يسمع منها ، فكان ممن تعلّمَ الكتابةَ قُبيلَ الإسلام[1] ، ولذا فقد جعله الحبيبُ المصطفى ﷺ من كُتَّابه ممن كان يعتمدُ عليهم في كتابةِ الوحي ، وفي كتابةِ الرّسائلِ والمخُاطباتِ التي كان يبعثُها للملوكِ والأمراء .

* وأبيٌّ رضي الله عنه هو أوّلُ منْ كتبَ لرسولِ اللهِ ﷺ حين قدم المدينة المنورةَ ، وهو أوّل مَن كتبَ في آخر الكتابِ : «وكتبَ فلانُ بنُ فلان . . »[2] .

* ويبدو لنا أنَّ سيّدنا أبيَّ بنَ كعب قد تخصَّصَ في كتابةِ رسائلِ الملوك ومخاطباتهم أكثر من غيرهِ من عُلماء الصَّحابةِ وكتّابهم؛ وقد تولّى ابنُ سعد في «طبقاته» بذكر عددٍ من رسائله إلى الملوكِ وإلى الأمراء في مختلفِ أصقاعِ الأرض[3] .

* إنَّ اختصاصَ النَّبيّ ﷺ لأبيّ بنِ كعب في الكتابةِ جعلتْه يشعرُ بتلكم الأمانة التي يتقلّدُهَا ، فزادَ ذلكم من ملازمتهِ لرسولِ الله ﷺ ، والاغترافِ من بحارِ أنواره عُلوماً تشرفُ بها نفْسُه ، ويحيا بها قلْبه .

* ومن الجدير بالذّكر أنَّ أُبيّاً رضي الله عنه قد تابعَ مهمّةَ الكتابةِ في عصرِ الخلفاءِ الرّاشدين ، فقد شهدَ مع عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه الجابية بالشَّام ، وكتب كتابَ الصُّلح لأهلِ بيت المقدس[4] .

---

(١) قال ابنُ عساكر رحمه الله : «كان أبيٌّ رضي الله عنه يكتبُ في الجاهلية قبل الإسلام ، وكانتِ الكتابةُ في العربِ قليلةً» . (مختصر تاريخ مدينة دمشق ٤/ ١٩٨) .

(٢) انظر : الاستيعاب (١/ ٢٩) ، والإصابة (١/ ٣٢) .

(٣) انظر : طبقات ابن سعد (١/ ٢٦٧ و٢٧٠ و٢٧٨ و٢٨٦ و٣٥٢) .

(٤) انظر : مختصر تاريخ مدينة دمشق (٤/ ١٩٧) ، أمّا نصّ كتاب أُبيّ رضي الله عنه في الصُّلح لأهل بيت المقدس ، فكَما ذكره ابنُ عساكر رحمه الله قال : «كان يهودٌ من بيتِ المقدس ، وكانوا عشرين ، رأسُهم يوسُف بنُ نون ، فأخذ لهم كتاب أمان ، وصالحَ عمر بالجابيةِ ، وكتبَ كتاباً ، ووضعَ عليهم الجزيةَ ، وكتب : «بسم الله الرحمن الرحيم ، أنتم آمنون على دمائِكم وأموالكم وكنائِسكم ما لم تحدثوا أو تؤوا محدثاً ، =

* وقد عُرِفَ أبيّ رضوان الله عليه بحبّهِ الشَّديد لرسولِ الله ﷺ ، فكان يكثرُ الدّعاء له ، والصّلاة عليه عملاً بقولهِ ﷺ : «أولى النّاسِ بي يوم القيامة أكثرهُم عَليَّ صلاةً»[1] .

* من هذا المنطلقِ الميمونِ يحدثنا أبيٌّ رضي الله عنه عن صِلَتِهِ الوثيقةِ بحبيبهِ رسولِ اللهِ ﷺ فيقول: «كان رسولُ الله ﷺ إذا ذهبَ ربعُ الليلِ قام فقال: «يا أيُّها النَّاس ، اذكروا اللهَ ، اذكروا الله ، جاءت الرّاجفةُ ، جاء الموتُ بما فيه ، جاء الموتُ بما فيه».

قال أُبيُّ بن كعب: قلت: يا رسولَ اللهِ ، إنّي أُكثِرُ الصَّلاةَ عليك ، فكم أجعلُ لك مِنْ صلاتي؟

قال: «ما شئتَ».

قلت: الرُّبع؟

قال: «ما شئت ، وإن زدتَ فهو خير».

قلت: النِّصف؟

قال: «ما شئتَ وإن زدتَ فهو خير».

قلت: الثّلثَيْن؟

قال: «ما شئت ، وإن زدتَ فهو خير».

قلت: أجعلُ لك صلاتي كلَّها.

قال: «إذن تكفى همّك ، ويُغْفَر ذنبُك»[2] .

* ولأُبيّ بنِ كعب رضي الله عنه نفحاتٌ ربّانيةٌ ، حباها إياه بديعُ السَّماواتِ والأرض ، وأكرمه بتلكم النَّفحات جزاء وفاقاً لمحبّته الصَّادقةِ

= فَمَنْ أحدثَ منهم أو آوى محدثاً ، فقد برئتْ منه ذمّة الله ، وإنّي بريءٌ من معرَّةِ ـ مضرة أو إثم ـ الجيش؛ شهدَ معاذُ بنُ جبل ، وأبو عُبيدة بنُ الجراح ، وكتبَ: أبيّ بنُ كعب». (مختصر تاريخ مدينة دمشق ٤/ ١٩٧).

(١) أخرجه الترمذي في الصلاة برقم (٤٨٤) وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٦) ، والحاكم (٢/ ٤٢٩ و٥١٣).

رسولَ الله ﷺ والصّلاة عليه ، والثّناء على الله عزّ وجلّ ، من ذلكم الإكرام الربّاني الميمون ، ما ذكره أنسُ بن مالك رضي الله عنه قال أبيُّ بنُ كعب: «لأدخلنَّ المسجدَ ، فلأصلينَّ ، ولأحمدنَّ الله بمحامد لم يحمدْهُ بها أحدٌ ، فلمّا صلّى وجلسَ ليحمدَ الله ، ويثنيَ عليه ، فإذا هو بصوت عالٍ من خلفهِ يقول: اللهمّ لك الحمدُ كلُّه ، ولك الملكُ كلُّه ، وبيدك الخير كلّه ، وإليك يرجعُ الأمرُ كلّه علانيتُه وسرُّه ، لك الحمدُ ، إنّك على كلِّ شيء قدير ، اغفر لي ما مضى من ذنوبي ، واعصمني فيما بقيَ من عمري ، وارزقني أعمالاً زاكيةً ترضى بها عنّي ، وتُبْ عليّ.

فأتى رسولَ الله ﷺ فقصَّ عليه ، فقال: «ذاك جبريلُ عليه السَّلام»[1].

* وكانتِ المحبةُ الصَّافيةُ الخالصةُ متبادلةً بين النّبيّ ﷺ ، وبين تلميذهِ النجيبِ اللبيبِ القارىءِ أُبيّ بن كعب ، وكان النّبيُّ ﷺ يعلّمُه بعضَ الأذكار والأدعية التي ترطّبُ القلوبَ ، وتندّي النّفوسَ ، وتمتعُ الأسماعَ.

* روى سيّدنا أُبيّ بن كعب رضي الله عنه شيئاً من تلكم الأذكارِ والأدعية النّبويّة فقال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يعلّمُنا إذا أصبحنا يقول: «أصبحنا على فطرةِ الإسلام ، وكلمةِ الإخلاص ، وسنّةِ نبيّنا محمّد ﷺ ، وملّةِ إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين»؛ وإذا أمسى مثل ذلك»[2].

* ومرةً أخرى وفي واحدٍ من المجالسِ النّبويةِ العطرةِ التي تشرَّفَ بها أبيُّ بن كعب رضي الله عنه نجده قد اقتبسَ من معلّمه ومربّيه سيدنا وحبيبنا رسولِ اللهِ ﷺ فضْلَ سورة الفاتحة ، فقد خصَّ أُبيّاً بهذهِ المكرمةِ التي تطاولُ عنان السَّماء فضْلاً وفضيلةً ، وكان أبيٌّ شديدَ الحرصِ على اقتناص تلكم الكنوزِ العلميةِ من مشكاةِ النّبوة المباركة . .

* يروي أبيُّ بنُ كعب رضي الله عنه خبَر تلكم المكرمة النّبويةِ العلميّة فيقول: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا أعلِّمك سورةً ما أُنزِلَ في التّوراة ، ولا في

---

(١) انظر: حياة الصحابة (٣/ ٥٤١) طبعة دار القلم الرّابعة.

(٢) المرجع السابق عينه (٣/ ١٨٢).

الإنجيلِ ، ولا في الزّبورِ ، ولا في القرآنِ قبلها . . »؟!

قلتُ: بلى .

قال: «إنّي لأرجو أنْ لا تخرجَ من ذلك البابَ حتى تعلَّمها» .

فقام رسولُ اللهِ ﷺ ، وقمتُ معه ، فجعل يحدّثني ويدي في يدهِ ، فجلعتُ أَتَباطأُ كراهةَ أنْ يخرجَ قبل أنْ يخبرني بها ، فلما دنوتُ من البابِ ، قلت: يا رسول اللهِ ، السُورة التي وعدتني . .

قال: «كيف تقرأُ إذا قمتَ إلى الصَّلاة»؟

فقرأتُ فاتحة الكتاب ، فقال: «هي هي ، وهي السَّبع المثاني التي قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] ، الذي أُعْطيت»[١] .

* أما مكانةُ أُبي رضي الله عنه عند رسولِ اللهِ ﷺ فكانت عظيمةً ، فقد كان ﷺ يتفقّدُ أحوالَ أصحابهِ وأخبارهم ، ويسألُ عنهم ، فقد صادَفَ أنْ مرضَ أبيٌّ رضي اللهُ عنه مرّةً مرضاً شديداً ، وكان شفاؤهُ معلَّقٌ بالكَيِّ ، فكَواهُ رسول الله ﷺ .

* روىٰ الإمامُ مسلمٌ رحمه الله في صحيحهِ «أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعثَ لأُبيّ طبيباً ، فقطعَ له عرقاً ، وكواهُ عليه»[٢] .

* وأخرجَ الإمامُ أحمد رحمه الله في «المسند» ، عن أبيّ بن كعب رضي اللهُ عنه «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَوَاهُ»[٣] .

---

(١) انظر حياة الصحابة (٣/ ٢٢٣ و٢٢٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٢٠٧).

(٣) المسند (٥/ ١١٥). من الجدير بالذّكر أنَّ العربَ قبلَ الإسلامِ قد أكثروا من استعمالِ الكيّ كواسطةٍ علاجيّةٍ ، حتّى سرىٰ عندهم اعتقادٌ مفاده: آخر الدّواء الكيّ.
وجاء الإسلامُ ، فرغّبَ النّبيّ الكريمُ ﷺ في العِلْمِ ، ونبّهَ إلى أنَّ الدّواء ، إنَّما يشفي بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ إذا وافَقَ الداء.
وقد ثبتَ أنَّ النَّبيّ ﷺ قد كوى سعدَ بن معاذ رضي اللهُ عنه عندما رُمي في غزوةِ الخندق=

* وكانَ أبيٌّ كذلكَ موضعَ ثقةِ النّبيّ ﷺ إذ بعثَهُ ساعياً لجمعِ الصَّدقاتِ، فأدّىٰ مهمَّته أفْضَلَ أداءٍ، وفازَ بمرضاةِ اللهِ ورسولهِ.

* وتدلُّ أخبارُ أبيّ رضي الله عنه أنّه كانَ من علماء الصَّحابةِ النَّابهين الذين انفردوا بفنّ فقْهِ القَضَاء. قال مسروقُ بنُ الأجدع رحمه الله: «كانَ أصحابُ القضاءِ من أصحاب رسول الله ﷺ ستّة: عمرُ بنُ الخطّاب، وعليُّ بنُ أبي طالب، وعبدُ اللهِ بنُ مسعود، وأبيُّ بنُ كعب، وزيدُ بنُ ثابت، وأبو موسىٰ الأشعريّ»[1].

راوي الحديث المتقن:

* كما كان أبيُّ بنُ كعب رضوان اللهِ عليه محلّقاً في سماءِ الحفظِ ومعرفةِ معاني القرآن العظيم، حلَّق أيضاً في حفظِ أحاديثِ سيِّدِ المرسلين محمّدٍ ﷺ، ونقْلِها إلى طالبِي العِلمِ ومحبّيه ممّنْ كانوا يفدون على المدينةِ المنوّرة من كلّ فجٍ عميق، ليشهدوا منافعَ لهم من علماء الصَّحابة الكرام ممّن نذروا أوقاتهم للحياةِ مع القرآن العظيم، والحديث النّبويّ الشَّريف.

* وسيّدنا أبيّ رضي الله عنه ممّن وعىٰ أحاديثَ النّبيّ ﷺ، وحفظَها، وعملَ بها، ودلَّ على العملِ بها، والسَّيرِ على نهجِها؛ فلقد كان سيّداً جليلَ القَدْرِ، رفيعَ المنزلة عند سادةِ العُلماء، وأكابر الفقهاء من الصحابةِ الكرامِ والتَّابعين الأعلام.

* رُوي لسيّدنا أبيّ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ (١٦٤ حديثاً)، توزّعَتْ في كُتُبِ الصَّحيحِ والسُّنَن والمسَانيد والمصنّفات والمستدركات.

* اتَّفقَ الإمامان الجليلان البخاريُّ ومسلمٌ على ثلاثةِ أحاديث؛ انفردَ البخاريُّ بثلاثةٍ، بينما انفردَ مسلم بسبعةِ أحاديث.

= بسهم قطع عرق يده، كما فعل ذلكَ مع أبيّ بن كعب من قبل.

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/ ١٠٩)، والإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٢/ ٨٩).

* روىٰ عنه جماعةٌ من الصَّحابةِ العُلماءِ الكبار منهم: عمرُ بنُ الخطاب، وأبو أيّوب الأنصاري، وأبو موسى الأشعريّ، وعبدُ اللهِ بنُ عباس، وأنسُ بنُ مالك، وعبادةُ بنُ الصَّامت، وأبو هُريرةَ، وسهلُ بنُ سعد، ورفاعةُ بنُ رافع رضي اللهُ عنهم أجمعين.

* وروىٰ عنهُ جماعة من علماءِ التَّابعين. منهم: بنوه: محمّدٌ، والطّفيلُ[1]، وعبدُ اللهِ، وسويدُ بنُ غَفَلة، وزرُّ بنُ حُبيش، وأبو العالية الرّياحيّ، عبدُ اللهِ بن أبي ليلى، وسليمانُ بنُ صُرَد، وأبو إدريس الخولانيّ، وسعيد بنُ المسيّب، وغيرُهم كثير[2].

* فمن مروياتهِ، ما أخرجهُ أبو داود بسندهِ عن عبدِ اللهِ بن أبي بَصير عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: «صلّى بنا رسول الله ﷺ يوماً الصُّبحَ، فقال: «أشاهدٌ فُلان»؟

قالوا: لا.

قال: «أشاهدٌ فُلان»؟

قالوا: لا.

قال: «إِنَّ هاتَيْن الصَّلاتين أثقلُ الصَّلواتِ على المنافقين ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبواً على الرّكب، وإنَّ الصَّفَّ الأوَّلَ مثلُ صفّ الملائكة، ولو علمتم ما فضيلتُه مع الرجلَيْن أزكىٰ من صلاته مع الرّجل،

---

(١) الطّفيلُ بنُ أبيّ؛ يقال: إنّه وُلدَ في عَصْرِ النّبيّ ﷺ وعدّه بعضهم من الصَّحابةِ، ولكنّهُ مشهورٌ في ثقاتِ التّابعين، وكان يكنىٰ أبا بطن، لأنَّهُ كان عظيمَ البطن، وكان يعملُ بنّاءً، وهو الذي بنىٰ لمعاويةَ بنِ أبي سفيان رضي اللهُ عنهما قصْرَ بني حُديلة الأنصار. روىٰ الطّفيلُ عن أبيه، وعن أمِّهِ، وعن عمرَ بن الخطّاب، وعبدِ اللهِ بن عمر، وكان صديقاً لابن عمر رضي الله عنهم جميعاً وحشَرنا في معيتهم وعفا عنا.

(٢) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٠٩)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٩٠)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ٢٩)، والإصابة (١/ ٣٢) مع الجمع.

وما كثر فهو أحبّ إلى الله عزَّ وجلَّ»[1].

المجاهد المُخلص:

* لَئن حلَّقَ سيّدنا أبيُّ بنُ كعب رضي اللهُ عنه في أجواء العِلْم وسماءِ الفَهْم، وغاصَ في بحارِ أنوارِ القُرآن الكريم والسُّنَّةِ المطهَّرة؛ لقد أبدع في مجالِ الجهادِ، فكان من جنودِ المدرسةِ الرّبانيةِ الذين آووا ونصروا وجاهدوا في سبيلِ اللهِ حقَّ جهاده، وآثروا على أنفسهم وإنْ كانَ بهم خصاصة.

* ويذكرُ تاريخ سيّدنا أبيّ بن كعب البُطولي أنَّهُ شهدَ بيعةَ العقبةِ الثّانيةِ مع السَّبعين من الأنصار الأخيار.

* ولما اشتدَّ أذى المشركين، وزاد شرّهم، وكثرت عداوتهم للإسلام والمسلمين عندها ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، خرجَ سيّدنا أبيٌّ ليجدَ ما وعدَ اللهُ رسولهُ من النَّصْر، فألفاهُ في بدرٍ ونُظِمَ في عقدِ البدريّين، الذين قيل لهم: يا أهلَ بدرٍ: «اعملوا ما شئتم فقد وجبتْ لكم الجنَّة»[2].

* وفي غزاةِ أحدٍ كان لأُبي رضي الله عنه دورٌ محمودٌ، ومقامٌ مشهودٌ، وتشيرُ الدّلائلُ إلى أنَّهُ قد شهدَ هذه الغزوة؛ من ذلكَ ما أخرجَهُ البيهقي رحمه الله في «الدّلائل» بسنده إلى أبيّ بن كعب رضي الله عنه: «أنَّهُ أُصيبَ من الأنصارِ يوم أُحُدٍ أربعةٌ وستون، وأصيبَ من المهاجرين ستّةٌ فيهم حمزةُ بن عبد المطلب، فمثّلوا بقتلاهم، فقالتِ الأنصارُ: لئن أصَبْنَا منهم يوماً من الدَّهر لَنُربيَنّ[3] عليهم، فلمّا كان يوم فتحِ مكَّةَ، نادىٰ رجلٌ لا يُعرفُ:

---

(١) أخرجه أبو داود في الصّلاة برقم (٥٥٠) انظر: عون المعبود (٢/ ٢٥٩ و٢٦٠) طبعة الدار السلفية بمصر؛ وأخرجه النسائي في الإمامة (٢/ ١٠٤و١٠٥) باب الجماعة إذا كانوا اثنين.

(٢) قطعةٌ من حديثٍ أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٣٠٥)؛ وفي هذا الحديث النّبوي الشّريف إشارة إلى أنّ أبيّ بن كعب من أهل الجنّة. وللمزيد من هذا الموضوع اقرأ كتابنا «رجال مبشرون بالجنّة» من غير العشرة، تجد فيه خيراً كثيراً بإذن الله، وهو مطبوع بدار ابن كثير بدمشق عدة طبعات.

(٣) «لَنُربينّ»: أي: لنزيدن في قتلهم.

لا قريشَ بعد اليوم ، مرتَين ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ على نبيهِ ﷺ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل : ١٢٦] ، فقال النَّبي ﷺ: «كفُّوا عن القوم»[١].

* وثمّةَ خبر آخر يُشيرُ إلى أنَّ أبيَّ بنَ كعب رضي اللهُ عنهُ قد شاركَ في غزوةِ أُحدٍ ، فعندما انصرفَ المشركون عن أرضِ أحدٍ ، وفرغَ المسلمون لقتلاهم ، سألَ رسول الله ﷺ عن سعدِ بنِ الرّبيع الأنصاريّ الخزرجيّ فقال: «مَنْ ينظرُ لي ما فعلَ سعدُ بنُ الربيع ، أفي الأحياءِ هُوَ أَمْ في الأمواتِ»؟

فقال أبيُّ بنُ كعبٍ رضي اللهُ عنه: أنا أنظرُ لكَ يا رسول الله ما فعلَ سعد ، فنظرَ فوجدَهُ جَريحاً في القَتْلَى وَبهِ رَمقٌ ، فقال أُبيّ إنَّ رسول الله ﷺ أمرني أَنْ أَنظُرَ أَفِي الأحياءِ أَنْتَ أَمْ فِي الأَمْوَاتِ؟

قال سعدٌ: أنا في الأمواتِ ، فأبلغْ رسول الله ﷺ عنّي السَّلام ، وقلْ له: إنَّ سعدَ بنَ الرَّبيع يقولُ لكَ: جزاكَ اللهُ عَنّا خيرَ ما جَزىٰ نبيّاً عن أمّته ، وأبلغْ قومَكَ عنّي السّلام ، وقلْ لهم: إنَّ سعدَ بن الرَّبيع يقولُ لكم: إِنَّهُ لا عذْرَ لكم عند اللهِ إِنْ خُلِصَ إلى نبيّكم ﷺ وفيكم عَيْنٌ تطرف[٢].

* ويعزّزُ حضورَ أبيّ بن كعب غزاةَ أحدٍ ، حديثُ جابر بنِ عبد اللهِ قال: «رُمِيَ أبيُّ بنُ كعب يومَ أحدٍ بِسَهْمٍ ، فأصابَ أكْحلَهُ ، فأمرَ النَّبيُّ ﷺ ، فكَوىٰ على أَكْحَلِهِ»[٣].

* وشهدَ أبيٌّ رضي اللهُ عنه غزوةَ الخَندق ، وغزوةَ المريسيع[٤] وسائرَ

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٨٩) ، والحديث أخرجهُ الإمام أحمد في مسنده (٥/ ١٣٥) ، وأخرجهُ الترمذي برقم (٣١٢٩) في تفسير سورة النحل وقال: «هذا حديث حسن غريب من حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه».

(٢) انظر: الاستبصار ص (١١٤) ، والمغازي (١/ ٢٩٢) مع الجمع بينهما.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٣٠٣).

(٤) انظر: المغازي (١/ ٢٩٢ و٤٠٥).

المشاهدِ وله آثارٌ بطوليّة تشهدُ بفروسيته وحبّه للجهاد، كما تشهدُ له بحبّ اللهِ ورسولهِ وطاعتهما.

زَهْرٌ مِنْ بساتينِ أَقْوَالِهِ:

* لِتلميذِ النّبوةِ النّجيبِ أُبيٍّ بنُ كعب رضي الله عنه كلماتٌ مضيئةٌ هي غرّةِ الجمالِ، وصورة الكَمال، تفوحُ بروعةِ القرآن ونظمهِ، وتسيلُ منها رقّة الحديثِ مع حُسْنِ فهمه.

* فقد تقلَّبَ أُبيٌّ بين أنفاسِ الرِّعاية النّبويةِ، وكلماتِ الذّكْر الحكيم، فغدا واحداً من فصحاءِ علماء الصَّحابةِ وأبينَائِهم ممنِ أثرتْ عنهم أزاهيرُ الحِكَمْ، فقد أشرقت كلماتُه بأنوارِ الفصَاحةِ، وانجلَتْ أفكارُهُ في حُلَلِ المَلاحةِ، فكانت تميسُ بين رياض البلاغة، وتخطرُ في مرابع الأدب بحسن الصّياغةِ.

* فمن رقائقِ أقوالهِ، هذه الحكمةُ الجميلةُ في تعريفِ الدّنيا ووصفها، بعدَ أَنْ سمعَ رجُلاً يصغّرها ويجعلُها لا تساوي شيئاً: «إِنَّ الدّنيا فيها بلاغُنا، وزادنا إلى الآخرة، وفيها أعمالُنا التي نُجازىٰ بها في الآخرةِ»[1].

* ومن بوح نفسه وحكمه في التّقوىٰ والتّوكُل على اللهِ عزَّ وجلَّ قوله: «ما من عبدٍ تركَ شيئاً للهِ عزَّ وجلَّ إلاّ أبدلهُ اللهُ بهِ ما هو خيرٌ منه من حيثُ لا يحتسب، وما تهاون به عبد من حيث لا يصلحُ إلا أتاهُ اللهُ ما هو أشدّ عليهِ منه من حيثُ لا يحتسب»[2].

* وهذه زهرةٌ فواحةٌ بندىٰ الإيمانِ والأقباسِ الرّوحانيّةِ، نقتطفُها من روضةِ أُبيٍّ بن كعب رضي اللهُ عَنه لننعمَ بمعانيها التي تُدخِلُ السُّرورَ إلى النُّفوسِ.

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٤٩٩)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٩٩) مع الجمع والتصرف اليسر.

(٢) حلية الأولياء (١/ ٢٥٣).

* فقد أخرجَ أبو نُعيم رحمه الله في حليتهِ عن أبي العالية عن أبيٍّ بن كعب رضي الله عنه يصفُ حالَ المؤمن ، وحالَ الكافرِ فقال: «المؤمنُ بينَ أربع: إنْ ابتُلِيَ صَبَرَ ، وإِنْ أُعطِيَ شكَر ، وإِنْ قال صدق ، وإِنْ حَكَمَ عَدَلَ ، فهو يتقلَّبُ في خمسةٍ من النّور ، وهو الذي يقولُ الله ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] ، كلامُه نور ، وعلمُه نور ، ومدخلُه في نور ، ومخرجه من نور ، ومصيرُه إلى النّور يوم القيامةِ.

والكافرُ يتقلّبُ في خمسةٍ من الظُّلَم: فكلامُهُ ظُلمةٌ وعملُهُ ظُلْمَةٌ ، ومدخلُهُ ظلمةٌ ، ومخرجُه في ظلمةٍ ، ومصيرُه إلى الظُّلماتِ يومَ القِيامة»[1].

* ولسيدنا أبيّ بن كعب رضي الله عنه كلماتٌ تربوية بديعة في الحثّ على الاعتصامِ بالسُّنَّة ، وذمّ البدع ، والعملِ فيما يرضي الله عزَّ وجلّ والخشيةَ منه ، فلنقرأ هذه النَّصائح الرقيقة التي تفيضُ بأنوارِ اليقينِ ، وتدلُّ على الصِّراطِ السَّويّ ، وتوحي بالتّمسُّكِ بالسُّنَّةِ المُطهّرةِ الزّكيةِ الزّاكيةِ ، يقول أُبيٌّ: «عليكم بالسَّبيلِ والسُّنَّةِ؛ فإنَّهُ ليس من عبدٍ على سبيل وسنّة ذكرَ الله عز وجلّ ، ففاضت عيناه من خشيةِ اللهِ عزَّ جلَّ فتمسُّهُ النّار.

وليس من عبدٍ على سبيلٍ وسنّةٍ ، ذكرَ الرّحمن عزَّ وجلَّ ، فاقشعرَّ جلده من مخافةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، إلاَّ كان مثَلُهُ كمثَلِ شجرةٍ يبس ورقُها ، فبينا هي كذلكَ ، إذ أصابَتْها الرّيحُ ، فتحاتت عنها ورقُها ، إلا تحاتت عنه ذنوبُهُ كما تحاتُّ عن هذه الشّجرة ورقها.

وإنَّ اقتصاداً في سبيلٍ وسُنَّةٍ خيرٌ من اجتهاد في خلافِ سبيلٍ وسنّةٍ ، فانظروا أعمالَكم ، فإنْ كانتِ اجتهاداً أو اقتصاداً أن تكونَ على منهاجِ الأنبياءِ وسُنَنِهم»[2].

* ومن أجملِ بدائعِ حِكَمِهِ ورقائقه ما كتبَهُ في رسالةٍ إلى أخٍ له يُلخِّصُ له

---

(١) انظر: حلية الأولياء (١/ ٢٥٥).

(٢) انظر: حلية الأولياء (١/ ٢٥٣) ، والزهد للإمام أحمد ص ٢٤٥ ، والمعرفة والتاريخ (٣/ ٣٨٥).

فيها معاني الزّهد ، والعمل ليومِ المعاد فقال: «أمّا بعد ، فإنَّ الدّنيا دارُ فناءٍ ، ومنزلُ قطيعة ، رغبَ عنها السُّعداء ، وانتزعَتْ من أيدي الأشقياء ، فغِنَاهَا فَقْرٌ ، والعلْم بها جَهْلٌ»[1] .

* ولسيّدنا أبيّ رضي اللهُ عنه كلماتٌ سائراتٌ مسرىٰ الأمثال ، وحكمٌ ومواعظُ نافعة وأقوال ، تكفَّلَتْ كتبُ المصادر بنقلها إلى الأجيال ، ومن أرادَ الاستزادة فليرجعْ إلى المصادر يجد فيها ما يملأ فراغه بالغدو والآصال.

الحياة الحقيقية:

* كانت حياةُ سيّدنا أبيّ بن كعب عليهِ سحائب الرضوان حياةَ علْمٍ وعبادة، وعملٍ وخير ، وبركةٍ وفضْل ، قضىٰ شطراً من حياته مع القرآن العظيم ينعم بأحكامه ، ومع أحاديثِ النّبيّ ﷺ ، ومع العبادةِ والعلْم ، والتّعليم.

* قال أبو العالية رحمه الله: «كان أبيٌّ صاحبَ عبادة ، فلمّا احتاج النّاسُ إليه ، تركَ العبادةَ ، وجلسَ للعلم»[2] .

* جلسَ سيّدنا أبيّ للإقراءِ ، وأخذ عنه القراءةَ عددٌ من أعيان العلماء ، ومنهم: عبدُ اللهِ بنُ عبّاس، وأبو هُريرةَ، وعبدُ اللهِ بنِ السائبِ، وعبدُ اللهِ بنُ عيّاش بن أبي ربيعة، وأبو عبد الرحمن السُّلمي، وأبو العالية[3] ، وكانَ عُمر بنُ الخطاب رضي الله عنه يجلُّ أُبياً ويتأدّب معه ، ويتحاكمُ إليه؛ ولعمر أخبار سارة نافعة وجميلةٌ مع أبيّ رضي الله عنهما تكفّلت كتبُ المصادر بذكْرها وروايتها[4] .

* عاشَ أُبيّ رضي اللهُ عنه شطراً من الخلافةِ الرّاشدةِ ، وهو موفُورُ الكرامةِ مرعي الجانبِ ، له مكانتهُ في مجالس العلماء من الصَّحابةِ الأعلام.

---

(١) انظر: بهجة المجالس وأنس المجالس للقرطبي (٢/ ٢٩١).
(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٤/ ٢٠٣).
(٣) معرفة القراء الكبار (١/ ٢٩) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ١٩٩).
(٤) انظر مثلاً: طبقات ابن سعد (٤/ ٢١ و٢٢) ، و(٥/ ٥٩) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨) ، والمستدرك (٢/ ٢٢٥) وغير ذلك من مصادر.

* وفي سنَةِ ثنتَين وعشرين من الهجرة لبّىٰ أبيٌّ بنُ كعب رضي الله عنه نداءَ ربّه ، وصعدتْ روحُه إلى بارئها راضيةً مرضيةً لتستقرّ في عليين عند مليكٍ مقتدر . .

* ويوم توفي قال عمرُ رضي اللهُ عنه : «قد ماتَ اليوم سيّد المسلمين أبيّ بن كعب[1]» ، وَدُفِنَ بالبقيع في المدينةِ المنورة[2] :

عَلَيْك المَعَالِي لا على البَدْرِ نأْسَفُ لأَنَّكَ أسْمَىٰ في الكَمَالِ وأشْرفُ

* وبموته فَقَدْ المسلمون عَلَماً من أعلامِ العُلماءِ ، وأسيادِ القُرّاءِ ، ولكنَّ أُبيّاً رضي الله عنه سيظلُّ في صدورِ العُلماءِ ، وفي قلوبِ المحبّين ، ووجدانِ العارفين إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عَليها :

فَالنَّاسُ كلُّهم لسَانٌ واحدٌ يَتلُو الثَّناءَ عليهِ والدّنيا فمُ

* رضي اللهُ عن أبيّ بن كعب ، وحشَرنا في معيّتهِ ، وأدخلنا برحمته في عبادهِ الصّالحين ، وجعلنا من الفائزين .

* * *

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٥٠١) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٠٩) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٩٨) وغيرها .

(٢) هناك أقوالٌ تشير إلى أنه توفي سنة (٣٠ هـ) في خلافة عثمان رضي الله عنه!!




أبو موسى الأشعري

* عالم صحابي مقرىء جميل الصّوت بالقرآن الكريم.
* دَعَا له النّبيّ ﷺ بالمغفرة، وأنْ يُدخلَه اللهُ مُدخلاً كريماً.
* أرسله عمر بن الخطّاب إلى البصرة لتعليم أهلها.
* من أصحابِ المئات في الرّوايةِ حيث روى [٣٦٠] حديثاً.
* كان عابداً ورعاً تقيّاً مجاهداً مجتهداً توفي سنة (٤٤ هـ).




أبُو موسَى الأَشْعَري

الفَقيه المُقْرِىءُ:

* كان بالأحكامِ والأقضيةِ عالماً ، وبقراءةِ القُرآنِ مُتَرنّماً وقائماً ، خَلَبَ الأسماعَ بحسنِ تلاوتهِ للقُرآن ، إذْ ملأَ بترتيلهِ حِقَاقَ الآذان ، وإذا ما أخذَ يتغنَّىٰ بالمَثاني ، أسرَ القُلوبَ بمغَاني المَعاني:

إذَا أعجبتْكَ خِصَالُ امرىءٍ فكُنْهُ تكُنْ مثَل ما يُعْجِبُكْ
فليسَ على المَجْدِ مِنْ حاجِبٍ إذا جِئْتَهُ زائراً يَحْجُبُكْ

* أمّا عِلْمُهُ فحدّثْ عن البحر ولا حرج ، فبراعةُ منطقِهِ تأخذُ الألبابَ والمُهَج ، فكم أمتعَ الأسماعَ وأحيا القلوب ، بذكرِهِ وتذكيرِهِ بآياتِ اللهِ علام الغيوب:

بَحْرٌ مِنَ الفَضْلِ الغَزيرِ خضَمُّه طَامِي العُبابِ وَمالَهُ مِنْ ساحِلِ

* وهو وإنْ قَصُرَتْ مُدّةُ صُحبتِهِ للحضْرَةِ النّبويةِ ، فلقد كانَ من نُجباءِ المدرسة المحمّدية ، وله كراماتٌ جَليَّةٌ ، ومقاماتٌ عَليّةٌ ، ويكفيه مِنَ العِزّ المدودِ ، والكلامِ المنضُودِ ، أَنْ قال فيه رسول الله ﷺ: «لقد أُوتيَ هذا مِزماراً من مزاميرِ آلِ داود»[1].

* أدركَ هذا العَالِمُ القارىءُ جمالَ صوتهِ فأخذَ يتغنّىٰ بالقُرآنِ ، ويُسمعهُ للنّاسِ ليثيرَ في قلوبهم محبّة الرحمن ، هذا القارىءُ المِفَنّ ، هو الإمامُ

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٠٤٨) ، ومسلم برقم (٧٩٣) ، والنسائي (٢/ ١٨٠ ـ ١٨١) ، وابن ماجه برقم (١٣٤١).

الكبيرُ ، صاحبُ رسول الله ﷺ عبدُ اللهِ بنُ قيس بنُ سُليم ، أبو مُوسىٰ الأشْعَرِيّ الفقيهُ المقرىءُ[1] ، أحدُ علماءِ الصَّحابةِ الأخْيارِ الأبْرارِ ، العَالِمِين بكتابِ ربِّ العالَمين مكوّر الليل على النهار .

* حفظَ كتابَ اللهِ العظيم ، وعانقَ العِلْمَ والتّعليم ، وعاشَ للقُرآنِ الكريم الذي أحبَّهُ ، وسخَّرَ لتعليمِهِ ما حبَاهُ اللهُ مِنْ جمالٍ في الصَّوتِ ، فراحَ يتلو آياتِ اللهِ بصوتٍ نَديٍّ شجيٍّ جميلٍ ، عملاً بقولِ مُعلِّم النّاس الخير ، رسول الله ﷺ : «زيِّنُوا القرآنَ بأصواتكم»[2] ؛ وتأكيداً أيضاً وسمعاً وطاعةً لرسولِ اللهِ ﷺ : «ليسَ منّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بالقُرآن»[3] .

* فرسولُ اللهِ ﷺ نفسُه كانَ يتغنَّىٰ بالقرآنِ الكريم ، ويُرجِعُ صوتَهُ بهِ أحياناً ، كما رجَّعَ يوم الفتحِ في قراءَتِهِ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح : ١] ؛

---

(١) مسند أحمد (٤/٣٩١) ، وطبقات ابن سعد (٢/٣٤٤ و٣٤٥) ، والمعارف ص ٤٩ و١٠٢ و١٢١ و١٨٢ و١٩٤ و٥٩٠) ، والمعرفة والتاريخ (١/٢٦٧ ـ ٢٧٠) ، والمستدرك (٣/٤٦٤ ـ ٤٧٦) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/٢٣٣ ـ ٢٥٤) وأسد الغابة (٣/٣٦٤ ـ ٣٦٦) طبعة دار الكتب العلمية المحققة . وغيرها كثير جداً .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة برقم (١٤٦٨) ، والنسائي في الصلاة (٢/١٧٩ و١٨٠) ، وابن ماجه برقم (١٣٤٢) ، وأحمد (٤/٢٨٣ و٢٨٥ و٢٩٦ و٣٠٤) .

(٣) أخرجه أبو داود في الصّلاة برقم (١٤٧١) ، باب استحباب التّرتيل في القراءة ، وأخرجهُ أيضاً برقم (١٤٦٩ و١٤٧٠) ، وأخرجهُ البخاري في التّوحيد برقم (٥٠٤٧) ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ﴾ . و«يتغنى» يحسِّنُ صوته في القُرآن . والتّغني بالقُرآنِ الكريم : هو تحسينُ الصّوتِ به ، وكانَ عبدُ الرحمن بن الأسود بن يزيد رحمه الله يتتبَّعُ الصَّوتَ الحسنَ في المساجدِ في شهرِ رَمضان .
قال العُلماءُ : «إنَّ تزيينَ القُرآنِ وتحسينَ الصَّوتِ به ، أوقَعُ في النّفوس ، وأدعىٰ إلى الاستماع والإصغاءِ إليه ، ففيهِ تنفيذٌ لِلَفْظِهِ إلى الأسْماعِ ، ومعانيهِ إلى القلوب ، وذلكَ عونٌ علىَ المقصود» .
والتّغنيّ الجائزُ : ما اقتضتهُ الطبيعةُ ، وسمحتْ به من غير تكلُّف ولا تمرين ، ولا تعليم ، وإنَّما ما جاء سجيّة ، وما تقبله النفوسُ السَّليمةُ وتستحليهِ لموافقته الطّبع ، وعدم التكلّفِ والتّصنّعِ فيه ، فهذا هو التّغني الممدوحُ المحمود ، وهو الذي يتأثّر به التّالي والسَّامع .

وحكى عبدُ اللهِ بنُ مُغَفّل ترجيعَه ، آآآ ثلاثَ مرّاتٍ ، كما ذكرهُ البُخاريُّ في صحيحِهِ[1].

* وقد أفاضَ ابنُ حجر رحمه الله في «الفتح» بذكرِ عددٍ من أقوالِ العُلماءِ ورواياتهم في مسألةِ التَّغنّي في القُرآنِ الكريم ثمَّ قال: «والحاصلُ أنَّه يمكنُ الجمعُ بين أكثر التّأويلات المذكورة ، وهو أنَّهُ ـ أي القارىء ـ يحسِّنُ به صوتَهُ جاهِراً به ، مترنّماً على طريقِ التّحزُّنِ ، مُستغنياً بِهِ عن غيرِه منَ الأخبارِ ، طالباً به غنىٰ النَّفس ، راجياً به غنىٰ اليدِ ، وقد نَظَمتُ في ذلكَ بيتَيْن:

تَغَنَّ بِالقُرآنِ حَسِّنْ بِهِ الصَّو ... تَ حزيناً جاهِراً رَنِّم
واستَغْنِ عن كُتُبِ الأُلىٰ طالِباً ... غِنى يَدٍ والنفْسُ ثُمَّ الزم

* ولا شكَّ في أنَّ النَّفوسَ تميلُ إلى سماعِ القرآنِ بالتّرنُّم أكثرُ من مَيْلِها لمنْ لا يترنّم ، لأنَّ للتّطريبِ تأثيراً في رقَّةِ القَلْبِ وإجراءِ الدَّمع ، وكان بينَ السَّلف اختلافٌ في جوازِ القُرآنِ بالألحانِ ، أمّا تحسينُ الصَّوتِ ، وتقديمُ أحسنِ الصَّوتِ على غيره فلا نزاعَ في ذلكَ ولا خلاف مطلقاً.

* وأجمعَ العُلماءُ على استحبابِ تحسينِ الصَّوتِ في القُرآنِ مالم يخرجْ عنِ القراءَةِ بالتَّمطيط ، وفإنْ خرجَ حتّىٰ زاد حرفاً أَوْ أخفاه حَرُمَ.

* والذي يتحصَّلُ منَ الأدلّةِ أنَّ حُسنَ الصَّوتِ بالقُرآنِ مطلوبٌ ، فإنْ يكنْ حَسَناً فَلْيُحَسِّنْهُ ما استطاعَ ، ومن جملةِ تحسينهِ أنْ يراعيَ فيه قوانين النّغم ، فإنَّ الحَسَنَ الصّوت يزدادُ حُسناً بذلكَ ، وإن خرجَ عنها أثَّرَ ذلكَ في حُسْنِهِ ، وغيّرَ الحُسْنَ ربّما انجبرَ بمراعاتِها ما لم يخرجْ عن شرطِ الأداءِ المُعتبر عند أهلِ القِراءات ، فإنْ خرجَ عنها لم يَفِ تحسين الصَّوتِ بقُبح الأداء»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في مواضعَ من صحيحهِ ، في فضائل القرآن: باب التّرجيع ، وباب القراءة على الدّابةِ برقم (٥٠٣٤) ، وفي المغازي برقم (٤٢٨١) ، وفي التفسير برقم (٤٨٣٥) ، وفي التوحيد برقم (٧٥٤٠).

(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ٦٨٩) باختصار وتصرف؛ طبعة الدار السَّلفيه بمصر.

غداً نَلْقى الأحبّة :

* يُعتبَر سيّدُنا أبو موسىٰ الأشعريّ من العربِ الأقحاحِ فأصلُهُ من بلادِ اليمن ، حيثُ نشأَ فيها ؛ ويظهرُ من أخبارِهِ أنَّهُ كان يتردَّدُ على أمِّ القُرى مكَّةَ ، فيَرِدُ مواسمَها ويتعرّفُ أحوالَ البلادِ ، وأخبارَ العِبَاد ، الحاضر منهم والباد.

* ولمّا أذنَ اللهُ عزَّ وجلَّ بظهورِ الإسلامِ وشروقهِ من مكّةَ المكرمةِ ، سمعَ أبو موسىٰ به ، وسمعَ برسولِ اللهِ ﷺ ، فقَابَله ، وسرعانَ ما سَرَتْ عبقاتُ الأنوارِ في كيانهِ ، وأضاءتْ نفَسه ، وغمرَتْ قلبَهُ بِسَنَا اليقين ، فشهدَ شهادةَ الحَقِّ ، وآمنَ بنَبيِّ الحقِّ ، ودخلَ في عدادِ السّابقين إلى الحقِّ ، فحظيَ بالسَّبقِ إلى غُرَّةِ المحامدِ ، وناهيكَ بِفضْلِ السَّابقين : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الواقعة : ١٠ ـ ١٣].

* عاد أبو مُوسىٰ رضي الله عنه إلى بلادِ قومه ، بعد أن أَلِفَ الإسلامَ وانسجم معه ، وأقامَ هُناكَ مدّةً منَ الزَّمنِ يتنسَّمُ أخبارَ رسول الله ﷺ وأخبارَ أصحابهِ الكرام . وكان يعملُ على نَشْرِ الإسلام بين قومهِ الأشعريّين ، إلى أنْ فشَا بينهم ، ودخلت ثلّةٌ كبيرةٌ منهم في دين اللهِ عزَّ وجلَّ.

* وبلغَ أبا مُوسىٰ هِجرةُ الهادي البشير ﷺ إلى المدينةِ المنورةِ ، فأخذتِ الآمالُ تُراوِدُهُ وتتراءى أمامه كي يلحقَ بالصادق المصدوق ﷺ ليكمِلَ طريقَ العلمِ والمعرفةِ ، ذلكَ الطَّريقُ الذي عرفَهُ ، والذي أمْسَك طرفَ حَبْلِهِ المتين منذُ سنوات.

* أعدَّ سيّدنا أبو موسىٰ عدَّةَ الهجرة ولوازمها ، وعزمَ على السَّفرِ ، وتأهَّبَ مع بضعةٍ وخمسينَ مسلماً من الأشعريين ، وقد حرَّكَتْهُم لواعجُ محبّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإذا هُمْ يتوجّهونَ إلى مطلع النّور ، وها هو ذا أبو موسىٰ رضي اللهُ عنه يتحدَّثُ عن تلكم الهجرةِ الغنية بإخلاص الصِّدقِ ، وصدقِ اليقين ولغة المحبّين.

* أخرجَ البُخاريُّ بسندِهِ عن بُريد بنِ عبد اللهِ عن أبي بردةَ عن أبي موسىٰ رضي اللهُ عَنْه قال : «بلغَنا مخرجُ النَّبيِّ ﷺ ونحنُ باليمن ، فخرجْنَا مُهاجرين

إليهِ[1] أنا وأخَوان لي ، أنا أصغرهُم: أحدهما أبو بُردةَ[2] ، والآخر أبو رهم[3] ـ إما قال: في بضعْ ، وإما قال: في ثلاثةٍ وخمسين أو اثنين وخمسين رجُلاً من قومي ـ فركبنَا سفينةً ، فألقتنَا سَفِينَتُنَا إلى النَّجاشيّ بالحبشةِ ، فوافقنا جعفر بن أبي طالب[4] ، فأقَمنا معه ، حتّى قَدمنا جميعاً ، فوافقنا النَّبيَّ ﷺ حين افتتحَ خَيبر.

* وكانَ أناسٌ منَ النَّاسِ يقولون لنا ـ يعني لأهلِ السَّفينة ـ: سَبَقناكم بالهِجْرة ، ودخلتْ أسماءُ بنتُ عُميس ـ وهي ممنْ قَدِمَ معنا ـ على حفصةَ زوجِ النَّبيّ ﷺ زائراً ، وقد كانتْ هاجرتْ إلى النّجاشيِّ فيمن هاجرَ ، فدخلَ عمرُ على حفصةَ ـ وأسماءُ عندَها ـ فقال عُمر حينَ رأى أسماء: مَنْ هذه؟

قالَتْ: أسماءُ بنتُ عُميس.

قال عُمر: آلحبَشيّةُ هذه؟ آلبحريّةُ هذه؟!!

قالت أسماءُ: نعم.

قال: سبقناكمْ بالهجرةِ ، فنحنُ أحقُّ برسولِ اللهِ منكم..

فغضبَتْ وقالَتْ: كلاّ واللهِ ، كنتمْ معَ رسول الله ﷺ يطعمُ جائِعَكم ، ويعظُ جاهلَكم ، وكُنّا في دارِ ـ أو في أرض ـ البُعداء البُغضَاء بالحبَشةِ ، وذلكَ في الله ، وفي رسولهِ ﷺ؛ وايمُ اللهِ ، لا أطعمُ طَعاماً ، ولا أشربُ شراباً حتى أذكرَ ما قُلتَ لِرَسولِ اللهِ ﷺ ، ونحنُ كنّا نُؤذى ونُخاف ، وسأذكرُ ذلكَ للنّبيّ ﷺ وأسألُه ، واللهِ لا أكذبُ ، ولا أزيغُ ، ولا أزيدُ عليه.

---

(١) يبدو أنَّ أبا موسى رضي الله عنه وقومَه لم يبلغهُمْ شأنُ هجرةِ النّبيّ ﷺ إلاّ بعد فترةٍ طويلةٍ ويُحتمل أن يكونَ قد علموا ما كان عليه ﷺ من الجهادِ والقتال مع المشركين ، ولما بلغتهم أخبارُ هدنةِ الحديبيةِ خرجوا مُهاجرينَ ، وطلبوا الوصولَ إليهِ.

(٢) «أبو بردة»: اسمه: عامرُ بنُ قيس.

(٣) «أبو رهم»: اسمه: مجديٌّ ، أو مجيلة بن قيس.

(٤) اقرأ سيرةَ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في كتابنا «رجال مبشّرون بالجنة» طبعة دار ابن كثير الرابعة (ص ٦٦ ـ ١٠٣) حيث سيرته إمتاع للأسماع ، والنفوس ، وصقل للقلوب المؤمنة المُحبة.

* فلمّا جاء النَّبي ﷺ قالت: يا نبيَّ اللهِ، إنَّ عمرَ قال كَذا وكذا!

قال: «فما قُلْتِ لَهُ»؟

قالَتْ: قلتُ له كَذا وكذا.

قال: ليسَ بأحق بي منكم، ولهُ ولأصحابهِ هجرةٌ واحدةٌ، ولكمْ أنتم أهلُ السفينةِ هجرتَان».

قالَتْ: فلقد رأيتُ أبا موسىٰ وأصحابَ السَّفينةِ يأتونَني أرسالاً يسألُوني عن هذا الحديث، ما من الدّنيا شيءٌ هم به أفرحُ، ولا أعظمُ في أنفسِهم ممّا قال لهم النَّبيُّ ﷺ.

قال أبو بردةَ: قالت أسماءُ: فلقد رأيتُ أبا موسىٰ وإنَّهُ ليستعيدُ هذا الحديثَ منّي»[1].

* وعندما هبطَ الأشعريّون ومَنْ معهم منَ السَّفينةِ، توجّهُوا نحو المدينةِ المنوّرة، فألفوا رسول الله ﷺ قد خرجَ إلى خيبرَ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فساروا مسرعين نحو خَيبر، لِيَلْتَقُوا النَّبيَّ الكريمَ المُعلّمَ محمّداً ﷺ الذي أخرجهم من ظُلماتِ الوهم إلى نورِ العلمِ، ومن ضلالاتِ الجاهليةِ العمياء إلى حقائقِ الإسلام الزَّهراء، فكانُوا بذلك سادةَ السَّاداتِ، وساداتِ الأمم.

* أمَّا الحبيبُ المُصطفى محمدٌ ﷺ، فقد أخبر أصحابهُ وأَعْلَمَهُم بقدومِ الأشعريين، وبشَّرهم بقدومهم، وذكرَ لهم رقّةَ قلوبهم فقال: «يقدمُ عليكم غداً قومٌ هم أرقُّ قُلوباً للإسلامِ مِنكم».

فلما دنوا من المدينةِ جعلُوا يرتجزون يقولون:

غَـــــداً نَلْقَـــــىٰ الأَحبَّـــــه مُحمَّـــــداً وحِـــــزْبَـــــه

---

(١) أخرجه البخاريّ في صحيحهِ في المغازي برقم (٤٢٣٠ و٤٢٣١) باب: غزوة خيبر، وفي فرض الخمس برقم (٣١٣٦)، وفي مناقبِ الأنصار برقم (٣٨٧٦)، وأخرجهُ مسلم في فضائل الصّحابة برقم (٢٥٠٢ و٢٥٠٣)، وأحمدُ في المسند (٤/ ٣٩٤ و٣٩٥ و٤١٢).

* فلمَّا أنْ قدموا تَصَافحوا ، فكانُوا هم أوَّلُ مَنْ أحدثَ المُصافحة[1] .

* وصلَ الأشعريون خيبرَ ، وكان اللهُ عزَّ وجلَّ قد مَنَّ على النَّبيّ ﷺ بِفَتْحِ خيبر وخرابِها ، وقابلَ أبو موسى رسول الله ﷺ وهو يرتجزُ ، ويتغنّىٰ بلقاءِ حبيبهِ بعدَ شوقٍ دامَ سنين عدداً ، وليالي وأياماً كثيرة .

* وسُرَّ النَّبيُّ ﷺ بقدومِ أبي موسىٰ والأشعريين ، وكذلكَ بقدومِ ابن عمّهِ جعفرَ بنِ أبي طالب ، وأكرَمَ المُهاجرينَ إليهِ جميعاً إكراماً عظيماً ، وقسمَ لهم من غنائم خيبر ، ولم يقسِمْ لغيرهم ممن لم يحضرْهَا[2] تكريماً للأشعريّين ومن معهم ، ومعرفةً لإيمانِهم وإخلاصِهم وحبِّهم للهِ ورسوله .

* روىٰ سيّدنا أبو موسىٰ إكرامَ النَّبيِّ ﷺ له ولقومهِ ولجعفرَ ابنِ عمِّهِ ومَنْ معهم من المؤمنين فقال : «فوافقنا النّبيّ ﷺ حين افتتحَ خيبر ، فأَسْهمَ لنا ـ أو قال : فأعطانا ـ منها ، وما قسمَ لأحدٍ غابَ عن فتح خيبرَ منها شيئاً ، إلاّ لمن شهدَ معه ، إلاّ أصحاب سفينتنا مع جعفرَ وأصحابهِ ، قسمَ لهم معهم»[3] .

* وفي يومِ اللقاءِ السَّعيدِ ، يوم فَتْح خيبر ، قرّتْ أعينُ الأشعريّين برؤيةِ الهادي البشير ﷺ ، وفرحوا بنصرِ اللهِ عزَّ وجلَّ الذي جعلَ لهم نصيباً منَ الغنائم ، وحازوا شرفَ الصُّحبةِ النَّبويةِ ، وعادوا إلى المدينةِ المنوّرةِ يخفقُ فوق رؤوسِهم لواءُ النَّصر المُحمديّ بقيادةِ الرَّسولِ القائدِ مُحمّدٍ ﷺ .

من فوائد الصّحبة المحمّديّة :

* حرصَ سيّدُنا أبو مُوسى الأشعريّ رضي الله عنه أشدَّ الحرص على الاستفادةِ منَ المجالسِ النّبويّةِ ، وأخذ يسعىٰ لكي يكونَ قريباً منها ، يأنَسُ برؤيةِ النَّبيّ ﷺ ، ويأخذُ عنه ، ويتعلَّمُ ، ويتفقَّهُ؛ فَلَقَدْ أُوتي ـ أبو موسى ـ

---

(١) انظر : مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ٢٣٦) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٨٤) ، وحياة الصّحابة (١/ ٣٥٧ و٣٥٨) ، والحديث أخرجهُ الإمام أحمد (٣/ ١٥٥ و٢٢٣ و٢٦٢) ، وابن سعد في الطّبقات (٤/ ١٠٦).

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ٢٣٤).

(٣) أخرجهُ البخاري في كتاب الخمس برقم (٣١٣٦).

فهماً وذكاءً وحرصاً وحبّاً للعلمِ ، ومنَّ اللهُ عليهِ بحافظةٍ واعيةٍ جعلتْهُ يدركُ ما فاتهُ منَ الفوائدِ المجموعةِ في تلكم المجالسِ النَّبويّةِ العَطِرةِ في مكَّةَ والمدينةِ.

* إنَّ الأقلامَ تعجزُ عن وصفِ المحبَّةِ العظيمةِ التي كان يكنُّها الصَّحابةُ الأطهارُ لمربّيهم رسول الله ﷺ ، فكانُوا يعملُون ما بوسعِهم كي يحظوا بمرضاتِهِ ، ويقضوا أوقاتاً مفيدةً في صحبتهِ الشَّريفةِ تُدْنيهم من جنّةٍ عرضُها السّماواتِ والأرض.

* أحبَّ سيّدنا أبو مُوسىٰ أنْ يحقِّقَ هذا الهدفَ السَّامي ، وأن يكونَ يوماً من الملازمين للنّبيّ ﷺ ، ينهلُ من الموردِ العذب ما رقَّ وراقَ ليكونَ من الأصفياء ، ويكتب في زمرة السّعداء.

* تحدّثَ أبو مُوسى رضي الله عنه عن تلكَ الأُمنيةِ المباركةِ التي تشرَّفَ بها وهو يخدمُ رسول الله ﷺ حيث أحبَّ ورغبَ أن يكونَ بوّابَ رسول الله ﷺ وحاجبه في ذلكَ اليوم.

* أخرجَ البُخاريُّ رحمه الله بسنده عن سعيدِ بنِ المسيِّب رحمه الله قال: أخبرني أبو مُوسىٰ الأشعريّ رضي اللهُ عنه أنَّه توضّأَ في بيتهِ ، ثمَّ خرجَ فقُلْتُ: لألزمنَّ رسول الله ﷺ ، ولأكونَنَّ معه يومي هذا.

قال: فجاءَ المسجدَ ، فسألَ عنِ النَّبيِّ ﷺ ، فقالوا: خرجَ ووجَّه ها هُنا.

فخرجت على إثرِهِ أسألُ عنه حتّى دخلَ بئرَ أريس[1] ، فجلستُ عند البابِ ـ وبابها من جَريد ـ حتى قضىٰ رسول الله ﷺ: حاجتَهُ فتوضّأ ، فقمتُ إليه ، فإذا هو جالسٌ على بئرِ أريس ، وتوسَّطَ قُفَّها[2] ، وكشفَ عن ساقَيه ، ودلاّهُما في البئرِ ، فسلمتُ عليه ، ثمّ انصرفتُ ، فجلستُ عندَ الباب ، فقلتُ: لأكوننَّ بوابَ رسول الله ﷺ اليوم.

---

(١) «أريس» بستانٌ في المدينةِ المنوّرةِ معروفٌ ، وهو بالقربِ مِنْ قباء.
(٢) «توسّط قُفَّها»: الدّكة التي تُجعَلُ حولَ البئر ، وأصلُهُ ما غلظَ من الأرضِ وارتفعَ.

فجاء أبو بكر فدفَع البابَ ، فقلتُ : مَنْ هذا؟

فقال : أبو بكر .

فقلتُ : على رِسْلك .

ثم ذهبتُ فقلتُ : يا رسولَ الله ، هذا أبو بكرٍ يستأذنُ ، فقال : «ائذنْ لهُ وبشّرهُ بالجنَّةِ» .

فأقبلتُ حتى قلتُ لأبي بكر : ادخلْ ورسولُ اللهِ ﷺ يبشّرُكَ بالجنَّةِ .

فدخلَ فجلسَ عن يمينِ رسول الله ﷺ معه في القُفِّ ، ودلّىٰ رجلَيْه في البئرِ كما صنعَ النَّبيُّ ﷺ وكشَفَ عن ساقَيْه .

ثمَّ رجعتُ فجلستُ وقد تركتُ أخي يتوضّأ ويلحقُني ، فقلت : إِنْ يُرِدِ اللهُ بفلانٍ خيراً ـ يُريدُ أخَاهُ ـ يأْتِ بِهِ ، فإذا إنسانٌ يحرّكُ البابَ ، فقلتُ : مَنْ هذا؟

فقال : عُمرُ بنُ الخطاب .

فقلتُ : على رسْلِكَ .

ثُمَّ جئتُ إلى رسول الله ﷺ ، فسلّمتُ عليه ، فقلتُ : هذا عمرُ بنُ الخطابِ يستأْذنُ .

فقالَ : «ائذَنْ لهُ ، وبشّرْهُ بالجنَّةِ» .

فجئتُ فقلتُ : ادخُلْ ، وبشَّركَ رسول الله ﷺ بالجنَّةِ ، فدخلَ فجلسَ معَ رسول الله ﷺ في القُفِّ عن يسارِه ، ودلّى رجلَيهِ في البِئر .

ثمّ رجعتُ ، فجلستُ فقلتُ : إنْ يُرِدِ اللهُ بفلانٍ خيراً يأتِ بهِ ، فجاءَ إنسانٌ يحرّكُ البابَ ، فقلتُ : مَنْ هذا؟

فقال : عُثمانُ بنُ عفَّانَ .

فقلتُ : على رِسْلِكَ .

فجئتُ رسول الله ﷺ فأخبرتُه فقال: «ائذنْ له وبشّرهُ بالجنَّةِ على بلوىٰ تصيبُه».

فجئتهُ فقلتُ له: ادخُلْ وبشَّرَكَ رسول الله ﷺ: بالجنَّةِ على بلوىٰ تُصيبُكَ.

فدخلَ فوجدَ القُفَّ قد مُليَ، فجلسَ وجاهَهُ ـ مقابِلَهُ ـ من الشّقِّ الأخر»[1].

* وبهذا التَّصرُّفِ الموفّق حَظِيَ أبو مُوسىٰ الأشعري رضي الله عنه بالمعيّةِ النَّبويّةِ الشَّريفةِ، وبخدمةِ رسول الله ﷺ وخدمةِ أصحابهِ الأعلامِ وسادتِنا الكرام؛ أبي بكرٍ وعمرَ وعثمان رضي اللهُ عنهم وحشَرنا معهم ونقلَ لهم البُشْرى والبشَارَة بالجنَّةِ، فهل فوقَ هذا من مطمَحٍ؟:

قُـلْ لِبَنِـي الـدُّنيـا أَلا هَكَـذا فَلْيَصْنَـعِ النَّـاسُ مـعَ النَّـاسِ

* ولعلَّ من أبرزِ حَصَائِلِ الصُّحبةِ النَّبويّةِ وحصائدِها التي جنَاها أبو مُوسىٰ رضي الله عنه، تلكم الإشراقاتُ الدافقة باليُمن التي تشعُّ بالبركةِ، وتمنحُ أبا موسى شهادةَ تقديرٍ متميزةٍ، وبشارةً بالحُسْنىٰ خصَّهُ بها النَّبيُّ الكريمُ ﷺ.

* فقد ثبتَ في الصَّحيحِ أنَّ رسول الله ﷺ قد دعا لأبي مُوسى بصريحِ اسمهِ بالمغفرةِ والمُدخَلِ الكريمِ، حيث قال ﷺ: «اللهم اغفرْ لعبدِاللهِ بن قيس ذنبَهُ، وأدخِلْهُ يومَ القيامةِ مُدخَلاً كريما»[2].

* كما حظيَ هذا الموفَّقُ بدعاءٍ كريمٍ منَ النَّبيِّ ﷺ، وكانَ من السَّابقين إلى اقتناصِ تلكمُ الدَّعواتِ المباركاتِ مِنَ النَّبيِّ ﷺ، ويغتنمُ تلكم الأوقاتِ الملائمة لذلكَ، وهذا يدلُ على معرفتهِ قَدْرَ النَّبيِّ ﷺ، ويشيرُ إلى علمهِ وفقهِهِ لآدابِ الصُّحبةِ النَّبويّةِ في مختلفِ الظُّروفِ التي كان يعيشُها مع معلّمهِ وأستاذِه رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجهُ البخاري في فضائِلِ الصَّحابة برقم (٣٦٧٤)، وأخرجهُ كذلك في مواضع برقم (٣٦٩٣ و٦٢١٦ و٧٠٩٧ و٧٢٦٢).

(٢) أخرجهُ البخاري من حديث طويل في المغازي برقم (٤٣٢٣) باب: غزوة أوطاس؛ ومسلم في الفضائل برقم (٢٤٩٨) باب: من فضائِلِ أبي موسى وأبي عامر الأشعريين.

* ففي واحدة من نفحاتِ الصُّحبةِ النّبويّةِ ، وفي إحدىٰ المغازي ، حظيَ سيّدنا أبو مُوسىٰ بدعوةِ الشَّفاعَةِ منَ النَّبيِّ الكريمِ محمّدٍ ﷺ ، وذلكَ حينما تفقَّدَ أخبارَهُ في إحدىٰ الليالي.

* ذكرَ سيّدنا أبو مُوسى رضي الله عنه خبرَ ذلكَ في بعضِ غزواتهِ بمعيّةِ الصادق المصدوق ﷺ ، وحراسَتَهُ له في الليلِ ، فقال: «غزونا معَ رسول الله ﷺ في بعضِ أسفارِه ، فعرَّسَ[1] بنا رسول الله ﷺ ، فانتبهتُ بعضَ الليلِ إلى مُنَاخِ رسول الله ﷺ أطلبُهُ ، فلم أجدهُ ، فخرجتُ بارزاً أطلبُهُ ، وإذا رجلٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ يطلبُ ما أطلبُ..

فبينا نحنُ كذلكَ إذ اتّجهَ إلينا رسول الله ﷺ ، فقلنا: يا رسولَ الله ، أنتَ بأرضِ حربٍ ، ولا نأْمَنُ عليكَ ، فلولا إذا بدَتْ لكَ الحاجةُ قلتَ لبعضِ أصحابكَ فقامَ معكَ.

فقال رسول الله ﷺ: «إنّي سمعتُ هزيزاً كهزيزِ الرّحى ـ أو حنيناً كحنينِ النَّحل ـ وأتاني آتٍ من ربّي عزَّ وجلَّ فخيّرني أنْ يدخلَ شطرَ أمّتي الجنَّة ، وبينَ شفاعَتي لهم ، وعلمتُ أنّها أوسعُ لهم ، فخيّرني بأنْ يدخلَ ثلثَي أمّتي الجنَّة ، وبينَ الشَّفاعة ، فاخترتُ لهم شفَاعَتي وعلمتُ أنَّها أوسعُ لهم».

فقالا: يا رسول الله ، ادعُ اللهَ تعالى أن يجعلنا من أهلِ شفاعتِكَ.

قال: فدعا لهما.

ثمَّ إنَّهما نَبَّهَا أصحابَ رسول الله ﷺ وأخبراهم بقولِ رسول الله ﷺ ، فجعلُوا يأتونه ويقولون: يا رسولَ الله ادعُ اللهَ تعالى أنْ يجعلنا من أهلِ شفاعتِكَ؛ فيدعو لهم.

---

(١) «عرَّسَ»: نزل في آخر الليل للراحةِ. والتعريس: نزول القوم في السَّفرِ من آخر الليل يقفون فيه وقفة للراحةِ ثم يرتحلون. (مختار الصحاح) مادة «عرس».

قال: فلمّا أضبَّ عليهِ القومُ وكثروا؛ قال رسول الله ﷺ: «إنَّها لمن ماتَ وهو يشهدُ أن لا إله إلا الله»(١).

* لا تزالُ الآثارُ الحميدةُ تلاحقُ الأخيارَ، ولا يزالُ أبو مُوسىٰ رضي اللهُ عنه يحظىٰ بالتّكريمِ تلوَ التّكريمِ، والبشارةِ الخيِّرةِ تلو الأخرى، وها هو ذا يزفُّ إليهِ رسول الله ﷺ بشارةً عبقةً، وها هو أبو مُوسى رضي الله عنه يتبركُ بماءٍ غَسَّلَ به النبي ﷺ يديهِ ووجهَهُ.

* أخرجَ البخاريُّ بسندهِ عن أبي بردةَ عن أبي مُوسىٰ رضي اللهُ عنه قال: «كنتُ عندَ النَّبيِّ ﷺ وهو نازلٌ بالجعرانة(٢) بين مكّةَ والمدينةِ ـ ومعه بلالُ، فأتى النَّبيَّ ﷺ أعرابيٌّ فقال: ألا تنجزْ لي ما وعدتَني؟ فقال له: «أَبشِرْ».

فقال: قد أكثرَ عليَّ منْ «أَبْشِر».

فأقبلَ علىٰ أبي مُوسىٰ وبلال كهيئةِ الغَضبان فقال: «ردَّ البُشرىٰ فاقبلا أنتما».

قالا: قَبِلْنا.

ثمَّ دعا بقدحٍ فيه ماء، فَغَسلَ يديه، وجهَه فيه، ومجَّ فيهِ، ثمَّ قال: اشربَا منهُ، وأفرغَا على وجوهكما ونحورِكما وأَبْشِرَا».

فأخذَا القدحَ ففعلا؛ فنادَتْ أمُّ سلمة(٣) من وراءِ السّترِ أنْ أَفضِلا

---

(١) المسند (٤/ ٤١٥). أقول: «برهن الصّحابةُ الكرام رضي اللهُ عنهم أجمعين على صِدْقِ تمثّلهم لكلمةِ التّوحيد: لا إله إلا الله، محمّد رسول الله. فكان الارتباطُ وثيقاً دقيقاً متيناً بين اعتقادهم النّقي وسلوكهم السّوي، وكأنَّ حالَ كلّ واحدٍ من أولئك الصّحابة الأعلام، قد ناجىٰ ربَّ الأنام سرّاً وعلانية:

لمّا علمتُ بأنَّ قلبيَ فارغٌ ... ممنْ سواكَ ملأتهُ بهُداكَا
وملأتُ كلّي منكَ حتّى لمْ أدعْ ... منّي مكاناً خالياً لِسواكَا»

(٢) «الجعرانة»: الصّحيح كما وردَ في الصّحيح أنّها بين مكةَ والطّائف، وهي إلى مكّةَ أقربُ. وبذا جزمَ النّووي وغيره. (تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٥٨ و٥٩).

(٣) «أمُّ سلمة»: هي زوجُ سيّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ، وهي أمّنا أمُّ المؤمنين رضي الله =

لأمِّكما ، فأَفضلا لها منه فَضْلةً»[1].

* ولقد أفادَ سيِّدُنا أبو مُوسىٰ الأشعريّ رضي الله عنه من صحبةِ النَّبيِّ الكريم ﷺ ، وتعلَّمَ من خلالِ هذه الصُّحبةِ الميمونةِ كيفَ يحظىٰ بكنزٍ من كنوزِ الجنَّةِ ، وناهيكَ بالجنَّةِ ومرتبتها.

* ومن الطَّريفِ أنَّ أبا مُوسىٰ رضي الله عنه كان يقتبسُ من النّبي ﷺ علماً غزيراً أفادَ منه النَّاسَ ، بل إ نَّهُ نقله[2] إلى النَّاسِ بدقَّةٍ وأمانةٍ ليتعلَّموا كيفَ يحظون بكنزٍ من كنوزِ الجنَّةِ ، وليحظُوا بمرضاةِ اللهِ ورسوله.

* عن أبي مُوسىٰ رضي الله عنه قال: «كُنَّا مع رسول الله ﷺ في غزاةٍ ، فجعلنَا لا نصعدُ شَرَفاً ، ولا نَعلو شَرَفاً ، ولا نهبطُ في وادٍ إلا رفعنا أصواتَنا بالتّكبير.

قال: فدنَا منّا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيّها النّاسُ اربعُوا ـ ارفقوا ـ على

= عنها وأرضاها ، ولهذا قالت: «لأمّكما». اقرأ سيرتها في موسوعتنا الشَّهيرة «نساء أهل البيت» (ص ٢٤٣ ـ ٢٩٠) طبعة دار اليمامة السَّادسة بدمشق ١٤٢٦ هـ.

(١) أخرجه البخاريُّ في المغازي برقم (٤٣٢٨) ، وفي الوضوء برقم (١٩٦) ، وأخرجه مسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٩٧) باب: من فضائل أبي موسىٰ. وعلّق ابن حجر رحمه الله على هذا الحديث فقال: «وفي الحديث منقبةٌ لأبي موسىٰ ولبلال ولأمّ سلمةَ رضي الله عنهم».

(٢) أقول: كان من أخلاقِ الصَّحابةِ الكرام رضوان الله عليهم أجمعين الحرصُ الشّديدُ على نشْرِ العِلْمِ وتبليغه ، ونَفْعِ النّاسِ به في مختلفِ الأمصار ، فلا خيرَ في علْم يُكتم ، فإنَّما جُعلَ العلْمُ لينْشَر.
وكان الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ يحضُّ أصحابَهُ الكرامَ على تبليغِ ما يسمعونه منه ، لينتفع به مَنْ بعدهم زماناً ، ومَنْ وراءهم مكاناً ، وأمرَ صلّىٰ اللهُ عليهِ وسلم بتبليغِ العلم ، فقال: «بلّغُوا عنّي ولو آية» (أخرجه البخاري).
وقال أيضاً: «نضَّر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه ، فرب مبلِّغ أوعىٰ من سامع» (أخرجه أبو داود ؛ والترمذي).
ولا شكّ في أنّ علماءَ الصَّحابةِ الكرام رضوان الله عليهم قد سمعوا مثلَ هذه الأحاديثِ؛ فجعلوا يحرصونَ على تبليغِ ما يحملون في صدورِهم من عِلْمِ النّبوة ، وما تلقّوه من معارفَ نبويةٍ من أقوالٍ وأفعالٍ وأوصافٍ فخدموا بذلكَ الأمّةَ إلى يومِ الدِّين».

أنفسِكم ، فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائِباً ، إنَّما تدعونَ سَميعاً بصيراً».

ثمّ قال: «يا عبدَ اللهِ بن قيس ، أَلا أُعلّمكَ كلمةً هي من كنوزِ الجنَّةِ ، لا حولَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ»[1].

* ولم يكتفِ أبو مُوسى رضي اللهُ عنه بتلكَ الفُيوضات التي ينهلُها من عباب النّبوةِ وبحارها المباركة ، وإنَّما طالت تلكم الرَّحمات ذريّته ، إذ حظيَ ابنُه بدعوةٍ كريمةٍ منَ النَّبيِّ ﷺ.

---

(١) أخرجَهُ البخاريُّ في صحيحهِ في مواضعَ ، في القدر برقم (٦٦١٠) ، وفي الدّعوات برقم (٦٣٨٤) ، وفي التّوحيد برقم (٧٣٨٦) ، وفي الجهاد برقم (٢٩٩٢) ، وفي المغازي برقم (٤٢٠٥)؛ وأخرجهُ مسلم في الذكر والدعاء برقم (٢٧٠٤) ، وأبو داود في الصلاة برقم (١٥٢٧ ، ١٥٢٨) ، والترمذي في الدعوات برقم (٣٣٧١) ، وأخرجه أيضاً برقم (٣٤٥٧) ، وابنُ ماجه في الأدب برقم (٣٨٢٤) ، وأحمدُ في المُسند (٤/ ٣٩٩ و٤٠٠ و٤٠٢ و٤٠٣ و٤٠٧ و٤١٧ و٤١٨ و٤١٩) ، وابنُ حبّان برقم (٧٩٢).
قال الإمام النووي رحمه الله في شرحِ مسلم (٥/ ٥٥٤ و٥٥٦): «معناه: ارفقُوا بأنفسكم ، واخفضوا أصواتكم ، فإنَّ رفعَ الصَّوتِ إنَّما يفعلُهُ الإنسانُ لِبُعدِ مَن يخاطِبه ليسمعه ، وأنتم تدعونَ اللهَ تعالى ، وليسَ هو بأصمّ ولا غائب ، بل هو سميعٌ قريب ، وهو معكم بالعلم والإحاطةِ.
ففيه النّدبُ إلى خَفْضِ الصّوتِ في الذّكر إذا لم تدعُ حاجةٌ إلى رفعِهِ ، فإذا خفضَهُ كان أبلغَ في توقيرِهِ وتعظيمه ، فإنْ دعَتِ حاجةٌ إلى الرّفع رفعَ ، كما جاءت به أحاديث».
وقال شارحاً لقولهِ ﷺ: «لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ كنزٌ من كنوزِ الجنّة»: قال العلماءُ: «سببُ ذلكَ أنّها كلمةُ استسلامٍ وتفويضٍ إلى اللهِ تعالى ، واعترافٍ بالإذعانِ له ، وأنّهُ لا صانعُ غيره ، ولا رادّ لأمْرِهِ ، وأنَّ العبدَ لا يملكُ شيئاً منَ الأمر.
ومعنى الكنز هنا: أنّه ثوابٌ مُدَّخرٌ في الجنةِ ، وهو ثوابٌ نفيس ، كما أنَّ الكنزَ أنفسُ أموالكم. قال أهلُ اللغة: الحَوْل: الحركةُ والحيلة ، أي: لا حركةَ ، ولا استطاعة ، ولا حيلةَ إلا بمشيئةِ اللهِ تعالى. وقيل: معناه: لا حولَ في دفعِ شرّ ، ولا قوة في تحصيلِ خير إلا بالله. وقيل: لا حولَ عن معصية اللهِ إلا بعصمته ، ولا قوةَ على طاعتهِ إلا بمعونتهِ ، وحكي هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه».
وقال ابنُ بطّال رحمه الله: «كان عليه السَّلامُ معلّماً لأمّته ، فلا يراهم على حالةٍ من الخير إلاّ أحبّ لهم من الزّيادةِ ، فأحبّ الذين رفعوا أصواتهم بكلمةِ الإخلاصِ والتّكبير أن يضيفوا إليها التّبري من الحولِ والقوةِ ، فيجمع بين التّوحيد ، والإيمان بالقدر». (فتح الباري ١١/ ٥٠٩) طبعة الدار السَّلفية بمصر (١٤٠٨ هـ).

* جاءَ في الصَّحيحِ عن أبي مُوسىٰ رضي اللهُ عنه قال: «وُلدَ لي غلامٌ، فأتيتُ به رسول الله ﷺ، فسمّاهُ إبراهيم، وحنَّكَهُ بتمرةٍ، ودعا له بالبركةِ، ودفَعَهُ إليَّ»[1].

* وقال ابنُ سعد رحمه الله «وكان إبراهيمُ أكبرَ ولدِ أبي مُوسى»[2].

* وأرىٰ من المفيدِ ها هُنا أنْ نتعلَّم من أبي مُوسى رضي الله عنه هذا الدّعاء الذي سمعه وتعلّمه من النّبي ﷺ، فَقد ذَكَرَ أنَّهُ ﷺ كان يدعو بهذا الدّعاء: «اللّٰهُمَّ اغفرْ لِي خطيئتي وجَهلي، وإسْرافِي في أمري، وما أنتَ أعلمُ به منّي، اللهم اغفِرْ لِي جِدّي وهَزْلِي، وخَطئي وعَمدي، وكلّ ذلكَ عندي. اللّٰهُمَّ اغفرْ لِي ما قدمتُ وما أخّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أنتَ أعلمُ بهِ منّي، أنتَ المُقدمِ، وأنتَ المؤخّرُ وأنتَ على كلّ شيءٍ قدير»[3].

جمال صوته في القُرْآنِ:

* يُعتبرُ أبو مُوسىٰ الأشعريّ رضي اللهُ عنه من أشهر عُلماءِ الصَّحابةِ الحُفَّاظ للقُرآنِ الكريمِ في العهدِ النّبويّ، فقد استظهره، ونهلَ من يَنْبوعِ العلمْ ما استطاعَ إلى ذلكَ سَبيلاً، فكان من نُجباءِ الصَّحابة، ومن الصَّحابةِ النُّبهاء، وكان من أندى النَّاسِ صوتاً، فقد حبَاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ حَنْجَرةً تتفتَّقُ عنها أجملُ الأصواتِ وأحلىٰ النَّبراتِ التي تدخلُ القُلوبَ، وتؤثّرُ في النُّفوس، وتجتذبها إلى ساحةِ الصَّفاء الإلهيّ.

* وفي رحابِ القُرآنِ الكريم كانت حياةُ أبي مُوسى رغيدةً هنيّةً هيِّنةً، فهو يتلوهُ آناءَ الليلِ، وأطرافَ النَّهار، ويقرأُ ويفسِّرُ، ويَفْهَمُ، ويُفْهِمُ، ويُسْمِعُ، ويعلّمُ، ويعملُ لكلِّ ما يَعْمُر القلوبَ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولقد

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦١٩٨)، ومسلم برقم (٢١٤٥)، وأحمد (٤/٣٩٩)، وابن سعد في الطبقات (٤/١٠٧).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/١٠٧).

(٣) أخرجه الشيخان، وهو متفق عليه، فقد رواه البخاري برقم (٦٣٩٨) و(٦٣٩٨)، ومسلم برقم (٢٧١٩).

أجادَ الذّهبيُّ رحمه الله في حديثِهِ عن أبي مُوسىٰ الأشعريّ رضي الله عنه عندما صنّفَهُ في «تذكرةِ الحُفّاظ» وجعلَهُ في الطبقةِ الأولىٰ منَ الصَّحابةِ الكرام رضوان الله عليهم فقال: «كانَ عالماً، عاملاً، صالحاً، تالياً لكتابِ الله، إليهِ المُنْتَهىٰ في حسنِ الصَّوت بالقُرآن، روىٰ علماً طيّباً مباركاً، اقرأُ أهلِ البصرةِ وأفقهُهمْ»[1].

* إنَّ الله عزَّ وجلَّ أنزلَ القرآنَ الكريمَ على النَّبيِّ ﷺ، وجعلَهُ هدايةً للنَّاسِ وبركةً وخيراً، فمَنْ قرأَهُ وحفظَهُ فقد حملَ سِرَّ الله عزَّ وجلَّ في كتابهِ، وحفظَ عِلْمهِ، وعرفَ حدودَه، وأوامرَهُ ونواهيه، وعند إذْ يكونُ القُرآنُ العظيمُ حجّةً مباركةً له ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعراء: ٨٨ ـ ٨٩]، وصارَ من أهلِ اللهِ وخاصته، فأكرمْ بتلكم الخاصّة!

* وقد أفاضَ اللهُ عزَّ وجلَّ بالثَّناءِ، وعظّمَ الأجرَ لمن يتْلُونَ كتابَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولمن يصلُّونَ ويتصدّقُون في السِّرِّ والعلانيةِ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩ ـ ٣٠].

* وقراءةُ القرآنِ الكريم لها فضائلُ كثيرة، وهي عبادةٌ وقربى، كما قال رسول الله ﷺ: «أفضلُ عبادةِ أمَّتي قراءةُ القُرآن»[2].

* ولقد سمعَ أبو مُوسى رضي الله عنه آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ وسمعَ أحاديثَ النّبي ﷺ تتحدَّثُ عن فضائلِ قراءةِ القُرآنِ وبركتها، فجذبَ ذلكَ اهتمامَهُ، واهتمَّ بالقُرآنِ اهتماماً كبيراً، بعد أنْ تلقّاهُ منَ النَّبيِّ ﷺ مباشرةً، وساعَدَهُ على ذلكَ حافظتهُ القويّةُ، ونجابتهُ، وذكاؤُهُ، ودقّةُ فهمِهِ، ناهيكَ بجمالِ صوتِهِ الذي يأسرُ الألبابَ، ويسحرُ العقولَ، ويؤثّر في خبايا النُّفوس، ودواخل القلوب فيربطُها بخالِقها، فلقد كان أبو مُوسى الأشعري رضي الله

---

(١) انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (١/ ٢٣).
(٢) رواه البيهقي.

عنه من أحسنِ الصَّحابةِ صوتاً ، وذلكَ فَضْلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاء .

* وعرفَ النَّبيُّ ﷺ جمالَ صوتِ تلميذهِ المخلصِ المُحبِّ أبي مُوسى ، فامتدحَهُ ، وأثنىٰ عليهِ ، وحضَّهُ على القراءةِ ، وشبَّههُ بأحدِ الأنبياء في حسنِ الصَّوتِ ، وهو نبيُّ اللهِ داود عليه السَّلام الذي أُوتي جمالَ الصَّوتِ كلّه ، بينما أخذ أبو موسى فرعاً من جمالِ صوتِ نبيّ اللهِ داود عليه السَّلام ، وفي هذا قال النَّبيُّ ﷺ لأبي مُوسى حينما سمعَهُ يقرأُ القُرآنَ الكريم: «يا أبا مُوسى ، أوتيتَ مِزْماراً من مزاميرِ آل داود»[1].

* إنَّ كلَّ مَنْ سمعَ أبا موسى رضي الله عنه يشدو بالقرآنِ تشدُّه حلاوةُ تلاوتهِ ، وتؤثّر فيه تلكمُ النَّغمات التي تنسابُ في ترتيلٍ آسرٍ من فمه ، فالصَّوتُ الجميلُ نعمةٌ من نِعَمِ اللهِ على الإنسانِ ، وقد استعملَ أبو مُوسىٰ هذا الإنعام الإلهي في خدمةِ القُرآنِ الكريمِ ، حتى إنَّ النَّبي ﷺ قد سمعَهُ ذات ليلةٍ يقرأُ القُرآنَ الكريمَ ، فوقفَ يستمعُ عذوبةَ قراءتهِ ، تلكَ القراءةَ التي تخشعُ لها القُلوب ، ثمَّ قال لهُ بعدَ ذلك: «لو رأيتَنِي وأنا أستمعُ لقراءتِكَ البارحة ، لقد أوتيتَ مزماراً من مزاميرِ آلِ داود» .

* ويبدو منَ الآثار الواردة ، والأخبارِ الشَّائقةِ التي تخصُّ أبا موسىٰ الأشعريَّ رضي الله عنه بأنَّ رسول الله ﷺ قد استمعَ إلى قراءته ، واستمتَعَ بها أكثرَ من مرّة ، وشهدَ له بأنَّهُ مؤمنٌ منيبٌ مخلِصٌ لله ورسولهِ. فَلْنَشهدْ بعضَ الإشراقاتِ السَّنيّةِ الفوّاحةِ بنفحات الطِّيب الشّذية.

* حدَّثَ الصَّحابيُّ الفارسُ بُريدةُ بنُ الحصيب الأسلمي[2] رضي الله عنه عن طِيْبِ صوتِ أبي مُوسىٰ وجماله «أنَّهُ خرجَ عشاءً ، فلقيَهُ النَّبيُّ ﷺ ، فأخذَ بيده ، فأدخلهُ المسجدَ ، فإذا صوتُ رجلٍ يقرأُ ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «تُراهُ يُرائي»؟ فأَسْكَتَ بريدةُ ، فإذا رجلٌ يدعو ، فقال: «اللهمَّ إنّي أسألكَ بأنّي

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٤٨) والحديث متفق عليه ، وانظر حلية الأولياء (١/ ٢٥٨).
(٢) اقرأ سيرة هذا البطل المقدام والفارس الهمام في موسوعتنا الجميلة «فرسان من عصر النبوة» (١/ ٦٩ ـ ٨٣). حيث فيها كثير من المواقف اللطيفة والآسرة.

أشهدُ أنّكَ أنتَ اللهُ لا إلهَ إلاّ أَنْتَ الأحدُ الصَّمدُ الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد».

فقال النَّبيُّ ﷺ: «والذي نفسي بيده ـ أو قال: والذي نفسُ محمدٍ بيدهِ ـ لقد سألَ اللهُ باسمهِ الأعظم الذي إذا سُئلَ به أعطىٰ ، وإذا دُعيَ به أجاب».

قال: فلمّا كان منَ القابلةِ ـ الليلة القادمة ـ ، خرجَ بُريدةُ عشاءً ، ولقيهُ النَّبيُّ ﷺ فأخذهُ بيدهِ ، فأدخلهُ المسجدَ ، فإذا صوتُ الرجلِ يقرأُ ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لا بَلْ مؤمنٌ منيبٌ ، لا ، بل مؤمنٌ منيب»؛ فإذا الأشعريُّ يقرأُ بصوتٍ في جانبِ المسجدِ ، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الأشعريَّ ـ أو إنَّ عبدَ اللهِ بنَ قيس ـ أُعطيَ مزماراً من مزاميرِ داود».

فقلتُ: ألا أخبرُهُ يا رسول الله؟

قال: «بلى فأَخبِرْهُ».

فأخبرتُهُ ، فقال: أَنتَ لي صديقٌ ، أخبرتَني عن رسول الله ﷺ بحديثٍ»[1].

* وذاتَ مرّةٍ شاركَتْ أمُّنا عائشةُ بنتُ أبي بكر رضي اللهُ عنهما رسول الله ﷺ الاستمتاعَ والاستماعَ لِنَداوةِ صوتِ أبي مُوسىٰ رضي الله عنه ، فقد أخرجَ الحاكمُ في «المُستدركِ» عن أبي بُريدةَ بن أبي موسىٰ قال: «مرَّ النَّبيُّ ﷺ بأبي موسىٰ ذاتَ ليلةٍ ومعه عائشةُ ، وأبو موسىٰ يقرأُ ، فقامَا فاستَمعا لقراءَتِهِ ثمَّ مضَيا ، فلمّا أصبحَ أبو مُوسىٰ وأتى النَّبيَّ ﷺ ، قال النَّبيُّ ﷺ: «مررتُ بكَ يا أبا موسىٰ البارحة ، وأنتَ تقرأُ فاستمعنَا لقراءَتِكَ».

فقال أبو موسى: يا نبيّ اللهِ ، لو علمتُ بمكانكَ لحبّرتُ لك تحبيراً»[2].

---

(١) انظر مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ٢٣٩) ، والحديث أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٩) ، ومسلم برقم (٧٩٣) ، وأبو داود مختصراً برقم (١٤٩٣) ، والتّرمذي برقم (٣٤٧١) ، والنّسائي (٢/ ٥٢) ، وابن ماجه برقم (٣٨٥٧) ، والحاكم (١/ ٥٠٤) ، والهيثمي في المجمع (٩/ ٣٥٩ و٣٦٠).

(٢) المستدرك (٣/ ٤٦٦) ، رواه أبو يعلى ، وانظر: مجمع الزوائد (٩/ ٣٥٩ و٣٦٠) ، =

* قال ابنُ كثير رحمه الله «والغرضُ أنَّ أبا مُوسى رضي اللهُ عنه قال: لو أَعْلَمُ أنَّكَ تستمعُ لحبّرتُه لك تحبيراً ، فدلّ على جوازِ تعاطي ذلكَ وتكلُّفِهِ ، وقد كان أبو مُوسىٰ قد أُعطيَ صوتاً حسَناً مع خشيةٍ تامّةٍ ، ورقّةِ أهلِ اليمنِ الموصوفةِ ، فدلّ على أنَّ هذا من الأمورِ الشَّرعيّةِ»(١).

* وكان الصَّحابةُ الكرامُ ، وأمّهاتُ المؤمنين رضي اللهُ عنهم أجمعين يستمعون إلى جمالِ صوتِ أبي موسىٰ وعذوبتهِ ، ويستهويهم حُسْنُ أدائِهِ وجمال ترتيلهِ.

* أخرجَ ابنُ سعد رحمه الله في «طبقاته» عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه: «أنَّ أبا موسى الأشعريّ رضي الله عنه قام ليلةً يصلي ، فسمعَ أزواجُ النَّبيِّ ﷺ صوتَه ـ وكان حُلو الصَّوت ـ ، فقمنَ يستمعْنَ ، فلما أصبحَ قيل له:

= وسير أعلام النّبلاء (٢/ ٣٨٧). و«التّحبير»: التّحسين؛ والمقصود هنا تحسين الصّوت وتحزينه ليكونَ تأثيرهُ في النّفوسِ أعظم ، ولو علمَ أبو موسىٰ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يسمعه لمدَّ في قراءته ورتّلها ، كما كان يقرأ على النبي ﷺ ، فيكون ذلكَ زيادة في حُسْن صوتهِ بالقُرآنِ الكريم ، ويتوافقُ مع هذا ما روىٰ عبد اللهِ بن الزبير رضي اللهُ عنهما قال: «ما أدركتُ رجلاً من المهاجرين إلاّ وسمعته يترنم بالقرآن».

(١) كان صوتُ نبيّنا وحبيبنا وسيّدنا رسول الله ﷺ جميلاً حسَناً آسِراً للقُلوبِ ، مؤثّراً في النّفوسِ على اختلافِ مشاربها.
ذكر جُبيرُ بنُ مطعم رضي اللهُ عنه قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأُ في المغرب بالطُّور، فما سمعتُ أحداً أحسنَ صوتاً ـ أو قال: قراءةً منه ـ» (رواه البخاري ومسلم). وفي بعض ألفاظه: «فلمّا سمعتُه قرأ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] ، خلتُ أنَّ فؤادي قد انصدعَ».
وكان جبير بن مطعم ـ لما سمعَ هذا القُرآنَ ـ لا يزالُ بعد مُشركاً على دينِ قومهِ قريشٍ وإنّما قدمَ بعدَ غزاةِ بدرٍ في فداءِ الأسرى ، فأثّرت فيه قراءة النّبي ﷺ وناهيك بمن تؤثر قراءتُه بالمشرك ، فكيفَ بمن عَمَر وعمَّرَ الإيمانُ قلبه وروحه؟
وأعتقد أنَّ سماعَ جبير بنِ مطعم للقُرآن الكريم من فمِ النّبي ﷺ كان من الأسبابِ القويةِ التي دعتهُ إلى دخولِ الإسلام ، وإلى شهادةِ التوحيد ، فرضي اللهُ عنه وأرضاهُ.

إنَّ النّساءَ كُنَّ يستمعنَ. فقال: لو علمتُ لحبرتكنَّ تحبيراً، ولشوقتُكُنَّ تشويقاً»[1].

* وظلَّتْ هذه المزيةُ علامةً أشعرية ميمونة في حياة هذا القارئ رضي الله عنه فكان أعلامُ الصَّحابةِ وعلماؤُهم يطلبونَ منه أنْ يتلوَ عليهم آياتِ اللهِ، وما نزلَ من الحقّ فيأخذ في القراءةِ حتى يأخذَ بمجامعِ قلوبهم، فتهفو نحو القرآنِ.

* فقد جاء في المصادرِ أنَّ سيّدنا عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه كان إذا جلسَ عنده أبو موسىٰ الأشعريّ رضوان اللهِ عليه ربّما قال له: «ذكّرْنا يا أبا موسىٰ»؛ فيقرأُ، ويتلاحَنُ.

* وكان أبو موسىٰ رضي الله عنه يقرأُ بينَ يدي عثمانَ بنِ عفان رضي اللهُ عنه في غيرِ صَلاة.

* وكانَ أبو مُوسىٰ إذا قرأَ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] قال: يعني: الجَهْل، ويبكي؛ إذا قرأَ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠] بكى»[2].

* وكان كثيرٌ من أعلامِ الفقهِ والعِلْم والأدبِ في عصرِ أبي مُوسىٰ يودُّونَ لو يطيلُ الصَّلاةَ عندما يكونُ إماماً في الصَّلاةِ. قال أبو عثمان النَّهديّ رحمه الله:

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ١٠٨).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٤/ ١٠٩)، ومختصر تاريخ دمشق (١٣/ ٢٤٩)، وحلية الأولياء (١/ ٢٥٨)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٩١ و٣٩٣) مع الجمع والتصرف.

أقول: «إن القلبَ حينما يتّصلُ بخالقه يشعرُ أنّه الاتصالُ بالوجودِ كلّه، وينبضُ قلبُ الوجودِ معه، وفي لحظاتِ الإشراقِ تحسُّ الرُّوحُ باندماجِها في الكلّ.

فهذا أبو موسىٰ رضي الله عنه عندما يقرأُ القرآنَ الكريم تهيمُ روحهُ في معانيه، وتنسجمُ نفسُه في مثانيه، فإذا به يستشعرُ عظمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ في القراءةِ، ويأخذُ في تحسينِ القراءةِ، فيحسّ بتجاوب مَنْ يسمعهُ معه، بل ربّما تسمعه الجماداتُ مع الأحياء، فإذا بالكونِ كلّهُ يسبّحُ بجلالِ اللهِ وبحمدهِ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]»..

«ما سمعتُ مِزْماراً ولا طنبوراً ولا صَنْجاً أحسنَ من صوتِ أبي مُوسىٰ الأشعريّ رضي الله عنه إن كان ليُصلّي بنا ، فنودُّ أنَّهُ قرأَ البقرة ، من حسن صوته»[1] .

* وهكذا رأينا انسجام أبي مُوسىٰ الأشعريّ مع القُرآنِ ، وحياته معه في الغدو والآصال ، وفي كُلّ وقتٍ ، وفي كلّ مكان ، وكلّ حال ، حتّى أصبحَ القُرآنُ شغلَهُ الذي يتفكّهُ به ، كما سنقرأُ في الفقرة الآتية .

حُبُّـهُ وإخلاصُـه لِلْقُـرآنِ :

* منذ أنْ حَطَّ الأشعَريّونَ رحالَهُمْ في المدينةِ المنورةِ حظُوا بمكانةٍ لائقةٍ بينَ أصحابِ رسول الله ﷺ ، لأنَّهم كانُوا يتمتّعُونَ بِسَرائرَ صافيةٍ ، وقلوبٍ نقيّةٍ ، وعكفُوا على حبِّ القُرآنِ العظيمِ يدرسونَهُ ويقرؤونَهُ حينَ يصبحُونَ ، وحين يظهرون ، وعشيّاً وحينَ يُمْسُون ، ويتعبّدون بتلاوتهِ في جوفِ الليل ، حتى إنّ سيّدنا وحبيبَنا محمّداً ﷺ قد عرفَ أماكِنَهُم دونَ أَنْ يراها من قبلُ ، لأنَّ أصواتَهم النّديّة الشَّجيَّة المُؤثّرةَ والآسرةَ كانت تنبعثُ من بيوتهم بالقُرآنِ الكريم ، وتندّي الكونَ من طلاوتها بعذوبةِ آياتهِ التي تنبعثُ من أفواههم ، وتصافحُ أسماعَ رسول الله ﷺ وأصحابهِ الكرام رضوانُ اللهِ عليهم .

* وقد عبَّرَ الحبيبُ الأعظمُ سيدنا رسول الله ﷺ عن حبِّ هؤلاءِ الأشعريّين المخلصين لكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ وأشارَ إلى أنَّهُ يعرفُ محلّتهم من نغماتِ القرآنِ التي يصدحُونَ بها في الليلِ ؛ فقال فيما جاء في الصَّحيح عن أبي موسىٰ أنَّ رسول الله ﷺ قال : «إنّي لأعرفُ أصواتَ رُفْقَةِ الأشعريّين بالقُرآن ، حين يدخلونَ بالليلِ ، وأعرفُ منازلَهم من أصواتِهِ بالقُرآنِ بالليلِ ، وإنْ كنتُ لَمْ أَرَ منازلَهم حين نَزلُوا بالنهار»[2] .

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٩٢) ويريد : أنّهُ يودُّ لو يقرأُ سورة البقرة كاملة كي يستمعَ ويستمتعَ بصوته ويطول الوقت مع الصلاة ومع القرآن الكريم.

(٢) متفق عليه ، فقد أخرجهُ البخاري في المغازي (٦٠٧/٢) ، ومسلم في الفضائل برقم (٢٤٩٩). ومعنى «الرّفقة» : الجماعة ترافقهم في سَفَرِكَ وهي بضمّ الراء وكسرها أيضاً =

* إنَّ أبا مُوسى الأشعري رضي اللهُ عنه من الأشعريّين العُبّاد الأصفياء ، وهؤلاء خصَّهُم النَّبيُّ ﷺ بِمَكْرُمَةٍ أخرى رفعتْهُمْ إلى الجَوزاءِ ، بل أعلى من الجوزاءِ ، وجعلتهم في مكانةٍ ساميةٍ لا يتصدَّرُها إلا أهلّ التّقوىٰ ، وإلاّ المخلصونَ الخُلصاءَ ، فقد وصفهمُ النَّبيُّ ﷺ برقّةِ القَلْبِ ، وأشارَ إلى أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يحبُّهم ويحبّونَهُ.

* عن عياض الأشعريّ قال: «لما نزلت ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] قال رسول الله ﷺ: «هم قومُكَ يا أبا موسى» ، وأومأَ إليه[1].

* وفي موقفٍ آخر يُشيرُ النَّبيُّ ﷺ إلى مناقبِ الأشعريّين ، وأنَّهم منه ، لأنَّهم يُؤْثِرُونَ على أنفسهم ، ويواسُون بعضَهم فقال: «إِنَّ الأشعريينَ إذا أرملُوا في الغزوِ ، أو قلّ طعامُهُمْ جمعُوا ما كانَ عندهُمْ في ثوبٍ واحدٍ ، ثمَّ اقتسمُوا بينهم في إناءٍ واحدٍ بالسّوية ، فهم منّي وأنا منهم»[2].

= (مختار الصحاح) وفي الحديث فائدةٌ ذكرها ابن حجر في فتح الباري فقال: «وفيهِ أنّ رفعَ الصَّوتِ بالقُرآنِ بالليل مستحسنٌ ، لكن محلّه إذا لم يؤذ أحداً وأمنَ من الرياء».
وما أجملَ أن نوردَ قولَ عبدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه في أهلِ القُرآنِ حيث قال: «ينبغي لحاملِ القُرآنِ أن يُعرفَ بليله إذا النّاسُ نائمون ، وبنهاره إذا النّاسُ يفطرون ، وبحزنه إذا النّاسُ يفرحون ، وببكائه إذا النّاسُ يضحكون ، وبصمتهِ إذا الناسُ يخلطون. وبخشوعهِ إذا النّاسُ يختالون. وينبغي لحامل القرآنِ أن يكونَ باكياً محزوناً حكيماً حليماً عليماً سكّيتاً ، وينبغي لحاملِ القُرآنِ أن لا يكونَ جافياً ، ولا غافلاً ، ولا صخاباً ، ولا صيّاحاً ، ولا حديداً» (تهذيب حلية الأولياء (١/ ١١٨).

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٨٤) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ٢٣٧) ، وطبقات ابن سعد (٤/ ١٠٧) ، والمستدرك (٢/ ٣١٣).

(٢) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في الشّركة برقم (٢٤٨٦) ، ومسلم في فضائل الصحابة برقم (٢٥٠٠) ، وانظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ٢٤٠).
ومعنى «أرملوا»: فَنِيَ زادهم. والمُرمل: الذي لا زاد معه: سُمّي بذلكَ لأحدِ شيئين: إمّا لرقة حاله.
وإمّا للصوقهِ بالرَّمل من فَقْرِه.
والأرملُ مثل المرمل ، قال جريرُ من قصيدة طويلة:
هـذي الأرامـلُ قـد قضَّيـتَ حـاجتَهـا   فَمَـنْ لحـاجةِ هـذا الأرمـل الـذّكَـر ؟!=

* إنَّ الحبَّ والرضا المتبادل هو الصّلَةُ بينَ هؤلاءِ المؤمنين ـ وبينَ المؤمنين جميعاً ـ وبين ربّهم ، هذا الحبُّ اللطيفُ هو الذي يربطُ القومَ بربّهم الغفور الودود.

* إنَّ حُبَّ اللهِ عزَّ وجلَّ لعبدٍ من عبيدهِ ، أمرٌ لا يقدرُ على إدراكِ قِيْمَتِهِ إلاّ مَنْ يَعْرِفُ اللهَ عزَّ وجل بصفاتِهِ كما وصَفَ نفسه.

* وحبُّ العبدِ لربّهِ نعمةٌ لا يدركُها إلاّ من ذاقَها ، وإذا كان حبُّ اللهِ لعبدٍ من عبيدهِ أمراً هائلاً عظيماً ، وفضلاً غامراً جسيماً ، فإنَّ إنعامَ اللهِ على العبدِ بهدايتهِ لحبِّهِ ، وتعريفهِ هذا المذاقَ العذب الذي لا نظيرَ لهُ ، ولا شبيهَ له ، هو إنعامٌ عظيمٌ ، وفضْلٌ غامرٌ جزيلٌ.

* ولقد أدركَ سيّدنا أبو مُوسىٰ الأشعري رضي اللهُ عنه هذا المبدأَ النَّاصع ، مبدأ الحُبِّ بين العبدِ والرَّبِّ ، فسار في الدَّربِ الموصلِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، فكانَ القُرآنَ الكريمُ ربيعَ قلبهِ ، وأنيسَ نفسهِ ، وروحَ ريحانِهِ وأُنْسِهِ ، امتزجَ بكيانِهِ ، فإذا بهِ قد نذرَ نفسهُ للقُرآنِ ، ولتعليمِ آياتِ اللهِ طلباً لمرضاتهِ سبحانه وتعالى ، وحبّاً في ديمومةِ آصرةِ الودّ بينه وبينَ خالقهِ ، ولله درُّ مَنْ قالَ:

فَليتَكَ تَحْلُو والحَياةُ مَريْرَةٌ ... وَلَيْتَكَ تَرضَىٰ والأَنَامُ غِضَابُ
ولَيْتَ الذي بَيْنِي وَبينكَ عامِرٌ ... وَبَيْني وبينَ العالَمِينَ خَرابُ

= وقوله ﷺ: «هم منّي وأنا منهم» قال الإمام النّووي في شرحِ مسلم (٥/ ٣٣٥): «معناهُ المبالغةُ في اتّحاد طريقتهما ، واتفاقهما في طاعةِ اللهِ تعالى».
وهذه مزيةٌ ـ وأكرمْ بها من مزية! ـ لهؤلاء الأشعريّين الذين تلاشوا في حبِّ اللهِ فجعلوه واقعاً يتمثلون به عملياً في حياتِهم فهم ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] ، وهم هُمو ممن ينطبق عليهم قول الله عز وجل: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].
فبالتضحيةِ والمواساةِ والإيثار في حبّ كل منهم لأخيهِ ما يحبُّ لنفسه كانوا خير أمة أُخرجتْ للنّاس ، وعندما أصبحَ خُلُقُهم القُرآن ، اتحدتْ طريقتُهم مع طريقةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، واتفقت طاعتهم لاتّحادِ الغايةِ التي حضّنا عليها القرآن.

إذا صَحَّ مِنْكَ الودُّ يا غايَةَ المُنىٰ   فكُلُّ الَّذي فَوقَ التُّرابِ تُرابُ[1]

* وأخذَ أبو مُوسىٰ رضي الله عنه يرتعُ في رياضِ القُرآنِ الكريمِ ، ويعلّمُه النَّاسَ، فقد عَلِمَ من رسول الله ﷺ أنَّه قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تعلَّمَ القُرآنَ وَعَلَمَهُ»[2].

* وقد تعلّمَ أبو مُوسىٰ رضي الله عنه أنَّ تعليمَ القُرآنِ الكريمِ أشرفُ الأمورِ ، وأفضلُ الأعمال ، لأنَّ فيهِ الإعانَة على فَهْمِ الدِّينِ ، والسَّير على نَهجِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وعرفَ أبو موسىٰ أيضاً أنَّ تعليمَ القُرآنِ الكريم دلالةٌ على الخيرِ، فَمَنْ علَّمَ القُرآنَ للنَّاسِ فَلَهُ مثلُ ثوابهِ ، وفي هذا يقولُ رسول الله ﷺ: «الدَّالُّ على الخيرِ كَفَاعِلِه»[3].

* وكان أبو مُوسى رضي اللهُ عنه يحضُّ أهلَ المعرفةِ على سلوكِ طريق العلمِ ونهجه ، والتّعلُّمِ والتَّعليمِ والإقراءِ ، وكان يخطبُ على منبرهِ وهو يقولُ: «مَنْ علّمهُ اللهُ عِلْماً فَلْيُعَلِّمْهُ ، ولا يقولنَّ ما ليسَ لهُ بهِ عِلمٌ ، فيكونَ من المتكلِّفين ، ويَمْرُقَ منَ الدِّين»[4].

* وعلى هذا النَّهجِ سارَ أبو موسىٰ الأشعريّ يعلِّمُ الناسَ ، ويُرشدُهم إلى

---

(١) خمَّسَ أحدُ الأُدباءِ هذه الأبيات تخميساً جميلاً وأجاد في هذا الفَنّ فقال:

رَمتْنِي بِسَهْمِ الحُبِّ عَينٌ قَريرةٌ   يَدي عَنْ مَآتيها الحِسَانِ قَصيرةٌ
وقَدْ قيلَ لي إنَّ الغرامَ سريرةٌ   [فليتكَ تحلو والحياةُ مريرةً
وليتكَ ترضى والأنامُ غِضابُ]
وأَنْتَ بحبّاتِ القُلوبِ مُقَامِرُ   وما أَنتَ بالوجدِ المبرحِ شاعرُ
فليتكَ تدري ما تُكِنُّ الضّمائرُ   [وليتَ الذي بيني وبينكَ عامِرُ
وبيني وبينَ العالمين خرابُ]
وربَّ فؤادٍ عاشَ وقْفاً على الضّنى   فإنْ أنتَ لم ترحمْ فما أنا راحمُ
لعلَّ الرضا بالظُّلمِ يجمعُ بيننا   [إذا صحَّ منكَ الودّ يا غايةَ المنى
فكلُّ الذي فوقَ التُّرابِ تُراب]

(٢) أخرجهُ البخاري في فضائل القرآن برقم (٥٠٢٧).

(٣) رواه الطبراني.

(٤) طبقات ابن سعد (٤/١٠٩ و١١٠).

سلوكِ الهدي النَّبويّ ، ويعلّمهم كيف يرتقونَ إلى مصَافّ الأصفياء الخُلصاءِ، ويعلّمهم كيفَ يقتفونَ أثرَ منازلِ السَّائرين إلى مرضاةِ ربِّ العالمين.

* روىٰ الإمام أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمه الله أنَّ أبا موسىٰ الأشعريّ رضي اللهُ عنه سمعَ مرّةً رَجُلاً يتكلّمُ في الصَّلاةِ ، فلمّا قَضَىٰ صلاتَه ، أقبلَ على القومِ فقال: «ألا تعلمون ما تقولون في صلاتكم؟ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ خَطَبَنا فعلَّمَنا سُنَّتَنا ، وبيَّنَ لنا صَلاَتَنَا ، فقال: «أقيموا صفوفكم ، ثمّ لِيَؤمَّكُمْ أقرؤُكم ، فإذا كبَّرَ فكبّروا ، وإذا قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين ، يحببكُم الله ، ثمّ إذا كبَّرَ الإمامُ وركعَ فكبّروا واركعُوا ، فإنَّ الإمامَ يركعُ قبلَكم ، ويرفَعُ قبلكُم»؛ قال نبيُّ اللهِ ﷺ: «فتلكَ بتلكَ ، فإذا قال: سمعَ اللهُ لِمَنْ حَمِده ، فقولوا: اللَّهُمّ ربّنا لك الحمدُ ، يسمعُ اللهُ لكم فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال على لسانِ نبيّهِ ﷺ: سمعَ اللهُ لمن حمده ، وإذا كبَّرَ الإمامُ وسجدَ ، فكبّرَوا واسجدوا ، فإنَّ الإمامَ يسجدُ قبلكم ويرفعُ قبلكم ، وقال نبيُّ اللهِ ﷺ: «فتلكَ بتِلك» ، فإذا كان عند القَعْدةِ فَليكنْ من أوّلِ قولِ أَحدكم أن يقولَ: التّحيّاتُ الطَّيِّباتُ الصَّلواتُ للهِ ، السَّلامُ عليكَ أيُّها النَّبيُّ ورحمةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ ، السَّلامُ علينا وَعَلى عِبادِ اللهِ الصَّالحين ، أشهدُ أَنْ لا إله إلاّ الله وأشهدُ أَنَّ مُحمّداً عبده ورسوله»(١).

* وفي البصرةِ بالعراقِ كان لأبي مُوسى رضي الله عنه مواقفُ رائعةٌ مع طلابِ القُرآنِ وأهلِ المعرفةِ ، فلقد أرسلهُ عمرُ بنُ الخطاب رضي اللهُ عنه إلى البصرةِ(٢) فأحسَنَ هنالك التّعليم ، وكان خيرَ قادمٍ عليها؛ قال الحسنُ

---

(١) المسند (٤/٤٠٩) ، وأخرجهُ مسلم في الصّلاة برقم (٤٠٤) ، والنّسائي في الإمامة (٢/٩٦ و٩٧) ، وابن ماجه في الإمامة برقم (٨٤٧ و٩٠١) ، وأبو داود في الصّلاة برقم (٩٧٢ و٩٧٣) ، وابن حبّان برقم (١٥٨٤) ، وعبد الرزاق برقم (٣٠٦٥) ، والطّيالسي برقم (٦٣٧).

(٢) قال أبو موسىٰ الأشعريّ رضي اللهُ عنه لأهلِ العراقِ بالبصرةِ: «إنَّ أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم بكتاب ربّكم ، وسنّة نبيّكم ، وأنظف لكم طرقكم. (مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ٢٤٤).

البَصري رحمه الله: «ما قدمَها راكبٌ خيرٌ لأهلِها من أبي مُوسى[١]، لقد علّمهم كتابَ ربِّهم وسُنَّةَ نبيّهم»[١].

* وكان أبو موسى رضوان الله عليه إذا صلّى الصُّبحَ في البَصْرَةِ، استقبلَ الصُّفوفَ رجُلاً رُجلاً، يقرئهم القُرآن، ويعلّمهم الأحكام؛ وكان سيّدنا عمرُ بنُ الخطاب رضوان الله عليه يتفقّدُ عُمَّالَه في مقرّ أعمالهم، يتبادلُ معهم مصلحة المسلمين، ويرشدهُم للأفضل، ويثني عليهم، وخُصوصاً في مجال تعليم القرآن الكريم وخدمته.

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بعثني الأشعريّ إلى عمرَ رضي الله عنه، فقال عمر: كيف تركْتَ الأشعريّ؟ فقلت له: تركتُه يُعلِّمُ النّاس القرآن.

فقال: «أَمَا إنّه كَيِّسٌ، ولا تُسْمعهَا إيّاه»[٢].

* وفي البصرةِ كان أبو مُوسى رضي الله عنه يعقدُ حَلقاتِ العِلْم، ويتفقّدُ الحُفّاظَ في حِلَقِ العِلْمِ طلَباً للمثوبةِ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فكان يطوفُ في مسجد البَصْرة علىٰ حلَقَاتِ الحفّاظ يستمعُ ويسمعُ، ويعلِّمُ القرآنَ لمحبّي القرآن.

* حدَّثَ أبو رجاء العَطَارديّ عن هذا، فقال: «كان أبو موسى الأشعريّ رضي الله عنه يطوفُ علينا في هذا المسجد، مسجد البصرة، يقعدُ في حلقتِنا يُقرئني القُرآن الكريم، ومنه أخذتُ هذه السورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، فكانت أوّل سورةٍ أُنزلَتْ على محمدٍ رسول الله ﷺ»[٣].

* وفي مدةٍ يسيرة منَ الزَّمنِ قرَّتْ عينا أبي موسى برؤيةِ رعيلٍ من القرَّاء الحفَّاظ لكتابِ الله عزَّ وجلَّ زادوا عن ثلاث مئة حافظٍ متقنٍ محبّ لكتاب الله

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٨٩)، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ٢٤٣) مع الجمع والتصرف.

(٢) حياة الصحابة (٣/ ٢٢٤) نقلاً عن طبقات ابن سعد (٤/ ١٦٢)، ومعنى «كيّس» عاقِل فَطِن.

(٣) حلية الأولياء (١/ ٢٥٦ و٢٥٧) بتصرف يسير.

عزّ وجلّ ، ويبدو أنَّ خبرَ هؤلاء الحفّاظ قد نُميَ إلى عمر بنِ الخطّاب رضوان الله عليه ، فأحبَّ أنْ يعمرَ بهم البلاد ، هنالك كتبَ عمرُ إلى أمراءِ الأجناد: «أن ارفعُوا إليَّ كلّ مَنْ حملَ القُرآن حتّى أُلْحقهم في الشَّرفِ من العطاءِ ، وأُرسلهم في الآفاق يعلّمون النّاس».

* فكان ممن كتبَ إليهِ بذلك أبو موسى الأشعري ، وأعْلَمهُ بحصيلة جهودِهِ العلْمية ، وثمارِه التي آتتْ أُكلَها ، وقال: «إنَّه بلغَ من قبلي ممن حملَ القُرآن العظيمَ ، وحفظه ثلاث مئةٍ وبضعَ رجال»[1].

* سُرَّ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه لهذهِ الأنباءِ المونقة التي تجعلُ المرءَ يرتقي الجوزاء ، فإذا كان في البصرة وحدهَا أكثرُ من ثلاث مئةِ حافظ ، فما ظنُّكَ ببقيةِ الأمصار؟! وأعتقد أنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه قد خرَّ ساجداً لله ، شاكراً لأنعُمهِ ، حامداً لأفْضَالهِ الحِسان ، في مثلِ هؤلاء الحفّاظ من جنودِ الرّحمن ؛ وما كان منه إلا كتبَ رسالةً تحملُ أجملَ المواعظ لأولئك القُرّاء الذين حملُوا القرآن العظيم في صدورهم ، وهفتْ نحوه قلوبُهم ، وأسرتْ معانيه عقولَهم ، فكان قرنُهم من خيرِ القرونِ كما شهدَ لهم بذلك الصَّادق المصدوق سيّدنا محمّد ﷺ.

* وسنقرأُ سوياً موعظةَ سيّدنا عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه لقراءِ القرآن الكريم ، ولأستاذهم أبي مُوسى الأشعريّ رضي الله عنه فقد وردَ أنَّ عمر كتبَ إليهم. «بسم الله الرحمنِ الرحيم ، من عبد الله عمرَ إلى عبد الله بن قيس ومَنْ معه من حملةِ القُرآن[2] ، سلامٌ عليكم ، أمّا بعد: فإنَّ هذا القُرآنَ كائنٌ لكم أجْراً ، وكائنٌ لكم شرفاً ، وذخراً ، فاتَّبِعوه ولا يتَّبعنكم ، فإنَّه مَن اتّبعَه القرآنُ زخَّ في قَفَاهُ[3] حتى يقذفَه في النّار ، ومَنْ تبعَ القرآن وردَ بهِ

---

(١) حياة الصّحابة (٣/ ٢٣٣). بشيءٍ من التصرف. ومعنى «قبلي» من عندي.

(٢) «حملة القرآن»: حملة: جمع حامل ، والمراد: حفّاظ القرآن الكريم.

(٣) «زخَّ في قفاه»: أي دفعه ، يعني من جعل القرآن تابعاً لرأيهِ دفعه القرآن ، ورمى به في جهنم.

القرآنُ جنّات الفردوس ، فليكوننَّ لكم شافعاً إن استطعتم ولا يكوننَّ بكم ماحلاً[1] ، فإنَّه مَنْ شفَعَ له القُرآنُ دخلَ الجنَّة ، ومن محلَ به القُرآن دخلَ النَّار ، واعلموا أنَّ هذا القرآنَ ينابيعُ الهدى وزهرةُ العِلْم ، وهو أحدثُ الكتبِ عَهْداً بالرّحمن ، به يفتحُ اللهُ أعيُناً عمياً ، وآذاناً صمّاً ، وقُلوباً غلفاً[2] ، واعلموا أنَّ العبدَ إذا قامَ منَ الليل فَتَسوّك وتوَضّأ ثمَّ كبّر وقرأَ وضعَ الملَكُ فاهُ على فيهِ ويقول: اتْلُ اتْلُ ، فقد طبتَ وطابَ لك ، وإنْ توضّأَ ولم يسْتَكْ حَفِظَ عليه ولم يعدْ ذلك ، ألا وإنَّ قراءةَ القُرآن مع الصّلاة كنزٌ مكنونٌ وخيرٌ موضوعٌ ، فاستكثروا منه ما استطعتم ، فإنَّ الصَّلاَةَ نورٌ ، والزكاةَ برهانٌ ، والصَّبرَ ضياءٌ ، والصّوم جُنّةٌ ، والقرآن حجةٌ لكم أو عليكم ، فأكرموا القرآنَ ولا تهينوه ، فإنَّ الله مُكرِمُ مَنْ أكرمه ، ومُهينُ مَنْ أهانه ، وأعلمُوا أنَّه مَنْ تلاه وحفِظَه وعملَ به واتّبَع ما فيه ، كانت له عند اللهِ دعوةٌ مستجابةٌ ، إنْ شاءَ الله عجَّلها له في دُنياه ، وإلاّ كانت له ذخراً في الآخرة ، واعلموا أنَّ ما عند اللهِ خيرٌ وأبقى للذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكّلُون»[3] .

* كان لأبي مُوسى الأشعريّ رضوان الله عليه إرشاداتٌ ونصائحُ لحفّاظ القُرآنِ الكريم ، حذا فيها حذوَ عبقري علماءِ الصَّحابة سيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من ذلك أنَّه جمعَ الذين قرؤوا القرآنَ ، فإذا هم قريبٌ منْ ثلاث مئة قارىءٍ حافظٍ ، فعظَّمَ القرآنَ الكريم ، وذكرَ شأْنَه ، وعظهم ثمَّ قال: «إنَّ هذا القرآنَ كائنٌ كلم أجراً ، وكائنٌ عليكم وزْراً ، فاتّبعوا القُرآن ، ولا يتبعنّكم القرآن ، فإنَّه مَنْ اتّبعَ القرآنَ هبطَ بهِ على رياضِ الجنَّةِ ، ومَنْ تبعه القرآن زخَّ في قَفَاه ، فقذفَه في النَّارِ»[4] .

* وكان أبو موسى يُوصي أصحابَهُ وتلامذتَه بتعاهد القُرآن العظيم ، لتظلَّ

---

(١) «ماحلاً» خصماً مجادلاً .

(٢) «غلفاً» : مغشاة مغطاة .

(٣) حياة الصّحابة (٣/ ٢٣٣ و٢٣٤) .

(٤) حلية الأولياء (١/ ٢٥٧) بشيء من التصرف . وانظر : فضائل القُرآن لابن سلام ص ٨١ و٨٢ .

قلوبُهم مطمئنةً نديةً بذكرِ الله عزَّ وجلَّ ، وإلاّ فإنّها تقسو كما قسَتْ قلوبُ أهلِ الكتاب[1] .

* وظلَّ أبو مُوسى رضي الله عنه يعلِّمُ القرآنَ حتّى تخرجَ في مدرستهِ الأشعريّة المباركةِ مئاتُ الحفّاظِ ممَّنْ ملؤُوا الدنيا بعلمهم ، وعطّروا الأسماعَ بتلاواتهم ، وزيّنوا جيْدَ الزَّمان بمآثرِهم وفضائلهم. . :

أُولئِـكَ آبَـائِـي فَجِئْنـي بِمِثْلِهِـمْ إذا جَمَعَتْنَـا يَـا جَـرِيْـرُ المَجَـامِـعُ

* إنَّ الحديثَ عن حبِّ سيِّدنا أبي مُوسى للقُرآن الكريمِ ، وتعليمه له ، يطولُ ويطولُ ، ولكنّه ممتعٌ وشائقٌ وجميلٌ ، يضفي الوقارَ على الهيئاتِ ، ويغرسُ الفضائل في النُّفوس ، ويَصِلُ المؤمنَ بخالقِهِ ، ويوصلُ المسلم إلى جنَّات النَّعيم ، بذكر أولئك العلُماء الأطهارِ الأخيارِ الأبرار الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه. .

مرويّـاتُـه الحديثيّـة :

* عرفنا أنَّ أبا مُوسى الأشعريَّ رضي الله عنه ممن أَخذ القرآن الكريمَ عن النَّبيِّ ﷺ ، وعلمْنَا أنَّه أَقْرَأَ أَهْلَ البصرة ، وفقَّهَهُم في الدّين ، وله آثارٌ كريمةٌ في خدمةِ القرآنِ الكريم وعلومه وقراءتِهِ.

* لكنَّ أبا مُوسى رضوان الله عليه قد اتَّجه أيضاً إلى تعلُّمِ السُّنَّةِ المطهرةِ ، ومن ثمَّ تعليمها للنَّاس ، وهو واحدٌ من أصحاب رسول الله ﷺ الذين وعوا أحاديثَه ، واختزنُوها في صدورهم ، لينقلوهَا إلى النَّاس الذين يسألونَ عن الأحاديثِ النّبويّةِ ، والآثارِ المُحمّديّة.

* وكانت حصيلةُ أبي موسى الحديثيّة غنيّةً مباركةً فهو من أصحاب المئات وشيء ، إذ روىٰ عن النّبيّ ﷺ ، وعن الخلفاء الراشدين أبي بكر الصّديق وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ ، ومعاذ بن جبل ، وعبد الله بن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ، وعمّارِ بن ياسر رضوان الله عليهم أجمعين.

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٥٧).

* بلغَ عددُ الأحاديث التي رواها أبو موسى (٣٦٠ حديثاً). جاء له في الصَّحيحين منها (٤٩ حديثاً)، تفرَّد البخاريُّ بأربعةِ أحاديث، ومسلم بخمسة عشرَ حديثاً، وكان إماماً ربانياً[١].

* روى عنه ثلّةٌ من علماءِ الصَّحابة وأعيانهم من مثلِ: أنسُ بن مالك، أبو سعيد الخُدريّ، وأبو أمامة الباهليّ، وبريدةُ بنُ الحصيب، وطارقُ بنُ شهاب رضي الله عنهم.

* وروى عنه عدد من علماء التّابعين وزهّادهم من مثل: سعيدُ بنُ المسيّب، والأسودُ بنُ يزيد، وزيدُ بنُ وهب، ورِبعيُّ بن حِراش، وزرُّ بنُ حَبيش، وأبو عثمان النّهديّ، وأبو عبد الرّحمن السُّلميّ، وآخرون[٢].

* كما روىٰ عنه أولادُه: مُوسى، وإبراهيمُ، وأبو بُردةَ، وأبو بكر، وامرأتُه أمُّ عبد الله[٣].

* ومن مروياتهِ في فضائل القرآن الحديث المشهور الذي أخرجه الإمامُ البخاريُّ بسندِهِ عن قتادةَ عن أنسِ بنِ مالك عن أبي مُوسى عن النَّبي ﷺ قال: «المؤمنُ الذي يقرأ القرآنَ، ويعملُ به كالأترجَّةِ، طعمُها طيِّبٌ، وريحُها طيّبٌ، والمؤمنُ الذي لا يقرأُ القرآنَ، ويعملُ به كالتَّمرة، طعمُها طيّبٌ ولا ريحَ لها، ومثَلُ المنافق الذي يقرأُ القرآنَ كالرّيحانة، ريحُها طيِّبٌ وطعمُها مرٌّ، ومثَلُ المافِقِ الذي لا يقرأُ القرآنَ كالحنظلةِ طعمُها مرٌّ ـ أو خبيثٌ ـ وريحُها مرٌّ»[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٩٩ و٤٠٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٨١)، والإصابة (٢/ ٣٥١) مع الجمع والتصرف.
(٣) الإصابة (٢/ ٣٥١).
(٤) هذا حديثٌ شهير من الأحاديث التي جاءت في الصّحيح والسُّنن والمسانيد، فقد أخرجَهُ البخاريُّ بهذا اللفظ في فضائل القرآن برقم (٥٠٥٩)، وفي الأطعمة برقم (٥٤٢٧)، وفي التّوحيد برقم (٧٥٦٠)، وأخرجه كذلك برقم (٥٠٥٩)؛ وأخرجه مسلم في صلاةِ المسافرين برقم (٧٩٧)، والتّرمذي في الأمثال برقم (٢٨٧٩)، وأحمد (٤/ ٤٠٣ و٤٠٤ و٣٩٧ و٤٠٨)، والنّسائي في الإيمان (٨/ ١٢٤ و١٢٥)، وابن ماجه في المقدمة (٢١٤)، وابن حبان برقم (١٢١). =

* وأخرجَ الشَّيخان عن أبي مُوسى رضي الله عنه عن النَّبيّ ﷺ أنّه كان يدعو بهذا الدُّعاء: «ربِّ اغفر لي خطيئَتي وجَهْلي، وإسرافي في أمْري كُلّه، وما أنتَ أعلمُ به منّي، اللهمّ اغفرْ لي خطاياي وعمدي وجَهْلي وجدّي وكلّ ذلك عندي؛ اللهم اغفر لي ما قدَّمْتُ وما أخرتُ، وما أسْررت وما أعلنتُ، أنت المقدِّمُ، وأنتَ المؤخّر، وأنتَ على كلّ شيءٍ قدير»[1].

* ومن مروياتِ أبي مُوسى رضي الله عنه في مجالِ التَّوبة ما ورد في الصَّحيح عنه، عن النَّبيّ ﷺ، قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يبسطُ يده بالليل ليتوبَ مسيءُ النَّهار، ويبسُطُ يده بالنَّهار ليتوبَ مسيءُ الليل حتى تطلعَ الشَّمس من مغربِها»[2].

* ومن مروياتِ أبي مُوسى رضي الله عنه فيما جاءَ في فَضْلِ العِلْم والتَّعليم، ما أخرجَهُ البخاريُّ بسنده عن بريد بن عبد الله عن أبي بردةَ عن أبي مُوسى عنِ النّبيّ ﷺ، قال: «مَثَلُ ما بعثَني اللهُ به منَ الهُدىٰ والعلْم كَمثَلِ الغيثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً، فكان منها نقيّةٌ قبلتِ الماءَ فأنبتتِ الكلأ والعشبَ

= وقيل: «خصَّ صفة الإيمان بالطَّعم وصفة التّلاوة بالريح، لأنَّ الإيمان ألزمُ للمؤمن من القرآن، إذ يمكنُ حصولُ الإيمان دون القراءة، وكذلك الطعمُ ألزمُ للجوهر من الريح، فقد يذهبُ ريح الجوهر، ويبقى طعمُه. ثم قيل: الحكمةُ في تخصيص الأترجّة بالتّمثيل دون غيرها منَ الفاكهةِ التي تجمعُ طيبَ الطّعم والريح ـ كالتفاحة ـ لأنّهُ يُتداوى بقشرها ويستخرجُ من حبِّها دهنٌ له منافعُ، فناسبَ أنْ يمثّلَ به القرآن الذي لا تقربه الشّياطين، لأنّ الجنّ لا تقربُ البيتَ الذي فيهِ الأترج، ثمّ إنَّ غلافَ حبّه أبيض مناسب قلْبَ المؤمن» (فتح الباري (٩/ ٦٦ و٦٧) بشيء من الاختصار.
وقال ابنُ بطّال: «إنَّ قراءةَ الفاجر والمنافق لا ترتفعُ إلى الله، ولا تزكو عنده، وإنّما يزكو عنده ما أريد به وجهه، وكان على نيةِ التقربِ إليه، وشبهه بالرّيحانةِ حين لم ينتفع ببركةِ القرآن، ولم يفزْ بحلاوةِ أجره، فلم يجاوز الطيب موضعَ الصّوتِ وهو الحق، ولم يتصل بالقلبِ الذي هو موضع الاعتبار» (فتح الباري (١٣/ ٥٣٦) وفي الحديث فضيلة حاملي القُرآن، وفيه استحباب ضرب المثل للإيضاح والتفهيم، وفيه أنَّ المقصود من تلاوة القرآن العمل بما دلّ عليه.

(١) أخرجهُ البخاري بهذا اللفظ في الدّعوات برقم (٦٣٩٨)، ومسلم برقم (٢٧١٩).
(٢) أخرجه مُسلم برقم (٢٧٥٩)، والنّسائي في السُّنن الكبرى برقم (١١١٨٠).

الكثير ؛ وكانت منها أجادب أمسكتِ الماءَ فنفعَ اللهُ بها النَّاسَ ، فشربُوا ، وسقوا ، وزرعوا ، وأصابتْ منها طائفةً أخرى إنّما هي قيعانٌ لا تمسكُ ماءً ولا تنبتُ كلأً ، فذلك مثل مَنْ فَقِهَ في دِيْنِ الله ونَفَعه ما بعثَني اللهُ به فَعَلِمَ وعلَّم ، ومثل مَنْ لم يرفَعْ بذلك رأساً ولم يقبلْ هدى الله الذي أُرسلْتُ به»[1].

* ومن مروياتِهِ في مضمار الذّكْرِ والدُّعاء ما جاءَ في الصَّحيح عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: « يا عبدَ اللهِ بن قيس ، ألا أدلّك على كنزٍ من كنوزِ الجنَّة ، لا حولَ ولا قوّة إلا بالله»[2].

* وفي ميدانِ الجهادِ وفضله نسمعُ من أبي مُوسى رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ: «مَنْ قاتلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُليا ، فهو في سبيل الله»[3].

* وممّا رواهُ في أدبِ الاستئذانِ وكيفيّته ما جاء في الصَّحيحينِ عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الاستئذانُ ثلاثٌ ، فإنْ أُذِنَ لكَ وإلاّ فارجعْ»[4].

* وفي أدبِ المجالسِ وتشميتِ العاطِسِ أخرج مُسلم في صحيحهِ عن أبي مُوسى رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا عطسَ أحدُكم فحمدَ اللهَ تعالىٰ فشمّتوه ، فإنْ لم يحمدِ اللهَ فلا تُشَمِّتوه»[5].

---

(١) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في العِلْم برقم (٧٩) ، ومسلم في الفضائل (٢/٢٤٧) ؛ وانظر: دلائل النبّوّة للبيهقي (١/٣٦٨).

(٢) متّفق عليه؛ أخرجه البخاري برقم (٦٣٨٤) ، ومسلم برقم (٢٧٠٤) ، والنّسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٣٥٦) ، وزاد فيه: «ولا ملجأَ منَ اللهِ إلا إليه». وهو من حديث أبي هُريرة عنده برقم (٣٥٨).

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري برقم (٢٨١٠) ، ومسلم برقم (١٩٠٤) عن أبي موسىٰ؛ أنَّ رجلاً أعرابياً أتى النّبيّ ﷺ فقال: «يا رسول الله ، الرّجلُ يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتلُ ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: الحديث فذكره.

(٤) أخرجه البخاري برقم (٦٢٤٤ و٦٢٤٥) ، ومسلم برقم (٢١٥٣) ، وأبو داود برقم (٥١٨٠ ـ ٥١٨٤) ، والترمذي برقم (٢٦٩١) ، ومالك في الموطأ (٢/٩٦٣ و٩٦٤).

(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٩٩٢).

* وممّا رواهُ أبو مُوسى في تحريم المُسْكر وما يُذهب العقل ، ما جاء عن أبي بردةَ ، عن أبي موسى أنَّ النّبيّ ﷺ بعثه إلى اليمنِ ، فسأله عن أشربةٍ تُصنعُ بها فقال: «وما هي»؟.

قال: البِتْعُ والمِزْرُ.

فقيل لأبي بردة: وما البِتْعُ؟.

قال: نبيذُ العَسَل ، والمِزْر نبيذُ الشَّعير.

فقال: «كُلُّ مُسْكرٍ حَرام»(١).

مَنَاقِب وشمائل أشعرية:

* مناقبُ أبي مُوسى رضي الله عنه ذاتُ ظِلٍّ ظليلٍ ، وفضائلُه أعذبُ من ماءِ السَّلسبيل ، وأشجارُ معارفهِ ثابتةٌ ، وأغصانُ علومه نابتةٌ ، نَهلَ من معينِ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٢١٤) ، ومسلم برقم (١٧٣٣) ، وأبو داود برقم (٣٦٤٨) ، والنسائي (٨/ ٢٩٨ ـ ٣٠٠) ، وصححه ابن حبّان برقم (٥٣٧٣ و٥٣٧٧).
وهذا الحديثُ أصلٌ في تحريمِ تناول جميع المُسكراتِ المغطّيةِ للعَقْلِ ، كما أنَّ القُرآنَ قد حرّمَ الخمرَ والمَيْسرَ فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩١].
فذكر اللهُ عزَّ وجلَّ علّة تحريم الخمر والميسر وهو القُمار ، وهو أنَّ الشّيطانَ يوقعُ بهما العدواة والبغضاء ، فإنَّ مَنْ سَكِرَ ، اختلّ عقله ، فربما تسلط على أذى النّاسِ في أنفسِهم وأموالهم ، وربما بلغَ إلى القتلِ ، وهي أمّ الخبائث ، فمَنْ شَربها قتل النّفس وزنى ، وربّما كفرَ. ومن قامرَ فربما قُهِرَ ، وأُخذ مالُه منه قَهراً ، فلم يبقَ لهُ شيءٌ ، فيشتدّ حقده على مَنْ أخذَ ماله ، وكلّ ما أدّىٰ إلى العداوةِ والبغضاء كان حراماً ، وأخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ الشّيطانَ يصدّ بالخمرِ والميسر عن ذكرِ اللهِ وعن الصلاة ، فإنَّ السَّكرانَ يزولُ عقله ، أو يختلُ ، فلا يستطيعُ أَنْ يذكرَ اللهَ ، ولا أنْ يُصلّي ، وكذلكَ المَيْسرُ يصدُّ عن ذكرِ اللهِ وعن الصَّلاة ، فإنَّ صاحبَهُ يعكُفُ بقلبهِ عليهِ ، ويشتغلُ بهِ عن جميع مصالحهِ ومهمّاتهِ حتى لا يكادُ يذكرها لاستغراقهِ بهذا. وهذا كلّه مضاد لما خلَق اللهُ عزَّ وجلَّ العبادَ لأجلِهِ من تفريغِ قلوبهم لمعرفته ، ومحبته ، وخشيته ، وذكره ومناجاته ، ودعائه..

القرآنِ العظيم ، وتغذّى منْ رحيقِ مائدة النبيّ الكريم ﷺ ، فغدا حديثُه ريحانةَ الألبّا ، ومجالسُه زهرةَ الحياةِ الدُّنيا ، ألْبَسهُ الله عزَّ وجلَّ أثوابَ النَّباهةِ والعلْم ، واختصَّه بمكارمَ تضارعُ في علاها النَّجم .

* وكان سيّدنا أبو موسى الأشعري عليه سحابات الرضوان جمَّاعاً للفضائلِ ، بل جُمِعَتْ فيه شريف الخصَائل ، فكان صوّاماً قوّاماً ، ربانيّاً زاهداً ، عابداً عارفاً ، جمعَ العِلْم[1] والعملَ ، والجهادَ وسلامةَ الصَّدر ، وكان من أمراءِ المسلمين علىٰ ولاياتِ الأمصار ، فلم تغيّرْهُ الإمارة ، ولا اغترَّ بزينةِ الحياةِ الدنيا ، وظلَّ الصَّحابيُ العارفُ العالمُ ، الذي يرتقي سُلّمَ المكارِمِ ، ليبقىٰ محلّقاً في أجواءِ شرفِ المعالي ، ومعالي الشَّرف :

حتّى النّجومُ غَدتْ تَقُولُ تعجّباً   جَاوَزْتَنَا شَرَفاً فأَيْنَ تُرِيدُ
فأجَابهنَّ أُمِرْتُ أنْ أرقى العُلاَ   مَا دامَ لي في الارْتقَاءِ مَزِيدُ

* فمن أسلاكِ جواهر الشَّرف ودُررهِ ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد بعثَه إلى مِخْلافِ اليمنِ قاضياً ، ومفقّهاً ، وأميراً ، ومصدّقاً ، وأوصاهُ مع معاذ بن جبل فقال لهما : «يسِّرا ولا تُعسِّرَا ، وبشِّرَا ولا تنفّرا ، وتطاوعَا ولا تَخْتَلِفا»[2] .

* وقد دلَّ بعثُ النّبيّ ﷺ لأبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه على أنّه كانَ عالماً حاذقاً فَطِناً ، وقّادَ الذّهن ، حاضرَ القلْب ، ولولا ذلك لم يُولِّهِ النّبي ﷺ الإمارةَ والقضاء ، وهو صلّى الله عليه وسلم أعلمُ النّاسِ بالنّاس ، وأبصرهم بالرّجال وبأحوالهم ، ولذلك فقد اعتمدَ ـ فيما بعد ـ على أبي موسى : عمرُ ، ثمّ عثمانُ ، ثمّ عليٌّ ، رضي الله عنهم أجمعين وحشَرنا في معيّتهم وعفا عنّا وأدخلنا برحمتِه الجنَّة في عبادِه الصّالحين . .

---

(١) وقد شهد له سيّدٌ من علماءِ الصّحابةِ ، وأميرٌ من أمراءِ البيانِ والفصاحةِ بالعلمِ والفَهْمِ ، وهوسيّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما سُئِلَ عنه فقال : «صُبِغَ في العِلمِ صبغةً ثمّ خرجَ منه» (طبقات ابن سعد (٤/ ١٦٢).

(٢) أخرجهُ البخاري في مواضعَ من صحيحهِ ، في الجهاد (٦/ ١١٣) ، وفي المغازي (٨/ ٥٠) ، وفي الأدب (١٠/ ٤٣٥) ، وفي الأحكام (١٣/ ١٤٣)؛ وأخرجهُ مسلم في الجهاد برقم (١٧٣٣) ومعنى «مِخْلاف» : المخلاف : الإقليم وهو بِلُغَةِ أهلِ اليمنِ .

* وكان أبو موسى رضي الله عنه من قضَاةِ الصَّحابةِ وفقهائهم ، ولقد أثنىٰ عليه العلماءُ والفقهاء في هذا المجال ؛ قال الشَّعبيُّ رحمه الله: «قضاةُ الأمَّة: عمرُ بنُ الخطّاب ، وعليٌّ بن أبي طالب ، وزيدُ بنُ ثابت ، وأبو مُوسى الأشعريّ رضي الله عنهم أجمعين»[1].

* وقد أشارَ كثيرٌ من عُلماء الصَّحابةِ وعلماء التّابعين إلى نجابةِ أبي مُوسى وفهمهِ في قضائِه وسجّلُوا أقوالَهم في هذا المضمار ، وقد تكفلَتْ كثيرٌ من المصادر بذكر شهاداتِهم له.

* ولأبي موسى رضي الله عنه أخبارٌ كثيرة ومشرقة في مجالِ القضاء تدلُّ على علمهِ وفقههِ وتأنّيهِ في فَهْم الأحكام[2] ، ولقد عبّرَ عن ذلك في أقوالهِ التي وصلَتْ إلينا ، ومنها قوله: «لا ينبغي للقَاضي أن يقضيَ حتى يتبيَّنَ له الحقّ ، كما يتبيَّن له الليلُ منَ النَّهارِ» ، فبلغَ ذلك عمر فقال: «صدقَ أبو موسى»[3].

* ولسيدنا عمر وأبي موسى رضي الله عنهما أخبارٌ سنيّة في مجالِ القَضاءِ ، ومن أجملِ هذه الأخبار العمريّة الأشعريّة تلكم الرّسالة المهمّة الشَّاملة التي بعثَها عمرُ إلى أبي موسىٰ في علْمِ القضاءِ وآدابهِ[4].

* ولعمر رسائلُ ونصائحُ كثيرةٌ في القَضَاءِ وغيرهِ ، وقد أرسلَها إلى أبي موسىٰ من ذلكَ قوله: «إنَّ الحكمة لستْ عن كِبَرِ السِّنّ ، ولكنّه إعطاءُ اللهِ يعطيهِ مَنْ يشاء ، فإيّاكَ ودناءةُ الأمور ، ومَدَاني الأخلاق»[5].

---

(1) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٨٩).

(2) كان أبو موسىٰ رضي الله عنه يقضي في حياةِ رسول الله ﷺ وفي أيامِ الخُلفاءِ الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

(3) طبقات ابن سعد (٢/ ١١٣).

(4) اقرأ هذه الرسالة كاملة في أخبار القضاة (١/ ٢٨٣ و٢٨٤) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ٢٤٤ و٢٤٥).

(5) انظر: أخبار القضاة (١/ ٢٨٥).

* ومن بدائعِ الأخبارِ العمريّة الأشعريّة أيضاً في سياسةِ القضاءِ مع أبي موسىٰ ، ما قَالَ له حينما وجَّهه إلى البصرة: «يا أبا مُوسىٰ ، إيّاكَ والسَّوط ، والعَصَا ، اجتنبهما حتى يقال: لينٌ في غَيْرِ ضَعْفٍ ، واستعملها حتى يُقال: شديدٌ في غيرِ عُنف».

* وكانت توجيهاتُ عُمر إلى أبي موسىٰ رضي الله عنهما تتألقُ ، وتنيرُ دربَ القضاءِ له ، فمن ذلكَ أنَّ عُمرَ كتبَ إلى أبي مُوسىٰ وهو بالبصرةِ: «بلغني أنَّكَ تأذنُ للنَّاسِ جمّاً غفيراً ، فإذا جاءكَ كتابي هذا ، فأذَنْ لأهلِ الشَّرَف ، وأهلِ القُرآنِ ، والتّقوى ، والدّين ، فإذا أخذوا مجالسَهم ، فأذَن للعامّةِ»[1].

* وعِلْمُ أبي موسىٰ رضي اللهُ عنه في القضاء مشهورٌ ، ومشهودٌ لهُ فيه بتاريخِ القضاء ، وأعلام القُضاة ، وتاريخه في هذا المجالِ ناصعٌ جميل ، يدلُّ على مدىٰ تمكُّنِهِ من الفقهِ وأحكامهِ ، ومن الفتوىٰ وخفاياها ، ومن العلمِ وسنامهِ ، فهو أحدُ ستةٍ من كبراءِ الصَّحابةِ وعلماءِ الأمّةِ يؤخَذُ عنهم العلْمُ ، وهم: عمرُ بن الخطّاب ، وعبدُ اللهِ بن مسعود ، وزيدُ بن ثابت ، وهؤلاءِ الثّلاثةُ يشبهُ علمُهم بعضه بعضاً؛ وعليُّ بن أبي طالب ، وأبيُّ بن كعب ، وأبو موسى الأشعريّ يشبهُ علمهم بعضهُ بعضاً ، يقتبسُ بعضهم من بعض[2] رضي اللهُ عنهم وحشرنا في معيتهم.

* ومن مناقبِ أبي موسىٰ رضي الله عنه كلماتُه الغنيةُ بالمعرفةِ[3] المقتبسةِ من نور القُرآنِ الكريمِ ، والمستقاةُ من معين الأدبِ النّبوي ، والتي تنبئُ عن

---

(١) المصدر السابق عينه (١/ ٢٨٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٨٩) بشيء من التصرف.

(٣) من الجدير بالذكر أن سيّدنا أبا موسىٰ الأشعريّ قد تعلّم الكتابةَ بعد وفاةِ النبي ﷺ.
ومن المفيد هنا أن نشيرَ إلى كتّابِ الوحيّ من الصحابة وعددهم بضعة وأربعون كاتباً ، وبعضهم أوصلهم إلى (٦٥ كاتباً). ومن الجلي الواضح أنّ شرفَ الكتابة بينَ يدي النبي ﷺ منزلةٌ عظمى ، وشأو بعيدٍ تنحني أمامه الرؤوس ، وتتطلّع إليه النّفوس ، لأنّ هؤلاء الكتبة الكرام كانوا موضعَ ثقةِ النبي ﷺ وأمناء وحيه ، فمن يدانيهم؟! أكرمْ بهم!

حكمةٍ موشّاةٍ بحليةِ الفضائلِ ، كما أنّها تسيلُ رقّةً وجمَالاً ودلالاً ، كما نقرؤها في الفقرةِ الآتيةِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى .

مواعظهُ وفرائدُهُ:

* تفتّقَ ذِهْنُ أبي موسىٰ الأشعريّ رضي الله عنه عن أقوالٍ مفعمةٍ بألوان الحكمة والمواعظ الحسنة فهذه الأقوال تشيرُ إلى علْمهِ وفهْمهِ وبصيرته المنوّرة بأنوارِ الإيمانِ ، وحبِّ القُرآنِ؛ كما تشيرُ إلى مدىٰ معرفتهِ بأغوارِ النفسِ البشريّةِ وأعماقها ، وميولِ العامة وأهوائها.

* فمن نفائسِ حكمهِ قولُه: «يا أيّها النَّاسُ إنَّكُمْ اليوم في زمانٍ للْعَامِلِ فِيهِ للهِ تعالى أجْرٌ ، وسيكونُ بعدكم زمانٌ يكون للعاملِ للهِ تعالى فيه أجران»[1] .

* ومن رقائقِ مواعظهِ قولُه وقد خطبَ بأهلِ البصرةِ مرّةً فقال: «يا أيّها النَّاس ، ابكُوا فإنْ لم تبكوا فتَباكوا ، فإنَّ أهلَ النَّارِ يبكونُ الدُّموع حتى تنقطعَ ، ثم يبكونَ الدِّماءَ حتى لو أُرسلَتْ فيها السُّفن لَجَرت»[1] .

* ومن المُتعالمِ بينَ العُقلاءِ أنَّ الدِّرهم والدِّينار هما سببُ بلاءِ كثيرٍ مِنَ النَّاسِ في كافّةِ الأيَّامِ والعُصورِ وجميعِ الأزمانِ والأوطانِ ، لذا فإننا نجدُ أبا موسىٰ يُعرِّفُ ماهيّةَ الدّرهم والدّينارِ تعريفاً بديعاً تنبىءُ عن حكمةٍ وبديعةٍ تدلُّ على مدىٰ فقْههِ وفهمهِ الدّقيقِ لأصولِ المعاملاتِ ، فيقول: «إنّما أهلكَ مَنْ كان قبلكم هذا الدّينارُ والدّرهم وهما مُهلكاكم»[2] .

* ويقولُ في حالِ الدّنيا: «ما ينتظرُ منَ الدُّنيا إلا كلاًّ محزناً ، أو فتنة تنتظر» .

* وعن أحوالِ القلبِ يقول: «إنّما سُمّي القلبُ لتقلّبهِ ، وإنَّما مثلُ القلبِ مثلَ ريشةٍ بفلاة الأرضِ تَقْلبُها الريحُ ظهراً لِبَطْن» .

---

(١) حلية الأولياء؛ ترجمة أبي موسى ، وانظر تهذيب حلية الأولياء (١/ ٢٠٠).
(٢) المصدر السابق.

* ومن أقوالِ المفيدة في الصَّداقةِ والصَّديق قوله: «من كثرَ صديقهُ ركبَ رقابَ أعدائهِ»[1].

* ومن نفيسِ أقوالهِ ورقائقها التي تشيرُ إلى فهمهِ حدودَ اللهِ ومحارمه قوله: «لأنْ يمتلىءَ منخري من ريحِ جيفةٍ، أحبّ إليّ من أنّ يمتلىءَ من ريحِ امرأة»[2].

* ومن أقوالهِ الصَّائبة التي تدلُّ على زهدهِ في الدُّنيا تصويرُهُ لصدودِ النَّاس عن الآخرة ما جاء عن أنسِ بنِ مالك رضي اللهُ عنه قال: «كُنَّا مع أبي موسى في مسيرٍ له، فسمعَ النَّاسُ يتحدّثونَ فسمعَ فصاحةً، فقال: ما لي يا أنس؟ قُمْ فلنذكُر ربَّنا فإنَّ هؤلاء يكادُ أحدهم أنْ يفريَ الأديمَ بلسانهِ! ثمَّ قال لي: يا أنس، ما أبطأَ بالنّاسِ عن الآخرةِ وما ثبّرهم عنها؟

قلتُ: الشّهواتُ والشَّيطانُ.

قال: لا واللهِ، ولكنْ عُجِّلَتْ لهم الدنيا، وأخّرتِ الآخرةُ ولو عاينوا ما عَدَلُوا وما ميّلُوا»[3].

* وفي إعظامِ أهلِ القرآنِ وتقديمهم وإكرامهم يقولُ: «إنَّ من إجلالِ اللهِ تعالى إكرامَ ذي الشَّيبة المسلم، وحاملَ القُرآنِ غير الغَالي فيه ولا الجافي عنه، وذي السُّلطانِ المقْسِط»[4].

* ومواعظُ أبي موسىٰ ورقائقه وحكمهُ كثيرةٌ ومشهودٌ له بالبراعةِ في إيرادها، قال لِمَازَةُ بن زبّار: «ما كان يُشَبَّهُ كلام أبي موسىٰ إلاّ بالجزّار الذي لا يُخطىءُ المِفْصَل»[5].

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ٢٥٠).
(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ١١٤).
(٣) حلية الأولياء (١٠/ ٢٥٩)، معنى «يفري الأديم»: يشقّ الجلد، وهو كناية عن الفصاحة و«ثبّرهم» صدّهم ومنعهم.
(٤) فضائل القُرآن ص (٩٠).
(٥) أسد الغابة (٣/ ٣٦٥).

كيفَ كانتْ عبادتُـهُ؟

* كانت عِبادةُ سيّدنا أبي موسى رضي اللهُ عنه مَثلاً يُحتذى في حُسنِ الصِّلَةِ مع اللهِ عزَّ وجلَّ والانقياد لطاعته ، وكان يتمثّلُ شخصَ النَّبيِّ ﷺ في كُلّ عَمَلٍ وَذِكْرٍ يقومُ به.

* أخرجَ الإمامُ أحمد رحمهُ الله في مسندهِ عن أبي مُوسىٰ رضي الله عنه قال: «قلتُ لِصَاحِبٍ لي: تعالَ فَلْنَجعلْ يومنَا هذا للهِ عزَّ وجلَّ ، فلكأنَّما شَهدَنا رسول الله ﷺ.

قالَ: ومنهم مَنْ يقولُ: تعالَ فَلنجعلْ يومنا هذا للهِ عزَّ وجلَّ ، فما زالَ يردّدها حتى تمنيتُ أنْ أسيخَ في الأرض»[1].

* ومن أنواع عبادةِ أبي موسىٰ وتقواهُ أنّهُ كان كثيرَ المناجاةِ مع اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويكثرُ من قراءةِ القُرآنِ الكَريمِ ، ويتفاعلُ معه ، ويستخدمُ مفرداتِ القُرآن في دعائهِ وقيامهِ ومناجاتهِ في السِّلمِ وفي الحربِ ، وفي الحضْرِ وفي السَّفرِ ، وفي كلِّ الأحايين والأوقاتِ.

* شهدَ مسروقُ بنُ الأجدع رحمه الله بعضاً من هذه الإشراقات وتلكم المناجاة في الفَلَواتِ فقال: «خرجنا مع أبي مُوسى رضي اللهُ عنه في غزاةٍ ، فلما جنَّ علينا الليلُ ، أوينا إلى بستان خَرِب ، وقامَ أبو موسىٰ رضي اللهُ عنه يُصلّي ، وقرأَ قراءةً حسَنةً ، وقال: اللهمّ ، أنتَ المؤمنُ تحبُّ المؤمن ، وأنتَ المُهيمن تحبُّ المهيمن ، وأنتَ السَّلامُ تُحبُّ السَّلام»[2].

* وقال عُمير بن سعيد: «سمعتُ أبا موسىٰ الأشعريّ قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] فقال: سبحان ربيّ الأعلى»[3].

* وكان سيّدنا أبو مُوسى رضي اللهُ عنه يَصِلُ عِبادةَ الليلِ بطاعةِ النَّهارِ ،

---

(١) انظر: المسند (٤/٤٠٣).

(٢) عن سير أعلام النبلاء (٢/٣٩٣) بتصرف يسير.

(٣) فضائل القُرآن (ص ١٥٤) ، وتفسير القرطبي (٢٠/١٣ و١٤).

فكانَ في لياليهِ مِنَ القائمين المصلّين العابدين المُناجين الرّاكعين السَّاجدين ، فكنت تراه هو وأمثاله : ﴿ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح: ٢٩] ، وهكذا كان ليلُه ليل عبادة وكذلك ليلُ علماءِ الصَّحابةِ :

إذَا مَـا الليـلُ أَظْلَـمَ كـابـدوهُ   فَيسْفِـرُ عنهُـمْ وهُـمْ ركُـوعُ

أَطـارَ الخَـوفُ نـومَهُـمْ فقـامُـوا   وأهـلُ الأمْـنِ فـي الـدّنيا هُجـوعِ

* وكانَ في نَهَارِهِ كذلكَ مِنَ الخائفين الصَّائمين الذّاكرين ، وقد اشتهرَ أبو موسىٰ بكثرةِ صيامهِ ، بل عُرِفَ بمواصلتهِ الصَّوم في الشِّتاء والصَّيف ، ولعلَّ مردَّ ذلك يعودُ إلى ما ذكرتْهُ المصادرُ المتنوّعة قالت : «كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في سفينةٍ في البحرِ في إحدىٰ مغازيه ، فسمعَ هاتفاً يهتفُ : يا أهلَ المركب ، قِفُوا ، يقولها ثلاثاً ، أو سبعاً ، فقال أبو موسىٰ : يا هذا كيفَ نَقِفُ؟ أما ترى ما نحنُ فيهِ ، كيفَ نستطيعُ وقوفاً؟!

فقالَ الهاتف : ألاّ أخبركم بقضاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ على نفسه؟

قال : بلى ، أخبرنا .

قال : فإنَّ اللهَ قضىٰ على نفسهِ أنَّه مَنْ عطَّش نَفْسَه للهِ في يومٍ حارّ؛ كانَ حقّاً علىٰ اللهِ أنْ يرويَه يومَ القيامةِ ، يومَ العطش الأكبر .

فكان أبو موسى يتوخّى ذلكَ اليوم الحارّ الشّديدَ الحرّ ، الذي يكادُ الإنسانُ ينسلخُ منه ، فيصومُه ، وكانَ لا يكادُ يُرى في يوم حارّ إلا وهو صائم»(١) .

---

(١) انظر : المستدرك (٣/ ٤٦٧) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٩٢) ، ولطائف المعارف (٥٥١ و٥٥٢) مع الجمع والتصرف . وكان ابن عمر رضي الله عنهما يصومُ تطوّعاً فيغشىٰ عليهِ فلا يُفطر؛ وكان الإمامُ أحمدُ بن حنبل رحمه الله يصومُ حتى يكادُ يُغمى عليهِ ، فيمسحُ وجهه بالماء ، وكان مجمِّع بن يسار التّيمي يصومُ في الصَّيف حتى يسقط . وكانت بعضُ=

* لقد أحبَّ أبو موسى رضي اللهُ عنه أنْ يكونَ رصيدهُ الإيمانيّ رصيداً ثميناً كثيراً ، فأكرمْ بهذا الرّصيد! وأعظمْ بهذا الكنز! :

وَاعْلَمْ بِأَنَّ كُنوزَ الأرضِ مِنْ ذَهبٍ فَاجْعَلْ كُنوزَكَ مِنْ بِرٍّ وإيمانِ

مَغَازِيهِ وبُطُولاتِهِ وفتوحاته:

* قبلَ أَنْ نتعرفَ شيئاً عن فروسيةِ العالم العَيْلَمِ أبي موسى الأشعري ، دعونا نسمعُ ما قالَهُ الحافظُ أبو بكر بن أبي داود السِّجستاني عن أبي موسى: «لأبي موسىٰ مع حُسْنِ صوته فضيلةٌ ليستْ لأحدٍ منْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ، هاجرَ ثلاثَ هجْراتٍ ، هجرةٌ من اليمنِ إلى رسول الله ﷺ؛ وهجرةٌ من مكَّةَ إلى الحبشةِ ، وهجرةٌ من الحبشةِ إلى المدينة»[1].

* وقالَتْ طائفةٌ منَ العُلماءِ: «إنَّ أبا موسىٰ لما قدمَ مكَّةَ ، حالفَ سعيدَ بن العاص بن أميّةَ أبا أُحيحة ، ومن ثمّ انصرفَ فصادفَ قدومَ السَّفينتَيْن من أرضِ الحبشة»[2].

* وقال ابنُ عبد البرّ: «الصَّحيحُ أنَّ أبا موسى رجعَ بعد قدومهِ مكّة ، ومحالفتهِ مَنْ حالفَ مِن بَني عبد شمس إلى بلادِ قومه ، وأقامَ بها حتى قدمَ مع الأشعريّين نحو خمسين رجلاً في سفينة ، فألقتهم الريحُ إلى النَّجاشي ، فوافقوا خروجَ جعفرَ وأصحابهِ منها ، فأتوا معهم ، وقدم السَّفينتان معاً: سفينةُ جعفر ، وسفينةُ الأشعريين على النّبيّ ﷺ حين فَتَحَ خَيْبر»[3].

* ومنذ غزاةِ خيبر بدأتْ مغازي أبي موسىٰ في عرضِ البلادِ وطولها ، وحظيَ بشرفِ الجهادِ تحت الرّايةِ المحمديّةِ واللواءِ المصطفويّ المظفّر ،

= الصَّالحات تتوخّى أشدَّ الأيّامِ حرّاً فتصومه ، فيقالُ لها في ذلك. فتقول: «إنَّ السِّعْرَ إذا رَخُصَ اشتراهُ كلّ أحد» تشيرُ إلى أنَّها لا تؤثر إلا العمل الذي لا يقدر عليهِ إلا قليلٌ مِنَ النّاس ، لشدته عليهم ، وهذا من علو الهمّة.

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٤٥) طبعة دار الفكر.

(٢) أسد الغابة (٣/ ٣٦٤) طبعة دار الكتب العلمية بتصرف يسير.

(٣) انظر هذا في أسد الغابة (٣/ ٣٦٥).

وشهدَ ما بعدَ خيبر بمعيّةِ النّبيّ ﷺ؛ وكان أبو موسىٰ فارساً مغواراً لا يُشقُّ له غبار ، وقد حظيَ بشهادة الشَّجاعةِ ووسامها من رسول الله ﷺ حيث قال عنه : «سيّدُ الفوارس أبو موسى»[1] ، وثبتَ أنَّه جَنْدلَ في معركةٍ واحدةٍ تسعةَ إخوةٍ من المشركين ، وجعلهم كأمْسِ الدَّابر .

* وفي العهدِ البكريّ الميمون ، والعهدِ العُمريّ من العصرِ الرّاشدي فتح أبو موسىٰ بلاداً شاسعةً واسعةً من أرضِ فارس ، وشهدَ فتحَ الجزيرةِ وأرضَ الشَّام .

* وسيدنا أبو موسىٰ هو الذي افتتح أصبهان[2] في زمن عمر رضي الله عنه وفتح تُسْتر[3] كذلك .

* قال ابنُ الأثيرِ رحمه الله «وكانَ ـ أبو موسى ـ عامل رسول الله ﷺ على زَبيد وعدن ، واستعملهُ عمر رضي اللهُ عنه على البصرةِ ، وشهدَ وفاةَ أبي عُبيدةَ بن الجرّاح بالشَّام»[4] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/١٠٧).

(٢) «أصبهان»: بفتح الهمزة وكسرها ، وأهل المشرق يقولون: أصفهان بالفاء ، وأهل المغرب بالباء. وهي مدينةٌ عظيمةٌ ، وهي من أكبرِ مدن الإسلامِ وأكثرها حديثاً ما خلا بغداد. ومعناها: طيّبة التّربة والهواء والصّحة (تهذيب الأسماءواللغات (٣/١٧) طبعة دار الفكر.
وقال البكري : «إِصبهان: بسكر أوله؛ مدينة معروفة من بلاد فارس سمّيت بذلك لأنَّ أول من نزلها أصبهان بن فَلُّوج بن لَمْطى بن يافث ، ونزل أخوه هَمَذان فسميت به.
وقيل: سميت أصبهان لأن «إصبَه» بلسان الفُرس: البلد ، و«هان» الفَرَس ، فمعناه بلد الفرسان ، ولم يكن يحمل لواء الملك منهم إلا من أهل أصبهان لنجدتهم ، وكانوا معروفين بالنجدةِ والبأس والفروسية ، ونقلت من خط أبي الفتوح الجرجاني أن إصبه بالفارسية العسكر ، وأن هان معناه: ذاك ، وفمعنى الاسم: العسكر ذاك» (معجم ما استعجم ١٠/١٦٣).

(٣) «تُستر» بالعراق ، مدينة معلومة ، تنسب إليها الثياب التسترية (معجم ما استعجم (١/٣١٢).

(٤) أسد الغابة (٣/٣٦٥).

* وقالَ ابنُ إسحاق: «في سنة تسع عشرة بعثَ سعدُ بنُ أبي وقّاص عياض بن غَنم إلى الجزيرة، وبعثَ معهُ أبا موسىٰ وابنهُ عمر بن سعد، وبعثَ عياضُ أبا موسىٰ إلى نَصيبين فافتتَحها في سنةِ تَسْع عَشرةَ».

* وقال خليفةُ: قال عاصمُ بن حفص: «قدمَ أبو موسىٰ إلىٰ البصرةِ سنة سبع عشرة والياً، بعد عزلِ المُغيرة، وكتبَ إليهِ عمر[1] رضي اللهُ عنه أنْ سِرْ إلى الأهوازِ، فأتىٰ الأهوازَ فافتتحها عنوة، وقيل: صُلحاً، وافتتحَ أبو موسىٰ أصبهان سنةَ ثلاث وعشرين»[2].

* وقال النَّووي رحمه الله «واستعملهُ رسول الله ﷺ على زَبيدَ وعدن وساحلِ اليمن، واستعملهُ عمر بن الخطّاب على الكوفةِ والبصرةِ، وشهدَ وفاةَ أبي عُبيدة بالأردن، وخطبة عمر بالجابية، وقدمَ دمشق على معاوية»[3].

* ولأبي موسىٰ رضي الله عنه أخبارٌ سارّةٌ في مجالِ الفتوحاتِ كما كانت له أخبارٌ كثيرةٌ مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وخُصوصاً في قصّةِ التّحكيم بين عليّ ومعاوية رضي اللهُ عنهما وقد تكفّلتِ المصادرُ المتنوّعةُ بالحديثِ عنها وإيضاحِ إشكالها، كما كانت له بضعةُ أخبار مع معاويةَ بن أبي سفيان رضي اللهُ عنهما ولا مجالَ لِذِكْرِها الآن لأنّها خارجةٌ عن فِكْرةِ هذه الموسوعة.

* كماكانت لأبي موسىٰ رضي الله عنه آثارٌ عديدةٌ في ميادينِ المعاركِ تدلُّ على فقهِهِ وعلْمِهِ، وتأثّرهِ بالهديّ النّبويّ في سلمهِ وحربهِ:

---

(١) ذكر الماوردي: «أن عمر بن الخطاب رضي اللهُ عنه كتب إلى أبي موسىٰ الأشعري رضي اللهُ عنه: لا تستقضينَّ إلاّ ذا حَسَب أو مال، فإن ذا الحسب يخاف العواقب، وذا المال لا يرغب في مال غيره». (أدب الدنيا والدين ص ٢٣٢ و٢٣٣).

(٢) انظر هذا في أسد الغابة (٣/ ٣٦٥)، والإصابة (٦/ ١٩٥)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٤٥) طبعة دار الفكر.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٤٥).

إنْ حَارَبُوا مَلَؤُوا البِلادَ مَصَارِعاً   أَوْ سَالَموا عَمَرُوا الدِّيارَ مَسَاجِدا

﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ :

* قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣].

* في الصَّفحاتِ النَّضرات السَّابقات عشْنا ساعاتٍ مباركاتٍ مع البطلِ العَالِمِ المؤمنِ الورعِ الفقيهِ الفاتحِ القائدِ الأميرِ ذي الفضائلِ المحمودةِ المشهورةِ المشهودةِ أبي موسىٰ الأشعريّ الصَّحابي ابن الصَّحابية[1] رضي اللهُ عنهما.

* كان حياةُ سيّدنا أبي موسىٰ الأشعريّ عِلْمٌ في عِلْمٍ في علمٍ ، وعطاءٌ في عطاءٍ في عَطَاءٍ ، وجهادٌ في جهادٍ في جِهادٍ ، وقد امتدتْ به رحلةُ الحياةِ إلى خلافةِ سيّدنا معاوية رضي الله عنه ، وكانت حياتُه حياةً علميّةً زادها حبُّ المعرفةِ والاغترافِ من علومِ القرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ المطهّرةِ ، وكانَ له دورٌ بارزٌ في نَقلْ العلم إلى أجيالِ التَّابعين.

* وفي أخرياتِ حياةِ أبي موسى رضي الله عنه ظلَّ عطاؤه الإيماني غزيراً ، وظلّ ارتباطُه وثيقاً باللهِ عزَّ وجلَّ ، وبكتابهِ العزيز ، وبحديثِ النّبيّ ﷺ ، كما ظلَّ مقبلاً على الطَّاعاتِ والعباداتِ ، لأنَّه أدركَ أنَّهُ مقبلٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ فلا بدَّ أن يكونَ زادُهُ التّقوىٰ ، وكأنّي بهِ يردّدُ دائماً بصوتهِ الجميلِ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ١٩٧].

* وعلى هذا الزّادِ المباركِ ، زادِ التّقوىٰ ، كان زادُ أبي موسىٰ رضي اللهُ عنه إذ الخيلُ الضّوامر هي السّوابقُ في حلباتِ السّباق.

* وتروي الأخبارُ الموثوقةُ التي تزدانُ بها المصادرُ ، وتتزين بها النّفوسُ

---

(١) أمّ أبي مُوسىٰ هي ظبيةُ بنتُ وهب ، امرأةٌ من عكّ أسلمَتْ وماتتْ بالمدينة المنورة (أسد الغابة ٣/ ٣٦٤).

الصَّافية أنَّ أبا موسى الأشعري رضوان الله عليه قد اجتهد قُبيل موتهِ اجتهاداً شديداً أثّرَ في بَدنِهِ ـ وكان نحيفاً قصيراً ـ فأشفقَ عليه أهلوهُ وذووه ومعارفهُ وقالُوا له: «يا أبا مُوسى لو أمسكتَ قليلاً، ورفقْتَ بنفسِكَ وأرحْتَها!».

فقال ونورُ الإيمانِ ينبعثُ من فمِهِ: «لا يا أحبابَ اللهِ، أَلَمْ تروا أنَّ الخيلَ إذا أُرسَلتْ فقاربتْ رأسَ مَجْراها، أخرجت جميعَ ما عندها، والذي بقيَ منْ أَجَلي أقلُّ منْ ذلك»[1].

* ولمَّا حضرتْ أبا موسىٰ الوفاةُ، واشتدّتْ عليهِ سكراتُ الموتِ، دعا فتيانه ومن ثمّ أمرهم أنْ يصنعوا شيئاً، ترى ما أَمَرَهُمْ؟

* ذكر أبو نُعيم الأصفهانيّ ذلك في «الحِلْيةِ» فقال: «دعا أبو مُوسىٰ الأشعري رضي الله عنه فتيانَه حينَ حضرتهُ الوفاةُ، فقال: اذهبُوا واحفروا وأوسعُوا وأعمقُوا؛ فجاؤوا فقالوا: قد حَفَرْنَا وأوْسَعْنَا وأعمقنا.

فقال: واللهِ إنَّها لإحدىٰ المنزلتَيْن: إمّا ليوسعنَّ عليَّ قبري حتى تكونَ كلُّ زاويةٍ منه أربعينَ ذراعاً، ثم ليفتحنّ لي بابٌ إلى الجنّة فلا أنظرنَّ إلىٰ أزواجي ومنازلي وما أعدَّ اللهُ تعالى لي منَ الكرامةِ ثمّ لأكوننَّ أهدىٰ إلى منزلي منّي اليوم إلى بيتي، ثمّ لَيصيبني من ريحها وروحِها حتّى أُبعث.

ولئن كانتِ الأخرىٰ ـ ونعوذُ باللهِ منها ـ لَيضيقنَّ عليَّ قبري حتى يكونَ في أضيقِ من القَناةِ في الزَّجِ[2]، ثمّ لَيفتحنَّ لي بابٌ من أبوابِ جهنّمَ، فلأنظرنّ إلى سلاسِلي وأغلالي وقرنائي، ثمّ لأكوننَّ إلى مقعدي من جهنّم أهدى منّي اليومَ إلى بيتي، ثمّ لَيصيبني من سمومها وحميمها حتى أُبعثَ»[3].

* ولم يرضَ أبو مُوسىٰ بهذه الموعظة المؤثّرة، وإنّما وعظَ أبناءَهُ وعظاً رقيقاً، ثم أورد لهم قصّةَ صاحبِ الرّغيفِ التّائب، وأمرهم أنْ يذكروهُ في

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٩٣) بشيء من التّصرّف.
(٢) «الزج»: الحديدة التي تركب في أسفل الرمح.
(٣) حلية الأولياء (١/ ٢٦٢ و٢٦٣)، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ٢٥٤).

صُبْحهم والمَساء، فكيفَ كان ذلك؟ وما قصّة صاحبِ الرّغيف الذي ذكرَها أبو موسىٰ في لحظاتِ حياتهِ الأخيرة!؟!

* ابنهُ أبو بردةَ يروي لنا ذلكَ نقلاً عن أبيهِ فيقول: لما حضرَ أبو موسىٰ الوفاةُ، قال: يا بنيّ، اذكروا صاحبَ الرغيف، قال: «كان رجلٌ يتعبّدُ في صومعةٍ أراهُ قال: سبعين سنة لا ينزلُ إلا في يومٍ واحد، فشبّه أو شبَّ الشَّيطان في عينهِ امرأةً فكان معَها سبعةَ أيَّامٍ أو سبْعَ لَيالٍ، ثم كُشِفَ عن الرّجُلِ غطاؤهُ فخرجَ تائباً، فكان كلّما خَطَا خطوةً صلّىٰ وسجدَ، فآواهُ الليلُ إلى دكّانٍ كان عليهِ اثنا عشرَ مسْكِيناً فأدركه العياءُ، فرمىٰ بنفسهِ بين رجلَيْن منهم، وكان ثم راهبٌ يبعثُ إليهم كلّ ليلةٍ بأرغفة، فيعطي كلّ إنسان رغيفاً، فجاء صاحبُ الرّغيف، فأعطىٰ كلّ إنسانٍ رغيفاً، ومرّ على ذلكَ الرجل الذي خرجَ تائباً، فظنَّ أنَّهُ مسكينٌ فأطعاهُ رغيفاً، فقال المتروكُ لصاحبِ الرّغيف: مالكَ لم تعطني رغيفاً ما كانَ بكَ عنه غِنى؟

فقال: أتراني أمسكتُه عنك؟ سَلْ هَلْ أعطيتُ أحداً منكم رغيفَيْن؟

قالوا: لا!

قال: تراني أمسكتُه عنك، واللهِ لا أعطيكَ الليلةَ شيئاً؛ فعمدَ التّائبُ إلى الرّغيفِ الذي دفعه إليه، فدفعهُ إلى الرّجل الذي تُرِكَ، فأصبحَ التّائبُ ميتاً. فوُزِنَتِ السّبعون سنة بالسّبعِ الليالي فرجحتِ السّبع الليالي، ثمّ وزنتْ السّبع الليالي بالرّغيف فرجحَ الرّغيف. فقال أبو مُوسىٰ: يا بنيّ اذكروا صاحبَ الرّغيف»[1].

* ولم يَفُتْ أَبو موسىٰ وهو في تلكُمْ الحالة أن يفارقَ الدّنيا دونَ أَنْ يتركَ وصيّةً نافعةً لا تخرجُ عن ضوءِ القُرآنِ والسُّنَّةِ، فلقد أوصىٰ حينما حضَرهُ الموتُ هذه الوصيّةَ فقال: «إذا انطلقتُمْ بجنازتي فأسرعُوا المشيَ، ولا يتبعني مجمرٌ، ولا تجعلوا في لحدي شيئاً يحولُ بيني وبينَ التُّراب، ولا تجعلوا

---

(١) انظر: تهذيب حلية الأولياء (١/ ٢٠١ و٢٠٢).

على قبري بناءً ، وأشهدكم أنّي بريءٌ من كلّ حالقةٍ ، أو سالقةٍ أو خارقة».

قالوا: أوسمعتَ فيهِ شيئاً؟

قال: «نعم منْ رسول الله ﷺ»[1].

* ثم أسلمَ أبو موسىٰ روحه إلى العليمِ الخبير ، وصعدتْ لتستقرَّ في عليّين عند المليكِ المقتدر ، وكانت وفاتُهُ في شهر ذي الحجّةِ سنة (٤٤ هـ) في الكوفةِ بالعراق. وبوفاتهِ انقطعَ الصَّوتُ الدّاووديُّ الأشعريُّ عن النّاس ، ليشدو به في عليين أمامَ الأنبياءِ والشّهداء والصّالحين ، وحَسُنَ أولئكَ رفيقاً.

* رضي الله عن أبي موسىٰ الأشعريّ ، وزاده فضْلاً ونُبلاً ، وضاعفَ له الثَّناءَ بَعْداً كما ضاعَفَهُ قبلاً.

* * *

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ٢٥٤) ، و«المجمر»: إناء لوضع جمر النار وحرق النجور. و«الحالقة»: التي تحلق شعرها عند وقوع المصيبة. و«السّالقة» أو «الصّالقة»: التي ترفع صوتها عند المصيبة. و«الخارقة»: التي تشقّ ثيابها عند المصيبة.




معاوية بن أبي سفيان

* خال المؤمنين وكاتب وحي ربّ العالمين.
* كان من الكتبة الحسبة الفصَحة ومن الحلماء النُّبلاء.
* من كبار خلفاء الإسلام العلماء الفقهاء الأشراف
* روى (١٦٣) حديْثاً، وتاريخه حافل بالعظائم والجهاد.
* من شخصيّات علماء الصّحابة البارزين، وتوفي سنة (٦٠ هـ).




معاويةُ بنُ أبي سفيانَ

العَالِمُ السَّيِّد الحَسيبُ :

* نشأ في حجرِ الفَضْل والحسَبِ ، وبسقَ في روضِ العلْمِ والأدبِ ، فكان ماجداً طويلَ النِّجاد ، حليماً له بيتُ كرمٍ رفيعُ العماد.

* ورثَ هذا العالمُ الصَّاحبُ السِّيادةَ صبياً ، فقد رآه بعضُ متفرسي العرب وهو غلامٌ صغير بقرب أمِّه ، فقال: إنّي أظنُّ هذا الغلامَ سيسودُ قومه ، فقالت أمُّه: ثكلتُهُ إذن ، إنْ لم يَسدْ غيرَ قومه؛ أو قالت: ثكلتُه إن لم يَسُدِ العربَ قاطبةً!!

* من هاهنا ندرك أنَّ أمَّهُ امرأةٌ حصيفةٌ يحرّكُها المجدُ ، وتستهويها السِّيادةُ ، وتحبُّ لابنها السُّؤددَ ، وحسْنَ الأحدوثة ، وذروةَ الشَّرف.

* أمّا أبوه فلم يكنْ بأقلّ حُباً للشَّرف والسِّيادة من زوجه عقيلة قومها العبشميين ، وكان أبواه من أولي المجدِ والحسبِ والنَّسب في قريش ، وكانا من ذوي النَّباهة والفصاحةِ والفِراسةِ والهمّةِ العاليةِ.

* كانت أمُّه تحملهُ وهو صغيرٌ ، وترتجزُ بأبيات منها:

إنَّ بُنَيَّ مُعرِقٌ كريم ... مُحبَّبٌ في أَهْلِهِ حليم

* هذا الصَّحابيُ العالمُ المُعْرِقُ في المعالي هو خالُ المؤمنين ، وكاتبُ وحْي ربِّ العالمين ، وفقيهٌ من فقهاء الصّحابة العالِمين ، معاويةُ بنُ أبي سفيانَ بنِ حرب ، أبو عبد الرّحمن القُرشيّ الأمويّ المكيّ ، أميرُ المؤمنين ،

وملكُ الإسلام ، وأحدُ الصَّحابة العلماء الأعلام[١].

* وأمُّه: هي هندُ بنتُ عتبةَ بنِ ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القُرشيّة المكية الصَّحابية ، إحدى نساء الدنيا الشَّهيرات في ميدان العفَّةِ والشَّهامةِ والحصافةِ والعقلِ والأنفةِ[٢] رضي الله عنهما.

* وُلدَ سيّدنا معاوية رضي الله عنه بمكَّةَ المكرّمةِ قبل البعثةِ النَّبويّة بخمس سنين ، وأسلمَ قبل أبويه في عمرة القَضَاء ، ولكنَّه أوجسَ في نفسهِ خيفة من أبويه ، من الخروج إلى الصَّادقِ المصدوقِ رسولِ اللهِ ﷺ في مكان هجرته بالمدينةِ المنوّرة.

* قال الإمامُ النَّوويُّ رحمه الله: «أسلمَ هو وأبوه أبو سفيان ، وأخوه يزيدُ بنُ أبي سفيان ، وأمُّه هندٌ في فتح مكَّة؛ وكان معاويةُ يقول: إنَّه أسلمَ يوم الحديبية ، وكتم إسلامه من أبيه وأمّه . . »[٣].

* وها نحنُ أولاء نمتعُ الأسماعَ بحديثِ سيّدنا معاوية وهو يروي لنا كيف داعبتْ أنسامُ الإسلام قلبَه الخالي فتمكَّن حبُّ الإسلام من قلبهِ ، وغدا أحد كُتّاب الوحي الأُمَناء رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) إنَّ المصادر التي ترجمت لسيدنا معاوية رضي اللهُ عنه كثيرة ، لا يستطيعُ الباحثُ أَنْ يحصرها مطلقاً ، وأخبارهُ مبثوثةٌ في كتبِ الحديث والتَّراجم والسِّير والتّواريخ ، والأدب ومنها: أنسابُ الأشراف القسم الرابع ـ الجزء الأول ـ بنو عبد شمس (ص ١٣ ـ ١٣٦) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية بن أبي سفيان ص ٣٠٦ ـ ٣١٧) ، المعجم الكبير (١٩/ ٣٠٤ ـ ٣٩٦) ، ونسب قريش (ص ١٢٤ وما بعدها) ، والبداية والنهاية (٨/ ١١٧ ـ ١٤٦) ، ومواضع أخرى كثيرة ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٠٢ ـ ١٠٤) ، ومختصر تاريخ دمشق (٢٤/ ٣٩٩ ـ ٤٠٥) و(٢٥/ ٥ ـ ٩٣) ، والاستيعاب (٣/ ٣٧٥ ـ ٣٨٣) ، (٣/ ٤١٢ ـ ٤١٤) ، ومعاوية لإبراهيم الإبياري ـ سلسلة أعلام العرب رقم (٦) ، ومشاهير علماء الأمصار (ص ٨٥ ـ ٨٦) ، وكثير من كتب القدماء والمعاصرين.

(٢) اقرأ سيرة السّيدة الحصيفة هند بنت عتبة في كتابنا «بيعة النساء في القرآن والسيرة» (ص ٢٢٠ ـ ٢٣١) تجد خيراً وفائدة وتصحيحاً لكثير من المفاهيم المغلوطة.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٠٢).

* يقولُ سيّدنا معاويةُ رضي الله عنه ما مفادُهُ ومُحَصّلُه: «لمَّا كان عام الحُديبية، وصَدَّ مُشْركو مكّةَ رسولَ اللهِ ﷺ عن البيت، وكتبوا بينهم الصُّلح المشهور، وقع الإسلامُ يومَها في قلبي، ووثبتْ له نفسي، فذكرت ذلك لأمّي هند، فقالت لي مُحذِّرةً: يا معاويةُ؛ إيّاكَ أنْ تخالفَ أباك، واحذرْ غَضَبه، فهو لا يزالُ غضبان على أختِكَ رملةَ أمّ حبيبة لأنَّها أسلمَتْ وخرجَتْ إلى الحبشة، وإنّي أخافُ أنْ يقطعَ عنك القُوت.

قال معاوية: فأخفيتُ إسلامي، وواللهِ لقد رحلَ رسولُ الله ﷺ من الحديبيةِ إلى المدينةِ، وإنّي لمَصدِّقٌ به، ودخلَ مكّةَ عام عمرة القضيّةِ وأنا مسلمٌ وعلم أبي بإسلامي، فقال لي يوماً: إنَّ أخاك خيرٌ منك وهو على ديني، فقلت: لمْ آلُ نفسي خيراً، وأظهرتُ إسلامي يومَ الفتح، فَرحَّبَ بي رسولُ اللهِ ﷺ وأدناني، وكتبتُ له»(١).

* كان سيّدنا معاويةُ رجُلاً طويلاً، أبيضَ، جميلاً مهيباً، من أبضِّ النَّاس وأجملِهم وأبيضِهم، وكان من الكتَبَةِ الحَسَبةِ الفَصَحة، عدَّهُ سيّدُ العبادلةِ عبدُ الله بن عبَّاس من الفُقهاء وقال: «كان فقيهاً».

* وسوف نلتقي سيّدنا معاوية فقيهاً عالماً من رُواةِ الحديث ومن الكتبةِ الحَفظة، ومن علماءِ الأمصارِ ومشاهيرهم.

كاتبُ وَحْي ربّ العالمين:

* سَلَكَ الصَّادقُ المصدوقُ سيّدنا رسولُ الله ﷺ طرقاً متنوّعةً في تبليغِ الدِّين الإسلاميِّ، ومنها: الكتابة والتَّحرير.

* ومن المُتعارَفِ عليه في مسيرةِ الدَّعوةِ الإسلاميّةِ بمكَّةَ المكرمةِ، أنّ الحاجَةَ إلى الكتابةِ لم تكنْ ملحّة إلاّ في تدوين ما كان ينزلُ على الحبيبِ المصطفى ﷺ من آي الذّكْرِ الحكيمِ وسُوَرِه؛ بالإضافةِ إلى بعض المناسبات

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ٤٠٣)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٢) مع الجمع والتصرف. وانظر: الإصابة (٣/ ٤١٣).

التي حدَثَتْ في العهدِ المكّيّ ، ومنها: مكاتبتُه ﷺ للنَّجاشي في شأْنِ مُهاجري الحبشة من المهاجرين؛ وكذلك كتابهُ إلى سيِّدنا مصعبَ بنِ عُمير بالمدينةِ لإقامةِ صلاة الجُمعة ، وهناك مناسباتٌ أخرى مثل: إقطاعه أرضاً ببلاد الشَّامِ للدَّاريين كما في سيرة سيدنا تميم الدَّاري من هذه الموسوعة ، ومثل صلح الحُديبية الشَّهير وغير ذلك ممّا هو مُتعالَمٌ مشهور في ثنايا السِّيرةِ النَّبويّةِ وأردانِها.

* أمَّا سنواتُ العهد المدني التي قضَاهَا ﷺ في المدينة ، فقد حفلتْ بكتبٍ ورسائلَ كثيرة إلى جانب كتابةِ آي الذّكْرِ الحكيم وسُوَرِهِ التي ينزلُ بها الوحي.

* وقد اختار الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ كُتّاباً لهذه الأغراضِ الشَّريفةِ ، وحدَّدَ لهم مهمّاتهم في تدوين ما يُوحىٰ إليه.

* كان هؤلاء الكتابُ سبعةً وثلاثين كاتباً ، شَرَّفهم اللهُ عزَّ وجلَّ بالكتابة بين يدي رسوله ﷺ في الوحي وغيره؛ ونقل الكتّاني في «التَّراتيب الإدارية» أنّهم (٤٢ كاتباً) وأوصلهم بعضُ الباحثين إلى (٦٥ كاتباً) ، والله تعالى أعلم بعدّتهم.

* ولا ريبَ في أنَّ الكتابةَ بين يَدَي المصطفى ﷺ شرفٌ عظيمٌ ، وقَدْرٌ عال جسيم ، ومنزلةٌ فُضْلى ، وميزةٌ كبرى ، فهي اختصاص وتشريف.

* فَمَنْ هؤلاءِ الصَّحابةُ الذين كانوا موضعَ الثِّقةِ المحمّدية وأمناءِ الوحي ، وكُتّاب التَّنزيل؟!

* كان الصَّحابةُ الكاتبون للوحي قسمَيْن: قسْمٌ منهم اختصّ بكتابةِ الوحي وغيره ، وكانوا ستّةً من كُبراءِ الصَّحابة الأخيار من المهاجرين والأنصار وهم:

١ـ **عثمانُ بنُ عفَّان**: كتبَ في التَّنزيل الحكيم.

٢ـ **عليُّ بنُ أبي طالب**: كتَبَ أكثرَ التَّنزيل ، وكتبَ في عهودِ النَّبيّ ﷺ وصلْحِهِ.

٣ـ **عبدُ الله بنُ سعد بن أبي سرح القرشيّ**: كتَبَ في التَّنزيل الحكيم.

٤ـ **معاويةُ بن أبي سفيان**: كتبَ في التَّنزيل الحكيم، وفيما بين النَّبيّ ﷺ وبين العرب.

٥ـ **أبيّ بنُ كعب**: كتَبَ في التَّنزيل الحكيم.

٦ـ **زيدُ بنُ ثابت**: كتَب في التَّنزيل الحكيم.

* وهناك قسمٌ آخر من كُتَّاب الوحي في شؤون الرِّسالةِ والدَّعوة، وحوائجِ النَّاس، وتأسيسِ الدَّولة الإسلامية.

* ومن الفوائدِ المهمةِ في هذا المضمار الميمون، أنَّ ابن عساكر رحمه الله قد ذكرَ كُتَّابَ الوحي وأوصلَهم إلى ثلاثةٍ وعشرين في «تاريخ دمشق»، وترجمَ لهم في «بهجةِ المحافل» فأوصلهم إلى خمسةٍ وعشرين، فذكر منهم عليّاً، وأبا بكر، وعمر، وعثمان، وعامرَ بنَ فهيرة، وعبدَ الله ابنَ الأرقم، وأبيَّ بن كعب، وثابتَ بنَ قيس بن شماس، وخالدَ ابنَ سعيد بن العاصي، وأخاه أبان، وحنظلةَ بنَ أبي عامر الأسديّ، وزيدَ ابنَ ثابت، ومعاويةَ بنَ أبي سفيان، وشرحبيلَ ابنَ حسنة، وعبدَ الله ابنَ عبد الله بن أبي ابن سلول، والزُّبيرَ بن العوّام، ومعيقيبَ بن أبي فاطمة الدّوسيّ، والمغيرةَ بنَ شعبة، وخالدَ بنَ الوليد، والعلاءَ بنَ الحضرميّ، وعمروَ بنَ العاصي، وجُهيمَ بنَ الصَّلت، وعبدَ الله بنَ رواحة، ومحمدَ بنَ مسلمةَ، وعبدَ الله بنَ سعد بن أبي سرح: وكأنَّه قلَّد في ذلك ابنَ عبد البّر، فقد أوصلَهم إلى العددِ المذكور في ترجمة زيدٍ من «الاستيعاب»، وأوصلهم القُرطبيُّ في تفسيره إلى ستّةٍ وعشرين؛ وأوصلهم الشّبراملسي إلى أربعين، وأوصلهم العراقيُّ إلى اثنين وأربعين، ونظَم أسماءهم في تسعةَ عشرَ بيتاً جاء في أوّلها قوله:

كُتَّابُهُ اثنان وأربعونا ... زيدُ بنُ ثابتٍ وكانَ حِيْنا
كاتِبُهُ وبَعْدَهُ معَاويَه ... ابنُ أبي سفيانَ كانَ واعيَه
كذا أبو بكر كذا عَليُّ ... عمرُ وعثمان كذا أُبَيّ

وابـــنُ سعيـــدٍ خـــالـــدٌ وحنْظَلـــه ‏ كـــذا شُـــرحبيـــلُ هـــو ابـــنُ حَسَنـــه

وعـــامـــرٌ وثـــابـــتُ بـــنُ قيـــسِ ‏ كـــذا ابـــن أرقـــم بغيـــر لبْـــسِ

واقتصـــرَ المِـــزِّيّ مـــع عبـــد الغنـــيّ ‏ منهـــم علـــى ذا العـــددِ المَبْنـــيّ

وزدْتُ مـــن مفتـــرقـــاتِ السِّيـــر ‏ جمعـــاً كثيـــراً فـــاضْبِطَنْـــه واحْصُـــرِ

* ثم يذكرُ أسماء الباقين؛ إلى أنْ يوصلهم إلىٰ اثنين وأربعين وقد عدّهم البرُهانُ الحلبي في حواشي «الشِّفا» فأوصلهم إلى ثلاثةٍ وأربعين[1].

* وتذكرُ المصادرُ بأنَّ هؤلاء الكاتبين لم يكونوا كلُّهم كتّاب وحي ، وإنّما كان أكثرهُمُ مداومةً على كتابةِ الوحي زيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين.

* إذن ، كان سيّدنا معاوية بنُ أبي سفيان رضي الله عنه أحدَ كُتَّاب الوحي الملازمين لرسولِ اللهِ ﷺ ، وقد تربّى معاويةُ في مدرسةِ النُّبوَّةِ الزَّاهرةِ تربيةً فريدةً ، جعلتْهُ من مشاهيرِ علماءِ الصَّحابة وأمنائهم وعقلائهم ، كما كان معاوية من مشاهيرِ رجالاتِ الدّنيا في عالَمِ الشُّهرة في الألمعيّةِ والنَّباهةِ والحلمِ والبلاغة وقارئاً لبيباً والمكارم الحِسَان.

* كان سيّدنا معاوية كاتباً حصيفاً ، اختارَهُ الصَّادق المصدوق ﷺ ، ومنحَهُ الثِّقة لهذه المهمّة؛ ومن المعلوم أنَّ هناك أُسراً كَتَبَتِ الوحيَ ، ومنَ الأُسَرِ الكاتبةِ للوحي: سيّدنا معاوية بن أبي سفيان وأخوه يزيد ، وهما من الأسرةِ السُّفيانيَّة ، وعمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو وهما من الأسرة السَّهميّة ، والعلاءُ بنُ الحضرمي وابن أخيه عبد الله بن عمرو الحضرمي وهما من الأسرة الحضرميّة؛ ورأسُ هذه الأسر وتاجُها الأسرةُ الصِّدّيقيَّة ، فقد كان سيّدنا أبو بكر وابنه عبد الله ومولاه عامر بن فهيرة من كُتَّاب الوحي ، وكذلك الأسرةُ الأمويةُ ومنهم أولاد سعيد بن العاص وهم: خالد وأبان وسعيد.

---

(١) التراتيب الإدارية (ص ١٩١ ـ ١٩٣) باختصار وتصرف. وللمزيد من هذا الموضوع انظر: مختصر تخريج الدلالات السمعية للتلمساني (ص ٦٣ ـ ٦٧) أقول: «وفي دراسة لبعض الباحثين أوصل عدد كتّاب الوحي إلى ٦٥ كاتباً» والله تعالى أعلم.

* ومن المؤكدِ أنَّ الكتابةَ بين يدي النَّبي ﷺ شرفٌ وافٍ وفَضْلٌ كافٍ لا يناله إلّا الأقلّون ، ومكانةٌ ورفْعةٌ لا يتبوأُ سدّتها إلا العالمون ، ولَطَالمَا تطاولتِ الأعناقُ إلى هذا الشَّرف العظيم ، لأنَّ الكاتبَ يكونُ أقربَ النَّاسِ مجلساً من النَّبيّ ﷺ ، وأسرعهم إلى الأخْذِ عنه ، لذا فقد رفع ﷺ مقامَهم ، ودعا إلى الاقتداء بهم ، والأخذ عنهم في القرآنِ والفتوى والفقهِ والعلْم ، وحين اشتداد المعارك ، وفي الأمورِ ذات المصلحةِ العامةِ والنَّافعةِ للمسلمين.

* لهذا نقرأُ في الصَّحيح بأنّه لما أعلنَ أبو سفيان إسلامه يومَ فتح مكَّة ، طلبَ من النَّبيّ ﷺ أنْ يجعلَ معاوية كاتباً بين يديه ، فوافقَ ﷺ على ذلك.

* أخرجَ مسلم في صحيحه عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما بأنَّ أبا سفيان قال للنَّبيّ ﷺ: «يانبيَّ الله! ثلاثٌ أعطنيهنَّ. قال: «نعم».

وذكر منهنَّ قوله: «ومعاوية تجعله كاتباً بين يديكَ».

قال: «نعم»[1].

* وكان معاويةُ ومعه زيدُ بنُ ثابت ملازمَيْن[2] للكتابةِ بين يدي الهادي البشير ﷺ في الوحي وغيره ، لا عملَ لهما غير ذلك؛ وكان معاويةُ يكتبُ للنَّبي ﷺ بينه وبين العرب[3] ، وقد ذكر المصنّفون أنَّه كتبَ أحد عشَر كتاباً إلى جانبِ التَّنزيل ، ومن هذه الكتب: كتابه صكّ عتق أبي رافع مولى النّبيّ ﷺ ، وكتابه لبني عبدِ الله النّبهانيين ، ولعتبةَ بنِ فرقد ، ولبلالِ بنِ الحارث وغيرهم[4].

* ومن أمثلةِ كُتُبِ سيّدنا معاويةَ ، كتَابَهُ صك عتق أبي رافع مولى النَّبيّ ﷺ: «بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم» كِتابٌ من محمّدٍ رسولِ اللهِ لِفَتَاهُ أسلم:

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٠١) وهو قطعة من حديث طويل.
(٢) حياة الحيوان (١/ ٧٩) ، والتراتيب الإدارية (ص ١٩٩).
(٣) الإصابة (٣/ ٤١٣)؛ وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٢ و١٢٣).
(٤) كتاب الوحي (ص ٣٠٥) بتصرف.

أنّي أعتقتك للهِ عتقاً مبتولاً ، اللهُ أعتقكَ ولَهُ المنُّ عليَّ وعليك ، فأنت حرٌّ لا سبيلَ لأحدٍ عليكَ ، إلا سبيلَ الإسلام وعصمةَ الإيمان ، شهدَ بذلك أبو بكر ، وشَهِدَ عثمان ، وشهد عليّ ، وكتبَ معاويةُ بنُ أبي سفيان»[1].

* ولا ريب في أنَّ مَنْ يلازمُ النَّبيّ ﷺ يكتبُ له ، أو مَنْ يستدعيه ﷺ ليكتبَ له ، يكونُ من العُلماء الأخيار ، وهكذا كان سيّدنا العالمُ معاوية رضي الله عنه ، فإنَّ أفضلَ أوقاتهِ وأسعدها تلك التي يستدعيه فيها النَّبيُّ ﷺ ليملي عليه ما نزلَ به الرُّوحُ الأمينُ جبريل.

* ولم يتأخرْ سيّدنا معاوية مرةً واحدةً عن الكتابة ، غير مرّةٍ ذكرها سيّدُ العبادلة ابنُ عبّاس فيما أخرجه عنه مسلم قال: «كنتُ ألعبُ مع الصِّبيان ، فجاءَ رسولُ اللهِ ﷺ فتواريتُ خلفَ باب؟ فجاء فَحطَأَني حَطْأَةً ، وقال: «اذهَبْ وادْعُ لي معاوية».

قال: فجئتُ فقلتُ: هو يأكلُ. قال: ثمّ قال لي: «اذهبْ فادْعُ لي معاوية».

قال: فجئتُ فقلتُ: هو يأكل.

فقال: «لا أشبع اللهُ بطْنَه»[2].

---

(١) كتّاب الوحي ص (٣٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في البرّ والصِّلة برقم (٢٦٠٤)؛ ومعنى قوله: «حَطْأة» بفتح الحاء ، وإسكان الطّاء، بعدها همزة؛ وهو الضَّربُ باليد مبسوطة بين الكتفين ، وإنَّما فعل هذا بابن عباس ملاطفة وتأنيساً ، وأما دعاؤهُ على معاوية: «لا أشبع الله بطنه» حين تأخر: ففيه أمران:
الأوّل: أنّه جرى على اللسان بلا قصد.
الثاني: أنّه عقوبة له لتأخّره.
وقد فهم مسلم رحمه الله من هذا الحديث أنَّ معاويةَ لم يكن مستحقاً للدّعاءِ عليه ، فلهذا أدخلهُ في هذا الباب (الباب ٢٥ من كتاب البر والصلة) وجعلَه غيرهُ من مناقبِ معاوية؛ لأنّهُ في الحقيقة يصيرُ دعاء له.
وفي هذا الحديث: جواز تركِ الصّبيان يلعبون بما ليس بحرام. وفيه اعتمادُ الصّبي فيما يُرسَلُ فيه من دعاء إنسان ونحوه من حمل هدية وطلب حاجة وأشباهه ، وفيه جواز إرسالِ صبي غيره ممن يدلّ عليه في مثل هذا. والله أعلم (المنهاج ص ١٨٥٥) بتصرف يسير.

* وقد علّقَ النّوريُّ على هذا الحديثِ تعليقاً مفيداً فقال: «فَسَّرهُ بعضُ المُحبِّين قال: «لا أشبعَ اللهُ بطْنَه؛ حتَّى لايكون ممّن يجوعُ يوم القيامة ، لأنَّ الخبرَ عنه أنَّه قال: «أطولُ النَّاسِ شبعاً في الدُّنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة».

قلتُ: هذا ماصحَّ ، والتّأويلُ ركيكٌ ، وأشبَهُ منه قولُه عليه السَّلام: «اللهم مَنْ سَبَبْتُه أو شَتَمْتُهُ من الأمّة ، فاجعلها له رحمةً» أو كما قال. . وقد كان معاوية معدوداً منَ الأكَلَةِ»[1].

* وقد حرصَ سيّدنا معاويةُ رضي الله عنه حِرصَ العالِم الحصيفِ ألاّ يفارقَ المسجدَ النّبويَّ أو المجالسَ النّبويّةَ المونقةَ ، وذات يومٍ من أيام شَهْرِ رمضان المبارك حظيَ سيّدنا معاويةُ بدعاءٍ نبويّ مبارك انتفعَ به في الدُّنيا والآخرة.

* أخرجَ هذا الدُّعاء الإمام أحمد بسندهِ عن العِرْباضِ بنِ سارية السُّلميّ قال: «سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ وهو يدعونا إلى السّحور في شَهْرِ رمضان: «هلُمّوا إلى الغداء المبارك» ثم سمعتهُ يقول: «اللهم عَلِّمْ معاوية الكتابَ ، والحسابَ ، وقِهِ العذاب»[2].

* وتروي أمّنا أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها خبراً يشيرُ إلى مكانةِ سيّدنا معاويةَ بين كُتّاب الوحي ، كا يدلُّ على أنَّه سيكونُ خليفةً ، ثم يحظى بدعاءٍ من الصَّادق المصدوق ﷺ ، وهو من دلائل النّبوة.

* عن عائشةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: «لمّا كان يومُ أمّ حبيبة من النَّبيّ ﷺ دقَّ البابَ داقٌّ؛ فقال النَّبيّ ﷺ: «انظروا مَنْ هذا»؟

قالوا: معاوية.

قال: «ائذنوا».

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٣ و١٢٤) وانظر تخريج الأحاديث فيه.

(٢) المسند (٦/ ٨٥) حديث رقم (١٧١٥٢) ، ومعظم رجال الحديث ثقات؛ وانظر: سبل الهدى والرشاد (١٠/ ٣٨٤).

ودخلَ وعلىٰ أذنه قَلَم يخطُّ به .

فقال: «ما هذا القلم على أذنك يا معاوية»؟

قال: «قلمٌ أعددتُه لله ولرسوله».

فقال: «جزاكَ اللهُ عن نبيّك خيراً ، واللهِ ما استكتبتُكَ إلاّ بوحي منَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ كيفَ بكَ لو قد قمصَكَ اللهُ قميصاً - يعني الخلافة -.

فقامت أمُّ حبيبة ، فَجلَسَتْ بين يديه ، فقالت: يا رسولَ اللهِ وإنَّ اللهَ مقمصٌ أخي قميصاً؟

قال: «نعم ، ولكنْ فيه هَنَاتٌ وهَنَاتٌ وهَنَاتٌ».

قالت: يا رسولَ اللهِ ، فادعُ اللهَ له .

فقال: «اللهمّ اهدِهِ بالهُدىٰ ، وجنّبْهُ الرّدى ، واغفرْ له في الآخرةِ والأولى»[1] .

* وشهد عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنهما - وهو أحدُ العبادلة الأربعة العلماء وكان من الكَتَبَةِ الحفَظَة - لسيّدنا معاويةَ بنِ أبي سفيان بهذه الشَّهادةِ الزَّاكيةِ فقال: «كان معاويةُ يكتبُ لرسولِ الله ﷺ»[2] .

* وهكذا كان سيّدنا معاويةُ من أشرافِ الكُتَّاب، ومن الكُتَّاب الأشراف ، وكان فصيحاً حليماً مفوّهاً ، ذا هيئةٍ وهيبةٍ ، له مكانتهُ المرموقةُ بين كُتَّاب الوحي الكرام رضي الله عنهم أجمعين ، كما كان له مكَانةٌ متميزةٌ عند الصَّادق المصدوقِ النّبيّ الأمّيّ رسولِ اللهِ ﷺ.

---

(١) مجمع الزوائد (٩/ ٣٥٦) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه السّري بن عاصم وهو ضعيف». وانظر: سبل الهدى والرشاد (١٠/ ٣٨٢ - ٣٨٤). ونقل الصّالحيُّ عن ابن عساكر عن عروةَ بنِ رُويم قال: «جاء أعرابيٌّ إلى النَّبي ﷺ فقال: صَارِعْني ، فقام إليه معاويةُ فقال: أنا أصارعُكَ ، فقال النبي ﷺ: «لن يُغلَبَ معاوية أبداً» فَصَرَعَ الأعرابيَّ. فلمّا كان يوم صفّين قال عليٌّ رضي الله تعالى عنه: لو ذكرتُ هذا الحديثَ ما قاتلتُ معاوية». (سبل الهدى والرشاد ١٠/ ٣٨٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٣) ورجاله ثقات.

* وعلى الرّغم من أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان أمّيّاً لا يكتبُ ولا يحسبُ إلا أنّه ﷺ يعرفُ كتابةَ اسمِه ، وله خاتَمٌ بيدِهِ ونَقْشُه : «محمّدٌ رسولُ الله» ؛ ومنَ الفائدةِ المهمّةِ والعظيمةِ أنْ يعرفَ القارىءُ هذه المعوماتِ المفيدة القيّمة التي ذكَرهَا الذَّهبيُّ في هذا المجالِ ، وها نحنُ أولاء نسوقُها كاملةً كما أوردها الذَّهبيُّ في ترجمةِ ابن مَنْدَه رحمه الله .

* قال الذَّهبيُّ رحمه الله : «لم يَرِدْ أنَّه ﷺ كتبَ شيئاً ، إلاّ ما في «صحيح البخاري» من أنَّه يوم صلْحِ الحديبية كتَبَ اسمه «محمّد بن عبد الله»[(١)] .

واحتجَّ بذلكَ القاضي أبو الوليد الباجيَّ ، وقام عليه طائفةٌ من فقهاءِ الأندلسِ بالإنكار ، وَبَدَّعُوهُ حتّى كَفَّرهُ بعضُهم .

والخطبُ يسيرٌ ، فَما خرَجَ عن كونِهِ أمّياً بكتابةِ اسمِهِ الكريم ، فَجماعَة من الملوكِ ما عَلِمُوا من الكتابةِ سوى مجرّدِ العلامةِ ، وما عدَّهُم النَّاسُ بذلك كاتبين ، بل هم أمِّيُّون ، فلا عبرة بالنَّادر ، وإنّما الحكْمُ للغالبِ ، واللهُ تعالى من حكمتِهِ لم يلهم نبيَّه تعلُّمَ الكتابةِ ، ولا قراءةَ الكتبِ حَسْماً لمادَّة المُبطِلين ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٨] ؛ ومع هذا فقد افتروا وقالوا : ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ [الفرقان : ٥] ، فانظرْ إلى قِحَةِ المعَاند ، فَمَنِ الذي كان بمكّةَ وقت المبعثِ يدري أخبار الرّسل والأمم الخالية؟ ما كان بمكّة أحد بهذه الصِّفة أصلاً .

ثمَّ ما المانعُ من تعلُّمِ النَّبيّ ﷺ كتابةَ اسمهِ ، واسمِ أبيهِ مع فرطِ ذكائِهِ ، وقوَّةِ فَهْمِهِ ، ودوام مجالسته لِمَنْ يكتبُ بينَ يديهِ الوحيَ والكُتُبَ إلى ملوكِ الطَّوائفِ ثمّ هذا خاتمُهُ في يدهِ ونَقْشُهُ : محمّدٌ رسول الله[(٢)] ، فلا يظنَّ عاقلٌ ، أنَّه ـ عليهِ السَّلام ـ ما تَعَقَّل ذلك ، فهذا كلُّه يقتضي أنَّه عرفَ كتابةَ

---

(١) أخرجه البخاري في الصّلح برقم (٢٦٩٩) ، وفي المغازي برقم (٤٢٥١) .
(٢) أخرجه البخاري في اللباس برقم (٥٨٧٢ و٥٨٧٣) ، ومسلم في اللباس والزينة برقم (٥٠٩٢) .

اسمِهِ واسمَ أبيهِ ، وقد أخبرَ اللهُ بأنَّهُ ـ صلواتُ اللهِ عليه ـ ما كان يدري ما الكتابُ؟ ثمّ علَّمهُ اللهُ تعالى ما لم يكن يَعْلَمْ.

ثمَّ الكتابةُ صِفَةُ مدحٍ ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤ ـ ٥] ، فلمّا بلَّغَ الرِّسالةَ ، ودخلَ النَّاسُ في دينِ اللهِ أفواجاً ، شاء اللهُ لِنَبيّهِ أنْ يتعلَّمَ الكتابةَ النَّادرةَ التي لا تخرجُ بمثلها عن أَنْ يكونَ أميّاً ، ثمّ هو القائل: «إنّا أمّةٌ أميّةٌ لا نكتبُ ولا نحسبُ»[1] فصدقَ إخبارُهُ بِذلكَ ، إذ الحكمُ للغالبِ ، فنفىٰ عنه وعن أمتهِ الكتابةَ والحسابَ لِندورِ ذلكَ فيهم وقلَّته ، وإلا فقد كانَ فيهم كُتَّاب الوحي وغير ذلك ، وكان فيهم من يَحسُب ، وقال تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

ومن علمِهم الفرائض ، وهي تحتاجُ إلى حسابٍ وعَوْل وهو عليهِ السَّلامُ نفى عن الأمّة الحسابَ ، فعلمنا أنَّ المنفيَّ كمالُ علم ذلكَ ودقائقه التي يقومُ بها القِبْطُ والأوائل ، فإنَّ ذلكَ ما لم يَحْتَجْ إليه دِيْنُ الإسلامِ وللهِ الحمد ، فإنَّ القبْطَ عمَّقُوا في الحسَابِ والجَبرِ ، وأشياءَ تضيِّعُ الزَّمان. وأرباب الهيئةِ تكلَّمُوا في سَيْرِ النُّجومِ ، والشَّمسِ ، والقمرِ ، والكسوفِ والقِران ـ قرانِ الكواكب ـ بأمورٍ طويلةٍ لم يأتِ الشَّرعُ بها ، فلمّا ذكرَ ﷺ الشّهورَ ومعرفتَها ، بَيَّنَ أنَّ معرفتها ليست بالطّرقِ التي يفعلُها المنجّمُ وأصحابُ التقويم ، وأنَّ ذلكَ لا نعبأُ بهِ في ديننا ، ولا نحسُبُ الشَّهر بذلكَ أبداً ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ الشَّهرَ بالرّؤيةِ فقط ، فيكون تسعاً وعشرين ، أو بتكملة الثلاثين فلا نحتاجُ مع الثَّلاثين إلى تكلُّف رؤية.

وأمّا الشّعر: فنزَّهَهُ اللهُ تعالى عن الشِّعر ، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩] فما قال الشِّعرَ مع كثرتهِ وجودتهِ في قريش ، وجَرَيَان قرائحهم به ، وقد يقعُ شيءٌ نادرٌ في كلامه عليهِ السَّلام موزوناً فما صارَ بذلكَ شاعراً قطّ ، كقوله:

أنا النَّبيُّ لا كَذِب   أنا ابنُ عبدِ المطَّلِب

(١) أخرجهُ البخاري في الصوم برقم (١٩١٣) ، ومسلم في الصيام برقم (١٠٨٠).

وقوله:

هـــل أنـــتِ إلا إصبَـــعٌ دَميـــتِ وفـــي سبيـــلِ اللهِ مـــا لَقِيْـــتِ

ومثْلُ هذا قد يقعُ في كتُبِ الفِقْهِ والطِّبّ، وغير ذلكَ مما يقعُ اتّفاقاً، ولا يقصدهُ المؤلّف ولا يشعرُ به، أفيقولُ مُسْلِمٌ قط: إنَّ قوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣] هو بيت؟! معاذ الله! إنَّما صادف وزناً في الجملةِ، واللهُ أعلم»[1].

الكاتبُ الأمين وأحاديثُ الصَّادقِ الأمين ﷺ:

* إذا كان سيّدنا معاويةُ من الكُتَّابِ الأُمناء، ومن الصَّحابة العُلماء، فلا يبعد أنْ يكون من أكابرِ العُلَماءِ الذين حفظُوا شطراً جيداً من أحاديثِ الصَّادق الأمينِ المصدوقِ ﷺ، ووعوا كلامَهُ، ونقلوهُ بكاملِ الأمانةِ والدّقَّةِ للأُمَّةِ من بعده.

* وعندما نتحدَّثُ عن سيّدنا معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنه ـ للوهلةِ الأولى ـ يتبادرُ إلى الذّهن الأخبار العامة المشهورةِ عنه من حلْمٍ، وأمارة، وأدبيّات، وبعض الأحداث والأخبار السّياسية في عصره؛ ولكنّه لا يتبادرُ إلى الذِّهنِ روايتهُ لأحاديث المصطفى ﷺ، وأنّهُ أحدُ فقهاءِ الصَّحابةِ

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/ ١٩٠ ـ ١٩٣). وقال الذّهبي أيضاً: «ما كلُّ مَنْ عرف أن يكتب اسمه فقط بخارجٍ عن كونه أميّاً، لأنّه لا يسمى كاتباً، وجماعة من الملوك أدمنوا على كتابة العلامة وهمْ أمّيون، والحكم للغلبةِ لا للصّورةِ النّادرة» (تذكرة الحفّاظ (٣/ ١١٨١ و١١٨٢).

وقال الذهبيّ: «وما المانعُ من جوازِ تعلّمِ النّبيّ ﷺ يسير الكتابة، بعد أن كان أمياً لا يدري ما الكتابة! فلعلّهُ لكثرةِ ما أملي على كتّاب الوحي، وكتاب السّنن والكتب إلى الملوك، عرف من الخط، وفهمه، وكتب الكلمة والكلمتين... وليست كتابته لهذا القدر اليسير مما يخرجه عن كونه أميّاً...» (تذكرة الحفاظ ٢/ ٧٤٢) بتصرف يسير.

وقال ابن الجوزي: «إطلاقُ يده ﷺ بالكتابة ولم يحسنها كالمعجزة له، ولا ينافي هذا كونه أمياً لا يحسن الكتابة، لأنّهُ ما حرّك يده تحريكَ من يحسن الكتابة، إنما حرّكها فجاء المكتوب صوابا».

وعلمائهم ، بل أحدُ الذين عُرفوا بالفتوى والقراءة والفهم ، ونَقْلِ كثيرٍ من الأحكامِ الإسلاميّةِ للأمّة الإسلامية .

* وها نحنُ أولاء الآن ـ في هذه الموسوعة المباركةِ ـ نُشيرُ إلى شخصيّتهِ العِلْميّةِ ، ونتحدّثُ عن حفظهِ وروايته للحديث النّبويّ الشَّريف ، وعلمه بكثيرٍ من أحداثِ السِّيرةِ النَّبويّةِ ، وأحكامِها ، وفقهِها من خلالِ محفوظاته للآثار المحمّدية الشَّريفة .

* قال الذَّهبيُّ وغيرُهُ: «حدَّثَ معاويةُ عن النّبي ﷺ ، وكتَبَ له مرّات ، وحدَّث أيضاً عن أختِهِ أمِّ المؤمنين أمّ حبيبة ، وعن الخليفتَين أبي بكر وعمر رضي اللهُ عنهما. وروىٰ عنه من علماء الصّحابة عددٌ غفيرٌ منهم العبادلةُ العلماء: ابنُ عباس ، وابن عمرو ، وابن عمر ، وابنُ الزّبير ، كما روى عنه من الصحابةِ العلماء المذكورين في هذه الموسوعة أبو الدّرداء ، وأبو سعيد الخُدري؛ وروىٰ عنه من الصحابةِ أيضاً: جريرُ بنُ عبد الله ، والنُعمانُ بن بُشَير ، والسَّائبُ بن يزيد ، وأبو أمامة بن سَهْل ، ومعاويةُ بن حديج ، ويزيدُ بن جارية الأنصاري الأوسي وغيرهُم رضي الله عنهم أجمعين»[1].

* وروىٰ عنه من علماء التّابعين ومشاهيرهم: سعيدُ بن المسيب ، وعروةُ بن الزُّبير ، وأبو سلمةَ بن عبد الرحمن ، وحُميد بن عبد الرحمن ، ومحمد بن سيرين ، وأبو إدريس الخولاني ، وعبد الله بن عامر المقرىء ، وخالدُ بن معدان وخلقٌ سواهم .

* ويُعَدُّ سيّدنا معاويةُ من حُرَّاس الحديث النَّبويِّ الشَّريف ، فهو منْ أصحابِ المئات وشيء ، رُوي له عن رسول الله ﷺ (١٦٣ حديثاً) اتَّفقَ له

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٠٢ و١٠٣) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ١٢٠) ، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٢٠٧) مع الجمع بينها ، وانظر: المعجم الكبير (١٩/ ٣٠٨ ـ ٣١٨).

البخاري ومسلم على أربعةٍ منها ، وانفردَ البخاري بأربعةٍ ، ومسلم بخمسة[1].

* وتمثّلُ مرويّاتُ سيّدنا معاوية معظمَ أبوابِ العِلْم ، ومسائل الفقه والفتوى؛ ففي صحيح البخاري مثلاً له عِدَّة أحاديث بالمكررِ في الأبوابِ التّالية: باب الاعتصام ، والخمس ، والأنبياء ، واللباس ، والمناقب ، والأحكام ، ومواقيت الصّلاة ، والنَّفقات ، والحجّ ، والأذان ، والعِلْم ، والزّكاة ، والأدب ، والتّوحيد[2].

* وفي صحيح مسلم له في كتاب الصّلاة ، والجمعة ، والزّكاة ، والصّيام ، والحجّ ، واللباس ، والزّينة ، والفضائل ، والذّكر والدُّعاء[3].

* ومن مرويّات سيدنا معاوية التي جاءت في الصّحيح ، في كتاب العلم ، وباب الفقه في الدِّين؛ ما أخرجه البخاري بسنده عن حُميد بن عبد الرحمن قال: سمعتُ معاوية خطيباً يقول: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «مَنْ يُرِد اللهُ بهِ خيراً يُفقِّههُ في الدِّين ، إنَّما أنا قاسمٌ واللهُ يُعطي ، ولن تزالَ هذهِ الأمّةُ قائمةً على أَمْرِ اللهِ لا يضرّهُمْ مَنْ خالَفَهُمْ حتّى يأتيَ أَمْرُ اللهِ»[4].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٠٢ و١٠٣) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٢).

(٢) انظر هذه الأبواب في صحيح البخاري وشرحه فتح الباري.

(٣) انظر هذه الأحاديث في صحيح مسلم بالأرقام الآتية حسب تصاعدها «٣٨٧ و٨٨٣ و١٠٣٧ و١٠٣٨ و١١٢٩ و١٢٤٦ و٢١٢٧ و٢٣٥٢ و٢٧٠١) وكان معاوية لا يتهم في الحديث عن النبي ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري في العلم برقم (٧١) واللفظ له. وانظر البخاري أيضاً برقم (٣١١٦ و٣٦٤١ و٧٣١٢ و٧٤٦٠)؛ ومسلم في الزّكاة برقم (١٠٣٧) ، وأحمد (٦/ ١٤) برقم (١٦٨٣٤). قال ابنُ حجر رحمه الله تعالى: «وهذا الحديثُ مشتملٌ على ثلاثة أحكام:
أحدها: فَضْلُ التَّفَقّهِ في الدِّين.
ثانيها: أنَّ المعطي في الحقيقةِ هو الله.
ثالثها: أنَّ بعضَ هذه الأمّةِ يبقى على الحقِّ أبداً.
فالأوّلُ: لائق بأبوابِ العِلْم.
والثّاني: لائق بقسم الصّدقات ، ولهذا أوردَهُ مسلم في الزّكاة ، والمؤلّف في الخمس. =

* وفي فضلِ الأذانِ وهربِ الشَّيطانِ عند سماعه، يروي سيّدنا معاوية فيقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «المؤذّنونَ أطولُ النَّاسِ أعناقاً يومَ القيامةِ»[1].

* ولسيّدنا معاويةُ رضي الله عنه مرويّات في الصَّحيحِ في مجالِ الذّكْرِ والدُّعاءِ، وفضلِ الاجتماعِ على تلاوةِ القُرآنِ الكريم، وعلى الذكر في المسجدِ، أو مكانِ العلمِ، أو أي موضعٍ طاهرٍ، ومن هذه المرويات ما أخرجهُ مسلمٌ بسندهِ عن سيّدنا أبي سعيد الخُدري قال: «خرجَ معاويةُ على حلقةٍ في المسجدِ، فقال: ما أجلسكم؟

قالوا: جلَسْنَا نذكرُ اللهَ.

قال: آللهِ! ما أجلَسَكم إلاّ ذاك؟

قالوا: واللهِ! ما أجْلَسَنا إلا ذاك

= والثالث: لائق بذكر أشراط الساعة، وقد أورده المؤلف في الاعتصام لالتفاته إلى مسألة عدم خلو الزّمان من مجتهد.

ومعنى: «أمر الله»: قيل المراد بأمْرِ اللهِ هنا الريحُ التي تقبضُ روحَ كلّ مَنْ في قلبهِ شيء من الإيمان، ويبقى شرارُ النّاس، فعليهم تقوم السّاعة.

والتّفقّهُ بالدّين لا يكون بالاكتساب فقط، بل لمن يفتح اللهُ عليهِ به، وأنَّ من يفتح اللهُ عليه بذلكَ لا يزالُ جنسه موجوداً حتى يأتي أمرُ اللهِ، وقد جزمَ البخاري بأنَّ المراد بهم أهل العلمِ بالآثار؛ وقال أحمدُ بنُ حنبل: «إنْ لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم»؟ وقال القاضي عياض: «أراد أحمد أهل السُّنّة، ومَنْ يعتقد مذهب أهل الحديث».

وقال الإمامُ النووي: «يُحتملُ أنْ تكونَ هذه الطّائفة فرقةٌ من أنواعِ المؤمنين ممن يقيم أمر اللهِ تعالى من مجاهدٍ، وفقيهٍ ومحدّثٍ، وزاهدٍ، وآمرٍ بالمعروفِ وغير ذلكَ من أنواع الخير، ولا يلزم اجتماعهم في مكانٍ واحدٍ، بل يجوز أنْ يكونوا متفرقين».

ومعنىٰ قوله «يفقهه» أي: يفهمه، يُقال: فَقُه: إذا صار الفقهُ له سجية؛ وفَقَهَ: إذا سبقَ غيره إلى الفهم. وفقِهَ: إذا فهم. وفي هذا بيانٌ ظاهرٌ لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التّفقّه في الدين على سائر العلوم. (فتح الباري (١/ ١٩٨) بتصرف.

وقال النووي رحمه الله: «في الحديث فضيلة العلم والتّفقّه في الدّين، والحثّ عليه، وسببه أنَّه قائد إلى تقوى الله تعالى» (المنهاج ص ٧٩٧).

(١) أخرجه مسلم في الصلاة برقم (٣٨٧)؛ وأحمد (٦/ ٢٦) حديث رقم (١٦٨٩٨).

أَمَا إنّي لم أستحلفْكُمْ تُهْمَةً لكم ، وما كان أحدٌ بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقلّ عنه حديثاً منّي ، وإنَّ رسول الله ﷺ خرجَ على حلقةٍ من أصحابه فقال : «ما أجلسكم»؟

قالوا : جلسنا نذكرُ اللهَ ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومَنَّ بهِ علينا .

قال : «آلله! ما أجلسكم إلا ذاك»؟

قالوا : واللهِ! ما أجلَسَنا إلا ذاك .

قال : «أمّا أنّي لم أَستحلفكم تهمَةً لكم ، ولكنّهُ أتاني جبريل ، فأخبرني أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يباهي بكم الملائكة»[1] .

* وفي مجال الذّكرِ والدُّعاءِ والتَّضرُّعِ إلى اللهِ أخرجَ الإمامُ أحمد في «المسند» بسنده عن محمّد بن كعب القُرظيّ ، قال : «قال معاويةُ على المنبر : «اللهمّ لا مانعَ لما أعطَيْتَ ، ولا مُعطي لِما مَنَعْتَ ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منكَ الجَدُّ ، مَنْ يُرِدِ اللهُ بهِ خَيراً يفقِّههُ في الدين» ، سمعتُ هؤلاء الكلمات من رسول الله ﷺ على هذا المنبر»[2] وللحديث تتمة بموضع آخر وهو : «خيرُ نسوةٍ ركبْنَ الإبل صَالحُ نساء قريش ، وأَرْعَاهُ على زوجٍ في ذاتِ يده ، وأَحْنَاهُ على وَلَدٍ في صغره»[3] .

* ومن مرويّاتِ سيّدنا معاويةَ في الفضائل ، ما أخرجهُ الإمامُ أحمد بسنده عنه قال : «رأيتُ رسول الله ﷺ يَمَصُّ لسانه» أو قال : «شَفَته» ـ يعني الحسن بن عليّ رضي الله عنه ـ وأنَّهُ لن يُعَذَّبَ لسان أو شفتان مصَّهما رسول الله ﷺ»[4] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠١) ، والطبراني (١٩/ ٣١١) ، ومعنى «يباهي» يُظهِرُ فضلكم لهم ، ويريهم حسن عملكم ويثني عليكم عندهم. وأصل البهاء : الحسن والجمال ، وفلان يباهي بماله : يفخر .

(٢) المسند (٦/ ١٥) حديث رقم (١٦٨٣٩) ، ورقم (١٦٨٥٠) ، ورقم (١٦٨٦٠) .

(٣) المسند (٦/ ٣١) حديث رقم (١٦٩٢٧).

(٤) المسند (٦/ ١٧) حديث رقم (١٦٨٤٨).

* وفي فضائلِ الأنصارِ ومناقبهم أخرجَ الطَّبرانيُّ بسنده عن يزيدَ بن جاريةَ الأنصاريّ رضي اللهُ عنه قال: «كُنَّا جُلوساً حول سريرِ معاوية، فخرجَ إلينا، فقال: ما كنتم تتحدثون؟ قالوا: كنّا في حديثٍ من حديثِ الأنصار.

فقال معاويةُ: ألا أزيدكم حديثاً سمعتهُ من رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أحبَّ الأنصارَ أحبَّهُ الله، ومَنْ أَبغضَ الأنصارَ أبغضهُ الله»[1].

* ومرويّات سيّدنا معاوية بن أبي سفيان رضوان الله عليه منثورةٌ في كتبِ الحديثِ صحيحها وسننها ومسانيدها ومصنّفاتها ومعاجمها، ويمكن الرّجوع إليها بسهولة لمعرفة قَدْرِ معاوية ومكانتهِ الحديثية في عالَم الرّوايةِ والتّحديث.

فَهْمُ كاتبِ القُرآنِ للقُرآنِ:

* سيّدُنا معاويةُ رضي اللهُ عنه مِنْ كبارِ عُلماءِ الصَّحابةِ الذين لهم في تفسيرِ القُرآنِ أقوالٌ تستندُ إلى ما تعلّمه من الهديّ النّبويّ، وما سمعهُ من مفسّري الصّحابة وفقهائهم؛ وكان بالإضافةِ إلى هذا كلّه قد عاصرَ عدداً من أكابرِ العلماء الذين صحبُوا النَّبي ﷺ ورووا عنه، فَأفاد منهم وأفادُوا منه.

* ومن الجديرِ بالذكر أنَّ التَّفاسير وكتب الفقه التي وصلَتْ إلينا، قد اهتمَّتْ بما أُثِرَ عَنْ سيّدنا معاويةَ رضي الله عنه من أقوالٍ في إيضاحِ بعضِ المُشكِلات أو ما استعصىٰ فهمُهُ على الآخرين؛ فكان يفسّره تفسيراً واضحاً مستنداً إلى الفقه، وإلى كثير من الأحكام.

* ومن ذلكَ أنَّه كانَ يوجبُ طلاقَ السَّكران إنْ طلَّقَ امرأته، واعتبرَ أنَّ طلاقَهُ نافذٌ عليه[2]. وقد أخذ برأيهِ عددٌ من علماء الصَّحابة والتَّابعين.

* ولسيدنا معاوية رأي في معنى قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ ...﴾ [التوبة: ٣٤] فقد قال: «إن الآية في أهل

---

(١) المعجم الكبير (١٩/ ٣١٧ و٣١٨)، والمسند (٦/ ٣٠) حديث رقم (١٦٩١٧)، ومجمع الزوائد (١٠/ ٣٩).

(٢) تفسير البحر المحيط (٣/ ٢٦٦)، وانظر: المحلى لابن حزم (١٠/ ٢٠٩).

الكتاب»[1]. وذكر بعضُ المفسّرين أنَّ سيّدنا معاويةَ قال في تفسير: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ . . .﴾ [التوبة: ٣٤]: «من أوصاف الكثيرِ من الأحبارِ والرُّهبان»[2]. إنَّ هؤلاء وأمثالهم لا ينبغي تعظيمهم ولا احترامهم، لما اشتملوا عليهِ من كنْزِ المالِ وأكلهِ بالباطلِ، وصدهم عن سبيلِ اللهِ.

* ويظهرُ علْمُ سيّدنا معاويةَ في أسبابِ النُّزولِ بأنَّ كثيراً من المفسّرين أخذوا برأيهِ ومعرفتهِ عندما قرأَ آخرَ آية في سورة الكهف ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ . . .﴾ [الكهف: ١١٠]، قال معاويةُ: «هذه آخر آيةٍ نزلت من القرآن»[3].

* ومن تفسير سيّدنا معاوية الذي رفعه إلى النّبيّ ﷺ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، قال: «هذه البشارةُ هي بإسماعيل عليه السَّلام»[4].

* وللبسملةِ نصيبٌ موفورٌ من فقْهِ سيّدنا معاويةَ وتفسيرِه، فقد كان يرىٰ الإخفاء بقراءتها في الصّلاةِ الجهريّةِ، وظلّ كذلكَ إلى أنْ صححَ له أهلُ المدينةِ ذلك.

* روىٰ الشَّافعيُّ بإسناده: «أنَّ سيدنا معاوية رضي اللهُ عنه قدم المدينة، فصلّى بالنّاسِ صلاة يجهَرُ فيها، فقرأَ أمّ القرآن، ولم يقرأ بسمِ اللهِ الرحمن

---

(١) تفسير ابن عطيّة (ص ٨٤٠). ومن المفيد هنا أنْ نشيرَ إلى أنَّ الذَّهب يؤنّث ويذكّر، والتّأنيثُ أشهر، وروي أنَّ أصحاب النّبي ﷺ قالوا: «قد ذمّ الله كسْبَ الذهب والفضة، فلو علمنا أنَّ المالَ خيرٌ حتى نكسبه» فقال عمر رضي الله عنه: «أنا أسألُ لكم رسول الله ﷺ عن ذلك» فسألهُ فقال ﷺ: «لسَانٌ ذاكر؛ وقلبٌ شاكر، وزوجة تعين المؤمن على دينه». وروي أنّ النبي ﷺ قال لما نزلت الآية: «تباً للذّهب تباً للفضة»، فحينئذ أشفق أصحابه وقالوا ما تقدم.

(٢) تفسير البحر المحيط (٥/ ٣٨)، وانظر: تفسير القرطبي (٨/ ١٢٣).

(٣) انظر مثلاً: تفسير الطبري (١٦/ ٤٠)، الدر المنثور للسّيوطي (٥/ ٤٧٥)، وتفسير ابن عطية ص ١٢١٧، وتفسير البحر المحيط (٦/ ١٦٠)، وغيرها كثير.

(٤) تفسير ابن عطية ص ١٨٥٢، وتفسير البحر المحيط (٧/ ٣٥٦) مع الجمع بينهما.

الرّحيم، فلمّا قضىٰ صلاته ناداهُ المهاجرون والأنصارُ من كُلِّ ناحية: أنسيتَ؟ أينَ بسمِ اللهِ الرّحمن الرّحيم حين استفتحت القرآن؟ فأعاد معاويةُ الصّلاةَ وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم وجهر بقرائتها»[1].

* ومنْ تعليقات سيّدنا معاويةَ النَّفيسةِ على قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩]، يقول: «كُلُّ النّاس أقدرُ على رضاهُ إلا الحاسد، فإنَّهُ لا يرضيه إلا زوال النّعمة»[2]، وقد كان كثيرٌ من أهلِ الكتاب يودّونَ

---

(١) تفسير الرازي (١/ ١٦٤ و١٦٨) بشيء من التصرف.
قال ابنُ عطيّة رحمه الله: «والبسملة تسعة عشر حرفاً ـ حسب رسم القرآن ـ فقال بعضُ النّاس: إنَّ روايةً بلغَتْهم أنَّ ملائكةَ النّار الذين قالَ اللهُ فيهم: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]، وإنّما ترتب عددهم على حروف ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، لكلِّ حرف مَلَك، وهم يقولون في كل أفعالهم: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فمن هناك هي قوتهم، وباسم الله استضلعوا» (تفسير ابن عطية ص ٣٥).
قال ابن عطية «وهذه من مُلح التّفسير، وليست من متين العِلم، وهي نظيرُ قولهم ليلة القدر: إنّها ليلة سبع وعشرين، مراعاة للفظةِ هي في كلماتِ سورة ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، ونظير قولهم في عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل: «ربنا ولك الحمدُ حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه» فإنها بضعة وثلاثون حرفاً، فلذلكَ قال النّبيُّ ﷺ: «لقد رأيتُ بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أولاً».
(٢) تفسير الرازي (٣/ ٢١٥) وكأن الشاعر استعار من سيدنا معاوية معانيه، وضمنها في قوله:

وداريتُ كلَّ النّاس لكنَّ حَاسِدِي ... مدارتُهُ عزَّتْ وعزَّ منالُها
وكيف يداري المرءُ حاسدَ نعمةٍ ... إذا كانَ لا يُرضيهِ إلا زوالُها

وجاءَ عن الحسنِ البصري التّابعي المتوفىٰ سنة (١١٠ هـ) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] قال: «هو أوّل ذَنْبٍ كان في السَّماء».
وعن الأحنفِ بن قيس المتوفى سنة (٧٢ هـ) قال: خمسٌ هُنَّ كما أقول: لا راحةَ لحسود، ولا مروءةَ لكذوب، وفاء للملوك، ولا حيلة لبخيل، ولا سؤدد لِسَيِّءِ الخُلق».
وقال الخليلُ بنُ أحمد الفراهيديّ المتوفى سنة (١٧٠ هـ): «ما رأيتُ ظالماً أشبه بمظلوم=

صَرْفَ المؤمنين عن نعمةِ الإسلام ، وكانوا لا يودون أنْ ينزلَ خير ، ويودون أنْ يردّوا المسلمين كفّاراً حسداً من عند أنفسهم.

* وبلغَ من فَهم سيّدنا معاويةَ رضي الله عنه للقُرآن وفقهه له أنَّهُ فسَّرَ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] ، بالعمل وإحياءِ الأرضِ ، فقد ذكرَ الرَّازي هذا فقال: «أخذَ معاويةُ رضي الله عنه في إحياءِ أرضٍ في آخر عمره ، فقيل له: ما حملكَ عليه؟ فقال: ما حملنِي عليه إلاّ قول القائل:

ليسَ الفتى بفتىً لا يُسْتَضاءُ به ... ولا يكونُ له في الأرضِ آثارُ[1]».

* وكان سيّدنا معاويةُ يتوقَّفُ عند حدودِ الشَّرعِ إذا لم يعرفْ تفسيرَ آيةٍ ، أو ذكّره أحد بتفسيرها أو روىٰ له حديثاً يفسّرها. ففي توضيح قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠] ، ذكروا «أنّه كان بين معاويةَ وملك الرّوم عهد ، فأراد أنْ يذهب إليهم وينقضَ العهد فإذا رجلٌ على فرسٍ يقول: وفاء بالعهد لا غدر ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كانَ بينهُ وبين قوم عهد فلا ينبذن إليهم عهده ، ولا يحلّها حتّى ينقضيَ الأمدُ ، وينبذَ إليهم على السَّواء». قال: من هذا؟

قالوا: عمرو بن عبسة. فرجع معاوية رضي اللهُ عنه»[2].

* وتذكرُ كتبُ التَّفسيرِ أنَّ سيّدنا معاوية كانَ إذا ضربتْهُ أمواجُ القرآنِ هُرِعَ

= من حاسدٍ ، له نَفَسٌ دائم ، وعقلٌ هائم ، وحزنٌ لازم».
وأنشد أبو العبّاس المبرِّد المتوفىٰ سنة (٣٨٦ هـ):

عينُ الحسود عليكَ الدّهرُ حارسةٌ ... تُبدي المساوئ والإحسانَ تخفيهِ
يلقاكَ بالبشْرِ بيديهِ مُكَاشَرةً ... والقلبُ مُنكتمٌ فيه الذي فيه
إنَّ الحسودَ بلا جُرمٍ عَداوتُهُ ... وليسَ يقبلُ عذراً في تجنّيهِ

أقول: «والحسدُ من أمراضِ النفوس التي يصعبُ شفاؤها ، والحاسدُ قد يجرّه حسده إلى ارتكاب الجرائم الفظيعة من قول وفعل ليكيدَ المحسود».

(١) تفسير الرازي (١٨/ ١٥).
(٢) انظر: تفسير الرازي (١٩/ ٣٣).

إلى سيّد مفسّري علماءِ العبادلةِ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، فوجد عنده النَّجاة والحلَّ.

* ذكرَ الرّازيّ في «تفسيرهِ الكبير» في تفسير قولِ اللهِ تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ . . . ﴾ [الأنبياء : ٨٧] قال : «دخلَ ابن عباسٍ رضي اللهُ عنهما على معاويةَ رضي اللهُ عنه؛ فقال معاويةُ : لقد ضربتْني أمواجُ القُرآن البارحة ، فغرقْتُ فيها ، فلمْ أجدْ لنفسي خلاصاً إلاّ بك.

فقال : وما هي؟

قال : يظنُّ نبيُّ الله أن لن يقدرَ اللهُ عليه.

فقال ابنُ عباس رضي الله عنهما : هذا مِنَ القَدر لا من القدرة»[1].

* بينما ذكر السّيوطيُّ في «الدُّرِّ المنثور» طلب سيّدنا معاوية تفسير الآية السّابقة على النّحو الآتي فقال : «عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ، أنَّ معاويةَ قال له يوماً : إنّي قد ضربتني أمواجُ القرآنِ البارحة في آيتين لم أعرْف تأويلَهُما ففزعتُ إليكَ.

قال : وما هما؟

قال : قول اللهِ عزَّ وجلّ : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] وأنَّه يفوتُهُ إنْ أرادَهُ ، وقول الله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾ [يوسف : ١١٠]، كيف هذا يظنّون أنّه قد كذبَهم ما وعَدَهم؟

فقال ابن عبّاس : أما يُونُس ، فظَنَّ أَنْ لن تبلغَ خطيئته أنْ يقدرَ اللهُ عليه فيها العقاب ، ولم يشك أنَّ اللهَ إِنْ أرادَه قَدَر عليه.

---

(١) تفسير الرازي (٢٢/١٨٦). و«ذو النون» النّون : الحوت ، وجمعُهُ أنوان ، نينان. وذو النّون : لقبُ يونُس بن متّى ، على وزن شتّى ، اسم والده على ما ذكر في القاموس ، أو اسم لأمّه على ما قاله ابن الأثير في النّهاية قال السُّهيلي : «ذو النّون» هو يُونس بنُ متّى أضاف ذا إلى النّون وهو الحوت.

وأمّا الآيةُ الأخرى ، فإنَّ الرّسلَ استيأسُوا من إيمانِ قومِهم ، وظنّوا أنَّ مَنْ عصاهم لرضا في العلانيةِ قد كذبهم في السِّر ، وذلكَ لطولِ البلاء عليهم، ولم تستيئس الرُّسلُ من نَصْرِ اللهِ ، ولم يظنّوا أنّهم كذبهم ما وعدهم.

فقال معاوية: فرَّجْتَ عنّي يا بن عبّاس ، فرَّجَ اللهُ عنك»[1].

* ولم تكن هذه هي المرّةُ الوحيدةُ التي يسألُ فيها سيّدُنا معاويةُ سيّدنا ابنَ عباس ، فقد روي أنَّه سألَ ابن عباس: بِمَ سُمِّيَت قريش قريشاً؟

فقال: بدابةٍ في البحر من أقوىٰ دوابه ، يُقال لها القرش؛ تأكلُ ولا تُؤكل ، وتعلوا ولا تُعْلى ، وأنشدَ قول تُبَّع:

وقريشٌ هي التي تَسْكنُ البَحْـ ... ـرَ بها سمّيتْ قريشٌ قُريشا
تأكُلُ الغَثَّ والسَّمينَ ولا تَتْـ ... ـركُ فيها لذي جَنَاحَيْن ريشا
هكذا في البلادِ حيُّ قُريشٍ ... يأكلونَ البلادَ أكلاً كشيشا
ولهم آخرُ الزَّمانِ نبيٌّ ... يُكثِرُ القَتْلَ فيهم والخُمُوشا
يملأُ الأرضَ خيلُه ورجالٌ ... يحشرون المطيَ حَشْراً كميشا[2]

* وكان معاويةُ رضي اللهُ عنهُ يعلِّمُ أصحابَهُ التَّفسير بطريقةٍ مباشرةٍ ممزوجةٍ بالهدي النّبويّ ، معزّزة بأقوالِ الصَّادق المصدوق ﷺ. من أمثلةِ ذلكَ ما ذكرهُ القُرطبي في تفسير قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢] ، فقال: «معنى الآية: خُذوا ما ظهرَ ولا تتبعوا عوراتِ المسلمين؛ أي: لا يبحث أحدُكم عن عيبِ أخيهِ حتّى يطّلعَ عليهِ بعد أَنْ سترَهُ اللهُ. وعن معاويةَ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّكَ إِنْ اتّبعت عوراتِ النّاسِ أفسدتهم أو أوكدت أنْ تفسدهم»[3]. فقال أبو الدَّرداء: «كلمة سمعَها معاويةُ من رسول الله ﷺ نَفَعَهُ اللهُ تعالى بها».

* وفي تفسيرِ ليلةِ القَدْرِ وتعيينها كان سيّدنا معاويةُ يرى أنها ليلةُ سبعٍ

---

(١) الدّرُّ المنثور للسيوطي (٥/ ٦٦٦ و٦٦٧).
(٢) تفسير الكشاف (٤/ ٤٣٣) ، والقرطبي (٢٠/ ٢٠٣) ؛ والبحر المحيط (٨/ ٥١٣).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٣٣٣).

وعشرين ، وكان يتحرّاها في تلكَ الليلة[1].

* ولمعاويةَ رضي اللهُ عنه إلمامٌ بعلمِ القراءاتِ ، فقد قرأَ كلمةَ ﴿ حَمِئَةٍ ﴾ [الكهف: ٨٦] ، قرَأها ﴿حامية﴾[2] بالياء: أي حارّة.

* وقرأ كذلكَ كلمة: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ [التكاثر: ١] ، قرأَها بالمدّ على الاستفهام: ﴿آلهاكم﴾؟ أي: أَشَغلكم؟ وهو توبيخٌ على قبحِ فعلهم[3].

* وينبغي أنْ نعلمَ أنَّ سيّدنا معاويةَ أحدُ علماءِ الصَّحابةِ الذين نُقِلتْ عنهم وجوهُ القراءة ، وقد نَقَلَ «الكتَّاني» في «التّراتيب الإداريّة» بعضهم فقال: «الأئمةُ الذين نُقِلَ عَنهم وجوه القراءة كثيرون في كلّ عَصر ، لا يكادون يُحْصون فمنهم من الصّحابةِ والمُهاجرين: أبو بكر ، وعمر[2] ، وعثمان[3] ، وعلي[4] ، وطلحةُ ، وسعدٌ ، وابنُ مسعود[4] ، وحذيفة[5] ، وسالمٌ مولىٰ أبي حذيفة ، وأبو هريرةَ[6] ، وابنُ عُمر[7] ، وابنُ عبّاس[8] ، وعمرو بن العاص ، وابنهُ عبد الله[9] ، ومعاويةُ ، وابنُ الزُّبير[10] ، وعبدُ اللهِ بنُ السَّائب ، وعائشةُ ، وحفصةُ ، وأمُّ سلمة . .

ومن الأنصار: أُبيُّ بنُ كعب[11] ، ومعاذُ بنُ جبل[12] ، وزيدُ بنُ ثابت[13] ، وأبو الدَّرداء[14] ، وأبو زيد ، ومجمعُ بنُ حارثة ، وأنسُ بنُ مالك[5]، رضي الله عنهم أجمعين»[6].

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/١٢٦).

(٢) تفسير ابن عطية ص (١٢١٠) ، وتفسير البحر المحيط (٦/١٥١).

(٣) تفسير البحر المحيط (٨/٥٠٦).

(٤) (١ و٢ و٣ و٤) اقرأ سيرة هؤلاء الأعلام النّبلاء السّادة الخلفاء في موسوعتنا المباركة «الخلفاء الرّاشدون» وستجد ما يسرّ الفؤاد بإذنِ اللهِ تعالى ، إذْ إنّنا حرصنا على إبرازِ صورهم وشخصّيتهم في ضوءِ القُرآنِ والحديثِ والسِّيرةِ ، وتحرينا الدّقّةَ والصّواب قدر المستطاع ، لتكون سيرتهم القدوة الحسنى لمن أراد أن يقتديَ بهم ، ويهتديَ بهديهم المستمد من هدي النّبوة العظيم.

(٥) (٥ و٦ و٧ و٨ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥) اقرأ سير هؤلاء السّادة العلماء الحفّاظ الصّحابة الكرام في هذه الموسوعةِ المونقة.

(٦) التّراتيبُ الإدارية ص (١٣٠ و١٣١) للكتاني ـ طبعة الكتب العلمية الأولى ٢٠٠١ م.

إنّـه فقـيـهٌ صَحِبَ رسول الله ﷺ:

* هذه شهادةٌ مونقةٌ موقّعةٌ من سيّدِ علماءِ العبادلةِ وأميرهم في التَّفسيرِ والفقهِ عبدِ اللهِ بنِ عبّاس رضي الله عنهما ، وفي ذيلها اعترافٌ عبدليٌّ عبّاسيٌّ بأنَّ سيّدنا معاوية صحابيٌّ فقيهٌ.

* ولن أطيلَ عليكَ عزيز القارىء فسأدعوكَ إلى رياض صحيحِ البخاري لِنَهصرَ من أغصانِهِ بعضَ أزاهرِ الفضَائلِ لمعاويةَ ، ومن خلالها نستروح عبيرَ فقههِ وسَعَةِ علْمِه.

* فقد أخرجَ البخاري رحمه الله بسندهِ عن أبي مُليكةَ قال: «أوترَ معاويةُ بعدَ العشاء بركعةٍ ، وعنده مولىٰ لابن عبّاس ، فأتى ابن عباس ، فقال: دَعْهُ ، فإنَّهُ صَحِبَ رسول الله ﷺ»[1].

* وفي البخاري أيضاً بسندهِ عن أبي مُليكة أيضاً قال: «قيل لابن عبّاس: هل لك في أميرِ المؤمنين معاويةَ فإنَّه ما أوترَ إلاّ بواحدة.

قال: «إنَّهُ فقيهٌ»[2].

---

(١) أخرجهُ البخاري في فضائل الصحابة برقم (٣٧٦٤)؛ وانظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥١ و١٥٢).

(٢) أخرجهُ البخاري برقم (٣٧٦٥)؛ ومن الواضح لكلِّ ذي بصيرة أنّ الحديث هو شهادةٌ لمعاوية بالفقْهِ ، والصُّحبةِ دالةٌ على الفضلِ الكثيرِ والمناقب الغزيرة.
ومن المؤكّدِ في كُتبِ الفقْهِ ، بأن الوترَ مطلوبٌ بالإجماع ، لقولهِ ﷺ: «يا أهلَ القُرآنِ أوتروا فإن اللهَ وترٌ يُحبُّ الوتر».
والوترُ عند الحنفيةِ ثلاثُ ركعات ، لا يفصل بينهنّ بسلام ، وسلامه في آخره ، وأوتر المالكيةُ والحنابلةُ بركعة ، وقال الشافعية: «أقلّ الوتر ركعة ، وأكثرهُ إحدى عشرة» وأدنى الكمالُ ثلاث ، وأكملُ منه خمس ، ثمّ سبعٌ ، ثمّ تسعٌ ، ثمّ أحدى عشرة ، فأكثره إحدى عشرة للأخبار الصّحيحة الواردةِ عن علماء الصحابةِ وفقهائهم.
أمّا وقت الوتر: فعند الجمهور ما بعد صلاةِ العشاء إلى طلوع الفجر ، فلا يصحّ أداؤهُ قبل صلاة العشاء.
وأما صفة القراءة في الوتر ، فالقراءة تجب عند الحنفيةِ في كلّ ركعاتِ الوتر ، ويندبُ عندهم أن يقرأ في الركعة الأولى سورة «الأعلى» وفي الثانية «الكافرون» وفي الثالثة =

* والحقيقة فقد كان سيّدنا معاويةُ رضي الله عنه عالماً عيلماً فقيهاً دقيقاً في مسائلِ الفقهِ في أمورِ الصَّلاة ، ومنها أنَّهُ كان يكرهُ الصَّلاةَ بعدَ العَصْرِ وينهى عنهما ، فقد أخرجَ البخاري بسندهِ عنه رضي اللهُ عنه قال : «إنّكم لتصلّونَ صلاةً ، لقد صحبنا النَّبيَّ ﷺ ، فما رأيناهُ يصلّيها ، ولقد نهى عنهما ، يعني الرّكعتَيْن بعد العصر»[1] .

* ومن فقْه سيّدنا معاوية في تحرّي الصَّواب في سجود السَّهو أنَّه كان يسجدُ سجدتَي السَّهو قبلَ السَّلام[2] ، وكان يرى أنَّ ليلةَ القَدْرِ هي ليلةُ السَّابع والعشرين من شهر رمضان ، لأنَّ النّبي ﷺ قال ذلكَ[3] .

* ولسيّدنا معاوية آثارٌ فقهيةٌ أخذَ بها عُلماءُ الصَّحابةِ والتّابعين وفقهاء الأمصار ، من ذلكَ أنَّهُ رضي اللهُ عنه قوَّمَ زكاةَ الفطر ، وكلَّمَ النَّاسَ على المنبرِ النَّبويّ فقال : «إنّي أرى أنَّ مُدَّيْنِ من سمراءِ الشَّام تعدلُ صاعاً من تمر» فأخذ النّاس بذلك[4] .

* وكان سيّدنا معاوية من علماء الصَّحابة وفقهائهم في كثيرٍ من أركانِ الإسلامِ ، وكان يصحح كثيراً من المفاهيم التي علقت بالأذهانِ خطأً ؛ كصيام يوم عاشوراء .

* فمن المؤكّد أنَّ العُلماء والفُقهاء متّفقون على أنَّ صومَ يومِ عاشوراء

= سورة «الإخلاص» لحديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه : «أنَّ النّبيّ ﷺ كان يقرأُ في الوتر بسبح اسم ربّك الأعلى ، وفي الركعةِ الثَّانية بقل يا أيها الكافرون ، وفي الثّالثة بقل هو الله أحد ، ولا يُسلمُ إلا في أخراهنّ» .
وللوتر أحكام يَحسُنُ الرجوع إلى كتبِ الفقه المتخصصة لمعرفتها .

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٧٦٦) .
(٢) البدر التمام (٢/ ١٤) .
(٣) البدر التمام (٢/ ٤٨٢) .
(٤) أخرجه مسلم برقم (٩٨٥) ، وأبو داود برقم (١٦١٦) ، والنسائي (٥/ ٥٣) وكلهم في الزكاة .

سُنَّـةٌ ليس بواجب[1] ، ولم يكن إلا سُنّة من حين شُرع ، وكان متأكّد الاستحباب فلمّا نزلَ صومُ رمضان صار مستحبّاً دون ذلكَ الاستحباب.

* ويظهرُ أنَّ سيّدنا معاوية رضي اللهُ عنه قد سمعَ مَنْ يوجبُ صومَ عاشوراء ، أو من يحرّمهُ ، أو يكرهه ، فأحبَّ أنْ يفقِّهَ النَّاسَ ويعلمهم بأنَّهُ ليس بواجب ولا محرم ولا مكروه ، فأعلن أمامَ جَمْعٍ عظيم ذلك ، ولم ينكرْ عليه أحدٌ ممن كان من علماء الصَّحابة أو التَّابعين.

* ذكر حُميدُ بنُ عبد الرحمن بن عوف ـ وهو تابعيٌ جليلٌ من علمائهم وفقهائهم ـ فيما أخرجه مسلم عنه: «أنَّهُ سمعَ معاوية بن أبي سفيان خطيباً بالمدينة ـ يعني: في قَدْمةٍ قدمها ـ خطبهم يومَ عاشوراء ، فقال: أين علماؤكم يا أهلَ المدينةِ؟ سمعتُ رسول الله ﷺ: يقول ـ لهذا اليوم ـ: «هذا يوم عاشوراء ، ولم يكتب الله عليكم صيامه ، وأنا صائمٌ ، فمَنْ أحبَّ منكم أنْ يصومَ فليصم ، ومن أحبَّ أنْ يفطرَ فليفطر»[2].

* ومن فقْهِ سيدنا معاوية أنَّه كان يقتدي بالهدي النّبويّ إذا ما حجَّ أو اعتمر ، والآثار في ذلكَ كثيرةٌ ومثْبَتَةٌ.

* وكانَ سيّدنا معاويةُ رضي الله عنه ينهى عن الشغار اقتداءً بالهديّ النّبويّ. والشِّغار: أنْ يزوّجَ الرّجل ابنته على أنْ يزوِّجه الآخر ابنته ، وليس بينهما صَدَاق[3]. وثبتَ عن ابن عمر: «أنَّ رسول الله ﷺ نهى عن الشِّغار»[4].

---

(١) قال أبو حنيفة: «كان واجباً» ويوم تاسوعاء وعاشوراء ممدودان ، وحُكي قصرهما.

(٢) أخرجهُ مسلم برقم (١١٢٩) واللفظ له ، ومالك في الموطأ (١/ ٢٩٩).

(٣) أخرجهُ مسلم في النكاح برقم (١٤١٥) ، ومالك في الموطأ (٢/ ٥٣٥).

(٤) أخرجه مسلم برقم (١٤١٥) وهو أول الحديث السّابق: «باب تحريم نكاح الشّغار وبطلانه». و«الشّغار» قال العلماء: «الشِّغارُ: أصلهُ في اللغة: الرّفع ، يُقال: شغَر الكلب: إذا رفعَ رجله ليبول ، كأنَّه قال: لا ترفعْ رِجْلَ بنتي حتّى ارفع رِجل بنتك. وقيل: هو مِنْ شغَر البلد إذا خلا ، لخلوه عن الصَّدَاق. ويُقال: شغرتِ المرأة: إذا رفعَتْ رجلها عند الجماع. قال ابنُ قتيبة: كلّ واحد منهما يشغرُ عند الجماع ، وكان =

* وفي مسند معاويةَ رضي اللهُ عنه: «أنَّ العباسَ بنَ عبد الله بن عبّاس أنكح عبد الرحمن بن الحكم، وأنكحه عبد الرحمن ابنته، وقد كانا جعلا صداقاً، فكتب معاويةُ بنُ أبي سفيان وهو خليفة إلى مروانَ يأمرهُ بالتّفريقِ بينهما، وقال في كتابه: هذا الشِّغار الذي نهى عنه رسول الله ﷺ»[1].

* وكما كان سيّدنا معاويةُ فقيهاً، كان ضليعاً في الفتوىٰ على الرّغمِ من أنَّ ابنَ حزمٍ عدَّهُ من المتوسّطين من الصَّحابة فيما رويَ عنهم من الفتيا، وبدأ بأُمِّ سلمة أمّ المؤمنين.. وختمهم بسيّدنا معاويةَ بن أبي سفيان[2].

* فمن فتاوىٰ سيّدنا معاوية أنّهُ كان يقول بأنَّ الكافرَ لا يرثُ المسلم[3].

* كما أنَّ سيّدنا معاوية كان يُوقعُ الطّلاق بأحدِ هذه الألفاظ إذا قالها الرَّجلُ لامرأته: «أنتِ حرامٌ، وأمركِ بيدكِ، واختاري، ووهبتُكِ لأهلِكِ، وأنتِ خَليَّةٌ وقد خلوتِ مني، وأنتِ بريةٌ وقد أبرأتُكِ، وأنتِ مبرأة، وحبلك على غاربك». وثبتَ أنَّ سيدنا معاوية قد فرّقَ بين رجلٍ وامرأتهِ عندما قال لها: «إنْ خرجتِ فإنتِ خليّة»[4].

* وكانَ إذا أشكلتْ عليه فتوىٰ، هُرِعَ إلى الصَّحابةِ ليجدَ عندهم المخرج، وكثيراً ما كان يسألُ زيدَ بنَ ثابت في هذا المجال[5].

من أغاليطِ الكُتَّاب والمُصَنِّفين:

* قبل أنْ نبسطَ القولَ في هذه الفقرةِ دعونا نتفيأ في ظلالِ «لسان العرب»

= الشِّغارُ من نكاحِ الجاهلية، وأجمعَ العُلماءُ على أنَّهُ منهيٌ عنه، لكنْ اختلفوا هل هو نهيٌ يقتضي إبطالَ النّكاح أمْ لا؟ فعندَ الشَّافعي: يقتضي إبطاله.. وقال جماعة: يصحّ بمهر المثل وهو مذهب أبي حنيفة. واللهُ أعلم. (المنهاج ص ١٠٦٣) باختصار يسير.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٨) حديث رقم (١٦٨٥٦)، واللفظ له. وأبو داود برقم (٢٠٧٥).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام (٢/ ٨٩).

(٣) انظر: تفسير الرازي (٩/ ١٦٩).

(٤) زاد المعاد (٥/ ٣٢٠).

(٥) المصدر السابق (٥/ ٦١٨).

نستجلي معنى الغَلَط ، ومِنْ ثمّ ندرك المقصود من عنوان هذه الفقرة المهمّة.

* قال ابنُ منظور: «الغَلَطُ: أنْ تَعْيا بالشَّيء فلا تعرفَ وجْهَ الصَّوابِ فيه. والمَغْلَطَةُ والأغلوطة: الكلام الذي يُغْلَطُ فيه ويُغَالطُ به. والتَّغْلِيْطُ: أنْ تقول للرجل: غَلِطْتَ. والأغْلُوطات: هي جمعُ أغلُوطَة من الغَلَطِ»[1].

* ومن العجيب أنْ نجدَ كثيراً من الأغاليط المبثوثة في التواريخ تخالفُ الواقعَ ولا تنسجم مع علماء الصَّحابة الكرام ومنهم سيّدنا معاويةُ بنُ أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين.

* وإذا كنّا نحبُّ علماءَ الصَّحابةِ ونقدّرهم ونقتدي بما نقلوه عن النّبي ﷺ، فينبغي أن نشيرَ إلى الأغاليطِ التي رانتْ على جانبٍ من جوانب سيرِهم، وغدتْ هذه الأغلوطات من الحقائقِ عند بعض مَنْ لا يمتلكون الوقتَ الكافي للبحثِ عن الحقيقةِ في بطون المصادرِ الموثوقةِ ، وحواشي زواياها الرّقيقة.

* وأنا أحبُّ أنْ أضعَ عينَ القارئ ويَدَهُ وضميرَهُ على مفتاحِ هذه الأغاليطِ التي ما أرادَ ناسجوها الحقَّ ، وما أرادوا إلا اتّباعَ الهَوىٰ ، وذرّ الرَّمَادِ في العُيون ، وتشويه الحقائق وتشويشها ، عِلْماً بأنَّ الحقَّ سيعلو ، وسيبقىٰ عالياً ، ولن يعلوَ عليه باطلٌ.

* من هذه الأغاليط ما نراه في كتاب «أخبار الوافدات من النّساء على معاويةَ بنِ أبي سفيان» للعبّاسِ بنِ بكّار الضَّبِّيّ (١٢٩ ـ ٢٢٢ هـ) ، الذي ترجمَ لستّ عشرة امرأة كلّهنّ أفحمْنَ معاويةَ ومَنْ حولَه من الصحابة النُّبهاءِ والنُّبلاءِ والجُلساء وعليةِ القوم ، وفصحائِهم ومُفوّهيهم.

* ومن العجيب أنّنا نجدُ بعضهنَّ يقلنَ أقوالاً جريئةً لمعاويةَ ويتهمنه بالكفْرِ والخروجِ عن الإسلامِ هو وأبوه وبعضُ قومه[2]. وهذه المرأةُ تكيلُ الشَّتائم المقذعة لمن حول معاوية من مثل: عمرو بن العاص ، وسعيد بن

---

(١) لسان العرب (مادة: غلط).

(٢) أخبار الوافدات من النساء (ص ٤٧).

العاص، ومروان بن الحكم[1]، وتزعم بأنَّ أمّهات هؤلاء جميعهنّ بغايا[2]!!! ثمّ تدعو في نهاية هذه الجلسةِ المفعمةِ بالشَّتائم على معاوية بأنْ يفضَّ اللهُ فَاهُ، ويجهدَ بلاءَهُ، ومن ثمّ تأخذ ستّةَ آلاف دينارٍ وتخرج!!!...

* ومن الأعجبِ والأغربِ أننا نجدُ في هذا الكتاب أسماء نسوةٍ لم نسمعْ بهنَّ إلاّ عند الضّبّيّ ومنهنّ: أمُّ سنان بنتُ خيثمةَ المذحجيّة، وأمُّ الخيرِ بنتُ الحريش البَارقيّة، وجروةُ بنتُ مرّة التَّميميّة، والزَّرقاءُ بنتُ عدي الهمدانيّة، وأمُّ البراء بنتُ صفوان وغيرهنّ. ونحنُ بدورنا نشكُّ في وجودهنَّ أصلاً، فإنَّهنَّ لم يذكرنَ في مصدرٍ من المصَادرِ القديمةِ التي عاصرتِ العبَّاسَ بنَ بكّار الضَّبّي المتوفّى سنة (٢٢٢ هـ)، حتى إنّنا نقرأ كتاب «أنساب الأشراف» للبلاذريّ المتوفى (٢٧٩ هـ) فلا نجدُ خَبَراً لواحدةٍ منهنّ، ولا نجدُ إشارةً عابرةً لهذهِ المجالسِ ـ النّسوية ـ المشحونةِ بالشَّتائم العظيمةِ للأسرةِ السُّفيانيّةِ والمروانيّةِ والأمويّة، وأحياناً نجد هذا البلاء شاملاً للأسرةِ العلويّةِ والحَسنيّة والحُسينيّة والعبّاسيّة وغيرِها كثير.

* وممّا يزيدُ عجبنا أنّ بعضاً من المصادر القديمةِ ثم الحديثة نقلَتْ عن هذا الكتاب أحداثَه وغثَّه وسِحْره ونَفْثَه، بل إنَّ بعضَ هذه المصادر والمراجع باضَتْ وفرَّخَتْ وأتتْ بما لم تستطعه الأوائل وبما لم يأتِ به المعرّيُّ في «لزومياته»، وتَفَتَّقَتْ قرائحُ بعضِها عن عنوان مضطَرب اسمه «الذين قالوا لمعاوية: لا»! وبعضها: «نساءٌ قُلْنَ لمعاوية: لا»!!! وقبل أنْ نقولَ لهذه المصادر والمراجع: «لا»؛ دعونا نتعرّف شيئاً عن العبّاسِ بنِ بكّار الضّبّي وقَدْرِهِ ومقدارِهِ في ميزان العِلْم والعُلماء.

* قال عنه الدَّارقطني: «كذَّاب».

* وقال العُقَيلي: «الغالبُ على حديثه الوهمُ والمناكير».

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٨ و٤٩).
(٢) المصدر السابق (ص ٤٨ و٤٩)، وتعرِّضُ كذلك بالآباء، والقرابة.

* وعندما يذكُرُ الذَّهبيُّ بعضَ ما يرويه يقولُ عنه: «ومنْ أباطيلهِ» أو «منْ مصائبِهِ».

* وقال ابنُ حجر: «قال أبو نُعيم الأصبهاني: يروي المناكير؛ لا شيء»[1].

* والخلاصة كما قال الزِّركليُّ في الأعلام بأنَّ العبَّاسَ بنَ بكّار الضَّبي مَطْعُونٌ في روايتهِ للحديث[2].

* ومن الأغاليطِ الفظيعةِ التي جاءت في بعضِ أعمالِ الكُتَّاب والمصنّفين القُدامىٰ أنّهم ابتدعوا لمعاويةَ رضي الله عنه ابنةً تسمّى «عاتكة»؛ ونسجوا حولَها بعض قصص الغرام، والحبّ والهيام، والعلاقات الخارجة عن الآدابِ العامةِ، وأشياء أخرى ذكرتُها في كتابي «بنات الصَّحابة» الباب الثَّالث وعنوانه: «بناتٌ ليس لهنّ وُجُودٌ»[3]، فَمَنْ أرادَ المزيدَ فليرجعْ إلى كتابنا المذكور، ففيهِ مفاهيم ينبغي أن تُصَحَّحَ ومعلومات تفيد أهل الحق ومحبي الصّحابة رضي الله عنهم أجمعين.

* وهناك شخصيّةٌ مزعومةٌ مرسومةٌ اسمها «غانمة بنت غانم» زعموا أنَّها دخلَتْ على معاويةَ، وخطبَتْ خطبةً قَعْسَاءَ هزَّتْ من خلالها أعصابَ معاوية وكيانه، وزلزلَتْ حنايا قلبَه، فخافَها خوفاً شديداً، وكان معه كالعادة: عمرو بنُ العاص، فشتمتْه وشتَمتْ أمَّه شتماً قبيحاً قميئاً لا يستطيعُ امرؤ متخصّصٌ في الفُحش والتَّفحُّشِ أنْ يأتي به، ومن المهزلة أنَّ واضع القصّة زعمَ أنَّ هذه المرأة غانمةَ بنتَ غانم كان عمرها في عَهْدِ النَّبيّ ﷺ (٤٠٠ عام)!!!!

وقد فصَّلْتُ بُطْلانَ قصَّتَها في كتابي «نساء في قُصُور الأمراء»[4].

---

(١) انظر: أخبار الوافدات من النساء (ص ١٠).
(٢) الأعلام (٣/ ٢٥٩).
(٣) بنات الصحابة للدكتور أحمد خليل جمعة (ص ٥٢٩ ـ ٥٦٠).
(٤) نساء في قصور الأمراء (ص ٣٧٩ ـ ٣٩٠) ترجمة المزعومة غانمة بنت غانم!!!.

* وهناك قصصٌ وأخبارٌ منسوجةٌ نَسْجاً مُهلْهَلاً ، إذ إنَّ سداها الافتراء ، ولحتمها الزُّور والبهتان ، وهي منشورةٌ في ثنايا بعض الكتبِ وفيها كثيرٌ من الأغاليطِ القبيحةِ التي تسيءُ إلى عددٍ من عُلماء الصَّحابة ، ومن بينهم كاتب الوحي سيّدنا معاويةَ رضي الله عنه ، ومن هذه الكتب القديمة على سبيلِ المثال لا الحَصْر: كتاب أخبار النّساء ، والتّذكرة الحمدونيّة ، والجليس الصَّالح ، وغيرها ممّا لا يُحصى ، ومن الكتُبِ الحديثة ـ وهي لا تُحْصَر ـ كتاب «معاوية» لإبراهيم الإبياري من سلسلة أعلام العرب ، وغير ذلك ، وسأكتفي بعرض عدّة نماذجَ من كتابٍ قديمٍ وكتاب الإبياري لنقفَ على الأغاليطِ والمفترياتِ الظَّالمةِ لشخصيّة سيّدنا معاوية كاتب وحي ربّ العالمين ، رضي الله عنه وأرضاه.

* أمّا الكِتابُ القديمُ فهو «التّذكرة الحمدونيّة» من تصنيف ابن حمدون: محمّدُ بنُ الحسن بنِ محمّد بنِ عليّ المتوفىٰ سنة (٥٦٢ هـ) ، وطُبع كتابه في عَشْرة أجزاء مع الفهارس ، وقد حُشِيَ هذا الكتاب بذكْرٍ كثيرٍ من المثَالبِ والأغاليطِ التي لا تستندُ إلى حقائقَ أو وقائعَ صحيحة ، وتجدُ فيها شيئاً من التّحامل ، أو إلصاق التُّهم بشخص سيّدنا معاوية وتشويه صورته تشويهاً متَعَمّداً ، أو نجده أحياناً بطل قصّة غرامية يأنف منها أقلّ النّاس ، كما نجد أشياء أخرى لا يقبلها مَنْ له أدنى تفكير أو عقل أو اطلاع على أخبار الصحابة وسيرهم وحياتهم.

* وفي الفقراتِ الآتيةِ سأوردُ نماذجَ متفرّقةً من جزءٍ واحدٍ فقط من هذا الكتاب ، لنعرفَ أي تشويه وإساءة أُلصِقَتْ بسيدنا معاويةَ رضي الله عنه.

* قال ابنُ حمدون في معرض حديثه عن الجشَع وأخبارِ الأكَلَةِ: «قد نُسِبَ ذلك إلى جماعةٍ من الأكابر وذوي الهِمَمِ والأخطار آفةٌ اعترضَتْ فضائلهم ، واتّباعٌ للشَّهوات قد استولى على عقولهم. روي أنَّ معاويةَ بن أبي سفيان كان نِهِماً جشِعاً بخيلاً على الطَّعام!!! وروي أنّه قال لأعرابيّ

يؤاكلُه: ارْفَعِ الشَّعْرَة من لقمتِكَ، فقال: وإنَّكَ لتلحظُ الشَّعْرَةَ في لقمتي؟! والله لا أكلتُ معَكَ طعَاماً»[1].!!!

* ومن الأغاليطِ أيضاً قال ابن حمدون: «لما بلغَ معاويةَ موتُ الحسنِ بنِ عليّ رضي الله عنهما سُمِعَ تكبيرٌ من الخضْراء، فكبَّر أهلُ الشَّام لذلك التّكبير. وقالت: فاخِتَةُ بنتُ قرظةَ لمعاويةَ: أقرَّ اللهُ عينَكَ يا أميرَ المؤمنين! ما الذي كبَّرت له؟

قال: ماتَ الحَسَنُ.

قالت: أَعَلَىٰ موتِ ابن فاطمةَ تكبِّرُ؟!!.

قال: واللهِ ما كبّرتُ شماتةً بموتهِ؛ ولكن استراحَ قلبي وصَفَتْ لي الخلافة»[2]!!!!؟

* وهاكم هذه القاصمةُ التي سُرِقَتْ من «ألفِ ليلة وليلة» في ليلةٍ مُقْمِرةٍ وأُشربتْ شخصيَّة سيّدنا معاوية لانتقاصِهِ، ولبيان وتبيين أشياء خطيرة يكتشفُها القارئ الكريمُ من خلال هذه القصّة التي احتطبَها ابنُ حمدون وتفرَّدَ بحشوها في «تذكرته».

* قال ابن حمدون: «قال زيدُ بنُ جدعان: قدمتُ على معاويةَ فأنزلني عليه، فكنتُ أتغدّى عنده، وأتعشَّى معه. فبينا أنا عنده، إذ خرجَتْ من دارِهِ وصيفةٌ، فدخلَتْ بيتاً من بيوته.

فقال لي معاوية: لولا مكانك لقد كنتُ أشتهي أنْ أُصيبَ منها.

قلت: يا أميرَ المؤمنين، فلا يمنَعْكَ مكاني.

قال: فقامَ فدخلَ عليها، فبينما هو يريدُ منها ذاك، إذ علمت امرأتُهُ، وهجمتْ عليه وأنا جالسٌ، فَخَرَجَا وقد لبَّبَ كلّ واحدٍ منهما صاحبه.

---

(١) التذكرة الحمدونية(٩/ ٩٧). ولا نملك إلا أنْ نقول: «الله المستعان».

(٢) التذكرة الحمدونية (٩/ ٢٩٤) وأذكّرُ القارىءَ الكريم بأن يقرأ سيرة سيدنا وحبيبنا وحبيب حبيبنا رسول الله ﷺ الحسن بن علي في موسوعتنا «رجال أهل البيت».

قال: فجعلَ معاويةُ يقول: يَغْلِبْنَ الكِرامَ، ويغلبُهنَّ اللئام.

قال: فلم تكلِّمْهُ حتّى أدخلَتْه قَصْرَهُ.

قال: وبقيتُ في موضعي إلى العِشَاء، وراح النَّاس إليه، فذَهَبَ بي النّومُ، فلمْ أنتبِهْ إلاّ في جوفِ الليل.

قال: وهو في موضعه الذي يبيتُ فيه؛ فقمتُ فإذا الأبوابُ مغلقَةٌ والسُّرجُ تزهرُ، فدخلتُ تحت السَّرير، فلمّا ذهبَ هُوِيٌّ من الليل جاء معاويةُ، فجلس على السَّرير ثم دعا امرأته فَعَرَّاها، فجعلَتْ تقْبِلُ وتُدبرُ. فبينا هي مقبلةٌ إليه. إذ قالت: يا سوأتا! تحت السَّريرِ رجلٌ.

قال: فقامَ معاويةُ فأخرجني من تحت السَّرير، وقال: ويحك! رأيت الذي رأيتَ؟.

قلتُ: نعم.

قالت امرأتُهُ: ما زالَ هذا الرَّجُلُ معنا منذ اليوم والليلة!!.

فقال: ويحك! ارفع إلينا حوائجك، ولا تخبر بما رأيت أحداً. قال: فقضىٰ لي حوائجي، وخرجتُ من عنده»[1]!!!.

* ثم يُتْبِع ابن حمدون هذه القصَّة المختلقة بقصةِ إفكٍ أخرى مثلها لا تقلُّ مغالطةً عن أختها المزركشة بالقواصم، وهتْكِ الأعراضِ والأخلاق، ومخالفة الشَّرع، و.. ، و.. ؟!.

* قال ابنُ حمدون: «وروي عن الأحنف أنَّه دخلَ على معاويةَ يوماً، فخرجَتْ من دارِهِ وصيفةٌ فدخلَتْ بيتاً من بيوته.

فقال: يا أبا بحر، أنا والله أحبُّ هذه الوصيفة، وقد أمكنني منها الخلوةُ لولا مكانُكَ.

---

(١) التذكرة الحمدونية (٣٤٧/٩) ولن أعلّق على هذه الأكذوبة البلهاء بشيء ولكني استحلف القارىء بالله: هل يصحّ أن نتحدث عن شخص عادي بمثل هذا الكلام؟ فكيف بصحابي جليل؟! وأذكّر القارئ بأنّ في القصة سقطات شنيعة يدركها بنفسه.

فقال الأحنفُ: فأنا أقومُ.

فقال: لا ؛ بل تجلسُ لئلا تستريبَ بنا ابنةُ قَرظَة ، وكأنّها قد أُوذِنَتْ به ، فقالَتْ للأحنفِ: يا قَوَّاد! أين هذا الفاسِق؟!!.؟!!.

فأومأَ الأحنفُ إلى البيتِ الذي هو فيه ، فأخرجَتْه ولحيتُه في يدها.

قال الأحنفُ: ارفقي بأسيرِكِ يرحمكِ الله.

فقالت: يا قوّادُ! وتَتكَلّم أيضاً؟! وقام الأحنفُ فانصرف»[1].

* واسمعْ إلى هذهِ المصيبة العظمىٰ من ابن حمدون التي يعرِّضُ من خلالها بسيّدنا معاوية وغيره ، ليفسِدَ بزعمِهِ على معاويةَ فيقول: «أُحْضِرَ رجلٌ رُميَ بالرَّفْضِ عند الوالي ، فقيل له: ما تقولُ في أبي بكْرٍ ، خَليفة هو؟.

قال: لا.

قال: فعُمر؟.

قال: لا.

قال: فعثمان؟.

قال: لا.

قال: فما تقول في عليّ رضي الله عنه؟.

قال: ليس بخليفة.

قال: ويحك! مَنِ الخليفَةُ؟.

قال معاويةُ.

---

(١) التذكرة الحمدونية (٩/٣٤٨) ، وسأترك محاكمة هذه القصَّة للقارىء الكريم ، وأقول: بأن هذه القصة وسابقتها قد سرقتا من «ألف ليلة وليلة»وأشباهها ، ثم زاد فيها المصنّف كثيراً من التوابل والأفاويه ، وطوّل وقصّر لتكتمل الأكذوبة العرجاء ، وتنطلي ـ بزعمه ـ على البسطاء».

قال: كيفَ؟.

قال: لأنَّ الله تعالى قال حاكيّاً عن الملائكة قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠] وهذه صفة معاوية»[١]. . !!!!.

* وأمثالُ هذه القصص المفتراةُ كثيرةٌ في هذا الكتابِ وحده. ولو رحْتُ أستعرض لك ما جاء في في كتابٍ آخر مثل كتاب: «الجليس الصَّالح» لضاقَتْ بنا الصُّدورُ والصَّفَحاتُ لما فيه من التُّرهاتِ والأعاجيب والمُغَالطات، نسألُ الله عزَّ وجلَّ أنْ يلهمَنَا الصَّواب فيما نقولُ ونعملُ، وأنْ يلهمَنَا الأدبَ والتّأدُّب مع أصحاب النَّبيّ ﷺ وعلماء الصَّحابة كلّهم.

* وأما ما جاءَ في كتاب «معاوية»[٢] من سلسلةِ «أعلام العرب»، بقلم إبراهيم الأبياري، فلا يقلُّ إساءةً عما كُتِبَ عنه في تصانيفِ القُدماء؛ إذ إنّنا نجدُ عباراتٍ جريئةً يصف الإبياري من خلالها سيّدنا معاوية بصفاتٍ لا تليقُ بمقامِ هذا الصَّحابي الجليل النَّبيل. . . وسأختار لكَ عزيزي القارئ بعضَ الجُمَل والعباراتِ التي نمَّقها الإبياريُّ منتقصاً من خلالها سيّدنا معاوية، ومغالطاً الأعراف والتَّاريخ والآداب والأصول من دون أن يذكرَ لنا أي مصدرٍ أو مرجع اعتمدَ عليه في مغالطاتِهِ الرهيبة، التي تقصم الظّهور، وتهلك الحرث والنّسل.

* يقول الإبياري في معرضِ حديثه عن سيّدنا معاويةَ هذه العبارات التي لا يجرؤ أنْ يقولَها لأحدِ مشاهير الشَّاشات الصَّغيرة أو الكبيرة: «ها أنتَ ترىٰ أنَّ معاويةَ يطلبُ الدُّنيا بأسباب الدنيا، ويحاول أن يرغب الناس في هذه الدنيا، كما رغبَ هو فيها، لا يعنيهِ أنْ يَخُونَ النَّاس، وأنْ يكونَ هو

---

(١) التذكرة الحمدونية (٩/٤١٩).

(٢) معاوية: سلسلة أعلام العرب ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ العدد ـ ٦ ـ.

حاملُهم على هذهِ الخيانةِ ، ولا يعنيه أنْ تفسدَ ضمائر النّاس ، وأنْ يكونَ هو الذي يفسدُ على النَّاس ضمائرهم»![1].

* ويقولُ الإبياري في موضعٍ آخر مُصَوّراً سيّدنا معاويةَ رجلَ دنيا فقط ، يحتالُ ويحتالُ حتى يحقق ما يريدُ فيقول: «ولكنَّ معاويةَ كان رجلَ دنيا كما قُلنا لكَ ، والرَّجُلُ الذي يُحبُّ الدُّنيا يحتالُ لهذهِ الدنيا ، لا ييأسُ ولا يَمَلُّ ، إنْ فاتَتْهُ حيلةٌ يدبِّرُ حيلةً أخرى»[1]!!.

* وفي المجالِ ذاتهِ يقولُ الإبياري في موضعٍ آخر: «وكان علىٰ معاويةَ أنْ يستجيبَ لو أنَّه كان رجُلاً من هؤلاء الرّجال الذينَ يعملون لآخرتهم ودينهم ، فيحفظون على المسلمين دماءهم ، ويحفظون عليهم أرواحَهم ، ويحفظون عليهم خلافَهم ، ولكنَّه كان رجلاً من رجالِ الدُّنيا يراها غنيمة لا تُنال إلا بالدِّماءِ والأرواحِ والخلافِ. . .»[2]!!؟!!. . .

* ويتحدَّثُ الإبياري عن سيّدنا معاوية في فقرةٍ أخرى كأنَّه يتحدّثُ عن بعض المشاهد في بعض المسلسلات أو الأفلام ، ويصف سيدنا معاوية بالرجل المخاتل الخادع المحتال الجبان ، ثم يصفه بعدم الورع والمداهنة والغدر فيقول: «وبهذا الأسلوب الدّنيوي الباطلِ ، قَضىٰ معاويةُ على الأشْتَرِ ، وأراحَ نَفْسَه من خصمٍ لم يستطعْ أنْ يلقاهُ لقاءَ الرّجُلِ الشَّريفِ من أمامه ، فلقيه لقاء الرجلِ المُحْتالِ من وراء ظَهْره. . . ومعاويةُ الذي لم يتورعْ أنْ يغريَ النَّاس بخيانةِ النَّاس ، لم يتورعْ أنْ يخدعَ النَّاسَ بقولٍ كلُّه رياء ،

(١) معاوية (ص ١٨٦ و١٨٧) و(١٨٨). أقول: «وهذا كله ذكره الإبياري دون مصدر أو دليل ، ولا ندري من أين هبطت عليه هذه الفتوحات الإبيارية ، أمن السّماء نزلَتْ ، أم فجّرَتْ من الأرض؟! أم من الأغاليط الإبيارية العرجاء الهوجاء؟!».

(٢) معاوية (ص ١٩٧ و١٩٨) ، ولا ندري من أين جاءت هذه العبقرية الإبيارية فوصفت معاوية بذلك؟ وهل عمل الإبياري لآخرته ، فترك مثالب الصَّحابة ، وتجرأ على علمائهم! نرجو الله أن يهدينا سواء السَّبيل ، وأنْ يرزقنا الأدبَ مع سادتنا علماء الصَّحابة ، بل الصَّحابة أجمعين.

وكلُّه مداهنة ، وكلُّه باطل . . .»[1]!!؟؟!!! . . .

* ويصفُ الإبياريُ الصَّحابيَ النَّبيلَ الكاتبَ للوحيّ بأنَّه خادعٌ ماكرٌ مداهن ، ويذكرُ كذلك عدم حنكةَ الحسنِ بنِ عليّ فيقول: «ولكنَّ معاويةَ كان خادعاً ، وكان ماكراً ، أراد أنْ يخدعَ الحسَنَ وأراد أنْ يبايعَ الحسن له ، وأراد أنْ ينفضَّ النَّاسُ من حولِ الحسنِ ، ويجتمعوا حوله ، فإذا ما تمَّ له ذلك رأىٰ رأيه ، وأعطىٰ ما يريد ، ومنعَ ما يريدُ»[2]!!؟!! . .

* وأودُّ أنْ أشيرَ في نهايةِ هذه الفقرة إلى أغلوطةٍ قد اشتُهرت عن سيّدنا معاوية عند القدماء والمعاصرين وهي أنَّه من المؤلَّفةِ قلوبهم ، فقد قال الواقدي: «وشهد معه حُنيناً ، فأعطاهُ من الغنائمِ مئة من الإبل ، وأربعين أوقية»[3].

* وقول الواقدي ينافي حقيقة سيّدنا معاوية وإسلامه المبكّر ، قال القُرطبيّ رحمه الله: «أمّا معاوية فبعيدٌ أنْ يكونَ منهم ـ أي من المؤلّفة قلوبهم ـ فكيف يكون منهم وقد ائتمنه النَّبيّ ﷺ على وَحْي اللهِ وقرآنه ، وخَلَطَه بنفسه ، وأمّا حالُه في أيّام أبي بكْرٍ فأشهر منْ هذا وأظهر»[4].

* وردَّ الذَّهبيُّ على الواقدي ردّاً منطقياً أَظْهَرَ من خلاله أنَّ سيدنا معاويةَ رضي الله عنه ليس من المؤلَّفةِ قلوبهم فقال: «الواقديُّ لا يَعِي ما يقول ، فإنْ كان معاويةُ كما نُقِلَ قديم الإسلام، فلماذا يتألَّفه النّبي ﷺ؟ ولو كان أعطاه ،

---

(١) معاوية (ص ٢٢٤). أقول: إذا كان سيدنا معاوية كذلك، فلنكبر على الأمّة جميعها أربعاً».

(٢) معاوية (ص ٢٣٢ و٢٣٣) وللمزيد من هذه الأغاليط؛ انظر معاوية (ص ٢٣٦ و٢٤٩ و٢٥٦ و٢٥٧). أقول: «وهذه الافتراءات كلّها جاء بها الإبياري دون أن يذكر لنا مصدراً واحداً عاد إليه» !! نعوذ بالله من الأهواء . . .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٢).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ١٨١).

لم قال عندما خطب فاطمة بنت قيس: «أما معاوية؛ فصعلوكٌ لا مال له»[1]؟!.

كلمَاتُ عِلْمٍ وشهاداتُ حقّ:

* لسيّدنا معاويةُ بنُ أبي سفيان رضي الله عنهما مكانةٌ كبرى بين علماء الصَّحابة وكبرائهم، وشخصيّته متميزةٌ ذات طابعٍ خاص، وصفات متفرّدة، ناهيك بأخلاقه وفضائله التي استحقَّ من خلاله الثَّناء بكلمات حقّ من أهلِ الحقّ، وكلمات علْمٍ من ساداتِ أهْل العِلْم.

* وتطالعنا الأحاديثُ النَّبويّةُ بالثَّناءِ على معاويةَ وذكْر فضائلهِ وخصائلهِ الحميدة، ومناقِبهِ الفريدة، ومنها ما أخرجه التّرمذيُّ بسنده عن عبد الرّحمن بنِ أبي عَمِيْرة عن النَّبي ﷺ أنَّه قال لمعاويةَ: «اللهم اجعلْهُ هادياً مهدياً، واهْدِ به»[2].

* وجاء في التّرمذي أيضاً، عن أبي إدريس الخولاني قال: «لمَّا عزل عُمر بنُ الخطّاب عمير بن سعد عن حمصَ، ولّى معاوية، فقال النَّاس: عزل عميراً وولّى معاوية.

فقال عُمير: لا تذكروا معاويةَ إلا بخير، فإنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أهدِ به»[3].

* وفي الصَّحيحَيْن بشارةٌ لسيّدنا معاوية بالجنّة، وأنَّه مغفورٌ له، وذلك فيما جاء عند البخاري من حديث أمّ حَرام بنت ملحان رضي الله عنها أنها

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٢).

(٢) تحفة الأحوذي (١٠/ ٣٤٠ و٣٤١) برقم (٣٩٣١). والحديث ذكرهُ الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ٢٣٦) برقم (٣٠١٨)؛ وقوله «هادياً»: أي للناس، أو دالاً على الخير. و«مَهدّياً» أي مهتدياً في نفسه. و«اهدِ به»: أي بمعاوية.

(٣) تحفة الأحوذي (١٠/ ٣٤١) برقم (٣٩٣٢). وقال ﷺ من دعاء له لسيّدنا معاوية: «اللهم علّم معاوية الكتابَ، والحسابَ، وقهِ العذاب» (موارد الظمآن ٧/ ٢٤٩)، وإسناده حسن.

سمعت النبي ﷺ يقول: «أوَّلُ جيشٍ منْ أمّتي يغزون البحرَ قد أوجبوا».

قالت أمُّ حرام: يا رسول اللهِ أنا فيهم؟

قال: «أنت فيهم»[1].

* وفي رواية في الصَّحيحَيْن أنَها قالت: «يا رسول اللهِ! ادعُ الله أنْ يجعلني منهم، قال: «أنتِ منَ الأوّلين».

فركبت أمّ حَرام بنت مِلْحان البحر في زمنِ معاوية، فَصُرِعَتْ عن دابتها حين خرجَتْ من البحر، فهلكت»[2].

* وقال النَّوويّ في شرحهِ لهذا الحديث ما محصّله وملخّصه: «واختلفَ العلماءُ متى جرتِ الغزوةُ التي توفيت فيها أمُّ حرام في البحرِ، وقد ذكر مسلم في هذه الرواية أنّه قد ركبت البحر في زمان معاويةَ، فَصُرعَتْ عن دابتها فماتت.

قال القاضي: قال أكثر أهل السِّير والأخبار: إنَّ ذلك كان في خلافةِ عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، وأنَّ فيها ركبتْ أمُّ حرامَ وزوجها إلى قبرص، فَصُرِعَتْ عن دابتها هناك، فتوفيت ودُفنتْ هناك. وعلى هذا يكون قوله: في زمانِ معاوية معناه: في زمانِ غزوه في البحر، لا في أيام خلافته...

قال: بل كان ذلك في خلافته، وهو أظهرُ في دلالة قوله: في زمانه»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسّير برقم (٢٩٢٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم(٢٧٨٨ و٢٧٨٩)، ومسلم برقم (١٩١٢). وهذا الحديثُ من دلائلِ نبوةِ سيّدنا ﷺ، وفيه معجزاتٌ له منها: إخبارهُ ببقاء أمّته بعده، وأنّه تكون لهم شوكةٌ وقوةُ عَددٍ؛ وأنّهم يغزون، وأنّهم يركبون البحر، وأنَّ أمَّ حرام تعيش إلى ذلك الزَّمان، وأنّها تكون معهم. وقد وُجدَ بحمدِ اللهِ تعالى كلّ ذلك. وفيه فضيلةٌ لتلكَ الجيوش، وأنّهم غزاةٌ في سبيلِ الله. وأمّ حرام إحدى خالاتهِ ﷺ من الرضاعة. وهي أختُ أمّ سُليم بنت ملحان والدة أنس بن مالك أحد علماء الصّحابة المكثرين لرواية الحديث النبوي، وقد استوفينا سيرته في الباب الثّاني من هذه الموسوعة المباركة.

(٣) انظر: المنهاج (ص ١٤٦٦) بتصرف يسير. =

* وفي بشارة معاوية بالجنَّةِ نقرأ عند البخاري أنَّ النَّبيّ ﷺ قال: «أوّلُ جيش من أمّتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»[1].

* ومن كلمات الحقّ النَّابعة عنِ علماء الصَّحابة ما ذكرناه في فقرة سابقةٍ أنَّ حَبْر الصَّحابةِ وبحرهم في العلْم ابن عباس رضي الله عنهما قد شهدَ لمعاوية بالمكانةِ العلْميةِ والفقهية بين أعيان الصَّحابة فقال: «إنَّه فقيه».

* كما أنَّ هناك كلمات حقّ وعلمٍ من كبار علماءِ الصَّحابةِ وأعلامهم تشيدُ بمكانةِ معاوية ومقامه وعلمهِ وفقههِ، وهي منثورةٌ كزهر الرُّبى في حدائق سيرته الغنية بوردِ المعرفة.

* ولسيّدنا معاويةَ رضي الله عنه مكانةٌ كبرى في عيونِ علماء الأمةِ وفي وجدانهم، وقد أبدعت قرائحهم في الثَّناء عليه استناداً إلى ما جاء من الصَّحيح من أخباره ومناقبهِ، وقد حظي بالثَّناء من أكابر المصنّفين كابن كثير، والذَّهبي، وابن حجر، وابن العماد، وغيرِهم ممّن لا يُحصون.

= وفي هذا الحديث: جوازُ ركوبِ البحر للرجالِ والنّساءِ. وكَرِهَ الإمامُ ركوبه للنّساء لأنَّه لا يمكنهنَّ غالباً التّستّر فيه، ولا غضّ البصر عن المتصرفين فيه.
واستدلَّ بعضُ العُلماء بهذا الحديث على أنَّ القتالَ في سبيل الله تعالى والموت فيه سواء في الأجر، لأنَّ أمَّ حرام ماتتْ ولم تُقتل.
ومن الجدير بالذكر أنَّ قبرها بقبرص ويدعى: قبر المرأة الصَّالحة. وقال الذَّهبي: «وبلغني أنَّ قبرَها تزورُهُ الفرنج «سير أعلام النبلاء (٢/ ٣١٧).
وافتتح أبو نعيم في الحليةِ ترجمتها بقوله: «حميدةُ البرّ، شهيدةُ البحر، التَّواقة إلى مشاهدة الجنان، أمّ حرام بنت ملحان» (حلية الأولياء ٢/ ٦١). ولمزيد من أخبارها المتألقة اقرأْ كتابنا « نساء مبشّرات بالجنّة» (ص ٥٠ ـ ٥٩).

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٩٢٤) وقوله «مدينة قيصر»: يعني القسطنطينية. قال المهلّب: «في هذا الحديث منقبة لمعاوية لأنّه أولُ مَنْ غزا البحر، ومنقبة لِوَلَدِهِ يزيد لأنه أوّلُ منْ غزا مدينة قيصر». وكانت غزوة يزيد المذكورة سنة (٥٢ هـ)؛ وقيل (٥٠ هـ)؛ وفي تلك الغزاة مات أبو أيوب الأنصاري، فأوصى أنْ يُدفن عند باب القسطنطينية، وأن يُعفى قبره ففعل به ذلك، فيقال إن الروم بعد ذلك يستسقون به. وفي الحديث: الترغيب في سكنى الشام. وقوله: «قد أوجبوا» وجبت لهم به الجنة . (فتح الباري ٦/ ١٢٠ و١٢١) باختصار.

* ففي «سير أعلام النّبلاء» يُوردُ الذَّهبيُّ عن سيِّدنا معاوية جُمَلاً من الثَّناء فيها الإنصافُ والحقُّ والوضوح ، فيقول: «وخلْفَ معاويةَ رضي الله عنه خلقٌ كثيرٌ يحبّونه ، ويتغالون فيه ، ويفضّلُونه إمّا قد ملكَهم بالكرم والحلم والعطاء ، وإما قد ولدوا في الشام علىٰ حُبِّه ، وتربّى أولادُهم على ذلك من التّابعين والفُضلاء ، وحاربوا معه أهلَ العراق. . . كما قد نشأ جيشُ عليّ رضي الله عنه ، ورعيّتهُ على حُبّه والقيام معه ، وبُغضِ مَنْ بغَى عليه والتّبري منهم. . . فبالله كيف يكونُ حالُ مَنْ نشَأَ في إقليم ، لا يكادُ يشاهدُ فيه إلاّ غالياً في الحبِّ ، مفرطاً في البُغض ، ومن أين يقعُ له الإنصافُ والاعتدال؟ فنحمدُ الله على العافيةِ الذي أوجدنا في زمانٍ قد انمحصَ فيه الحقُّ ، واتَّضحَ من الطَّرفين ، وعرفْنا مآخذَ كلِّ واحدٍ من الطَّائفتين ، وتبصرنا فعذرنا ، واستغْفَرنا ، وأحببنا باقتصادٍ ، وترحّمنا على البُغَاة بتأويلٍ سائغ في الجملة ، أو بخطأ إنْ شاء الله مغفور ، وقُلنا كما علَّمنا اللهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] ، وترضَّينا أيضاً عمّن اعتزلَ الفريقَيْن ، كسعدِ بنِ أبي وقّاص ، وابن عمر ، ومحمّد بن مَسْلمة ، وسعيدِ بنِ زيد ، وخلْق. وتبرّأنا ، من الخوارج المارقين الذين حاربُوا عليّاً ، وكفّروا الفريقَيْن ، فالخوارج كِلابُ النَّار ، قد مرقُوا من الدِّين ومع هذا فلا نقطعُ لهم بخلودِ النَّار ، كما نقطعُ به لعبدة الأصنام والصُّلْبان»(١).

* ويقول الذَّهبيُّ في موضعٍ آخر عن مكانةِ معاويةَ وعلمِهِ وفضْلِهِ وسياسته الحصيفة ما مفادُه: «. . . جَمَعَ عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه الشَّام كلَّها لمعاويةَ ، وأقرَّه عثمانُ بن عفَّان رضي الله عنه. . . وحسْبُكَ بمن يؤمّرُهُ عمرُ ، ثم عثمانُ على إقليمٍ ـ وهو ثَغْرٌ ـ فيضبطُهُ ، ويقوم به أتمّ قيام ، ويُرضي النّاس بسخائِهِ وحلمِه. . . وإنْ كان غيرُهُ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ خيراً منه بكثيرٍ وأفضلَ وأصْلَحَ ، فهذا الرَّجلُ سَاد وساسَ العالَمَ بكمالِ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٨) بيسير تصرّف واختصار.

عقْلِهِ ، وفرطِ حلْمِه ، وسَعَةِ نفسه ، وقوّة دهائهِ ورأيهِ. . . وكان محبّباً إلى رعيّته ، عمل نيابة الشَّام عشرين سنة ، والخلافة عشرين سنة ، ولم يَهِجْهُ أَحَدٌ في دولته ، بل دانتْ له الأممُ ، وحكم على العربِ والعجم ، وكان ملكُه على الحرمَيْن ، ومصرَ ، والشّامِ ، والعِراقِ ، وخراسان ، وفارس ، والجزيرة ، واليمن ، والمغرب ، وغير ذلك»[١].

* وكان ابن كثير رحمه الله منْ أكثرِ المؤرّخين والمفسّرين ضَبْطاً وتحرياً للصَّواب فيما يكتبُ أو يترجمُ للشَّخصيّات ، وقد ترجم لسيّدنا معاوية ، وذكر أشياء مهمّة في سيرتِه وفضائِله ، فمن أقوال ابن كثير فيه: «كان حليماً وقوراً رئيساً سيّداً في الناس ، كريماً عادلاً شهماً. . . ولم يزل معاويةُ نائباً على الشَّام في الدّولة العمريّة والعثمانيّة. . . وافتتح سنة سبع وعشرين جزيرةَ قُبرص ، ولم تزلِ الفتوحاتُ والجهاد قائماً على ساقهِ في أيّامه في بلادِ الرُّوم والفرنج وغيرها ، فلما كان من أمرِهِ وأمْر أميرِ المؤمنين عليّ على ما كان ، لم يقعْ في تلك الأيّام فتحٌ بالكليّة ، لا على يديه ، ولا على يدي عليّ ، وطمعَ في معاويةَ ملكُ الرّومِ بعد أنْ كان قد أخشَاهُ وأذلَّه ، وقَهَرَ جنده ودَحَاهم ، فلمّا رأى ملكُ الرومِ اشتغال معاوية بحربِ عليٍّ تدانى إلى بعض البلادِ في جنودٍ عظيمة وطمعَ فيه ، فكتبَ إليه معاوية: واللهِ لئن لم تنتَهِ وترجعْ إلى بلادكَ يالَعِينُ لأصطلحنَّ أنا وابن عمي عليك ، ولأخرجنَّك من جميعِ بلادك ، ولأضيقنَّ عليك الأرض بما رحبتْ ، فعند ذلك خاف ملكُ الرّومِ وانكفَّ ، وبعثَ يطلبُ الهدنة. . . ولم يزلْ معاويةُ مستقلاً بالأمْرِ ، والجهادُ قائمٌ في بلاد العدو ، وكلمةُ الله عاليةٌ ، والمسلمون معه في راحةٍ وعدلٍ ، وصفْحٍ وعفوٍ»[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣٢ و١٣٣) بتصرف يسير. وقال الذّهبي أيضاً: «ومعاويةُ من خيارِ الملوكِ الذين غلبَ عدلُهم على ظلمهم ، وما هو ببريء من الهنَات ، واللهُ يعفو عنه». سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٩). وقال ابن عبّاس: «علمتُ بما كان معاوية يغلبُ الناس؛ كان إذا طاروا وقع ، وإذا وقعوا طار» (سير أعلام النبلاء ٣/ ١٥٤).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ١١٨ و١١٩) باختصار وتصرف.

* وقال ابنُ العماد في «شذراته»: «. . . ولي معاويةُ الشَّام لعمرَ وعثمانَ عشرين سنة، وتملّكها بعد عليّ عشرين أخرى، وسار بالرَّعيةِ سيرةً جميلةً. . . وهو أحدُ كتَبَةِ الوحي، وهو الميزانُ في حبّ الصّحابة، ومفتاح الصَّحابة. وسُئِل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: أيّهما أفْضَل: معاوية، أو عمر بن عبد العزيز؟

فقال: لَغُبارٌ لَحِقَ بأنفِ جوادِ معاويةَ بين يدي رسولِ اللهِ ﷺ خيرٌ من عمرَ بن عبد العزيز رحمه الله تعالى»[1].

* وأمّا أقوالُ العلماءِ وآراء سادة التّابعين فكثيرة منها: أنَّه قد سُئِل ابنُ المباركِ عن معاويةَ، فقيل له: «ما تقول فيه؟ قال: ما أقولُ في رجلٍ قال رسولُ اللهِ ﷺ: سمعَ اللهُ لمن حمده، فقال معاويةُ منْ خلفِهِ: ربّنا ولك الحمد. فقيل له: ما تقولُ في معاويةَ: هو عندك أفضل أمْ عمر بن عبد العزيز؟

فقال: لَتُرابٌ في منخري معاوية مع رسولِ اللهِ ﷺ خيرٌ من عمر بن عبد العزيز»[2].

* وسأَل رجلٌ المعافىٰ بنَ عمران فقال: «يا أبا مسعود، أين عمر بن عبد العزيز من معاويةَ؟ فغضبَ من ذلك غضباً شديداً وقال: لا يُقَاسُ بأصحابِ رسولِ الله ﷺ أحدٌ؛ معاويةُ صاحبُه وصهرُهُ وكاتبهُ وأمينُهُ على وحي الله عزَّ وجلَّ، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «دعوا لي أصحابي وأصهاري، فمَنْ سبَّهم فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والنَّاسِ أجمعين»[3].

* وعن الفَضْل بنِ عنبسة «أنّه سئل: معاويةُ أفضلُ أمْ عمر بن عبد العزيز؟

---

(١) شذرات الذهب (١/ ٢٧٠) بتصرف يسير جداً.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٧٤).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٧٤). وقال إبراهيم بن ميسرة: «ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنساناً إلا إنساناً شتم معاوية، فإنه ضربه أسواطاً». (مختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٧٦).

فعجِبَ من ذلك وقال: سبحان الله! أأجعلُ مَنْ رأىٰ رسولَ اللهِ ﷺ كمن لم يَرَهُ؟!»[١] قالَها ثلاثاً.

* وقال الرّبيعُ بنُ نافع: «معاويةُ سترُ أصحابِ النّبيّ ﷺ، فإذا كَشَفَ الرجلُ السِّترَ اجترأ على ما وراءه»[٢].

* ونزيّنُ هذه الفقرة بهذه الفريدة: كان أبو هريرة رضي الله عنه يمشي في سوقِ المدينة وهو يقول: «اللهم لا تدركني سنة السّتين، ويحكم، تمسَّكوا بِصُدْغَيْ معاوية...»[٣].

* ومن اللطائفِ الجميلةِ الآسرة ـ التي ينبغي أنْ يتذكَّرها كلّ محبّ لأسيادنا علماء الصَّحابة، وللصَّحابة أجمعين، ولسيّدنا علي بن أبي طالب خاصَّة ـ ما ذكرهُ أبو القاسم بن أبي زُرْعةَ الرّازي قال: «جاء رجلٌ إلى عمّي أبي زُرْعة فقال له: يا أبا زرعة، أنا أبغضُ معاوية.

قال: لم؟

قال: لأنَّه قَاتَلَ عليَّ بنَ أبي طالب.

فقال له عمّي: إنَّ رَبَّ معاويةَ ربٌّ رحيمٌ؛ وخَصْمُ معاوية خصمٌ كريم، فأَيش دخولَكَ أنتَ بينهما رضي الله عنهم أجمعين»[٤]؟

* ومن المحاسنِ التي ينبغي أنْ يتذكَّرها كلُّ محبّ للصَّحابة ماورد «أنَّ رجلاً سأل أحمدَ بنَ حنبل عمَّا جرى بين عليّ ومعاوية، فأعرضَ عنه، فقيل له: يا أبا عبد الله! هو رجل من بني هاشم، فأقبل عليه فقال: اقرأْ: ﴿ تِلْكَ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٧٤).

(٢) المصدر السابق عينه. وكان نقش خاتم معاوية: «لكل عمل ثواب»، وقيل: «لا قوّة إلا بالله».

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٧٩)، واقرأ سيرة سيّدنا أبي هريرة في الباب الثاني من هذا الكتاب.

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٣٩)، وهذا القول ـ واللهِ ـ يمثّلُ ذروةَ احترامِ الصّحابة والتّأدب معهم والتّرضي عنهم أجمعين، فلله درّ أبي زرعة الرّازي على هذه البديهة البديعة !!.

﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤][١].

الأميرُ الملكُ والخليفةُ العالِم:

* سيرةُ سيّدنا معاويةَ رضوان الله عليه من السِّيَرِ الشَّائقةِ الجميلةِ المتألّقة التي يُطَالعُها الخاصُّ والعامُّ والمحبُّ وغيرُهُ، فشخصيّة سيّدنا معاوية شخصيّةٌ غنيةٌ من شخصياتِ علماء الصَّحابة الذين عملوا للصَّالح العام، ولمصلحةِ المسلمين، ولتكون كلمة اللهِ هي العُليا وكلمةُ الذين كفروا السُّفلى.

* كان سيّدنا معاوية رضي الله عنه أميراً ناجحاً، وملكاً مُطاعاً، وعالماً حصيفاً، وخليفةً عاملاً[٢]، وكان يهتمُّ بأعمالِ الدَّولةِ الدَّاخليةِ والخارجيةِ، ويعاملُ الرَّعيّةَ بالإحسان، أمّا الأعداءُ من الرُّومِ والمشركين فكان يقهرهم في ميادين الجهادِ والنّزال، وكانت جيوشُه المسلمةُ تجوسُ الشَّرقَ والغربَ، وتفتحُ البلدان والأمصار، وتنشرُ الإسلام في الأقطار، وتوسعُ رقعته في الليل والنّهار، وذلك منذ أن تسلَّمَ معاوية إمرةَ الشَّام إلى أن صار خليفةً وأميراً للمؤمنين ثمّ إلى آخر حياته.

* وكان سيدنا معاويةُ رضي الله عنه يحاربُ الأعداءَ على ثلاثِ جبهات خطيرة:

أولاها: الجبهةُ الغربيةُ: كانت الجيوشُ الإسلاميةُ قد وصلَتْ إلى جهات تونس، وأسَّس عقبةُ بنُ نافع[٣] مدينة القيروان التي كانت مركزاً لمسيرةِ

---

(١) المصدر السابق ذاته.

(٢) قال سيدنا معاوية: «أنا أوّل الملوك» وقال: «أنا أوّلُ ملك وآخر خليفة». (مختصر تاريخ دمشق ٢٥/ ٥٥).

(٣) عقبة بن نافع القرشي الفِهري الأمير نائب إفريقية لمعاوية، وليزيد، وهو الذي أنشأَ القيروان، وأسكنها النّاس. وكان ذا شجاعةٍ، وحزمٍ، وديانة، لم يصحَّ له صحبة، شهدَ فتح مصر، واختطَّ بها. جهزه سيّدنا معاوية على عشرة آلاف، فافتتح إفريقية، واختطَّ قيروانها. وكان الموضع غيضةً لا يُرامُ من السِّباع والأفاعي، فدعا عليها، فلم يبقَ فيها شيءٌ، وهربوا حتى إنَّ الوحوش لَتحملُ أولادها، ثم قال لأصحابه: انزلوا =

الفتوح ، ثم تعودُ البعوث إليها ، واستطاع عقبةُ بنُ نافع أنْ يخضعَ البربر ويدخلهم في دين الإسلام.

ثانيهما: الجبهةُ الشَّرقيةُ: كانت الجيوشُ العربيةُ المسلمةُ بقيادةِ البطلِ المغوارِ المهلّبِ بنِ أبي صفرة[1] تحاربُ التّرك ، وأخذ المهلّب يسيرُ في بلادهم ، ويعودُ منها وهو يحمل رايات النَّصر ، وذكرت المصادرُ كثيراً من الانتصارات المهمة. فقد كان المهلّب أميراً بطلاً ، قائداً لكتائب المجاهدين ، وتوفي غازياً بمرو الروذ بخراسان سنة (٨٢ هـ).

ثالثها: جبهةُ الرُّوم ، وهي التي كان يهتمُّ بها معاويةُ خاصة ، فقد نظَّمَ أمره فيها تنظيماً جيداً ، وأحدثَ الشَّواتي والصَّوائف ، وهي بعوثٌ تسيرُ إحداها للجهادِ في الصَّيف ، والأخرى في الشّتاء.

* ثم إنَّ سيّدنا معاويةَ أَوْلىٰ الأسطول البحريَّ اهتماماً خاصاً ، وذلك من أجلِ فتح القسطنطينية ، فأنشأَ أسطولاً حربياً ضخماً بلغت عددُ سفنه قرابة (١٧٠٠ سفينة) ، وفتح به بعض الجُزُر ، وانتصر بمعركةِ ذات الصَّواري المشهورة على الروم انتصاراً مذهلاً جعلهم في حيرتهم يترددون.

* وجهَّزَ سيّدنا معاوية جيشاً لفتح القسطنطينية عام (٤٨هـ) ، وكان فيه عددٌ كبيرٌ من علماء الصَّحابة وأعيانهم منهم: عبدُ الله بنُ عباس ، وابنُ الزّبير ، وأبو أيّوب الأنصاري وكان معهم يزيدُ بنُ معاويةَ ، وسار الجيشُ حتَّى بلغ أبوابها ، وأبلى بلاءً حسناً فيها ، وحظي بالشَّهادة عددٌ كبير من أفراده. ومن العجيب أنَّ الأتراك قد حفظوا قبور الشّهداء من كل سوءٍ وحافظوا عليها ، وخاصّة قبر سيّدنا الكريم المضياف أبي أيوب الأنصاريّ

= بسم الله. وقُتِل عقبة سنة (٦٣ هـ) رحمه الله. (سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٣٢ ـ ٥٣٤) بتصرف.

(١) المُهلّبُ بن أبي صفرة الأزديّ العَتكي البصري أبو سعيد أحدُ الأبطال الأمراء الشّجعان ، غزا الهند ، وحارب الخوارج ، وولي خراسان ، ودوّخ الأزارقة ، وله أخبار مشهورة وأقوال مأثورة تكفلت المصادرُ وكتب الأدب والتّاريخ بذكرها.

رضي الله عنه ، والأكثر عجباً من ذلك أنَّ ملوكهم كانت تتوَّجُ بالخلافةِ عند ضريح أبي أيوب الأنصاريّ رضي الله عنه ، وهذا من بركاته وكراماته إذ إنّه أضَافَ النَّبيّ ﷺ واحتفى به عند هجرتـهِ إلى المدينةِ المنوَّرة وتشرَّف بخدمتهِ ، ونال وسام الشَّهامة والشَّجاعة من خلالِ مغازيه بمعيّةِ الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ.

* ومن الأعمالِ المهمّةِ التي قام بها سيّدنا معاوية رضي الله عنه أنَّه نظَّم الدَّواوين ، وصار لها أصحاب ، وأصبح لها أختام ، كما أنَّه نظَّمَ البريد تنظيماً واضحاً بحيث كانت الرسائل تَصِلُ بانتظامٍ من جميع البُلدان والأصقاع ، ولم يكتفِ بهذا بل أنشأَ آبارَ المياهِ على الطُّرقات ، فربطَ بين أجزاء الدَّولةِ الإسلاميةِ ربطاً مدروساً محكماً.

* وممّا تجدرُ الإشارة إليه أنَّ سيّدنا معاوية رضي الله عنه قد وضع نظام ولايةِ العهد ، وكانتِ المفتاحَ الرئيسَ لمن جاء بعده(١).

* والخلاصة : لم يكن من ملوكِ الإسلام خيراً من معاويةَ رضي الله عنه ، ولا كان النّاسُ في زمانِ مَلِكٍ من الملوكِ خيراً منهم في زمنِ معاوية ، إذا نُسبت أيامه إلى أيامِ مَنْ بعده ، وإذ نُسبت إلى أيام أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ظَهر التَّفاضل.

في جِوَار أرحمِ الرَّاحمين :

* لم تكن حياةُ سيّدنا معاوية رضي الله عنه حياةَ دعَةٍ وخفْضٍ ، وإنّما كانت بمجملِها حياةَ علمٍ وعَمَلٍ وجهادٍ ضدّ الرّوم ، وهو أحد علماء الصَّحابة المُعمَّرين الذين اقتربوا من الثمانين ، وكانت حياتهم حياةَ عطاءٍ ونفْعٍ وعلْم وتعليم وجهادٍ.

* ولئن اشتُهِرَ سيدنا معاوية أميراً وملكاً وخليفةً ـ وأخباره في هذا

---

(١) الدولة الأموية للدكتور يوسف العش (ص ١٥٨) بتصرف ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٨٥م.

مستفيضة ـ لقد كان عالماً من علماء الصَّحابة الأَبْنِاء ، وكان كبيرَ الشّأن في هذا المضمار الكريم ، وله آراء وأعمال نافعةٌ أقرَّه عليها كبار علماء الصَّحابة ووافقوه ، ومنهم ابنُ عبّاس ، وابنُ عمر ، وابن الزّبير ، وأبو الدرداء ، وفضالة بنُ عبيد ، والحسنُ بنُ عليّ وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

* وعاش معاوية رضي الله عنه حياةً طويلةً ، ولمّا أحسَّ بدنوّ أجله ، وأنَّه قد كبرت سنّه ، ورقّ عظمُه ، صَعِدَ المنبر ، وخطبَ النَّاس ، وأوصاهم وصيّةً عظيمةً فقال بعد أنْ حَمِدَ الله عزَّ وجلَّ وأثنى عليه: «أيّها النّاس ، إنَّ مَنْ زَرَعَ قد اسْتَحْصَد ، وقد طالت إمرتي عليكم حتّى مللتموني ومللتكم ، وتمنيتُ فراقكم وتمنيتم فراقي ، وإنّي قد وليتكم ، ولنْ يليَكُم أحدٌ بعدي إلا مَنْ هو شرٌّ منّي ، كما كان مَنْ قبلي خيراً مني. مَنْ أحبَّ لقاء اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءَهُ؛ اللهم إنّي قد أحببتُ لقاءك فأحبَّ لقائي.

ويا يزيدُ إذا وَفَى أجلي فَوَلِّ غَسْلي رجُلاً لبيباً ، فإنَّ اللبيبَ مِنَ اللهِ بمكان ، فَلْيُنْعِمِ الغَسْل ، وليَجْهَرْ بالتّكبير ، ثم اعمدْ إلى منديلٍ في الخزانة ، فيه ثوبٌ من ثيابِ النَّبيِّ ﷺ ، وقُرَاضة من شعرِهِ وأظفاره ، فاستودع القُراضةَ أنفي ، وفمي ، وأُذني ، وعيني ، واجعلِ الثَّوبَ يلي جِلْدي دون أكفاني.

ويا يزيدُ ، احفظ وصيّةَ اللهِ في الوالدين ، فإذا أدرجتموني في جريدتي ، ووضعتموني في حفرتي ، فخلّوا معاوية وأرحم الراحمين»[١].

* وكانت هذه آخر خطبةٍ خطبَها معاوية؛ ولما احتُضرَ أوصىٰ بنصف ماله أنْ يُردَّ إلى بيتِ المال ، كأنَّه أرادَ أنْ يُطيِّبَ له ، لأنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب قاسَمَ عُمّاله[٢]. وكان معاوية يخاطبُ الدنيا ويقول: «قبّحك اللهُ من دار».

* وكان يقول أبياتاً منها:

لعمري لقد عُمِّرتُ في الملك برهة ... ودانت لي الدنيا بوقع البواترِ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٧٩).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٨١).

ويا ليتني لم أُغْنَ في الملك ساعةً ولم أُغْنَ في لذَّات عيشٍ نواضرِ
وكنتُ كذي طمريْنِ عاشَ ببلغةٍ من الدهرِ حتّى زار ضَنْكَ المقابرِ

* وذكروا أيضاً أنَّه كان ينشدُ في أخرياتِ أيامه:

فهلْ من خالدٍ إمّا هلَكْنا وهل بالموتِ يا للنَّاسِ عَارُ

* ولمَّا ثقُلَ معاوية رضي الله عنه، وتحدَّثَ النَّاسُ أنَّه بالموتِ، قال لأهله: «احشُوا عينيَّ إثمداً، وأوسعوا رأسي دهناً». ففعلوا، ثمّ جلسَ وقال: ائذنوا للنَّاس، فليسلموا قياماً ولا يجلس أحدٌ، فجعل الرَّجل يدخلُ فيسلّمُ قائماً، فيرى معاوية فيقول: هو أصحُّ النَّاس. فلمّا خرجوا من عنده قال معاويةُ متمثّلاً بيتَيْن من أبيات أبي ذؤيب الهذلي:

وتجلّدي للشَّامتين أُريهم أنّي لريبِ الدَّهْر لا أتضَعْضَعُ
وإذا المنيةُ أنشبَتْ أظفارها ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

* وذكروا أنَّه لما حضرته الوفاةُ قيل له: ألا توصي؟ فقال: «اللهم أَقِلِ العثرة، واعفُ عن الزَّلة، وعُدْ بحلْمِكَ على من لا يرجو غيرك، فإنّكَ واسعُ المغفرة، ليس من خطيئة مَهْربٌ إلا إليك»؛ ثم تمثَّل فقال:

هو الموتُ لا مَنْجَى من الموت والذي نحاذرُ بَعْدَ الموتِ أدهىٰ وأفْظَعُ

* قال محمّدُ بنُ سِيرين: «لمّا مرضَ معاويةُ رضي الله عنه نزلَ عن السَّريرِ، فكشَفَ ما بينه وبين الأرض، وجعل يُلْزِقُ ذا الخدّ مرّةً بالأرض، وذا الخدِّ مرّةً بالأرض، ويبكي ويقول: اللهم إنَّك قد قُلْتَ في كتابك الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦]، فاجعلني ممن تشاء أنْ تَغْفِرَ لهم».

* وعن أبي السَّائب المخزومي قال: «لما احتُضر معاويةُ رضي الله تعالى عنه قال:

إنْ تناقش يكُنْ نقاشُكَ يا ر بّ عذاباً لا طوقَ لي بالعذاب
أو تجاوزْ فأنتَ ربٌّ غفورٌ عن مسيءٍ ذنبُه كالتُّراب

* وكان آخر ما تكلّم به سيدنا معاوية قوله: «اتقوا الله فإنّه لا يقين لمن لا يتّقي الله»[1].

* وتوفي سيّدنا معاوية سنة (٦٠ هـ) في شهر رجب، وعمره يقتربُ من الثّمانين، وكان ابنه يزيد بِحُوّارين. قال سعيدُ بنُ حريث: «ماتَ معاويةُ، ففزعَ النَّاسُ إلى المسجد، فأتيت، فلمّا ارتفع النَّهار وهم يبكون في الخضراء، وابنه يزيد في البرِّيَّةِ وهو ولي عهده، وكان مع أخواله بني كلب، فقدم فتلقَّيناه وليس عليه عمامةٌ ولا سيفٌ، فسار إلى باب الصَّغير، فنزل، ومشى بين يديه الضَّحَّاك الفِهريّ إلى قبر معاوية، فَصَفَّنا خَلْفه وكبّر أربعاً، ثم ركبَ بغلته إلى الخضراء، ثم نُودي وقت صلاة الظُّهر: الصَّلاة جامعة، فاغتسلَ وخرجَ، فجلس على المنبر، وعجَّلَ العطاء، وأعفاهم من غزوِ البحر، فافترقوا وما يفضّلون عليه أحداً»[2].

* رحم اللهُ سيّدنا معاوية، ورضي عنه وعن أبيهِ وعن أمّهِ وعن الصَّحابة أجمعين، وغَفَرَ لنا ورحمنا برحمتِهِ التي وسَعَتْ كلَّ شيء، وحشَرنا في معيّةِ علماء الصَّحابةِ ورضي عنّا، وأكرمنا بفضله، فهو الغفورُ الودود الذي يغفر الذنوب جميعاً، اللهم يا ربَّ العالمين اجعلنا ممّن تشاء أنْ تغفر لهم.

* * *

(١) هذه الفقرات وأشباهها مما مضى في الفقرة الأخيرة نقلتها من المصادر الآتية مع الجمع بينها: مختصر تاريخ دمشق، وأنساب الأشراف، وسير أعلام النبلاء، والبداية والنهاية، وغيرها كثير جدّاً.
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦١ و١٦٢) بتصرف يسير.




حذيفة بن اليمان

* كان لحذيفة شأن عظيم ومكانة متميّزةٌ بين علماء الصّحابة.
* اشتهر بأنه كان أمين سرّ النّبيّ ﷺ، وروى (٢٢٥ حديثاً).
* شهد غزوة أحد وسائر المشاهد وشارك في الفتوحات.
* له حكم ونصائح وكلمات سائرات ومواعظ نافعات.
* كان فقيهاً حافظاً للحديث نجيباً ذكياً وتوفي سنة (٣٦ هـ).




حُذيفَـةُ بنُ اليَمَـانِ

الأمينُ الحبيبُ:

* عَالِمٌ بمفردِه عَالَم ، به يفتخرُ بنو آدم ، أَلِفَ الأكابرَ فازدادَ علْماً ، وصحبَ الأفاضلَ فصار مكْرماً ، له حِكمٌ تنبىءُ عن عقْلِهِ ، وكلماتٌ تدلُّ على فضْلِهِ ، وله مآثرُ حميدةٌ مع الخليفةِ عثمان ، إذ كان له الفَضْلُ في جمع القُرآن؛ وهذا العالمُ العَيْلم هو حذيفةُ بنُ اليَمان[1] ، أحدُ علماءِ الصَّحابةَ الشُّجعان ، وأحدُ الفضلاء الذين نستمتعُ بسيرهم على مرِّ الزَّمان ، رضي الله عنه وأرضاه وحشرنا معه في الجنان.

* كان حذيفةُ بنُ اليمان رضي الله عنه من كبارِ أصحابِ سيّدنا رسولِ الله ﷺ ، ومن نجباءِ أصحابهِ ، وهو صاحبُ السِّرّ النّبويّ المحمّديّ ، وأَعْظِمْ بهِ منْ صاحب!

* وفي ظلال أسرة تضمَّخَتْ بمسْكِ الإيمان ، نشأ حذيفةُ بن اليمان رضي الله عنه يرتشفُ الرحيقَ المنعش ، ويرتوي من معين الإسلام الحنِيف ، فقد كان أبوه اليمان واسمه حسيل ، قد أسلمَ مع السَّابقين ، وكان مُعمَّراً

(١) المصادر التي ترجمت لسيدنا حذيفة كثيرة جداً لا تحصر ومنها: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦١ ـ ٣٦٩) ، والإصابة (١/ ٣١٦و٣١٧) ، والاستيعاب (١/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨) ، والاستبصار (ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥) ، وحلية الأولياء (١/ ٢٧٠ ـ ٢٨٣) ، ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (٦/ ٢٤٨ ـ ٢٦٣) ، ومجمع الزوائد (٩/ ٣٢٥) ، والمعرفة والتاريخ (٣/ ٣١١) ، وتهذيب التهذيب (٢/ ٢١٩ و٢٢٠) ، ومسند الإمام أحمد (٩/ ٧٣ ـ ١٢٢) ، طبعة دار الفكر ، والمستدرك (٣/ ٣٧٩ ـ ٣٨١) وغير ذلك كثير جداً.

قضى شطْر حياتِهِ الأكبر في عصرِ الجاهليّةِ ، وأمّا والدتُه الرَّبابُ بنت كعب بن عديّ الأشهليّة ، فكانت من المبايعات للنَّبيِّ ﷺ ، وقد ولدَتْ لليمان: حذيفة ، وسعداً ، وصفوان ، ومدلجاً ، وابنة تُدعى ليلى؛ هذا ما ذكَرهُ ابنُ سعد ، بيد أنَّ الإمامَ النَّوويَّ قد زاد على ذلك فقال: «كان لحذيفة أخٌ اسمُه صفوان؛ وأختان أمُّ سلمة ، وفاطمةُ بنو اليمان»[1].

* وبهذا نعلمُ أنَّ هذه الأسرةَ الحذيفيّةَ اليمانيةَ ، كانت من الأُسَرِ التي أكرمها اللهُ عزَّ وجلَّ بالصُّحبةِ النّبويةِ؛ منذ فجرِ الدَّعوةِ المحمديّةِ ، فكانت من السُّعداء ، لذا فقد كان إسلامُ حذيفةَ إسلامَ المحبّين الصَّادقين ، هاجرَ إلى النَّبيِّ ﷺ من المدينة ، وفي أمِّ القرى مكّةَ خيَّرهُ الحبيبُ المصطفى ﷺ بين الهجرة والنُّصرة ، فاختار النُّصرةَ ، وبذا أحبَّ حذيفة أنْ يكونَ من الأنصار ، لأنّه كان حليفاً لهم ، وهذا التّصرّف الكريم يُعتبرُ ذِرْوَةَ الوفاء ، ولذا فقد اعتبره كتّاب التَّراجم من أعيانِ المهاجرين ، وكذلك من أعيان الأنصار ، فهو مهاجريٌ أنصاريٌ رضي الله عنه. وزاد من مكانةِ حذيفة أَنْ آخى سيّدنا رسولُ اللهِ ﷺ بينَه وبين عمَّار بنِ ياسر عميد الأسرةِ الياسريّةِ الصَّابرة ، وأحدِ أعيانِ المهاجرين السَّابقين إلى دوحة الإيمان ، بل مُلِىءَ بالإيمان إلى مشَاشهِ ، فأنْعِمْ بهما وأكْرِمْ بحذيفة وعمَّار!

* وفي أفياء المجالس النّبويّة نَعِمَ حذيفة ، وبين رياضها النَّضِرات ، عاش أحلى الأوقات ، فكان شديدَ الالتصاقِ بهاتيك الجلسات الآسرات التي تجلو الأبصار والبصائر ، فغدا عالماً عيلماً ، وقائداً معلماً ، ونجيباً فهيماً ، وفقيهاً ورعاً ، وتقيّاً محبّاً للهِ ورسوله ، فقد تخرّج في الجامعةِ المحمديّةِ برئاسةِ الحبيبِ الشَّفيع سيّدنا رسولِ اللهِ ﷺ.

* وكان لحذيفةَ رضي الله عنه شأنٌ عظيمٌ ، ومكانةٌ متميزةٌ بين الصَّحابةِ الكرام ، فقد كان النَّبيُّ ﷺ قد أسرَّ إليه أسماء المنافقين ، وضَبطَ عنه الفتن الكائنة في الأُمَّة ، وله مناقب جمّةٌ ، جعلته أحدَ علماء الصَّحابةِ وزهادهم ،

---

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥٥).

وفي الصَّفحات الآتيةِ نتعرَّفُ بعضَ أخباره ونغترف من فضائله ما نُسَرُّ به بإذن الله عزَّ وجلَّ.

مع رسُولِ اللهِ ﷺ:

* الرّحلةُ الحذيفيةُ رحلةٌ جميلةٌ ومباركةٌ في المعيَّةِ النَّبويّةِ، أفاد منها خيراً كثيراً، وحظي بأكثرَ من دعاءٍ نبوي مباركٍ ميمونٍ، من ذلك أنَّ سيِّدَنا رسولَ اللهِ ﷺ قد دعا لحذيفةَ ولأمّهِ بالمغفرة فقال له: «غَفَرَ اللهُ لكَ ولأمِّك»[1]، وذات مرّة أرشدهُ النَّبي ﷺ إلى الاستغفار، لِمَا فيه من فوائدَ، فقد كان في لسانِ حذيفة ذَرَبٌ على أهله، فذكرَ ذلك للنَّبيِّ ﷺ فقال له ناصحاً ومرشداً: «أين أنتَ منَ الاستغفارِ يا حذيفةُ، إنّي لأستغفرُ اللهَ كلَّ يوم مئة مرّةٍ وأتوبُ إليه»[2].

* كان حذيفةُ رضي الله عنه شديدَ الانتباه لما يعمله أو يقوله رسولُ اللهِ ﷺ، فقد جاء في الصَّحيح وغيرِه عن حذيفةَ قال: صلَّيتُ مع رسول الله ﷺ، فلمّا ركعَ جعل يقول: «سبحان ربّي العظيم»، ثم سجد فقال: «سبحان ربي الأعلى»[3].

* وفي معيّةِ الرَّسولِ ﷺ أفاد حذيفةُ عِلْماً جمّاً، فقد كان رجلاً فَطِناً نبيهاً يحبُّ العِلْمَ ويسعى إلى تحصيله بكلِّ سبيل، فكان يسألُ سيِّدنَا رسولَ الله ﷺ عن كثيرٍ من مهمّات الأمور، وعمّا يوصلُهُ إلى شاطىء الأمنِ والأمان، فقد سألَه عن جليلِ الأمور، في حين أنَّ النَّاس كانوا يسألونه عن الخير.

* أخرج الإمامُ أحمد بسندٍ رفَعَه إلى خلاّدِ بنِ عبد الرّحمن، أنَّه سمعَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٩/ ٩١) برقم (٢٣٣٨٩)، والترمذي برقم (٣٧٨١)، والحاكم (٣/ ٣٨١)، وانظر مختصر تاريخ دمشق (٦/ ٢٥٠)؛ والحديث ذو إسناد صحيح.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٩/ ٩٥) برقم (٢٣٤٠٠) ورقم (٢٣٤٢٢)، وابن ماجه برقم (٣٨١٧)، والحاكم (٢/ ٤٥٧)، وانظر حلية الأولياء (١/ ٢٧٦)، وغير ذلك من مصادر.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٧٧٢)، وأحمد (٩/ ٧٧) برقم (٢٣٣٢١)، والنسائي (٢/ ١٩٠)، والترمذي برقم (٢٦٢).

أبا الطُّفَيْل يحدِّثُ أنَّه سمعَ حذيفةَ بنَ اليمان يقول: «يا أيّها النّاسُ ألا تسألوني؟ فإنَّ النَّاسَ كانوا يسألون رسولَ اللهِ ﷺ عن الخير ، وكنتُ أسألهُ عن الشَّرِّ ، إنَّ اللهَ بعَثَ نبيَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ فدعا النّاسَ من الكُفْرِ إلى الإيمان ، ومن الضَّلالة إلى الهُدىٰ ، فاستجابَ مَنِ استجاب ، فحيي مِنَ الحقّ ما كان مَيْتاً ، وماتَ من الباطلِ ما كان حياً ، ثمّ ذهبتِ النُّبوّة ، فكانتِ الخلافةُ على منهاجِ النّبوة»(١) .

* وبلغ حذيفةُ بنُ اليمان رضي الله عنه منزلةً مرموقةً عند رسول الله ﷺ ، إذ كان من الخُلَصاء عنده ، فكان يُسْنِدُ رأسَ النّبي الكريم ﷺ إلى صدرِهِ ، ويقتبسُ من العِلْمِ النّبويّ ما استطاعَ إلى ذلك سبيلاً ، ويحدثنا حذيفةُ عن ذلك فيقول: أسندتُ النَّبيَّ ﷺ إلى صدري ، فقال: «مَنْ قالَ لا إله إلاّ الله ابتغاءَ وجْهِ الله خُتِمَ له بها دخل الجنَّة ، ومَنْ صام يوماً ابتغاء وجهِ الله خُتِمَ له بها دخل الجنَّة ، ومَنْ تصدَّقَ بصدقةٍ ابتغاءَ وجْه اللهِ خُتِمَ له بها دخل الجنَّة»(٢) .

* وفي ليلةِ أُنْسٍ مع اللهِ عزَّ وجلَّ ، أخذَ حذيفةُ يتعلّمُ من النّبيّ ﷺ العبادةَ والصَّلاةَ والذّكرَ ، ونقل حذيفةُ صورةً تعليميةً عن ذلك ، فقال: «صلّيتُ مع النَّبيّ ﷺ ذات ليلة ، فافتتحَ البقرة ، فقلتُ يركعُ عند المئة ، فقلت: يصلّي بها في ركعة ، فمضى ، فقلت: يركع بها.

ثم افتتح النّساء فقرأَها ، ثمّ افتتحَ آل عمران فقرأها ، يقرأُ مسترسلاً ، إذا مرَّ بآية فيها تسبيحٌ سبَّح ، وإذ مرَّ بسؤالٍ سأل ، وإذا مرَّ بتعوّذٍ تعوَّذَ ، ثمّ ركعَ فجعل يقول: سبحان ربّي العظيم ، فكان ركوعه نحواً من قيامه ، ثمَّ قال: سمعَ اللهُ لمن حمده؛ ربّنا لكَ الحمدُ ، ثمَّ قامَ قياماً طويلاً قريباً ممّا ركع ، ثمَّ سجد ، فقال: سبحان ربي الأعلى ، فكان سجودُهُ قريباً من قيامه»(٣) .

---

(١) أخرجه أحمد (٩/ ١١٤) برقم (٢٣٤٩٢) ، وإسناده صحيح ، ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد (٩/ ٩٠) رقم (٢٣٣٨٤).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٧٧٢)؛ ومعنى قوله «فقلتُ: يصلّي بها في ركعة» معناه: ظننتُ أنّه =

أعمالـهُ في الغزو والفتوحـاتِ:

* سجِلُّ سيّدنا حذيفةَ بنِ اليمان رضي الله عنه حافلٌ بصُوَرِ الجهاد في المعيّةِ النّبويّةِ، وفي ديوان الفُتُوحاتِ الإسلاميّةِ في العهد الرّاشديّ الزّاهر الميمون.

* لم يشهدْ حذيفةُ رضي الله عنه غزاة بدرٍ، وإنَّما شهد أُحُداً وما تلاها، قال ابنُ سعدٍ رحمه الله «شهد أحداً وما بعد ذلك من المشاهد»[1].

* أمَّا سببُ غيابِ حذيفةَ عن غزاةِ بدرٍ، فهو سببٌ وجيهٌ عنوانهُ الوفاء، وسنستمعُ من حذيفةَ نفسه، وهو يروي ذلك فيقول: «ما منعني أنْ أشهدَ بدراً

= يسلّم بها فيقسمها على ركعتَيْن، وأراد بالركعةِ الصَّلاة بكمالها. وهي: ركعتان، ولا بدّ من هذا التّأويل، فينتظمُ الكلامُ بعدَهُ، وعلى هذا فقوله: «ثم مضى» معناه: قرأ معظمها بحيث غلبَ على ظنّي أنّه لا يركعُ الركعة الأولىٰ إلّا في آخر البقرة، فحينئذ قلت: يركعُ الركعة الأولى بها، فجاوز، وافتتح النّساء. ومعنى قوله: «ثمّ افتتحَ النِّساء فقرأها، ثمّ افتتحَ آل عمران» قال القاضي عياض: فيه دليلٌ لمن يقول: «إنَّ ترتيبَ السُّور اجتهادٌ من المسلمين حين كتبوا المصحفَ، وأنَّهُ لم يكن ذلكَ من ترتيبِ النّبيّ ﷺ، بل وَكَلَهُ إلى أمّته بعده. قال ابن الباقلاني: إنَّ ترتيبَ السُّوَر ليس بواجبٍ في الكتابة، ولا في الصّلاة، ولا في الدَّرسِ، ولا في التلقين والتّعليم، وإنّه لم يكنْ من النّبيّ ﷺ في ذلكَ نصّ، ولا حدّ تحرمُ مخالفته، ولذلكَ اختلفَ ترتيبُ المصاحف قبل مصحف عثمان. واستجاز النبي ﷺ والأمة بعده في جميع الأعصار ترك ترتيبُ السُّور في الصّلاةِ والدرس والتّلقين. وأمّا على قولِ مَنْ يقول من أهلِ العلْم: إنَّ ذلكَ بتوقيف من النّبيّ ﷺ حدَّده لهم كما استقرّ في مصحفِ عثمان، وإنّما اختلفت المصاحف قبل أنْ يبلغهم التّوقيف والعرض الأخير؛ فيتأول قراءته ﷺ النّساء أولاً، ثمّ آل عمران هنا على أنّه كان قبل التّوقيف والتّرتيب، وكانت هاتان السُّورتان هكذا في مصحف أُبَي بن كعب. ولا خلافَ أنّه يجوز للمصلّي أنْ يقرأَ في الركعةِ الثّانية سورة قبلِ التي قرأها في الأولى، وإنّما يكرهُ ذلكَ في ركعة، ولمن يتلو في غير صلاة، وتأوّلَ نَهيُ السَّلف عن قراءة القرآن منكوساً على مَنْ يقرأُ من آخر السُّورة إلى أولها. ولا خلاف أنَّ ترتيبَ آياتِ كلّ سورة بتوقيف من الله تعالى على ما هي عليه الآن في المصحف وهكذا نقلته الأمّة عن نبيّها ﷺ (المنهاج ص ٦٤٣) بتصرف

(١) طبقات ابن سعد (٦/ ١٥).

إلاّ أنّي أنا وأبي حُسَيل أخَذَنا كفّار قريش ، فقالوا : إنّكم تريدون محمّداً؟

قلنا : ما نريدُ إلاّ المدينة .

فأخذوا منّا عَهْدَ اللهِ وميثاقَه ، لَنَنْصَرِفَنَّ إلى المدينةِ ، ولا نقاتل معه ، فأتينا رسولَ اللهِ ﷺ فأخبرناه الخبر ، فقال : «انصرفا نفي بعهدهم ونستعين الله عليهم»[1] .

* وتمضي الأيَّامُ ، فإذا بنذيرِ غزوة أُحُدٍ يطرقُ الأسماع ، وإذا بحذيفةَ رضي الله عنه يستعدُّ لخوضِ غمارها ليحصِّلَ ما فاته من غزاة بدر ، ولقد أُصيبَ حذيفةُ بمحنةٍ أعقبتْهَا منْحَةٌ ربّانية كشفَتْ عن طيْبِ عُنْصره ، وصفاءِ سريرته ، ونقاءِ نفسه ، واستسلامه للهِ عزَّ وجلَّ ، فقد استُشهد والده حُسَيل يوم إذ فَصَبَر .

* قال الإمامُ الذَّهبيُّ مبيّناً قصَّة ذلك الحدثِ في غزاةِ بدر فقال : «شهد هو وابنُه حذيفة أُحُداً ، فاستُشْهِدَ يومئذ ، قتلَه بعضُ الصَّحابة غَلَطاً ، ولم يعرفْهُ ، لأنَّ الجيشَ يختفون في لأْمَةِ الحرب ، ويسترون وجوههم ، فإنْ لم يكن لهم علامة بيّنة ، وإلاّ ربّما قتلَ الأخُ أخاه ، ولا يشعر . ولمَّا شدُّوا على اليمان يومئذٍ بقي حذيفةُ يصيحُ : أبي! أبي! يا قوم! فراح خطأ ، فتصدَّقَ حذيفة عليهم بِديّته»[2] .

* وجاء في «السِّيرة النّبويةِ» أنَّ حذيفةَ رضي الله عنه خاطبَ المسلمين لمّا قتلُوا أباه خطأً فقال : «قتلتُم أبي! قتلتُم أبي! ـ وكانوا قد قتلوا مع أبيه خطأً ثابت بن وقْش أيضاً ـ قالوا : واللهِ ما عرفناه؛ وصدقُوا .

فقال حذيفة : يغفِرُ اللهُ لكم .

فأراد رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يَدِيهُ ـ يدفع الدية ـ فتصدّقَ حذيفةُ بِديتهِ على

---

(١) انظر المسند (٩/ ٩٩) برقم (٢٣٤١٤) ، وأخرجه مسلم برقم (١٧٨٧) .
(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦٢) .

المسلمين ، فزادَهُ ذلك عند رسول الله ﷺ خيراً»[1] .

* بهذه الأخلاقِ الكريمةِ ، والنَّفْسِ الخيّرة المؤمنة الصَّادقة التي تربَّتْ في المدرسةِ المحمّديّةِ ، استقبلَ حذيفةُ نبأَ استشهاد والده ، وبأخلاقِ العلماءِ العاملين تصدّقَ بديتِهِ على فقراء المسلمين ، فكان بذلك خيرَ قدوةٍ لمن أرادَ أنْ يقتديَ في فعلِ الخيرات.

* ويحسُنُ بنا الآن ونحنُ في غمرة أحداثِ هذه القصّةِ الجميلةِ أنْ نقرأَ هذه اللاميّة الكاشفة التي نرسُمها بالحروفِ والكلماتِ:

هـذا ابـنُ وقْشٍ والحُسَيـلُ أتـاهمـا خيـرُ المَقَـال
شَيْخَـانِ كـانَـا مـنْ كِبـارِ السِّـنّ لَيْسَـا للنّـزال
تـركـوهمـا فـي يثْـرِب بيـن النّسـاء كـذا العيـال
شَعَـرا بـآلامٍ لكـونهمـا قُعـوداً عـنْ قتـال
قـالا لِبعْـضٍ إنّنـا شَيْخـان فـي عمْـرِ الـزَّوال
هيّـا لِنَلْحـقَ بـالـرّسُـولِ وبـالـرّجـالِ إلـى النِّضـال
فَلَعَلَّنَـا نلقـى الشَّهـادة إنّهـا أغلـى منَـال
لحقَـا بجيـشِ المسلميـن وقـاتَـلاَ بيـن الـرّجَـال
نَـالاَ بحـقٍّ مـا أرادا فـي رضـاءٍ واحتمـال
ذهبَ ابنُ وقْشٍ بالشَّهادةِ من سُيوفِ ذوي الضَّلال
أمّـا الحُسَيـلُ فمـن سُيـوفِ المُسلميـن بـلا جِـدال
قَتَلُـوهُ إذْ لـم يعـرِفُـوه فَنِعْـمَ خَصْـمُ الاقتتـال
همَّ الرَّسولُ يَدِي الحُسَيْل فذاك شَرْعُ الاعتدال
لكـنْ حـذيفَـةُ قـد أَبَـاهَـا بـلْ تصـدَّق بـامتثـال
قـد زادَهُ هـذا قُـرْبَـهُ للمُصْطفـى وإلـىٰ الكمـال

* وفي غزاةِ الأحزاب تألَّقَ سيّدنا حذيفةُ بنُ اليمان رضي الله عنه تألُّقَ العارفين العالمين ، وأَبَانَ عن عبقريّتهِ الحربيّةِ وذكائه ، في ساعةٍ بلغتْ فيها

(١) السيرة النبوية (٢/ ٨٧ و٨٨) طبعة مصر؛ وانظر تاريخ الطبري (٢/ ٧٣).

القلوبُ الحناجر ، ولكنَّ حذيفةَ رضوان الله عليه بلغَ آنذاك ذِروةَ البطولة ، وذروةَ الفدائيّةِ الصَّامتةِ في هدوءٍ يزدانُ بالإقدامِ والجرأةِ وكلّ ألوانِ الشَّجاعة ، فقد كانت له في يوم الأحزاب ليلةٌ مشهودةٌ ، وموقفٌ محمودٌ ، فقد بعثَه الصَّادقُ المصْدُوقُ ﷺ عيناً على الأحزابِ المُتحلِّقَةِ خَلْفَ الخندق ، فأتاهُ بخبرِهم كاملاً غير منقوص ، وتصرفَ بعبقريةٍ حذيفيّةٍ ، وشجاعةٍ نادرةٍ ، ورباطةِ جأشٍ؛ فهل أتاكَ نبأُ هذا الفدائيُّ المغامرُ العالمُ العَليمُ بالمهمّةِ المحمّديّةِ؟!

* جاء في الصَّحيحِ عند الإمامِ مسلم رحمه الله قصَّة حذيفة من حديثِ الأعمش ، عن إبراهيم التَّيميِّ ، عن أبيه ، قال: «كُنَّا عند حذيفة ، فقال رجلٌ: لو أدركتُ رسولَ الله ﷺ قاتلتُ معه وأبليتُ.

فقال حذيفة: أنتَ كنتَ تفعلُ ذلك؟! لقد رأيتُنا مع رسولِ اللهِ ﷺ ليلةَ الأحزاب ، وأخذتنا ريحٌ شديدةٌ وقُرٌّ.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «أَلا رجلٌ يأتيني بخبرِ القوم ، جعَلَهُ اللهُ معي يومَ القيامة»؟

فَسَكْتنا ، فلم يجبْهُ منّا أحدٌ ، ثمّ قال: «أَلَا رجلٌ يأتينا بخبر القوم ، جعلَه اللهُ معي يومَ القيامة»؟

فَسَكتنا ، فلم يجبْه منّا أحدٌ ، فقال: «قُمْ يا حذيفة فائتنا بخبر القوم».

فلم أجدْ بدّاً إذ دعَاني باسمي أنْ أقومَ ، فقال: «اذهب فائتني بخبرِ القوم ، ولا تَذْعَرهُم عليَّ».

فلمّا ولّيتُ من عنده ، جعلت كأنّما أمشي في حمّام ، حتى أتيتهم ، فرأيتُ أبا سفيان يُصلي ظَهْرَهُ بالنّار؛ فوضعتُ سهماً في كبدِ القوس ، فأردتُ أنْ أرميَهُ ، فذكرتُ قولَ رسولِ الله ﷺ: «ولا تذعرهم عليّ» ، ولو رميتُهُ لأصبته.

فرجعتُ وأنا أمشي في مثلِ الحمام ، فلَمَّا أتيته فأخبرته بخبر القوم ، وفرغت ، قُرِرتُ ، فألبسني رسولُ الله ﷺ من فَضْل عباءةٍ كانت عليه يصلّي

فيها ، فلم أزل نائماً حتى أصبحتُ ، فلمّا أصبحتُ قال: «قم يا نَوْمَان»[1].

* وفي رواية للبيهقي وأبي نعيم تبيّنُ مدى ذكاءِ حذيفةَ وفطنتِه ، وسرعةِ بديهته ، وثباتِ يقينه ، وتيقُّظِهِ ، وسنستمع منه إلى ذلك بعد دخوله جموع الأحزاب حيث يقول: «فلمّا جلستُ فيهم أحسَّ أبو سفيان أنَّه قد دخل فيهم من غيرهم ، فقال: ليأخذْ كلّ رجلٍ منكم بِيَدِ جليسه ، فضربتُ بيدي على يدِ الذي عن يميني ، فأخذتُ بيده ، فقلت: مَنْ أنت؟

قال: معاويةُ بن أبي سفيان.

ثم ضربتُ بيدي على يدِ الذي عن شمالي ، فقلت: مَنْ أنت؟ قال: عمرو بن العاص.

فَعَلْتُ ذلك خشية أنْ يفطنَ بي ، فبدرتُهم بالمسألة ، ثم تلبثتُ فيهم هُنيهةً. . .»[2].

* وفي روايةٍ للحاكم تبيِّنُ عبقريةَ سيدنا أبي بكر الصِّدِّيقِ رضي الله عنه وفراستَه ونباهتَه في إرسالِ حُذيفة لجموعِ الأحزاب ، ويروي حذيفةُ ذلك من حديث طويل منه: «لقد رأيتنا ليلةَ الخندقِ في ليلةٍ باردةٍ مطيرة ، فقال ﷺ: «مَنْ يذهب فيعلمُ لنا علْم القومِ جعلَه الله رفيقَ إبراهيمَ يومَ القيامة»؟ فو الله ما قام أحدٌ ، فقال الثَّانية: «جعلَه الله رفيقي» ، فلم يقمْ أحد ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ابعثْ حذيفةَ. .».

* ومن خلال الرِّوايات السَّابقة يظهر سيّدنا حذيفة بطلاً وفدائياً وعالماً فَطِناً ، وقد أجْملَ هذه الصِّفات العظيمة لحذيفة محمّد عُرجون بأسلوب يقطرُ

---

(1) أخرجه مسلم في الجهاد والسير برقم (١٧٨٨) ، وانظر مختصر تاريخ دمشق (٦/ ٢٥٣). ومعنى «أبليت»: بالغت في نصرته و «وقرّ» القرّ: البَرْد. «لاتذعرهم»: لا تحركهم. «كأنما أمشي في حمام»: أي أن حذيفة لم يشعر بالبرد ليلة ذاك. والحمام: الماء الحار. «يصلي ظهره»: يدفئه ويقربه من النار. «قررت»: بردت.

(2) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٤٩٩ ـ ٤٥٥) ، ومحمد رسول الله (٤/ ١٩٤) مع الجمع والتصرف اليسير.

جمالاً وحلاوةً وسلاسةً ، ويفصحُ عن شخصيّةِ حذيفةَ البطوليّةِ العالمةِ فيقول: «وكان اختيارُ حذيفةَ لهذه المُهمّةِ الشّاقّةِ الخطيرة محلَّ اختلافٍ بين الرّوايات ، وكان جوُّ اختياره متأزّماً شديدَ البلاء ، عظيمَ المحن ، كادت تميلُ فيه نفوسُ الصَّحابة إلى ما لم يكنْ من خلائقها ، لولا مسارعةُ أبي بكر الصِّدّيق رضي الله عنه إلى اختيارِ حذيفةَ ، والإشارة به على النَّبيِّ ﷺ ، ليرفعَ عن النَّبيِّ ﷺ ثقلَ الانتظار بعد ترغيبهِ ﷺ لمن يندبُ نفسه لهذه المهمّة ترغيباً يقطع حجّة مَنْ لم يستجبْ لهذا التّرغيب ، وفي بعض الرّوايات أنَّ النّبيّ ﷺ هو الذي اختارَهُ ، وسمَّاه باسمه ، وأمره بالذّهاب إلى جموع الأعداء ، وهم يتحرقُون غيظاً لما نزل بهم من شدَّةِ البلاء ، فلم يجدْ حذَيفةُ بدّاً إذ سَمّاه رسولُ الله ﷺ باسمهِ من القيام ، وهو في أشدّ حالات البلاء: جوعٌ شديد؛ وبردٌ شديدٌ؛ ورعبٌ شديد.

وذهبَ حذيفةُ إلى جموعِ الأحزابِ ودخلَ بينهم ـ والظَّلامُ الشَّديدُ يسترهُ ـ دخولَ الفدائي الذي يكتنفهُ الموتُ من جميعِ أكنافه ، ويحتويه من سائرِ جوانبهِ وهو لا يبالي ، ولكنَّ حذيفةَ كان حاذقَ الرَّأي ، خبيراً بتصرّف الأمور إذا تأزَّمت ، سريعَ البادرة ، ثابتَ اليقين ، راسخَ الإيمان ، فَطِنَ الفطرة ، زكيَ الفؤاد ، متماسكَ الشَّخصية ، وهذه هي الصِّفات التي يجب أنْ تتوافر في الأفرادِ والجماعاتِ الذين يكونون موضع الثقة الخاصّة للقيادة عند اشتداد الأزمات ، واستحكام الأخطار.

وقد عرفَ حذيفةُ عن جموعِ الأحزابِ كلَّ أمرهم ، ظاهِرُهُ وخفيُّهُ ، لأنَّه داخَلَهم مداخلةً لم تتركْ لهم سِرّاً إلاّ كشفَتْه ، ولا خبيئاً إلاّ أعلنتْه. وقد وقعت له فيهم عجائب دلّت على أنَّ اختياره لهذه المهمّةِ الخطيرة كان من متنزّلِ التّوفيق ، فقد عرف ما هم فيه منَ الاضطرابِ والضَّياعِ ، والرُّعبِ والفزعِ واستغلاقِ الأمور أمامهم استغلاقاً شَلَّ تفكيرهم ، ولم يجدوا للخلاصِ من حالهم إلاّ الاستعداد للهرب.

ورجع حذيفةُ للنّبيّ ﷺ فأخبره خبرَ القوم ، فكان ذلك ممّا أنعشَ نفوسَ

المؤمنين ، ورفع ثقل ما نزلَ بهم من البلاءِ والمحنِ ، ولو لم يكن لحذيفةَ إلاّ موقفه من أبي سفيان وهو يُصْلِي خاصرته بالنَّار من شدّةِ البردِ ، وتمكّنه منْ قَتْلهِ لولا تذكّره قول النّبيِّ ﷺ: «لا تحدثّن في القوم شيئاً حتّى تأتيني»؛ وفي رواية: «لا تذعر القوم عليّ» لكَفَاهُ في مفاخرِ الإيمان واليقين ، وليس موقفه وهو يسمعُ أبا سفيان وقد أحسَّ بعنصر غريب بين جموع الأحزاب: لِيَعرِفْ كُلّ امرىءٍ مَنْ جليسه؛ وإذا بحذيفةَ مبادراً إلى مَنْ إلى جانَبه الأيمن ، فيقول له: مَنْ أنت؟ فيقول: معاوية بن أبي سفيان. ويضربُ بيده على مَنْ على شماله ويقول له: مَنْ أنت؟ فيقول: عمرو بن العاص ، وهما أدهىٰ العرب وأحضرهم بديهةً ، فيسبقهما حذيفةُ ببادرته ، ويسكتهما عنه ، ويخرج عنهما دون أن يعرفا عنه شيئاً بأقلّ منزلة في منازلِ الرّسوخ واليقين من موقفه مع أبي سفيان»[1].

* والآن سنقرأُ هذه التّغريدة التي ترسمُ المهمّةَ الحذيفيةَ الميمونة:

يَـروي حُـذيفـةُ عـن مهمّتـهِ لكـلِّ المُسلميـن
فـي غـزوةِ الأحـزابِ كُنّـا فـي الحقيقـةِ خـائفيـن
فقـريـشُ مـع حلفـائِهـا جـاؤوا إلينـا هـاجميـن
جـاؤوا وكـانـوا عـازميـن لِسَحْـقِ كـلّ المسلميـن
وبنـو قـريظـة أسـرعـوا للعهـد كـانـوا نـاقِضيـن
المصطفـى يختـارُنـي فـذهبـتُ نحـوَ المشـركيـن
فـدخلـتُ بيـن القـومِ كـانـوا كلُّهـم مُتَخـوّفيـن
والـرّيـحُ تفعـلُ فِعْلَهـا مـن جنـدِ ربِّ العَـالميـن
والـرُّعـبُ يملـؤهُـم فقـالَ زعيمُهـم للسَّـامعيـن
الكـلُّ منكـم يعـرفـنَّ زميلَـه فـي الجـالسيـن
أمسكـتُ فـوراً فـي جليسـي بـالسُّـؤال لأَسْتَبيـن
فسـألتُـه مَـنْ أنـتَ أَخْبَـرنـي بِصِـدْقِ الصَّـادقيـن

(١) محمد رسول الله (٤/١٩٧ و١٩٨).

وإذا أبــو سفيــان نــادى فــي قــريــش أجمعيــن

هيــا نَعُــدْ لــديــارنــا لَسْنــا هنــا بــالآمنيــن

الــريــح قــد صَنَعَــتْ بنــا ويهــودُ خــانُــوا غــادريــن

فــرجعــتُ أخبــرتُ النَّبــيَّ بــذلــك الخبــر اليقيــن[1]

* ذلكم هو العالمُ حذيفةُ البطلُ الحصيف الذي خَبرَ جموعَ الأحزاب من الألفِ إلى الياء؛ ولكنْ هل توقّف البطلُ العالمُ عند هذه الغزوة التي بلغت فيها القلوب الحناجر؟! وهل حلّ لواءه وقعد يتغنّى بما صنع ، ويترنّم بما أنجز؟!

* لا ، فالخبرةُ الحذيفيّةُ الفَطِنةُ لا تزالُ متيقظةً تجوسُ كلّ مكان يحلّ فيه حبيبُنا رسولُ اللهِ ﷺ ، فقد تابعَ معه جميع غزواته ، وأبدعَ في آخرها وهي غزوة تبوك ، وبرزَ يوم تبوك بأنّه صاحب سرِّ رسولِ اللهِ ﷺ ، فأكرمْ بهذه السِّمة!

* وغزوة تبوك كانت تمحيصاً وامتحاناً لصدقِ الإيمان ، وإخلاصِ اليقين ، وإظهارِ الجود ، وقد أبانتْ عن معادنِ نفوسِ الصَّحابة؛ تلك النّفوس التي ربّاها الصادق المصدوق سيّدنا رسول الله ﷺ ، فكانت نموذجاً للمكارم تتأسّى به نفوسُ المؤمنين من التّابعين وأتباعهم إلى يوم الدين.

* ففي ذلك اليوم المشهود ، تألّقَ سيّدنا أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه وحشَرنا في معيته ، وبلغ بجوده الثّريا ، فكان سيّدَ الصّحابةِ وشيخهم وأميرهم في البذلِ والإنفاق ، إذ جاء بماله كلّه ، وأبقى لأهله الله ورسوله.

* وتنافسَ المتنافسون من الصَّحابةِ بالجود ، فجهّزَ عثمان ثلث جيش العُسْرة الذي بلغ قرابة ثلاثين ألفاً ، فيكون عثمان قد جهَّز عشرة آلاف مجاهد؛ وكذلك أنفق أسيادنا: العبّاسُ ، وطلحةُ ، وسعدُ بنُ عبادة ، وعبد

---

(١) تغريدة السيرة النبوية (٣/ ١٨٦).

الرّحمن بن عوف ، وعاصمُ بن عُدي وغيرهم كثيرٌ رضي الله عنهم وحَشَرنا في معيّتهم.

* وكان لسيّدنا حذيفة رضي الله عنه موقفٌ متألّقٌ في هذه الغزوة المباركة إذ حاول بعضُ المنافقين اغتيال رسولِ الله ﷺ ، فعمل حذيفةُ ما بوسعه على دفْع خطرِ المنافقين عنه ، ثمّ خصَّه ﷺ بمنقبةٍ شريفةٍ ، فأخبره بأسماءِ المنافقين وأطلعَهُ على سِرِّه دون غيرِه من الصّحابة ، وذلك لما ينفردُ به حذيفة من خصائلَ وحصائلَ نادرةٍ ، وأخلاقٍ مثاليّةٍ ، من أبرزها: حضورُ البديهة في المواقفِ الصَّعبة؛ والاتزانُ في الشَّخصية ، والكتمانُ الشَّديد للسِّرِّ فلا يفشي سِرّه لأحدٍ ، والحصافةُ وعدمُ الارتباك عند الأزمات.

* ولهذه الصِّفاتِ الميمونةِ نرى سيّدنا حذيفةَ رضي الله عنه أحدَ الصَّحابةِ العُلماء الذين كانوا من الكَاتبين ومن الشَّاهدين عند النَّبيّ ﷺ ، فقد شهدَ حذيفةُ رضي الله عنه على كتابِ النّبيّ ﷺ إلى قبيلة بارق[1] ، وشهد على صكّ فداء سيّدنا سَلْمان الفارسي رضي الله عنه[2].

* ومما لا ريب فيه أنَّه كان للعرب قبل الإسلام مزايا كريمة منها: الجودُ ، والشَّجاعةُ ، ومحبّةُ الحريّة ، والذّكاءُ والحصَافةُ ، وإغاثة اللهفان ، وعندما جاء الإسلام صقَلَ هذه المزايا وهذَّبها ، وجعلها لصَالِحِه في معظمِ أطوارِ الحياة.

* وكان حذيفةُ رضي الله عنه من العربِ الأصفياءِ الأوفياء الذين اتّسموا بخصالِ الخير ، فكان جندياً مخلصاً وقائداً ناجحاً ، ورجلاً جلداً على الأهوال ، صابراً في ميادين الجهاد ، حَذِراً يقظاً رامياً مجيداً ، مجاهداً بمالهِ ونفسهِ في سبيل الله تعالى ، شهدَ المشاهد النّبويّة عدا بدر ، ثم شهد بعدها كُبرى المعارك الإسلامية ، فقد شهدَ القادسيّة ، ونهاوند جندياً وقائداً ، وفتحَ الدَّينور والرّي وأذربيجان ، وفي عهدِ سيّدنا عثمان بن عفّان رضي الله

---

(١) الوثائق السياسية لمحمد حميد الله (ص ١٩٨ و١٩٩).
(٢) انظر مثلاً: تاريخ بغداد (١/ ١٧١).

عنه تولى حذيفةُ قيادةَ أهل الكوفة في معارك أرمينية ، وكان حذيفةُ في قيادته ناجحاً عبقرياً ذكيّاً أدهشَ الأعداء بذكائه الخارقِ وعزيمتهِ الماضيةِ وثباتهِ الشَّديد أمامهم رغم الظُّروف القاسية التي كانت تمرّ بالمسلمين ، فقد كان يخطّطُ لمعاركهِ عن عقلٍ ورويّةٍ ، ويتأكّدُ من المعلومات الصَّحيحةِ التي تساعده في تحقيقِ النَّصر ، وهذا ما جعله يحرزُ الفوزَ تلو الفوزِ ، ويجعلُ الأعداء في حيرتهم يترددون[١] .

حذيفةُ في ظلالِ الخلفاءِ الرَّاشدين :

* لئن حظي حذيفةُ بنُ اليمان رضي الله عنه بمكانةٍ مرموقةٍ في العَهْدِ النَّبويّ ، لقد صاحبَتْهُ العنايةُ الإلهيّةُ نفسُها في أفياء الخلافة الراشدةِ وأيامها ، فكان جُندياً مخلصاً ، وقائداً فاتحاً ناجحاً ، وفقيهاً عالماً ، ومحدّثاً حافظاً ، وواعظاً حكيماً ، وأديباً مفوّهاً . .

* ففي عَهْدِ سيِّدنا أبي بكرٍ الصِّدّيق رضي الله عنه كان حذيفةُ رجلاً من خيارِ جنودِ المسلمين ، وجندياً يجاهدُ في سبيلِ الله عز وجل ، شاركَ في

---

(١) كان حذيفةُ رضي الله عنه مثَل العالمِ العاملِ في جميع أمورِ حياته ، فلم يكنْ علمه بمعزلٍ عن الجهادِ أو الولايةِ أو الجنديةِ أو أمور العبادة ، ولهذا كلّه كان موفّقاً ميمون النّقيبة ، له المكانةُ اللائقةُ عند النّبيّ ﷺ ، وقد لخّص هذه الصفات المرحوم محمود شيث خطاب بقوله: «كان حذيفةُ كاتمَ سرِّ رسولِ الله ﷺ في حياته ، اختاره دونَ غيره من بين أصحابه ، لتمتّعه بمزايا الكتمان الشّديد فلا يفشي سرّه لأحد ، وبحضورِ البديهة. . . . وبالذّكاء الخارق ، وبموهبةِ حبّ الاستطلاع. . . وهذه المزايا برزت في قيادةِ حذيفة ، فلَمْ يورّطْ جيوشَه في معارك دون أنْ يتبيّن موطيء قدمه ، وذلك بالحصول على المعلوماتِ عن العدو وعن طبيعة الأرض ، وبذلك كانت خططه العسكريّة مبنية دائماً على معلومات دقيقة وصحيحة ، وكانت نتائجها دائماً في صالح المسلمين.
لقد كان صحيح القرارِ سريعه ، يثقُ برجالهِ ويثقون به ويبادلونه حبّاً بحبّ وتقديراً بتقدير ، وكان قوي الشَّخصيّة نافذ الإرادة ، يعرفُ النّاس حقّ المعرفة ، فيعامل كلّ واحد منهم بما يستحقُّ ، وكان ذا نفسية لاتتبدل في حالتي النّصر والاندحار ، له ماضٍ ناصعٌ مجيدٌ. . وهكذا فليكن العالمُ القائدُ الفاتحُ فرضي الله عنه وأرضاه».
(قادة فتح بلاد فارس ص ١١٦) بتصرف.

الأحداثِ الجِسَام في عَهْدِ الصِّديق رضي الله عنه ، وكان يجلُّه ويحترمهُ احترامَ المُخْلصين ، لأنَّ أبا بكر من أكابرِ الصَّحابة ، بل هو شيخُهم وأوّلُهم في مضمار كلّ مكرمةٍ ، وحذيفةُ نفسُه قد روى عن النّبيّ ﷺ هذه الفضيلة لأبي بكر رضي الله عنه ، فقد أخرج ابنُ ماجه بسنده عن حذيفةَ بن اليمان قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّي لا أدري ما قَدْرُ بقائي فيكم ، فاقتدوا باللذَين منْ بعدي» وأشار إلى أبي بكر وعمر[1].

* وفي عهدِ خلافةِ سيّدنا عمر رضي الله عنه تألَّقَ حذيفةُ تألّقاً واضحاً في مجال العلم والعمل وسائر خصال الخير ، وعرف عمر رضي الله عنه لهذه الشخصية العلمية الفذة مكانتها ، وتمنّى أنْ يكونَ ملءُ البيتِ رجالاً من مثل حذيفةَ ، ومعاذِ بنِ جبل ، وأبي عُبيدةَ بنِ الجرّاح ليستعملَهم في طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

* وكان عمرُ رضوان الله عليه يحكم على الرّجال بعد التّجربةِ والتَّمحيص والملاحظة ، ولذا فقد خَبرَ حذيفة وعرفَ مدخلَه ومخرجَه ، فاختاره حتّى يولّيه على المدائنِ لحصافتهِ وأمانتهِ واستقامتهِ وعلمِهِ؛ ومن الجدير بالذكر أنّ عمرَ عندما اختاره والياً على المدائن صاغ كتاباً عُمرياً فاروقياً لأهلِها بطاعةِ حذيفة طاعةً صافيةً ، لأنَّ حذيفةَ لا يأمرُ إلا بخير ، ولا يمكن أن تغريه الدنيا مهما أقبلتْ عليه بزخرفها ومتاعها.

* وعن هذه الخصائلِ الحذيفيّةِ الفريدةِ يحدثنا التّابعي الجليلُ محمدُ بنُ سيرين رحمه الله فيقول: «كان سيدنا عمر بنُ الخطّاب رضي الله عنه إذا بعثَ عاملاً كتبَ في عهدِه: أن اسمعُوا له ، وأطيعوا ما عدلَ فيكم. فلمّا استعملَ حذيفة على المدائن كتبَ في عهده: أن اسمعوا له وأطيعوا ، وأعطوهُ ما سألكم.

فخرجَ حذيفةُ من عند عمر على حمار موكف ، وعلى الحمارِ زاده ، فلمَّا

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة برقم (٩٧) والحديث صحيح.

(٢) انظر: أسد الغابة (١/ ٤٦٩) ترجمة رقم (١١١٣) بشيء من التصرّف.

قدم المدائن استقبله أهلها ، فقرأ عهده عليهم ، فقالوا: سَلْنَا ما شئتَ.

قال: أسألكم طعاماً آكلُه؛ وعلفَ حماري ما دمتُ فيكم؛ فأقام فيهم ما شاء الله ، ثمّ كتبَ إليه عمر ليقدمَ عليه ، فلمّا بلغَ عمر قدومه ، كَمنَ له على الطَّريق في مكانٍ لا يراه ، فلمّا أنْ رآه عمرُ على الحال التي خرجَ من عنده عليها ، أتاه فالتزمَهُ وأكرمَهُ ، ثم قال له مستبشراً: أنتَ أخي وأنا أخوك»[1].

* وذكر آخرون أنَّ حذيفةَ قدمَ المدائنَ على حمار سادلاً رجليه ، وبيده رغيفٌ وقطعةُ لحم؛ قال عِكْرمةُ عن صفةِ ركوب حذيفة: «هو ركوبُ الأنبياء ، يسدلُ رجلَيه من جانب»[2].

* وكان سيدنا حذيفةُ رضي الله عنه مِطْواعاً لسيدنا عمر؛ يصدرُ عن رأيه ، ويحاورهُ ويسألُه طلباً للاستزادة من العِلْم والمعرفة والتَّوجيهِ المنطقي السَّليم ، فقد كان سيّدنا عمر رضي الله عنه ذا عين يقظَةٍ ، وبصيرةٍ متوثّبةٍ ، ودرايةٍ كاملةٍ بولاته في جميع الأمصار ، فلم يكن الولاةُ مهما بعدت أمصارهم بمنأى عن العينِ العُمريّة والرّعايةِ الفاروقيّةِ ، ومن الجدير بالذكرِ أنّ حريةَ النّقاش وبحثَ المشكلاتِ كانت متاحةً بين سيّديْنا عمر وحذيفة وسائر الولاة حتى تصلَ إلى شاطىء السَّلامة.

* من أمثلة ذلك ما أورده الطَّبري من «أنَّ سيدنا حذيفة قد تزوَّج امرأةً أسلمتْ من أهلِ المدائن ، فأمره عمرُ أنْ يطلّقها ، وبعث إليه رسالةً بذلك؛ وهنا كتبَ حذيفةُ إلى عمر مستفهماً: لا أفعلُ حتّى تخبرني أحلالٌ أمْ حرامٌ وما أردتَ بذلك؟ فجاءته الإجابةُ العمريّةُ الحصيفةُ: لا يا حذيفةُ ، بل حلالٌ ، ولكنْ في نساء الأعاجم خلابةٌ ، فإنْ أقبلتم عليهنَّ غلبنكم على نسائكم، وعلم حذيفةُ فِقْهَ عمَر وعلمِهِ وبُعْد نظَرِهِ، فقال: الآن؛ فطَلّقَها»[3].

---

(١) انظر: أسد الغابة (١/ ٤٦٩)، ومختصر تاريخ دمشق (٦/ ٢٥٦ و٢٥٧) مع الجمع والتّصرّف اليسير.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦٦).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٥٨٨) بتصرف.. أقول: «نلاحظُ من هذه القصّة بُعْدَ نظر سيدنا=

* وعلى الرّغم من هذا كلّه كان سيّدنا حذيفةُ موضعَ ثقةِ سيّدنا عمر ، ومحطَّ رحلهِ العِلْميّ ، فكان عمر يسأله عن كثيرٍ من الأمورِ العويصةِ والمُبهمَات ، وشأنِ المنافقين والفتنِ؛ وكان حذيفةُ منجماً علميّاً ومستودعاً يزخرُ بالفِقْهِ والمعرفةِ ، فقد كان سيّدنا عمر رضي الله عنه لا يصلّي على جنازة لا يصلي عليها حذيفة ، بل كان يسأله: «أأنَا من المنافقين»؟

فقال: لا ، ولا أزكّي أحداً بعدك»[1].

* وكان النَّبيّ ﷺ قد أسرَّ إلى حذيفةَ أسماء المنافقين ، وضبطَ عنه الفتن الكائنة في الأمّة إلى قيام السَّاعة[2].

* وقد وردَ أنَّ عمرَ رضي الله عنه قد سألَ حذيفة عن الفتنةِ التي تموجُ كما يموجُ البحر. وهذا الحديثُ جاء عند البخاري بسندهِ عن شقيقِ بنِ سلمةَ قال: سمعتُ حذيفةَ قال: «كُنَّا جلوساً عند عمر رضي الله عنه فقال: أيكم يحفظُ قولَ رسولِ الله ﷺ في الفتنةِ؟

قلتُ: أنا ، كَمَا قالَه.

قال: إنَّك عليه ـ أو عليها ـ لجريءٌ.

= عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، لأنّه يخشى من حدوثِ مشكلات اجتماعيةٍ مصحوبةٍ بفتنٍ عظيمةٍ تؤثّر على النّساء المُسلمات بحيثُ لا يجدنَ مَنْ يتزوجهنَّ لانشغالِ الرّجالِ المسلمين بالزّواج من نساء أهل الكتابِ الجميلات ، اللواتي قد يستخدمن جمالهنّ في التّأثير على أزواجهنّ ، فربّما يشغلْنَهم عن حقوقِ الزّوجات الأخريات المسلمات ، أو يمنعهم من الزّواج بالمسلمات ، وربما يؤثرنَ على أولادهنَّ فيغيرونَ نَهْجَ حياتهم ، ويصرفنهم عن مقاصدِ الجهاد والفتوح بل والعِلْم ، وغير ذلك من أشياء تؤثر على الحياة الاجتماعية.

ونلاحظ أيضاً استجابة سيّدنا حذيفة للأوامر العمريّة حينما أدرك المقصدَ العمريَ الشّريف لسدّ باب الفتن ودرءِ المخاطر عن المجتمع الإسلاميّ».

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦٤).

(٢) انظر صحيح مسلم برقم (٢٨٩١).

قلت: فتنةُ الرجلِ في أهلهِ ومالهِ وولدهِ وجارِه تكفّرُها الصَّلاةُ والصَّومُ والصَّدقةُ والأمرُ والنَّهيُ.

قال: ليس هذا أريد، ولكنَّ الفتنةَ التي تموجُ كما يموجُ البحر.

قال: ليس عليك منها بأسٌ يا أمير المؤمنين، إنَّ بينك وبينها باباً مغلقاً.

قال: أَيُكْسَرُ أم يُفْتَح؟

قال: يُكسَرُ؟

قال: إذن لا يُغلق أبداً.

قلنا: أكانَ عمرُ يَعْلَمُ الباب؟

قال: نعم؛ كما أنَّ دون الغَدِ الليلة. إنّي حدَّثته بحديثٍ ليس بالأغاليط، فَهِبْنَا أنْ نسألَ حُذيفة، فأمرنا مسروقاً فسأله، فقال: الباب عمر»[1].

* والحقيقةُ فقد كان سيّدنا عمرُ رضي الله عنه قَمَرَ الإسلام وبَدْره، وقد عرفَ حذيفةُ رضوانُ اللهِ عليه مكانة عمرَ وحسنَ سَنَاه، وقَدْرَهُ ومقدارَهُ، فلا يعرفُ الفضْلَ لأهلهِ إلا أهلُ الفضلِ والعلمِ والنُّهى، فعندما حظي عمرُ بالشَّهادة رقَّ الإسلامُ وثُلمَ ثلمةً لا تُرتقُ إلى يومِ القيامة، وهذا ما عبّرَ عنه حذيفة بمقولته المشهورة: «كان الإسلامُ في زمنِ عمر كالرّجل المُقْبِل لا يزدادُ إلا قرباً، فلمّا قُتِلَ عمرُ رضي الله عنه كان كالرجلِ المُدبر لا يزدادُ إلا بُعداً»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصَّلاة برقم (٥٢٥). ومعنى «الفتنة»: الفتنة في الأصل: الاختبار والامتحان، ثم استُعْمِلت في كلّ أمرٍ يكشفهُ الامتحان عن سوء.
وتُطلق على الكفْرِ، والغلوِ في التّأويل البعيد، وعلى الفضيحةِ والبليةِ والعذاب والقتال والتّحول من الحسن إلى القبيح والميل إلى الشّيء والإعجاب به، وتكون في الخير والشّر كقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].
ومعنى «الأغاليط»: جمع أغلوطة. ومعنى «فهبنا»: خِفنا. ومعنى «الباب عمر»: أي بين زمانك وبين زمان الفتنة جود حياتك.

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٧٣).

* وظلتِ الإشراقاتُ الحذيفيّةُ العمريّةُ مستمرةَ السَّناءِ والعطاءِ ، وظلَّ حذيفةُ مخلصاً وفياً للإسلام وأهلهِ ، وتابع مسيرة العلْم والنُّصح لله عزّ وجلّ ولرسوله ﷺ وللخليفةِ الراشدي الثّالث عثمان بن عفّان رضي الله عنه.

* وكان سيدنا حذيفةُ موضعَ ثقةِ الخُلفاء الرّاشدين رضي الله عنهم ، فقد أبقى عثمانُ حذيفةَ والياً على المدائن طيلة مدّة الخلافةِ العثمانيةِ الرّاشدة ، قال الذَّهبيُّ رحمه الله: «وليَ حذيفةُ إمرةَ المدائنِ لِعُمرَ ، فبقي عليها إلى بعدِ مقْتَلِ عثمان ، وتوفي بعد عثمان بأربعين ليلة»[1].

* أما أبرزُ المعالم العلميّةِ والدِّينيةِ عند حذيفةَ في ظلال خلافةِ عثمان هي نصيحتُه المباركةُ للخليفةِ بجمع القُرآنِ الكريم ، وذلك عندما لاحظَ حذيفةُ اختلافَ النَّاس في وجوهِ القِراءةِ ، وكاد الخلافُ يستفحلُ بين بعض المتعلّمين وكادت تكونُ فتنة ، هنالك هُرِعَ حذيفةُ إلى الخليفةِ عثمان ينصحهُ بجَمْعِ النّاس على مصحفٍ واحدٍ ، وصادفَ أنَّ عثمانَ كان وقعَ له نحو ذلك من اختلافِ المتعلّمين في وجوهِ القراءةِ فتعاظمَ ذلك في نفسه ، وقرّرَ إذ ذاك على تحقيقِ فكرةِ حذيفة الميمونة ، واستقرتِ الفكرةُ العثمانيّةُ الحذيفيّة على ذلك.

* أخرجَ البخاري رحمه الله بسندهِ عن أنسِ بنِ مالك رضي الله عنه: «أنَّ حذيفةَ بنَ اليمان قدمَ على عثمانَ ، وكان يغازي أهلَ الشَّام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهلِ العراق ، فأفزعَ حذيفةَ اختلافُهم في القراءةِ ، فقال حذيفةُ لعثمانَ: يا أميرَ المؤمنين ، أدركْ هذهِ الأمّةَ قبلَ أنْ يختلفوا في الكتابِ اختلافَ اليهودِ والنَّصارى.

فأرسل عثمانُ إلى حفصةَ أنْ أرسلي إلينا بالصُّحف ننسخُها في المصَاحفِ ثمّ نردّها إليك.

فأرسلتْ بها حفصةُ إلى عثمان ، فأمرَ زيدَ بنَ ثابت وعبد الله بنَ الزُّبير

---

(1) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٤).

وسعيدَ بنَ العاص وعبدَ الرحمن بنَ الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحفِ ، وقال عثمانُ للرَّهْطِ القرشيين الثَّلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآنِ فاكتبوهُ بلسانِ قريش فإنَّما نزلَ بلسانِهم ، ففعلوا؛ حتّى إذا نسخوا الصُّحفَ في المصاحفِ ردَّ عثمانُ الصُّحفَ إلى حفصةَ ، فأرسلَ إلى كل أفقٍ بمصحفٍ ممّا نسخُوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفة أو مصحف أنْ يحرقَ»[1].

* ووافقَ الصَّحابةُ الكرامُ الخليفةَ عثمانَ على عزمهِ في جَمْعِ القرآنِ الكريمِ ، وامتدحوه وأثنوا عليه لأنَّه حمَى المسلمين من الخلافِ وقطعَ دابِرَ الفتنةِ ، حتى اعتبر جمهور العلماء أن هذا العملَ المجيدَ من أعظمِ أعمالِ الخليفةِ عثمان رضي الله عنه ، حتى إنّ عبد الرّحمن بنَ مهدي رحمه الله أثنى على عثمانَ فقال: «خصلتان لعثمان بن عفّان ليستا لأبي بكرٍ ولا لعمر: صبره نفسه حين قُتِلَ مظلوماً ، وجَمْعُهُ النّاس على المصحف»[2].

* وعندما استُشْهِدَ سيّدُنا عثمانُ رضي الله عنه عدَّ حذيفةُ ذلك أوّلَ الفتنِ وفتيلَ المصائبِ والمُشْكلاتِ فقال: «أوّلُ الفتنِ قَتْلُ عثمان ، وآخرُ الفتنِ خروجُ الدَّجَّال ، والذي نفسي بيده لا يموتُ رجلٌ وفي قلْبهِ مثقال حَبّةٍ من حُبِّ قَتْلِ عثمانَ إلا تبعَ الدَّجَّال إنْ أدركه ، وإن لم يدركْه ، آمنَ به في قبره»[3].

* وفي ظلالِ الخلافةِ العلويّةِ بإمرأةِ سيِّدنا عليّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه ظلَّتِ الطاعةُ الحذيفيّةُ كما كانت على عَهْدِ أسلافهِ من الخلفاءِ الرَّاشدين أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، وبايع حذيفة سيدنا علياً بيعةَ المؤمنين العارفين قَدْرَ عليّ رضي الله عنه ، وكانت بيعةُ حذيفةَ تمثّلُ الطاعةَ

---

(١) أخرجه البخاري في جمع القرآن برقم (٤٩٨٧) ، وانظر تاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص ٤٧٦).

(٢) اقرأ سيرة سيّدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه في موسوعتنا «الخلفاء الراشدون» طبعة دار اليمامة.

(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٩٢).

والحبَّ الخالصَ لعليٍّ التّقي العبقري ، فقد وضعَ حذيفةُ إحدى يديه على الأخرى ـ لأنَّه كان مريضاً ولم يستطعِ القدومَ إلى الكوفة للبيعة ـ ثمَّ بايع مُشْهِداً مَنْ حضر على بيعته ، وكم تمنّى أن يكون بجانبه ليعضده ، ولكن إرادة الله فوق ذلك!!

* عن أبي راشد قال: لمّا انتهىٰ إلى حذيفةَ بيعةُ عليّ قال: بايع يديه إحداهما على الأخرى ثم قال: «لا أبايعُ أحداً من قريش؛ ما بعده إلا أحقر أو أبتر»[1]. وظلّ حذيفةُ قرابة أربعين يوماً حياً في فترة خلافةِ سيّدنا عليّ ثمّ توفي بالمدائن بعد أن أمر ولديه صفوان وسعيد بمبايعةِ سيّدنا عليّ ونصرته والبقاء تحت ظلاله ، فكان صفوانُ وسعيدٌ مع عليّ وبايعاه ، وقاتلا معه حتى حَظِيَا بالشّهادةِ يوم صفّين بوصية أبيهما بذلك إياهما[2].

* وهكذا كان سيّدنا حذيفةُ بنُ اليمان رضي الله عنه مثالَ الإنسان المسلم المخلصِ في جميعِ الظُّروفِ والأحوالِ والمقاماتِ ، فقد كان رجلاً مخلصاً في حياةِ النَّبيّ ﷺ ، وظلّ كذلك وفياً لخلفائه الرّاشدين ، فلم يتركْ باباً من أبوابِ المصلحةِ العامة للمسلمين والإسلام إلا سلكه ، فكان فارساً مقداماً ، وناصحاً أميناً ، وواليًا حصيفاً ، وخبيراً بالأمور بصيراً بالرّجال ، فَنِعْمَ الرّجل حذيفة!!

أدبُــه وسَجَـايَـاهُ:

* المسلمُ مكلَّفٌ أنْ يلقىٰ أهلَ الأرضِ قاطبةً بفضائلَ لا ترقى إليها شُبْهَةٌ ، فالصدقُ واجبٌ على المسلمِ مع المسلمِ وغيرِهِ ، والسَّماحةُ والوفاءُ والمروءةُ والتّعاونُ والكرمُ والوفاءُ بالوعدِ والعدلِ.

* وسيّدنا حذيفةُ بنُ اليمان عليه سحائب الرّضوان ممن تسربلَ بأكملِ السَّجايا وأرفعِ الخصَال ، فقد تخرّجَ في رحابِ المدرسةِ المحمديّة بمرتبةِ

---

(١) انظر: المعرفة والتاريخ (٣/ ١٣٣).
(٢) انظر: الاستيعاب بهامش الإصابة (١/ ٢٧٧ و٢٧٨) بتصرف.

الشَّرف المونقة ، فكان يتخلَّقُ بأخلاقِ النَّبيّ ﷺ ، ويتمسَّكُ بهديهِ الأقومِ في حِلِّه وترحاله.

* أخرجَ مسلمٌ في صحيحهِ بسندٍ رفَعَهُ إلى عبد اللهِ بنِ عُكَيم قال: كُنَّا مع حذيفةَ بالمدائنِ ، فاستقىٰ حذيفةُ ، فجاءه دِهْقَانٌ بشرابٍ في إناءٍ من فضّة ، فرماهُ به ، وقال: إنّي أخبرُكم أنّي قد أمرتُهُ أنْ لا يسقيني فيه ، فإنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا تشربوا في إناء الذَّهَبِ والفضّة ولا تلبسوا الدّيباج والحرير ، فإنّه لهم في الدّنيا ، وهو لكم في الآخرة يوم القيامة»[1].

* وكان سيدنا حذيفةُ رضي الله عنه يحبُّ خُلُقَ الصَّراحةِ ويتمثَّلُ بهذا الخُلُقِ قولاً وفعلاً ، ويكْرَهُ الرِّياء؛ ولله درُّ القائل:

أُحِبُّ صَرَاحَتي قَولاً وفعْلاً   وأكْرهُ أنْ أميلَ إلىٰ الرياء

* فقد كان صريحاً مع نفسِهِ ، ومع أصحابِهِ وأحبابِهِ ، وكان يُطلعُهم على الحقّ ، ويحدّثهم بصراحةٍ ما تعلّمه من مدرسةِ النُّبوّةِ المباركةِ ، من ذلك ما جاء عن ثلّةٍ مِنْ أصحابه وهم: شتيرُ بنُ شَكل ، وَصِلَةُ بنُ زفر ، وسليكُ بنُ زُفَر قالوا: «خرجَ علينا حذيفةُ ونحنُ نتحدَّث فقال: إنّكم لتكلّمون كلاماً إنْ كنّا لنعدُّه على عهدِ رسولِ الله ﷺ النّفاق»[2].

* ويصارحُ أصحابَه بقولهِ: «إنْ كانَ الرَّجلُ ليتكلّمُ بالكلمةِ على عهدِ رسولِ الله ﷺ فيصيرُ بها منافقاً ، وإنّي لأسمعُها من أحدكم في اليومِ في المجلسِ عشْر مرّات» وفي رواية: «أربع مرات»[3].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٠٦٧) واللفظ له ، والنسائي (٨/ ١٩٨ و١٩٩) ، ومعنى «دِهقان»: بكسر الدّال: زعيم فلاحي العجم ، وقيل: زعيم القرية ورئيسها ، وهو عجمي معرب. ومعنى «رماه بإناء الفضة. .»: لأنَّ حذيفةَ كان نهاه قبل ذلك عنه؛ وفيه تحريم الشّرب فيه وتعزير من ارتكب معصية لاسيما إن كان قد سبقَ نهيه عنها.

(٢) انظر مجمع الزوائد للهيثمي (١٠/ ٢٩٧) ، وقال: «رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أنَّ ليث بن أبي سليم مدلس».

(٣) مجمع الزوائد (١٠/ ٢٩٧) ، وقال الهيثمي: «رواه أحمد ، وفيه أبو الرّقاد الجهني ولم أعرفْهُ ، وبقية رجاله ثقات».

* وكان حذيفةُ يكرهُ النّميمةَ بشتّى أشكالِها ، فقد أخرجَ مسلم بسندِهِ عن أبي وائل عن حذيفة: أنَّه بلغَه أنَّ رجلاً ينمُّ الحديثَ ، قال حذيفة: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «لا يدخلُ الجنَّةَ نَمَّامٌ»(١).

* ومن سجايا حذيفةَ وأخلاقِهِ وسلوكه الزهدُ في الدّنيا وزخرفها ، فهو يدركُ تماماً أنَّ متاعَ الحياةِ الدنيا قليلٌ ، وأنَّ الحياةَ الدنيا ممرٌّ إلى الحياةِ الآخرة ، فلم يتعلّقْ قلبُهُ بشيءٍ من الأموالِ أو المتاعِ على الرّغم منْ أنّه كان والياً على المدائنِ ، وفيها منَ الأموالِ والثَّرواتِ ما لا يعلمه إلاّ اللهُ عزَّ وجلَّ.

* لذلك دَلفَ حذيفةُ من الزّهد إلى الورعِ ، إذ إنَّ الورعَ رأسُ مكارِمِ

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠٥) وفي رواية: «لا يدخلُ الجنَّةَ قتّات».
فالقتّاتُ: هو النّمام.
قال الجوهري وغيرُه: يقال: نمَّ الحديثَ ينمّه ـ بكسر النّون وضمّها ـ نمّاً ، والرجل نمام ونمّ ، وقته يقُتُّه ، بضم القاف ، قتّاً.
قال العلماءُ: «النّميمة: نقلُ كلامِ النّاس بعضُهم إلى بعض على جهةِ الإفساد بينهم».
وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله في «الإحياء»: «اعلم أنَّ النّميمة إنّما تُطلق في الأكثر على من ينمّ قول الغير إلى المقول فيه ، كما تقول: فلان يتكلّم فيك بكذا.
وليستِ النّميمةُ مخصوصة بهذا ، بل بدّ النّميمة كشف ما يكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو ثالث ، وسواء كان الكشف بالنّكاية أو بالرّمزِ أو الإيماء ، فحقيقة النّميمة: إفشاءُ السّرّ وهتك السِّتْر عما يكره كشفه ، فلو رآه يخفي مالاً لنفسه فذكره فهو نميمة ، وكلّ مَنْ حملت إليه نميمة ، وقيل له: فلان يقول فيك أو يفعل فيك كذا فعليه ستة أمور:
الأول: ألاّ يصدقه لأنَّ النّمام فاسق.
الثاني: أنْ ينهاه عن ذلك وينصحَه ويقبّحَ له فعله.
الثالث: أن يبغضَه في الله تعالى ، فإنه بغيضٌ عند الله تعالى ، ويجبُ بغْض مَنْ أبغضه الله تعالى.
الرابع: ألاّ يظنّ بأخيه الغائب السّوء.
الخامس: ألا يحمله ما حكي له على التّجسس والبحث عن ذلك.
السادس: ألا يرضى لنفسه ما نهي النّمام عنه ، فلا يحكي نميمة عنه فيقول: فلان حكى كذا ، فيصير به نماماً ، ويكون آتياً ما نهى عنه».

الأخلاقِ ورئيسُها ، وكان يحثُّ النَّاسَ على التَّمثُّلِ بالورعِ في حياتِهم ومعيشتِهم ، فقد خطبَ النَّاسَ مرّةً بالمدائنِ فقال: «أيّها النَّاسُ؛ تعاهدوا ضرائبَ غلمانكم ، فإنْ كانت من حَلالٍ فكُلُوها ، وإنْ كانت من غيرِ ذلك فارفضُوها ، فإنّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّه ليسَ لحمٌ ينبتُ من سُحْتٍ فيدخل الجنَّة»[1].

* ومع هذا وذاك كلّه كان حذيفةُ جَوَاداً سخيّاً ، يكره البخلَ وأهلَه ، ويسعى إلى المعروفِ بكلّ سبيل ، فقد جاء في الصَّحيحِ وغيرِه عن حذيفةَ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «كلُّ معروفٍ صدقةٌ»[2].

* وكان حذيفةُ أمَّاراً بالمعروف بكلّ صُوره ، ومن المؤكَّد أنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكر من أجلّ خِصَال العُلماء ، ومن واجباتِ كلّ مسْلم ، وكان حذيفةُ شديدَ الحرصِ على الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكر ، وقد روى حذيفةُ حديثاً عن النَّبيّ ﷺ في هذا المضمار.

* فقد أخرجَ التّرمذيُّ بسنده عن عبدِ اللهِ الأنصاريّ ، عن حذيفةَ بن اليمان عن النَّبيِّ ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ، ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر ، أو ليوشكنّ اللهُ أنْ يبعثَ عليكم عَذَاباً منه فتدعونه فلا يستجيبُ لكم»[3].

* هكذا كانت أخلاقُ سيّدنا حذيفةَ ، وهكذا كان أدبُه ، فقد كان يتمثّل أخلاقَ القرآنِ الكريمِ ، ويقتدي بالهديِ النَّبويّ ، ويدورُ مع الحقِّ حيثُ دار ، يزهدُ بما في أيدي النَّاس ، ويحلُمُ ويتواضعُ ويعملُ لما يقرّبُه من اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويجعلُه منَ النَّاجين.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٨١).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠٠٥) ، وأبو داود برقم (٤٩٤٧) ، وأحمد في المسند (٥/ ٣٨٣ ـ ٣٩٧ ـ ٤٠٥).

(٣) انظر: تحفة الأحوذي (٦/ ٣٩٠ ـ ٣٩١) حديث رقم (٢٢٥٩) ، ومعنى «ليوشكن»: أي ليسرعن. و «تدعونه»: تسألونه.

نجـابتُـهُ واجتهـادُهُ:

* سيّدنا حذيفةُ بنُ اليمان رضوان اللهِ عليه واحدٌ من الصَّحابةِ العُلماء الفُقَهاء ، وأحدُ العُلماء بالفِتَن والملاحمِ ، أخذَ ذلك كلّه وتعلَّمه من الصَّادقِ المصدوقِ رسولِ الله صاحبِ الحجرة محمّدٍ ﷺ ، وذلك من خلالِ صحبتهِ المونقةِ النَّبيلة ، ومن كثرةِ ملازمته للنَّبي ﷺ ، ومن محبَّته للعِلْم وأهلِ النَّجابةِ من كبراءِ الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين.

* أضفْ إلى ذلك كُلِّه تأسّيه بالحبيبِ المصطفىٰ الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ ، وكثرةِ سؤالِه له ، ومحبّتهِ المتميّزةِ لكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ وكلماتهِ وحفظِهِ له ، وعمله بما جاءَ فيهِ؛ ولا عجبَ في هذا الأمْرِ الميمونِ ، فسيّدنا حذيفةُ رضي الله عنه أحدُ الأُمناءِ النُّجباءِ من كُتّاب الوحي[1] الذين كانوا يكتبون بين يدي رسولِ الله ﷺ ، فقد كان حذيفةُ يكتبُ صدقات التّمر ، وهي خَرْصُ الحجاز ، أي تقدير ما على النخل من رطب لإخراج الزكاة فيه.

* وكان حذيفةُ رضي الله عنه فقيهاً مفتياً ، وإن كان متوسّطاً في الفتيا ، إلا أنّ ابنَ حزمٍ قد ذكَره من المُقلّينَ في الفُتيا ممن يمكن أنْ يجمعَ من فتواهمْ المسألة أو أكثر ، وعدّ منهم سيّدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه[2].

* وعلى الرغمِ من هذا ، كان سيدنا حذيفةُ رضي الله عنه شديدَ الاحتياطِ في الفتوى ، وكان يقولُ: «إنّما يفتي النّاسَ أحد ثلاثة: رجلٌ يعلمُ ناسخَ القرآنِ ومنسوخَه ، وأميرٌ لا يجد بدّاً ، وأحمقٌ مُكَلَّفٌ»[3].

* وكان حذيفةُ رضي الله عنه مؤهّلاً لتعليم النَّاس وتفقيهِهم في أمورِ دينهم ، وكانت له مكانةٌ متميزةٌ عند كبراءِ الصَّحابة وأسيادهم من مثل: سيدنا

---

(١) توسَّعنا في سيرة كتّاب الوحي وعددهم وأعمالهم في ترجمة سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما في هذا الباب من هذه الموسوعة المباركة ، فلتراجع هناك ففيها فائدة عظمى.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام (٢/ ٨٩ و٩٠).

(٣) حياة الصحابة (٣/ ٢٥٣).

عمر بن الخطاب ، والعبّاس بن عبد المطلب وغيرهما؛ وقد ارتضاهُ العبّاسُ حَكَماً بينه وبين عمر في دارِه لتوسعَةِ المسجدِ النّبويّ الشَّريف ، وقَبِلَ كلاهما بفتواه.

* جاءت هذه القصةُ عند الحاكم النَّيسابوري في «مستدركه» حيث أخرج بسندهِ عن عبدِ الرّحمن بنِ زيد بنِ أسلم ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن عمرَ بنِ الخطاب أنَّه قال للعبَّاسِ بنِ عبد المطلب رضي الله عنهما: «إنّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «نَزِدُ في المسجدِ ودارُكَ قريبةٌ من المسجدِ» ، فأعطناها نزدْهَا في المسجدِ وأقطعُ لك أوسع منها.

قال: لا أفعل.

قال: إذاً أغلبُكَ عليها.

قال: ليس ذاك لك ، فاجعلْ بيني وبينَكَ مَنْ يقضي بالحقّ.

قال: ومن هو.

قال: حذيفةُ بنُ اليمان.

قال: فجاؤوا إلى حذيفةَ فقصُّوا عليه.

فقال حذيفةُ: عندي في هذا خبر.

قال: وما ذاك؟

قال: إنّ داودَ النَّبيَّ صلوات الله عليه أرادَ أنْ يزيدَ ، وقد كان بيتٌ قريبٌ من المسجدِ ليتيمٍ ، فطلبَ إليه فأبى ، فأراد داود أنْ يأخذَها منه ، فاوحىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ إليه أنْ نزّهِ البيوتَ عن الظُّلم لبيتي.

قال: فتركه.

فقال له العباس: فبقي شيءٌ؟

قال: لا.

قال: فدخلَ المسجدَ ، فإذا ميزابٌ للعبَّاسِ شارعٌ في مسجدِ رسولِ الله ﷺ ليسيلَ ماء المطر منه في مسجدِ رسولِ الله ﷺ فقام عمرُ بيده فقلعَ الميزاب فقال: هذا الميزابُ لا يسيلُ في مسجدِ رسولِ الله ﷺ.

فقال له العبَّاسُ: والذي بعثَ محمّداً بالحقِّ ، إنَّه هو الذي وضعَ الميزابَ في هذا المكانِ ونزعْتَه أنتَ يا عمر!

فقال عمر: ضَعْ رجليكَ على عنقي لتردَّه إلى ما كان هذا ، ففعل ذلك العبَّاس.

ثم قال العبَّاسُ: قد أعطيتُكَ الدَّارَ تزيدُهَا في مسجدِ رسولِ اللهِ ﷺ ، فزادَها عمرُ في المسجد ، ثم قطعَ للعبّاس داراً أوسعَ منها بالزَّوراء»[1].

* وهكذا كان حذيفةُ الحَكَمَ الواعيَ في هذه القضيةِ الحرجةِ ، وإذا تابعنا الرّحلةَ الحُذيفيةَ مع فقْهِ حذيفةَ وعلمِهِ ألفيناه ينقلُ لنا كثيراً من الأحكامِ الفقهية عن الصَّادق المَصْدُوقِ ﷺ ، من ذلك ما ذكره عن استعمال النبي ﷺ للسواك[2] إذا قام لصلاة الليل؛ فقد أخرج مسلم وغيره عن حذيفة قال: «كان

---

(١) انظر: المستدرك للحاكم (٣/ ٣٧٤) طبعة دار الكتب العلمية بتحقيق مصطفى عطا ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠م. واقرأ سيرة سيدنا العباس بن عبد المطلب في موسوعتنا «رجال أهل البيت».

(٢) «السِّواك»: قال أهلُ اللغة: «السِّواكُ بكَسْرِ السِّين ، وهو يُطْلَقُ على الفعل ، وعلى العُود الذي يتسوكُ به ، وهو مذكّرٌ ، والسّواك: فِعْلَكَ بالسّواك ، ويقال: ساك فمه بسوكه سوكاً ، وجمع السّواك: سُوُك ، بضمتين ككتاب وكُتُب.
والسّواك في اصطلاح العلماء: استعمالُ عُودٍ أو نحوه في الأسنان لتذهبَ الصُّفْرة وغيرها عنها.
ثم إنَّ السّواكَ سُنَّة ليس بواجبٍ في حَالٍ منَ الأحوال ، لا في الصَّلاةِ ولا في غيرها بإجماع مَنْ يعتدُّ به في الإجماع ، والسّواك مستحبٌ في جميع الأوقات ، ولكن في خمسةِ أوقات أشدّ استحباباً: أحدهما: عند الصّلاة ، والثّاني: عند الوضوء ، الثّالث: عند قراءة القرآن ، الرّابع: عند الاستيقاظ من النوم ، الخامس: عند تغير الفم.
والمستحب أنْ يستاكَ عرضاً ولا يستاك طولاً لئلا يدمى لحمَ أسنانه ، ويستحبّ أنْ يمرّ السواك أيضاً على طرف أسنانه ، وكراسي أضراسه ، وسقف حلْقِهِ إمراراً لطيفاً ، =

رسول الله ﷺ إذا قام ليتَهَجَّدَ يشوصُ فاه بالسِّواك»[١].

* وتتجلّى ذِرْوةُ الأحكامِ الفِقْهِيّة عند فَهْم حذيفةَ ، بل تظهرُ حصافتُهُ فيما يعلِّمُ به أصحابه ومحبّيه وسائر المسلمين ، فها هو ذا يعلّمُ أصحابَه الأدبَ مع اللهِ عزَّ وجلَّ ، وحسْنَ خطابِ النَّاس ، فقد أخرجَ الإمامُ أحمد بسنده عن عبدِ الله بنِ يسار ، عن سيّدنا حذيفةَ رضي الله عنه ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لا تقولُوا ما شاءَ الله وشاءَ فلان؛ قولُوا: ما شاء الله ، ثمَّ شاءَ فُلان»[٢].

* ولحذيفةَ رضي الله عنه آراءُ فقهيّةٌ لا تخرجُ عن السّنَنِ النَّبويّ ، منها أنَّه كان يرى أنْ يمسحَ المسافِرُ على الخفَّيْن ثلاثةَ أيام ولياليهنّ ، وللمقيم يوم وليلة[٣] ، وله آراءُ واجتهاداتٌ تكفَّلتِ المصادرُ المتنوّعةُ بِذكْرِها.

* أمَّا أشهرُ الصَّحابةِ العُلماء الذين تخصَّصوا في معرفةِ الفتنِ ، فلا ريبَ أنَّ حذيفةَ بنَ اليمان يأتي في المقدّمة ، لأنَّ أخبارَ الفتنِ وأحاديثَها ذكرها النَّبيّ ﷺ فهو لا ينطقُ عن الهوى ، إنْ هو إلا وحيٌ يُوحى ، وفي الفقرة الآتية نتعرفُ على سعَةِ علمِ حذيفة بالفتن وبالمنافقين.

= ويستحبّ أنْ يبدأ في سواكه بالجانبِ الأيمن من فيه ، ويستحب أن يُعوِّدَ الصَّبيُّ السّواك ليعتاده؛ والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم بهذا اللفظ برقم (٢٥٥)؛ وأخرجه البخاري برقم (٢٤٥) ، وأحمد في المسند (٥/ ٣٨٢ ـ ٣٩٧ ـ ٤٠٧) ، والنّسائي (٣/ ٢١٢) ، وابن ماجه برقم (٢٨٦) ، ومعنى قوله: «إذا قام ليتهجَّدَ..» أمَّا التّهجّد: فهو الصَّلاة في الليل ، ويُقال هَجدَ الرّجل إذا نامَ ، وتهجَّد إذا خرجَ من الهُجود ، والنّوم بالصّلاة ، كما يقال: تحنّث ، وتأثّم ، وتحرّج ، إذا اجتنب الحنث والإثم والحرج.
وأما معنى قوله «يشوصُ فاه بالسّواك» الشّوص: دَلْكُ الأسنان بالسّواك عرضاً وقيل: الغَسْل ، وقيل: التّنقية ، وقيل: هو الحكّ ، فهذه أقوالُ الأئمةِ فيه ، وأكثرها متقاربة ، وأظهرها الأوّل وما في معناه ، والله أعلمُ. (المنهاج ص ٣٣٥) بتصرف.

(٢) أخرجه أحمد (٩/ ٧٨) برقم (٢٣٣٢٥) دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١م.

(٣) انظر: مصنف عبد الرزاق برقم (٧٩٨).

سعةُ عِلْم حُذَيفةَ بالفِتَن:

* لا ريب في أنَّ الفتن[1] التي تحدَّثَ عنها رسولُ اللهِ ﷺ ما هي إلا أخبارٌ بمغيّبات ستقعُ في المُستقبل، ولعلَّ الحكْمةَ من تعليمِ الصَّحابةِ لها إنَّما ينطوي تحتَ باب التَّحذير من السُّقوطِ في مَهَاوي الرَّدى، والإرشادِ إلى منابعِ الهُدىٰ.

* «وهذا الحديثُ منه ﷺ عن الفتنِ وأحداثِ المُستقبلِ هو من بابِ التّحذير والتَّنْبيه، وبيان الدّاء والدواء، وهذا حقْلٌ من الغيب أكرمَ اللهُ تعالى به نبيّه ﷺ زيادة في الإعذار للأمّة والإشفاقِ عليها؛ وهو أيضاً من بابِ التَّوعية لهذه الأمّةِ بأهميّةِ ما سينزلُ بها من أحداثٍ حتّى تهيءَ نفسَها، فتحشدَ كافّة إمكانياتها، وكاملَ قدراتها لمواجهةِ هذه الأحداث، فالذي يعرفُ عدوّه وإمكانيّاته وطريقةَ تفكيره، هو الذي يحسنُ التَّعامل معه باتّخاذ القرارات المناسبةِ، والمكافئة لما عند أعدائهِ من قدراتٍ وإمكانيات»[2].

* وقد حرصَ عددٌ جمٌّ من علماء الصَّحابة في التَّعرُّفِ على الفتنِ والملاحمِ التي ستقعُ بالأمّةِ، حتّى يستبينوا طريق الحقّ، ويجتنبوا الفتنة.

* وبرزَ عددٌ من الصَّحابةِ الكرامِ، وعلموا هذه الأمورَ من النَّبيِّ الكريم ﷺ، لكنَّه اشتُهِرَ من بينهم في هذا المضمار سيّدنا حذيفة بن اليمان

(١) «الفِتن»: جِماعُ معنى الفِتنة: الابتلاء والامتحان والاختبار، وأصلُها مأخوذٌ من قولك فتنتُ الفضّةَ والذّهبَ إذا أذبتهما بالنّار لتميّز الرّديء من الجيد.
والفَتْنُ: الإحراق، ويسمّى الصائغ الفتّان، وكذلك الشَّيطان.
وقيل: الفتنة: الاختبارُ، والمحنةُ، والمالُ، والأولادُ، والكفْرُ، واختلافُ الناس بالآراء، والإحراقُ بالنّار، والخِبْرَةُ، وإعجابك بالشّيء، والضلالُ والإثم؛ والفاتنُ: المُضلُّ عن الحقّ، والشّيطان لأنّه يضلُّ العباد.
والفتّان: الشّيطان الذي يفتن النّاس بخداعه وغروره وتزيينه المعاصي؛ والفتنة: الفضيحةُ، والعذابُ نحو تعذيب الكفار ضَعْفىٰ المسلمين في أوّل الإسلام ليصدوهم عن الإيمان.
والفتنةُ: مايقع بين النّاس من القتال. (لسان العرب: مادة فتن).

(٢) حذيفة بن اليمان(ص ٢١٣) لإبراهيم العلي ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.

رضي الله عنه ، ونقلَ للأمّةِ كثيراً من الأحاديثِ النّبويّةِ المهمّةِ التي تشرحُ كبائرَ المسَائلِ ودقائقَها في أمور الفتن.

* وقد بلغتْ معرفةُ سيّدنا حُذيفةَ رضوان الله عليه بأحوالِ الفتن وأحاديثها حداً مرموقاً بين علماء الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم ، حتى غدا مرجعاً لهم في هذا المجال الحسّاس ، لأنّه كان يسألُ النّبي ﷺ عن الشّرِّ ، ويوضّحُ هذا ما أخرجه البخاري رحمه الله بسنده عن بُسرِ بنِ عبيد الله الحضرمي أنَّه سمع أبا إدريس الخولاني ، أنَّه سمعَ حذيفةَ بنَ اليمان يقول: «كان النَّاس يسألون رسولَ الله ﷺ عن الخيرِ ، وكنتُ أسأله عن الشَّرِّ مخافة أنْ يدركَني.

فقلت: يا رسولَ اللهِ ، إنّا كنّا في جاهليةٍ وشرّ ، فجاءنا اللهُ بهذا الخيرِ ، فهل بعد هذا الخيرِ من شرٍّ؟

قال: «نعم».

قلت: وهل بعد ذلك الشَّرِّ من خير؟

قال: «نعم وفيه دَخَنٌ».

قلت: وما دَخَنُه؟

قال: «قوم يهدون بغير هديي ، تعرفُ منهم وتنكر».

قلت: فهل بعد ذلك الخير من شرّ؟

قال: «نعم ، دُعاةٌ على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها».

قلت: يا رسولَ الله ، صِفْهم لنا.

قال: «هم من جلدتنا ، ويتكلّمون بألسنتنا».

قلت: فما تأمرني إنْ أدركَني ذلك؟

قال: «تلزمُ جماعةَ المسلمين وإمامَهم».

قلت: فإنْ لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمام؟

قال: «فاعتزلْ تلك الفرق كلها ، ولو أن تعضَّ بأصلِ شجرةٍ حتى يدركك الموتُ وأنتَ على ذلك»[1].

* ومن خلالِ هذا الحديث يتبيّنُ لنا أنَّ حذيفةَ رضي الله عنه قد تخصَّصَ في معرفَةِ الفتن وخَبِرهَا ، ووعىٰ ما قالَه النَّبيُّ ﷺ وأخبرَ به فيما يكونُ إلى قيامِ السَّاعة ، فقد أخرجَ الإمامُ مسلم بسندهِ عن حذيفةَ رضي الله عنه قال: «قام فينا رسولُ اللهِ ﷺ مقاماً ، ما ترك شيئاً يكون في مقامهِ ذلك إلى قيام

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن برقم (٧٠٨٤) واللفظ له؛ وأخرجَهُ مسلم في الإمارة برقم (١٨٤٧) ، وأبو داود في الفتن والملاحم برقم (٤٢٤٦) ، وابن ماجه في الفتن برقم (٣٩٨١) ، وأحمد في المسند (٥/ ٣٨٦) ، ومعنى «في جاهلية وشرّ»: يشيرُ إلى ما كان قبل الإسلام من الكفرِ ، وقَتْلِ بعضهم بعضاً ، ونهبِ بعضهم بعضاً ، وإتيانِ الفواحش.
ومعنى «فجاءنا اللهُ بهذا الخير»: يعني الإيمان والأمن وصَلاح الحال واجتناب الفواحش ، ومعنى «دخَن»: الحقْد ، وقيل: الدّغلُ وفسادُ القلب ، وقيل: الدّخنُ كلُّ أمرٍ مكروه ، وكأنّ المعنى بأنَّ قلوبهم لا يصفو بعضُها لبعض. ومعنى «تعرفُ منهم وتنكرُ» أي من أعمالهم. ومعنى «دعاة»: جمع داع ، أي إلى غير الحقّ ، ومعنى «هم من جلدتنا»: أي من قومنا ومن أهل لساننا وملّتنا ، والمعنى أنّهم في الظّاهر على ملتنا وفي الباطن مخالفون ، وجلدة الشّيء: ظاهره ، وهي في الأصل غشاء البدن. ومعنى «ولو أنْ تعضَّ»: إذا لم يكن في الأرض خليفة فعليكَ بالعزلةِ والصَّبر على تحمّل شدة الزّمان. ومعنى «جماعة»: قال قوم: المرادُ بالجماعةِ الصَّحابة. وقال قوم: المرادُ بهم أهل العِلْم لأنَّ اللهَ جعلهم حجّةً على الخلقِ ، والنّاسُ تبعٌ لهم في أمْر الدّين.
قال ابنُ أبي جمرةَ في تعليقهِ على هذا الحديث: «في الحديثِ حكمةُ اللهِ في عبادهِ كيف أقام كلاً منهم فيما شاء؛ فحبّبَ إلى أكثرِ الصَّحابة السّؤال عن وجوهِ الخير ليعلموا بها ويبلغوها غيرهم ، وحبّبَ لحذيفةَ السؤال عن الشّرّ ليجتنبه ، ويكونَ سبباً في دفْعِهِ عمّن أرادَ اللهُ له النَّجاة. وفيه سَعَةُ صَدْرِ النّبيّ ﷺ ومعرفتُهُ بوجوه الحكم كلّها حتى كان يجيب كل مَنْ سأله بما يناسبه ، ويُؤخذ منه أنَّ كلّ مَنْ حبّبَ إليه شيء فإنّه يفوق فيه غيره ، ومن هنا كان حذيفةُ صاحبَ السِّرّ الذي لا يعلمه غيره حتى خُصّ بمعرفة أسماء المنافقين ، وبكثير من الأمور الآتية. ويؤخذُ منه أنَّ من أدب التّعليم أن يُعلّم التلميذ من أنواع العُلوم ما يراهُ مائلاً إليه من العلوم المباحة ، فإنَّه أجدر أن يسرعَ إلى تفهيمه والقيام به.. وفيه وجوبُ ردّ الباطل وكلّ ما خالف الهدي النّبوي ولو قاله من قاله من رفيع أو وضيع. (فتح الباري ١٣/ ٤١) باختصار يسير جداً.

السَّاعة ، إلاّ حدَّث به ، حفِظَه مَنْ حفظه ونَسِيَهُ مَنْ نسيه ، قد علمَهُ أصحابي هؤلاء ، وإنّه ليكون منه الشّيء قد نسيتُه فأراه فأذكره ، كما يذكرُ الرَّجُلُ وجْهَ الرَّجُلِ إذا غابَ عنه ، ثمّ إذا رآه عرفَه»[1].

* وقد عرفَ الصَّحابةُ الكرام وأصحابُ حذيفةَ سَعَةَ عِلْمِهِ في أمورِ الفتن ، فقد تعلَّم حذيفةُ من النَّبيِّ ﷺ كيف يتصرّفُ إذا نزلتِ الخطوبُ ، ووقعتِ الفتن ، ولهذا كانت لحذيفةَ نظرةٌ عميقةٌ جدّاً وفاحصةٌ إلى الفتَنِ ، ينظرُ إليها ببصيرة العالمِ المجتهدِ ، فقد سأَله رجلٌ: أي الفتن أشد؟ قال: «أنْ يعرضَ عليك الخيرَ والشَّرَّ ، ولا تدري أيهما تترك»[2].

* أمّا المخرجُ من الفِتَنِ فيكون باتّباعِ المنهجِ الرَّبّاني ، وهذا ما أكَّدهُ النَّبيُّ ﷺ لحذيفةَ عندما سأله حذيفةُ: يا رسولَ اللهِ ، هل بعد هذا الخيرِ شرٌّ كما كان قبله شَرٌّ؟

قال ﷺ: «يا حذيفةُ اقرأ كتابَ اللهِ واعملْ بما فيه»[3].

* وكان حذيفةُ رضي الله عنه يحذّرُ أصحابَه من الفِتن ، وينصحُهم بالبعدِ عنها ، والجلوسِ في البيوت ، وإغمادِ السُّيوف وكسْرِ القِسيّ ، وفي هذه المعاني يقولُ: إيّاكم والفتن لا يشخصُ إليها أحدٌ ، فو اللهِ ما شخصَ منها أحدٌ إلا نَسَفَتْه كما ينسفُ السَّيل الدِّمن. . . فإذا رأيتموها فاجتمعوا في بيوتكم ، واكسروا سيوفكم ، وقطّعُوا أوتاركم ، وغطّوا وجوهكم»[4].

* ويشرحُ سيّدنا حذيفةُ لأصحابه كيف يُصَابون بالفتنةِ إذا اختلطَ عليهم الأمْرُ ، واضطربتْ رؤياهم للحلالِ والحرامِ ، فيقول: «إذا أحبَّ أحدكم أنْ يَعْلَمَ أَصَابتْهُ الفتنةُ أمْ لا ، فلينظرْ فإن كان رأى حلالاً كان يراه حراماً فقد

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٩١/ ٢٣).
(٢) انظر: التذكرة الحمدونية (٣/ ٣٣٥ و٣٣٦).
(٣) أخرجه أحمد في المسند (٩/ ١١٨) برقم (٢٣٥٠٩).
(٤) المستدرك (٤/ ٤٩٥) باختصار يسير ، طبعة دار الكتب العلمية الأولى ١٩٩١م.

أصابتْهُ الفتنةُ ، وإن كان يرىٰ حَراماً كان يراهُ حلالاً فقد أصابته»[1].

* وكثيراً ما كان سيّدنا حذيفةُ يجلسُ مع أحد أصحابهِ من علماءِ الصَّحابة يتحدثان عن أمورِ الأيّام وأحوالها ، وتقلّباتها ، فقد ذكروا «أنَّ حذيفةَ وسلمانَ الفارسي بينما كانا يَتذاكران عجائبَ الزّمان ، وتغيّرَ الأيّامِ والأحوالِ ، وهما في ساحةِ إيوان كِسْرى ، وكان أعرابيٌ من قبيلةِ غَامِد يرعىٰ شُويهات له نَهاراً ، فإذا كان الليلُ صَيَّرهُنَّ إلى داخلِ السَّاحة الكسروية ، وفي السَّاحةِ سرير رخام ربّما كان يجلسُ كسرى عليه ، فَصَعِدَتْ شُويهات الغامدي إلى ذلك السَّرير ، فقال سلمانُ لحذيفةَ: ومن أعجبِ ما تذاكرنا صعودُ غُنيمات الغامديّ إلى إيوان كسرى!»[2].

* من خلال هذه الأحاديثِ والأخبارِ يظهرُ لنا مدى سَعَة علْم حذيفةَ بها ، ومَنْ شاء المزيد فالمصادرُ أمامه فيها المزيد.

معرفتُـهُ وعلْمُـهُ بالمُـنَـافِقين:

* النّفاقُ مرضٌ خطيرٌ من أفظع أمراضِ النُّفوسِ وأفتكِها ، والنّفاقُ داءٌ لا يزال ينهشُ في جسْمِ الأمّةِ ويجعلُ حياتَها في خَطَرٍ مستمرٍّ ، فإذا تخلّصَتْ منه الأمّةُ كان ذلك بدايةً صِحّيّةً ، وبشرىٰ بالشّفاءِ والرّاحةِ.

* ومن المؤكّد في علْمِ النّفس أنَّ النّفاق هزيمةٌ داخليةٌ تجعلُ الإنسانَ منهاراً لا يعرفُ ماذا يصنعُ ، بل تجعلُهُ في حيرة وتردُّد ، ثم يركَنُ إلى التّملُّق والتَّغاضي والذّبذبة ، والخوفِ والتّردي والمداراة ، وسقوطِ الهمّة ، والضَّعف عن قول الحقّ في مواطنِ الحقّ.

* وفي القرآنِ الكريمِ سورةٌ كاملةٌ تحملُ عنوانَ سورة ﴿المنافقون﴾ وعنوانها دالٌّ على موضوعها ، ومن الواضح لدى العُلماءِ والحفّاظِ بأنّها ليستِ السّورةُ الوحيدةُ التي فيها ذِكْرُ النّفاق والمنافقين ، ووصف أحوالِهم

---

(١) المستدرك (٤/ ٥١٤).

(٢) انظر: البيان والتّبيين (٣/ ١٤٨) ، والتذكرة الحمدونية (٩/ ٢٠٨) مع الجمع والتصرف اليسير.

ومكائدهم، فلا تكادُ تخلو سورةٌ مَدَنيّة من ذِكْرِ المنافقين تلميحاً أو تصريحاً.

* وسورةُ ﴿المنافقون﴾ تتضمَّنُ حملةً واعيةً صحيحةً على أخلاقِ المنافقين ومراوغاتِهم ومناوراتِهم ودسائِسهم وأكاذيبهم البَلْهاء، وتكشفُ ما في نفوسهم المضطربةِ من الكيدِ والدَّس والبغضِ للمسلمين، ومن اللؤم والجبن وانطماسِ البصائرِ والقلوب.

* ولعِظَمِ أمْرِ النّفاقِ وخطورتهِ في العَهْد النَّبويّ كان سيّدنا عمرُ رضي الله عنه يلزمُ سيّدنا حذيفةَ ـ الذي أطلعه النَّبيُّ ﷺ على أسماء المنافقين ـ ويسألُهُ ويستحلفُهُ بأنَّ النَّبيّ ﷺ لم يذكرْهُ في جُملةِ المنافقين، ويقول حذيفة له مُطمْئِناً: لا، ولا أَزيدُ بحرفٍ واحد، لأنَّ حذيفةَ كان يعلمُ علْمَ اليقين خَطَرَ المنافقين وضررهم على الإسلام من خلالِ مواقفهم المخزيةِ التي اصطنعوها تجاهَ النَّبيِّ ﷺ، وتجاهَ الصّحابة أجمعين في مختلفِ المواقف والمغازي، يضاف إلى ذلك تراجعهم بالمشاهدِ التي كانوا يخذلون المسلمين فيها، وكان على رأسِهم زعيم أهل النِّفاق عبد الله بن أبي ابن سلول، فقد كان تاريخُه مُلَطَّخاً بالعار وخبيئة السّوء وحبّ الفساد والإفساد ونَشْر المخازي[1].

* ولقد خصَّ سيّدنا رسولُ الله ﷺ صاحبَه الحصيفَ الأمينَ حذيفةَ بنَ اليمان بأمانة السِّرّ، فأطلعَه على سِرِّه، وأخبره بأسماء المنافقين وَحْدَهُ دونَ غيرِه من الصَّحابة العُلماء الأعلام، وذلك لإخلاصِ حذيفةَ وحصافته واتّزانه وهدوئه تجاه الأحداث والمفاجآت.

* وقد سُئِل عالمُ الصَّحابة وعيلمهم سيدنا عليُّ بنُ أبي طالب رضوان الله عليه عن حذيفةَ فقال: «كان أعلم النّاس بالمنافقين» وقالَ عليُّ أيضاً عن حذيفةَ: «عَلِمَ المنافقين، وسأل عن المعضلات، فإنْ تسألوه تجدوه بها عالماً»[2].

---

(١) انظر تفصيلات موقف هذا المنافق وضلالاته في كتابنا «المبشّرون بالنار» (ص ٣٠٤ ـ ٣٣١) طبعة دار ابن كثير الثانية بدمشق عام ٢٠٠١م.
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦٣) ورجاله ثقات.

* وقَرّظَهُ الإمام الذّهبي في مفتتحِ ترجمته له بقوله: «حذيفةُ بنُ اليمان من نجباءِ أصحابِ محمّد ﷺ، وهو صاحب السِّرّ»[1]؛ وفي موضعٍ آخر قال الذَّهبيُّ عنه: «وكان النَّبيُّ ﷺ قد أسرَّ إلى حذيفةَ أسماء المنافقينَ، وضبطَ عنه الفتنَ الكائنةَ في الأمةِ... ومناقبُهُ تطولُ رضي الله عنه»[2].

* وقال عنه الإمامُ النَّوويُّ رحمهُ الله في «تهذيبه»: «وكان صاحب سرّ رسولِ الله ﷺ في المنافقين يَعْلَمُهم وحده»[3].

* ومن خلالِ هذه الآثار الطَّيِّبةِ ندركُ أنَّ سيّدنا حذيفةَ رضي الله عنه كان عالماً بأسماء جميعِ المنافقين في عَهْدِ النّبوّة، فقد جاء في الصَّحيح: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنّةَ حتّى يلجَ الجملُ في سمِّ الخياط، ثمانية منهم تكفيهم الدُّبيلة..»[4].

* وقد رأيت من الفائدة أنْ أشيرَ إلى أسماءِ المنافقين الذين غدروا بالنَّبيّ ﷺ في العَقَبةِ يوم غزوةِ تبوك، فقد ذكرَ الحافظُ أبو القاسم سُليمان بن أحمد الطَّبراني في «المعجم الكبير» أسماءهم وأنّهم حربٌ للهِ ولرسوله في الحياةِ الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد.

* ذكرَ الطّبرانيُّ هذا في معجمهِ فقال: حدثنا عليُّ بنُ عبد العزيز حدثنا الزّبيرُ بنُ بكّار قال: «تسميةُ أصحابِ العَقَبةِ: معتبُ بنُ قُشيرُ بنُ مليل من بني عمرو بن عوف، شَهِدَ بدراً، وهوالذي قال: يَعِدُنا محمّدُ كنوزَ كسْرى وقيصَر وأحدنا لا يأمنُ على خلائه، وهو الذي قال: لو كان لنا من الأمرِ

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٦١).
(٢) المصدر السابق عينه (٢/ ٢٦٤) باختصار.
(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/ ١٥٤).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٧٧٩) ومعنى «في أصحابي»: الذين ينسبون إلى صحبتي. و«سمّ الخياط»: ثقب الإبرة، ومعناه: لا يدخلون الجنة أبداً، كما لا يدخل الجمل في ثقب الإبرة أبداً. و«الدبيلة»: سراج من نار.

شيءٌ ما قُتِلْنا ها هنا. قال الزّبيرُ بنُ بكّار: وهو الذي شَهِدَ عليهِ الزُّبيرُ بنُ العوام بهذا الكلام.

ووديعةُ بنُ ثابت بن عمرو بن عوف، وهو الذي قال: إنّما كُنّا نخوضُ ونلعبُ، وهو الذي قال: ما لي أرىٰ قُرَّاءَنَا هؤلاء أرغبنا بُطوناً، وأجبنُنَا عند اللقاء.

وَجَدُّ بنُ عبد الله بن نبيل بن الحارث من بني عمرو بن عوف، وهو الذي قال جبريل عليه السّلام: يا محمّدُ مَنْ هذا الأسود كثيرٌ شَعْرهُ، عيناه كأنّهما قِدْران من صفْرٍ، ينظر بعينَي شَيطان، وكبده كبد حمار، يخبرُ المنافقين بخبرك، وهو المجترُّ بخرئه.

والحارثُ بنُ يزيد الطَّائي حليفٌ لبني عمرو بن عوف، وهو الذي سبقَ إلى الوَشل ـ موضع بئر ـ الذي نهىٰ رسولُ الله ﷺ أنْ يمسَّه أحدٌ، فاستقىٰ منه.

وأوسُ بنُ قيظي وهو من بني حارثة، وهو الذي قال: إنَّ بيوتَنا عورة، وهو جدّ يحيى بن سعيد بن قيس.

والجلاسُ بنُ سُويد بن الصَّامت، وهو من بني عمرو بن عوف، وبلَغَنا أنّه تابَ بعد ذلك.

وسعدُ بنُ زُرارة من بني مالك بن النَّجّار، وهو المدخّنُ على رسول الله ﷺ، وكان أصغرهم سناً وأخبثهم.

وقيسُ بنُ قهد من بني مالك بن النَّجّار.

وسُويدُ، وداعسُ، وهما من بني بَلْحُبْلَى، وهما ممن جهَّزَ ابن أُبيّ في تبوك يخذّلان النّاس.

وقيسُ بن عمرو بن سَهل، وزيدُ بن اللصيت، وكان من يهود قينقاع، فأظهرَ الإسلام، وفيه غِشُّ اليهود، ونفاق مَنْ نافق.

وسلامةُ بنُ الحام من بني قينقاع ، فأظهرَ الإسلام»[1].

* ولكي تتم الفائدة هنا ، وندرك مدى خَطَر النّفاق والمنافقين ، دعونا نتعرف قليلاً على خداعِ المنافقين وأحابيلهم من خلال بدايةِ ظهورهم في العَهْد النّبويّ في المدينةِ المنورة.

* إنَّ ظواهرَ النِّفاقِ التي بدأت أشكالُها تتبلورُ بدخولِ الإسلام المدينةَ المنورة ، وظلّت مستمرة إلى قربِ وفاة النّبيّ ﷺ ، هذه الظّاهرةُ الضَّبابيةُ المربكَةُ شغَلَتْ من وقْتِ المسلمين وجهدهم قدراً كبيراً وزمناً طويلاً ، وورَدَ ذكرُهَا مرّاتٍ كثيرة في القرآنِ الكريم والحديثِ النّبويّ الشريف ، لتدل على ضخامة أثرها السَّلبيّ في المجتمعِ المدني في العَهْدِ النّبويّ في المدينةِ المنوّرة.

* ولعلَّ سببَ ظهورِ حركة النّفاق وجمهور المنافقين في المدينةِ واضحةٌ؛ فعندما كان النَّبيُّ ﷺ وأصحابُهُ في مكَّةَ أخذَ المشركون وزعماءُ مكّةَ يناوئون الدّعوةَ المحمديّة جهاراً دونَ مواربةٍ ، وأخذوا يتناولون مَنِ استطاعوا مِنَ المسلمين بالأذىٰ الشَّديد ، ويقاومون الدَّعوة بكلِّ وسيلة دون أنْ يتحرزوا من أحدٍ أو يتحفَّظوا منه ، وكانت القوةُ لهم حتى اضُطرَّ المسلمون إلى أنْ يهاجروا إلى الحبشة أوّلاً ، ثمَّ إلى المدينة ثانياً فراراً بدينهم ودمهم ، وقد فُتن بعضهم عن دينه تحتَ وطأة الإكراه والعنف ، أو الإغراء أحياناً ، بينما مات آخرون تحت وطأة العذاب لثباته على دينه.

* أمّا في المدينةِ المنوّرةِ فقد كان الأمرُ مُختلفاً جدّاً عمّا هو عليه بمكّة ، فالنَّبيُّ ﷺ وأصحابُهُ وأنصارُهُ هم الأقوياءُ ، وها هنا وقفَ الذين لم يؤمنوا بالإسلام موقفَ غيظٍ وحقْدٍ وعنادٍ ، فقد رأوا أنَّ في قدوم النَّبيّ ﷺ حدّاً لسلطانهم ومكانتهم ونفوذهم ، لذلك أخذوا موقفَ الجحودِ والعداءِ للصادق المصدوق ﷺ والمسلمين من المهاجرين والأنصار ، وأخذ مرضُ القُلُوب

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (٣/١٦٦ و١٦٧) تحقيق حمدي السّلفي ـ الموصل ـ ط٢ ـ ١٩٨٤م.

والمكابرة والحقد يحملُهم على العَداوةِ للدِّين ونبيِّهِ وأصحابهِ وأنصارهِ ، ولم يكن أمامهم سوى التَّظاهر بالإسلام ، والقيامِ بأركانِهِ ، ومن ثمَّ جعلُوا مكرهم وكيدهم ومؤامراتهم تسيرُ بأسلوب الخداع والتّمويهِ والمراوغة والتّعتيم ، وإذا كانوا في بعض الأحايين والأوقات يقفُون مواقفَ علنيّةً فيها دسٌ وكيدٌ ، وعليها طابعٌ من النّفاق بارزٌ ، فإنّما كان هذا منهم في بعض الأزمات التي كانت تحدقُ بالنّبي ﷺ والمسلمين ، والتي كانوا يتّخذونها حجّةً وتبريراً لتلك المواقف المخزية بداعي المصلحةِ والاحتياطِ ، ولم يكونوا يعترفون بالكُفْر أو النّفاق ، إلا أنَّ مواقفهم الضبابية لم تَخْفَ على النّبيّ ﷺ وعلى المُخلصين من أصحابهِ من علماءِ المهاجرين والأنصار ، كما أنَّ مواقفَهم العلنية في التَّخاذل والنّفاق كانت تفضحهُم وتجعلُهم ممقوتين من المجتمعِ المسلم ، وكانتِ الآياتُ القرآنيةُ تشيرُ إلى غدرهم ، وتوجّه إليهم الفضائح مرةً بعد أخرى ، وتدلُّ عليهم بما يفعلون أو يمكرون ، وتحذّرُ النَّبيَّ ﷺ منهم ، وتحذّرُ المسلمين من ألاعيبهم ودسائِسهم.

* ومن الواضح لدى دارسي السِّيرة النَّبويّةِ العطرةِ أنَّ المنافقين كانوا ألعوبةً بيدِ اليهودِ في المدينة ، وقد انعقدَتْ بين الفريقَيْن علاقاتُ كيدٍ ودسٍّ ضدَّ المسلمين ، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أحبطَ أعمالَهم ، وأضعفَ شأنهم ، وبعثَرَ خطرهم ، ومكّنَ النَّبيَّ ﷺ منهم وأظهره عليهم ، وكَفَاهُ شرهم ودمّرَ حِلْفهم ، وتلاشوا بعد أنِ اتَّسعَتْ دائرةُ الإسلام ، وتوطدت أعلامُ عزّه وسلطانه.

* كان سيّدنا حذيفةُ بنُ اليمان رضي الله عنه يعرفُ هذه الأحوال كلَّها عن المنافقين ، وقد أطلعه النَّبيُّ ﷺ على أسمائِهم ، وعندها غدا مرجعاً للصَّحابة يرجعون إليه في معرفةِ هؤلاء الأخابث أهل النّفاق.

* ولكنَّ حذيفةَ رضوان الله عليه كان يحرصُ على سلامةِ المجتمع وتماسكه ، ويأبى أنْ يخبرَ أحداً من الصَّحابة عن السِّرِّ النَّبويِّ مهما كانَ شأْنُه.

* وكان سيّدنا حذيفةُ شديدَ الحرص على أن لا يُصَلّي على أحدٍ من المنافقين ، وكان كثيرٌ من الصَّحابة ينظرون إليه ، فإذا صلّى على جنازةٍ صلُّوا عليها ، وإنْ لم يُصَلِّ عليها لم يصلّوا عليها. فعن زيدِ بنِ وهب قال: «مات رجلٌ من المنافقين ، فلم يُصَلِّ عليه حذيفة.

فقال له عمر: من القوم هو؟.

قال: نعم.

قال: بالله أنا منهم؟

قال: لا ، ولن أخبرَ أحداً بعدك»[1].

* ولحرصِ سيدنا عمر رضي الله عنه على هذا الموضوع فإنّه كان ينظرُ إلى حذيفةَ عند موتِ مَنْ مات منهم ، فإنْ لم يشهدْ جنازتَه حذيفةُ لم يَشْهَدْهَا عمر.

* وكان حذيفةُ رضي الله عنه يرى أنَّ النّفاق كان علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ، وهو اليوم كُفْرٌ بعد الإيمان[2] ، ولكنَّ حالهم اليوم خطرٌ لأنَّهم يجهرون بنفاقِهم. فقد أخرج البخاري بسنده عن أبي وائل عن حذيفةَ بنِ اليمان قال: «إنَّ المنافقين اليوم شرٌّ منهم على عَهْد النَّبيّ ﷺ ، كانوا يومئذٍ يُسِرُّون؛ واليوم يجهرون»[3].

---

(١) المعرفة والتاريخ (٢/ ٧٦٩).

(٢) انظر هذا المعنى في صحيح البخاري حديث رقم (٧١١٤).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٧١١٣). إنَّ سيدنا حذيفةَ يرى أنَّ المنافقين اليوم أخطرُ من زمنِ النّبوّة ، لأنّهم يظاهرون بالفتنةِ والشّرّ. وقد علّل ابن بطّال ذلك فقال: «إنّما كانوا شرّاً ممّن قبلهم لأنَّ الماضين كانوا يسرّون قولَهم فلا يتعدّى شرّهم إلى غيرهم ، وأمّا الآخرون فصاروا يجهرون بالخروج على الأئمةِ ويوقعون الشَّرَّ بين الفِرقِ ، فيتعدّى ضررهم لغيرهم ، قال: ومطابقته للتّرجمة من جهة أنَّ جهرهم بالنّفاق وشهر السّلاح على النّاس هو القولُ بخلاف ما بذلوه من الطّاعة حين بايعوا أوّلاً من خرجوا عليه آخراً».
وقال ابنُ التّين: «أراد أنّهم أظهروا من الشّرّ ما لم يُظهِرْ أولئك ، غير أنّهم لم يصرحوا =

* وهكذا نجدُ أنَّ سيدنا حذيفةَ من أكثر الصحابةِ معرفةً بأحوال المنافقين، ورأينا كثرة تحذيره منهم ، كما لمسنا كيدهم وخطرهم وزيوفَهم من خلالِ أحاديث حذيفة ونصائحه وتوجيهاته لأصحابه ولكافة المسلمين.

نهمُهُ في الحديث والتفسير:

* سيدنا حذيفةُ بنُ اليمان واحدٌ من علماءِ الصَّحابةِ الأذكياءِ الذين لازموا النَّبيَّ ﷺ في مناسباتٍ شتّى ، ونقلُوا عنه علماً جمّاً.

* لم يكن هؤلاء الصّحابة متساوين في حفظِ الحديث النّبويّ ، فقد كان منهم أصحابُ الألوف في الرّواية ، ومنهم أصحابُ المئات وأصحابُ العشَرات وأصحابُ الحديثِ الواحدِ أو أكثر.

* وكان حذيفةُ من العُلماء الكبار من جيل الصَّحابة الأعلام ، وهو من أصحابِ المئات في الرّواية ، فقد كان يتمتّعُ بحافظةٍ قويةٍ ، وفطنةٍ وزكَانةٍ ، وقد ذكره ابنُ حزم مع جملةٍ من الصّحابة الرّواة أصحاب المئتين وشيء فقال: «أصحاب المئتين وشيء:

أبو ذرّ الغِفَاري: مئتا حديث وواحد وثمانون حديثاً.

سعدُ بن أبي وقّاص: مئتا حديث وواحد وسبعون حديثاً.

أبو أمامة الباهلي: مئتا حديث وسبعون حديثاً.

حذيفةُ بنُ اليمان: مئتا حديث وخمسة وعشرون حديثاً»[1].

* قال الذّهبي: «له في الصَّحيحين اثنا عشر حديثاً ، وفي البخاري

= بالكفْر ، وإنّما هو النّفث يلقونه بأفواههم فكانوا يعرفون به».
قال ابن حجر: «ويشهد لما قال ابنُ بطّال ما أخرجه البزّار من طريق عاصم عن أبي وائل: قلتُ لحذيفة: النّفاق اليوم شرّ أم على عهدِ رسول الله ﷺ؟ قال: فضربَ بيده على جبهته وقال: أوه ، هو اليوم ظاهرٌ ، إنّهم كانوا يستخفون على عهد رسول الله ﷺ». (فتح الباري ١٣/ ٧٩ و٨٠).

(١) جوامع السيرة النبوية لابن حزم (ص ٢٧٧).

ثمانية ، وفي مسلم سبعة عشر حديثاً»[1] .

* وقال ابن حجر في «الإصابة» : «روى حذيفةُ عن النَّبيِّ ﷺ الكثيرَ ، وعن عمرَ ؛ روى عنه جابرٌ ، وجندبٌ ، وعبدُ الله بن يزيد ، وأبو الطُّفيل في آخرين ، ومن التَّابعين : ابنهُ بلال وربعيُّ بنُ حراش وزيدُ بنُ وهب وزرُّ بنُ حُبيش وأبو وائل وغيرهم»[2] .

* وتعودُ حصيلةُ حذيفةَ الحديثية إلى سؤالهِ النّبي ﷺ عن العِلْم ، وحفظه ما كان ﷺ يحدّث أصحابه ، بالإضافةِ إلى الصُّحبةِ الطَّويلةِ ، وتعليم النّبيّ ﷺ له بشكل خاص .

* وعندما توزَّعَ الصَّحابةُ العلماءُ في الأمصار فاتحين ومعلّمين ، كان نصيبُ حُذيفةَ في المدائن ، وكان من القادةِ الفاتحين ، ولكنّه لم يَنْسَ أنْ يقومَ بنشرِ العلْم المفيدِ ، وتعليمِ النّاس القرآن والحديث ، وكان في هذا الميدان شديدَ الورع والتّحري ، والتّمسُّك بالمنهج النّبويّ ، وعدم الإكثار من روايةِ الأحاديث النّبويّة ، وإذا حدَّثَ الحديثَ النَّبويَّ بلَّغه بدقّةٍ تامّة .

* أخرجَ الإمامُ أحمد في «المسند» بسندٍ رفعه إلى خلاد بن عبد الرحمن ، أنَّه سمع أبا الطُّفيل يحدِّثُ أنَّه سمعَ حذيفةَ بنَ اليمان يقول : «يا أيّها النَّاس ألا تسألوني؟ فإنَّ النَّاس كانوا يسألون رسولَ اللهِ ﷺ عن الخير ، وكنتُ أسألُه عن الشَّرِّ ، إنَّ اللهَ بعثَ نبيَّه ﷺ فدَعَا النَّاسَ من الكفْرِ إلى الإيمان ، ومن الضّلالةِ إلى الهدى ، فاستجابَ مَنِ استجاب ، فحييَ منَ الحقِّ ما كان مَيْتاً ، ومات من الباطل ما كان حياً ، ثم ذهبتِ النُّبوّة ، فكانت الخلافةُ على منهج النُّبوَّة»[3] .

* ومن مروياتِ حذيفة ما جاء في الصَّحيح عن سَعَةِ رحمة الله وتفضُّلهِ على عباده؛ فقد أخرج مسلم بسنده عن ربْعيّ بن حِرَاش ، عن حذيفة قال :

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦١).

(٢) الإصابة (١/ ٣١٦) طبعة دار الكتاب العربي.

(٣) المسند (٩/ ١١٤) حديث رقم (٢٣٤٩٢).

«أُتيَ اللهُ بعبدٍ من عبادِهِ آتاهُ الله مالاً ، فقال له : ماذا عملتَ في الدنيا؟ قال : ـ ولا يكتمون اللهَ حديثاً ـ قال : يا ربِّ ، آتيتني مالَكَ ، فكنتُ أبايعُ النَّاسَ ، وكان من خُلُقي الجَوازُ ، فكنتُ أتيسَّرُ على الموسرِ وأنظرُ المعسر.

فقال الله : أنا أحقّ بذا منك ، تَجَاوَزُوا عن عبدي».

فقال عقبةُ بنُ عامر الجهنيّ ، وأبو مسعود الأنصاري : هكذا سمعناه منْ فِي رسولِ الله ﷺ[1].

* وممّا روىٰ حذيفةُ في الذّكْر عند النَّوم ما جاء عند الإمام البخاري عن حذيفة قال : كان النَّبيُّ ﷺ إذا أوىٰ إلى فراشِهِ قال : «باسمكَ أموتُ وأحيا». وإذا قام قال : «الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتنا ، وإليه النُّشور»[2].

* إنَّ مرويات سيّدنا حذيفة كثيرةٌ منثورةٌ في كتبِ الحديثِ النّبويّ الشَّريف ، وقد مرَّتْ معنا نماذجُ عديدةٌ من خلال الحديثِ عنه في الصَّفحات السَّابقة.

* أمّا في مجال تفسيرِ القرآنِ العظيم فلم يشتهرْ حذيفةُ في هذا المضمارِ

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٥٦٠/٢٩) ، وفي هذا الحديث فوائد كثيرة منها :
١ ـ فضلُ إنظار المُعْسر ، والوضعُ عنه ، إمّا كلّ الدَّين ، وإما بعضُه من قليل أو كثير.
٢ ـ فضلُ المسامحة في الاقتضاء وفي الاستيفاء ، سواء استوفى من موسر أو معسر.
٣ ـ فضلُ الوضع من الدَّين ، وأنّه لا يحتقر شيء من أفعال الخير ، فلعله سبب السَّعادة والرحمة والمغفرة. فمن نفَّسَ عن معسر نجّاه الله من كُرب يوم القيامة.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٣١٢) ومعنى قوله «أوىٰ» : دخَل في الفراش للنّوم. ومعنى «باسمك أموتُ وأحيا» : أي بذكرِ اسمِكَ أحيا ما حييتُ وعليه أموتُ. ومعنى «الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتنا» : النّفسُ التي تفارقُ الإنسانَ عند النَّوم هي التي للتّمييز ، والتي تفارقُه عند الموت هي التي للحياة وهي التي يزولُ معها التّنفّس ، وسمّى النّوم موتاً لأنّه يزولُ معه العقلُ والحركةُ تمثيلاً وتشبيهاً. ويُحتَملُ أنْ يكونَ المراد بالموتِ هنا السّكون كما قالوا : ماتت الرّيح أي سكنت ، فيحتمل أنْ يكونَ أطلق الموت على النّائم بمعنى إرادة سكون حركته لقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ ومعنى ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ : أي البعث يوم القيامة والإحياء بعد الإماتة ، يقال : نشر الله الموتى فنشروا أي أحياهم فحيوا. (فتح الباري ١١/١١٧ و١١٨) باختصار.

كابنِ عبّاس وعليّ وابنِ عمر رضي الله عنهم أجمعين ، وإنّما كانت له مشاركاتٌ لطيفةٌ جاءت في كتُب التَّفسير ، وقد نقلَها للأمّةِ عن حبيبنا رسولِ اللهِ ﷺ بغيةَ التّعليم والتّفهيم ونَشْر السُّنَّة بين النَّاس ليعرفوا فَضْل العِلْم ويستضيئوا بنوره.

* ويكفي في هذا المجال الرَّحْب الميمون إشارة حذيفة على عثمان رضي الله عنهما بجمعِ القرآن الكريم ، فاستجابَ عثمان لذلك ، وقامَ بأعظم مهمّة في هذا المضمار الكريم.

* ومن المأثور في التَّفسير عن حذيفةَ ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] ، فقد روىٰ حذيفة: «أنَّه ﷺ إذا حزَنَه أمرٌ صلّى»[١].

* وفي تفسيرِ ﴿ٱلْكَلَـٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] من قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ . . .﴾ [النّساء: ١٧٦] ، يقول حذيفةُ: «نزلت آيةُ الكلالة على النَّبيّ ﷺ في مسيرٍ له ، فوقفَ النَّبيُّ ﷺ ، فإذا هو بحذيفةَ ، وإذا رأسُ ناقةِ حذيفةَ عند مؤترز النَّبيّ ﷺ فلقَّاها إياه ، فنظرَ حذيفةَ فإذا عمر رضي الله عنه فلقَّاها إياه ، فلمّا كان في خلافةِ عمر رضي الله عنه نظرَ عمرُ في الكلالة ، فدعا حذيفةَ فسأله عنها ، فقال حذيفةُ: لقد لَقَّانِيْها رسولُ الله ﷺ فلقّيتُك كما لقَّاني ، والله إنّي لَصَادِقٌ ، وواللهِ لا أزيدكَ على ذلك شيئاً أبداً»[٢].

---

(١) تفسير الألوسي (١/ ٣٩٥) ، والحديثُ أخرجه أحمد ولكن بلفظ «حَزَبَهُ» بدلاً من حَزَنَه. قال الألوسي: «وأما الاستعانةُ بالصَّلاة فلما فيها من أنواعِ العبادة ، ممّا يقرّبُ إلى الله تعالى قرباً يقتضي الفوز بالمطلوب ، والعروج إلى المحبوب ، وناهيك من عبادة تكرر في اليوم والليلة خمس مرات يناجي فيها العبد علام الغيوب ، ويغسل بها المعاصي درن العيوب». (تفسير الألوسي ١/ ٣٩٥).

(٢) مجمع الزوائد (٧/ ١٣) ، وقال الهيثمي: «رواه البزار ، ورجاله رجال الصَّحيح غير أبي عبيدة بن حذيفة ، ووثّقه ابن حبّان».

ومعنى ﴿الكلالة﴾: قال ابن عطيّة: «المترجّح أنَّها الوراثة التي خلَتْ من أبٍ وابنٍ =

* وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، يقول حذيفةُ «المقام المحمودُ: الشَّفاعةُ للنَّاس يومَ القيامة»(١).

* وفيمن سَنَّ خيراً أو دعا إلى هدىً نسمعُ من حذيفة تفسير قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: ٥] فقد أخرجَ الحاكمُ في «المستدركِ» بسندهِ عن محمّد بن سيرين، عن أبي عُبيدة بنِ حذيفةَ عن حذيفةَ بنِ اليمان رضي الله عنه قال: «قامَ سائلٌ على عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ فسأل فسكتَ القوم، ثمّ إنَّ رجلاً أعطاهُ، فأعطاه القومُ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «مَن استنَّ خيراً فاسْتُنَّ به فَلَهُ أجرهُ ومثلُ أجورِ مَنْ تَبعَهُ غير منتقص من أجورهم شيئاً، ومَن استنَّ شرّاً فاستُنّ به فعليه وزره ومثل أوزار من اتّبعه غير منتقص منْ أوزارهم شيئاً» قال: وتلا حذيفة بن اليمان: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥](٢).

* من خلال هذه الآثار المباركة نجد أنَّ سيّدنا حذيفة مفسّر لبعضِ الآيات، وهذا ما يجعلُه في مصاف كبار عُلماء الصّحابة، ومن أرادَ الاستزادة من تفسير حذيفة فعليه بكتب التَّفسير.

= وابنةٍ، ولم يكنْ فيها عمود نسب لا عالٍ ولا سافلٌ، وبقي فيها مَنْ يتكلّل، أي: يحيط من الجوانب كما يحيطُ الإكليل. وكان أمرُ الكلالة عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه مُشْكلاً فقال: «ما راجعتُ رسولَ الله ﷺ في شيءٍ مراجعتي إيّاه في الكلالة، ولوددت أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يمتْ حتّى يبيّنها». وقال عمرُ على المنبر: «ثلاثٌ لو بيّنها رسولُ اللهِ ﷺ لكان أحبَّ إليّ من الدّنيا: الجدُّ والكلالةُ؛ والخلافةُ؛ وأبوابٌ من الربا». وذُكِر عن أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه أنّه قال في خطبته: «ألا إنَّ آيةَ أوّلِ سورةِ النساء أنزلها الله في الولدِ والوالدِ، والآية الثّانية أنزلها اللهُ في الزّوج والزَّوجة والإخوة من الأم، والآية التي ختم بها سورة النّساء أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها الله في أولي الأرحام. (المحرر الوجيز ص ٥٠٣ و٥٠٤) ملخصاً.

(١) زاد المسير (ص ٨٢٨) طبعة المكتب الإسلامي، ودار ابن حزم الأولى ٢٠٠٢م.

(٢) المستدرك (٢/ ٥٦١)، قال في التلخيص: «صحيح، واتفقا على معناه من حديث جرير».

مواعظُـهُ التَّعليميّـةُ وزهدياتُـه:

أثرتْ عن سيّدنا حذيفة رضي الله عنه كلماتٌ تشفي القلوبَ لصدقِها وجمالِها وواقعيتها؛ ولعلَّ حذيفةَ من أكثرِ علماءِ الصَّحابة الذين حُفَظَتْ عنهم الحِكَمُ والمواعظُ والأمثالُ، وقد استقى ذلك كلّه من يَنْبوعِ الهدي النَّبويِّ ومعينِهِ الثَّرِّ.

* ففي حثِّ أصحابه على الصَّبْرِ يقول: «تعوَّدُوا الصَّبْرَ فيوشكُ أنْ ينزلَ بكم البلاء، مع أنَّه لا يصيبكم أشدّ ممّا أصابنا، ونحنُ مع رسولِ الله ﷺ»[1].

* وكان يحبُّ العِلْمَ والتَّواضعَ، فعن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما قال: قال لنا حذيفةُ: «إنّا حَمَلْنَا هذا العِلْم، وإنّا نؤدّيه إليكم، وإنْ كُنَّا لا نعملُ به»[2].

* والعلمُ يورثُ الخشيةَ؛ وفي ذلك يقولُ حذيفة معبّراً ومترجماً هذا المعنى الأنيق: «بحسبِ المرءِ منَ العِلْم أنْ يخشى اللهَ عزَّ وجلَّ، وبحسبهِ من الكذبِ أنْ يقولَ: أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه، ثمّ يعودُ».

* وفي تعريف الحقّ يقول: «إنَّ الحقَّ ثقيلٌ، وهو مع ثقلهِ مَريءٌ، وإنَّ الباطلَ خفيفٌ، وهو مع خفّته وَبيءٌ، وتركُ الخطيئةِ خيرٌ من طَلَبِ التَّوبةِ، وربّ شهوةٍ ساعة أورثَتْ حُزناً طويلاً»[3].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٦/ ٢٥٦).

(٢) المصدر السابق (٦/ ٢٥٩) قال البيهقي: «قوله: وإن كنّا لا نعمل به، يريد والله أعلم فيما يكون ندباً واستحباباً، فلا يُظن بهم أنهم كانوا يتركون الواجب عليهم، ولا يعملون به، إذ كانوا أعمل الناس بما وجب عليهم، ويحتمل أن يكون ذهب مذهب التواضع في ترك التزكية».

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٦/ ٢٥٩).

* وأمّا ميتُ الأحياءِ عند سيّدنا حذيفة فهو: «الذي لا ينكرُ المنكر بيدِهِ ولا بلسانه ولا بقلبه»[1].

* وسُئل: «يا أبا عبد الله، ما ميتُ الأحياء؟ قال: الذي لا يعرفُ المعروفُ بقلبه، ولا ينكرُ المنكرَ بقلبه»[2].

* ومن بدائعِ حكمه في ضَبْطِ اللسان ما جاء عن فَضَيل بن عياض قال: «قيل لحذيفة: مالكَ لا تتكلّم؟ قال: إنَّ لساني سَبُعٌ، أتخوفُ إن تركتُه يأكلني»[3].

* ولعلَّ الشَّاعر أخذَ هذا المعنى من سيّدنا حذيفة فقال:

احفـظ لسـانَـك أيّهـا الإنسـان لا يلـدغـنَّ كـأنَّـه ثعبـانُ
كـم فـي المقابـرِ مـن قتيـلِ لسانـه كـانـت تهـابُ لقـاءَه الشُّجعـانُ

* وإذا تحدَّثَ سيدنا حذيفة عن القلوبِ فإنّه يبدعُ في ذلك، ويصفُها وصفاً دقيقاً لا يكادُ يخرج عن الواقعِ، من ذلك قوله «القلوبُ أربعةٌ:

قلبٌ أغلف فذلك قلبُ الكافر.

قلبٌ مصفّحٌ فذلك قلبُ المنافق.

قلبٌ أجردُ فيه سراجٌ يزهرُ فذاك قلبُ المؤمن.

وقلبٌ فيه نفاق وإيمان؛ فمثل الإيمانِ كمَثَل شجرة يمدُّها ماءٌ طيّب ومثل النّفاق مثل القُرحة يمدّها قيحٌ ودمٌ، فأيّهما ما غلب عليه غلب»[4].

* وعن أوّل علْم يُفْقَدُ من حياةِ الأمةِ يقولُ حذيفة: «أوّلُ ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخرُ ما تفقدون من دينكم الصَّلاة»[5].

---

(١) المصدر السابق (٦/ ٢٦٠).
(٢) المصدر السابق (٦/ ٢٦٠).
(٣) المصدر السابق (٦/ ٢٦٠).
(٤) حلية الأولياء (١/ ٢٧٦).
(٥) المصدر السابق (١/ ٢٨١).

* ولزومُ الجماعةِ له مكانةٌ أثيرةٌ عند حذيفة ، فهي لبُّ الإسلام وقوته ، يقول: «واللهِ ما فارقَ الجماعةَ رجلٌ شبراً إلا فارق الإسلام»[1].

* ولحذيفة حكمٌ وأقوال كثيرةٌ منثورةٌ في المصادر التي ترجَمَتْ له.

وفاتُـهُ وأقوالُه عند الموت:

* عاشَ سيدنا حذيفةُ بنُ اليمان رضي الله عنه حياةً طويلةً حافلةً بالعلمِ والتّعليم، والعَطَاء والخيرِ العميم.

* ولكلِّ بداية نهايةٌ ، فقد كانت بدايةُ النّهايةِ في مفتتح خلافة سيّدنا عليّ رضي الله عنه ، إذ بدأَ الوهنُ يدبُّ في جسْمِ حذيفةَ ، وأخذَ أصحابُه يُعودُونه ، ويسمعُوا منه الحكْمَةَ والموعظةَ ، فقد روىٰ النَّزّالُ بنُ سبرة ، قال: قلتُ لأبي مسعود الأنصاري: ماذا قال حذيفةُ عند موته؟

قال: لما كان عند السَّحر ، قال: «أعوذُ باللهِ من صباحٍ إلى النَّار» ـ ثلاثاً ـ ثم قال: «اشتروا لي ثوبيّن أبيضَيْن ، فإنّهما لن يُتْركا عَليَّ إلا قليلاً حتّى أبدَلَ بهما خيراً منهما ، أو أسلبهما سَلْباً قبيحاً»[2].

* وجاء عن الحسنِ البصريّ رحمه الله قال: لمَّا حضرَ حذيفةَ الموتُ قال: «حبيبٌ جاءَ على فاقةٍ ، لا أَفْلَحَ مَنْ ندم ، أليس بعدي ما أعلم! الحمدُ لله الذي سبقَ بي الفتنة قادتها وعلوجها».

* ولمَّا قربت منيَّةُ حذيفةَ أمرَ أصحابه أنْ يشتروا له كفناً ، فجاؤوا بحلّةٍ ثمنها ثلاث مئة ، فقال: «لا ، اشتروا لي ثوبيّن أبيضين». قال أبو مسعود الأنصاريّ: لمَّا أُتي حذيفة بكفنِهِ وكان مسنداً إليَّ ، وكان كفناً جديداً فقال: «ما تصنعون بهذا؟ إن كان صاحبكم صالحاً ليبدلنّ اللهُ تعالى به ، وإن كان غير ذلك ليترامنَّ به رجواها إلى يوم القيامة»[3].

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٨٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦٨) ، وحلية الأولياء (١/ ٢٨٢).

(٣) عن سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦٩) ، والحلية (١/ ٢٨٢) مع الجمع والتصرف اليسير.

* وقال ليثُ بنُ أبي سليم: «لمَّا نزلَ بحذيفةَ الموتُ جزع جزعاً شديداً، وبكى بكاءً كثيراً، فقيل: ما يبكيك؟

فقال: ما أبكي أَسَفاً على الدّنيا، بل الموت أحب إليّ، ولكنّي لا أدري علام أقدم، على رضىً أمْ على سخط؟»[1].

* وقيل: لمَّا حضره الموت قال: «هذه آخرُ ساعة من الدنيا، اللهم إنّك تعلمُ أنّي أحبّك، فباركْ لي في لقائك ثم مات»[2].

* هذه بعضُ الأقوالِ والآثارِ التي حُفِظَتْ عن سيدنا حذيفةَ بنِ اليمان رضي الله عنه وهو في آخر ساعات حياته المباركة المليئة بالعلْمِ والعملِ. وتذكرُ المصادر أنَّه عاشَ بعد قَتْلِ سيدنا عثمان أربعين يوماً، وقال الذَّهبي: «مات حذيفةُ بالمدائنِ سنة ست وثلاثين، وقد شَاخَ»[3].

* وقال النَّوويُّ رحمه الله في «تهذيبه»: «توفي حذيفةُ بالمدائن سنة ست وثلاثين بعد قَتْلِ عثمانَ بنِ عفان رضي الله عنهما بأربعين ليلة، وقُتِلَ عثمانُ يومَ الجمعةِ لثماني عشرة خلون من ذي الحجة سنة خمسٍ وثلاثين، ولم يدركْ حذيفةُ وقْعَةَ الجَملِ لأنَّها كانت في جمادى الأولى سنة ستٍّ وثلاثين»[4].

* قال ابنُ سعد: «مات حذيفة بالمدائن بعد عثمان، وله عقب»[5].

* ومن الجديرِ بالذكر أنَّ قَبْرَ حذيفة اليوم موجودٌ بالقرب من قبر سيّدنا سَلْمان الفارسيّ بالمدائن. والسَّبب في ذلك أنَّه في عهدِ الملكِ فيصل بن الحُسَين بن عليّ الحَسَني الهاشميّ (١٨٨٣ ـ ١٩٣٣ م) ملك العراق، نُقِلَ

---

(١) أسد الغابة (١/ ٤٦٩) ترجمة رقم (١١١٣).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المعرفة والتاريخ (٣/ ٣١١)، وتاريخ بغداد (١/ ١٦٣)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦٦) وغيرها كثير.
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥٤ و١٥٥).
(٥) طبقات ابن سعد (٧/ ٣١٧).

جثمانُ حذيفةَ ودُفِنَ بالقربِ من قَبْرِ سيّدنا سَلْمان الفارسي بالمدائنِ ، وذلك لمّا صار الجرفُ الشَّرقيُ من نَهرِ دجلة يتآكلُ حتّى وصلَ الهدمُ والتّآكلُ إلى قَبْر سيّدنا حذيفةَ وكاد يُتلفُهُ ، وعندها فزعتْ دائرةُ الأوقافِ لهذا الأمْرِ ، واهتمت به اهتماماً بالغاً ، وحضرَ عددٌ غفيرٌ من العُلماءِ والفُقَهاء والأعيانِ ، وحفروا علىٰ جثمانه ، ثمّ استُخْرجَ وشُيّعَ بتشييع عظيم من ضفّةِ النّهر حتّى موضع مرقدِه اليوم ، وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً حفظ اللهُ به أحد الصَّحابةِ العُلماء الذين عملوا على مرضاتهِ سرّاً وعلانيةً ، وعاشَ ليعطّرَ الدُّنيا بالإخلاصِ ونَشْرِ العلْم والجهادِ وإحباطِ كيدِ المنافقين والخائنين ، وردّ كيدهم في نحورهم.

* رضي الله عن حذيفةَ بنِ اليمان ، وأسكنه فسيح الجنَان ، وعفا عنّا ووهبنا لهؤلاء الكرام الأعيان ، وأدخلنا برحمته جنان الرّضوان ، إنّه رحيم رحمن.

* * *




البراء بن عازب

* صحابي ابن صحابي شهد المغازي النّبوية بعد أحد.
* كان وصّافاً للنّبيّ ﷺ ولشمائله الشّريفة.
* روى (٣٠٥) أحاديث وكان من علماء الصحابة الفقهاء.
* اشتهر بالجهاد والعلم والأدب، وفتح بلاداً كثيرة.
* نزل بالكوفة وتوفي سنة (٧٢ هـ) وعمره بضع وثمانون سنة.






البَرَاءُ بنُ عَازب

من العُلَماء الشَّباب:

* أَلْقَتْ نسائمُ الهدايةِ إلى أُذنِهِ روحَ الدَّعْوةِ إلى اللهِ عزَّ وجلّ ، فأَسْلم مع أبيه دون وَجَلٍ ، وصدَّقَ القول بالعملِ ، وغدا من الصَّحابة العلماءِ ، ومن المجاهدين الكُرماء ، ومن الفاتحين العُظماء.

* هذا الصَّحابيُ الشَّاب هو البراءُ بنُ عازب بن الحارث الفقيهُ الكبيرُ ، أبو عُمارة الأنصاريّ الأَوسيّ ، الحارثيُّ المدنيُّ ، نزيلُ الكوفةِ من أعيانِ الصَّحابة وعلمائِهم[1].

* كان البراءُ بن أختِ الصَّحابيّ الجليل أبي بردةَ بنِ نيار ، واسم أبي بُردة: هانىء بن نيار بن عمرو من قُضَاعة ، شهدَ العقبةَ الثَّانية مع السَّبعين من الأنصار ، وشهد بدراً ، وأحداً ، والمشاهد كلَّها مع رسولِ الله ﷺ[2] ، غلَبَتْ عليه كنيتُه ، وهو خالُ البراء بن عازب رضي الله عنهم أجمعين[3].

---

(١) الاستبصار (ص ٢٤٩) ، والمعارف (ص ٣٦٦) ، والمحبّر (ص ٢٩٨ و٤١٢) ، ومشاهير علماء الأمصار (ص ٧٦) ترجمة رقم (٢٧٢) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٣٢) ، وسير أعلام النبّلاء (٣/ ١٩٤ ـ ١٩٦) ، والإصابة (١/ ١٤٦) ، والاستيعاب (١/ ١٤٣ ـ ١٤٥) ، وأسد الغابة (١/ ٢٠٥ و٢٠٦) ، ترجمة رقم (٣٨٩) ، والمعجم الكبير (٢/ ٢٣ ـ ٢٦) ترجمة رقم (١٠٠) ، وتاريخ بغداد (١/ ١٧٧) ، وغيرها كثير مما لا يستقصى.

(٢) انظر المعارف (ص ٣٢٦) ، وأسد الغابة (٥/ ٣٠ و٣١) ، ترجمة رقم (٥٧١٧) مع الجمع والتصرف.

(٣) أسد الغابة (٤/ ٦٠٦) ترجمة رقم (٥٣٣٢) ، وأنساب الأشراف (١/ ٢٤١).

* قال النَّوويُّ: «وأمُّه: حبيبةُ بنتُ أبي حبيبة، وقيل أمُّ خالد بنت ثابت، وأبوهُ عازب صحابي»[1].

* وقال ابنُ كثير: «البراءُ بن عازب.... صحابيٌ جليلٌ، وأبوهُ أيضاً صحابي....»[2].

* وقال الذَّهبيُّ: «وأبوهُ من قُدماء الأنصار»[3].

* وقال ابنُ حجر: «له ولأبيهِ صُحبةٌ»[4].

* وكان للبراءِ بنِ عازب ابنان، قد رُوِيَ عنهما الحديثُ؛ وهما: يزِيدُ بنُ البراء، وسُويدُ بنُ البراء؛ وكان سويدُ على عُمَان، فكان كخيرِ الأمراء[5].

* كما كان للبراء أخٌ صحابي هو عُبيد بنُ عازب الأنصاريّ وهو جدّ عديّ بنِ ثابت، ولعُبيد روايةٌ عن النَّبيّ ﷺ قال: أبو عمر بن عبد البرّ: «عُبيد بنُ عازب... رُويَ عنه في الوضوء والحيض، شَهِدَ عُبيد وأخوه البراء مع عليٍّ رضي الله عنه مشاهده كُلّها»[6].

البراءُ وأنفاسٌ من الشَّمائِلِ المُحَمّديةِ:

* قلنا: «عندما أشرقَتْ شمسُ الإسلامِ، وأرسلَتْ بأشعّتها المباركةِ إلى بيوتاتِ المدينةِ المنوّرةِ، كان بيتُ عازب والد البراء من أوّلِ البيوتِ التي دخلَتْها أنوارُهُ، ومن ثَمَّ أضاءتْ قَلْبَ الفتى النَّاشيء البراء، فأصبحَ من سادةِ

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٣٢) نقلاً عن طبقات ابن سعد (٤/ ٣٦٤ و٣٦٥).
(٢) البداية والنهاية (٨/٣٢٨).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٥).
(٤) الإصابة (١/ ١٤٧).
(٥) المعارف (ص ٣٦٦)، وقال ابن سعد: «وَلَدُ البراء، يزيد، وعبيد، ويونس، وعازب، ويحيى، وأم عبد الله».
(٦) الاستيعاب (٢/ ٤٣٠ و٤٣١)، وقال ابن سعد: «عبيد بن عازب أخو البراء لأمه» (طبقات ابن سعد ٤/ ٣٦٩).

الصَّحابة العلماء ، ومن المشَاهير الذين قارعُوا بعلْمِهم وشهرتهم الجوزاء».

* وكان البراءُ يومَ الهجرة النّبويّة يزيدُ قليلاً عن عمر عشر سنوات ، وكان لا يزال غضَّ الإهاب ، طريَ العُود ، ولكنَّه كان ذكي الفؤاد ، نبيهاً ، أديباً ، أريباً ، أقْبلَ على العلْمِ في رغبةٍ شديدةٍ ، وحفظ سُوَراً من القُرآنِ العظيمِ ، منها سورةُ الأعلى ، وسورٌ أخرى مثلها من القُرآن العظيم.

* جاء في الصَّحيحِ وغيره عن البراءِ بنِ عازب رضي الله عنه قال: «أوَّلُ مَنْ قدمَ علينا من أصحابِ رسول الله ﷺ مصعبُ بن عمير ، وابنُ أمِّ مكتوم: فجعَلا يُقرِئان النَّاسَ القُرآن ، ثم جاء عمَّار وبلال وسَعْد؛ ثمَّ جاء عمرُ بنُ الخطَّاب في عشرين ، ثمَّ جاء رسولُ الله ﷺ ، فما رأيت أهْلَ المدينة فرحوا بشيءٍ قطّ ، فرحَهُم به ، حتّى رأيتُ الولائدَ والصِّبيانَ يقولون: هذا رسولُ اللهِ ﷺ قد جَاءَ ، فما قدمَ حتّى قرأتُ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] في سُورٍ من المُفَصَّل»(١).

* ومن نفحاتِ السِّيرة النّبويّةِ العطرة وأنسامِها اللطيفةِ نجدُ صُوراً جميلةً عند سيدنا البراءِ بنِ عازب الذي روى جانباً من صُورِ الهجرة المباركة ، وذكر قصّةَ سُراقةَ بن مالك ، وكيف ساخَتْ قوائمُ فرسِهِ ، فقال: «لما أقبلَ رسولُ الله ﷺ من مكّةَ إلى المدينةِ ، تبعَهُ سُراقةُ بنُ مالك بن جعْشُم فدعَا عليه رسولُ الله ﷺ ، فساخَت به فرسُهُ ، فقال: ادعُ اللهَ لي ولا أضرُّكَ ، فدعَا اللهَ له، فعطشَ رسولُ الله ﷺ فمروا براعي غنم ، فقال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٦/ ٤٠٧ و٤٠٨) برقم (١٨٥٣٧) واللفظ له؛ وأخرجه البخاري في مناقب الأنصار برقم (٣٩٢٥) ، وفي التفسير برقم (٤٩٤١) ، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥٠٥) ، والبلاذري في أنساب الأشراف (١/ ٢٥٧ و٢٥٨) ، وقوله: «ابن أم مكتوم»: هو عمرو بن أم مكتوم العامري ، و«عمار»: هو عمار بن ياسر ، و«بلال»: بلال بن رباح المؤذّن ، و«سعد»: هو سعد بن أبي وقاص ، و«في سور من المفصل»: أي مع سور ، وانظر: زاد المعاد (٣/ ٦١).

تعالى عنه: فأخذتُ قَدَحاً، فحلبتُ فيه لرسولِ الله ﷺ كثبةً من لبنٍ فأتيتُه به، فشرِبَ حتّى رضيْتُ»[١].

* ولهذا الحديثِ الشَّريفِ قصَّةٌ طويلةٌ جاءت في كتُبِ السِّيرةِ النَّبويّة[٢] وفي ترجمةِ سراقةَ بن مالك بن جُعْشُم الكنانيّ المُدلجيّ الصَّحابي[٣] رضي الله عنه.

* وكان سيّدنا البراءُ بنُ عازب رضي الله عنه أحدَ عُلماء الصَّحابةِ الذين اهتمّوا بالشَّمائلِ المحمّديّةِ، وهاهو ذا يتحدَّثُ بأسلوبهِ الأدبيّ المُشْرِقِ عن صفَةِ النَّبي ﷺ، وأنَّه كان أحسن النَّاس وجهاً وشكلاً وخَلْقاً.

* جاء في الصَّحيح وغيره بسَنَدٍ عن البراء بنِ عازب رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله ﷺ رَجُلاً مربوعاً بعيدَ ما بين المنكبين، عظيمَ الجُمّة إلى شحمةِ أذنيه، عليه حلّةٌ حمراء، ما رأيتُ شيئاً قطّ أحسن منه ﷺ»[٤].

* وينقلُ لنا سيدنا البراءُ مشْهداً من الذّكْرِ عند النّوم ممّا كان يدعو به

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٤٠٠)، حديث رقم (١٨٤٩٨)؛ وانظر: طبقات ابن سعد (٤/ ٣٦٦).

(٢) انظر مثلاً: السيرة النبوية لأحمد زيني دُحلان (١/ ٣١٨ ـ ٣٢٠)؛ وحياة الصحابة (٣٤٠ و٣٤١) وغيرهما.

(٣) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٩ و٢١٠).

(٤) أخرجه مسلم في الفضائل برقم (٢٣٣٧)، وهو في البخاري برقم (٣٥٥١)، والترمذي في الشمائل برقم (٣ و٤ و٢٥ و٦٣)، والبيهقي في الدلائل (١/ ٢٢٢)، والبلاذري في أنساب الأشراف (١/ ٣٩٢) و(١/ ٣٩٥)، وغيرها كثير، وقوله: «بعيد ما بين المنكبين»: أي عريض أعلى الظهر، و«المنكِب»: مجتمع رأس العضد والكتف و«عظيم الجمة»: الجمّة أكثر من الوفرة، فالجمَّة الشَّعر الذي نزل إلى المنكبين، والوفرة: ما نزل إلى شحمة الأذنين، واللمّة: التي ألمت بالمنكبين. و«شحمة الأذن»: اللَّيِّنُ منها في أسفلها، وهو معلق القرط منها، و«حلة حمراء»: الحلّة: عبارة عن إزار ورداء معاً، ولا تكون الحلة إلا اسماً للثوبين معاً، والحلة الحمراء عبارة عن بُرْدَين يمانيين منسوجين بخطوط حُمر مع الأسود كسائر برود اليمن، وهي معروفة بهذا الاسم باعتبار ما فيها من الخطوط الحمر، وهذه معرفة شُهرة للبرود اليمانية.

رسولُ الله ﷺ إذا أخذَ مضجعه للنَّوم؛ يقول البراء: «كان رسولُ الله ﷺ إذا أخذَ مضجَعَه، وضعَ كفَّه اليُمنى تحتَ خدّه الأيمن، وقال: «ربِّ قِنِي عذابَكَ يومَ تَبْعَثُ عبادك»[1].

* وفي روايةٍ: «كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا أخَذَ مضجعَه قالت: «اللهمَّ إليك أسلمتُ نفسي، ووجهتُ وجهي، وإليك فوضتُ أمري، وإليك ألجأتُ ظَهْري، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأً ولا منجا منك إلا إليك، آمنتُ بكتابكَ الذي أنزلتَ، ونبيّكَ الذي أرسلتَ»، فإنْ ماتَ ماتَ على الفِطْرة[2].

* ومن الشَّمائِل المحمديةِ وآدابها يرسمُ البراءُ رضي الله عنه هذه الوقْفَةَ النّديّةَ لدعاءِ النَّبيّ ﷺ إذا خرجَ لسَفرٍ، أو رجعَ منه فيقول: «كان رسولُ الله ﷺ إذا خرجَ لِسَفَرٍ قال: «اللهمَّ بلاغاً يبلغُ خيراً، مغْفِرةً منك ورضواناً، بيدك الخيرُ إنَّكَ على كُلِّ شيءٍ قدير؛ اللهم أنتَ الصَّاحبُ في السَّفَر، والخليفةُ في الأهلِ، اللهم هوِّن علينا السَّفَر، واطْوِ لنا الأرض، اللهم أعوذُ بك من وعثاءِ السَّفَر وكآبةِ المنقلب»[3].

* ويصفُ سيّدنا البراءُ صلاةَ النَّبيّ ﷺ في غالبِها بأنَّه كان يركعُ بقدرِ قيامه، ويسجدُ بقدره، ويعتدلُ كذلك، وأنَّ صلاتَه ﷺ كانت معتدلةً.

* أخرجَ مسلمٌ في صحيحه بسندهِ عن البراءِ بن عازب رضي الله عنه قال: «رمقْتُ الصَّلاةَ مع محمَّدٍ ﷺ، فوجدتُ قيامَهُ فرَكْعَتَهُ، فاعتدالَه بَعْدَ ركوعه، فَسَجْدتَه، فجلْسَتَهُ، بين السَّجْدتَيْن، فسَجْدتَه، فَجَلْسَتَه ما بين التسليم والانصراف، قريباً من السَّوَاء»[4].

---

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم (٢٥٥)، وأحمد في المسند (٦/ ٤١٨) حديث رقم (١٨٥٧٨).

(٢) انظر: حياة الصحابة (٣/ ٣٥٦) نقلاً عن كنز العمال، وأخرجه أحمد (٦/ ٤٠٨) حديث رقم (١٨٥٤٠).

(٣) مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٠)؛ وقال الهيثمي: «رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير فطر بن خليفة وهو ثقة».

(٤) أخرجه مسلم في الصَّلاة برقم (٤٧١) واللفظ له، والبخاري برقم (٧٩٢ و٨٠١).

* وفي روايةٍ أخرى لمسلم عن البراء: «كانت صلاةُ رسولِ الله ﷺ وركوعه، وإذا رفع رأْسَه من الركوع، وسجودْ، وما بين السَّجدتين، قريباً من السّواء»[1].

روايتُه وحفْظُهُ لأحاديثِ المصطفى ﷺ:

* يُعَدُّ سيدنا البراءُ بنُ عازب رضي الله عنه أحدَ فقهاء الصَّحابة الكرام وأحدَ علمائِهم وحفَّاظِهم، فقد لزم المجالسَ النَّبويَّة يرتوي من ينبوعها العلميّ، وكان يصحبُ النَّبيَّ ﷺ في أسفارِهِ وغزواتِهِ، فأفادَ منه عِلماً غزيراً جعلَه عالماً من عُلماء الأنصار؛ الذين نَزْهُو بهم على مَرِّ الأعصار.

* رُوي للبراء عن النَّبيِّ ﷺ (٣٠٥ أحاديث) اتّفقَ البخاريُ ومسلم في الصَّحيحين على (٢٢ حديثاً) وانفردَ البخاريُّ بـ (١٥ حديثاً)، ومُسلم بـ (٦ أحاديث)[2].

* روى عن النَّبيّ ﷺ، كما روى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، وأبي أيّوب الأنصاريّ، وبلالٍ، وعن أبيه، وعن خالهِ أبي بردة بن نيار وغيرهم، من أكابرِ الصَّحابة رضي الله عنهم أجمعين[3].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٧١/ ١٩٤) وقوله: «رفعت الصلاة...»: فيه دليل على القراءة والتَّشَهُّد، وإطالة الطّمأنينة في الركوع والسّجود، وفي الاعتدالِ عن الركوعِ وعن السّجود، وقوله: «قريباً من السَّواء»: يدلُّ على أنَّ بعضها كان فيه طول يسير على بعض، وذلك في القيام، ولعلَّه أيضاً في التَّشهّد، قال النووي رحمه الله تعالى: «واعلم أن هذا الحديث محمول على بعض الأحوال، وإلا فقد ثبتت الأحاديث بتطويل القيام، وأنَّه ﷺ كان يقرأ في الصبح بالستين إلى المئة، وفي الظهر بـ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ وأنه قرأ في المغرب بالطور والمرسلات... وكل هذا يدل على أنه ﷺ كانت له أحوال في إطالة القيام؛ أحوال بحسب الأوقات» (المنهاج ص ٤٧٣ و٤٧٤) بتصرف.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٣٢)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٥).

(٣) تهذيب التهذيب (١/ ٤٢٥)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٥)، والإصابة (١/ ١٤٧)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٣٢) مع الجمع فيما بينها، وانظر: البداية والنهاية (٨/ ٣٢٨).

* حدَّثَ عنه من الصَّحابة: عبدُ الله بنُ يزيد الخطميّ ، وأبو جُحيفة ، وروى عنه من التَّابعين: عديُّ بنُ ثابت ، والشَّعبيُّ ، وسعدُ بنُ عُبيدة ، وأبو إسحاق السّبيعيّ ، وطائفةٌ سواهم[1].

* وأحاديثُ سيّدنا البراءِ بن عازب مبثوثةٌ في الصَّحيحَيْن وكتب السُّنن والمسانيد ، وتشملُ معظمَ أمورِ الدِّين من فرائضَ وتفسير ومغازي وجهادٍ وسيَرٍ ومناقبَ وأدبٍ ، ونكاحٍ ، ولباسٍ ، وعبادات كالصَّلاة ، والصَّوم والحج وغير ذلك كثير.

* ومن مرويات سيّدنا البراءِ بن عازب ما جاء في البخاري بسنده عنه قال: «أمرَنَا النَّبيُّ ﷺ بِسَبْع؛ ونهانا عن سبْعٍ: أمرنا بعيادةِ المريض ، واتّباعِ الجنازة ، وتشميتِ العاطس ، وإجابةِ الداعي ، وردّ السَّلام ، ونصْرِ المظلوم ، وإبرارِ المقسم ، ونهانا عن سَبْعٍ: عن خاتم الذّهب.

أو قال: ـحَلقة الذّهبـ وعن لبسِ الحرير والدّيباج ، والسّندسِ ، والمياثرِ»[2].

* وعن موتِ إبراهيم ابنِ النَّبي ﷺ من ماريةَ القبطيّة يروي البراء فيقول: لمَّا مات إبراهيم عليه السَّلام ، قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ له مرضعاً في الجنَّة»[3].

* ومن مروياتِهِ في المسند ، ما أخرجَهُ الإمامُ أحمد بسنده عن عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قال لا إله إلاّ الله وحده ، لا شريك له ، له الملكُ وله الحمدُ ، وهو على كلّ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٥) ، وتهذيب التهذيب (١/ ٤٢٥) ، وتاريخ بغداد (١/ ١٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب برقم (٦٢٢٢) وقوله «المياثر»: جمع مِيْثَرة: قيل: كانت من مراكب العجم من ديباج وحرير ، والنهي فيها هنا للزجر عن التشبّه بالأعاجم ، أو بالكفّار الذين يستخدمونها.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب برقم (٦١٩٥) ، وأحمد في المسند (٦/ ٤٠٦) ، حديث رقم (١٨٥٢٨) ، وانظر: دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٤٣٠) ، وزاد المعاد (١/ ٥١٤).

شيء قدير ، أو منح منحة ، أو هَدَى زقاقاً ، كان كَمن أعتقَ رقبةً»[1] .

* وفي حكم المَسْحِ على الخُفَّين ، أخرجَ الطَّبراني بسندٍ رفعه إلى أبي إسحاقَ عن البراءِ ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «للمسافر ثلاثة أيّام ولياليهنَّ ، وللمقيم يومٌ وليلة في المسحِ على الخفَّيْن»[2] .

* وروى أبو إسحاق حديثاً مباركاً عن البراءِ تعلَّمه من الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ فقال: «قال لي البراءُ بنُ عازب: ألا أعلمك دعاءً علمنيه رسولُ الله ﷺ»؟ قال: «إذا رأيتَ النَّاس قد تنافسُوا الذَّهبَ والفضَّة ، فادع بهذه الدَّعوات: اللهمَّ إنّي أسألُكَ الثَّباتَ في الأَمْرِ ، وأسألُكَ عزيمةَ الرُّشدِ ، وأسألُكَ شكْرَ نعمتك ، والصَّبْرَ على بلائك وحسنَ عبادتك ، والرِّضا بقضائك ، وأسألُكَ قلباً سليماً ، ولساناً صادقاً؛ وأسألُكَ من خيرِ ما تعلم ، وأعوذُ بك من شرّ ما تعلم ، واستغفركَ لما تعلم»[3] .

* وأودُّ أنْ أشيرَ هنا إلى ناحيةٍ مهمّةٍ جداً ، وهي توقيرُ الصَّحابةِ الكرام ـ ومنهم البراء ـ للنّبيّ ﷺ ، وكذلك إجلاله ، والتَّأدّب الشَّديد معه ، وهيبَتُه ، فقد وردَ عن سيِّدنا البراءِ بن عازب رضي الله عنه قال: «لقد كنتُ أريدُ أنْ أسألَ رسولَ الله ﷺ عن الأمرِ ، فأؤخِّرهُ سنتَيْن من هَيْبَتِهِ ، ولقد كنْتُ ألْقَاهُ كُلَّ يوم»[4] .

* وأودُّ أنْ أقول أيضاً: «إنَّ هيبةَ العُلماء كادت تتلاشى الآن من صدور المتعلّمين وأنصافِهم ، وأخصُّ مَنْ قرأ كتاباً أو كتابَيْن ، أو سمع محاضرة أو محاضرتين ، أو دَرْسَ شيخٍ أو دَرْسَيْن ، فَظَنَّ أنَّه جَمَع فأوعى ، وأنَّه غدا حافظَ العَصْر ، وعالمَ الدهْرِ ، ولبيبَ المِصْرِ ، وأنَّه أتى بما لمْ تستطعْهُ

(١) المسند (٦/ ٤١٢) حديث رقم (١٨٥٥٦).
(٢) المعجم الكبير (٢/ ٢٥) حديث رقم (١١٧٤).
(٣) المعجم الكبير (٢/ ٢٥) حديث رقم (١١٧٢).
(٤) انظر: حياة الصحابة (٢/ ٣٢٥) ، والفقيه والمتفقه لابن الجوزي (٢/ ١٩٦) مع الجمع بينهما.

الأوائل ، فأخذ يناقشُ هذا ، ويعلِّقُ على هذا ، وينتقدُ هذا؛ وأقسمُ بأنَّه لا يستطيعُ أنْ يقيمَ سطرَيْن دون أَنْ يلْحَنَ فيهما ، نسألُ اللهَ اللطفَ والتَّوفيقَ لِما فيه الخير ، ومعرفة قَدْر العُلَماء العاملين في كُلّ زمانٍ ومكان».

فهمُهُ لأحكام الكتاب:

* هُرِعَ علماءُ الصَّحابةِ الكرام إلى كتابِ اللهِ تعالى يبتغون الهدى فيه ، فهو حَبْلُ اللهِ المتين ، وهو نورُهُ المبين ، لا يشبعُ منه العلماءُ ، ولا يَمَلُّهُ الأتقياءُ ، فهو نورٌ للأولياء ، ونبراسٌ للأصفياء ، وشفيعٌ للقُراء ، فأكرِمْ بهؤلاء! ومنهم سيّدنا البراء!

* ولا ريبَ في أنَّ سيِّدنا البراءَ ، واحدٌ من عُلماء الأنصار الشَّباب الذين آتاهم اللهُ الحكمةَ والخيرَ العميمَ في فَهْمِ القُرآنِ وتفسيرِه ، والفِقْهِ فيه ، وقد استقى سيّدنا البراء معارفَه في التَّفْسير من النَّبيِّ ﷺ ، وكبار الصَّحابة العُلماء الذين روى عنهم ومنهم عالمُ الصَّحابةِ وبحرهم في التَّفسير سيّدنا عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه[1] ، وحشَرنا في معيتِهِ ، وعفا عنَّا بفضلِهِ ومنّه وكرمه.

* ونجدُ في تفسيرِ البراءِ للقُرآن عِلْماً جمّاً متنوّعاً ، نجدُ علمَهُ في أسبابِ النُّزول ، وفي الأحكام والفَضَائل ، والقراءات وغير ذلك من عُلوم القُرآن الكريم.

* فمن بدائع تفسيره للقُرآن وفهمِهِ لآياتِهِ ، تفسيره لكلمة السُّفَهاء بأنَّهم اليهودُ ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: ١٤٢] ، فقد قال البراء: «لمَّا قدمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ ، صلّى نحو بيتِ المقدس ستّةَ عشرَ شهراً ، أو سبعة عشَر ، وكان ﷺ يحبُّ أنْ يتوجَّه نحو الكعبة ، فقال السُّفهاءُ من النَّاس وهمُ اليهودُ:

---

(١) اقرأ سيرة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه في كتابنا «رجال أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» ففيه ما يسر الفؤاد بإذن الله.

ما ولاَّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها. . . .»[1].

* وكان فهمُ سيدنا البراء لمعاني القُرآن وكلماته يمثّلُ ذِرْوَةَ الدقّة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فقد فسَّر كلمة ﴿إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ بالصلاة، وكان دليلُهُ واضحاً جليّاً ضدّ ما أشاعه المرجفُون واليهودُ والمنافقون عندما حُوِّلَتِ القبلةُ فجاؤوا وقالوا: يا محمَّدُ، إنْ كانتِ القبلةُ الأولى حقّاً فأنتَ الآن على باطل، وإن كانت هذه حقّاً، فكنتَ في الأولى على ضلال، فوجَسَتْ نفوسُ بعض المؤمنين، وأشَفَقُوا على مَن ماتَ من قبل التَّحويل من صلاتهم السَّالفة، فنزلَتْ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ فقد قال البراءُ: «الإيمانُ هنا: الصَّلاة، وسمَّى الصلاة إيماناً لما كانت صادرة عن الإيمان والتّصديق في وقت بيت المقدس، وفي وقتِ التّحويل[2] وسمّيتِ الصَّلاةُ إيماناً لأنَّها من شُعَبِ الإيمانِ العظيمةِ، وقد أخبرَ الله عزَّ وجلَّ بأنَّه لا يضيع إيمانَ الذين ماتوا من قبل هذا الحدث.

* ومن دقيق فَهْمِ البراءِ للقرآن ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

حيث فسَّرَ الإنفاقَ هنا بالتّطوّع[3]، فقد كان بعضُ الأنصار يعلّقون أقناءَ التَّمرِ في حَبْلٍ في المسجد، فيأكلُ منه فقراء المسلمين، فعلَّق أحدهم حَشَفاً رديئاً، فرآهُ رسولُ الله ﷺ فقال: «بئس ما علَّقَ هذا» فنزلتِ الآيةُ تشيرُ إلى أنْ يتطوعوا بالجيّد المختار على النَّدب.

---

(١) انظر: تفسير البحر المحيط (١/ ٥٩٣) بشيء من التَّصرّف والاختصار، وقال ابن عطية: «السُّفهاءُ هم الخفافُ الأحلام والعقول، والسّفَهُ: الخفّةُ والهلهلةُ، وثوبٌ سفيه: غير متقن النّسج، والسَّفهُ يكون في جمادات وحيوانات والمراد بالسفهاء هنا الأحبار أو بعض اليهود أو المنافقون أو كفار قريش. . .» (تفسير ابن عطية ص ١٣٩) باختصار.

(٢) انظر: تفسير ابن عطية (ص ١٤١)، وتفسير البحر المحيط (١/ ٥٩٩) مع الجمع والتصرف.

(٣) انظر التفاسير الآتية مع الجمع بينها: تفسير ابن عطية (ص ٢٤٥)، وتفسير الرازي (٧/ ٥٤)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٠٨)، وفتح القدير (١/ ٢٨٩).

* وللبراء رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ...﴾ [النساء: ١٧٦]، حيث قال: «إنَّ هذه هي آخرُ آيةٍ أنزِلَتْ على النَّبيّ ﷺ»[١].

* بينما قال كثيرٌ من عُلماء الصَّحابة بأنَّها من أواخرِ ما نزل منَ القرآنِ العظيم، وقد ذكرنا سبب نزولها في سيرة سيِّدنا جابر بنِ عبد الله رضي الله عنه من هذه الموسوعةِ[٢].

* وممَّا رواهُ البراءُ رضي الله عنه في التَّفسير عن النَّبيِّ ﷺ تفسير قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ...﴾ [إبراهيم: ٢٧]؛ قال: «في الحياة الدنيا: هي وقْتُ سؤاله في القبر، وفي الآخرة: هو يوم القيامة عند العرض»[٣].

* وللبراء رضي الله عنه تفسيرٌ للمفردات القرآنيةِ بشكْلٍ موجز، ولكنّه غزيرُ المعنى، من ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]، فقال: «هو عذابُ القبر»[٤].

* ولسيدنا البراء رضي الله عنه إلمامٌ ودرايةٌ في عِلْمِ القِراءات، وقد جاء كثيرٌ من ذلك في كُتُب التَّفسيرِ والقراءاتِ وعلوم القرآن ومنها أنه قرأ قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ [مريم: ٢٤] فقرأ: ﴿مِن﴾ بِكَسْر الميم على أنّها لابتداء الغاية، بينما قرأ آخرون ﴿مَنْ﴾ بفتح الميم بمعنى الذي[٥].

* وله كذلك في قوله تعالى: ﴿تُسَاقِطْ﴾ [مريم: ٢٥] قراءة إذ قرأها

---

(١) تفسير ابن عطية (ص ٥٠٤)، وتفسير البحر المحيط (٣/ ٤٢٢)، وانظر صحيح البخاري برقم (٦٧٤٤).
(٢) اقرأ سيرة سيدنا جابر بن عبد الله الأنصاري الصحابي ابن الصحابي في الباب الثاني من هذه الموسوعة المباركة تجد خيراً إن شاء الله.
(٣) تفسير البحر المحيط (٥/ ٤١٢)، وانظر كذلك: تفسير ابن عطية (ص ١٠٥٥) وغير ذلك كثير.
(٤) تفسير ابن عطية (ص ١٧٧٦)، وتفسير البحر المحيط (٨/ ١٥٠).
(٥) تفسير ابن عطية (ص ١٢٢٤)، وتفسير البحر المحيط (٦/ ١٧٣) مع الجمع بينهما.

﴿يُساقط﴾ بالياء[1]، ولهذه الكلمة قراءات متعددة وكلّها معتمدةٌ واردةٌ صحيحةٌ متواترةٌ.

* وفي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤].

فقد قرأ سيدنا البراء كلمة ﴿خُشْبٌ﴾ بإسكان الشَّين[2].

قال ابن عطية: «﴿خُشْبٌ﴾ بضم الخاء وسكون الشِّين، وهي قراءةُ البراء بن عازب رضي الله عنه، واختيار أبي عبيد»[3].

* وللبراء تفسيرٌ لكلمةِ ﴿سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] حيث قال: «سريّاً: نهر صغيرٌ بالسِّريانية» وقد رواهُ البخاري تعليقاً[4]، وذكر ابنُ حجر نقلاً عن ابنِ مردويه أنَّ البراءَ لم يَقُلْ سريّاً نَهْرٌ بالسّريانية وإنَّما قال: «السَّريُّ: الجدولُ وهو النَّهر الصَّغير»[5].

* ولسيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه كثيرٌ من الأقوالِ في التَّفسير في كثيرٍ من الأبواب، والأحكام ومنها في الفرائض[6]، والأيْمان والنُّذور[7]، والمغازي[8]، والصَّوم[9]، والقدر[10]، والبراء[11]، والجهاد

---

(١) تفسير ابن عطية (ص ١٢٢٥)، وتفسير البحر المحيط (٦/ ١٧٥).

(٢) تفسير البحر المحيط (٨/ ٢٦٨).

(٣) تفسير ابن عطية (ص ١٨٥٩)، واقرأ شيئاً عن علم القراءات في سيرة فَضَالة بن عبيد في الباب الرابع من هذا الكتاب.

(٤) فتح الباري (٦/ ٥٤٩) كتاب أحاديث الأنبياء (٤٨) باب (واذكر في الكتاب مريم).

(٥) فتح الباري (٦/ ٥٤٧)، قال ابن عطية: «السَّريّ من الرّجال: العظيم الخصال السّيد، والسّريّ أيضاً الجدول من الماء» (تفسير ابن عطية ص ١٢٢٤).

(٦) انظر صحيح البخاري برقم (٤٦٥٤ و٦٧٤٤).

(٧) البخاري برقم (٦٦٥٤).

(٨) البخاري برقم (٤٣١٥)، ورقم (٤٠٦٧).

(٩) البخاري برقم (١٩١٥).

(١٠) البخاري برقم (٦٦٢٠).

(١١) البخاري برقم (١٨٠٣).

والسِّير[1] ، والعُمرة[2] ، والتّوحيد[3] ، وهذه قد وردت في صحيح البُخاري وحدَهُ ، وهناك أبوابٌ وأحكامٌ كثيرةٌ في صحيح مسلم في مختَلَفِ الأبواب ، وكذلك في المُسند[4] وكتب السُّنن ، ولكنَّنا لَا نستطيعُ أنْ نذكرها جميعَها ، فإنَّ ذلك يحتاجُ إلى عشَرات الصَّفحات ، بيد أننا ذكرنا ما يوضّحُ لنا شخصيّةَ البراءِ العلميّة والفقهيّة في أبواب تفسيرِ القرآنِ العظيم وفهمِه؛ وتلاوته بصوتٍ جميل[5] .

المجاهدُ الأديبُ:

* البراءُ بنُ عازب الأنصاريُّ رضي الله عنه واحدٌ من فرسانِ المدرسةِ النَّبويّة ، وأحدُ المجاهدين الأبرار العُلماء الذين خاضوا المغازي وشروا وباعوا ، وكان لهم نصيبٌ موفورٌ في تاريخِ الانتصاراتِ والفتوحاتِ في طولِ البلاد وعرضها ، ولهم آثارٌ حِسَانٌ في عَهْد النُّبوَةِ فالخلفاءِ الرّاشدين ، فخلفاءِ الأمويين إلى أنْ وافَته المنيّةُ .

* ومنذ أنْ أسلمَ سيدنا البراءُ أحبَّ الفروسيَّةَ والجهادَ ، ولما كان يوم بَدْرٍ كان في عمر الزَّهْرِ ، فاستصغرهُ رسولُ الله ﷺ[6] ، وردَّه كذلك يوم أحد[7] مع ثلةٍ من أترابه ، وأجازَه يوم الخندق[8] .

---

(1) البخاري برقم (٢٨٣١) وكذلك في التفسير برقم (٤٥٩٣ و٤٥٩٤) وفضائل القرآن برقم (٤٩٩٠).

(2) البخاري أيضاً (١٨٠٣).

(3) البخاري برقم (٧٤٨٨).

(4) انظر المسند مثلاً في: (٦/ ٤٠١) برقم (٨٥٠٤) و(٦/ ٤٠٢) برقم (١٨٥٠٨) ورقم (١٨٥١١) و(٦/ ٤١٠ و٤١١) برقم (١٨٥٥٠) و(٦/ ٤١١ و٤١٢) برقم (١٨٥٥٤) و(٦/ ٤٢٩) برقم (١٨٦٣٤). . .

(5) أخرجه الإمام أحمد بسنده عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «زيّنوا القرآن بأصواتكم» ، المسند (٦/ ٤٠٤) برقم (١٨٥٢٠) ، وانظر كذلك الرقم (١٨٥٤١).

(6) أنساب الأشراف (١/ ٢٨٨)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٧)، والمعجم الكبير (٢/ ٢٣).

(7) أنساب الأشراف (١/ ٣١٦) ، والسيرة النبوية لمحمد أبو شهبة (٢/ ١٩٠) ، وزاد المعاد (٣/ ١٩٥).

(8) أنساب الأشراف (١/ ٣٤٢).

* قال الذَّهبي رحمه الله: «شهدَ البراءُ غزواتٍ كثيرةً مع النَّبيِّ ﷺ، واستُصْغِر يومٍ بدر، وقال: كنتُ أنا وابن عمر لِدَة»[1] وفي البخاري عن أبي إسحاق أنَّه سمعَ البراءَ يقول: «استصغرتُ أنا وابن عمر يوم بدر»[2].

* وجاء عنه قال: «غزوتُ مع النَّبيِّ ﷺ خمسَ عشْرَةَ غزوة»[3] وعنه قال: «سافرتُ مع رسول الله ﷺ ثمانية عشَر سَفَراً»[4].

* ومن خلال هذه المغازي النَّبويَّة تعلَّم سيدنا البراءُ بنُ عازب فنونَ الفروسيّة، واستقى الشَّجاعَة من الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ وخصوصاً إذا حميَ البأسُ واشتدتِ المعركةُ؛ وعندها يكون الشُّجاعُ هو الذي يحاذيه ﷺ.

* ويبدو أنَّ غزاةَ الخندقِ هي أوَّلُ مشاهدِ سيّدنا البراءِ بن عازب رضي الله عنه[5]، ثم شهدَ المشَاهد بعدها في المعيَّة النَّبويَّة.

* كان سيدنا البراءُ يتذوّقُ أدبَ الجهادِ، وشِعْر الحربِ، ويحفظُ كثيراً من أَدَبيّاته في المغازي النَّبويّة، ويرويه كما سمعَهُ، وهذا النَّوع من الأدب الجهاديّ، يبعثُ النَّشَاط في النُّفوس، ويعزِّزُها بشتّى ألوانِ الشَّجاعة، ويجعلها تعشقُ حبَّ الجهاد في سبيل الله عزَّ وجل، وتحبُّ البطولةَ والشَّهامة، والمروءة والمجد.

* ومن الأشياء التي تزيدُ في رصيدِ أدب الجهادِ عند سيدنا البراء أنَّه عاينَ ما كانت تبثُّه صدورُ الصَّحابةِ الشُّعراء من رجَزٍ أو شعْرٍ يترنّمون به عندما يكونون في غمراتِ الجهاد، أو في العملِ من أجل إعلاء كلمة الله عزَّ وجلَّ.

* جاء في الصَّحيحِ وغيرهِ عن البراءِ رضي الله عنه قال: «رأيتُ

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٥)، وطبقات ابن سعد (٤/ ٣٦٧).
(٢) أخرجه البخاري في المغازي برقم (٣٩٥٥).
(٣) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٦٨)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٥) نقلاً عن البخاري برقم (٤٤٧٢).
(٤) الإصابة (١/ ١٤٧).
(٥) المغازي (٢/ ٤٥٣).

رسولَ الله ﷺ يومَ الخندقِ وهو ينقلُ التُّراب حتَّى وارى التّرابُ شَعْر صَدرِه ، وهو يرتجزُ برجزِ عبد اللهِ بن رواحةَ رضي الله عنه ويقولُ:

اللهــمّ لــولا أنــتَ مــا اهتــدَيْنـا ... ولا تَصَـــدَّقْنـــا ولا صَلَّيْنَـــا
فـــأَنْـــزِلَـــنْ سَكينـــةً علينـــا ... وثبّـــتِ الأَقْـــدَامَ إنْ لاقينـــا
إنَّ الأَوالـــي قـــد بَغَـــوا علينـــا ... إذا أرادُوا فتنـــــةً أَبَيْنَـــا

يرفعُ بها صوتَه: أَبَيْنا أَبَيْنا»[1].

* ومن أدبيّاتِ الجهاد ما اختزنَتْهُ ذاكرةُ البراء ، ورواه للأمة حتّى تعملَ بأحكامه ، من ذلك ما أخرجه مسلم ، وأحمد والبيهقي وغيرهم عنه قال: «سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ يوم حُنين:

«أَنَـــا النَّبـــيُّ لا كَـــذِبْ ... أنـــا ابـــنُ عَبْـــدِ المطَّلـــب»[2]

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٣٤ و٤١٠٤) ، وأحمد (٦/ ٤٠٣ و٤٠٨ و٤٢١ و٤٤٣) أحاديث رقم (١٨٥١٢ و١٨٥٣٨ و١٨٥٩٤ و١٨٧٠٦) مع الجمع والتّصرف اليسير ، وانظر: تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص ٢٩٨).
قال ابنُ حجر رحمه الله: «وجَرَتْ عادةُ العربِ باستعمال الرّجز في الحربِ ليزيدَ في النّشاط ، ويبعثَ الهممَ ، وفي الحديث: جواز تمثّل النّبيّ ﷺ بشعر غيره».
وقال أيضاً: «إنَّ كراهةَ رفع الصّوت في الحرب مختصّة بحالةِ القتال ، فقد كان أصحاب النبي ﷺ يكرهون الصوت عند القتال ، أما في العمل فجائز» (فتح الباري ٦/ ١٨٦) بتصرف.
أقول: «ورد أنَّ سيدنا البراء كان يحب الشعر الحماسي ، وكان يتغنى به ويترنم بمعانيه».

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٧٧٦) ، وأحمد (٦/ ٣٩٩) برقم (١٨٤٩٥) ، واللفظ له ، والبيهقي (١/ ١٧٧) وغيرهم كثير.
وقوله ﷺ: «أنا النّبيُّ لا كذب أنا ابنُ عبد المطلّب»: قال القاضي عياض رحمه الله: «قال المازري: أنكرَ بعضُ النّاس كون الرجزِ شعراً ، لوقوعه من النّبيّ ﷺ ، مع قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩] ، وهذا مذهب الأخفش ، واحتجَّ به على فسادِ مذهب الخليل بن أحمد الفراهيديّ في أنّه شِعْر ، وأجابوا عن هذا بأنَّ الشّعرَ هو ما قصد إليه ، واعتمد الإنسان أنْ يوقعه موزوناً مقفّى يقصده إلى القافيةِ ، ويقع في ألفاظِ العامة كثيرٌ من الألفاظ الموزونة ، ولا يقول أحدٌ بأنها شعر ، ولا صاحبها شاعر ، وهكذا الجوابُ عمّا في القرآن من الموزون كقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ=

* وأخرجَ مسلمٌ بسندِهِ عن أبي إسحاقَ ، قال: «جاءَ رجلٌ إلى البراءِ ، فقال: أكُنْتم ولَّيتُم يومَ حُنين يا أبا عُمَارة؟

فقال: أشهدُ على نبيِّ اللهِ ﷺ ما ولَّىٰ ، ولكنَّهُ انطلقَ أخفَّاءُ منَ النَّاسِ ، وحُسَّرٌ إلى هذا الحيّ من هوازنَ وهم قومٌ رُمَاةٌ ، فرموهم بِرِشْقٍ منْ نَبْلٍ ، كأنَّمَا رِجْلٌ من جَرَادٍ ، فانكشَفُوا ، فأقبلَ القومُ إلى رسول الله ﷺ ، وأبو سفيان بنُ الحارث يقودُ به بغْلَتَه، فنزلَ، ودَعَا ، واستنصرَ ، وهو يقولُ:

«أنــــا النَّبــــيُّ لا كـــــذِب أنـــا ابـــنُ عَبْـــدِ المطَّلـــب

اللهم ، نزِّلْ نَصْرَك».

= تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢]؛ وقوله تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ [الصّفّ: ١٣] ، ولاشك في أنَّ هذا لا يسميه أحدٌ من العرب شعراً ، لأن لم يقصد تقفيته وجَعْله شعراً ، قال: وقد غفل بعض النَّاس عن هذا القول فأوقعه ذلك في أنْ قال: الرواية «أنا النَّبي لا كذبَ» بفتح الباء حِرصاً منه على أنْ يفسد الروي ، فيستغني عن الاعتذار ، وإنما الرواية بإسكان الباء».

ونقل النّوويّ عن ابن القطاع قوله: «قد رأى قومٌ ـ منهم الأخفش وهو شيخُ هذه الصِّناعة بعد الخليل ـ أنَّ مشطورَ الرجزِ ومنهوكه ليس بِشِعْرٍ ، كقول النَّبيِّ ﷺ: «والله مولانا ولا مولى لكم» ، وقوله ﷺ: «هل أنتِ إلا أصبع دميتِ وفي سبيل الله ما لقيت» وقوله ﷺ: «أنا النَّبيُّ لا كَذِب أنا ابن عبد المطلب» ، وأشباه هذا ، قال ابنُ القطاع: وهذا الذي زعمه الأخفش وغيره غلط بيّن ، وذلك لأنَّ الشَّاعرَ إنَّما سمّي شاعراً لوجوه؛ منها: أنَّه شعر القول وقصده وأراده ، واهتدى إليه ، وأتى به كلاماً موزوناً على طريقة العرب مقفّى ، فإنْ خلا من هذه الأوصاف ، أو بعضها لم يكن شعراً ، ولا يكون قائله شاعراً ، بدليل أنَّه لو قال كلاماً موزوناً على طريقة العرب ، وقصد به الشعر ، أو أراده ولم يقفّه ، لم يُسمَ ذلك الكلام شعراً ، ولا يكون قائله شاعراً بإجماع العلماء والشعراء ، كذلك لو قفّاه وقصد به الشعر ، ولكن لم يأت به موزوناً لم يكن شعراً ، وكذا لو أتى به موزوناً مقفّى ، غير أنّهم ما قصدوه ولا أرادوه ، ولا يسمّى شعراً ، ويدل عليه أن كثيراً من النَّاس يأتون بكلام مقفّى ، غير أنهم ما قصدوه ولا أرادوه ، ولا يسمى شعراً ، وهكذا فالنبي ﷺ لم يقصد بكلامه ذلك الشعر ، ولا أراده ، فلا يُعد شعراً ، وإن كان موزوناً والله أعلم. (المنهاج ص ١٣٧٦).

قال البراءُ: كُنَّا والله، إذا احمرَّ البأسُ نتَّقي به، وإنَّ الشَّجاعَ منَّا الذي يُحَاذِي به، يعني النَّبيَّ ﷺ»[1].

* وللنَّوويِّ رحمه الله كلامٌ مفيدٌ ونافعٌ حَولَ قولهِ ﷺ: «أنا ابنُ عبد المطلب»، حيثُ يقولُ: «فإنْ قيلَ: كيف قال النَّبيُّ ﷺ: «أنا ابنُ عبد المطلب»، فانتسبَ إلى جَدِّه دون أبيه وافتخرَ بذلك، مع أنَّ الافتخارَ في حقِّ أكثر النَّاس من عَمَلِ الجاهليَّة»؟

فالجوابُ: «أنَّهُ ﷺ كانت شهرتُه بجدِّهِ أكثر؛ لأنَّ أباه عبدَ الله توفيَ شاباً في حياةِ أبيهِ عبد المطلب قبلَ اشتهارِ عبد الله، وكان عبدُ المطّلب مشهوراً شهرةً ظاهرةً شائعةً، وكان سيّد أهلِ مكَّة، وكان كثيرٌ من النَّاسِ يدعُون النَّبي ﷺ: ابن عبد المطلب، ينسبونَهُ إلى جدّهِ لشهرته، ومنه حديث همام بن ثعلبة؛ في قوله: «أيكم ابنُ عبد المطلب؟» وقد كان مشتهراً عندهم: أنَّ عبد المطلب بشَّر بالنَّبي ﷺ، وأنَّه سيظهرُ وسيكونُ شأنهُ عظيماً، وكان قد أخبره بذلك سيفُ بنُ ذي يَزَنَ، وقيل: إنَّ عبد المطلب رأى رؤيا تدلُّ على ظُهور النَّبيّ ﷺ، وكان ذلك مشهوراً عندهم، فأراد النَّبيُّ ﷺ تذكيرهم بذلك، وتنبيههم بأنَّه ﷺ لابدَّ من ظُهوره على الأعداء، وأنَّ العاقبةَ له، لتقوى نفوسَهم، وأعلمهم أيضاً بأنَّه ثابتٌ ملازمٌ للحرب،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٧٩/١٧٧٦)، وانظر: المغازي (٣/ ٩٠٢)؛ وقوله: «أخفّاء»: جمع خفيف، وهم المُسَارِعون المستعجلون، و«حُسَّر»: جمع حاسِر، أي خرجوا بغير دروع، ليس عليهم سلاح، والحاسر: مَنْ لا درع له، و«رِشْق»: اسم للسّهام التي ترميها الجماعة دفعة واحدة، وقوله: «أنا النبي لا كذب»: أي: أنا النَّبيُّ حقاً، فلا أفرّ ولا أزولُ، وفي هذا دليلٌ على جوازِ قول الإنسان في الحرب: أنا فلانٌ، وأنا ابنُ فلان، ومثله قول سلمة: «أنا ابنُ الأكوع»، وقول سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «أنا الذي سمتني أمي حيدرة» وأشباه ذلك؛ وقد صرّح بجوازه علماء السَّلف، وفيه حديث صحيح، قالوا: «وإنما يكره ذلك على وجه الافتخار كفعل الجاهلية». والله تعالى أعلم، وانظر: حياة الصحابة (٢/ ٦١٠).

لم يُوَلِّ مع مَنْ ولّى ، وعرَّفَهم موضعَه ليرجعَ إليه الرَّاجعون ، والله أعلمُ»[١] .

* وعلى الرّغم من أنَّ البراءَ لم يحضرْ غزوةَ بدرٍ إلا أنَّه روى لنا كيف أُسِرَ العبّاس عمّ النّبي ﷺ[٢] ، وروى كذلك أحداثاً عن غزوة أُحُدٍ ومنها تأميرُ عبد اللهِ بن جُبير على الرُّماة[٣] ، وكذلك روى لنا مقْتَل أبي رافع بن أبي الحقيق ، فقال: «بعثَ رسولُ الله ﷺ رهْطاً إلى أبي رافع ، فدخَلَ عليه عبدَ الله بنُ عتيك بيتَه ليلاً ، وهو نائمٌ فقتَلَه»[٤] ، وقبل هذا كله روى حديث الهجرة الشّائق عن سيدنا أبي بكر الصّدّيق عليه سحائب الرّضوان[٥] .

* على أنَّ البراءَ رضي الله عنه كان من المؤمنين الصَّادقين في بيعة الرِّضوان ، واندرجَ مع الذين قال الله عزَّ وجل فيهم: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح : ١٨] .

* وقد عدَّ سيدنا البراءُ أنَّ الفتحَ الحقيقيَّ هو يومُ الحديبية يوم بيعةِ الرِّضْوانِ؛ وفي هذا اليوم حدثَتْ بعضُ المعجزات النَّبويَّة ، والتّأييدات الإلهية ، جاء في الصَّحيح وغيرُهُ عن سيّدنا البراء رضي الله عنه قال: «تعدُّون الفَتْح فتح مكّة ، وقد كان فتحُ مكّةَ فتحاً ، ونحنُ نعدُّ الفَتْحَ بيعة الرّضوان يوم الحديبية؛ كنّا مع النَّبي ﷺ أربع عشرة مئةٍ؛ والحديبيةُ بئرٌ ، فنزحْنَاهَا فلمْ نتركْ فيها قطرةً ، فبلغَ ذلك النّبيّ ﷺ ، فأتاهَا ، فجلسَ على شفيرها ثمَّ دعا بإناءٍ من ماءٍ فتوضَّأ ثم مضمضَ ودعا ، ثم صَبَّه فيها ، فتركناها ، غيرَ بعيد ،

---

(١) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص ١٣٧٦ و١٣٧٧).
(٢) حياة الصحابة (٣/ ٥٣٣) ، واقرأ سيرة العباس مفصّلةً في موسوعتنا المباركة «رجال أهل البيت».
(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٢٤ و٢٧٦).
(٤) أخرجه البخاري برقم (٤٠٣٨) ، وانظر رقم (٤٠٣٩ و٤٠٤٠) ، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٤) ، وحياة الصَّحابة (١/ ٣٨٧) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص ٣٤٣ ـ ٣٤٥) ، وغيرها كثير.
(٥) حياة الصحابة (١/ ٣٤٠ ـ ٣٤٤).

ثم إنَّها أصدرتنا ما شئنا نحنُ وركابنا»[1] وفي رواية: «فأَرْوَوا أنفسهم وركابهم حتى ارتحلوا».

* وتابعَ سيدنا البراءُ رضي الله عنه مسيرتَه الجهاديّة في معيةِ النَّبيّ ﷺ، وخلال هذه المسيرة المباركة كان يشاركُ في الدَّعْوةِ إلى الإسلام، وقد وقعَ عليه اختيارُ الصَّادق المصدوقِ ﷺ ليذهبَ إلى اليمنِ مع خالد بن الوليد كي يدعوهم إلى الإسلام، يقول البراءُ: «فكنتُ فيمن خرجَ مع خالد بن الوليد، فأقَمْنَا ستّةَ أشهرٍ يدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، ثم إنَّ النَّبيَّ ﷺ بعثَ عليَّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، وأمرَهُ أنْ يأمرَ خالداً بالرُّجوع إلى المدينة، ومَنْ أحبَّ أنْ يكونَ مع عليّ فليفعلْ قال البراء: فكنتُ فيمن بقيَ مع عليٍّ، وقرأَ عليهم كتاب رسولِ الله ﷺ، فأسلمتْ هَمْدان جميعاً، فكتَبَ عليٌّ إلى النَّبيِّ ﷺ بإسلامهم، فخرَّ ﷺ ساجداً، ثمَّ رفع رأسه فقال: «السَّلامُ على هَمْدانَ، السَّلامُ على هَمْدانَ»[2]، وغنم البراءُ من اليمن أواقي ذات عدد.

* وبعد وفاةِ النَّبي ﷺ شرّقَ البراءُ في الفتوحات وسارَ مجاهِداً في العَهْدِ الرَّاشدي، وافتتح الرّي سنة (٢٤ هـ)، وشهدَ معركة تُسْتر مع أبي موسى الأشعريّ سنة (١٧ هـ)، وكان يومها على ميمنةِ الجيشِ الغازي[3].

* كما شارك سيّدنا البراءُ في فتحِ قزوين، وزنجان، والدَّيلم وكان هو القائدُ لفتح تلك البلاد، وكان جيشهُ يقتربُ من خمسة آلاف مقاتل.

* وقد تحرَّكَ البطلُ الفارسُ البراءُ بن عازب من الكوفةِ في خلافةِ سيدنا عمر عام (٢٢ هـ)، وسارَ في اتّجاه الدَّيلم، وعرضَ على أهل «أَبْهر»

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي برقم (٤١٥٠) واللفظ له، وانظر رقم (٤١٥١)، وانظر: تفسير البحر المحيط (٨/ ٩٠)، وزاد المعاد (٣/ ٢٨٨ و٢٩٧)، وحياة الصحابة (٣/ ١٨)، وكذلك (٣/ ٦١٩).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٦٢٣) بتصرف، وأصل الحديث في البخاري برقم (٤٣٤٩)، وانظر: حياة الصحابة (١/ ١٢١)، والبداية والنهاية (٥/ ١٠٤).

(٣) انظر: فن الحرب الإسلامي (١/ ٣٤٥) بتصرف، وانظر: الإصابة (١/ ١٤٦).

الإسلام ، ففضّلُوا الدُّخولَ في الإسلام ، فتركهم وتابعَ مسيرته حتَّى وَصَلَ «قزوين» وحاصَرَها ، ثمَّ عرضَ عليهم البراءُ الصُّلح ، فوافقوا وانضمُّوا إلى جيش المسلمين ، فانطلقَ البراءُ شمالاً حتّى وصلَ الدَّيلم ، فتقدَّم أهلُها ، وطلبوا الصُّلح ، وفضّلُوا الدُّخولَ في الإسلام ، وذهبتْ قواتُهم ومقاتلوهم إلى الكوفةِ ، وأصبحوا يُعرفون باسم «حمراء الدّيلم» ، أمَّا زنجان ، فإنَّها لم تستسلم فقاتل البراءُ أهلَها ، وضربَ حِصَاراً حولَها ، حتَّى أرغمَ أهلَها على الاستسلام وفرضَ عليهم الجزية ، فدفعوها وهم راغمون.

* وتابع سيِّدنا البراءُ فتوحاته الميمونة في هاتيك البلاد ، فصالَحه أهلُ «جيلان ، والببر ، والطَّيلسان» على أساس أنْ يدفعوا الجزية أسوة بزنجان.

* وكان سيّدنا البراءُ ميمونَ النَّقيبةِ ، في فتوحاتهِ ، فارساً مغواراً ، كتبَ اللهُ عزَّ وجلَّ على يديهِ الفَتْح ، وألقىٰ في قلوب المشركين الرُّعب ، وكان له هيبةٌ في نفوسِ الدَّيلم ، وقد سجَّلَتْ أدبيَّاتُ المعاركِ الإسلاميّة ذلك ، فقال جنديٌ في جيش فَتْحِ قزوين وزنجان والدَّيلم :

قد عَلِمَ الدَّيلَمُ إذْ تُحارِب ... حينَ أتى في جيشِه ابنُ عازب

بأنّ ظنَّ المُشْركين كَاذِب ... فكَمْ قطعنَا في دجى الغَياهِب

من جَبَلٍ وَعْرٍ ومنْ سَبَاسِب[1]

* وتابعَ سيدنا البراءُ فتوحاته ، وشاركَ في موقعةِ «واج روذ» سنة (٢٢ هـ) ، واستطاع أنْ يمزّقَ قوات العدو ، وأنْ يحرزَ النَّصْر مع المسلمين الذين حاربوا في هذه المدينة التي تقعُ في الطَّريق ما بين همذان وقزوين[2].

* وذكر ابنُ عبد البرّ وابن حجر أنَّ البراءَ شَهِدَ مع سيدنا عليَّ رضي الله عنه الجملَ وصفّين وقتالَ الخوارج ، ونزلَ الكوفة وابتنى بها داراً[3].

---

(١) انظر: فن الحرب الإسلامي (١/ ٣٧٥ و٣٧٦) بشيء من التصرف.
(٢) المرجع السابق (١/ ٣٩١) بتصرف يسير.
(٣) الاستيعاب (١/ ١٤٥) ، والإصابة (١/ ١٤٧).

البَراءُ من العُلَماء الفُقَهاء:

* يصنَّفُ سيدنا البراءُ بنُ عازب رضي الله عنه من أجلَّةِ علماء الصَّحابةِ الفُقَهاء، آتاهُ الله عزَّ وجلَّ الحكمةَ، وحبَاهُ المعرفةَ، وكسَاه هيبةَ الفُقَهاء؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقد أفاد كثيرٌ من علماءِ أهْلِ التَّفسير بأنَّ الحكمةَ في هذهِ الآية الكريمة، هي الفقْهُ والعِلْم.

* ومن المعلومِ في سيرةِ البراء أنَّه عاشَ العَهْدَ النَّبويَّ وهو لا يزالُ في ميعةِ الصِّبا، وسنِّ الشَّباب، وكان حصيفاً مُقبلاً على الاستفادةِ من الحبيبِ المصطفى ﷺ، ثم منْ سادتنا الشُّرفاء، الأربعة الخلفاء، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين، وحشرنا في معيتهم، وعفا عنا بفضله.

* ومن خلال هذا كلِّه غدا البراءُ من أعلام الصَّحابةِ العلماءِ الفُقهاء الشَّبابِ، ومن المفيدِ النَّافع أنَّ نوردَ ما قاله الخطيبُ البغداديُّ عن التَّفقُّه في عُمْرِ الشَّبابِ وإقبال العُمر لما فيه من خيرٍ وفائدة للمتعلّمين وطلاب الفِقْه.

* قال الخطيبُ البغداديُّ رحمه الله: «التَّفَقُّهُ في زمن الشَّبيبةِ وإقبالُ العُمر، والتَّمكّنُ منه بِقِلَّةِ الأشغال، وكمالُ الذِّهْن، وراحةُ القريحة يرسخُ في القَلْب، ويثبتُ، ويتمكّن ويستحكمُ، فيحصل الانتفاع به والبركة، إذا صَحِبَه من الله حسن التوفيق، وإذا أهمل إلى حالة الكبر المغيِّرةِ للأخلاق، النَّاقصة للآلات؛ كان كما قال الشاعر:

إذا أنـتَ أعيـاكَ التَّعلُّـم نـاشئـاً فَمطْلَبُـهُ شيخـاً عَلَيْـكَ شَـديـد[1]».

فمن فقْهِ سيدّنا البراء في الصَّلاة أنَّه كان يرفعُ يديه ـ ممدودة الأصابع ـ قريباً من أذنيه[2] اقتداء بالنَّبيِّ ﷺ.

---

(١) الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي (٢/ ١٧٩ و١٨٠) حققه عادل يوسف الغرازي ـ دار ابن الجوزي ـ الرياض ـ ط ٢ ـ ١٤٢١ هـ.

(٢) انظر: زاد المعاد (١/ ٢٠٢).

* ومن فقهه في الصَّلاة أنَّه كان يضعُ كفَّيهِ على الأرض في السُّجود ، ويرفعُ مرفقَيْه عن الجنبين اتّباعاً للصَّادقِ المصدوقِ حبيبنا محمَّد ﷺ ، الذي روى البراء عنه أنَّه قال: «إذا سجَدْتَ ، فَضَعْ كفَّيكَ ، وارفعْ مرفقَيك»(١).

* قال الفقهاءُ: «إنَّه ينبغي للسَّاجد أنْ يضعَ كفَّيه على الأرض ويرفعَ مرفقَيْه عن الأرض ، وعن جنبيه رفعاً بليغاً بحيث يظهرُ باطنُ إبطيه إذا لم يكن مَسْتُوراً ، وهذا أدبٌ متَّفَقٌ على استحبابه ، فلو تركَه كان مسيئاً مرتكباً ، والنّهي هاهنا للتَّنزيه ، ولكنَّ صلاته صحيحةٌ ، والله أعلم»(٢).

* أقولُ: «وهذا الحكم خاص في حقِّ الرَّجل ، بَيْد أنَّ المرأةَ تخالفه في هذه الهيئة من الصَّلاة ، وتضمُّ بعض لَحْمِ اليدين إلى الأرض ، واللهُ أعلم».

* وكان سيّدنا البراءُ رضي الله عنه يسلِّمُ عن يمينه وعن يساره في الصَّلاة ، كما كان يفعلُ النَّبي ﷺ حيث يقول: «السّلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته»(٣) ، وهذا التّسليم كان فعله الرّاتب ﷺ ، وقد رواه عنه خمسة عشر صحابياً منهم ثلة من كبار علماء الصّحابة وفقهائهم من بينهم البراء(٤).

* وكما كان البراءُ يصنعُ في التَّسليم كان يهتمُّ أيضاً بتسوية صُدورِ المأمومين ومناكبهم ، مؤتسياً بالهدي النَّبوي(٥) ، وكان كذلك يهتمُّ اهتماماً

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٩٤) ، وانظر: البدر التمام (١/ ٥٧٥ و٥٧٦).

(٢) المنهاج (ص ٤٨٤) بتصرف يسير ، قال النّووي: «قال العلماء: والحكمةُ في هذا أنَّه أشْبَهُ بالتواضع ، وأبلغُ في تمكين الجبهةِ والأنفِ من الأرض ، وأبعدُ من هيئات الكسَالى ، فإنَّ المنبسط كشبه الكلب ، ويشعرُ حالَه بالتّهاونِ بالصَّلاة ، وقلّة الاعتناء بها ، والإقبال عليها ، والله أعلم» (المنهاج ص ٤٨٤).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٩٩٧) وإسناده صحيح.

(٤) الصحابة هم: «عبد الله بن مسعود ، وسعد بن أبي وقاص ، وسهل بن سعد الساعدي ، ووائل بن حُجر ، وأبو موسى الأشعري ، وحذيفة بن اليمان ، وعمّار بن ياسر ، وعبد الله بن عمر ، وجابر بن سَمُرة ، والبراء بن عازب ، وأبو مالك الأشعري ، وطلق بن علي ، وأوس بن أوس ، وأبو رمثة ، وعدي بن عميرة رضي الله عنهم أجمعين».

(٥) انظر: حياة الصحابة (٣/ ١٢٤).

كبيراً بالسُّنَّةِ ، فكان يصلّي قبل الظُّهر أربعاً[1] ، وكان سيّدنا البراءُ أحدَ علماء الصَّحابة الذين داومُوا على القُنوت[2]؛ وجاء عند الطَّبراني عن البراء: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان لا يصلّي صلاةً مكتوبةً إلاَّ قَنَتَ فيها»[3]؛ والقنوتُ هنا هو الدُّعاء ، ومعلوم أنَّه ﷺ لم يُصَلِّ صلاةً مكتوبةً إلا دعا فيها[4].

* وكان البراءُ رضي الله عنه من مجتهدي عُلماء الصَّحابة ، ولكنَّه كان يحتاطُ في الإجابةِ عن الفتوى ، ويُحيلُها على غيره رغبةً في صيانةِ العلْم ، وحبّاً في العِلْم والتَّعلُّم ، جاء عن أبي المنهال أنَّه سأل زيدَ بنَ أرقم والبراءَ بنَ عازب رضي الله عنهما عن الصَّرْفِ ـ مبادلة النُّقود ـ فجعل كُلَّما سأل أحدهما قال: سَلِ الآخر ، فإنَّه خيرٌ منِّي وأعلمُ منِّي[5].

معَ الأبرار:

* ظلَّ سيدنا البراءُ رضي الله عنه عالماً مُجاهداً مفسِّراً راوياً للحديثِ وناقلاً للعلْم إلى آخر يومٍ من حياته ، وكان قد اتّخذ الكوفةَ مقرّاً وسَكناً له ، حتى قيل عنه في كُتُب الحديثِ والتَّراجم: «نزيل الكوفة».

* وعاش في ظلال الخلافة الرَّاشدة مرعي الجانب ، وكذلك في خلافةِ سيّدنا معاويةَ ، وخلافة بني أميّة ، وامتدَّ به العمر حتى تجاوزَ الثَّمانين ، فهو من عُلماء الصَّحابةِ الأنصار المُعَمَّرين الذين كانوا في الكوفةِ بالعراق.

* قال الخطيبُ البغدادي في تاريخه: «البراءُ بن عازب . . . ويكنى أباعُمارة . . . غزا مع رسولِ الله ﷺ خمس عشرة غزوة ، ونزل الكوفةَ بعده ، وكان رسول عليٍّ بن أبي طالب إلى الخَوارج بالنَّهروان ، يدعوهم

---

(١) المرجع السابق (٣/ ١٤٠).
(٢) زاد المعاد (١/ ٢٧٧) ، ومن علماء الصحابة الذين قتنوا وداوموا على القنوت: «أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي والبراء ، وأبو هريرة ، وابن عباس ، وأبو موسى الأشعري ، وأنس بن مالك ، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين».
(٣) انظر: زاد المعاد (١/ ٢٨٠).
(٤) زاد المعاد (١/ ٢٨٠ و٢٨١) بشيء من التصرف.
(٥) حياة الصحابة (٣/ ٢٥٣).

إلى الطَّاعة ، وترك المشاقة. . . .»[1] وقال: «بعثَ عليٌّ البراءَ بنَ عازب إلى أهل النَّهروان يدعوهم ثلاثة أيام ، فلمَّا أبَوا سار إليهم».

* وتوفي سيدنا البراءُ بنُ عازب في إمارةِ مُصْعَبَ بنِ الزُّبير بالكوفة ، وكان ذلك سنة (٧٢ هـ) ، قال الذَّهبيُّ رحمه الله: «توفي البراءُ بن عازب سنة اثنتين وسبعين ، عن بضعٍ وثمانينَ سنة»[2].

* وقال ابنُ سعد: «نزل الكوفةَ ، وابتنى بها داراً. . . . وتوفي في زمنِ مصعب بنِ الزُّبير ، وله عقب بالكوفة. . . .»[3].

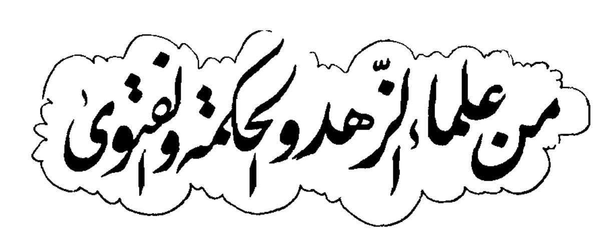
* رضي الله عن البراء بن عازب الأنصاريّ الصَّحابي ابن الصَّحابي ، ونفعنا بسيرته وسير علماء الصَّحابة ، بل سير الصَّحابة أجمعين ، وجعلنا في معيتهم ، وغفرَ لنا خطايانا ، وشفَّع فينا سيد المرسلين محمد ﷺ ، ورضي عنا ، وألهمنا فِعْلَ الخيرات ، إنه على ما يشاء قدير.

* * *

(١) تاريخ بغداد (١/ ١٧٧) بشيء من التّصرّف.
(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (حوادث ووفيات ٦١ ـ ٨٠ هـ) (ص ٣٦٧) ، والعبر (١/ ٧٩).
(٣) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٦٨) و(٦/ ١٧).




الباب الرابع



- معاذ بن جبل
- أبو ذرّ الغفاري
- أبو الدّرداء الأنصاري
- تميم بن أوس الدّاري
- جابر بن سَمُرة
- فَضالة بن عُبيد







معاذ بن جبل

* أسلم قديماً وكان يكسر أصنام قومه ، ويسخر منها.
* له مواقف تدلُّ على عمق إيمانه وسَعَةِ علمه.
* كان عالماً ذكياً لمَّاحاً سخي اليد جواد النَّفس.
* بعثه النّبيّ ﷺ إلى اليمن ليعلّمهم الإسلام وله (١٥٧ حديثاً).
* من أصحاب الفتيا والرّواية والحكمة توفي وعمره (٣٨ عاماً).




معاذُ بنُ جَبَل

من الشَّباب العُلماء:

* هذا أحدُ العلماءِ الصَّحابةِ الشُّبَّان ، الظَّاهرُ فضلُهم للعَيان ، اشتهرَ اشتهارَ الشَّمس في الآفاقِ ، وحاز مجدَ العلْم وفاقَ ، فكان روض العلْمِ النَّافح ، وحوض المعارفِ الطَّافح.

* كانت تبدو عليه أمارةُ الإمارة ، ومخايلُ النَّجابة والصَّدارة:

بَلَـغ السِّيَـادَةَ فـي ابتـداءِ شَبَـابِـهِ ... إنَّ الشَّبَـابَ مَطيّـةٌ للسُّـؤْددِ

* استجابَ هذا الشّاب لنداءِ الإيمان ، وهَمسَات الإسلام منذ أنْ بدأتْ أجنحة الدّعوة المحمديّة ترفرفُ حولَ القلوبِ العامرة بالصَّفاء... آمنَ الفتى الأنصاريُّ هذا بالله مع ثلّةٍ من فتيانِ الأنصار ، فزادهم اللهُ هدىً ، وربطَ على قلوبهم ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ [الكهف: ١٤].

* ومنذ أن خالطَ الإيمانُ قلبه وروحه ، أحبَّ أنْ يلتقي المعلّمَ الكريمَ ، والمربيَ الكبير ، رسولَ الله ﷺ ، فقد كان إيمانه في المدينة على يدِ الشاب العالمِ الدَّاعيةِ السَّيِّدِ السَّابقِ الشَّهيدِ البدريّ القرشيّ مُصعب بنِ عُمير[(١)] رضي الله عنه وأرضاه.

* وهاهي ذي أشهُرُ الحجِّ تنبّهُ قلوبَ المؤمنين في المدينةِ المنورة وغيرها من البلدان ، وإذا بِثلّةٍ مباركةٍ قد استجابتْ لله عز وجل والرَّسولِ ﷺ ، وهي

(١) اقرأ سيرته في كتابنا «رجال من عصْر النبوّة» الذي سيصدرُ قريباً بعون الله ومشيئته.

تتوجَّهُ نحو أمِّ القُرى لتلتقيَ الصَّادقَ المصدوقَ ﷺ ، وكان من بين تلكم الثّلّة أحدُ علماء هذه الموسوعةِ المباركةِ ، كان شاباً آتاه اللهُ بَسْطةً في الجسم ، وزيادة في الفهم ، جميلَ الطَّلْعة ، أبيضَ ، جعدَ الشَّعر ، عظيمَ العينَيْن ، تبدو عليه ملامحُ البهاءِ مع الملاحَة ، ومخايلُ الذّكاء مع المهابةِ ، وكان في الرّبيع الثّامن عشَر من العُمر ، إلا أنه كان ناضجَ العَقْل ، لمّاحاً ، أريباً ، أديباً ، هادئاً ، حصيفاً ، يحبُّه مَنْ رآه ، ويجلّه مَنْ عرفه؛ ولم يكنْ هذا الفتى الجميل سوى العَالِم العَيْلم الشّاب معاذِ بنِ جبَل بنِ عمرو أبي عبد الرّحمن الأنصاريّ الخزرجيّ المدنيّ[1].

* وقُربَ البيتِ العتيقِ بمكّةَ ، شهدَ معاذُ بن جبل بيعةَ العقبةِ[2] الثَّانيةِ ، والتقتْ يمينهُ يمينَ الحبيبِ الأعظم ﷺ مبايعةً معاهدةً على الدّفاعِ والنّصرة ، وبايعَ كذلك سائرُ الأنصارِ النَّبيَّ ﷺ على حمايتهِ. . . وتاللهِ لقدْ ربحَ بيعُهم وبوركت بيعتهم ، إذ إنَّها تجارةٌ رابحةٌ مع الله عزَّ وجلَّ ، والثَّمنُ هو الجنَّة. . . ولنستمعْ ونستمتع بهذه الأهزوجة:

قد بايع الأنصار للهادي فَهُم أهْلُ الأَصالَه
قالُوا فإنَّا سوفَ نُوفي بالعُهودِ وفي بَسَالَه
إنَّا ورِثْنا الفَخْرَ لا نَرضىٰ سِواهُ بكُلِّ حَالَه
سأَلُوا رسولَ اللهِ في أدَبٍ ومَا سَاؤوا سُؤَالَه
ماذا يكونُ جَزَاؤُنا إنْ نحنُ أدَّينا الرِّسَالَه

---

(١) مسند أحمد (٥/ ٢٢٧ ـ ٢٤٨) ، وطبقات ابن سعد (٣/ ٥٨٣ ـ ٥٩٠) ، والمعارف (ص ٢٥٤) ، ومشاهير علماء الأمصار (ص ٨٤) والاستبصار (ص ١٣٦ ـ ١٤١) ، وحلية الأولياء (١/ ٢٢٨ ـ ٢٢٤) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ٣٦٨ ـ ٣٨٣) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٩٨ ـ ١٠٠) ، ومصادر لا تحصى ولا تحصر.

(٢) «العَقَبة»: بالتّحريك: الجبلُ الطّويلُ يعرضُ للطّريق فيأخذُ فيه ، وجمعُها: عقبات: وهي: الجبالُ ، والعقبةُ المذكورةُ في السِّيرة النّبويّة ، هي العقبةُ التي بُويع فيها رسولُ الله ﷺ وهي عقبةُ منى ، ومنها تُرمى جمرة العقبة.
وإذا قيل: بيعةُ العقبة الأولى ، وبيعةُ العقبة الثانية: الأولىٰ والثانية: صفة للبيعة ، وليست للعقبة.

فـأجـابَهـم فـي جَنَّـةِ الفِـردوس تُعْطَـونَ الجَـلاَلَـه
قـالُـوا رضينـا بـالبَـديـلِ فَنِعْـمَ هَـاتِيـكَ البَـدَالَـه

* منذُ ذلك الحين ، ومن ذلك المكانِ الشَّريف برز اسمُ سيّدنا معاذِ بن جبل في عالَم المشَاهير ليأتيَ في مقدمةِ علماءِ الصَّحابة الشُّبّان من الأنصارِ ، وليكون أحدَ الذين عُنوا بالقرآنِ الكريم وحفْظِه بالتّمام ، والحديثِ الشريفِ ونَقْلِهِ للأنام ، ومن ثمّ ليكون أعلمَ الأمّةِ بالحلالِ والحرامِ.

* عاد مُعاذُ بنُ جبل رضي الله عنه من البيعةِ الميمونةِ بعد أنْ أدّىٰ مناسكَ الحجّ ـ عامَ ذاك ـ عاد وهو مفعمٌ بالسُّرور ، إذ تكحَّلَتْ بصيرتُه وعينُه برؤيةِ رسول الله ﷺ ، ومسرورٌ كذلك بمنهج الدِّين الإسلاميّ العظيمِ الذي يُخْرِجُ النَّـاسَ من الظُّلماتِ إلى النُّـور ، ومن عالَم الأوهام إلى أنوارِ الحقائق. . .

مُعَـاذٌ يَسْـخَر منْ أَصْنَـام قَـوْمِـهِ:

* بعد أن انتهى الأنصارُ من لقائِهم التَّاريخيّ المبارك برسول الله ﷺ ، رجعُوا إلى المدينة بالخير كُلّه ، فقد أسلمُوا جميعاً ، وفشَا الإسلامُ في المدينة ، وصار أهلُها يتحدّثون عن الإسلامِ ومحاسنِه وعن نبيّ الإسلام ودعوته.

* لقد أسلمَ النَّاسُ في المدينة إلا قليلاً من شيوخ القوم الذين عزَّ عليهم مفارقة أصنامِهم التي عاشوا معها عمرهم ، وكان من بين هؤلاء الشّيوخ: عمرو بن الجموح[1] ، وكان ابنهُ معاذ بن عمرو ممّن شهدَ بيعةَ العقبة ، وكان عمرو بنُ الجموح من ساداتِ بني سَلِمَة وأشرافِهم.

* وممّا يُستفادُ من سيرةِ معاذ رضي الله عنه أنّه كان لأصنامِ بني سَلِمَة معه قصّةٌ تربوية طريفةٌ تشيرُ إلى إيمانه الصَّحيح ، وإلى عقلهِ الكبير الذي نبذَ الأصنامَ وراء ظَهْرِهِ واتّخذها سخريّاً ، فقد كان يكسرُ أصنامَ قومه مع ثلّة من

---

(١) اقرأ سيرته في كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» (ص ٢٨ ـ ٤٥) طبعة دار ابن كثير الرابعة عام ١٩٩٩ م.

الشَّبابِ المسلمين ، فكان هو وثعلبةُ بن عَنَمة ، وعبدُ الله بن أُنَيْس يجعلون آلهةَ بني سَلِمة جُذاذاً ، لعلَّهم يرجعون إلى رشدهم ، ويؤمنون بالخالقِ البارىء[1] .

* جاءَ في السِّيرةِ النَّبويَّةِ[2] ما مفادُه : أنَّ عمروَ بنَ الجموح كان قد اتّخذ صنماً من خشَبٍ في دارهِ يُقال لهُ «منَاة» ، فلمّا أسلم فتيان بني سَلِمة ، منهم ابنه معاذُ بنُ عمرو ، وكذلك معاذُ بنُ جبل ، وغيرهما ، وكان هؤلاء يتسلّلون ليلاً فيأخذون صنمَ عمروٍ فيحملونَه فيطرحونه في بعضِ حُفَرِ بني سَلِمَة القَذِرة منكّساً على رأسِهِ .

* فإذا أصبحَ عمرو قال : «ويلكم! مَن عدا علىٰ إلهنا هذهِ الليلة؟» ثمَّ يغدو ويلتمسُه حتى إذا وجدَه غسلَه وطيَّبه وطهَّرهُ ، ثم قال : «أمَّا واللهِ لو أعلمُ مَنْ فعلَ هذا بكَ لأخزينَّهُ» .

* فعلُوا ذلك مراراً ، فلمّا أكثروا عليه ، استخرجَه من حيثُ ألقوه يوماً ، ثم علَّقَ سيفَه عليه ، ثمَّ قال له : «إنِّي واللهِ ما أعلمُ مَنْ يصنعُ بك ما أرى ، فإن كان فيكَ خيرٌ فامتنعْ منهم ، فهذا سيفي معَكَ» .

* فلمَّا أمسىٰ ونام عمرو ، عدوا على صنمِه ، فأخذوا السَّيفَ من عنقِهِ ، ثمَّ ربطُوا كلباً ميتاً بحبلٍ معه ، ثم ألقوهما في بئرٍ قَذرة تأنف منها النّفوس .

* وفي الصَّباح بحثَ عمرو عن صنمِهِ في مكانِهِ فلم يجدْهُ ، ووجده في البئر مقروناً بكلبٍ ميّتٍ . . . وحينذاك ثابَ عمرو إلى رشدِه ، وأسلمَ وحسُنَ إسلامُه ، وغدا في المهتدين ، وغدا من شهداءِ يوم أحد ، وروي أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال في عمرو حين نال الشَّهادة : «لقد رأيتُه في الجنَّة»[3] والآن دعونا نقرأ هذه النّونيّةَ الجميلةَ التي تصوِّرُ قصَّة إسلام عمرو بن الجموح ،

---

(١) انظر : طبقات ابن سعد (٣/ ٥٨٣) بتصرف يسير .
(٢) انظر : السيرة النبوية (١/ ٤٥٢) طبعة مصر .
(٣) انظر : تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٥ و٢٦) .

ودور معاذِ بن جبلٍ ومَنْ معه مِنْ فتية الأنصار في سَبب إسلام عمرو ، تَقول هذه النّونيّة الكاشفة:

فِتْيـانُ يَثْـرِبَ والكُهُـولُ غَـدوا جَمِيعـاً مُسْلِمِيْـن
لكنَّ عَمْرَو بن الجَموح فَظَلَّ ضِمن المُشركيْن
فـي بَيْتِـه صَنَـمٌ ويَعْكـفُ عِنْـدَهُ كـالعَـاكِفيْـن
أمَّـا ابنـهُ يُسْمَـىٰ مُعَـاذاً كـانَ بيـنَ السَّـابقيْـن
فـي البَيْعَـةِ الكُبـرى فكَـانَ مُبَايعـاً فـي المُـؤمنيـن
هــذا مُعَــاذٌ مَعْــهُ بَعْـضُ الفِتْيَــةِ المُتحـرريْـن
ألقَوْا بصَنم ابنِ الجَموحِ على القَذَارَةِ عَامدين
قـد غَـاظَ عَمْـراً كَـوْنـهُ بيـنَ القَـذَارَةَ قـد أُهِيْـن
لـم يَسْتَطِـعْ عـنْ نَفْسِـه دفْعـاً وَلاَ قَـوْلاً يُبيْـن
عمـروٌ يقُـولُ لَـهُ فَمـالَـك لا تكُـفُّ المُعْتَـديْـن
إنْ لـمْ تكُـفَّ القَـوْمَ إنّـي لاحِـقٌ بـالآخـريْـن
قَــدْ كـرّرُوا إلقَــاءَهُ بَيْــنَ القَـذَارَةِ سَـاخِـريْـن
عَمــروٌ يَقُـولُ بغضبــةٍ بِئْـسَ الإلــهُ المُسْتكيْـن
وانْضَمَّ للإِسْلاَمِ فَوراً واهْتَدىٰ في المُهْتَديْن(١)

الدَّاعيَةُ الحَصِيْفُ:

* كانت تسكنُ المدينةَ جماعةٌ من اليهودِ ، وكانوا ثلاثَ قبائلَ مشهورة ، وهم: بنو قَيْنُقاع ، وبنو النَّضير ، وبنو قُريظة؛ واليهودُ معروفون بنظرتِهم الحاقدةِ إلى القيمِ الإنسانيّةِ ، فكيفَ ستكونُ نظرتُهم إلى الإسلامِ والدِّينِ الحنيفِ؟ ذلك الدِّين الذي يؤلّفُ بين أشتاتِ القُلوب ، ويغرسُ المودّات في النّفوس؟!!

* كان هؤلاءِ اليهودُ يتحدّثُون كثيراً في أنديتهم وفي مجالسِهم عن

---

(١) تغريدة السّيرة النبوية (١/ ٤٠٠) ومعنى «المتحررين» أي تحرّروا من عبادة الأصنام. و«كونه»: كونه الصنم ملقى بين القذارة. «لاحق بالآخرين»: سأدخل الإسلام.

رسول الله ﷺ قُبيل مبعثِهِ ، وذلك لأنَّ صفاتِهِ وأوصافَه موجودةٌ في التَّوراة .

* وكان معاذُ بن جبل وثلّةٌ من شبابِ الأنصار الصُّلحاء يسمعون صِفَةِ النَّبيّ ﷺ من أولئك الأخابثِ الذين كانوا يستنصرون على العربِ بمحمّد ﷺ .

* فقد ذكرَ أهلُ السِّيرِ والأخبار أنَّ يهودَ يثربَ كانوا إذا تضايقُوا من الأوسِ والخزرجِ ، هدَّدوهم بقرب ظهور نبيّ يستعلُونَ به عليهم .

* وفي روايةٍ عن بعضِ الصَّحابة أنَّهم قالُوا: «كُنَّا قد علَوناهُم في الجاهليةِ ، ونحنُ أهلُ شِرْكٍ ، وهم أهلُ كتاب ، فكانوا يقولُون لنا: إنّ نبيّاً يُبْعَثُ الآن نتّبعه ، وقد أطلَّ زمانُه نقتلكُم معه قَتْلَ عادٍ وإرم» .

* ولذا فإنَّه لما أسلمَ الأنصارُ ، وعرفَ اليهودُ بعثةَ النَّبيّ العربيّ القرشيّ محمّدٍ ﷺ ، وأنَّه من صميمِ العرب وعُلْيا قبائلهم ، كفروا وبغوا ، ونظروا إلى العرب والإسلام بعَيْنِ الحقدِ والكراهيةِ ، وأضمروا العداوةَ والبغضاء للنّبي ﷺ ، وللمسلمين ما بقوا على قيدِ الحياة[1] ؛ وما بَلَّ بَحرٌ صوفة .

* وبرزَ فريقٌ من زعماءِ اليهود وأخابثهم كانوا أكثرَ حقداً من سائرِ النّاس ومنهم: حُييٌّ بنُ أخطب ، وكعبُ بن الأشرف ، وابنُ الحُقيق ، وابنُ صورى ، وابنُ شاس ، وابنُ اللصيت ، ونعمانُ بن أوفى وأخوه عُثمان ، ورافعُ بنُ حُريملة ، ورفاعةُ بنُ زيد ، وغيرهُم ممّن رانَ على قلبهِ الكُفْرُ والعنادُ ، وظهرت عداوتُهم على ألسنتِهم وما تخفي الصُّدور أعظمُ ، وهؤلاء هم اليهودُ الأخابثُ الذين حقدوا على النَّبيِّ ﷺ وراحوا يسألونَه أسئلةً معجزةً ، فيأتي الوحيُ بالإجابةِ عن أسئلتِهم . . . وظلُّوا معاندين لأنَّ الحقدَ أعماهُم :

---

(١) وهذا ما حدث منهم قولاً وفعلاً ، وقد أبرزتُ جانباً من هذا ، في كتابي «المبشرون بالنار» وتحدثت عن شخصية حُييّ بن أخطب وكعب بن الأشرف هناك ، وكيف سعى كلّ واحد من هذين الخبيثين لزرع الفتنة وبذر العداوة والبغضاء في نفوس الناس لتشتيت المجتمع المسلم في عصر النبوة .

أمَّــا اليهــودُ فــإنّهــم كــانُــوا بِيثْـرِبَ رَاغـديْــن
كــانُــوا علــى عِلْــم بــآخــرِ مُــرسَــلٍ للْعَــالَمين
هــو مــن يَهُــودٍ كــانَ ذلــكَ ظَنُّهــم متــوهّميــن
لكــنَّ رَبَّ العَــرشِ خَيَّــبَ ظنَّهُــم هــذا يقيــن
فــاخْتَــارَهُ مَــنْ خَيْــرِ أَنْسَــابِ الخَليقَــةِ أجْمَعيــن
فهــوَ الــرَّسُــولُ لِكُــلِّ خَلْــقِ الله ختــم المُــرسليــن
حَقــدُوا عليــهِ ونــاصبــوه عَــداءَهــم مُتَحــامِليــن
ومنــافقُــو الأَنْصَــارِ أيضــاً شــاركــوهــم حَــاقــديــن
هــم أظْهــروا الإِسْــلاَمَ لَكِــنْ لــم يكــونُــوا صَــادقيــن
قــد كــان أحبــارُ اليَهــودِ علــى الضَّــلالــةِ قَــادريــن
هـــم يَسْــألــونَ محمّــداً لكــنْ سُــؤَالَ العَــانيتــن
الــوحــيُ كــان يجيبُهــم إذْ مَــا أتــوا مُتَســائِليــن
ابنُ الحُقيق كذا ابن أخطبَ يسألونَ كَمعْجِزين
وكذَا ابنُ أشرفَ وابنُ شاسٍ في عِدادِ المُجرمين
أمَّا ابنُ صورَى فهو رأْسٌ في اليَهودِ المُفسدين

* ومع كلِّ خبثِ اليهودِ وحقدهم الرهيب؛ هبَّ سيّدنا معاذُ بن جبل رضي الله عنه ليؤديَ دورَ الدَّاعية المؤمن في المجتمعِ الذي يعيشُ فيه ، فذهبَ إلى اليهودِ مع بشْرِ بنِ البَراء ، وأخذَ يجادلُهم في هدوءٍ وتعقُّلٍ ، ويأتي بالحجَّةِ المقنعةِ ، ويسوقُ الأدلَّةَ الواضحةَ حتى يُسْلِمُوا ويستسلموا لأوامرِ الله عزَّ وجلَّ.

* وفي إحدى المحاوراتِ قال لجماعة اليهود: «يا معشرَ يهود، اتَّقوا الله، وأسلمُوا ، فقد كُنتم تستفتحون[1] علينا بمحمّدٍ ﷺ ، ونحنُ أهلُ شِرْك ، وتخبروننا أنَّه مبعوثٌ ، وتصفونَه لنا بصفتِه!».

فقال سلامُ بنُ مِشْكم اليهوديّ النَّضْريّ بشيءٍ من الاستنكارِ والاستغرابِ

---

(١) «تستفتحون»: تستنصرون.

والخُبْث: «ما جاءنا محمّد بشيءٍ نعرفُه، بل ما هو بالذي كُنا نذكرُه ونصفُه لكم».

فأنزلَ اللهُ في ذلك: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩][1].

* وفي مجلسٍ آخرَ سألَ معاذُ بنُ جبل، وسعدُ بنُ معاذ، وخارجةُ بنُ زيد نَفَراً من أحبارِ يهود عن بعضِ ما في التَّوراةِ من صفاتِ رسولِ الله ﷺ، فكتمَ اليهودُ ذلك، وأَبَوا أَنْ يخبروهم عنه، هنالك نزلَ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ فيهم وقد حقَّتْ عليهم اللعنةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩][2].

* وعندما علم معاذُ بنُ جبلٍ رضي الله عنه مَكْرَ اليهود وخبثهم وغدرهم، أخذَ على كاهلِهِ لواءَ الدّعوة والحوار، والتّرغيب والتّرهيب، ولكنْ هَلِ انتفعَ اليهودُ بذلك؟

* تذكرُ كتبُ السِّيرة وغيرُهَا أنَّ سيّدنا معاذاً رضي الله عنه قد ذهبَ ذات مرّةٍ إلى اليهودِ مع معلّمِهِ وحبيبِهِ ومربيهِ رسولِ الله ﷺ، ودعا رسولُ الله ﷺ

---

(١) انظر: السّيرة النّبويّة (١/٥٤٧) بتصرّف يسير، وانظر: تفسير الطّبريّ وابن كثير والألوسيّ للآية (٨٩) من سورة البقرة، وانظر أسباب النّزول للسّيوطيّ للآية (٨٩) من سورة البقرة.
واستفتاحُ اليهودِ على المشركين، هو للتَّفريج عن أنفسهم، ولتخويفِ الأوس والخزرج، ولاعتقادهم حقاً بظهور نبيّ منهم، أي من بني إسرائيل، ولهذا أنكروا نبوّة الرّسول محمّد ﷺ، وأبوا التّسليم بها، لأنَّه لم يكن منهم، ولأنَّ النّبوةَ لا تكون ـ على رأيهم ـ إلاّ في بني إسرائيل، فكيف يصدّقون نبوةَ نبيّ عربيّ من الأميّين ومن ذريةِ إسماعيل؟!..

(٢) انظر: أسباب النّزول للسّيوطيّ للآية (١٥٩) من سورة البقرة.

اليهودَ إلى الإسلام، ورغَّبهم فيه، وحذَّرهم غِيَرَ[1] اللهِ وعقوبته، فأَبوا عليهِ، وكفروا بما جاءهم به، فقال لهم معاذُ بنُ جبل، وسعدُ بنُ عبادة، وعقبةُ بنُ وهْب[2]: «يا معشر يهود، اتّقُوا اللهَ، فواللهِ إنّكم لَتَعلمُون أنَّه رسولُ اللهِ، ولقد كنتُم تذكُرونَه لنا قَبْلَ مبعثِهِ وتصفونَه لنا بِصِفَتِهِ».

فقال رافعُ بنُ حُريملةَ؛ ووهبُ بنُ يهوذا: «ما قُلنا لكم هذا قطُّ، وما أنزلَ الله من كتابٍ بعد مُوسى، ولا أرسلَ بشيراً ولا نذيراً بعده، فأنزلَ اللهُ في ذلك من قولهما: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [المائدة: ١٩][3].

* وهكذا عبَّرَ معاذُ بنُ جبل رضي الله عنه عن قوّةِ يقينهِ، وعن حبّهِ للنَّبيِّ ﷺ وللإسلامِ، كما عبَّرَ عن حماسِهِ وحصافتِهِ في الدَّعوةِ الصَّحيحةِ إلى حياضِ الإسلام والسَّلام.

مَلامِحُ مِنْ شَخْصِيَّتِهِ:

* سيّدنا معاذُ بنُ جبَل رضوان الله عليه من الصَّحابةِ الذين أنعمَ اللهُ عليهم بالجَمالِ، فقد زادهُ اللهُ بسطةً في العِلْمِ والجسمِ، فأصبحَ ذكرهُ جمالَ الكتبِ والسِّيَرِ، وكانت له أوصافٌ حُسنى، ومناقبُ هُنَّ الوشي بهجةً وحُسناً، وكان هلالُ علمهِ مُشْرِقاً في أفق سمائِهِ، وكلماته الحِسان تنبىءُ عن كمالِ ذكائِهِ، فقد سَلَكَ إلى المجدِ طريقاً محفُوفاً بالأنوار المحمديّة، فغدا أحد

---

(١) «الغِيَر»: بِوَزْنِ العنب، الاسمُ من قولك: غيرتُ الشيء فتغيّر، ومنه غير الزّمان. (مختار الصّحاح).

(٢) عقبة بن وهب الغطفَاني حليفُ الأنصار، شهدَ العقبتين وبدراً، وهو أولُ مَنْ أسلمَ من الأنصار وأتى النَّبيَّ ﷺ فأقامَ معه بمكَّةَ حتى هاجرَ، فهو مهاجري أنصاري رضي الله عنه (الاستبصار ص ١٨٧).

(٣) انظر: السّيرة النّبويّة (٢/ ٢٠٥) بتحقيق د. عمر تدمريّ، وانظر كذلك: تفسير الطّبريّ (٦/ ١٦٦)، وتفسير القرطبيّ (٦/ ١٢٢)، والبحر المحيط (٣/ ٤٦٧)، واقرأ تعليق الإمام الرازيّ على هذه الآية من تفسيره الكبير (١١/ ١٥٤) حيث تجدُ فوائدَ مهمّة.

الأعلامِ في دنيا العُلماءِ الذين أحيوا القلوبَ بمعارفهم المستمدةِ من حياةِ الحبيبِ الأعظم سيّدنا محمّدٍ رسولِ الله ﷺ رأسِ كلّ فَضْل وفضيلة:

العِلْـمُ فيـهِ حَيـاةٌ للْقلُـوبِ كَمـا تَحْيَـا البِـلادُ إذا مـا مَسَّهَـا المَطَـرُ
والعِلْمُ يجلُو العَمَى عَن قَلْبِ صَاحِبهِ كمـا يُجَلّـي سَـوَادَ الظُّلْمَـةِ القَمَـرُ

* ولقد حفلتِ المصادرُ بذكرِ صفةِ معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقد وصفَه الذَّهبيُّ بقولِهِ: «كان طَويلاً حَسناً جَميلاً»[1].

* وقال ابنُ عسَاكر: «كان معاذُ من أفضل شَباب الأنصارِ حلْماً وحياءً، وبذْلاً وسخاءً، وضيءَ الوجْهِ، أكحلَ العيَنيْن، برّاقَ الثَّنايا، جميلاً وسيماً، أردفَه النَّبيُّ ﷺ وراءَه، فكانَ رديفَه»[2].

* ولقد وصفهُ أحدُ علماءِ الصَّحابةِ الأنصار، وهو جابرُ بن عبد الله رضي الله عنهما فقال: «كان معاذُ منْ أحسنِ النَّاس وجْهاً، وأحسنهم خلقاً، وأسمحهم كفّاً»[3].

* ووصفه أيضاً كعبُ بنُ مالك الأنصاريّ[4] أحدُ فرسانِ النَّبيِّ ﷺ وشعرائِه من الأنصارِ فيما أخرجه ابنُ سعد بسندِهِ عنه قال: «كان معاذُ بنُ جبل رجلاً طويلاً أبيضَ، حسَنَ الثَّغر، عظيمَ العَيْنَيْن، مجموعَ الحاجبَيْن، جَعْداً، قَططاً»[5].

* وعن أبي بحريّة واسمُه يزيدُ بنُ قُطيب السَّكوني قال: «دخلتُ مسجدَ حمص، فإذا أنا بفتىً حوله النَّاس، جَعْد قَطَط، فإذا تكلَّم كأنّما يخرجُ من فِيْهِ نُورٌ ولؤلؤٌ، فقلت: مَنْ هذا؟

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٤٥).

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ٣٦٩).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٥٨٧)، وتهذيبُ الأسماء واللغات (٢/ ١٠٠).

(٤) اقرأ سيرتَه في موسوعتنا «فرسان من عصر النبوّة» (ص ٥١٠ ـ ٥٣١) فسيرته نزهة المجالسِ.

(٥) طبقات ابن سعد (٣/ ٥٩٠)، وصفة الصّفوة (١/ ٤٦٠)، و«القطط»: الشَّعر القصير المتجعّد.

قالوا: معاذُ بنُ جبل رضي الله تعالى عنه»[1].

* وقال ابنُ قدامة المقدسيّ: «كان سيّداً فاضلاً، عاملاً جواداً، كريماً، جميلاً»[2].

* ومن الرَّصيدِ الثَّمينِ في سيرة هذا العالِم الشَّاب أنْ زادَهُ الله ـ بالإضافةِ إلى جمَاله ـ مهابةً في قلوبِ الناس، فقد جاء عن شهرِ بنِ حوشب رحمه الله أنَّه قال: «كان أصحابُ محمّدٍ ﷺ إذا تحدّثُوا وفيهم معاذُ نظَروا إليه هَيبةً له»[3].

* وكان سيّدنا عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه يحبُّه ويجلُّه ويحترمه، ففي جلسةٍ عُمريّةٍ ميمونةٍ جمعتِ الفاروقَ، ونفراً من أصحابه؛ قال لهم: «تمنّوا»، فتمنّى كلُّ إنسانٍ شيئاً خَطَر في باله.

لكنَّ العبقريَ الذّكي عمر، تمنّى غيرَ ما تمنَّاه أصحابُه، وطلعَ عليهم يقول: «أتمنّى لو أنَّ هذه الدَّار مملوءةً رجالاً مثلُ أبي عبيدةَ بنِ الجرّاح، ومعاذ بنِ جبل، وسالم مولى أبي حذيفةَ، وحذيفةَ بن اليمان»[4].

* وكانت لمعاذ رضي الله عنه شخصيةٌ متميّزةٌ تنبىءُ عمّا اختزن فيها من جَواهرِ العِلْم والمعرفةِ والحفظ والتَّثبُّتِ؛ فقد كان جمهورٌ من الصَّحابة الأجلاء، وعددٌ من العُلَماء والكُبراء يحتكمون إليهِ ويرضون قولَه إذا ما شكّوا في شيءٍ، وهم مطمئنُّون لما يقول؛ ولما يفصلُ بينهم بالقولِ الفَصْلِ.

---

(1) حلية الأولياء (1/ 231)، وصفة الصّفوة (1/ 490).
(2) الاستبصار (ص 136).
(3) حلية الأولياء (1/ 231)، وصفة الصَّفوة (1/ 495)، وسير أعلام النبلاء (1/ 452 و453)، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (24/ 375).
(4) انظر: الاستبصار (ص 138 و139) بتصرّف يسير. أقول: «وما أعظم هذا التَّمنِّي وأنبلَهُ وأكرَمَهُ» !!.

* حـدَّثَ أبـو إدريـس الخَـولانـي[1] رحمـه الله قـال: «دخلـتُ مسجـدَ حمص، فجلستُ إلى حلقةٍ فيها اثنانِ وثلاثون رجلاً من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، يقولُ الرَّجُل منهم: سمعتُ رسولَ الله ﷺ فيُحدِّث؛ وفيهم رجلٌ أدعجُ، برّاقُ الثَّنايا، فإذا شكُّوا في شيءٍ ردُّوه إليهِ، ورضُوا بما يقول فيه، فلم أجلسْ قبلَه ولا بعدَهُ مجلساً مثلَه؛ فتفرّقَ القومُ، وما أعرفُ اسْمَ رجلٍ منهم ولا منزلَه.

فبتُّ بليلةٍ ما بتُّ مثلَها، وقلتُ: أنا رجلٌ أطلبُ العِلْم، وجلستُ إلى أصحابِ نبيِّ اللهِ ﷺ لم أعرفِ اسمَ رجلٍ منهم، ولا منزلَه! فلمَّا أصبحتُ غدوتُ إلى المسجدِ، فإذا أنا بالرَّجُل الذي كانوا إذا شكّوا في شيءٍ ردّوه إليه يركعُ إلى بعض اسطواناتِ المسجدِ، فجلستُ إلى جانبه، فلما انصرفَ قلتُ: يا أبا عبد الله، وإنّي لأحبُّك لله، فأخذَ حبوتي حتى أدناني منه، ثمّ قال: إنَّك لَتحبّني لله؟

قلتُ: إي واللهِ، إنّي لأحبّك لله.

قال: فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ المتحابين بجلالِ اللهِ في ظِل الله يومَ لا ظلَّ إلا ظلّه» وفي رواية أخرى قال: «المتحابّون في اللهِ على منابرَ من نورٍ يغبطُهم الأنبياءُ والشُّهداء بمكانِهم من الله».

فقمتُ من عنده، فإذا أنا برجلٍ من القومِ الذين كانوا معه، قلتُ: حديثٌ حدّثْنيه الرَّجُل...

قال: أما إنَّه لا يقولُ لك إلا حقّاً، فأخبرتُه، فقال: قد سمعتُ ذلك، وأفضلُ منه، سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ وهو يأثِرُ عن ربّه عزَّ وجلَّ: «حقَّتْ محبّتي للذين يتباذلون فيَّ، وحقّتْ محبّتي للذين يتزاورون فيّ»، وفي رواية المسند: «حقّت محبّتي للمُتحابين فيّ، وحقّت محبّتي للمتباذلين فيّ،

---

(١) ورد في بعض المصادر أن الراوي هو: أبو مسلم الخولاني؛ وفي السِّير: أبو سلمة الخولاني.

وحقّت محبّتي للمُتَصادقين فيّ والمُتواصلين».

قلت: مَنْ أنتَ يرحمُك الله؟

قال: أنا عبادةُ بنُ الصَّامت.

قلتُ: مَن الرَّجل؟

قال: معاذُ بنُ جبل»[1].

* والحديثُ عن صفاتِ معاذِ بن جبلَ وملامحه حديثٌ طويلٌ آسِرٌ؛ بَيْدَ أنّنا قبسنا بعضَ السِّمات منه لتتوضّح شخصيته في الأذهان، ويكون قدوة للشّيوخ والشُّبّان.

المؤمنُ السَّخِيُّ:

* نحنُ نعلمُ أنَّ السَّخاءَ سجيّةٌ تصحبُ المرء، وبذرةٌ تولَدُ معه، وتنمو كُلّما تقدَّمَ به العُمر، ولا يمكنُ للئيم أن تتولَّد في نفسه سجيّةُ الكَرم، إذْ إنَّ طبيعتَه لا تتآلفُ مع السَّخاء، وإنْ حاولَ أنْ يجودَ فإنَّ جودَه يظهرُ عليه التكلُّف، ولله درُّ المتنبي، إذ قال:

وللنَّفْسِ أخْلاقٌ تَدلُّ على الفَتى ... أكانَ سَخيّاً ما أتى أمْ تَساخيا

* والمؤمنُ العاقلُ هو الذي يدركُ أنَّ هذه الدُّنيا فانيةٌ زائلةٌ، ولا ينفعُه سوى عملِهِ الصَّالح، لذا فإنّه يعلم أنَّ السَّخاء محبّةٌ ومحمدةٌ، كما أنَّ البخلَ مذمَّةٌ ومبغضةٌ، ولا خيرَ في المال إلا مع الجود:

الجُودُ مَكْرمةٌ والبُخْلُ منْقَصَةٌ ... لا يسْتَوي البُخْلُ عند اللهِ والجُودُ

* وأجودُ الجودِ مَنْ جادَ بمالِهِ، وصانَ نَفْسَه عن مالِ غيره، ومن جادَ سَاد، كما أنَّ من بخلَ ذلَّ.

* والجودُ حارسُ الأعراض، ومن أتمّ الجود أنْ يتعرى عن المِنّةِ، لأنَّ

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/٣٧٥ و٣٧٦)، والمستدرك (٣/٢٦٩)، وطبقات ابن سعد (٣/٥٨٦ و٥٨٧ و٥٩٠)، والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٢٢٩).

الامتنانَ يهدمُ الصَّنائع ، والواجبُ على العاقلِ إذا لم يُعْرَفْ بالسَّماحةِ ألاَّ يُعرفَ بالبُخل ، إذ البخلُ بئسَ شعارُ المرء في الدّنيا والآخرة ، قالت أمّ البنين[1] بنتُ عبد العزيز بن مروانَ أخت عمَر بن عبد العزيز: «أُفٍ للبخلِ ، واللهِ لو كان طَريقاً ما سلكتُه ، ولو كان ثَوباً ما لبستُهُ».

* وقد ذمَّ البخل أهلُ العقلِ في الجاهليةِ والإسلامِ إلى يومنا هذا ، ومن ذلك قولُ أحدِهم:

لَو أنَّ دارَكَ أنْبَتَتْ لَكَ واحتَشَتْ إِبَراً يَضيقُ بِهَا فِنَاءُ المَنْزِلِ
وأتاكَ يُوسُف يَسْتَعِيْرُكَ إبْرةً لِيخيطَ قَدَّ قميصِهِ لَمْ تَفْعَلِ

* وقال غيرُه يهجو رجُلاً ويصفُه بالبُخلِ الشَّديد:

لو جُعِلَ الخَرْدَل في كَفِّهِ ما سَقَطَتْ مِنْ كَفِّهِ خَرْدَلَه

* لقد عاشَ الصَّحابةُ الكرامُ حياةَ السَّخاء ، لأنَّ سيَّد الأسخياء كان يعلّمُهم الجودَ ، وكانت نفوسُهم توّاقةً لذلك ، فجادوا بما ملكَتْ أيْديهم وجعلُوا الدُّنيا وحطامَها وراءَ ظهورِهم ، وكان سيّدنا معاذُ بنُ جبل واحداً من هؤلاء الأجوادِ ، فقد كان كريماً وَرِعاً سخيّاً سخاءً عجيباً ، اتّخذ الدّنيا سفينةً لِيَصِلَ إلى شاطىء الأمانِ ، والأمنِ في الآخرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

* ومنَ الأخبارِ التي تدلُّ على سخائِهِ الشَّديد ، وزهدِهِ السَّديد ، ما وافتْ به المصادرُ عن مالك الدَّاراني قال: «أخذَ عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه أربع مئة دينار ، فجعلها في صُرَّةٍ ، ثمَّ قال لغلامٍ له: اذهبْ بها إلى أبي عُبيدة بنِ الجراح ، ثم تَلَهَّ ـ امْكُثْ ـ ساعةً في البيت حتى تنظرَ ما يصنعُ.

فذهبَ بها الغلامُ إليه فقال: يقولُ لك أميرُ المؤمنين: خذْ هذه واجعلها في بعضِ حوائجك.

---

(١) اقرأ سيرة أم البنين بنت عبد العزيز في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ٩٧ ـ ١٤١) تجد فيه ما يبهج المجالِس ويسرّ المجالس.

فقال أبو عُبيدة رضي الله عنه: وصَلَهُ اللهُ ورحمَهُ، ثمَّ قال: تعالي يا جارية؛ اذهبي بهذه السَّبعة إلى فُلان، وبهذه الخمسةِ إلى فُلان، حتَّى أنفذَهَا.

فرجع الغُلام إلى عمرَ فأخبره، ووجدَهُ قد أعدَّ مثلَها لمعاذِ بن جبل، فقال: اذهبْ بها إلى معاذِ بن جبَل، وتَلَهَّ في البيتِ ساعةً حتى تنظرَ ما يصنعُ.

فذهبَ بها إليهِ، وقال له: يقولُ لك أميرُ المؤمنين: اجعلْ هذهِ في بعضِ حاجتِكَ.

فقال معاذٌ رضي الله عنه: وصلَه اللهُ ورحمهُ، تعالي يا جاريةُ، اذهبي إلى بيتِ فُلان بكذا، وإلى بيتِ فلان بكذا، وإلى بيت فلان بكذا، فاطَّلعَتِ امرأةُ معاذ فقالت: ونحنُ واللهِ مسَاكين، فأَعْطِنا، ولم يبقَ في الخِرقَةِ إلاَّ ديناران فَدَحا بهما إليها»[1].

* ولشدَّةِ سخاءِ معاذ رضي الله عنه ركبَهُ دَيْنٌ كبيرٌ، فذهبَ مالُه، وقد عُرِفَ بشيمةِ السَّخاء، حتى قيل فيه: «كان من أفْضَل شَبابِ الأنصار حلماً وحياءً وسخاءً، وكان جميلاً وسيماً»[2]، وقيل: «كان معاذُ شابّاً جميلاً سَمْحاً لا يسألُ الله شيئاً إلاّ أعطاه».

* وعن قصّة جودِهِ الذي ألزمه الدَّينُ ما رواه كعبُ بن مالك رضي الله عنه قال: «كان معاذُ رجلاً شابّاً جميلاً من أفضلِ ساداتِ قومه، سمحاً لا يمسكُ، فلم يزلْ يَدَّان حتى أغلقَ ماله كُلّه من الدَّين، فأتى النَّبيَّ ﷺ،

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ٣٧٧)، وسير أعلام النّبلاء (١/ ٤٥٦)، وحلية الأولياء (١/ ٢٣٧) مع الجمع والتصرف، وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٤١٣)، وصفة الصفوة (١/ ٤٩١ و٤٩٢)، ومعنى «دحا بهما»: أي رمى وألقى بالدّينارين لزوجته، وزادت بعضُ المصادر على القصّة فقالت: «فرجع الغلامُ إلى عمر فأخبره، فسرَّ بذلك عمر، وقال: إنَّهم إخوةٌ بعضُهم من بعض».

(٢) انظر الإصابة (٩/ ٢٢٠) طبعة مصر.

فطلبَ إليه أنْ يسألَ غرماءَه أنْ يضعَوا له[1] ، فأبوا ، ولو تركوا لأحدٍ من أجلِ أحدٍ ، لتركُوا لمعاذِ بن جبل من أجلِ رسول الله ﷺ ، فباعَ النَّبيُّ ﷺ ماله كلَّه في دَيْنِهِ ، حتى قام معاذُ بغيرِ شيءٍ ، حتّى إذا كان عام فتح مكّةَ بعثه النَّبيُّ ﷺ إلى طائفةٍ من أهل اليمن لِيَجْبره ، فمكثَ معاذُ باليمنِ أميراً ، وكان أوَّل من اتّجرَ في مالِ الله هو ، فمكثَ حتى أصابَ ، وحتى قُبِضَ رسولُ الله ﷺ؛ فلما قَدِمَ قال عمرُ لأبي بكْر: أرسلْ إلى هذا الرَّجُل فدعْ له ما يُعيشه ، وخُذْ سائِرَه منه ، فقال أبو بكر: إنَّما بعثَهُ النَّبيُّ ﷺ ، ولَسْتُ بآخذٍ منه شيئاً ، إلا أن يعطيَني.

فانطلَق عمرُ إليه إذْ لم يُطِعْه أبو بكر ، فذكرَ ذلك لمعاذ ، فقال معاذ: إنَّما أرسلني إليه النَّبيُّ ﷺ لِيَجبرني ، ولستُ بفاعل. . . ثمَّ أتى معاذُ عمرَ ، فقال: قد أطعتُك وأنا فاعلٌ ما أمرتَني به ، فإنّي رأيتُ في المنامِ أنّي في حومةِ ماءٍ قد خشيتُ الغرق ، فخلَّصْتَني منه يا عمر. فأتى معاذُ أبا بكر ، فذكرَ ذلك كلّه له ، وحلفَ لا يكتمُ شيئاً ، فقال أبو بكر: لا آخذُ منك شيئاً ، قد وهبتُه لك ، فقال عمر: هذا خيرٌ حَلَّ وطابَ ، فخرجَ معاذُ عند ذلك إلى الشَّام»[2].

* وهكذا نجدُ أنَّ الكرمَ سجيةٌ متأصّلةٌ في نفسيَّةِ سيّدنا معاذ رضي الله عنه ممّا حَدا بأبي نُعيم الأصبهاني أن يذكُرهُ في مُستَهلِّ ترجمته بالكَرم ، والعِلْم ، والوفاء ، فيقولُ: «ومنهم أبو عبد الرّحمن معاذُ بنُ جبل ، المحكّم للعَدْل ، التّاركُ للجدل ، مقدامُ العُلماء ، وإمامُ الحُكماء ، ومطعامُ الكُرماء ، القارىءُ القانتُ ، المحبُّ الثَّابتُ ، السَّهْلُ السَّري ، السَّمحُ السَّخي ، المولى المأمون ، والوفي المصُون ، مؤتمنٌ على العبادِ والأموال ، ومصونٌ من الموانعِ والأحوال»[3].

---

(١) قال أبو نُعيم في «الحلية»: «وغرماءُ معاذ بن جبل كانوا يَهوداً ، فلهذا لم يضعُوا عنه شيئاً».

(٢) انظر: الاستيعاب بهامشِ الإصابة (١٠/١٠٨ ـ ١١٠).

(٣) حليةُ الأولياء (١/٢٢٨).

الإمامُ الفَقِيهُ الصَّالحُ:

* عندما تحدَّثَ الإمامُ النَّوويُّ رحمه الله عن سيّدنا معاذِ بن جبَل رضوان الله عليه نَعَتَهُ بقولِهِ: «معاذُ بنُ جبل. . . الفقيهُ الفاضلُ الصَّالحُ. . . »[1].

* ونعتَه كذلك الذَّهبيُّ بقوله: «السَّيّدُ الإمامُ أبو عبد الرّحمن الأنصاريّ».

* وأمَّا ابنُ حجر فقد أصابَ وصفَه في «الإصابة» بقوله: «معاذُ بن جبل. . . أبو عبد الرَّحمن الأنصاريّ الخزرجيّ، الإمامُ المقدّمُ في علْمِ الحلالِ والحرام. . »[2].

* وقال أيضاً: «مناقبُ معاذ رضي الله عنه كثيرةٌ جدّاً».

* ويمكنني أن أقول الآن: «إنَّ سيّدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه من الصَّحابةِ الأعلامِ الكبار الذين لهم دويٌّ في عالَمِ العُلَماء، ولهم ذكْرٌ حميدٌ في ثنايا السُّطور، وفي حنايا القُلوب، وفي خبايا الصُّدور».

* ولعلَّ من أعظمِ مناقب معاذ رضي الله عنه جَمْعَهُ القرآنَ الكريمَ، ولقد شهدَ له بهذه الفضيلةِ قومُهُ الخزرج، بل افتخروا به مع ثلاثةِ آخرين جمعُوا القرآنَ الكريم في عَهْدِ رسولِ الله ﷺ، ولم يجمعْهُ أحدٌ غيرهم، وفي هذا يشهدُ أنسُ بنُ مالك أحد علماءِ الصَّحابة حيثُ قال: «جمعَ القُرآنَ على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ أربعةٌ كلُّهم من الأنصار: أبيُّ بنُ كَعْب، ومعاذُ بن جبل، وزيدُ بن ثابت، وأبو زيد أحد عُمومتي»[3].

* وهناك أمْرٌ نبويٌّ ووصيّةٌ محمّديّةٌ؛ بأنْ يُؤخذَ القرآن من أربعةِ علماء أحدهم معاذُ، وهذا الأمْرُ المحمديّ يرويه واحدٌ من عُلماء الصَّحابة، وأحدُ العَبادلةِ الأربعةِ، عبد الله بن عمرو حيث يقول: قال رسولُ الله ﷺ: «خُذوا

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٩٨).

(٢) الإصابة (٩/ ٢١٩).

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن برقم (٥٠٠٣)، ومُسلم في فضائل الصحابة برقم (٢٤٦٥)، والتّرمذي في المناقب برقم (٣٧٩٦).

القرآنَ من أربعةٍ: من ابن مسعود ، وأُبيّ ، ومعاذِ بن جبل ، وسالم مولى أبي حذيفة»[1].

* وشهدَ النَّبيُّ ﷺ لمعاذ بن جبل ، بالعِلْم والفَهمِ بين الحلال والحرام ، حيث قال: «أرحمُ أُمَّتي بأمّتي أبو بكر ، وأشدُّهم في دِيْن الله عمر ، وأشدهم حياءً عثمان ، وأقْضَاهم عليّ ، وأعلمُهم بالحلالِ والحرام معاذُ بنُ جبل ، وأفرضُهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبيّ بن كعب ، ولكلّ أمة أمين؛ وأمينُ هذه الأمّة أبو عُبيدة بن الجراح»[2].

* وكان معاذُ رضي الله عنه إمامَ قومهِ في حياةِ رسولِ الله ﷺ ، فكان يصلّي مع رسولِ الله ، ثم ينصرفُ إلى قومه فيصلّي بهم ، ولهذا كان النّبيّ ﷺ يأمرُ أصحابَه بأنْ يقتدوا بمعاذ ، ويصنعُوا كما يصنع.

* أخرج الإمامُ أحمد رحمه الله بسنده عن عبد الرحمنِ ابن أبي ليلى عن معاذ قال: «كان النَّاسُ على عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ إذا سُبِقَ الرَّجل ببعضِ صَلاتِه ، سألهم فأومؤوا ـ أَشَارُوا ـ إليهِ بالذي سُبِقَ به من الصَّلاة ، فيبدأ فيقضي ما سبقَ ، ثمَّ يدخلُ مع القومِ في صلاتهم ، فجاءَ معاذُ بنُ جبل ، والقوم قعودٌ ، فلما فرغ رسولُ الله ﷺ قامَ فقضى ، ما كان سُبقَ به ، فقال رسولُ الله ﷺ: «اصنعُوا كما صنع معاذ»[3].

* ويمكننا أن نقول: «هذه إشارةٌ نبويّةٌ إلى المكانةِ العِلْميّة التي بلغَها سيّدنا معاذُ بن جبل ، وإلى مكانة الفِقْه التي تصدرهَا ، لذا فقد وقعَ اختيارُ

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه ، في فضائل القرآن برقم (٤٩٩٩) ، وفي الفضائل برقم (٣٧٥٨) ، ورقم (٣٧٦٠ و٣٨٠٦ و٣٨٠٨) ، ومسلم في الفضائل برقم (٢٤٦٤) ، والترمذي في المناقب برقم (٣٨١٢).

(٢) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٩٩) ، وطبقات ابن سعد (٣/ ٥٨٦) ، والحديث ذو إسناد صحيح ، فقد أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٨٤ و٢٨١) ، والترمذي برقم (٣٧٩٣ و٣٧٩٤) ، وابن ماجه في المقدمة (١٥٤) ، ومعنى «أفرضهم»: أكثرهم علماً بالمواريث.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٣) ، وانظر: الاستبصار (ص ١٣٧).

النَّبيّ ﷺ حينما فَتَحَ مكّة أنْ يجعلَ مُعاذاً خليفةً فيها حتّى يعلّمَ أهلَها القُرآن الكريم ، وحتّى يفقّههم في أمور الدِّين»[1].

كَيْفَ تَقْضِي يَا مُعَاذُ؟

* كان القرآنُ الكريمُ هو المصدرُ الأوّلُ والمعينُ الأساسيّ الذي يستقي منه معاذُ بن جبل الأحكامَ الشَّرعيّةَ ، ثمّ يليه الحديثُ النّبوي الشّريف ، وما صنعه رسولُ الله ﷺ ، فإذا ما عرضَتْ مسألةٌ ولم يجدْهَا في ذَينكِ المصدَرَيْنِ الرئيسَيْن ، عمدَ إلى الاجتهادِ وفقَ مقتضى كتابِ الله عزَّ وجلَّ ، وسنّة المصطفى ﷺ.

* ولقد نوّه الصَّادق المصدوق ﷺ إلى أهليةِ معاذِ بن جبل في مجال الاجتهاد والقضاء والفتوى والاستنباط ، فقد جاء عن معاذ: «أنَّ رسولَ الله ﷺ بعثَه إلى اليمن قاضياً وفقيهاً وأميراً وجابياً للصَّدقات ، وقال له: «كيف تقضي إنْ عرضَ لك القضاء»؟

قال: أقضي بما في كتابِ الله.

قال: «فإنْ لم يكن ذلك في كتابِ الله»؟

قال: أقضي بسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ.

قال: «فإن لم يكن ذلك في سُنة رسولِ الله»؟

قال: أجتهدُ رأيي ولا آلو.

فضربَ رسولُ الله ﷺ صَدرَهُ بيده وقال: «الحمدُ لله الذي وفَّق رسولَ رسول الله ﷺ لما يُرضي رسولَ الله ﷺ»[2].

* وقد اختارَ النَّبيُّ ﷺ لِتَعْليمِ أهل اليمن رجلَيْن من خيارِ أصحابِهِ

---

(١) انظر المستدرك (٣/ ٢٧٠).

(٢) انظر: أخبار القضاة لوكيع (١/ ٩٨) ، طبعة عالم الكتب ببيروت ، والحديث أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٣٦ و٢٤٢) ، وأبو داود في الأقضية برقم (٣٥٩٢ و٣٥٩٣) ، والتّرمذي في الأحكام برقم (١٣٢٧ و١٣٢٨) ، وابن سعد في الطّبقات (٣/ ٥٨٤).

وفضلائهم وهما: أبو مُوسى الأشعريّ العالمُ القارئ الحاذقُ الفَطنُ؛ ومعاذُ بن جبل الشّاب القاضي الذّكي الفَطن الأمير[1].

* وكان بَعْثُ معاذ إلى اليمنِ في أواخرِ حياةِ النَّبيِّ ﷺ ، وذلك ليعْلِّم أهْلَها شرائعَ الإسلام ومقاصدَ الدِّين ، ومن هنا اختار النَّبيُّ ﷺ هذَيْن العلمَيْن العالميْن لما عُرفا به من العلْمِ والفقْهِ والعملِ ليكونا مرشدَيْن لأهلِ اليمن ، وزوّدهما بوصيّةٍ خالدةٍ تدلُّ على يسرِ الإسلام حيثُ قال لهما: «يسِّرا ولا تُعسِّرا ، وتطاوعا ولا تنفّرا».

فقال له أبو موسى: «إنَّ لنا شراباً يُصنعُ بأرضنا من العسَل يقال له: البِتْع ، ومن الشَّعير يقال له: المِزْر ، فقال له النّبي ﷺ ، كلُّ مُسْكر حرام».

فقال معاذ لأبي موسى: «كيف تقرأُ القُرآن»؟

قال: «أقرؤه في صَلاتي ، وعلى راحلتي قائماً وقاعداً ومُضطجعاً ، أتفوّقُه تفوّقاً».

فقال معاذ: «لكنّي أنامُ ، ثمّ أقومُ ، فأحتسبُ نومتي ، كما أحتسبُ قَومتي».

قال: فكأنَّ مُعَاذاً فُضِّل عليه[2].

وصايا تربويّةٌ لمعاذ:

* في رحلةِ الاستعدادِ المُعَاذيّة إلى اليمن ، زوّدَ النَّبيُّ ﷺ تلميذَه النَّجيبَ

---

(١) عن الأسود بن يزيد بن قيس النَّخعي قال: «أتانا معاذُ بنُ جبل رضي الله عنه باليمن معلّماً وأميراً . .» (إرشاد السَّاري ٩/ ٤٢٩).

(٢) انظر مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ٣٧٣) ، والحديث أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٤١٠ و٤١٦ و٤١٧) ، والبخاري في مواضع ، فقد أخرجه في المغازي برقم (٤٣٤٤ و٤٣٤٥) ، وفي الأدب برقم (٦١٢٤) ، وفي الأحكام برقم (٧١٧٢) ، ومسلم في الأشربة برقم (١٧٣٣) ، وابن ماجه في الأشربة برقم (٣٣٩١) ؛ ومعنى: «البتع»: نبيذ العسل ، و«المزر»: نبيذ الشعير ، و«أتفوقه»: أقرؤه جُزْأةً: أي أقرؤه شيئاً بعد شيء في آناء الليل والنهار ، لا مرة واحدة.

معاذ بن جبل بزادٍ مَن الوصايا المباركةِ ، وكانت هذه الوصايا تفصِحُ عن أسلوبِ الدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ ، وإلى نَشْر الإسلام في ربوعِ اليمن وبين أهلِها الذين عُرفوا بِرِقَّةِ الأفئدةِ ، وصدقِ العاطفةِ ونُبْلها.

* ومن بين الوصايا النَّبويَّة لمعاذ نقرأُ هذه الوصيّةَ الكريمةَ التي أضاءتِ الطَّريقَ بين يدي معاذ الشَّاب العالم الدَّاعية ، وتلميذ النُّبوة النَّجيب ، حيث قال له النَّبيُّ ﷺ مبيّناً له مراحل الدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ: «إنَّك ستأتي قوماً أهْلَ كتابٍ ، فإذا جئتهم ، فادعُهم إلى أنْ يشهدوا أنْ لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله ، فإن هم أطاعُوا لك بذلك ، فأخبرهم أنَّ الله قد فرضَ عليهم خَمْسَ صلوات في كلّ يوم وليلة ، فإن هم أطاعُوا لك بذلك ، فأخبرهم أنَّ اللهَ قد فرضَ عليهم صدقة[1] ، تُؤخَذُ من أغنيائِهم ، فتُردُّ على فقرائهم ، فإنْ هم أطاعُوا لك بذلك ، فإيَّاك وكرائم أموالِهم ، واتقِ دعوةَ المظلوم ، فإنّه ليس بينها وبينَ الله حجاب»[2].

* ومن جملةِ ما أوصى به النَّبيُّ ﷺ مُعاذاً ألا يأخذَ شيئاً من أموالِ النَّاس لنفسه ، وألا يسرفَ في التَّنعُّم ، وحذَّره من التَّرفِ والتَّبذير ، فالعُبّاد الأصفياءُ يتنعّمون بذكْرِ الله ، ويرفلون في تسبيحه ، ويروي معاذٌ رضي الله عنه خبرَ هذه الوصيّة عندما بعثه النَّبيّ ﷺ إلى اليمن قال: «إيَّاي والتَّنعُّم فإنَّ عباد الله ليسوا بالمُتنعِّمين»[3].

---

(١) لم تتوقف الوصايا النَّبوية عند هذا الحدّ ، وإنما كانت تشمل تنظيم الحياة الاقتصادية في المجتمع آنذاك ، ومن أمثلة ذلك ، أن رسول الله ﷺ أمرَ معاذاً أن يأخذَ من كل محتلم ديناراً ، أو قيمته من المعافريّ ـ وهي ثياب تكون باليمن ـ أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٣٠ و٢٣٣ و٢٤٧) ، وأبو داود برقم (٣٠٣٨ و٣٠٣٩) ، والتّرمذي برقم (٦٢٣) ، وابن ماجه برقم (١٨٠٣) ، والنَّسائي (٥/ ٢٥ و٢٦) ، والحاكم (١/ ٣٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٢/ ٦٢٣) ، ومسلم في الإيمان (١/ ٣٦) ، وأخرجه كذلك أصحاب السُّنن: أبو داود ، النَّسائي ، ابن ماجه ، والترمذي ، وانظر: فتوح البلدان للبلاذري (ص ٨٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٥٤٣).

* بدأَتْ لحظاتُ الوداعِ تبسطُ أجنحتَها على معاذ ، فقد هيّأَ زادَهُ وراحلتَه ، ثم يمّمَ وجهَهُ نحو المسجدِ النّبويّ ، فخرجَ رسولُ الله ﷺ ، وأخذ بيده ثمَّ مضى معه في الطَّريق تِلْقَاءَ اليمن ، وراحَ يُوصيهِ وصيَّةً جامعةً نافعةً فقال له: «يا معاذُ إنّي أوصيك بتقوى الله ، وصدقِ الحديث ، ووفاءِ بالعهدِ ، وأداء الأمانة ، وتركِ الخيانةِ ، ورحمةِ اليتيم ، وحفظِ الجار ، وكظْمِ الغيظِ ، وخَفْضِ الجناح ، وبذل السَّلام ، ولينِ الكلام ، ولزومِ الإيمان ، والتفقُّهِ في القرآن ، وحبّ الآخرة ، والجزعِ من الحسابِ ، وقصرِ الأمل ، وحسْنِ العملِ.

وأنهاكَ أنْ تشتمَ مُسلماً ، أو تكذّبَ صادقاً ، أو تصدقَ كاذباً ، أو تعصي إماماً عادلاً.

يا معاذ ، اذكرِ اللهَ عند كلّ حجرٍ وشجر ، وأحْدِثْ مع كُلّ ذنبٍ توبةً ، السِّرُّ بالسِّرِّ ، والعلانيةُ بالعلانيةِ ، وَعُدِ المريضَ ، وأسرعْ في حوائجِ الأراملِ والضُّعفاء ، وجالسِ الفقراءَ والمساكين ، وأنصفِ النَّاس من نفسِكَ ، وقلِ الحقَّ ولا تأخذْكَ في اللهِ لومة لائم»[1].

* وقال له أيضاً: «أخلصْ دينكَ يكْفِكَ القليلُ من العمل»[2].

* دنتْ لحظاتُ الوداع ، وبدأتْ بدايةُ الرِّحلةِ المعاذيّة الميمونةِ إلى اليمن ، واعتلى معاذٌ ظهْرَ راحلته ، ورسولُ الله ﷺ يمشي تحت راحلته ، فقال له: «يا معاذُ ، إنَّك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، أو لعلَّك أنْ تمرَّ بمسجدي هذا أو قبري».

فبكى معاذُ جشَعاً ـ حزناً ـ لفراقِ رسول الله ﷺ ، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «لا تبكِ يا معاذ ، البكاءُ ـ أو إنَّ البكاءَ ـ من الشَّيطان»[3].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٤٠ و٢٤١) ، وانظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ٣٧٠).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٢٤٤).

(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ٤٧٢) ، والحديث أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٥) ، وهذا الحديث من دلائل نبوته ﷺ.

ثمَّ التفتَ رسولُ اللهِ ﷺ ، فأقبلَ بوجهه نحو المدينة ، وقال: «إنَّ أولى النَّاس بي المتّقون مَنْ كانوا وحيث كانوا»[١].

* ويروي معاذُ آخر الوصايا النّبوية له وهو متوجّه نحو اليمن ، فقد أخرجَ ابنُ سعد بسنده عنه قال: «كان آخر ما أوصاني به رسولُ الله ﷺ ، حين جعلتُ رجلي في الغَرْزِ: أَنْ أَحْسن خلقَكَ مع النَّاس»[٢].

* وسارَ معاذُ نحو اليمن وقد اغرورقتْ عيناهُ بدموعِ الفراق ، ولما ودَّعهُ النَّبيُّ ﷺ دعا له فقال: «حفظكَ اللهُ من بينِ يديك ، ومن خلفِك ، وعن يمينك ، وعن شمالِك ، ومن فوقك ، ومن تحتكِ ، ودرأَ عنك شرورَ الإنس والجنِ ، وشّر كلّ دابة هو آخذٌ بناصيتها»[٣].

* وسار معاذُ حتى انتهى إلى عملهِ ، فبدأ بصنعاء[٤] ، ثم ثنّى بالجند[٥].

* ها هو ذا سيدنا معاذ قد وصلَ اليمنَ ، وهاهو ذا يوضّحُ مهمته قائلاً لهم: «إنِّي رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكم ، اتّقوا الله ، واعملُوا بجدٍ ، فإنّما هي الجنّةُ والنَّار ، خلودٌ فلا موت ، وإقامةٌ بلا ظعن ، كُل أمرٍ عمل به عاملٌ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٥) ، وانظر: مجمع الزوائد (٩/ ٢٢) ، وقال الهيثمي: «رواه أحمد بإسنادين وقال في أحدهما عن عاصم بن حُميد أنَّ معاذاً قال وفيها قال: «لا تبكِ يا مُعاذ! البكاءُ ـ أو إن البكاء ـ من الشَّيطان ، ورجال الإسنادين رجال الصَّحيح غير راشد بن سعد ، وعاصم بن حميد ، وهما ثقتان» ، ومعنى: «وحيث كانوا»: أي من أي قوم كانوا في ـ أي مكان وجدوا ـ.

(٢) طبقات ابن سعد (٣٠/ ٥٨٥) ، وبهجة المجالس (١/ ٥٩٦) ، ومعنى «الغرز»: موضع القدم عند ركوب الدابة.

(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ٣٧٢) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٤٨ و٤٤٩).

(٤) «صنعاء»: وردتْ في السّيرة في بضعةِ مواضعَ ، ويتعدد اسم مدينة صنعاء كثيراً في بلاد العرب ، منها: صنعاءُ اليمن وهي أشهرُ المدن ، وإذا أُطلق لفظ صنعاء فالمقصود صنعاء اليمن ، وصنعاء الشّام قرب دمشق ، وصنعاء الحجاز شمال المدينة المنورة.

(٥) «الجندُ»: أحد مخاليف اليمن في عَهْدِ رسول الله ﷺ ، وكان عاملُه لرسول الله ﷺ معاذ بن جبل الأنصاري رضي الله عنه.

فعليه ولا له ، إلاَّ ما ابتغيَ به وجْه الله ، وكلّ صاحب استصحبه أحد خاذلُه وخائنُه إلا العمل الصالح ، انظروا لأنفسِكم فأَضرّوا لها بكلّ شيء ، ولا تضرّوا بها لشيء»[1].

* استقرّ معاذٌ رضي الله عنه في منطقةِ الجَنَد ، وكان أوّلُ ما عمله أنْ أسَّس فيها مسجداً ، اقتداءً برسولِ الله ﷺ عندما بنى مسجد قباء أوّل قدومه المدينة المنورة. . . ترى ماذا صنعَ معاذ في اليمنِ أيضاً؟ في الفقرة الآتيةِ نتعرفُ بعضَ أعمالِهِ وعلومِهِ وقضَائِهِ.

بصيرتُهُ وحَصَافتُه في القضاء:

* كان معاذٌ يعملُ ـ وهو باليمن ـ وفقَ الأوامر المحمّديّة والوصايا النَّبويّة ، فتولّى تعليم النَّاس الإسلام ، وأخذ يدرّسُهم القرآنَ ، وهو لا يزالُ في ريعانِ الشَّبابِ ، وكان وجيهاً عند النَّبيِّ ﷺ ، وفي عيون المسلمين ، فقد أحبّه النَّاس ، واقتدوا بما يقوله وما يفعله ، ومن طرائف ما حدث له في الاقتداء به ما ذكرهُ الجاحظُ قال: «ومن العُرجان: معاذُ بن جَبل ، قالوا: وكان معاذُ أمّة ، وكان يُشبه إبراهيم خليل الرّحمن ، ولم يكنْ في السَّلفَ جُردة ، ولا أنعم بدناً من معاذ ، وسهل بن حنيف ، وقال النَّبيُّ ﷺ: «آمن كلُّ شيءٍ من معاذ حتَّى خاتمه».

وكان يُعدُّ من الزُّهاد السِّتة ، وقد شهدَ المشاهدَ ، ووليَ للنَّبي ﷺ الولايات ، وقَبْضَ الصَّدقَاتِ وتعليمَ النَّاس الإسلام ، وتدريسَهم القرآن وهو ابن أقلّ من عشرين سنة ، وكان عند رسولِ الله وجيهاً ، وفي عيون المسلمين عظيماً»[2].

* ويتابعُ الجاحظُ حديثَه فيقول: «بعثَ النَّبيُّ ﷺ معاذَ بن جبل إلى اليمن

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ٣٧٣) ، وسير أعلام النُّبلاء (١/ ٥٠) مع الجمع والتصرف.

(٢) انظر: البرصان والعرجان والعميان والحولان (ص ٣٣٧) بتحقيق عبد السَّلام هارون ١٩٨٢ م.

فنزلَ في حيٍّ منهم وقال: لا تروني أصنعُ شيئاً إلا صنعْتُم مثلَه؛ وكان به عَرَجٌ ، فكان إذا صلّى قدَّم إحدى رجليه؛ فلمَّا صلُّوا لم يبقَ منهم أحدٌ إلا قدَّم إحدى رجلَيْه؛ فلمّا انصرفُوا قال لهم: إنما فعلتُ هذا من عرجٍ ، فلا تفعلُوا مثل هذا».

* وزعموا أنَّه صلّى إلى قربِ شجرةٍ ، فكان غصنٌ منها قد أضرَّ بإحدى عينَيْه ، فتناوله فكَسَرهُ ، فلم يبقَ أحدٌ ممن خلْفَه إلا تقدَّم إلى الشَّجرة فكسَر منها غُصْناً.

* قالوا: ولما قدمَ معاذٌ على النَّبيِّ ﷺ ومعه أصحابُه الذين قدم بهم ، سجدوا للنَّبيِّ ﷺ ، وكانوا يرون ذلك من صنيعِ العامة تعظيماً للنَّبيِّ ﷺ ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «اسجدوا لربّكم ، وأكرموا أخاكم ، ولو أمرتُ أحداً أن يسجدَ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لِبَعْلِها»[1].

* وينبغي أن نعرف أيضاً من سيرة هذا العالمِ العَيْلم ، أنَّه قام في اليمنِ بوصيةِ رسولِ الله ﷺ ، فَيَسَّر وبشَّرَ وعلّم أهل الكتاب مفتاحَ الجنَّة ، وهو: شهادة أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأنَّ محمداً عبد الله ورسوله؛ وجاءته امرأة يوماً من أهل اليمن فقالت له: «يا صاحبَ رسولِ الله ، ما حق الزَّوج على الزَّوجة»؟ فقال لها: «ويحك!! إنَّ المرأة لا تقدرُ على أنْ تؤديَ حقَّ زوجها ، فاجهدي نفسَك في أداء حقّه ما استطعتِ».

قالت: «والله لئن كنتَ صاحب رسولِ الله ﷺ ، إنَّكَ لتعلمُ ما حقّ الزَّوج على المرأة».

قال: «ويحكِ!! لو رجعتِ إليه ، فوجدْتِه تسيلُ منخراه قيحاً ودماً فمصصتِ ذلك حتى تذهبيه ، ما أدّيتِ حقَّه».

* ولنستعرِضْ هذه التَّغريدةِ الجميلةِ التي تحكي قصَّة إرسالِ معاذ إلى اليمن ، وبعض أعماله هناك ، وما جرى له مع هذه المرأة:

---

(١) المصدر السَّابق نفسه (ص ٣٣٨).

قَـدْ أرسَـلَ الهَـادي مُعـاذاً مِـنْ خِيـارِ المُسلميـن
اذهـبْ إلـى قـومٍ بـأطـرافِ الجَـزيـرةِ مُبْعِـديـن
كـنْ كـالـدُّعـاة مُسلَّحـاً بـالحِلْـم والعِلـمِ الأميـن
فـي الـدِّيـن يُسْـرٌ لا تُعَسِّـرْ شيمَـة المُتنطِّعيـن
أيضـاً وبشِّـرْ لا تُنفِّـرْ للـرِّجـال الـرَّاغبيـن
أَهْـلُ الكتـابِ سيسـألـون لهـم عقـولُ العـارفيـن
بعـضُ المَسَـائـل يعـرفـونَ جـوابَهـا هـذا يقيـن
منهـا فَمـا مفْتـاحُ جَنَّـةِ ربِّنـا للـدَّاخليـن
وليشْهـدوا بـاللهِ ربّـاً نِعْـمَ ربّ العـالميـن
الـوفـدُ قـد وصلُـوا هنـالـكَ بَعْـدَ لأْيٍ مُتْعَبيـن
وهنـاكَ سَـائِلَـةٌ أَتَتْـهُ لِتَسْـألَـنَّ وتَسْتَبيـن
قـالـتْ فمـا حقُّ الرِّجـال علـى النِّساء كمـؤمنيـن
فـأجـابَهـا هـذا كثيـرٌ فـوقَ طَـوقِ القـادريـن
فَلْتَجْهَـدِ امْـرأةٌ لِطَـاعـةِ زوجِهـا فـي الطَّـائعيـن

* ولسيّدنا معاذٍ رضي الله عنه بعضُ الأخبار الجميلةِ في القضاء وأحكامه ، فقد كان قاضياً خبيراً بالقضاء في ضوءِ القُرآن والسُّنَّة ، وقلَّما استعصَتْ عليه مسألةٌ ، لأنَّه كان يقتبسُ أحكامَه من كتاب الله عزّ وجلّ وسنّةِ رسولِ الله ﷺ.

* ومن هذا ما نقرأُ قضاءَه في يهودي ماتَ ، وتركَ أخاً مُسْلماً.

* روى أبو الأسود الدؤلي هذا فقال: «كان معاذٌ في اليمن ، فاختصمُوا إليه في يهودي مات ، وتركَ أخاً مسلماً ، فقال معاذ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الإسلامَ يزيدُ ولا ينقصُ» ، فورَّثه[1].

* وذكرَ الأسودُ بنُ يزيد قضاءَ معاذ في ميراثٍ في حياةِ رسول الله ﷺ فقال: «قضى معاذٌ باليمنِ ورسولُ الله ﷺ حيٌّ في رجلٍ ترك أختَه وابنتَه ،

(١) أخبار القضاة لوكيع (١/ ٩٩) ، والحديثُ أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٣٠).

فأعطى البنتَ النّصف ، وأعطى الأختَ ما بقي»[1].

* أمَّا رأيُّ معاذٍ وفقهُهُ في رجل ارتدَّ عن الإسلامِ فيوضّحُه الخبرُ التّالي الذي أخرجَه الإمامُ أحمدُ بسندٍ رفَعَهُ إلى أبي بردةَ الأشعريّ قال: «قدمَ على أبي مُوسى معاذ بن جبل باليمن ، فإذا رجلٌ عنده ، قال: ما هذا؟

قال: رجلٌ كان يهودياً فأسلمَ ، ثم تهوَّدَ ، ونحن نريدهُ على الإسلام منذ ـ قال: أحسبهُ ـ شهرَيْن.

فقال: واللهِ لا أقعدُ حتى تضربُوا عنقَه.

فَضُربَتْ عنقُه ، فقال: قضى اللهُ ورسولُه: «أنَّ مَنْ رجعَ عن دينهِ فاقْتلُوه»؛ أو قال: «مَنْ بدَّلَ دينَه فاقتلوه»[2].

* وفي فترة إقامةِ معاذ باليمن ، ابتُلِيَ النَّاسُ بإعصار من الفتن ، إذ ارتدَّ عددٌ عن الإسلام هنالك ، وكان سببُ هذا الإعصار الأهوجِ أحدَ كُهَّان اليمن ، ويدعى: عَبْهلة بن كعْب العنسي المشهور بلقب الأسود العنسي ، وكان من مشاهيرِ المُشَعبذين في هاتيكَ الأطلالِ والدّمَن ، فادَّعى النُّبوة ، وأوهمَ بسطاء النَّاس بما كان يمخرقُه عليهم ، وامتدَّ خطرُهُ حتّى شملَ نجرانَ وصنعاءَ ، وكاد أمرهُ يستفحلُ باليمنِ كلّها.

* ولكنَّ دعوةَ هذا المتنبىء المزعُوم ظلَّتْ في المرحلةِ الجنينيّة ، ولم يُكتَبْ لها الولادةُ ولا الحياةُ ، وإنَّما قُضيَ عليها في مهدِها العَفِن ، إذ قُتِلَ الأسودُ العنسي ، وهو نائمٌ بيد رجلٍ مباركٍ[3] بعد أنْ دامتْ فتنتُه ما يزيدُ على ثلاثةِ أشهر ، ثم توفيَ رسولُ الله ﷺ بعد ذلك.

---

(١) أخبار القضاة (١/ ٩٩).

(٢) المسند (٥/ ٢٣١) ، وانظر: أخبار القضاة (١/ ١٠٠).

(٣) في ظلالِ تلك الفتنة الهوجاء كان الحبيبُ المصطفى ﷺ لا يزالُ حيّاً ، وقد أطلعهُ اللهُ عزَّ وجلَّ على ما جرى من قَتْل هذا الفاجر الأثيم في ليلةِ قتله ، وعندما أصبح قال: «قُتِلَ العنسي البارحة ، قَتله رجلٌ مبارك من أهل بيت مباركين». . . (البداية والنهاية ٦/ ٣١٠).

* بعد إخمادِ الفتنةِ العَنَسيّة غادرَ معاذُ اليمنَ ، وعاد إلى المدينةِ ، ولكنّه حضرَ موسم الحجّ قبل ذلك ، والتقى عمرَ بن الخطاب هنالك ، فعزّى كلّ واحدٍ منهما صاحبَه بالنّبيّ ﷺ ، ويبدو أنَّ معاذاً قد تذكَّر قولَ النّبيِّ ﷺ عندما قال له: «إنَّكَ عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلَّك أنْ تمرَّ بمسجدي وقبري. . .» واستسلم معاذُ لدموعهِ التي سبقَتْه ، وتدحرجَتْ على وجنتَيْه تحكيان صدْقَه وحبّه للنَّبيِّ ﷺ.

* وعندما انتهى موسمُ الحجِ ، عاد معاذٌ إلى المدينةِ المنورة ، وكان يقضي غالبَ أوقاتِهِ في المسجدِ النّبويّ الشَّريف ، إلى أنْ أَذِن له سيّدنا أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه بالخروجِ إلى الشَّام ليجاهد هناك[1].

شَذَرَاتٌ وأخْبارٌ مُعاذية:

* لمعاذِ بن جبل رضيِ الله عنه أخبارٌ كريمة مع النَّبيِّ ﷺ ، فقد أردفَهُ رسولُ الله ﷺ ذاتَ مرّةٍ خلْفَه ، وهذه خصوصيةٌ ميمونةٌ لمعاذ.

* روى معاذُ هذا فقال: «كنتُ رديفَ رسولِ الله ﷺ على حمارٍ يُقال له عَفير ، فقال: «يا معاذ هل تدري ما حقُّ اللهِ على عبادِهِ ، وما حقّ العباد على الله»؟ قلت: اللهُ ورسولُه أعلم.

قال: «فإنَّ حقَّ اللهِ على العباد: أنْ يعبدوه ، ولا يشركُوا به شيئاً ، وحقُّ العباد على الله ألا يعذّبَ مَنْ لا يشرك به شيئاً».

فقلت: يا رسولَ الله! ألا أبشّر به النَّاس؟

قال: «لا تبشّرهم فيتّكلوا»[2].

---

(١) من الجدير بالذكر أنَّ معاذَ بنَ جبل رضي الله عنه كان قد شهد بدراً ، وأحداً ، والخندق ، والمشاهدَ كلّها مع رسولِ اللهِ ﷺ ، ولم يفتْهُ مشهد ، أو غزوة.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٤٤) ، وأحمد (٥/ ٢٢٨).

* ولقد جاء الثَّناءُ من النَّبيِّ ﷺ على معاذ فقال: «نعْمَ الرَّجلُ معاذُ بنُ جبَل»[1].

* وكان النَّبيُّ ﷺ يحبُّ معاذاً، وقد أفصحَ له عن هذه النَّاحيةِ، وهنيئاً وطوبى لِمَنْ أحبَّه النَّبيّ ﷺ.

* ويرسمُ لنا صورةَ هذا الحُبِّ النّبويّ معاذُ بنُ جبل نفسه، فلنقرأْ هذه الصّورةَ الجميلةَ... قال معاذُ: «لقيني النَّبيّ ﷺ فقال: «يا معاذُ، إنِّي لأحبُّكَ في الله» قلت: وأنا واللهِ يا رسولَ الله أحبُّك في الله.

قال: «أفلا أعلّمك كلماتٍ تقولهنّ دُبُر كلّ صلاة: ربِّ أعِنّي على ذِكْرِكَ وشكرِكَ وحسْنِ عبادتك»[2].

* وفي هذا الحبّ النَّبوي مزيد تشريفٍ من النَّبيّ ﷺ لمعاذ، وترغيبٌ له فيما علَّمه من الذِّكْر من طاعةِ اللسانِ والجنَانِ والأركان؛ وذلك قبل السَّلام من نهاية الصَّلاة وبعده.

* وكان لمعاذ رضي الله عنه أخبارٌ طيِّبةٌ مع ثلّة من علماءِ الصَّحابة وأكابرِهم وأعيانهم، وقد شهدَ له بالفَضْل والزُّهد عددٌ منهم، فقد تمنّى سيّدنا عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه أنْ يكونَ معاذُ بن جبل هو الذي يلي الخلافةَ بعده، ولكنَّ معاذاً توفي منْ قبلُ، وهاهو ذا سيّدنا عمرُ ينقلُ لنا خَبراً ميموناً يزيدُ من رصيد السّيرة المعاذية في الفَضْل والعلْمِ فيقول: «لو أدركتُ معاذاً، ثم ولّيته، ثم لقيتُ ربّي، فقال: مَن استخلفتَ على أمّة

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/٣٦٩)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٩٩)، والحديث أخرجه الترمذي في المناقب برقم (٣٧٩٧).

(٢) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/٣٧٤)، والحديث أخرجه أبو داود في الصلاة برقم (١٥٢٢)، والنسائي في السهو (٣/٥٣)، والحاكم في المستدرك (٣/٢٧٣)، وصححه ابن حبان (٢٣٤٥).

محمّد؟ لقلتُ: سمعتُ نبيّكَ وعبدكَ يقول: «يأتي معاذُ بنُ جبل بين يدي العُلَماء برتوة»[١].

* وكان سيدنا عبدُ الله بنُ مسعود العالمُ الصَّحابي الكبيرُ ممن يُجِلُّ معاذاً ويحترمُهُ، وكان يقولُ لتلاميذه: «إنَّ معاذَ بنَ جبل كان أمَّةً قانتاً لله حنفياً».

فقال له فروةُ بنُ نوفل: «نسيَ أبو عبد الرحمن ـ كنية ابن مسعود ـ أإبراهيمُ خليل الله تعني»؟!

قال ابن مسعود: «وهل سمعتني ذكرتُ إبراهيم؟ إنّا كُنَّا نشبِّه معاذاً بإبراهيم».

فقال له رجلٌ: «ما الأمَّة»؟

قال: «الذي يعلّمُ النَّاسَ الخير، والقانت: الذي يطيعُ الله ورسوله، وإنَّ معاذاً كان مصلحاً معلّماً للخير، مطيعاً لله عزَّ وجلَّ، ولرسولهِ ﷺ»[٢].

* ومن الأخبارِ المباركة التي نظمتْ أكابرَ علماءِ الصَّحابة وهم: أبو بكر الصِّديق، وعمرُ الفاروق، ومعاذٌ، ما أوردته المصادر قالت: «قدمَ معاذُ من اليمن برقيق، فلقي عمرَ بمكَّة، فقال عمر: ما هؤلاء؟

قال: أُهْدوا لي.

قال عمر: ادفَعْهم إلى أبي بكر.

فأبى معاذ، وبات تلك الليلة، فرأى كأنَّه يُجَرُّ إلى النَّار، وأنَّ عمر يجذبُه؛ فلمَّا أصبحَ، انطلقَ إلى عمر، وقصَّ عليه رؤياه، وقال: يابنَ الخطَّاب، ما أراني إلا مطيعك، ثمَّ دفعَ معاذ الرَّقيق إلى أبي بكر،

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/٤٤٦)، وانظر فيه تخريج الخبر، ومعنى كلمة «رتوة»: رمية حجر.

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/٣٧٤)، وسير أعلام النبلاء (١/٤٥١) مع الجمع والتصرف.

فدفَعهم أبو بكر لمعاذ، ثمَّ أصبح معاذ، فرآهم يصلّون، فقال لهم: لمن تصلّون؟ قالوا: لله.

قال: فأنتم لله»[١].

* ومن خلال هذه الفضائل المُعاذيّة كان عبدُ الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: «حدِّثونا عن العالمين العاملَيْن: معاذِ بنِ جبل، وأبي الدَّرداء رضي الله عنهما». وإذا كان ابن عمر يحب الحديث عن هذين العالمين، فما عسانا أن نقول نحن؟! نسأل الله أن يحشرنا في معية هؤلاء الأعلام، فإنَّا والله نحبّهم.

* ولمعاذ قصصٌ جميلةٌ وأخبارٌ جليلةٌ في محاسنِ الفضائلِ وفضائلِ المحاسن، ومنها ما ذكره ابنُ عساكر «أنَّ معاذاً خرجَ بعودُ إنساناً فجعلَ لا يمرّ بأذى في الطَّريق إلاَّ أماطَه، ومعه صاحبٌ له، فجعلَ صاحبه كلَّما رأى أذىً أماطَه، فقال معاذ: ما حملَكَ على هذا؟ قال: الذي رأيتُكَ تصنع.

قال: أما إنَّه مَنْ أماطَ أذى في طريق، كتبَتْ له حسَنة، ومن كُتبتْ له حسنةٌ دخَلَ الجنَّة»[٢].

* وعن عبد الله بن سلمةَ قال: «قال رجلٌ لمعاذِ بنِ جبل: علّمْني، قال: وهل أنتَ مطيعي؟

قال: إنِّي على طاعتكَ لحريصٌ.

قال: صُمْ وأفْطِرْ، وصَلِ ونَمْ، واكتسبْ ولا تأثمْ، ولا تموتنَّ إلا وأنت مسلمٌ، وإيَّاك ودعوة المظلوم»[٣].

العَالمُ الوليُّ:

* قال سهلُ بنُ عبد اللهِ التُّسْتَري: «من أراد النَّظرَ إلى مجالسِ الأنبياءِ،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٤٥٤) بتصرف.
(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ٣٧٩).
(٣) تهذيب حلية الأولياء (١/ ١٨٣).

فلينظرْ إلى مجلسِ العُلَماء ، فاعرفُوا لهم ذلك».

* وروي عن أبي حنيفة والشَّافعي رحمهما الله أنَّهما قالا: «إن لم تكنِ الفُقهاءُ أولياءَ الله فليس لله وَليّ».

* وقد قرأنا في سيرةِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما في هذهِ الموسوعةِ المباركةِ ، أنَّه مع جلالةِ قَدْره ورئاستِه وعلمهِ ومرتبتهِ أخذَ بركَابِ زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه وقال: «هكذا أُمرنا أنْ نفعلَ بعُلَمائِنا».

* وقال سيّدنا عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: «ليس العِلْمُ بكثرةِ الرِّواية ، إنَّما العِلْم نورٌ يقذفُ في القلب».

* ويقال إنَّ الإمامَ الشَّافعي رحمه الله قد عُوتب على تواضعه للعُلماء فقال:

أَهيْنُ لَهم نَفْسِي فَهُمْ يُكرمونَها ولنْ تكرمَ النَّفسُ التي لا نُهينها[1]

* فقد بلغ من أدبِ الشَّافعي بين يدي الإمام مالك أنَّه قال: «كنتُ أتصفّحُ الورقةَ بين يدي مالكٍ رحمه الله تعالى تصفُّحاً رفيقاً هيبةً له لئلا يسمعَ وقعها».

* وكان سيدنا معاذُ بنُ جبل رضي الله عنه أحدَ علماءِ الصَّحابة الذين جمعُوا الفقْه والفتوى ، لذلك كان عمرُ بنُ الخطَّاب عليه سحائب الرضوان يشيرُ إلى فقْهِ معاذ بن جبل ويقول: «مَنْ أرادَ الفِقْه ، فليأتِ معاذَ بن جبل».

* وسيّدنا معاذُ بنُ جبل رضوان الله عليه واحدٌ ممن كانوا يُفتونَ في عَهْدِ رسولِ الله ﷺ ، وكانوا ثلاثةً من المهاجرين وهم: عمرُ ، وعثمان ، وعليٌّ ، وثلاثةٌ من الأنصار وهم: أُبيُّ بن كعب ، ومعاذُ بن جبل ، وزيدُ بنُ ثابت ، ـ وهذا ذكره ابن الأثير في أُسد الغابة ـ.

---

(١) هذا البيت في الحقيقة لأعرابي حجب عن باب السّلطان ، انظر البيان والتبيين (١٨٩/٢) ، وأمالي المرتضى (٢٠٥/١) ، والصناعتين (ص ٢٤٠) ، وإعجاز القرآن للباقلاني (ص ١٢٤).

* وهناك صحابةٌ آخرون كانوا يُفتون في حياةِ النَّبي ﷺ ، ومنهم: عمّارُ ، وعبد الرَّحمن بن عوف ، وحذيفةُ بن اليمان ، وأبو موسى الأشعري ، وسلمانُ الفارسي ، وأبو الدرداء ، وقد جمعَ أسماءَ هؤلاء الصَّحابة ابن قاضي عجلون[1] رحمه الله فقال:

لَقد كانَ يُفتِي في زمَانِ نَبيِّنا ... مِنَ الخُلَفاءِ الرّاشديْنَ أَئمةُ

مُعاذٌ وعمّارُ وزيدُ بنُ ثابت ... أبيٌّ ابنُ مسعودٍ وعوفٌ حُذيفةُ

ومنْهُم أبو مُوسى وسَلْمانُ حَبْرهُم ... كذاكَ أبو الدَّرداءِ وهو تتمةُ

وأَفْتىٰ بِمَرْآهُ أبو بكْرٍ الرّضَا ... وصدَّقَه فيها وتلْكَ مَزيَّةُ

وقال غيرهُ في بعضِ أسماء الصّحابة الذين كانوا يفتون في عهد النبي ﷺ:

وقد كان في عَصْرِ النَّبيِّ جماعةٌ ... يقومون في الإفتاء قومة قانت

فأربعةٌ أهلُ الخلافةِ منهم ... معاذٌ أُبيٌّ وابنُ عوفٍ وثابت

* وكان سيّدنا عمرُ رضي الله عنه إذا أرادَ أَنْ يستشيرَ أحداً ، استشارَ هؤلاء ، ومن بينهم معاذ العالمُ المُفتي رضي الله عنهم أجمعين وحشَرنا في معيّتهم.

* ومن المستحسن والمفيد هنا أنْ نشيرَ إلى بعضِ الآدابِ المهمّة التي ينبغي أنْ توجدَ في المُفتي ، ومنها ألا يُذِلَّ العِلْم ، ويصونَ العلْم كما صانه السَّلفُ ، ويعظِّمُه كما عظّموه ، قال الإمامُ الزُّهريُّ رحمه الله: «هوانُ العلْمِ أنْ يحملَه العالمُ إلى بيتِ المُتَعلّم».

* ومن آدابه أنْ يكونَ عالماً بعلمِهِ عاملاً بهِ ، فلا يكونُ عملُه مناقِضاً لقوله ، قال ربُّنا جَلّ وعزّ: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

---

(١) ابن قاضي عجلون هو محمدُ بنُ عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد الزرعي الدمشقيّ الشّافعي المعروف بابن قاضي عجلون ، نجم الدّين أبو عبد الله ، وُلدَ بدمشق سنة (٨٣١ هـ) ونشأ بها ، وهو فقيهُ متكلّمٌ له مصنّفات عديدة ، توفي في القاهرة سنة (٨٧٦ هـ) (الضوء اللامع ٨/ ٩٦) ، و(البدر الطالع ٢/ ١٩٧).

* والإفتاءُ كثيرُ الفضلِ والخير ، لأنَّ المفتي وارثُ الأنبياءِ ، ولهذا قالوا: «المفتي مُوَقِّعٌ عن اللهِ تعالى».

* ولذلك وجبَ من شروطِ المفتي أنْ يكون مسلماً ، مكلّفاً ، عدلاً ، ثقة ، مأموناً ، منزّهاً عن أسبابِ الفسْقِ ، وخوارمِ المروءة ، فَقيهَ النَّفس ، سليمَ الذّهن ، رصينَ الفكر ، صحيحَ التَّصرّف والاستنباط ، قويَ الضَّبط ، متيقظاً ، ظاهرَ الورع ، مشهوراً بالدّيانة والصّيانة الباهرة ، بالإضافة إلى صفاتٍ كثيرةٍ ، يصعُب حَصْرها هنا ، ولكنّا أوردنا ما يفي بالغرض ، ويضفي الفائدةَ إلى كتابنا هذا الذي أسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يجعلَه خالصاً لوجههِ الكريم وأنْ يجعلَه في صحائفِ المسلمين أجمعين ، ينتفعون به في حلِّهم وترحالهم.

* ونعودُ إلى سيرة معاذٍ رضي الله عنه ونرحلُ معه إلى الشَّام ، فقد توجَّه إليها مُجاهداً ، وعندما غادرَ معاذٌ المدينةَ قال عمرُ في حقّهِ: «لقد أخَلَّ خروجُهُ بالمدينة وأهلِها في الفِقْه ، وما كان يُفتيهم به ، ولقد كلّمْتُ أبا بكر أنْ يحبسَه لحاجةِ النَّاسِ إليه ، فأبى عليَّ وقال: رجلٌ أرادَ وجْهاً يريدُ الشَّهادة فلا أحبسُه فقلت: واللهِ إنَّ الرجل لَيُرزقُ الشَّهادةَ وهو على فراشِهِ وفي بيته»[1].

* وكان عمرُ رضي الله عنه يأنَسُ إلى رأي معاذ ، ويستشيره في بعضِ الأمور التي تهمُّ مصالح المُسلمين من ذلك أنَّ عمر لما قدم الجابية[2] بالشَّام ، وأراد قسمةَ الأرضِ بين المسلمين لأنّها فُتحتْ عنوةً ، قال له

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ٣٧٥) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٥٢).

(٢) «الجابيةُ»: قال ياقوتُ الحمويُّ رحمه الله في «معجم البلدان»: «الجابيةُ قريةٌ من أعمالِ دمشق من ناحيةِ الجولان في شمالِ حَوْران ، إذا وقفَ الإنسان في الصَّنمين ـ اسم بلدة واستقبلَ الشّمال ظهرت له ، وتظهرُ من نوىٰ ـ اسم بلدة ـ أيضاً.
وفي هذا الموضع خطبَ عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه خطبتَهُ المشهورة ، وبابُ الجابية في دمشق منسوبٌ إلى هذا الموضع ، ومعنى الجابية: الحوضُ الذي يُجبىٰ فيهِ الماء للإبل».

معاذُ بنُ جبل: «واللهِ لئن قسمتَها ليكوننَّ ما نكرهُ، ويصيرُ الشَّيءُ الكثيرُ في أيدي القوم، ثم يبيدون فيبقى ذلك لواحد، ثمّ يأتي من بعدهم قومٌ يسدّون عن الإسلام مسدّاً، فلا يجدون شيئاً، فانظرْ أمراً يَسَعُ أوّلهم وآخرهم».

فصار عمرُ إلى قولِ معاذ وعملَ بمشورته، لأنّه علم مدى دقّه فَهْمِهِ وفقْهِهِ.

* ومن الجدير بالذِّكرِ أنَّ الصَّحابةَ الذين رُويت عنهم الفُتيا كانوا مئةً واثنين وأربعين رجُلاً، وعشرين امرأةً، وجميعهم (١٦٢) منهم المكثرون وهم سبعةٌ: عائشةُ بنتُ سيّدنا أبي بكر الصّديق، وعليٌّ، وابنُ عمر، وابنُ عباس، وسعدُ بن أبي وقّاص، وحذيفةُ بنُ اليمان، وأبو بكَرة رضي الله عنهم، ومنهم ثلاثة عشر متوسّطون، والباقون مقلّون جدّاً ومن بينهم عددٌ لا بأسَ به من نساء الصَّحابة وبناتهم[1] وأمّهاتهم بل وأمهات المؤمنين، وغير ذلك من أبناءِ الصَّحابة[2] وآبائهم رضي الله عنهم أجمعين.

حصيلة معاذ الحديثيّة:

* سيّدنا معاذُ بنُ جبل رضوان الله عليه واحدٌ من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ الذين عُرفوا بكثرةِ العلْمِ، وعُرفوا بالفقْهِ والفُتيا، وغزارةِ المعرفة، وعلو المكانةِ عند النّبيّ ﷺ، ولكنّه لم يكن من المكثرين في روايةِ الأحاديثِ النّبويّة، وقد صنَّفه العلماءُ من أصحاب المئة وشيء وهم عشْرون[3]

---

(١) اقرأ كتابنا الجميل «بنات الصَّحابة» طبعة دار اليمامة بدمشق (ط٢ـ٢٠٠٥) ففيه فوائد جليلة.

(٢) انظر: جوامع السيرة النبوية (ص ٣١٩ ـ ٢٢٣).

(٣) إتماماً للفائدة أحببتُ أنْ أذكُرَ أسماء هؤلاء الصّحابة الأعلام ليزدان بهم هذا الكتاب وهم:

١ ـ سهلُ بنُ سعد له (١٨٨ حديثاً).

٢ ـ عبادة بنُ الصَّامت له (١٨١ حديثاً).

٣ ـ عمرانُ بنُ حصين له (١٨٠ حديثاً).

٤ ـ أبو الدَّرداء الأنصاري له (١٧٩ حديثاً).

صحابيّاً ، ومنهم معاذُ بنُ جبل رضي الله عنه فقد رُويَ له عن رسولِ الله ﷺ (١٥٧ حديثاً) ، أخرجَ له منها في الصَّحيحَيْن ستة أحاديث؛ المتّفقُ عليه منها اثنان؛ وانفردَ البخاري بثلاثة؛ ومسلم بحديث[١].

* روى عنه عددٌ من كبارِ عُلماءِ الصَّحابة ونجبائهم من مثل العَبادلة: ابن عبّاس ، وابن عمر ، وابن عمرو ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك رضي الله عنهم وحشرنا في معيتهم.

* كما روى عنه عددٌ من كبار الصَّحابة ومشاهيرهم ومنهم: أبو قتادة ، وأبو أمامة ، وأبو ثعلبة الخشني[٢] ، وعبد الرحمن بن سمرة ، وآخرون من الصّحابة رضي الله عنهم أجمعين.

= ٥ ـ أبو قتادة الأنصاري له (١٧٠ حديثاً).
٦ ـ بُريدةُ بن الحصيب له (١٦٧ حديثاً).
٧ ـ أبيّ بنُ كعب له (١٦٤ حديثاً).
٨ ـ معاويةُ بن أبي سفيان له (١٦٣ حديثاً).
٩ ـ معاذُ بنُ جبل له (١٥٧ حديثاً).
١٠ ـ أبو أيوب الأنصاري له (١٥٥ حديثاً).
١١ ـ عثمانُ بن عفّان له (١٤٦ حديثاً).
١٢ ـ جابرُ بن سمرة له (١٤٦ حديثاً).
١٣ ـ أبو بكر الصّديق له (١٤٢ حديثاً).
١٤ ـ المغيرةُ بنُ شعبةَ له (١٣٦ حديثاً).
١٥ ـ أبو بكرة له (١٣٢ حديثاً).
١٦ ـ أسامةُ بن زيد له (١٢٨ حديثاً).
١٧ ـ ثوبانُ مولى النبي ﷺ له (١٢٨ حديثاً).
١٨ ـ النعمانُ بن بشيرَ له (١١٤ حديثاً).
١٩ ـ أبو مسعود الأنصاري له (١٠٢ حديثين).
٢٠ ـ جريرُ بن عبد الله له (١٠٠ مئة حديث) (جوامع السّيرة النّبويّة ص ٢٧٧ و٢٧٨).

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٩٨) ، والمجتبى من المجتنى (ص ٦٨).

(٢) أبو ثعلبة الخشنيّ الصَّحابي رضي الله عنه قيل: إنَّ اسمه جرهم ، وكان أبو ثعلبة ممن بايع رسولَ الله ﷺ بيعةَ الرضوان عام الحديبية سنة ست من الهجرة النبوية.
روى عن النبي ﷺ أحاديث ، روى عنه أبو إدريس الخولاني ومسلم بن مشْكم ، وتوفي=

* وأما مَنْ روى عنه من علماء التَّابعين وأكابرهم فلا يُحصون ، ومنهم: مسروقُ بنُ الأجدع ، والأسودُ بن هلال ، وأبو إدريس الخولاني ، وأبو مسلم الخولاني ، وعمرو بن ميمون[1] ، وابن أبي ليلى وآخرون[2].

* ومن مروياتِ معاذ رضي الله عنه في مجال الذِّكْر عقبَ الصّلاةِ ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال له: «أوصيكَ يا معاذ: لا تدعنَّ دُبُرَ كلِّ صلاة أنْ تقول: اللهم أعنّي على ذكْرِكَ وشكرِكَ وحسْنِ عبادتك»[3].

* وفي مجالِ صلاة المسافر أخرجَ مسلم عن معاذِ بنِ جبل رضي الله عنه قال: «خرجْنا مع رسولِ الله ﷺ في غزوةِ تبوك ، فكان يصلّي الظُّهر والعصر جميعاً ، والمغربَ والعشاءَ جميعاً»[4].

* وفي فريضةِ الزَّكاة يروي معاذ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعثَهُ إلى اليمنِ ، فأمره أنْ يأخذَ من كلّ ثلاثين بقرة تبيعاً أو تبيعةً ، ومن كلّ أربعين

= في خلافة سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما. (تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ١٩٩).

(١) عمرو بن ميمون الأودي الكوفيّ أبو عبد الله ، معدودٌ في كبار التابعين ، أدركَ زمنَ النَّبيّ ﷺ ، ولم يلْقَه ، سمعَ عمر بن الخطّاب ، وسعدَ بنَ أبي وقّاص ، وعبدَ الله بن مسعود ، ومعاذَ بن جبل ، وأبا أيوب ، وأبا هُريرة ، وأبا مسعود ، وابنَ عبَّاس ، وابنَ عمرو بن العاص وغيرهم من الصَّحابة ، وخلقاً من التَّابعين.
قال عمرو بنُ ميمون: «قدمَ علينا معاذُ بنُ جبل اليمن رسولاً من عند رسولِ الله ﷺ مع السَّحر رافعاً صوتَه بالتكبير ، وكان حسنَ الصَّوت ، فما فارقته حتى توفيَ» وقال أبو إسحاق السّبيعي: «كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يرضونَ عمرو بن ميمون» وقال ابنُ معين: «هو ثقةٌ» روى له البخاري ومسلم ، قالوا: «وأسلم عمرو بن ميمون في زمن النبيّ ﷺ وحجَّ مئة حجّة ، وأدّىٰ صدقته إلى عمَّال النبي ﷺ ، صحبَ معاذاً ، ثم ابن مسعود ، وتوفي سنة (٧٥ هـ) رحمه الله. (عدة مصادر).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٤٤) ، وانظر: أسد الغابة (٥/ ١٨٩) طبعة دار الكتب العلمية المحققة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٢٤٤ و٢٤٥) ، وأبو داود برقم (١٥٢٢) ، والنّسائي (٣/ ٥٣).

(٤) رواه مسلم برقم (٧٠٦) ، وهناك أحاديث كثيرة تشيرُ إلى أنَّ النبي ﷺ قد جمع بين الظهر والعصر ، انظر مثلاً: البخاري (٢/ ٥٨٢ و٥٨٣) ، ومسلم برقم (٧٠٤).

مسنّة ، ومن كلّ حالم ديناراً ، أو عَدْلَهُ معافر[1] .

* وممّا روي عن سيدنا معاذ ما ذكرهُ أنسُ بن مالك قال: «أتاني معاذ بن جبل من عند رسولِ الله ﷺ ، فقال: مَنْ شهدَ أنْ لا إله إلاّ الله مُخلصاً بها قلبُه ، دخل الجنّة. فذهبتُ إلى رسولِ الله ﷺ فقلتُ: حدَّثني معاذ أنّك قلتَ: «مَنْ شهد أنْ لا إله إلا الله ، مخلصاً بها قلبه ، دخل الجنة» ، قال: صدقَ معاذ ، صدقَ معاذ ، صدقَ معاذ»[2] .

* ومن مروياتِ سيدنا معاذ المشهورة ما وردَ عنه في سؤالهِ[3] النّبيَّ ﷺ فيما يُدخِلُ الجنَّةَ قال: قلتُ: يا رسول الله ، أخبرني بعملٍ يدخلُني الجنَّة ، ويباعدني من النَّار ، قال: «لقد سألتَ عن عظيمٍ وإنَّه لَيسيرٌ على مَنْ يسَّرَهُ اللهُ عليه: تعبدُ اللهَ لا تشركُ به شيئاً ، وتقيمُ الصلاةَ ، وتؤتي الزكاةَ ، وتصومُ رمضانَ ، وتحجُّ البيتَ».

ثم قال: «ألا أدلّكَ على أبوابِ الخَيرِ؟ الصّومُ جُنّة ، والصدقةُ تطفيءُ الخطيئةَ كما يطفىءُ الماءُ النَّارَ ، وصلاةُ الرجلِ من جوفِ الليل ، ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السَّجدة: ١٦] ثم قال: «ألا أخبرك برأسِ الأمرِ وعموده وذروة سِنامهِ»؟

قلتُ: بلى يا رسول الله.

قال: «رأسُ الأمرِ الإسلام ، وعمودُه الصَّلاة ، وذروةُ سنامِهِ الجهاد» ، ثمَّ قال: «ألا أخبرك بملاكِ ذلك كلّه»؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٣٠) ، وأبو داود برقم (١٥٧٦) ، والترمذي برقم (٦٢٣) والنسائي (٥/ ٢٥ و٢٦) ، وابن ماجه برقم (١٨٠٣) ، وصححه ابن حبان (٧/ ١٩٥) ، والحاكم (١/ ٣٩٨) ، ومعنى «التبيع»: هو ذو الحول ، و«المسن»: هو ذو الحولين. و«معافر»: على وزن مساجد: حيٌّ في اليمن تنسب الثياب المعافرية إليهم.

(٢) أخرجه ابن حبان في الموارد (٤) ، والحميدي في مسندِهِ (١/ ١٨١) برقم (٣٦٩) ، وأحمد (٥/ ٢٢٩) ، وانظر: كنز العمال رقم (١٩٠ و١٩٢).

(٣) أي قوله: أخبرني ـ كما سيمر معنا ـ.

قلت: بلى يا رسولَ الله ، فأخذَ بلسانهِ قال: «كفّ عليك هذا».

قلتُ: يا نبيَّ الله ، وإنّا لمؤاخذون بما نتكلَّمُ به؟

فقال: «ثكلتك أمُّك ، وهل يكبُّ النَّاس في النَّار على وجوههم ، أو على مناخرهم إلاّ حصائدُ ألسنتِهم»[1].

* ولمعاذ بن جبل مروياتٌ أُخَر منثورةٌ في مصنَّفاتِ الحديثِ ، وقد مرّتْ معنا بعضُ مروياتهِ في ثنايا ترجمتهِ.

---

(١) أخرجهُ الإمامُ أحمد (٥/ ١٣٠ و٢٣٦ و٢٣٧ و٢٤٥) ، والتّرمذيّ برقم (٢٦١٦) ، وقال: «حديث حسنٌ صحيح» وابنُ ماجه برقم (٣٩٧٣) ، والحاكم (٢/ ٤١٢ و٤١٣) ، وابن حبّان (٢١٤) ومعنى «حصَائد الألسنة»: جزاءُ الكلام المحرّم وعقوباته ، فإن الإنسانَ يزرعُ بقوله وعمله الحسَنات والسَّيئات ، ثم يحصدُ يوم القيامة ما زرعَ ، فمَنْ زرعَ خيراً من قولٍ أو عملٍ ، حصدَ الكرامة ، ومَنْ زرعَ شرّاً من قول أو عمل ، حصَد غداً النَّدامة.
وظاهرُ هذا الحديثِ يدلُّ على أنَّ أكثرَ ما يدخلُ به النَّاس النَّار النّطق بألسنتهم ، فإنَّ معصية النُّطقِ يدخلُ فيها الشّرك وهو أعظمُ الذّنوب عند الله عزَّ وجلَّ ، ويدخلُ فيها القول على الله بغير علْم ، وهو قرينُ الشّرك ، ويدخلُ فيه شهادة الزّور التي عَدَلَتِ الإشراك بالله عزَّ وجلَّ ، ويدخل فيها السِّحر والقذف وغير ذلك من الكبائر والصَّغائر ، كالكذب والنميمةِ والغيبة ، وسائر المعاصي الفعلية لا يخلو غالباً من قول يقترنُ بها يكون معيناً عليها.
وفي حديث أبي هريرة عن النَّبي ﷺ قال: «أكثرُ ما يدخلُ النَّاس النَّار الأجوفان: الفمُ والفرجُ» أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٩١ و٣٩٢ و٤٤٢) ، والتِّرمذي برقم (٢٠٠٤).
وقال ابنُ بُريدة: «رأيتُ ابن عبَّاس رضي الله عنهما آخذاً بلسانِه وهو يقول: قُلْ خيراً تغنم ، أو اسكتْ عن سوءٍ تسلم ، وإلاّ فاعلم أنَّك ستندم ، فقيل له: يا أبا عباس ، لم تقول هذا؟
قال: إنَّه بلغني أنَّ الإنسانَ ليس على شيءٍ من جسده أشدّ حنقاً أو غيظاً يوم القيامة منه على لسانهِ إلا ما قال به خيراً ، أو أملىٰ به خيراً» (الـزُّهد ص ١٨٩).
وكان ابنُ مسعود يحلفُ باللهِ الذي لا إله إلا هو: ما على الأرض شيء أحوج إلى طول سجنٍ من لسان.
وقال الحسنُ البصري: «اللسانُ أميرُ البدن ، فإنْ جنى على الأعضاء شيئاً جنت ، وإنْ عفَّ عفَّتْ».

أقوالٌ معاذيّةٌ ماتعةٌ:

* لسيِّدنا معاذِ بن جبل رضي الله عنه أقوالٌ رقيقةٌ عذبةٌ تغدو على المسامع، فتتشوّقُ العيونُ إلى قراءتها ومطالعتِها، لما فيها من أنفاسٍ تعبقُ برحيقِ آياتِ الذّكْرِ الحكيم، وخطراتٍ تفوحُ بأنداءِ أقوالِ الرّسولِ الكريم ﷺ.

* وأعتقدُ أنَّ ما يصدرُ من الأقوال، دليلٌ على أخلاقِ الرِّجال؛ وأقوالُ سيّدنا معاذ تدلُّ على طِيْبِ خلاله، كما تفصحُ عن زهدهِ وأحوالِهِ وخِلاَله.

* وممَّا تطربُ له الأسماعُ قولُه في الحضّ على العملِ الصَّالحِ: «اعملُوا ما شئتم أنْ تعملُوا، فلنْ يأخذَكم اللهُ بالعِلْم حتى تعملُوا»[1].

* ومن لطيفِ أقوالِه ونصائحهِ لأصحابهِ ما رواه عونُ بنُ معمّر قال: «كان معاذُ بن جبل رضي الله عنه له مجلسٌ يأتيه فيه ناسٌ من أصحابه فيقول: يا أيّها الرَّجلُ، وكلّكم رجلٌ؛ اتّقُوا الله، وسابقوا النَّاس إلى اللهِ، وبادروا بأنفسِكم إلى الله تعالى، ولْيَسَعْكم بيوتكم، ولا يضرّكم أنْ لا يغرمكم أحدٌ»[1].

* وفي الرّزقِ وطلبهِ يقول: «ما خلقَ اللهُ من يومٍ ولا ليلةٍ إلاَّ للعبدِ فيه رزقٌ معلوم، بينه وبينه ستْر، فإنْ أجملَ في الطَّلب، وقاهُ الله رزقه، ولم يهتكْ ستْرَه، وإنْ هو لم يجملْ في الطَّلبِ، هتكَ ستره، ولم يزدْ على رزقهِ الذي رزقَه اللهُ شيئاً»[2].

* كانت أقوالُ معاذ رضي الله عنه تجمعُ بين المُتْعةِ والفائدةِ، والسُّؤالِ والجوابِ، وكثيراً ما كان يعظُ النَّاسَ وطلاّبَ المعرفةِ بطريقةِ السُّؤالِ المثيرِ التّربوي، فإنْ عجزوا عن الإجابةِ، تكلَّم فأفصحَ، وأبانَ فأوضحَ، ومن أمثلةِ تلكم الأقوال النّفيسة هذا السُّؤال الذي يوجِّهُه إلى أصحابِه فيقول:

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ٣٧٨).
(٢) المصدر السابق نفسه.

«كيف أنتم عن ثلاث: دُنيا تقطعُ رقابكم، وزلّة عالِمٍ، وجدالُ منافقٍ بالقُرآن»؟

فسكتُوا فقال معاذ رضي الله عنه: «أمَّا دُنيا تقطعُ رقابكم، فَمَنْ جعلَ اللهُ غناهُ في قلبِهِ فقد هدي، ومَنْ لا فليس بنافعتِهِ دنياه، وأما زلّة عالِم، فإن اهتدى فلا تقلدوهُ دينَكم، وإنْ فُتِنَ فلا تقطعُوا منه أناتكم، فإنَّ المؤمنَ يُفتنُ ثم يفتنُ ثم يتوبُ، وأمَّا جدالُ منافقٍ بالقرآن، فإنَّ للقُرآنِ مناراً كمنارِ الطَّريق لا يكادُ يخفىٰ على أحدٍ، فما عرفتم فتمسّكُوا بهِ، وما أشكلَ عليكم فكِلُوه إلى عالمه»[1].

* وفي دعاءِ معاذ ومناجاتِهِ نفحاتٌ أدبيّةٌ، وهمسَاتٌ نديّةٌ، ورشفاتٌ هنيّةٌ، منها ما رواه الأصمعيُّ رحمه الله قال: بلغني أنَّ معاذَ بن جبل كان يقولُ إذا تعارَّ في الليلِ من وسنه: «اللهمّ غارتِ النُّجومُ، ونامتِ العُيونُ، وأنت حيٌّ قيّومٌ لا تأخذكَ سِنَةٌ ولا نومٌ، فِراري منَ النَّار بطيءٌ، وطلبي الجنّة ضعيفٌ، وليس عندي إلاَّ أنّي أشهدُ أنْ لا إله إلاّ أنتَ وحدكَ لا شريكَ لكَ، وأنَّ محمّداً عبدُكَ ورسولُكَ»[2].

* وفي ذكْرِ اللهِ وترطيبِ اللسان به، يقولُ معاذُ رضي الله عنه لأصحابِهِ: «ما عملَ آدميٌ عملاً أنجى له من عذابِ الله من ذكْر الله».

قالوا: يا أبا عبد الرحمن! ولا الجهادُ في سبيل الله؟

قال: «ولا، إلاّ أن يضْرِبَ بسيفه حتى ينقطع، لأنَّ الله تعالى يقولُ في كتابه: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥][3]».

* ومن الملاحظِ أنَّ لذكْرِ اللهِ ومناجاتهِ طَعْماً متميزاً عند سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه فقد كان يقول: «لأن أذكرَ اللهَ تعالى من بكْرةٍ حتى يذهبَ

---

(١) المصدر السَّابق ذاته.

(٢) حلية الأولياء (١/ ٢٣٣)، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ٣٧٨).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٢٣٥)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٥٦).

الليلُ ، أحبّ إليَّ من أنْ أحملَ على جيادِ الخيل في سبيل اللهِ من بكرةٍ حتّى الليل»[1].

* ومن بدائع كَلِمِه التي تشعُّ بالفطنةِ ، وتفوحُ بطيبِ الوصيّة ، ما ذكرهُ ناصحاً وموصياً لرجلٍ ومعه أصحابه أتوا يسلّمون على معاذ ويودِّعونه فقال له معاذُ رضي الله عنه: «إنّي موصيكَ بأمْرين ، إنْ حفظتَهما حُفِظْت: إنَّه لا غنى بكَ عن نصيبك منَ الدُّنيا ، وأنتَ إلى نصيبكَ من الآخرةِ أفْقَرُ ، فآثِرْ نصيبَكَ من الآخرةِ على نصيبك من الدُّنيا ، حتّى تنتظمه لكَ انتظاماً فتزول به معك أينما زُلْتَ»[2].

* ومن درر أقوالهِ ، ولآلىء كلامهِ في الصَّلاة وفوائدها قوله: «مَنْ سرّه أنْ يأتيَ الله عزَّ وجلَّ آمناً ، فليأتِ هذه الصَّلوات الخمس حيث يُنادى بهنّ ، فإنّهنّ من سُننِ الهدى ، وممّا سنَّه لكم نبيّكم ﷺ ، ولا يَقُلْ إنَّ لي مُصَلّى في بيتي ، فإنّكم إنْ فعلتُم ذلكم تركْتُم سنّةَ نبيِّكم ﷺ لَضَلَلْتُم»[3].

* وممَّا يُستجادُ من أقواله التي تُستحلى ، ولآلئه التي تُستجلى قولُه رضي الله عنه في استشراءِ الفتنةِ: «ابتليتم بفتنة الضَّراء فصبرتُم ، وستبتلَوْن بفتنةِ السَّراء؛ وأخوفُ ما أخافُ عليكم فتنةَ النِّساء إذا تسورْنَ الذَّهبَ والفضةَ ، ولبِسنَ رياطَ الشَّام ، وعصبَ اليمن ، فاتْعَبْنَ الغنيّ ، وكلفْنَ الفقيرَ ما لا يجد»[4].

* ولمعاذ رضي الله عنه أقوالٌ نفيسةٌ في طلب العلْم ، وكلّها تشيرُ إلى مدى فقههِ ، وتمكُّنه من ناصيةِ البيَان ، كما يدلُّ على حبّهِ لنَشْرِ العلْم بين النَّاس ، لما في ذلك من فوائدَ جليلة تدني العبدَ من الله عزَّ وجلَّ ، بل إنَّ العْلمَ سبيلٌ لكسبِ الثَّواب ودخولِ الجنَّة.

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٣٥).
(٢) حلية الأولياء (١/ ٢٣٤) ، وصفة الصفوة (١/ ٤٩٦).
(٣) حلية الأولياء (١/ ٢٣٤).
(٤) حلية الأولياء (١/ ٢٣٦ و٢٣٧) ، وصفة الصفوة (١/ ٤٩٧) ، وبهجة المجالس (٢/ ٣١) ومعنى «الرياط»: الثياب الرقاق اللينة.

* وفي السُّطور الآتية نعيشُ أرغدَ اللحظات في رياضِ العِلْم وروضِ المعرفة ، كما نتعرفُ ماهيّة العِلْم عند معاذ حيثُ نلاحظُ شذا الآياتِ القُرآنية ، ومسك الأنفاسِ النّبوية تفوحُ من كلامه إذ يقولُ: «تعلّموا العلْم ، فإنَّ تعلّمَه لله تعالى خشيةٌ ، وطلبَهُ عبادةٌ ، ومذاكرتَهُ تسبيحٌ ، والبحث عنه جهادٌ ، وتعليمَهُ لمن لا يعلمُ صدقَةٌ ، وبذلَه لأهله قُربةٌ ، لأنَّه معالمُ الحلالِ والحرامِ ، ومنارُ أهلِ الجنَّةِ ، والأنسُ في الوحشةِ والصَّاحبُ في الغربةِ ، والمحدِّثُ في الخلوةِ ، والدليلُ على السَّراء والضَّراء ، والسِّلاح على الأعداءِ ، والدِّينُ عند الأجلاء ، يرفعُ اللهُ تعالى به أقواماً ، ويجعلُهم في الخير قادةً وأئمةً ، تقتبسُ آثارهم ، ويقتدى بفعالِهم ، وينتهى إلى رأيهم ، ترغبُ الملائكةُ في خلّتهم ، وبأجنحتها تمسحُهم ، يستغفرُ لهم كلّ رطبٍ ويابس ، حتّى الحيتان في البحرِ وهوامهِ ، وسباع الطَّير وأنعامه ، لأنَّ العلمَ حياةُ القُلوب من الجهل ، ومصباحُ الأبصار من الظُّلم ، يبلغُ بالعِلْم منازلَ الأخيار ، والدَّرجةَ العُليا في الدُّنيا والآخرة ، والتفكُّرُ فيهِ يُعدلُ بالصِّيام ، ومدارستُه بالقيام ، به توصلُ الأرحام ، ويُعرفُ الحلالُ من الحرام ، إمامُ العمّالِ والعملُ تابِعُهُ ، يُلْهمَهُ السُّعداء ، ويُحرمَهُ الأشقياءُ»[1].

* وكأنِّي بأحدِ شُعراء العُلماء وعلماءِ الشِّعر قد شُغِفَ بقولِ معاذ رضي الله عنه فاقتبسَ منه معانيه ، فأنشأ يقول:

إنَّمــــا العِلْـــــمُ مِنْحَـــــةٌ   لَيْـــــسَ فــــي ذَا تَنَـــازعُ
هُـــــو للنَّفْــــسِ لَـــــذَّةٌ   وهــــوَ لْلقَـــدْرِ رَافِـــــعُ

* وقال غيرُهُ:

وإنَّ العِلْـــمَ مُثِّـــلَ كـــانَ نُـــوراً   يُضاهي الشَّمسَ أو يحكي النَّهَارا
كــذاك الجَهْــلُ أظلــمَ جَـانبــاهُ   ونــورُ العِلْــم أَشْـرقَ واستنَــارا

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٣٩) ، وأتركُ للقارىء الكريم الإبحار في بحارِ الأنوار البلاغية لهذه الحكمِ المجموعةِ في هذا النصّ الرائع الجميل النّديّ المندّى بكلٍّ معاني الفضيلة ومعاني المكارم.

* ومن لآلىء أقوالِهِ ، ومرجان وصاياه الحِسَان قولُه في اتّخاذِ الإخوان ، والابتعاد عمّن لا ينفعُ قوله: «إيَّاكَ وكلّ جليس لا يفيدُكَ علْماً»[1].

* ولسيّدنا معاذ أقوالٌ جميلةٌ في هذا المجال أيضاً ، وقد رفعه بعضُهم أنَّه قال: «إذا أحببْتَ أخاً في الله فلا تُمارِه ولا تُشَاره ولا تسَلْ عنه أحَداً ، فلربّما صادْفتَ له عدوّاً فأخبرَك بما ليس فيهِ ، فحالَ بينك»[2].

* وكأنَّ أبا الأسودِ الدّؤلي ، قد أُعجبَ بهذهِ الحكمةِ اللطيفةِ فصاغَها شعْراً فقال:

وَصِلـهُ مـا اسْتقَـامَ الـوَصْـلُ منْـهُ ... ولا تَسْمَـعْ بــه قيْــلاً وَقَــالا

* وهذا بليغٌ آخر قد أخذَ من قولِ سيّدنا معاذ مادَّةً دسمة فصاغَ منها ما رقَّ وراقَ له ، بل تفتَّقَ ذهنُه بمعانٍ أنيقةٍ فقال:

إذا الـوَاشِـي بَغَـى يَـومـاً صَـديقـاً ... فـلا تَـدعِ الصَّـديـقَ لِقَـولِ وَاشِ

* ومن أقوالِهِ المفيدة: «ثلاثٌ مَنْ فعلهنَّ فقد تعرَّضَ للمقْتِ: الضَّحكُ من غيرِ عجب ، والنومُ من غير سَهر ، والأكلُ من غيرِ جُوع»[3].

* وأقوالُ معاذٍ رضي الله عنه تملأُ الأسماعَ وتثري الصَّفحات وقد استوفتِ المصادرُ كثيراً منها ، فليرجعْ إليها مَنْ أراد.

في مَنَازل الصَّالحين:

* خرجَ معاذٌ رضي الله عنه غازياً إلى الشَّام ، فكان مع سيّدنا أبي عُبيدة بن الجرَّاح رضي الله عنه ، فوقع هنالكَ الطَّاعون وعمَّ النَّاس ، فقال النَّاسُ: «ما هذا إلَّا الطُّوفانُ ، إلَّا أنَّه ليس بماء!».

* وبلغَ سيّدنا معاذَ بنَ جبل ما يقولُه النَّاسُ ، هنالك قامَ خطيباً فيهم ، بعد أنْ أثنى على الله عزَّ وجلَّ بما هو أهلُه ثمَّ قال: «إنَّه قد بلغني

(١) بهجة المجالس (١/ ٤٨).
(٢) بهجة المجالس (١/ ٧٢٥) ، ومعنى «تشاره»: لا تجاد له ولا تعيبه.
(٣) تهذيب الحلية (١/ ١٨٦).

ما تقولون ، وإنَّما هذه رحمةُ[1] ربّكم ، ودعوةُ نبيّكم ، وموتُ الصَّالحين قبلكم».

* وأُصيب أبو عُبيدة بالطَّاعون فماتَ ، واستخلفَ على النَّاس معاذَ بن جبل ، فقام بعده خطيباً ، ودعى قائلاً : «اللهم آتِ آل معاذ النَّصيبَ الأوفرَ منه» فماتَت ابنتاه ، فَدَفَنَهما في قبرٍ واحد ، وطُعِنَ ـ أُصيبَ بالطَّاعون ـ ابنه عبدُ الرّحمن ، فدخلَ عليه وسأله : «يا بُني كيف تجدُكَ؟».

قال عبد الرّحمن : ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران : ٦٠].

فقال معاذُ بيقينِ الإيمانِ والتَّسليم والرِّضا والاستسلام لله العزيز الحميد : ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصَّافات : ١٠٢] وماتَ عبدُ الرّحمن ، فأمسكَهُ ليلةً ثمَّ دفنه.

وطُعِنَ معاذُ في كفّه ، فجعلَ يقلِّبُها ويقبّلُها ويقولُ : «هي أحبّ إليَّ من حمر النَّعم».

واشتدَّ به الألم ، فجعل يغمى عليه ، فإذا سُريَ عنه قال : «ربِّ غمَّ غمَّك ، فإنَّك تعلمُ أنّي أحبُّك»[2].

* وبكى بقربه الحارثُ بن عُميرة ، فقال له معاذُ : «ما يبكيكَ»؟ قال : «واللهِ ما أبكي لقرابةٍ بيني وبينَك ، ولا لِدُنيا أصبتُها منك ، ولكنْ أبكي على العِلْمِ الذي كنْتُ أصيبُه منْكَ».

---

(١) كان معاذُ رضي الله عنه يرىٰ بعينِ اليقين ، ونور الفهم والفقه والعلْم أنَّ في الطَّاعون رحمةً وشهادةً ، فلقد عرفَ من معلّمهِ الحبيبِ المصطفى ﷺ قوله : «الطَّاعونُ شهادةٌ لكلّ مسلم». (رواه الشيخان).
ويكون الطَّاعونُ شهادةً للمسلم إذا صبرَ ورضي بقضاءِ الله عزَّ وجلَّ.
كما أنَّ معاذاً سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول : «ستهاجرون إلى الشَّام فيفتح لكم ، ويكون فيكم داءٌ كالدّمَّلِ ـ أو كالحزّة ـ يأخذُ بمراقِ الرَّجل ، يستشهدُ اللهُ به أنفسهم ، ويزكي بها أعمالهم» ، لذا فقد دعا معاذ ربّه أنَّ يصيبَه الطَّاعون كيما يكون في ركْب الشُّهداء.

(٢) انظر : الاستبصار (ص ١٤١) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٥٨) مع التجمع والتصرّف.

فقال معاذ رضي اللهُ عنه: «لا تبكِ، فإنَّ إبراهيم خليل الرّحمن صلوات الله عليه كان في الأرض وليس بها علْمٌ، فآتاه اللهُ علماً، فإنْ أنا متّ، فاطلبُوا العلْم عند أربعةٍ: عبد الله بن مسعود، وسلمان الفارسيّ، وعبد الله بن سلام، وعُويمر أبي الدّرداء»[1].

* وذكر أبو نُعيم في «الحليةِ» مشْهداً من وفاةِ سيّدنا معاذِ بن جبل فقال: «لمّا حضرَ الموتَ معاذَ بنَ جبل قال: انظروا أصبحنا؟ فقيل: لم تصبحْ.

فقال: انظروا أصبحنا؟

فقيل له: لم تصبحْ، حتى أُتيَ فقيل: قد أصبحْتَ.

قال: أعوذُ بهِ من ليلةٍ صباحُها إلى النَّار، مرحباً بالموتِ مرحباً، زائر مغبّ، حبيب جاء على فاقة، اللهم إنّي قد كنتُ أخافُكَ فأنا اليوم أرجوكَ، اللهم إنَّك تعلمُ أنّي لم أكنْ أحبُّ الدنيا وطولَ البقاء فيها لجري الأنهارِ، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجرِ، ومكابدةِ السَّاعات، ومزاحمة العُلماء بالرّكب عند حِلَق الذّكر»[2].

* وقال الحسنُ: «لما حضرَ معاذاً الموتُ جعلَ يبكي، فقيل له: أتبكي وأنتَ صاحبُ رسولِ الله ﷺ، وأنتَ، وأنت؟

فقال: ما أبكي جزعاً من الموتِ، أنْ حَلّ بي، ولا دنيا تركتُها بعدي، ولكن إنّما هي القبضتان؛ فلا أدري مَنْ أيِّ القبضَتين أنا»[3].

* وتوفي معاذ، وصعدتْ روحُه إلى ربِّها راضيةً مرضيةً، وكانت وفاته بسببِ طاعون عَمْوَاس في الأردن بالشّام، وذلك سنة (١٨ هـ)، واختلفوا

---

(١) سير أعلام النُّبلاء (١/ ٤٥٨ و٤٥٩) بتصرف.
(٢) تهذيب حلية الأولياء (١/ ١٨٨) بتصرف يسير، وانظر: أسد الغابة (٥/ ١٨٩).
(٣) أسد الغابة (٥/ ١٨٩).

في عمره على قولَيْن: أحدهما: ثمانٍ وثلاثون سنةً؛ والثَّاني: ثلاثٌ وثلاثون سنة[1]. والأوّل أصحُّ.

* رضي الله عن سُلْطانِ العُلماء الشَّباب معاذِ بنِ جبل الأنصاري، وحشرنا معه، وجعلنا في معيّته، وأكرمنا بفضله، ووسعنا برحمته، وألهمنا الأعمال الصَّالحة التي تقرّبنا إليه، إنه رؤوف رحيم.

* * *

(١) صفة الصفوة (١/٥٠٢)، وسير أعلام النبلاء (١/٤٦١).




أبو ذَرّ الغِفَاري

* من نجباء علماء الصحابة وزهّادهم وكان صادق اللهجة.
* لإسلامه قصة جميلة تسْحَر الألباب، وتهذّب النّفوس.
* لزم رسول الله ﷺ وأحبه وحفظ حديثه، وروى (٢٨١حديثاً).
* له مواعظ وكلمات سائرات تدل على زهده وفقهه.
* كان من العلماء الفرسان المجاهدين العاملين.




أبو ذَرّ الغِفَاريّ

مِنْ نُجَبَاءِ الصَّادقين :

* تصدَّرَ بالعلْمِ وجلالةِ القَدْر ، حتّى شهدَ له أهلُ العلمِ بأنَّه الصَّدْر ، كان خامسُ خمسةٍ في الإسلام ، وأحدُ نجومِ الدُّنيا الأعلام ، صادقُ الإيمانِ واللسان ، ضاربٌ بالسَّيفِ والسِّنَان ، أثنى عليه النَّبي ﷺ بكلامٍ كحبّاتِ الدُّرّ ، فقال : «ما أظلَّتِ الخضراءُ ، ولا أقلّتِ الغبراء من لهجةٍ أصْدق من أبي ذرّ»[1] .

* وصادقُ اللهجةِ هذا ، هو العالمُ الجريءُ النَّجيبُ أبو ذرّ جنْدبُ بنُ جنادةَ الغِفاريّ[2] ، المشهور بكنيتهِ في عالَم الأعلام ، والذي نشربُ مِنْ حياضهِ ؛ وننعمُ في زَهْر رياضهِ ، ونقتبسُ من أنوارِ مشكاتهِ ،

(١) أخرجه الإمامُ أحمد بهذا اللفظِ في المسند (٥/ ١٩٧) ، وأخرجه أيضاً (٣/ ١٦٣ و١٧٥ و٢٢٣) و(٦/ ٤٤٢) ، وأخرجه التِّرمذي في المناقب برقم (٣٨٠١) ، وابنُ ماجه في المقدمةِ (١٥٦) ، وابنُ سعد في الطَّبقات (٤/ ٢٢٨) ، والحاكم في المُستدرك (٣/ ٣٤٢) ، والهيثمي في مجمع الزَّوائد (٩/ ٣٢٩) ، ومعنى «الخضراء» : السَّماء و«الغبراء» : الأرض ، و«لهجة» : اللسان والنّطق.

(٢) المصادر التي تحدّثت عن أبي ذرّ أكثرُ من أنْ تُحصى وسأوردُ بعضاً منها في مختلف المعارف، ومنها : مسندُ أحمد (٥/ ١٤٤ ـ ١٨١) ، وطبقاتُ ابن سعد (٤/ ٢١٩ ـ ٢٣٧) ، والمعارفُ لابن قُتيبةَ (ص ٢ و٦٧ و١٥٢ و١٩٥ و٢٥٢ و٢٥٣) ، والمعجمُ الكبير للطّبرانيّ (٢/ ١٤٧ ـ ١٥٨) ، والاستبصَارُ (ص ١٢٥) ومشاهير علماء الأمصار (ص ٣٠ و٣١) ، وحليةُ الأولياء (١/ ١٥٦ ـ ١٧٠) وغيرها كثير منثور في ثنايا ترجمته.

ونقتطفُ طاقاتٍ من أزاهرِ معارفهِ التي اجتناهَا من مدرسة الحبيب المُصطفى ﷺ.

* كان أبو ذرّ الغِفاري نَسْياً منْسِياً في عالَم الجاهليّةِ ، لولا أنْ مَنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ وهدَاهُ إلى صراطِهِ المُستقيم ، فكان بمشيئتهِ تعالى من ورثةِ جنَّةِ النَّعيم ، فجاء ليلحقَ بركبِ الأوَّلين ، ويحلّقَ في أجواءِ السَّابقين المؤمنين.

* ففي رحلةِ السَّبْقِ والتَّسابقِ إلى دوحةِ المكارمِ وحلبةِ الفضائل ، جاء ليسجّلَ رقمَ إسلامهِ في الصَّفْحةِ الأولى من قائمةِ أهلِ الإيمان ، وتكونَ له بذلك اليدُ الطُّولى البيضاءُ في غرسِ المكارم ، أمَّا كيفَ سلَك أبو ذَرّ سبيلَ الإسلام ، وسُبُلَ السَّلام ، فهذا ما سنعرفُه في الفقرةِ الآتيةِ بإذن الله تعالى ، ونعرفُ كثيراً من الإشراقاتِ الغِفارية الأخرى التي تبهج النفوس وتسرُّ المُهَج والأفئدة.

قِصَّة إسلام أبي ذَرٍّ:

* لإسلام أبي ذرٍّ رضي الله عنه قصَّةٌ شائقةٌ ، تخلّدُ تعلُّقَه الشَّديدَ بالبحثِ عن الحقيقة وعن الحقّ ، فلقد كان يتألَّهُ في الجاهليَّةِ يقولُ: «لا إلهَ إلاّ الله» ويوحِّدُ ولا يعبدُ الأصنامَ ، وكانت بصيرتُه ترنو إلى ما هو أبعد منْ ذلك ، وربَّما كان يتطلَّعُ إلى مَنْ يدعو إلى الخروجِ من ظلماتِ الوهْمِ ، إلى نورِ الفَهْم وسُبُل العلم.

* هجرَ أبو ذرّ عبادةَ الأصنامِ والأوثانِ وفارقها من قبل أنْ تلامسَ قلبه نسمات الإيمانِ النّاعمة ، ولما صافحتْ أذنَهُ همساتُ الإسلامِ ، سعى لِيُمْسِكَ بما تمسَّك به أهلُ الحقّ ، فكان من أهل المعرفة ، وممَّنْ حبَاهُ الله عزَّ وجلَّ مكرمةَ العِلْمِ ، وغدا من الصَّحابة النُّجباء ومن فقهاء الصَّحابةِ وعلمائِهم ، وممّن نعيشُ حياةَ الأنسِ في رحابِهم ، ونرجو أن نسيرَ في ركابِهم ، لنحظى بنعيمِ العِلْمِ الذي اقتبسوه من معلِّمِ النَّاسَ الخير ، رسولِ الله ﷺ.

* وأخذتْ أنسام الإسلامِ ترسلُ خفقاتها اللطيفةَ ، وكانت تنعشُ الأرواح

في كُلِّ مكان تمرُّ به، وتُحيي بِنَديِّ شذَاهَا القلوبَ المتعطشةَ لمعرفةِ الصواب.

* وبلغتِ الأصواتُ الإيمانيةُ سَمْعَ أبي ذرّ، فإذا به يحاكِمُ ما سمعَ، ويعرضُهُ على نفسهِ، وإذا بأضواءِ البيانِ الإسلاميّة تشرقُ في أعماقِ نفسه، وأخذَ يتطلَّعُ إلى لقاءِ النَّبيِّ الكريم ﷺ، وأحبَّ أنْ يسارعَ ليصِلَ إلى منبع الفوائدِ، ومجمع الفضَائل، ويسرع إلى مهوى الأفئدة أمِّ القُرى مكةَ المكرمةِ، ليسمعَ عن كثَبٍ كلماتِ الحقّ التي نزلَ بها الرُّوحُ الأمينُ، على قلبِ الأمينِ ﷺ، ليكونَ من المُنذِرين، بلسانٍ عربيّ مُبين.

* وراقتِ الفكرةُ لأبي ذرّ، فدعا أخَاه أُنيسَ بنَ جنادةَ الغِفاريّ ـ وكان أنيسٌ شاعراً لبيباً فطناً؛ له معرفةٌ بالشِّعر والعربيّةِ ـ وقصَّ عليه قَصَصَ النَّفحاتِ الأنسيّةِ، والعبقاتِ الرَّبانية التي تهبُّ من مكةَ وتملأُ الدّنيا بأريجها، وقال له: «أي أنيس، لقد بلغني أنَّ رجُلاً قد خرجَ بمكةَ المكرمةِ، يزعمُ أنَّه نبيٌّ يُوحى إليهِ ما يُوحى، فانطَلِقْ إليهِ، وكلِّمْهُ واسمعْ ما يقول».

فقال أُنيس: «سأنطلقُ، وآتيك بالخبرِ اليقين».

* انطلقَ أُنيسٌ، فدخلَ مكَّةَ، والتقى رسولَ اللهِ ﷺ، ورآه، وسمع منهُ القُرآن الكريمَ، فَسُرَّ من جمالِ رونقهِ وحسنِ منطقهِ، وكمالِ معانيهِ، وعرفَ أنَّه ما ينبغي لأحدٍ أنْ يقولَ مثله، بل ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

* استولتْ معاني القرآن العظيم على أُنيسٍ، فاستسلم لأسلوبِه المؤثِّرِ الجزْل، وعبقتْ نفسُه بالأنفاسِ النَّديّةِ المندّاة بالحقّ التي احتلَّتْ جوانحَ قلبهِ، وغمرت روحَهُ، ومن ثمَّ حلَّقت به في أجواء بيانيةٍ عُلويةٍ، لم يعرفْ لها من قبلُ مثيلاً، وربما هتفَ قائلاً: «ما هذا بقولِ البشَر، إنْ هذا إلاَّ قول مَليكٍ مقتدر».

* عاد أنيسٌ إلى بادية بني غِفَار، لِيُلقي أمامَ أخيه أبي ذرّ مقاليدَ الفصَاحة التي حملَها منْ معاني القرآن الكريم، والذِّكْرِ الحكيم، وسألهُ أبو ذرّ فقال: «ما عندكَ يا أخي»؟

قال: «واللهِ، لقد رأيتُ رجُلاً يأمرُ بالخيرِ، وينهى عن الشَّرِّ، ويدعو إلى مكارمِ الأخلاق ومحاسنِ الفضائل».

فقال أبو ذرّ: «فما يقولُ النَّاسُ في هذا الرَّجُل الكريم»؟

قال أنيسٌ: «يقولون: هو شاعرٌ، كاهِنٌ، ساحرٌ... واللهِ لقد سمعتُ قولَ الكهنةِ وما هو بقولهم، ولقد وضعتُ قولَه على أقوالِ الشُّعراء وطرائقهم، فما يلتئمُ على لسانِ أحدٍ أنَّ قولَه شِعْرٌ، واللهِ يا أخي إنَّه لَصَادقٌ فيما يدعو إليه، وإنهم لَكاذبون ما ينسبونَ إليه».

فقال أبو ذرّ ـ وقد شُدِهَ لِما يسمعه من أخيه ـ: «لم تَشْفِ غَليلي، فاكفِني أمْرَ عيالي حتَّى أذهبَ فانظرَ أمرَ هذا الرَّجل».

* توجَّه أبو ذرّ نحو مكَّةَ يحملُ عصَاهُ وزادَهُ، وسار حتّى وصلَ أم القُرى، وجعل يشربُ من ماءِ زمزم، وينامُ في المسجد، فرآه عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه فعرفَ أنَّه غريبٌ، وتعرَّفَ أحوالَه، فأخبرَهُ أبو ذرّ بما يريد، وبما قدَم من أجلِه، فقال له عليٌّ: «أما قد رشدت! وإنّي ذاهبٌ إليهِ، فاتّبعني وادخلْ حيثُ أدخل».

* مضى سيّدنا عليٌّ، وتبعَهُ أبو ذرّ حتَّى دخلا على النَّبيِّ الكريم ﷺ، وهنالكَ اقتربَ أبو ذرّ من الهادي البشير ﷺ، فلامستِ الأنوارُ فؤادَه، وإذ ذاكَ قدّم تحيةً زاكيةً للحبيبِ الأعظمِ ﷺ فقال: «السَّلامُ عليك يا رسولَ الله»[1].

* وإذا بصوتٍ ندي يملأُ سَمْع أبي ذرّ ويدلف إلى قلبه فيستحوذ عليه، ويطهِّرُ كلَّ ذرَّةٍ من كيانهِ يقولُ: «وعليك السَّلام ورحمةُ الله».

فقال أبو ذرّ: «يا رسولَ الله اعرضْ عليَّ الإسلام».

فعرضَ النَّبي ﷺ عليه الإسلام، وعلّمَهُ كلمةَ التّوحيد، وقرأَ عليه سورةً من القُرآن الكريم.

---

(١) كان أبو ذرّ أوّلَ مَنْ حيّا رسول الله ﷺ بتحيّة الإسلام.

* وتدفَّقَتْ من داخلِ أبي ذرّ كلمات تقول: «أشهدُ أنْ لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله» ، فظهرَ الاستبشارُ على وجهِ الصَّادق المصدوق ﷺ ، وسُرَّ بإسلام هذا المحبّ الوفيّ الصّادق.

* أسلمَ أبو ذرّ بروحِهِ ونفسِهِ وكيانِه ، وأحسَّ بأنَّه وُلِدَ من جديد ، لكنَّه كان يعقلُ كلّ ما حوله ، ويعي كلَّ شيء.

* اللهُ أكبرُ أبا ذرّ ، إنَّ أنداءَ الإيمانِ ترطّبُ الأفئدةَ منذ أنْ تلامسَ ذرّاتُها شغافَ القُلوبِ!!.

* ونظر رسولُ الله ﷺ إلى أبي ذرّ وقال له: «يا أبا ذرّ ، اكتمْ هذا الأَمْرَ ، وارجعْ إلى قومكَ ، فإذا بلغَك ظهورُنَا فأَقْبِل».

* ولكنّ أبا ذرّ أحبَّ أنْ يضحّيَ في سبيل الله ويُعْليَ صوت الحقِّ منذ اللحظةِ الأولى لإسلامِه ، فقال للنَّبيِّ ﷺ: «والذي بعثَكَ بالحقّ ، لأصرخَنَّ بها بين أظهرهم».

* وخرجَ أبو ذرّ فجاءَ إلى المسجدِ الحرامِ ورجالٌ منْ قريشٍ مجتمعون فيه ، ونادى عالياً: «يا معشرَ قريش ، إنّي أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ الله ، وأنَّ محمّداً عبده ورسولُه».

* فقامتِ الثُّلَّةُ الكافرةُ ، وآذاقَتْه لوناً من ألوانِ العذاب حتّى كادت تتلفُ نفسه وتزهق روحه ، لولا أنْ أدركَهم العبّاسُ بنُ عبد المطَّلب ، وقال لهم مُحذّراً: «ويلكم تقتلون رجُلاً من غِفار ، ومتْجرُكم وممرّكم على غِفَار» فتفرّق عنه النَّاس؛ وفي اليوم التَّالي رجعَ إلى ما أعلنه بالأمسِ ، فعادوا إلى ضربهِ ثانيةً ، وأذاقوه منْ حَرّ سياطِهم ما ألْهَبَ ظهرَهُ إلى أنْ قَدِمَ العبَّاسُ مرة أخرى ، فنهاهُم عن طيشِهِم الذي سيوقعُهم في مصايدِ شياطينِ الإنسِ من بني غِفَار الذين سيعرقلون تجارَة قريش وأسفارها.

* مكثَ أبو ذرّ أيّاماً ، ثم أتى رسولَ الله ﷺ فقال له النَّبيُّ ﷺ: «إنَّه قد وجّهتْ لي أرضٌ ذات نَخْلٍ ، لا أراها إلاَّ يثربَ فهل أنتَ مبلِّغٌ عنّي قومَك ، لعلَّ الله أن ينفعَهم بكَ ويأجرَكَ فيهم»؟!

* فانطلقَ أبو ذرّ عائداً ، فلقيَ أخاهُ أُنيساً فسألَهُ: ما صنعتَ يا أبا ذرّ؟

فقال أبو ذرّ: «أسلمتُ وصدّقْتُ بما نزلَ على محمّدٍ وهو الحقُّ من الله عزَّ وجلَّ».

قال أنُيس: «والله يا أخي ما بي رغبةٌ عن دينك ، وإنِّي قد أسلمتُ ، وصدّقتُ أيضاً ، وها أنا ذا أشهدُ شهادةَ التَّوحيد».

* وسمعتْ أمُّهما هذا الخبرَ المباركَ ، فشرحَ اللهُ صَدْرَها لذلك ، ودخلَ الإيمانُ قَلْبَها ، فدخلت في الإسلام ، وغدت من المؤمنات ، ومن أمّهات الصحابة المذكورات.

* أخذَ أبو ذرّ وأُنيسٌ يغرسان الإيمان في نفوسِ قومهما بني غِفار ، فأسلمَ نصفُهم ، وقال نصفُهم الآخر: «إذا قدمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ أسلمنا»؛ فقدمَ النَّبيُّ ﷺ المدينةَ فأسلمَ نصفُهم الباقي ، ودخلُوا في دِيْنِ الله ، ثمَّ جاءت قبيلةُ أَسْلم وقالوا: «يا رسولَ الله ، إخواننا ، نُسْلِم على الذي أسلمُوا عليه» ، فأسلمُوا.

* هنالك خلعَ النَّبيُّ ﷺ خلعةً سنيّةً ظلّت تزيّن الغِفاريين ، إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ علَيْها فقال فيهم: «غفارٌ غفرَ اللهُ لها ، وأسْلَمُ سالمَها اللهُ»[1].

* قال ابنُ قتيبةَ رحمه الله: «أسلمَ أبو ذرّ رضي الله عنه بمكَّةَ ، ولم يشَهْد بدراً ، ولا أُحُداً ، ولا الخندقَ ، لأنَّه حين أسلمَ رجعَ إلى بلادِ قومِه ، فأقامَ فيها حتّى مضتْ هذه المشاهدُ ، ثمَّ قدمَ المدينةَ على رسولِ الله ﷺ»[2].

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٨/ ٢٧٩ ـ ٢٨٤) بشيءٍ من التّصرّف..
ولقصّة إسلام أبي ذرّ أصلٌ في الصَّحيح ، حيثُ أوردها البُخاري في صحيحه ، في المناقب برقم (٣٨٦١) ، ومسلم في الفضائل برقم (٢٤٧٣ و٢٤٧٤) ، وابنُ سعد في الطبقات (٤/ ٣٨٦١) ، وأحمد في المسند (٥/ ١٧٤ ـ ١٧٦) ، والحاكمُ في المستدرك (٣/ ٣٣٨ و٣٣٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٦).

* وقال ابنُ عبدِ البّر رحمه الله: «أسلم أبو ذرّ، ثمَّ رجعَ إلى قومه، فكان يسْخَرُ بآلهتِهم، ثمَّ قدمَ على رسولِ الله ﷺ المدينة»[1].

مُلازمتُهُ للنَّبيِّ ﷺ:

* منذ أن هاجرَ أبو ذرّ رضي الله عنه إلى النَّبيِّ ﷺ في المدينة، أخذَ مكانته بين الصَّحابةِ الكِرام، ولازمَ النَّبيَّ ﷺ، وأخذَ يستفيد منه ما استطاعَ إلى ذلك سبيلاً، حتَّى أضحى من نجباءِ أصحاب النبي ﷺ ومن علمائهم وفقهائهم.

* كان أبو ذرّ رضي الله عنه مرجعاً في الفُتيا، فقد كان يُفتي في خلافة أبي بكر، وعمرَ، وعثمانَ رضي الله عنهم وكان رأساً في الزُّهدِ، والصِّدقِ، والعِلْمِ، والعملِ، قوّالاً بالحّقِ، لا تأخذهُ في الله لَومةُ لائم[2].

* وقد دأبَ أبو ذرّ رضي الله عنه على حُضورِ المجالسِ النّبويّة، وطَلَبِ العلْم حتَّى بلغَ في العلْمِ منزلةً رفيعةً شهدَ له فيها أعلامُ الصَّحابة ونجباؤُهم وأسيادهم.

* ولعلَّ سببَ رسوخ أبي ذرّ في العِلْم هو حبُّه لِمعرفةِ كلّ شيء، فكان من أكثر أصحابِ رسولِ الله ﷺ له سُؤالاً[3]، وقد ذكرَ أبو ذرّ هذا فقال: «سألتُ رسولَ الله ﷺ عن كلّ شيءٍ، حتّى عن مسح الحصَا، فقال: «واحِدَة»[4].

* ولقد أجاد أبو نُعيم الأصفهانيّ في وصْفِه لأبي ذرّ في هذا المجال فقال: «وكان أبو ذرّ رضي الله عنه للرّسولِ ﷺ مُلازماً وجليساً، وعلى مسائلتهِ والاقتباس منه حريصاً، وللقيامِ على ما استفادَ منه أَنيساً، وسأَلَه عن

(١) الاستيعاب (٤/ ٦٤).
(٢) انظر: سير أعلام النّبلاء (٢/ ٤٦ و٤٧) بشيء من التّصرّف.
(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٨/ ٢٨٧).
(٤) المرجع السّابق عينه.

الأصولِ والفروعِ ، وسألَه عن الإيمان والإحسانِ ، وسأله عن كلِّ شيءٍ ، حتَّى عن مسّ الحَصَا في الصَّلاة»[1] .

* وكان أبو ذرّ يلزمُ رسولَ الله ﷺ ، ويتبعُه أينما سار لِيتَعَلَّم وفي هذا يقول عن نفسِه : «كنتُ أتبَعُ خلواتِ رسول الله ﷺ ، وأتعلَّمُ منه»[2] .

* وكان الصَّادق المصدوق ﷺ يقبِلُ على أصحابه بنفسٍ راضيةٍ ، وقلبٍ رحيم ، يعلّمُهم ويمهّدُ لهم طريقَ العِلْم ، ويرشدُهم إلى سلوكِه ، إذ العِلْمُ سبيلُ السَّعادة الحقيقيّةِ ، وطريقُ الجنَّةِ والسَّعادة الأبديَّة .

* وقد ذكر أبو ذرّ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد علّمهم كلّ شيءٍ فقال : «لقد تركَنَا رسولُ الله ﷺ وما طائرُ يقلّبُ جنَاحَيْهِ في السَّماء ، إلاّ وهو يذكّرنا منه عِلْماً»[3] .

* وقد استفادَ أبو ذَرّ رضي الله عنه من الصُّحبةِ النَّبويّة ، وحملَ علْماً غَزيراً نافِعاً أفادَ النَّاس منه ، وحتّى شهدَ له بالعلْم أحدُ أسيادِ العلْم من الصَّحابةِ ، وهو عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه فقد سُئِلَ عن أبي ذرّ فقال : «علمَ العِلْم ثمَّ أوْكى[4] فَربطَ عليه ربطاً شديداً» . وقال عليٌّ أيضاً : «أبو ذرّ وعاءٌ مُلِيءَ علْماً ، ثمّ أوكىٰ عليهِ فلم يخرجْ منه شيءٌ حتى قُبِضَ» .

* وقال سيّدنا عليٌّ أيضاً : «أبو ذرّ وعى علْماً عجزَ فيه ، وكان شحيحاً حريصاً ، شحيحاً على دِيْنِهِ ، حريْصاً على العِلْم وكان يكثرُ السُّؤال ، فيُعْطي ويمنَعُ ، أما إنَّه قد مُلىءَ له في وعائِهِ حتّى امتلأ»[5] .

---

(١) حلية الأولياء (١/ ١٦٩) بشيء من الاختصار.
(٢) انظر : حياة الصحابة (٣/ ٨٥٣).
(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٨/ ٢٨٧) ، ومجمع الزوائد (٨/ ٢٦٣) ، والحديث في مسند أحمد (٥/ ١٦٢).
(٤) «أوكىٰ» : الوكاء : كل خيط أو سَيْر يشدُّ به فمَ السِّقاء.
(٥) انظر : مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٨/ ٢٨٩) ، وطبقات ابن سعد (٤/ ٢٣٢) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٦٠) مع الجمع بينها.

* ولسيّدنا أبي ذرّ الغِفاريّ رضي الله عنه مواقفُ جميلةٌ مع النَّبيِّ ﷺ ، إذ كان يحظى بالتَّوجيهاتِ النَّبويّة النَّافعةِ من خلالِ ملازمتهِ له ، فقد كان ممن تشرّف بخدمة رسولِ الله ﷺ ، وإذا ما فرغَ أبو ذرّ من الخدمةِ ذهبَ إلى المسجدِ النّبويّ ، فكان المسجدُ هو بيتهُ الذي يأْوي إليه.

* أخرجَ أبو نُعيم عن أسماءَ بنتِ يزيدَ أنَّ أبا ذرّ رضي الله عنه كان يخدمُ النَّبيَّ ﷺ ، حتى إذا فرغَ من خدمتهِ آوى إلى المسجدِ ، فكان هو بيتُه ، فاضطجعَ فيه ، فدخلَ عليه رسولُ الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ ، فوجدَ أبا ذر نائماً في المسجدِ فوكَزهُ برجلِه ، فاستوى جالساً ، فقال رسولُ الله ﷺ: «ألا أراكَ نائماً فيه»؟!

فقال أبو ذرّ: «فأين أنامُ ، مالي بيتٌ غيره» ، فجلس إليه رسول الله ﷺ[1].

* وكان أبو ذرّ رضوان الله عليه معدُوداً في أهلِ الصُّفَّةِ[2] وأهل الصُّفَّةِ هم قومٌ أخلاهم الحقُّ من الرُّكونِ إلى شيء مِنَ العروضِ ، وعصمَهم من الافتتانِ بها عن الفروض ، لا يأوون إلى أهْلٍ ولا مَالٍ ، ولا يلهيهم عن ذكْر اللهِ تجارةٌ ولا مالٌ ، كانت أفراحُهم بمعبودِهم ومليكِهم الله ربّ العالمين ، وهم الرّجالُ الذين لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكْرِ الله ، ولمْ يأسوا على ما فاتَهم ولم يفرحُوا بما آتاهم.

* قال عنهم الحافظُ أبو نُعيم في «الحلْيةِ»: «زوى الله عزَّ وجلَّ عنهم الدُّنيا ، وقبضَها إبقاءً عليهم وصَوناً لهم ، لئلا يطغوا ، فصاروا في حِمَاهُ

---

(١) حليةُ الأولياء (١/ ٣٥٢) بتصرّف يسير جدّاً.

(٢) «الصُّفَّة»: بِضَمّ الصّاد ، وتشديد الفاء: ظُلّةٌ كانَتْ في مؤخّرِ مسجدِ النَّبي ﷺ كان يأوي إليها الفُقراء والمساكين ، وإليها يُنْسَبُ أهلُ الصُّفة.
وقال ابنُ حجر رحمه الله: «الصُّفَّة مكانٌ في مؤخّر المسجدِ النّبوي ، مُظلل أُعدَّ لنزولِ الغرباء فيه ممّن لا مأوى له ، ولا أهل وكانوا يكثُرون فيه ويقلّون بحسبِ مَنْ يتزوّجُ منهم أو يموتُ أو يُسَافِرُ».

محفوظين من الأثقالِ ، ومحروسين من الأشغالِ ، لا تذهلُهم الأموالُ ، ولا تتغيّر عليهم الأحوال»[1].

* وكان عددُ قاطِني الصُّفَّةِ يختلفُ حسَب اختلاف الأوقاتِ والأحوالِ ، فربّما تفرّق عنها وانتقصَ طارقُوها من الغرباءِ والقادمين ، فيقلُّ عددهُم ، وربّما يجتمعُ فيها واردوها من الورَّادِ والوفود ، فينضمُّ إليهم فيكثرون ، والمشهورُ منْ أحوالِهم وأخبارِهم غلبةُ الفَقْر عليهم ، وإيثارُهُم القلّة واختيارُهم لها ، فلمْ يجتمعْ لهم ثوْبان ، ولا حَضَرهم من الأطعمةِ لَونَان ، فكان ذلك أَلْيق بحالِهم ، وأصْلَح لِبالِهم حيثُ تفرّغُوا إلى الاشتغالِ بالأذكارِ ، والعبادةِ بالليلِ وأطرافِ النَّهار ، لذلك صفَتْ نفوسُهم من الأكْدارِ ، وأُثْبِتُوا في عدادِ الأبرارِ ، وأُنزِلُوا في رياضِ النَّعيم ، وسُقُوا من خالصِ التَّسنيم.

* وكان رسولُ الله ﷺ يكرمُ أهلَ الصُّفَّة ، ويعطفُ عليهم ، ويجلسُ معهم في مجالِسهم ، ويأكلُ ممَّا يأكلُون ، وعن هذا يحدّثنا أبو ذرّ فيقولُ: «كنتُ من أهلِ الصُّفَّةِ ، فكُنَّا إذا أمسينا حضَرْنَا بابَ رسولِ الله ﷺ ، فيأمُر كلّ رجُلٍ فينصرفُ برجلٍ ، فيبقى مَنْ بقي من أهلِ الصُّفَّة عشرة أو أكثر أو أقل ، فيؤتَىٰ النَّبيّ ﷺ بعشائِهِ ، فنتعشّى معه ، فإذا فرغْنَا قال رسولُ الله ﷺ: «ناموا في المسجدِ» قال: فَمَرَّ عليَّ رسول الله ﷺ وأنا نائمٌ على وجْهي فغَمَزني برجلهِ وقال: «يا جُندب ما هذه الضَّجْعة؟ فإنَّها ضجعةُ الشَّيطان»[2].

* كان لهذهِ التَّوجيهات النّبويّة أثرها الكريمُ في علْم أبي ذرّ رضي الله عنه وفي سلوكِه العِلْميّ والعَمَليّ ، فقد أدركَ أنَّ حملةَ العلْم النَّبويّ يحبُّهم اللهُ عزَّ وجلَّ وملائكتُه والصَّالحون من العباد ، ولهم هيبةٌ في قُلوبِ الناس ، وكان يحضُّ على تعلّم العِلْم ابتغاءَ وجهِ الله ، لا ابتغاءَ الدنيا ، وفي هذا يقولُ أبو ذرّ رضي الله عنه: «تعلَّمُنَّ أنَّ هذه الأحاديثَ التي يُبتغى بها وجْهُ اللهِ تعالى

---

(١) حلية الأولياء (١/٣٣٨).
(٢) حلية الأولياء (١/٣٥٢ و٣٥٣).

لا يتعلّمها أحدٌ يريدُ بها عرضَ الدّنيا ـ أو قال: لا يريدُ بها إلاّ عرضَ الدّنيا ـ فيجد عَرْفَ الجنَّة أبداً»[1].

* وفي التّرغيبِ بالعِلْمِ وفضْلِه على سائر الأشياء يقول أبو ذرّ أيضاً: «لَبَابٌ يتعلّمه الرّجلُ أحبّ إليّ من ألفِ ركعةٍ تطوعاً ، وباب من العلْمِ يعلّمه ـ عمِلَ به أو لم يعملْ بهِ ـ أحبّ إليّ منْ مئةِ ركعة تطوّع».

* ولقد حلّقَ أبو ذرّ رضي الله عنه عالياً في فضاءِ العِلْم ، فكان يوازي عبدَ الله بن مسعود في العِلْم والفَضْل ، وفي معرفة السِّيرة النَّبوية[2] ، وكان زاهداً أمّاراً بالمعروف ، لا تأخذهُ في اللهِ لومة لائم ، وحسبُه بهذا فضلاً.

«أنتَ مع مَنْ أحبَبْتَ»:

* تعلّق سيّدنا أبو ذرٍّ رضي الله عنه بحبّ الله عزَّ وجلَّ ، وحبِّ الصَّادق المصدوق ﷺ تعلقاً شديداً ، ممّا جعلَه يسألُ النّبيَّ ﷺ عن حصيلة هذا الحُبِّ الخالِصِ ومصيره ، ويُعْلِمُه رسولُ الله ﷺ أنَّ المرءَ مع مَنْ أحبَّ ، فيُعْلِمُه أبو ذرّ أنّه يحبُّ اللهِ عزَّ وجلَّ ورسوله ﷺ محبّةً خالصةً نقيةً.

* أخرجَ الإمامُ أحمدُ عن عبدِ الله بن الصَّامت قال: قال أبو ذرّ رضي الله عنه «قلتُ: يا رسولَ اللهِ ، الرَّجلُ يحبُّ القومَ ولا يستطيع أنْ يعملَ كَعَملهم؟

قال: «أنتَ يا أبا ذرّ مع مَنْ أحبَبْتَ».

قلتُ: فإنّي أحبُّ اللهَ ورسولَه.

قال: «فأنتَ يا أبا ذرّ مع مَنْ أحبَبْتَ».

قالَها له ثلاثَ مرّات: «أَنْتَ مَع مَنْ أحببْتَ»[3].

* إن هذه المحبّة الزّاكية أحلّتْ أبا ذرّ مكانةً عُليا في ثُلّةِ الصَّحابةِ العُلماء رضي الله عنهم؛ ولعلّه ببركةِ هذه المحبّة قد حظيَ بدعوةٍ مباركةٍ من

---

(١) حياة الصحابة (٣/ ٢٦٥)؛ ومعنى «عَرف الجنّة»: ريحها الطّيّبة.

(٢) الإصابة (٤/ ٦٥) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الرّاشدين ص ٤٠٦).

(٣) المسند (٥/ ١٦٦).

رسول الله ﷺ إذْ دعا له بالمغفرةِ والتَّوبةِ فقال: «اللهم اغفرْ لأبي ذرّ وتُبْ عليهِ»[١].

* ومن المؤكَّد أنَّ هذه المحبَّةَ الصَّادقةَ من أبي ذرّ ، جعلَتْهُ محبوباً لدى الصَّحابة ، فأخذوا يفصحونَ عن حُبِّهم له أمامَ النَّبيِّ ﷺ.

* ذكرَ عبدُ الله بن سَرْجَس[٢] المُزَنيّ رضي الله عنه قال: «قلتُ للنَّبي ﷺ: إني أحبُّ أبا ذرّ رضي الله عنه.

فقال: «أعلمتَه بذلك»؟

قلتُ: لا.

قال: «فأعْلِمْهُ».

فلقيتُ أبا ذرّ ، فقلت: إنّي أحبُّك في اللهِ.

قال: أحبَّكَ الذي أحبَبْتَني له.

فرجعتُ إلى النَّبيِّ ﷺ فأخبرتُه فقال: «أما إنَّ ذلك لمن ذَكَره أجْرٌ»[٣].

* وكان أبو ذرّ رضي الله عنه يلمسُ بنفسهِ محبّة النَّاس له ، كما كان يلمسُ أنَّ ذلك يزيدُ في رصيدهِ الإيمانيّ ، وأحبَّ أنْ يتأكَّدَ من ذلك ، فقال لرسولِ الله ﷺ: «يا رسولَ الله الرَّجُلُ يعملُ العملَ لنفسِه ويحبُّه النَّاسُ عليه»؟

قال: «ذلك عاجِلُ بُشرى المؤمن»[٤].

* ويظهرُ أنَّ النَّبيَّ الكريم ﷺ كان يبادل أبا ذرٍّ ومَنْ معَه الحُبَّ ، فكان يكرِمُهم ويحضُّ على إكْرَامِهم وتوقيرِهم ، ويسعى على الحياةِ معهم بالقرب منهم ، لأنَّ هدفَهم وجْهُ الله عزَّ وجلَّ لا يريدون غيرَهُ؛ وفي الموقف الآتي التَّالي الذي يذكرُهُ سَلْمَانُ الفارسيّ رضي الله عنه مِصْداق ذلك حيث قال:

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٠).
(٢) انظر ترجمته في أسد الغابة (٣/ ١٥٢ و١٥٣) ترجمة رقم (٢٩٦٩).
(٣) مجمع الزوائد (١٠/ ٢٨٢).
(٤) بهجة المجالس (٢/ ٣٤٣).

«جاءتِ المؤلَّفَةُ قلوبُهم إلى رسولِ اللهِ ﷺ: عُيينةُ بنُ حِصْن؛ والأقرعُ بن حابس، وذووهم، فقالوا: يا رسولَ الله، إنَّك لو جلَسْتَ في صَدْرِ المسجد، ونحَّيْتَ عنّا هؤلاء - وأرواح جِبَابهم[1] يعنون أبا ذرّ وسَلْمان وفقراءَ المسلمين، وكان عليهم جِبابُ الصّوف لم يكنْ عندهم غيرها - جَلَسْنا إليكَ وخالَصْنَاك، وأخذْنَا عنك، فأنزلَ الله عزَّ وجلَّ ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ۝٢٧ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم...﴾ حتى بلغَ: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: ٢٧ - ٢٩]، يتهدّدهُم بالنَّار، فقام نبيُّ اللهِ يلتمسُهم حتَّى أصابَهم في مؤخَّرِ المسجدِ يذكرون الله، فقال رسولُ الله ﷺ: «الحمدُ للهِ الذي لم يُمتْني حتى أمرني أنْ أصبرَ نفسي مع قومٍ من أمّتي، معكم المحيَا ومعكم المَمات»[2].

* ولم يتوقفْ حبُّ النَّبي ﷺ لأصحابِه، وحبُّ أصحابه له عند هذا الحدّ، بل تجاوزَ إلى ما هو أرفع منْ ذلك، فقد سُئِلَ أبو ذرّ: هل كان رسولُ الله ﷺ يصافِحُكم إذا لقيتموه؟ قال: «ما لقيني قطُّ إلَّا صافحني، ولقد جئتُ مرّةً، فقيل لي: إنَّ النَّبيَّ ﷺ طلبَك، فجئتُ فاعتنقَني، فكان ذلك أجْودُ وأجْود»[3].

مِنْ وَصَايَا النَّبيِّ ﷺ وتوجيهاته لأَبي ذَرٍّ:

* من خلال استعراض الوصَايا النَّبويّةِ والتّوجيهات المحمديّة، نجدُ أنَّ رسولَ الله ﷺ يخصُّ أبا ذر بشيءٍ نفيس منها، ويحضُّه على التماس طريق العِلْم، ونقله إلى النَّاس، كما يحضُّه على القولِ بالحسنى وغير ذلك من الفضائلِ التي تعودُ بالنَّفع على النَّاس جميعاً.

* وسيّدنا أبو ذرّ رضي الله عنه ينقل للأمة بعض الوصايا النّبويّة الجامعة النَّافعة فيقولُ: «أمرنَا رسولُ اللهِ ﷺ ألا نغلبَ على أنْ نأمرَ بالمعروفِ،

---

(١) «أرواح»: جمع ريح. و«جبابهم»: جمع جبة.
(٢) حلية الأولياء (١/٣٤٥).
(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٨/٢٢٨ و٢٢٩).

ونهى عن المنكرِ ، ونعلم النَّاس السُّنَن»[1].

* وحفظ أبو ذرّ وصايا النَّبيِّ ﷺ وحافظ عليها ، وسعى إلى نشرِها بين النَّاس حتى يقتدوا بها ، لأنَّ بها صلاحَ المجتمع ، ونفْعَ الأمّة ، ويرسم أبو ذرّ صورةً بارزةً لإحدى الوصَايا النَّبويَّة التي خصَّهُ بها حبيبه رسول الله ﷺ فيقول: «أوصاني خليلي بسبعٍ: أمرني بحبِّ المساكين والدّنو منهم ، وأمرني أنْ أنظرَ إلى مَنْ هو دوني ، وألاّ أسألَ أحداً شيئاً ، وأنْ أصِلَ الرّحم ، وإنْ أدبرت ، وأَنْ أقولَ الحقّ وإن كان مُرّاً ، وألاّ أخافَ في الله لومة لائم ، وأنْ أكثرَ من قول: لا حولَ ولا قوّة إلا بالله ، فإنّهنّ من كنزٍ تحت العرش»[2].

* وأوصى رسولُ الله ﷺ أبا ذرّ بالسَّمْع والطَّاعةِ للأميرِ فقال له: «اسمعْ وأطِعْ لمن كان عليك»[3].

* ومن الوصَايا النَّبويّة الكاملة لأبي ذرّ ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال له مع قوّة أبي ذرّ وشجاعته: «يا أبا ذرّ ، إنّي أراك ضعيفاً ، وإنّي أحبُّ لكَ ما أحبُّ لنفسي ، لا تأمّرن على اثنَيْن ، ولا تولّين مالَ يتيم»[4].

* وكان لِحُسْنِ النّيّة ، وصفاءِ السَّريرة نصيبٌ في النَّصيحة النَّبوية لأبي ذرّ ، حيث قال له النَّبيُّ ﷺ: «يا أبا ذرّ جدّدِ السَّفينةَ فإنَّ البحرَ

---

(١) المصدر السابق (٢٨/ ٢٩٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٤) ، والحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ١٥٩) ، وابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٢٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٧١).

(٤) الحديث أخرجه مسلم في الإمارة برقم (١٨٢٦) باب كراهية الإمارة بغير ضرورة ، وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٨٠) ، وابن سعد في الطَّبقات (٢/ ٢٣١).
قال الذَّهبيّ رحمه الله ما مفاده: «وهذا ـ أي الحديث ـ محمولٌ على ضعف الرّأي ، فإنَّ أبا ذر رضي الله عنه لو وَليَ مال يتيم لأنفقه كلّه في سبيل الخيرِ ، ولترك اليتيمَ فقيراً ، فقد كان رضي الله عنه لا يستجيز ادّخارَ المالِ من الذَّهب والفضّة ، والذي يتأمّر على النَّاس ، يريدُ أنْ يكون فيه حلمٌ ومداراةٌ وأناةٌ ، وأبو ذرّ رضي الله عنه كانت فيه حدَّةٌ ، فنصحَه النَّبيُّ ﷺ ، وأوصاه بذلك ، إذ الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام أعرفُ النَّاس بالنَّاس».

عميقٌ»[١]، أي أَحْسنِ النِّيةَ في كلّ ما تأتي وتذرُ ليحصلَ لك الأجرُ والنَّجاةُ من عذاب الله تعالى.

* وكان أبو ذرّ نفسُه يطلبُ من مُعَلّمهِ ومربيه رسول الله ﷺ أنْ يوصيه ويدلّه على الخيراتِ، ومن جوامعِ الوصايا النّبويّة في هذا المجال، وصيةٌ عظيمةٌ لأبي ذرّ تأمره بالتّقوى وتلاوةِ القرآن الكريم، وتحضُّه على الفضائلِ.

* أخرجَ الطَّبراني رحمه الله بسندهِ عن أبي إدريس الخَولاني عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال:

«قلتُ: يا رسولَ الله، أوصني.

قال: «أوصيك بتقوى الله فإنَّها رأسُ أمرِك».

قلت: يا رسولَ الله، زدني.

قال: «عليك بتلاوةِ القُرآن، وذكْر الله فإنَّ لك نوراً في السَّماء، ونوراً في الأرض».

قلت: يا رسول الله، زِدْني.

قال: «لا تكثرِ الضَّحِك فإنَّه يميتُ القَلْبَ ويذهبُ نورَ الوجْهِ».

قلت: يا رسولَ اللهِ، زِدْني.

قال: «عليك بالجهادِ فإنّه رهبانيّة أمّتي».

قلت: يا رسولَ الله، زِدْني.

قال: «عليك بالصَّمتِ إلاَّ من خيرٍ فإنَّه مَردَّةٌ للشَّيطان عنك وعون لك على أمرِ دينكَ».

قلت: يا رسولَ الله، زِدْني.

قال: «انظرْ إلى مَنْ هو دونَك ولا تنظرْ إلى مَنْ هو فوقَك، فإنه أجدرُ أنْ لا تَزْدري نعمةَ الله عندك».

---

(١) انظر كتاب: نصائح العباد لابن حجر العسقلاني (ص ١٨).

قلتُ: يا رسولَ الله ، زِدْني.

قال: «صِلْ قرابَتَك ، وإنْ قَطعُوك».

قلت: يا رسولَ الله ، زِدْني.

قال: «لا تخفْ في اللهِ لومة لائم».

قلت: يا رسول الله ، زدني.

قال: «تحبُّ للنَّاس ما تحبُّ لِنَفْسِكَ».

ثم ضربَ بيده على صدري فقال: «يا أبا ذرّ ، لا عقل كالتّدبير ، ولا وَرَعَ كالكفّ ، ولا حَسَب كَحُسنِ الخلق[1]».

* ومن حصائل الوصَايا يخبرنا أبو ذرّ رضي الله عنه عن حصيلةٍ واحدةٍ من تلك الجلْسَات النَّبوية العَطرة التي نفحتْه بوابلٍ صيِّبٍ من بدائعِ الكَلِمِ الطَّيِّب في مجالاتٍ شتّى نافعة.

* عن عُبيد بنِ عُمير ، عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: «دخلتُ المسجدَ فإذا رسولُ الله ﷺ ، فقال: «يا أبا ذرّ ألا أُوصيك بوصايا إنْ أنتَ حفظتها نفعَك اللهُ بها»؟

قلت: بلى بأبي أنتَ وأمّي.

قال: «جاورِ القبورَ تذكرْ بها وعيدَ الآخرة ، وزُرْهَا بالنَّهار ولا تَزُرْهَا بالليل ، واغسلِ الموتى ، فإنَّ في معالجةِ جَسَدٍ خاوٍ عِظَةٌ ، وشيِّعِ الجنائزَ ، فإنَّ ذلك يحرّكُ القَلْبَ ويحزنُه ، واعلم أنَّ أهلَ الحزنِ في أمْنِ اللهِ ، وجالسْ أهلَ البلاءِ والمساكين ، وكُلْ معهم ، ومع خادمِك لَعَلَّ الله يرفعُك يوم القيامة ، والبسِ الخشِنَ الصَّفيق[2] من الثّياب تذلّلاً لله عزّ وجلَّ وتواضعاً لعلَّ الفخر والبَطر لا يجدان فيكَ مسَاغاً ، وتزيّن أحياناً في عبادةِ الله بزينةٍ حَسَنةٍ

---

(١) أخرجه الطبراني (٢/ ١٥٧ و١٥٨) برقم (١٦٥١).

(٢) «الصفيق»: البيِّن.

تعفُّفاً وتكرُّماً ، فإنَّ ذلك لا يضرُّك إنْ شاءَ الله وعسى أنْ يحدث لله شكراً»[1].

* وفي واحدةٍ من نفحاتِ الوصَايا الفريدةِ حظيَ أبو ذرّ بدعاء مبارك من رسولِ الله ﷺ ، فقد جاء عن أبي أُمامة «أنَّ رسولَ الله ﷺ دفعَ إلى أبي ذرٍّ غلاماً فقال: «يا أبا ذرّ ، أطْعِمْهُ ممّا تأكل ، واكْسُهُ ممّا تَلْبس»؛ فلم يكنْ عنده غيرُ ثوبٍ واحدٍ ، فجعله نصفَيْن ، فراحَ إلى رسول الله ﷺ فقال: «ما شأنُ ثوبكَ يا أبا ذرّ»؟!

فقال: إنَّ الفتى الذي دفعتَه إليَّ أمرتَني أن أطعِمَه مما آكلُ وأكسوهُ ممّا ألبسُ ، وإنَّه لم يكن معي إلاَّ هذا الثَّوب فناصَفتُه.

فقال رسولُ الله ﷺ: «أحسنْ إليهِ يا أبا ذرّ».

فانطلقَ أبو ذرّ فأعتقَهُ ، فسأله رسولُ الله ﷺ: «ما فعلَ فَتَاك»؟

قال: ليس لي فتىً ، قد أعتقتُه.

قال: «أجَرَكَ اللهُ يا أبا ذرّ»[2].

* وأخرجَ الإمام أحمدُ في «المسندِ» وصيةً نبوية قيمة لأبي ذرّ ، فقد أمرهُ رسولُ الله ﷺ ذاتَ مرّةٍ أنْ يصبرَ ستّةَ أيّامٍ ، وبعدها أوصَاهُ أنْ يفهمَ ما سيقولُ له في اليومِ السَّابع ، فلما كان اليومُ السَّابعُ أتاه فقال ﷺ: «أوصيك بتقوى الله في سرِّ أمرِكَ وعلانيتهِ ، وإذا أسأْتَ فأحْسِنْ ولا تسألنَّ أحداً شيئاً وإنْ سقطَ سوطُكَ ، ولا تقبضْ أمانةً ، ولا تَقْضِ بين اثنَيْن»[3].

* والوصايا النّبويةُ آداب سلوكية مختومة بمسكِ العِظَاتِ ، لا يملُّ السَّامعُ ولا المطّلع من سماعِها وقراءتِها ولكنّنا سُقْنَا منها ما نزيّن به هذا الكتاب ،

---

(1) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٨/ ٢٨٨).

(2) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٨/ ٢٩٠).

(3) المسند (٥/ ١٨١).

ولتعمّ البركةُ والفائدةُ بذكْرِ أهلِ الصَّلاح من الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، وحشرنا في معيّتهم.

مِـنْ رقـائـق مَواعِـظِـهِ وأَخْـبَـارِهِ:

* كان أبو ذرّ رضي الله عنه زاهداً متقلّلاً منَ الدُّنيا، وكان قد صَرَف النَّظَرَ عن ظواهرها ولألائها؛ إلى نعيمِ الآخرةِ وآلائها، وكان يحذِّرُ تحذيراً تذرفُ منه العيون، وتوجَلُ به القلوبُ، كأنَّ الآخرةَ تجلَّتْ بين يديهِ، وأحوالَ المحشرِ تبدّتْ أمام عينَيْهِ، فشَرعَ يأخذُ بأيدي الأمّةِ المحمّديّة بمواعظِهِ وعظاتِهِ إلى رفيعِ الدَّرجاتِ، وإلى فاطرِ الأرضِ والسَّماوات، ليفوزوا بنعيم الجنَّات.

* ولأبي ذرّ رضي الله عنه مواعظ حِسَانٌ، وكلماتٌ تُلَقِّحُ بجمالِها الأَذْهَان، اقتبسها من مفرداتِ ومعاني القُرآن، وروّاها بنديّ كلماتِ رسولِ الرحمن ﷺ فكان لها وقْعٌ في النُّفوس الزُّهر، إذ توقّدت كلماتُه من شجرةِ الزُّهد التي قالَ ـ استظلَّ ـ في ظِلِّها حيناً من الدّهر.

* فمن منتخبات مواعظِهِ قولهُ: «يكفي منَ الدُّعاء مع البرّ، ما يكفي الطَّعام من الملْحِ»[1].

* ووعظَ أبو ذرّ رضي الله عنه النَّاسِ مرَّةً، وأخبرهم عن المالِ وعن إنفاقِهِ وعن مصيره فقال: «في المالِ ثلاثةُ شُركاء:

القدرُ: لا يستأمرُك أنْ يذهبَ بخيرِها، أو شرِّها من هلاكٍ أو موت.

والوارثُ: ينتظرُ أنْ تضعَ رأسكَ ثمّ يستاقُها وأنتَ ذميم.

وأنت الثَّالث: فإن استطعتَ أنْ لا تكونَ أعْجَز الثَّلاثةِ فلا تكونن، إنَّ الله عزَّ وجل يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وإنّ هذه الجملَ ممّا كنتُ أحبُّ من مالي فأحببتُ أنْ أقدّمه لنفسي»[2].

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٥٩٣).

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٨/ ٣٠٦)، وصفة الصفوة (١/ ٥٩١).

* وفي كلِّ مكانٍ يحلُّ فيه أبو ذرٍّ ، كان يعظُ النَّاسَ وهو مشفقٌ عليهم ، يرشدهُم إلى طريقِ الزُّهدِ ، والتَّقلُّلِ من الدُّنيا ، والاستعدادِ إلى الآخرةِ ، ويدلُّهم على مكارمِ الفضائلِ ومحاسن الشّمائل ، فمن رقيقِ كلامه في هذا المجالِ ما حكاهُ سُفيان الثَّوريُّ رحمه الله قال: «قامَ أبو ذرّ الغِفَاري رضي الله عنه عند الكعبةِ فقال: يا أيُّها النَّاس ، أنا جندُب الغِفاريُّ ، هلمّوا إلى الأخِ النَّاصح الشَّفيق ، فاكْتنَفَه النَّاسُ ـ اجتمعُوا حولَه ـ فقال: أرأيتم لو أنَّ أحدَكم أرادَ سفَراً ، أليس يتّخذُ من الزَّادِ ما يصلحُه ويبلِّغُه؟!

قالوا: بلى.

قال: فَسَفَرُ طريقِ القيامةِ أبعدُ ما تريدون ، فخذُوا منه ما يصلحُكم.

قالوا: وما يصلحُنا؟

قال: حجّوا حجّةً لعظائمِ الأُمُور ، صوموا يوماً شديداً حرُّهُ لطولِ النُّشور ، صلُّوا ركعتَيْن في سوادِ الليل لوحشةِ القبور ، كلمةُ خير تقولُها أو كلمة سوء تسكتُ عنها لوقوفِ يومٍ عظيم ، تصدّقْ بمالكَ لعلّك تنجو من عسيرِها ، اجعلِ الدُّنيا مجلسَيْن: مجلساً في طلبِ الآخرة ، ومجلساً في طلبِ الحلال ، والثَّالث يضرّك ولا ينفعُك لا تريدهُ ، اجعلِ المالَ درهمَيْن: درهماً تنفقُه على عيالك من حلِّهِ ، ودرهماً تقدّمه لآخرتك ، والثَّالث يضرّك ولا ينفعك لا تريده ، ثمّ نادى بأعلىٰ صوته: يا أيّها النَّاس ، قد قتَلَكم حِرصٌ لا تدركونَـهُ أبداً»[1].

* ولأبي ذرٍّ رضي الله عنه رقائـق مؤثـرة وعـظ بها الناس في المسجـدِ النَّبويّ الشَّريف ، وكلُّها تستهوي النُّـفوس ، وتؤثّـرُ في الأفئـدةِ ، من ذلك ما ذكرهُ مالكُ بنُ أوس بنِ الحَدَثان قال: «قدمَ أبو ذرٍّ الغِفاريّ رضي الله عنه

---

(١) حلية الأولياء (١/١٦٥) ، وانظر: صفة الصفوة (١/٥٩١ و٥٩٢) ، وحياة الصحابة (٣/٥١٤).

منَ الشَّام ، وأنا جالسٌ مع عثمانَ بن عفان رضي الله عنه في مسجدِ رسولِ الله ﷺ ، فجاء أبو ذرّ فسلَّمَ عليه .

فقال عثمانُ : رضي الله عنه : كيفَ أنتَ يا أبا ذرّ؟

قال : بخيرٍ ، فكيف أنت؟

ثمَّ ولّىٰ وهو يتلو قوله تعالى : ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التّكاثر : ١ ـ ٢] ، ورفعَ صوته ، وكان صلْب الصَّوتِ ، حتى ارتجَّ المسجدُ بقراءةِ السُّورةِ كلّها ، حتّى مالتِ القراءةُ إلى ساريةٍ من سواري المسجدِ فصلّى ركعتَيْن فتجوّزَ فيهما ، ثمّ جعلَه النَّاسُ وسطَهُم ، وقالوا : يا أبا ذرّ ، حدثْنا عن رسولِ الله ﷺ ، وجلستُ قبالةَ وجهه ، فحدَّثَهم عن النَّبيِّ ﷺ»[1] .

* وسجَّلَ زُهـدُ أبي ذرّ مواعظَ تجري مجرى الحكمـةِ ، وكانت معظمُ مواعظه أمامَ الخُلَفاء ، ففي جلسةٍ جمعتْ مُعاوية بن أبي سفيان ، وأبا ذرّ رضي الله عنهم سأله معاويةُ : مَنْ خيارُنَا يا أبا ذرّ؟

قال أبو ذرّ وجَدْوَلٌ من سلسبيلِ الحكمةِ يجري على لسانِه : خيارُكم أزهدُكم في الدُّنيا ، وأرغبُكم في الآخرةِ ، وشرارُكم أرغبُكم في الدنيا ، وأزهدُكم في الآخرةِ»[2] .

* وكان أبو ذرّ نفسُه يسلكُ طريقَ هذه الحكمةِ التي ألقاها أمامَ سيّدنا معاويةَ ، وهو لا يلقي بالاً لِزَخارفِ الدُّنيا وزينتها ، وفي ذلك يقول : «مالي وللدُّنيا ، وإنّما يكفيني صاعٌ من طعامٍ في كُلّ جُمُعَةٍ ، وشربةٌ من ماءٍ في كلّ يوم»[3] .

* وأوضحَ طريقَ زهدِهِ في الدّنيا وطعَامَهُ فيها فقال : «كان قُوْتي على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ في كلّ جُمُعَةٍ صاعاً ، فلَسْتُ بزائدٍ عليه حتّى ألقاهُ» .

---

(١) انظر : مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٨/ ٢٩٧) بشيء من التَّصرف وانظر : سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٦) .

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٨/ ٢٩٧) بتصرف .

(٣) المصدر السَّابق (٢٩/ ٣٠٣) .

* ومن هنا أجادَ أبو نُعيم الأصفهانيّ رحمه الله عندما وصفَهُ بقولِه: «تخلّىٰ من الدُّنيا ، وتشمَّرَ للعُقبىٰ ، وعانَقَ البلْوىٰ ، إلى أنْ لحقَ بالموتِ»(١).

* وكثيراً ما كان أبو ذرّ رضي الله عنه يدلُّ أحبابَه مِنْ خلالِ توجيهاته ونصائحه ليسلكوا طرقَ الزُّهد ، ويلفت نظرهم ، إلى ما هو عليه من ازدرائِه لزخرفِ الدُّنيا ومتاعها ، وعمله للآخرة وبنائها.

* روى جعفرُ بنُ سُليمانَ قال: «دخلَ رجلٌ على أبي ذرٍّ ، فجعلَ يقلِّبُ بَصَرَهُ في بيتهِ ، فقال له: يا أبا ذرّ أينَ متاعُكم؟ وفي روايةٍ: ما أرى في بيتِكَ متاعاً ، ولا غير ذلك من الأثَاثِ.

فقال: إنَّ لنا بيتاً نوجِّهُ إليهِ صالحَ متاعنا.

قال: إنَّه لابدّ لكَ من متاعٍ ما دمْتَ هاهنا.

فقال: إنَّ صاحبَ المنزلِ لا يدعُنَا فيهِ»(٢).

* ويقرِّرُ أبو ذرٍّ أنَّ الزُّهدَ هو مصدرُ السَّعادة الحقيقية ، وها هو ذا يستحضرُ صورةً من صورِ الزُّهدِ والتَّقوى في القرآنِ العظيم ، وذلك ممّا رواهُ عن النَّبيِّ ﷺ عندما قالَ له: «يا أبا ذرّ إنّي لأعلمُ آيةً لو أخذَ بها النَّاسُ لكفتهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] فما زالَ يقولُها ويعيدُهَا عليَّ»(٣).

* ومن لطائف كلامِ أبي ذرّ ورقائق زهدياته قولُه: «أحِبّ الإسلام وأهلَه ، وأحبَّ الفُقَراء ، وأحبَّ الغريب من كُلّ قلبِك ، وادخلْ في هموم الدُّنيا ، واخرجْ منها بالصَّبْر ، ولا يأمنْ رجلٌ أنْ يكونَ على خيرٍ فيرجع إلى

---

(١) حلية الأولياء (١/ ١٦٩).
(٢) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٨/ ٣١٠) ، ويُلاحَظُ من خلالِ هذا الخبر مدى اتّصال قَلْبِ أبي ذرّ بالله عز وجلَّ في جميعِ الأحايين.
(٣) حلية الأولياء (١/ ١٦٦).

شرّ ، فيموتَ بِشَرٍّ ، ولا ييأس رجلٌ أنْ يكونَ على شرٍّ ، فيرجعَ إلى خير ، فيموتَ بخيرٍ ، وليردّك عن النّاس ما تعرفُ من نفسِك».

* وكان سيّدنا عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه يأْنَسُ لكلماتِ أبي ذرّ ويطرَبُ لحلاوتِها ونداوتِها ، وقد سأله مرّةً: «يا أبا ذرّ ، منْ أنعمُ النّاسِ بالاً»؟

قال: «بريءٌ في الثَّوابِ ، قد أمِنَ من العِقَاب فَبُشِّرَ بالثَّواب».

قال: «صدقتَ يا أبا ذرّ»[1].

* وممَّا حُفِظَ من توجيهاته التّربويّة وحكمِه الاجتماعيّة النّافعة قولُه: «الجليسُ الصَّالحُ خيرٌ من الوحدةِ ، والوحدةُ خيرٌ من جليسِ السُّوء».

* وعلى الرَّغمِ من حِدّةِ أبي ذرّ ، فإنّه كان يحلُمُ على النّاس ، ويطيعُ الله عزَّ وجلَّ بذلك ، ومما يُستجادُ من أخباره هنا ما وردَ: «أنَّ رجُلاً شتَمَهُ ، فقال له أبو ذرّ: يا هذا ، لا تُغْرِقَنَّ في شَتْمنا ، ودعْ للصّلح موضعاً ، فإنّا لا نكافىءُ مَنْ عَصَىٰ الله فينا بأكثرَ من أنْ نطيعَ الله فيه»[2].

* ومن طريفِ الإجابات اللطيفة لأبي ذرّ أنَّ رجلاً قال له: «فلانٌ يقرئكَ السَّلام».

فقال: «هديةٌ حسنةٌ ، وحِمْلٌ خفيف»[3].

* وأخبارُ أبي ذرّ ووصاياهُ كثيرةٌ ، تكفّلتِ المصادرُ بذكرِها؛ وما أجملَ أنْ نقرأ في ختام هذه الفِقْرة ما استهلَّ به أبو نُعيم ترجمته عندما قال: «العابدُ الزّهّيد ، القانتُ الوحيدُ ، رابعُ الإسلامِ ، ورافضُ الأزلامِ ، قبل نَزْلِ الشَّرعِ والأحكامِ ، تعبَّد قبل الدَّعوةِ بالشُّهور والأعوامِ ، وأوَلُ مَنْ حيّا بتحيّةِ الإسلام ، لم يكنْ تأخذُهُ في الحقّ لائمةُ اللوّام ، ولا تفزعهُ سطوةُ الولاةِ

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٨/ ٣١١).
(٢) بهجة المجالس (١/ ٤١٨).
(٣) المصدر السابق (١/ ٢٨٠).

والأحكامِ ، أوّلُ مَنْ تكلَّمَ في علْمِ البقاءِ والفَنَاءِ ، وثبتَ على المشقَّةِ والعَناء ، وحفظَ العهودَ والوصايا ، وصبرَ على المحنِ والرّزايا ، واعتزلَ مخالطةَ البرايا ، إلى أنْ حلَّ بساحةِ المنايا ، أبو ذرَّ الغفاريّ رضي الله عنه ، خدمَ الرَّسولَ ﷺ ، وتعلَّمَ الأصولَ ، ونبذَ الفُضُول»[١].

الحَافِظُ الصَّادق لأحاديث الصَّادق ﷺ :

* يعدُّ أبو ذرّ الغِفاريّ منْ أوعيةِ العلْم منَ الصَّحابةِ الكِرام ، ومنْ حفَّاظِ حديثِ النَّبيّ ﷺ ، وممّن نقلَ للأمَّةِ الأحاديثَ النَّبويَّة لتكون لهم نهجاً بعد كتابِ الله عزَّ وجلَّ.

* وافتخر أبو ذرّ بأنَّه أخذَ عِلْمَه عن القرآنِ الكريم ، وعن رسولِ الله ﷺ ، وفي هذا يقسمُ قائلاً : «واللهِ ما كذبتُ على رسول الله ﷺ ، ولا أخذتُ إلاَّ عنه ، أو عن كتابِ الله عزَّ وجلَّ»[٢].

* ويعزّزُ كلامَه ويوثقُه بقسَمٍ آخر يشيرُ إلى مدى التزامِه بالعهدِ الوثيقِ الذي عاهدَ عليه النَّبيّ ﷺ في القولِ والعملِ ، اسمعْ إليهِ حيثُ يقولُ : «والله إنّي لعَلىٰ العهدِ الذي فارقتُ عليهِ رسولَ الله ﷺ ، ما غيَّرتُ ولا بدّلْتُ»[٣].

* وقال مالكُ بن دينار رحمه الله : «قال أبو ذرّ للنَّبيّ ﷺ : والذي بعثَكَ بالحقّ لالَقَيْتُك إلاَّ على الذي فارقتُكَ عليه»[٤].

* وأبو ذرّ واحدٌ من الصَّحابةِ العلماءِ الذين نقلُوا العِلْم عن النَّبي ﷺ ، وحفظُوا أحاديثَه ، ووعوها وعملُوا بها ، وهو أيضاً ممّن قصدهم العلماءُ وطلبة الحديث من كلّ فجٍ عميقٍ ، ليأخذوا عنهم ما حفظوه عن النَّبيِّ ﷺ.

* روى لأبي ذرّ عن رسولِ الله ﷺ (٢٨١ حديثاً) ، اتّفق البُخاريُّ ومسلم

---

(١) حلية الأولياء (١/١٥٦ و١٥٧).
(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٩/ ٢٩٢).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق (٢٩/٣٠٣).

على اثني عشَر حديثاً ، وانفردَ البخاريُّ بحديثَيْن ، ومسلمٌ بِتسْعَةَ عشَر[1].

* روى عنه من علماء الصَّحابة: عبدُ الله بنُ عبَّاس[2] ، وعبدُ الله بنُ عمر[2] ، وأنسُ بنُ مالك[2] رضي الله عنهم.

* وروى عنه من التَّابعين عددٌ كبيرٌ منهم: الأحنفُ بنُ قيس ، وقيسُ بن عُباد ، وعبدُ الله بنُ الصَّامت ، وسعيدُ بن المسيّب ، وعبدُ الرحمن بن أبي لَيْلى ، وعطاءُ بنُ يَسار[3] وموسىٰ بن طلحةَ ، وأبو الأسود الدُّؤلي ، وآخرون[4].

* فمن مرويّات أبي ذرّ ، ما أخرجه الإمامُ أحمد والتّرمذي أنَّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ الله أوصني.

قال: «اتَّقِ الله حيثما كنتَ ، وأتبعِ السيئةَ الحسَنَة تمحُها ، وخالقِ النَّاس بخلُقٍ حَسَن»[5].

* وممّا جاءَ في الصَّحيحِ عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: قال لي

---

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٢٩) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٧٥).
(٢) اقرأ سيرهم في هذهِ الموسوعةِ المُباركة ، في أبوابها المتنوعة.
(٣) عطاءُ بنُ يسار التَّابعي ، قال عنه الإمام الذَّهبيُّ: «كانَ إماماً ، فقيهاً ، واعِظاً ، مذكِّراً ، ثبتاً ، حجّةً ، كبيرَ القَدْر».
قال أبو حازم عنه: «ما رأيتُ رجُلاً كان ألزمَ لمسجدِ رسول الله ﷺ من عطاء بنِ يَسار» وأخبارُ عطاءٍ مشهورةٌ منثورةٌ في المصادر.
توفي عطاء في سنة (١٠٣ هـ) رحمه الله (سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٤٨ و٤٤٩).
(٤) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٢٩ و٢٣٠) ، وسير أعلام النُّبلاء (٢/ ٤٦ و٤٧) ، والإصابة (٤/ ٦٥).
(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٨ و٢٣٦) ، وأخرجه التّرمذي برقم (١٩٨٨) ، وقال: «حديثٌ حسَن» قال ابنُ علّان: «ويؤيدُ تحسين التّرمذي أنّه وردَ لهذا الحديث طرقٌ متعددة عند أحمدَ والبزار والطَّبراني والحاكم وابن عبد البر ، وغيرهم ، يفيدُ مجموعها حسنه» ، (الفتوحات الرّبانية ٧/ ٣٧٣) ، وانظر: صحيح الجامع الصَّغير (١/ ٨٦).

النَّبـيّ ﷺ: «لا تحقِرَنَّ من المعروفِ شيئاً ، ولو أنْ تلقىٰ أخاكَ بوجْهٍ طَلْقٍ»[1].

* وفي الحثّ على ذكْرِ الله تعالىٰ بعد صلاةِ الصُّبح ، يروي أبو ذرّ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ قالَ في دُبرِ صلاةِ الفجرِ ، وهو ثانٍ رجلَيْه ، قبل أنْ يتكلّم: لا إلهَ إلاَّ الله وحده ، لا شريكَ له ، له الملكُ وله الحمدُ ، يحيي ويميتُ ، وهو على كل شيءٍ قدير ، عشْر مرّات ، كُتبتْ له عشْرُ حسَنات ، ومُحيَ عنه عشْرُ سيئات ، ورُفعَ له عشْرُ درجات ، وكان يومُه ذلك كلُّه في حِرزٍ من كلِّ مكروه ، وحُرِسَ من الشَّيطانِ ، ولم ينبغِ لِذَنْبٍ أنْ يدركَه في ذلكِ اليوم ، إلاَّ الشّرك بالله تعالى»[2].

* وممّا جاء في الصَّحيح؛ وفي السُّنن من مرويّات سيدنا أبي ذرّ في مجالِ الذّكر في جميعِ الأحايين والأوقات ، روايته الحديث الشّريف الآتي: قال لي رسولُ الله ﷺ: «ألا أخبرك بأحبِّ الكلامِ إلى الله»؟

قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ أخبرني بأحبّ الكلامِ إلى الله.

فقال: «إنَّ أحبَّ الكلامِ إلى الله تعالى: سبحانَ الله وبحمدِه»[3].

* ومن مرويّات أبي ذرّ ما أخرجَه البخاريُّ بسنده عن خَرشَةَ بنِ الحرّ[4]

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٦) ، ومعنى «طلق»: سهل منبسط باسم لطيف.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٤٧٠) ، وقال: «حديث حسن صحيح غريب» ، والنّسائي في الكبرى برقم (٩٩٥٥) ، وكذلك في عمل اليوم والليلة برقم (١٢٧) ، وابن حبان في الموارد برقم (٢٣٤١).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٧٣١) ، والترمذي برقم (٣٥٨٧) ، والنَّسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٨٢٤ و٨٢٥).

(٤) خرشةُ بنُ الحر ، نزلَ الكوفةَ ، كان يتيماً في حجرِ عمرَ بن الخطَّاب رضي الله تعالى عنه حدَّث عن عمر ، وأبي ذر الغفاري ، وعبد الله بن سلام رضي الله عنهم وروى عنه: ربْعيُ بن حِراش ، وأبو زرعة البَجلي ، والمسيّبُ بنُ رافع ، وسليمانُ بنُ مشهَر ، وآخرون ، وخرشةُ ثقةٌ باتّفاق أهل العِلم ، توفي خرشةُ في سنة (٧٤ هـ) رحمه الله. (سير أعلام النبلاء ٤/ ١٠٩).

عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: كان النَّبيّ ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليلِ قال: «اللهم باسمِك أموتُ وأحيا»، فإذا استيقظَ قال: «الحمدُ لله الذي أحيانا بعدَما أماتنا وإليه النُّشور»[1].

* ومن مروياتِ أبي ذرّ رضي الله عنه الحديث القدسيّ الشّهير في مجموعة الأحاديث القدسيّة، والمُتَعارف عليه بين النَّاس، وقد سَاقَهُ مسلمٌ في صحيحهِ بسنده عن أبي ذرّ الغِفاريّ رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ، عن جبريل، عن الله تبارك وتعالى أنَّه قال: «يا عِبادي إنّي حرمْتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرّماً فلا تَظَالَمُوا.

يا عبادي، كلّكم ضَالٌّ إلاّ مَنْ هديتهُ، فاستهدوني أهدكم.

يا عبادي، كلّكم جائعٌ إلاّ مَنْ أطعمتُه، فاستطعموني أطعمكم.

يا عبادي كلّكم عارٍ إلاّ من كسوتُه، فاستكسوني أكْسُكم.

يا عبادي، إنَّكم تخطئون بالليلِ والنَّهار، وأنا أغفرُ الذُّنوبَ جميعاً، فاستغفروني أغْفِر لكم.

يا عبادي، إنَّكم لَنْ تبلغُوا ضرّي فتضرّوني ولن تبلغُوا نفعِي فتنفعوني.

يا عبادي، لو أنَّ أولَكم وآخركُم، وإنْسَكُم وجنَّكُم، كانُوا على أتْقى قلبِ رجلٍ واحد منكم، ما زادَ ذلك في مُلكي شيئاً.

يا عبادي لو أنَّ أوّلكم وآخركم، وإنسكم وجِنّكم، كانُوا على أفجر قلبِ رجل واحدٍ منكم ما نقصَ ذلك من مُلكي شيئاً.

يا عبادي لو أنّ أوّلَكم وآخركم، وإنْسكم وجنّكم قامُوا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني، فأعطيتُ كلّ واحدٍ مسألته ما نقصَ ذلك ممّا عندي، إلاّ كما ينقصُ المَخْيطُ إذا أدخلَ البحرَ.

يا عبادي، إنّما هي أعمالُكم أُحصيها لكم، ثمّ أوفيكم إيّاها، فَمَنْ

---

(١) أخرجه البخاري في الدَّعوات برقم (٦٣٢٥)، باب: ما يقولُ إذا أصْبَحَ.

وجدَ خيراً فليحمدِ الله ، ومَنْ وجد غيرَ ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه»[1] .

المُجَاهِدُ المِقْدَامُ والفارسُ الشُّجاع :

* في عالَم الفُروسيّةِ والفُرسانِ ، نجدُ أبا ذرّ رضي الله عنه في عداد الفُرسان جنودِ السَّوابق منهم ، قال الذَّهبيُّ : «ومن أخبارِ أبي ذرّ أنَّه كان شُجاعاً مِقْداماً»[2] .

---

(١) أخرجه مُسلمٌ في البّرِ والصِّلةِ برقم (٢٥٧٧) باب: تحريم الظُّلم ، وأحمدُ في المسند (٥/ ١٥٤ و١٧٧ و١٦٠) ، والتّرمذيُّ في صفةِ القيامةِ برقم (٢٤٩٧) ، وابنُ ماجه برقم (٤٢٥٧).
وفي الحديث فوائدُ مهمّة منها ما ذكره النّوويُّ رحمه الله في تعليقهِ على قوله:
«إلاّ كما ينقصُ المخيط إذا أدخل البحر» حيث قال: «قال العُلماءُ: هذا تقريبٌ إلى الأفهامِ ، ومعناه: لا ينقصُ شيئاً أصْلاً ، لأنَّ ما عندَ اللهِ لا يدخلُه نقصٌ ، وإنَّما يدخلُ النَّقص المحدود الفاني ، وعطاء الله تعالى منْ رحمته وكرمهِ ، وهما صفتان قديمتان لا يتطرقُ إليهما نقص ، فضرب المثَل بالمخيطِ في البحر لأنَّه غاية ما يُضرب به المثَل في القلَّةِ ، والمقصود: التقريبُ إلى الأفهام بما شاهدوه ، فإنَّ البحرَ من أعظمِ المرئيات عياناً وأكبرها ، والإبرة من أصغرِ الموجوداتِ مع أنَّها صقيلة لا يتعلّق بها ماء».
ومنها: أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد حرَّم على نفسه الظُّلم لعباده.
منها: أنَّ الاستغفارَ بابٌ كبيرٌ لمراجعةِ العبد ربّه ، وطلب الصَّفح والتَّوبة إليه.
ومنها: أنَّ لله عزَّ وجلَّ الكمال المطلقَ في ذاتهِ وصِفاته وأفعاله ، وأنَّ ملكه لا يزيدُ بطاعة خلقه ، ولا ينقص بمعصيةِ العاصين منهم.
ومنها: أنَّ القلوبَ هي منبتُ التَّقوى والفجور ، فإذا برَّ القلبُ واتقى برّتِ الجوارح.
ومنها: أنَّ الخلقَ جميعاً مأمورون بسؤالِ الله عزَّ وجلَّ ، إذ إنَّ خزائنه لا تنفد.
ومنها: أنَّ أعمالَ العباد محصيَّةٌ عليهم في كتابٍ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.
ومنها: أنّ عبوديةَ الخلقِ تكونُ لله تعالى عبوديةً كاملةً ، فهي مبعث العزَّة والقوة.
ومنها: تكرارُ النداء بلفظ «يا عبادي»؛ وذلك لتقريب الخالقِ من عبادهِ وهدايتهم.
وفي هذا الحديث أيضاً جُملٌ منَ الفوائد: منها أيضاً ما اشتمل عليه من البيان لقواعد عظيمة من أصولِ الدّين وفروعه والآداب ولطائفِ القلوب وغيرها ، وقال أحمدُ بنُ حنبل رحمه الله: «ليس لأهلِ الشّام حديثٌ أشرف من هذا الحديث» ، وكان أبو إدريس الخولاني إذا حدَّث بهذا الحديث جثا على ركبتَيه احتراماً لحديث النبي ﷺ.

(٢) تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين ص ٤٠٨).

* وتذكرُ الأخبارُ أنَّ أبا ذرٍّ كان في الجاهليّةِ من الشُّجعان البواسلِ المعدودين ، ينفردُ وحده ، ويقطعُ الطَّريق ويغيرُ على الجماعةِ في أواخرِ الليل على ظَهْرِ فرسه ، وأحياناً على قدمَيْه ، كأنَّه السَّبعُ ، فيطرقُ الحيَّ ، ويأخذُ ما يريد ، ثم إنَّ الله عزَّ وجلَّ أرادَ به خيراً ، فقذفَ في قلبهِ الإسلام ، وسمعَ أخبارَ النَّبيِّ ﷺ ، وهو يومئذٍ يدعو متخفياً في مكَّةَ ، فأقبلَ يسألُ عنه ويستطلعُ أخباره ، ومن ثَمَّ انتظم في صفوفِ فرسان الصَّحابة الميامين ، وأعلامِ الفقهاء المؤمنين[1] .

* وأخبارُ أبي ذرّ رضي الله عنه ثرية عجيبة في ميادين الجهاد ، فهو من فرسانِ الرَّسولِ ﷺ الذين طالما كشفوا الكربَ عنه عندما تحمرُّ الحدق ويشتدُّ البأس ، وتشتجرُ الرّماح ، وتصلُّ السُّيوف ، وترقصُ النّبال .

* ففي غزوةِ تبوك كان لأبي ذرّ رضوان الله عليه موقفٌ كريمٌ يشيرُ إلى اهتمامهِ بفرضيّةِ الجهاد ، وإلى حُبّه الشَّديد لله ورسوله والمؤمنين .

* كان ذلك عندما سارَ الصَّادق المصدوقُ ﷺ إلى تبوك[2] ، فجعلَ بعضُ النَّاسِ يتخلّفون عن الخُروجِ فيقول الصَّحابة : «يا رسولَ اللهِ ، لقد تخلَّفَ فلان . . . » ، فيقول الحبيبُ الأعظمُ ﷺ : «دعوهُ ، إنْ يكنْ فيهِ خيرٌ فسيلحقُكم ، وإنْ يكنْ غيرُ ذلك فقد أراحكم الله منه» ، إلى أن قيلَ : «يا رسول الله ، إنَّ أبا ذر قد تخلّفَ ، وأبطأ به بعيرُه» .

* كان بعيرُ أبي ذرّ هزيلاً ضعيفاً ، فلمّا عجزَ بعيره ، أخذَ متاعه ، فجعلَه على ظهره ، وخرجَ يقفو أثَرَ رسول الله ﷺ والذين معه ، وتوجَّه نحو تبوك يسعى على قدمَيْه ، ونظرَ ناظرٌ منْ جيشِ المسلمين فقال : «إنَّ هذا لرجلٌ يمشي وحْدَه على الطَّريق» ! !

فقال النَّبيُّ الكريم ﷺ : «كُنْ أبا ذرّ» .

---

(١) انظر : طبقات ابن سعد (٤/ ٢٢٢)، بشيء من التصرف، وانظر : صفة الصفوة (١/ ٥٨٥).

(٢) تبعدُ تبوك عن المدينةِ المنورة شمالاً قرابة (٧٧٨ كيلاً).

فلمَّا تأمّله المسلمون قالُوا: «هو ـ واللهِ ـ أبو ذرّ»!

فقال رسولُ الله ﷺ: «رحم اللهُ أبا ذرٍّ يمشي وحدَه، ويموت وحدَه، ويُبْعَثُ وحْدَه»[1].

* وقد صاغَ أحمد محرّم هذه الحادثة شِعْراً فقال:

أَبــا ذَرٍّ رَحَلْــتَ علــى بَعيــرٍ ... لَــو انَّ الــذَّرَّ يَلْمسُــهُ لَهَــدَّهْ
بَــراهُ السَّيــرُ حَــالاً بَعْــدَ حَــالٍ ... فــأَوهَــنَ عَظْمَــه وأَذَابَ جِلْــدَهُ
عمَـدت إلـى مَتَـاعِـكَ لـمْ تـدَعْـهُ ... عليهِ ولَـمْ يـدعْـكَ الضَّعـفُ عنْده
شـدَدتَ قـواكَ إذْ وهَنَـتْ قـواهُ ... ورُضْـتَ الأمْـرَ إذا أبصـرتَ جِـدَّهُ
وسِرْتَ فكنـتَ أصْلَبَ منه عـزمـاً ... وأصــدقَ همّــةً وأشــدَّ نجــدَهُ
مشيــتَ تــريــدُ وجْــهَ اللهِ حتــى ... بلَغــتَ رسُــولَــه ولقَيْــتَ جُنْــدَهُ
رأَوكَ تــؤمُّهــمْ فَــرداً فقــالُــوا ... أخٌ فــي اللهِ يَخْشَــىٰ اللهَ جُهْــدَهْ
وقــال أتــىٰ أبــو ذرّ فــأَهْــلاً ... بصــاحِبنــا الــذي مــا خــانَ عَهْــدَهْ
ألا إنَّ الــــذي يَسْعَــــىٰ إلينــــا ... ليَمْشــيَ وحْــدَهُ ويمــوتَ وحْــدَهْ
ويُبْعَــثُ وحْــدَهُ مــنْ بَعْــدِ هــذا ... وسُبْحــانَ الــذي يختــارُ عبــده[2]

* وما أجملَ أنْ نقرأَ قصّة مسيرِ أبي ذرّ وحْدَه في هذه النّونيةِ العذبةِ:

قَـدْ وَاصَـلَ الهَـادِي المَسِيْرَةَ بـالـرِّجَـالِ المُسلِمِيْن
كــانَ المَسيــرُ إلــى تَبُـوكَ هُيِّئُـوا كَمُقَــاتِليــن
وتَسَاءلَ الأَصْحابُ عَنْ بعْضِ الرِّجَال الغَائبين
وجَـدوا أبـا ذرٍّ تخلَّـفَ فـي عِـدَادِ القَـاعـديـن
قـد أخْبـروا الهَـادي فقـالَ: فـلا تكُـونُـوا لائمِيـن
إنْ كـانَ فيـه الخيـرُ يلحَـقْ فـي عِـدادِ الـلاّحقيـن
أو لَـمْ يكـنْ للخَيـرِ أهْـلاً فَهْـو فـي المُتخلِّفيـن

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٥٦) بشيء من التصرف، وعن سبب تأخّر أبي ذرّ قليلاً عن غزاة تبوك يقول: «أبطأت في غزوة تبوك من عجف بعيري» أي من هزاله.

(٢) انظر: ديوان مجد الإسلام لأحمد محرم (ص ٤١٦ و٤١٧) ومعنى «الذَّرَّ»: النمل.

لكــنْ أبــو ذرٍّ لِضَعْــفِ بعيــرِهِ فــي المُجْهــديــن
تَــرَكَ البَعيــرَ وأدْرَكَ الهَــادي بخطْــو المُســرعيــن
فــرأوْهُ مــنْ بُعْــدٍ فقــالُــوا ذاكَ أحــدُ القَــادميــن
قالَ الرَّسولُ فـ «كُنْ أبا ذرّ» فكانَ على اليقين
فـدَعــا لَـهُ الهَــادي وقــالَ مُخــاطِبــاً للسَّــامعيــن
هــذا أبــو ذرٍّ وَحيْــدٌ دُونَ صَحْبِــي أَجْمعيــن
يمشــي وحيــداً لا رَفيــقَ لَــهُ وليــسَ لــه مُعيــن
ويمــوتُ أيضــاً وحْــدَهُ كُــونُــوا لِقَــولــي مُــدركيــن
ولَسَــوفَ يُبْعَــثُ وحْــدَه مِــنْ أمْــر ربِّ العــالميــن

* وبهذا حظِي أبو ذرّ رضي الله عنه بشرفِ الجهادِ في معيَّةِ النبي ﷺ، وفازَ بالأجرِ مع المجاهدين؛ وكانت له مواقف مأثورة بعد غزوةِ تبوك.

* ويوم حُنين ـ وما أدراك ما يوم حنين ـ جاهدَ أبو ذرّ في المشركين، وكان يومها حاملُ راية بني غِفار ـ كما حملَ من قبلُ رايةَ قومِهِ يوم فَتْح مكّة ـ بل كان له يوم فتح مكّة أثرٌ محمودٌ مشكورٌ، وذلك في إسلام حُويطب بن عبد العزّى العامريّ[1] وهذا الأثرُ الكريمُ يدلُّ على علمِهِ وفقهِهِ ومعرفته قَدْرَ النَّبيِّ ﷺ، وخلاصة ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا دَخَل مكَّة عامَ الفَتْح، خافَ حُويطبُ بنُ عبد العزّى خوفاً شديداً على نفسِه وعيالِه، وخرجَ إلى بستانٍ فكان فيه، فإذا هو بأبي ذرّ الغِفاريّ ـ وكانا صاحبَيْن ـ فلمَّا رآه حُويطب خرجَ خائفاً يترقّب، فناداه أبو ذرّ قائلاً: «أبا محمّد، لا خوف عليكَ، أنت آمنٌ بأمانِ الله عزَّ وجلَّ».

* فرجعَ حُويطبُ وسلّمَ على أبي ذرّ، وخرجَ معه أبو ذرّ وجعلَ ينادي على أنَّ حُويطباً آمِنٌ، وعاد إلى منزلِهِ ومعه عيالَه، فأتاه أبو ذرّ، وقال له:

---

(١) حُويطبُ بنُ عبد العزى القرشيّ العامريّ المُعَمَّر، من الصَّحابة الذين أسلموا يومَ الفتح، كان حميدَ الإسلام، عاشَ مئة وعشرين سنة، وسار إلى الشّام مجاهداً، وتوفي سنة (٥٤ هـ) رضي الله عنه. (سير أعلام النُّبلاء ٢/ ٥٤٠ و٥٤١).

«يا أبا محمّد ، لقد فاتك خيرٌ كثيرٌ ، وبقي خيرٌ كثير ، فأْتِ رسولَ الله ﷺ ، فأسْلِمْ تَسْلَم ، ورسولُ الله ﷺ أبرُّ النَّاس ، وأوصلُ النَّاس ، وأحلمُ النَّاس ، شَرَفُه شَرَفُك ، وعزُّهُ عزُّك».

* فاطمأنَّ حُويطبُ لهذه الكَلمات النَّديّةِ التي تأسر القلوب والألباب ، وخرجَ حتى أتى النبيَّ ﷺ وشهدَ شهادةَ الحقّ ونطقَ بالشَّهادة : أشهدُ أنْ لا إله إلا الله وأنَّك رسولُ الله.

فقال النَّبيُّ ﷺ : «الحمدُ لله الذي هَدَاك».

* وسُرَّ النَّبيُّ الكريمُ ﷺ بإسلامِ حُويطب ، وشهدَ معه حُنيناً والطَّائفَ وأعطاهُ من غنائم حنين[1] مئة بعير[2].

* ولم يكن أبو ذرٍّ يشاركُ بنفسهِ وحدها في سبيل الله عزَّ وجلَّ ، وإنَّما كان له ثلاثون فَرَساً يحملُ عليها لإعلاء كلمةِ الله ، فكان يحملُ على خمسةَ عشَرَ منها يغزو عليها ، ويصلحُ آلةَ بقيّتها ، فإذا رجعَتْ أخذَها ، فأصلحَ آلتها ، وحملَ على الأُخْرى[3].

* وفي عصْرِ الخُلفَاء الرّاشدين تابعَ أبو ذر رضي الله عنه رحلةَ الجهادِ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ ، فشهدَ فتحَ بيتِ المقدس ، والجابية مع عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه ، وقدمَ دمشقَ ، وشهدَ غزوةَ قبرص مع سيّدنا معاويةَ بن أبي سفيان ، وأشارَ عليه أنْ يقسمَ الغنائم على المُسلمين جميعاً ، فوافقَهَ معاويةُ على ذلك[4].

---

(١) «حُنين»: هو المكانُ الذي ذكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ في القرآن الكريم (يوم حنين) وكانت فيه غزاة حنين ، ويبعدُ موضع حُنين عن مكَّةَ المكرمةِ (٢٦ كيلاً) شرقاً ، وهو وادٍ يسمّى اليوم في السّعودية بالشَّرائع.

(٢) انظر: المستدرك (٣/ ٤٩٣ و٤٩٤) بتصرف.

(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٨/ ٣٠٨).

(٤) المصدر السابق (٢٨/ ٢٩٤).

«رحـــمَ اللهُ أبـــا ذَرّ»:

* بعد أنْ أقامَ سيّدنا أبو ذرّ رضي الله عنه مدَّةً في الشَّامِ، استقدمَهُ عثمانُ بنُ عفَّان رضي الله عنه إلى المدينةِ، فأستأذنَه أنْ يخرجَ إلى الرَّبَذَةِ[1] قرب المدينةِ، فأذنَ له عثمانُ، فخرجَ وأقامَ فيها مع امرأتِهِ وغلامِهِ، وعاشَ عيشة الزَّاهدِيْنَ لا يخرجُ عن الهدي النَّبويّ قِيْدَ أَنْمُلة، فكان يقضي معظمَ وقْتِهِ في التفكُّرِ فيما هو صائرٌ إليه[2].

* وهنالك في الرَّبذةِ، كانت وفاةُ أبي ذرّ رضي الله عنه وفي وفاتِهِ تقولُ المصادرُ ما مفادُه: «لمَّا صار أبو ذرّ إلى الرَّبذةِ، وجاءتْ سكرةُ الموتِ بالحقّ، لم يكن معه أحدٌ إلا امرأته وإلاّ غلامه، فأوصاهما أنْ اغْسِلاني، ثم كفّناني، وضَعَاني على قارعةِ الطَّريق، فأوّلُ ركْبٍ يمرُّ بكم قولُوا له: هذا أبو ذرّ صاحبُ رسولِ الله ﷺ فأعينونا على دفْنِهِ.

* ومات أبو ذرّ، وصَعِدَتْ روحُهُ إلى بارئها بعد أنْ نزلَتْ كوكبةٌ شريفةٌ من الملائكةِ، وفعل غلامُه وزوجتُه ما أمرهما به، إذ وضعاهُ على قارعةِ الطَّريق، فساعة إذ أقبلَ عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه في جماعةٍ من أهلِ العراق يريدون العمرةَ، فشاهدوا جنازةً على ظهر الطَّريق، وإذا بغلام أبي ذرّ يستوقفُهم قائلاً: أيّها الرّكبُ الميمون، هذا أبو ذرّ الغِفَاريّ صاحبُ رسولِ الله ﷺ، فأعينونا على دفْنِهِ.

---

(١) «الرَّبذةُ»: موضعُ قريبٌ من مدينةِ النَّبي ﷺ، وهي منزلٌ من منازلِ حجَّاج أهل العراق، وبها قبرُ أبي ذرّ الغِفاري رضي الله عنه صاحبُ رسولِ الله ﷺ وهي على ثلاث مراحل من المدينة المنورة.
(تهذيب الأسماء واللغات ٣/ ١٣١).
وقد كانتِ الرّبذةُ من القُرى العامرةِ في القرون الثلاثة من الهجرة، ولكنَّ الخرابَ أصابَها في مطلعِ القرن الرَّابع في سنة (٣١٩ هـ) بسبب الحروب.
وتقعُ شرق جنوب المدينةِ المنورة على بعد مئة كَيْـلٍ في الطَّريق الموصلِ إلى مدينة الرِّياض في العصر الحاضر، وقد قدَّرها الجغرافيون القدماء بثلاث مراحل.

(٢) صفة الصفوة (١/ ٥٩١).

* وسمعَ عبدُ الله بنُ مسعود هذا الخبرَ ، فأخذتِ الدّموعُ تنهمرُ من عينَيْه ، ثمَّ قال: صدق رسولُ الله ﷺ: «تمشي وحدَكَ وتموتُ وحْدَكَ ، وتُبْعَثُ وحْدَك» ، ثمَّ نزلَ هو وأصحابُه وصلُّوا عليهِ ودفنوه[1].

* كانت وفاةُ أبي ذرّ سنة (٣٢ هـ) وقد وصفه الإمامُ النّوويّ بقوله: «كان أبو ذرّ طويلاً عظيماً ، وكان زاهداً متقلّلاً من الدّنيا ، وكان مذهبُه أنَّه يحرّم على الإنسان ادّخار ما زادَ على حاجَتِهِ وكان قوّالاً بالحقّ»[2].

* وبوفاةِ أبي ذرّ فَقَدَ المسلمون عَلَماً وعالِماً من الصَّحابة الذين حلّقوا عالياً في سماواتِ الفَضْلِ والعِلْم والزُّهدِ ، بل أصبحَ الزُّهد يتيماً بوفاتِه:

وَمَـا فُجِعَـتْ بِـهِ الـدُّنْيـا ولَكِـنْ غَـدَتْ بِفِـرَاقِـهِ الـدُّنيـا يَتيمَـه

* فعلى قبرِهِ منَ الرَّحمةِ الحافّة ، عدد أنْفاسِ الخلائق كافّة ، وصلى الله على خير الخلق أجمعين ، وحشرنا في معيّته وغفر لنا ورحمنا يوم الدين ، وجعلنا مع الذين أنعم عليهم ورضي عنهم ، إنه غفور رحيم.

* * *

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٨/ ٣١٣) بتصرف ، وانظر: صفة الصَّفوة (١/ ٥٩٩ و٦٠٠) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٣٠) ، وطبقات ابن سعد (٤/ ٢٣٤ و٢٣٥)؛ وقد أشار الإمام السُّبكي في تائيته إلى أن أبا ذر يعيش وحده ، ويموت وحده فقال:

وعـاش أبـو ذرّ كمـا قلـتَ وحـده ومـاتَ وحيـداً فـي بـلادٍ بعيـدةِ

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٣٠).




أبو الدَّرداء

* حكيم هذه الأمّة وسيّد القرّاء بدمشق روى (١٧٩ حديثاً).
* من علماء الصّحابة المجاهدين ومن فرسانهم المعدودين.
* كان قارئاً مفسّراً راوياً ذاكراً عابداً واعظاً قدوةً.
* له كلماتٌ سائراتٌ وأقوالٌ نفيسة وحكمٌ عظيمة.
* كان من زهّاد الصَّحابة توفي بالشّام سنة (٣٢ هـ).




أبُو الدَّرْدَاءِ

الحَكيمُ القُدوة:

* قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وصحابيُ اليوم، إمامٌ، حكيمٌ، قاضٍ، عالمٌ، قارىءٌ، راوٍ، حافظٌ للقُرآن الكريم.

* سارتْ بمآثرِهِ الرّكْبانُ، وتحلّىٰ بذكرِ أخبارِه اللسانُ، فالحِلُّ يعرفُهُ والحَرمُ، والمجدُ ينطقُ بمحامدِه والكرمُ:

وإنَّمــا المَــرءُ حَــدِيــثٌ بَعْــدِه   فكُــنْ حَـديثـاً حَسَنـاً لمـنْ وَعَـى

* ولهذا العالم فصاحةٌ وسماحةٌ، ومناقبُ حِسَان، تدلُّ على تمكُّنه من ناصيةِ البيان، فقد كان لِشَهواتِ الدُّنيا تاركاً، وللنَّفْسِ عن غلبتِها مالكاً، كان من أفاضِلِ الصَّحابة وفقهائِهم وحكمائِهم، وكان يفتي في عَصْرِ النُّبوَّة وكان قاضي أهلهِ:

إذا زانَ قَـومـاً بـالمنَـاقِـبِ واصِـفٌ   ذكَـرْنـا لَـهُ فَضْـلاً يـزيـنُ المنَـاقِبـا

* هذا العالمُ الفاضلُ النّحريرُ، هو الإمامُ القدوةُ، قاضي دمشق، وصاحبُ رسولِ الله ﷺ، أبو الدَّرداء عُويمرُ بنُ زيد ـ وقيل عويمر بن عامر ـ ابنِ قيس الأنصاريّ الخزرجيّ، حكيمُ هذه الأمَّة، وسيِّدُ القُراء بدمشق[1].

---

(١) سير أعلام النُّبلاء (٢/ ٣٣٥ ـ ٣٥٣)، والمسند (٥/ ١٩٤ ـ ٢٠٠)، و(٦/ ٤٤٠ ـ ٤٤٥)، والزّهد (ص ١٦٧ ـ ١٧٨)، وطبقاتُ ابن سعد (٧/ ٣٩١ ـ ٣٩٣)، والمعارفُ (ص ٢٥٩ ـ ٢٦٨)، والمستدرك (٣/ ٣٣٦ و٣٣٧)، والاستبصار (ص ١٢٥ ـ ١٢٧)، =

* وهو كما قال القائِل:

كعْبةٌ أُسِّسَتْ على الفَضْل لَكنْ كُلّ حينٍ تحجُّ لها الوفُودُ

* وأبو الدَّرداء واحدٌ من علماءِ الصَّحابة الذين جمعُوا القرآن العظيمَ في حياةِ رسولِ الله ﷺ، وهو معدودٌ فيمن تلا على النَّبيِّ ﷺ، لم يقرأْ علىٰ غيره[1].

* كان أبو الدَّرداء رجلاً يعملُ في التِّجارة قبل أن يبزغ الإسلام بأنواره على الدنيا، ثمَّ إنه زاولَ العبادةَ والتِّجارة، فلم يجتمعْ له ذلك، فتركَ التِّجارةَ، وآثرَ العبادةَ، لأنَّ العِلْمَ أجلُّ من أنْ يُشْتَغَلَ عنه بغيره، وقد قيل: «لا يتعلَّمُ العِلْمَ إلاَّ أحد رجلَيْن: إمَّا غَنِيٌّ غَنِيٌّ، وإمَّا فقيرٌ فقيرٌ، فقال بعضُهم: أنا للفقير الفقير أرجىٰ منِّي للغنيّ الغني»[2].

* ولأجْلِ العلْمِ آثرَ أبو الدَّراء تَرْكَ الغِنىٰ والمالَ والتِّجارة وفي هذا يقولُ رضي الله عنه: «كنتُ تاجِراً قبلَ أنْ يُبْعَثَ محمّدٌ ﷺ، فزاولتُ التِّجارةَ والعبادةَ، فلم تجتمعَا، فاخترتُ العبادةَ، وتركتُ التِّجارة»[3].

= والاستيعابُ (٤/٥٩ ـ ٦١) ومختصرُ تاريخ مدينة دمشق (٢٠/١٠ ـ ٤٣)، وحليةُ الأولياء (١/٢٠٨ ـ ٢٢٧)، ومشاهير علماء الأمصار (ص ٥٠)، وغيرها كثير جداً لا يُحصر.

(١) انظر: سير أعلام النُّبلاء (٢/٣٣٦).

(٢) انظر: كتاب الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي (٢/١٨٦)، تحقيق عادل العزازي ـ ط ٢ ١٤٢١ هـ.

(٣) المصدر السَّابق (٢/١٨٥)، وممَّا يُضاف إلى مقولةِ أبي الدَّرداء ما وردَ عن الإمام الشَّافعي أنَّه قال: «لا يطلبُ أحدٌ هذا العِلْم بالملكِ وعزّ النفسِ فيفلح، ولكنْ مَنْ طلبه بِذُلّ النّفس وضيقِ العيش وخدمةِ العُلماء أفلح».
وقال الشَّافعي أيضاً: «لا يُدْرَكُ العِلْمُ إلاَّ بالصَّبر على الضُّرِّ».
وقال أيضاً: «لا يصلحُ طلب العلْمِ إلاَّ لمفلس، فقيل: ولا الغني المكفيّ؟ فقال: ولا الغني المكفي».
وقال إبراهيمُ الآجري: «مَنْ طلب العِلْم بالفاقة ورثَ الفهم».
وقال مالكُ بنُ أنس: «لا يبلغ أحدٌ منْ هذا العِلْم ما يريدُ حتى يُضرّ به الفقر، ويؤثره على كل شيء».

* وحينما ترك أبو الدَّرداء التِّجارة ، وانصرفَ إلى العبادةِ ، علا شأنُهُ في مرتبةِ العِلْم ، فكان فقيهاً ، عالماً ، عابداً ، قارئاً ، أحدَ الأربعةِ العُلماء الذين أوصىٰ معاذُ بنُ جبل أصحابَه ـ قُبيلَ وفاتِه ـ أن يأخذوا العِلْم عنهم ويلزموهم .

قصَّة إسلامهِ وعْدٌ إلهيّ:

* قال الحبيبُ المُصطفىٰ محمّدٌ ﷺ: «إنَّ اللهَ وعدني إسلام أبي الدَّرداء»[1] .

* وقصَّةُ إسلامِ أبي الدَّرداء تجمعُ ـ إلى جانبِ الطُّرفةِ ـ العِظَةَ ، والعبرةَ ، والمُتعةَ ، والفائدةَ . . . وجوانب كثيرة من الأمور التّربوية الإسلامية ، فكيف أسلم هذا العالم؟ ومتى كان إسلامه؟

* كان أبو الدَّرداء آخرَ أهلِ دارهِ إسلاماً ، وكان يعبدُ صنماً له في الجاهليَّةِ ، ولم يزلْ متعلّقاً بهِ ، وقد وضعَ عليه منديلاً ، وكان عبدُ الله بنُ رواحةَ الأنصاريّ الخزرجيّ يدعوهُ إلى الإسلام ، فيأبىٰ ، فأقسمَ ابنُ رواحةَ أنَّه سيكيدُ صنمَ أبي الدَّرداء كيداً عظيماً ، ويجعله عبرة لمن يعتبر .

* وذاتَ يومٍ خرجَ أبو الدَّرداء لبعضِ حاجتهِ ، فجاء عبدُ الله بنُ رواحةَ وسألَ امرأةَ أبي الدَّرداء فقال: «أين أبو الدَّرداء»؟!

فقالت: «خرجَ آنفاً يقضي حوائجَهُ».

* هنالك أسرعَ ابنُ رواحةَ ، ودخلَ بيتَ أبي الدّرداء الذي كان فيه الصَّنمُ ، ومعه القَدُوم[2] ، فأنزلَهُ وجعلَهُ جُذَاذاً وهو يقول: «ألا كُلُّ ما يدعى مع اللهِ باطل» .

* انتهتْ مهمّةُ ابنِ رواحة التّربوية المباركة ، فخرجَ من بيتِ أبي الدَّرداء

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ١١).

(٢) «القَدُوم»: آلة يُنحتُ بها ، ويستخدمها النَّجار في عملهِ ، وهي مخفّفةٌ ، قال ابنُ السّكيت: «ولا تقلْ قدّوم بالتَّشديد» ، والجمعُ: قُدم بضمتين. (مختار الصِّحاح).

بعد أنْ فعلَ ما فعلَ بصنمِه الذي ظلَّ عليهِ عاكِفاً حيناً من الدَّهْرِ.

* كانت أمُّ الدَّرداء قد سمعتْ صوتَ القَدومِ وهو يضربُ ذلك الصَّنم ويفريه، فقالت في وجَلٍ وهلَعٍ: «أهلكْتَنِي ـ واللهِ ـ يَا بْنَ رواحةَ»!.

* لكنَّ عبدَ الله بن رواحةَ لم ينبسْ ببنتِ شَفَةٍ، وعلمَ أنَّ ما صنعه هو فلاحٌ ونجاحٌ ونجاة لأبي الدرداء؛ وخرجَ على ذلك، وهو جَذْلاَنُ بما فَعلَتْ يداهُ من تكسير ذلك الصنم المقيت الذي لا ينفع ولا يضرّ؛ وأقبلَ أبو الدَّرداء إلى منزلهِ بُعَيْدَ مدَّةٍ، فوجدَ امرأته قاعدةً تبكي خوفاً منه، وممَّا صنعَ ابنُ رواحةَ آنفاً، فتعجَّبَ وقال: «ما بِكِ؛ وما شأنُكِ؛ ولم تبكين»؟

قالت: «دخلَ عبدُ الله بنُ رواحة بيتَك، وصنعَ بصنمكَ كيتَ وكيتَ، وجعلَه كأمْسِ الدَّابر».

* غضبَ أبو الدَّرداء غضباً شديداً، بَيْدَ أنَّه ركَنَ إلى الهدوءِ قليلاً، وأخذتِ الأفكارُ الصَّافية تراودُ مخيّلته، وتدغدغُ عقْلَه، فقام ودخلَ على صنمهِ، ومن ثمَّ أخذَ يجمعُ جذاذَهُ المبعثر، ويقول له: «ويحكَ هلاّ امتنعتَ! ألا دفعتَ عن نفسِكَ»!!؟!!

* فقالت أمُّ الدّرداء وقد استجمعَتْ نفسها: «لو كان هذا الصَّنمُ ينفعُ أحداً، أو يدفعُ عن أحد، دفعَ عن نفسه ونفعَها».

* فكَّرَ أبو الدَّرداء في هذا الصَّنم المحطّم، وفيما قالته زوجُهُ، ثمَّ إنَّه قال والحقيقةُ تتراءىٰ أمام بصيرته: «حقّاً، لو كان عند هذا خيرٌ يُرجى، لدفعَ عن نفْسِهِ».

* وصمتَ هُنيهةً، ثمَّ التفت إلى أم الدَّرداء وقال لها: «يا أمَّ الدَّرداء، أعدِّي في المُغْتَسل ماءً...».

* وجعلت له ماءً، فقامَ مُسْرعاً، واغتسلَ، ومن ثم أخذَ حُلَّتَه فلبِسَها، وانطلقَ فأتى الصَّادق المصدوقَ سيّدنا رسولَ الله ﷺ، فنظر إليه عبد الله بن رواحة مقبلاً تعلوه السَّكينة، ويجلِّله وقارُ الحقّ، فقال: «يا رسول الله، هذا أبو الدَّرداء، وما أراه إلاَّ جاء في طلبنا».

فقال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّما جاء لِيُسْلمَ فإنَّ ربي وعَدني بأبي الدَّرداء أنْ يسلمَ».

* أعلنَ أبو الدَّرداء إسلامَه أمامَ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ ، ونُظِمَ في سلْكِ دُرر الصَّحابةِ الأعلامِ ، والصَّحابةِ العُلماءِ الذين تركُوا في الدُّنيا دوياً نافعاً في ساحَاتِ العلْمِ والجهادِ والمعرفة[1].

* ولما استقرَّ الإيمانُ في قلبِ أبي الدَّرداء ، طرحَ الدُّنيا وراءَ ظهره ، وَوجدَ أنَّه لا يقوى على مزاولةِ تجارتِه التي تدرُّ عليه مالاً وفيراً ، فرفضها ـ كما أسْلَفْنا ـ وخشي أن يكونَ من الذين تلهيهم التِّجارةُ والبيعُ عن ذِكْرِ اللهِ وإقام الصَّلاة وإيتاءِ الزَّكاةِ ، فأقبلَ راغباً على العبادةِ ، زاهداً في التِّجارة كما قال: «جمعتُ التِّجارةَ والعبادة فلم يجتمعَا ، فتركتُ التِّجارةَ ، ولزمتُ العبادةَ»[2].

* كان أبو الدَّرداء آخرَ الأنصارِ إسلاماً ، ولكنّه من أكثرِ النَّاس زُهداً وعبادةً ، وقد آخى النَّبيُّ ﷺ بينَه وبين سَلْمان الفارسيّ[3] رضي الله عنهما.

سيرةُ أبي الدّرداء الجهاديّة:

* تذكرُ سيرةُ أبي الدَّرداء الجهاديَّة أنَّه قد فاتَتْه غزاةُ بدرٍ ، فلم

---

(١) عن مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٠/ ١١ و١٢) والمستدرك (٣/ ٣٣٦) ، وحياة الصحابة (١/ ٢٣٢ و٢٣٣) مع الجمع والتصرف فيما بينها.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذَّهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص ٣٣٩) بشيء من التصرف ، وانظر: طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩١).
وقد علّقَ الإمامُ الذَّهبي رحمه الله تعليقاً مفيداً على قولِ أبي الدَّرداء رضي الله عنه فقال: «الأفضلُ جَمْع الأمْرَيْن ـ يعني العبادة والتِّجارة ـ مع الجهادِ ، وهذا الذي قاله هو طريقُ جماعةٍ من السَّلف والصُّوفية ، ولا ريبَ أنْ أمزجةَ النَّاس تختلفُ في ذلك ، فبعضُهم يقوى على الجمع كالصِّديق ، وعبد الرحمن بن عوف ، وكما كان ابنُ المبارك ، وبعضهم يعجزُ ، ويقتصرُ على العبادة ، وبعضهم يقوىٰ في بدايته ثم يعجزُ وبالعكسِ ، وكلٌّ سائغ ، ولكنْ لابدَّ من النَّهضة بحقوق الزَّوجية والعيال».

(٣) آخى رسولُ اللهِ ﷺ بين أبي الدَّرداء وبين سلمان الفارسيّ عند مقدمه المدينة المنورة وذلك عندما آخى بين المهاجرين والأنصار ، وهذان أسلَما بعد ذلك بمدةٍ فآخى بينهما.

يحضرْهَا ، ولكنَّه اجتهدَ في العبادةِ والنُّسكِ ، وكان يقولُ: «إنَّ أصْحَابي سَبَقُوني».

* وشهدَ أبو الدَّرداء غزاةَ أحدٍ ، وأمرهُ رسولُ الله ﷺ أنْ يردَّ مَنْ على الجَبَل ، فردَّهم وحْدَهُ ، كان ذلك لما هُزِمَ أصحابُ النَّبيِّ ﷺ يومَ أحد ، فكان أبو الدَّرداء يومئذٍ فيمن فاءَ إلى رسولِ الله ﷺ في النَّاس ، فلمَّا أظلَّهم المشركُون من فوقهم ، قال رسول الله ﷺ: «اللهم ، ليس ينبغي أنْ يعلُونا» فثابَ إليهِ يومئذٍ ناسٌ ، وأسرعُوا ، وفيهم عُويمر أبو الدَّرداء حتى أزالُوهم عن مكانِهم الذي كانُوا فيه ، وكان أبو الدَّرداء يومئذٍ حسنَ البلاء ، فقال رسولُ الله ﷺ: «نِعْمَ الفَارسُ عُويمر» وقال أيضاً: «حكيمُ أمّتي عُويمر».

* وكان أبو الدَّرداء يرمي بنبلهِ يومَ أُحُدٍ حتَّى أنفذَها ، ثم جعل يقذفُ عليهم الصَّخرَ والحجارةَ ، فحانتْ من رسولِ الله ﷺ إليه نظرة فقال: «مَنْ هذا»؟

فقالوا: أبو الدَّرداء . .

فقال: «نعِم الفارسُ عُويمر».

ثم حانتْ منه نظرة أخرى فقال: «مَنْ هذا»؟

فقالوا: أبو الدَّرداء . .

فقال: «نِعمَ الرَّجلُ أبو الدَّرداء»[1].

* وتدلُّ أخبارُ أبي الدَّرداء أنَّه شهدَ بعد غزوةِ أحد[2] المشاهدَ جميعها بمعيَّةِ رسولِ الله ﷺ ، وأبلى فيها بلاءً حسناً ، وكانت له مقاماتٌ مشهورةٌ ، ومواقفُ مشهودةٌ في سَاحِ الجهاد.

* وفي عصر الفتوحاتِ الإسلاميّة وفي ظلالِ الخلافةِ الراشدةِ ، شهدَ

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ١٢) بتصرف يسير.

(٢) هناك قول يشيرُ إلى أنَّ أبا الدرداء لم يشهدْ أحداً. (مختصر تاريخ مدينة دمشق ٢٠/ ١٢).

أبو الدَّرداء معركةَ اليرموك في بلادِ الشَّامِ ، وحضرَ حصارَ دمشق ، وسُجِّلَ في ديوانِ الفاتحين مع الصَّحابةِ العُلماء المجاهدين .

* أمَّا في مجالِ العلْمِ والفقْهِ ، فقد علا نجمُه؛ وسبقَ سهمُه ، وأقرَّ له علماءُ الصَّحابةِ بالفضل والفقه والعلْم والعبادةِ والتفسير والحفظِ والإتقانِ ، كما سنقرأ في الفصولِ والفقراتِ الآتية .

القَارِئُ اللبيبُ :

* قرأ سيّدنا أبو الدَّرداء القرآنَ في عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ ، وكان من العُلماء الحُلماء الألبّاء ، وهو معدودٌ فيمن جمعَ القرآن العظيم في عهدِ النَّبيِّ ﷺ.

* وكان إذا صلّى الصُّبحَ في جامعِ دمشق الشَّام ، اجتمعَ النَّاسُ للقراءةِ عليه ، فكان يجعلُهم عشرةً عشرةً ، وعلى كلّ عشرةٍ عريفاً ، ويقفُ هو في المحرابِ يرمقُهم ببصره ، ويرقبُهم ببصيرته ، فإذا غلطَ أحدهم رجعَ إلى عريفه ، فإذا غلطَ عريفُهم رجعَ إلى أبي الدَّرداء يسألُه عن ذلك .

* ولسيّدنا أبي الدّرداء عليه سحائب الرضوان كبيرُ الفضل ـ بعد الله ـ على مئات القُراء من الشَّاميّين ، الذين اقتربَ عددهم من ألفي قارىء متْقنٍ حافظ ، فقد كان يصلّي الصُّبح كلّ يوم ، فإذا فرغَ من صلاتِه انفتلَ وقرأ جزءاً ، فيحدقُ به الحفّاظُ يسمعون ألفاظَه ، ويصنعون إلى تلاوته .

* عن مسلم بن مشكم قال: قال لي أبو الدَّرداء : «اعددْ مَنْ يقرأ عندي القرآن»؛ فعددتُهم ألفاً وست مئة ونيفاً ، وكان لكلّ عشرةٍ منهم مقرىء ، وكان أبو الدّرداء يكون عليهم قائماً ، وإذا أحكمَ الرجلُ منهم تحوَّلَ إلى أبي الدَّرداء رضي الله عنه[1] .

* وكان عبدُ الله بنُ عامر اليحصبيّ[2] عريفاً على عشرة ، وكان مقدَّماً في

---

(١) معرفةُ القراء الكبار للذهبيِّ (١/ ٤٢).

(٢) عبد الله بنُ عامر اليحصبيّ إمامُ أهل الشَّام في القراءة ، وهو أحدُ القراء السَّبعة المشهورين الثُّقات ، توفي سنة (١١٨ هـ) وإليه انتهتْ مشيخةُ الإقراء فيها ، قال الذَّهبيّ رحمه الله في السِّير : «فإنْ صحَّ فلعلَّه قرأ عليه بعضَ القُرآن وهو صبيّ». =

أهلِ الشَّام ، فلمَّا ماتَ أبو الدَّرداء خلفَه ابنُ عامر .

* وبلغَ اهتمامُ أبي الدَّرداء رضي الله عنه بحفظِ القرآن الكريم شأواً بعيداً ، فكان يتعاهدهُ في العشيّ والإبْكَارِ ، وفي الغدوِ والآصالِ ، ويسألُ الحفّاظ من الصَّحابةِ الكرام عن كثيرٍ من علومِ القرآنِ وكانت له همَّةٌ عظيمةٌ في الرَّحيل إلى أماكنَ بعيدةٍ حتى يتعلّمَ ويحفظَ كتاب الله ، وقد ذكرَ لنا أبو الدَّرداء هذا فقال: «لو أُنسيتُ آيةً لم أجدْ أحداً يذكِّرنيها إلا رجلاً بِبَرْكِ الغِمَاد رحلتُ إليه»[1] .

* ولهذا كان أبو الدّرداء أحدَ الصَّحابة العُلماء الذين يُلْتَمسُ العلْمَ عندهم ، وأحدُ مَنْ جمعَ القرآن حفظاً من الأنصار ، وأحدُ الذين وقعَ اختيارُ الخليفةِ عمر عليهم ليكونوا مُعلّمي القرآن لأهل الشَّام .

* قال محمَّد بن كعب القُرظيّ: «جمعَ القرآنَ في زمانِ النَّبيِّ ﷺ خمسةٌ من الأنصار: معاذُ بنُ جبل ، وعبادةُ بنُ الصَّامت ، وأبيُّ بن كعب ، وأبو أيُّوب ، وأبو الدَّرداء؛ فلمَّا كان زمانُ عمرَ بن الخطَّاب كتبَ إليه يزيدُ بنُ أبي

= (سير أعلام النُّبلاء ٢/٣٣٦).
والقراءُ السّبعةُ المشهورون قد جمعَهم الشّاعر بقوله:

ألا إنَّ قــــرَّاءَ الأئمـــــةِ سَبعَـــــةٌ   بِهـم يَهْتَـدي فـي الـذِّكْـرِ كُـلّ كبيـر
علـيٌّ أبـو عمـرو وحمـزةُ عـاصِـم   ونـــافِـــعٌ عبـــدُ اللهِ وابـــنُ كثيـــر

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٦/٢٠) ، وسير أعلام النُّبلاء (٣٤٢/٢).
و«بَرك الغِمَاد»: بكسر الباء وفتحها في «بِرَك» ، وكسر الغين المعجمة وفتحها في «الغماد» ، وهناك من يضمّها.
والبرك: حجارةٌ مثلُ حجارة الحَرّة خشنة يصعبُ المسلك عليها ، وعرة ، وقد اختلفوا في الغماد فقالوا:
إنَّه موضعٌ وراء مكّة بخمسٍ ليال مما يلي البحر.
وقيل: بلدٌ باليمن.
وقيل: هو موضعٌ في أقاصي أرض هجر.
والذي يبدو أنَّها أمكنة متعددةٌ ، وكلُّها تسمّى الغماد ، ولكنَّه ينطبق عليها وصفٌ واحدٌ ، إمَّا الوعورة ، أو البعدُ والوعورةُ معاً.

سفيان: إن أهلَ الشَّام قد كثروا وربَلُوا ـ نموا ـ وملؤُوا المدائنَ ، واحتاجُوا إلى مَنْ يعلِّمهم القرآنَ ويفقّههُم ، فأَعَنِّي يا أميرَ المؤمنين برجالٍ يعلِّمونهم.

* فدعا عمرُ أولئكَ الخمسةَ ، فقال لهم: إنَّ إخوانكم منْ أهلِ الشَّام قد استعانوني بمنَ يعلّمهم القرآنَ ، ويفقههم في الدِّين ، فأعينوني رحمكم اللهُ بثلاثةٍ منكم ، إنْ أحببتُم فاستهموا ، وإن انتدبَ منكم ثلاثةٌ فليخرجُوا؟!

فقالوا: ما كُنَّا لِنَتَسَاهم ، هذا شيخٌ كبيرٌ ـ لأبيّ أيّوبَ ـ ، وأمَّا هذا فسقيمٌ ـ لأُبيّ بن كعب ـ فخرجَ معاذُ وعبادةُ وأبو الدَّرداء ، فقال عمرُ: ابدؤوا بحمصَ ، فإنَّكم ستجدون النَّاس على وجوهٍ مختلفةٍ ، منهم مَنْ يَلْقَن ـ يفهمُ بسرعةٍ ـ فإذا رأيتم ذلك فوجّهوا طائفةً من الناس ، فإذا رضيتُم منهم ، فَلْيُقِمْ بها واحد ، وليخرجْ واحدٌ إلى دمشقَ ، والآخرُ إلى فلسطين.

فقدموا حمصَ فكانوا بها ، حتّى إذا رضُوا من النّاس أقام بها عبادةُ ، وخرج أبو الدَّرداء إلى دمشق ، ومعاذُ إلى فلسطين ، فأمَّا معاذٌ فماتَ عام طاعون عَمَواس ، وأمَّا عبادةُ فصار بَعْدُ إلى فلسطين فماتَ بها ، وأمَّا أبو الدَّرداء ، فلم يزلْ بدمشقَ حتَّى مات[1].

* وفي الشَّام أخذَ أبو الدَّرداء يعلِّمُ النَّاسَ ممَّا علَّمه اللهُ ، وهو يرجو رضوانَه ، وكان يحبُّ أنْ يعلِّمَ العُلماءَ كلَّ مافي صدره ، وكلَّ ما أخذه عن الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ ، ولهذا كان يقولُ لأصحابِه وتلامذتِهِ: «سَلُوني ، فواللهِ لئن فقدتموني لتفقدنَّ رجُلاً عظيماً من أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ»[2].

* ولقد شهدَ شاهدٌ من أكابر علماء الصَّحابة بالعلْمِ لأبي الدّرداء ، ووصفه بعالمِ الشَّام ، هذا العالمُ الشاهدُ هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي يقول: «علماءُ النَّاس ثلاثةٌ: واحدٌ بالعراق ، وآخرُ بالشَّام ـ يعني أبا الدَّرداء ـ يحتاجُ إلى الذي بالعراقِ ـ يعني نفسه ـ والذي بالشَّام والعراق

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ١٩ و٢٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٤٢).

يحتاجان إلى الذي بالمدينة ـ يعني عليّ بن أبي طالب ـ ولا يحتاجُ إلى واحدٍ منهما»[1].

* كان سيّدنا أبو الدَّرداء مثالاً للقارىءِ الحافظِ اللبيب؛ فقد كان يدخلُ المسجد فيصلّي، ثمَّ يقرئُ القرآن ويقرأُ هو، وكان يقول: «القارىءُ والمستمعُ شريكان في الأجر».

* وكان يجلسُ مع طلابِ الحفظِ والعِلْم، الذين تحلّقُوا حولَه في الجامعِ فكان هو الذي سنَّ هذه الحِلَق العلميَّة المباركة للقراءة.

* وقد شهدَ لأبي الدَّرداء بالعلمِ أكابرُ أهلِ العِلْم، قال القاسمُ بنُ عبد الرحمن: «كان أبو الدَّرداء من الذين أوتوا العِلْم».

* وقال مسروقُ بن الأجدع التَّابعيّ العالمُ المشهورُ: «شاممتُ أصحابَ محمَّدٍ ﷺ فوجدتُ علمهم انتهى إلى عمرَ، وعليّ، وعبدِ الله، ومعاذٍ، وأبي الدَّرداء، وزيد بن ثابت»[2].

* وقال يزيدُ بن معاوية: «إنَّ أبا الدرداء من العُلماءِ الفقهاءِ الذين يشفون الدَّاء»[3].

* وهذا قولٌ صحيحٌ، فقد كان أبو الدَّرداء موسوعة علميّةً، فقد وردَ أنَّه دخلَ مسجدَ النَّبيِّ ﷺ ومعه من الأتباعِ مثل السُّلطان، فمن سائلٍ عن فريضةٍ ومن سائلٍ عن حسابٍ، وسائلٍ عن حديثٍ، وسائلٍ عن معضلةٍ، وسائلٍ عن شِعْر[4].

* ولعلَّ حياةَ أبي الدَّرداء كانت عِلْماً في علْم في علْمٍ، ونوراً في نورٍ في نورٍ، وهذا ما يترجمهُ قولُه الذي يدعو فيه إلى العلْم: «مالي أرى علماءَكم

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ١٧).
(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٥١): وقوله: «شاممتُ»: يقال: شاممتُ فلاناً: إذا قاربته وعرفتُ ما عندَهُ بالاختبار والكشفِ.
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٤٦).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٤٦). والحقيقة: فهذا هو العزّ والشّرف.

يذهبون ، وجهالَكم لا يتعلّمون! تعلّمُوا فإنَّ معلّمَ الخيرِ والمتعلّم في الأجرِ سواء ، ولا خيرَ في سائرِ النَّاس بعدهما»[1].

* والعلمُ والعملُ شيئان متلازمان عند أبي الدَّرداء كالجسدِ والرُّوحِ تماماً ، وفي هذا يقول: «ويلٌ للذي لا يعلَمُ مرَّة ، وويل للذي يعلَمُ ولا يعملُ سبْعَ مرَّات»[2].

* بل إنَّنا نجده يدعو إلى العلْم وسلوكِ طريقهِ والتّعلّمِ والعمل بعد ذلك ، فيقول: «لن تكونَ عالماً حتى تكونَ متعلّماً ، ولا تكون متعلّماً حتى تكونَ بما علمتَ عاملاً ، إنَّ أخوفَ ما أخافُ إذا وقفتُ للحسابِ أنْ يُقال لي: ما عَمِلت فيما عَلِمْتَ»[3].

* والنَّاسُ في نظرِ أبي الدَّرداء يجبُ أن يكونُوا من أهلِ العلْمِ وإلاَّ فلا ، وعن هذا المبدأ يقول: «النَّاسُ ثلاثةٌ: عالمٌ ، ومتعلِّمٌ ، والثَّالثُ همجٌ لا خيرَ فيه»[4].

المُفَسِّـرُ الموسـوعي:

* كان فهمُ سيّدنا أبي الدَّرداء للقُرآن الكريم وتفسيرُهُ له نابعاً من حفظهِ ، واستظهارُهُ له ، ولما وعاهُ من الحديثِ النَّبويِّ الشريف ، وما سمعهُ من أكابرِ الصَّحابةِ العُلماء.

* وقد رحتُ أمخرُ عبابَ التَّفاسير بحثاً عن أقوالِ أبي الدَّرداء وآرائه في هذا المجالِ الكريم ، فإذا بي أقفُ أمامَ كنوزٍ من المعرفةِ التي أُوتيها هذا الصَّحابيُ العالمُ العيلمُ ، وإذا بكثيرٍ من أقوالِه تتوافقُ مع أقوالِ علماءِ المفسّرين من الصَّحابة الكرامِ رضي الله عنهم أجمعين.

* ففي آيات الأحكام يوضح أبو الدَّرداء ويبيّنُ أسبابَ نزولِ قوله تعالى:

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢١٢).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢١٣) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٤٧).

(٣) حلية الأولياء (٢/ ٢١٣) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٤٧).

(٤) حلية الأولياء (١/ ٢١٢).

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ ﴾ [البقرة: ٢٣١] ، يقولُ أبو الدَّرداء: «كان الرَّجلُ يطلِّقُ في الجاهليةِ ويقول: إنَّما طلقتُ وأنا لاعبٌ؛ وكان يعتقُ وينكحُ ويقول: كنتُ لاعباً ، فنزلتْ هذه الآية»[1].

* وفي قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨] ، نجدُ مفهوماً كريماً لدى المقرئ المفسِّر أبي الدَّرداء الذي أفادَ بأنَّ المحافظةَ على الصَّلوات ينبغي أن تكونَ جميعها ، وخاصةً الفجر والعشاء ، فقد قال في مرضهِ الذي ماتَ فيه: «اسمعُوا وبلّغُوا

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٣/ ١٥٦).
ومن الجدير بالذِّكر أنَّ المرأةَ كانت في الجاهلية تلاقي من العنتِ شيئاً كثيراً في غالبِ الأحايين والأوقاتِ فقد كانت تلقى العنتَ طفلةً إذ توأدُ في بعض القبائل ، أو تعيشُ في هونٍ وإذلالٍ ومشقّةٍ ، فكانت زوجةً للرجل بيد أنَّها قطعةٌ من المتاع له ، وربما تكونُ الفرسُ أغلى منها وأعزّ ، وكانت مطلقةً تعضلُ فتمنعُ من الزَّواج حَتّى يسمحَ مطلِّقها ويأذن. . . وكانتِ النَّظرة إليها بصفةٍ عامةٍ نظرةً هابطةً زريّةً. . .
ثم جاءَ الإسلامُ ، جاء ينسمُ على حياةِ المرأة نسمات رخيةً ممزوجةً بالعطفِ والرحمةِ والمودَّةِ ، جاء يرفعُ النظرة إلى المرأة ، وجاء يرتفعُ بالعلاقاتِ الزَّوجية إلى مرتبةٍ عُليا. . . فكانت الكرامةَ التي أفاضها اللهُ للمرأةِ والرّجل معاً.
وقد قررَ الإسلامُ مبدأ الإحسانِ في معاملةِ الزَّوجةِ ، فإمَّا الإمساكُ بالمعروفِ أو التَّسريحُ بإحسان ، إذ لا يجوزُ الإمساكُ من أجل الضّرر ، كالذي رُوي عن الرجلِ الأنصاريّ الذي قال لامرأته: «واللهِ لا آويك ولا أفارقكِ» ، فهذا الإمساكُ الذي نهى عنه الإسلامُ ، لأنَّه كان على ما يبدو شائعاً في بعضِ البيئاتِ العربية.
وهنا يستجيشُ القرآنُ الكريم المشاعرَ المرهفةَ النَّبيلة كما يستجيشُ عاطفةَ الحياء من الله ، وشعورَ الخوف منه في آن واحدٍ ، ليخلّصَ النُّفوس من أوضاعِ الجاهليةِ ، ويرتفعَ بها إلى المستوى الكريم الذي يأخذُ بيدها إليه.
إنَّ من يمسكُ المطلَّقة ضِراراً أو اعتداءً يظلمُ نفسه ، حيث يوردها موردَ المعصية ، ويلحقُ الأذى بالمرأة ، ومن فعلَ شيئاً من هذا فقد اتّخذ آياتِ الله هزواً وويل لمن يستهزىء بآياتِ الله دون حياءٍ منَ الله عزَّ وجلَّ حيث إنَّ مصيره إلى سوءٍ ، نسأل الله العافية.

مَنْ خلفَكم؛ حافظوُا على هاتَيْن الصَّلاتَيْن ـ يعني في جماعةٍ ـ العشاء والصُّبح، ولو تعلمُون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبْواً على مرافقِكم ورُكبكم»[1].

* والصَّلاةُ صفةُ المؤمنينِ المُفلحين الخاشعين، وهؤلاء تحفُّهم الرَّحمةُ حينما يقفونُ طاعةً لله، يصلُّون ويدعون ربَّهم خوفاً وطمعاً، ويناجون وهم يرجون رحمته، وكأنِّي بالشَّاعر قد استلهمَ قولَه من قولِ أبي الدَّرداء، فنظم هذه الأبيات:

ألا في الصَّلاة الخيرُ والفَضْلُ أجْمعُ ... لأنَّ بها الأعنَاقَ للهِ تخضَعُ
وأوَّلُ فرضٍ منِ شَريعةِ دِيننا ... وآخرُ ما يبقى إذا الدِّين يُرفَعُ
فَمَنْ قامَ للتَّكبيرِ لاقَتْه رحمةٌ ... وكان كعبدٍ بابَ مولاهُ يَقْرعُ
وصارَ لربِّ العرشِ حينَ صلاتهِ ... نجيّاً فيا طُوباه لو كان يخْشَعُ

* وفسَّر قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السَّجدة: ١٦] فقال: «هو أنْ يصلّي الرَّجل العشاءَ والصُّبح في جماعة»[2].

* ومن روائع تفسير أبي الدَّرداء الموجز المعبّر، تفسيرُه لقوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩]، قال: «إنَّما تقاتلون بأعمالِكم»[3].

* وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الحج: ٤٠] يقول: «لولا أنَّ الله عزَّ وجلَّ يدفعُ بمَنْ في المسَاجدِ عمن ليسَ في المساجدِ، وبمن يغزو عمَّن لا يغزو، لأتاهم العَذابُ»[4].

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٢١٢)، وأعتقد أنّ قولَ أبي الدَّرداء مقتبسٌ من قول معلّمه رسول الله ﷺ حيثُ قال: «ولو يعلمون ما في العتمةِ والصُّبح لأتوهما ولو حبواً».
وقال ﷺ: «إنَّهما أشدُّ الصَّلاة على المنافقين».

(٢) تفسير القرطبي (١٤/ ١٠٠).

(٣) المصدر السَّابق (٣/ ٢٥٥).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٢/ ٧٠)؛ وقالت فرقة: «لولا دفعُ اللهِ العذاب بدعاء الفُضَلاء والأخيار لأتاهم العذاب».

* وتفسيرُ الذِّكْرِ عند أبي الدَّرداء رضي الله عنه له معنى عظيم مؤثّر ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ، حيث أفادَ معناه فقال: «ذكرُ الله لكم بالثَّواب والثَّناء عليكم ، أكبرُ من ذكرِكم له في عبادتكم وصلَواتِكم»[١].

* ونجدُ أبا الدَّرداء رضي الله عنه ينقلُ أحياناً تفسيراً لآيةٍ عن رسولِ الله ﷺ ، من ذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] ، فقد رويَ من حديثه قال: «سمعتُ النَّبي ﷺ يقول: «ما منْ مسلمٍ يذبُّ عن عِرضِ أخيه إلاَّ كان حقّاً على اللهِ تعالى أنْ يردّ عنه نار جهنّم يوم القيامة» ، ثم تلا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾»[٢].

* كما أنَّنا نجدُ فهم أبي الدَّرداء رضي الله عنه واسعَ الطَّيف لقبول الصَّلاة من منظارِ التَّقوى في ضوءِ القُرآنِ العظيم؛ فعندَ ابنِ أبي حاتم عن أبي الدَّرداء قال: «لأن أستيقنَ أنَّ اللهَ قد تقبَّل لي صلاةً واحدةً ، أحبّ إليَّ من الدُّنيا وما فيها ، إنَّ الله يقولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]»[٣].

* وانظرْ إلى فهمهِ العميقِ والدّقيقِ لقولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرّحمن: ٤٦] ، حيث قيلَ له: «يا أبا الدَّرداء: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ ، وإنْ زنَى وإن سرقَ»؟ قال: «إنَّه إنْ خافَ مقام ربِّه لم يَزْنِ ولم يَسْرِقْ». . . .

المُحَدِّثُ الفَقِيهُ الأديب:

قبل أنْ نعرفَ عددَ الأحاديثِ النَّبويّة التي رواها أبو الدَّرداء رضي الله عنه أودُّ أنْ أشيرَ إلى مكانةِ الحديثِ النَّبوي الشَّريف في نفسِ أبي الدَّرداء ،

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٤٩)؛ ولأبي الدّرداء أقوال رائعة في الذكر سنوردها في أقواله. . .

(٢) تفسير القرطبيّ (١٤/ ٤٣).

(٣) انظر تفسير ابن كثير للآية (٢٧) من سورة المائدة.

وكذلك مكانة أهلِ الحديث ، وحفْظِهِ كلامَ النَّبيِّ ﷺ.

* فقد كان أبو الدَّرداء رضي الله عنه شديدَ الأدب في روايةِ الحديثِ النَّبويِّ ، وكان يعظِّمُ العلماءَ الحفَّاظ ، كما كان ينظرُ إلى أصحاب الحديثِ ، ويبسطُ رداءه لهم ويقول: «مرحباً بأحبَّة رسولِ الله ﷺ»[1].

* وبلغ من تحرّي أبي الدَّرداء رضي الله عنه لروايةِ الحديثِ النَّبويِّ الشريف أنه كان إذا فرغَ من الحديثِ عن رسولِ الله ﷺ قال: «هذا ، أو نحوه ، أو فَشَكْله»[2].

* بل إنَّ أبا الدَّرداء رضوان الله عليه كان يحاولُ أنْ يتأسّى بالحبيبِ الأعظمِ ﷺ حتَّى في الابتسام؛ ويبدو أنْ زوجَه أمَّ الدَّرداء قد لاحظتْ هذا منه ، فظنَّتْ وخافتْ أن يحسبَه الناسُ من الحمقى ، فقد روت أمُّ الدرداء هذا فقالت: «كان أبو الدَّرداء إذا حدَّثَ حديثاً تبسّمَ في حديثِهِ؛ فقلتُ: إنِّي أخشى أن يحمّقَك النَّاس!

قال: ما سمعتُ رسول الله ﷺ يحدّثُ حديثاً إلا تبسَّمَ في حديثِهِ»[3].

* وأبو الدَّرداء رضي الله عنه من أصحابِ المئاتِ وشيء في الرِّوايةِ ، فقد رُوي له عن النَّبيِّ ﷺ (١٧٩ حديثاً) ، اتَّفق البُخاري ومسلم منها على حديثَيْن ، وانفرد البُخاري بثلاثة ، ومسلم بثمانية[4].

* روى عنه جلَّةٌ من الصَّحابة العُلماء من مثل: عبدِ الله بن عبَّاس ، عبدِ الله بن عمرو بن العاص، أنسِ بن مالك ، فضالة بنِ عُبيد ، وأبي أُمامة ، وغيرِهم.

* وروى عنه من التَّابعين خلائقُ منهم: جبيرُ بنُ نفير ، أبو إدريس

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ١٠١).
(٢) مجمع الزَّوائد (١/ ١٤١) ، وحياة الصَّحابة (٣/ ٢٣٩).
(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ٤٠).
(٤) أسدُ الغابة (٤/ ١٩) ترجمة رقم (٤١٣٦) ، تهذيبُ الأسماء واللغات (٢/ ٢٢٨) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٣٦).

الخولاني ، زوجه أمُّ الدَّرداء الصُّغرى ، ابنه بلال ، سعيدُ بنُ المسيب ، عطاءُ بنُ يسار ، علقمةُ بن قيس ، زيدُ بن وهب ، وآخرون[1] .

* فمن مرويّاتِ أبي الدَّرداء رضي الله عنه ما وردَ في مجال التَّفسير ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَنْ حَفِظَ عشْرَ آياتٍ من أوَّل سورةِ الكهف عُصِمَ من الدَّجَّال»[2] .

* ومن مروياتهِ في عُلومِ القُرآن ما أخرجه الإمامُ أحمدُ بسندهِ عن سالمِ بن أبي الجعد ، عن معدان بن أبي طلحة ، عن أبي الدَّرداء ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «أيعجبُ أحدكم أن يقرأَ ثُلثَ القُرآن في ليلة»؟

قالوا: كيف يطيقُ ذلك؟ أو مَنْ يطيقُ ذلك؟

قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]»[3] .

* ومن مروياتِ أبي الدَّرداء رضي الله عنه فيما ورد عن اللعَّانين ما جاء في الصَّحيح وغيرِه عن أمِّ الدَّرداء ، عن أبي الدَّرداء أنَّه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ اللعَّانين لا يكونون شُهداء ولا شُفعاء يومَ القيامة»[4] .

* ويروي في فضْلِ الذِّكرِ وأهميته حديثاً أورده التِّرمذي وغيره عن أبي الدَّرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخيرِ أعمالكم ، وأزكاها عند مليكِكم وأرفعها في درجاتِكم ، وخيرٍ لكم من إنفاقِ الذَّهب والوَرِق ، وخيرٍ لكم من أنْ تلقَوا عدوَّكم فتضربُوا أعناقهم»؟

قالوا: بلى.

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٢٨) ، وسير أعلام النبلاء (٢/٣٣٦).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨٠٩) ، وأبو داود برقم (٤٣٢٣) ، والترمذي برقم (٢٨٨٨) ، والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٩٥١) ، وأحمد في المسند (٥/١٩٦) واللفظ له.

(٣) المسند (٥/١٩٥).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٨) ، وأبو داود برقم (٤٩٠٧) ، وانظر مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/١٠).

قال: «ذكْرُ الله تعالى»[1].

* ولهذا كان أبو الدَّرداء رضي الله عنه يقومُ من جوفِ الليل فيقول: «نامتِ العُيون، وغارتِ النُّجوم، وأنتَ حيٌّ قيوم»[2].

* وفي باب فضْل الدُّعاء بظهرِ الغيب جاء في الصَّحيح عن أبي الدَّرداء أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «ما من عبدٍ مسلم يدعو لأخيه بظهرِ الغيب إلا قال المَلَكُ: ولَك بِمثْل» وفي روايةٍ أخرى في صحيح مسلم أيضاً عن أبي الدَّرداء أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقولُ: «دعوةُ المرء المسلمِ لأخيهِ بظهرِ الغيبِ مستجابةٌ، عند رأسهِ مَلَكٌ موكَّلٌ كلَّما دعا لأخيه بخيرٍ، قال الملَكُ الموكَّلُ بهِ: «آمين ولكَ بمثله»[3].

* وفي حُسْنِ الخُلقِ أخرجَ التّرمذي عن أبي الدَّرداء أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «ما من شيءٍ أثقلُ في ميزانِ المؤمنِ يوم القيامة من حسنِ الخلق، وإنَّ اللهَ يبغضُ الفاحشَ البذيء»[4].

* وفي فضيلةِ الدَّعوات، يروي سيّدنا أبو الدَّرداء رضي الله عنه كما في التّرمذي أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «كان من دعاءِ داود: اللهمَّ إنِّي أسألُك حبَّك، وحبَّ من يحبُّك، والعمل الذي يُبلّغني حبَّك، اللهمَّ اجعلْ حبَّكَ أحبَّ إليَّ من نفسي، وأهلي، ومن الماءِ البارد»[5].

* ومن خصائصِ أبي الدَّرداء العلميَّة في روايةِ الحديثِ النَّبويِّ، أنَّه كان

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٣٧٤)، وابن ماجه برقم (٣٧٩٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٦).

(٢) الموطأ (٣)، وانظر: الفتوحات الربانية (٣/ ١٧٧)، ومعنى «غارت»: غربت.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٧٣٢) و(٢٧٣٣)، وأبو داود برقم (١٥٣٤)، وكان كثير من السَّلف الصالح يكثر من الدعاء لإخوانه بظهر الغيب، انظر المسند (٥/ ١٩٥).

(٤) أخرجه الترمذي برقم (٢٠٠٣)، وقال: «حديث حسن صحيح» و«الفاحش»: ذو الفحش في كلامه وأفعاله و«البذيء»: هو الذي يتكلم بالفحش ورديء الكلام.

(٥) أخرجه الترمذي برقم (٣٤٨٥) وقال: «حديث حسن»، ولكن في إسناده عبد الله بن ربيعة الدمشقي مجهول.

يحبُّ أنْ يصلَ العلْم إلى أهله ومحبيْه ، ليستفيدَ أهلُ العِلْمِ بالعلمِ ، من ذلك ما أخرجه أحمدُ وغيره بسندٍ عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ سلكَ طريقاً يطلبُ فيه عِلْماً سلكَ اللهُ به طريقاً إلى الجنَّةِ ، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتها رضاً لطالب العِلْم ، وإنَّه ليستغفر لِلْعَالم مَنْ في السَّماوات والأرض ، حتَّى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابدِ كفضلِ القمرِ على سائرِ الكواكب ، إنَّ العلماءَ هم ورثةُ الأنبياء ، لم يرثُوا ديناراً ولا درهماً ، وإنَّما ورثُوا العلمَ ، فمن أخذه أخذَ بحظٍّ وافر»[1].

* وكأني بالشَّاعر القيرواني[2] قد أغُرِمَ بهذا الحديث الشَّريف ، فاستطابَ رحيقَ شذاه ، ولطيفَ معناه ، وجمالَ مبناه ، فأنشدَ قائلاً:

النَّاسُ في جهةِ التَّمثيل أكْفاءُ ... أبوهمُ آدمٌ والأمُّ حوَّاءُ

نفسٌ كنفسٍ وأرواحٌ مشاكلةٌ ... وأعْظَمٌ خُلقَتْ فيهم وأعضاءُ

فإنْ يكنْ لَهمْ مِنْ أصْلِهم حَسَبٌ ... يفاخرونَ به فالطِّينُ والماءُ

ما الفضلُ إلا لأهلِ العلْم إنَّهمُ ... على الهُدىٰ لمن استهدى أدلَّاءُ

وقَدْرُ كلّ امرئٍ ما كان يحسنُه ... وللرّجال على الأفعالِ أسماءُ

وضدّ كلّ امرئٍ ما كان يجهلهُ ... والجاهلون لأهل العلْمِ أعداءُ

فعشْ بعلْمٍ ولا تبغي به بدلاً ... فالنَّاسُ موتَى وأهلُ العلْم أحياءُ

* قال عبد الله بنُ المعتز: «العالمُ يعرفُ الجاهل ، لأنَّه قد كان جاهلاً ، والجاهلُ لا يعرفُ العالِم ، لأنَّه لم يكن عالماً».

* وللعُلماءِ أقوالٌ نفيسةٌ في العِلْمِ وأهلهِ والجهل وأهلِه ، قال محمَّدُ بن مسلم الزُّهريُّ: «العلْمُ عند أهلِ الجهل قبيح ، كما أنَّ الجهلَ عند أهلِ العلْمِ قبيح»[3].

---

(١) المسند (٥/ ١٩٦) ، وأبو داود برقم (٣٦٤١ و٣٦٤٢) ، والترمذي برقم (٢٦٨٣) ، وابن ماجه برقم (٢٢٣).

(٢) ينسب بعض المحققين هذه الأبيات إلى عليّ بن أبي طالب القيرواني.

(٣) انظر كتاب: الفقيه والمتفقِّه (٢/ ١٤٩).

* وقال الزُّهريُّ أيضاً: «العِلْمُ ذكَرٌ لا يحبُّه من الرجال إلا مذكَّروهم، ولا يبغضُه من النَّاسِ إلاَّ مؤنثوهم».

* وقال الشَّافعي: «العلْمُ جهلٌ عند أهلِ الجهلِ، كما أنَّ الجهل جهلٌ عند أهل العلْم»، وأنشدَ فيه:

ومنْـزِلَـةُ السَّفيـهِ مـنَ الفقيـهِ　　كمنـزلـةِ الفَقيـهِ مـن السَّفيـهِ
فَهـذَا زَاهِـدٌ فـي قُـرْبِ هَـذا　　وهـذا فيـه أزْهَـدُ منْـهُ فِيـهِ[1]

* وقيل: «المرءُ عدو ما يجهلُ» و«مَنْ جهلَ شيئاً عاداه».

* وهذه المعاني جميعها مأخوذةٌ من قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩].

قصصُهُ مَعَ عُلَماءِ الصَّحَابَةِ:

* أخبارُ سيّدنا أبي الدَّرداءِ رضي الله عنه شائقةٌ وجميلةٌ، وفيها العبرةُ والمعرفةُ، وهي تشغلُ مساحةً واسعةً من سيرتهِ المونقةِ، فقد كانت له مواقفُ طيّبة النَّشْرِ مع عمرَ وسلمانَ وأبي ذرٍّ ومعاويةَ وغيرِهم رضي الله عنهم أجمعين وحشرنا في معيتهم.

* وكانت لأبي الدَّرداء مكانةٌ عظمىٰ في نفوسِ الصَّحابة، فكانوا يشهدون له بالفضل والعَقل والفهم والتّقدّم.

* عن مكحول[2] رحمه الله قال: «كانتِ الصَّحابةُ يقولون فيما بينهم: أرحمُنا بنا أبو بكر، وأنطقُنا بالحقّ عمر، وأمينُنا أبو عُبيدة بن الجراح،

---

(١) المصدر السَّابق (٢/ ١٥٠).

(٢) مكحولُ بن زيد بن شال الكابليّ الدِّمشقي، أبو عبد الله، أحد فقهاء عَصْر التَّابعين، سمعَ عن عددٍ من الصَّحابة، وعددٍ من التَّابعين، وطافَ الأرض في طلب العلْم، وحدَّث مكحول فقال: عبقتُ بمصرَ فلم أدعْ بها علماً إلا احتويتُ عليه فيما أرى، ثم أتيتُ الشَّام فغربلْتُها»، وقال أبو حاتم: «ما أعلمُ بالشَّام أفقهَ من مكحول».
وقال ابن يونس: «كان فقيهاً عالماً واتّفقوا على توثيقه» سكنَ دمشق وتوفيَ بها سنة (١١٨ هـ) رحمه الله (تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ١١٣ و١١٤).

وأعلُمنا بالحلال والحرام معاذُ بنُ جبل ، وأقرؤنا أبيُّ بن كعب ، ورجلٌ عنده علمْ ابن مسعود ، وتبعهم عُويمر ـ أبو الدَّرداء ـ بالعقل»[1].

* وقال محمد بنُ إسحاق: «كان أصحابُ النّبيِّ ﷺ تقول: أتبعُنا للعلْم والعَمل أبو الدَّرداء»[1].

* وكان سيّدنا أبو ذرّ الغفاريّ ـ وهو من الصَّحابةِ العُلَماءِ ـ يقولُ لأبي الدَّرداء: «ما حملتْ ورقاءُ ، ولا أظلَّتْ خضراء ، أعلم منك يا أبا الدَّرداء»[2].

* بينما كان سيّدنا عبدُ الله بنُ عمر ـ وهو من الصَّحابة العُلماء أيضاً ـ يقول: «حدّثُونا عن العاقِلَيْن».

فَيُقَال له: «مَنِ العَاقلان»؟

فيقول: «معاذُ ، وأبو الدَّرداء»[3].

* ولأبي الدَّرداء رضي الله عنه أخبارٌ كريمةٌ مع فاروق الإسلام عمر عليه سحائب الرضوان تحكي تلكم الإشراقات الرّبانيّة التي أضاءت قلبَ أبي الدَّرداء ، فجعلتْ منه قبساً مضيئاً ينيرُ الأفئدةَ التي تتعطشُ للمعرفةِ والعلْمِ.

* فقد خرجَ أبو الدَّرداء إلى دمشق حتّى يعلِّمَ النَّاس القرآن الكريمَ ، ويفقّههم في الدِّين ، كان ذلك في زمن عمرَ ، وقصَّة تلكم الرِّحلة العلميَّة إلى الشَّام يرويها ابنُ عساكر ومفادُهَا ومحصَّلها ما ذكَرَهُ فقال: «دخلَ أبو الدرداء رضي الله عنه بُستاناً له ، ومعه ناسٌ من أصحابه ، فطافوا فيه ، وأعجبوا بهِ ، فلمّا خرجوا قالوا له: ما رأينا كاليومِ بستاناً ومالاً أحسنَ مِنْ هذا!

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ١٤).
(٢) الاستبصار (ص ١٢٥) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ١٧).
(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٥٠) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٤٣).

فقال أبو الدَّرداء: إنِّي أشهدُكم أنَّه في سبيلِ الله هو وغيره ، وأنَّ ذلك إلى أمير المؤمنين عمر يضعهُ حيثُ يرى.

ثم إنَّ أبا الدَّرداء أتى عمر ، فاستأذن في أنْ يأتيَ الشَّام فقال له عمر: لا آذنُ لك إلاَّ أنْ تعمل.

قال: فإنِّي لا أعملُ.

قال عمر: فإنِّي لا آذنُ لكَ.

قال: إذاً ، أَنطلقُ إلى الشَّام ، فأعلِّمُ النَّـاسَ سُـنَّـةَ نبيِّهم ﷺ ، وأُصلّي بهم.

هنالك أذِنَ له الخليفةُ عمرُ بالخروجِ ، فأتى الشَّام ، فكان الناسُ في فصلِ الصَّيف يتفرقُون في المغازي ، فإذا كان الشِّتاء ، اجتمعوا في المشتى ، فصلَّى بهم أبو الدَّرداء رضي الله عنه.

وزار عمرُ رضي الله عنه الشَّامَ ، وانطلقَ ذات عشيّةٍ ليتعرَّفَ أخبارَ أبي الدَّرداء ، فألفاهُ ـ كما هو عهده به ـ من أمراءِ الزَّاهدين ، فقد كان يسكنُ في بيتٍ بسيطٍ ليس فيه من حطامِ الدُّنيا شيءٌ؛ فقامَ عمرُ على باب أبي الدَّرداء ، وقال: السَّلامُ عليكم ، أَأَدْخُلُ؟

قال: ادخلْ ، فدفعَ الباب. . .

فقال أبو الدَّرداء: مَنْ هذا؟ أميرُ المؤمنين؟!

قال عمر: نعم.

وأجالَ عمرُ بصرَهُ في بيتِ أبي الدَّرداء فلمْ يَجِدْ فيه شيئاً ، فقال له: أو لمْ أوسِّعْ عليك؟ ألمْ أفعلْ بكَ؟. . . !

فقال له أبو الدَّرداء: أتذكرُ حديثاً حدّثناه رسولُ اللهِ ﷺ يا عمر؟

قال عمر: أيّ حديث؟

قال: «ليكنْ بلاغُ أحدِكم من الدّنيا كزادِ الراكب».

قال عمر: نعم.

قال أبو الدَّرداء: فماذا فعلْنَا بعدَهُ يا عمر؟!

فما زالا يتجاوبان بالبُكاءِ حتى أصْبَحا»[1].

* وكان عمرُ قد جعل أبا الدَّرداء على القضَاء بدمشق، وكان القاضي يكونُ خليفةَ الأمير إذا غابَ[2].

* ولسيّدنا أبي الدَّرداء أخبارٌ شهيرةٌ تعليميّةٌ مع سلمان الفارسي أحد الصَّحابة العُلماء، ومن الأخبار التربوية الهادفة ما جاءَ في المصادر الوثيقة: «أنَّ رسولَ الله ﷺ آخى بين سلمانَ وبين أبي الدَّرداء، فجاء سلمانُ يزورُ أبا الدَّرداء، فرأى زوجهَ أمَّ الدَّرداء متبذلةً[3]، فقال لها سلمانُ: مالكِ هكذا وما شأنُكِ؟!

قالت: إنَّ أخاكَ أبا الدَّرداء ليس له حاجةٌ في الدُّنيا.

وجاء أبو الدَّرداء فرحَّبَ بسلمانَ، ومن ثم قرَّبَ إليه طعاماً، فقال له سلمانُ: اطْعَمْ.

قال أبو الدَّرداء: كُلْ أنتَ، فإنّي صائمٌ.

قال: أقسمتُ عليك إلاَّ ما طعمتَ وأكلتَ معي.

فقال أبو الدَّرداء: ما أنا بباسطٍ يدي إلى الطَّعام، وآكل حتى تأكلَ.. فمدَّ سلمانُ يدَهُ وأكلَ فأكلَ معه أبو الدَّرداء.

ثم باتَ سلمانُ عند أبي الدَّرداء، فلمَّا كان من الليلِ، أرادَ أبو الدَّرداء أنْ يقومَ فحبسَه سلمانُ ومنعَه وقال له: يا أبا الدَّرداء، إنَّ لربِّكَ عليكَ حقَّاً، ولأهلِكَ عليك حقّاً، ولجسدِكَ عليكَ حقّاً، أعطِ كلَّ ذي حقّ حقّه، صُمْ وأفطرْ، وقمْ ونمْ، وائتِ أهْلَك.

ولمَّا مضى شطرُ الليلِ، وتنفَّس الصُّبحُ وتبسّمَ الفجرُ في عيونِ الكونِ،

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/١٧ ـ ١٩)، بتصرف واختصار.

(٢) المصدر السَّابق (٢٠/٢٠)، بتصرف يسير.

(٣) «متبذلة»: لابسةٌ ثيابَ البذْلةِ، وهي المِهْنَةُ.

قال سلمان: يا أبا الدَّرداء ، قُمِ الآنَ إنْ شئتَ ، فقامَا فتوضَّأ ، وركَعَا وصلّيا ، ثمَّ خرجا إلى الصَّلاة ، فلمَّا صلَّى النَّبيُّ ﷺ ، انفتلَ من صلاته ، فدنا منه أبو الدَّرداء ، فأخبره بما قال سلمان ، فقال له النَّبيُّ ﷺ مثْلَ ما قالَ سَلمانُ له»[1].

* وكتبَ سيّدنا أبو الدَّرداء مرَّةً إلى سلمانَ رسالةً شافيةً ، تشيرُ إلى فقْههِ وعلمِهِ ، وإلى تبحّره في العلْمِ ، وإلى ابتغائِه مرضاةَ الله عزَّ وجلَّ؟ فقال: «بسم اللهِ الرحمن الرحيم ، من أبي الدَّرداء إلى سلمان ، أمَّا بعد يا أخي ، اغتنمْ صحَّتكَ وفراغَك من قبلِ أنْ ينزلَ بكَ منَ البلاءِ ما لا يستطيعُ أحدٌ من النَّاس ردَّه ، يا أخي اغتنمْ دعوةَ المؤمنِ المُبتلى ، ويا أخي ليكنِ المسجدُ بيتَك ، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «المسجدُ بيتُ كلّ تقيٍّ».

* وقَد ضمنَ اللهُ عزَّ وجلَّ لمن كانتِ المساجدُ بيوتَهم بالرُّوح والرَّاحةِ ، والجواز على الصِّراطِ إلى رضوانِ الرّبِّ ، ويا أخي أَدْنِ اليتيمَ منكَ ، وامسحْ برأسهِ والْطُفْ به ، وأطعمْهُ من طعامِك ، فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ ـ وقد جاء رجلٌ يشكو إليهِ قسوةَ قلبه ـ: «أَدْنِ اليتيمَ منك والْطُفْ به ، وامسحْ برأسِهِ وأطعمْهُ من طعامكَ ، فإنَّ ذلك يليّنُ قلبَكَ ، وتدركَ حاجتكَ»[2].

* وكان سيّدنا سلمانُ رضوان الله عليه يَهَبُ النُّصحَ أيضاً لأبي الدَّرداء ، ويبادلُه الحكمةَ ، والموعظةَ الحسنةَ والفائدةَ المؤثّرةَ ، فقد كتبَ سلمانُ مرَّةً إلى أبي الدَّرداء: «أمَّا بعدُ ، فإنَّك لا تنالُ ما تريدُ إلا بتركِ ما تشتهي ، ولن تبلغَ ما تأملُ إلا بالصَّبر على ما تكرهُ ، فليكنْ قولُكَ ذِكْراً ، وصمتُكَ فِكْراً ، ونَظَرُكَ عبرةً ، واعلمْ أنَّ أعجزَ النَّاس من أتْبَعَ نفسَه هَواهَا ، وتمنَّى على

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٠/ ١٥) ، بتصرف يسير؛ وللحديث أصلٌ في الصَّحيح وغيره ، فقد أخرجه البخاريُ في الصَّوم (٤/ ١٨٢ ـ ١٨٤) ، وفي الأدب ، باب: صنع الطَّعام والتكلف للضَّيف ، وأخرجه التِّرمذي برقم (٢٤١٥) ، وانظر: طبقات ابن سعد (٤/ ٨٥) ، وحلية الأولياء (١/ ١٨٨) ، وحياة الصَّحابة (٢/ ٦٩٢ و٦٩٣).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٤ و٢٥) ، وصفة الصفوة (١/ ٦٣١ و٦٣٢) ، وحلية الأولياء (١/ ٢١٤).

الله ، وأنَّ أكيسَهم من أتعبَ نفْسَه ، وعملَ لما بعد الموت»[1].

* وكتب أبو الدَّرداء إلى سلمان الفارسيّ يدعوهُ إلى الأرَضِ المقدَّسةِ ، فكتبَ إليه سلمان: «إنْ بَعُدتِ الدَّارُ من الدَّارِ ، فإنَّ الرُّوحَ منَ الرُّوح قريبٌ ، وطائرُ السَّماء على إلفهِ منَ الأرض يقع»[2].

* وكان لأبي الدَّرداء ولأبي ذرّ أخبارٌ مونقة مشرقةٌ ، تدلُّ على رسوخ كلّ واحدٍ منهما في عالَم الزُّهد والزَّاهدين ، وعالَم العلْم والعُلَماء ، وكانَ كلُّ واحدٍ منهما يجلُّ صاحبَه ويكبرهُ ، ويعرفُ له حقَّه ، فقد كان أبو الدَّرداء من العُلماء الحُكَماء ، والحُلماء العُقلاء ، وكان أبو ذرّ مُعجباً بأخلاقِ أبي الدَّرداء وبعلمِهِ ، فكان يقول: «ما حملت ورقاءُ ، ولا أظلتْ خضراءُ ، أعلم منك يا أبا الدَّرداء»[3].

* وقد حلَّقَ كلُّ واحدٍ منهما في سماءِ العلْم والزُّهد ، وجاب فضاءَ المعرفةِ ، فغدا إماماً من الأئمة الكبار في عَصْر الصَّحابةِ ، ذلك العَصْر الذَّهبيّ الفريد في تاريخِ الدُّنيا ، والمتفرِّد في دنيا التَّاريخ ، فهو خيرٌ القرون ، ورجالُه خيرُ الرِّجال ، كما أخبر بذلك الصّادق المصدوق ﷺ.

* فمن الأخبارِ التَّربوية التي تُسْتَحلىٰ ، وتُسْتَجلى بها الكُرَبُ عن القلوبِ ما ذكَرهُ ابنُ عساكر رحمه الله قال: «خرجَ أبو الدَّرداء رضي الله عنه إلى السُّوقِ ليشتريَ قميصاً ، فلقيَ أبا ذرّ ، فقال: أين تريدُ يا أبا الدَّرداء؟!

قال: أريدُ أنْ أشتريَ قميصاً.

قال أبو ذرّ: بِكَمْ؟

قال: بعشرة دراهم.

---

(١) بهجة المجالس (٢/ ٣٢٢).
(٢) انظر: البصائر والذَّخائر (٨/ ٤٠).
(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ١٧) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٤٣).

فوضع أبو ذرّ يدَهُ على رأسه متعجّباً ثمّ قال: ألا إنَّ أبا الدَّرداء من المُسرفين.

قال أبو الدَّرداء وقد أحسَّ بالخجل: فالتمستُ مكاناً أتوارىٰ فيه فلم أجدّ، فقلتُ: يا أبا ذرّ، لا تفعل، مرَّ معي إلى السُّوق فاكسني أنتَ.

قال: وتفعل إنْ ذهبتُ معك أكسوكَ أنا.

قلت: نعم يا أبا ذرّ.

فأتىٰ السُّوق، فاشترىٰ قميصاً بأربعة دراهم، ثمَّ انصرفَ؛ حتَّى إذا كنتُ بين منزلي والسُّوق، لقيتُ رجُلاً لا يكادُ يواري سوءَته فقلتُ له: يا هذا، اتقِ الله، ووَارِ سَوْءَتك.

فقال: واللهِ ـ يا هذا ـ ما أجدُ ما أواري به سوءتي غير ما ترى! فألقيتُ إليه الثَّوبَ، ثم انصرفتُ إلى السُّوق مرَّةً أخرى، فاشتريتُ قميصاً بأربعة دراهم، ثمَّ رجعتُ إلى منزلي، فإذا خادمةٌ على الطَّريق تبكي وقد اندقَّ إناؤُهَا، فوقفتُ وقلْتُ لها: ما يبكيكِ يا أَمَة الله؟ فقالت: انكسرَ إنائي، وأبطأتُ على أهلي، وأنا في خوفٍ وحيرة...

فذهبتُ معها إلى السّوق، فاشتريتُ لها إناءً غيره بدرهم فشكرتْني وقالت: يا شَيخُ! أما إذْ فعلْتَ ما فعلتَ من المعروفِ، فامْشِ معي إلى أهلي، فإني قد أبطأتُ، وأخافُ أنْ يضربُوني.

قال: فمشيتُ معها إلى مواليها، فدعوتُ صاحبَ الدَّارِ، فخرجَ مولاها إليَّ فقال: ما عنَّاك يا أبا الدَّرداء؟

قلت: إنَّ خادمتكم قد أبطأتْ عنكم، وخافت أنْ تضرَّهَا، فسألتني أنْ آتيكم لتكفُّوا عنها.

فقال مولاها: يا أبا الدَّرداء، أشهدُكَ أنَّها حرَّةٌ لِوجْهِ الله تعالى لممشاك معها، ومساعدتك إيَّاها.

فقال أبو الدّرداء في نفسه: أبو ذرّ أرشدُ منّي حين كسَاني قميصاً، وكَسا

مِسكيناً قميصاً ، وأعتَقَ رقبةً بعشرة دراهم»[1] .

الذَّاكِرُ الشَّاكر :

* لأبي الدَّرداء رضي الله عنه نَفَسٌ يرشحُ برحيقِ الفَوائد ، ويفوحُ بألوانِ الفُيوضات الرّحمانية التي حبَاه اللهُ إيَّاه ، وخصوصاً في مجال الذّكر .

* فقد كان أبو الدّرداء رضي الله عنه أميراً من أمراءِ الصَّحابةِ العلماء الذّاكرين ـ بعد أبي بكْر الصِّديق رضي الله عنه ـ حيثُ عُرِفَ بهذه الخصوصيَّة المباركة التي رفعَتْه عالياً عالياً في سَماء العبادة والصَّفاء مع خالقِ الأرض والسَّماء ، فقد كان رضي الله عنه لا يَفْترُ عن ذكْرِ الله ، فقيل له : «كم تُسبِّح في كلّ يوم»؟ قال : «مئة ألف إلاَّ أنْ تخطىءَ الأصابعُ» .

* ومن المشهور لدى أهل العِلْم أنَّ من أفضلِ حال العبد ، هو حال ذكْره ربّ العالمين ، فقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

* والذكرُ يكونُ بالقلْب ، ويكونُ باللسان ، والأفضلُ منه ما كان بالقلبِ واللسان جميعاً ، فإنِ اقتصرَ على أحدهما فالقلبُ أفضلُ ، ثم لا ينبغي أن يترك الذِّكرَ باللسان مع القلبِ خوفاً من أنْ يُظن به الرّياء ، بل يذكرُ بهما جميعاً ، ويقصدُ به وجْهَ الله عزَّ وجلَّ .

* وأودُّ أنْ أشيرَ إلى أنَّ العُلماءَ مِنْ أعيانِ التَّابعين وغيرهم ، قد أشاروا إلى أنَّ فضيلةَ الذّكر غيرُ منحصرةٍ في التّسبيحِ والتَّهليل والتحميدِ والتَّكبير ونحوها ، بل كلّ عامل لله بطاعة ، فهو ذاكرٌ لله تعالى ، قال عطاءُ رحمه الله : «مجالسُ الذّكرِ هي مجالسُ الحلال والحرامِ ، كيف تشتري وتبيعُ ، وتصلي وتصومُ ، وتنكحُ وتطلقُ ، وتحجّ وأشباه هذا» .

---

(١) انظر : مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/٢٦) ، بشيءٍ من التّصرّف اليسير .
أقول : «إنَّ لأبي الدَّرداء كثيرٌ من القَصص الشَّائقِ الجميلِ مع كبراءِ الصَّحابة وعلمائهم وقد تكفَّلتِ المصادرُ الموثوقةُ بذكرْها وإيرادها بين ثناياها وقد أوردنا شذرات منها ، ومَنْ أراد المزيد فليرجعْ إلى تلكم المصادر» .

* وينبغي أن يكونَ الذَّاكرُ على أكملِ الصّفات ، فإذا كان جالساً في موضعٍ استقبل القبلة ، وجلسَ متخشّعاً متذللاً بسكينةٍ ووقارٍ مُطرقاً رأسه ، ولو ذكَرَ على غيرِ هذه الأحوال جازَ ولا كراهة في حقّه قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

* وينبغي أن يكونَ الموضعُ الذي يُذْكَرُ فيه خالياً نظيفاً ، فإنَّه أعظمُ في احترامِ الذَّاكر والمذكورِ ، ولهذا مُدِحَ الذّكرُ في المساجدِ والمواضعِ الشَّريفة ، كما ينبغي أن يكونَ الذّاكرُ نظيفَ الفم طيّبَ الرَّائحة ، والمرادُ من الذّكرِ حضورُ القَلْبِ ، ليتدبّرَ ما يذكرُ ، ويتعقّلُ معناه ، والذّكرُ محبوبٌ في جميعِ الأحوالِ إلا ما وردَ الشَّرعِ باستثنائها ، وهي معروفةٌ بين النَّاس.

* وفي رحلاتِ الذّكرِ مع أبي الدَّرداء رضي الله عنه نجدهُ يوجِّه أصحابَه إلى مداومةِ الذّكر والإكثار منه ، فقد قال له رجلٌ: «إنَّ أبا سعيد بن منبه قد أعتقَ مئة عَبْدٍ لوجْهِ الله عز وجلَّ».

فقال: «إنَّ عتقَ مئة عبدٍ من مال رجُلٍ لكثير ، وإنْ شئتَ أخبرتُك ودللْتُك على ما هو أفضل من ذلك»؟

قال: «وما هو»؟

فقال: «إيمانٌ ملزومٌ بالليلِ والنَّهار ، ولا يزالُ لسانُكَ رطباً مِنْ ذكْرِ الله عزَّ وجلَّ»[1].

* وفي جولةٍ علميةٍ في بساتين الذّكْر ورياضها يقولُ أبو الدَّرداء لأصحابه منوّهاً ومنبّهاً لهذه الفضيلة: «ألا أخبرُكم بخيرِ أعمالكم وأحبِّها إلى مليككم ، وأنْماهَا في درجاتِكم ، خيرٌ منْ أنْ تغزوا عدوَّكم فيضربُوا رقابَكم وتضربوا رقابَهم خيرٌ من إعطاءِ الدَّراهم والدنانير»؟

قالوا: «وما هو يا أبا الدَّرداء»؟

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢١٩) بتصرف يسير.

قال: «ذِكْرُ الله ، وذكرُ الله أكبر»[1].

* إنَّ جزاءَ الذّاكرين اللهَ كثيراً والذّاكرات ؛ جنّة عرضُها الأرضُ والسَّموات، فطوبى لهم وحُسْن مآب، فقد داعبتِ الطمأنينةُ قلوبَهم ، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

* وفي مضمار الذِّكر يقولُ أبو الدَّرداء: «إنَّ الذين ألسنتهُم رطبة بذكْرِ الله عزَّ وجلَّ يدخلُ أحدهم الجنَّة وهو يضحكُ»[2].

* وكان سيّدنا أبو الدَّرداء يكثرُ من الوصَايا بالذّكرِ لمن سألَه ، ولمن عرفَه ، فقد ورد أنَّ رجُلاً أتاه فقال: «أوصني» فقال له: «اذكرِ الله عزَّ وجلَّ في السَّراء ، يذكركَ في الضَّرَّاء ، فإذا أشرفتَ على شيءٍ من الدّنيا ، فانظرْ إلى ماذا يصير»[3].

* وأبو الدَّرداء رضي الله عنه من الأوفياءِ لأصحابِه وأخلائِهِ ، يذكرهم في صلاتِه ويدعو لهم بظهرِ الغيبِ في كلّ يوم ، فعن أمِّ الدَّرداء قالت: «كان لأبي الدَّرداء ستون وثلاثُ مئة خليلٍ في الله ، يدعو لهم في الصلاة ، فقلتُ له في ذلك ، فقال: إنَّه ليس رجلٌ يدعو لأخيه في الغيب إلا وكَّلَ اللهُ به ملكَيْن يقولان: ولك بمثله؛ أفلا أرغب أنْ يدعو لي الملائكة[4]»؟

* وقد سئلتْ أمُّ الدَّرداء: ما كان أفضل عبادةِ أبي الدَّرداء؟ فقالت: «التفكُّرُ والاعتبار».

* وتنقلُ لنا أمُّ الدَّرداء حالةَ الذَّاكرِ القانتِ المتفكّرِ أبي الدَّرداء ، وقد قيل لها: «ما كان أكثرُ عملِ أبي الدَّرداء يا أمَّ الدَّرداء»؟

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢١٩).

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، وصفة الصَّفوة (١/ ٦٣٩).

(٣) صفة الصَّفوة (١/ ٦٢٩).

(٤) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ٤٠) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٥١).

فقالت: «نظر يوماً إلى ثورَيْن يخدَّان في الأرض مستقلَّيْن بعملِهما ، إذا عنتَ أحدهما ، فقام الآخرُ ، فقال أبو الدَّرداء: في هذا تفكُّر ، استقلاّ بعلمهما واجتمعا ، فلمّا عَنَتَ أحدُهما قامَ الآخر ، كذلك المتعاونان على ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ»[1].

* كان أبو الدَّرداء رضي الله عنه قد استقى غيرَ درسٍ من المعلِّم الكريم الصادق المصدوق محمَّد ﷺ فقد ذكرتِ المصادرُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد علَّم تلميذَه المقرئَ الحافظَ النَّجيبَ أبا الدَّراء أذكاراً يقولُها عقبَ كُلِّ صلاة.

* أخرج الإمام أحمد وغيره بسندٍ عن أمِّ الدَّرداء قالت: «نزلَ بأبي الدَّرداء رجلٌ فقال أبو الدَّرداء: مقيمٌ فَنُسْرِج ، أمْ ظاعِنٌ فَنَعْلف؟

قال: بل ظاعنٌ.

قال: فإنّي سأزوّدُك زاداً لو أجدُ ما هو أفضلُ منه لزوّدتُك ، أتيتُ رسول الله ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله ، ذهبَ الأغنياءَ بالدّنيا والآخرة ، نُصلّي ويصلُّون ، ونصومُ ويصومون ، ويتصدّقُون ولا نتصدّق.

قال: «ألا أدلُّك على شيءٍ إن أنتَ فعلتَه لم يسبقْكَ أحدٌ كان قبلك ، ولم يدركْكَ أحدٌ بعدك إلا مَنْ فعلِ الذي تفعل دُبُرَ كلّ صلاة ، ثلاثاً وثلاثين تسبيحة ، وثلاثاً وثلاثين تحميدةً ، وأربعاً وثلاثين تكبيرةً»[2].

كلماتٌ دردائيةٌ هادفةٌ:

* إذا كُنّا نستخرجُ من البحارِ اللؤلؤَ والمَرجان ، فإنَّنا نستخرجُ من كلام أبي الدَّرداء لؤلؤَ الألفاظِ ومرجانها ، لتتجمَّل بها النُّفوسَ والقلوبُ ، وتتحَّلىٰ بها الأفواهُ والأسماعُ ، وتلذ بها أعينُ القُرَّاءِ والمحبّين للصَّحابةِ الكرام رضي

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ٢٣).

(٢) المسند (٥/ ١٩٦) ، وللاستغفار مكانٌ واسعٌ في ديوان الذّكرِ عند أبي الدّرداء ، وكثيراً ما كان يقول: «طوبى لمن وجدَ في صحيفته نبذةً من الاستغفار» (حياة الصَّحابة ٣/ ٣١٧).

الله عنه وحشرنا في معيَّتهم ، فكلامُه همساتٌ لطيفاتٌ تداعبُ أوتارَ القُلوب وحناياها ، وتهذّبُ شوائبَ النُّفوس وخفَاياها ، فتَصِلُها بحبالِ المعارفِ والعُلوم ، بل إنَّ كلامَه حليةٌ للأولياء ، وزينةٌ للأصفياء ، وهديّةٌ للعُلماء ، وقدوةٌ للكُبراء ولمن أرادَ أنْ يَصِلَ إلى الحقِّ وإلى منابع الخير والنّقاء ، لما تحتويه من معانٍ:

مَعـانٍ كـالعُيـونِ مُلِئْـنَ سِحْـراً وألَفـاظٌ مُـورّدَةُ الخُـدودِ

* فقد استقى أبو الدَّرداء رضي الله عنه روحَ كلماتِه من حُلَىٰ القُرآن الكريم المختوم بالفصَاحةِ والبيانِ ، ومن جواهر الحديثِ النّبويّ الذي نطق به النبيُّ الكريم ﷺ ، لذلك جاءت كلماتُهُ ترويحٌ للقلوب المحبَّة للهِ ورسولِه ، وطبٌّ للنُّفوس المتعطّشة لمعرفةِ الحقِّ ، فأبو الدَّرداء رضي الله عنه طبيبٌ من أطباء الكَلِمِ الطَّيِّب يدركُ ببصيرته متى تكونُ الكلمةُ ناجعةً نافعةً مفيدةً.

* وما أجملَ أن نسوقَ كلام أبي نُعيم الأصفهاني ، إذ تحدَّث عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه وعن كلامِهِ الذي يرشحُ بالصَّفاءِ والنَّقاءِ ، ويقطرُ بالعلم والفائدة فقال: «وكان أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه حكيماً لبيباً ، ونحريراً طبيباً ، كلامهُ يكثرُ ، ومواعظه تغزُر ، حِكَمُهُ وعلومُهُ لذوي الأدواء شفاءُ ، وللمُتَجرّدين والمتحبّرين دِفاء ، كان إذا نظرَ سبرَ ، وإذا ذكرَ جَبَر ، لمفاخرِ الدنيا دافعٌ ، ولمراتبِ العُقبى جامعٌ»[1].

* وقال ابنُ قدامة: «كان أبو الدَّرداء فقيهاً ، عاقلاً ، حكيماً ، عالماً ، عاملاً»[2].

* وقد جمعَ سيدنا أبو الدَّرداء رضي الله عنه في أغصانِ الألفاظِ ثمارَ المعانِي ، فكلامُه تلذُّ به الأسماع ، وتطربُ له على السَّماع ، إذ تسمعُ وتقرأ من حِكَمِهِ عرائسَ الأبكار ، وحُوراً مقصوراتٍ في خيامِ الأفكار.

* وعندما شَرعْتُ أجمعُ طاقاتٍ من الكَلِمات الدَّردائية المنعِشَة ، ألفيتُها

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٢٥)، ومعنى «المتحبرين»: المتدثّرون بالحبر، وهو نوع من الثياب.
(٢) الاستبصار (ص ١٢٥).

جامعةً للمحاسن، وفيها ما يجلُو الأفهام، ويشيرُ إلى حصيلتهِ العِلْميّةِ الخصبة، التي جمعتْ مكارمَ الأخلاقِ والآدابِ الإسلاميّة، والتّجارب المفيدة المهمّةِ التي تعلمها من خلال حياتهِ العلميةِ التي قَضَاهَا في الأمصار:

معَـانٍ تطْـرِبُ الفُصَحَـاءُ حُسْنـاً وألفَـاظٌ مُهَـذَّبـةٌ عِـذَابُ
كَـزْهـرِ الـرَّوضِ بَـاكَـرَهُ نَسِيْـمٌ يُفَتِّـحُ منْـهُ مـا سَقَـتِ السَّحَـابُ

* فمن أزاهِرِ أقوالِه وكلماتِه في التَّرغيب بالعلْمِ، ما أخرجَ ابنُ عبد البرِّ في «جامعِهِ» عن حُميدٍ عن الحسنِ أن أبا الدَّرداء رضي الله عنه قال: «كُنْ عالماً أو متعلّماً أو محباً أو متَّبِعاً، ولا تكنِ الخامسَ فتهلَكَ».

قال: قلتُ للحسن: «وما الخامسُ»؟

قال: «المُبتَدِع»[1].

* والنَّاسُ في رأي سيّدنا أبي الدَّرداء رضي الله عنه رجُلان: عالمٌ، ومتعلمٌ، وأمَّا سواهما فلا خيرَ فيه، وفي هذا المعنى يقولُ رضي الله عنه: «العالمُ والمتعلِّمُ في الأجْرِ سواء، ولا خيرَ في سائرِ النَّاس بعدهم»[2].

* وقال: «لا خيرَ في الحياةِ الدُّنيا إلَّا لأَحَدِ رجُلَيْن مُنصتٍ واعٍ، أو متكلِّم عالمٍ»[3].

* ولله درُّ مَنْ قال:

العِلْمُ ينهضُ بالخَسيْسِ إلى العُلا والجَهْـلُ يقْعُـدُ بـالفَتَـىٰ المنسُـوبِ

* ومن جليل أقوالِه الماتعة في العِلْمِ: «لا تكونُ عالماً حتى تكونَ متعلِّماً، ولا تكونُ بالعلْمِ عالماً حتَّى تكونَ به عاملاً».

* وثـوابُ العلْـمِ والتَّعليـمِ يعـدلُ ثـوابَ الجهـادِ فـي رأي أبـي الـدَّرداء

---

(١) جامع بيان العلم (ص ٥٦ و٥٧) طبعة مصر الثانية عام (١٩٨٢ م).
(٢) جامعُ بَيان العِلْم (ص ٥٦)، وحلية الأولياء (١/ ٢١٣)، وحياة الصَّحابة (٣/ ١٦١)، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ٢٢).
(٣) مختصرُ تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ١٢).

رضي الله عنه ، لذا فإنّه كثيراً ما كان يقول: «ما من أحدٍ يغدو إلى المسجدِ لخيرٍ يتعلَّمه أو يعلِّمُه إلا كُتِبَ له أجرُ مجاهدٍ ، ولا ينقلب إلا غانماً»[1] .

* وكان يكثر من قوله: «مَنْ رأىٰ الغدو والرَّواح إلى العِلْمِ ليس بجهاد ، فقد نقصَ عقلُه ورأيُه»[2] .

* وكان للتَّفكُّر والتدبُّر نصيبٌ في أقوالِ أبي الدَّرداء رضي الله عنه ، فقد كان يرىٰ أنَّ التَّفكُّر عبادةٌ وأيَّ عبادة وكان يقولُ: «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ منْ قيامِ ليلة»[3] .

* ومن كلماتهِ السَّائرات في الوعظِ والإرشاد ومراقبةِ النَّفس قوله: «اعبدِ اللهَ كأنَّكَ تراه ، وعُدَّ نفسك في الموتى ، وإيَّاك ودعوة المظلوم ، واعلمْ أنَّ قليلاً يُغنيك خيرٌ من كثيرٍ يلهيك، وأنَّ البرَّ لا يُبلى ، وأنَّ الإثم لا يُنسى»[4] .

* وله في الأغنياءِ وأهل الدنيا قولٌ مأثورٌ مشهورٌ ، فيه العِظَةُ والحكمةُ والفقهُ والعلْمُ ، وفيه العلاجُ الصَّحيح للنُّفوسِ التي رانتْ عليها أوهامُ الباطِلِ والزّيفِ ، يقول أبو الدَّرداء: «أهلُ الأموالِ يأكلون ونأكلُ ، ويشربون ونشْرَب ، ويلبسون ونلبسُ ، ويركبون ونركبُ ، ولهم فضولُ أموالٍ ينظرون إليها ، وننظرُ إليها معهم ، وحسابُهم عليها ونحنُ منها بُرَآء» .

* وقال: «الحمدُ للهِ الذي جعلَ الأغنياء يتمنّون أنهم مثلنا عند الموت ، ولا نتمنَّى أنَّنا مثلُهم حينئذ ، ما أنصفَنا إخوانُنا الأغنياء: يحبّوننا على الدِّين ، ويعادوننا على الدُّنيا»[5] .

---

(١) حياة الصَّحابة (٣/ ١٦١).
(٢) المرجع السَّابق نفسه.
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٤٨).
(٤) المصدر السَّابق (٢/ ٣٥٠).
(٥) الاستبصارُ (ص ١٢٦) ، ومختصرُ تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ٣٣) ، وسيرُ أعلام النبلاء (٢/ ٣٥٠ و٣٥١).

* وفي الموت والإكثار من ذكره يقول: «مَنْ أكثر ذكْرَ الموتِ قلَّ فَرحهُ، وقلَّ حسَدُه»[1].

* ولأبي الدَّرداء رضي الله عنه حِكَمٌ مشهورةٌ سارتْ مسرى الأمثالِ ومنها وصْفُه الدُّنيا وعدمُ الاغترارِ بها، والرّكون إلى شهواتها وزخارِفها، قال ابن عبد البرِّ: «وله حكمٌ مأثورةٌ مشهورةٌ، وصَفَ الدُّنيا فأحْسَنَ».

* ومن الكلمات الدَّردائية النافعة في وصْفِ الدُّنيا وأحوالها ما ذكرهُ ابنُ قدامة عنه أنَّه قال: «الدُّنيا دارُ كَدرٍ ولن ينجوَ منها إلا أهلُ الحَذَر، ولله فيها علاماتٌ يسمعُها الجاهلون، ويعتبرُ بها العَالِمون، ومن علاماتها فيها أنْ حفَّها بالشُّبهات، وارتطم فيها أهلُ الشَّهوات ثمَّ أعقبَها بالآفات، فانتفعَ بذلك أهلُ العظات، ومزجَ حلالَها بالمؤذيات، وحرامَها بالتَّبعات، فالمُثْري فيها تَعِب، والمُقِلُّ فيها نَصب»[2].

* وقال: «من هوانِ الدُّنيا على اللهِ أنَّه لا يُعصىٰ إلا فيها، ولا يُنالُ ما عنده إلاَّ بتركها»[3].

* وقال: «مَن لم يكن غنيّاً عن الدُّنيا، فلا دُنيا له»[4].

* وقال: «الدُّنيا دارُ مَنْ لا دارَ له، ولها يجمعُ من لا عَقْلَ له»[5].

* وقال: «إنَّ لكم في هاتَيْن الدَّارين لعبْرَةٌ، تزورونَهم ولا يزورونَكُم، وتنتقلون إليهم، ولا ينتقلون إليكم يوشكُ أنْ يستفرغَ هذه ما في هذه».

* ولأبي الدَّرداء رضوان الله عليه أقوالٌ نفيسةٌ في الآدابِ العامَّةِ والأخلاق

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٥٣).
(٢) الاستبصارُ (ص ١٢٦).
(٣) بهجة المجالس (٢/ ٢٨١).
(٤) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ٢٩).
(٥) المصدر السابق (٢٠/ ٣٦). أقول: «هذه حقيقة، ولكنَّ معظمَ النّاس لا يدركونها، وكأنَّهم في غفلة عنها».

الكريمةِ ، ومنها ما جاءَ في حَمْدِ الصَّمْتِ وذمِّ المنطقِ قوله: «من فقْهِ الرَّجُل قلَّة كلامِه فيما لا يعنيه».

* وكأني بالشَّاعرِ العاقلِ قد استحلىٰ هذا المعنىٰ فاستجلاه في نظمه ، وصاغَ على شاكلته فقال:

وقُل الحقَّ وإلاَّ فاصْمُتَنْ ... إنَّه مَنْ لَزِمَ الصَّمْتَ سَلِمْ
إنَّ طُولَ الصَّمْتِ زَينٌ للفتى ... مِنْ مقالٍ فيهِ عيٌّ وبَكَمْ

* وقال صالحُ بن جناح الدِّمشقيّ الشَّاعر مقتفياً معاني كلمات أبي الدَّرداء:

أقْلِلْ كَلامَكَ واستعِذْ مِنْ شَرِّه ... إنَّ البلاءَ ببعضِهِ مَقْرونُ
واحفظْ لِسانَكَ واحتفظْ من غيِّهِ ... حتَّى يكونَ كأنَّه مَسْجُونُ

* ويرى أبو الدَّرداء رضي الله عنه أنَّ المرءَ يتعلّمُ الصَّمت كما يتعلَّمُ الكلام ، بل نجدهُ يحثُّ على تعلُّم الصَّمْتِ والحرصِ على السَّماع فيقول: «تعلَّموا الصَّمت كما يُتَعَلَّمُ الكلامُ ، فإنَّ الصَّمتَ حكمٌ عظيمٌ ، ولا تكنْ مِضحاكاً من غيرِ عجب ، ولا مشَّاءٍ إلى غير أرب»(١).

* ومن لطيفِ أخبارِ أبي الدَّرداء ومواعظه في هذا المجال ما ذكرهُ ابن أبي الدُّنيا قال: «رأى أبو الدَّرداء رضي الله عنه امرأةً سليطةَ اللِّسان ، فقال: لو كانت هذه خرساءُ ، كان خيراً لها»(٢).

* ومن بدائع أقوالِهِ التَّعليمية في الحضِّ على العملِ وذمِّ السّؤال قوله: «إنَّ أحدَكم يقولُ: اللهمَّ ارزقْني وقد عَلِمَ أنَّ الله لا يَخلقُ له ديناراً ، ولا درهماً ، وإنَّما يرزقُ بعضُكم من بعض ، فإذا أُعْطِي أحدُكم شيئاً فلْيَقْبلْه ، فإنْ كان غنياً فليضَعْهُ في أهلِ الحاجة من إخوانهِ ، وإن كان فقيراً

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ٣٣ و٣٤) ، وحياة الصحابة (٢/ ٦٣٢) ، ومعنى «الأرب»: الحاجة.
(٢) الصَّمت وحفظ اللسان (ص ٦٨ و٦٩) ، طبعة دار الاعتصام الأولى ١٩٨٦ م ، وانظر الزهد (ص ١٤١).

فليستعِنْ به على حاجتهِ ولا يردَّ على اللهِ رزقَه الذي رزقَه»[1].

* ومن بين ثنايا فرائدِ أقوالهِ وطاقات حِكمهِ، ينقلُ لنا أبو الدَّرداء رضي الله عنه هذه الحكمة من التَّوراة فيقول: «مكتوبٌ في التَّوراة: إنَّ أحْسدَ النَّاس لِعَالمٍ وأبغاهم عليه: قرابتُه وجيرانُه»[2].

* وفي التَّواضعِ والإنصاتِ وقولِ الحقّ، يقدِّمُ أبو الدَّرداء رضي الله عنه هذه الحكمة فيقول: «ليس الذي يقولُ الحقَّ ويفعله بأفضل من الذي يسمعُه فيقبله».

* ويدعو سيّدنا أبو الدَّرداء رضي الله عنه إلى المحافظةِ على الودّ وإلى حُسْنِ العُتْب إذ يبقىٰ الودُّ ما بقِيَ العتاب، فيقول: «معاتبةُ الأخ أهونُ منْ فقده، ومن لكَ بأخيك كُلّه فأَعْطِ أخاكَ وهَبْ له، ولا تطعْ فيه كاشِحاً فتكون مثله»[3].

* وقال في مدارة الإخوان: «إذا تغيَّرَ أخوكَ واعوجَّ فلا تتركْهُ، فإنَّ الأخَ يعوجُّ تارةً ويستقيمُ أخرىٰ».

* وكأنّي بأبي الدَّرداء رضي الله عنه يدعو إلى التماسِ العذر من الصَّديق الذي تبدرُ منه هفوة، فما أجملَ هذا! وما أحرى النّاس أنْ يتعاملوا بذلك!!

* وفي لفتةٍ طريفةٍ إلى العملِ والإخلاص فيه، يدعو أبو الدَّرداء إليه، لأنَّ مَنْ يعملُ يؤجرُ، فيقولُ: «اعملُوا ما شئتم أنْ تعملوا، فإنَّه لن يأجرَكم اللهُ حتى تعملُوا...».

* وقال: «لأن أكونَ أعلم أنَّ الله يقبلُ منّي عملاً، أحبّ إليَّ من أنْ يكون لي ملء الأرضِ ذهباً».

---

(١) بهجة المجالس (١/ ١٦٤).

(٢) بهجة المجالس (١/ ٤١٠) أقول: «وما أكثر هؤلاء في كل زمان ومكان!!. إذ إنَّ الحسدَ داءٌ علاجه عسير، وبلاؤه خطير، ودواؤه غير يسير، نعوذ بالله من الحسدِ والحسّاد».

(٣) بهجة المجالس (١/ ٧٠٤) ومعنى «الكاشح»: الذي يضمرُ لكَ العداوة، يقال: كشح له بالعداوة؛ من باب قطع، وانظر: البصائر والذخائر (٧/ ٢٢١)، والعقد الفريد (٢/ ٢١٠).

* ويقولُ في الحثِّ على الطَّاعةِ وفضائِلها والابتعادِ عن المعصية ونتائجها: «إنَّ العبدَ إذا عملَ بطاعةِ اللهِ أحبَّه الله ، فإذا أحبَّه اللهُ حبَّبهُ إلى عبادهِ ، وإنَّ العبدَ إذا عملَ بمعصيةِ الله أبغضَهُ اللهُ ، فإذا أبغضَه اللهُ ، بغَّضَه إلى عبادِهِ»[1] .

* وفي احترامِ الأخيار ومحبَّتهم ومعرفة قَدْرهم يقولُ: «لنْ تزالُوا بخير ما أحببتُم خياركم ، وما قيل فيكم بالحقّ فعرفتموه ، فإنَّ عارفَ الحقّ كعاملِهِ» .

* وفي الآداب العامّةِ يقولُ: «ثلاثٌ منْ مِلاكِ أمْركَ بابن آدم: لا تَشْكُ مصيبتَك ، ولا تحدّثْ بوجعِكَ ، ولا تزكّي نفسَك بلسانِكَ»[2] .

* وقال أيضاً في النُّصح والإرشاد: «لولا ثلاثُ خلالٍ لصلحَ أمْرُ النَّاسِ: شحٌّ مُطاع ، وهوىً متّبع ، وإعجابُ المرءِ بنفسه ، من رُزِقَ قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكِراً ، وزوجةً مؤمنةً ، فنعم الخير أُوتيهِ ، ولن يتركَ من الخير شيئاً؛ من يكثر الدّعاء عند الرخاء يُستجابُ له عند البلاء ، ومن يكثرُ قرعَ البابِ يفتح له» .

* وقال: «ذروةُ الإيمانِ أربعُ خصَال: الصَّبرُ في الحكمِ ، والرِّضا بالقدرِ ، والإخلاصِ بالتوكُّلِ ، والاستسلام للرّبّ جلَّ ثناؤه» .

* ومن الفوائدِ المجموعة منْ كلماته الماتعة قوله الذي يشيرُ إلى علمهِ وفقهه: «من فِقْه الرَّجُل رِفْقُه في معيشته ، ومن فقْهِ المرء أنْ يَعْلَمَ أمزْدادٌ هو أو منتقصٌ ، ومن فقْه الرَّجل أن يتعاهدَ إيمانه وما يغيَّر منه ، ومن فقْه المرءِ أنْ يعلمَ نَزَعات الشَّيطان أن تأتيه ، ومن فقْه المرءِ أن تسرَّه حسنتُه ، وتسوءَهُ سيئته»[3] .

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ٢١).
(٢) المصدر السابق (٢٠/ ٢٧).
(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ٣٥).

* وفي الاستعاذة من النِّفاق والتَّحذيرِ منه يقولُ: «استعيذوا بالله من خشوعِ النّفاق».

قيل: وما خشوعُ النِّفاق؟

قال: «أنْ ترى الجسدَ خاشعاً، والقلب ليس بخاشع».

اللهمّ إنَّا نستعيذُ بك من خشوعِ النِّفاق...

مِنْ دَعَاء أبي الدَّرداءِ:

* أُثرتْ عن سيّدنا أبي الدَّرداء رضي الله عنه أدعية كثيرةٌ، استوعبتها المصادرُ التي حفلتْ بهِ، ولأهميَّةِ الدعاءِ حاولتُ أن أوردَ بعض ما كان يدعو به هذا الصَّحابيُ العالمُ، فقد كان يرفعُ صوته إلى الله داعياً لأي أمرٍ كان، وفي أيّ وقتٍ.

* وقد كان الحبيبُ المُصطفى ﷺ يعلّمُ أصحابه آدابَ الدُّعاء وأسلوبَه وطريقتَهَ، وأهمّ الأوقاتِ التي يُستجاب فيها.

* وكان أبو الدَّرداء رضي الله عنه رضي الله عنه يقفو أثرَ النَّبيِّ الكريم ﷺ في الدُّعاء وآدابه، ومن الأدعيةِ الجميلةِ التي كان يكثرُ منها أبو الدَّرداء قوله: «اللهمّ توفَّني مع الأبرار، ولا تبقِني مع الأشرار»(١).

* وعن بلالِ بن سعد قال: كان أبو الدَّرداء رضي الله عنه يقول: «اللهمّ إنِّي أعوذُ بكَ من تفرقة القلب».

قيل: وما تفرقةُ القلب؟

قال: «أن يوضعَ لي في كلِّ وادٍ مال»(٢).

* وكان أبو الدَّرداء رضي الله عنه يحبُّ الدُّعاء من الصَّالحين ومن المصلِّين السَّاجدين، ويعلِّمه أصحابَه، من ذلك ما وردَ عن عبدِ الله بن يزيد

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٢٠).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٢١٩).

ابن ربيعة الدِّمشقيّ قال: قال أبو الدَّرداء: «أدلجتُ ذات ليلةٍ إلى المسجد، فلما دخلتُ مررتُ على رجلٍ ساجدٍ وهو يقول: اللهم إنّي خائفٌ مستجيرٌ فأجرني من عذابك، وسائلٌ فقيرٌ فارزُقني من فضْلِك، لا مذنبُ فأعتذر، ولا ذو قوّةٍ فأنتصر، ولكنْ مذنبٌ مستغفر» قال: فأصبحَ أبو الدَّرداء يُعلّمهنَّ أصحابَه إعجاباً، بهنّ[1].

منْ لطائفِ المواعظِ الدَّردائية:

* كلُّنا يعرفُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان هو وأصحابه يعِظُون ويتّعظُون، ويصرفُون نظرهم وقلوبَهم عن ظواهرِ الدّنيا وزخرفها، ويرنُون بأبصارِهم وبصائِرهم إلى الآخرةِ ونعيمها، وكانوا يحذّرون الله تحذيراً تذرفُ به العيون، وتَؤْجَلُ به القُلوب.

* وكان أبو الدَّرداء رضي الله عنه من عُلماء الصَّحابة الزَّاهدين العالمين بأنّ كلَّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ، فكان يلهجُ لسانه وقلبه بذكرِ الله دائماً، وكانت تصدرُ عنه مواعظُ جليلة لو كُتبتْ بماء الذّهب لكان قليلاً.

* وها نحنُ أولاء نقتبسُ من سَنَا مواعظه ما نضيءُ به قلوبنا ونفوسنا، من ذلك هذه الموعظة الجامعة النّافعة التي يقولُ من خلالها: «يا معشرَ أهلِ الأموال! برِّدوا على جلودكم من أموالكم قبلَ أن نكونَ وإياكم فيها سواء، ليس إلاّ أنْ تنظرُوا فيها وننظرَ فيها معكم، وإنّي أخافُ عليكم شهوةً خفيةً في نعمةٍ ملهية، وذلك حين تشبعون في الطَّعام، وتجوعون من العلم، إنَّ خيرَكم الذي يقولُ لصاحبه: اذهبْ بنا نصومُ قبل أنْ نموتَ، وإنَّ شرارَكم الذي يقولُ لصاحبه: اذهبْ بنا نأكلُ ونشربُ ونلهو قبل أنْ نموتَ»[2].

* ومرَّ أبو الدَّرداء رضي الله عنه على قومٍ وهم يبنون، فقال: «تجدِّدون الدُّنيا واللهُ يريدُ خرابها، والله غالبٌ على ما أراد...».

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٢٤)، وارجعْ إلى مصادر ترجمته تجدْ ما يسرّ القلب والنفس في هذا المضمار.

(٢) حلية الأولياء (١/ ٢١٨).

* وله موعظةٌ موقظةٌ مؤثّرةٌ في الموتِ فقد كان إذا رأىٰ جنازةً قال: «أغدوا فإنَّا رائحون ، أو روحوا فإنَّا غادون ، موعظةٌ بليغةٌ ، وغفلةٌ سريعةٌ ، كفى بالموتِ واعظاً ، يذهبُ الأوّل فالأوَّلُ ، ويبقى الآخرُ لا حلم له»[1].

* ومن لطيفِ مواعظه ونصائحه الهادية قولُه: «التمسوا الخيرَ دهرَكم كلّه ، وتعرّضُوا لنفحاتِ رحمةِ الله ، فإنَّ لله نفحاتٍ من رحمته ، يصيبُ بها مَنْ يشاءُ من عبادِه ، وسلُوا الله أنْ يسترَ عوراتِكم ويؤمّنُ روعاتِكم»[2].

* وقال يحذّر من دعوة المظلوم واليتيم: «إيَّاكم ودعوةَ المظلوم ، ودعوةَ اليتيم ، فإنَّهما تسريان بالليلِ والنَّـاسُ نيام».

* ومواعظُ أبي الدَّرداء رضي الله عنه تملأُ الصَّفحات ، وقد استوفى أبو نُعيم بعضَها في حليتهِ فمن أراد المزيدَ فليرجع إلى كتاب: «حلية الأولياء».

تزويجُ أبي الدَّرْدَاءِ ابنتَه:

* ما كنتُ أريدُ أنْ أكتبَ هذه الفقرة لولا أنّي وجدتُ كثيراً من المصادر والمراجع تذكرُها وتوردُها بشيءٍ من الإعجابِ ، على الرّغم من أنّها أكذوبةٌ بلهاءُ خرقاءُ كما سنرى ، ولكنْ من حقّ العِلْم علينا أنْ نبيّن زيفَها وعيبَها.

* والقصَّة تتحدّثُ عن تزويج أبي الدَّرداء ابنته الدَّرداء برجلٍ من ضعفاء المسلمين ، بعد أنْ ردَّ يزيدَ بنَ معاوية وأبى أنْ يزوّجَه الدَّرداء. . .

* والآن دعونا نقرأُ القصَّة كما جاءتْ في «الحلية» وفي عددٍ من المصادر الأخرى. . . .

* أخرجَ أبو نُعيم في «الحليةِ» عن ثابت البُناني قال: «خطبَ يزيدُ بنُ معاوية إلى أبي الدَّرداء رضي الله عنه ابنته الدَّرداء ، فردَّه ، فقال رجلٌ منْ جُلساءِ يزيد: أصلحكَ اللهُ! تأذنُ لي أنْ أتزوَّجَها؟

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢١٧).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٢٢١).

قال: اغْرُب ويلكَ!

قال: فائذن لي أصلحكَ الله!

قال: نعم!

قال: فخطبَها، فأنكَحها أبو الدَّرداء الرَّجل.

قال: فسار ذلك في النَّاس أنَّ يزيدَ خطب إلى أبي الدَّرداء فردَّه، وخطبَ إليه رجُل من ضُعفاءِ المُسلمين فأنكحه.

فقال أبو الدَّرداء: إنِّي نظرتُ للدَّرداء، ما ظنَّكم بالدَّرداء إذا قامت على رأسِها الخِصيان؟!! ونظرتْ في بيوتٍ يلتمعُ فيها بصرها، أين دِيْنها منها يومئذ»[1]؟!

* هـذه هي القصَّة حرفيّاً، وللوهْلة الأولى يظهرُ لنا زُهـدُ أبي الدَّرداء رضي الله عنه وورعُهُ ومحبَّتُه لابنته كي تظلّ زاهدة مثله... وهذا لا شيء فيه.

* بيد أنَّ المصيبةَ التي تكمنُ خلفَ السُّطور هي خطبةُ يزيد بن معاوية للدَّرداء.. ومن المتعارف عليه لدى أهل السير والتَّـراجم أنَّ أبا الدَّرداء قد توفي سنة (٣٢ هـ) وأنَّ يزيدَ بن معاوية قد وُلد سنة (٢٦ هـ)، فهل خطبَ يزيدُ الدَّرداء وعمره ستّ سنوات عدَداً، أمْ هل كان له جُلساء في تلك السِّنّ المبكَّرة؟! بل أين كان يزيد في تلكم السّن المبكّرة، وهل عاشَ في دمشق آنذاك؟!

* ومن بدهيات التَّاريخ النّسويّ المتعارف عليه أنَّ أمَّ يزيد هي ميسونُ بنتُ بحدل الكلبيَّة[2] وهي امرأةٌ بدويةٌ تزوَّجها سيِّدنا معاوية وهو أميرُ الشَّام، غير أنَّها لم تستطعْ أنْ تحتملَ حياةَ التَّمَدْيُنِ والمَدَنِيَّةِ والمُدن، فردَّهَا

(١) انظر: حلية الأولياء (١/ ٢١٥)، وصفة الصَّفوة (١/ ٢٦٠)، وشرح حياة الصحابة (٣/ ٢٣٠)، وغيرها كثير من مثل كتاب الزهد للإمام أحمد حيث ألصقت فيه.

(٢) اقرأ سيرة ميسون بنت بحدل الكلبية في كتابنا الشهير «نساء في قصور الأمراء»، (ص ٥٢٣ _ ٥٤٦) فسيرتها إمتاع للأسماع، وفيها تصحيح لبعض المفاهيم المغلوطة.

إلى أهلِها في الباديةِ ، فأخذتْ معها ابنها يزيدَ بنَ معاوية ، فنشَأ في الباديةِ نشأةَ البدو ، فشبَّ فصيحاً كريماً شاعراً لَسِناً ، حتى إنَّ بعضَ علماء الأدب قال : «بُدىء الشِّعرُ بملكٍ ، وخُتِمَ بملكٍ . . .» .

يقصدون امرأ القيس بن حُجر الكندي ، ويزيدَ بن معاوية الأمويّ .

* إذاً ، متى خطبَ يزيدُ الدَّرداء؟! وهل يخطبُ الإنسان وعمره ستُّ سنوات؟! وهل تركَ الباديةَ وهو صغيرٌ ، ومن ثَمَّ جاء ليخطبَ ابنة أبي الدرداء؟! إنَّ هذا لشيءٌ عجيب؟!

* إنَّ هذا القصّة كما رأينا قصَّةٌ عرجاءَ حولاءَ شوهاءَ رسحاءَ خرساءَ عوراءَ برصاء خرقاء عجفاء ، ولا ندري لماذا أُغرمَ الوضّاعون وصائغو القصصِ وصانعو الأخبار بوضعِ مثل هذه القصص عن كبراء القوم وعليةِ النَّاس؟! نسأل الله أنْ يلهمَنا الصَّواب والسَّداد في القولِ والعمل .

﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ :

* قال اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ [الرعد : ٢٨ ـ ٢٩] .

* سيِّدنا أبو الدَّرداء رضي الله عنه ممن قطعَ حياته وأيَّامه بذكْرِ الله عزَّ وجلَّ ، وآمن وعملَ صالحاً ، وسار على الطريق التي توصله إلى مرضاة الله عزَّ وجلَّ ، فلقد عاشَ للعلْمِ والتَّعليم ، والذِّكر والتّذكير ، وجاهدَ في سبيلِ الله ، واستقرَّ به المُقام في دمشقَ الشَّام يعظُ أهلَها ويعلِّمهم الكتاب ، وينشرُ بينهم الحكمةَ ، ويذكرهم بأمورِ دينهم .

* تذكرُ المصادرُ أنَّ أبا الدَّرداء قد سكنَ دمشق وسْط الشَّام ، وكانت دارُه

في بابِ البريد[1] ، ثمَّ صارتْ دارهُ في دولةِ السُّلطان صلاح الدِّين تُعرفُ بدار الغزي[2] .

* عاش أبو الدَّرداء شطْر الخلافةِ الرَّاشدة ، وكان موفورَ الهيبةِ ، مرعيَ الجانب ، إماماً من زهاد الصَّحابة المُعرضين عن الدنيا ، وقد ولي القضاء بدمشق ، ولاّه ذلك عمرُ رضي الله عنهما .

* وفي خلافةِ سيِّدنا عثمانَ بن عفَّان رضي الله عنه مرضَ أبو الدَّرداء ، وشعرَ بدنو الأجل وقربِ اللقاء مع الأحبَّةِ محمّد ﷺ وصحبه ، وكان في شوقٍ شديد إلى هذا اللقاء عند المليك المقتدر .

* قال : معاويةُ بن قـرّةُ : «اشتكى أبو الدَّرداء ، فدخلَ عليهِ أصحابُـه ، فقالوا له : يا أبا الدَّرداء ما تشتكي؟

قال : أشتكي ذنوبي .

قالوا : فما تشتهي؟

قال : أشتهي الجنَّـةَ .

قالوا : أفلا ندعو لك طبيباً؟

* قال : هو الذي أضجعني»[3] .

* وحدَّثَتْ أمُّ الدَّرداء أنَّ أبا الدَّرداء لمَّا احتُضر جعلَ يقول : «مَنْ يعملُ لمثلِ يومي هذا؟ مَنْ يعملُ لمثل ساعتي هذه؟ من يعملُ لمثل مضجعي هذا؟ ثمَّ يقول : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام : ١١٠]»[4] .

---

(١) باب البريد : اسمٌ لأحد أبواب جامع دمشقَ من جهةِ الغرب ، به سمِّيت محلّة باب البريد ، وهي من أنزه المواضع قديماً ، وباب البريد الآن معروفٌ بدمشق ، وأكثره أسواق تجارية وقد ورد اسم باب البريد في شعر جماعة من الصّوفية وغيرهم .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٣٦) .

(٣) صفة الصفوة (١/ ٦٤١) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ٤٢) نقلاً عن الحلية .

(٤) صفة الصَّفوة (١/ ٦٤٢) نقلاً عن الحلية .

* ولمَّا مرض أبو الدَّرداء رضي الله عنه عاده أبو أويس الخولاني ـ واسمه عائذُ بنُ عبيدُ الله ـ فجعل يقول: «اللهُ أكبرُ ، الله أكبر» فرفعَ أبو الدَّرداء رأسَه فقال: «إنَّ اللهَ إذا قضى قضاءً أحبَّ أن نرضى به. . ألا رجلٌ يعمل لمثل مَصْرعي هذا؟ ألا رجلٌ يعملُ لمثل ساعتي هذه»؟ ثمَّ قضى رضي الله عنه[1].

* وعندما نزلَ الموتُ به ، دعا أمَّ الدَّرداء إليه وبكىٰ ، وقال: «يا أمَّ الدَّرداء ، قد ترين ما نزل بي من الموتِ؟! إنَّه واللهِ قد نزل بي أمرٌ لم ينزلْ بي قطّ أمرٌ أشدَّ منه! فإنْ كان لي عند اللهِ خيرٌ فهو أهون ما بعده ، وإن تكن الأخرى ، فواللهِ ما هو فيها بعده إلا كَحِلاَبِ ناقة»؛ ثم بكى وقال: «يا أمَّ الدَّرداء اعملي لمثلِ مصرعي هذا ، يا أمَّ الدَّرداء اعملي لمثلِ ساعتي هذه» ثمَّ دعا ابنه بلالاً فقال: «ويحك يا بلال اعملْ لساعةِ الموت ، اعمل لمثل مصرعِ أبيك ، واذكرْ به صرعتَك وساعتَك»[2].

* وبعد أن أوصى أبو الدَّرداء رضي الله عنه زوجَه وابنه بالعمل لساعةِ الموت ، لم يلبثْ إلا يسيراً حتى صَعِدَتْ روحُه إلى بارئها وهو يرددُ: لا إله إلاّ الله[2]. . .

* مات أبو الدَّرداء في دمشق الشَّام سنة (٣٢ هـ) وذلك في خلافةِ عثمان رضي الله عنه وله عقب بالشَّام[3].

* وقد دُفنَ أبو الدَّرداء رضي الله عنه في مقبرة باب الصَّغير[4] وقبره معروف يُزار[5] ودُفن إلى جواره زوجته التَّابعية الجليلة أمَّ الدَّرداء

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ٤٢ و٤٣).
(٢) صفة الصفوة (١/ ٦٤٢) ، وأسد الغابة (٤/ ١٩).
(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩٣) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ٤٣).
(٤) مقبرة باب الصَّغير: قال ابن الحوراني رحمه الله: «اعلم أنَّ بمقبرة باب الصَّغير من الصَّحابة والتَّابعين والعُلماء العاملين الأوَّلين الصَّالحين خلقاً كثيراً لا يُحصىٰ عددهم». (الإشارات ص ٤٣).
(٥) الإشارات إلى أماكن الزيارات (ص ٤٥ و٤٦).

الصُّغرى[1] إحدى عالمات عصر التَّابعين.

* ويوجدُ في قلعةِ دمشق ـ في الجانب الشّمالي منها ـ مسجد أبي الدَّرداء[2] وهو معروف يُزار.

* جاء في كتاب «ثِمار المقَاصد في ذِكْرِ المسَاجد»[3] وذيْلِهِ وصفٌ كافٍ لمسجدِ سيِّدنا أبي الدَّرداء رضي الله عنه، حيث قال: «وفي القلعةِ ـ أي قلعةِ دمشق ـ مسجدٌ يُقالُ له: مقام أبي الدَّرداء».

* ووصفَ المسجدَ الدَّردائيَّ فقال: «مسجدُ أبي الدَّرداء رضي الله عنه مسجدٌ يُنْزَلُ إليه بستّ درجات، وهو مؤلّفٌ من قبّةٍ صغيرة فيها أربعُ كُوى، تقومُ على أربعِ أقبيةٍ متينةِ البنيان جداً، وفي الجهة الشّمالية ثلاثةُ شَبابيك تطلُّ على نهر بانياس؛ وفي الزَّاوية الشّمالية الشَّرقيةِ ضريح الصَّحابي أبي الدَّرداء رضي الله عنه، وقد أقيم حول جهات الضَّريح الجنوبية والشَّرقية والغربية بناءٌ ارتفاعُهُ مترٌ من الحجر الأصفر، وله إطاراتٌ ضمْنَها رخامات، وقد كُتبتْ عليها أشعارٌ في الثَّناء على أبي الدَّرداء، وممَّا كُتِبَ على الرّخامة الغربية:

عــمَّ رضــوانُ إلهــي بقعــةً ... بـأبـي الـدَّرداء قـد أضحـىٰ مقَـامْ
الصَّحــابــيُّ جَليــلُ القَــدْرِ مَــنْ ... هـو فـي الصَّحْـبِ عظيـمُ الاحتـرامْ
كان في الزُّهد مع التَّقوىٰ على ... منهـجِ المختـارِ صَـومـاً وقيـامْ

وبجانبِ بابِهِ رخامةٌ كُتِبَ عليها ما مفاده بأن السيد أحمد الجراح عَمَّرَ

---

(١) اقرأ سيرتها بتوسّع في كتابنا «نساء من عَصْر التابعين» (ص ٢٢٨ ـ ٢٤٢)، حيث سيرتها إمتاع للأسماع.

(٢) قال ابن سعد: «كان أبو الدرداء من علية أصحاب رسول الله ﷺ وأهل النّية منهم، وقد حدث عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة، وشهد معه مشاهد كثيرة» (طبقات ابن سعد ٧/ ٣٩٢).

(٣) انظر: ثمار المقاصد في ذكر المساجد، ليوسف بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي (ص ٩٧ و١٩٠) بشيء من التصرف والاختصار ـ تحقيق محمد أسعد طلس ـ المعهد الإفرنسي بدمشق ـ مجموعة النصوص الشرقية ـ الجزء الثالث ـ طبعة بيروت ـ ١٩٤٣ م.

هناك سبيلاً سنة (١١٤٣ هـ) ، ويظهر أنَّ هذا السَّيد المدعو أحمد الجرَّاح هو الذي وضَعَ الرّخام على القبر ، وكتبَ عليه الشِّعْر . . . » .

* وذكرَ الحافظُ ابنُ كثير رحمه الله في «البداية والنّهاية» في ترجمة الأشرف موسى بن العادل الأيوبيّ المتوفى سنة (٦٣٥ هـ) أنَّه : «لمّا مَلَك دمشق في سنة (٦٢٦ هـ) نادى مناديه فيها : ألاَّ يشتغلَ أحدٌ من الفُقَهاء بشيءٍ من العُلُوم سوى التفسير والحديثِ والفقْهِ؛ ومَنِ اشتغلَ بالمنطقِ وعلومِ الأوائل نُفي من البلد ، وكانَ البلدُ بهِ في غايةِ الأمْنِ والعدلِ ، وكثرةِ الصَّدقاتِ والخيراتِ . . . وكان أكثرُ جلوسه بمسجدِ أبي الدَّرداء رضي الله عنه ، الذي جدَّدَهُ وزَخْرَفَهُ بالقَلْعةِ . . . »[١] .

* رضي اللهُ عن سيِّدنا الزَّاهدِ العالِم أبي الدَّرداء ، فقد كان بِحقٍّ مِنَ الذين يشْفُون من الدَّاء ، وحَشَرنا في معيَّتِهِ وأدخَلنا برحمتِهِ في عباده الصَّالحين الأتقياء ، إنَّه سميعٌ قريبٌ مجيبُ الدُّعاء .

* * *

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير (١٣/١٤٨) باختصار يسير .




تميم بن أوس الدَّاري

* كان عابداً مجتهداً تلاّءً لكتاب الله عزَّ وجلَّ ليل نهار.
* كان هو وأُبيّ بن كعب يؤمّان النَّاس في شهر رمضان.
* من علماء الصَّحابة الحفَّاظ للقرآن في عهد الإسلام الأوَّل.
* له منقبة شريفة إذ إنَّ النَّبيَّ ﷺ روى عنه قصَّة الجسَّاسة.
* له أحاديث مشهورة وتوفي سنة (٤٠ هـ) وفضائله ومناقبه جمّة.




تَميمُ بنُ أوسٍ الدَّاريّ

المجْتَهِدُ القَارِىء الحافظ:

* هذا الرَّجُلُ صاحبُ رسولِ اللهِ ﷺ وهو لخميٌّ فلسطينيٌّ عربيٌّ من صميمهم وعُلْيا قبائِلهم.

* وَفَدَ مع قومهِ وأقربائهِ إلى المدينةِ المنوَّرةِ ، فأسلمَ ، فحدَّثَ عنه النَّبيُّ ﷺ على المنْبرِ بقصَّةِ الجسَّاسة في أمْر الدَّجَّال.

* كان من أهلِ الشَّام يتعاطى التِّجارةَ في الجاهليةِ ، وكان يهدي للنّبيّ ﷺ فيقبل منه ، وثَبَتَ أنَّه أهداه فَرساً يُقَال له «الوَرْد».

* له عدّةُ أحاديثَ ، وكان عابداً مجتهداً ، تلاّءً لكتاب اللهِ آناءَ الليل وأطرافَ النَّهار.

* كان من أفاضلِ الصَّحابةِ ، وله مناقبُ جليلةٌ من أرفعِها وأجلّها أنَّ النَّبيَّ ﷺ حدَّثَ أصحابه عنه ، وتُعَدُّ هذه المنقبةُ من باب: رواية الأكابرِ عن الأصاغر ، أو: رواية الفاضلِ عن المفضول ، ورواية المتبوع عن تابعه ، فأكرمْ بهم جميعاً! وأعظمْ!

* كان نَصْرانيّاً فأسلمَ سنَةَ تِسْع هجرية ، وقصَّةُ إسلامهِ طريفةٌ مشهورةٌ في المَصَادر.

* كان أحد الأئمة الثلاثة الذين كانوا يؤمّون المسلمين في صلاة التّراويح في الخلافة العمريَّة الرَّاشدة.

* كان هو وأبيُّ بنُ كعْبٍ يقُومان في مَقام النَّبيّ ﷺ يُصلّيان بالرِّجال قيامَ رمضان.

* لهذا الصَّحابيِّ العَالِم كَرامَاتٌ مشهورةٌ، حتّى إنَّ عمرَ قال عنه في واحدةٍ من هذه الكرامَات: «ليس مَنْ رأىٰ، كَمنْ لم يرَ»!!

* هو راوي الحديث المشهور «الدِّينُ النَّصيحةُ» وهو حديثٌ عظيمُ الشَّأْن عليه مدارُ الإسلام، وليس لهذا الصَّحابي في الصَّحيحَيْن غير هذا الحديث، وهو في مُسْلِم.

* هذا الصَّحابي هو أوّلُ مَنْ أسْرَجَ السّراجَ في المسَاجد، وأوّلُ مَنْ قَصَّ في المسَاجد في عَهْدِ عمرَ، بإذنٍ عُمَري فاروقيّ، فقصَّ قائماً.

* هذا الصَّحابي العابد المجتهد هو تميمٌ بنُ أوسٍ الدَّاريّ[1]، أبو رُقيَّة، اللخميّ الفلسطينيّ، صاحبُ سيّدنا رسولِ اللهِ ﷺ، وأحدُ عُلماء الصَّحابة الذين جمعُوا القُرآنَ على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ أو جمعوه بُعَيْدَ وفاتِهِ، وكان يختمهُ في سَبْعِ ليال.

* وقد تبارىٰ كثيرٌ من العُلماءِ والأدباءِ في نَظْمِ أسماءِ الصَّحابةِ الذين حفظُوا القُرآنَ العظيمَ في زَمَانِ الصَّادق المصدوقِ ﷺ، ومنهم عليُّ بنُ محمد بن خليل الخَزْرجيّ، فقد نَظَمَ أسماءَ مَنْ حفِظَ القرآنَ ومنهم سيّدنا تميم الدّاري فقال:

وَحـافِـظُ القُـرآنِ بـالغُيُـوبِ   زَيْـدٌ أبـو زَيْـدٍ أبـو أَيُّـوب
عُثمـانُ منهـم وتميـمُ الـدَّاري   عُبَـادَة مَعـاذٌ الأنصـاري

وقال:

---

(١) أسد الغابة (١/٢٥٦ و٢٥٧) ترجمة رقم (٥١٥)، ومحاسن الوسائل في معرفة الأوائل (ص ١١٤)، وسير أعلام النبلاء (٢/٤٤٢ ـ ٤٤٨)، ومشاهير علماء الأمصار (ص ٨٩) ترجمة رقم (٣٥٣)، والإصابة (١/١٨٦)، والاستيعاب (١/١٨٦ و١٨٧)، ومعجم الطبراني الكبير (٢/٤٩ ـ ٥٩)، ومختصر تاريخ دمشق (٥/٣٠٧ ـ ٣٢٣)، ومجمع الزوائد (٩/٣٩٢)، والمعارف (ص ١٠٢ و١٦٨) وغيرها كثير.

وجَامعُ القُرآن في عَصْرِ النَّبيِّ زَيدٌ أبو زيد معاذٌ وأُبَي
عثمانُ منهم وتميمُ الدَّاري عُبادةُ بنُ الصَّامتِ الأنصاري[1]

وقال محمّد بنُ محمد بن صلاح الدّين بن داود المقدسيّ مُقيّداً أسماءهم:

لَقدْ حَفظَ القرآنَ عَهْدَ نبيّنا ثمانيةٌ عن سِيرةِ الحقِّ ما مَانُوا
أُبيٌّ أبو الدَّردَا معاذٌ عبادةٌ تميمٌ أبو زيدٍ وزيدُ وعثمانُ[2]

* وممّا لا ريب فيه أنَّ سيّدنا تميماً الدَّاريَّ رضي الله عنه عُدَّ من جمّاع القُرآن الكريم، ومن حُفَّاظهِ، بل وقُرَّائه المشهورين، وهذا ما ذكرَهُ ابنِ سيْرين قال: «جَمعَ القرآنَ على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ: أبيٌّ، وعثمانُ، وزيدٌ، وتميمٌ الدّاري»[3].

* يُضاف إلى ذلك أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد حَبَا تميماً صوتاً شَجيّاً في قراءةِ القرآن تهفو له القُلوب، وتنشطُ مِنْ جمالهِ النُّفوس، وتتأثّر به الألبابُ، فقد جاء عن أبي بكر بن محمّد بن حزم الأنصاريّ المتوفىٰ سنة (١١٧ هـ) وهو تابعي جليلٌ قال: «زارتْنَا عمرةُ بنتُ عبد الرحمن[4] ـ عمَّتِي ـ، فباتَتْ

---

(١) خلاصة الأثر (٣/ ١٨٤)، وقد عدّ الشاعر منهم سبعة.
(٢) لطف السَّمر (١/ ٢٠)، أقول: «عدّ الشاعر منهم ثمانية، والحقيقة هم أكثر من ذلك بكثير جداً».
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣١٩)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤٥) نقلاً عن ابن سعد (٢/ ٣٥٥) ورجاله ثقات.
(٤) عمرةُ بنتُ عبد الرحمن بن سعد الأنصاريّة النّجاريّة الفقيهة، وجدُّها سعدٌ من قدماءِ الصَّحابة، نشأَتْ عمرةُ وتربّتْ في حِجْرِ أمّنا أمّ المؤمنين عائشةَ بنتِ سيّدنا أبي بكر الصّديق رضي الله عنهما، وكانت عمرةُ حافظةً حجةً ثقةً، وتلميذةً للسّيدة عائشة من نجيباتِ العالمات، وروت عن عددٍ من نساء الصَّحابة منهنّ: أمّ سلمة أمّ المؤمنين، وأمّ هشام بنت حارثة، وحبيبةُ بنت سَهْل، وغيرهنّ. قال عنها عمر بن عبد العزيز رحمة الله: «ما بقيَ أحدٌ أعلم بحديثِ عائشة من عمرةَ بنتِ عبد الرحمن»، وكان يسألُها ويستفتيها. وأخبارها كثيرةٌ، وهي عمّة التّابعي الجليل أبي بكر بن محمّد بن حزم. توفيت عمرة سنة (٩٨هـ)، وقيل (١٠٦ أو ١٠٣). (نساء من عصر التابعين =

عندنا ، فقمتُ من الليلِ ، فلمْ أَرفَعْ صوتي بالقُرآن ، فقالت: يا بنَ أخي ، ما منعك أنْ ترفعَ صوتَكَ بالقراءةِ؟! فإنّنا ما كان يُوقظنا إلا صوتُ معاذ القارىء ، وتميم الدّاري»[1].

* ومن الأدلَّةِ المنطقيَّةِ الصَّحيحة على أنَّ سيّدنا تميماً رضي الله عنه كان من أَقْرأ النَّاس وأنداهم صوتاً ، وأدقّهم قراءةً[2]؛ ما جاء عند ابنِ سَعْدٍ: «أنَّ

= للدكتور أحمد خليل جمعة ص ٧٦ ـ ٨٤) بتصرف.

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/٣١٩) ، وهذا يدل على أنَّ تميماً من علماء الصحابة العاملين بالقرآن الكريم القارئين له آناء الليل وأطراف النهار.

(٢) لقراءةِ القرآن الكريم الصَّحيحة الدّقيقة أربعُ كيفيّات:

الأولى: التّرتيلُ: وهو تجويدُ كلماته ، وتقويمُ حروفه ، وتحسينُ أدائه ، بإعطاء كلّ حرفٍ حقّه ، ومنحه مستحقّه من الإجادةِ والإتقانِ ، والتّحقيق والإحسان.

ولا يكون ذلك إلا بتصحيح إخراج كلّ حرف من مخرجهِ الأصلي المختصّ به تصحيحاً يمتازُ به عن مقاربِهِ ، وتوفيةِ كلّ حرف صفته المعروفة به توفيةً تخرجُهُ عن مُجانِسِه مع تيسير النّطق به على صفته الحقيقية ، وهيئته القُرآنية ، ومع العناية بإبانةِ الحروف ، وتمييز بعضها عن بعض ، وإظهار التّشديدات وتحقيق الهمزات ، وتوفية الغنّات ، وإتمام الحركات ، والإتيان بكلّ من الإظهارِ والإدغامِ والقلبِ والإخفاءِ على حقيقته التي وردت عن أئمة القرآن.

وينبغي أن يكونَ ذلك كلّه من غير تشدُّقٍ ولا إسراف ، ولا تصنُّع ولا اعتساف. . . إلى غير ذلك مما ينفرُ منه الطبع السَّليم ، ويأباه الذَّوق المستقيم ، وعلى أن يكون في تؤدة وطمأنينة.

وهذه الكيفيةُ هي التي نزلَ بها القرآن الكريم ، وهي المرادةُ من التّرتيل الذي أمرَ اللهُ به نبيه محمداً ﷺ في قوله تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

الثانية: التَّحقيقُ: وهو كالتّرتيل في جميع ما ذُكر ، غير أنّه أكثر من التّرتيل تؤدة ، وأشدّ طمأنينة ، وأبعد عن العجلةِ والإسراعِ ، وهو الذي يُستَحْسن في مقام التَّعليم ، ويُسْتَحبّ حال التلقّي ، والأخذ عن الشيوخ.

الثالثة: الحَدْرُ: ـ بسكون الدال ـ وهو الإسراعُ ، وهو كالتّرتيل في مراعاة جميعِ الأحكام ، غير أنّه يكون مع السّرعة في القراءة ، ويجب التّحرّز فيه عن بتر الحروف ، ونقص الغنّات ، واختلاس الحركات ، والتفريط إلى حدّ لا تصحّ به القراءة ، فإنَّ ذلك محرّم شرعاً.

الرابعة: التّدويرُ: وهو كالتّرتيل أيضاً في القواعد والأحكام ، بَيْدَ أنَّه يكون في حالٍ =

أُبيَّ بنَ كعبِ وتميماً الدّاريَّ كانا يقُومان في مقامِ النَّبي ﷺ ، يُصليّان بالرِّجال ـ يعني صلاة التَّراويح ـ في زمنِ عمر رضي الله عنه»[1] .

كيفَ أَسْلَمَ تَميْمٌ الدَّاري ومَتىٰ؟

* يذكرُ التَّاريخُ أنَّ قبيلةَ لخم التي ينتسبُ إليها تميمٌ الدَّاري كانت تدينُ بالنَّصرانيّة؛ وتؤكِّد المصادرُ أنَّ تميماً كان نصرانياً ـ قبل إسلامه ـ.

* ويظهرُ من خلالِ حياة تميم الدَّاري أنَّه كان من النَّصارى الذين أُوتوا نصيباً من المعرفةِ ، ويبدو أنَّ تميماً كان على قدرٍ من العلْم والمعرفةِ بكثيرٍ من حقائقِ الدِّيانة النَّصرانية.

* ولا ريب في أنَّ دعوةَ الإسلام ورسالتَه قد بلغَتْ نصارى الشَّام وغيرهم ، وقد بلغَتْ سادتهم كما جاء في الصَّحيح ، بيد أنَّ القَيْصرَ راوَغَ وضَنَّ بملكِهِ ، وهو عليمٌ بالحقِّ وصدّق رسول الله ﷺ ، ولكنّه لم يُقَدّرْ له الإسلام ، والدّخول في دين الله عزّ وجلّ.

* ومن المُتَعَالَم في السِّيرِ والمغازي أنَّ غزوةَ تبوك بقيادةِ رسولِ الله ﷺ قد أفزعَتْ متنصّرةَ العربِ وسادتهم الرُّومان في بلادِ الشّام؛ وذلك أنَّه لمَّا توجَّه رسولُ اللهِ ﷺ إلى تبوكَ لغزوِ الرُّوم ، كان يقودُ جيشاً عرمرماً ، كثيفَ الجندِ عظيمَ القوة ، ففزعَتْ منه القبائلُ المتنصّرة فزعاً شديداً ، وكذلك دخلَ على ساداتهم الرّوم من الهلع والخوفِ ما زلزلَ أقدامهم ، وشتَّتَ شَمْلَهم ، ولهذا كلّه لم يَلْقَ منهم رسولُ اللهِ ﷺ والذين معه من كتائب الجهاد كيداً ، وإنَّما رجعَ بجيشه موفور العزّة ، بعد أنْ عقدَ صُلْحَ الجزيةِ مع مَنْ جَاءَهُ للمُصَالحة ، وكتبَ لهم الأمْنَ والأمانَ ما داموا على الحفاظِ لعهودهم ومواثيقهم لا يغدرون ، ولا يُظاهرون عدوّاً للمسلمين.

= وسَطٍ بين التؤدة والسُّرعة ، وبين الطّمأنينة والعَجلة ، فيكون وسطاً بين التّرتيل والحدر. ومن الجدير بالذكر أنّ كلّ القُراء يجيزون الكيفيات الأربع. واللهُ تعالى أعلم.

(١) الطبقاتُ الكبرى لابن سعد (٥/ ٢٠)؛ وكان سُليمان بن أبي حثْمة يؤمّ النّساء في التّراويح بأمرٍ عُمريّ فاروقيّ.

* ومن هنا نحسبُ أنَّ تميماً الدَّاري كان عليماً بأسرارِ الدّيانةِ المسيحية الصَّحيحةِ ، كما أنَّه كان عارفاً بأخبار الإسلام ، وقد وصلَتْ إليه معلوماتٌ جليّةٌ كافيةٌ عن الإسلامِ ورسولهِ النّبيّ الأمّي ﷺ ، ذلك أنَّ أنباءَ الدَّعوةِ الإسلاميّةِ وأخبارها وأنسامَها كانت قد وصلَتْ إلى معظم أقطارِ الأرضِ وبلدانها ، ومنها بلاد الشَّام التي يسكنُها تميم الدّاري وقومه ، إذْ إنَّ قوافلَ التِّجارة ورحلاتها لم تنقطعْ بين بلادِ الحجاز وبلاد الشَّام ، وسمع تميمٌ بالإسلام ، وبأخبار نبيّ الإسلام ، فوقعَ في قلْبهِ الإسلام ، بعد أنْ عرفَ الأُسُسَ التي يقومُ عليها هذا الدِّينُ القَيِّم.

* ولا يفوتنا هنا أنْ نستنبطَ من أخبار تميم وحياتِه قبل الإسلام بأنَّه كان مطّلعاً على كثيرٍ من أمور النَّصرانيّة وأسرارِها التي لا يطَّلعُ عليها سَوَادُ النّاسِ وعامّتُهم ، كما أنَّه كان عارفاً بالحقِّ ، وببشارةِ ديانته برسولٍ يأتي بعد عيسى عليه السَّلام اسمُه أحمد ، وهذه الدلائل والحقائق جعلته يسارعُ إلى الإسلام ، ويؤمنُ بنبي الإسلام ، وبما جاء به من عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، إذ هو الحقّ؛ وهذا جميعهُ ومجموعُهُ يدلُّ على علْمِ تميم بالنَّصرانية ثمّ بالإسلام؛ قال قتادةُ: «كان تميمٌ من عُلماءِ أهل الكتابَيْن»(١) ، وقال أبو نعيم: «كان راهبَ أهلِ فلسطين ، وعابدَ أهلِ فلسطين»(٢) ، وعلى الرغمِ من علْمهِ هذا في النَّصرانية ، فإنَّه كان يهفو ويتطلَّع إلى الدِّين القيّم الذي أخبرَ عنه الإنجيل بوضوحٍ في أكثر من موضع.

* حدثَ هذا عام تسع بعد غزوةِ تبوك ، عندما أخذتِ الوفودُ تَرِدُ المدينةَ المنوَّرة مبايعةً مُسلِمةً ، جاء وفْدُ الدّاريين الذين رافقوا تميماً في الوفادةِ على النَّبيِّ ﷺ ، وكانوا عشرة رجال ، فأسلموا ، وأقْطع النَّبي ﷺ تميماً الدَّاري أرضاً في الشَّام بفلسطين.

---

(١) تهذيب التهذيب (١/ ٥١١).

(٢) الإصابة (١/ ١٨٦) ، ولعلَّ في نسبه تميم الداري ما يشير إلى ذلك ، فيقال: «الديري»: فالديري نسبة دير كان يتعبد فيه قبل الإسلام وكان نصرانياً. أما الداري فمنسوب إلى جدّه الدار والله أعلم.

* قال عِكْرِمَةُ: «لمّا أسلم تميمُ الدَّاريّ ، قال: يا رسولَ اللهِ ، إنَّ اللهَ مُظْهِرُكَ على الأرض كُلِّها ، فَهَبْ لي قريتي من بيت لحم.

قال: «هي لك».

وكتب له بها. فلمَّا استخلفَ عمر ، فظهرَ على الشَّام ، جاء تميم بكتاب النَّبي ﷺ ، فقال عمر: أنا شاهد ذلك ، فأعطاهُ إياه قال: وبيت لحم هي القريةُ التي وُلِدَ عيسى بن مريم فيها»[(١)].

* وذكر الليث: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لتميم عندما أقطعه: «ليس لك أنْ تبيعَ». قال: فهي في أيدي أهله إلى اليوم[(٢)].

* قال الواقدي: «ليس للنَّبيّ ﷺ قطيعة سوى: حَبْرى ، وبيت عينون ، أقطعهما تميماً وأخاه نُعيماً»[(٣)].

* وعن راشد بنِ سَعْد قال: «قامَ تميمٌ الدَّاري ـ وهو تميمُ بنُ أوس ، رجُلٌ من لخم ـ فقال: يا رسولَ اللهِ إنَّ لي جيرةً من الرُّوم بفلسطين لهم قريةٌ يقالُ لها حَبْرىٰ ، وأخرى يقال لها: بيت عينون ، فإن فَتحَ اللهُ عليكَ الشَّامَ فَهَبْهُمَا لي.

قال: «هُمَا لَكَ».

قال: فاكتبْ لي بذلك كتاباً ، فكتبَ فيه: «بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم ، هذا كتابٌ من محمّدٍ رسولِ اللهِ ﷺ لتميمِ بنِ أوس الدَّاريِّ ، أنَّ له قريةَ حَبْرىٰ وبيتَ عينون ، قريتها كلُّها سَهْلُها وجَبَلُها وماؤها وحرثُها ، وأنباطُها وبقرها ، ولعَقِبِهِ من بعدِه ، لا يُحَاقُّهُ فيها أحدٌ ، ولا يلجهُ عليهم أحدٌ

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣١٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤٣).
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤٣ و٤٤٤) و«حبرى»: يُقال لها: حبرون. قال ياقوت: «هي القريةُ التي فيها قبر سيدنا إبراهيم الخليل عليه السَّلام ببيت المقدس ، وقد غلب على اسمها الخليل» و«عينون»: من قرى بيت المقدس». وسنذكر بعد قليل ما أورده ابن دريد في «الاشتقاق» عن إقطاع هاتين القريتين لسيدنا تميم الداري.

بظُلم ، فمن ظلمهم ، أو أخذَ مِنْ أحدٍ منهم شيئاً فعليه لعنة اللهِ والملائكةِ والنّاسِ أجمعين. وكتبَ عليّ».

فلمّا وليَ أبو بكر رضي الله عنه ، كتبَ لهم كتاباً نُسْخَتُه: «هذا كتابٌ من أبي بكْرٍ أمينِ رسولِ اللهِ ﷺ الذي استُخْلِفَ في الأرض ، كتبَه للدَّاريّين ، أن لا يفسدَ عليهم مأثرتهم قرية حبرى وبيت عينون ، لمن كان يسمعُ ويطيعُ ، فلا يفسدُ منها شيئاً ، وليقُمْ عمرو بن العاص عليهما ، فليمنعهما من المفسدين»[1].

* وقد ذكر الشَّيخُ عبدُ الغني النّابلسي في كتابه: «الحَضْرة الأنْسيّة في الرِّحلة القدسيّة» قصَّة إقطاع النّبي ﷺ تميم الدّاري وذريّته الأراضي التي بها بلد سيّدنا الخليل عليه السَّلام وما حولها من الأرض ، وذكرَ النَّابلسي أشياء مفيدة منها قوله: «واستمرَّ هذا الإقطاعُ بيدِ ذريّة تميم يأكلونه إلى يومنا هذا ـ أي ـ (١١ رجب ١١٠١هـ) وهم مقيمون ببلد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السَّلام ، وهم طائفةٌ كثيرةٌ يُقال لهم: الدَّاريَّة وهذا ببركةِ النَّبيّ ﷺ»[2].

* وذكر النَّابلسي قصَّةَ الوالي الذي حاولَ إلغاء الإقطاع في زمنِ أبي حامد الغزالي المتوفّى سنة (٥٠٥هـ) فقال: «وقد اعترضَ بعضُ الولاةِ على آل تميم ، وأراد انتزاع الأرض منهم؛ ورفَع أمرهم إلىٰ القاضي أبي حامد الهَرويّ الحَنفيّ قاضي القدس الشَّريف ، فاحتجَّ الدَّاريّون بالكتابةِ؛ فقال القاضي: هذا الكتابُ ليس بلازمٍ ، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أقطع تميماً ما لم يملك ،

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٣/٥ و٣١٦) وذكر الشيخُ عبد الغني النّابلسي صورة لأخرى لكتاب سيدنا أبي بكر رضي الله عنه إلى الدَّاريين هذه نسخته: «بسم الله الرحمنِ الرحيم؛ من أبي بكر الصّديق إلى أبي عُبيدة بن الجراح ، سلامٌ عليك ، فإنّي أحمدُ اللهَ الذي لا إله إلا هو ، أما بعد: فامنعْ من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر من الفساد في قرى الدّاريّين ، وإنْ كان أهلها قد جُلوا عنها ، وأراد الدّاريون يزرعونها فليزرعوها ، وإذا رجعَ إليها أهلها فهي لهم ، وأحقّ بهم والسلام عليك». (الحضرة الأنسية ص ٢٧٩).

(٢) الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية (ص ٢٧٧) لعبد الغني النابلسي المتوفى سنة (١١٤٣) تحقيق ودراسة أكرم حسن العلبي ـ دار المصادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠م.

فاستفتى الوالي الفقهاء ، وكان الإمامُ أبو حامد الغزاليّ رحمه الله حينئذ ببيت المقدس قبل استيلاء الفرنج عليه فقال: هذا القاضي كافرٌ ، فإنَّ النَّبي ﷺ قال: «زُويتْ لي الأرضُ كلّها»[1] ، وكان يُقْطِعُ في الجنَّة ، فيقول قَصْر كذا لفلان ، فوعده صِدقٌ ، وقوله حقٌّ ، فخزي القاضي والوالي ، وبقي آل تميم على ما بأيديهم»[2].

* وذكر محقّق كتاب «الاشتقاق» أشياء مفيدة في هذا الكتاب المفيد بخصوص إقطاع النَّبي ﷺ الداريين: حبْرىٰ وبيت عينون بالشَّام.

* قال ابنُ دريد في الاشتقاق: «رجالُ لخم: وهو لخم بنُ عدي ، واشتقاق لخم من الغَلَظ والجفَاء. . ومنهم: بنو الدَّار بن هانىء. فمن بني الدَّار: تميمُ بنُ أوس ، ونُعيمُ بنُ أوس ، وفَدَا إلى النَّبيِّ ﷺ ، وأقطعهما النَّبيُّ ﷺ قطيعتَيْن بالشَّام: حَبْرى ، وبيت عينون ، وليس للنَّبيّ ﷺ قطيعة غيرهما بالشَّام»[3].

* هذا كلامُ ابن دريد ، أمّا ما أوردَ محقّقُ الكتاب عبد السَّلام محمَّد هارون في الحاشية: «ح؛ بخطّ محمّد بن عمر حفيد ابن الشِّحنَة»[4] ، فهو

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم برقم (٢٨٨٩) وأوّله عنده: «إنَّ اللهَ زوى لي الأرض ، فرأيتُ مشارقها ومغاربها ، وإنَّ أمّتي سيبلغُ ملكها ما زوي لي منها. .» الحديث. وقوله «زوى»: معناه جَمَع. قال النّووي رحمه الله ما ملخّصه: «وهذا الحديث فيه معجزات ظاهرة ، وقد وقعت كلّها بحمد الله ، كما أخبر به النّبيّ ﷺ وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ملكَ هذه الأمّة يكون معظم امتداده في جهتَي المشرقِ والمغرب ، وهكذا وقع ، وأما في جهتَي الجنوب والشّمال ، فقليل بالنّسبة إلى المشرق والمغرب ، وصلوات الله وسلامه على رسوله الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ، إنْ هو إلا وحي يوحى». (المنهاج ص ١٩٩٩).

(٢) الحضرة الأنسية (ص ٢٧٧) أقول: «استولى الفرنجة الصليبيون على بيت المقدس سنة (٤٩٢هـ)».

(٣) انظر: الاشتقاق (ص ٣٧٦ و٣٧٧).

(٤) محمّدُ بنُ عمر بن محمد جلال الدّين النّصيبي الحلبيّ الشّافعيّ القاضي سبط أبي الفَضل ابن الشّحنة ، ولد في ربيع الأول سنة (٨٥١هـ) وحفظ القرآن العظيم بحلب وصلّى =

كلام يبلُّ الصَّدىٰ نوعاً ما ، ويشيرُ إلى وثائقَ نبويةٍ مهمّةٍ جداً عن هذا الإقطاع النّبويّ للدّاريّين ، والذي ظلّت آثارُهُ إلى القرنِ العاشرِ الهجريّ تقريباً.

* قال محمّد بنُ عمر حفيد ابن الشِّحنة[1] المتوفى سنة (٩١٦هـ) : «وإلىٰ الآن ذريّة تميم الدّاريّ ببيت المقدس موجودون ، وبيدهم القطيعتان المذكورتان ، وكان عندهم المنشور الذي يتضمَّنُ إعطاء القطيعتين لتميم ، ويسمّى كتاب «الإنطاء» ، لأنَّه مُصَدَّرٌ بقوله : «هذا ما أعطى محمّد بن عبد الله . . .» إلى آخره. وهو بخط الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، مكتوب في رَقّ غزال بقاعدة كوفية.

وكان نبغَ منهم واحدٌ يسمَّى تقي الدِّين ، وكان ذا علْمٍ وأدب ، وفضْل ورياسةٍ ، فقدم دار السَّلْطنة العليَّة في الدَّولة المرادية[2] ، وأهدى الكتابَ المذكورَ للخزانةِ السُّلطانية ، وأُعْطي في مقابلة ذلك منصب قضاء في قلم مصرَ القاهرة ، واجتاز بحلب ، واجتمع بالمرحوم الوالد ، فقال له الوالدُ : لَعَمري لقد أخطأتَ حيثُ بِعْتَ كتاب رسول الله ﷺ ببقعة من بقعِ جهنّم. والله أعلمُ لمحرره : محمّد بن عمر»[3].

= بجامعها الكبير وهو ابن ثمان ، وحفظ المنهاجين والألفيتين وأشياء مفيدة ، ثم قدم القاهرة سنة (٨٧٦) على جده لأمه ، وقرأ هناك على كبار العلماء كالفخر المقدسي ، والجوجري والعبادي والسَّخاوي وغيرهم ، وكان ذا فطنة وحافظة وله أشعار لطيفة ، وأخباره كثيرة ، وتوفي في (١٣ رمضان) سنة (٩١٦هـ) (الكواكب السائرة ١/ ٦٩ و٧٠) بتصرف.

(١) ولي حفيد ابن الشّحنة قضاءَ حماة ، وقضاء حلب ، وأنشدَ فيه بعضُ الظرفاء الأدباء حين وليَ قضاء حماة :

حَماةُ مذْ صِرتَ بها قاضياً ... استبشر الدّاني مع القاصي
وكلُّ مَنْ فيها أتى طائعاً ... إليكَ وانقادَ لك العاصي

(٢) لعلّه مرادُ الثالث السُّلطان العثماني ، الذي تولّى السّلطنة سنة (٩٨٢هـ) ، ويتوافق هذا مع حياة تقي الدين الداري الذي مرّ بحلب إلى العاصمة العثمانية ، والتقى والد محمد بن عمر حفيد ابن الشحنة.

(٣) انظر : الاشتقاق (ص ٣٧٧) الهامش. وقوله : «الإنطاء» : الإعطاء وهي لغة.

مسندُهُ وروايةُ النّبي ﷺ عنه:

* على الرغمِ من قِصَر مدّة الصُّحبةِ التَّميميّة للصَّادق المصدوق ﷺ إلا أنَّ حصيلتَها الحديثيّة كانت مباركةً مثمرةً أسفَرتْ عن خيرٍ عميم لسيّدنا تميم.

* قال النَّوويُّ: «رُوي له عن رسولِ اللهِ ﷺ ثمانية عشر حديثاً، روى مسلم منها حديث: «الدِّينُ النَّصيحة». وفي صحيح مسلم «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ روى عن تميم قصّة الجسَّاسة»؛ وهذه منقبةٌ شريفةٌ له، لا يشاركه فيها غيره، ويدخلُ في روايةِ الأكابرِ عن الأصاغر»[1].

* وقال الذَّهبيُّ رحمه الله: «وحديثُهُ يبلغُ ثمانية عشَر حديثاً، منها في صحيح مسلم حديثٌ واحد»[2].

* روى عنه عددٌ من علماءِ الصَّحابة الأكابر، فمن العبادلةِ روى عنه: عبدُ الله بنُ عمر[3]، وعبدُ الله بنُ عبَّاس[3]، ومن المكثرين أصحاب الألوف، روى عنه سيّد الحفّاظ الأثبات سيدنا أبو هريرة[3]، وخادمُ النّبي ﷺ أنسُ بنُ مالك[3] وهؤلاء كلّهم من علماء الصَّحابة وفقهائهم وأكابرهم وساداتهم رضي الله عنهم أجمعين[4].

* وروى عنه عددٌ من أكابرِ التَّابعين منهم: عطاءُ بنُ يزيدَ الليثي، وزرارةُ بنُ أوفى، وشهرُ بنُ حوشب وآخرون[5].

* وأحاديثُه منثورةٌ في الصَّحيح، والسُّنَن والمسانيد، والمستدرك، ومعجم الطَّبراني؛ وغيرها من كُتبِ الحديث، والأحكام، والدلائل.

* وموضوعاتُ أحاديثِ سيّدنا تميم متنوّعةٌ، فقد شملت الفِقْه،

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٣٨).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٤٤٨).
(٣) اقرأ سير هؤلاء الأعلام الأسياد السّادة في هذه الموسوعة المباركة بإذن الله.
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٣٨)، وسير أعلام النبلاء (٢/٤٤٣).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢/٤٤٣)، وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص ٦١١).

والعبادات ، والجهاد ، والفضائل ، وعلامات النّبوة ، والتّوحيد ، والأطعمة ، والأشربة ؛ وغيرها من ميادين العِلْم .

* فمن مرويّات سيدنا تميم الدَّاري ما جاء عند مسلم بسنده عن عطاء بنِ يزيد ، عن تميم الدَّاري : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : «الدِّينُ النَّصيحة» .

قلنا : لمن .

قال : «للهِ ، ولكتابهِ ، ولرسولهِ ، ولأئمةِ المسلمين ، وعامتِهم»[1] .

* قال الإمامُ النَّوويُّ رحمه الله تعالى في شَرحِ هذا الحديث الشريف : «هذا حديث عظيم الشَّأْن ، وعليه مدارُ الإسلام»[2] .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (٥٥) ، واللفظ له؛ وأخرجه أحمد (٦/ ٣٤) حديث رقم (١٦٩٣٨ و١٦٩٣٩ و١٦٩٤٣ و١٦٩٤٤) ، والطبراني في المعجم الكبير (٢/ ٥٣ و٥٤) ، وغيرهم.

(٢) المنهاج (ص ١٦١) وعلّقَ النّوويُّ رحمه الله على هذا الحديث وجمع شروحاً جميلة في غاية الفائدة ، ويمكن أنْ نجملها ملخّصةً في النّقاط الآتية:
النّصيحة: النصيحةُ كلمةٌ جامعةٌ معناها حيازةُ الحظّ للمنصوح له. وهي من وجيزِ الأسماء ومختصر الكلام ، وليس في كلامِ العرب كلمة مفردة يستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة كما قالوا في الفلاح: ليس في كلامِ العرب كلمة أجمع لخيرِ الدنيا والآخرة منه. ومعنى الحديث: عماد الدين وقوامه النصيحة ، كقوله: «الحج عرفة» أي: عماده ومعظمه عرفة.
النّصيحةُ لله: معناها منصرفٌ إلى الإيمان به ، ونفي الشّريك عنه ، وترك الإلحاد في صفاته ، ووصفه بصفات الكمالِ والجلالِ كلّها ، وتنزيهه سبحانه وتعالى من جميع النقائص ، والقيام بطاعته ، واجتناب معصيته ، والحبّ فيه والبغض فيه ، وموالاة من أطاعه ، ومعاداة مَنْ عَصَاه ، وجهاد مَنْ كفرَ به ، والاعتراف بنعمته وشكره عليها ، والإخلاص في جميع الأمور ، والدّعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة والحثّ عليها ، والتلطف في جميع النّاس ، أو مَنْ أمكن منهم عليها.
النّصيحةُ لكتابهِ سبحانه وتعالى: الإيمانُ بأنّه كلامُ الله تعالى وتنزيله ، لا يشبهه شيءٌ من كلام الخلق ، ولا يقدر على مثله أحدٌ من الخلق ، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته ، وتحسينها والخشوع عندها ، والتصديق بما فيه ، والوقوف مع أحكامه ، وتفهم علومه وأمثاله ، والاعتبار بمواعظه ، والعمل بمحكمه ، ونشر علومه ، والدعاء إليه.
النّصيحةُ لرسولِ الله ﷺ: تصديقُه على الرّسالة ، والإيمانُ بجميع ما جاء به ، وطاعته =

* وقال ابنُ بطَّال رحمه الله: «في هذا الحديثِ أنَّ النَّصيحة تسمّى ديناً وإسلاماً؛ وأنَّ الدِّين يقعُ على العَملِ، كما يقعُ على القول. والنَّصيحةُ فرضٌ يجزىءُ فيه مَنْ قام به، ويسقطُ عن الباقين. والنَّصيحةُ لازمةٌ على قَدْرِ الطَّاقة، إذا علم النَّاصحُ أنَّه يُقْبَلُ نصحه، ويطاع أمره، وأمن على نفسه المكروه، فإن خشي على نفسِه أذىً فهو في سَعَة واللهُ أعلم»[1].

* ومن علامات النُّبوة ودلائلها أخرجَ الإمامُ أحمد بسنده عن تميم الدَّاري قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «ليبلغنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ الليلُ والنَّهارُ، ولا يترك الله بيت مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخَلَه الله هذا الدين بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل عزاً يُعَزُّ به الإسلام، وذلاّ يُذِلُّ الله به الكفرة». وكان تميم الدّاري يقول: «قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب مَنْ أسلمَ منهم الخير والشَّرف والعزّ، ولقد أصاب مَنْ كان منهم كافراً الذّلّ والصَّغار والجزية»[2].

* وفي بيان منزلةِ الصَّلاةِ، ومعرفة قدرها بين الأعمالِ، يروي سيدنا

= في أمره ونهيه، ونصرته حياً وميتاً، وإحياء سنّته وإعظام حقّه، ونشر شريعته، والتفقه في معانيها وإعظامها وإجلالها، والإمساك عن الكلام فيها بغيرِ علم، ثم ينبغي التأدب بآدابه ﷺ والتخلق بأخلاقه، ومحبة أهل بيته وأصحابه أجمعين.

النَّصحيةُ لأئمة المسلمين: معاونتهم على الحقّ، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتذكيرهم برفق ولطف، وتألف قلوب الناس لطاعتهم وعدم الخروج عليهم، والصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصَّدقات إليهم، والدّعاء بالصّلاح لهم.

النّصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكفّ الأذى عنهم، وتعليمهم ما يجهلونه من دينهم، وستر عوراتهم، ودفع المضار عنهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، واحترامهم ودعوتهم إلى الطّاعات وإلى ما يصلحهم.

(١) المنهاج (ص ١٦٢).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٦ و٣٧) حديث رقم (١٦٩٥٤)، واللفظ له، والمعجم الكبير (٢/ ٥٨)، وانظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٤) وقال الهيثمي: «ورجال أحمد رجال الصحيح».

تميم الدَّاريُّ عن النَّبيّ ﷺ أنَّه قال: «أوَّلُ ما يُحاسبُ به العبد يومَ القيامة الصَّلاة، فإنْ أكملَها كُتبتْ له كاملة، وإن لم يكنْ أكملَها قال للملائكة: انظروا هل تجدون لعبدي من تطوّع، فأكملوا بها ما ضيَّع من فريضة، ثمّ الزّكاة، ثم تُؤخَذُ الأعمالُ على حسبِ ذلك»[1].

* ولسيدنا تميم الدَّاريّ رضي الله عنه أحاديث أخرى منثورة في أُمَّاتِ المصادر الحديثية؛ بيد أنَّ عُلْيا مناقبه، بل أعلاها وأعظمها، وأكثرها قدراً، وإشارة وإشادة بمنزلته التي تبوأها بين الصَّحابة الكرام، أنَّ الصَّادقَ المصدوق والحبيبَ المحبوبَ سيّدنا رسول الله ﷺ قد روى عنه حديثاً وأسمعه أصحابه من علىٰ المنبر.

* وقد ذكر هذه المنقبة الشَّريفة ابن حزم في «جمهرته» حيث قال: «ولا نعلمُ أحداً روى عنه رسولُ الله ﷺ حديثاً حدَّث به النَّاس إلا تميماً الدَّاري هذا وحده، وهو تميمُ بنُ أوس بن خارجة..»[2].

* ومن الإصابة أنْ نوردَ ما ذكره ابنُ حجر في «الإصابة» عن هذه المنقبةِ التَّميميَّة الدَّاريَّةِ، إذ قال: «تميمُ بنُ أوس بن خارجة.. أبو رقيّة الدَّاريّ، مشهورٌ في الصَّحابةِ، كان نصرانياً، وقدمَ المدينةَ فأسلمَ، وذكر النَّبي ﷺ قصة الجسَّاسة[3] والدَّجّال فحدَّث النَّبيَّ ﷺ بذلك على المنبر، وعُدَّ ذلك من مناقبِهِ»[4].

* وقال النَّوويُّ رحمه الله: «قولُهُ ﷺ عن تميم الدَّاري: «حدَّثني أنَّه ركبَ السَّفينة»؛ هذا معدودٌ في مناقبِ تميم؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ روىٰ عنه هذه القصّة،

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٦) حديث رقم (١٦٩٥١).
(٢) انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص ٤٤٢).
(٣) «الجسَّاسَةُ»: هي بفتح الجيم، وتشديد السين المهملة الأولى. قيل: سميت بذلك لتجسّسها الأخبار للدّجّال، وجاء عن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص أنها دابة الأرض المذكورة في القرآن (المنهاج ص ٢٠٢٨).
(٤) الإصابة (١/ ١٨٦).

وفيه روايةُ الفاضلِ عنِ المفضول ، وروايةُ المتبوعِ عن تابعهِ ، وفيه قبول خبر الواحد»[1].

* ومن الجديرِ بالذكر أنَّ قصَّةَ الجسَّاسة جاءَتْ في كُتبِ الحديث المعتمدة ، ومنها: صحيح مسلم ، ومسند أحمد ، ومعجم الطَّبرانيّ ، وكلُّهم أخرجُوه عن فاطمةَ بنتِ قيس[2]؛ قال ابنُ حجر في «الإصابة»: «وهي التي رَوَتْ قصَّة الجسَّاسَة بطولها ، فانفردَتْ بها مُطَوّلة؛ رواها عنها الشَّعْبيُّ لما قدمتِ الكوفةَ على أخيها ، وهو أميرُهَا. . ».

* وها نحنُ أولاء نوردُ هذا الحديثَ كاملاً لما يحتويه من فوائدَ ومناقبَ وترجمةٍ صحيحةٍ لسيدنا تميم الدَّاري ، ولما فيه من دلائل نبوّة سيّدنا وحبيبنا رسول الله الصَّادق المصدوق الذي ما ينطقُ عن الهوى ، ﷺ.

* أخرج مسلم رحمه الله بسندٍ رفعه إلى عامر بنِ شراحيل الشَّعْبيّ ، شعْب هَمْدَان: أنَّه سألَ فاطمةَ بنتَ قيس ، أخت الضَّحَّاك بن قيس ، وكانت من المهاجرات الأوّل ، فقال: حدّثيني حديثاً سمعتيهِ من رسول اللهِ ﷺ ، لا تسنديه إلى أحدٍ غيره.

فقالت: لئن شئت لأفْعلَنَّ.

فقال لها: أَجَلْ حدثيني.

---

(١) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجّاج (ص ٢٠٢٩).

(٢) فاطمةُ بنةُ قيس ين خالد الفِهْريّة القرشيّة ، أخت الضّحّاك بن قيس ، يقال: إنّها كانت أكبرُ منه بعشر سنين ، وكانت من المهاجراتِ الأُوَل ، وكانت ذات جمال وعقل وكمال ، وكانت امرأة نجود ، والنجود النَّبيلة ، وفي بيتها اجتمع أصحاب الشورى عند قَتْل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وخطبوا خطبهم المأثورة. وكانت عند أبي عمرو بن حفص بن المغيرة فطلقها ، فخطبها معاوية ، وأبو جهم بن حذيفة ، فاستشارت النبي ﷺ فأشار عليها بأسامة بن زيد ، فتزوجته. وفي زواجها وطلاقها ونكاحها بَعْدُ سنن كثيرة مستعملة. روى عنها جماعة منها الشعبي والنخعي وأبو سلمة (الاستيعاب ٤/ ٣٧١).

فقالت: «. .[1]سمعتُ نداءَ المنادي، منادي رسولِ الله ﷺ، ينادي: الصَّلاَةَ جَامِعَةً، فخرجتُ إلى المسجد، فصلَّيتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ، فكُنْتُ في صفِّ النِّساء التي تلي ظهور القَوم؛ فلمَّا قضى رسولُ اللهِ ﷺ صلاتَه، جَلَس على المنبرِ وهو يضحكُ، فقال: «ليلْزَمْ كلُّ إنسان مُصَلاَّه».

ثم قال: «أتدرونَ لِمَ جمعتكم»؟

قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ.

قال: «إنّي، واللهِ! ما جمعتكم لرغْبةٍ ولا لرهبةٍ، ولكن جمعتكم؛ لأنَّ تميماً الدَّاريَّ، كان رجُلاً نصرانيّاً، فجاء فبايعَ وأسْلَمَ، وحدَّثَني حديثاً وافقَ الذي كنْتُ أحدّثكم عن مَسِيحِ الدَّجَّال، حدَّثَنِي: أنَّه ركبَ في سَفينةٍ بحريّةٍ مع ثلاثين رجلاً من لَخْمٍ وجُذَامٍ، فَلعِبَ بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفؤوا إلى جزيرة في البحر حتّى مغرب الشَّمس، فَجَلَسُوا في أَقْرَبِ السَّفينة، فدخلوا الجزيرة، فَلَقِيتَهُم دابّةٌ أَهْلبُ كثير الشَّعَرِ، لا يدرون ما قُبُلُهُ من دُبُرِهِ، من كثرة الشَّعَر.

فقالوا: ويلَكِ ما أنتِ؟

فقالت: أنا الجسَّاسَةُ.

قالوا: وما الجسَّاسَةُ؟

قالت: أيّها القوم؛ انطلقوا إلى هذا الرَّجُل في الدَّيْر، فإنَّه إلى خبرِكم بالأَشْوَاقِ.

قال: لمَّا سمَّتْ لنا رجُلاً فَرِقْنَا منها أنْ تكونَ شيطانة.

قال: فانطلقْنَا سِراعاً، حتّى دخَلنَا الدَّيرُ، فإذا فيه أعظمُ إنسانٍ رأيناه قَطُّ

---

(١) لم أذكر الحديث من أوله، لأن السيدة الصحابية فاطمة بنت قيس قد روت قصة طلاقها، وطلب نفقتها وعدتها، ومن ثم زواجها من أسامة بن زيد، وأشياء أخرى لا علاقة لها بحديث الجسّاسة.

خَلْقاً ، وأَشَدُّه وِثَاقاً ، مجموعةٌ يداه إلى عنقه ، ما بين ركبتَيْهِ إلى كعبَيْهِ بالحديد.

قلنا: وَيْلَكَ! ما أنتَ؟

قال: قد قدرتم علىٰ خبري ، فأخْبروني ما أنتم؟

قالوا: نحنُ أناسٌ من العرب ، ركبْنَا في سفينةٍ بحريّةٍ ، فصادفْنا البحرَ حين اغْتَلَمَ ، فلعبَ بنا الموجُ شَهْراً ، ثم أرفأنا إلى جزيرتكَ هذه ، فجلسْنَا في أقْرِبُها ، فدخلْنا الجزيرة ، فلقيتنا دابة أهْلَبُ كثيرُ الشَّعَر ، لا يُدرى ما قُبُلُهُ من دُبرِهِ من كثرة الشَّعَر ، فقلنا: ويلَكِ! ما أنتِ؟ فقالت: أنا الجسَّاسَةُ.

فقلنا: وما الجسَّاسَةُ؟

قالت: اعمدوا إلى هذا الرَّجل في الدَّيْر ، فإنَّه إلى خبركم بالأشواق ، فأَقْبَلْنَا إليك سِراعاً؛ وفزعنا منها ، ولم نأمنْ أن تكونَ شيطانة.

فقال: أخبروني عن نَخْل بيسَان.

قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟

قال: أسألُكم عن نَخْلِها ، هل يثمرُ؟

قلنا له: نعم.

قال: أمَا إنَّه يوشك أنْ لا تثمر.

قال: أخبروني عن بحيرة الطَّبرية.

قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟

قال: هل فيها ماء؟

قالوا: هي كثيرةُ الماءِ.

قال: أمَا إنَّ ماءها يوشكُ أنْ يذهبَ.

قال: أخبروني عن عين زُغَرَ.

قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟

قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرعُ أهلها بماءِ العين؟

قلنا له: نعم؛ هي كثيرةُ الماءِ، وأهلُها يزرعون من مائها.

قال: أخبروني عن نَبيّ الأُميّين ـ ﷺ ـ ما فعل؟

قالوا: قد خرجَ من مكَّةَ، ونزلَ يثربَ.

قال: أَقَاتَلَهُ العرب؟

قلنا: نعم.

قال: كيف صَنَعَ بهم؟

فأخبرناه أنَّه قد ظهرَ على مَنْ يليه من العربِ وأطاعوه.

قال لهم: قد كان ذلك؟

قلنا: نعم.

قال: أما إنَّ ذاك خيرٌ لهم أنْ يطيعوه، وإنّي مخبرُكم عنّي، إني أنا المَسِيحُ، وإنّي أوشَكُ أنْ يؤذَنَ لي في الخروج، فأخرجَ فأسيرَ في الأرض، فلا أدعُ قريةً إلاّ هبطتُها في أربعين ليلة، غير مكّة وطيبة، فهما محرَّمتان عَلَيَّ كلتاهما، كلّما أردتُ أنْ أدخلَ واحدة أو واحداً منهما، استقبلني ملَكٌ بيده السَّيف صلتاً، يصدُّني عنها، وإنَّ على كلِّ نَقْبٍ منها ملائكة يحرسونها.

قالت: ـ يعني فاطمة بنت قيس ـ: قال رسولُ اللهِ ﷺ، وطعَنَ بمِخْصَرته في المنبر: «هذه طيبةُ، هذه طيبةُ، هذه طيبةُ» يعني المدينة، «ألا هل كنْتُ حدثتكم ذلك»؟

فقال النَّاس: نعم.

«فإنَّه أعجبني حديثُ تميم أنَّه وافَقَ الذي كنْتُ أحدّثكم عنه، وعن المدينةِ ومكَّةَ، ألا إنَّه في بَحْرِ الشَّأم، أو بحرِ اليمن، لا بَلْ من قِبَل

المشْرق ، ما هو من قبل المشْرق ، ما هو من قبل المشْرق ، ما هو» وأومأَ بيدهِ إلى المشرق. قالت: فحفظتُ هذا من رسولِ الله ﷺ»[1].

كيفَ عاشَ تَميمٌ مع القُرآنِ الكَريم؟

* سيدنا تميمُ الدَّاريّ أو الدَّيري[2] رضي الله عنه من عُبَّادِ الصَّحابة المجتهدين ، ومن الذين امتزجَتْ أرواحُهم بالقرآنِ ، إذ جعله ديدنَه ومُنَاهُ ، وروحَ حياته ، وحياةَ روحه ، وسميرَهُ في الليل والنَّهار ، وقد وصلَتْ إلينا أخبارٌ جمَّةٌ تفصحُ عن ذلك ، وعن تعامُله مع القُرآن قراءةً وفهماً وعلْماً وعَملاً ، وكيف كان حبُّه للقرآنِ هو زهرةُ حياتهِ الدُّنيا التي اتّخذها سفينة ليبحر من خلالها إلى الآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم (٢٩٤٢) واللفظ له. وأحمد (١٠/ ٣٨٠ و٣٨١) حديث رقم (٢٧٤١٨) والطَّبراني في المعجم الكبير (٢/ ٥٤ ـ ٥٦) برقم (١٢٧٠) وغيرهم. ومعنى قوله: «الصَّلاة جامعةً»: الصَّلاةَ: جاءت منصوبة بتقدير: الزموا ، وأما إعراب جامعة: فحال منصوبة. ويخطىء الآن كثيرون فيقولون: الصلاةُ جامعةً؛ وأكثر مَنْ يخطىء بها بعضُ مؤذّني المسَاجد ، وقد اعتاد النَّاس على هذا الخطأ. وقوله «يلي ظهور القوم»: دليل على سماع فاطمة بنت قيس الحديث مشافهة في المسجد. وقوله: «أَقْرُب السَّفينة»: أقْرب جمع قارب ، وأَقْرب: سفينة صغيرة تكون مع الكبيرة كالجنيبة يتصرف فيها ركاب السفينة لقضاء حوائجهم. و«أهلب»: غليظ الشّعر كثيره. و«بالأشواق»: أي شديد الأشواق إليه. و«فَرِقنا»: خفنا وفزعنا. و«اغتلم»: هاج البحر وجاوز حدّه المعتاد. و«عين زُغَر»: بلدة معروفة في الجانب القبلي من الشام. و«طيبة»: المدينة المنورة ، ويقال: طابة. و«بيده السيف صلتاً»: أي مسلولاً. و«من قبل المشرق ما هو»: لفظة ما هو: زائدة صلة للكلام ليست بنافية. والمراد: إثبات أنَّه في جهات المشرق.

(٢) «الداري: أو الديري»: اختلفَ العُلماء في هذه النسبة ، وإلى ما يُنسبُ تميم؟ فقال الجمهور: «إلى جدٍّ من أجدادِهِ ، وهو الدَّار بن هانىء بن حبيب. . .».
وأمّا مَنْ قال: «الديري: فهو نسبةٌ إلى دير كان تميمٌ فيه قبل الإسلام ، وكان نصرانياً».
ومنهم من قال: «الداري» ، بالألف إلى «دارين» وهو مكان عند البحرين ، كان يجلب إليه العطر من الهند. قال النووي: «وكلاهما صواب ، فنُسب إلى القبيلة بالألف ، وإلى الدير بالياء ، لاجتماع الوصفين فيه. وليس في الصحيحين والموطأ داري ولا ديري إلا تميم ، وكنية تميم: أبو رقية».

* فقد ذكروا عن شدَّة تعلُّقهِ بالقُرآن بأنَّه كان يختمُهُ في سبعة أيام. بل إنَّ ابنَ سِيرينَ زعَم بأنَّ تميماً كان يقرأُ القُرآن الكريم في ركعة!!

* وجاء عند الطَّبراني ما يؤكّد عن تعامُلِ تميمٍ رضي الله عنه مع القُرآن معاملةَ المفكّرين المتدبّرين الخاشعين، فقد ذكرَ أنّه كان يتدبّر معانيه، ويبكي في مواضعَ تأسرُ إحساسَه، فعَنْ مسروق قال: «قال لي رجلٌ من أهلِ مكّةَ: هذا مقامُ أخيك تميم الدَّاري، لقد رأيتهُ قامَ ليلة حتّى أصبحَ، أو كَرَب أنْ يصبحَ يقرأ آيةً من كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فيركعُ ويسجدُ ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]»[1].

* وكان تميمٌ رضي الله عنه جلْداً على القِراءةِ، صبوراً على العبادةِ، وكان حصيفاً حكيماً يجيبُ السَّائلين من أصحابهِ على قَدْرِ ما يعلمون ويعلّمُهم ما لا يعلمون، ويفقههم بما ينفعهم في حياتهم ومعادهم.

* ذكر ابنُ عساكر عن أبي العلاء عن رجُلٍ قال: «أتيتُ تميماً الدَّاريَّ، فتحدَّثنا حتّى استأنستُ إليه.

فقلت: كم جزءاً تقرأُ القُرآنَ في ليلةٍ؟

فغضبَ وقال: لعلَّك منَ الذين يقرأُ أحدهم القرآنَ في ليلة، ثم يصبحُ فيقولُ: قد قرأتُ القرآنَ في هذه الليلة، فو الذي نفسُ تميمٍ بيده، لأنْ

---

(١) المعجم الكبير (٢/ ٥٠)، وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٢٠)، والإصابة (١/ ١٨٦).. ومعنى ﴿ٱجْتَرَحُوا۟﴾: اكتسبوا، ومنه جوارح الإنسان، وجوارح الصيد. وتقول العرب: «فلان جارحة أهله» أي: كاسبهم. قال ابن عطية: «أما لفظها فيعطي أنه اجتراح الكفر بدليل معادلته بالإيمان.. ولهذا بكى الخائفون». وروي أنّ الفضيل بن عياض كان يردد هذه الآية ويقول لنفسه: ليت شعري من أي الفريقين أنت؟ وقال الثعلبي: كانت هذه الآية تسمّى مبكى العابدين. قال ابن عطية: «هذه الآية متناولة بلفظها حال العصاة من حال أهل التقوى، وهي موقف للعارفين يبكون عنده». (تفسير ابن عطية ص ١٧٠١).

أُصلّي ثلاث ركعات نافلة أحبّ إليّ من أنْ أقرأ القُرآن في ليلة ، ثمّ أصبحَ فأقول: قرأتُ القرآنَ الليلةَ.

قال: فلمّا أغْضَبَنِي ـ تميم ـ قلتُ: واللهِ إنّكم معاشرَ صَحَابةِ رسولِ الله ﷺ مَنْ بقي منكم لجدير أنْ تسكتوا فلا تعلّموا ، وأنْ تعنِّفُوا مَنْ سألكم!

فلمَّا رآني قد غضبتُ لانَ وقالَ: ألا أحدِّثك يا بنَ أخي؟

قلت: بلىٰ ، واللهِ ما جئتُكَ إلّا لِتُحدِّثني.

قال: أرأيتَ إنْ كنتُ أنا مؤمناً قوياً ، وأنتَ مؤمنٌ ضعيفٌ ، فتحمِلُ قوّتي على ضعفك فلا تستطيع ، فتَنْبَتَّ ، أو رأيتَ إنْ كنتَ مؤمناً قوياً ، وأنا مؤمن ضعيف ، أتيتك ببساطي حتّى أحملَ قوتك على ضعفي فلا أستطيع فَأَنْبَتُّ؟ ولكن خُذْ من نفسِكَ لدينك ، أو من دينك لنفسِكَ حتّى يستقيمَ بك الأمر على عبادةِ تطيقها»[1].

* وعن مسروق: «أنَّ تميماً الدَّاري رَدَّدَ هذه الآية حتى أصبح: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]»[2].

* ولقد صدقَ الإمامُ الذَّهبيُّ عندما قال عن سيّدنا تميم رضي الله عنه: «كان عابداً تلاّءً لكتابِ اللهِ»[3].

* وذكر شيخُ المفسّرين محمّد بن جرير الطَّبري بِسَنَدٍ عن قتادةَ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣] قال: «كان منهم: عبدُ الله بنُ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٢٠ و٣٢١) ، وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين ص ٦١٤ و٦١٥) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤٦) ، وصفة الصفوة (١/ ٧٣٩).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٢٠) ، وقد أفرغ ابن عطية الأندلسي رحمه الله عيون براعته وفنون بلاغته في توضيح معنى هذه الآية فقال: «إنْ يكنْ لكَ في النّاس معذّبون فهم عبادك ، وإن يكنْ مغفور لهم فعزّتك وحكمتك تقتضي هذا». (تفسير ابن عطية ص ٥٩٩).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤٢).

سَلاَم ، وسلمانُ الفارسي ، وتميمُ الدَّاريّ»[١].

* وقال أميرُ مفسّري أهل الأندلس وفقيههم عبد الحقّ بن عطيّة الأندلسي: «وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣] ، قيل: يريدُ اليهود والنَّصارىٰ الذين عندهم الكتُب السَّابقة برفضِ الأصنام ، وتوحيدِ الله تبارك وتعالى ، يريدُ مَنْ آمنَ منهم ، كعبدِ اللهِ بنِ سلام ، وتميمِ الدَّاري ، وسلمانَ الفارسي الذين يشهدون بتصديق محمّد ﷺ»[٢].

* وجاء في البخاري وغيرِه أنَّ تميماً الدَّاري ذُكِرَ في سببِ نزولِ آية من سورةِ المائدة؛ فقد أخرجَ البخاري بسنده عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: «خرجَ رجُلٌ من بني سَهْمٍ مع تميمِ الدَّاريّ ، وعَدِيِّ بن بدَّاء ، فمات السَّهميّ بأرض ليس بها مسلم ، فلمّا قدما بتركته ، فَقَدوا جاماً من فضّة مخوصاً من ذهب ، فأحلفهما رسولُ الله ﷺ ، ثم وُجِدَ الجام بمكَّة ، فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي ، فقام رجلان من أولياء السَّهمي ، فحلَفَا: لشهادتنا أحقّ من شهادتهما وإنَّ الجام لصاحبهم. قال: وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ . . .﴾ [المائدة: ١٠٦]»[٣].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/١٧٧) ، وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤٤) ، واقرأ تعليق ابن كثير في تفسيره لهذه الآية ، ففي تعليقه أشياء مهمة ومفيدة في العلم والعلماء بعامة.

(٢) تفسير ابن عطية (ص ١٠٤٥).

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا برقم (٢٧٨٠)؛ وانظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤٤) وتخريج الحديث فيه؛ وانظر أسباب النزول للواحدي (ص ١٧٩) ، وانظر تفسير ابن عطية (ص ٥٨٩) وقال ابن عطية: «لا نعلمُ خلافاً أنَّ سببَ هذه الآية أنَّ تميماً الداري ، وعدي بن بدّاء كانا نصرانيين ، سافرا إلى المدينة يريدان الشَّام لتجارتهما. . .» ثم ذكر ابن عطية القصة بأوسع مما في البخاري.
أقول: «الظَّاهر أنَّ هذه القصّة قد حدثَتْ بعد الهجرة النّبوية ، وقبل أنْ يعلنَ تميمٌ الدَّاري إسلامَه» والدليل أنَّ سيدنا تميماً قال: «برىء الناسُ من هذه الآيات غيري وغير عديّ بن بداء ، وذكر القصّة ، وقال: وكان معه جامُ فضّةٍ يريدُ به الملِك ، فأخذْتُه أنا وعديّ ، فبعناه بألف وقسمنا ثمنه؛ فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة ، تأثّمتُ من ذلك ، فأتيتُ أهله وأخبرتهم الخبر ، وأدّيت إليهم خمس مئة. فوثبوا إلى =

مناقبُ تميميّة ومعارفُ دَارِيّة:

* تبيَّنَ لنا من خلالِ استثارةِ أخبارِ سيِّدنا تميم الدَّاري أنَّه من كبار العُلَماء العاملين الذين حملُوا ألوانَ المعارف المتنوّعة ، كما عرفوا بالورع والزُّهدِ والتَّواضعِ ، وبُعْدِ النَّظرِ ، والحصَافةِ والذَّكاء. وكان أريباً أديباً في الجاهليّة ، فلمَّا أسلم صقَل ثقافته وصفّاها ، واهتمَّ اهتماماً بالغاً بما جاء في القُرآنِ الكريمِ والذّكْر الحكيم ، والسُّنَّةِ المشرّفةِ ، وغدا من عُلماء الصّحابة وحفَّاظهم لكتابِ اللهِ تعالى.

* استفادَ سيدنا تميم فائدة كبرىٰ من مجالسِ التَّعليم النّبويّة ، واغتنم كلّ سانحةٍ فيها ، وسألَ وتعلَّمَ ما شاءَ له أنْ يتعلَّم ، حتى امتلكَ ناصية فنّ الموعظةِ المؤثّرة ، والقصّةِ الهادفةِ ، المستوحاة من الذّكرِ الحكيمِ ، ولهذا جعله سيدنا عمر رضي الله عنه قاصّاً يعظُ النَّاسَ في المسجدِ ضمنَ الحدودِ الشَّرعية في هذا المضمارِ الخصبِ.

* جاء عن حُميد بن عبد الرّحمن: «أنَّ تميمَ الدَّاريَّ استأذنَ عمر في القَصصِ سنين ، فأبى أنْ يأذنَ له ، فاستأذنه في يوم واحد ، فلمّا أكثر عليه قال له: ما تقول؟ قال: اقرأ عليهم القرآن؛ وآمرهم بالخير ، وأنهاهم عن الشَّر. قال عمر: ذلك الذَّبح. ثمّ قال: عِظْ قبل أنْ أخرجَ في الجمعة. فكان يفعل ذلك يوماً واحداً في الجمعةِ ، فلمّا كان عثمان استزاده ، فزَادَه يوماً آخر»[1].

* وهناك أخبارٌ عُمَريّة تميميةٌ داريةٌ خصبةٌ نافعةٌ ومنها: «أنَّ عمرَ أذن لتميم في الوعظِ والقصص ، وجلس إليه يوماً كي يستمع ما يقول ، فقال تميم من خلال وعْظهِ: اتّقوا زلّة العالِم. فكَرِهَ عمرُ أنْ يسألَه عنه فيقطعَ بالقوم ، وحضَر منه قيام ، فقال لابن عبّاس: إذا فرغَ فَسَلْه: ما زلّة العالم؟

= عدي فأتوا به رسول الله ﷺ ، وحلف عمرو بن العاص ، ورجل آخر معه ، ونُزعت من عدي خمس مئة». (تفسير ابن عطية ص ٥٨٩).

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٢١ و٣٢٢).

ثم قام عمر ، ففرغ تميمٌ وقام يصلّي ، وكان يطيلُ الصَّلاة ، فلما انتهى قال له: يا أبا رقيّة ، ما زلّة العالِم؟

قال: العالمُ يزلُّ بالنَّاس فيؤخذ به ، فعسى أنْ يتوبَ منه العالم ، والنَّاسُ يأخذون به»[1].

* وكان سيدنا عمر رضي الله عنه حصيفاً شديدَ الملاحظةِ ، يأخذ بيد الصَّحابة لما فيه نفع النّاس ومصلحتهم الدّنيوية والأخروية ، ذكر كُتّاب التّراجم وأهل الحديث قالوا: «رأىٰ عمرُ بنُ الخطَّاب تميمَ الدَّاري يُصَلِّي بعد العصْرِ ، فَضَربه بدرّته على رأسِهِ. فقال له تميم: يا عمر تضربني على صلاةٍ صلّيتُها مع رسولِ اللهِ ﷺ؟!

قال عمر: يا تميم ليس كلُّ النَّاس يعلمُ ما تعلم»[2].

* وفي روايةٍ أخرى أنَّ عمرَ قال له: «إنّي ليس بي إيّاكم أيها الرَّهط ، ولكنّي أخافُ أنْ يأتيَ بعدكم قومٌ يصلّون ما بين العَصْر إلى المغربِ حتّى يمرّوا بالسَّاعة التي نهى رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يصلّيَ فيها ، كما وصلوا بين الظّهْرِ والعَصْر ، ثمّ يقولون: قد رأينا فُلاناً وفلاناً يصلّون بعد العَصْر»[3].

* وعن ابنِ عمر رضي الله عنهما: «أنَّ تميماً الدَّاريّ سأل عمر بن الخطاب عن ركوبِ البحر ، وكان عظيم التّجارة في البحر ، فأمره بتقصير الصَّلاة؛ قال: يقولُ الله عزّ وجلّ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس: ٢٢]»[4].

---

(١) المصدر السابق (٥/ ٣٢٢) بتصرف يسير.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٢٢) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤٨).

(٣) أخرجه الطبراني (٢/ ٥٩).

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٢٢). قال ابنُ عطية في تفسيرِ هذه الآية: «هذه الآية تتضمّنُ تعديد النعمة فيما هي الحال بسبيله من ركوب البحر؛ وركوبه وقت حُسْن الظّنّ به للجهاد والحجّ متّفق على جوازه ، وكذلك لضرورة المعاش بالصيد فيه أو لتصّرف التّجر ، وأما ركوبه لطلب الغنى والاستكثار فمكروه عند الأكثر» (تفسير ابن عطية ص ٩٠٣).

* وممّا يُضاف إلى المناقب التّميميّة الدّاريّة ما ذكره النَّوويّ وغيرُهُ في ترجمته قال: «كان تميمٌ له هيئةٌ ولباسٌ، وهو أوَّلُ مَنْ قصَّ على النّاس؛ وهو أوَّلُ مَنْ أسرجَ في المسجدِ»[1].

* ومعنى قوله: «كان له هيئةٌ ولباس»، قال ابنُ عساكر في تاريخه عن أنس: «أنَّ تميماً اشترىٰ رداءً بألفِ درهم، وكان يصلّي بأصحابه فيه».

* وعن ثابت أنَّ تميماً اشترى حلّةً بألفِ درهم، فكان يلبسها في الليلةِ التي يرجى أنّها ليلةُ القَدْر»[1]. وفي رواية: «فكان يقومُ فيها بالليل إلى الصَّلاة».

* وكان تميمٌ مجتهداً في العبادة، ذكروا أنَّه نامَ ليلة لم يقمْ يتهجَّدْ فيها حتى أصبح، فقام سنة لم ينمْ فيها عقوبة للذي صنع[2].

* وكان رفيقاً بمخلوقاتِ الله، فقد زاره روحُ بنُ زنباع، فوجده ينقّي شعيراً لفرسه، فقال له: أما كان في هؤلاءِ من يكفيك؟ قال تميم: بلى، ولكن سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما من امرىء مسلم ينقي لفرسه شعيراً، ثم يعلفه عليه، إلا كتب الله له بكلّ حبّةٍ حَسَنة»[3].

* ولتميم الدّاري رضي الله عنه مآثر جميلة في المسجد النّبويّ بالمدينة المنوّرة، فقد جاء عند ابن ماجه عن أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه قال: «أوّلُ مَنْ أسرجَ في المساجد تميم الدَّاري»[4].

* وتذكرُ كتبُ السِّيرة النَّبويّة والشَّمائل والسِّير بأنَّه لم يكن للمسجدِ النَّبويّ منبر في أوّل بنائه، فأشار الصَّحابة على النّبي ﷺ بعمل منبر ليجلسَ

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٣٩)، ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٢١) مع الجمع.
(٢) صفة الصفوة (١/ ٧٣٩)، ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٢٠).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٣٩)، والحديث أخرجه الطبراني بلفظ قريب في المعجم الكبير (٢/ ٥١).
(٤) أخرجه ابن ماجه في المساجد برقم (٧٦٠)، وفي سند الحديث خالد بن إياس متفق على ضعفه.

عليه ، فوافقَتْ هذه الإشارة الاستحسان النّبويّ ، وذكرت بعضُ الروايات أنَّ تميماً الدَّاري أشار بأنْ يُصْنَعَ له منبر ، فَصُنِعَ سنة تسع وهي سنة إسلام تميم الدّاري رضي الله عنه.

* ولتميم الدّاري أخبارٌ كثيرةٌ وكراماتٌ جليلةٌ ذكرتْها المصادرُ وكتب الدّلائل والتّراجم ، وقد أوردنا منها في هذه التّرجمة ما يكشف الصُّورة الجميلة التّميميّة الدّاريّة لهذا الصّحابي رضي الله عنه وأرضاه.

أين توفيَ تميمُ الدَّاريّ؟

* أكثرُ ما وصَلَ إلينا من حياةِ سيّدنا تميم الدَّاري وأخباره ، يدلُّ على أنَّه مكَثَ في المدينةِ المنورة بعد إسلامِه ، وصحبَ النَّبي ﷺ ، ثمَّ عاشَ الخلافةَ البكْرِيةَ فالعمريّةَ فالعثمانيّة مُلازماً المدينةَ المنوَّرة ، ثمَّ اختارَ بلادَه سَكَناً له بعد مَقْتلِ سيّدنا عثمانَ عليه سحائب الرضوان.

* قال ابنُ سعد: «صحب تميمٌ رسولَ اللهِ ﷺ ، وغزا معه ، وروىٰ عنه ، ولم يزلْ بالمدينةِ حتّى تحوَّلَ إلى الشَّام بعد قَتْلِ عثمانَ بنِ عفَّان رضي الله عنه»[1].

* ويظهرُ أنَّ سيدنا تميمَ الدَّاريَّ رضي الله عنه قد مكثَ في الشَّام بعد تحوّله من المدينةِ قرابة خمس سنين ، إذ توفي سنة (٤٠ هـ) ، فقد وجدوا على قبرِه بلاطةً كُتِبَ عليها بأنَّه قد مات سنة أربعين هجرية ، وكانت وفاتُه ببلدِهِ في الشَّام.

* ولا نعلمُ كم كان عمره عند وفاتِهِ ، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّه تجاوزَ السَّبعين ، لأنَّه عاشَ في الإسلام (٣١ سنة) ولعلَّه أسلم وعمره يقتربُ من أربعين والله أعلمُ. رضي الله عن تميمِ الدَّاري وأجزلَ مثوبته وحشَرنا في معيّة علماء الصَّحابة.

* * *

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/٤٠٨ و٤٠٩).




جابر بن سَمُرة

* جالَس النّبيّ ﷺ أكثر من مئة مرّة ووصف مجالِسَه.
* صلّى خلف النّبيّ ﷺ أكثر من ألفي صلاة، وجاهد معه.
* روى (١٤٦) حديثاً منثورة في الصّحيح وغيره.
* له علم بالشّمائل المحمّديّة والسّيرة النّبويّة الشّريفة.
* كان من فقهاء الصّحابة ومفسّري القرآن، وتوفي سنة (٧٦ هـ).




جابرُ بنُ سَمُرَة

الصَّاحب ابن الصَّاحب:

* هذا الصَّحابيُ منْ أُولي البَصَائرِ والأنفسِ الزّاكيات، والهمم المهذَّبةِ العاليات، اعتنىٰ بحديثِ خيرِ الكائنات، ووصْفِهِ للأُمّةِ بأجمل الصُّور الواضحات، ووصْفُه للنَّبيّ ﷺ أكثر مِنْ أنْ يُحْصَر، وأشهرُ منْ أنْ يذكر، فقد كان ﷺ في عينَيه أحسَنَ من القمر.

* هذا العالمُ صحابيٌ ابنُ صحابي وابنُ أخت صحابي جليل من العشرةِ المبشّرين بالجنَّة؛ وله صحبةٌ مشهورة، وروايةُ أحاديث، وشهدَ فَتْح المدائن.

* كما أنَّه جالسَ الحبيبَ المصطفى ﷺ أكثَرَ من مئةِ مرّةٍ، وصلَّى خلْفَه أكثر من ألفَي مرّةٍ، فهل عرفتموه؟!

* إنَّه جابرُ بنُ سَمُرةَ بنِ جنادة السُّوائي [1]، أحد صغار الصَّحابة العُلماء الذين زادت مرويّات أحاديثهم عن مئةِ حديث، فهو من أصحابِ المئات.

* قال ابنُ عساكر: «جابرُ بنُ سمرة بن جنادة، أبو خالد، ويقال:

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٤٢)، والإصابة (١/ ٢١٣)، والاستيعاب (١/ ٢٢٦ و٢٢٧)، وتهذيب التهذيب (٢/ ٣٩) والمعجم الكبير للطبراني (٢/ ١٩٤ و١٩٥)، وأسد الغابة (١/ ٣٠٤) ترجمة رقم (٦٣٨)، ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٥٥ ـ ٣٥٧)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٨٦ ـ ١٨٨) ومشاهير علماء الأمصار (ص ٨١)، ودلائل النبوة للبيهقي (انظر الفهارس ٧/ ١٤٢) وتاريخ بغداد (١/ ١٨٦) وغيرها.

أبو عبد الله السُّوائي ، صاحبُ سيدنا رسولِ اللهِ ﷺ»[1] . وأمُّ جابرِ بنِ سَمُرة هي خالدةُ بنتُ أبي وقاص أختُ سعد بن أبي وقّاص الزّهريّ ، فَسَعْدٌ خالهُ فأنعمْ به وأكرمْ! .

* وقال النَّووي: «جابرُ بنُ سَمُرةَ الصَّحابي السُّوائي.. هو وأبوهُ صحابيان رضي الله عنهما»[2] .

* وقال محمدُ بنُ حبّان البُستي: «فمن مشاهيرِ الصَّحابةِ بالكوفةِ الذين كانوا لها قاطنين ، وإن كانوا يخرجُون منها في بعضِ الأحايين في الغَزَوات والتّجارات سواء أدركتهم المنية ، بها أو بغيرها ، بعد أن كانوا مستوطنين بها. .جابرُ بنُ سَمرُة بن جنادةَ السُّوائي. »[3] ، وعدَّ ابنُ حبّان البُستي أربعةً وخمسين صحابياً ممّن نزلُوا بالكوفة[4] .

* كان جابرٌ وأبوه من حُلَفاءِ بني زُهْرة ، وله بالكوفةِ دارٌ وعقبٌ وشهد خطبةَ عمرَ بنِ الخطّاب بالجابية في الشَّام.

* قال ابنُ عبد البرّ وابنُ الأثير: «وهو ابنُ أختِ سعدِ بنِ أبي وقّاص ، أمُّه خالدةُ بنتُ أبي وقاص؛ نزلَ جابرُ بنُ سَمُرة الكوفةَ ، وابتنى بها داراً في بني سواءة»[5] .

* نشأ سيدنا جابرُ بنُ سَمُرة وتعلَّمَ من الدُّورسِ النَّبويّةِ ، وكثيراً ما كان يرافقُ أباه سَمُرة إلى المجالسِ النَّبويَّة السَّنيّة يَسْتلهمُ منها العِلْم والفِقْه ، وقد ذكر لنا جابرٌ طَرفاً من هذه المجالسِ المباركةِ فقال: «كنتُ جالساً في مجلسٍ فيه رسولُ اللهِ ﷺ ، وأبي سَمُرة جالسٌ أمامي ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٣٥٥).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٤٢).

(٣) مشاهير علماء الأمصار (ص ٧٤)؛ و«السُّوائي»: نسبة إلى بني سُواءة بن عامر بن صعصعة.

(٤) انظر: مشاهير علماء الأمصار (ص ٧٤ ـ ٨٣) من ترجمة رقم (٢٦٦) إلى ترجمة رقم (٣٢٠).

(٥) الاستيعاب (١/ ٢٢٧) ، وأسد الغابة (١/ ٣٠٤) ترجمة رقم (٦٣٨).

الفُحْشَ والتَّفاحش لَيْسَا من الإسلام في شيء ، وإنَّ خيرَ النَّاسِ إسلاماً أحسنُهم خلقاً»[1].

* وفي مجلسٍ نبوي آخر تُذْكَرُ المدينةُ عند رسولِ اللهِ ﷺ ، فأخذَ النَّاسُ يقولون: يثرب ، والمدينة ، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى هو سمّى المدينةَ طابة»[2]. ومن خلالِ هذه المجالسِ غدا جابرٌ من علماء الصَّحابة العلماء المجتهدين ؛ رضي الله عنهم أجمعين.

جابـرٌ وروايـةُ الحـديـث:

* يُعدُّ سيدنا جابرُ بنُ سَمُرةَ رضي الله عنه من شَبابِ علماءِ الصَّحابةِ الذين تلقَّوا علْمهم عن الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ ، وممَّن تربّى في المدرسة المحمّديّة التي تخرّج فيها أعلام نبلاء الدنيا في المكارم والمحامد والفضائل والخيرات.

* روي لجابرِ بنِ سَمُرة عن رسولِ اللهِ ﷺ (١٤٦ حديثاً) ، اتَّفقَ البخاريُّ ومسلمٌ على حديثَيْن منها ، بينما انفردَ مسلمٌ بثلاثة وعشرين حديثاً[3].

* قال الذَّهبيُّ: «لِسَمُرةَ صُحبةٌ مشهورةٌ ، وروايةُ أحاديث ، وروىٰ عن النَّبيِّ ﷺ ، ولهُ أيضاً روايةٌ عن عمَر بنِ الخطَّاب ، وعن خاله سعدِ بنِ أبي وقَّاص ، وعن أبي أيّوب خالد بن زيد الأنصاريّ»[4].

* حدَّثَ عن جابر جماعةٌ من التَّابعين منهم: الشَّعبيُّ ، وتميمُ بنُ طَرَفة ، وسِمَاكُ بنُ حرب ، وعبدُ الملك بنُ عُمير ، وأبو خالد الوالبي ، وأبو إسحاق السّبيعي ، وابنُ خاله عامرُ بنُ سعد بن أبي وقّاص ، وجماعةٌ ، وحديثُه في الكُتُب كثير[5].

---

(١) المسند (٧/ ٣٤١) حديث رقم (٢٠٩٩٧) ، وانظر حديث رقم (٢٠٨٧٤).
(٢) المسند (٧/ ٤٢٩) حديث رقم (٢٠٩٨٥) ، وانظر حديث رقم (٢١٠٧٨).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٤٢).
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٨٦ و ١٨٧) بتصرف يسير.
(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٨٦ و١٨٧) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (حوادث ٦١ ـ ٨٠ ص ٨٣).

* ومرويَّاتُ سيدنا جابرِ بنِ سَمُرة رضي الله عنه منثورةٌ في كتُبِ الصَّحيح وكتبِ السُّنَن والمسانيدِ والمصنفّات والمستدركاتِ وغيرها ، وشملتْ أنواع العِلْم والفقه.

* ومن مرويّاتهُ في الصَّحيح ما أخرجَهُ البخاري بسنده عن عبدِ الملكِ بنِ عُمير عن جابرِ بن سَمُرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا هلكَ كسْرىٰ فلا كِسْرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصَر بعده ، والذي نفسي بيده ، لَتُـنفِقُـنَّ كنوزَهما في سبيل الله»[1].

* والحقيقةُ فهذا الحديثُ النَّبويُّ الشَّريفُ من دلائلِ نبوّة الصَّادقِ المصدوقِ سيّدنا وحبيبنا رسولِ اللهِ ﷺ ، وقد نقلَه إلينا هذا الصَّحابيُّ العَالِمُ

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس بهذا اللفظ برقم (٣١٢١) ، وانظر البخاري أيضاً برقم (٣٦١٩ و٦٦٢٩). وقوله «كِسْرى»: بكسرِ الكاف ، ويجوزُ بالفتح ، وهو لقبٌ لكلّ مَنْ وليَ مملكة الفرس. و«قيصر»: لقبٌ لكلّ مَنْ ولي مملكة الرّوم. والمرادُ من الحديثِ بأنَّه لا يبقى كسرى بالعراق ، ولا قيصر بالشام ، وسبب الحديث أنَّ قريشاً كانوا يأتون الشَّام والعراق تجاراً ، فلمّا أسلموا خافوا انقطاعَ سفرهم إليهما لدخولهم في الإسلام ، فقال النَّبي ﷺ ذلك تطيّباً لقلوبهم ، وتبشيراً لهم بأنَّ ملكهما سيزول عن الإقليمين المذكورين. وقوله: «هلك كسرى»: تحقّقُ وقوع ذلك حتّى عبرَ بلفظ الماضي ، وإن كان لم يقع بعد للمبالغة في ذلك ، كما قالَ تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: ١].
وقوله: «والذي نفسي بيده»: قَسَمٌ من النّبي ﷺ. وكانت يمينُ النّبي ﷺ التي كان يواظبُ على القسم بها أو يكثر أربعة ألفاظ:
أحدها: والذي نفسي بيده ، وكذا نفْس محمّدٍ بيده ، فبعضُها مُصَدَّر بلفظ لا ، وبعضها بلفظ أما ، وبعضها بلفظ ايم.
ثانيها: لا ومقلّب القُلوب.
ثالثها: واللهِ.
رابعها: وربّ الكعبة.
وعندما يقول «والذي نفسي بيده»: ينصرفُ عند الإطلاق لله عزّ وجلّ جزماً؛ ويلتحقُ به قوله: «والذي فلق الحبّة ، ومقلّب القلوب». ، وأما مثل «والذي أعبده ، أو أسجد له ، أو أصلي له» ، فصريح جزماً.

جابرُ بنُ سَمُرةَ رضي الله عنه ، فقد أوردَ البيهقيُّ في «دلائله» في «بابِ ما جاء في بعثِ رسولِ الله ﷺ إلى كسرىٰ بنِ هرمز وكتابه إليه ، ودعائه عند تمزيق كتابه عليه ، وإجابة الله تعالى دعاءَه ، وتصديقه قوله في هلاكه وهلاك جنوده وفتح كنوزه» ، وذكرَ بأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دعا عليهم أنْ يمزَّقوا كلّ ممزّقٍ ، وقد تحقَّقَ ذلك ، وشهد هذا التّمزيقَ سيدنا جابرُ بنُ سَمُرة ومعه أبوه ، وأصابوا من ذلك مالاً .

* أخرج البيهقيُّ بسنده عن جابرِ بنِ سَمُرةَ رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: «ليفتتحنَّ رهطٌ من أمّتي كَنْزَ آلِ كسرى ، الذي في الأبيض». فكنتُ أنا وأبي فيهم ، فأصبْنا من ذلك ألف درهم[1] .

* وممَّا أخرجَهُ الإمامُ مسلم في صحيحهِ بسندهِ عن سيّدنا جابرِ بن سَمُرة رضي الله عنه قال: «دخلتُ مع أبي على النَّبيِّ ﷺ ، فسمعتُه يقول: «إنَّ هذا الأمرَ لا ينقضي حتى يمضيَ فيهم اثنا عشر خليفة» ، قال: ثمّ تكلَّم بكلام خَفِيَ عليَّ ، فقلتُ لأبي: ما قال؟ قال: «كلُّهم من قريش»[2] .

* وفي روايةٍ: «انطلقتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ومعي أبي ، فسمعتُه يقول: «لا يزالُ هذا الدِّين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشَر خليفةً . . »[2] .

* وممَّا يندرجُ تحتَ باب العِلْم وأحكامِ الصَّلاة ما أخرجه الإمام أحمد بسنده عن سيدنا جابرِ بنِ سَمُرةَ أنَّ رجُلاً سأل النَّبي ﷺ: أتوضأُ من لحوم الغنم .

قال: «لا» .

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤/٣٨٩) ، وهذا الحديث أيضاً جاء عند مسلم في صحيحه في الفتن برقم (٢٩١٩/٧٨) وقوله: «الأبيض»: أي في قصره الأبيض ، أو قصوره ، أو دوره البيض .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة برقم (١٨٢١) ، وهو في البخاري ، وانظر: دلائل النبوة للأصفهاني (٢/ ٧٠٥) برقم (٤٨٥ و٤٨٦) ، ودلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٣٢٤) ، والمعجم الكبير (٢/ ١٩٥ ـ ١٩٧) ، والمسند (٧/ ٤١٢) حديث رقم (٢٠٨٨٥) .

قال: فأُصلّي في مراحِ الغَنَم؟

قال: «نعم».

قال: أتوضأُ من لحومِ الإبل؟

قال: «نعم».

قال: فأصلي في أعطانها؟

قال: «لا»[1].

* وفي بيانِ طيْبِ ريحه ﷺ ولين مسّه، ورحمته بالصّبيان وملاطفتهم، أخرج الطبراني بسنده عن سِمَاك بن حرب عن جابرِ بنِ سَمُرة رضي الله عنه قال: «كان الصِّبيانُ يمرّون بالنَّبي ﷺ فمنهم مَنْ يمسحُ خدَّه، ومنهم مَنْ يمسحُ خدَّيه، فمررتُ به، فمسح خدي، قال: فكان الخدَّ الذي مسحَه النّبي ﷺ أحسنَ من الخدِّ الآخر»[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٧/ ٤٠٤) حديث رقم (٣٠٨٣٧).

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٢٢١) حديث رقم (١٩٠٩). وجاء هذا الحديثُ عند مسلم أيضاً في كتاب الفضائل بسندٍ رفعه إلى سماك عن جابر بن سمرة، قال: «صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى، ثمَّ خرج إلى أهله، وخرجت معه، فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خَدَّيْ أحدهم واحداً واحداً؛ وأما أنا فمسح خدي، فوجدت ليده برداً أو ريحاً كأنما أخرجها من جؤنة عطّار» (أخرجه مسلم برقم (٢٣٢٩)، وانظر: (دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٥٦) ومعنى قوله «صلاة الأولى»: يعني: الظّهر. و«الولدان»: الصّبيان، واحدهم، وليد. و«جؤنة» بهمز أو بغير الهمز: سُلَيْلَة مستديرة مغشّاة فيها متاع العطار.

قال الإمامُ النَّوويُّ رحمه الله ما مفاده: «وفي مسْحهِ ﷺ الصّبيان بيانُ حسن خلقه ورحمته للأطفال، وملاطفتهم. وفي هذا الحديث بيان طيبِ ريحه ﷺ، وهو ممّا أكرمه الله تعالى. قال العلماء: كانت هذه الريحُ الطّيّبةُ صفتَه ﷺ، وإن لم يمسَّ طيباً، ومع هذا فكان يستعملُ الطّيب في كثيرٍ من الأوقات مبالغة في طيب ريحه لملاقاة الملائكة، وأخذ الوحي الكريم، ومجالسة المسلمين». (المنهاج ص ١٧١٢) بتصرف يسير.

معرفتهُ بالشَّمَائِلِ المُحَمَّدِيَّةِ:

* سيّدنا جابرُ بنُ سَمُرةَ رضوان الله عليه من أكثرِ صغارِ الصَّحابةِ العُلماء معرفةً بأحوالِ الحبيبِ المصطفى الصَّادق المصدوقِ رسول الله ﷺ ، وإنّ ما وصَلَ إلينا من أحاديثَ في هذا المجالِ المونقِ والمضمارِ المُشْرِق ليدلَّ على صحَّةِ ما نقول.

* فلقد جاءتِ الآثارُ «الجَابريّةُ السَّمُريَّةُ» التي حملتها إلينا المصادرُ الموثوقةُ تَصِفُ شمائلَ النّبيّ ﷺ وبعضاً من أحوالهِ وخصوصيّاتِهِ الشَّريفةِ التي اختُصَّ بها.

* ففي صفةِ النّبي ﷺ ، وصفةِ فمهِ الشَّريف وعينَيه وعقبَيْه يقول جابرُ بنُ سَمُرةَ: «كان رسولُ اللهِ ﷺ ضليعَ الفم ، أشكَلَ العين ، مَنْهُوسَ العقبين»(١).

* وأخرجَ التّرمذي عن جابرِ بنِ سَمُرةَ رضي الله عنه قال: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ في ليلةِ إضْحِيَان ، وعليه حلّةٌ حمراء ، فجعلتُ أنظرُ إليه ، وإلى القمرِ ، فَلَهُوَ عندي أحسنُ من القمر»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل بهذا اللفظ برقم (٢٣٣٩) ، والترمذي في الشمائل برقم (٨) وقوله «ضليع الفم»: واسع الفم ، والعرب تُمدح بذلك ، وتذم صغر الفم. و«أشكل العين» هو حمرة في بياض العينين ، وهو محمود ، والشُّهلة: حمرة في سواد العين. و«المنهوس»: قليل لحم العقب. وقال ابن كثير: وذلك يدل على القوة والشجاعة ، والله تعالى أعلم» (شمائل الرسول ص ١٨).

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم (٩) ، وفي جامعه برقم (٢٨١١) ، والسيوطي في الخصائص (١/ ٧١) ، وجاء عند البيهقي في «الدلائل» بلفظ «كان رسول الله ﷺ وجهه مستديراً مثل الشمس والقمر» (دلائل النبوة ١/ ١٩٥) ، وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٢/ ٧١). وقوله: «ليلة إضحيان» أي ليلة مضيئة مقمرة. و«حُلة حمراء»: الحُلَّة: إزار ورداء ، ولا تكون الحلة إلا اسماً للثوبين معاً ، وغلطَ مَنْ ظنَّ أنّها كانت حمراء بحتاً ، لا يخالطها غيره ، وإنما الحلة الحمراء: بُردان يمانيان منسوجان بخطوط حُمر مع السود ، كسائر البرود اليمنية ، وهي معروفة بهذا الاسم ، باعتبار ما فيها من الخطوط الحمر ، وإلا فالأحمر البحث منهيٌّ عنه أشد النهي. انظر في هذا (زاد المعاد ١/ ١٣٧).

* وفي صفةِ خاتَم النُّبوّة الشَّريف نجدُ الخبرَ اليقين ، والصُّورةَ الواضحةَ في قولِ سيّدنا جابرِ بنِ سَمُرةَ: «رأيتُ الخاتَم عند كتفِهِ مثل بيضة الحمامة يشْبِه جسده»[1].

* ويصفُ لنا شَيْبَ رسولِ الله ﷺ ، فيما أخرجه مسلمٌ وغيرُهُ بسندٍ عن سِماك بنِ حرب ، قال: سمعتُ جابرَ بنَ سَمُرةَ سُئِلَ عن شَيْبِ النَّبي ﷺ فقال: «كان إذا دهَنَ رأسَه لم يُرَ منه شيءٌ ، وإذا لمْ يدّهنْ رُئي منه»[2].

* وقد ذكر سيّدنا جابرُ بنُ سَمُرةَ رضي الله عنه ما رآهُ عياناً من وسائد النّبي ﷺ فقال: «رأيتُ النَّبيَّ ﷺ متكئاً على وسادة»[3].

* وعمّا جاء في ضحِكِ الحبيبِ المُصْطَفى والصَّادقِ المربّي رسولِ الله ﷺ ، قال: «كان في ساقَي رسولِ الله ﷺ حموشة ، وكان لا يضحكُ إلا تبسّماً ، فكنت إذا نظرتُ إليه ، قلتُ: أكحل العينين وليس بأكحل»[4].

* وعن المجالسِ النَّبويةِ ، وعمّا كان يتكلَّمُ به النَّبيُّ ﷺ وأصحابه من أدبِ العرب وأخبارهم ، ينقلُ لنا سيّدنا جابرُ بنُ سمرة رضي الله عنه صورةً واضحةً جليةً ، فيقول: «جالستُ النَّبيَّ ﷺ أكثرَ من مئةِ مرّةٍ ، وكان أصحابه

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣٤٤/١٠٩) واللفظ له. والترمذي في الشمائل برقم (١٦) ، ومختصر تاريخ دمشق (٢/ ١٦٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (١/ ٢٣٤ و٢٦٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٣٤٤) ، والنسائي (٨/ ١٥٠) ، والترمذي في الشمائل برقم (٣٨) ، وفي رواية أخرى للترمذي عن جابر بن سمرة أيضاً قال: «قيل لجابر بن سمرة رضي الله عنه: أكان في رأس رسول الله ﷺ شيب؟ قال: لم يكن في رأس رسول الله ﷺ شيب إلا شعرات في مفرق رأسه إذا ادّهنَ واراهنّ الدّهن» (الشمائل برقم ٤٣) وقوله «واراهن»: سترهنّ.

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم (١٢٨) ، طبعة دار اليمامة بدمشق.

(٤) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم (٢٢٩) ، والبيهقي في الدلائل (١/ ٢٤٧ و٢٤٨) ، ومختصر تاريخ دمشق (٢/ ٧٠ و٧١) ، وتاريخ الإسلام (السيرة النبوية ص ٤١٨) ، وقوله «حموشة السّاقين»: أي دقة ، والمراد: نفي غلظها ، وذلك ممّا يمتدح به ، وقد أكثر أهل القيافة من مدحها ، وفوائدها. و«أكحل»: أي ذو سواد في أجفان العين خِلْقةً.

يتناشدون الشِّعر ، ويتذاكرون أشياء من أمْرِ الجاهليّةِ ، وهو ساكتٌ ، وربّما تبسَّم معهم»[1] .

* ومن دلائلِ نُبُوّة سيِّدنا رسولِ الله ﷺ تسليم الجمادات عليه ، وخاصّة تسليم الحجَر ، وهذا ما ذكره سيّدنا جابرُ بنُ سَمُرةَ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنّي لأعرفُ حجَراً بمكَّة كان يسلِّمُ عليَّ قبل أنْ أُبعَثَ ، إنّي لأعرفهُ الآن»[2] .

* وكثيراً ما وصفَ سيدنا جابر مجالس الذّكر النّبويّة ، والهدي المحمّدي فيها ، وقد جاء هذا جلياً في الصَّحيح عند مسلم ، أنَّ سماكَ بنَ حرب قال: «قلتُ لجابرِ بنِ سَمُرةَ: أكنْتَ تجالسُ رسولَ الله ﷺ؟

قال: نعم؛ كثيراً ، كان لا يقومُ من مُصَلاّه الذي يصلّي فيه الصُّبح أو الغداة حتّى تطلعَ الشّمس ، فإذا طلعتِ الشَّمس قام ، وكانوا يتحدّثون ، فيأخذون في أمْرِ الجاهلية ، فيضحكون ويبتسم»[3] .

اهتمامُهُ بالتَّفسير والفِقْه:

* كان سيدنا جابرُ بنُ سَمُرةَ عالماً من علماءِ الصَّحابة الكرام الذين لهم مشاركاتٌ في روايةِ الحديث النَّبوي الشَّريف ، وفي التَّفسير ، والفقْه ، وكلٌّ

---

(١) أخرج البيهقي في الدلائل (١/ ٣٢٣ و٣٢٤) ، والترمذي في الشمائل برقم (٢٤٩) ، وأبو يعلى برقم (٧٤٤٩) ، ومختصر تاريخ دمشق (٢/ ٢٢٢) ، وقوله: «يتناشدون الشِّعر»: أي أنشد بعضهم بعضاً الشعر. وانظر: المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٢٢١).

(٢) دلائل النبوة للأصفهاني (٢/ ٥١٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٥٣) ، ومختصر تاريخ دمشق (٢/ ١٣٩) و(٣/ ٢٩٠) ، وهذا الحديث أخرجه مسلم في الفضائل برقم (٢٢٧٧) ، وانظر: شفاء الغرام للفاسي (١/ ٤٣٩) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (السيرة النبوية ص ١٢٥).

(٣) أخرجه مسلم في المساجد برقم (٦٧٠) ، والنسائي في السهو (٣/ ٨٠ و٨١) ، وابن سعد (١/ ٣٧٢) ، وفي رواية أخرى عند مسلم عن جابر بن سمرة قال: «إن النبي ﷺ كان إذا صلّى الفجر جلس في مصلاّهُ حتى تطلع الشمس حَسَناً». والمعنى: أي تطلع طلوعاً حسناً ، أي: مرتفعة وفي الحديث جواز الضحك والتبسم ، والمساجد محل نزول الرحمة؛ والله أعلم.

هذا مُقْتَبَسٌ من الهدي النّبوي ، وقد استفاد كثيرٌ من المفسّرين في توضيح كثيرٍ من الأحكام بمرويات جابرِ بن سَمُرةَ .

* من ذلك تسبيحُ الجمادات وتسليمُها على النَّبيّ ﷺ قُبيل بعثتِه[1] ، وكذلك أنَّ جابرَ بنَ سَمُرةَ كان يقولُ لأصحابه: «كان رسولُ الله ﷺ يصلّي الصَّلواتِ نحواً من صلاتكم ، وكان يؤخّر العتمةَ ـ العشَاء ـ بعد صلاتكم شيئاً ، وكان يُخَفّفُ الصَّلاة»[2] ، كما أنَّه ﷺ لا يقومُ من مُصلاّه حتّى تطلعَ الشَّمس[3] .

* ونجد كذلك المفسّرين يوضحون الأمْرَ بالسّكون في الصَّلاة ، وإتمام الصّفوف ، كما تصف الملائكة عند ربّها ، يقول جابرُ بنُ سمرة روايةً عن رسولِ الله ﷺ: «يتمّون الصّفوف الأُوَل ، ويتراصّون في الصَّفّ»[4] .

* وكذلك حديثُه الذي يفسّر بأنَّ النَّبي ﷺ كان يقرأُ في صلاة الفجر سورةَ ﴿قٓ﴾[5] ، وكذلك يفسّر أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يخطبُ قائماً ثم يجلسُ ، ثمّ يقومُ فيخطبُ ، ولم يكن يخطبُ جالساً ، ودليله أنَّه صلَّى وراءَه أكثر من ألفي صلاة[6] .

* ومن فِقْهِ سيدنا جابرِ بن سَمُرةَ رضي الله عنه أنَّه كان يسلِّمُ في الصَّلاة عن يمينهِ ، ويسارهِ ، تأسّياً بما فعل النَّبي ﷺ في صلاته[7] .

* ويُضاف إلى فقْهِ سيّدنا جابرِ بنِ سَمرة جواز الوضوء من لحومِ الإبل ، ومن المتحمل أنْ يكون المرادُ به الوضوء اللغوي ، وهو غَسْل اليدِ بقرينة

---

(١) انظر في هذا تفسير القرطبي (١٠/ ٢٦٨).
(٢) المصدر السابق (١٢/ ٣٠٦).
(٣) المصدر السابق (١٣/ ١٧٥) ، وانظر: مجمع الزوائد (١٠/ ١٠٧).
(٤) تفسير القرطبي (١٥/ ١٣٧) ، وحياة الصحابة (٣/ ١٢٤).
(٥) تفسير القرطبي (١٧/ ١) ، وانظر: زاد المعاد (١/ ٢١٣) ، ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٥٥).
(٦) تفسير القرطبي (١٨/ ١١٤).
(٧) زاد المعاد (١/ ٢٥٨).

الأكْل لشدّة الزُّهومةِ في لحوم الإبل[1].

* وكان جابرُ بنُ سَمُرةَ رضي الله عنه لا يصلّي على المُنْتَحرِ ، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ ، أُتي برجلٍ قَتَلَ نَفْسَه بمقصّ ، فلم يُصَلِّ عليه[2].

جَابرٌ وكُبَراءُ الصَّحَابةِ:

* لجابرِ بنِ سَمُرةَ رضوانُ اللهِ عليه أخبارٌ مونقةٌ مع أكابرِ علماء الصَّحابة وساداتهم ، وهذه الأخبارُ لا تخلو من تربيةٍ وتعليمٍ وتفهيمٍ وتوضيحٍ لكثير من الأحكامِ الشَّرعية التي وصلَتْ إلينا عن طريق جابرِ بنِ سَمُرةَ رضي الله عنه.

* من ذلك أنَّ جابراً رضي الله عنه حضَرَ خطبةَ سيّدنا عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه بالجابية[3] ، وحفظَها ، ونقلَها للأمّةِ وعلمائِها فقال: «خطبنا عمرُ بالجابيةِ ، فقال: قام فينا رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «أكرموا أصحابي ، ثمّ الذين يلونهم ، ثمّ الذين يلونهم ، ثمّ يفشو الكذب ، حتى يشهدَ الرَّجُل وما يُسْتَشهد ، وحتّى يحلفَ الرَّجُل وإنْ لم يُسْتَحلفْ ، فمن أرادَ بحبوحة الجنّةِ فَلْيلزمِ الجماعةَ ، فإنَّ الشَّيطانَ مع الواحدِ ، وهو من الاثنين أبعد ، أَلا لا يخلونَّ رجلٌ بامرأة ، فإنَّ ثالثهما الشَّيطان ، ألا فَمَنْ سرّته حسَنَتُهُ ، وساءته سيئته فهو مؤمن»[4].

* وله مع خالهِ سعدِ بنِ أبي وقّاص رضي الله عنه أخبارٌ علميةٌ نافعةٌ ، تصوّرَ بطولةَ سعد ، وصلاحَه ، وأمانتَه ، وتقواه ، وعلمَه واستجابةَ دعائه ، ومن هذه الأخبار ما أودعه عنه ابن عساكر في «تاريخه» قال: قال جابرُ بنُ

---

(١) البدر التمام (١/ ٢٤٧).
(٢) البدر التمام(٢/ ٢٤٨) ، ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٥٥).
(٣) «الجابية»: محلة في جنوب غرب دمشق القديمة ، نسبة إلى قرية الجابية ، من أعمال دمشق شمال الصَّنَمْين من حوران ، نُسب إليها الباب ، فيقال: باب الجابية. وهي الآن وسط دمشق معروفة لدى الخاص والعام.
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٥٦).

سَمُرَةَ: «خرجتُ أنا وسعدُ بنُ أبي وقاص في سرّيةٍ فانهزمنا ، فالتفَتَ سعدٌ ، فإذا رِجْلُ رَجُلٍ خارجة من الرَّحْلِ ، فرمَاهُ بِسَهمٍ فأصابَ ساقَه ، فكأنّي أنظرُ إلى الدمِ على الرّجل كأنّه شراك ، وكان أوّل مَنْ رمى بسهم في الإسلام»[1].

* ومن أخبار سيّدنا جابر مع خاله سعدِ بنِ أبي وقاص رضي الله عنه ما ذكره من أنَّه كان جالساً عند سيّدنا عمر جلسةً عمريّةً جابريّةً علميّةً ، فجاءه ناسٌ من أهلِ الكوفة يَشْكُون إليه سَعْداً ، حتَّى وصل بهم القول: بأنَّه لا يحسنُ الصَّلاةَ!!! ترى ما أحداث هذه القصة؟!

* جاءت هذه القصّةُ في الصَّحيحِ وغيرِه ، فقد أخرجَ البخاريُ بسنده عن عبدِ الملك بنِ عُمير عن جابرِ بنِ سَمُرة قال: «شكا أهلُ الكوفةِ سعداً إلى عمرَ رضي الله عنه ، فَعَزَلَهُ ، واستعملَ عليهم عمّاراً ، فشكوا حتّى ذكروا أنَّه لا يُحسِنُ يصلّي ، فأرسلَ إليه فقال: يا أبا إسحاق ، إنَّ هؤلاء يزعُمون أنَّكَ لا تحسِنُ تُصَلّي.

قال أبو إسحاق: أمَا أنا واللهِ فإنّي كنْتُ أصلّي بهم صلاةَ رسولِ الله ﷺ ، ما أُخْرِمُ عنها ، أصلّي صلاةَ العِشَاء ، فأركدُ في الأولَيَيْن ، وأُخِفُّ في الأُخْرَيين.

قال: ذاك الظَّنُّ بك يا أبا إسحاق.

فأرسل معه رجلاً ـ أو رجالاً ـ إلى الكوفةِ ، فسألَ عنه أهلَ الكوفة ، ولم يدعْ مسجِداً إلاّ سألَ عنه ، ويُثْنون معروفاً ، حتى دخل مسجداً لبني عَبْس ، فقامَ رجلٌ منهم يُقال له أسامة بن قَتَادَةَ ، يكنى أبا سَعْدَةَ قال: أما إذ نشدتنا فإنَّ سَعْداً كان لا يسيرُ بالسَّريّة ، ولا يقسِمُ بالسَّوية ، ولا يعدلُ في القضيّة.

قال سعدُ: أما واللهِ لأدعونَّ بثلاث: اللهم إن كانَ عبدك هذا كاذباً قام رياءً وسمعةً ، فأطِلْ عمره ، وأطِلْ فَقْره ، وعرِّضه بالفتن.

وكان بَعْدُ إذا سُئِلَ يقول: شيخٌ كبيرٌ مفتون ، أصابتني دعوةُ سعد. قال

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٥٦).

عبدُ الملك: فأنا رأيتُه بَعْدُ قد سَقَطَ حاجباه على عينَيه من الكبر ، وإنَّه يَتَعرّض للجواري في الطَّريق يغمزهنّ»[1].

* ومن الأخبار التي تتعلَّقُ بسيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والتي

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان برقم (٧٥٥) ، ومختصر تاريخ دمشق (٩/٢٦٣) ، وسير أعلام النبلاء (١/١١٢) وغيرها كثير. ومعنى قوله «عماراً»: هو عمار بن ياسر. و«يا أبا إسحاق»: هي كنية سعد ، كنّى بذلك بأكبر أولاده ، وهذا تعظيم من عمر له ، وفيه دلالة على أنّه لم تقدح فيه الشكوى عنده. و«ما أخرمُ»: لا أنقص. و«صلاة العشاء»: لعل شكواهم كانت في هاتين الصَّلاتين خاصة. و«أركد في الأوليين»: أقيم طويلاً وأطول فيهما القراءة ، وربما الركوع والسجود. و«أُخِفّ»: عدم التطويل. و«ذلك الظن بك»: أي هذا الذي تقوله يا سعد هو الذي كنّا نظنّه ، وفيه دليل على أنَّ الذين شَكَوهُ لم يكونوا من أهل العلم ، وكأنّهم ظنّوا مشروعية التّسوية بين الركعاتِ فأنكروا على سعدٍ التّفرقة ، فيستفاد منه ذمّ القول بالرّأي الذي لا يستند إلى أصل.
و«فأرسل معه رجلاً»: هو محمدُ بنُ مسلمة الأنصاريّ ، كان يقتصّ آثار مَنْ شكى من العمال في زمن عمر. و«بالسَّرية»: السّرية: قطعة من الجيش ، و«القضية»: الحكومة. و«لأدعون بثلاث»: أي عليك. والحكمة في ذلك أنَّه نفى عنه الفضائل الثلاث: وهي الشجاعة ، والعفّة ، والحكمة ، فهذه الثلاثة تتعلّق بالنفس والمال والدين. فقابلها بمثلها: طول العمل يتعلق بالنفس ، وطول الفقر يتعلّق بالمال ، والوقوع في الفتن يتعلّق بالدين ، وقد راعى سعدٌ رضي الله عنه العدلَ والإنصاف في الدعاء عليه ، إذ علّقه بشرط أن يكون كاذباً ، وأن يكون الحامل له على ذلك الغرض الدنيوي. و«رياءً وسمعةً»: أي ليراهُ النّاس ويسمعوه ، فيشهروا ذلك عنه ، فيكون له بذلك ذكْرٌ. و«فكان بعد»: أي أبو سعدة. و«سُئل»: إذا قيل له: كيف أنتَ؟ و«شيخ كبير مفتون»: أي رجل امتدّ به العمر فافتقر وافتتن ، و«دعوة سعد»: وكان سعد معروفاً بإجابة الدعوة ، لأن النبي ﷺ قال: «اللهم استجب لسعدٍ إذا دعاك». وفي هذا الحديث فوائد كثيرة سوى ما تقدم منها: عزل الإمام لبعض عماله حسماً للفتنة. وفيه استفسار العامل عما قيل فيه ، والسّؤال عمن شكى في موضع عمله ، والاقتصاد في المسألة على مَنْ يظنّ به الفضل. وفيه خطاب الرجل بكنيته ، والاعتذار لمن سمع في حقّه كلام يسؤوه ، وفيه الفرق بين الافتراء الذي يُقصد به السَّبّ ، والافتراء الذي يُقصد به دفع الضّرر ، فيعزز قائل الأول دون الثاني. ويحتمل أن يكون سعد لم يطلب حقّه منهم أو عفا عنهم ، واكتفى بالدعاء على الذي كشف قناعه بالافتراء عليه دون غيره ، فإنه صار كالمنفرد بأذيته ، فانتصر لنفسه ودعا عليه. وفيه جواز الدعاء على الظالم والله أعلم.

ذكرها جابرُ بنُ سمرة ، من أنَّ عليّاً قد حملَ الباب يوم خيبر حتى صَعِدَ المسلمون وفتحوا الحصْن[1].

* وهذا الخبرُ يشيرُ إلى حضورِ سيدنا جابر المغَازي النّبويّة ، فقد جاء في سيرته أنَّ النَّبي ﷺ أجازَه في يومِ أحد[2] ، فحضَرَها ، ويظهرُ أنَّه قد حضرَ ما بعدها.

* كما أنَّ جابراً رضي الله عنه قد وهَبَ له خاله سَعْد يوم المدائن غُلامين من أبناءِ الأكاسرة ، أحدهما: بَذيمة ، وهو: أبو علي بن بَذيمة[3] الذي يُروىٰ عنه ، والآخر هو: أبو زهير ، وهو جدّ المطّلب بن زياد بن أبي زُهير ، فأعتقهما جابر[4].

* وهناك كثيرٌ من الأخبار لجابر مع عددٍ من الصَّحابةِ ، ولكن لم نذكرها[5] لأنَّها بعيدةٌ عن موضوعنا في هذا الكتاب الذي محورهُ عن علماء الصَّحابةِ وأدبِهم وفقهِهم وروايتهم وتفسيرهم. .

وفاةُ جابرِ بنِ سَمُرَةَ:

* عاش سيدنا جابرُ بنُ سمرة رضي الله عنه زمناً طويلاً بعد الصَّادقِ المصدوق ﷺ ، فهو أحدُ علماء الصَّحابة الذين نشروا العلم في البلدان ، وتركوا فيها الآثار الحِسان ، وقد قضىٰ حياته مُجاهداً وعالماً ومعلّماً ، حتى استقرَّ بالكوفةِ في العراق ، وبنى فيها داراً ، وله أولادٌ ذكورٌ أربعة وهم: خالد ، ومسلم ، وأبو جعفر ، وجُبير ، والعقِبُ منهم لمسلمٍ وخالد[6].

---

(١) حياة الصحابة (١/ ٥٤٦) بتصرف يسير.
(٢) الكامل في التاريخ (٢/ ١٥١).
(٣) المعارف (ص ٣٠٦) ، ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٢٠٤).
(٤) المعارف (ص ٣٠٦).
(٥) انظر مثلاً: دلائل النبوة للأصفهاني (٢/ ٧٠٩) ، ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٣٢١) و(١٨/ ٨٧) وغيرها.
(٦) أسد الغابة (١/ ٣٠٤) ترجمة رقم (٦٣٨).

* توفي جابرُ بنُ سمرةَ سنة (٧٦ هـ) بالكوفةِ وصلى عليه عمرو بنُ حُريث[1] ، وكان قد تجاوزَ التّسعين ، فهو من علماء الصَّحابة المُعَمَّرين رضي الله عنهم أجمعين.

* رضي الله عن جابرِ بن سَمُرة ، ونفَعنا بسيرتهِ وسيرِ علماءِ الصَّحابة ، وسيرِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ أجمعين ، والحمد لله ربِّ العالمين أولاً وآخراً ، وغَفَر لنا بفضله وكرمه.

* * *

(١) المعجم الكبير (٢/ ١٩٥) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٨٧).




فَضَالة بن عبيد

* من علماء الصّحابة المتّقين ، العاملين ، الورعين ، العابدين .
* كان قاضياً فقيهاً عالماً مجاهداً نبيلاً فاضلاً وشهد بيعة الرضوان .
* له خمسون حديثاً وهو من حفاظ القرآن في عصره .
* أثرت عنه أقوال ورقائق وحكم تشير إلى فضله ونُبْله .
* عاش عالماً وقاضياً ومجاهداً وتوفي بدمشق سنة (٥٣ هـ) .




فَضَالَةُ بنُ عُبَيد

الحَكيمُ التَّقيُّ:

* جعلَ اللهُ العِلْم وسائلَ أوليائِه ، وعَصَم بهِ من اخْتَارَهُ من أصفيائهِ ، والعَالِمُ الحصيفُ هو الذي يتخيَّرُ من الأخلاقِ أَجْمَلَها ، ومن الآداب أفضَلَها ، ومن الحكمة أكْملَها.

* وهذا الصَّحابي من عبادِ اللهِ المتّقين ، ومن الصَّحابةِ العامِلين ، ومن العُلماء الورعين ، وكان يقولُ: «لأنْ أعلم أنَّ الله تقبَّلَ منّي مثقالَ حبّةٍ من خردلٍ أحبُّ إليّ من الدُّنيا وما فيها ، لأنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٣٠][1]».

* تميَّزَ هذا الصّحابيُ بالحكمةِ وفصْلِ الخطاب ، وسرعةِ البديهةِ وحسنِ الجوابِ ، وعلمه في القَضَاء يطاول أعناقَ السّحاب.

* إنَّه فَضَالةُ بنُ عُبيد بن نافذ الأنصاريّ الأوسي أبو محمّد[2] ، القاضي

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٧) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١١٦) ، ومختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٧٣ و٢٧٤).

(٢) أخبار القضاة (٣/ ٢٠٠ و٢٠١) ، ومشاهير علماء الأمصار (ص ٨٨) رقم (٣٣٩) ، ومختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٧٠ ـ ٢٧٤) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٠) ، وزيارات الشام (ص ٥٠) ، والاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار (ص ٣١٦ و٣١٧) ، والاستيعاب (٣/ ١٩٢ و١٩٣) ، والإصابة (٣/ ٢٠١) ، وأسد الغابة (٤/ ٦٣ و٦٤) ترجمة رقم (٤٢٢٦) وغيرها كثير.

الفقيهُ ، صاحبُ سيِّدِنا رسولِ الله ﷺ من أهل بيعة الرّضْوان الذين رضيَ اللهُ عنهم.

* وفَضَالَةُ كَلِمةٌ مشتقَّةٌ من الفَضْل ، قال ابنُ دُريد ما مفادُهُ: «الفَضْلُ ضَدُّ النَّقْص. . . ورجلٌ كثيرُ الفَواضِل ، إذا كان يُفْضِلُ على النّاس. . . ورجلٌ ذو فضائلَ ، إذا كانت فيه خصالٌ يفضُل بها. . . وقد سمَّتِ العَربُ فَضْلاً ، وفُضَيلاً ، ومُفَضَّلاً ، وفضَّالاً ، وفضَالَة ، وفاضِلة ، وفُضَيلة»[1].

* وسيّدنا فَضَالَةُ رضي الله عنه أحدُ الأنصارِ الأوسيّين ، يَصِلُ في نسبه إلى مالكِ بنِ الأوسِ الأنصاريّ العمريّ[2] ، وهو من بَطْنٍ يُقَال لهم «بنو جَحْجَبَى»[3].

* وعندما قدمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ مهاجراً ، كان فضالَةُ بنُ عبيد رضي الله عنه في سنّ صغيرة ، ربما يزيدُ عن عشْرة أعوامٍ قليلاً ، فأحْسَنَ استقبالَه مع لِداتِهِ ، وقد روى فَضَالَةُ هذا فقال ما خلاصتُهُ: «لما كان اليومُ الذي قدمَ فيه رسولُ اللهِ ﷺ قباء ، لقيناه ونحنُ غلمان نحتطبُ ، فأرسلنا إلى أهلِنا فأخبرناهم بقدومِ النّبيّ ﷺ ، فأقبلَ القومُ واستقبلوه»[4].

* وهذا الخبرُ يدلُّ على أنَّ سيّدنا فَضَالةَ كان قد عرفَ الإسلام ، وأسلمَ مع قومهِ الأنصار الذين أسلمُوا قبلَ هجرةِ النّبيّ ﷺ إلى المدينة.

* ولكنّنا لا نمتلكُ معلوماتٍ عن أبويهِ إلا النَّزْر اليسير ممَّا جاء في بعضِ

---

(١) الاشتقاق لابن دريد (ص ٦٤) باختصار وتصرف.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٠).

(٣) «بنو جَحْجَبَى»: أو جَحْجَبا ، بَطْنٌ ، واشتقاق جحجبى من الجحجبة ، وهو التّردد في الشيء ، والمجيء والذهاب ، جَحْجَبَ يجحجِبُ جحجبةً ، ومن رجالهم: أُحيحة بن الجلاح بن الحَريش بن جحجبى سيد الأوس في الجاهلية ، من الشعراء (الاشتقاق ص ٤٤١) بتصرف يسير.

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٧١) بتصرف. وقد وردَ هذا الخبر مضطرباً في المصدرِ المذكور ، فحاولتُ أنْ أذكرَهُ على صيغةٍ مفهومةٍ قريبةٍ من سيرةِ فَضَالةَ وأخباره.

المصَادر التي قالت: «أسلمَ فَضَالةُ قديماً. . .»[1] وقالت: «أُمُّهُ عقبةُ بنتُ محمّد بنِ عقبة بنِ الجلاح الأنصاريّة. . .»[2]، وقالت: «إنَّ أباه عُبيداً كان شَاعراً، وله ذكْرٌ في حربِ الأوسِ والخزرجِ، وكان يسبقُ الخيلَ، ويضربُ الحجرَ بالحجرِ بالرّحلةِ فيوري النّار»[3].

حرصُهُ على الجهاد والفتوحات:

* أجمعَ كُتَّابُ السِّيرة والمغازي والتّراجم بأنَّ أوّلَ مشاهدِ سيدنا فَضَالَةَ كانت غزوة أحد، ثمّ شهِد ما بعدها بالمعيّةِ النّبويّةِ.

* وقد أجملتِ المصادرُ السِّيرةُ الجهاديّةُ الفَضَاليّةُ فقالت ما محصّله ومفادُهُ: «شهدَ فَضَالَةُ بنُ عبيد الأنصاريّ أُحُداً، والخندقَ، والمشاهدَ كلَّها مع رسولِ اللهِ ﷺ. وهو كذلك من أهل بيعةِ الرّضوانِ الذين بايعوا تحتَ الشَّجرةِ في الحُديبية الذين روىٰ جابرُ بنُ عبد الله أنَّ النبي ﷺ قال في حقّهم: «ليدخلنَّ الجنَّةَ مَنْ بايع تحتَ الشَّجرة». وكان فَضَالةُ أصغرَ مَنْ شَهِدَ بيعة الرضوان من الصَّحابة الكرام»[4].

* وقال ابنُ يُونُس: «شَهِدَ فَضَالةُ فَتْح مِصْرَ، وولي بها القضاءَ والبحرَ لمعاوية، فروى عنه من أهلِها: أبو خِراش الصَّحابي، والهيثمُ بنُ شُفَي، وعبد الرّحمن بنُ حجدم، وسمّىٰ جماعةً»[5].

* خرجَ سيّدنا أبو محمّد فضالةُ بنُ عُبيد إلى الشَّام، ومن ثمَّ سكَنَها،

---

(١) انظر: الإصابة (٣/ ٢٠١).

(٢) انظر: المستدرك (٣/ ٥٣٧) ولكنَّ الحاكمَ لم يذكرِ اسمَ أمّه عقبة، وإنَّما قال: «وأمّه: ابنة محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاحِ». وانظر: الإصابة (٣/ ٢٠١).

(٣) الإصابة (٣/ ٢٠١)، والاستبصار في نَسَب الصَّحابة من الأنصار لابن قدامة المقدسي (ص ٣١٧)، وقال ابن قدامة: «وابنه: معن بن فَضَالة وليَ اليمن لمعاوية، وأبوه عبيد كان شاعراً».

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١١٤) والاستبصار (ص ٣١٦)، وأسد الغابة (٤/ ٦٣) ترجمة رقم (٤٢٢٦) مع الجمع والتصرف.

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ١١٤).

واتّخذها مقرّاً للانطلاقِ إلى مغازيهِ ضدّ الرُّوم ، فقد ذكروا أنَّ سيّدنا معاويةَ رضي الله عنه ولاَّهُ على الغزاة ، فكان تاريخه حافلاً بالعلم والجهاد والفتوحات.

* قال ابنُ عساكر: «شهد فضالَةُ أُحُداً والخندقَ ، والمشاهدَ كلَّها مع رسولِ اللهِ ﷺ ، وخرجَ إلى الشَّام ولم يزلْ فيها حتَّى مات هناك ، وشهدَ فَتْحَ مصرَ ، وولي بها القضاء والبحر لمعاوية. . . وقد غزا المغربَ مع رُوَيْفع بنِ ثابت»[1].

* ومن مغازي سيّدنا فضالةَ مع الصَّادق المصدوق ﷺ غزوة تبوك ، وفيها حدثَتْ كثيرٌ من معجزاتِ النُّبوّة ، وشهدَ فضَالَةُ واحدةً منها ، وها هو ذا يسردُ هذه المكرمةَ الإلهيّة الممزوجةَ بالمنحةِ العليّةِ لتأييدِ المعجزاتِ النّبويّة ، يقول فضالةُ ما مجملُه ومحصّلُه: «غزونا مع رسولِ اللهِ ﷺ غزوةَ تبوك ، فجهدَ النَّاسُ جُهداً شَديداً ، وجهدتْ دوابُّهم حتَّى صاروا يسوقُونها ، فشكُوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ ما بِهم وبدوابهم من الجهدِ والتّعبِ ، ورآهم يسوقُونَها؛ فتخيَّرَ لهم مضيقاً سار النَّاس فيه ، ورسولُ اللهِ ﷺ يقولُ: «مُرُّوا باسْمِ الله» ، فمرُّوا؛ فَجَعَلَ ينفخُ في دوابهم وهو يقولُ: «اللهمّ احمِلْ عليها في سبيلكَ ، فإنّك تحملُ علىٰ القَويّ الضَّعيف ، والرّطْب واليابِسَ في البرِّ والبحرِ» ، فزالَ منها الإعياءُ والتَّعَبُ ، وما بلغنا المدينةَ المنورةَ حتّى جعلَتْ تنازِعُنَا أزمَّتَها لِشَدَّة نَشَاطِها وسرعتها. قال فَضَالَةُ: فقلتُ: هذه دعوةُ رسولِ اللهِ ﷺ على القويّ والضَّعيف ، فما بالُ الرّطْبِ واليابس؟!

قال: فلمّا قدمنا الشَّام ، غزونا غزوةَ قُبرس ـ قبرص ـ في البحرِ ،

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٢٠/٢٧١) بتصرف يسير. وقال محمد بن مكرم المعروف بابن منظور الذي اختصر تاريخ دمشق الكبير: «هذا رُويفع بن ثابت جدّي الذي أنتسب إليه ، رحمه الله».

ورأيتُ السُّفُنَ في البحرِ ، وما يدخلُ فيها ، وما يُحمَلُ عليها ، عرفْتُ حينئذٍ دعوةَ رسولِ الله ﷺ»[1] .

* وذكر أبو راشد الحَبْراني مصداقَ ما ذكره سيّدنا فَضَالةُ فقال: «ركبتُ البحرَ عام قُبرص مع ثلاثة عَشَر رجُلاً من أصحابِ النَّبيّ ﷺ منهم: عبادةُ بنُ الصَّامت ، وأبو أيّوب الأنصاريّ ، وأبو ذرّ الغِفَاريّ ، وأبو الدّرداء ، وفضالَةُ ابنُ عُبيد ، وعميرُ بنُ سَعْد ، ومعاويةُ بنُ أبي سفيان وهو الأمير»[2] .

* وفي «كاملِ» ابن الأثير في حوادثِ سنة خمسين يقول: «فيها كانت غزوةُ فضَالةَ بنِ عُبيد الأنصاريّ في البحر»[3] .

* وقال بسَّامُ العَسَليّ عن غَزْوِ سيّدنا فَضَالةَ في البحرِ: «تابعَ معاويةُ بنُ أبي سُفيانَ رضي الله عنهما بِنَاءَ قوّاته المسلحة ، واستعداده القتالي؛ . . . . فدفعَ فَضَالَةَ بنَ عبيدٍ الأنصاريّ لمتابعةِ نشاطه البحري ، وحماية السَّواحل العربية»[4] .

* أمّا غزواتُه في البرّ ، فكانت في سنة (٤٩ هـ) فقد ذكرَ ابنُ الأثير هذا فقال: «وفيها كانت غزوةُ فَضَالةَ بنِ عُبيد جَرَبّة ، وشَتَا بها ، وفُتِحتْ على يدِهِ ، وأصابَ فيها شيئاً كثيراً ، أو سَبْياً كثيراً»[5] . وفي سنة (٥١ هـ) مشى

---

(١) انظر: المسند (٩/ ٢٤٨ و٢٤٩) حديث رقم (٢٤٠١٠) ، وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٦٦٨) ، والسيرة الحلبية (٣/ ١٢٤) مع الجمع بينهما والتصرف اليسير لتستقيم الرواية. وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٦/ ٨٠) ، والمعجم الكبير للطبراني (١٨/ ٣٠٠ و٣٠١) ، وأيضاً (١٨/ ٣١٧).

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٢٨/ ٣١٨).

(٣) الكامل (٣/ ٤٦١) ، وانظر: تاريخ الطبري (٢/ ٢٠٧) طبعة دار الكتب العلمية الثانية ١٩٨٨م.

(٤) فن الحرب الإسلامي (١/ ٢٠٢) بتصرف يسير.

(٥) الكامل (٣/ ٤٥٨) ، وانظر ما ذكره الحميري في كتابه «الروض المعطار في خبر الأقطار» عن جربه (ص ١٥٨ و١٥٩) ، وانظر: تاريخ الطبري (٢/ ٢٠٦).

فضالَةُ بأرضِ الروم[1] مجاهداً؛ كلَّفَهُ بذلك معاويةُ ليكونَ قائداً للمسلمين هناك في فَصْل الشِّتاء ، فكان قائد الشَّاتية[2] .

* قال الذهبي: «في سنةِ إحدى وخمسين غزا فضالة الشَّاتية»[3] وحَدَث مع فضالةَ قصّةٌ جميلةٌ رواها القاسمُ بنُ عبد الرحمن فقال: «غزونا مع فضالةَ بنِ عُبيد؛ في البرِّ ، فبينما نحنُ نسرعُ في السَّير ، وهو أميرُ الجيش ـ وكانتِ الولاةُ إذ ذاك يستمعون ممّن استرعاهم الله عليه ـ ، فقال قائلٌ: أيّها الأميرُ! إنَّ النَّاس قد تقطّعوا ، قفْ حتّى يلحقوا بك ، فوقفَ في مرجٍ عليه قلعةٌ ، فإذا نحنُ برجلٍ أحمرَ ذي شواربَ بين أظهرنا ، فأتينا بهِ فضَالةَ ، فقلنا: إنَّ هذا هبطَ من الحِصنِ بلا عَهْدٍ ، ولا عَقْد ، فسأله فَضَالةُ ما شَأْنُهُ؟!

فقال: إنّي البارحةُ أكلْتُ الخنزيرَ ، وشربتُ الخمرَ ، ونمتُ ، فأتاني في النَّومِ رجُلان ، فَغَسلا بطني ، وجاءتْني امرأتان ، فقالتا: أسلمْ ، فأنا مُسْلِمٌ ، فما كانتْ كلمتُه أسرعَ من أنْ رُمينا بالحجارة ، فأصابه حَجَرٌ كبيرٌ ، فَدَقَّ عُنُقَهُ ، فقال فَضَالةُ: اللهُ أكبر! عَمِلَ قليلاً ، وأُجِرَ كثيراً ، صلُّوا على صاحبكم ، فصلّيناه عليه ، ثمّ دفنَّاهُ»[4] .

* وكان صحابةُ رسولِ الله ﷺ فرسانُهم ومقاتلوهم ، وكذلك شجعانُ المسلمين والمجاهدون منهم يتفاخرون بمن يحظىٰ بالشَّهادةِ منهم في بلادِ الرُّوم ، وممّا يثيرُ الإعجابَ بهم أنّه كان فخرهم بالشَّهادةِ في سبيل الله يتزايدُ كلّما بَعُدَتِ الشُّقَّة ، وكلّما تزايدَ مكان الاستشهاد عُمقاً في أرضِ بيزنطة ،

---

(١) الكامل (٣/ ٤٧٢) ، وانظر: تاريخ الطبري (٢/ ٢١٨).

(٢) فن الحرب الإسلامي (١/ ٢٠٢) بشيء من التصرف ، وانظر: تاريخ الطبري (٢/ ٢١٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١١٤).

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٧٢) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١١٥) مع الجمع والتصرف اليسير.

فمَا وَالاَها ، ومن لطيفِ أقوالهم المتواترةِ في هذا المضمار النَّفيس قولُهم: «لأَنْ نَمُوتَ بِحَرسْتَا؛ أحبُّ إلينا منْ أنْ نموتَ بدمشقَ ، ولأَنْ نموتَ بِدُوْمَا أحبُّ إلينا من أنْ نموتَ بحرسْتَا»(١).

* ومن الجديرِ بالذكر أنَّ سيّدنا المضْياف أبا أيّوب الأنصاري كان يتوقُ لمثلِ هذه الشَّهادة حتّى نالها عند أسوار القُسطنطينية ، إذ دُفِنَ هناك ، وبطولته تشهدُ له.

* وكذلك كان سيّدنا فَضَالةُ بنُ عُبيد رضي الله عنه ، وسائر الصَّحابةِ الكرام ، فقد كان فَضَالَةُ يروي عن الحبيبِ المصطفى ﷺ: «مَنْ ماتَ على مرتبةٍ منْ هذهِ المراتبِ بُعِثَ عليها يوم القيامة»(٢). قال حيوةُ بن شريح: معناها: «رباط حجٍّ ونحو ذلك»(٣).

* كما أنَّ سيّدنا فضالةَ سمعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «المجاهدُ مَنْ جاهدَ نَفْسَه في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ»(٤). وقد أثبتَ هذا عندما كان قائداً على الجماعةِ في حربِ الرُّوم ، إذ أظهرَ هو وفرسانُ المسلمين من ألوانِ الشَّجاعة ما حيّروا به ألبابَ النَّاس وعقولَهم؛ فكانوا يدخُلون في صفوفِ الرُّوم وهم لا يبالون بجموعهم وكثرتهم.

* وكان سيّدنا فضالَةُ يعلمُ علْمَ اليقين فَضْلَ الجهادِ ، وفَضْلَ الرّباط في سبيلِ اللهِ ، ومنها ما أخرجَهُ أبو داود في سُنَنِهِ عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال:

---

(١) انظر: فن الحرب الإسلامي لبسّام العسلي (١/ ٢٠١). و«حرستا ، ودوما» قريتان شمالي دمشق ، وهما الآن مدينتان كبيرتان. وقد نبغَ من هاتين البلدتين كثيرٌ من عُلماء الأمة قديماً وحديثاً ، ومنهم: محمد بن الحسن الشّيباني الحرستاني ، وعبد القادر بدران الدومي ، وأحمد الشّامي الدومي الذي قال لي عنه أستاذنا الفاضل د. محمد فوزي فيض الله «أحمد الشّامي رجلٌ فارٌّ منَ الجنَّة».

(٢) أخرجه أحمد (٩/ ٢٤٧) حديث رقم (٢٤٠٠٥) ، والطبراني (١٨/ ٣٠٥).

(٣) انظر المسند (٩/ ٢٤٧) ، ومختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٧١).

(٤) أخرجه أحمد (٩/ ٢٤٩) حديث رقم (٢٤٠١٣) ، والطبراني (١٨/ ٣٠٩).

«كلُّ ميتٍ يُختمُ على عَمِلِهِ إلا المرابط فإنّه ينمو له عمله إلى يومِ القيامة ، ويؤمنُ مِنْ فتّان القبر»[1].

روايـتُـهُ للحديثِ وتعليمـهُ للنّـاس:

* هذا الصَّحابيُّ النَّجيبُ فَضَالَةُ بنُ عُبيد ممّن حفظَ حديث رسولِ الله ﷺ ورواهُ للأُمة ، وهو من أصحابِ العَشَرات.

* رُوِيَ لـه عن رسولِ الله ﷺ خمسون حديثاً ، روى مسلم منها حديثَيْن[2]. قال الذَّهبيُّ: «وله عدّةُ أحاديث ، وله عن عمرَ وعن أبي الدَّرداء»[3].

* روىٰ عنه: حنَشُ الصَّنعاني ، وثمامةُ بنُ سعد ، وعُليُّ بنُ رباح ، وعبدُ الله بنُ محيريز ، وعبدُ الرحمن بنُ جبير ، وميسرةُ مولى فَضَالةَ وآخرون[4].

* وأحاديثُ فضالةَ منثورةٌ في صحيحِ مسلم ومسندِ أحمد ومعظم كتُب السُّنن وكتُب الحديثِ المتخصِّصَة.

* وممّا رواهُ له مسْلمٌ في صحيحه ما أخرجَه بسندهِ عن حنَش الصَّنعاني ، عن فَضَالةَ بنِ عُبيد رضي الله عنه قال: «اشتريتُ يومَ خيبر ، قِلادةً باثني عشَر ديناراً ، فيها ذهب وخرز ، فَفَصَّلْتُها ، فوجدتُ فيها أكثرَ من اثني عشَر ديناراً ، فذكرتُ ذلك للنَّبيِّ ﷺ فقال: «لا تُبَاع حتى تُفَصَّلُ»[5].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٣٢٤) وأخرجه أحمد (٩/ ٢٤٨) حديث رقم (٢٤٠٠٦) ولفظه: «كل ميت يُخْتمُ على عمله ، إلا الذي مات مرابطاً في سبيل ، فإنّه ينمو عملهُ إلى يوم القيامة ، ويأمن فتنة القبر». وانظر المعجم الكبير (١٨/ ٣١١) بلفظ قريب.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٠).

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص ٢٨٥) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١١٤).

(٤) الإصابة (٣/ ٢٠١) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١١٤) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٠) مع الجمع.

(٥) أخرجه مسلم في المساقاة برقم (١٥٩١/ ٩٠) ، وفي هذا الحديث؛ أنّه لا يجوز بيع =

* ومن مروياتِهِ في أدبِ السَّلام ما أخرجه الإمامُ أحمد عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «يُسَلِّمُ الرَّاكبُ على الماشي، والماشي على القاعدِ، والقليلُ على الكثير»[1].

* وأخرجَ أحمد أيضاً عنه في أدبِ الدّعاء، وتعلُّمِ الرُّقْيَة قال: «علّمني النَّبيُّ ﷺ رُقْيَـةً، وأمرني أنْ أرقيَ بها مَنْ بدا لي، قال: «قُلْ: رَبُّنا اللهُ الذي في السَّماء، تقدسَ اسمُك، أمرُكَ في السَّماء والأرض، اللهم كما أمركَ في السَّماء، فاجعلْ رحمتَكَ علينا في الأرض، اللهم ربّ الطَّيِّبين اغفرْ لنا حُوبنا وذنوبنا وخطايانا، ونزّلْ رحمةً من رحمتك، وشفاءً من شفائك على ما بفلان من شكوى، فيبرأ» قال: «وقُلْ ذلك ثلاثاً، ثم تعَوَّذْ بالمعوذتين ثلاث مرّات»[2].

* ويُعدُّ سيّدنا فضالَةُ من عُلماءِ الصَّحابةِ الفُقهاء، وذلك لطولِ ملازمتهِ رسولَ اللهِ ﷺ وكبار الصَّحابة العلماء، وممّا يدلُّ على فقههِ رغبتُه الشَّديدةُ في العِلْم وفي مدارستِهِ ومذاكرتِهِ مع توشيةِ العلْم والحديث بالذّكْرِ والاستغفارِ.

* أخرجَ الطَّبراني في «المُعجم الكبير» عن فضالَةَ بنِ عُبيد رضي الله عنه، أنَّه كان إذا أتاهُ أصحابه قال: «تدارسوا وأبشروا وزيدوا ـ زادكم اللهُ خيراً وأحبَّكم وأحبَّ مَنْ يحبّكم ـ ردّوا علينا المسائل، فإنّ أَجْرَ آخرها كأجرِ أوّلها، واخلِطُوا حديثكم بالاستغفار»[3].

= ذهب مع غيره بذهب، حتى يفصّل، فيباع الذهب بوزنه ذهباً، ويباع الآخر بما أراد، وكذا لا تباع فضة مع غيرها بفضّة، وكذا الحنطة مع غيرها بحنطة، والملح مع غيره بملح، وكذا سائر الربويات، بلا لابدّ من فصلها. وانظر: البدر التمام (٣/ ٢١٠).

(١) أخرجه أحمد (٩/ ٢٤٧) حديث رقم (٢٤٠٠٤).

(٢) أخرجه أحمد (٩/ ٢٤٩) حديث رقم (٢٤٠١٢).

(٣) المعجم الكبير (١٨/ ٢٩٩)، وانظر: مجمع الزوائد (١/ ١٦١) وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثّقون»، وانظر: حياة الصحابة (٣/ ٢١٦).

* ومن ألوانِ فقهِهِ في حكْم قَطْعِ يَدِ السَّارق ما أخرجه الطَّبراني بسنده عن عبدِ الله بنِ محيريز قال: «سألتُ فضالةَ بنَ عبيد ـ وكان ممّن بايعَ تحتَ الشَّجرة ـ فسألته عن تعليقِ يد السَّارق من السُّنَّةِ هو؟ قال: أُتي رسولُ الله ﷺ بسارق، فأمر فَقُطِعَتْ يدُهُ، ثم أمرَ بها فعلِّقَتْ في عنقِهِ»[١].

* قال القاضي حُسين محمّد المغربي المتوفّىٰ سنة (١١١٩ هـ) في «البدر التّمام»: «ومنَ السُّنَّة أنْ تُعَلَّق يد السَّارق في عنقه»[٢] ثم استشهد بحديث فضالةَ، وبحديث آخر أخرجه البيهقي «بأنَّ علياً رضي الله عنه قطعَ سارقاً، فمرّوا به ويده معلّقةٌ في عنقه».

* وكان سيدنا فضالةُ رضي الله عنه يرى التّحميدَ والثّناءَ والصَّلاةَ على النّبيّ ﷺ ثم الدّعاء بما شاء المُصلّي، وهذا الفقهُ جاء عن فضالةَ قال: «سمعَ رسولُ اللهِ ﷺ يدعو في صلاته، ولم يَحْمد الله تعالى، ولم يُصَلِّ على النَّبيّ ﷺ، فقال: «عَجِلَ هذا»؛ ثمَّ دعاه فقال: «إذا صلّى أحدكم فليبدأْ بتحميدِ ربّه، والثَّناء عليه، ثم يصلّي على النّبيّ ﷺ، ثم يدعو بما يشاء»[٣].

* وفي روايةٍ أخرى عن سيّدنا فضالةَ رضي الله عنه قال: «بينا رسولُ اللهِ ﷺ قاعدٌ، إذ دخلَ رجلٌ فصلَّى فقال: اللهم اغفرْ لي وارحمني، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «عجِلْتَ أيّها المصلّي؛ إذا صلَّيتَ فقعدتَ فاحمد الله بما هو أهله، وصَلِّ عليَّ، ثمّ ادعُهُ». قال فَضَالةُ: «ثم صلّى رجلٌ آخر بعد ذلك فحمدَ الله، وصلّى على النّبيّ ﷺ فقال له النّبي ﷺ: «أيّها المصلّي ادعُ تُجَبْ»[٤]، وفي رواية: «سَلْ تُعْطَه» أو «سَلْ تُعْطَ».

---

(١) المعجم الكبير (١٨/ ٣٠٠)، وسنن النسائي (٨/ ٩٢). وانظر: البدر التمام (٤/ ٤٣٣).
(٢) البدر التمام (٤/ ٤٣٣).
(٣) أخرجه أحمد (٩/ ٢٤٥) حديث رقم (٢٣٩٩٢)، وابن حبان برقم (١٩٦٠)، وأبو داود برقم (١٤٨١)، والترمذي برقم (٣٤٧٦)، والنسائي (٣/ ٤٤).
(٤) المعجم الكبير (١٨/ ٣٠٨ و٣٠٩)، وسنن النسائي (٣/ ٤٤)، ومجمع الزوائد =

* وكان سيّدنا فضالةُ رضي الله عنه يقتفي الأثرَ النَّبويَّ في الدُّعاء ، ويعلِّمُ ذلك للنَّاس ، وهذا يدلُّ على فقههِ وعلْمهِ ، فقد أخرج الطبراني بسندٍ رفعَهُ إلى أمِّ الدّرداء الصُّغرى ، أنَّ فضَالَةَ بنَ عبيد كان يقولُ: «اللهم إنّي أسألُكَ الرِّضا بعدَ القَضَاء ، وبردَ العيشِ بعد الموت ، ولذّة النَّظرِ إلى وجهكَ ، والشَّوق إلى لقائك من غيرِ ضرّاء ، مضرّة ، ولا فتنة مضلّة» ، وزعمَ أنَّها دعوات كان يدعو بها النَّبيّ ﷺ[1] .

* وأوردَ ابنُ قيّم الجوزيـة المواضع التي كان يدعو فيهـا ﷺ في الصَّلاة ، وذكر سبعةَ مواطنَ عزَّزها بحديثِ سيدنا فضالَةَ بنِ عُبيد رضي الله عنه[2] .

حفـظُـهُ للْقُرآن وفَهْمُـهُ مقَـاصِـدَهُ:

* القرّاءُ من أصحابِ سيِّدنا رسولِ اللهِ ﷺ كثيرون ، منهم عددٌ من عُلماء الصَّحابة خاصّة من مثل: «عبدُ الله بن مسعود[3] ، وأبيُّ بن كعب[2] ، ومعاذُ بنُ جَبَل[2] ، وزيدُ بن ثابت[2] ، وأبو الدّرداء[2] ، وأبو زيد أحد عمومة أنس بن مالك الأنصاري ، وسالم مولى أبي حُذيفة رضي الله عنهم» .

* وأودُّ أنْ أشيرَ إلى أنَّ الخلفـاءَ الرَّاشدين[4] أبا بكر وعمر وعثمـان وعليّاً رضي الله عنهم ، كانوا من الحفظةِ وهم سادةُ الصَّحابةِ العُلمَاء ، بل هم علماءُ الصَّحابة وفقهاؤهم على الإطلاقِ ، وكانوا من أقرأ الصَّحابةِ

= (١٠/ ١٥٥ و١٥٦) وقال الهيثمي: «قُلتُ: رواه أبو داود خلا من قوله: ثم صلّى آخر إلى آخره» ثم قال: «رواه الطبراني وفيه رشدين بن سعد ، وحديثه في الرقاق مقبول ، وبقية رجال ثقات». (مجمع الزوائد ١٠/ ١٥٦).

(١) المعجم الكبير (١٨/ ٣١٩).

(٢) انظر: زاد المعاد (١/ ٢٥٦ و٢٥٧) ، وحديث فضالة أخرجه النسائي (٣/ ٤٤).

(٣) اقرأ سير هؤلاء السادة الأعلام العلماء في هذه الموسوعة المباركة ، واحرص على الاقتداء بهم ، حشرنا الله أجمعين في معيتهم.

(٤) اقرأ كتابنا «الخلفاء الراشدون» ففيه خير كثير بإذن الله.

للقرآن ، ومن المعلوم في الحديث: «يَؤُمُّ القومَ أقرؤهم لكتابِ الله» ، ومن هذه النُّقطة المهمّة جداً أمرَ الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ أبا بكر الصِّدّيق رضي الله عنه أنْ يؤمَّ في مكانهِ لمَّا مرِضَ ، فيدلُّ على أنَّ أبا بكرٍ كان أقرأهم ، وأنّه رضي الله عنه وأرضاه جمعَ القُرآن على ترتيبِ النّزول عقب موتِ رسولِ الله ﷺ.

* ومن القراء من الصَّحابة كما ذكرهم أبو عُبيد: «الخُلفاء الأربعةُ وطلحةُ ، وسعدُ ، وابنُ مسعود ، وحذيفةُ ، وسالم ، وأبو هريرة ، وعبدُ الله ابنُ السَّائب ، والعبادلةُ ، ومن النّساء: عائشةُ ، وحفصةُ ، وأمُّ سلمةَ»[1].

* وزاد بعضُهم: تميمُ بنُ أوس الدّاري ، وعقبةُ بنُ عامر ، وعبادةُ بنُ الصَّامت ، ومعاذُ أبو حليمة ، ومجمعُ بنُ جارية ، وفضالةُ بنُ عبيد ، ومسلمةُ بنُ مخلد ، وغيرهم ، وصرّح بأنَّ بعضَهم إنّما جمعَهُ بعد النَّبيّ ﷺ. وممّن جمعه أيضاً أبو موسى الأشعريّ ، وعمرو بنُ العاص ، وسعد بنُ عبادة؛ وأمُّ ورقَةَ الأنصارية[1] رضي الله عنهم أجمعين.

* إذن ، فسيدنا فضالَةُ رضي الله عنه أحد علماء الصَّحابة الكرام الذين حفظُوا القرآنَ الكريم كاملاً ، وهذا ممّا جعله قاضياً فهيماً حصيفاً ـ كما سيأتي ـ؛ وكذلك جعله يقرىءُ النَّاس في الشَّام وغيرها.

* قال عُلي بنُ رباح: «أمسكتُ على فضَالةَ بنِ عبيد القرآن ، حتّى فرغَ منه»[2].

* وقال الذَّهبي: «قد عُدَّ فَضَالَةُ بنُ عبيد في كبار القراء»[3].

---

(١) انظر: فتح الباري (٨/٦٦٨) بشيء من التصرف.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص ٢٨٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (ص ٣/١١٦).

* فسيدنا فَضَالةُ أحدُ مَنْ أُخِذَتْ عنهم القِراءات[1] ، وقيل: «إنَّ ابن عامر[2] تلا عليه»[3].

---

(١) «القراءات»: القراءاتُ علمٌ يُعرفُ به كيفية النُّطق بالكلماتِ القرآنيةِ ، وطريق أدائها اتّفاقاً واختلافاً مع عَزْوِ كلّ وجْهٍ لناقله.
وموضوعُه: كلماتُ القرآن من حيث أحوال النّطق بها ، وكيفية أدائها.
ثمرتهُ وفائدتهُ: العصمةُ من الخطأ في النّطق بالكلماتِ القرآنية ، وصيانتها عن التّحريف والتّغيير، والعلم بما يقرأ به كلّ من أئمة القراءة، والتّمييز بين ما يُقرأ به، وما لا يُقرأ به.
فضله: أنّه من أشرف العلوم الشّرعية ، أو هو أشرفها لشدة تعلّقه بأشرف كتاب سماوي منزل.
واضعهُ: أئمةُ القراءة ، وقيل: أبو عمر حفص بن عمر الدُّوري ، وأوّل مَنْ دوّن فيه أبو عبيد القاسم بن سلام.
اسمهُ: علمُ القراءات ، جَمْع قراءة ، بمعنى وجْهٍ مقروء به.
استمدادُهُ: من النّقول الصّحيحةِ والمتواترةِ عن علماء القراءات الموصولة إلى رسولِ الله ﷺ.
أعلامُ رواته: القراء العشرة وهم: نافعُ المدني ، ابن كثير المكّي ، أبو عمرو البصريّ ، ابن عامر الشّامي ، عاصم الكوفيّ ، حمزة الكوفيّ ، الكسائي الكوفيّ ، أبو جعفر المدنيّ ، يعقوب البصريّ ، وخلف البغداديّ.
ومن الجدير بالذكر أنّ لكل واحد من هؤلاء القراء الأعلام راويان. فمثلاً: راويا نافع هما: قالون وورش ، وراويا ابن كثيرهما: البزي وقنبل ، وراويا أبي عمرو هما: الدّوري والسّوسي..

(٢) «ابن عامر»: إمام أهل الشّام في القراءة ، وهو عبدُ الله بنُ عامر بن يزيد اليحصبيّ أبو عمران إمام أهل الشّام في القراءة ، والذي انتهت إليه مشيخةُ الإقراء بها. كان إماماً كبيراً ، وتابعياً جليلاً ، أمَّ المسلمين بالجامع الأموي سنين كثيرة في أيّام عمر بن عبد العزيز وقبله وبعده، فكان يأتم به وهو أمير المؤمنين وجمعَ له بين الإمامة والقضاء ومشيخة الإقراء بدمشق ، ودمشق دار الخلافة ، ومحط رِحَال العلماء ورجال التابعين ، وأجمع الناس على قراءته وعلى تلقيها بالقبول.
قرأ ابن عامر على فضالة بن عبيد وعدد من علماء الصحابة. قال أبو علي الأهوازي: «كان عبد الله بن عامر إماماً عالماً ثقةً فيما أتاه ، حافظاً لما رواه ، متقناً لما وعاه ، عارفاً فهماً قيماً فيما جاء به، صادقاً فيما نقله من أفاضل المسلمين وخيار التابعين وأجلة الراوين.. وكان رئيس الجامع الأموي لا يرى بدعة إلا غيرها. ولد ابن عامر سنة (٢١ هـ) وتوفي بدمشق سنة (١١٨هـ) (البحث والاستقراء في تراجم القراء لمحمد الصادق قمحاوي ص ٣١ ـ ٣٣) باختصار وتصرف).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/١١٦).

* ولسيدنا فضالةَ قراءةٌ مشهورة في بعضِ كلمات القرآن الكريم ، فقد وردَ أنَّه قرأَ: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ﴾ [القصص: ١٠] ، بالزّاي أي «فَـزِعاً»(١): بالفاء والعَيْن المُهْمَـلَـةِ من الفـزَع ، أي خائفة عليه أنْ يُـقْـتَـل . والفزعُ هو الخوفُ والقلق(٢).

* كما أنَّ لهذه الكلمة قراءاتٌ أخرىٰ عن أعلام الصَّحابة وعلمائهم فقد قرأها ابنُ عبّاس «قَرِعاً»: بالقاف والرّاء ، من القَارعةِ ، وهي الهمُّ العظيمُ. وقرأ بعضُ الصّحابة رضي الله عنهم «فِرْغاً»: بالفاء المكسورة ، والراء السّاكنة ، والغين المنقوطة ، ومعناها: ذاهباً هدراً تالفاً من الهمّ والحزن ، ومنه قول طليحةَ الأسديّ:

فإنْ يَكُ قَتْلىٰ قد أُصيبَتْ نفوسُهم فَلَـنْ يـذهبـوا فِـرغـاً بِقَتْـل حِبَـالِ

أي: هدراً تالفاً لا ينفعُ. وقرأها الخليلُ بنُ أحمد «فُرُغاً» بضمّ الفاء والرّاء(٣).

* وكان سيّدنا فضالةُ رضي الله عنه حَصِيفاً يدركُ كثيراً من معاني القرآن الكريم ومقاصده ، فقد ذكرَ ابنُ المبارك عن فضالةَ بنِ عبيد في حديث ذكر فيه رجلَيْن أحدهما أُصِيبَ في غزاةٍ بمَنْجَنيق فماتَ ، والآخر ماتَ هناك؛ فجلسَ فضالةُ عند الميتِ ، فقيل له: تركتَ الشَّهيدَ ولم تجلسْ عنده؟

فقال: ما أبالي من أيّ حفريتيهما بُعثتُ؛ ثمَّ تلا قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الحج: ٥٨](٤).

---

(١) انظر تفسير ابن عطية (ص ١٤٣٤) ، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٥٥) ، وتفسير البحر المحيط (٧/ ١٠٢) مع الجمع. وانظر: روح المعاني للألوسي (٢٠/ ٧٤).

(٢) تفسير البحر المحيط (٧/ ١٠٢).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية (ص ١٤٣٤) ، وروح المعاني (٢٠/ ٧٤) مع الجمع.

(٤) تفسير القرطبي (١٢/ ٨٩). قال بعض أهل العلم: «إنّ المقتولَ في سبيل الله ، والميتَ في سبيل الله شهيد؛ ولكن للمقتول مَزية ما أصابه في ذات الله. وقال بعضهم: هما سواء واحتج بالآية» (تفسير القرطبي ١٢/ ٨٨).

* وأخرجَ الطَّبريُّ في تفسيره بسندٍ إلى سلامان بن عامرٍ قال: «كان فضالةُ بِرُوْدِس أميراً على الأرباع، فَخُرِجَ بجنازَتَي رجُلَين، أحدهما قتيلٌ، والآخر متوفَّىٰ، فرأى ميلَ النَّاسِ مع جنازةِ القتيل إلى حفرته؛ فقال: أراكم أيّها النَّاس تميلون مع القَتيلِ وتفضّلونه على أخيهِ المتوفى، فو الذي نفسي بيده، ما أُبالي من أي حفرتيهما بعثتُ، اقرؤوا قولَ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٨ و٥٩]»[١].

من رقائقهِ التَّعليمية:

* سيدنا فضالةُ بنُ عبيد رضي الله عنه صحابي كريم من شبابِ علمَاءِ الصَّحابة الذين تربَّوا في مدرسةِ النُّبوّة التي تخرّجَ فيها أعظم مشاهيرِ الدنيا في ميادينِ الفضائلِ والمكارم.

* وقد أُثِرتْ عن فضالةَ رقائقُ ومواعظُ جميلةٌ تسيرُ مسْرىٰ الحكمةِ من ذلك قوله: «الإسلامُ ثلاثةُ أبياتٍ: سُفْلَى، وعُلَى، وغُرفة؛ فالسُّفلى الإسلامُ، والعُلىٰ النَّوافل، والغُرفةُ الجهاد»[٢].

* ومن أجملِ الوصايا والحِكَمِ التي أثرتْ عن سيّدنا فَضَالة، ما ذكره عبدُ الله بنُ محيريز قال: «صَحِبْتُ فضَالةَ بنَ عُبيد صاحبَ رسولِ الله ﷺ، فقلتُ: أوصني رحمك الله.

قال: احفظْ عنّي ثلاثَ خِصَالٍ ينفعك اللهُ بها:

إن استطعتَ أنْ تَعرِفَ ولا تُعرفَ فافعلْ، وإن استطعت أن تسمعَ ولا تتكلّمْ فافعلْ، وإن استطعت أنْ تجلسَ ولا يُجلس إليك فافعل»[٣].

* وكان ينصحُ أصحابَه وجلاّسَه كثيراً، وخصوصاً إذا أسرفوا في

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ١٩٤ و١٩٥)، وتفسير ابن عطية (ص ١٣١٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٨٩).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢١/ ١٣٦).

(٣) التذكرة الحمدونية (١/ ١٦٦)، ومختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٧٤)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١١٨).

الكلام ، فكان يقول لهم: «اخلطُوا حديثكم بالاستغفار»[1].

* ومن رقائقِ حكمته الممزوجةِ بالبلاغةِ والفَصَاحةِ قوله: «ثلاثٌ من الفَواقر: إمامٌ إنْ أحسنتَ ، لم يشكرْ ، وإنْ أسأتَ ، لم يغفِرْ. وجارٌ إنْ رأىٰ حَسَنَةً ، دفَنَها ، وإنْ رأىٰ سيئة ، أفشاها ، وزوجةٌ إنْ حضَرَتْ ، آذتْكَ ، وإنْ غِبْتَ ، خانتك في نفسِها وفي مالكَ»[2].

* وكان فَضَالةُ رضي الله عنه يقومُ في النَّاس يومَ الجمعةِ يَعِظُهُم قبلَ خروجِ معاوية رضي الله عنه، فإذا خرجَ جلسَ فضالةُ، فيخطبُ معاويةُ ويصلّي.

* وزعم ابنُ عساكر[3] أنَّ: «معاوية كتبَ إلى فَضَالة بن عبيد يخطبُ ابنته على ابنه يزيد ، فكتبَ إليه: أمّا بعد ، فقد جاءني كتابك تخطبُ ابنتي على ابنك يزيد ، وإنّي كتبتُ إليك ببيتي شعْر فاعرفهما وتدبّرهما:

فَلَو أنَّ نفْسِي طاوعتْني لأَصْبَحَتْ ... لهَا حَفَدٌ ممّا يُعَدُّ كثيرُ
ولكنّها نَفْسٌ عَليَّ كريمةٌ ... عَيوفٌ لأصْهار اللئام قَذُورُ»!!!

القَاضِي النّبيه:

* كان سيّدنا فضالَةُ بنُ عُبيد الأنصاريّ رضي الله عنه قاضياً فقيهاً فاضلاً حصِيفاً نبيهاً ، وَلي القضاءَ لسيِّدنا معاويةَ بنِ أبي سفيان رضي الله عنهما وكان ينوبُ عنه في الإمْرةِ إذا غاب عن دمشقَ. قال الذّهبيّ «خرجَ فضالَةُ إلى الشَّام ، فسكَنَها ، وكان قاضياً بالشَّام»[4] ، وقال: «لمّا سارَ معاويةُ إلى

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٧٣)، وقد استقى فضالة هذه الحكمة من الهدي النبوي ، وذلك مما رواه عنه ابنه محمد بن فضالة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال العبد آمناً من عذاب الله ما استغفر الله». (مختصر تاريخ دمشق ٢٣/ ١٦٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١١٦ و١١٧).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٧٤) ، أقول: «في النفس شيء من هذه القصة التي تنبعث منها رائحةُ الوضع والدّس ، فسيدنا فضالة كان قريباً من سيدنا معاوية وكان قاضياً له ، فلماذا يكتبُ إليه معاوية. ثم يكتبُ إليه فضالة ويصفُه بلؤْمِ المُصاهرة ولؤمِ الأصل ؟!!!».

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١١٤) ، وقال الذهبي أيضاً: «ولي لمعاوية قضاء دمشق ، وكان =

صفّينَ ، استعملَ على دمشقَ فضَالَةَ»[1] ، وقال ابنُ عبد البرّ : «وكان معاويةُ استقضاه في حين خروجه إلى صفّين»[2] .

* ومن الجدير بالذّكر أنَّ سيدنا فضالةَ رضي الله عنه لم يطلب القَضَاءَ ، ولم يَسْعَ من أجْلِهِ ، وإنّما أشارَ بتوليته القضاء أحدُ علماءِ الصَّحابة وزهّادهم ، ترى مَنْ هو هذا العالمُ الصَّحابي؟!

* الخبرُ الآتي يكشفُ عن هويّته ، قال أهلُ العِلْم : «كان أبو الدّرداءِ رضي الله عنه قاضياً على دمشقَ ، ولمّا حضرتْهُ الوفاةُ ، أتاه معاويةُ رضي الله عنه عائداً ، فقال له : يا أبا الدّرداء مَنْ ترى للأمر بعدك؟

قال : فَضَالةُ بنُ عُبيد يا أميرَ المؤمنين .

ولمَّا قضىٰ أبو الدّرداء نَحْبَهُ ، قال سيّدنا معاويةُ لفَضَالَةَ : يا أبا محمّد ، إنّي ولّيتُكَ القضاءَ؛ فاستعفىٰ منه سيدنا فَضَالةُ ، فقال معاويةُ : يا أبا محمّد ، واللهِ ما حابَيْتُك بها ، ولكنّي استترتُ بكَ من النَّار ، فاستترْ منها ما استطعتَ»[3] .

* وممَّا تطربُ له الألباب ، نزاهةُ سيدنا فضالة في القضاء ، ووقوفه إلى جانب الحقّ ، فقد ذكروا أنّه قَضَى لأحدِ النَّاس على معاويةَ رضي الله عنه ، ولم يُحابِهِ ، ولم يخْشَ في اللهِ لومة لائم ، وهذا ـ والله ـ يزيدُ في رصيدِ فضالةَ ، ويجلو لنا شخصيّتَه الصَّافية الصَّادقةَ الزّاهدة الممتلئة بالعلم والفهم .

= ينوب عنه في الإمرة إذا غاب». وقال ابن الحوراني : «ولي فضالة قضاء دمشق لمعاوية» (الزيارات ص ٥٠).

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) الاستيعاب (٣/ ١٩٢) ، وقال ابن عساكر : «كان فضالة خليفة معاوية على دمشق إذا غاب عنها» .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١١٥) ، وأخبار القضاة لوكيع (٣/ ٢٠١) ، والاستيعاب (٣/ ١٩٢) مع الجمع والتصرف .

* أمّا قصّةُ هذا القضاء النّزيه فيرويه أبو يوسُف حاجب سيدنا معاوية ، فلنستمعْ إلى أبي يوسفَ حيث يقول: «بينما أنا يوماً على بابِ الخضراء ، وقد ارتفعَ معاويةُ للقائلة ، وافترقَ عنه النَّاس ، إذا برجُلٍ أناخَ بعيره ، وقال: استأذنْ لي على أمير المؤمنين.

* فقلت: إنّه ليس عليه السّاعة إذن.

فقال: مابدّ من الدُّخول.

فلم يزلْ منّي كلمة ، ومنه كلمة ، حتّى محَكني ، وارتفعتْ أصواتُنا ، فَسَمِعَنَا معاويةُ ، فبعثَ إليَّ فقال: ما هذا؟ فأعلمتْهُ بالقصَّة.

فقال: صِفْه لي ، فوصفْتُه.

فقال: هذا فلان جاءَ يتظلَّمُ من عامِلنا فلان؛ أدخِلْهُ. فدخلَ ، فإذا هو ، فقال له معاوية: بيني وبينك رجلٌ. قال: نعم.

فاتّفقُوا على فَضَالة بنِ عُبيد.

فقال معاويةُ: يا أبا يوسُف ، ادعُ لنا فَضَالَةَ.

فذهبتُ إليه وقلتُ له: أجبْ أميرَ المؤمنين.

قال: لماذا؟

فأخبرتُه ، فقال: قُلْ له: يقولُ لكَ فَضَالَةُ: [في بيته يُؤْتى الحَكَم][1] يا أمير المؤمنين.

فانطلقتُ إليه ، فاخبرتُه ، فقال: صدقَ ـ واللهِ ـ.

فقامَ معاويةُ وذلك الرّجل ، فخرجَ الرَّجلُ يمشي ، ومعاويةُ يمشي معه آخذٌ بخطام ناقته ، فقال لي معاوية: تقدَّمْ يا أبا يوسف ، فأخبِرْهُ أنَّا قد جئنا. فتقدّمْتُ فأخبرته ، فألقىٰ لهما وسادة بين يديهِ بالعرض ، فدخَلا عليه.

---

(١) هذا مثل من أمثال العرب المشهورة انظر قصته في مجمع الأمثال للميداني (٢/ ٤٤٢ و٤٤٣).

فقال له فَضَالَةُ: يا أميرَ المؤمنين ، اجلسْ أنتَ وخصمُكَ.

فجَلَسَا بين يديه ، فقَضَى على معاويةَ وقال له: انْتَهِ يا معاوية ، فإنَّك ظالمٌ له»[1]!!

* ومن قَصَصِ سيّدنا فَضَالةَ في القضاءِ ما ذكَرَهُ قارئُ أهلِ الشَّام عبدُ الله ابنُ عامر اليحصبيّ قال: «كنْتُ عند فضالةَ بنِ عبيد الأنصاريّ صاحبِ رسولِ الله ﷺ ، فجاءه رجلان يختصمان في بازٍ ، فقال أحدهما: وهبْتُهُ له ، وأنا أرجو يُثيبني منه.

وقال الآخر: وهَبَ لي بازاً ، ولم أسألْهُ إيّاه ، ولم أتعرّضْ له فقال فَضَالَةُ: اردُدْ إليه بازَه ، أو أثبْهُ منه ، فإنّما يرجعُ في المواهب النّساءُ ، وشِرارُ القوم»[2].

* ومن غرائبِ قصص القضاء ونوادره التي تدلُّ بحقٍّ على ذكاءِ سيدنا فضالةَ وحصافتِهِ وزكانتِهِ ونباهته ، ما جاء عنه بأنّه قد وقعت من رجُلٍ مئةُ دينار ، فنادى: مَنْ وجدها ، فَلَهُ عشرون ديناراً؛ فأقبل الذي وجدَهَا ، فقال: هذا مالُكَ ، فأعطِني الذي جَعَلْتَ لي.

فقال: كان مالي عشْرين ومئة دينار.

فاختصما إلى فضالةَ ، فقال لصاحبِ المال: أليسَ كان مالُكَ مئة وعشرين ديناراً كما تذكُر؟

قال: بلىٰ.

وقال للآخر الذي وجدَ المال: أليس الذي وجدْتَ مئة؟

قال: نعم.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢١٤ و٢١٥) بشيء من التصرّف.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ٢٩٢).

قال: فاحبسْهَا ولا تُعْطِهِ، فليسَ هو بمالهِ، وانتظر حتّى يجيءَ صاحبه[1].

* وفي درءِ الحدود نجِدُ عند سيّدنا فضالةَ ذكاءً وفَهْماً وفِراسةً، قال ابنُ الحَسْحَاس القاضي: «كنتُ عند فضالةَ بنِ عُبيد الأنصاريّ، فأتاه رجلٌ بِسَارقٍ يحملُ سرقته، فقال له فَضَالةُ: لعلَّكَ وجدتَها، لعلكَ التقطتَها؛ فقال له الرّجل: إنّ للهِ وإنّا إليه راجعون، إنّه ليلقّنه، قال: إي واللهِ أصلحكَ اللهُ، لوجدتها، فخلّىٰ فضالةُ سبيلَه»[2].

رحلةُ الخُلود:

* عاشَ سيّدنا فضالةُ بنُ عُبيد رضي الله عنه عالماً ومتعلّماً وغازياً وفاتحاً ومرابطاً، كما عاشَ قاضياً مصليّاً تقيّاً نزيهاً ورِعاً يراقبُ الله عزَّ وجلَّ في نفسِهِ في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، وكانت له مكانة في نفوسِ أكابرِ الصَّحابة، وكذلك عند أكابرِ عُلماء التَّابعين وصلحائهم.

* وفي سنةِ (٥٣ هـ) كانت رحلةالخلود، فقد توفي سيّدنا فضالةُ بنُ عبيد رضي الله عنه بدمشق الشَّام، وحضر سيّدنا معاويةُ جنازَتَه، فحملَ بجانبِ السَّريرِ وكان حزيناً لموتهِ، عارفاً لِقَدْره، ولذلك قال لابنهِ عبدِ اللهِ بنِ معاويةَ: «تعالَ اعقبني ـ أَعِنّي ـ فإنَّك لن تَحمِلَ مثله أبداً»[3]. ودُفنَ سيّدنا فضالةُ بباب الصَّغير بدمشق، وكان آخر مَنْ مات مِنَ الصَّحابة ممّنَ بايعَ بيعةَ الرّضوان[4].

* قال ابنُ عبد البرّ: «ماتَ فضالةُ بدمشقَ، وقبرهُ معروفٌ إلى اليوم»[5].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١١٥ و١١٦)، ومختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٧٣) مع الجمع والتصرف.

(٢) أخبار القضاة (٣/ ٢٠١)، ومختصر تاريخ دمشق (١٤/ ٢٤٦).

(٣) الاستيعاب (٣/ ١٩٢ و١٩٣)، ومختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٧٢)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١١٤).

(٤) أخبار القضاة (٣/ ٢٠١).

(٥) الاستيعاب (٣/ ١٩٢).

* وقال ابنُ الحوراني: «توفيَ فضالةُ بدمشقَ، ودُفِنَ بباب الصَّغير عند أبي الدَّرداء، وأمّ الدرداء سنة ثلاثٍ وخمسين، وحَمَل معاويةُ نَعْشَه وقال لابنه: أعنّي فإنَّكَ لا تحملُ بعْدَهُ مثْلَه»(١).

* وفي دمشقَ مسجدٌ يُعْرفُ بمسجدِ الرَّيحان، وهو مسجدُ فضالةَ بن عُبيد الأنصاريّ الصَّحابي قاضي دمشق، رضي الله عنه، وهذا المسجدُ في دَرْبِ الحبَّالين، عند رأسِ درب الرّيحان من السُّوق الكبير(٢).

* رضي الله عن سيّدنا فضالةَ بن عُبيد الأنصاريّ، وحَشَرنا في معيّة عُلماء الصَّحابة، وغَفَرَ لنا خطايانا إنَّه غفَّار لمن تابَ وأنَابَ.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

* * *

(١) الزيارات (ص ٥٠).

(٢) الدارس في أخبار المدارس للنعيمي (٢/٣٠٨ و٣٠٩) بشيء من التصرف.

الخاتمة

* الحمدُ للهِ الذي تتمُّ بنعمتِهِ الصَّالحات ، والصَّلاة والسَّلام على خيرِ الكائنات ، إمامِ العلماءِ ، وأميرِ الأنبياء ، الصَّادقِ المصدوقِ محمّدٍ ﷺ.

* وأحمدُ اللهَ عزَّ وجلَّ الذي وفَّقني لصياغةِ موضوعِ «عُلماء الصَّحابة» الذين أحبُّهم ، وأرجو اللهَ أنْ ينتفعَ به النَّاس على اختلافِ مشاربهم ، فحبُّ الصَّحابةِ يزيدُ في الرَّصيدِ الإيمانيّ لِمَنْ أحبَّهم.

* أحبابي؛ إذا كانتِ الغايةُ من المصنَّفات العِلْميّةِ أنْ تكونَ جديدةً مبتكرةً ، فأنا لا أقولُ: «إنَّ هذه الموسوعةَ عن علماء الصَّحابة قد أزاحتِ السّتار عن أسرارٍ كانت طَيَّ الكتْمان ، ولكنْ يمكنني بأنْ أصِفَها بأنّها جاءتْ بلونٍ جديدٍ من التَّراجمِ المحبَّبَةِ إلى جميع فئاتِ النَّاس على الرّغمِ من اختلافِ ميولهم ، فأظهرت جوانبَ مُهمّةٍ من أخبارِ عُلماءِ الصَّحابة وأحوالهم ومعارفهم ، كما رصدت كثيراً من الفوائد المجموعة في حياتهم».

* والآن ، وبعد هذه الرّحلة المُمتعة الماتعة مع علماءِ الصَّحابة رضي الله عنهم ، وبيان جهودهم ، وآثارهم العِلْميّة المتنوعة ، يمكنُ أنْ نستنتجَ عدّةَ نقاطٍ منْ أبرزِها ما يأتي:

أوّلاً: اتَّفقَ علماءُ الأمّةِ من السَّلف والخلف على أنَّ الصَّحابيَ هو مَنْ لقيَ النَّبيَّ ﷺ يقَظَةً ، وهو مؤمنٌ بهِ ، بعد بعثته ، حالَ حياتِهِ ، وماتَ على الإيمان.

ثانياً: نَطَقتْ كثيرٌ من آياتِ القُرآنِ الكريم ، وأحاديثِ الصَّادق المصدوق رسول الله ﷺ بفضلِ الصَّحابة وعلمائهم ، ونَوَّهَتْ بمكانتهم وأرْشدت إلى

مكارمهم ، وجميعهم عدول ثبتَتْ عدالتُهم في القُرآن العظيم ، والسُّنَّة المطهَّرة ، وإجماعِ الأمّة ، وكذا بالمعقول ، وقد أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ برضاه عنهم في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، وأنَّهم من أهلِ الجنَّة: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

ثالثاً: من خلالِ حياتنا مع علماء الصَّحابة ، ظهرَ لنا أنَّ كثيراً من الآياتِ الكريمةِ والأحكامِ قد نزلتْ في حقِّهم ، وأبانَتْ فضْلَهم ، ومكانتهم وأسبقيتهم ، ونوَّهَتْ بِقَدْرِهم ، وتحدَّثَتْ عن مشاركتهم للنّبيّ ﷺ في جهادِهِ ونشْرِ دعوته وطاعته ، ومحبّته ، واتّباع نهجه.

رابعاً: كان لعلماء الصَّحابة أثرٌ كبيرٌ في نَقْلِ كثيرٍ من الآثارِ والشَّمائل عن سيّدنا وحبيبنا محمّدٍ رسولِ اللهِ ﷺ ، فقد صحبوه ، ورأوا أفعالَه ، وحفظوا أقوالَه ، ونقلوها إلى علماء التَّابعين ، حتَّى وصلَتْ إلينا نقيّةً سليمةً من كلِّ شائبةٍ.

خامساً: عرفنا من خلال هذه الموسوعةِ أنَّ العبادلةَ الأخيارَ أربعةٌ نجباء هم صحابةٌ من أبناءِ الصَّحابة ، فآباؤهم صحابة ، وأمهاتُهم صحابيات ، وجميعُهم مهاجرون من علْيةِ بيوتاتِ قريش وذرْوَة سنَامِها ، وأنَّهم رَوَوا شَطراً من الأحاديثِ النَّبويّةِ التي بلغ مجموعُها (٥٠٢٣ حديثاً) ، وأنَّ اثنَيْن منهم من أصحابِ الألوف وهما: سيّدنا عبد الله بنُ عبَّاس روىٰ (١٦٦٠ حديثاً) وسيّدنا عبدُ الله بنُ عُمر روى (٢٦٣٠ حديثاً) كما بيّنتُ أنَّ سيّدنا عبدَ الله بنَ مسعود ليس من العبادلةِ الأربعةِ ، وإنْ كان كبيراً في العِلْمِ والفقهِ والتَّفسيرِ والرّوايةِ والمواعظِ والحكمة والفتوىٰ ، ولكنَّ علماءِ الأمّةِ لم يصنّفوه مع الأربعةِ لتقدُّم وفاتهِ رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

سادساً: رأينا من خلالِ الاستقراء والبحثِ والتّدقيق وإعمال الفكْر أنَّ معظمَ علماء الصَّحابةِ ـ في هذا الكتاب ـ من المُعَمَّرين ، وأنَّهم تفرّقوا في الأمصارِ فاتحين ومعلّمين ومقرئين ومربّين ، فقد شارك كثيرٌ منهم في الجهادِ برّاً وبحراً ، وفي فتوحِ البلدان، وفي بناءِ الأمصار ، ونشْرِ الإسلام ، وإرساءِ

قواعده ، وتعليمِ العلْم لكلِّ مَنْ يطلبه ، ولكلّ مَنْ يأتيهم من كلِّ فجٍ عميق.

سابعاً: تبيَّن لنا ـ ونحن نعيش في أفياء الكتاب ـ أنَّ عدداً من علماء الصَّحابة كان من كتَبَةِ الوحي ، وأنَّ لهم دوراً بارزاً في هذا المجالِ الكريم ، وأنَّهم كانوا قسمَيْن: قسمٌ متخصِّصٌ بكتابةِ التَّنزيل وكانوا ستّةً ، ومنهم في هذا الكتاب: «أُبيُّ بنُ كعب ، وزيدُ بنُ ثابت ، ومعاويةُ بنُ أبي سفيانَ» رضي الله عنهم أجمعين؛ وقسمٌ آخرُ وهم كُتَّاب الوحي في شؤونِ الرّسالةِ والدَّعوة ، ومنهم في هذا الكتاب: «حذيفةُ بنُ اليمان ، وعبدُ الله بنُ عمرو ابنِ العاص ، ومعاذُ بنُ جَبَل» رضي الله عنهم أجمعين.

ثامناً: انعقدَ إجماعُ محدّثي الأمّة وعلمائِها على أنَّ سيّدَ الحُفَّاظ الأثبات هو سيّدنا أبو هريرة الدَّوسيّ رضي الله عنه ، الذي روىٰ (٥٣٧٤ حديثاً) ، في حين أنَّ مجموعَ مرويات أصحاب الألوف السِّتَّة الباقين تبلغُ (١١٤٩٦ حديثاً)؛ فمرويّاته وحدها تساوي نِصْف مرويّاتهم تقريباً. أمّا بقيَّةُ السِّتّة فهم: «عبدُ الله بنُ عمر، وأنسُ بنُ مالك، وعائشةُ بنتُ أبي بكر الصِّدِّيق ، وعبدُ الله ابنُ عبّاس ، وجابرُ بنُ عبد الله ، وأبو سعيد الخُدريّ» رضي الله عنهم أجمعين ، ولهؤلاء ترجمةٌ في هذه الموسوعةِ ، ما عدا أمّنا عائشة بنت الصّدّيق ، فقد توسَّعْتُ في سيرتها في كتابي الشَّهير: «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» ، وأشرتُ إلى أنها أفقه نساء الأمة على الإطلاق ، وأنها حافظة النساء الأولى لحديث النّبيّ ﷺ.

تاسعاً: تبيَّنَ لنا أنَّ علماءَ الصَّحابة هؤلاء لم يكونوا من المهاجرين فحسب، وإنّما فيهم عددٌ من الأنصار وغيرهم ، وأنّهم أجمعون تخرجوا في المدرسةِ النّبويّةِ المباركة بمرتبةِ الشَّرف الأولى المختومةِ بالأنفاسِ المحمَّديَّةِ الزَّاكيةِ.

عاشراً: من خلال دراسةِ آثارِ علماء الصَّحابة ظهر لنا مكانة مدرسةِ علماء الصَّحابة في المدينة المنوّرة ، وكان لها كبيرُ الأثرِ في نَشْرِ العلْمِ والفقْهِ والفتوى والرّواية والتَّفسير ، وغير ذلك ، ومن أعلامِ هذه المدرسة: سيّدنا جابرُ بنُ عبد الله ، وأبو سعيد الخُدري ، وأُبيُّ بنُ كعب ، وزيدُ بنُ ثابت ،

وأبو هريرةَ ، وعبدُ الله بنُ عمر ، وغيرهم» رضي الله عنهم أجمعين. وكذلك كانت هناك مدارس لعلماءِ الصَّحابة في الشَّام والعراقِ ومصرَ ، ولها آثارٌ واضحةٌ في هاتيك البلاد.

حادي عشر: اتَّضح لنا أنَّ بعضَ علماءِ الصَّحابة الكرام له كرامةٌ متميّزةٌ ، خَصَّهُ النَّبي ﷺ بها ، فابنُ عبَّاس مثلاً دعا له الصَّادق المصدوق ﷺ بأنْ يعلّمه اللهُ التَّأويل ، وأبو هريرة دعا له بجودةِ الحفْظِ والفَهْم وألا ينسى ، وأبو ذرّ يموت وحده ، وتميمُ الدَّاري روى عنه حديث الجساسة؛ وتميمٌ متفرّد بهذا المجال بين عُلماء الصَّحابة.

ثاني عشر: كان أسيادُنا علماء الصَّحابة يسمعون الحديثَ من النَّبيِّ ﷺ ، وكان بعضُهم يروي عن بعضٍ حرصاً على نَشْرِ العِلْم والرِّواية ، فالعبادلةُ مثلاً رووا عن الخلفاءِ الرَّاشدين وعن أكابر الصَّحابةِ من المهاجرين والأنصار ، وكذلك سيّدنا معاويةُ وأبو هريرةَ وجابرٌ وأنسٌ وغيرُهم ، وكان بعضُهم يُذَكِّرُ بعضاً بما رأىٰ أو سمعَ أو تعلَّمَ ، كما أنَّهم أسهموا في رسْمِ أحداثِ السِّيرة النَّبويّة في العهدَيْن المكّيّ والمدنيّ.

ثالث عشر: ظهر لنا ونحنُ نطالعُ قَسَمات هذه الموسوعة أنّنا كُنّا نركّزُ على روايةِ كلّ صحابي من علماء الصَّحابة ونذكر عددَ ما روىٰ مِنْ أحاديثِ النَّبيّ ﷺ ، ومَنْ روىٰ عنه ، كما كنّا نقرأُ عن علاقةِ كلّ واحدٍ منهم بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وبالفتوى أو الورع أو الحكمةِ ، أو السِّيرة ، أو المغازي ، كما كُنّا ندقّقُ على اقتفائهِ للآثار النَّبويّة بجميع أشكالها ، وكأنَّنا كنّا نشعرُ من خلالِ سيرةِ الصَّحابي الذي نترجمُ له أنَّه استأثَرَ وحْدَهُ باهتمامِ النَّبيّ ﷺ ، وأنَّه وحيدٌ في ميدانِ الفضائلِ وساحةِ المكارم ، ولكنَّ الحبيبَ الأعظمَ ﷺ كان يهتمُّ بجميعِ أصحابهِ ، ويعلّمهم مكارمَ الأخلاق ، ومحاسن الشّيم.

رابع عشر: من الواضحِ تماماً أنّ التّركيز الأساسي في التَّراجم كان على العِلْمِ والرّوايةِ والفقه والتفسير والرقائق ، وعلى أهمِّ الخصائصِ التي اشتُهِرَ بها الصَّحابي ، ومن ثمّ أخذنا نستخدمُ كلماته وتعبيره في ترجمتِه حرصاً على

نشْرِ محاسنِهِ وعلْمِهِ وفقهه. وكانت تراجمُ هؤلاء العُلماء الأفذاذ متفاوتةً من حيثُ طولها وقصرها ، وذلك حسب ما تقتضيه التَّرجمةُ ، وكنتُ أركّزُ أحياناً ـ في بعضِ تراجم الصَّحابة ـ على نواحٍ اشتُهِرَ الصَّحابي بها ، من مثل: حياة الجهاد عند سيّدنا جابر بن عبد الله الأنصاريّ ، حيث روى كثيراً من أحداث المغازي النَّبويّة ، وكثيراً من الكرامات الجليّة المتعلّقة بدلائل النُّبوّة ، ومثله أبو هريرة ، وأبو سعيد الخدري ، وأبو ذرّ الغفاري ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم أجمعين.

خامس عشر: كان عددٌ غفيرٌ من أسيادنا علماء الصَّحابة الكرام يتذوّقُون الأدبَ ، ويقرضون الشِّعْرَ ، وقد صدرتْ عنهم بدائعُ حِكَمٍ نادرة ، ومواعظُ أدبٍ باهرة ، ورقائقُ ذات أنفاسٍ أدبية تخلبُ الألباب ، وكلُّها مُسْتَمدةٌ ومُسْتَقاةٌ من السُّنَّةِ والكتابِ ، وكان بعضُهم يستمعُ إلى ما جادَتْ به قرائحُ الشُّعراء ، ويلتقي مشاهيرهم وفطاحلَهم ، وقد وَرَدَ أنَّ ابنَ الزُّبير ، وأبا هُريرة ، وابنَ عبّاس ، ومعاويةَ رضي الله عنهم قد التقوا مشاهيرَ الشُّعراء ، وجَرتْ بينهم محاوراتٌ ومحاضراتٌ أسفَرتْ عن فصاحتِهم ومعرفتهم الواسعةِ بمواقعِ الكلام ومحاسنِه ، وبيانِ سمينهِ من غثّه.

سادس عشر: وقعتْ أعينُنا ـ ونحنُ نقتطفُ أزاهرَ الطُّرفِ من هذا السِّفْر ـ على نفائسَ نادرةٍ من أدبيّاتِ العربِ وأنفاسهم الشِّعرية الجميلة النَّاعمة التي تقطرُ في محبَّةِ علماء الصَّحابة ، إذ إنّنا نَجِدُ مَنْ نظمَ أسماءَ حُفَّاظِ الحديث السَّبعة ، أو أسماء الصَّحابة الذين جمعُوا القرآن الكريم وحفظوه في العهد النّبويّ ، أو نظَمَ أسماء المُفتين ، أو أسماء العبادلة الأربعة الأخيار ، أو أسماء كتبة الوحي ، وما شابه ذلك؛ وهذا كلّه يزيدُ من الرَّصيدِ الأدبيّ والعِلْميّ للقارىءِ والسَّامع ، إذ إنَّ الأدبَ ـ أحياناً ـ يجلو صدأَ النُّفوسَ ، وينشّطها ، ويعزّزُ الحفْظَ لَديها ، ويوضّح الصُّورةَ والملامح العامة للشَّخصيّة المُترجَم لها.

سابع عشر: ما من خلافٍ على أنَّه قد وَقَعَ خلافٌ وتشَاجُرٌ بين بعضِ

علماء الصَّحابةِ رضي الله عنهم ، ولكنَّه لم يكن لِشَهواتٍ نفسانيةٍ ، أو مطامعَ دنيويةٍ ، وإنّما كان عن اجتهادٍ ، ونحنُ نعلمُ علْمَ اليقين أنَّ الحقَّ ـ في حروبِ الصَّحابة وخلافهم ـ مع سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ومَنْ وافَقَهُ مِنَ الصَّحابةِ رضي الله عنهم ، وأنَّ مَنْ قاتلوه كانوا بُغَاةً ، وخرجوا عليه عن اجتهادٍ منهم ، فأخطؤوا فيه ، وكان معذورين في قتالهم رضي الله عنهم أجمعين. وممّا لا ريب فيه أنَّ تسعةً وتسعين بالمئةِ من الناس ـ وأنا أوّلهم ـ يحبّون سيّدنا عليّاً رضي الله عنه ويفضّلونه ويحترمونه ويُجلّونَه لِعلْمِه ولمكانتهِ في بيتِ النُّبوّة ، وفي رجالِ أهلِ البيتِ الأخيار ، ولكنَّهم لا يسبُّونَ خصومَه ، فالطَّعْنُ في عدالةِ الصَّحابة وسبِّهم حرامٌ بِنَصِّ القُرآن والسُّنَّة ، وينبغي زَجْر من يسبُّهم وتأديبه.

ثامن عشر: ينبغي التَّأَدُّبُ مع الصَّحابةِ أجمعين ، وعدمُ وصفهم بما لا يليق بمكانتهم الدّينيّة والعلْميّة والأدبيّة والاجتماعية ، فلهم مكانةٌ عظمى لا يَلْيقُ بها غيرهم ، فلو أنفقَ أحدنا مثل أُحُدٍ ذَهَباً ما بلغَ مُدَّ واحدٍ منهم ولا نَصِيْفَه ، فهم صحبوا النَّبيّ ﷺ ، وتشرَّفُوا به ، وجاهدوا معه ، فلا ينبغي أنْ نفضّلَ عليهم أحداً ، وإن اشتُهِر بالعِلْم والزُّهد والورع والعمل ، فليس الذي رأىٰ النَّبيَّ ﷺ وآمنَ برسالته كمن لم يَرَهُ ، كما أنَّه ينبغي أنْ نتذكَّر أنَّهم كانوا يثنون على بعضِهم بعضاً دون أيةِ غاية ، وإنّما كانوا يريدون بذلك وجْهَ اللهِ عزَّ وجلَّ فيما يقولون ويعملون.

تاسع عشر: اتَّضحَ لنا أنَّ كثيراً من المعلوماتِ التي تشوبها الأغلاطُ المتعمدةُ ، والأغاليطُ العفويةُ أحياناً ، قد سارت مسرىٰ الأمثال ، وصارت من المُسَلّمات وخصوصاً فيما جاء في سيرةِ سيّدنا معاويةَ ، فأشرنا إلى الصَّحيح من الأخبار ، ونبَّهْنا على الغلط وعلى المغالطاتِ والأقاويل ، ومنها أنَّ سيّدنا معاويةَ من المؤلَّفةِ قلوبهم ، والصَّحيحُ غيرُ ذلك ، كما أنّنا نبّهنا على بعض القصصِ الموضوعةِ التي لا تتناسبُ مع سيرة سيّدنا معاويةَ وقَدْرِهِ ، وكذلك بعضُ الأخبارِ التي لا تنسجمُ مع سلوكِ الصَّحابة وهدفهم. كما أنّنا أشرنا بوضوحٍ تام إلى كثيرٍ من الكتُبِ والموسوعات والمؤلّفات التي

تعمَّدتْ نَشْرَ الأكاذيبِ والأغاليطِ والإساءة إلى كبار علماء الصَّحابة وأعلامهم وأسيادهم وشيوخهم، وبيَّنَّا بالأدلّةِ القاطعة والحجج الدَّامغةِ بُطْلانَ ما أتَتْ به من افتراءٍ وتزويرٍ وموضوعاتٍ وأباطيلَ لا تنسجمُ مع أبسط حقائقِ التَّاريخ ، أو الحياة الاجتماعية في عصر علماء الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين.

عشرون: اتّباع الحقِّ هو نهجُ علماء الصَّحابة ، وعليه كان بناء حياتهم ، ونحنُ إن شاء الله سائرون على طريق الحقّ، لنكون من أهلِ الحقّ ، ونسألُ الله أنْ يجعلَنا مع الحقّ ، وأنْ يحشرنا مع أهلِ الحقّ ، وأنْ يجعلَ هجرتنا خالصةً إليه ، وأنْ ينعمَ علينا بمعرفةِ الحقّ ، ليعم الوئامَ والسَّلامُ في هذه الدُّنيا.

* وفي الختام: أسألُ اللهَ العظيم أنْ ينفعَ بهذا الجهد في هذا الكتاب الذي حرصتُ قدر المستطاع أنْ يكونَ ذا فائدةٍ كبرىٰ ، يستفيدُ منه المحبّون لعلماء الصَّحابة ولكلِّ علماء الأمّة في مشارق الأرض ومغاربها.

* اللهم إنّا نسألُكَ العفو والعافية ، وأنْ تجعلَ لنا من أمرنا فَرجاً ، ومن همِّنا مخرجاً ، وأنْ تجمعنا علىٰ ما تحبُّ وترضى ، وتوفّقنا لما فيه الخير في الدنيا والآخرة.

* اللهمّ إنّا نسألك عِلماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وشفاءً من كلّ داء.

* اللهم باركْ لنا في أوقاتنا ، ويسِّرْ لنا أمورنا ، واجعلْ أعمالَنَا خالصةً من الرّياء ، واجعلنا من أهلِ الحقّ ، واحشرنا في معيّةِ سيّد الخلق.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وكتب

محبُّ علماء الصَّحابة وخادمهم

الفقير إلى عفو الله

أحمد خليل جمعة

الحرستاني

الدّمشقي

فهرس المصادر والمراجع (١)

١ ـ **القُرآنُ الكريمُ وعلومُه.**

٢ ـ **الصَّحيحان البخاري ومسلم وشَرحُهما.**

٣ ـ **السُّننُ الأربعةُ وشروحُها.**

٤ ـ **المسانيدُ والمُستدركاتُ والمصنَّفاتُ والمعاجم.**

٥ ـ **آثارُ البلادِ وأخبارُ العباد**: للقزوينيّ ـ دار بيروت للطِّباعةِ والنَّشر ـ بيروت ـ ١٩٧٩ م.

٦ ـ **الآدابُ الشَّرعيةُ**: لابن مفلح المقدسيّ ـ تحقيق شُعيب الأرناؤوط وعمر القيّام ـ مؤسَّسة الرِّسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٦ م.

٧ ـ **الإبانةُ عن أصولِ الدِّيانة**: لأبي الحسنِ الأشْعريّ ـ المطبعة السَّلفيّة ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٣٩٧ هـ.

٨ ـ **إتحافُ السَّادة المتّقين بشرح إحياء علوم الدِّين** ـ للزَّبيديّ دار الكتب العلْميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٩ م.

٩ ـ **الإتقانُ في علوم القُرآن**: للسّيوطيّ ـ تعليق د. مصطفى البغا ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٧٩ م.

---

(١) رجعتُ في تصنيفِ هذا السِّفرِ المبارك إلى مئاتِ المصَادرِ والمراجعِ في مختلفِ العلوم والمعارف، وخاصّة علوم القرآن الكريم، والحديث الشّريف، والسّيرة النّبويّة، والتّفاسير، والتّراجم، والدواوين، وكتب اللغة وغيرها.. وسأذكرُ في هذا الفهرس شيئاً منها، إذ ليس من السَّهل استقصاؤها، ثم إنها منثورةٌ في حواشي الكتاب وثناياه.

١٠ ـ الإجابةُ لما استدركتْهُ عائشة على الصَّحابة: للزَّركشيّ ـ تحقيق سعيد الأفغانيّ ـ دار القَلَم ـ بيروت.
١١ ـ الإحكامُ في أصولِ الأَحْكام: لابن حزْم ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥ م.
١٢ ـ أحكامُ قراءةِ القُرآنِ الكريم: لمحمود خليل الحُصريّ ـ علَّق عليه محمد طلحة منيار ـ المكتبةُ المكّيّة ـ مكَّةُ المكرّمةُ ـ ط ٢ ـ ١٩٩٦ م.
١٣ ـ أحكامُ القرآن: لابن عربيّ ـ تحقيق علي محمّد البجاويّ ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٤ ـ إحياءُ علوم الدِّين: للغزالي ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ م، وطبعات أخرى.
١٥ ـ الأخبارُ الطِّوال: للدَّينوريّ ـ تحقيق عبد المنعم عامر ـ مصر ـ ١٩٥٩ م.
١٦ ـ أخبارُ القُضاة: لوكيع ـ عالم الكُتب ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٧ ـ أخبارُ مكَّة: للأزرقيّ ـ تحقيق رشدي ملحس ـ دار الأندلس ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٩٨٣ م.
١٨ ـ الأخبارُ الموفقيّات: للزُّبير بن بكّار ـ تحقيق د. سامي مكّي العاني ـ بغداد ـ ١٩٧٢ م.
١٩ ـ أخبارُ النِّساء: لابن قيّم الجوزيّة ـ تحقيق د. نزار رضا ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ ١٩٦٤ م.
٢٠ ـ أخبارُ الوافداتِ من النِّساء على معاويةَ بنِ أبي سفيان: للعبّاسِ بنِ بكّار الضّبيّ ـ تحقيق سكينة الشّهابيّ ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٣ م.
٢١ ـ أدبُ الدّنيا والدِّين: للماورديّ ـ تحقيق ياسين السَّواس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٢ م.
٢٢ ـ أدبُ السِّياسة في العَصْر الأمويّ: د. أحمد الحوفي ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ ط ٥ ـ دون تاريخ.

٢٣ ـ **أدبُ الكتّاب**: للصَّولي ـ تعليق أحمد بَسَبج ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٤ م.
٢٤ ـ **إرشادُ العَقْل السَّليم إلى مزايا القرآن الكريم**: لأبي السُّعود ـ دار إحياء التّراث العربيّ ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٥ ـ **أساسُ البلاغةِ**: للزَّمخشري ـ دار الفِكْر ـ بيروت ـ ١٩٩٤ م.
٢٦ ـ **أسبابُ النُّزول**: للواحديّ ـ تحقيق د. مصطفى البغا ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٨ م.
٢٧ ـ **أسبابُ النّزول عن الصَّحابة والمفسّرين**: لعبد الفتّاح القاضي ـ دار النّدوة الجديدة ـ بيروت ـ ١٩٨٧ م.
٢٨ ـ **الاستبصارُ في نَسَبِ الصَّحابة من الأنصار**: لابن قدامة المقدسيّ ـ تحقيق علي نُويهض ـ دار الفكر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٩ ـ **الاستيعابُ**: بهامشِ الإصابة: لابن عبد البرّ ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٣٠ ـ **أسدُ الغابةِ في معرفةِ الصَّحابة**: لابن الأثير ـ طبعةٌ مصوَّرةٌ عن طبعة دار الشّعب المحقّقة ـ بيروت ـ ١٩٨٩ م.
٣١ ـ **إسعافُ الرَّاغبين**: لمحمّد بن علي الصَّبَّان: بهامش نور الأبصار ـ شركة البابي الحلبي ـ مصر ـ الطَّبعةُ الأخيرة ـ ١٩٤٨ م.
٣٢ ـ **الأسماءُ المبهمةُ في الأنباءِ المحكمة**: للخطيب البغداديّ ـ أخرجه د. عز الدّين السَّيِّد ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٨٤ م.
٣٣ ـ **الاشتقاقُ**: لابن دريد ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ م.
٣٤ ـ **الإصابةُ في تمييز الصَّحابة**: لابن حجر ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٣٥ ـ **الأعلامُ**: للزِّركليّ ـ دار العِلْم للملايين ـ بيروت ـ ط ٨ ـ ١٩٨٤ م.
٣٦ ـ **أعلام النّبوة**: للماورديّ ـ تعليق محمد المعتصم بالله البغداديّ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٧ م.

٣٧ ـ **أعيانُ العصرِ وأعوانُ النَّصر**: لصلاح الدين الصَّفدي ـ تحقيق فالح بكور ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م. وطبعةُ دار الفكر المحقّقة بدمشق في ستة أجزاء.

٣٨ ـ **إغاثةُ اللهفان من مصايد الشَّيطان**: لابن قيّم الجوزية ـ تحقيق محمّد حامد الفقي ـ دار الجيل ـ القاهرة ـ دون تاريخ.

٣٩ ـ **الأغاني**: للأصفهاني ـ تحقيق عَددٍ من الأساتذة ـ دار الكتُب العلميّة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٢ م. وطبعة مصوّرة بدار الفكْر ببيروت.

٤٠ ـ **الاقتباسُ من القرآن الكريم**: للثَّعالبي ـ تحقيق ابتسام مرهون الصَّفَّار ـ طبعة مصوّرة.

٤١ ـ **الإكمالُ**: لابن ماكولا ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤١١ هـ.

٤٢ ـ **ألف باء**: للبلويّ ـ دار عالم الكتُب ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٤٣ ـ **ألفُ ليلةٍ وليلة**: لمؤلّف مجهول ـ طبعاتٌ مختلفة بمصرَ وبيروت.

٤٤ ـ **الأمالي**: لأبي علي القالي ـ مصر ـ ١٩٥٣ م.

٤٥ ـ **أمالي المُرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)**: للمرتضى ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار إحياء الكتُب العربيّة ـ القاهرة ـ ١٩٥٤ م.

٤٦ ـ **أنباءُ نجباء الأبناء**: لمحمد بن ظفر ـ مصر ـ دون تاريخ.

٤٧ ـ **الأنسابُ**: لعبد الكريم السَّمعاني ـ تعليق عبد الله عمر البارودي ـ دار الكتُب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.

٤٨ ـ **أنسابُ الأشراف**: للبلاذري ـ تحقيق محمد حميد الله ـ دار المعارف ـ مصر ـ دون تاريخ ـ وكذلك عدّة أجزاء متفرّقة بتحقيق عدّة أساتذة.

٤٩ ـ **أنوارُ التَّنزيل وأسرار التّأويل**: للبيضاويّ ـ مؤسّسة شعبان للنَّشر والتَّوزيع ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٥٠ ـ **الأوائلُ**: لأبي هلال العسكريّ ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٧ م.

٥١ ـ **أيّامُ العربِ في الإسلام**: لمحمد جاد المولى ورفيقَيْه ـ طبعة مصوّرة ببيروت عن طبعةِ مصر ـ دون تاريخ.
٥٢ ـ **أيامُ العرب في الجاهليّة**: لمحمد جاد المولى ورفيقَيْه ـ طبعة مصوّرة ببيروت عن طبعة مصر ـ دون تاريخ.
٥٣ ـ **إيضاحُ الإشكال**: لمحمّد بن طاهر المقدسيّ ـ تحقيق د. باسم جوابرة ـ مكتبةُ المعلاّ ـ الكويت ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.
٥٤ ـ **البحثُ والاستقراء في تراجم القراء**: لمحمد الصَّادق قمحاوي ـ مكتبة الكليات الأزهريّة ـ القاهرة.
٥٥ ـ **بدائعُ البدائهِ**: لابن ظافر الأزدي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مصر ـ ١٩٧٠ م
٥٦ ـ **بدائعُ الفوائد**: لابن قيّم الجوزيّة ـ إدارة الطِّباعةِ المنيرية ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
٥٧ ـ **البدايةُ والنّهايةُ**: لابن كثير ـ دار الفكْر ـ طبعةٌ مصوّرةٌ ـ ١٩٧٨ م.
٥٨ ـ **البدرُ التَّمام شرح بلوغ المرام من أدلّة الأحكام**: لحسين محمد المغربي ـ تحقيق د. محمد شحود خرفان ـ دار الوفاء ـ المنصورة ـ ط ١ ـ ٢٠٠٤م.
٥٩ ـ **البدرُ الطَّالع**: للشَّوكاني ـ دار الكتاب الإسلاميّ ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
٦٠ ـ **البدورُ الزَّاهرةُ في القراءاتِ العشْر المتواترة**: لعبد الفتّاح القاضي ـ مطبعة البابي الحلبيّ ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٥٥ م.
٦١ ـ **البرصانُ والعرجانُ والعميانُ والحولانُ**: للجاحظ ـ تحقيق د. محمد مرسي الخولي ـ مؤسَّسة الرِّسالة ـ ط ٤ ـ ١٩٨٧ م.
٦٢ ـ **البرهانُ في علومِ القرآن**: للزّركشيّ ـ دار إحياء الكتاب العربي ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ م.
٦٣ ـ **البصائرُ والذَّخائر**: للتَّوحيدي ـ تحقيق د. وداد القاضي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.
٦٤ ـ **بلاغاتُ النِّساء**: لابن طيفور الخراسانيّ ـ صحّحه أحمد الألفي ـ مطبعة مدرسة والدة عبَّاس الأوّل ـ القاهرة ـ ١٩٠٨ م.

٦٥ ـ **البُلدان**: لابن الفقيه ـ تحقيق يُوسُف الهادي ـ عالم الكتُب ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.
٦٦ ـ **بلوغُ الأرب**: للآلوسيّ ـ تحقيق محمد بهجة الأثريّ ـ دار الكتُب العلميّة ـ بيروت ـ طبعة مصوّرة دون تاريخ.
٦٧ ـ **بناتُ الصَّحابة**: د. أحمد خليل جمعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٩ م.
٦٨ ـ **بهجةُ المجالِس وأُنْس المجالس**: لابن عبد البرّ ـ تحقيق محمّد مرسي الخولي ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٦٩ ـ **البيانُ والتَّبيين**: للجاحظ ـ تحقيق عبد السّلام هارون ـ لجنة التّأليف والتَّرجمة والنَّشر ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ م.
٧٠ ـ **بيعةُ النِّساءِ في القرآنِ والسِّيرة**: د. أحمد خليل جمعة الحرستاني الدمشقي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٤٢٥ هـ.
٧١ ـ **التَّاجُ الجامعُ للأصول**: لمنصور علي ناصف ـ مطبعةُ البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط ٤ ـ دون تاريخ.
٧٢ ـ **تاجُ العروسِ من جواهرِ القاموس**: للزَّبيدي ـ المطبعة الخيريّة ـ مصر ـ ١٣٠٦ هـ. وطبعة دار الفكر المحقّقة ببيروت.
٧٣ ـ **تاريخُ آدابِ العرب**: لمصطفى صادق الرّافعي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط ٧ ـ ١٩٧٤ م.
٧٤ ـ **تاريخُ الأدبِ العربيّ**: لعمر فروخ ـ دار العِلْم ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٩٨١ م.
٧٥ ـ **تاريخُ الأدب العربي**: د. ر. بلاشير ـ ترجمة د. إبراهيم الكيلاني ـ دار الفكْر ـ دمشق ـ ١٩٧٤ م.
٧٦ ـ **تاريخُ الإسلام ووفيَات المشاهير والأعلام**: للذَّهبيّ ـ تحقيق د. عمر تدمريّ ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٧ م.
٧٧ ـ **تاريخُ الأمم والملوك**: للطَّبريّ ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٨ م.

٧٨ ـ **تاريخُ بغدادَ ، أو مدينة السَّلام**: للخطيب البغداديّ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٧٩ ـ **تاريخُ الخلفاء**: للسيّوطي ـ دار الفكّر ـ بيروت ـ ١٩٧٤ م.
٨٠ ـ **تاريخُ خليفةَ بنِ خيّاط**: لخليفة بن خياط ـ حقّقه د. سُهيل زكّار ـ دار الفكْر ـ بيروت ـ ١٩٩٢ م.
٨١ ـ **تاريخُ الخميس في أحوالِ أنفسِ نفيس**: للدّيار بكري ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٨٢ ـ **تاريخُ عمرَ بنِ الخطَّاب**: لابن الجوزي ـ دار الرّائد العربي ـ بيروت ـ ١٩٨٢ م.
٨٣ ـ **تاريخُ القضاعي**: للقُضاعي ـ طبعةُ جامعة أمّ القرى ـ مكَّة المكرمة ـ ١٤١٥ هـ.
٨٤ ـ **تاريخُ مدينةِ دمشق (تراجم النّساء)**: لابن عساكر ـ تحقيق سُكينة الشّهابي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ دون تاريخ.
٨٥ ـ **تاريخُ المدينةِ المنورة**: لابن شبّة ـ حقّقه فيهم شلتوت ـ دار التّراث ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.
٨٦ ـ **تاريخُ اليعقوبيّ**: لليعقوبيّ ـ دار بيروت للطِّباعة والنَّشر ـ بيروت ـ ١٩٨٠ م.
٨٧ ـ **تاريخُ فنونِ الحديث النّبوي**: لمحمد عبد العزيز الخولي ـ حقّقه محمود الأرناؤوط ورفيقه ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٨ م.
٨٨ ـ **تأويلُ مختلفِ الحديث**: لابن قتيبة ـ تحقيق محمد محيي الدّين الأصفر ـ المكتب الإسلاميّ ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٩ م.
٨٩ ـ **التَّبيينُ في أنسابِ القُرشيين**: لابن قدامةَ المقدسيّ ـ حقَّقه محمد نايف الدّيلمي ـ المجمع العلمي العراقي ـ ١٩٨٢ م.
٩٠ ـ **تجريدُ أسماءِ الصَّحابة**: للذَّهبي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٩١ ـ **تحفةُ الأحوذي بشرحِ جامعِ التّرمذي**: للمباركفوري ـ صحّحه عبد الوهاب عبد اللطيف ـ مكتبة ابن تيميّة ـ القاهرة ـ ط ٣ ـ ١٩٧٨ م.

٩٢ ـ تذكرةُ الحفَّاظ: للذّهبي ـ مطبعة دائرة المعارف ـ الهند ـ ط ٤ ـ دون تاريخ.
٩٣ ـ التّذكرةُ الحمدونيّةُ: لابن حمدون ـ تحقيق د. إحسان عبّاس وبكر عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.
٩٤ ـ التّراتيبُ الإداريّةُ: للكتّاني ـ علّق عليه علي محمد دندل ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ٢٠٠١م.
٩٥ ـ التَّرغيبُ والتّرهيبُ: للمنذريّ ـ علق عليه مصطفى محمد عمارة ـ مطبعةُ مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ ط ٣ ـ ١٩٦٨ م.
٩٦ ـ التَّعازي والمراثي: للمبرّد ـ حقَّقه محمّد الدّيباجي ـ مجمع اللغة العربية ـ دمشق ـ ١٩٧٦ م.
٩٧ ـ تغريدةُ السِّيرةِ النَّبويّةِ: لمحمّد عايش عُبيد ـ دار التُّراث ـ القاهرة ـ دون تاريخ أو رقم الطَّبعة.
٩٨ ـ تفسيرُ آيات الأحكام: للسَّايس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٤ م.
٩٩ ـ تفسيرُ ابن عطيّة (المحرر الوجيز): لابن عطيّة الأندلسيّ ـ دار ابن حزم ـ بيروت ـ ط ١ ـ ٢٠٠٢م.
١٠٠ ـ تفسير ابنُ ناصر السَّعدي (تيسير الكريم الرحمن): للسَّعدي ـ مؤسَّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.
١٠١ ـ تفسيرُ البحرِ المحيطِ: لأبي حيّان الأندلسيّ ـ حقَّقه جماعةٌ من علماء الأزهر ـ دار الكتبُ العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م.
١٠٢ ـ تفسيرُ الخازن وبهامشه البغويّ: للخازن والبغويّ ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ـ ط ٢ ـ ١٩٥٥ م.
١٠٣ ـ تفسيرُ الرّازي: لأبي بكر الرَّازيّ ـ تحقيق د. محمد رضوان الداية ـ دار الفِكْر ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.
١٠٤ ـ تفسيرُ روح المعاني: للآلوسيّ ـ دار الفِكْر ـ بيروت ـ ١٩٩٤ م.

١٠٥ ـ **تفسيرُ السَّمرقندي**: للسَّمرقندي ـ دار الكتُب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م.
١٠٦ ـ **تفسيرُ الطَّبري (جامع البيان)**: للطَّبري ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ١٩٨٤ م.
١٠٧ ـ **تفسيرُ القاسمي**: لجمال الدِّين القاسمي ـ علَّق عليه محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٨ م.
١٠٨ ـ **تفسيرُ القرآنِ العظيم**: لابنِ كثير ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٤ م.
١٠٩ ـ **تفسيرُ القُرطبي (الجامع لأحكام القرآن)**: للقرطبيّ ـ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١١٠ ـ **التَّفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**: للرّازي ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.
١١١ ـ **تفسيرُ الماوردي (النّكت والعيون)**: للماورديّ تحقيق خضر محمد خضر ـ وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة ـ كويت ـ ط ١ ـ ١٩٨٢ م.
١١٢ ـ **تفسيرُ مبهمات القُرآن**: للبلنسي ـ تحقيق د. حنيف القاسميّ ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.
١١٣ ـ **تفسيرُ المراغي**: لأحمد مصطفى المراغي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٣٩٤ هـ.
١١٤ ـ **التَّفسيرُ والمفسّرون**: د. محمد حُسين الذَّهبي ـ دار القلم ـ بيروت ـ ط١ ـ دون تاريخ.
١١٥ ـ **تفسيرُ المنار**: لمحمد رشيد رضا ـ دار المعرفة ـ بيروت.
١١٦ ـ **التَّفسيرُ المنيرُ**: د. وهبة الزُّحيلي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.
١١٧ ـ **تفسيرُ النَّسفي**: للنَّسفي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٩٨٢ م.
١١٨ ـ **تقريبُ التَّهذيب**: لابن حجر ـ تحقيق عبد الوهَّاب عبد اللطيف ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٥ م.

١١٩ ـ **تلبيسُ إبليس**: لابن الجوزي ـ طبعَاتٌ متنوّعة.
١٢٠ ـ **تلقيحُ فُهوم الأثَر في عيون التَّاريخ والسِّير**: لابن الجوزيّ ـ مكتبة الآداب ـ مصْر ـ دون تاريخ أو ذكر رقم الطَّبعة.
١٢١ ـ **التَّمثيلُ والمحاضرة**: للثَّعالبي ـ تحقيق عبد الفتّاح الحلو ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ١٩٦١ م.
١٢٢ ـ **تنبيهُ الغافلين**: للسَّمرقندي ـ دار ابن كثير ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.
١٢٣ ـ **تهذيبُ الأسماء واللغات**: للنّوويّ ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ دون تاريخ أو ذكر رقم الطَّبعة.
١٢٤ ـ **تهذيبُ تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر**: هذَّبه عبد القادر بدران ـ دار المسيرة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٣٩٩ هـ.
١٢٥ ـ **تهذيبُ التَّهذيب**: لابن حجر ـ دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة ـ دون تاريخ أو ذِكْر رقم الطَّبعة.
١٢٦ ـ **ثمارُ القُلوب**: للثَّعالبيّ ـ تحقيق محمد أبو الفَضْل إبراهيم ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٦٥ م.
١٢٧ ـ **ثمراتُ الأوراق بهامش المستطرف**: للحمويّ ـ دار الفكْر ـ بيروت ـ دون تاريخ أو ذِكْر رقم الطَّبعة.
١٢٨ ـ **جامعُ الأصول**: لابن الأثير ـ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ـ مطبعة الملاّح ـ دمشق ـ ١٩٦٩ م.
١٢٩ ـ **جامعُ بيانِ العلْم وفضله**: لابن عبد البرّ القرطبيّ ـ قدم له عبد الكريم الخطيب ـ دار الكتب الإسلاميّة ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٨٢ م.
١٣٠ ـ **جامعُ العلوم والحكم**: لابن رجب الحنبليّ ـ تحقيق شُعيب الأرناؤوط ورفيقُه ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٩١ م.
١٣١ ـ **الجامعُ لأخلاقِ الرّاوي والسَّامع**: للخطيب البغداديّ ـ تحقيق د. محمد عجاج الخطيب ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.
١٣٢ ـ **جلاءُ الأفهام**: لابن قيّم الجوزية ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.

١٣٣ ـ **الجليسُ الصَّالح الكافي**: للنّهروانيّ ـ تحقيق د. محمد مرسي الخولي ود. إحسان عبّاس ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٣ م.
١٣٤ ـ **جمهرةُ الأمثال**: للعسكريّ ـ ضَبطَه د. أحمد عبد السَّلام ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.
١٣٥ ـ **جمهرةُ أنسابِ العربِ**: لابن حزم الأندلسيّ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٣ م.
١٣٦ ـ **جوامعُ السِّيرة النَّبوية**: لابن حزم ـ تحقيق نايف العبّاس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ١٩٨٦ م. وطبعة دار المعارف بمصر.
١٣٧ ـ **جواهرُ البحار في فضائلِ النّبي المُختار ﷺ**: ليوسف النّبهاني ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٦٠ م.
١٣٨ ـ **الجواهرُ الحِسَان في تفسيرِ القرآن**: لعبد الرحمن الثَّعالبي ـ حقَّقه أبو محمد الغُماري الإدريسيّ ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.
١٣٩ ـ **حاشيةُ الصَّاوي على الجلالين**: للصَّاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ مصر ـ دون تاريخ.
١٤٠ ـ **حجّةُ اللهِ على العالمين**: ليوسُف النَّبهاني ـ تحقيق محمّد مصطفى أبو العُلا ـ مكتبة الجنديّ ـ القاهرة ـ ١٩٧١ م.
١٤١ ـ **حضارةُ العرب**: لجوستاف لُوبُون ـ ترجمة عادل زعيتر ـ مصر ـ ط ٢ ـ ١٩٤٨ م.
١٤٢ ـ **الحضرةُ الأنسيةُ في الرّحلةِ القدسيةِ**: لعبد الغني النّابلسي. تحقيق أكرم حسن العُلبي ـ دار المصادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.
١٤٣ ـ **الحقيقةُ والمجازُ في الرحلةِ إلى بلاد الشَّام ومصر والحجاز**: لعبد الغني النّابلسيّ ـ تحقيق رياض مراد ـ دار المعرفة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م.
١٤٤ ـ **حليةُ الأولياء**: لأبي نُعيم الأصفهانيّ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٦٧ م.

١٤٥ ـ **الحماسَةُ**: لأبي تمام ـ تحقيق د. عبد الله عُسَيلان ـ جامعة محمد بن سعود الإسلاميّة ـ الرّياض.
١٤٦ ـ **حياةُ الحيوان**: للدّميريّ ـ مطبعة البابي الحلبيّ ـ القاهرة ـ ط ٥ ـ ١٩٨٠ م.
١٤٧ ـ **حياةُ الصَّحابةِ**: للكاندهلويّ ـ بعناية نايف العبّاس ورفيقه ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ٤ ـ ١٩٨٦ م.
١٤٨ ـ **الحيوانُ**: للجاحظ ـ تحقيق عبد السّلام هارون ـ القاهرة ـ ١٩٤٥ م.
١٤٩ ـ **خزانةُ الأدب**: للبغداديّ ـ قدم له د. محمّد طريفي ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م.
١٥٠ ـ **الخططُ التَّوفيقيَّةُ**: لعلي مبارك ـ الهيئة المصريّة للكتاب ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٨٦ م.
١٥١ ـ **خططُ الشَّام**: لمحمد كُرد علي ـ طبعة مصوّرة ـ بيروت ـ ١٩٦٩ م.
١٥٢ ـ **دائرةُ المعارف الإسلاميّة**: نقلها إلى العربيّة إبراهيم خورشيد ورفيقيه ـ كتاب الشَّعب ـ مصر ـ ١٩٣٣ م.
١٥٣ ـ **الدَّارسُ في تاريخِ المدارس**: للنّعيمي ـ تحقيق جعفر الحسيني ـ المجمع العلميّ العربي ـ دمشق ـ ١٩٤٨ م.
١٥٤ ـ **دراساتٌ في الأدبِ الإسلامي**: د. سامي مكّي العاني ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ١٩٧٥ م.
١٥٥ ـ **دراسة في السِّيرة**: د. عماد الدِّين خليل ـ مؤسَّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٦ ـ ١٩٨٢ م.
١٥٦ ـ **درُّ السَّحابةِ في مناقب القَرابة والصَّحابةِ**: للشَّوكاني ـ تحقيق د. حسن العمريّ ـ دار الفكر ـ ط ١ ـ ١٩٨٤ م.
١٥٧ ـ **الدُّررُ في اختصار المغازي والسِّير**: لابن عبد البر ـ تحقيق د. مصطفى البغا ـ مؤسّسة علوم القرآن ـ دمشق ـ ط ٤ ـ ١٩٨٤ م.
١٥٨ ـ **الدُّرُّ المنثور**: للسّيوطيّ ـ دار الفكر ـ بيروت ط١ ١٩٨٣ م.

١٥٩ ـ **دلائلُ النّبوةِ**: للأصبهاني ـ تحقيق محمّد رواس قلعجي ورفيقُه ـ دار التّراث ـ حلب ـ ط ١ ـ ١٩٧٠ م.
١٦٠ ـ **دلائل النّبوة**: للبيهقيّ ـ تحقيق د. عبد المعطي قلعجيّ. دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م.
١٦١ ـ **الدَّليلُ الشَّافي على المنهل الصَّافي**: لابن تغري بردي ـ تحقيق فهيم شلتوت ـ جامعة أمّ القرى ـ مكّة المكرّمة ـ ١٩٧٥ م.
١٦٢ ـ **دليل الفالحين**: للصِّدّيقي الشَّافعي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ص ١٠ ـ ١٩٨٥ م.
١٦٣ ـ **دولةُ النساء**: لعبد الرحمن البرقوقي ـ مطبعة النّهضة المصرية ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٤٢ م.
١٦٤ ـ **الدِّينُ الخالص**: للسّيد محمد صديق البخاري ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
١٦٥ ـ **ديوان ابن قيس الرُّقيات**: لابن قيس ـ تحقيق د. محمد يوسف نجم ـ بيروت ـ ١٩٥٨ م.
١٦٦ ـ **ديوان أبي الأسود الدّؤلي**: لأبي الأسود الدُّؤلي ـ تحقيق محمد آل ياسين ـ بيروت ـ ١٩٧٥ م.
١٦٧ ـ **ديوان أبي تمّام**: لأبي تمام: تحقيق محمّد عبده عزام ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م.
١٦٨ ـ **ديوان أبي دَهْبَل الجمحيّ**: لأبي دهبل ـ تحقيق عبد العظيم عبد المحسن ـ العراق ـ ١٩٧٢ م.
١٦٩ ـ **ديوان أبي فراس الحمداني**: لأبي فراس ـ جمع وشرح د. سامي الدَّهان ـ بيروت ـ ١٩٤٤ م. وطبعات أخرى ببيروت.
١٧٠ ـ **ديوان أحمد شوقي** لأحمد شوقي ـ دار العودة ـ بيروت ـ ١٩٨٦ م. وطبعات أخرى متنوعة.
١٧١ ـ **ديوانُ أميّة بن أبي الصَّلت**: لأمية ـ جمع وتحقيق د. عبد الحفيظ السَّطلي ـ المطبعة التّعاونية ـ دمشق ـ ١٩٧٤ م.

١٧٢ ـ ديوان **البُوصيري**: للبوصيريّ ـ تحقيق محمد سيّد كيلاني ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٧٣ م.
١٧٣ ـ ديوان **جرير**: لجرير ـ تحقيق د. نُعمان طه ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ٣ ـ دون تاريخ.
١٧٤ ـ ديوان **حاتم الطَّائي وأخبارُهُ**: لحاتم ـ تحقيق د. عادل سليمان جمال ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
١٧٥ ـ ديوان **حسَّان بن ثابت**: لحسان ـ تحقيق د. سيد حنفي حسين ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ م.
١٧٦ ـ ديوانُ **الخنساء**: للخنساء ـ دار التُّراث ـ بيروت ـ ١٩٦٨ م.
١٧٧ ـ ديوان **دعبل الخزاعيّ**: لدعبل ـ جمع د. عبد الكريم الأشتر ـ المجمعُ العلميّ العربي ـ دمشق ـ ١٩٦٤ م.
١٧٨ ـ ديوان **الشَّافعي**: للشافعي ـ طبعات مختلفة بدمشق وبيروت.
١٧٩ ـ ديوانُ **الشريف الرَّضي**: للرّضي ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٦١ م.
١٨٠ ـ ديوانُ **شعرِ الخوارج**: جمع وتحقيق د. إحسان عبّاس ـ دار الشُّروق ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٩٨٢ م.
١٨١ ـ ديوان **العجَّاج**: للعجّاج ـ تحقيق د. عبد الحفيظ السَّطلي ـ دار أطلس ـ دمشق ـ ١٩٧١ م.
١٨٢ ـ ديوانُ **عمرو بن معدي كرب**: لعمرو ـ جمعه مطاع الطرابيشي ـ مجمع اللغة العربية ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ١٩٨٥ م.
١٨٣ ـ ديوان **المتنبي**: للمتنبي ـ طبعاتٌ مختلفة بالقاهرة وبيروت.
١٨٤ ـ ديوانُ **مجد الإسلام**: لأحمد محرم ـ حقّقه محمود أحمد محرم ـ مكتبة الفلاح ـ كويت ـ ط ١ ـ ١٤١٢ هـ.
١٨٥ ـ ديوانُ **النَّابغة الجَعْديّ**: للنابغة الجعدي ـ بيروت ـ ١٩٦٤ م.
١٨٦ ـ ديوانُ **الهذليين**: للهذليين ـ تحقيق عبد الستّار أحمد فراج ـ مطبعة دار المدني ـ القاهرة ـ دون تاريخ.

١٨٧ ـ **ذخائرُ العقبىٰ في مناقبِ ذوي القربىٰ**: للمحبّ الطبري ـ القاهرة ـ ١٣٥٦ هـ.
١٨٨ ـ **ذمُّ الهوى**: لابن الجوزي ـ تحقيق مصطفىٰ عبد الواحد ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٦٢ م.
١٨٩ ـ **الذَّيلُ على العبر**: لأبي زُرعة العراقي ـ مؤسَّسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٩٨٩ م.
١٩٠ ـ **ربيعُ الأبرار**: للزّمخشري ـ تحقيق د. سليم النّعيمي ـ دار الذّخائر للمطبوعات ـ إيران ـ دون تاريخ أو ذكر رقم الطَّبعة.
١٩١ ـ **رجال مبشّرون بالجنّةِ**: د. أحمد خليل جمعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٤ ـ ١٩٩٩ م.
١٩٢ ـ **رحلةُ ابن بطوطة**: لابن بطوطة ـ تحقيق ـ د. علي الكتّاني ـ مؤسّسة الرِّسالة ـ بيروت ط ٤ ـ ١٩٨٥ م.
١٩٣ ـ **رحلةُ ابن جبير**: لابن جبير الأندلسيّ ـ دار المعارف ـ بيروت ـ ١٤٠٠ هـ.
١٩٤ ـ **رسائلُ الجاحظ**: للجاحظ ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ دون تاريخ أو ذكر رقم الطبعة.
١٩٥ ـ **الرّسالةُ المحمديّةُ**: لعبد العزيز الثَّعالبي ـ تحقيق د. صالح الخرقي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ـ ١٩٩٦ م.
١٩٦ ـ **الرّوضُ الأنف بهامش السّيرة النبويّة**: للسّهيليّ ـ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ـ مكتبة الكليّاتِ الأزهريّة ـ القاهرة ـ ١٩٧١ م.
١٩٧ ـ **الرّوضُ الفائق**: لشُعيب الحريفيش ـ دار الفكر ـ بيروت ـ طبعة مصورة دون تاريخ أو ذكر رقم الطبعة.
١٩٨ ـ **الرَّوضةُ الفيحاء في تواريخ النساء**: لياسين العمريّ ـ تحقيق د. رجاء السَّامرائي ، الدَّارُ العربية للموسوعات ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٧ م.
١٩٩ ـ **الروضُ المعطار في خبرِ الأقطار**: للحميري الصَّنهاجي ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ مكتبة لبنان ـ ١٩٧٥ م.

٢٠٠ ـ **الرّياضُ النَّضرة في مناقب العشَرة**: للمحب الطبري ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٨٤ م.

٢٠١ ـ **زادُ المسير في علمِ التَّفسير**: لابن الجوزي ـ المكتب الإسلامي ودار ابن حزم ـ بيروت ط ١ ـ ٢٠٠٢ م.

٢٠٢ ـ **زادُ المعاد**: لابن قيم الجوزيّة ـ تحقيق شُعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٢١ ـ ١٩٩١ م.

٢٠٣ ـ **الزُّهد**: للإمام أحمد بن حنبل ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٣ م.

٢٠٤ ـ **زهر الآداب وثمر الألباب**: للحصريّ القيروانيّ ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٧٠ م.

٢٠٥ ـ **زهر الأكَمْ في الأمثال والحكم**: لأبي علي اليوسي ـ دار الثّقافة ـ الدَّار البيضاء ـ ١٩٨١ م.

٢٠٦ ـ **زياراتُ الشام (الإشارات إلى أماكن الزيارات)**: لابن الحورانيّ ـ تحقيق بسام الجابي ـ مكتبةُ الغزالي ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٨١ م.

٢٠٧ ـ **سبلُ الهدىٰ والرّشَاد في سيرةِ خيرِ العباد**: للصالحي ـ تحقيق د. مصطفى عبد الواحد وعدد من العلماء ـ إحياء التّراث الإسلامي ـ القاهرة ـ ١٩٩٣ م.

٢٠٨ ـ **سراجُ الملوك**: للطَّرطُوشي ـ تحقيق جعفر البياتي ـ رياض الرّيس للكتب والنشر ـ لندن ط ١ ـ ١٩٩٠ م.

٢٠٩ ـ **سرحُ العُيون**: لابن نباتة ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ المكتبةُ العصرية ـ صيدا ـ ١٤٠٦ هـ.

٢١٠ ـ **سلكُ الدّرر**: للمرادي ـ دار البَشائر الإسلامية ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٤٠٨ هـ.

٢١١ ـ **سمطُ اللآلي**: للبكري ـ تحقيق عبد العزيز الميمني ـ لجنة التّأليف والترجمة والنَّشر ـ القاهرة ـ ١٣٥٤ هـ.

٢١٢ ـ **السُّـنَّـةُ قبل التَّدوين**: د. محمد عجاج الخطيب ـ دار الفكر ـ بيروت ط ١ ـ دون تاريخ.
٢١٣ ـ **السُّـنَّـةُ ومكانتُها في التَّشريعِ الإسلاميّ**: د. مصطفى السِّباعي ـ المكتبُ الإسلامي ـ بيروت ط ٣ ـ ١٩٨٢ م.
٢١٤ ـ **سيرُ أعلام النّبلاء**: للذّهبيّ ـ تحقيق عدد من العلماء ـ مؤسّسة الرِّسالة ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٨٥ م.
٢١٥ ـ **السِّيرةُ الحلبيةُ (إنسان العيون)**: للحلبّي ـ مطبعةُ البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٦٤ م.
٢١٦ ـ **السِّيرُ الكبيرُ**: للشَّيباني ـ تحقيق د. صلاح الدِّين المنجد ـ مكتبة قُرطبة ـ القاهرة ـ ١٩٧١ م.
٢١٧ ـ **السِّيرُ والمغازي**: لابن إسحاق ـ تحقيق د. سُهيل زكار ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٧٨ م.
٢١٨ ـ **السِّيرةُ النّبويّـةُ**: لابن هشام ـ تحقيق السَّقّا ورفاقه ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ط ٢ ـ ١٩٥٥ م.
٢١٩ ـ **السِّيرةُ النّبويـةُ**: لابن هشام ـ تحقيق د. عمر تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط ٢ ـ ١٩٨٩ م.
٢٢٠ ـ **السّيرةُ النّبويّـةُ**: لابن هشام ـ مع شرح أبي شرح الخشني ـ تحقيق د. همّام سعيد ورفيقه ـ مكتبة المنار ـ الأردن ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.
٢٢١ ـ **السّيرةُ النّبويـةُ**: لأحمد زيني دُحلان ـ الأهليّة للنّشر والتَّوزيع ـ بيروت ـ ١٩٨٣ م.
٢٢٢ ـ **السِّيرةُ النَّبويَّـةُ**: للنَّدويّ ـ دار التَّوزيع والنَّشر الإسلامية ـ القاهرة.
٢٢٣ ـ **السِّيرة النّبويَّـةُ الصَّحيحةُ**: د. أكرم العمري ـ مكتبة المعارف والحكم ـ المدينَة المنوَّرة ـ ط ١ ـ ١٤١٢ هـ.
٢٢٤ ـ **السّيرةُ النّبويةُ في ضوء القرآنِ والسُّنَّةِ**: لمحمد أبو شهبة ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.

٢٢٥ ـ **السّيرةُ النبويـةُ في ضوءِ المصادرِ الأصلية**: د. مهدي رزق الله أحمد ـ مركز الملك فيصل للبحوث والدّراسات الإسلامية ـ الرّياض ـ ط ١ ـ ١٩٩٢ م.
٢٢٦ ـ **شاعراتُ العربِ**: جمع وتحقيق عبد البديع صقر ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٦٧ م.
٢٢٧ ـ **الشّبابُ مشكلاتٌ وحلولٌ**: د. أحمد خليل جمعة ود. عصام الشّواف ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ٢٠٠٥ م.
٢٢٨ ـ **شخصيّةُ الرسولِ ﷺ ودعوتُه في القرآنِ الكريمِ**: لمحمد علي الهاشمي ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ١٩٨٣ م.
٢٢٩ ـ **شذراتُ الذّهب**: لابن العماد الحنبليّ ـ تحقيق محمود الأرناؤوط ـ دار ابن كثير ـ ط ١ ـ ١٩٨٦ م.
٢٣٠ ـ **شرحُ ديوانِ الحماسة**: لأبي علي المرزوقي ـ نشَرةُ أحمد أمين وعبد السّلام هارون ـ لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٦٧ م.
٢٣١ ـ **شرحُ الزّرقاني على المواهب اللدنية**: للزّرقاني ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٣ م.
٢٣٢ ـ **شرحُ العقيدة الطّحاوية**: للأذرعي ـ تحقيق عدد من العلماء ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط ٥ ـ ١٣٩٩ هـ.
٢٣٣ ـ **شرحُ المعلّقات العَشْر وأخبارُ شعرائها**: لأحمد الشّنقيطي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ دون تاريخ أو ذكر رقم الطبعة.
٢٣٤ ـ **شرحُ مقاماتِ الحريري**: للشّريشيّ ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ تصوير المكتبة العصرية ـ صيدا ـ ١٩٩٢ م.
٢٣٥ ـ **الشِّعْرُ والشُّعراء**: لابن قتيبة ـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ دون تاريخ أو ذكر رقم الطبعة.
٢٣٦ ـ **الشّعر والغناءُ في المدينة ومكّةَ**: د. شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ط ٤ ـ دون تاريخ.

٢٣٧ ـ **شعراءُ إسلاميون**: لنوري القيسيّ ـ عالم الكتبِ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٣٨ ـ **شعراء أمويّون**: لنوري القيسي ـ مؤسَّسة دار الكتب ـ الموصل ـ ١٩٧٦.
٢٣٩ ـ **شعرُ المخضرمين وأثر الإسلام فيه**: د. يحيى الجبُّوري ـ مؤسَّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨١ م.
٢٤٠ ـ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**: للقاضي عياض ـ تحقيق محمد أمين قرة علي ورفاقه مؤسَّسة علوم القرآن ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ١٩٨٦ م.
٢٤١ ـ **شفاءُ الغَرام بأخبار البلد الحرام**: للفاسي ـ تحقيق د. عمر تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م.
٢٤٢ ـ **الشَّمائلُ المحمديةُ**: للتّرمذي ـ تحقيق عبده كوشك ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ٢٠٠٢ م.
٢٤٣ ـ **صبحُ الأعشى في صناعة الإنشا**: للقلقشندي ـ طبعة مصورة عن طبعة وزارة الثَّقافة والإرشاد القومي ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ م.
٢٤٤ ـ **صحيحُ الجامع الصَّغير وزيادته**: للألباني ـ المكتب الإسلاميّ ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٦ م.
٢٤٥ ـ **صحيحُ السِّيرةِ النّبويةِ**: لإبراهيم العلي ـ دار النَّفائس ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٩٨ م.
٢٤٦ ـ **صفةُ الصَّفوةِ**: لابن الجوزي ـ تحقيق محمود فاخوري ورفيقه ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٩ م.
٢٤٧ ـ **صفوةُ التَّفاسير**: للصَّابوني ـ دار القُرآن الكريم ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤٠١ هـ.
٢٤٨ ـ **صورٌ وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينةِ**: د. محمد فوزي فيض الله ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.
٢٤٩ ـ **صورٌ من حياةِ الرَّسول ﷺ**: لأمين دوايدار ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ط ٤ ـ دون تاريخ.
٢٥٠ ـ **صيدُ الخاطر**: لابن الجوزي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٩ م. وطبعات أخرى ببيروت ومصر.

٢٥١ ـ **ضعيفُ الجامعِ الصَّغير وزيادتُه**: للألباني ـ المكتب الإسلاميّ ـ بيروت.
٢٥٢ ـ **الضَّوءُ اللامع**: للسَّخاوي ـ مكتبةُ القدسيّ ـ القاهرة ـ ١٣٥٣ هـ.
٢٥٣ ـ **طبقاتُ الشَّافعية**: للسّبكيّ ـ تحقيق محمود الطَّناحي وعبد الفتّاح الحلو ـ طبعة مصورة دون ذكر اسم الدَّار أو التَّاريخ.
٢٥٤ ـ **طبقات الشَّافعية**: لابن قاضي شهبة الدّمشقيّ ـ تحقيق د. حافظ خان ـ دار النّدوة الجديدة ـ بيروت ـ ١٩٨٧ م.
٢٥٥ ـ **الطَّبقاتُ الكبرى**: لابن سعد ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٥٦ ـ **الطَّبقاتُ الكبرى (لواقح الأنوار في طبقاتِ الأخيار)**: للشَّعراني ـ دار الفكر ـ بيروت ـ طبعة مصوَّرة ـ دون تاريخ.
٢٥٧ ـ **طبقات المفسّرين**: للدَّاوودي ـ بإشراف لجنةٍ من العلماء ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ دون ذكْر رقم الطَّبعة أو تاريخها.
٢٥٨ ـ **طبقات المفسّرين**: للسّيوطي ـ تحقيق علي محمد عمر ـ مطبعة الاستقلال الكبرىٰ ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٧٢ م.
٢٥٩ ـ **الطِّبُّ النَّبويُّ**: لابن قيم الجوزيّة ـ تحقيق د. عبد المعطي قلعجي ـ دار التّراث ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٣٩٨ هـ.
٢٦٠ ـ **الطِّبُّ النّبوي**: للسّيوطي ـ تحقيق د. حسن الأهدل ـ مؤسّسةُ الكتب الثّقافية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٦ م.
٢٦١ ـ **الطبُّ النَّبويّ**: لعبد اللطيف البغداديّ ـ تحقيق د. عبد المعطي قلعجي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٩٤ م.
٢٦٢ ـ **الطِّفلُ في ضوءِ القرآن والسُّنَّةِ والأدب**: د. أحمد خليل جمعة الحرستاني الدّمشقي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٤٢١ هـ.
٢٦٣ ـ **العبرُ في خَبر مَنْ غبر**: للذّهبيّ ـ تحقيق محمد زغلول ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م.

٢٦٤ ـ **عَرْفُ البشَام فيمن ولي فتوى دمشق الشَّام**: للمرادي ـ تحقيق محمد مطيع الحافظ ورفيقه ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ١٩٨٨ م.
٢٦٥ ـ **العقدُ الثَّمين في تاريخِ البلدِ الأمين**: للفاسي ـ تحقيق فؤاد سيّد ومحمود الطَّناحي ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ ـ ١٩٦٩ م.
٢٦٦ ـ **العقدُ الفريدُ**: لابن عبد ربه ـ تحقيق أحمد أمين ورفاقه ـ لجنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٦٢ م.
٢٦٧ ـ **علومُ الحديثِ ومصطله**: د. صبحي الصَّالح ـ دار العلم ـ بيروت ـ ط ٧ ـ ١٩٨٨ م.
٢٦٨ ـ **العمدةُ في صناعةِ الشِّعر ونقده**: لابن رشيق القيرواني ـ تحقيق د. النَّبويّ شعلان ـ مكتبة الخانجيّ ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ٢٠٠٠ م.
٢٦٩ ـ **عيونُ الأثرِ في فنون المغازي والسِّير**: لابن سيّدِ النَّاس ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٨٢ م.
٢٧٠ ـ **عيونُ الأخبار**: لابن قُتيبةَ ـ مصوّرة عن طبعةِ دار الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ م.
٢٧١ ـ **غايةُ النِّهاية في طبقاتِ القُرَّاء**: لابن الجزريّ ـ بعنايةِ ح برجستراسر ـ طبعة مصوّرة عن طبعة ١٣٥١ هـ.
٢٧٢ ـ **غذاءُ الألباب**: للسَّفاريني ـ مطبعة النَّجاح ـ القاهرة ـ ١٣٢٤ هـ.
٢٧٣ ـ **غررُ التّبيان في مَنْ لم يُسَمَّ في القُرآن**: لابن جماعة الحمويّ ـ تحقيق د. عبد الجواد خلف ـ دار قتيبة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.
٢٧٤ ـ **الغريبَين في القرآنِ والحديث**: لأبي عبيد الهرويّ ـ تحقيق أحمد فريد المزيدي ـ المكتبة العصريّة ـ صيدا ـ ط ١ ـ ١٩٩٩ م.
٢٧٥ ـ **الغزلُ عِند العربِ**: لجان فاديه ـ ترجمة د. إبراهيم كيلاني ـ وزارة الثَّقافة ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ١٩٨٥ م.
٢٧٦ ـ **غوامض الأسماءِ المبهمة الواقعة في متونِ الأحاديث المسندة**: لابن بشكوال ـ تحقيق د. عزّ الدّين السّيد ورفيقه ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٦ م.

٢٧٧ ـ **الغيثُ المسجم في شرح لاميّة العجم**: لصلاح الدّين الصَّفَدي ـ دار الكتبُ العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٧٥ م.
٢٧٨ ـ **الفائقُ في غريب الحديث**: للزَّمخشري ـ تحقيق علي محمد البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ـ ١٩٤٥ م.
٢٧٩ ـ **الفتحُ الرَّباني**: لأحمد السَّاعاتي ـ دار الحديث ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
٢٨٠ ـ **فتحُ القدير (تفسير الشَّوكاني)**: للشَّوكاني ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٤ م. وطبعة دار الفكر ببيروت ـ دون تاريخ.
٢٨١ ـ **الفتنةُ ووقعةُ الجمل**: لسيف بن عمر الضَّبّيّ ـ جمع وتصنيف أحمد راتب عرموش ـ دار النَّفائس ـ بيروت ـ ط ٥ ـ ١٩٨٤ م.
٢٨٢ ـ **فتوحُ البُلدان**: للبلاذري ـ نشره د. صلاح الدِّين المنجد ـ مكتبة النَّهضة المصريّة ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
٢٨٣ ـ **الفتوحاتُ الإسلاميّةُ**: لأحمد زيني دُحلان ـ مؤسَّسة الحلبي وشركاه ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ م.
٢٨٤ ـ **الفتوحاتُ الرّبانيّةُ على الأذكار النَّواويّة**: للصِّدِّيقي الشَّافعيّ ـ طبعة دار إحياء التّراث العربيّ ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٨٥ ـ **الفخري في الآداب السُّلطانية والدُّول الإسلامية**: لابن طباطبا ـ دار بيروت ـ بيروت ـ ١٩٨٠.
٢٨٦ ـ **الفرجُ بعد الشِّدة**: للتّنوخي ـ تحقيق عبود الشَّابحي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٨ م.
٢٨٧ ـ **فرسانٌ من عَصْر النُّبوة**: د. أحمد خليل جمعة الحرستانيّ الدّمشقي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٩ م.
٢٨٨ ـ **الفَرْقُ بين الفِرقِ**: لعبد القاهر البغدادي ـ تحقيق محيي الدّين عبد الحميد ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
٢٨٩ ـ **الفِصَلُ في المللِ والأهواء والنِّحل**: لابن حزم ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٢٩٠ ـ **الفصولُ في سيرةِ الرّسول ﷺ**: لابن كثير ـ تحقيق محمد العيد الخطراوي ورفيقهُ ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٤ ـ ١٩٨٥ م.
٢٩١ ـ **فضائلُ الصَّحابة**: للإمام أحمد بن حنبل ـ تحقيق وصي الله عباس ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٣ م.
٢٩٢ ـ **الفقْهُ الإسلاميُّ وأدلّته**: د. وهبة الزُّحيليّ ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط ٣ ـ ١٩٨٩ م.
٢٩٣ ـ **فقهُ السّيرةِ**: د. محمد سعيد البوطي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ٨ ـ ١٩٨٠ م.
٢٩٤ ـ **فقهُ السّيرة**: لمحمد الغزالي ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ٤ ـ ١٩٨٩ م.
٢٩٥ ـ **فقه السِّيرة النَّبويّة**: لمنير الغَضْبان ـ معهد البحوث الإسلامية ـ مكّة المكرمة.
٢٩٦ ـ **الفقيهُ والمتفقّهُ**: للخطيب البغدادي ـ حقَّقه عادل الغرازي ـ دار ابن الجوزيّ ـ الرّياض ـ ط ٢ ـ ١٤٢١ هـ.
٢٩٧ ـ **فقهُ اللغةِ وسرُّ العربية**: للثّعالبي ـ تحقيق د. فائز محمد ورفيقُه ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٦ م.
٢٩٨ ـ **فنُّ الحربِ الإسلامي**: لبسَّام العسليّ ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٨٨ م.
٢٩٩ ـ **فواتُ الوَفَيات**: لابن شاكر الكُتُبي ـ تحقيق محيي الدّين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م.
٣٠٠ ـ **الفوائدُ المجموعةُ**: للشّوكاني ـ تحقيق عبد الرّحمن اليماني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٣٧٩ هـ.
٣٠١ ـ **في أصولِ تاريخ العرب الإسلامي**: لمحمد شرّاب ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م.
٣٠٢ ـ **القاموسُ المحيطُ**: للفيروز أبادي ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٧ م.
٣٠٣ ـ **القرآنُ وأصحابُ رسول اللهِ ﷺ**: د. أحمد خليل جمعة الحرستانيّ الدّمشقي ـ دار الكلم الطَّيب ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٤ م.

٣٠٤ ـ **قَصصُ العربِ**: لمحمد أحمد جاد المولى ورفاقُه ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ م.
٣٠٥ ـ **قطوفُ الرَّيحان من زهرِ الأفنان شرح حديقة ابن الونَّان**: لأحمد السَّلاوي ـ دار روضة الصَّغير ـ الرياض ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م.
٣٠٦ ـ **القلائدُ الجوهريّةِ في تاريخ الصَّالحية**: لابن طولون الصَّالحي ـ تحقيق محمد أحمد دهمان ـ مجمع اللغة العربية ـ دمشق ١٩٨٠ م.
٣٠٧ ـ **الكاملُ في التَّاريخ**: لابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٣٠٨ ـ **الكاملُ في اللغةِ والأدب**: للمبرّد ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ دون تاريخ ـ وطبعة بيروت ١٩٨٦ م.
٣٠٩ ـ **كُتّابُ الوحي**: د. أحمد عيسى ـ دار اللواء ـ الرّياض ـ ط ١ ـ ١٩٨٠ م.
٣١٠ـ **الكشَّاف (تفسير الزَّمخشري)**: للزّمخشري ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٣١١ ـ **كَشْفُ الخفَاء ومزيلُ الإلباس**: للعجلوني ـ بعناية أحمد القلاش ـ دار التُّراث القاهرة ـ دون تاريخ أو ذكر رقم الطبعة.
٣١٢ ـ **الكعبةُ على مرِّ العصورِ**: د. علي الخربوطلي ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ سلسلة اقرأ ـ العدد (٢٩١) عام ١٩٦٧ م.
٣١٣ ـ **الكليّاتُ**: للكفويّ ـ تحقيق د. عدنان درويش ورفيقه ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٣ م.
٣١٤ ـ **كنزُ العُمال**: لعلاء الدين الهندي ـ بعناة حياني وسقّا ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٥ ـ ١٩٨٥ م.
٣١٥ ـ **الكواكبُ السَّائرة في أعيانِ المئةِ العاشرة**: لنجم الدين الغزي ـ حقّقه جبرائيل جبور ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٩ م.
٣١٦ ـ **اللآلىءُ المصنوعةُ في الأحاديث المصنوعةِ**: للسّيوطي ـ المكتبةُ التّجارية الكبرى ـ القاهرة.
٣١٧ ـ **لبابُ الآداب**: لأسامةَ بنِ منقذ ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ القاهرة ـ ١٩٣٥ م.

٣١٨ ـ **اللبابُ في تهذيب الأنساب**: لعزّ الدّين ابن الأثير الجزريّ ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٣١٩ ـ **لسانُ العرب**: لابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.
٣٢٠ ـ **لطفُ السَّمر وقطفُ الثَّمر**: لنجم الدّين الغزي ـ حقَّقه محمود الشيخ ـ وزارة الثَّقافة ـ دمشق ـ ١٩٨١ م.
٣٢١ ـ **مباحثُ في علومِ القُرآن**: لمنَّاع القطان ـ مؤسَّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٩٧٦ م.
٣٢٢ ـ **المبشّرون بالنَّار**: د. أحمد خليل جمعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ٢٠٠١ م.
٣٢٣ ـ **المُجتبى منَ المجتنى**: لابن الجوزيّ ـ تحقيق د. علي حسين البوّاب ـ دار الفائز ـ الأردن ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.
٣٢٤ ـ **مجمعُ الأمثال**: للميدانيّ ـ تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ م.
٣٢٥ ـ **مجمعُ الزَّوائد ومنبعُ الفوائد**: للهيثميّ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٣٢٦ ـ **مُجملُ اللغة**: لابن فارس ـ حقَّقه شهاب الدّين أبو عمرو ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٩٤ م.
٣٢٧ ـ **مجموع مهمّات المتون**: لعدد من العلماء ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط ٤ ـ ١٩٤٩ م.
٣٢٨ ـ **المحاسنُ والأضداد**: للجاحظ ـ تحقيق محمد سُويد ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.
٣٢٩ ـ **المحاسنُ والمساوئُ** ـ للبيهقي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٠ م.
٣٣٠ ـ **محاسنُ الوسائل في معرفةِ الأوائل**: لمحمد الشّبليّ الدّمشقيّ ـ تحقيق د. محمد التونجي ـ دار النفائس ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٤ م.
٣٣١ ـ **محاضراتُ الأبرارِ ومسامرةُ الأخيار**: لمحيي الدِّين بن عربي ـ دارُ اليقَظَة العربيةِ ـ دمشق ـ ١٩٦٨ م.

٣٣٢ ـ **محاضراتُ الأدباء**: للرَّاغب الأصفهاني ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ دون تاريخ أو ذكر رقم الطّبعة.

٣٣٣ ـ **المُحبَّر**: لابن حبيب ـ رواية السّكري ـ صححه د. إيلزه ليختن ستيتر ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٣٣٤ ـ **المحدثُ الفاصل بين الرّاوي والواعي**: للقاضي الرَّامهرمزي ـ تحقيق د. محمد عجاج الخطيب ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٨٤ م.

٣٣٥ ـ **المحلّى**: لابن حزم ـ منشورات المكتب التجاري للطّباعة ـ بيروت ـ دون تاريخ. وطبعة بيت الأفكار الدَّولية.

٣٣٦ ـ **محمد رسول الله**: لمحمد عرجون ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ١٩٩٥ م.

٣٣٧ ـ **مختارُ الصِّحاح**: للرَّازي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٣ ـ ١٩٩٨ م.

٣٣٨ ـ **المختارُ من نوادرِ الأخبار**: للمقّري الأنباري ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ ١٩٩٤ م.

٣٣٩ ـ **مختصرُ تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر**: لابن منظور ـ تحقيق عدد من الأفاضل ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.

٣٤٠ ـ **مختصرُ تخريج الدّلات السَّمعية**: لأبي الحسن التّلمساني ـ إعداد أحمد مبارك البغدادي ـ مكتبة السُّندس ـ كويت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.

٣٤١ ـ **مختصرُ شُعب الإيمان**: للبيهقي ـ حقَّقه عبد القادر الأرناؤوط ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٣ ـ ١٩٨٧ م.

٣٤٢ ـ **المدينةُ النَّبويةُ في فجر الإسلام والعصر الراشدي**: لمحمد حسن شراب ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٤ م.

٣٤٣ ـ **مرآةُ الجنَان وعبرةُ اليقظان**: لليافعيّ ـ دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٩٣.

٣٤٤ ـ **المرأةُ العربيةُ في جاهليّتها وإسلامها**: لعبد الله عفيفي ـ دار الرَّائد العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٣٤٥ ـ **المرأةُ في الشِّعر الجاهلي**: د. أحمد الحُوفي ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ ط ٣ ـ ١٩٨٠ م.
٣٤٦ ـ **المرأةُ في عالمي العربي والإسلام**: لعمر رضا كحّالة ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٧٨ م.
٣٤٧ ـ **المرأةُ في العهد النّبويّ**: د. عصمة الدّين كركر ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م.
٣٤٨ ـ **المرأةُ في القديمِ والحديث**: لعمر رضا كحالة ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٧٨ م.
٣٤٩ ـ **المرأةُ في القرآنِ الكريم**: لعبّاس محمود العقاد ـ كتاب الهلال ـ القاهرة ـ عدد (٣) عام ١٩٥٩ م.
٣٥٠ ـ **مروجُ الذَّهب ومعادنُ الجوهر**: للمسعوديّ ـ تحقيق محيي الدِّين عبد الحميد ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٣٥١ ـ **المستدركُ**: للحاكم ـ تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.
٣٥٢ ـ **المُستطرف**: للأبشيهيّ ـ تحقيق إبراهيم صالح ـ دار صادر ـ بيروت ـ ص ١ ـ ١٩٩٩ م.
٣٥٣ ـ **المستفادُ من قصصِ القُرآن**: لعبد الكريم زيدان ـ مؤسسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٧ م.
٣٥٤ ـ **المستفاد من مبهمات المتنِ والإسنادِ**: لأبي زُرعةَ أحمد بن عبد الرحيم العراقي ـ تحقيق د. عبد الرحمن البرّ ـ دار الوفاء ـ مصر ط ١ ـ ١٩٩٤ م.
٣٥٥ ـ **مشاهيرُ علماءِ الأمصار**: لابن حبّان ـ تحقيق مرزوق إبراهيم ـ دار الوفاء ـ المنصورة ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.
٣٥٦ ـ **مصارعُ العشَّاق**: للسَّرّاج القارىء ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٥٨ م.
٣٥٧ ـ **المصباحُ المُضيء**: لابن حديدة الأنصاريّ ـ طبعة مصوّرة.

٣٥٨ ـ **المصباحُ المنير**: للفيومي ـ مطبعةُ البابي الحلبي ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
٣٥٩ ـ **مطمحُ الأنفس مسرحُ التّأنّس**: للفتح بن خاقان ـ تحقيق محمد علي شوابكة ـ مؤسّسةُ الرِّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٣ م.
٣٦٠ ـ **المعارفُ**: لابن قتيبةَ ـ تحقيق د. ثروت عكاشة ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٧٧ م.
٣٦١ ـ **المعالم الأثيرةُ في السُّنَّةِ والسِّيرة**: لمحمد شرّاب ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.
٣٦٢ ـ **معاني القرآن**: للفرّاء ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٨٣ م.
٣٦٣ ـ **معاهدُ التَّنصيص على شواهد التّلخيص**: لعبد الرحيم العبّاسي ـ تحقيق محيي الدّين عبد الحميد ـ المكتبة التجارية الكبرىٰ القاهرة ـ ١٩٤٧ م.
٣٦٤ ـ **معجمُ الأدباء**: لياقوت الحمويّ ـ تحقيق أحمد فريد الرّفاعي ـ دار المأمون ـ القاهرة ـ ١٩٣٦ م.
٣٦٥ ـ **معجمُ الأديبات الشَّواعر**: للسَّمّان الحمويّ ـ تحقيق أحمد دقاق ـ دار الثَّقافة العربية ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.
٣٦٦ ـ **المعجم الأوسط**: للطّبراني ـ تحقيق د. محمود الطَّحان ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م.
٣٦٧ ـ **معجمُ البُلدان**: لياقوت الحموي ـ دار إحياء التُّراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ، أو ذكر رقم الطبعة.
٣٦٨ ـ **معجمُ الشُّعراء**: للمرزباني ـ تحقيق عبد السَّتَّار أحمد فراج ـ القاهرة ١٩٦٠ م ـ وطبعة دار الجيل ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٩١ م.
٣٦٩ ـ **المعجم الكبير**: للطَّبراني ـ حقَّقه حمدي السّلفي ـ وزارة الأوقاف ـ العراق ـ ط ٣ ـ ١٩٨٣ م.
٣٧٠ ـ **معجمُ ما استعجم**: للبكري ـ تحقيق مصطفى السَّقَّا ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٨٣ م.

٣٧١ ـ **معجم المقاييس في اللغة**: لابنِ فارس ـ تحقيق شهاب الدّين أبو عمرو ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٨ م.

٣٧٢ ـ **المعجمُ الوسيط**: لإبراهيم مصطفىٰ ورفاقه ـ طبعة تركيا.

٣٧٣ ـ **المعرفة والتاريخ**: للبسوي ـ تحقيق د. أكرم العمري ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٤ م.

٣٧٤ ـ **معرفةُ القراء الكبار على الطَّبقات والأعصار**: للذَّهبي ـ تحقيق بشَّار عوَّاد ورفيقُه ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٤ م.

٣٧٥ ـ **المُعَمَّرون والوصايا**: لأبي حاتم السِّجستاني ـ تحقيق عبد المنعم عامر ـ القاهرة ـ ١٩٦١ م.

٣٧٦ ـ **المغازي**: للواقدي ـ تحقيق د. مارسدن جونس ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ دون تاريخ أو ذكر رقم الطبعة.

٣٧٧ ـ **المغني**: لابن قُدامةَ ـ بعناية جماعة من العُلماء ـ درا الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٩٧٢ م.

٣٧٨ ـ **مفحماتُ الأقران**: للسّيوطيّ ـ تحقيق إياد الطَّباع ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٨ م.

٣٧٩ ـ **مفرداتُ ألفاظِ القُرآن**: للرَّاغب الأصفهاني ـ تحقيق صفوان الدَّاوودي ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٢ م.

٣٨٠ ـ **المفصّلُ في تاريخ العربِ قبل الإسلام**: د. جواد علي ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٤١٣ هـ.

٣٨١ ـ **المفضلّيات**: للمفضّل الضَّبِّيّ ـ تحقيق عبد السَّلام هارون وأحمد شاكر ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٣ م.

٣٨٢ ـ **مقاتل الطَّالبين**: لأبي الفرج الأصبهاني ـ تحقيق السّيد أحمد صقر ـ مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٧ م.

٣٨٣ ـ **المقاماتُ العليّة**: لابن سيّد النَّاس ـ تحقيق عفّت حمزة ـ دار الملاح ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٨٦ م.

٣٨٤ ـ **مقدّمة ابن الصّلاح**: لابن الصلاح ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٣٨٥ ـ **المللُ والنّحل**: للشَّهرستاني ـ تحقيق محمد سيّد كيلاني ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
٣٨٦ ـ **المنازلُ والدّيار**: لأسامة بن منقذ ـ تحقيق مصطفى حجازي ـ لجنةُ إحياء التّراث الإسلاميّ ـ القاهرة ـ ١٩٤٥ م.
٣٨٧ ـ **منالُ الطَّالب في شرح طوال الغَرائب**: لمجدّ الدّين ابن الأثير ـ تحقيق د. محمود محمد الطَّناحي ـ جامعة أمّ القرى ـ مكّة المكرمة ـ الكتاب الثَّامن.
٣٨٨ ـ **منتخباتُ التَّواريخ لدمشق**: لمحمد الحصني ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٣٩٩ هـ.
٣٨٩ ـ **منح المدح (أو شعراء الصحابة)**: لابن سيّد الناس ـ تحقيق عفّت وصال حمزة ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٨٧ م.
٣٩٠ ـ **المنّمقُ في أخبارِ قريش**: لابن حبيب ـ تحقيق خورشيد فاروق ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م.
٣٩١ ـ **من معين السّيرة**: لصالح الشّامي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٢ م.
٣٩٢ ـ **المنهلُ الصَّافي والمستوفىٰ بعد الوافي**: لابن تغري بردي ـ تحقيق ثلة من العلماء ـ الهيئة المصريّة العامة للكتاب ـ ١٩٨٤ م.
٣٩٣ ـ **المهذَّبُ من إحياءِ علوم الدين للغزالي**: لأحمد الشَّامي ـ دار القلم ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م.
٣٩٤ ـ **المواعظُ والاعتبارُ بذكرِ الخُطط والآثار**: للمقريزي ـ مطبعة الحلبي وشركاه ـ القاهرة.
٣٩٥ ـ **المواهبُ اللدنية بالمنح المحمديّة**: للقسطلاني ـ تحقيق صالح أحمد الشَّامي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.
٣٩٦ ـ **موسوعة التَّاريخ الإسلامي**: لأحمد شلبي ـ مكتبة النَّهضة المصرية ـ القاهرة ـ ط ٧ ـ ١٩٨٤ م.
٣٩٧ ـ **الموضوعات**: لابن الجوزي ـ تحقيق عبد الرّحمن محمد عثمان ـ مطابع المجد ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٦٦م.

٣٩٨ ـ **الموطّأ**: للإمامِ مالك ـ صححه ورقمه محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة.
٣٩٩ ـ **ميزانُ الاعتدال في نَقْدِ الرّجال**: للذّهبي ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٦٣ م.
٤٠٠ ـ **نَثْرُ الدُّرّ**: للآبي ـ تحقيق محمد علي قرنة ورفاقه ـ القاهرة ـ ١٩٩٠ م.
٤٠١ ـ **النّجومُ الزاهرة**: لابن تغري بردي ـ مصورة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
٤٠٢ ـ **نساءُ أهلِ البيتِ في ضوء القرآن والحديث**: د. أحمد خليل جمعة الحرستانيّ الدمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ٦ ـ ٢٠٠٥ م.
٤٠٣ ـ **نساءٌ مبشَّرات بالجنّةِ**: د. أحمد خليل جمعة الحرستاني الدمشقي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٤ ـ ١٩٩٨ م.
٤٠٤ ـ **نساءٌ من التّاريخ**: د. أحمد خليل جمعة الحرستاني الدّمشقي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ١٩٩٩ م.
٤٠٥ ـ **نساءٌ من عصرِ التّابعين**: د. أحمد خليل جمعة الحرستّاني الدّمشقي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٣ ـ ١٩٩٨ م.
٤٠٦ ـ **نساءٌ من عصر النبوة**: د. أحمد خليل جمعة الحرستاني الدمشقي ـ درا ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٣ ـ ٢٠٠٠ م.
٤٠٧ ـ **نَسَبُ قريش**: لمصعب الزّبيريّ ـ تحقيق ليفي بروفنسال ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ط ٣.
٤٠٨ ـ **نشوارُ المحاضرة**: للتّنوخي ـ تحقيق عبود الشالجي ـ دار صادر بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٥ م.
٤٠٩ ـ **نفحةُ الرَّيحانة**: للمحبّيّ ـ تحقق عبد الفتّاح محمد الحلو ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٦٩ م.
٤١٠ ـ **نفحُ الطِّيب**: للمقّري ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨ م.

٤١١ ـ **نكتُ الهِمْيَان في نكَتِ العميان**: للصَّفدي ـ تحقيق أحمد زكي ـ القاهرة ـ ١٩١١ م.
٤١٢ ـ **نهايةُ الأرب**: للنَّويري ـ طبعة مصورة عن طبعة دا رالكتب المصرية.
٤١٣ ـ **النهايةُ في غريبِ الحديث والأثرِ**: لابن الأثير ـ تحقيق محمود الطَّناحي ورفيقه ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٦٣ م.
٤١٤ ـ **نوادرُ الخُلفاء (إعلام النَّاس): للأتليدي ـ تحقيق أيمن بجيري ـ دار الآفاق العربية ـ القاهرة ـ ١٩٩٨ م.**
٤١٥ ـ **نوادرُ المخطوطات**: تحقيق عبد السَّلام هارون ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٧٢ م.
٤١٦ ـ **نورُ الأبصار**: لمؤمن الشَّبلنجي ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ الطَّبعة الأخيرة ـ ١٩٤٨ م.
٤١٧ ـ **نيلُ الأوطار**: للشّوكاني ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٧٣ م.
٤١٨ ـ **الهفواتُ النَّادرة**: لأبي الحسن الصَّابي ـ تحقيق د. صالح الأشتر ـ دمشق ـ ١٩٦٧ م.
٤١٩ ـ **الوافي بالوفيات**: للصَّفدي ـ جمعية المستشرقين الألمانيين ـ مطابعُ مختلفة (١٩٣١ ـ ١٩٨٤)، وطبعة دار الكتاب العربي ببيروت.
٤٢١ ـ **الوفا بأحوالِ المصطفى**: لابن الجوزي ـ تحقيق مصطفى عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤٠٨ هـ.
٤٢٢ ـ **وفاءُ الوفا**: للسَّمهودي ـ تحقيق محيي الدّين عبد الحميد ـ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٩٨٤ م.
٤٢٣ ـ **وفيَاتُ الأعيان**: لابن خَلِّكان ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٤٢٤ ـ **وقعةُ صفّين**: لنصر بن مزاحم المنقريّ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٩٠ م.
٤٢٥ ـ **ولاةُ مصرَ**: لمحمد بن يوسف الكندي ـ تحقيق د. حُسين نصَّار ـ دار صادر ـ بيروت دون تاريخ.

٤٢٦ ـ **يتيمةُ الدَّهر**: للثَّعالبي ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٥٦ م.

ومصادرُ ومراجعُ ومجلات وسلاسلُ فكرية متنوّعة وسلسلة أعلام المسلمين، وسلسلة أعلام العرب، وسلسلة مفاهيم إسلامية، وآداب إسلامية، وغيرها كثير ورَد في ثنايا الكتاب. والحمدُ للهِ الذي تتم بنعمتهِ الصَّالحات.

* * *



فهرس الموضوعات

الإهداء ٤
محبّـةُ الهادي وصحبه ٥
المقدّمةُ وعرضُ الكتاب ٧

البابُ الأولُ
من عُلماءِ العبادلة

عبدُ الله بنُ عبَّاس رضي الله عنهما ٢١
الحبْرُ البحرُ ٢٣
النّشأةُ والشَّخصيَّةُ ٢٥
حرصُه على طلبِ العِلْم ٢٨
أميرُ مفسّري العَبَادلة ٣٢
تفسيرُ ابنِ عبّاس القُرآنَ باللغة ٣٧
المُفتي المُجتهدُ ٤٤
الحافظُ المكثرُ ٤٩
في ميزانِ العُلماء ٥٧
علاقتُهُ معَ الصَّحابةِ وعلمائِهم ٦٣
أقوالُه في الخلفاء الراشدين ٦٧
رقائقُ من كلماتِهِ وحكمتهِ ٧٠
وادخُلي جنَّتي ٧٥

عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما ٧٩
الفرعُ الرَّطيبُ ٨١
الصَّلاةُ في حياةِ ابنِ عمر ٨٥
ابنُ عمر والأسوةُ النَّبويّةُ ٨٨
ثاني الحُفّاظ للحديثِ ٩٠
نماذجُ منْ مرويّاته ٩٥
مواقفُهُ مع القرآنِ ٩٧
العالمُ بأحكامِ الحجّ ١٠١
ابنُ عمر والعبادلة ١٠٤
حبُّـه للجهاد والفتوحات ١٠٦
أخلاقُهُ ومناقبُهُ ١٠٨
ثناءُ الأكابر عليه ١١٣
قلائدُ من جمان أقواله ١١٩
العالمُ المُعمَّرُ ورحلةُ الحقِّ ١٢٣
عبدُ الله بنُ عمرو بن العاص رضي الله عنهما ١٢٧
في رحابِ العِلْم والعلماء ١٢٩
الكاتبُ الحصيفُ ١٣٠
توجيهاتٌ نبويةٌ لعبد الله ١٣٥
الكيّسُ الفَطِنُ ١٤٢
إرشاداتُهُ ونصائِحُهُ ١٤٧
مسندُهُ وصحيفتُه الحديثيّةُ ١٥١
اجتهادُهُ في التَّفسير ١٥٥
عبدُ الله وروايةُ الإسرائيليّات ١٥٩
وفاتُـهُ ووصيّتُـهُ ووفاؤه ١٦٥
عبدُ الله بنُ الزُّبير رضي الله عنهما ١٦٧
الأصلُ الكريمُ ١٦٩

في ديوانِ الأوائل ١٧١
تربيةٌ مباركةٌ ١٧٤
العابدُ الخاشعُ ١٧٨
حياتُـهُ مع القرآن وعلومه ١٨٢
ابنُ الزُّبير والحديثُ الشَّريف ١٨٦
بلاغتُه ومدحُ الشُّعراء له ١٩١
صورٌ من فقههِ وفتاويه ومواعظه ٢٠١
أولياتٌ زبيريةٌ وأعمالٌ خالدةٌ ٢٠٦
شجاعتُه وجهادُه ٢١١
طوبىٰ لأمّةٍ أنتَ منها ٢١٥
عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ٢٢١
مِنَ النُّجباء الأذكياء ٢٢٣
إنَّكَ غلامٌ مُعَلّمٌ ٢٢٤
أوّلُ مَنْ جَهر بالقرآن ٢٢٦
يريدونَ وجْهَه ٢٢٨
في صفوفِ المهاجرين ٢٢٩
تبحّره في القرآن ٢٣١
المجاهدُ الغازي ٢٣٨
فقهُهُ وفتاواهُ ٢٤٤
فهمُهُ لكتاب الله ٢٤٨
في رحابِ البيتِ النَّبويّ ٢٥٦
من وعاةِ الحديث النَّبويّ ٢٦١
رقائقُ من حكمته ٢٦٦
مكانتُه العلميّةُ وثناء الأعيان عليه ٢٧٣
في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر ٢٧٨

الباب الثاني
من علماء الحديث والفقه والسيرة

أبو هريرة رضي الله عنه ٢٨٥
وذلكَ فضْلُ اللهِ ٢٨٧
صحبةٌ مباركةٌ معطاء ٢٨٨
المحبُّ الأديبُ ٢٩٤
المجتهدُ السَّعيدُ ٢٩٩
الحافظُ للحديث ببركةِ دعاءِ النّبيّ ﷺ ٣٠٤
حافظُ الصَّحابةِ الأوّل ٣٠٨
المعلّمُ للصَّحابةِ والتَّابعين ٣١٣
حظُّهُ من الفتوى والفقه ٣٢١
أبو هريرةَ والقرآن الكريم ٣٢٨
هل كان أبو هريرة من المجاهدين؟ ٣٤٢
أدبُه وتذوّقُه الشّعر ٣٤٧
الأديبُ الحكيمُ ٣٥٣
هل هذهِ الأخبارُ صحيحة؟ ٣٦١
لمحاتٌ من أخباره وشمائله ٣٧٢
وداعاً سيد الحفاظ ٣٧٦
أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه ٣٨١
طفولةٌ ميمونةٌ وأصلٌ زاكٍ ٣٨٢
أنسٌ وأمُّهُ رضي الله عنهما ٣٨٣
في استقبالِ النَّبيِّ ﷺ ٣٨٦
اللهمَّ أكثِرْ مالَهُ وولَدَهُ ٣٩٠
من ثمراتِ التَّربيةِ النّبوية لأنس ٤٠٢
كراماتٌ أنسيّةٌ ٤٠٦

في ساحاتِ الجهاد ٤٠٩
الفقيـهُ المفسِّـرُ ٤١٦
المحدِّث المُكْثِرُ ٤٢٣
قصّتُه مع الحجاجِ بن يوسُف ٤٢٩
أنسٌ وكلماتٌ نبويةٌ نافعةٌ ٤٣٣
لا إله إلا الله ٤٣٥
جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ٤٤١
الإمامُ الكبير المجتهدُ ٤٤٣
بيعتُهُ واستشهادُ أبيه ٤٤٥
بلاؤُهُ في المغازي ٤٥٠
أولاً: مشاركتُه في غزوة حمراء الأسد ٤٥١
ثانياً: مشاركتُه في غزوة ذات الرّقاع وأحداثٌ مثيرةٌ ٤٥٣
ثالثاً: مع النَّبيِّ ﷺ في غزوة الخندق ٤٦٣
رابعاً: جابرٌ في الحديبية وبيعةِ الرضوان ٤٧١
خامساً: جابرٌ في غزوة الفتح الأعظم ٤٧٣
سادساً: جابرٌ يشهدُ يومَ حُنين ٤٧٤
سابعاً: جابرٌ يشهد غزوة تبوك ٤٧٧
ثامناً: جابرٌ في سرية الخَبط مع أمينِ الأمّةِ ٤٧٨
جهادُهُ بعد المغازي النَّبويّة ٤٨٢
رواياتُهُ لأحاديثِ المُصطفى ﷺ ٤٨٣
صحبةٌ مباركةٌ ومكانةٌ كبرى ٤٨٧
جابرٌ وأقباسٌ نبويّةٌ هاديَةٌ ٤٩٠
جابرٌ المفسِّرُ الفقيهُ ٤٩٣
خاتمةٌ طيبةٌ ٤٩٩
أبو سعيد الخُدريّ رضي الله عنه ٥٠١
الفذُّ البارع ٥٠٣

تربيةٌ صافيةٌ ورعايةٌ متّزنةٌ ٥٠٦
المجاهدُ في ركابِ النّبوّة ٥٠٩
من الحفّاظِ المكثرين ٥٢٣
أبو سعيد بين الفقه والفتوى ٥٢٩
القرآنُ في حياته عِلْماً وعملاً وتفسيراً ٥٣٤
نفحاتٌ خُدريةٌ من السِّيرةِ النَّبويّةِ ٥٤٣
وصيّتُه لابنه ووفاتُه ٥٤٩

الباب الثّالثُ

من علماء القراءة والتفسير والجهاد

أُبيٌّ بن كعب رضي الله عنه ٥٥٣
الشَّرفُ الوافي ٥٥٥
طِيْبُ أصله ومنبته ٥٥٦
أسرةٌ كريمةٌ وذريّةٌ طيّبة ٥٦٠
سجايا نبيلةٌ وأخلاقٌ جليلةٌ ٥٦١
أقرؤُهم أُبيّ ٥٦٧
فهمُهُ معاني القرآن ومكرمةٌ خاصَّةٌ ٥٧٠
التّلميذُ النَّجيبُ الكاتبُ ٥٧٤
راوي الحديث المتقن ٥٧٩
المجاهدُ المخلصُ ٥٨١
زهرٌ منْ بساتين أقواله ٥٨٣
الحياةُ الحقيقيةُ ٥٨٥
أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ٥٨٧
الفقيهُ المقرئُ ٥٨٩
غداً نلقى الأحبَّةَ ٥٩٢
من فوائدِ الصُّحبة النّبويّة ٥٩٥
جمالُ صوته في القرآن ٦٠٣

حبُّه وإخلاصُه للقرآن ٦٠٩
مروياتُهُ الحديثيّةُ ٦١٧
مناقبُ وشمائلُ أشعرية ٦٢١
مواعظُه وفرائدُه ٦٢٥
كيف كانت عبادتُه؟ ٦٢٧
مغازيه وبطولاتُه وفتوحاتُه ٦٢٩
والعاقبةُ للمتقين ٦٣٢
معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ٦٣٦
العالمُ السَّيِّدُ الحسيبُ ٦٣٨
كاتبُ وحي ربِّ العالمين ٦٤٠
الكاتبُ الأمينُ وأحاديثُ الصَّادقِ الأمينِ ﷺ ٦٥٠
فهمُ كاتب القرآن للقرآن ٦٥٥
إنّه فقيهٌ صَحِبَ رسول الله ﷺ ٦٦٢
من أغاليط الكتّاب والمصنّفين ٦٦٥
كلماتُ علم وشهادات حقّ ٦٧٦
الأميرُ الملكُ والخليفةُ العالمُ ٦٨٣
في جوار أرحم الراحمين ٦٨٥
حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما ٦٨٩
الأمينُ الحبيبُ ٦٩١
مع رسولِ الله ﷺ ٦٩٣
أعمالُه في الغزو والفتوحات ٦٩٥
حذيفةُ في ظلال الخلفاء الراشدين ٧٠٤
أدبُهُ وسجاياه ٧١١
نجابتُهُ واجتهادُهُ ٧١٥
سعةُ عِلْم حذيفة بالفتن ٧١٩
معرفتُهُ وعلمهُ بالمنافقين ٧٢٣

نهمُهُ في الحديث والتَّفسير ٧٣٠
مواعظه التعليمية وزهدياته ٧٣٥
وفاتُه وأقوالُه عند الموت ٧٣٧
البراء بن عازب رضي الله عنهما ٧٤١
من العلماء الشَّباب ٧٤٣
البراءُ وأنفاسٌ من الشمائل المحمدية ٧٤٤
روايتُهُ وحفظهُ لأحاديث المصطفى ﷺ ٧٤٨
فهمُهُ لأحكام الكتاب ٧٥١
المجاهدُ الأديبُ ٧٥٥
البراءُ من العلماءِ الفقهاءِ ٧٦٣
مع الأبرارِ ٧٦٥

الباب الرابع
من علماء الزهد والحكمة والفتوى

معاذُ بنُ جبل رضي الله عنه ٧٦٩
من الشَّباب العلماء ٧٧١
معاذُ يسخرُ من أصنام قومه ٧٧٣
الدّاعيةُ الحصيفُ ٧٧٥
ملامحُ من شخصيّته ٧٧٩
المؤمنُ السّخيُّ ٧٨٣
الإمامُ الفقيهُ الصَّالحُ ٧٨٧
كيف تقضي يا معاذُ؟ ٧٨٩
وصايا تربويةٌ لمعاذ ٧٩٠
بصيرتُه وحصافتُه في القضاء ٧٩٤
شذراتٌ وأخبارٌ معاذية ٧٩٨
العالمُ الوليُّ ٨٠١
حصيلةُ معاذ الحديثيّة ٨٠٥

أقوالٌ معاذيةٌ ماتعةٌ ٨١٠
في منازل الصّالحين ٨١٤
أبو ذرّ الغِفاري رضي الله عنه ٨١٩
من نجباءِ الصّادقين ٨٢١
قصَّةُ إسلام أبي ذرّ ٨٢٢
ملازمتُهُ للنَّبيّ ﷺ ٨٢٧
أنتَ مع مَنْ أحببتَ ٨٣١
من وصايا النَّبيّ ﷺ وتوجيهاته لأبي ذرّ ٨٣٣
من رقائق مواعظه وأخباره ٨٣٨
الحافظُ الصّادقُ لأحاديث الصادق ﷺ ٨٤٣
المجاهدُ المقدامُ والفارسُ الشّجاعُ ٨٤٧
رحم الله أبا ذرّ ٨٥٢
أبو الدّرداء رضي الله عنه ٨٥٥
الحكيمُ القدوة ٨٥٧
قصّةُ إسلامه وعدٌ إلهي ٨٥٩
سيرةُ أبي الدّرداء الجهادية ٨٦١
القارىء اللبيبُ ٨٦٣
المفسّرُ الموسوعي ٨٦٧
المحدّثُ الفقيهُ الأديبُ ٨٧٠
قصصُهُ مع علماء الصّحابة ٨٧٥
الذّاكرُ الشَّاكر ٨٨٢
كلماتٌ دردائيّةٌ هادفةٌ ٨٨٥
من دعاءِ أبي الدّرداء ٨٩٣
من لطائفِ المواعظِ الدّردائية ٨٩٤
تزويج أبي الدّرداء ابنته ٨٩٥
طوبى لهم وحسنُ مآب ٨٩٧

تميمُ بنُ أوس الدّاريّ رضي الله عنه ٩٠٣
المجتهدُ القارئُ الحافظُ ٩٠٥
كيف أسلم تميم الدّاري ومتى؟ ٩٠٩
مسندُهُ وروايةُ النّبيّ ﷺ عنه ٩١٥
كيف عاش تميمٌ مع القرآن الكريم؟ ٩٢٣
مناقبُ تميميّة ومعارف دارية ٩٢٧
أين توفي تميم الدّاري؟ ٩٣٠
جابرُ بنُ سَمُرة رضي الله عنهما ٩٣١
الصّاحبُ ابنُ الصّاحب ٩٣٣
جابرٌ وروايةُ الحديث ٩٣٥
معرفتُهُ بالشمائل المحمدية ٩٣٩
اهتمامُه بالتّفسير والفقه ٩٤١
جابرٌ وكبراءُ الصحابة ٩٤٣
وفاةُ جابرِ بنِ سَمُرة ٩٤٦
فَضَالةُ بن عُبيد رضي الله عنه ٩٤٨
الحكيمُ التّقي ٩٥١
حرصُهُ على الجهاد والفتوحات ٩٥٣
روايتُهُ للحديث وتعليمه للناس ٩٥٨
حفظُهُ للقرآن وفهمُه مقاصده ٩٦١
من رقائقه التَّعليميّة ٩٦٥
القاضي النَّبيه ٩٦٦
رحلةُ الخلودِ ٩٧٠
الخاتمةُ ٩٧٣
فهرس المصادر والمراجع ٩٨١
فهرس الموضوعات ١٠١٥